السنة الثالثة

العدد ٣٦

نوفمبر ١٩٦٠

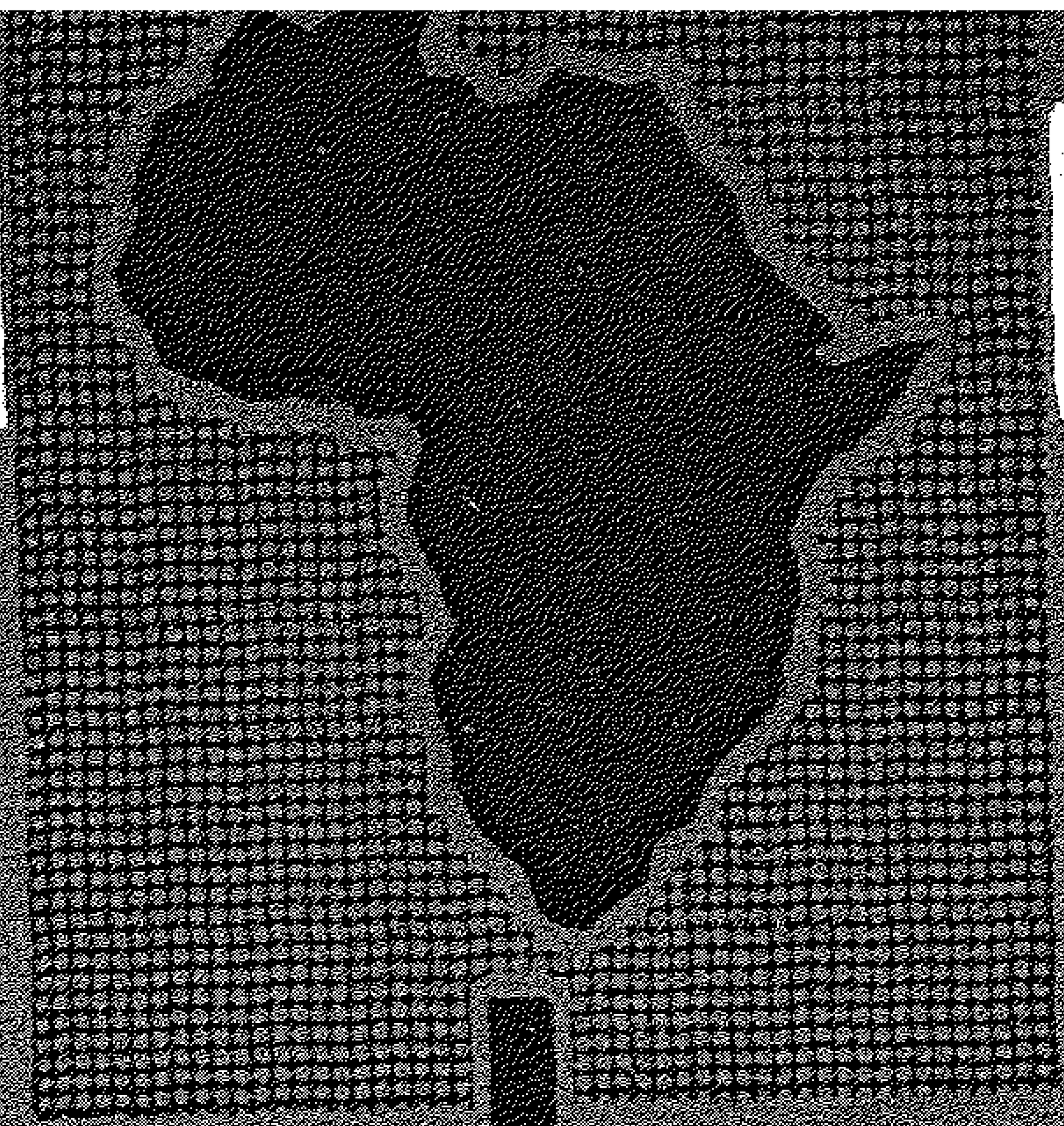

نهضة إفريقية

في هذا العدد

- في مدينة تيبوتيب
- نيجيريا المستقلة
- الأقليات في نيجيريا
- الأدب الإفريقي
- نقد الكتب

٩٦ صفحة

الثمن ٣ قروش

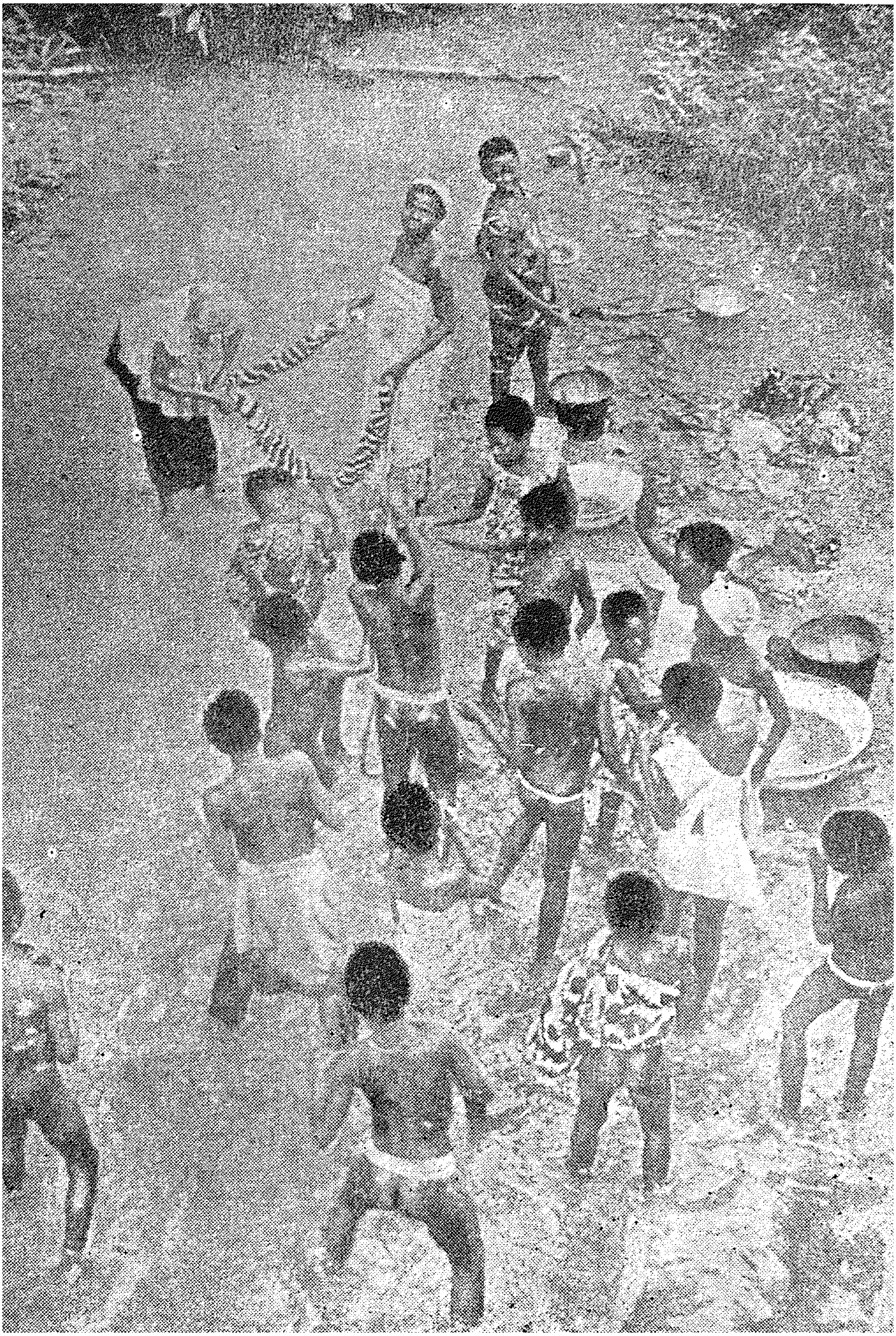

« الأطفال والأمطار »

نهضة إفريقية

تهدف هذه المجلة إلى :

١ – تنمية الوعى القومى الافريقى .

٢ – التعارف بين الافريقيين فى مختلف بيئاتهم وحياتهم الاقليمية .

٣ – نشر البحوث الخاصة والعامة التى تهم كل إفريقى فى مجاله الحيوى .

وللمشتركين الحق فى :

١ – الحصول على المجلة بانتظام وكذلك المطبوعات التى تصدرها المجلة بين وقت وآخر بثمن مخفض .

٢ – الافادة من خدمة لجنة الاتصال بالمجلة بقدر الامكان .

● ترحب « مجلة نهضة افريقية » بالمقترحات ، والآراء ، والنقد ، وتعمل على تحقيقها .

● ليس من الضرورى أن تكون المقالات التى تنشر فى هذه المجلة معبرة عن رأيها .

ترسل المراسلات باسم :

السيد رئيس تحرير مجلة نهضة إفريقية

٥ شارع أحمد حشمت – الزمالك بالقاهرة

تليفون المجلة ٨٠٧٦٥٨

الاقليم المصرى

بالجمهورية العربية المتحدة

ترسل قيمة الاشتراك فى المجلة إلى :

دار أخبار اليوم للتوزيع

٧ شارع الصحافة بالقاهرة

الاشتراك سنوياً :

لمصر والسودان ٣٠ قرشاً

ثمن العدد ٣ قروش

مطبعة كوستاتسوماس وشركاه

٥ شارع وقف الخربوطلى - الظاهر تليفون ٩٥١١٨

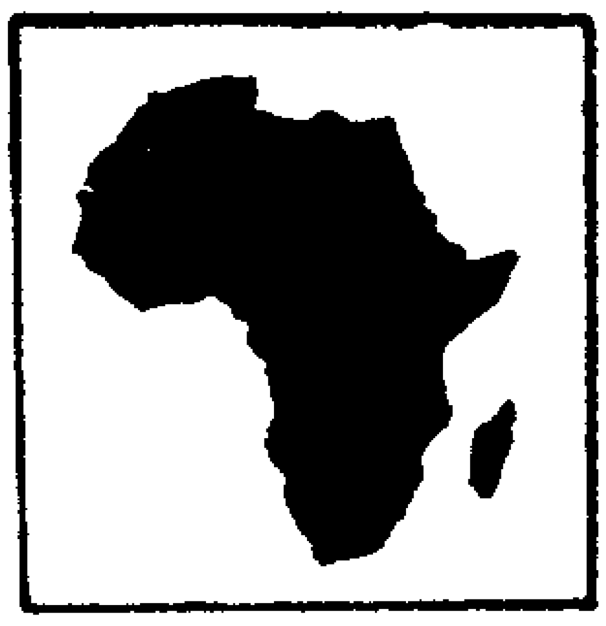

العدد ٣٦ نوفمبر ١٩٦٠

نهضة إفريقية

مجلة شهرية للثقافة الأفريقية

رئيس التحرير

محمد عبد العزيز إسحق

فكرة ..

حينما يستقر هذا العدد بين أيدى القراء تكون هذه المجلة قد أتمت ثلاث سنين من عمرها الذى نرجو أن يكون مديداً ومثمراً ، وتكون قد قطعت على الطريق كذلك عدة خطوات أكدت فيها ثقافة هذه القارة ، وقدمتها فى صورة علمية بعد أن كان القارئ العربى قد « فقـــدها » من سنين عديدة ، فقد نجح الاستعمار فى أن يضعها بين فكيه ، ثم يستخلصها لنفسه مرة أخرى من رؤوس المثقفين فى هذه القارة !

ومن هنا كانت مسئولية هذه المجلة فى « استعادة » هذه القارة لكل القراء ، فكانت عملية « المسح » المرتبة لكل المشكلات ، وعملية التعريف الدقيقة بكل الدول ، ثم عملية الردود العلمية على كل الافتراءات التى أطلقها الكتاب الأوروبيون كالوحوش تنهش فى قلب القارة ، وتسبح فى دمائها !

. . . ثم أخيراً تقديم القارة فى « صورة متكاملة » بحيث تستقر فى ذهن القارئ العربى ، وقلبه .

إن هذه المجلة وهى تتم من عمرها « ثلاث سنين » تحيى كل الذين وقفوا إلى جانبها ، والذين أسهموا فى تحريرها ، والذين يتحمسون لهذا اللون من الثقافة .

« عبده بدوى »

محتويات العـدد

	صفحة
فى مدينة « تيبوتيب »	
الأستاذ محمد عبد العزيز أسحق	٣
الصحراء الكبرى	٩
ضوء على غانة	
للأستاذ كمال نشأت	١٤
الجمهورية العربية المتحدة	٢٢
نقد الكتب :	
للأستاذ عبده بدوى	٢٥
الواقعية والتجديد فى الأدب الإفريقى	
ترجمة الأستاذ سامى خشبة	٣٣
جولة مصورة حول إفريقية	٤٥
من وحى إفريقية	
للشاعر دى أنانج	٤٧
ضوء على كتاب :	
الأستاذ عبد الواحد إبراهيم	٥٦
من القصص السودانى	
للأستاذ عباس خضر	٦٠
كلمات وصور	٦٤
الهنود فى جنوب إفريقية :	
للأستاذ طلعت أحمد ابراهيم	٧٢
من اقتصاديات غانة :	
للأستاذة : سعادات سالم	٥٧
نيجيريا المستقلة :	
للأستاذ عزت محمد ابراهيم	٧٧
كتاب الشهر	
للعميد ا . ح محمد عبد الفتاح إبراهيم	٨٠

مدينة "تيبوتيب"

بقلم: الأستاذ محمد عبد العزيز اسحق

« المقاطعة الشرقية » من الكونغو مساحة من الأرض تستطيع أن تأوى عشر دول (متوسطة) مثل بلجيكا ، ونحو عشرين دولة (صغيرة) مثل الدانمرك وهى تمتد امتداداً رأسياً بحـــذاء أوغنـــدا وروانداو تنجانيقا وعاصمتها مدينة ستانلى فيل .

وقد كنا فى هذه المدينة منذ بضعة أسابيع . كان الزعيم لومومبا قد دعا ممثلى الدول الإفريقية المستقلة فى مؤتمر ليوبولد فيل لزيارة « الشرق » فى بلاده ، وللشرق هناك طابعه الخاص ولغته الوطنية المتميزة وتاريخه العريق .

فهناك التقت شعوب وأجنـــاس أهمها الشعب العربى مع « شعوب « البانتو » وهناك نشأت وترعرت لغة جديدة — تولدت من العربية — هى اللغة السواحلية ، وهناك شهد التاريخ صفحات من الصراع بين المستعمر البلجيكى وال « مولدين » الإفريقيين . وزعمائهم من العرب النازحين من زنجبار وإمارات الخليج .

ولكى تصل إلى « من « ليوبولد فيل » تستطيع أن تسلك طرقاً شتى : فهنالك سيارات الشحن أو « اللوارى » التى تقدر على اجتياز الأرض الوعرة المشجرة ، وتقطع المسافة (وهى ١٤٠٠ كيلو متر) فى ثلاثة أيام ، وهناك البواخر النهرية التى يتراخى بها الأمر فيصل الزمن إلى عشرة أيام ، وهناك وسيلة عصر السرعة وهى الطائرة التى تقتطع من وقتك أربع ساعات ونصف ساعة .

وكانت هذه هى الوسيلة التى تناسب ظروفنا فاتخذناها ووصلنا إلى ستانلى فيل فى جو عاصف يتجاوب فيه الرعد والبرق والأمطار الغزيرة ، ووجدنا أمامنا مدينة « عصرية » بمعنى الكلمة : مطار أنيق مجهز ، تواجهه « استراحة » مصقولة الجنبات وتمتد منه إلى المدينة الطرق المرصوفة اللامعة وعلى جوانب الطرق تتحاذى الـ « فيلات » الأنيقة الملونة المطوقة بأسوار من العشب والأزاهير .

أ-أ « المركز العصبى » للمدينة ، لتجارى وإدارات الحكومة

فهو نموذج – أيضاً – للحياة الرخية المترفة : مخازن تتلوها مخازن تجارية مفعمة بالبضائع الأوروبية التي تلمع في الواجهات الزجاجية والتي تتراوح بين « قلم الكتابة » وأحدث سيارات الركوب والنزهة ، و« زوارق » اللهو والمتعة ، أما إدارات الحكومة ، فهي مبان حديثة شامخة تصعد إلى مداخلها بدرجات الرخام المصقول .

وبينما كنا نقلب النظر – من نافذة السيارة التي حملتنا من المطار – بين هذه المشاهد ، توقفنا أمام فندق « اكواتور » وأثار الاسم انتباهنا ، فإن معناه بالعربية (خط الاستواء) وقفزت بنا الذاكرة إلى كتب الجغرافيا التي أكدت لنا – في مطلع الصبا – أن خط الاستواء يقسم الكونغو إلى قسمين وأنه يمر هناك ببلدة « ستانلي فيل » ، وأعادنا من « سرحان » الذاكرة صوت أحد رفقاء الرحلة وهو يقول : لقد بني هذا الفندق – تماماً – على خط الاستواء ، وكم كان ممتعاً ، أن نقضي ليلتين – بعد هذا – مضطجعين على ذلك « الخط الوهمي » .

وما كدنا نضع أمتعتنا ، ونضع عن كاهلنا بعض وعثاء السفر حتى دعينا إلى مقر رياسة حكومة « المقاطعة الشرقية » ، وهي في الواقع «حكومة» بمعنى الكلمة ولا تربطها بالحكومة المركزية في ليوبولد فيل إلا الروابط « الفدرالية » العامة من شئون مالية وخارجية ودفاعية ، وفي ذلك «المقر» كان يسكن – منذ أشهر قليلة – حاكم المقاطعة البلجيكي ، وهذا يكفي لكي نتصور مدى بذخ « المقر » الذي بني على ربوة تطل على نهر الكونغو وامتدت منه الشرفات المزهرة المتكئة على أعمدة الرخام المصقولة ، وتخللته الأبهاء الوثيرة الفراش الوديعة الإضاءة التي تسير فيها فتحوطك الأطياف والأحلام

وهناك وجدنا « لومومبا » مع السيد « فينانت » « رئيس الحكومة » ، وهو في الوقت نفسه قائد جيش المقاطعة ، وتناثرنا في الحديقة وحول « حوض السباحة » المزين بالأصداف الملونة ، وتحادثنا حديثاً رخياً ، وكان الوقت مساء ، وتوافـدت ذكريات الجهاد في سبيل تحرير الكونغو ، وانطلق « لومومبا » يحدثنا عن أطراف من تلك الذكريات ومعه زملاؤه في الكفاح يكملون جوانب الصور الحية المتدفقة .

قال « لومومبا » : عند ما عدت من مؤتمر المائدة المستديرة في بروكسل في أوائل هذا العام كنت قد عزمت على أن أفتح صفحة جديدة مع البلجيك الذين أذلونا وامتصوا دماءنا وسامونا العذاب أكثر من ثمانين عاماً ، وأخذنا نتأهب للانتخابات البرلمانية ، التي أجراها وأشرف عليها الحكام البلجيك ، وإذا بالمستعمر كما هو ، حاقد مغرض عازم على تزييف الانتخابات واصطناع

النواب ليبقى كما كان ويظل الكونغو راكعاً تحت أقدام السادة القدامى .

« لقد وضع الإداريون البلجيكيون أمامى من العقبـات ونشروا من الإشاعات ما أرادوا به تحطيمي وهزيمتي فى الانتخابات ، وكانت فى يدهم السلطة الكاملة . فاعتقلوا أنصارى بدعوى التهم الباطلة ، وأحياناً من غير تهمة على الإطلاق ، وتذرعوا بحجة (المحافظة على الأمن) لكي يقيدوا تحركاتى بين المقاطعات ، وأذكر أنى اتجهت فى قافلة من سيارات أنصارى إلى كاتانجا ، وعند ما وصلنا مدخل المقاطعة ، أوقفونا عند (المزلقان) ، ثم فتحوا البوابة وأدخلوا سيارتى وحدها ومنعوا الباقين من متابعتى ، وواصلت الرحلة — رغم ذلك — داعياً لانتخاب حزبى (الحركة الوطنية الكونغولية) ولكن البلجيك أذاعوا فى أنحاء المقاطعة أنى أطوف وحدى لأن أنصارى قـد انصرفوا عنى . . . !

« أما الأموال التى أنفقتها شركات الماس فى كاساى واتحاد التعدين فى كاتانجا وغيرهما من الهيئات الأجنبية الجبارة فهذا شيء لا يمكن حصره ، وكانت الأموال تنفق لشراء (خصوم) للحركة الوطنية الكونغولية ولإصدار صحف ومطبوعات تحذر الكونغوليين من انتخابى بحجة أنى (شيوعى) . .

« وفى اللحظة الحاسمة تدخلت الكنيسة الكاثوليكية وتحولت منابرها فى جميع أنحاء الكونغو إلى أبواق للدعاية ضدى ، وقبل الانتخابات بيوم واحد أصدرت الكنيسة ضدى (قرار الحرمان) واعتبرتنى (مارقاً) و (ملحداً) وأعلنت طردى من الديانة الكاثوليكية . . .

وتبسم « لومومبا » ابتسامة مرة وهو يقول :

هذه هى (رسالة المحبة والتسامح) التى جاءت بها الكنيسة الكاثوليكية إلى بلادى . . .

واستطرد يقول :

« ومع ذلك فقد فاز حزب الحركة الوطنية الكونغولية بأكبر عدد بين الأحزاب من مقاعد النواب ، ثم من مجلس الشيوخ ، وعند ما تكونت حكومات المقاطعات أصبحت تؤيدنى حكومات خمس مقاطعات : أى حكومات المقاطعات كلها — ما عدا كاتانجا ...

ولقد يظن الناس لأول وهلة أن (حزب تشومبى) قد فاز بالأغلبية فى كاتانجا ، والواقع غير ذلك ، فإن جمهرة الناخبين فى كاتانجا قد انتخبت تسعة نواب يؤيدوننى (من البالوباكات) وانتخبت ستة (تحت الضغط الهائل) يؤيدون تشومبى ولكن وسائل الإدارة البلجيكية الملتوية وأموال اتحاد التعدين أعانت على تكوين حكومة إقليمية لا تؤيدنى أغلبيتها ، فى كاتانجا ، ووضعت على رأسها تشـومبى الذى وضـع مستشاريه البلجيكيين فى موضع الصدارة كما كانوا أيام الاحتلال . . .

«وأخيراً ، جاء دور الحكام البلجيك لتسليم السلطة إلى الوطنيين الكونغوليين ، وانعقد البرلمان ورشح الحاكم البلجيكى «كازافوبو» ثلاث مرات لرياسة الحكومة فكان البرلمان يخذله فى كل مرة ، ورأيت أنا — جمعاً للصفوف — أن أضغط على أنصارى ليرضوا بانتخاب «كازافوبو» رئيساً للدولة ، وتوليت أنا رياسة الحكومة ، واجتمع البرلمان اجتماعه التاريخى المشهود وحضر الملك بودوان وكنت أظنه سيخطب خطبة (تقليدية) يعلن فيها (انتقال السلطة) ولكنه ألقى خطاباً متعالياً فيه نغمة الغطرسة . خطاباً ينطوى على الاحتقار والازدراء لشعبنا المكافح فطويت الخطاب (التقليدى) الذى كنت أعددته للرد على الملك وكتبت للفور خطابى الذى أثار الضجة فى ذلك الحين ، والذى سردت فيه الكفاح الدامى لهذا الشعب والتاريخ المخزى للمستعمر البلجيكى والذى قلت فيه للملك : «إن جراحنا ما تزال طرية من آثار الاستعمار» . . .

وكان الليل قد تكاثف حول «ستانلى فيل» وبقيت هى ساهرة وضاءة فانتشرنا فى أرجائها وتجمع أكثرنا فى «كازينو حديقة الحيوان» وهو متنزه بديع يقع على جانبى النهر ويصل بين جزئيه قنطرة تنطلق منها الأضواء الملونة التى تتكسر على (شلالات صناعية) وهى — طبعاً — من آثار اخواننا البلجيكيين ، وقد كان هذا المتنزه وغيره محرماً على أبناء البلاد فأصبح يموج بهم وهم يمرحون ويرقصون على أنغام الموسيقى العالية .

وفى اليوم التالى صحبنا «لومومبا» فى جولة بالمدينة التى تهيأت لاستقباله ، وشهدنا الشوارع غاصة بالجماهير الهاتفة الصاخبة . وفى شارع منها توقفت سيارة الزعيم الكونغولى أمام جمهرة من الناس ونزل هو فصافح الشيوخ الذين تقدموا إليه وألبسوه عباءة (عربية) مزينة بخيوط القصب ، وعرفنا أننا حينئذ فى (الحى العربى) فى ستانلى فيل ، كما عرفنا بعد ذلك أن هؤلاء القوم يمثلون هيئة كبيرة تسمى (رابطة التحرير العربية الإسلامية) ، وقد ألقى كبيرهم خطبة — باللغة السواحلية — أشاد فيها بجهاد لومومبا وطالب بتحقيق وعوده للعرب الذين آزروه فى الانتخابات ووقفوا — فى صفه — فى وقت المحنة . ورد عليهم «لومومبا» — باللغة نفسها — مبتهجاً بلقائهم معترفاً بجهودهم فى نصرته واعداً إياهم بتحقيق ما يطلبون . . .

وكنا قد وصلنا إلى شط النهر حينما وجدنا باخرة نهرية تتسع للمئات من الركاب ومعها (مقطورة) تتسع للعديد من السيارات فانتقلنا من البر إلى البحر ووجدنا أمامنا على الضفة الأخرى أحياء قديمة فقيرة المظهر مكدسة بالسكان الذين احتشدوا هاتفين مهللين

لاستقبال الزعيم وضيوفه وأشـــار « لومومبا » إلى المدينة (العصرية) التى تركناها وراءنا وقال : « تلك ستانلى فيل التى بناها البلجيك لأنفسهم والتى يفخرون بإنشائها ، مع أنهم هم وحدهم الذين يستمتعون بالحياة فى دورهـــا المترفة ، وإذا كان فيها بعض المواطنين فهم على هامش الحياة فيها ، أما ستانلى فيل الوطنية فهذه هى الأكواخ التى أمامكم على الجانب الآخر وأهلها هم هؤلاء الكادحون الطيبون الفخورون الآن ، باستقلال الوطن . . »

وكان يقف بالقرب منى سيد هادئ الطبع منبسط الملامح يرتدى عباءة مقصبة ، عرفت فيما بعد أن اسمه « جرينفل » وأنه (وزير دولة) فى حكومة لومومبا وأنه قبل ذلك من أماثل أهل ستانلى فيل . .

وتناول السيد « جرينفل » يدى وسرنا إلى زاوية من الباخرة النهرية ، وقال لى :

« هل تعرف تيبو تيب . . ؟ » .

فقلت له :

« نعم ، واسمه عندنا — فى كتب العرب — محمد بن حميد المرجبى » . .

فقال :

« إن تيبو تيب العربى هو مؤسس هذه المدينة وليس هو (المستر ستانلى) الذى جاء بعده وجاء معه بالوبـــاء البلجيكى . . . »

واستطرد السيد جرينفل يقول :

« إن كبار السن هنا ما زالوا يذكرون أيام العرب فى هذه البلاد ، وما زال خيالهم عامراً بقصص البطولة والكرم ، والنجدة ، ورعاية الجار ، وحماية الضعيف . . »

ثم تبسم ضاحكاً وهو يقول :

« لقد أذاع عنهم المستعمرون أنهم جاءوا هنا فقط لتجارة الرقيق . والواقع أن البشر جميعاً — فى ذلك الزمن — كانوا يتاجرون بالرقيق : الإنجليز ، والفرنسيون ، والبرتغاليون . وكان زعماء القبائل الإفريقية أنفسهم يتاجرون بالرقيق . . . فليس من العدل أن تركز الدعاية الاستعمارية كل هجومها على العرب وتنسى نفسها وما فعلته فى هذا المجال ، وما فائدتنا إذا كان (الغرب) قد ألغى الرق (بمعناه المعروف فى العصور الماضية) ثم فرض علينا العبودية (الجماعية) بأبشع مظاهرها واحتفظ بنا ونحن أسوأ من حال الرقيق القدامى . . .

« إن الذى نذكره نحن عن العرب أنهم جاءوا إلى بلادنا فعاشوا معنا واختلطوا بنا وتزاوجوا منا ولم نعرف فى أيامهم (أحياء عربية فاخرة) و (أحياء وطنية حقيرة) . .

« لقـــد كانوا يكرمون الجـــار وينصرون المظلوم ، وأهم من ذلك ، أنهم اعتبروا هذه البلاد وطناً لهم يقاسمونها سراءها وضراءها وأنفقوا أموالهم فيها بعد أن اختلطت دماؤهم

بدمائنا ، ولم يستغلونا وينقلوا خيراتنا إلى ما وراء البحار . .

أما المعانى الإنسانية فقد خلفوا لنا منها الشيء الكثير ، إن اللغة التى نتكلمها متولدة من لغتهم ،وحضارتنا من حضارتهم ،وتركوا لنا أيضاً عقيدتهم السماوية التى تسوّى بين الأجناس ،ولا تعرف التفرقة العنصرية . . »

* * *

وكنا قد وصلنا إلى الضفة الجنوبية من نهر الكونغو فغطت على حديثنا دقات الطبول وصيحات الحناجر التى تصاعدت من آلاف الرجال والنساء والصبية وما كدنا نطأ البر حتى أحاط بنا السيل البشرى وقد تجمع هديره على كلمة واحدة :

« أوهورو . . . أوهورو . . »

ومعناها : الحرية (باللغة السواحيلية) .

وأخذنا نطوف بالبلدة — على غـ[illegible] هدى — إلى أن هدأ الموج البشرى وإذا الناس يتوافدون لتحيتنا بالتحية ذاتها التى يتبادلها العرب : « سلامو عليكم » ونجيب : « عليكم السلام » . . .

لقد كانت هذه الزيارة باباً لسلسلة من المفاجآت التى تكشفت لنا فى المقاطعة الشرقية من الكونغو ، فقد كنا نعلم — من الكتب — عن أثر مواطنينا القدامى فى تلك الأنحاء ، ولكننا لم نتصور قط أن نرى مدينة يتبادل أهلها التحية العربية التاريخية الخالدة « السلام عليكم » ولم نكن نتوقع أن نجد فى تلك المدينة أسرة من سلالة رجل عربى كان يشغل وظيفة (إمام) لإحدى فرق (الجيش المصرى) فى جنوب السودان وأن أفراد هذه الأسرة قد اتخذوا هذه الوظيفة حتّى اليوم فلا يشتغل أحدهم إلا (إماماً) . . .

وعند ما ذهبنا إلى المطار [illegible]ى نعود إلى « ليوبولد فيل » كان فى وداعنا السيد « جرينفل » فحدثته عن عجبى ودهشتى فتبسم الرجل ابتسامة وديعة عميقة وقال :

« إن علاقتنا بكم أعمق من ذلك ، فقد وجدنا فى أنحاء كثيرة من مقاطعتنا مجموعات من (أوراق البردى) عليها كتابات [illegible] وقد جمع المبشرون — [illegible]سف — تلك الأوراق ، وأحرقوها ، ولم يتركوا منها أثراً ، وعند ما سألناهم فى ذلك ، قالوا : إنها أوراق لا قيمة لها ، وإنها من مظاهر السحر والشعوذة . . .

الصحراء الكبرى

كما حدث فى مختلف بقاع الأرض ، إذ حدا التكوين الجيولوجى إلى الاعتقاد بوجود أحواض رواسب قديمة فى باطن الأرض ، كذلك بدأ البحث فى إفريقية عن المستودعات البترولية فى السنوات الأولى من هذا القرن ، وكانت النتائج مرضية للغاية ، وبخاصة منطقة الجزائر . بيد أن سهولة استغلال ينابيع البترول الكبيرة المكتشفة فى أمريكا وشرقى أوروبا ، كانت من العوامل التى صرفت الأنظار عن المضى فى أبحاث لم تكن نتائجها مضمونة بعد ، ولم يكن من الموثوق أن نعرف ما إذا كان من الممكن تغطية النفقات الباهظة والتكاليف الكبيرة التى خصصت لهذه المشروعات ، فكانت النتيجة أن أهمل المشروع فى ذلك الوقت .

وعقب الحرب العالمية الثانية ، دفعت حاجة العالم الماسة إلى البترول أصحاب رؤوس الأموال والخبراء إلى استئناف البحث فى إفريقية الشمالية . على أنه لم يتم الحصول حتى الآن على نتائج إيجابية فى مصر ؛ وفى مراكش كانت النتائج ضئيلة للغاية ؛ وأما فى الجزائر وتونس فقد خاب ظن أولئك الذين كانوا يأملون فى العثور على موارد بترولية ذات شأن .

ولما كانت المستودعات الكبيرة للبترول فى الشرق الأوسط فى أقاليم تحدها صحارى تشبه تربتها إلى حد كبير تربة الصحراء الكبرى ، دفعت هذه الحقيقة بعض الباحثين إلى الاعتقاد بوجود بترول فى هذه المنطقة الصحراوية الشاسعة الأرجاء .

وهذه المنطقة بذاتها لم يحدث فى باطنها تغيير ظاهر خلال العهود الجيولوجية خلافاً لما حدث فى المناطق الأخرى فى شمال إفريقية مثل مراكش ، ولقد كان بديهياً أن يتجه التفكير إلى أن مستودعات البترول التى تم تكوينها هناك ، لا يمكن أن تكون قد تلاشت بسهولة أو تجزأت واندثرت .

وفى سنة ١٩٤٧ بدأت البحوث على نطاق واسع فى تلك الصحراء الكبرى التى ظل اسمها آلافاً من السنين مرادفاً للفناء والموت ، وفى أقل من سنة تمت أولى العمليات وهى

مسح المنطقة من الجو وتصويرها ، وطبعت خريطـة خاصة بمظاهرهـا الجيولوجية التى كانت الثنيات المحدبة التى تظهر طبقاتها العليا بارزة فوق سطح الأرض واضحة كل الوضوح .

وقبل إتمام هذه العملية الطبوغرافية كان معروفاً أن طبقات الأرض العليا فى المناطق الشمالية للصحراء سميكة ، وأن هذا السمك يأخذ فى النقصان كلما اتجهنا نحو الأقاليم الجنوبية حيث عملت الطبيعة على تآكل الطبقات العليا ، لدرجة أن طبقات الأرض العليا الواقعة أقصى جنوب الصحراء عارية تماماً . أما سمك الطبقات فيعتبر فى نظر الخبراء أحد العوامل الهامة اللازمة لتقدير المستودعات التى فى باطن الأرض ؛ لأنه كلما كانت الطبقات سميكة ، كلما بقى البترول حبيساً فى باطن الأرض ولم يتسرب .

ويبدو واضحاً كذلك ، أنه كلما زاد سمك طبقات الأرض كلما زادت التكاليف ، وطالت المدة اللازمة لأعمال التنقيب ، وتضاعفت الصعوبات الفنية التى يصادفها الإخصائيون .

وفى سنة ١٩٤٩ نالت بعض شركات البترول الكبيرة حق التنقيب فى مناطق واسعة بالصحراء ، وبدأت على الفور عمليات اختبار التربة التى استمرت عدة سنين ، وفى سنة ١٩٥٤ تم حفر بئر اختبارى فى الجهات الجنوبية للصحراء عمقها ٢٦٠٠ متر كشفت عن طبقات تحتوى على الغاز مع وجود أثر للبترول .

وفى عام ١٩٥٥ — فى منطقة امتياز أخرى خاصة بالشركة نفسها ، ولكن على مسافة ألف كيلو تقريباً شرقى المنطقة التى سلف ذكرها ، فى بقعة تسمى ادجيليه Edjélé على مقربة من الحدود الليبية — عمل ثقب فوق إحدى الثنيات المحدبة البارزة أيضاً فى الصور الملتقطة من الجو ، وبعد أن اخترق المثقاب طبقة سميكة من الطفل والحجر الرملى ، صادف على عمق يزيد قليلا عن الـ ٤٠٠ متر عدة طبقات من الطفل المحتوى على زيت خفيف من النوع الممتاز . وكان المهيمنون على أعمال الحفر يستعينون به فى إدارة موتورات سيارات النقل بعد ترشيحه خلال قطعة من القماش ، وفى استطاعة هذه البئر الآن توريد ١٠٠ متر مكعب من البترول فى اليوم الواحد .

ومن أجل تحديد اتساع المستودع ، تم حفر ثلاث آبار أخرى على مسافات متفاوتة من مكان البئر الأولى ؛ ولما كانت النتائج إيجابية ، فقد أيقن الخبراء أن هذا المستودع ممتد على رقعة واسعة . وفى أدجيليه Edjélé نجد أن الطبقة الصخرية التى تختزن البترول على عمق يسير من سطح الأرض ؛ وأن مسامها وقابليتها للنفوذ من خلالها تجعلها تبدو محتوية على كميات كبيرة من البترول يمكن أن ينساب بسهولة ، ويسير من

خلال الصخور ويتجمع فى قاع الآبار ما دامت عملية الاستخراج مستمرة ، ويستنتج من ذلك أن استغلال ذلك المستودع من السهولة بمكان من الناحية الفنية والاقتصادية .

وتيسيراً للبحث عن الثنيات المحدبة وما تضمه من مستودعات محتملة ، قد أجريت بجانب المساحة الجوية التى عملت فى المنطقة كما أجريت أساسات وبحوث على نطاق واسع استعملت فيها أجهزة « السسموجراف » . وتم تفجير عدة شحنات من الديناميت فى جميع أنحاء الصحراء لتجميع موجات الصدمات حتى يمكن عمل اختبارات جيوفيزيقية والكشف عن طبيعة باطن الأرض هناك .

ومن اليسير علينا أن نتخيل مدى الصعوبات التى يصادفها هذا العمل فى إقليم وعر مثل الصحراء الكبرى : وقد بلغت نفقات البحث والتنقيب حتى اليوم قرابة ١٥ مليار ليرة حتى الآن .

ونتيجة للأبحاث الجيوفيزيقية والسسموجرافية تم اكتشاف إحدى الثنيات المحدبة على مسافة تقل عن ١٠٠ كيلو متر غرب أدجيليه ، لم تكن ظاهرة على سطح الأرض ، حيث كشفت عمليات التنقيب عن وجود نوع من البترول يشبه إلى حد كبير البترول المستخرج من بئر أدجيليه ويقع هذا المكان على خط طول تونس : أى على مسافة ١٢٠٠ كيلو جنوب الحدود المشتركة مع ولاية فزان الليبية .

ويبدو مما يتكهن به بعض الباحثين ويقوم على تقديرات نظرية وعمليات حسابية أن هذه المنطقة ستكون خلال زمن قريب قادرة على إنتاج ما يقرب من أربعة ملايين طن من البترول سنوياً . وأن لهذا الاكتشاف أهمية خاصة لأنه يثبت بصفة قاطعة ما فى باطن الإقليم الجنوبى الشرقى للصحراء الكبرى من ثروة بترولية عظيمة الشأن وقد أدت البحوث فى الشهور الأخيرة من العام الماضى ، إلى اكتشاف منطقة بترولية واسعة أخرى فى الجزء الشرقى من وسط الصحراء الكبرى على مقربة من أوارجلا Ouargla . بيد أن أعمال الحفر صادفت فى هذا المكان على عمق ٣٥٠٠ متر تقريباً سلسلة من الطبقات المشبعة بالبترول يبلغ سمكها حوالى ١٣٠ متراً . وإذا ما علمنا أن المستودعات التى اكتشفت حتى الآن لم يتجاوز سمكها الستين متراً يتضح لنا مدى الإمكانيات التى يمكن أن يقدمها هذا المستودع الجديد . على أن تكوين الطبقة المحتوية على البترول وما يتخللها من صخور مسامية يجعلنا نتروى كثيراً فى تقديراتنا وتخرصاتنا .

وبعد عمل التقديرات الحسابية ظهر أن المستودع يمتد على مستطيل طوله ٢٥ كيلو متراً وعرضه ٢٠ كيلو

متراً ومتوسط سمكه حوالى ١٠٠ متر ، بحيث يبلغ حجم الطبقات المشبعة بالبترول ٥٠ ملياراً من الأمتار المكعبة . ولو أدخلنا فى حسابنا ما لهذه الطبقات من مسامية يسيرة ، وقدرنا نسبة المستخرج من البترول الخام بعشرة فى المائة بدلا من ٢٠ أو ٣٠٪ كما هى الحال فى الطبقات ذات المسام العظيمة لخرجنا بنتيجة واضحة ، وهى أن هذا المستودع قد يحتوى على حوالى ٥ مليارات من الأطنان من الزيت الخام .

ولو حدث أن أدخلت بعض التعديلات على التقديرات الأولية لكانت النتيجة انخفاض الأرقام السابق ذكرها ، على أن هذا لا يمنع من أن أن يكون المستودع ذا أهمية كبرى ، إذ أن احتياطى العالم الإجمالى من البترول لا يزيد على ٢٤ مليار طن تقريباً . وإذا أكد الواقع التقديرات النظرية التى تمت فى هذا الشأن ، فإن هذا المستودع سيعتبر ولا شك أهم مستودع فى العالم . وتقع هذه المستودعات فى مناطق تبعد مسافة تتراوح بين ١٠٠٠ و ١٢٠٠ كيلومتر جنوب مدينة الجزائر ووهران وقد دلت البحوث الجيوفيزيقية وأعمال الحفر والتنقيب التى أجريت أيضاً شمال الصحراء الكبرى ، على وجود مستودعات أخرى .

ومع كل هذا ، فإن اعتبار الصحراء الكبرى إقليما غنياً بالبترول شىء سابق لأوانه ، لأنه إذا أمكننا القول أن الاستكشافات الجوية والبحوث السيزموفية قد تم إنجازها ، فلا يفوتنا أن نقول إنه لا تزال هناك أعمال الحفر والتنقيب فى كثير من النقط التى أثبتت العمليات التمهيدية احتواءها على تكوينات أرضية على هيئة ثنيات محدبة من الممكن أن يكون البترول حبيساً فيها . وقد تأتى لنا تلك المرحلة بمفاجآت متتابعة ، على أن هذا لن يكون قبل مضى عدة سنوات من العمل الشاق ورصد الاعتمادات الضخمة لتغطية نفقات المشروع الباهظة .

على أنه لم يكتشف فى الصحراء الكبرى البترول فحسب ؛ ففى تندو Tindout تم تحديد مكان منجم للحديد سوف يستخرج منه عدة مليارات من الأطنان من هذا المعدن العظيم الفائدة .

وفى هوجار Hoggar تم العثور على مناجم للقصدير والأورانيوم و Tungsteno . وتتوافر كذلك فى تلك المنطقة المياه الجوفية التى لو رفعت إلى سطح الأرض لحولت الصحراء الجرداء إلى جنة فيحاء ، لا تقل مساحتها عن مساحة أوروبا بأكملها .

وقد أثبتت الدراسات التى عملت فى كثير من الآثار المكتشفة أخيراً والتى عثرت عليها بعثة من الجيولوجيين ، أن هذا الإقليم الواسع الأرجاء ، كانت

تكسوه خلال العصرين الحجريين القديم والحديث زراعة يانعة ، وازدهرت فيه حضارات ومدنيات بلغت حداً بعيداً من الرقى والتقدم . وقد أكدت الحفريات والنقوش التى خلفهـــا انعصر الحجرى الحديث ، والتى وقف أمامها الرحالـــة والمكتشفون الأول مشدوهين . فقد نقشت فيها ببراعـــة تدعو إلى الإعجاب سفن شراعية وقوارب سابحة على مساحات واسعة من الماء وكذلك نقشت مشاهد لأعمال الصيد بالسنارات وقطعان من الماشية ترعى ، وأناس مضطجعين على شاطىء البحر للاستحمام ومناظر لجمع الغلال .

وتأكيداً للرخاء الذى كان يسود ذلك البلد الذى عاش قديماً محل البقعة الرملية نفسها ، المنعزلة المجردة من دبيب الحياة ومظاهرها ، تم اكتشاف بقايا متحجرة لمزارع من الغاب ولحيوانات مائية مثل الأسماك والتماسيح وفرس البحر ، وذوات الأصداف ؛ ومما يزيد فى التأكيد وجود بقايا حية لهذه الأنواع فى أيامنا هذه ، ولم تنقرض على مر القرون . ونستطيع فعلاً أن نصيد سمكاً يبلغ طوله ٢٥ سنتيمتراً ، من نوع فريد لم يعد له وجود فى بقية أنحاء العالم فى قلب الصحراء وفى مستنقعات صغيرة لا تزيد مساحتها كثيراً عن المتر الواحد المربع ، وتقع أسفل الجدران الصخرية .

وإن الطاقة الهائلة الكامنة سواء فى مستودعات البترول التى تم اكتشافها والتى هى فى سبيلها إلى الكشف عنها ، تستطيع بلا ريب أن تزيد الثروة المعدنية والثروة المائية بالصحراء الكبرى وأن ترجع إلى حظـــيرة الإنسانية والحضارة فى بضع عشرات من السنين الجزء الأكبر من هذه الأراضى الصحراوية الفسيحة الأرجاء .

ضوء على غانه

بقلم : كمال نشأت

التبادل التجارى :

كانت التجارة وسيلة الاستعمار للتسلل داخل البلاد ، وكان التبادل التجارى بين الغربيين وسكان ساحل الذهب فى أول الأمر يتم على الساحل لخوف الأوروبيين من التوغل داخل البلاد ، وكان المشهد المألوف الذى يتكرر كل يوم زوارق الأهالى الذين ينتهزون فرصة نسيم البر الذى يدفع أشرعتهم إلى حيث يقف التجار الغربيون بزوارقهم لتبادل التجارة مع الأهالى ، حتى إذا تمت الصفقات التجارية بعد مساومات طويلة عادت الزوارق إلى البر ظهراً ، فى الوقت الذى تبدأ نسمات البحر فى الهبوب تجاه البر ، وكان أغلب التجار من الأهالى يصابون بالقيء لعدم تعودهم ركوب الزوارق أما بحارتها فقد تعودوا ذلك لكثرة رحلاتهم اليومية .

وكثير من هؤلاء التجار يرفضون الصعود إلى مراكب التجار الغربيين احتراساً وخوفاً ، ولا يحسون بالطمأنينة وهم على متونها إلا إذا كان على الشاطىء أوروبى أو أكثر من رجال السفينة . وفى هذه الحالة — يفوضون وسيطاً يجمع فى كيس من القماش أكياسا صغيرة تحوى الذهب الخاص بكل تاجر ويحفظ الوسيط كل ما يطلبه التجار نظير أكياسهم المليئة بالذهب الذى يوزن على الشاطىء قبل إعطائه للوسيط حتى يعرف كل تاجر قيمته الشرائية .

وأغلب التجار من الأهالى يقطعون للوصول إلى الساحل ما لا يقل عن ٢٠٠ من الأميال ، وبعضهم يقطع هذه الرحلة ومعه ما لا يقل عن اثنى عشر عبداً من الرقيق . وسوء الظن بالتجار الغربيين ظاهرة منتشرة بين التجار من الأهالى ، وكان ذلك بعد تجارب كثيرة كانت أساساً لسوء ظنهم هذا . فقد كان بعض التجار الأوروبيين يعطى التاجر الوطنى قطعة قماش من الكتان طولها ١٠ أمتار وهى فى حقيقة الأمر ٨ أمتار فقط . . ولذلك كانت المركب التى يغش أحد تجارها بضاعة تنبذ من التجار الوطنين فلا يتعاملون معها . وكان أغلب ما يطلبه أهالى الساحل ، الأوانى النحاسية التى يحملون فيها الماء والغلايات وقماش الكتان ، أما الحديد

فكانوا يصنعون منه أسلحتهم . وأما الأقمشة الملونة التي تلف حول كشح الرجل منهم فكان السلاح يوضع فيها ، ويستعمـــل القماش الصوفي الأسبـــاني كالعباءة .

وكان الرجل منهم يعلق في ذراعه وفي ساقه حلقات نحاسية يتحلى بها ويختال ، وكانوا يصنعون من الدبابيس سنانير لصيد الأسماك ، ومن ذيول الخيول مذبات يبعدون بها الذباب عنهم .

ولعل الصورة التي رسمها كارنس ، وهو أمريكي زار الساحل عام ١٨٥٢ لعملية التبادل التجاري تقرب إلى الأذهان هذه العملية في بساطتها الأولى فنراه يقول :

« كان الملك الفارع القامة القوي المظهر يقف أمام أتباعه مع اثنين منهما يبدو أنه اختارهما لبراعتهما . . وكانت البضاعة الأولى كومة من ريش النعام عرضنا مقابلا لها بعض السبح الزجاجية وأوراق الدخان والغلايين . . ولكن الملك نظر إلى تابعيه ثم هز رأسه دليلا على عدم الموافقة . . وكان علينا للوصول إلى الذهب الذي يحملونه معهم أن نصبر وأن نحاول إرضاءهم . وحينما وضعنا فوق السبح وأوراق الدخان بعض الأواني وافقوا عـــلى المبادلة .

وبانتهاء هـــذه الصفقة بدأت مساومة أخرى أكبر أهمية . . فقد أخرج الملك من جانب ردائه (وهو ملاءة طويلة ملفوفة فوق وسطه وكتفيه محلاة بشرائط حمراء وصفراء) . . ورقة عشب ملفوفة وبداخلها كمية من التبر الصافي تزن حوالي أربع أوقيات . وعلى الرغم من أن كمية الذهب ليست بالكبيرة إلا أننا — في قرارة نفوسنا — صممنا على الظفر بها فأخذنا أهبتنا لمساومة طويلة وعرضنا مقابل الذهب قماشاً أزرق صنع من القطن الهندي و ١٢ سبحة زجاجية مختلفة الأحجام والألوان وعدداً من الخناجر ، وسيفاً وبندقية . . وانتظرنا الإجابة . . وكانت هزة من الرأس دلالة على الرفض .

فأضفنا إليهم حوالي ٢٠ من أوراق الدخان ومثلهم من الغلايين . . ولعلمنا أنهم يحبون الشراب القوي قدم إليهم قائد السفينة أكواباً من الجن الأمريكي وكانت الموافقة بعد ذلك »

أما التجارة داخل البلاد وعلى الساحل نفسه فكان لكل قرية يوماً معيناً تقام فيه سوقها . وكانت النساء يملأن السوق وهن جالسات على الأرض وأمامهن البرتقال أو الليمون أو الدجاج أو البيض أو الخبز أو الأرز . . الخ وكانت كل هذه الأشياء مما يحتاج إليه ساكنو الساحل . وكان هؤلاء بدورهم يشتركون في هذه الأسواق فيحملون إليها الأسماك والأقراط النحاسيـــة والسكاكين والكتان والأواني . وكانت

الأسماك غالباً تجارة النساء (وإن كان الأزواج هم الذين يصيدونها من البحر) وكن يحملنها إلى داخلية البلاد نشيطات صبورات . فالواحدة منهن تحمل فوق رأسها حملا ثقيلا وعلى ظهرها وليدها وهى تسير بحملها ما لا يقل عن ٦ أميال . . وكانت النساء يمشين جماعات وروح المرح تسودهن .

أما تجارة الرقيق فقد كان زعماء القبائل يسوقون أسراهم إلى مراكز البيع حيث يبيعونهم إلى الأوروبيين ، وأسعارهم تختلف بالنسبة إلى الجنس والسن ، وكانت المراكب الراسية على الساحل مستعدة دائماً لحملهم . والمركب الواحدة تسع ما يقرب من ٥٠٠ رقيق .

وبتوالى التبادل التجارى أخذت الثقة تتوطد بين المتعاملين من التجار ، فكان التاجر الوطنى يستطيع أن يأخذ ما يريد على أن يحدد موعداً للسداد وكثيراً ما كان رسوله يعود بكيس ذهبى سداداً للدين مستعملا عصا زعيم القبيلة كجواز مرور . وكانت العصى من الأشياء التى جذبت بها الشركة الإفريقية للتجارة قلوب زعماء القبائل كما فعلت مع ملك (أسبو) الذى أهدته عصا طولها ٦ أقدام ولها رأس من الفضة وكان الملك يفتخر بعصاه ويحملها معه دائماً . . واستطاع التجار الأوروبيون أن يظفروا — بوسائلهم العديدة المغرية — بصداقة الزعماء والملوك . كان هذا التبادل التجارى قائماً من ناحية أبناء ساحل الذهب على الذهب نفسه الذى كانوا يحملونه من مناجم مجهولة داخل البلاد . يقول وليام بوزمان الذى أمضى ١٤ عاماً على الساحل موظفاً فى الشركة الهولندية (إن أولى البلاد التى تقدم إلينا الذهب هى دنكرا) وكانت بعيدة فى داخل البلاد ولذلك كان خدمنا لا يصلون إليها إلا بعد رحلة تستغرق خمسة أيام وذلك لرداءة الطرق . وكان أهل دنكرا قوماً أقوياء عاشوا مرهوبى الجانب . وكان الأشانتى والأكيم مثلها قوة ومركزاً ، وكانوا يملكون مناجم ذهب بدورهم ، وإن كان ذهب دنكرا من أحسن الأنواع وأصفاها ، وكان الأهالى يطلقون عليه (أكانى سيكا) . . ويأتون إلى مورى ، وأنومابو ، وكور مانتين ، وإلى القرية الانجليزية « ونيبا » . . وكانوا يحصلون على الذهب ، إما بعد حفر أو يجدونه على الأرض . . وكان نوعين ذهب تختلف أنواعه من ناحية الشكل والحجم ، والآخر (تراب الذهب) أو التبر وكنا نفضل التبر لأن قطع الذهب يذهب نصفها هباء حين نصهرها لاحتوائها على أشياء غريبة وأخلاط لا نفع فيها .

أما سكان الساحل فكانوا يذهبون إلى الشاطىء بعد الأيام العاصفة الممطرة حيث يغربلون الرمال القريبة من ماء

البحر — وأغلب هؤلاء من النساء — إلا أن الكمية التى كان يعثر عليها بعد الغربلة كانت كمية ضئيلة وهى نثارات من الذهب الذى تحمله مياه الفيضانات فى الأنهار والجداول إلى البحر فإذا ثارت الأمواج فى الأيام العاصفة حملت إلى الشاطىء بعض هذا الذهب.

حصون الساحل :

أقيمت الحصون على الساحل تأميناً للتجار الأوروبيين ، وكان أقواها وأحسنها حصون الهولنديين ، وكان البرتغاليون يملكون حصن (أكسيم) الذى آل إلى الانجليز بعد ذلك وكان اسم الحصن (القديس انتونى) وكان الأهالى الذين يحيطون به يعملون بالزراعة وصيد الأسماك والتجارة كأغلب الأهالى الذين يعيشون بجوار الحصون الأوروبية . وأغلب ما كان يزرع على الساحل الأرز ، لأن الأرض بطبيعتها أصلح ما تكون لزراعته .

وكان حصن البرتغاليين يبعد عن حصن الإنجليز بثلاثة أميال واسمه (فردريكسبورج) وكان حصناً ضخما جميلا وأظهر ما فيه بابه وهو أجمل حصون الساحل جميعاً . ولهم حصن آخر فى « أكويدا » يسمى «دوروبثا» وقد اشتهر هذا الحصن بحجراته العديدة وقد بنى البرتغاليون حصناً ثالثاً بالقرب من قرية « تاكراما » لحماية مصادر المياه التى فى حوزتهم إلا أن هذه الحصون فى رأى (بوزمان) كانت تكلف البرتغاليين كثيراً .

وفى « دكسى كوف » بنى الإنجليز حصناً وإن كانت الأرض التى بنى عليها قد سببت نزاعاً بينهم وبين البرتغاليين الذين رفعوا علمهم فوقها .

وفى قرية « بترى » حصن صغير قبيح الشكل يقوم على تل مرتفع وفى أسفله تقع قرية بترى وهى قرية مزدحمة بسكان كانوا يتعاملون تجارياً ، مع سكان الحصن . وبعد هذا الحصن بأربعة أميال توجد قرية « سكوندى » حيث يوجد حصن إنجليزى صغير يسمى « أورانج » . وفى هذا الإقليم أشجار عالية فالأرض خصبة تصلح للزراعة خصوصاً زراعة الفواكه وإذا وجدت الرى الكافى والعناية اللازمة أنتجت محصولات وفيرة ، وكل مزروعاتها فى ذلك الوقت الأرز والبطاطس وقصب السكر الذى ينمو بشكل غريب فى هذه الأرض ، إلا أن الحرب المدمرة التى قامت بين الأشانتى والأدوميانز أجدبت هذه الأرض لهجرة السكان بعيداً عنها ، والبقية الباقية منهم تعيش بجوار الحصن وفى حمايته بعد أن تركت الزراعة فظلت الأرض مجدبة مهملة .

وفى سكوندى كان حصنا الإنجليز والهولنديين وكانت المنافسة بين ضباط هذين الحصنين على أشدها . ولما كان

التبادل التجارى مع الحصنين ضئيلاً عاش ضباط الحصنين فى فقر مدقع . ولم يمر وقت طويل حتى أحرقت قبيلة « الأهانتا » الحصن الإنجليزى ودمرته وقتل قائد الحصن وبعض التجار الإنجلــيز وأخذت البضائع الموجودة به . وقد حاول الإنجليز بناء الحصن مرة ثانية إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك . وهناك حصن صغير يشبه حصن « بترى » فى مدينة « شاما » اسمه « سان سباستيان » وهو الاسم الذى خلعه عليه البرتغاليون الذين كانوا يملكونه من قبل .

وفى إقليم « كومندا » الذى يمتد خمسة أميال على الساحل وفى وسط هذه المسافة يقع حصن إنجليزى بنى عام ١٦٨٨ يسمى « فردنبرج » . .

الفتش :

ككل أمة فى كل زمان ومكان ، كان لأبناء ساحل الذهب آراؤهم ، ومعتقداتهم التى تتناول الحياة الحاضرة والمستقبلة ، كما كانت لهم عاداتهم وطقوسهم الدينية الخاصة . ولعلنا نستطيع ان نلمح إلى أهمها فى هذه العجالة .

يحكى « فيلبس » أنه وصل فى ١٢ من أبريل ١٦٩٤ إلى أكرا ، وأن الملك دعاه إلى مأدبة غداء هو وزميل له يدعى « بلوم » وأن الخادم قادهما إلى حجرة الطعام حيث قام على خدمتهم عدد كبير من الخدم والملك يجلس إلى جوارهم وحوله حرسه المسلح . ويحكى أن الملك شرب نخب ملك إنجلترا ونخب الشركة الإفريقية ثم نخبى صحة الضيفين . بينما مدافع القلعة التى استولى عليها الملك من الهولنديين تقصف قصفاً شديداً ترحيباً بالضيوف . ويقول فيلبس إنه أثناء إقامتهم رست سفينتان هولنديتان وحضر رسول من السفينتين إلى الملك للتفاوض فى ترك القلعة إلا أن الملك غالى فى طلباته وأخيراً اتفق الطرفان على الثمن . وكانت السفينتان محملتــين بالجنود والأسلحة والمؤن والذخائر والبضائع ، ولكن الاتفاق لم يتم إلا بعد أن شرب الملك من كأس ذوب فى سائلها ١٢ نوعاً من البودرة لا يعرف أمرها إلا الرجل الذى يتولى هذه المهمة التى كانت تسمى « الفتش » وكان المعروف عندهم أن شرب هذه الكأس دليل على الصداقة والود وتوكيد لشىء يعلنه الشارب قبل شرب الكأس ، فهى قسم لا يمكن أن يتخلى عنه شارب الكأس وإلا سقط ميتاً بعد ثوان معدودة (كمسمار باب قديم) . ولقد استغل الأوروبيون هذا الاعتقاد فكان أحد ضباط المراكب الراسيه واسمه الكابتن « شورلى » يسقى الوطنيين الذين يسخرهم فى العمل فوق سفينته هذه الكأس حتى يظلوا على ظهرها ولا يحاولون الفرار سباحة إلى الشاطىء وفى هذه الحالة كان يطلق سراحهم

من القيود الحديدية التى كانت تربط بأرجلهم . ولقد استغلت هذه الكأس فى حرب كان الباعث عليها التمكين لنفوذ الإنجليز الاستعمارى . فقد كانت قبائل الأكانز أكبر القبائل التى تتعامل تجارياً مع الإنجليز ، ولما كانت هذه القبائل تعيش داخل البلاد كان عليها أن تمر خلال أراضى قبائل أخرى حتى تصل إلى الساحل حيث القلاع والمراكب الإنجليزية ، وبتحريض من الهولنديين منافسى الإنجليز وقفت قبائل « الإيفوتى » أمام الأكانز — وكانوا من قبل يسمحون لهم بالمرور دون احتجاج أو معارضة — ومنعتهم من المرور . . بل لقد تمادوا أكثر من ذلك فكانوا إذا دفعوا ما يطلب منهم انتظروهم حتى يعودوا ، ثم يأخذون منهم البضائع الأوروبية بأبخس الأثمان . . فلم يكن هناك مفر من القتال . وكون الأكانز جيشاً ضخماً بلغ عدده ٢٠,٠٠٠ رجل وذلك بعد ان اتحدوا مع قبائل أخرى ، وكان من أعلام هذا الاتحاد الملك « أسبو » صاحب العصا ذات الرأس الفضى . ودارت المعركة وكانت نتيجتها فرار ملك « الايفوتى » من عاصمة ملكه والتجاءه إلى الهولنديين فى « المينا » لحمايته ، ودخل الأكانز العاصمة وأحرقوا معظمها ، ونصبوا شقيق ملكهم ملكاً على المدينة وجمعوا ما تبقى من قبل الإيفوتى وأرغموهم على شرب كأس « الفتش » بعد أن أعلنوا ولاءهم للإنجليز . وقد حدث أثناء المأدبة التى أقيمت بعد ذلك وجمعت الزعماء المنتصرين مع حلفائهم الإنجليز أن ذبح هؤلاء بقرة ليأكل منها المدعوون إلا أن الزعيم « نيمعا » لم يقربها وجلس بعيداً بعد أن أعلن أسفه لذبحهم هذه البقرة لأن البقر حاميه الذى يبعد عنه الأضرار . وكان هذا الاعتقاد سائداً لدى أبناء ساحل الذهب فكل واحد منهم له الحيوان الذى يعتقد أنه يحميه .

ويذكر فريمان وهو من رواد رجال الدين الذين عاشوا فى ساحل الذهب بعض معتقدات الأهالى فى « الفتش » يقول : « سمعت أن رجال الفتش أعلنوا أن البلدة ستحرق ويجب تقديم القرابين . . وحينما خرجت بعد الظهر رأيت سكان البلدة جميعاً يقفون تحت شجرة الفتش وهم فى أحسن ملابسهم . . وكانت هذه الشجرة ذات منزلة خاصة بعد أن أسبغ عليها رجال الفتش الأساطير والقداسات ، وكان هؤلاء فى المركز الأول من الناس احتراماً وتوقيراً . . وكان مظهر الواحد منهم ساعة قيامه بخرافاته عجيباً . . فكان يضع على وجهه خطوطاً من الطين الأبيض ويعلق فى عنقه سلسلة حديدية وفى ساقه أشياء كثيرة مربوطة ، وفى يده سكين طويل . . وهو فى بعض الأحوال يقفز قفزات غريبة ، ثم يقف ليحملق فى وجوه

الناس . وهناك صخرة ضخمة قرب الشاطىء تنال تقديساً منهم ، وللأهالى فلسفة خاصة تلخصها أسطورة تدور حول هذه الصخرة .

وشغل الموت تفكير أبناء ساحل الذهب فمراسيم الدفن وإقامة الشعائر الدالة على حزن أهل وأصدقاء المتوفى تأخذ وقتاً طويلا قد تمتد إلى أسابيع ، وكلما طالت هذه الشعائر والطقوس دل هذا على إعزازهم لموتاهم كما دل على مركز الميت ومكانة أسرته وقبيلته .

فإذا انتهت حياة واحد منهم يسمع الصراخ من منزله وتخرج النساء فى ذهول وهن يصرخن صرخات حادة ويجرين فى الشوارع بملابس مهملة وشعور منقوشة . وتظل هذه الأصوات تقطع سكون الليل ، وبينما البكاء والصراخ يتعالى ، يكون بعض أهل الميت قد غسلوه وألبسوه أحسن ثيابه ووضعوا العقود أو السبح حول عنقه . فإذا تم ذلك وضعوه على فراشه . ويسمح لبقية أقاربه وأصدقائه بالدخول عليه وقتئذ . ويرى هؤلاء أنه من الواجب حينما يرون أنفسهم قد اقتربوا من بيت الفقيد وهم قادمون إليه بعد سماعهم نبأ موته أن يعلنوا حزنهم برفع أصواتهم النائحة وعويلهم العالى . وبعضهم يوجه الحديث إلى الميت ويعاتبه على تركه لهم . وكانت العادة أن يجلس النساء مع الميت ويظل الرجال خارج البيت . أما الأهل والأصدقاء والجيران فكانوا يساعدون أهل الميت بالطعام والهدايا لإقامة الجنازة ، وغالباً ما تكون هذه المساعدات ذهباً أو خمراً أو ملابس أو بودرة ، أما الأغنياء منهم فكانوا يقدمون فوق ذلك الدجاج أو يهدون خروفاً أو ماعزاً . وتتعالى أصوات الطبول ويرقص بعضهم فى فناء المنزل أو فى مكان قريب منه أعد لهذا الغرض ، وأخيراً يحفر قبر فى حجرة الميت ويدفن فيه مع بعض الأوانى المليئة بالخمر وأوراق الدخان وبعض الأشياء الثمينة .

فإذا كان الميت زعيماً قتل فى معركة حربية صب الماء على قبره مرات عديدة يومياً ويستمر ذلك لمدة أسابيع ، ثم تجمع عظامه فى صندوق يغطى بالحرير . وتمشى نساؤه إلى جانب الصندوق وهن يصرخن .

مع الزعماء والملوك :

كتب كثير من الأوروبيين ، تجاراً وموظفين عن الحياة الاجتماعية فى ساحل الذهب وسجلوا بعض مظاهرها وقد اتفقوا على الإعجاب بسلوك القوم المهذب وكرمهم المثالى ، ولعل الصورة التى رسمها « رامسير » فى كتابه « أربع سنوات فى أشانتى » الذى صدر فى لندن عام ١٨٧٥ تعطى صورة كاملة لجانب من جوانب هذه الحياة وبخاصة حديثه عن حياة الزعماء والملوك التى خبرها فأجاد تصويرها .

وكان قد وقع أسيراً فى أيدى الأشانتى هو وزميله « كوهين » ونترك رامسير يصف لنا ما رآه : « وصلت رسالة من الأمير . . فسرنا مع الرسول حتى القصر وهو بناء مزخرف زخرفة جميلة . . ودخلنا من باب ضخم إلى قاعات فسيحة حيث تلقتنا عشرات العيون الفضولية ، وهناك وقف أتباع الملك فى نصف دائرة وفى الوسط جلس الأمير الذى كان قوى الجسم بديناً بعض الشىء . وعلى ذراعيه وساقيه حلى ذهبية . وسئلنا بعض الأسئلة ، ثم بقينا يومين حتى وصلت رسالة الملك تستدعينا ، وحينما وصلنا كان الملك جالساً تحت مظلة كبيرة محلاة بالذهب وبعض الخدم يحركون « المراوح » فى تؤدة عن يمينه وشماله حيث وقف وراءهم عدد من الزعماء . وعلى بعد ليس بالكبير وقف ما يقرب من ثلاثة آلاف شخص . وكان كل زعيم يقف تحت مظلة ملونة مزخرفة برسوم الأفيال والقرود والرؤوس الآدمية ، بينما دقات الطبول ترتفع فى دوى متصل . وتقدم شخص يحمل السيف الملكى فى حزام من جلد النمر وفى عنقه حلى ذهبية وعلى رأسه ريش نسر . . تقدم إلينا ليقودنا إلى الملك وسرنا إلى حيث يجلس جلالته . . . فرفعنا قبعاتنا وأمسكناها بأيدينا فهز الملك رأسه فى بساطة وود رداً على تحيتنا . ثم رجعنا حيث جلسنا فى جانب أعد لنا ومر الزعماء حتى إذا وصل كل واحد منهم إلى مكاننا حيانا برفع يده واستمر فى سيره تحت مظلة يحملها أتباعه . وأمام الزعماء الكبار سار أطفال يحملون طبولا مصنوعة من جذوع الشجر ويتحلون بأذيال الخيول ثم حامل كرسى الزعيم . . وكان الموكب يتقدم وفى مقدمته الملك وأمامه عشرات الغلمان يرقصون ويصيحون (إنه قادم . . إنه قادم . . ملك الأرض كلها) . . وكان الملك ينتعل صندلا ذهبياً ويلبس عمامة مزركشة ورداء حريرياً أصفر وفى ذراعيه وساقيه لمعت عقود من الذهب . . وحينما مر أمامنا وقف برهة وهو ينظر فى دهشة . . ومن المؤكد أننا كنا أول رجال بيض تقع عيناه عليهم . . » .

الجمهورية العربية المتحدة وإفريقية

لم يحدث فى تاريخ مصر القديم والحديث الانعزال عن القارة إلا تحت ظروف قاسية خارجة عن جريان الأحداث فيها ، فما زال لموجة الثقافة الفرعونية التى انداحت بغزارة تأثيرها العميق للآن وما زال لكل التيارات الموجهة التى فجرت مصر طاقتها إشعاعات يتردد صداها بعمق فى كل نواحى القارة .

ولعل أعمق هذه الأحداث السياسية هذا التأثير الذى ظهر للثورة المصرية فى أنحاء القارة ، ففى ضوئها حملت شعوب رماحها وتوثبت للحرية ، وبوحيها قامت أكثر من ثورة ، وتحقق أكثر من نصر ، ورفع أكثر من علم فى سماء القارة الكبيرة ، ذلك لأن مصر كانت دائماً المركز الحساس لكل القارة ، والعمق الذى تترسب فيه الطاقات ، والرغبات ، حتى ليمكن القول بأن أغلب الانتصارات التى حصلت عليها مصر كانت لها جذور بعيدة ، تمتص ، وتتوغل فى الأعماق الإفريقية .

فكل إفريقى الآن فى القارة يحس وهو يستجمع نفسه أن مصر تسانده ، سواء فى ذلك الإفريقى الذى يعيش فى المدينة كأحدث ما تكون عليه الحياة ، والإفريقى الذى لا يعرف الحياة إلا غابة من حوله ، وصحراء لا يحدها بعد ، ونهر متسرب ضائع كالحياة المهدرة بين أصابعه ، فمصر قصة مجد وحضارة تناقلتها الأبناء عن الآباء فى حب ، وانبهار ، ليس فقط شمال الصحراء ، وإنما جنوبها حيث الامتداد الأسود الكبير ، حينما كانت مصر الفرعونية هى القلب الوحيد الذى يخفق فى صدر العالم ، وحينما كانت لها امبراطورية ضخمة فى إفريقية فى الزمان القريب ، ثم أخيراً حينما أصبحت حدودها الحضارية لا تقف عن حدودها السياسية ، فهى تمتد بهذه السياسة التحررية البنائية التى تدعو فيها إلى عدم الذوبان فى الشرق أو فى الغرب ، وهى تضىء بأبنائها الذين يحملون رسالة الثقافة العربية فى أكثر من مكان بالقارة ، وهى تكسب كل يوم قلوباً جديدة بعمليات المساندة المخلصة لكل القضايا الإفريقية .

ومن هنا فنحن لا نبالغ إذا طالبنا بالمزيد من العناية بإفريقية بحيث نراها معلومات تعرض على التلاميذ فى كافة المراحل الدراسية ، ولغات تجرى على

أفواه المثقفين ، وقطاعات للبحث والدراسة فى كافة ألوان المعرفة ، ومنارة تحوِّل البعثات عن الغرب إليها ، وقطاعاً زمنياً ومكانياً تقدم من خلاله المسرحية ، والفيلم ، والقصيدة ، والقصة ، فبهذا اللون من الفهم نضيف إلى حياتنا بُعداً آخراً من أبعاد الحياة ، وعمقاً ، وفهماً وقفت الظروف السياسية دونهما فى الماضى .

إن الكثير منا يدرك أنه قد كانت هناك عملية متعمدة لإبعاد كل ما يتصل بإفريقية عن المواطن العربى ، وأنه شىء آسيوى يجب أن يقف عند حدوده دون تقدم إلى أية جهة من الجهات ، ولكن الجميع قد أدرك الآن أنه ليس للعروبة فى آسيا أكثر مما لها فى إفريقية ، وأنه ينبغى عليه لكى يعيش أن يتنفس بكلتا القارتين.

ومن هنا يأتى دوره فى عدم الانعزال عن القارة ، وتحطيم أسطورة أنه يجب أن يقف فى شمال الصحراء فعمليات التقسيم فكرة دخيلة تختفى من ورائها الاستعمار ، والتبشير ، والاحتكار لأن القارة الآن وحدة نفسية متكاملة ، والمواطن العربى ليست له أغراض توسعية ، فهو يحس أنه مهدد طالما ظلت بالقارة الإبادة الفرنسية ، والضغوط الانجليزية ، والاحتكارات الأمريكية ، والتلاعب البلجيكى ، والعسف البرتغالى ، والتحايل الأسبانى لأنه يجب تصفية إفريقية من كل هذه المعوقات ، وحينما تنحسر هذه الغيوم ساحية من ورائها « اسرائيل » التى تتغلغل فى القارة من داخل هذه الظلال الكئيبة ، حينما يتم كل ذلك سيحس كل العرب أنهم يعيشون فى سلام ، واطمئنان ، ذلك لأن اطمئنانهم مرتبط باطمئنان كل دولة إفريقية ، وسلامهم مقترن بهذه الراحة النفسية التى يحس بها كل مواطن حر فى بلاده .

وتاريخ العروبة فى القارة — مهما كذب المؤرخون الغربيون — يشع بالسلام ، والحرية ، والرفاهية ، ولو خلِّى بينهم وبين القارة فى الفترة التى مزق فيها الاستعماريون إفريقية لكانت هذه القارة من أولى القارات فى الاستقرار السياسى ، والاقتصادى ، والاجتماعى ، فالأمواج العربية استقرت فى كل مكان وصلت إليه ، وأسهمت فى إثرائه ، وشاركت فى تقدمه ، وسعت بحماس إلى الاندماج فى الإفريقيين عن طريق المصاهرة والتاريخ لا يذكر لنا — حتى ما سجله أعداء العروبة — أن جماعة عربية واحدة وضعت يدها على أية ثروة من ثروات القارة ثم حملتها إلى موطنها الأول ، وحرمت منها أبناء البلاد .

وليس حلماً حينما يتصور الإنسان العرب وقد خُلِّى بينهم ، وبين إخوانهم الإفريقيين ، وساروا جنباً إلى جنب ينقبون عن الثروات ، ويدقون فى

قلب المناجم ، ويشقون الصحراء عن البترول ، والغابة عن الثمار .. إنه بلا شك لو تم هذا ابتداء من الزمان الذى عقد فيه العربى ساعده بساعد الإفريقى لما كان هناك فى إفريقية اليوم جائع ، أو مريض ، أو جاهل ، أو منهار ، وإنما كانت ستوجد نضارة فى وجه الطفل ، وحماسة فى وجه الشاب ، وعزمة فى ملامح الرجل ، وطمأنينة فى غضون الشيخ ، وسلام يرفرف على الجميع فيسعدهم ، ويهب على القارات الأخرى بالحب ، والرفاهية ، والرغبة الأكيدة فى حب الحياة .

إننا نشاهد الآن عمليات الانسحاب الغربى من داخل القارة ، ونرى عمليات التقابل التى تتم فى فهم بين العرب والإفريقيين ، وحينما يتم هذا التقابل فى كافة أنحاء القارة ، سيطل عصر جديد على القارة الإفريقية .

عصر لم يمر بها عصر أزهى منه !

« ع . ب »

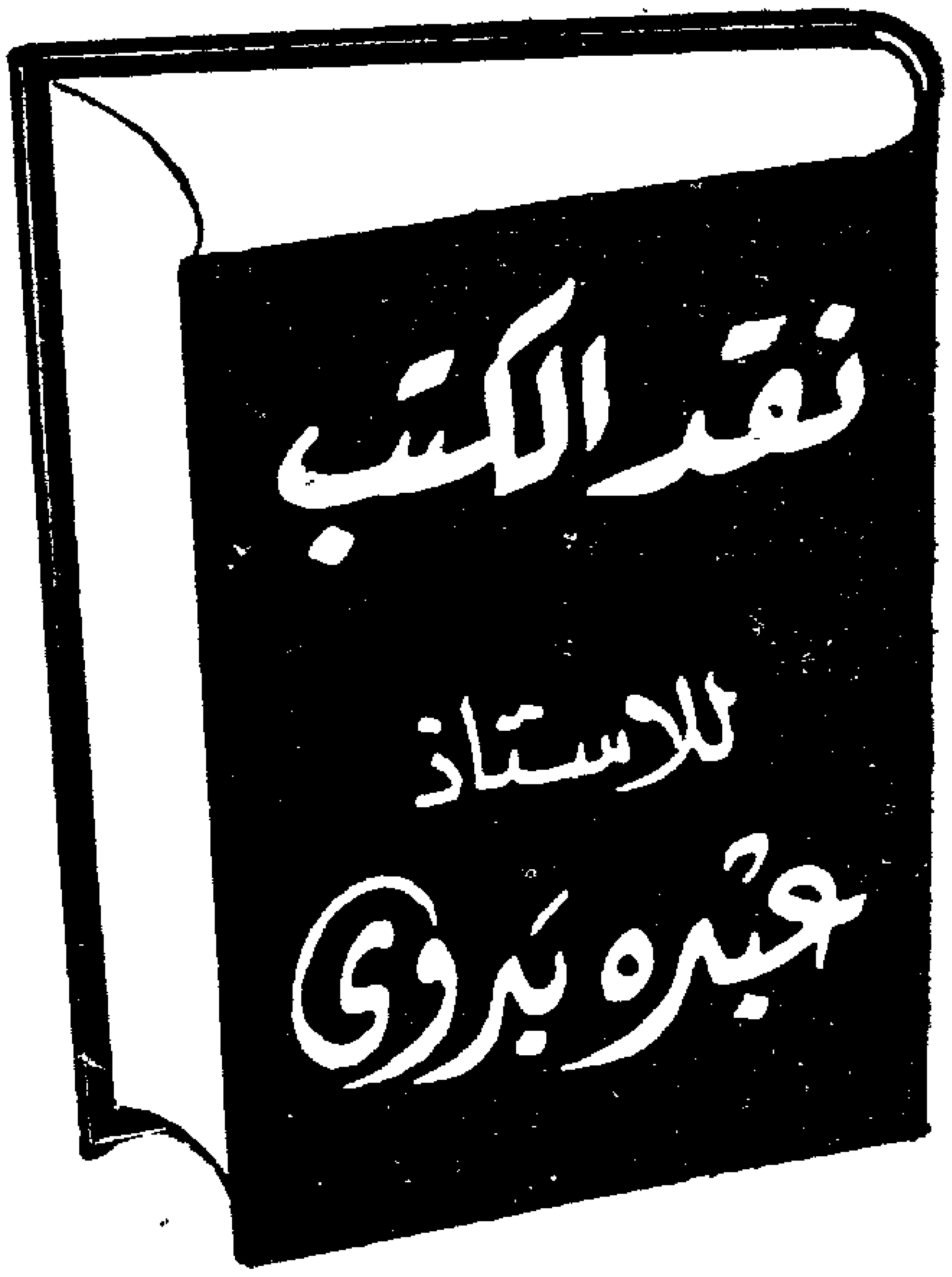

يعتبر السودان من أوائل البلاد المتحررة فى إفريقية التى حملت شعلة الحرية ، ورفعتها عالياً لبهتدى بها الكثير من الدول فى القارة الإفريقية ، بعد أن دفع الكثير من دم أبنائه وعرقهم . ومن هذه الكتب التى ألقت ضوءاً باهراً على تاريخ السودان الحديث كتاب « يقظة السودان » . للدكتور « إبراهيم أحمد العدوى » وقد بدأه بكلمة عن الممالك السودانية الثلاث الفونج ، والفور ، وتقلى رد فيها ظاهرة اضمحلال هذه الممالك ، وبخاصة مملكة الفونج إلى ضياع هيبة الملوك ، وميلهم إلى الكسل ، وقضائهم معظم وقتهم مستلقين على الأسرَّة المعروفة باسم « العنقريب » . ثم أخيراً إلى تسرب الملك من أيديهم إلى أيدى وزرائهم المعروفين باسم «الهمج» الذين لم يستطيعوا أن يضعوا أيديهم تماماً على البلاد البعيدة ، وبخاصة القطاع الذى تسكنه قبيلة « الشايقية » بالقرب من دنقلة .

وهو يقف فى كلامه هذا عند حد ما ذكره كراوفورد فى كتابه مملكة الفونج فى سنار . بينما الحقيقة تقرر أنه كانت هناك أسباب متعددة ، وأكثر عمقاً من هذا السبب مثل :

١ — تصدع الحلف الذى كان قائماً بين ملوك الفونج ، وبين العبدلابيين الذين قامت عليهم الدولة فى أول أمرها ، وباسمها .

٢ — نظام ولاية العرش ، والتنافس بين بنات عين شمس وهو اسم البيت الذى كان يصهر إليه الملوك ، وبين الزوجات الآخريات الذين ارتفعن إلى مصاف الزوجية من الشعب .

٣ — ظهور شخصية قوية بين « الحمق » — وليس الهمج كما ذكر المؤلف — وهى شخصية « محمد أبو كتمور » الذى أخذ يتلاعب بالسلاطين ويضع يديه على مقدرات البلاد .

٤ — قيام عدة ممالك مختلفة منسلخة عن كيان الدولة الذى كان موحداً فى يوم من الأيام .

٥ — عجز البلاد عن إعطاء عناصر جديدة متطورة للحكم ، ومقومات تهدف إلى تأكيد الوحدة بين البلاد ، وتدعيم الكيان الاقتصادى ، بعد أن

وقفت الدولة عند حد الاستهلاك فقط .

٦ — الابقاء على توزيع الأرض حسبما اتفق .

. . . هذا بالإضافة إلى انصراف الملوك عن الحياة الجادة ، ووثوب الأقليات على الحكم .

ومهما يكن من شيء فقد تعرض المؤلف بعد ذلك إلى « توحيد الوطن السودانى » فذكر أنه في الوقت الذى انهارت الممالك السودانية أخذ الأوروبيون يعكفون على قراءة التقارير التى وضعها الرحالة ، والمكتشفون الذين ارتادوا إفريقية قبل ذلك ، وكل هذه التقارير تشير إلى هذا « الفراغ » الذى خلفه انهيار ممالك السودان الثلاث . وإلى اتخاذ التدابير لابتلاع هذه المنطقة ، ولكن الأحداث كانت تأخذ لها مجرى عميقاً فى مصر حينما حولت أنظارها إلى هذا القطر الشقيق ، وحينما كافأ السلطان العثمانى « ابراهيم باشا » بتعيينه والياً على « جدة » ، وما يتبعها من بلاد السودان، بعد أن تم إخضاع ثورة الوهابيين على يديه فى بلاد العرب .

وأكد هذا الاتجاه عند مصر عند ما قدم إلى مصر بعض الوفود المتنازعة تطلب من مصر مساعدتها فى حل مشكلاتها، «كملك بربر» الذى استنجد بمصر عام ١٨١٣ لتعيد له سلطانه الضائع ، و « أبى مدين » الذى قدم إلى مصر عام ١٨٢٠ ليطالب بالسلطنة فى أسرته ، وليدافع عنها « محمد الفضل » ، ثم إن عمليات الاستكشاف المريبة التى قامت بها انجلترا ، وفرنسا ، والبرتغال ، وبلجيكا على ساحلى إفريقية الشرقى والغربى لم تكن خافية عن مصر .

وهكذا كان اهتمام مصر بهـــذه البلاد درعاً حمى هذه البلاد من عمليات التوثب الأوروبى التى كانت تشق طريقها إلى السودان ، ثم كان من نتائجه أن توحدت البلاد لأول مرة فى هذا القطاع الكبير .

وتعتبر إنجلترا من أكثر الدول التى انزعجت لعملية الفتح المصرى هذه ، فقد رأت فيه سبقاً إلى الفريسة ، وقرباً من حدود الحبشة ، وعقبة تمنعها ومن تأمين مطامعها فى شرق السودان ، كان أن اتجهت إلى بث دعاية تقوم على العداء الدينى بين مصر وسائر البلاد الإفريقية ، فكان مما قالته أن امتداد مصر يهدد الحبشة « . . ذلك البلد المسيحى الذى ما زال وحده متمسكاً بالمسيحية » ، ولما لم تأبه مصر لهذه النغمة نرى إنجلترا تلجأ إلى الضغط السياسى فتحرض تركيا على مصر ، وتخوفها من عمليات التوسع التى تقوم بها مصر ، وتدعوها — كجزء من الخطة — إلى استعادة ممتلكاتها على السودان الشرقى ، وتتبعها إدارياً إلى والى جدة التركى ، وقد استجابت تركيا إلى هذه الفكرة المسمومة ، ولكنها ما لبثت أن سلمتها

إلى مصر عام ١٨٤٦ حين أدركت أنه لا طاقة لها بإدارتها مالياً وإدارياً .

ولما سارت مصر بالبلاد فى طريق الوحدة عادت إنجلترا مرة ثانية تثير المعارك ، فتذكر أن بقاءها فى شرق السودان ينطوى على خطر يتهدد الحبشة وبخاصة أعمال « التعداد » الدقيق التى تقوم بها مصر لأول مرة للقبائل المنتشرة هناك ، وانتهزت سوء التفاهم الذى قام بين تركيا ومصر فتراها تحرض تركيا على انتزاع « سواكن » وما جاورها من البلاد السودانيه وإعادتها إلى إدارة والى جدة . وتم لها ما أرادت ، ومن هنا نراها تسرع فتعقد مع السلطان « محمد » والى تاجورة معاهدة نالت بمقتضاها جزيرة موسى . ومعاهدة ثانية مع شيخ « زيلع »استولت بمقتضاها على جزيرة « أرباط » . فضلا عن ضغطها على الأراضى الواقعة جنوبى « مصوع » . وقد تنبهت الدول الأخرى إلى خطورة الوحدة ، وتشجعت حينما رأت إنجلترا تنال ما تريده بسهولة فى هذه المنطقة فترى فرنسا تسارع فتنشئ لها قنصلية فى « مصوع » لتستطيع منها أن تواصل سيرها إلى « بوغوص » . ونرى الإيطاليين يشترون « عصب» من القبائل الضاربة حول زيلع ، ويثبتون أقدامهم فى إفريقية الشرقية .

وينتهى الأمر بهذه البلاد إلى تقطيع أطراف السودان الشرقى ، ووضع اليد على منافذه الحيوية ، وحينما ترى مصر هذا الخطر نراها تدخل مع تركيا فى مفاوضات ، وتغرى السلطان عام ١٨٦٥ بالتنازل نهائياً عن أملاكه فى الشرق مقابل مبلغ كبير من المال . وكان هذا نتيجة طبيعية لوصل السودان بالعالم الخارجى المطل على البحر الأحمر .

ومن الغريب أن إنجلترا حاولت زلزلة مصر فى هذه الفترة عن طريق التحرش بملك الحبشة حين ادعت أنه حبس بعض رعاياها . مستهدفه من وراء ذلك احتلال جزيرة « مصوع » وإعادة حلقة الحصار ثانية على السودان ، ولكن مصر تنبهت إلى هذا وحشدت أسطولا فى « مصوع » يمنع أى تدخل للإنجليز فى هذه المنطقة . وعززت حامياتها فى سواكن ، ومصوع ، وكان أن وقفت إنجلترا على مضض . وكان أن تكون « وحدة السودان » حين ضمت إليه منطقة الغرب التى تضم إقليمى دارفور ، وكردفان ، وحين ضمت إليه كذلك منطقة أعالى النيل وأصبح بلداً « مستكفياً » بنفسه . وبخبراته . وبدأ يخطو خطواته على طريق المدنية الحديثة .

ثم تعرض المؤلف لمحنة العروبة فى السودان وموقف الرجل الأبيض منها ، فذكر أن السودان تعرض للهجرات العربية ، وأنه حدث تزاوج بين العرب وأهل البلاد مما ساعد على عملية

الاندماج ، وقد كنت أحب أن يضيف هنا أن العرب استفادوا من وراثة « الخال » التى كانت شائعة فى هذه المنطقة ، وأنهم بفضل هذه الوراثة استطاعوا أن يرثوا الملك كما حدث فى الشرق . وكما حدث فى الغرب كذلك حين وصل « سليمان صولون » إلى الحكم بهذه الطريقة ، وهكذا اكتسبت البـــلاد طابعـــا إسلاميا ، وأصبحت اللغة العربية رابطاً طبيعياً تجمع الناس حول فكرة العروبة ، ولكن « اللعنة » التى كانت موجودة هناك هى « تجارة الرقيق » التى كانت متأصلة فى العالم القديم كله ، والتى كانت موجودة فى البلاد قبل الفتح المصرى .

ثم كانت اللعنة البيضاء الأخرى حين استعانت مصر بالأجانب لإدارة البيض ، فرأينا « صمويل بيكر » الذى أغدقت عليه مصر العطاء فى رحلاته لاكتشاف منابع النيل ما يكاد يصل إلى مقر عمله فى جنوب السودان حتى يشنها حرباً شعواء ضد الأهالى ، ومع أن مصر أدركت خطأه إلا أنها عينت إنجليزياً آخر مكانه هو « غوردون » ، وقد استهل حكمه بإيقاف تيار الإسلام الذى أخذ يتدفق من السودان إلى شعوب أواسط إفريقية ، فحين طلب « امتيسة » ملك أوغندة إلى السلطات المصرية قبل مجىء غوردون إيفاد عالمين ليلقناه وشعبه تعاليم الإسلام ، نرى غوردون عقب توليته يرسل إليه بعثة أخرى لتحول بينه وبين الإسلام ، وتحمله على دخول المسيحية ، وهكذا أدخل « غوردون » سلاحاً آخر فى المعركة هو سلاح الدين ، واستطاع بوساطة السفارة التى أرسلها إليه ، والتى كان على رأسها « أرنست دى بلفون » أن يحول الملك إلى المسيحية ، وأن يشوه الإسلام فى نظره ، ورغم أن مصر تنبهت إلى أن غوردون لا يعمل لها ، وأنها حملته على الاستقالة إلا أنها أعادته — بضغط من الإنجليز — كحاكم عام للسودان ، وقد استهدف فى هذه المرة ضرب العروبة فى البلاد ضربة قاضية تحت ستار القضاء على تجارة الرقيق ، وكان أن بدأ بعزل أربعة عشر موظفاً مصرياً من المشهود لهم بالكفاءة ، وبعض السودانيين المشهود لهم بالكفاءة ، وعين مكانهم أوروبيين ، وخلا له الجو ، وبدأ يضرب ضرباته . فأجاز إقامة العاهرات بجوار الزوايا والمساجد . وشجع على التخلى عن « سنن الزواج فى الشريعة الإسلامية » بدعوى « أن الدنيا حرية » وأنه لا داعى مطلقاً للتمسك بشعائر الدين ، ثم أخذ يدعو إلى طرد العرب وبقاء البلاد إلى أهلها ، وكان مما قاله « كازاتى » مساعده فى عملية التحطيم هذه : « .. يجب أن نفصل تماماً البلاد السوداء (بلاد الزنوج) عن البلاد العربية من السودان ، أو التى

يهيمن عليها العرب ، وأن نجمع تحت إدارة مستقلة واحدة أراضى بحر الغزال ، ومديرية خط الاستواء .. ذلك أن العرب المنتشرين فى البلاد ليسوا إلا لصوصاً أو شحاذين يجب إرجاعهم إلى بلادهم الأصيلة ، وقطع كل أمل عندهم فى العودة » ، ثم كانت عملية الوقيعة بين الزبير باشا والخديوى وإبعاده عن مجال المعركة ، وقتل ابنه سليمان الذى كان يمثل نقطة انطلاق عربية فى الغرب . وسلم القبائل الزنجية السلاح وشجعهم على مهاجمة كل من يجدون من العرب ، وهكذا مزق « غوردون » المجتمع السودانى ، وحاصر العروبة ، ومنع تدفق الاسلام ، وأقام سداً عالياًمن الكراهية بين السودان ومصر !

وكان لا بد للعروبة من أن تقاوم وهى الراسخة الأقدام فى الأرض السودانية ، ومن هنا كان ظهور « المهدية » على يد « محمد أحمد » التى لاقت فيه البلاد « مخلصاً » فاجتمعت حوله ، واعتنقت فكرته ، وبخاصة قبائل العروبة الجريحة التى أهدر « غوردون » كرامتها فنحن نراها تلتف حوله بإيمان وإخلاص ، ونرى الظروف الخارجية تساعد انتشار الفكرة بقيام الثورة العرابية فى مصر ، وبفضل هذا الإيمان نرى المهدية تحقق عدة انتصارات على الحكومة .

ولكن سرعان ما نرى سياسة إنجلترا تسير فى اتجاه — ماكر — آخر حين نرى إنجلترا — وقد آلت إليها الأمور فى مصر — تطالب بإخلاء السودان ، ونرى غوردون من ناحية أخرى وهو مشحون بفكرة إضعاف مصر يحاول القضاء على فكرة المهدية كذلك لالتفاف العرب من حولها ، فيحاول إعادة الحكم هناك إلى الأسرة القديمة التى كانت تحكم السودان حينما كان ممالك متناحرة ، ومتفرقة فى الماضى ، ولكن السلاح ذا الحدين الذى يحمله ينكسر فى يديه ، ونراه يلاقى حتفه فتكون « عملية ثأر » قبل أن تكون « عملية قتل » لهؤلاء الذين أغرق السودان بدمهم .

وما يكاد يقتل « غوردون » حتى تعمل إنجلترا على سرعة الإخلاء ، وتتركها « أرضاً مشاعة » للطامعين ، وتدخل مع الدول الأوروبية لتدعيم مستعمراتها فى إفريقية على حساب السودان ، فنراها تسمح لإيطاليا عام ١٨٨٦ باحتلال « بيلول » ، والمنطقة الساحلية قرب مصوع . مستهدفه من وراء ذلك أن تجعل منها « قلب الجنايني » الذى يتولى الحراسة حتى يعود السيد . ولكن إيطاليا تتمادى فتغتصب القسم المعروف الآن باسم «إريتريا» . وتُقَرُّ على احتلال كسلا إذا استطاعت ! ونرى إنجلترا تدعم مع « منليك » ملك الحبشة صداقتها على حساب السودان فتسمح له باحتلال « هرر » ، ويتم هذا الفتح بعد قتل

أميرها « عبدالله » .

ثم أخذت إنجلترا تدعم ممتلكاتها في إفريقية على حساب جنوب السودان وكان أن أقبلت فرنسا كذلك متجهة نحو « فاشودة » . ولكن إنجلترا أرادت أن تفوز بجميع الغنيمة فنراها تنجح في عودة الفرنسيين ، وتعرقل إيطاليا ، ولما كان موقفها أمام الرأى العام نراها تأمر مصر بالعودة إلى فتح السودان . وإقامة مايسمى « بالحكم الثنائى » .

وفى ظـلال هـذا الحكم تم استخلاص السودان تماماً للإنجليز رغم ما يقال من مشاركة مصر . وتم تمزيق السودان إلى شمال وجنوب ، وخلق مناطق مقفولة لا تعرف عنها بقية البلاد شيئاً . وإيفاد المبشرين كستار كثيف لتحطيم معنويات البلاد . وضرب الإسلام الذى يصل بين الجميع بخيط متين ورزحت البلاد تحت حكم رهيب إلى أن كانت عمليات المقاومة التى ظهرت على يد « جمعية اللواءالأبيض » عام ١٩٢٤ التى كانت امتداداً طبيعياً لثورة مصر على إنجلترا عام ١٩١٩ ، والتى شارك فيها أكثر السودانيين ، ثم كان دور « جمعية الاتحاد السودانى » التى يرجح المؤلف أنها قامت على أنقاض جمعية اللواء الأبيض ، ولكن الحقيقة تؤكد أن هذه الجمعية قامت قبل جمعية اللواء الأبيض ، ومهدت لها بالمنشورات التى كانت تدعو إلى مصر وتخاصم الإنجليز ، وبالمقالات والقصائد التى كانت ترسل إلى مصر – وبخاصة إلى محجوب ثابت – وتنشر فى الأهرام متوجهة إلى « عمر طوسون » أو إلى الشعب المصرى بعامة ، والمتتبع لتاريخ هذه الفترة لا يزاوله الشك فى أنها قامت قبل جمعية اللواء الأبيض .

ثم جاء بعد ذلك دور « مؤتمر الخريجين » ، وكانت تلك الوثيقة الحاسمة التى لاقت الاجماع عام ١٩٤٢ وعبرت عن أمانى السودانيين ورجاءفيها :

١ – إصدار تصريح مشترك فى أقرب فرصة من الحكومتين الإنجليزية والمصرية بمنح السودان بحدوده الجغرافية حق تقرير مصيره بعد الحرب مباشرة ، وإحاطة ذلك الحق بكل الضمانات التى تكفل حرية التعبير عن ذلك . كما تكفل للسودانيين الحق فى تكييف الحقوق الطبيعية مع مصر باتفاق خاص بين الشعبين المصرى والسودانى .

٢ – تأسيس هيئة تمثيلية من السودانيين لإقرار الميزانية والقوانين .

٣ – تأسيس مجلس أعلى للتعليم أغلبيته من السودانيين ، وتخصيص ما لا يقل عن ١٢٪ من الميزانية للتعليم

٤ – فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية .

٥ – الغاء قوانين المناطق المقفولة . ورفع قيود الاتجار ، والانتقال عن السودانيين داخل السودان .

٦ – وضع تشريع بتحديد الجنسية السودانية .

٧ – وقف الهجرة إلى السودان فيما عدا ما قررته المعاهدة الإنجليزية المصرية .

٨ – عدم تجديد عقد الشركة الزراعية .

٩ – تطبيق مبدأ الرفاهية والأولوية في الوظائف .

١٠ – تمكين السودانيين من استثمار موارد البلاد التجارية . والزراعية . والصناعية .

١١ – وقف الإعانات لمدارس الإرساليات ، وتوحيد برامج التعليم في الشمال والجنوب .

وهكذا أكدت هذه المذكرة فهم السودانيين لقضية الحرية . وعزمهم على أن يكون وطنهم لهم . ورغم أن السيد دوجلاس نيوبون السكرتير الإدارى قد رد على هذه المذكرة رداً قاسياً أفهمهم فيه أن ما جاء فى المذكرة يمس مركز السودان السياسى ، ودستوره ، وأن الحكومة ليست على استعداد لمناقشته مع مجموعة من الأشخاص ، وأن دعوى « مؤتمر الخريجين » بتمثيل جميع السودانيين ، وصبغه بالروح السياسية ليست مقبولة ، وأنه بصورته هذه قد فقد ثقة الحكومة ولذا لن تقبل منه هذه المذكرة . . رغم كل هذا نرى الشعب قد التف حول هذه المطالب ، ومن جهة أخرى قد التف حول « المؤتمر » .

ومن هنا نرى « الميرغنية » ، « والمهدية » تسارعان إلى ميدان السياسة المباشر ، وتخوضان معاركه ، ورغم أن المؤلف يؤكد دور هاتين الطائفتين إلا أنا نرى أنهما لم يسارعا إلى الإسهام السياسى إلا لأنهما أحساً ببدء انصراف الناس من حولهما كطائفتين دينيتين – فى حقيقة أمرهما – إلى الساسة الذين بدأوا يلمعون . ومن هنا نراهما يضعان أيديهما على الأحداث فى السودان . ونرى الأمور لا تسير من خلال هاتين الطائفتين . وبخاصة حينما رأينا السياسيين لا يستطيعون الوقوف وحدهم إلا فى ظلال هاتين الطائفتين المتنافستين .

وأمام هذا التكتل الشعبى . وأمام هذا الوعى الذى انبثق من مؤتمر الخريجين الذى كان يمثل المثقفين فى البلاد . رأينا الإنجليز يخلقون هيئة مناوئة تسمى « المجلس الاستشارى لشمال السودان » للحد من نشاط « مؤتمر الخريجين » . وقد شكل بصورة تجعله لعبة فى أيديهم . وهكذا أخذ يتحين مؤتمر الخريجين الفرصة للقضاء عليه إلى أن نادت مصر عام ١٩٤٥ بتحطيم معاهدة ١٩٣٦ . فكان أن ضرب المؤتمر ضربته ، وطالب بالآتى :

١ – قيام حكومة سودانية ديمقراطية فى اتحاد مع مصر ، وتحالف مع بريطانيا ، على أن تحدد الحكومة السودانية نوع الاتحاد ، وأن تقرر فى حينه نوع التحالف مع بريطانيا .

٢ – تعيين لجنة مشتركة نصفها من الانجليز والمصريين ، والنصف الآخر من ممثلى الطبقة المستنيرة من السودانين، على أن يتولى المؤتمر تعيين الممثلين السودانين لوضع مشروع تولى السودانيين مقاليد الحكم فى البلاد فى أقصر وقت ممكن

٣ – اطلاق الحريات العامة حريات الصحافة والاجتماعات ، والتنقل ، والتجارة .

وإزاء هذا التنظيم الذى التف حوله الشعب من جديد رأينا الإنجليز يعودون إلى خلق بلبلة أخرى فى الرأى العام بتشكيل ما يسمى « بالجمعيـــة التشريعية » و « المجلس التنفيذى » وقد تم هذا دون علم مصر ، أو استشارتها ، ولكن الإلغـــاء الفعلى لمعاهدة عام ١٩٣٦ فى مصر وضع الإنجليز فى موقف حرج ، وجعلها تكون اللجان لبحث الموقف،ورأيناها تخرج على الناس بتقرير تحت اسم مشروع « قانون الحكم الذاتى للسودان » الذى كان كالسم فى العسل بما أكده من تدعيم سلطان الحاكم العام ، والإشراف المطلق عـــلى المديريات الجنوبية الثلاث ، وسلطة الإعلان الانهيارى للدستور ، لأن أية وزارة ، وأى برلمان لن يستطيعا العمل تحت هذه الظروف .

وفى الوقت الذى احتشدت فيه إنجلترا لتنفيذ هذا القانون سواء رضيت تصر أم غضبت ، نرى الأحداث متغير فى الشمال،وتقدم الثورة فى ٢٣من يوليو عام ١٩٥٢ ، ونراها تواكب حركة الحرية فى السودان ، فتذكر فى المذكرة التى أرسلتها إلى انجلترا فى ٢ - ١١ - ١٩٥٢ أنها تؤمن إيماناً وطيداً بحق السودان فى تقرير مصيره ، وتقترح فترة انتقال تستهدف ما يأتى :

١ – تمكين السودانيين من ممارسة الحكم الذاتى بالكامل .

٢ – تهيئة الجو الحر المحايد لتقرير المصير .

كما رأيناها تكتل الأحزاب المتنافرة فى السودان ، وتشركها فى بحث القضية . ويتوج كل هذا « باتفاقية السودان » التى اشتملت على خمس عشرة مادة تؤكد حق السيادة السودانية ، وفى ضوء هذا قام الحكم الذاتى . وتمت السودنة .

وفى ١٩ من ديسمبر عام ١٩٥٥ اجتمع البرلمان السودانى وأجاز أربعة مقترحات حددت مطالب البلاد وهى :

١ – إعلان استقلال السودان .

٢ – إجابة مطالب الجنوبيين .

٣ – تشكيل لجنة السيادة .

٤ – تكوين جمعية تأسيسية .

وبهذا تم فى يوم الأحد أول يناير عام ١٩٥٦ مولد الجمهورية السودانية .

وهكذا نرى المؤلف قد سار بنا فى خطوات سريعة وموفقة إلى نقطة الانتصار التى تولد منها استقـــلال السودان .

السودان الحبيب الذى سيزوره فى هذه الأيام الرئيس جمال عبد الناصر .

الواقعية والتجديد في الأدب الأفريقي

بقلم : أفيجنيا كالبرينا
ترجمة : سامى خشبة

« إن النهر لا يمكن أبداً أن يرتد متراجعا إلى منبعه » .
(مثل إفريقى)

من خلال هذه اليقظة الكبرى التى عمت القارة الإفريقية ، والتى جعلتها تأخذ مكانها بسرعة كبيرة على مسرح التاريخ ، ومن خلال هذه الحركة التحررية التى ظهرت فى القرن العشرين للعمل على سحق الاستعمار . يبرز إلى الذهن سؤال على درجة كبيرة من الأهمية حول الدور الذى يقوم به الكتاب والأدباء فى تلك الحركة ، وقد كان هذا السؤال موضوعاً للمناقشات التى دارت فى المؤتمرات التى عقدها الكتاب والفنانون السود فى الأعوام من ١٩٥٦ إلى ١٩٥٩ حيث أثار عدد كبير من الكتاب الإفريقيين موضوع السؤال على ضوء ما ظهر من الدراسات والمقالات والروايات والقصائد بعد انتهاء الحرب وبخاصة فى العقد السادس من هذا القرن العشرين ، كما أسهم فى لفت أنظارنا إلى هذه المسألة نمو حركة التحرر القومى لشعوب إفريقية ومولد عدد من الدول الإفريقية المستقلة الجديدة .

وقد كان من الطبيعى أن يقوم أكثر قادة إفريقية السياسيين اليوم ، والكثير من كبار الكتاب الإفريقيين بتقييم العمل الأدبى أولا على أساس الطريقة التى أسهم بها فى ذلك التقدم المنطلق الكبير .

ويمكننا أن نتمثل هنا بما قاله « سيكوتورى » « رئيس جمهورية غينيا » فى خطابه أمام المؤتمر الثانى للقادة الثقافيين الزنوج ، والذى عقد فى روما من مارس إلى إبريل ١٩٥٩ حيث قال : « إن امكانيات المثقفين والفنانين والمفكرين والعلماء كانت ذات قيمة حقيقية حينما شارك هؤلاء بصورة عملية فى حياة الشعب ، وحينما أسهموا بذكاء فى أعمال الشعب وفى تفكيره وما قام به من كفاح . . . إنه لا يكفى أن نكتب أغنية ثورية ، بل إنه من الضرورى ، لكى نسهم فى ثورة إفريقية ، أن نبعث هذه الثورة وأن نسهم مع الشعب فى خلقها وحينئذ سنرى كيف تأتى هذه الأغانى تلقائياً . . وإن من الضرورى أن يصبح كل فرد جزءاً حياً من إفريقية ومن أفكارها وأن يكون دفعة فى طاقة الشعب الذى تحرك بأكمله وعبأ قواه من أجل تحرر هذه القارة ومن أجل سعادتها وتقدمها » .

وفى خطاب قوى مذهل فى ذلك المؤتمر تحدث الدكتور « فرانز فانون » وهو من أهالى جزر الأنتيل — عن قصر نظر أولئك المثقفين الذين إما أن يقبلوا ثقافة الدول الاستعمارية وإما أن يهبطوا إلى مجرد حصر الحقائق المتصلة بثقافتهم هم أنفسهم دون أن يحاولوا تقديم أى تحليل دقيق للوضع الاستعمارى ، وقد تحدث عن فقر الثقافة وضحالتها فى حدود النظام الاستعمارى ، كما قدم الدكتور فانون فى خطابه تحليلا مطولا للتقدم الذى يحدث الآن ، ذلك التقدم الذى يعكس تأثير الكفاح الوطنى التحررى على الأدب . فصيحات اليأس التى كانت تتردد فى الأدب أخذت تتبدى أمام الشعب ليدينها بعد أن كشفها وعرف حقيقتها ، بينما بدأ الأدب القومى فى الظهور وهو الأدب الذى يسعى جاهداً من أجل توضيح الوعى القومى وتشكيله وإعطائه آفاقاً مطردة الاتساع .

ولا يهمنا اختلاف آراء المشتركين فى مؤتمر روما ، فان القرارات التى اتخذها

المؤتمر إنما تؤكد مسئولية الكاتب إزاء شعبه ، وحاجته إلى تقديم انعكاس صادق لحياة هذا الشعب الذى طالما شوهت صورته وحرفت أفكاره فى عهد السيطرة الاستعمارية .

لقد أخذ الكتاب الإفريقيون على عاتقهم ومعهم كتاب جزر الأنتيل — أن يحرروا أنفسهم نهائياً من التقليد والمحاكاة التى خنقت أدبهم وشوهته من قبل ، وهذا يتضمن التخلص أيضاً من تقليد « الأجانب » وقد ناقش « رينيه مينيل » الكاتب المارتينيكى هذه القضية بحرارة فى خطبه ومقالاته فنقد النقل عن الأجانب فى الأدب ونقد منهج التصوير الخارجى الشكلى القائم على الوصف — الذى اعتاد كتاب المستعمرات أن يأخذوا عنه بكثرة عظيمة — وهو المنهج الدخيل عليهم والذى أخذوه عن الأوروبيين . ويقول مينيل « إن المناظر الاستوائيـــة والطبول والأفكار والمعتقدات الشعبية — الفوكلور — تكون أجنبية غريبة إذا ما قدمت على أنها السمات السائدة وحدها منفصلة عن مأساة الإنسان تحت الظروف الاستعمارية »

وفى الوقت نفسه نجد أولئك الذين ترعبهم اليقظة الإفريقية والحركة الدائبة النشاط من أجل تكوين الأدب القومى الواعى ، نجدهم يحاولون الاحتفاظ بالفن داخل قيود هذه الروح الأجنبية الجزئية غير أننا لا نسمع اليوم ، إلا نادراً تلك النداءات الداعية إلى الاقتباس والمحاكاة فى ميدان الأدب ، ذلك أن الروح القومى كبير الأثر فى إفريقية بينما يتحول الاستعماريون كما يقول « فانون » إلى دعاة متحمسين « للطابع الأهلى » أو المحلى ، وللتقاليد العتيقة التى يحاولون تفسيرها دائماً ، كما لو كانت شيئاً جامداً غير قابل للتغيير — وفى محاولتهم للظهور بمظهر المعارضين للاقتباس والتقليد نجدهم يتفننون فى اللعب على أوتار الإحساس القومى والاهتمام بالتراث القومى بينما هم فى واقع الأمر يبيتون أسوأ النوايا على تحطيم بوادر الشعور الجديد بالحياة وبالتناقض القائم بين التقاليد العتيقة وبين الأساليب الحديثة ، وعلى هذا الأساس تخف نظرية التجديد والأخذ بروح العصر إلى مساعدتهم .

وهكذا يتضح أن قضية الواقعية والتجديد — الأخذ بروح العصر — ليست بالمسألة الأدبية الثانوية بالنسبة للآداب الإفريقية المعاصرة إذ أنها قضية تتعلق بصدق هذه الآداب ودورها الحيوى الكبير . ففى هذه المرحلة من الازدهار السريع للآداب الإفريقية لا يتطور كل الناشئين بسرعة متقاربة ، وكقاعدة عامة ، يمكن أن نقول إن الشعر يتفوق على النثر وإن كانت تجرى بعض التغييرات الهامة فى النثر ، فثمة كتاب جدد يتقدمون إلى مكان الصدارة فى عالم الكتابة ، وثمة أيضاً أولئك الذين كانوا ينقدون المبادئ الاستعمارية نقداً عنيفاً يحاولون أن يجدوا طريقاً جديداً لمهاجمة الاستعمار ، وهذه كتبهم التى تمثل براعم الأدب الإفريقى الجديد تثير تساؤلات ملحة حول الحياة الإفريقية فى أكثر أشكالها حدة وقوة . ومن بين من يكتبون بالفرنسية يحتل بعض الشبان من الكمرون مكاناً مرموقاً ، ومنهم « فرديناند أويونو الروائى الشاب » ، و « ازابوتو » الذى يكتب أيضاً تحت الاسم المستعار « مونجوبتى » و « بنيامين ماتيب » كما نجد بين الجيل الأكبر سناً فى السنغال « عبدالله سادجى » و « عثمان سمبين » ، و « برنارد دادى » من ساحل العاج الذى اشتهر فى عالم الشعر ، كما اشتهر فى عالم الكتابة أيضاً ، وفى أعمال هؤلاء الكتاب نلمح أولى المحاولات لتقديم صورة جديدة للشاب الإفريقى الذى رفض ما كان مفروضاً عليه فى الماضى من ذلة وخنوع ، وتتحدث كتبهم أيضاً ، عن الشاب الإفريقى الذى يبحث عن رأى جديد مستقل حول المستعمر الأبيض ، ذلك الذى زالت عنه هالة القداسة القديمة ، فالشباب الإفريقى قد بدأ يؤمن بقواه الخاصة وبالأحرى قد بدأ يؤمن بقوى بلاده وإمكانياتها .

ونحن نملك صورة مزدوجـــة للمدن الإفريقية الجديدة الكبيرة ، تلك المدن القاسية الفاسدة التى تحتوى فى الوقت نفسه على بذرة إنسان جديد بدأ فى الظهور ، ذلك هو العامل الإفريقى القادر على أن يحارب وأن ينتصر . إن معظم هؤلاء الكتاب إنما يمثلون التناقض

بين حضارتين ، الحضارة الغربية والحضارة الإفريقية ، هذا التناقض الذى لا يبدو فاجعاً أو غير قابل للحل كما يصوره بعض الشعراء وكتاب القانون والسياسة من الإفريقيين الذين لا يقدسون الحياة الإفريقية القبلية ، ولكنهم يوجهون ضربات قاصمة لهذه القوى التى تؤكد جمودها ورجعيتها متضامنة مع قوى الاستعمار ،وهم فى الوقت نفسه يثيرون مسألة ذات أهمية كبرى لإفريقية . . ما هى الطريقة التى يمكن بها لمفاهيم السكان الزراعيين القديمة ، التى تشكلت داخل القرية الجماعية والوثيقة الصلة بالديموقراطية القبلية القديمة ، أن تتحد مع حركة التصنيع وتصبح جزءاً من العصر الحديث ، وهناك بعض النقاد الذين يعلون من شأن هذه الروايات ، ولكنها ما زالت فى الواقع أقل من مستوى الصحافة القوية المتطورة الحية والشعر الجذاب الذى يتداوله الناس غير أن هذا الوضع طبيعى تماماً ، ذلك أن الروائيين إنما قد بدأوا فى الحصول على الخبرة فى شبابهم علاوة على صعوبة الظروف التى تحيط بعملهم ، كما أن معظمهم من الشباب ذوى الخبرة الضئيلة فى ميدان الأدب بالإضافة إلى أنهم يكتبون بلغة أجنبية ، وهذا هو السبب فى رسم ظهور آثار هذه القضايا الاجتماعية الحادة التى يتحدثون عنها فى تصويرهم لشخصياتهم ، ولكن دور النثر الإفريقى ، ومهمته ، قد بدأ فى التحدد حتى فى هذه المرحلة الأولية . وهل سيكشف عن حقيقة الحياة أم سيحاول تقديمها فى شكل مبهم غامض ؟ وهل سيتطور فى اتجاه الواقعية أم فى اتجاه التجديدية المحدثة ومسايرة روح العصر الحديث ؟

لقد كتب الشاعر « برنارد دادى » ترجمته لنفسه عن سنى طفولته وحياته المدرسية ، وعن الطريق الذى اختطه الشاب تجاه الحركة الثورية فى سنوات الحرب وما قبلها ، ولقد كانت أروع صفحات روايته « كلمبى » — سنة ١٩٥٦ — هى تلك التى تحدث فيها عن الطفولة المريرة الصعبة لصبى زنجى يتيم ، وقد قوضت الحرب إيمان « كليمبى» بقوة فرنسا ولكن السنوات التى جاءت بعد انتهاء الحرب سنوات الآمال الكبار حينما بدأ نشاط الحزب الديمقراطى الإفريقى ، جذبته هذه السنوات إلى صفوف المحاربين الإفريقيين — وهناك محاولات أخرى لعرض الشخصية النمطية للرجل الإفريقى الجديد فى رواية « عثمان سمبين » الثانية «يا أرضى .. يا شعبى العظيم » سنة ١٩٥٧ فمؤلف الرواية وشخصياتها جميعاً يشتركون فى الحرب العالمية الثانية وهم يشاهدون الكثير ويتفهمون التجربة الخطيرة الهائلة التى اجتازتها أوروبا خلال تلك السنين ، بينما يربط « سمبين » فى شخصية أحد عمال أحواض السفن فى مرسيليا بين فكرة الكفاح ضد الاستعمار وبين حركة الترابط الدولى المتطورة . وبطل الرواية « أوريمار فاى » هو ذلك الشاب السنغالى التقدمى العائد إلى مدينته ومسقط رأسه بعد انتهاء الحرب حاملا رغبة متلهفة من أجل تغيير حياة الفلاحين فى وطنه تغييراً جوهرياً ، غير أن كراهيته للاستعماريين لا تمنعه من أن يستعير أجمل ما يمكن أن تعطيه أوروبا لإفريقية ، ولكن أفكار « فاى » التقدمية لا تصطدم فقط بقوى الاستعماريين الضخمة وإنما تصطدم أيضاً بالخرافات والتعصب فى البيئة الإفريقية ،ويتركز غرض الكاتب فى توضيح الصراع بين « فاى » وبين الاحتكارات الأجنبية التى تنهك الفلاحين وتدمرهم ، وينظم « فاى » مزرعة حديثة من أجل تغيير حياة الفلاحين وكان يحلم أيضاً بالجرارات تحرث الأرض وتمحو الحدود فيما بين القطع الصغيرة المتناثرة ،وحاول أن يوحد الفلاحين فى مزرعة تعاونية كبيرة واحدة يمكن لها أن تحميهم من طغيان قوة الاحتكارات ، ولكن عملاء الشركة يغتالونه . و « بطل رواية سمبين» إنما يمثل نمطاً جديداً من الإفريقيين ، الإنسان الذى لا يكتفى بأن يكره الاستعمار دون وعى أو فهم ، وإنما يستطيع أيضاً أن يحول كراهيته إلى عمل ، وعلى الرغم من ذلك فان الخطأ الرئيسى فى الرواية كان فى تصوير « فاى » منعزلا بمفرده بينما كانت جماهير الفلاحين الذين يكافح « فاى » من أجلهم منعزلين فى مكان ما خارج الرواية ،وهذا

يقلل كثيراً من قيمتها .

وهناك أيضاً « بنيامين ماتيب » الذى ولد سنة ١٩٣٢ ويدرس الآن فى باريس حيث يتخصص فى الاقتصاد وعلم الاجتماع وهو يمثل الجيل الجديد من المثقفين الذين بلغوا مرحلة الرجولة الناضجة فى العقد السادس من هذا القرن وقصته « إفريقيا » التى نعرفها وتجهلونها — ١٩٥٦ — انما تكشف عن ازدراء الشباب التقدمى للمستعمرين البيض واستخفافهم بهم ، ولكن سلاح القصة لا يتجه فقط ضد الاستعماريين بل يوجه أيضاً ضد الإفريقيين الرجعيين والطاعنين فى السن الذين ما زالوا يبسطون سيطرتهم على الريف ، فوالد بطل القصة اليافع مالك لمزارع غنية وهو يعيش فى وئام مع التاجر الأبيض بينما يبدو شيوخ القرية بتقاليدهم وطقوسهم عقبة فى طريق الحرية ، تلك التى يتوق إليها الشباب المتلهفون على العمل السريع الحاسم . وبالإضافة إلى ذلك فان كتاب « ماتيب » يعكس توتر الموقف فى الكرون فى ذلك الوقت والاتجاهات الاجتماعية الحادة التى اتخذها الطلبة الإفريقيون الذين أصبحوا فى السنوات الأخيرة إحدى القوى التقدمية الكبرى فى إفريقية . وهناك عدد من الروايات التى تساير تطور الشباب فى المدينة ، المدينة الكبيرة الجديدة التى خلقها المستعمرون حاملة لكل متناقضات المدن الصناعية والرأسمالية .

فالكاتب النيجيرى الشاب « كيبريان ايكونس » فى كتابه « شعب المدينة » ١٩٥٤ ، يحاول أن يخلق رواية واقعية حول حياة المدن الحديثة ليرينا فقراءها التعساء الذين تراكموا فوق بعضهم فى أحيائهم المدقعة القذرة ، وليذكر لنا إلى أى مدى قد تعفنت أخلاق الناس فى المدينة . وهذه الفكرة هى أيضاً موضوع رواية « ميامونا » ١٩٥٨ التى كتبها « عبدالله سادجى » الكاتب السنغالى محاولا أن يرسم فيها شخصية « داكار » معدوم القلب والضمير الذى يستغل الناس ويفسدهم .

ولكن رواية « المدينة القاسية » ١٩٥٥ التى كتبها « ايسابوتو » تعطى صورة أكثر عمقاً وتعقيداً للمدينة وبطل هذه الرواية « باندا » الصبى القروى الساذج يأتى إلى المدينة ويعتبره المؤلف ضحيتها ، ذلك أن باندا يحس كما لو كان غريباً فى هذه المدينة بسكانها وحكامها البيض وشرطتها ، ولاحتقارها حياة الإنسان وعمله . ولكن باندا يلتقى بقوة أخرى فى المدينة هم العمال ، فعلى الإنسان أن يكون قوياً إذا ما أراد أن يعيش فى المدينة ، وهؤلاء الناس قد أصبحوا أصلب من الجرانيت ولقد تعلموا كيف يقولون « لا » وفى نهاية الكتاب يتحقق باندا من أنه لم يعد باستطاعته أن يعيش فى القرية البليدة القديمة ، وأن باندا قد تغير . « والمدينة القاسية » رواية كتبها طالب شاب وهى توضح حاجة المؤلف إلى التجربة الأدبية ، فالأفكار والموضوعات الهامة يمسها المؤلف مساً خفيفاً سريعاً ولا يظهرها أمامنا بالتدريج لكى يكتمل شكلها ، وبالرغم من هذا فان النقاد الإفريقيين قد أشاروا إلى هذه الرواية مادحين لها .

وقد نشر « ايسابوتو » روايته « مسيح بومبا الفقير » سنة ١٩٥٦ تحت اسم مستعار هو « مونجوبتى » . والرواية نقد حاد لإرساليات التبشير الرومانية الكاثوليكية التى تعلم المؤلف فيها ورباه رجالها . والكتاب توضيح لاستياء الفتى الذى يحكى القصة من المسيحية كما يحكى أيضاً قصة استياء « الأب دريمونت » المبشر الأمين المخلص الذى قضى حياته وهو يعتقد بسذاجة أنه كان يخلص أرواح الإفريقيين السوداء وينقذها . ولكن ، وكما يبدو من قول المؤلف نفسه فان الأمانة الذاتية لبعض الأفراد مهما كان مقدار عظمتها ، لا تستطيع أن تغير فى شىء من الدور الذى تقوم به الإرساليات الكاثوليكية فى المستعمرات . وبعد عشرين عاماً يكتشف « الأب دريمونت » أن المسيحية لا تكاد تستطيع المضى فى وظيفتها مع الإبقاء على تقاليد الإفريقيين وعاداتهم وأن الناس الذين يعيشون فى أعماق الغابات لا يختلفون فى شى مع تعاليم دريمونت نفسه وأن الآخرين الذين يعيشون فى القرى المتناثرة على طول الطرق الرئيسية يأتون إليه خوفاً وخشية ، ولكن سرعان ما يرتدون عن المسيحية ، ويبلغ دريمونت النتيجة النهائية ، وهى أن محاولاته

لإنقاذ أرواح هؤلاء الناس ترتبط ارتباطاً لا ينفصم بالنظام الاستعمارى ذاته وأن هدف مثل هذه الإرساليات ليس سوى تعبيد الطريق أمام هذا النظام ، وأن تؤكد ذلة الإفريقيين وخضوعهم وتثبتها . وعند ما يتمكن دريمونت من أن يرى الأمور هذه الرؤية الشاملة ، يرحل معترفاً بهزيمته .

أما رواية « مونجوبتى » القصيرة (رسالة مكتملة) – ١٩٥٧ – المليئة بروح الفكاهة والغنائية والتى أجاد المؤلف كتابتها بشكل فنى حقيقى فانها تحمل أكثر مما يبدو لنا منها للوهلة الأولى . فهى ذكرى غنائية لتلك الأيام التى يتحول فيها المراهق إلى سن الرجولة عند ما يخرج من بيت أبيه لينطلق فى العالم الواسع . ويحمل الكتاب صورة عميقة لإفريقية التقليدية ، ففى قرية تحيطها الغابات بعيداً عن قوى الاستعمار يلتقى بطل القصة « ميدسا » الشاب مع الأسلوب القبلى للحياة ، ذلك الأسلوب الممتلىء بالاحترام الكبير للتعلم والمعرفة بالرغم من نوع بدائيته الخاصة . . . ومن الواضح أن بيتى يرفع من شأن الأسلوب القبلى للحياة بكل طريقة من الطرق ، وأنه يرى بعينيه السيطرة الرهيبة التى يفرضها على القرية الرئيس الغنى الذى يسرق الفلاحين ويشترى الفتيات ويبتز كل شىء بالقوة من الجميع معتمداً على سلطته وعلى صلته بالإدارة الاستعمارية ، ويواجه هذا الرئيس الذى يرتكب من الآثام خلال العمل الذى يفرضه على المواطنين أكثر مما يرتكبه الاستعماريون أنفسهم ، يواجه معارضة شرسة من الشباب كما أنه لا يزال يتمتع بقدر كبير من القوة والسلطة .

ويعتبر « بيتى » الآن واحداً من أهم الروائيين الموعودين لمستقبل إفريقية الشابة ، وهو يكتب الآن رواية ثلاثية تقوم فكرتها على تصوير قبيلة إفريقية تدخل العصر الصناعى وقد ظهر الجزء الأول من هذه الثلاثية وهو الرواية التى تحمل اسم « ملك المعجزات » سنة ١٩٥٨ .

وهنـاك أيضاً فى الكمرون الشـاب « فرديناند أويونو » الذى يبلغ من العمر ثلاثين عاماً والذى كرس كتابين من كتبه يحلل فيهما كيفية الانتصار على أيديولوجية ، الإذلال والاستغلال . وأول هذين الكتابين هو « حياة خادم صبى » ١٩٥٦ . ويتكون من مذكرات صبى أصبح خادماً لدى أحد الرؤساء البيض لأنه اعتقد أن « كلب الملك هو ملك الكلاب » ولكنه عند ما يتبين الحياة « الرائعة » التى يحياها البيض بالفعل يبدأ فى احتقار أعمال سادته وكراهيتها ، بل إنه ليديها كذلك فى أعماقه . ولكنهم ينتقمون منه جزاء له على محاولته ورغبته فى أن يصبح نداً لهم ، هذه المحاولة التى لا يمكن أن يغتفروها له أبداً ويعبر الفتى المضطهد المعذب الحدود ويموت فى جيانا الأسبانية ، إنه ضحية المستعمرين ، ولكنه أيضاً كان ضحية أوهامه واعتقاده أنه يمكن له أن يخلق لنفسه حياة خاصة بمساعدة سادته المستغلين البيض وهو لم يستطع أن يرى الأشياء على حقيقتها إلا بعد أن دفع حياته ثمناً لذلك ، ويعتبر المؤلف هذه النتيجة الطاحنة هى السمة القاسية لهذا العصر الاستعمارى الذى لا يعرف الرحمة . وعلى العكس من « ماتيب وبيتى » فان « فرديناند أويونو » فى كتابه الآخر « الزنجى العجوز والميدالية » وهو أحسن من كتابه الأول يحاول أن يصور الأفراد الطاعنين فى السن والأكثر جهلا من الناس فى المناطق البعيدة المتخلفة من إفريقية وقد بدأوا يرون الأشياء كما هى فى الواقع ، وفى هذه الرواية التى كتبت بدقة وعناية تبدو الفكاهة الساخرة والطريقة الطبيعية الرصينة واللغة البسيطة الساذجة تبدو كل هذه الأشياء وكأنها تخلق ثغرة بين المؤلف وهو أحد أفراد الجيل ، الشاب التقدمى وبين « ميكا » الزنجى العجوز . ففى بداية الرواية نرى « مكا » نموذجاً واضحاً للزنجى الطيب الذليل الذى يجسم المثل الأعلى لدى المستعمرين وقد قتل اثنان من أبنائه فى حروب البيض وهو أيضاً قد تنازل عن أرضه مختاراً كى يبنى عليها كنيسة كاثوليكية . ويصور المؤلف الموقف المضحك الساخر عند ما أعطى موظف رسمى أبيض « لمكا » ميدالية مبيناً فى هذا الموقف نفاق السلطات وزيف ريائها مما جعل من هذا المشهد

تعليقاً ساخراً على آلام (مكا) الطويلة القديمة . ولكن هل يمكن أن تتغير طريقة « مكا » المؤسفة فى التفكير ؟ هل يمكن أن يستيقظ فيه إحساسه بالكرامة الإنسانية وبعزيمته الوطنية . . . « مكا » الذليل الذين سخروا منه وجعلوه أضحوكة غبياً لا يستحق الاحترام ؛ هذا هو السؤال الرئيسى الذى تثيره الرواية . وهى على الرغم من سخريتها لا تخلو من لمسة إنسانية قوية مما يذكرنا برواية جوجول « القناع » أو برواية « دستويفسكى » « المساكين » فالإنسان والإفريقى سرعان ما يستيقظان فى قلب هذ المخلوق المستذل الضعيف بعد هذه الليلة الكبيرة التى منحوه فيها الميدالية وبعد أن فقدت منه الميدالية ذاتها ويشعر « مكا » فى حزنه واتضاعه لأول مرة بأنه أهين ولأول مرة أيضاً تثور فى هذا الثرثار الساذج مشاعر الكبرياء عند ما يسترجع ذكرياته عن أجداده من الملوك والرؤساء ويمضى « مكا » ليشرب نبيذ البلح مع أحد أقاربه ليسترجعا ذكريات الماضى العظيم للقبائل الحرة .

إن الفكرة التى أخذها العالم عن الزنوج بوصفهم أطفالا مطيعين سذجاً تتلاشى الآن من أذهان المستعمرين ومن أذهان الإفريقيين أنفسهم ، كما قد تحطمت تلك الأغنية المخادعة عن السلام الاجتماعى بين هذين العالمين المختلفين عالم المستعمرين وعالم أبناء إفريقية . ولكن الكتاب يعقد مقارنة غير محددة المعالم بين أبطال إفريقية القديمة الحرة والمحاربين وبين أولئك الفلاحين الذين يغرقون أحلامهم المليئة بذكريات البطولة فى نبيذ البلح ، كما أننا نلاحظ وجود مسحة من السخرية المريرة فى الكتاب إذ يتساءل المؤلف عما إذا كان فى وسع هؤلاء الناس النهوض بالعمل الإيجابى لإنقاذ أنفسهم مما هم فيه وليس فقط من أجل تفهم ذلتهم . يثير أويونو هذه القضية فى كتابه ، وفى الوقت نفسه تقوم الحركة الكبيرة التى تضم فى تيارها الكثير من الناس فى الكمرون والكونغو وغانة لتجيب إجابة واضحة معينة على هذا السؤال ، ولكننا ، بدون أن نقلل من أهمية كتابات الشباب الإفريقى ، نود أن نؤكد أن عدداً من هذه الروايات والقصص كان من الممكن أن تكون أكثر ثراء فى المضمون وأكثر قوة فى التأثير لو أن الحوادث التى تضمنتها كانت قائمة على أساس من التيارات والعواصف الهائلة التى تهز إفريقية الآن . وقد ينتج عن هذا أيضاً أن تعبر نفس شخصيات أبطال هذه القصص تعبيراً أكثر امتلاء وأشد عمقاً عن المأساة الكامنة فى حياة هؤلاء البشر ، وعن الشعب الذى يشق طريقه من العبودية إلى الحرية بالقوة . وعلى أى حال فان اتجاه هذه الكتابات يمضى بها إلى حيث يشعر بها الناس كما أنه يكافح جاهداً لكى يعطى صورة حقيقية للقوى الجديدة فى إفريقية ولحركتها التحررية .

ويمكننا أن نكتشف طريقاً آخر فى تطور الكتابة عن الشباب الإفريقى ، يناقض الاتجاهات الواقعية ، فى كتابات الروائى الشاب « كامارا لاى » على سبيل المثال ، وهو الروائى الذى لا نشك فى موهبته . لقد ولد « لاى » سنة ١٩٢٨ فى غانة الفرنسية فى عائلة حداد ثرى ، كان يعمل أيضاً كنقاش وصانع للحلى تبعاً للتقليد الإفريقى الذى يقضى بأن يضم الحداد إلى عمله هاتين الوظيفتين . وبعد أن ذهب « لاى » إلى فرنسا ليدرس الهندسة ، كتب هناك روايته الأولى ، التى كانت تصويراً لحياته هو الخاصة « الصبى الأسود » سنة ١٩٥٣ والتى لاقت نجاحاً كبيراً فى باريس وترجمت إلى عديد من اللغات . وإفريقية كما يصورها « لاى » مكان وهمى إلى حد كبير ، لا يربطه سبب من الأسباب بالحقيقة الواقعة ، فهو لا يتجاهل مشكلات الاستعمار فحسب ، ولكنه يتجاهل أيضاً حقيقة وجود الاستعمار ذاته ، وإفريقية التى يصورها هى إفريقية القبلية البدائية ، بدون الفرنسيين وبدون العلاقات المتبادلة بين الأهالى والمستعمرين ، وهو يبرز فى كتاباته القيم الأخلاقية العتيدة الموقرة لظروف البيئة الإفريقية القبلية مؤكداً رحمتها وعطفها ، مثنياً على طبيعتها التعاونية المتحررة من الأنانية وعلى نبلها ، متحدثاً عن رقة العلاقات بين الآباء والأبناء ! ! وهو يمضى متغنياً بعمل الفلاحين بينما يصف احتفالات الحصاد وصفا

هانئاً مليئاً بالسعادة كما يصف المرح الذى يصطبغ به العمل الجماعى ، ويزعم أن علاقات الناس فى القرية إنما هى علاقات تتسم بالود والاحترام ، وتتناغم ألحان القرية القديمة وقصائدها فى أعمال « لاى » مع ألحان وقصائد الأسرة القبلية . وفى الوقت نفسه ، الذى يصور فيه روائيون شبان آخرون التناقض الحاد بين الجيل التقدمى الجديد وبين الجيل القديم المحافظ ، يبذل « لاى » أقصى ما يمكنه من الجهد ليؤكد شاعرية طبيعة الأسرة التقليدية ، وهو يصور أباه فى الرواية كساحر قادر على الإتيان بالمعجزات ، وحينما يكون مشغولا بانشاء أغنية يمدح فيها سيده ويطريه ، يعمد فى الوقت نفسه إلى صنع حلى ذهبية من المعادن الخسيسة حتى يثبت مقدرته . وهكذا يتحول المشهد إلى عملية من عمليات السحر باستخدام النار . وبوجه عام فان أناشيد السحر تشغل جزءاً كبيراً من رواية لاى الذى يتجنب عامداً ، أن يحدد موقفه من السحر نفسه . وإننا لنتساءل . ما الشىء الذى يملك كل هذه الجاذبية والسلطان على نفس لاى ؟ أهو السحر والتنويم والتطبيب الشعبى ؟ أم هو – بشكل أكثر بساطة – تلك السمات الشاعرية التى تميز إفريقية القديمة ، تماماً مثلما نعرف ما لهذه الأشياء من الجاذبية بالنسبة للقارىء الأوروبى الذى يعشق كل ما هو غريب مثير للدهشة يأتى من أرض بعيدة .

وليس هناك شك فيما لكتاب « لاى » من جاذبية خاصة ، بالرغم من أن صورة بلاده كما يحبها إنما هى صورة وهمية ضالة ذات زاوية واحدة مما يعتبر تجنياً على حقيقة الفن وإرهاقاً لها فلا عجب أن نسمع كاتباً إفريقياً شاباً يعلن أن كتاب « لاى » إنما يضحى بالحقيقة من أجل الصورة .

وفى رواية « لاى » الثانية (الباحث عن الملك) تختفى نهائياً بساطة الأسلوب ، واستقامته ويحل محله نثر ممزق بعيد عن الواقعية يقوم طابعه على المزج بين الحقيقى والوهمى ، وعلى إدماج الحقيقة والخيال ، ومن الواضح أن موضوع الكتاب موضوع افتراضى بينما يبدو الإطار الذى تجرى فيه الصور سراعاً متلاحقة مندرساً مطموس المعالم ، وفى الوقت نفسه يتضح أن الهدف الوحيد للكتاب إنما هو خلق بيئة أو ظروف أو جو رمزى يرمى إلى معانيه المختفية .

وتجرى الأحداث فى إفريقية التقليدية الجامدة – بدون تحديد مرحلة زمنية معينة – فكلارنس الأبيض الذى أضاع ثروته يريد أن يدخل فى خدمة أحد الملوك وتتكون عقدة الرواية وقمة تأزم الحوادث فيها من عملية بحث « كلارنس » عن هذا الملك الشاب وإعداده لقدومه . ويمكننا أن نجد فى الرواية عدة صور لإفريقية كما تبدو هذه القارة فى نظر «كلا رنس» وأولى هذه الصور ترينا بعض الفنادق القذرة واللصوص والغش والخديعة المتبادلة ، وجماعة قذرة من الناس يغمرهم العرق يرقصون فى انتظار قدوم الملك . وتهوم فوق كل هذا الجو صورة لملك شاب فى زى أبيض كالثلج كصورة رومانسية لإحدى عرائس الحور تتبدى سابحة فى الهواء الرقيق ثم تختفى فى السماء .

وصورة أخرى هى صورة إفريقية ذات الأدغال الرطبة وشذا الزهور المسكر ، الذى يذهب بالوعى . والتنعم الشهوانى فى الحريم ، والغادات عاريات الصدور ، والحيوانية المنحطة . والكسل القاهر المسيطر الصادر عن ذلك الجو الاستوائى السام كل هذه الأشياء تجذب إفريقية إلى الوراء وكل هذه الأشياء الخانقة ترقد ساكنة فى قلب إفريقية بلا حراك .

ويقابل كلارنس الملك أخيراً ، وتنتهى القصة بتساؤل واضح : ما الذى يصوره هذا الملك ؟ هل يمكن أن نفسر هذا الشاب الوسيم على أنه رمز لماضى إفريقية أو على أنه رمز لعظمة مستقبلها ،أو ربما كان الأكثر صحة وصواباً هو أن هذين الرمزين معاً سيلتحمان فى رمز واحد ؟ ولكن « كلارنس » يخجل من أن الكسل والحيوانية المنحطة قد تملكاه أيضاً ومن أنه لم يفعل شيئاً من أجل الإسراع بمجىء الملك وإننا لنتسائل : هل يمكن أن يكون هذا اللوم موجهاً من ناحية ضد نفسه ؟

ويبدو أن الفكرة التى يرمز إليها هذا الكتاب هو أنه خلف هذه الحقيقة الفجة

لإفريقية وخلف هذا الكسل الحيوانى المزعوم يكمن المثل الأعلى الثورى لعظمتها ولكن « لاى » لم يربط هذا المثل الأعلى بصورة إفريقية الحقيقية ولا بشعبها ولا بحياتها الحالية بأى طريقة من الطرق فبدا هذا المثل الأعلى مهوماً فوق البلاد غير نابع منها بأى شكل ، بل إنه لينطلق فى اتجاه مضاد لاتجاه الشعب كله .

وهنا يكمن السبب فى فشل إنتاج . . « كامارالاى » كما يتراءى لنا ويمكن أن نعتبر رواية « الباحث عن الملك » مثلا بارزاً للرواية الإفريقية التجديدية الآخذة بروح العصر ، وبالرغم من أن « لاى » قد أثبت أنه صاحب أسلوب حاذق إلا أن كتابه يثبت عجز الكاتب التجديدى عجزاً واضحاً عن الكشف عن مقدرات إفريقية وشعبها . ولا تعتبر ورطة « كامارالاى » استثنائية غير متكررة ، إلا أن تأثير المذهب التجديدى أكثر قوة على الشعر ، وقد عقد شعراء إفريقية وجزائر الأنتيل مناقشة منذ عدة سنوات فدافعوا بحرارة عن الفكرة القائلة بأنه ليس مما ينبغى أن يقلد الشعراء الإفريقيـــون المستويات والتقاليـــد الأوروبية ، بيد أن هناك أساليب أخرى للتقليد مثل الأسلوب السريالى والأسلوب التعبيرى اللذين أغرق الكثير فى تقليدهما، فلقد اكتسحت موجة من التأثير السريالى كثيراً من الشعراء الإفريقيين إلى جانب عدد من الشعراء فى هاييتى وجزائر المارتينيك ، أما مبادىء هذه السريالية فهى تجاهل التتابع المنطقى فى الكتابة والإكثار من التلميحات الذاتية العميقة مما يثير فى الشعر تعقيداً مؤلماً ، وإنى لأرى أن هذا مما يطمس قدرة شعراء بارزين مثل ليوبولد سيدار سنغور وأنه لمن المؤلم حقاً ألا نرى فى كل كتب الشعراء سوى عدد ضئيل من القصائد التى يمكن فهمها بما فى ذلك أعمال بعض الشعراء المؤمنين بالمبادىء الاجتماعية التقدمية .

وإن أبرز أخطار هذه المؤثرات التجديدية هو تلك الذاتية الخطيرة (ومن هنا ينشأ التعقيد) فى القوالب الشعرية مما يؤدى بالعمل الفنى إلى فقدانه كل اهتمام ...ى وإلى فقدانه كل مقدرة فى التأثير على القارئ أو المستمع .

وإنه لمن المحزن أن نذكر أن الكتاب الإفريقيين مثلهم فى ذلك مثل كتاب هاييتى والمارتينيك لا يمكنهم أن يقدموا عملا يفهمه ويتقبله الفلاحون الأميون فى بلادهم ، ذلك أن هؤلاء الكتاب يكتبون بلغة أوروبية ، ثم تأتى هذه الإشارات الذاتية المغرقة فى تهتكها وانحلالها فتزيد من حدة المأساة وتأزمها وتفصل الشاعر حتى عن الفئات الاجتماعية المتعلمة والمحدودة نسبياً التى تكون قراءه وجمهوره . ولا تقتصر المشكلة على هذا الأمر فالتجديديون الأوروبيون فى الفن والشعر معاً يحاولون — باصرار شديد — أن يجدوا روابط داخلية وخفية بين التجديدية الأوروبية والفن الإفريقى وقد فسر التجديديون الأوروبيون هذه العلاقة أخيراً بأنها عودة الفن الأوروبى إلى البدائية الأولى وإلى الضمير الطفولى الساذج ، ضمير ما قبل اكتشاف المنطق ولكن منذ أن تم اكتشاف أن هذه الشعوب التى قيل عنها من قبل إنها بدائية لها علاقات بعيدة القدم مع الحضارات القديمة وأشكال الفن الراقية المتنوعة ، منذ أن تم اكتشاف كل هذا ، تغيرت الأسباب التى يذكرها التجديديون الأوروبيون لتبرير محاولاتهم لإيجاد رابطة بين التجديدية وبين الفن الإفريقى وكان هناك بعض أصحاب النظريات الفنية ممن يؤمنون بالرأى القائل بأنه لم يكن هناك سوى اتجاه واحد مضاد للواقعية فى الفن الإفريقى (بالرغم من أن هذا الرأى تكذبه الحقائق المعروفة ، مثل فن إيفيه وبيفين العظيم) ويعتقدون أن هذا الاتجاه كان مشابهاً للمذهب التجريدى الحديث ، ومن الواضح أن هذه الأقوال التى تهتم بالصفات الظاهرية للأشياء إنما تقوم على أساس من النظرة الميتافيزيقية المتعلقة بمستوى الوعى الإفريقى الذى يبدو لهم ثابتاً متجمداً غير متغير وعلى هذا الأساس تتجمد أسس القيم الجمالية الإفريقية بدرجة تجمد الوعى الإفريقى . ولكن إفريقية تتغير بسرعة ووعى

ظهرت على الساحل الشرقى لإفريقية الوسطى وكانت ذات حضارة راقية وفنون متقدمة .
« المترجم »

الشعوب التى تنطلق الآن قدماً لتلحق بركب التاريخ ليس وعياً متجمداً ، بل إنه ليتطور كذلك ، ويتطور إلى الأحسن ، وينعكس تأثير التجديدية التى تقوم على قواعد التفكير الثابتة غير المتغيرة ، ينعكس هذا التأثير على الأدب الإفريقى فى ذلك التجاهل المتعمد الزائف لمشكلات الساعة ، وفى فصل الفن عن أفكار وواجبات الصراع القومى التحررى . ونزيد على هذا قائلين إن تأثير التجديدية مرتبط دائماً ببعض الآراء المحافظة « الوقائية » عن تطور هذه البلدان وتقدمها .

* * *

الواقعية أم التجديدية ؟

إن المشكلة التى نحن بصددها ليست مجرد مشكلة أدبية وليست مجرد مناقشة بين اتجاهين أدبيين ولكنها التعبير الأدبى عن صراع واسع الجنبات حول الطرق التى تتقدم عليها إفريقية والتى ستواصل عليها هذا التقدم .

وإنه لمن الممتع أن نفحص من هذه الزاوية وضع الجريدة الأدبية « أورفيوس الأسود » التى ظهرت فى نيجيريا عام ١٩٥٧ والتى أصدرتها وزارة التعليم فى مدينة « إيبادان » وأشرف عليها ألمانيان من المتخصصين فى الشئون الإفريقية « جاهنيز جان » و « أولى بيير » وجان من جمهورية ألمانيا الاتحادية معروف بترجماته العديدة الممتازة عن شعراء من إفريقية وجزائر الأنتيل وشعراء أمريكا الجنوبية من الزنوج ومع ذلك فان فكرته عن الفن الإفريقى تقوم على أساس التجمد المزعوم للأيديولوجية الإفريقية (أسلوب التفكير الإفريقى) معتمداً على الغرض القائل بأن المبادىء الرئيسية لفلسفة قبائل البانتوس التى يبلغ عمرها ألف عام بقيت على حالها بدون تغيير ، وأن بعض سمات هذه الفلسفة مثل الاعتماد المطلق على الدين ومعاداة الواقعية وعدم وجود فروق بين الشخصيات ، إنهى إلا أمور متوارثة فى كل الفنون الإفريقية .

وتنشر صحيفة « أورفيوس الأسود » ترجمات ممتازة لقصائد بعض الشعراء الزنوج من إفريقية وجزائر الأنتيل وأمريكا اللاتينية والولايات المتحدة الأمريكية ولكنها تشجع – بشكل واضح أحياناً وبأسلوب غير واضح فى أحيان أخرى – الشعر والنثر اللذين ينفصلان عن المشكلات الاجتماعية الحالية كما تؤيد التقاليد الإفريقية القديمة ذات الأصل الخرافى والمتناقضة مع الحياة الحديثة .

ومن الطبيعى أن هذه الصحيفة قد أثنت على رمزية « كامارا لاى » ثناء مستطاباً كما أن تقديرها لكتابات الأدباء الشبان فى نيجيريا ، وبصفة خاصة تقديرها لأعمال « آموس تيتوالا » كان تقديراً متميزاً ففى ثلاثة كتب لتيتوالا : « سكير نبيذ البلح » و « حياتى فى شجرة الأشباح » و « سيمبى مع ساتر الأدغال » . استطاع تيتوالا أن يخلق نوعاً خاصاً به من الكتابة مستخلصاً أحداثه وموضوعاته من أساطير شعب اليوروبا وآدابهم الشعبية . وقد لاقت كتب تيتولا نجاحاً كبيراً فى انجلترا لسبب رئيسى هو غرابة موضوعاته وشذوذها مما يجعلها تبدو فى نظر الجمهور الإنجليزى قوية الصلة بخيالات الأدب التجديدى ، وذلك أن البطل عند « تيتولا » يتخلى عن حياته العادية فى سبيل عالم الأرواح الخرافى ومملكة الموتى أو غابة مليئة بالأشباح ، أو أدغال مظلمة ، أو مملكة الساتير الخرافى حيث يواجه قوى خرافية عديدة مرعبة تقلقه وتفزعه وبعد أن يتحمل كل أنواع المحن يكر عائداً وقد امتلأ خياله بصور وتهاويل خرافية رهيبة تركت أثرها العميق فى نفسه . . وعند ما يصف الناقد الأدبى « جيرالد مور » كتب تيتوالا – بأنها تطور (للأسطورة البطولية ذات الموضوع الواحد) نراه يبتهج لفكرة ابتعاد بطل تيتوالا متخلياً عن المجتمع ومنعزلا وسط احتكاكاته ومشاحناته مع القوى الكونية الهائلة . ويقارن « مور » بين تيتوالا صاحب الخيال الثرى وبين مؤلفى القصة الاجتماعية فى أوروبا مناقضاً بينهما ويكتشف أوجه الشبه بين تيتوالا ودانتى

---

(١) الساتير – حيوان خرافى فى الميثولوجيا اليونانية القديمة .

« المترجم »

(على الرغم من أن جحيم دانتى لم تكن أبداً منفصلة عن المجتمع العالمى المعاصر لدانتى نفسه) بل إن المجلة تناقض بين عالم « تيتوالا » المنعزل عن المجتمع وبين كتاب نيجيريا الذين يبذلون الجهود لمعالجة العلاقات الاجتماعية المعاصرة الحقيقية وتقول المجلة عن آخر كتب تيتوالا : « إن الصور التى خلقها (مثل صورة – الموت – وهو يعمل فى حديقة ، أو الأرض – وهى تمنح هباتها الإنسانية للسماء) إنما هى أكثر واقعية من الناس الحقيقيين فى رواية « اكوانسى »

وليس من شك فى أن « مور » الذى يتناقض بين تيتوالا وبين الكتاب « المقلدين » ويؤكد متباهياً حقيقة أن تيتوالا الذى انعزل داخل نفسه ليس كبير الثقافة . ليس من شك فى أن « مور » قريب كل القرب من الأساطير الشعبية القديمة إذ يقارن بين تيتوالا وآنتيوس « ذلك الذى عند ما يلتقى مع « أمه الأرض » فانه سيجد موضوعه وقالبه وأسلوبه وسيبلور كلا منهم » وهكذا يجب أن يكون الشاعر مشابهاً « لآنتيوس » أى أنه يجب أن يحتفظ لنفسه بأوثق الصلات مع الأرض أرض قومه وأرضه ، ولكننا نعرف أن الأرض هنا لا تعنى سوى الميثولوجيا – الأساطير الدينية – القديمة وأنها تقدم كشىء يبقى آلاف السنين دون أى تغيير وكشىء يمكن أن يكون ثانية مصنعاً لمنتجات جديدة ، وهكذا تصبح صورة آنيوس التى نفهمها جيداً مزدوجة المعنى ونعرف أن واحداً من هذين المعنيين موجه ضد الأدب التقدمى .

وتعتبر مشكلات التراث الأدبى والأسطورى الشعبى مشكلات حادة بشكل غير طبيعى فى كل البلاد الإفريقية حيث تقوم التقاليد الشعرية وبخاصة التقاليد المتوارثة عن طريق النقل اللفظى الشفهى ، وحيث تقوم الأساطير والقصص الشعبية بالدور الذى يقوم به التراث الكلاسيكى بالنسبة للآداب الأوروبية ، وفى ذلك المؤتمر الذى عقد فى روما أكد المجتمعون أهمية جمع القصص والأساطير والقصائد الشعبية ، وأهمية بذل الجهود لكتابتها . وفى غضون السنوات الأخيرة استطاع علماء الأجناس والسلالات الإنسانية أن يخرجوا عدة كتب تحتوى على الأقاصيص والأمثال والقصص الشعرية ، ولا يمكننا أن ننسى أن النماذج التى قدمها وزخرفها بعض الكتاب الإفريقيين مثل الشاعر النيجيرى « أوديهوى بابالوا » ، و « برنارد داد » ، و « بيراجو ديوب » صاحب الأسلوب الجذاب الممتلىء . أقول إن النماذج التى قدمها هؤلاء الأدباء كانت نماذج جميلة حقاً ، ولا تخفى أهمية الدور الذى تلعبه القصص الشعبية المكتوبة والمعاد صياغتها بأسلوب أكثر تنسيقاً فى البلاد التى تنتشر فيها الأمية بين غالبية السكان الذين لا يمكنهم الحصول على أى شكل آخر من أشكال الأدب سوى هذه القصص والأساطير الشعبية ، وقد كانت الأقاصيص التى تحكى فى الأمسيات والأقوال التى تعتبر ركازة الحكمة لدى الشعب وسيلة هامة للتعليم فى تلك المناطق ، كما أن المنشدين الشعبيين والقصاصين كانوا يظهرون أحياناً بمظهر المؤرخين لشعوبهم إذ يتوارثون الأساطير البطولية للقبائل جيلا بعد جيل ومن هنا يمكن أن نفهم لماذا يعزى الكتاب التقدميين أهمية كبيرة إلى الأقاصيص والأساطير الشعبية ؟ ولماذا يهتمون بجمعها وكتابتها ؟ ولكن تقوم من جهة أخرى محاولات – مكشوفة أو مستترة – لإظهار التناقض المزعوم بين التعبير « الطبيعى » للشعوب الإفريقية وبين كل أشكال وقوالب الأدب الحديث وبخاصة الرواية الاجتماعية الواقعية التى يزعمون أنها غريبة وبعيدة عن أسلوب التفكير الإفريقى .

ولهذا الغرض قام « رولاند كولين » الموظف الفرنسى الاستعمارى الشاب فى كتابه (أقاصيص زنجية من إفريقية الغربية) ليؤكد القول الذى يزعم أن القصة تكافح من أجل الإبقاء على الشكل التقليدى المحافظ للحياة ، طالما أن القصة نفسها « وقائية » ومحافظـة بطبيعتها . وعلى الرغم من أن « كولين » لا يمكن له إلا أن يعتبر القصة انعكاساً كاملا للقوى الحقيقية فى بلاد إفريقية ، إلا أن القصة بالنسبة له إنما تعبر بشكل بدائى عن الفلسفة التى تعتبر الكون محكوماً بقوى تأتى من خارج الطبيعة

والتى تقول بأن كل معانى ومميزات هذا الفن الشعبى الذى يراه « كولين » دينياً حتى النهاية ، وإنما تأتى من المخالطة الكاملة والامتزاج التام بتلك « القوى » الآتية من خارج نطاق الطبيعة . ومن المهم أن نؤكد أنه يوجد فى القصص خاصة وفى الأدب الشعبى الإفريقى عامة (وليس فى الأدب الإفريقى وحده) جانبان ، الأول محافظ ويعمد على العقائد الدينية والآخر علمانى وواقعى ويعكس الحياة ، وآمال الشعوب ويتخذ صفة إيجابية وثورية فى بعض الأحيان .

وفى الخطب التى ذكرناها فى بداية هذا المقال ، قال « فانون » إن الكفاح التحررى القومى فى إفريقية لا يهيىء للتغييرات فى الأدب المكتوب فحسب ، وإنما يهيىء للتغيير فى الفن اللفظى وفى الأقاصيص والأغانى والقصص الشعرية أيضاً . ويقوم القصاصون والمنشدون الشعبيون بتصوير الصراعات الحديثة فى أعمالهم وهم يصبغون أسماء الأبطال بالصبغة الحديثة ويكثرون من الإشارات إلى الحياة الجديدة ، بل إن القصاصين يقدمون شخصيات جديدة تماماً يستقونها من الأبطال القوميين المحدثين ، ومن هنا يمكن أن نقول واثقين، إن الأحداث المعاصرة تكذب فكرة « كولين » القائلة بالدور (الوقائى) الذى تلعبه القصة .

إن المحاولات التى تبذل من أجل حصر الأدب الإفريقى داخل حدود الآداب الشعبية القديمة لن تتمكن من أن توقف تطوره ، كما أن الأحداث التى تجرى الآن فى إفريقية سوف تكون سبباً جسيماً فى حدوث ظاهرة جديدة مذهلة فى الأدب ، ذلك الأدب الصادق الذى يقود الشعوب فى طريق التقدم .

* * *

إن اطراد تقدم المحاولات من أجل خلق أشكال جديدة للواقعية فى الأدب الإفريقى وبشكل عام فى البلاد غير المتقدمة التى تضطرم بحركات قوية للتحرر الوطنى سوف يكون تقدماً معقداً شديد الصعوبة وتكمن الصعوبة والتعقيد فى الحاجة الملحة إلى إيجاد الصورة الملائمة من الواقعية ذات القدرة على تقديم صورة واسعة الجنبات للتحولات الاجتماعية التى تحدث الآن ، بينما يجب أن تكون الشخصيات الجديدة مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالتقاليد القومية الحية ، وبحكمة الآداب الشعبية وصورها ، ويبدو أنه من السهل أن نحصل على كل هذه الضرورات فى الشعر ، وعلى سبيل المثال يمكن أن نرى فى قصيدة « كيتا فوديبا » (الفجر فوق إفريقيا) الذى استطاع أن يخلق عرضاً حديثاً لجندى إفريقى فلاح قتلته السلطات الفرنسية، وتنتهى القصيدة بصورة حدأة تحوم فوق المكان الذى حدثت فيه المأساة ، وليس من شك فى أن هذه الصورة قديمة وذات طابع فولكلورى ، ولكنها تصبح فى القصيدة رمزاً للانتقام الوشيك المرتقب كما أننا نتقبلها كصورة شعرية وطبيعية جيدة . ولكن من الصعب أن نصل إلى هذه البلورة العضوية فى بناء الرواية المتشابك المتشعب . وفى هذا الصدد اقترح الروائى الهاييتى « جاك الكسيس » فى صحيفة « إفريقيا المعاصرة » تعبير (واقعية المعجزات) وهو تعبير يصلح لبلاده إلى حد كبير ، كما يصلح للروائيين فى البلاد غير المتقدمة .

وقد تحدث « الكسيس » أيضاً عن مدى خطورة تجاوز الحدود المعقولة فى تقليد الاتجاهات الأجنبية فشبه الروائيين « بأنتيوس » الذى تكمن قوته فى صلته بأمه (الأرض) أرض أمته ولكن ألكسيس على خلاف المفكرين من كتاب « أورفيوس الأسود » عرف أن المهمة الملقاة على عاتقه هى خلق واقعية اجتماعية عظيمة مما يساعد على عملية تصوير مأساة الشعوب المستعبدة وتصوير كفاحها فى أشكال وقوالب قومية لا ترتبط بالتقاليد فحسب، وإنما ترتبط أيضاً بحياة هذه الشعوب ذاتها ، ونحن نعرف أن هذه الحياة التى لها تقاليدها البطولية والثورية قد قام الشعر الخاص بتصويرها وإضاءة جوانبها . كما نعرف أن العقائد الوثنية والأغانى الشعبية والاحتفالات والعادات البهيجة الألوان والمهرجانات ، تشترك جميعاً فى تكوين جزء من حياة هذه الشعوب ويجب أن تكون جزءاً من النسج الفنى للقصة المعاصرة . « والكسيس » مثله فى ذلك مثل كثير من الكتاب الإفريقيين يشعر بأن حياة الناس قد فقدت شاعريتها فى البلاد الاستعمارية وأن الفن قد انعزل بعيداً عن الجماهير

وهو يعرف أن الفن جزء من اهتمامات الناس الجماعية اليومية فى البلاد غير المتقدمة ، كما يعرف أن رفع مستوى هذا الفن إلى مستوى الفن المهنى المدروس وتطعيمه بأدق تقاليد الفن العالمى سيكون من نتائجه إعطاء نوع الرواية ذاته صفات جديدة وإعداد الثقافة العالمية بالكثير من الصفات الخاصة والجديدة ولقد أصبح فى استطاعة هذه الشعوب الشابة الآن ، أن تتحمل مسئولية البدء فى اكتشاف أشكال وقوالب فنية جديدة . وقد كتب الكسيس « إنك قد تدهش إزاء الدور الذى خصصته للشىء المعجز » فى واقعية الأدب الهاييتى ، ولكن الخيالات هى الكساء الذى تضفيه بعض الشعوب على حكمتها ومعارفها عن الحياة . وليست الظواهر الطبيعية بالنسبة إليهم سوى كائنات حية اقتحمت حياتهم بدون سابق إنذار فاذا نحن أبعدنا الهدف الميتافيزيقى عن صور الأساطير فان هذه الصور سيمكنها أن تلعب دوراً هاماً فى تشكيل تفكير الناس ويمكننا نحن من خلال هذه الصور أن نشارك بشكل أفضل فى تطور هذا الشعب وفى آماله ، وإنه لمن الواجب أن يتبع هذا التقليد فى تلك الواقعية الاجتماعية العظيمة التى تظهر اليوم فى كل مكان مما يجعل من السهل خلق روايات قوية ذات مجال كبير ومدى أكثر اتساعاً ، وذات صور شاملة تسلط فيها الأضواء القوية على الجماهير حتى تتضح سمات الأفراد وأشكالهم ، وعلينا أن نذكر أن تقاليد الفن الشعبى لا تستثنيه ، بل تفرض عليه الاستخدام الواسع لخبرات الفن العالمى فيذكر ألكسيس أسماء « ميكل أنجلو » ، و « بتهوفن » إلى جانب اسم تولستوى وهو يخص باهتمامه الخبرة الواقعية التى قدمها جوركى والكتاب الاشتراكيون بايمانهم المخلص بالإنسان والمستقبل . ويمكن للإنسان أن يناقش حسن اختيار تعبير (واقعية المعجزات (من عدمه ، ولكن خلاصة آراء الكسيس ومضمونها — أى مطالبته بواقعية اجتماعية شاملة حيث يمكن التعبير بحرية عن أهداف التقدم الحديث . تعبيراً ينصهر مع الشكل القومى مما يسهل استخدام الأدب والأساطير الشعبية — الفولكور — يقول إن هذا المضمون الذى قدمه الكسيس على جانب كبير من الأهمية ، كما أنه جدير بالعناية والدرس . إن الكثيرين يهتمون اليوم بفكرة خلق أنواع جديدة تماماً ، من الكتابة حيث يمكن أن تندمج الرواية مع القصص والأساطير الشعبية ، وحيث يمكن أن تنصهر معها القصيدة الغنائية والقصة الشعرية ، ونحن نعرف الكثيرين من مؤلفى جزر الهند الغربية — ذوى الأصل الإفريقى ممن يطالبون بصور جديدة للكتابة التى يمكن أن تنصهر فيها الرواية مع القصيدة الشعبية ، ويمكن أن نرجع هذا المطلب إلى أهمية الدور الذى يقوم به (الانسجام والتناغم والإيقاع) لدى الشعوب الزنجية . وقد اهتم كثير من الشعراء وعلماء السلالات البشرية وغيرهم بتوضيح أهمية هذا الإيقاعات الكبرى لكل صور فنون هذه الشعوب . ولكن المسألة هنا ليست مجرد مسألة تغيير قالب الأدب ولكنها مسألة خلق أشكال جديدة تماماً من الفنون ، ويمكن أن نرى مثل هذا المعنى فى القرارات المتعلقة بالأدب التى اتخذها مؤتمر روما والتى دعت الكتاب إلى عدم تقييد أنفسهم بالأشكال الغربية التقليدية التى لا تهتم إلا بالفرد لكى تبرزه كغاية نهائية فى حد ذاته . وقد قالت هذه القرارات : إن التأكيد الذاتى للشخصية الفردية لا يمكن فصله الآن عن التأكيد الذاتى للشعوب بمجموعها . كما أنه يجب على الكتاب أن يكتشفوا أنواعاً وأشكالا جديدة توافق شعوبهم . تلك الشعوب التى ستتطور بدورها عند ما يطرد تقدم ثقافتها ، إنه لمن الممكن أن نقول : إن حل هذه المشكلة المعقدة المتعلقة بالفن الواقعى الحديث فى مثل هذه البلاد إنما يوجد فى رفضهم لأن يربطوا أنفسهم بأنواع الأدب الأوروبى عامة كما يوجد هذا الحل فى خلق أشكال جديدة تتمكن من ربط قصص البطولة والملحمة بالغناء والموسيقى وبالسمات الأساسية لاحتفالات الجماهير واستعراضاتها .

إن المستقبل سوف يحمل فى أطوائه الإجابة على هذا التساؤل وبخاصة المستقبل المنتظر لتطور ثقافة هذه البلاد التى نالت استقلالها أخيراً .

جولة مصورة حول

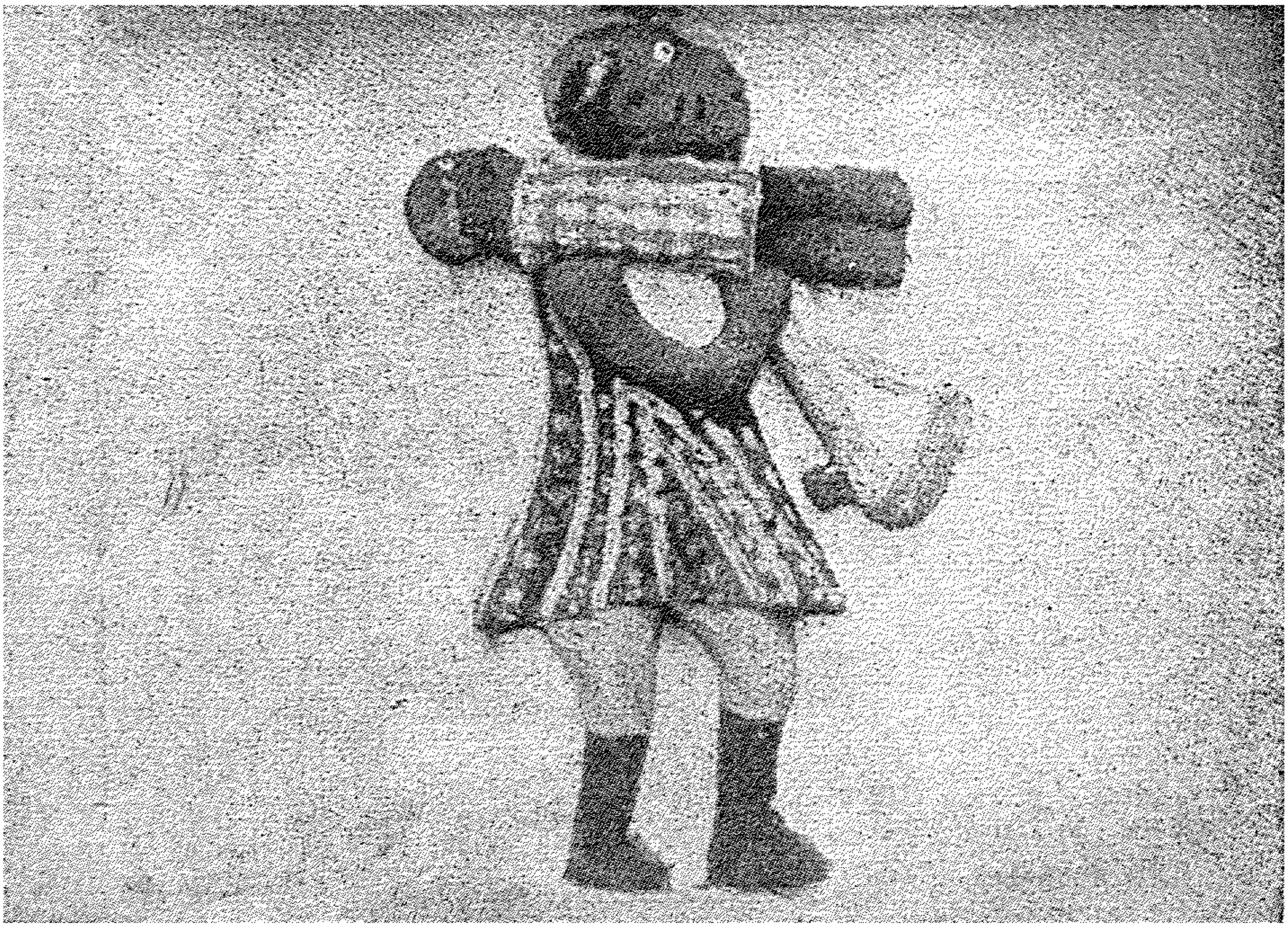

« من الفن الإفريقى »

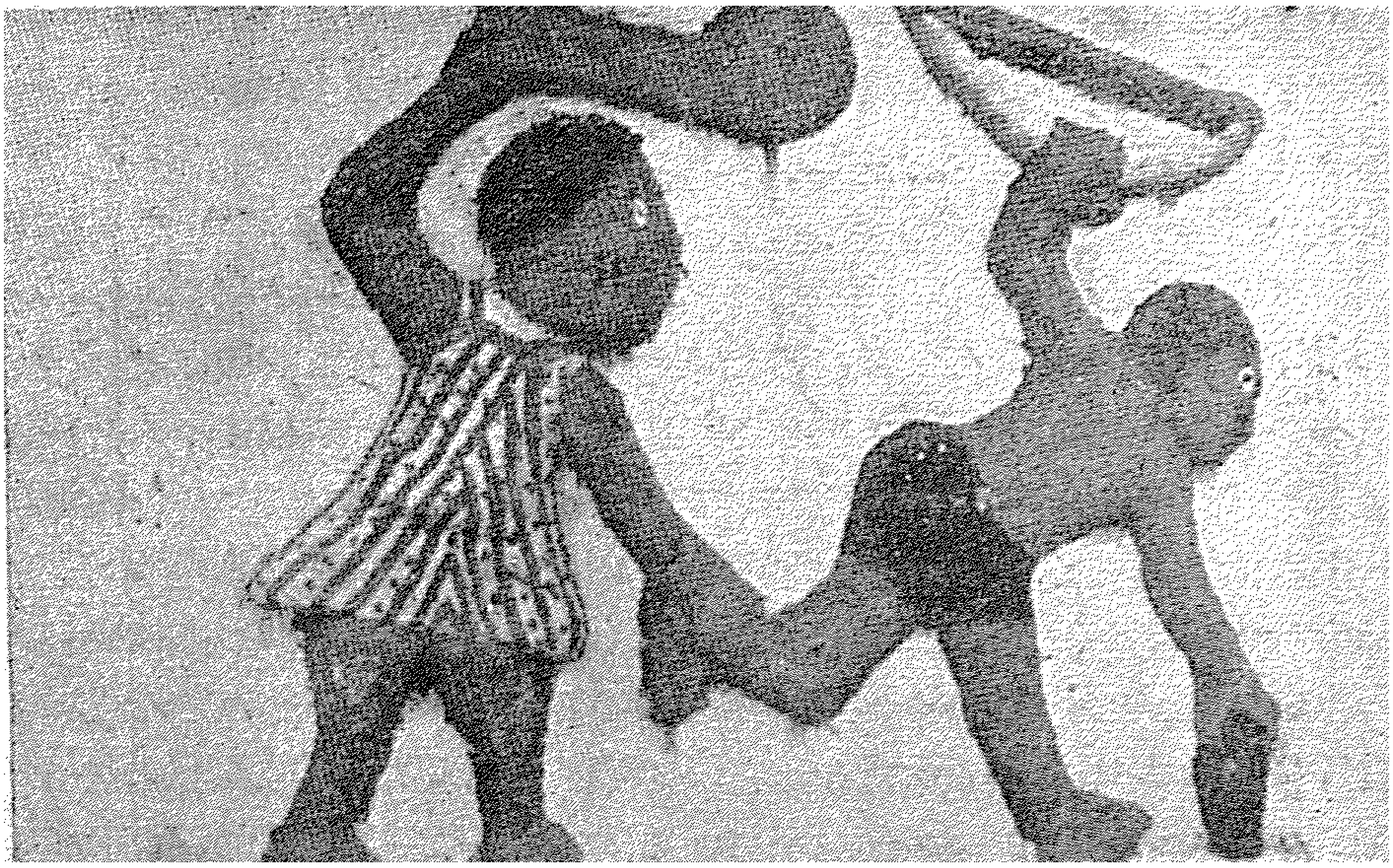

« ألوان من الفن الإفريقى »

« الفن فى إفريقية »

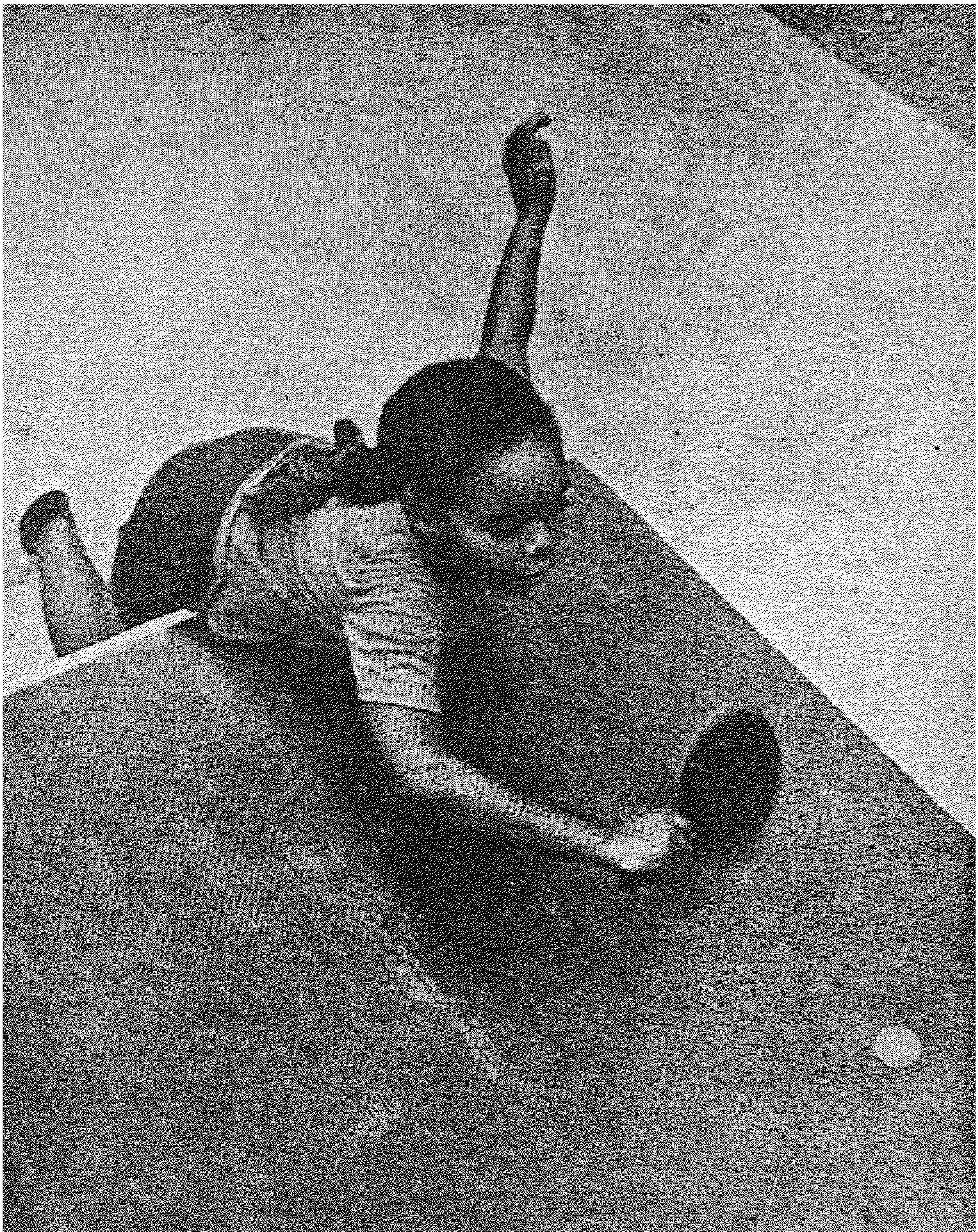

«الأطفال والرياضة»

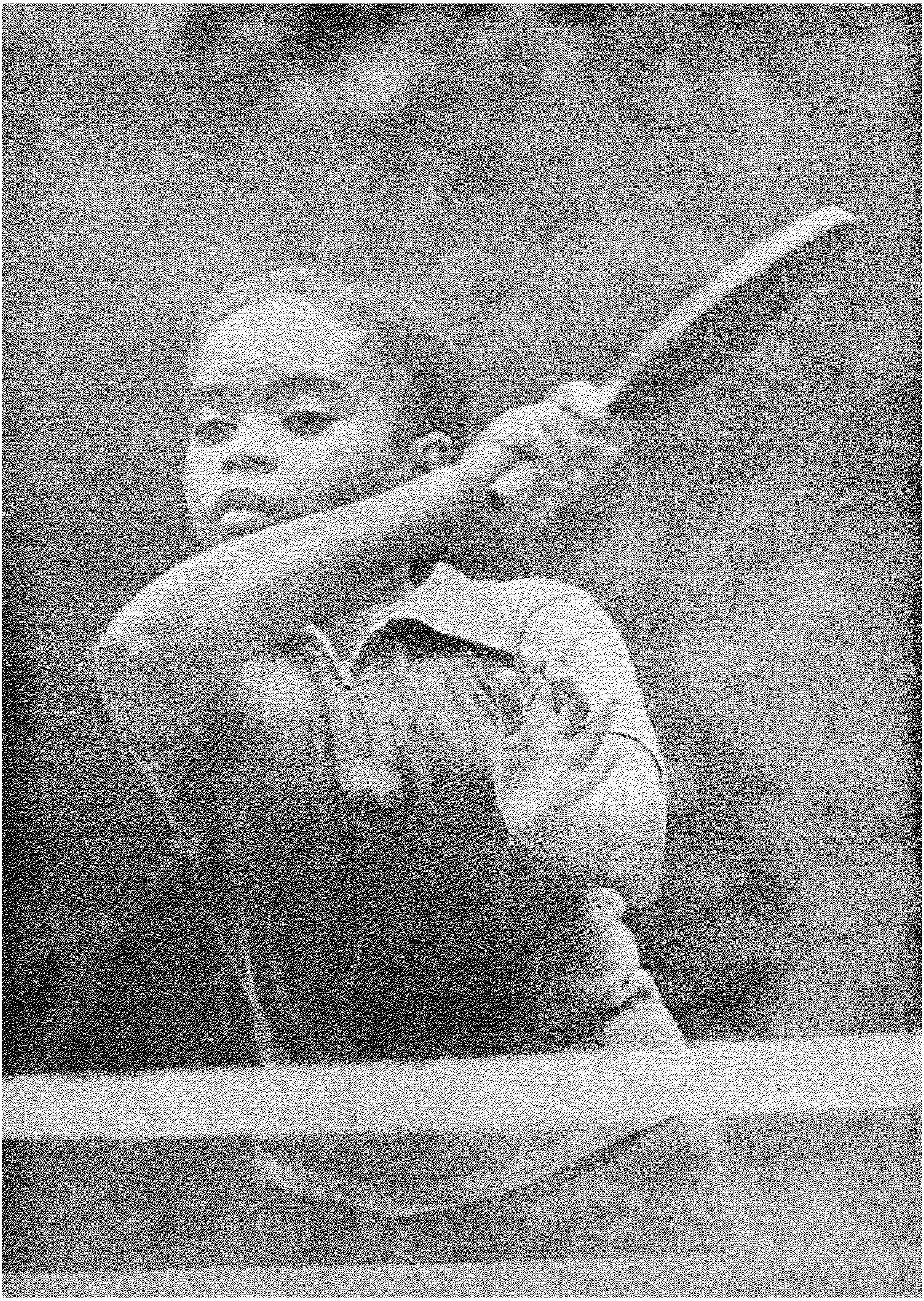

« الجيل الجديد فى إفريقية »

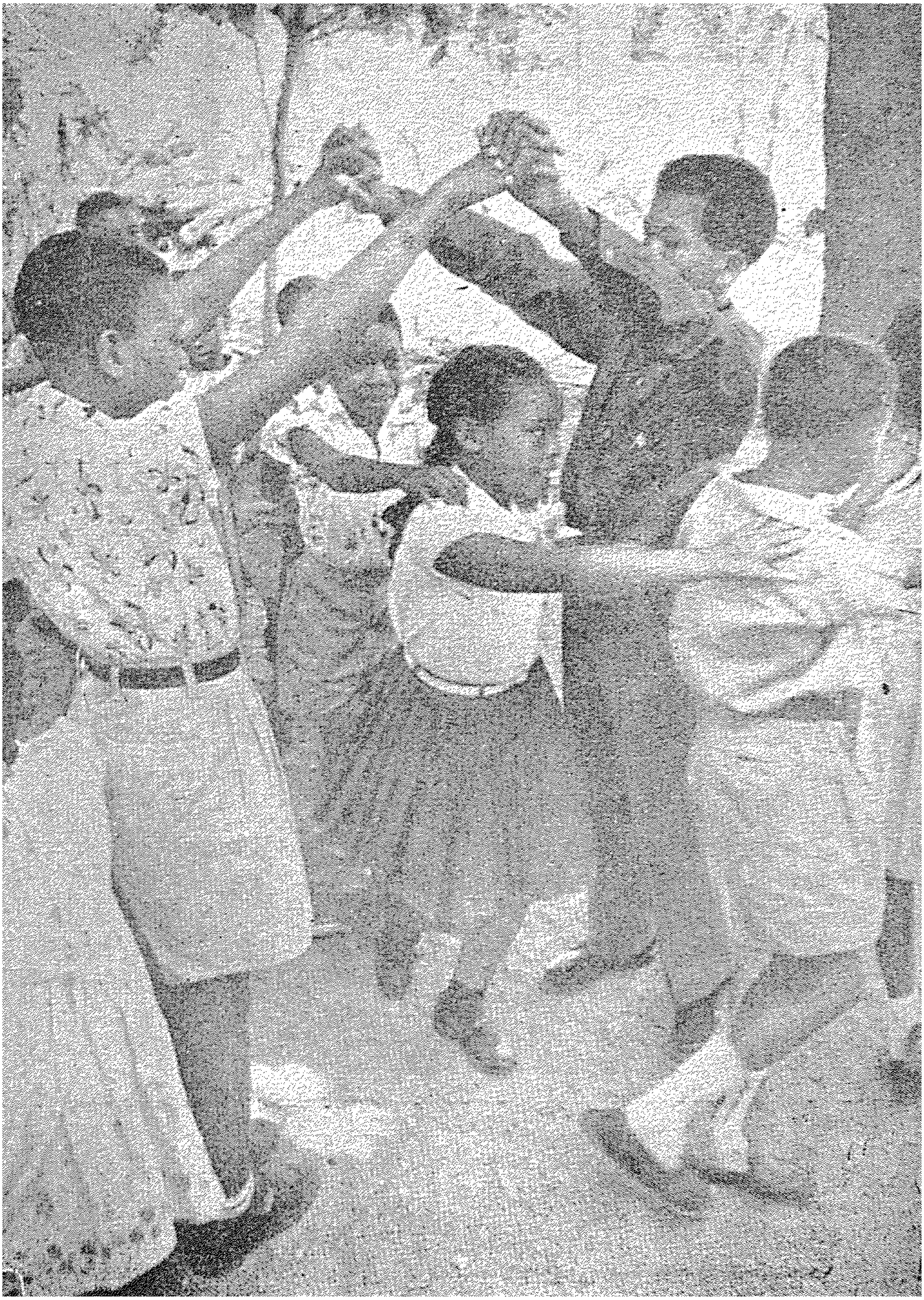

« إحدى الألعاب الوطنية فى إفريقية »

« المرح . . والحياة »

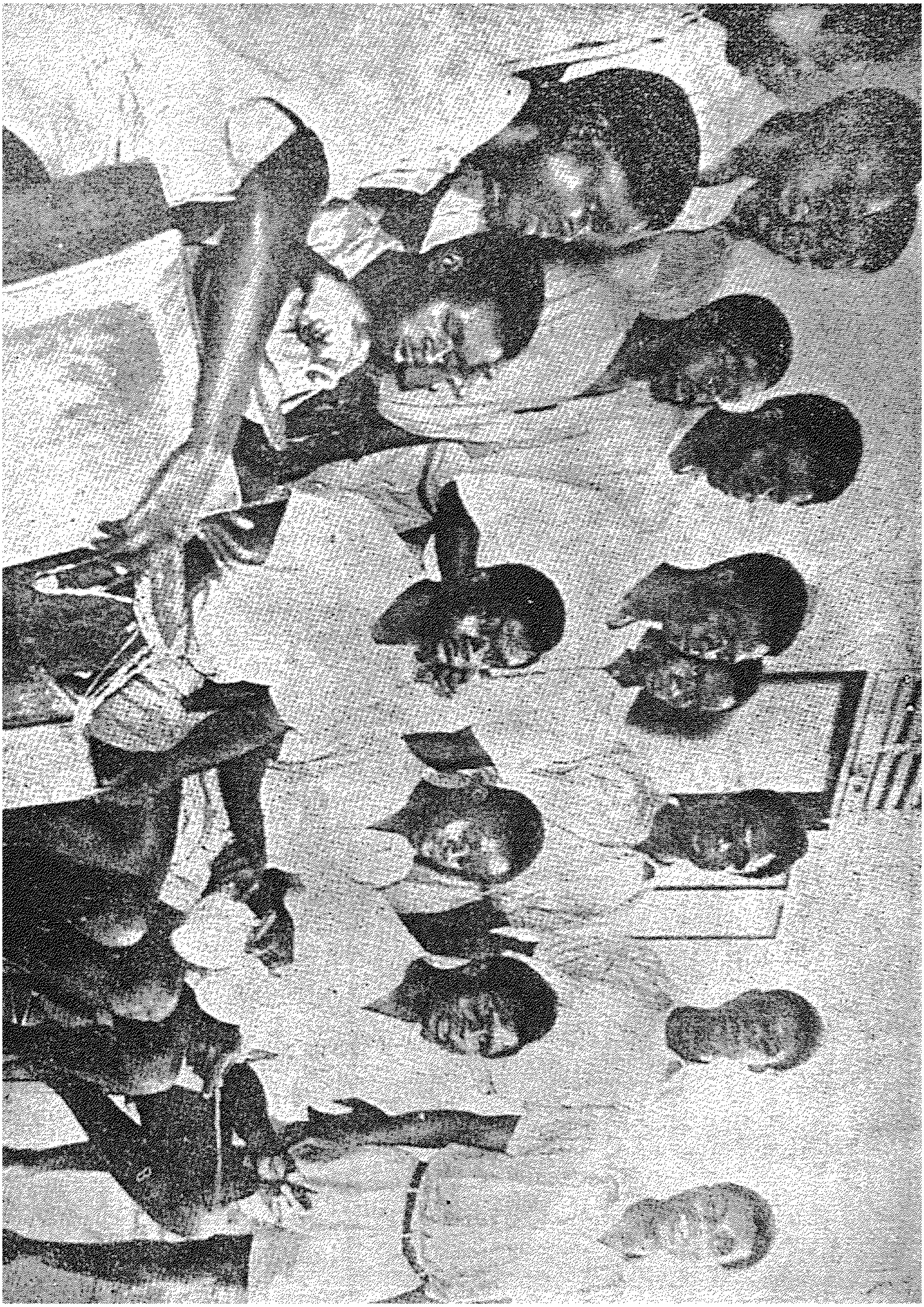

من وحي أفريقية

إلى أبناء ساحل الذهب

للشاعر : رى أنانج

استيقظوا يا شباب ساحل الذهب
ويا شابات العصر المتحمسات
استيقظوا وتمعنوا معى
من صفحة إلى أخرى
تلك الفقرات المشحونة لماضى بلادنا
ذلك لأن التاريخ ليس إلا « اشارة المرور » بالنسبة للاله
فهو الذى يعطى الاشارة لتوجيه الأمم فتسير
أو لتحذيرها فتقف
ثم تنتظر اللحظات المناسبة للتقدم

* * *

ترقبوا — معى — فجرنا الأول
انظروا — معى — فجرنا الجديد
حيث يعيش الضوء والظلام المتعاقبان معا
فى مجالات إفريقية

* * *

لا تحزنوا اليوم
لأننا نخوض معركة لم يظهر فجرها بعد
ما دام هناك الإصرار لكسبها المعارك لبلادنا
بلادنا ذات الأحجار المشعّة !
ولن يغضبكم أنهم أطلقوا على بلادنا اسم
« القارة المظلمة ! »

* * *

إفريقية
هذه اللؤلؤة المستقرّة فى الأعماق
داخل البحر القرمزى
وهذا المضيف الرقيق الذى رحب
بجميع المجازفين من كافة البلاد

إفريقية
التى بحثت عنها جميع الشعوب
ونقّبت عنها كما تنقب عن جوهرة غالية
ولكنها حفظت من كل الشرور
لأنها ادّخرت فقط لتجارب « الاله »
هذه اللؤلؤة المدخرة هى قارتنا

* * *

اسمع عندئذ القصة التى رويت
عن الهجرة العظيمة من الشمال
حينما لم تكن هناك دولة
ولم تكن هناك كذلك حدود تفصل بين إفريقية الأم

* * *

على الحجر الرملى للأرض الذى يرقد
بين نهرى النيل والنيجر
يوجد السهل الذى يسميه الآن السياسيون « السودان »
الذى امتدّ بعيداً وبعيداً
قبل أن يصل الغلمان البيض المسلحون إلى ساحلنا

* * *

هناك حيث كان يسكن آباؤنا
وحيث كانت توجد الطمأنينة بالغابة
وحيث الشواطئ الخصبة للنيل
عاش أجدادنا يجنون المحاصيل الوفيرة
لأجل إطعامنا

* * *

أجدادنا الذين عاشوا لحظات حاسمة
وبنوا الأهرامات العملاقة على أنغام المنشدين المصريين
ووفق تصميمات هندسية دقيقة
واحتضنوا السيادة المحيدة
أجدادنا هؤلاء لم يرغبوا فى أن يخدعوا مصيرهم .

* * *

هؤلاء الأجداد هم الذين حركوا
الأكواخ ، والأطفال ، والزوجات ، بل حركوا الجميع
.. لم يخطف وهج الذهب أبصارهم
ولم تبهرهم عظمة الحكم الملكى

* * *

هؤلاء الذين كانوا يسافرون عدة شهور
بلا خوف من جوع أو عطش
أو حرارة الصحراء التى تجفف الجلد
والذين كانوا يقاومون – فى روحانية – رغبتهم الخارفة
لبعض الأعمال التى تميل إليها النفس
بقوة المنطق ، وقوة العقل
والذين كانوا على الطريق الحضارى يسيرون
ويرتلون الأغانى
التى كانت تستقر فى نفوسهم
يرتلونها فى جماعات مبتهجة
ومن حولهم العذارى يرقصن
ويصفقن بأيديهن الملتمعة القوية
فتسرى على الرمال الملساء
تلك الأصوات الحلوة الموزونة
التى تثرى النفس
وتغمر الصحراء

ضوء على كتاب

بقلم : عبد الواحد ابراهيم الاسبابى

مقدمة :

يعتبر كتاب « أطلس إفريقية » لفرانك هوراين من أهم المؤلفات الحديثة التى ظهرت عن إفريقية خلال الأشهر الماضية من عام ١٩٦٠ .

ويقول عنه مؤلفه « إن هدفى من إصدار هذا الكتاب إنما هو تزويد قارئ الصحف المثقف بملخص للحقائق التى تدور حول « مشاكل العصر الملتهبة » ولقد وضعت أفكار هذا الكتاب ورسمت خرائطه فى ضوء الإيمان الثابت بأن الأوروبيين مدينون بالشىء الكثير لشعوب إفريقية ، وأن فكرة التميز العنصرى وعقلية المستوطن الأبيض أمران يتعارضان تماماً مع مبادىء الحضارة وأسس الديانة المسيحية » .

والكتاب على صغره يضم بين دفتيه خمسين فصلا يقسمها فرانك هوراين إلى ثلاثة أقسام يبدؤها بالقسم الأول الذى يتحدث فيه عن الماضى التاريخى لمختلف الشعوب الإفريقية ، ثم القسم الثانى الذى يتناول فى فصوله التسعة عشر حاضر الدول الإفريقية ، وأخيراً يختتم كتابه بالقسم الثالث وفيه حديث موضوعى عن مستقبل القارة الإفريقية .

يقول هوراين فى الفصل الأول من الكتاب « إفريقيا قبل عصر التدافع الكبير » .

كانت إفريقية — فيما عدا مناطقها الواقعة على شاطئ البحر المتوسط ومراكز التجارة الأوروبية المتناثرة هنا وهناك والخط الشاطىء للمحيط — معزولة عن بقية العالم فلقد ظلت القارة السوداء التى تقع جنوب الصحراء الكبرى منطقة مجهولة للأوروبيين لا يعرفون عنها شيئاً حتى زحف البحارة البرتغاليون منذ أربعة قرون مضت على سواحلها الجنوبية بحثاً عن طريق يوصلهم إلى الهند ، وأبحر هؤلاء الرجال غرباً عبر الأطلنطى حيث اكتشفوا عالماً جديداً .

ويناقش هوراين ما جاء فى كتاب « تأثيرات البيئة الجغرافية » الذى وضعه سيمبل والذى قال فيه « لقد نسيت الإنسانية أن تنمو فى أرض إفريقية » يناقش مدافعاً عن الحقيقة التاريخية فيقول :

ليس صحيحاً ما ذهب إليه سيمبل من أن الإنسانية قد نسيت أن تنمو فى إفريقية فلقد نمت فعلا بالرغم من الظروف الجغرافية المختلفة وبالرغم من عزلة إفريقية عن الثقافات الأخرى ، حقيقة لم يكن لإفريقية حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر مكان على الخريطة العالمية ولعل هذا هو السبب فيما ذهب إليه سيمبل وغيره .

ثم يذكر هوراين دفاعاً آخر عن حياة الإنسانية فى إفريقية ونموها وتطورها ويؤسفنى ألا أستطيع أن

أذكر ما قاله هنا نظراً لأنه يعتمد فى تفسيره على الخريطة التى أثبتها بصدد هذا الموضوع .

وفى فصل آخر من القسم الأول « إفريقيا مهد الحضارة » يتحدث هورايبن عن تاريخ حضارة إفريقية ويرجع وجودها إلى عام ٦٠٠٠ قبل الميلاد ويقول : « لقد بدأت الحضارة القريبة على ضفاف وديان النيل الخصيبة فى الشمال الشرقى من إفريقية وعلى نهر التيجريز » :

ويتحدث أيضاً عن دخول الإسلام بـــلاد إفريقيـــة المختلفـــة وتكوين الإمبراطورية العربية فيها ، ثم ينتقل إلى الحديث عن ممالك السودان القريبة فيقول : « يوجد فى جنوب الصحراء التى تمتد من الأطلنطى حتى البحر الأحمر عبر إفريقية حزام السافانا الذى أطلق عليه العرب اسم السودان ، ففى منطقة النيجر وفى النصف الغربى من السودان قامت ممالك الزنوج العظيمة التى كانت تمتاز بنظام عجيب قل أن يوجد له نظير ، وازدهرت عظمة هذه الممالك خلال الفترة التى أطلق عليها الأوروبيون « العصور الوسطى » بل ظلت بعض هذه الممالك قائمة تعتز بمجدها وحضارتها حتى بداية القرن التاسع عشر ، وكانت تتاجر مع العرب فى الشمال ،وانتشرت الثقافة والتعاليم الإسلامية فى جزء كبير من هذه المنطقة ، وكانت تيمبوكتو الواقعة على النيجر مركزا هاماً للتجارة والحركة الإسلامية .

وكان أهم هذه الممالك مملكـــة « غانة » التى استمرت من القرن الخامس حتى القرن الثانى عشر وكانت هذه المملكة تقع على بعد كبير شمال غانة المعاصرة لنا اليوم ، ثم مملكة مالى وكانت تقع بين السنغال ووسط النيجر ، ومملكة سونغاى وكانت عاصمتها فى جوا وقد شهد القرن السادس عشر أزهى عصر من عصور سلطانها ومجدها

وعند ما انهار سلطان هذه الممالك انتقلت إلى سلطة الممالك الشرقية أى ممالك الهاوسا واليورنو .

ويعتز الإفريقيون اليوم بتاريخهم المجيد هذا فيحيون أسماء ممالكهم القديمة التى كانت مزدهرة فى يوم من الأيام قبل مجىء الأوروبيين إلى بلادهم . وهذا هو السبب فى أن ساحل الذهب قد أطلقت اسم غانة على جمهوريتها الجديدة وكذلك فعلت السنغال وغيرهما .

ثم ينتقل هورايبن بعد ذلك إلى الحديث عن « الماس والذهب » وكيف تم اكتشاف هذين المعدنين النفيسين فى إفريقية فيقول :

« فى عام ١٨٧٠ عثر فلاح بويرى مع ولده على حجر مضىء يلعب به فأخذ هذا الحجر وذهب به إلى مدينة كيمبرلى وعرضه على أحد التجار الذى اشتراه منه بـ ٥٠٠ جنيه ومن

يومها أخذ المنقبون عن الماس يندفعون إلى هذه المنطقة وسواها من المناطق التى يتوافر فيها وجود هذه الأحجار الكريمة وأخيراً ضمت هذه المنطقة إلى بريطانيا .

ومن العجيب أن سيسيل رودس قد بلغ قمة الثراء المادى فى فترة قصيرة جداً ولم يكن يفعل شيئاً سوى الإشراف على عمليات الحفر والتنقيب التى أمد الانتاج منها ٩٠٪ من حاجة العالم كله إلى الماس .

ثم تم اكتشاف الذهب فى منطقة « راند » فى مقاطعة الترنسفال وأنشأ رودس حقول الذهب فى جنوب إفريقية ثم اشتغل بالسياسة حتى أصبح رئيساً لوزراء مستعمرة الكاب وبعد حروب طويلة مع قبائل الميتابيلى والماشونا احتفظت شركة جنوب افريقية التابعة له بالسيطرة على المناطق الواسعة شمالا — باتشوانا لاند والأراضى الواقعة شمال وجنوب سامبيس التى أطلق عليها فيما بعد روديسيا نسبة إلى رودس .

وينتهى هوراين فى القسم الأول من كتابه إلى الحديث عن إفريقية وموقف الدول الغربية منها فى كل من الفترتين اللتين أعقبتا الحربين العالميتين الأولى والثانية .

وفى القسم الثانى يتحدث هوراين عن إفريقية المعاصرة أى إفريقية التى استقلت فيها عدة دول كثيرة وأصبحت عضواً فى هيئة الأمم المتحدة وأخذت تساعد شقيقاتها اللاتى لاتزال تعيش تحت الوصاية أو الانتداب أو الاستعمار الأوروبى ، ويتحدث عن الدول الاستعمارية وإمبراطورياتها السابقة فى إفريقية حتى إذا كان القسم الثالث من الكتاب ، وهو القسم الذى خصصه هوراين للحديث عن « افريقية الغد » نراه يتناول بطريقته التقليدية أيضاً مشاكل القارة السوداء بعد الاستقلال ، فيتساءل فى الفصل الأول من هذا القسم هل إفريقية فى حاجة إلى عدد أكبر من المستوطنين؟ ويقول هوراين ، « نعم » هى فى حاجة إلى العلماء والفنيين والأيدى الماهرة ، ولكن هوراين بعد أن يقول ذلك يذكر عبارة للدكتور شيفتزر قالها بمناسبة عدم اهتمام المستوطنين البيض بشئون إفريقية التى استمتعوا كثيراً بخيراتها لقد قال شيفيتزر « إن الأوروبيين مدينون بالشئ الكثير للشعوب الإفريقية لقد أهملوا أرضها وسكانها بعد أن سلبوها ثروتها وخيراتها »

ثم يتحدث هوراين عن مشكلة اللغات فى إفريقية باعتبارها إحدى المشاكل التى ستتعرض لها إفريقية فى مستقبلها القريب ، ويقول إن فى إفريقية مئات اللغات ومعظمها لغات تنطق ولا تكتب ، وبالرغم من أن بعض الوطنيين المتحمسين يصرون على بقاء لغتهم باعتبارها جزءاً رئيسياً من

تراثهم الماضى فإن اللغات العربيـــة والإنجليزية والفرنسية لا تزال سائدة فى معظم دول إفريقية وفى فصل آخر من هذا القسم الأخير يتحدث هوراين عن «الثروة المعدنية فى إفريقيا» فيقول :

« كان الذهب هدفاً رئيسياً للتجار الأوروبيين الأوائل فى غرب إفريقية، ولكن لم يتم اكتشاف أغنى حقول الذهب إلا فى أواخر القرن التاسع عشر فى منطقة راند فى مقاطعة الترنسفال . كما توجد أيضاً ثروة من الذهب فى كينيا وتنجانيقا . وروديسيا ، ولقد كانت كيمبرلى من أهم حقول الماس فى العالم ، ولكنها فقدت أهميتها بعد اكتشاف أكبر حقول الماس فى الكنغو وفى منطقة جنوب غرب إفريقيـــة ويعتبر حزام النحاس فى مقاطعة كاتانجا من الأسباب التى جعلت هذه المنطقة من أهم المناطق المعدنية فى إفريقية » .

حتى إذا تحدث هوراين فى فصل آخر من هذا القسم الأخير نراه يؤكد ضخامة القوى المائية فى إفريقية فيقول :

تقدر القوى المائية فى إفريقية بحوالى ٤٠٪ من القوى المائية العالمية أما ما يستغل منها فى الوقت الحاضر فلا يكاد يساوى ½٪ من طاقتها وفى الفصل الأخير من الكتاب حديث حماسى لهوراين عن العلم وحاجة إفريقية إليه فى تطورها ونمو إمكانياتها وليس أدل على حماس هوراين من أنه جعل عنوان هذا الفصل هكذا « العلم . . . العلم . . . العلم » ويقول هذا الكاتب :

« إن فى إفريقية اليوم عدة معاهد علمية تحقق كثيراً من المكاسب بالنسبة لمستقبل هذه القارة ويجب مضاعفة هذه المعاهد حتى تستطيع إفريقية أن تأخذ مكانها اللائق بها فى عالم القرن العشرين ، ومن الجدير بالذكر هنا أن بعض العلماء الذين يلعبون دوراً هاما فى إفريقية اليوم من الإفريقيين وأن عددهم فى تزايد مستمر » .

وبعد فهذا عرض سريع لكتاب « أطلس إفريقيا » وتعريف خاطف بمؤلفه فرانك هوراين . وقد كان بودى أن أعرض — ولو ملخصاً — بعض فصوله الهامة لولا أن العرض دون رسم الخريطة لا يمكن أن يستقيم فالخريطة عند هوراين جزء لا يتجزأ من الفكرة وبعض الفصول لا يمكن أن ترويها لقارئ أوسامع دون أن تشير بأصبعك إلى مكان الحديث على الخريطة.

إن كتاب هوراين — لولا هنات صغيرة تنطق بأن المؤلف ما زال انجليزياً لحما ودماً — يعتبر من أنجح الكتب التى ظهرت عن إفريقية خلال عام ١٩٦٠ ولا ترجع أهميته إلى ما تضمنه من معلومات خاصة بماضى وحاضر ومستقبل إفريقية ، فهى — على حد تعبيره هو — حقائق تاريخية مبسطة ، ولكنها ترجع إلى طريقته فى العرض وفهمه العميق لكل ما يتعلق بإفريقية .

من القصص السودانى

« سر الجمل »

بقلم عباس خضر

كان فى قديم الزمان سلطان يدعى عثمان ، لم يرزقه الله بولد يملأ عليه البيت بهجة وسروراً ويرث ملكه من بعده . . لهذا تزوج كثيراً ، وكانت زوجاته لا ينجبن إلا البنات ، وكان كلما وضعت إحداهن بنتاً يقتل الزوجة والبنت والداية التى تولدها .

وحملت إحدى زوجات السلطان ولكنها كانت تشعر بالقلق والخوف ، تخشى أن يقتلها السلطان إذا لم تنجب ولدا ، فظلت تدعو الله كل صباح ومساء وتقول :

« يارب ارزقنى بمولود ذكر ولو كان فى صورة جمل ! »

وحقق الله دعاءها فوضعت مولوداً ذكراً فى صورة جمل . وفرح السلطان بالجمل لأنه ذكر .

عاش الجمل فى قصر والده السلطان عثمان بين الزهور والعطور مدللا منعما تحوطه العناية والرعاية . إلى أن غضب فى يوم من الأيام ورفض النطق والكلام . فأحضر له والده السلطان جميع أطباء المدينة ليعالجوه ، فأخفقوا جميعاً أمام إصراره على عدم النطق . ولكن أحد الأطباء نصح والده بأن يزوجه .

وكان للسلطان عثمان أخ له ثلاث بنات جميلات ، فخطب البنت الكبيرة للجمل .

وزفت البنت إلى الجمل ، وانصرف الناس وتركوهما وحدهما . ظلت البنت جالسة فى سريرها ترقب الجمل وهو لا يتكلم ، ثم كلمته فلم يرد ، واستمرت تحاول الحديث معه ، ولكنه ظل ساكناً لا ينطق . وأخيراً قالت :

« أهلنا من شدة ما غضبوا مننا زوجونا للجمال ! »

وعندئذ قام الجمل وضربها برجله ضربة قضت عليها . وفى الصباح جاء السلطان ووزراؤه ، فوجدوا البنت ميتة فحملوها ودفنوها .

ثم زوجوه بنت عمه الثانية . فحدث لها معه ما حدث لأختها

الكبرى ، وذهبت ضحية لضربة قاتلة من رجله .

وأخيراً زوجوه بنت عمه الثالثة الصغيرة ، وكانت ذكية العقل رقيقة الطبع صافية القلب . وعند ما صارت مع الجمل فى ليلة الزفاف جعلت تناجيه بأرق الألفاظ وتعبر له عن الحب والإخلاص ، فبادلها المودة والكلام .

وفى منتصف الليل كانت البنت راقدة على سريرها مستيقظة كأنها نائمة . فرأت الجمل يتغير شكله إلى هيئة ملاك جميل .. وأخذ يسجد لربه ، ونوره يسطع فى الحجرة .

وفى الصباح تحدثت معه بحديث رقيق ، وسألته عن حقيقته وسره . فقال لها :

« يا ست الحسن والجمال . لا تسأليني إذا أردت بقائى معك . وإذا علم أحد بحقيقتى وعرف سرى فلن ترونى بينكم لأنى سأذهب من حيث أتيت إلى رب العالمين » ..

فوعدته بكتمان السر ما دام يريد ذلك . . .

* * *

ولاحظت زوجة السلطان الأخرى وهى ضرة أم الجمل — لاحظت ما بين الجمل وست الحسن من الحب والمودة وأنه لم يضربها برجله مثل ما فعل بأختها السابقتين . فغاظها ذلك ، لأنها تريد أن تشمت فى ضرتها بما يحدث لابنها من الشر . وخاصة أن السلطان خص أم الجمل بحبه وعطفه بعد أن ولدت ذكراً .. فتطلعت إلى أن تعرف سر الجمل مع ست الحسن ، فترددت إليها . وأظهرت لها الحب .

وذات مرة استدرجتها فى الكلام حتى أفضت إليها ست الحسن بسر زوجها الجمل .. وطلبت من زوجة السلطان ألا تفشى السر ... ولكن زوجة السلطان رأتها فرصة سانحة لبلوغ مرادها . والشماتة فى ضرتها ، والأمل فى نيل الحظوة لدى السلطان ، فأبلغته سر ابنه الجمل ، وهى تمنى نفسها أن يذهب الجمل ويختفى إلى الأبد تنفيذاً لما هدد به .

وفرح السلطان فرحاً شديداً عند ما علم أن ابنه ليس جملا ، وإنما هو ملاك طاهر جميل . وأخبر السلطان زوجته أم الجمل ، فشاركته فى الفرح والسرور ، وأراد الاثنان أن يتحققا بنفسهما . فلما جاء الليل اختبآ وراء نافذة الحجرة ، وشاهدا ولدهما فى صورة ملاك جميل يسجد لربه بخشوع بعد أن غفلت عنه العيون .

فلما كان الصباح انتشر الخبر بين الناس ، وعزفت الموسيقى فى قصر السلطان ، وأقيمت الحفلات والولائم .

ولكن هذا الفرح لم يدم طويلا ، فقد اختفى الجمل الحبيب وغاب عن الأنظار ولم يعثروا له على أثر . .

شعرت ست الحسن والجمـــال بخطئها ، إذ أفشت سر زوجها الجمل ، فأساءت إليه وهو لا يستحق الاساءة ، وكانت النتيجة أن فقدته بعد أن تعلقت به وأحبته وندمت على ذلك أشد الندم ، وكانت تؤنب نفسها على أنها لم تستطع أن تحفظ السر ولا أن تحتفظ بالحبيب . وكان كل شيء حولها يبعث في نفسها الذكرى المؤلمة ، فعزمت على أن ترحل من المدينة .

رحلت إلى مدينة أخرى هادئة ، واشترت حماماً جميلا ، جعلت أجر من يستحم فيه أن يقص عليها قصة ، فقد عرفت أن الحياة قصص ، وحياتها هي قصة واقعية أغرب من الخيال .

* * *

كان في المدينة التي نزلت بها ست الحسن والجمال ثلاث بنات أخوات فقيرات لا يجدن قوت يومهن إلا بعد جهد ومشقة .

كانت الصغرى تذهب إلى السوق وتشترى الخبز والزيت واللحم وبعض القطن ، وكانت الكبيرتان تغزلان القطن طول الليل ، وفى الصباح تخرج الصغيرة لتبيع الخيط وتشترى بثمنه الطعام كما تشترى قطنا لليوم التالى .

وفى صباح يوم من الأيام عزمت البنت الصغيرة على أن تذهب إلى الحمام الدافىء لتستحم وتنعش جسمها ، وتقص على صاحبته أية قصة من قصصها ، ولكنها ضلت الطريـــق ووجدت نفسها تسير فى صحراء لا نبات فيها ولا ماء . ثم سمعت صوتاً يغنى غناء حزيناً تختلط نبراته بالدموع ، ثم نظرت فرأت صاحب الصوت الشجى جملا جميلا . . فدهشت وسارت وراءه على بعد وهو لا يشعر بها وظل يسير وهى تتبعه حتى وقف على مكان وضرب الأرض برجله القوية فانشقت إلى شقين ، ودخل ، ودخلت البنت وراءه ، وسارت حتى وصلت إلى حديقة كبيرة بها النخيل والأعنـــاب والأشجـــار والأزهار والخضرة والماء والسحر والجمال . . ثم دنت البنت من شجرة تفاح وأرادت أن تقطف واحدة ، فقالت لها التفاحة :

— لا تقطفينى فلست سيدتى . . إن سيدتى وحدها هى التى تستطيع أن تقطفنى وتأكلنى . .

— ومن سيدتك ؟

— ست الحسن والجمال التى كان قد تزوجها سيدى هناك وهو على هيئة جمل . .

ثم سمعت الجمل ينوح بصوت حزين :

« ابكى يا طيـــور ويا زهور ويا بحور

ويا جبال على ست الحسن والجمال التى أخلفت الوعد وأخلت بالعهد وسببت الوجد» ..

وفى اليوم التالى خرجت البنت عند ما خرج الجمل إلى سطح الأرض، وذهبت إلى الحمام ، وقصت على صاحبته القصة الغريبة التى رأتها فى تلك الصحراء . ولما فرغت منها قالت لها ست الحسن والجمال : صفى لى هذا المكان ، فأنا الآن فى هيام .

ثم ذهبت ست الحسن والجمال إلى ذلك المكان . . ودخلت عند ما ضرب الجمل الأرض برجله وانشقت ، واختبأت تحت شجرة كبيرة ، ثم قام الجمل وصاح يغنى بصوته الحزين :

« ابكى يا طيور ويا زهور . . »

ولكن لم تبك الطيور والزهور ، بل ضحكت من شدة ما فرحت ، وامتلأت الحديقة بالتغريد والعطور .

فعرف الجمل أن ست الحسن والجمال موجودة فى حديقته .

وتقابل الحبيبان ، وفرح كل منهما بالآخر : وعادا إلى مدينة السلطان عثمان بعد أن أهدت ست الحسن والجمال الحمام إلى البنات الثلاث . وعاشوا فى خيرين وثلاثة ؟

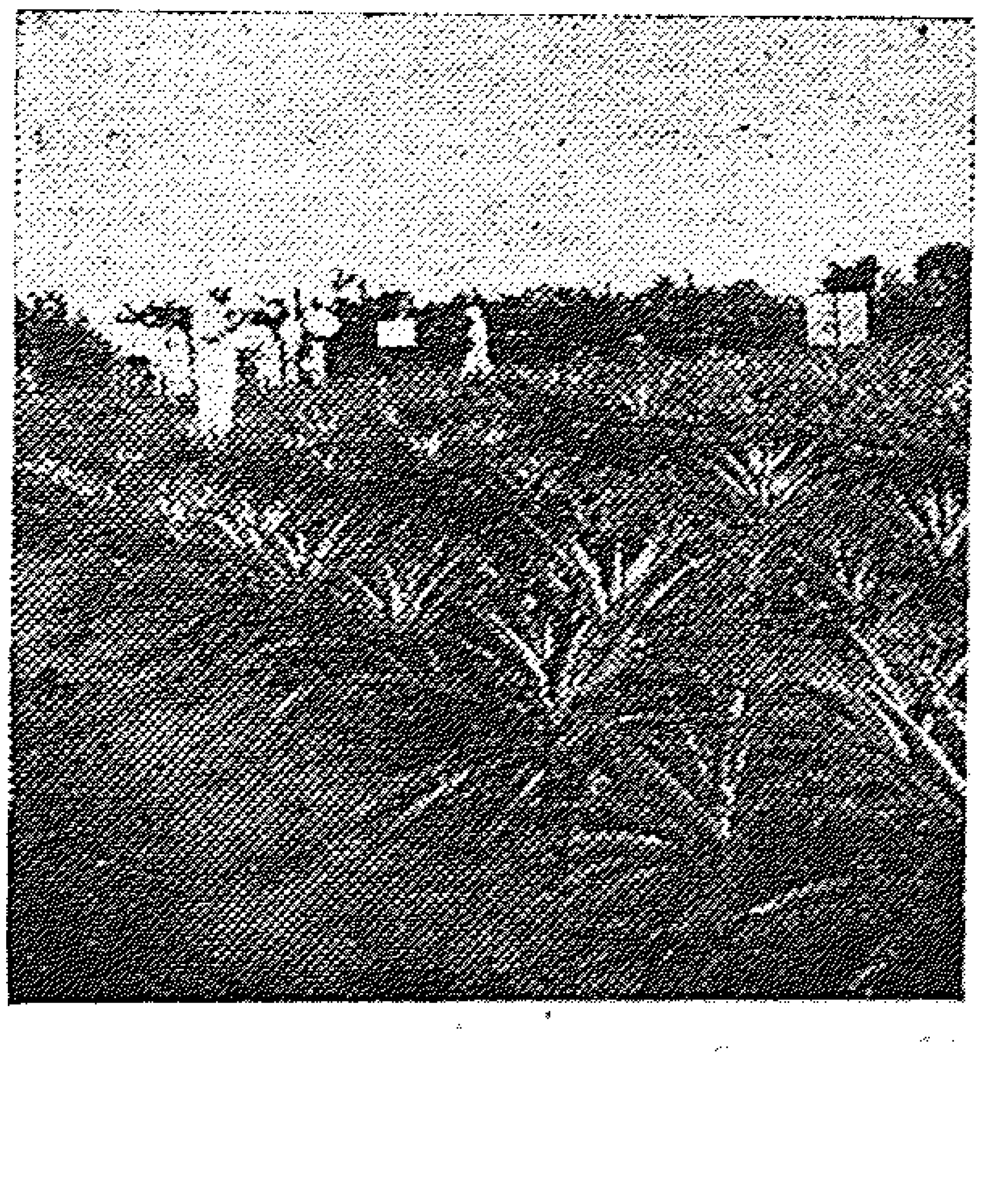

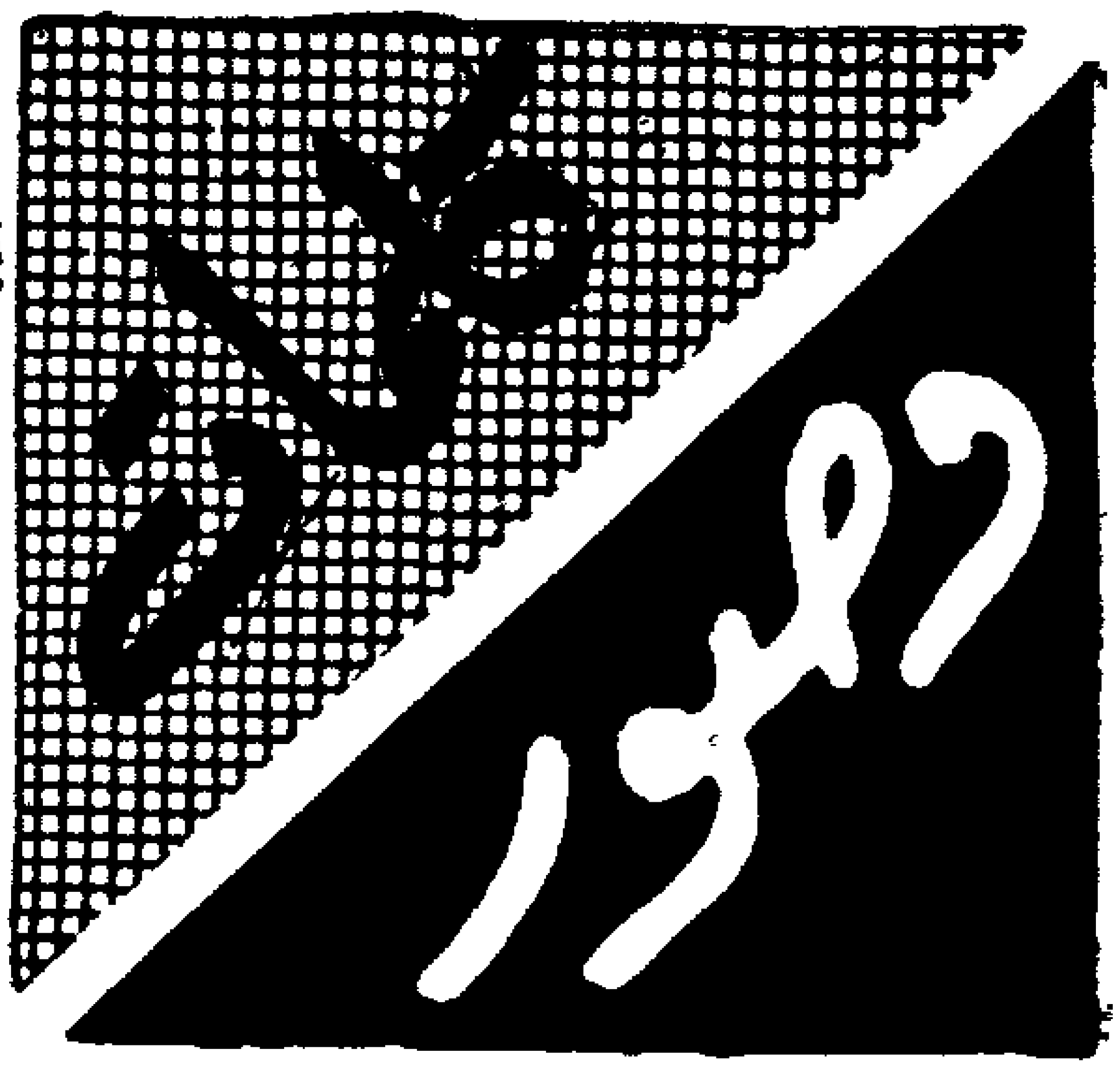

ملك أفغانستـــان :

سعدت الجمهورية العربية المتحدة فى هذه الأيام القريبة بزيارة الملك محمد ظاهر شاه ملك أفغانستان ، وقد عاشت البلاد أياماً مجيدة فى هذه الأيام أحس فيها الضيف أنه فوق أرض بلاده ، وتحت سماء وطنه .

ولم ينس المـــلك أن يتعرض للمشكلات التى تتعرض لها إفريقية ، وآسيا . فذكر جهادهما ، ورسم لها غداً مشرقاً مضيئاً ، ودعا إلى التساند ، وتقوية الروابط بين القارتين وكان مما قاله فى الحفل الذى أقامه الاتحاد القومى تكريماً لسيادته :

إخوانى يسرنى بالغ السرور أن أتيحت لى الفرصة بالدعوة الرقيقة التى وجهها إلى صاحب الفخامة جمال عبـد الناصر رئيس جمهـــوريتكم وزعيمكم لأزور بلادكم الجميلة ، وألتقى بهذا الشعب النبيل . . ولأشاهد عن كثب خلال هذه الزيارة الودية جانباً من التقدم ، والنجاح الماديين ، والمعنويين لهذا البلد الشقيق ، وأتبادل الآراء مع فخامة رئيس الجمهورية ، ومع عدد من زملائه حول المسائل التى تهم الطرفين ،

وأستطيع أن أعرب فى سرور ، ورضاء تامين ، أن هذه المباحثات ، وتبادل الآراء تجرى فى جو يسوده الإخلاص ، وحسن التفاهم .

وأن أعرب أيضاً بامتنان عميق أننا قد استقبلنا خلال إقامتنا فى هذه الأيام ، من جانب الجمهورية العربية المتحدة حكومة وشعباً ، استقبالاً حاراً عميقاً ، وسوف لاننسى هذه الذكرى أبداً .

والآن يسرنى أبلغ السرور أن تتاح لى الفرصة مرة أخرى فى اجتماعكم هذا لأمثل الشعب الأفغانى فى الإعراب عن تمنياته الطيبة ، وعلاقاته الأخوية بشعب الجمهورية العربية المتحدة ، وبسنوح هذه الفرصة الطيبة ، وهكذا أود أن أقدم لكم أمانى الشخصية المنبثقة من الآمال القلبية للشعب الأفغانى ، إن الروابط القديمة الودية ، والأخوية القائمة بين بلدينا مبنية على أساس من الارشادات ، والعقائد المعنوية ، التى كانت دائماً تستند على الاحترام المتقابل ، والمودة المتبادلة فى شئون الحياة ، بين شعبى أفغانستان ، والجمهورية العربية المتحدة .

وإن تدعيم هذه الروابط الحسنة ، ودوامها لما تدعونا إليه الأمانى القلبية ، والآمال الخالصة لشعبينا .

« الملك محمد ظاهر شاه و الرئيس جمال عبد الناصر »

وقبل كل شيء ينبغي على شعوب « آسيا وإفريقية » على ضوء التجارب المرة ، والبشعة الماضية في سبيل سلامة مجتمعهم ، والمحافظة على استقلالهم وحريتهم أن يعنوا في رأي موحد ، واتحاد شعبي بالمشكلات الضرورية التي ستواجه مستقبلهم . وأن يكيفوا حياتهم في صالح شعوبهم . وحسب مرامها .

ومن دواعي سروري ، أن نرى التطورات الشعبية في بلادكم تتسع يوماً بعد يوم . وفي رأيي أن نجاح مجتمعكم للوصول إلى هذه الغاية المقدسة التي لا سلامة لمجتمع بدونها ، لما يستحق التهنئة . والتقدير .

إنني على يقين تام أن من أهم أسباب نجاح الجمهورية العربية المتحدة وتطورها إنما هو هذه الأماني الشعبية التي تتجسم في أعمال الحكومة ، ذلك لأن الشعب هو الذي يتولى الحكم في أرضه . وحسب رغبته وكما أن مبادئنا نحن وأنتم الدينية ، والثقافية مشتركة فإن توافق آرائنا في المسائل الدولية باتخاذ سياسة الحياد . والبعد عن التكتلات قد جعل الصلات القريبة بيننا أوثق ، وأقوى .

رجال في إفريقية :

من الرجال الذين لهم دور الآن في إفريقية المواطن « راجشوار دايال » الذي يدير دفة السياسة في الكونغو الآن ممثلا للأمم المتحدة . وقد ألقى عليه الأستاذ أحمد بهاء الدين ضوءاً غامرا بهذه الكلمة :

الرجـــل الذي يقود التطورات الأخيرة في الكونغو . هو ممثل همرشولد الشخصي في ليوبولدفيل . وهو رجل هندي اسمه « راجشوار دايال » .

وهو الرجل الذي تولى هذه المهمة بدلاً من دكتور رالف بانش . بعد الأزمة التي نشبت بين لومومبا وبانش في الفصل الأول من قصة الكونغو . . .

ومستر « دايال » عمره ٥١ سنة مولود في المقاطعة التي ولد فيها نهرو نفسها . وبعد استقلال الهند مباشرة دخل السلك السياسي الهندي ليشغل دائماً مناصب ذات حساســية كبيرة . عمل أولا مستشاراً لسفارة الهند في موسكو ثم ممثلا دائماً للهند في الأمم المتحدة . حيث تعرف على همرشولد واشترك معه في أعمال كثيرة

وقد كان دايال سفيراً للهند في يوغوسلافيا قبيل انعقاد مؤتمر بريوني بين نهرو وعبد الناصر وتيتو . واشترك في الإعداد لهذا المؤتمر . وشهد عن قرب فكرة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز تتبلور وتخطو خطوات أخرى إلى الأمام .

وبعد أن عمل مستر دايال في عمليات وقف إطلاق النار في غزة بعد حرب السويس وفي لبنان إبان خروج كميل شمعون ، أرسله نهرو إلى باكستان ليباشر مهمة دقيقة هي مهمة البدء في حل المشاكل بين الهند وجارتها التوأم وهناك نجح في الاعداد للاتفاقية التي حلت مشكلة نهر السند التي وقع

نهرو واتفاقيتها مع أيوب خان منذ أسابيع .

إن مستر دايال يواجه الآن أكبر امتحان له : وهو امتحان لو اجتازه فسوف ينتظره مستقبل دولى كبير فى الأمم المتحدة .

ولا شك أن ما يبدو من تحول الموقف فى الكونغو يرجع إلى أسباب فى مقدمتها النقد الذى وجهه عبد الناصر ونهرو وتيتو فى الأمم المتحدة إلى سياستها هناك . وقد اشتهر اسم دايال لأول مرة حين رفض أن يسمح لموبوتو باعتقال لومومبا . وهو الرجل الذى خرج موبوتو من مكتبه يبكى . . .

الامتصاص الاقتصادى :

تقوم أمريكا الآن بعملية امتصاص رهيبة فى القارة ، وإذا أخذنا مثلا على ذلك « جنوب إفريقية » نجد أن الأموال الأجنبية المستثمرة هناك تزيد على ٢ بليون دولار . فإذا أردنا أن نعرف حصة الجانب الأمريكى فى هذا وجدناها تزيد على كل الدول الأوروبية التى تستثمر أموالها هناك . بل إن استثماراتها فى هذه المنطقة تبلغ ٤٠٪ من مجموع الأموال الأمريكية التى تطوق بها القارة . وهى بهذا تؤكد وجود البيض فى الجنوب . وتعتبر هذه المنطقة « نقطة وثوب » إلى كل أجزاء القارة ، بل وقلعة يمكن بها الضغط على أكثر من مكان بالقارة .

وهكذا تحارب الأجانب إفريقية بأكثر من سلاح ، ولعل أمضاها جميعاً هو « سلاح الاقتصاد ! » .

مشكلة اللون فى الفيلم :

لم نجهل فى يوم من الأيام مقدار هذه الصلة القوية التى تربط بيننا وبين القارة الإفريقية فتاريخ بلادنا السياسى يؤكد دائماً أن مصر لم تنفصل عن سير الحوادث فى القارة . وأنها إذا كانت قد تقدمت فى فترة ما بالقارة ، فإن ذلك لم يكن حباً فى التوسع ، ورغبة فى إظهار « القوى » . وإنما كان رغبة فى دفع القوى الأجنبية التى كانت قد وضعت فى ذهنها دائماً أن تمتص القارة لصالحها .

وقد حرصت دائماً — كما حرصت على وحدة القارة — على احترام مشاعر الإفريقيين . وتأكيد شخصياتهم ، ومن هنا كانت وقفتها العنيدة أمام التفرقة العنصرية . والتنديد بها فى المجالات الدولية . وكل الإفريقيين الذين قدموا إلى مصر ، وعاشوا فيها ، أحسوا أن أرضها الخضراء أرضهم ، وأن سماءها المشرقة سماؤهم ، وأنهم يعيشون عيشة طبيعية كالعيشة التى يسترسل فى أحلامها مواطن من غانة ، أو الحياة التى يمارسها مواطن من أوغندة . والمتتبع لإنتاج الإفريقيين الذين عاشوا فى مصر يرى أنهم فى كل فنونهم يحبون هذا البلد . ويحسون تحت سمائه الراحة . والاطمئنان ، بعكس إنتاجهم الأدبى والفنى فى الدول الأخرى فكله ينزف بالغضب ، ويغلى بالكراهية . ويمور بالحقد .

الأستاذ محمد على ناصف

ومن أجمل هذه المظاهر التى تتكرر بحب للقــارة . والتى ترفع – كباقة من الحب لإفريقية هذا القرار الذى اتخذه الأستاذ « محمد على ناصف » مدير الرقابة على المصنفات الفنية ، والذى يقضى باحترام « اللون » فى الأفلام ، فقد كان يحلو لبعض المخرجين – دون تعمد – إظهار الخدم فى الفيلم من السود . ولكن الوعى الجديد الذى أكد خطوات هذه القارة فى كل المجالات ، والذى أظهرها كقوة خارقة فى هذا العصر الذى يمكن أن يسمى بحق عصر إفريقية ، جعل الجميع يحيي هذه القارة العظيمة ، ويعطها ما تستحق من المجد ، والرفعة .

لقد انتهى عصر الافريقى «الخادم» وبدأ عصر الإفريقى الإنسان المفكر الذى على يديه يولد مصير «عالم جديد !» .

يوم جومو كنياتا :

احتفل فى الشهر الماضى بيوم « جومو كنياتا » الذى يحرص الإفريقيون فيه على استعادة أمجاد كينيا ، ودور البطل العظيم – المنفى الآن فى أطراف بلاده – فى إيقاظ الوعى ببلاده ، ووقوفه القوى أمام الإنجليز .

وإذا كان السياسيون يحيطون هذا الرجل العظيم بعواطفهم ، فإنه يجب على الأدباء ، والعلماء كذلك أن يحيطوا هذا الرجل بأقلامهم بحيث يتكون منها ستار حديدى يحول بينه ، وبين سهام الإنجليز التى توجه إليه بين كل آونة وأخرى ، فالعالم لا ينسى أبحاثه فى التاريخ وعلم الإنسان ، وقصصه التى تعتبر من أجملها قصة « الفيل » والتى يرمز بها إلى الإنجليز .

فقد حطم هذا الرجل الحلم الذى كان يردده الانجليز دائماً ، وهو أن كينيا « بلد الرجل الأبيض » ، بعد أن حشدوا فيها ٦٥,٠٠٠ نسمة من البيض استطاعت أن تضغط على الكينيين ، وأن تسلب أرزاقهم ، وأن تحصل على ما يقرب من ١٢,٠٠٠ ميل مربع من أجود الأراضى – وهى ما تسمى بالأرض العالية – لنفسها ، والتى لكى تتصور الكارثة نقول إنه يصدر عن هذه الأرض المغتصبة ثلاثة أرباع مجموع الصادرات كلها .

. . . وهكذا يضع العالم فى ذهنه

فى يوم «جومو كنياتا» هذه المأساة، ويقف بكل ما يملك من قوة ليحمى هذا الرجل العظيم الذى يملأ كل القارة رغم الرقعة الضيقة التى يتحرك فيها على أطراف بلاده .

فجر جديد فى إفريقية :

تحت هذا العنوان كتبت الدكتورة بنت الشاطىء مقالا مؤثراً جاء فيه :

« .. وعلى نور الفجر الوليد جلست أرقب موظفى مطار « كانو » من أبناء نيجيريا ، يؤدون الخدمات الجمركية لفلول البلجيكيين فى صمت وهدوء ، ويبصمون على جواز سفرهم بتأشيرة الخروج من إفريقية ، ثم يتبعونهم بأنظارهم وهم يولون الأدبار فى ذعر يائس ، تطاردهم لعنة الإنسانية .

وعلى طول طريقنا الجوى ما بين « كانو » و « أكرا » رأيت أبنـــاء إفريقية يسعون مع الصبح المشرق فوق أرضهم الطيبة المطهرة من دنس الدخلاء ، ويكدحون ليزرعوها من جديد ، وعيونهم السمر تتألق ببريق الحب والحنان ، ووجوههم السمراء تختلج بنشوة الظفر والانتصار ، وقطرات العرق تنحدر من جباههم العريضة الشامخة لتشربها الأرض الطيبة فى لهفة الظامىء المشتاق .

هذه إفريقية ! !

إفريقية المجيدة بكل عراقتها ، وأصالتها ، بكل جلالها ، ووقارها ، تفتح قلبها لبنيها الأحرار الأصلاء وتسلمهم كنوزها المذخورة بعد أن لفظت المستعمرين الغزاة ، فذهبوا جميعاً مع الريح ، فما عرفوا قط سرها ، ولا استطاعوا قط أن يغلبوا إرادتها ، ويكسروا صلابتها ، وعنادها أو يذلوا كبرياءها ، وإباءها .

راحوا بعارهم ، وهزيمتهم ، وخيبتهم ، وبقيت حيث هى فى مكانها من الشرق الكبير ، لم تتزحزح خطوة نحو الغرب ، ولم تنتقل من موضعها العتيد إلى سواحل خليج بسكاى أو بحر المانش أو بحر الشمال .

وتماحت الصبغات الأجنبية التى لوثت خريطتها فى المصور الجغرافى ، وكأنما كانت هذه الصبغات ظلالا عابرة خططها الوهم على صفحة من سراب .

الوعى بالقارة :

لقد استرد كل إنسان إلى نفسه القارة الإفريقية التى كان لا يملك أن يتغلغل فيها خطوات محدودة ، ولكنها أصبحت الآن « قارة مفتوحة » لأبناء الجمهورية العربية المتحدة . الذين رأينا أبناءها يساندونها بكل ألوان الفن إلى جانب التأييد السياسى .

ففى مصر يعد الآن « فيلم » عن التفرقة العنصرية يقوم فيه بدور البطولة المطرب الأسمر « صلاح حمدى » ، والممثلة السمراء « سحر محمد » وكلاهما يمثل تمازجاً بين شمال القارة وجنوبها ، كما يكتب قصة الفيلم « عبده بدوى »

وفى ندوة ناجى الأدبية التى يشرف عليها الدكتور شوقى السكرى سمعنا ندوة عن الأدب الإفريقى تحدث فيها يوسف حمودة عن سمات الأدب

الإفريقى الجديد ، وأشاد بالدور العميق الذى تؤكده مجلة « نهضة إفريقية » فى هذا المجال . وختم حديثه بقوله إن الأدب العربى المعاصر كالبحر ممتد وضحل . أما الأدب الإفريقى كالبئر العميقة الدافئة . كما قدم « على شلن » نماذج من هذا الأدب . وتحدث « سمير سويلم » عن الفكر الإفريقى . و « عبده بدوى » عن التفرقة العنصرية فى الشعر . وأدار المناقشة الدكتور عبدالله عبد البارى .

وهكذا تأخذ إفريقية الكثير من اهتمامنا . وما أجدرها بتحويل الطاقة الابداعية فى كافة نواحى الفن فى هذه الفترة التى تمارس فيها أمجادها . وحرياتها . وإصرارها على المقاومة .

الفاشر :

من ميزات الشاعر السودانى حبه لوطنه . وصراخه . وحنينه حين يفارق مسقط رأسه حتى ولو إلى داخل السودان . ومن هذا اللون من الشعر قصيدة جعفر حامد البشير فى إحدى قرى الفاشر :

يا قريتى لم أنس يا قريتى
دارى ولا صحبى ولا اخوتى
والعمر فى أيامه الغضة
والنار والحيران[1] فى الخلوة
و « الفاشر » الزاخر بالصبية
من نعبة يمضون فى لعبة
والبدر بالضوء وبالسطعة

(١) التلاميذ فى الكتاب .

يبعث فيهم لذة النشوة
يا قريتى لم أنس يا قريتى
والنهر قد هدد بالثورة
والماء قد عاد إلى الكدرة
والشاطئ الرابض كالصخرة
تلطمه الأمواج جسرة
والنخل فى الشط على كثرة
أثمر فى خصب وفى وفرة
تأكل منه أحسن الثمرة
والماء بالكفين فى غبرة
نشربه بالطين وبالحمرة
ونلعب «الطاب»[1] على خبرة
تحت ظلال النخل والسدرة
أقريتى لم أنس يا قريتى
يوم تركنا العيش فى « الحلة »[2]
ثم بنينا وسط الخضرة
«راكوبة»[3] فى أرضنا البرة
نرتقب المحصول فى لذة
ونألف الحقل بلا كلفة
ونحرس الزرع مع الصحوة
وفى الأصيل الخامد الجذوة
وفى ليالى البرد والغيمة
نلتف حول النار فى ندوة
يا قريتى لم أنس يا قريتى
أرض المروج السمحة النضرة
بعد الخريف الوارف النعمة
ترعى بها الأغنام فى غبطة
وتسرح الأبقار فى فرحة
آه لها والريح كم هبت

(١) لعبة محلية .
(٢) قرية صغيرة .
(٣) مظلة من الجريد أو الاحطاب أو كليهما .

« من الفن الإفريقى »

الهنود فى جنوب إفريقية

بقلم طلعت أحمد ابراهيم

عند ما استقرّ البريطانيون فى ناتال ، ووضعوا أيديهم على الأراضى الإفريقية ، اتضح لهم أنه من الممكن استغلال هذه الأرض استغلالا عظيماً فى الزراعة ، لا سيما زراعة قصب السكر والشاى والبن . ولما كان هذا الاستغلال يتطلب آلاف الأيدى العاملة لزراعة هذه المحاصيل على نطاق واسع – وذلك ما لم يكن بوسع حفنة من المستعمرين – عندئذ عمل الإنجليز على إقناع الزنوج بالحسنى ، ثم تهديدهم بالقوة . لكى يعملوا فى فلاحة الأرض . ولكن هذه الوسائل لم تثن الزولو عن عزمهم ، لأنهم محاربون أساساً ، يحتقرون العمل فى الحقول . ولذلك تركوا هذا العمل لنسائهم ، واعتمدوا فى حياتهم – من دون سائر البانتو الذين يعتمدون على الزراعة كحرفة – على رعى الماشية . هذا بالإضافة إلى أن الإفريقى لم تكن لديه المثابرة على ما تتطلبه زراعة قصب السكر من الارتباط بمخدومه لفترات طويلة .

إزاء هذه الظروف سعى الإنجليز المستوطنون ، للحصول على موافقة حكومة لندن ، والإدارة البريطانية فى الهند ، لتمدهم حكومة الهند بالأيدى العاملة ، واستجابت حكومة الهند لندائهم ، ووصلت الدفعة الأولى من العمال الهنود المتعاقدين إلى ناتال فى نوفمبر من عام ١٨٦٠ ، وقد بلغ عددها ١٥٠ هندياً ، اشتغلوا فى زراعة قصب السكر بالمنطقة الساحلية من ناتال ، وبعد مرور خمسة أعوام من هذا التاريخ ، انتهت مدة العقود مع الهنود ، واستقر عدد كبير منهم فى جنوب إفريقية ، عملوا فى تجارة الخضروات . وفى الخدمة بمنازل البيض ، واشتغل بعضهم باعة متجولين أما الآخرون فآثروا العودة إلى الهند . وقد كان المستقرون الهنود طبقتين :

الأولى من التجار الأحرار ، وكانوا عادة من مسلمى بمباى .

أما الثانية فمن العمال وكان معظمهم من هندوس مدراس . وأخذت أعداد الهنود فى التكاثر ، حتى كوّنوا جالية

لها شأنها فى الوطن الجديد .

بدأت حكومة جنوب إفريقية حينئذ فى وضع القيود أمام تطور هذه الجماعة ، فحتمت عليهم الحصول على تصريحات المرور ، إذا ما أرادوا الانتقال من مكان إلى آخر ، كما فرضت على من يرغب منهم فى الزواج ، أن يسجل زواجه تسجيلاً قانونياً لدى موظف مختص بشئون الهنود .

واستطاع الهنود أن يحققوا أرباحاً طيبة ، بتعاملهم مع العمال المتعاقدين والإفريقيين . الذين فقدوا الثقة فى التجار الأوروبيين . واستطاع الهنود السيطرة على حرف معينة كانت بيد البيض ، وخشى الأوروبيون من المنافسة التجارية للهنود ، الذين يعيشون فى مستوى معيشى منخفض ، قانعين بربح قليل ، مما يهدد التجارة الأوروبية . هذا ، فضلا عما يبديه الهنود من استياء تجاه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية القائمة على التمييز العنصرى .

عندئذ أنشأت حكومة جنوب إفريقية فى عام ١٨٨٥ ، لجنة لدراسة الظروف التى نجمت عن الهجرة الهندية ، واتضح من الدراسة أن الهندى الحر أصبح منافساً فى ميدانى الزراعة والتجارة ، فاتخذت الحكومة الأوروبيـــة بجنوب إفريقية قوانين جديدة للحد من هجرة الهنود ، عند ما تزايدت أرباحهم فى ناتال ، وصارت التجارة والأرض فى أيديهم .

وعمل الهنود على مواجهة هـــذه الأوضاع ، فألفوا حزب المؤتمر الهندى لجنوب إفريقية عام ١٨٩٨ ، الذى عارض التفرقة العنصرية ، والمعاملة السيئة للهنود . واستمرت هجرة الهنود إلى جنوب إفريقية بعد ذلك على نفقة المؤجرين الأوروبيين إلى أن أوقف هذا التيار فى عام ١٩١١ .

وقد احتدم الصراع بين الهنود والأوروبيين فى أوائل القرن العشرين ، وظهرت – بشكل إيجابى – سياسة المقاومة السلبية ، التى كان رائدها « موها مداس كراماشاند غاندى » ، فى صراعه مع « سمطس » الذى عمل دائماً على إغلاق باب الهجرة الآسيوية ، ويتضح ذلك من قوله : « يجب استئصال السرطان الآسيوى الذى توغل فى الخلايا الحيوية لاتحاد جنوب إفريقية » ، هذا على حين كان يسعى غاندى ليجعل الدخول حراً ، والحقوق المدنية كاملة للهنود على أساس المساواة بالأوروبيين . وفى عام ١٩٢٤ اضطرت حكومة سمطس إلى إعادة الأرض للهنود ، وصدر قانون للأراضى يهدف إلى عزل الآسيويين فى مناطق معينة ، فثارت حكومة الهند لذلك ، وأمكن فيما بعد إيجاد حل سلمى ، فلم ينفذ هذا التشريع المقترح . وصدر قانون آخر عام ١٩٢٧ ، ينص على

أن تقدم حكومة الاتحاد ٢٠ جنيهاً لكل هندى يرغب فى العودة لوطنه ، ولم يعد إلى الهند إلا القليل

واستمرت المعركة محتدمة فى المجال الاقتصادى ، ونمت كراهية الأوروبيين بصفة عامة – والأفريكانيون بصفة خاصة – للهنود ، لخوفهم من سياسة المقاومة السلبية وتأثيرها على التكتلات الإفريقية ، تلك السياسة التى كانت سلاح الهنود ، الذى يلجأون إليه كلما أحسوا بالظلم ، كما حدث فى عام ١٩٣١ ، وعام ١٩٤٦ ، عند ما ألفوا جبهة إفريقية هندية لمقاومة سياسة التميز . وقد اتهم الأوروبيون المؤتمر الهندى بالشيوعية ، بسبب سياسته المناهضة للتفرقة العنصرية . ثم لجأت حكومة الهند بعد ذلك إلى هيئة الأمم المتحدة ، فأبرزت المشكلة العنصرية فى المجال الدولى . وقد أشار جواهر لال نهرو فى كتابه « اكتشاف الهند » إلى أن التفرقة العنصرية ، وسوء معاملة الهنود ، يلعبان دوراً كبيراً فى استمرار الاضطرابات الاجتماعية فى جنوب إفريقية .

واليوم وقد أصبحت الجالية الهندية تشكل خطراً على الأوروبيين ، إذ يبلغ عدد الهنود فى ناتال وحدها نحو ٣٦٥,٠٠٠ هندى ، وهذا العدد مساو لعدد الأوروبيين فى ناتال ، ويصل عددهم فى الترانسفال إلى أكثر من ٢٠ ألف هندى ، ومثلهم فى ولاية الكيب ، ولذلك يلوم الأفريكانيون البريطانيين ، لأنهم سبب مشكلة الهنود ، ويتهم الافريكانيون الرئيس الهندى نهرو – كما يتهمه البريطانيون فى كينيا – بأنه يدبر تدبيراً سرياً ، ليتخذ من إفريقية أرضاً تستوعب سكان الهند المتزايدين ، ويعتقد البعض أن الهند سوف تشن الحرب يوماً على الاتحاد ، ولذلك عمل اتحاد جنوب إفريقية على بناء أسطول بحرى ، لمجابهة هذا الخطر المزعوم .

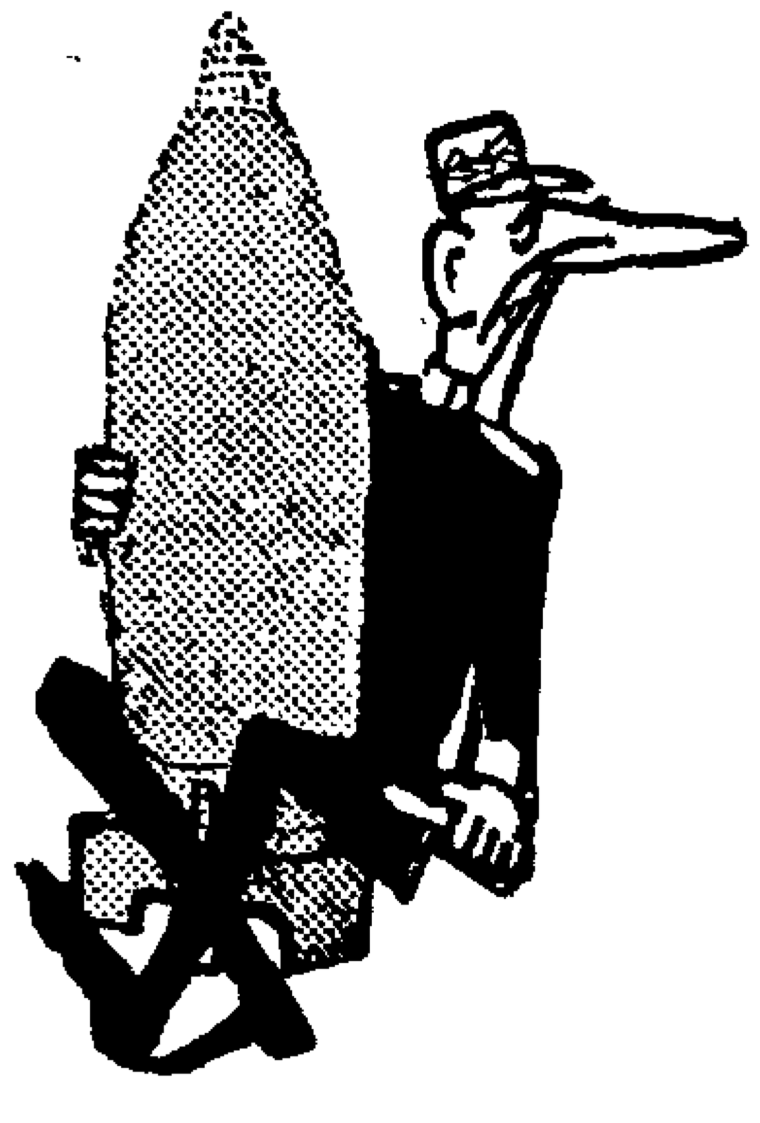

من اقتصاديات غانة

بقلم : سعادات سالم عبد اللطيف

يرجع تاريخ زراعة الكاكاو فى غانة إلى أكثر من ثمانين عاماً مضت حينما أدخل بذوره حداد من أهالى بلدة « اكوابيم ممبونج » إذ أتى بها من « فرناندوبو » وزرعها فى بلدته ، وبعد خمس سنوات حصد أول محصول للكاكاو فى غانة . ومنذ ذلك الحين انتشرت زراعة الكاكاو فى أقاليم غانة ، وأصبحت المساحة المزروعة منه الآن تبلغ حوالى خمسة ملايين من الأفدنة ، وتنتج محصولا يقدّر بمائتى ألف طن فى العام الواحد . ونجحت زراعـة الكاكاو بإقليم غانة نجاحاً ملحوظاً ، ويرجع هذا النجاح إلى عدة عوامل طبيعية : منها خصوبة الغابات الكثيفة التى تساعد على إيجاد الظل والجو الحار الرطب وهو ما يلائم نمو نباتات الكاكاو ، مما جعل غانة أولى البلاد المنتجة للكاكاو ، فلا غرو أن أصبح محصول الكاكاو مكوناً للجزء الأساسى من دخل غانة . مما أدى إلى زيادة الاهتمام بزراعته فى هذه البلاد ، حتى أنه فى خلال نصف قرن من زراعته لأول مرة فى « ساحل الذهب » بغانة وصل إنتاج هذا الإقليم منه إلى ما يقرب من ٣٠٪ من إنتاج العالم كله ، وبذلك تصدّرت غانة المركز الرئيسى لإنتاج الكاكاو وقد بلغ إيراد الدولة من ثمن الكاكاو المصدر نحو خمسة وثمانين مليونا من الجنيهات فى سنة ١٩٥٤ — وما يقرب من نصف هذا الإيراد يؤول إلى الفلاحين والباقى يدخل ضمن إيرادات الدولة كضرائب عن التصدير تنفق على المشروعات المختلفة .

ولكن من المؤسف حقاً ، أن أشجار الكاكاو تتعرض للإصـابة بالأمراض « الفيرسية » مما يسبب للدولة خسائر فادحة تقدر بملايين الجنيهات ، ونضرب لذلك مثلاً بأحد أقاليم غانة وهو الإقليم الشمالى الشرقى الذى هبط إنتاجه من الكاكاو فى سنة ١٩٥٣ إلى نصف إنتاجه فى سنة ١٩٣٦ نتيجة لإصابته الشديدة بهذه الأمراض ، أما الأقاليم التى لم تمتد إليها الإصابة فقد زاد إنتاجها زيادة واضحة كما تدل على ذلك الاحصائيات .

وتعمل جمهورية غانة على تحسين وسائل إنتاج الكاكاو إذ أن الوسائل التى يتبعها الفلاحون فى زراعته تعتمد على الطرق البدائية .. ويشمل هذا

التحسين إدخال الوسائل الحديثة فى الزراعة ونشر الثقافة الزراعية بين الفلاحين لتشجيعهم على اتباع الطرق الحديثة فى تربية النبات والعناية به عند حصاد الثمار ، وفى وسائل تجفيفها ، كما تبذل الدولة مجهوداً كبيراً فى مقاومة الأمراض الفيرسية وغيرها وفى مكافحة الآفات التى تصيب هذا المحصول . كذلك أنشأت الدولة معهداً لأبحاث الكاكاو (معهد أبحاث الكاكاو لإفريقية الغربية WACRI) يقع بمدينة تافو التى تبعد نحو سبعة وستين ميلا فى شمال أكرا عاصمة غانة ، ويعمل هذا المعهد على القيام بالأبحاث المتصلة بإنتاج الكاكاو وتصنيعه ليس بغانة وحدها . بل وبدول إفريقية أخرى مثل « نيجيريا . وسيراليون » .

وتجرى بهـذا المعهد التجارب لزيادة إنتاج الكاكاو ووقاية أشجاره من الأمراض والآفات الحشرية . وكان من بين ما قام به هذا المعهد من أعمال استيراد الأصناف الكثيرة من مناطق مختلفـة معظمها من أعـالى وادى الأمازون بأمريكا الجنوبية . ومن أهم مميزات هذا النوع من الكاكاو أنه سريع النمو ، كما أن محصوله أوفر من غيره من الأنواع الأخرى مثل « اميلونادو » الذى يزرع بغانة فى الوقت الحـاضر . ويبلغ عدد الأنواع التى استوردها هذا المعهد ما يزيد على المائة نوع .

ولقد أوضحت التجارب التى أجريت بالمعهد المذكور أن كاكاو الأمازون نظراً لوفرة محصوله فإنه يجهد التربة إذ يحتاج نموه السريع إلى استنفاد المواد المعدنية بالتربة بشكل أكبر مما تستنفده الأنواع الأخرى الأقل إنتاجاً . الأمر الذى دعا إلى القيام بالأبحاث المتعلقة بمد نباتات الكاكاو بالمخصبات المختلفة التى تحفظ مستوى الإنتاج عالياً دون إجهاد للتربة أو استنفاد لطاقتها .

ويبلغ محصول أنواع الكاكاو الطيبة نحو ١٤٠٠ رطل من الكاكاو الجاف للفدان الواحد كما هو الحال فى أنواع كاكاو الأمازون ، على حين أن إنتاج « الأميلونادو » أو كاكاو غانة يصل إلى نحو ٦٠٠ رطل فقط للفدان . وقد استطاع هذا المعهد أن يرفع إنتاج الفدان من الكاكاو إلى أرقام قياسية ، وذلك باستخدام الوسائل الحديثة فى التسمدة وتهيئة البيئة اللازمة لنموه حتى إن إنتاج الفدان بمحطات الأبحاث قد وصل فى موسم ١٩٥٨ — ١٩٥٩ إلى ثلاثة آلاف ومائة رطل من نوع « الأميلونادو » .

وهكذا تسير هذه الجمهورية الفتية قدماً نحو زيادة إنتاجها من الكاكاو — أهم حاصلاتها الزراعية .

(1) West African Review. November, 1959.

(2) The New Ghana by J. G. Anamoo 1958, Pan Books L.T.D., London.

نيجيريا المستقلة

بقلم : عزت محمد ابراهيم

لم تحصل نيجيريا على استقلالها بين يوم وليلة . فقد استمر كفاحها ونضال أبنائها فى سبيله ما يزيد على الأربعين عاماً ، وتاريخها وتاريخ أبنائها الأبرار حافل بهذا النضال المرير فى سبيل الاستقلال .

فكثيراً ما قاومت نيجيريا الضرائب الجائرة التى كان يفرضها المستعمرون ، فكان النيجيريون ينظمون المظاهرات الصاخبة احتجاجاً على السياسة الاستعمارية الغاشمة ، ويعلنون الاضرابات المتوالية .

وفى عامى ١٩٤٥ ، ١٩٥٠ أعلن أكبر إضراب عام فى تاريخ البلاد هز الدوائر الاستعمارية .

وفى عام ١٩٤٦ نظّم النيجيريون مظاهرة كبرى ضد الدستور الجائر الذى فرضه الاستعماريون على الوطنيين ، محاولين من ورائه تقسيم البلاد إلى مناطق ثلاث : شمالية ، وشرقية ، وغربية ، لكى يبثوا الفرقة بين أبناء الوطن الواحد ، ويفتتوا وحدتهم ، ويقطعوا أوصالهم .

وفى عام ١٩٤٧ نظم المجلس الوطنى لنيجيريا والكمرون معارضة شاملة وأرسل « وفداً » إلى لندن ليحتج لدى حكومتها ، وكانت حكومة العمال وقتذاك .

ولم تكف حكومات بريطانيا المتتالية عن محاولة عرقلة استقلال نيجيريا وتفتيت وحدتها ، بإجراء انتخابات لكل مقاطعة على حدة ، كما حدث فى انتخابات عام ١٩٥١ ، حيث فاز حزب الشعب فى المقاطعة الشمالية ، وحزب العمل فى المقاطعة الغربية ، بأغلبية ضئيلة ، واستطاع المجلس الوطنى لنيجيريا والكمرون أن يكتسح الانتخابات فى المقاطعة الشرقية .

وفى ديسمبر الماضى اتجه النيجيريون إلى صناديق الانتخابات لاختيار زعيم لهم من بين ثلاثة مرشحين

أولهم : « أوبا فيمى أولوو » وينتمى إلى قبائل يودوبا التى تقطن الجزء الغربى من البلاد . وقد فاز بثلاثة وسبعين مقعداً من المقاعد البالغ عددها ٣١٢ وأصبح بذلك زعيما للمعارضة .

وثانيهم : دكتور نامادى أزيكوى وهو ينتمى إلى قبائل أيبوس فى الشرق، وقد كان يعمل فى صدر شبابه فى مناجم الفحم بالولايات المتحدة ، وكان شديد الحنق على الجنس الأبيض ، عظيم المقت له ، ويكن لهم كراهية شديدة ، لما كان يعانيه من آثار التفرقة العنصرية . فى أمريكا بلد الحرية . ودكتور أزيكوى فى الخامسة والسبعين من عمره ، وقد أمضى هذا العمر المديد ، مجاهداً فى سبيل تحرير بلاده . وقيادتها نحو الاستقلال . وقد أصبح الدكتور أزيكوى بعد الانتخابات حاكماً عاماً ، فى الحكومة الجديدة وقد خلف بذلك سير جيمس روبرتسون الحاكم البريطانى السابق .

ولقد كان تعيين الدكتور أزيكوى حاكماً عاماً للبلاد . نهاية لعهد أطلق عليه « الثلاثة الكبار » حيث كان كل واحد من هؤلاء الثلاثة يتزعم إحدى المقاطعات ، ويمهد لاستقلالها . ضمن دولة نيجيريا .

وتقول الأنباء : إن مركز رئيس الوزراء الإقليمى لن يكون ذا أثر فعال فى عهد الاستقلال ، وستتمثل السلطة الفعلية فى يد رئيس الوزراء الفيدرالى .

أما ثالث المرشحين فهو الحاج أحمد وبيللو رئيس نيجيريا الشمالية الذى فاز بأكبر عدد من المقاعد ، وأصبح زعيم الأغلبية فى البرلمان الجديد ، وكان باستطاعته أن يتولى رئاسة وزراء الاتحاد النيجيرى ، ولكنه اختار لهذا المنصب السيد «أبو بكر تفاوا باليوا » الذى بذل جهداً كبيراً فى توحيد القبائل الشرقية والغربية حتى استطاع أن يوفق فى ذلك كل التوفيق. ومما يؤثر عنه قوله : « إن الفواصل التى كانت تفصل شرقنا عن غربنا قد ماتت وذهبت إلى غير رجعة » .

والحقيقة أنه قام بعمل جليل فى هذا السبيل ، فرؤساء القبائل كأمراء الاقطاع ، والخلاف القبلى لا يزال الثغرة الوحيدة التى يستطيع الاستعمار أن ينفذ منها إلى بث الفرقة بين أبناء الوطن الواحد ، وعند ما يستطيع الإفريقيون سد هذه الثغرة فقد سدوا فى وجه الاستعمار كل سبيل .

إن هناك أملا قوياً جداً فى أن ذلك سيكون هو ما نرجو فعلا ، وها نحن نرى «الحاج أبوبكر»يعلن أن من مبادئ نيجيريا التى تحرص عليها .

١ — التزام المبادئ التى تقررها الأمم المتحدة ، مع بقاء نيجيريا منفصلة عن الصراع بين الشرق والغرب

٢ — تجنب كل ما من شأنه أن يؤدى إلى تدخل الأجانب فى شئون البلاد كما حدث فى الكونغو .

٣ — لفت نظر الدول الإفريقية

إلى الخطر العظيم الذى ينجم عن التدخل الأجنبى .

والحاج أبو بكر من أنصار الوحدة الإفريقية ، ولم يكد يتولى مهام منصبه كرئيس للوزراء حتى قام بزيارات متوالية لغانة ، وليبريا ، وسيراليون وتوجولاند ، ثم تحدث عن هذه الوحدة مع مسيو « هوفيت بواجنى » كما أنه يرى ضرورة التعاون المثمر بين الدول الإفريقية على أساس الصلات الاقتصادية ، وأن يكون للإفريقيين جميعاً خطـة مشتركة فى النهوض بالمواصلات ، والتعلـيم والبحوث العلمية . ثم هو يتحدث عن الحدود المصطنعة التى صنعها الاستعمار قائلا : « إن معظمها تعسفى اصطنعهـا الأوروبيون وفق أهوائهم ومصالحهم »

وها نحن نرى زعيما آخر من نيجيريا هو الحاج عبد المالكى يقف أمام جمع كبير يخطب فيهم قائلا : « إننا نحن النيجيريين نؤمن إيماناً قوياً بأن استقلال بلادنا سيكون نقطة تحول فى تاريخ نيجيريا السياسى »

ثم نحن نرى السيد أحمدو يعلن أيضاً : « إن نيجيريا أمة واحدة » . وهذه كلها بوادر خير . وعلامات بركة . وبشائر إقبال ويمن.

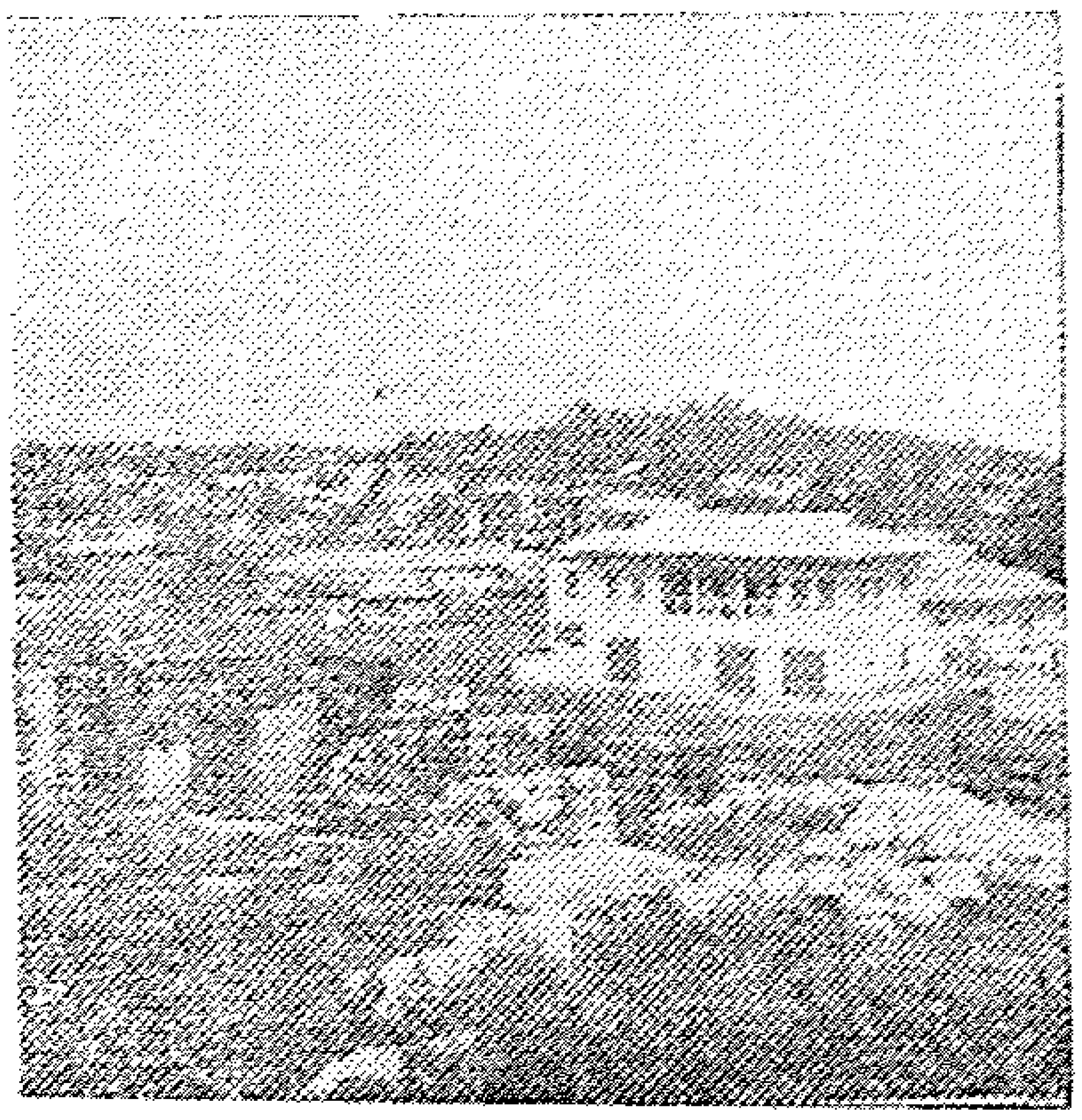

كتاب الشهر

تقرير عن إفريقية

بقلم أودين ميكر

REPORT ON AFRICA

by Oden Meeker

عرض وتقديم للعميد (ا . ح) محمد عبد الفتاح ابراهيم

المقدمة

كتاب صدر قبل خمس سنوات ، أصدرته سنة ١٩٥٥ شركة شاتو ووبندس الانجليزية بلندن ، وكان صاحبه قبل عام واحد (١٩٥٤) قد نال واحدة من جائزتي جامعة نيويورك لعمل أدبي آخر . ولكنه تقدير يدل على أن للرجل قدماً ثابتة فى هذا اللون من المؤلفات ، حتى لقد قالت مجلة اتلانتك الأدبية الشهرية التى تصدر فى أمريكا عن الكتاب : « أفضل عرض كامل من مختلف الاتجاهات لهذه القارة التى برزت إلى ذروة الوجود اليوم » .

و « أودين ميكر » صحفى أمريكى قضى أكثر من عام فى جولة متصلة بافريقية ثم سجل على الورق كل ما شاهده وكل ما عن له ، وفى الوقت الذى كانت عواطفه واضحة الاتجاه إلى جانب القومية الإفريقية ، وفى الوقت الذى حمل كثيراً على الامبريالية فانه لم يترك السياسة وحديثها يشغلانه عن متابعة وصف الحياة العامة للناس ، وشرح الطوابع الثقافية الشعبية ، والتحدث إلى الزعماء الوطنيين ، وزيارة الأسواق الإقليمية والوقوف طويلا أمام النماذج الحلية فى فن البناء لا فى المدن الحديثة أو فى الأحياء الحديثة من المدن القديمة فحسب ، بل وفى القرى الريفية والمناطق القبلية الإقليمية أيضاً .

ومع أن الرجل لم يغفل قط عن أنه صحفى وأن الأسلوب الصحفى يجب أن يكون طابع كتابه فانه لم يترك القراءة الترويحية تطغى على الكتابة الموضوعية ، ولكن أسلوبه الترويحى كان ولا شك هو الذى يجعل القارئ يتابع المطالعة دون أن يمل الحديث أو يضيق بالوصف سيما الوصف القصصى للعقائد والتقاليد فى السحر واستخدام التعاويذ ، أو فى وصف حلبات الرقص وما إليها ، وقد جاء كتابه من هذه الاتجاهات مرجعاً قيماً مليئاً بالموضوعات على أن النقد الذى يمكن أن يوجه للكاتب أنه كان يتنقل فى حديثه بوثبات سريعة حتى ليبدو الكتاب معدوم الحبكة غير جيد السبك ، فهو يتحدث عن موضوع ما فى صفحة ما من زاوية ما ، ثم يعود للموضوع نفسه بعد صفحة أو صفحات من زاوية أخرى ، ولربما يكون قد فعل هذا لأنه سطر كتابه فى أسلوب المشاهدات الدراسية وتسجيل اليوميات ، وإن كانت قد غابت عنه التواريخ التى تسجل

الحوادث ، ولو كان قد قسم كتابه من ناحية الموضوعات لكان الانتفاع به أفضل ، فهو مثلا يتحدث عن الإنتاج الزراعى أو الحيوانى ، أو عن التعليم أو عن الحديث الاثنوجرافى عن الناس والبلاد والمدن الكبرى فى منطقة ، ثم يعود فيتحدث عن الموضوعات نفسها فى منطقة ثانية . وهكذا فى كل ما عرض له أو ناقشه من موضوعات جاء بها فى سياق عرضه لمشاهدات رحلة . والشىء الثانى الذى يمكن أن يوجه له من نقد أن رحلته كانت ذات طابع سياحة موجهة ، فقد كان يسير فى صحبة ضابط العلاقات العامة ، وكائناً من كان هو فهو من رجال الحكومة ، وكان صاحبنا المؤلف ينزل « باستراحات » الحكومة مما يحد من اتصالاته وبخاصة فى البلاد التى تحس بمشاعر انفصالية نحو الحكومة والحكام ، ولهذا فاننا نستطيع أن ندرك من سياق كتابه أنه لم يتصل إلا بعدد محدود من كبارات الرجال ولم يتصل بالأهلين إلا اتصال المار المتعجل فى سوق مزدحم يوم عيد .

على أننا فى هذه الدراسة سنحاول أن نقدم الكتاب مجملا فى الطابع الرتيب الذى كان يجب أن يجىء فيه ، الطابع الموضوعى للمجموعات بجمعها من هنا وهناك ليسهل معها الدراسة المقارنة ، الهدف الذى يجب أن يكون القصد من مثل هذه الدراسات .

الأرض والناس :

يحس من يدخل نيجيريا من الغرب قادماً من غانة أن أكرا ليست بعيدة عن لاغوس ، فأكرا لا تبعد كثيراً عن الحدود الشرقية لساحل الذهب ، ولاغوس تقع عند الركن الغربى لحدود نيجيريا وبين العاصمتين الممر الضيق لتوجولاند وداهومى .

فلاغوس هى أول ما يقصده الزائر لنيجيريا ، ومن ثم فإنها هى التى تعطيه الفكرة الأولى عن البلاد ، والعاصمة مليئة بالأبنية القائمة على دعامات والتى تبنى حوائطها داخل إطارات من أعمدة الأسمنت ، وكل دورهــا بشرفات طويلة مغطاة ، وطرقاتها متربة رغم الشجيرات المزهرة على جوانبها ، وتملأ الطرقات جيئة وذهاباً دراجات لها صناديق جانبية لحمل الركاب ، وتربط المعابر أرض الساحل بالجزر التى شيدت عليهــا المدينة ، هذه الجزر التى كانت كل ما احتاجه الإنجليز لإنشاء قاعدة للسفن التى قالوا إنها تقوم بأعمال الأطواف لمنع تجارة الرقيق فى مياه غرب إفريقية .

ويبدو أن الشد والجذب اللذين توجدهما الخلافات الجنسية أقل وضوحاً فى لاغوس عنها فى أى مكان آخر من غرب إفريقية بالرغم من أن المدينة تعتبر أكثر الدول تعقداً على سطح الأرض ، وقد نالت نيجيريا الحكم الذاتى سنة ١٩٥١ ودرب أهلها ليستقلوا بأنفسهم فى تاريخ قديم (وعند ما زرت البلاد سنة ١٩٥٤ كان هناك تسعة وزراء من الإفريقيين لهم سكرتيريون من الإنجليز مع ٣ وزراء إنجليز ، ويجتمع المجلس التشريعى فى المبنى الذى يعتبر أجمل نموذج لفن البناء الحديث) وفى إفريقية الاستوائية نواب إفريقيون ، ولكننا مع هذا نقابل فى الطريق رجال (الجوجو) الذين يغطون أجسامهم

بالريش والمرايا والتعاويذ يصحبهم فى تجوالهم حاملوا الطبول والدفوف ، ويصل تعداد سكان لاغوس إلى ٢٧٢ ألف نسمة ، حتى ندرك بعض عوامل النقد فى نيجيريا يجب أن نعرف بأن وكالة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة قد استخدمت إخصائياً أمريكياً ليستخرج أحرف هجاء أربعين لغة من اللغات الخمسين فى نيجيريا وبعضها أقرب شبهاً فى النطق إلى اللغة الصينية .

حديث الجغرافية :

وتنقسم نيجيريا إلى ثلاثة أقسام : الشمالى والشرقى والغربى ، والتقسيم اصطناعى لأنه يتبع تجمعات السكان .

ومساحة نيجيريا ٣٧٢,٦٧٤ ميلا مربعاً أى ما يعادل مساحة المملكة المتحدة أربع مرات وهى أكبر مساحة من أى دولة فى أوروبا عدا روسيا السوفيتية وتكاد تصل إلى مساحة الإقليم الجنوبى من الجمهورية العربية المتحدة ، ويصل تعداد السكان إلى ٣٢ مليوناً فهى من ناحية السكان أكثر من أى دولة فى إفريقية وتصل نسبة كثافة السكان فى المتوسط ٨٥,٨ للميل المربع .

وتبدو سعة المنطقة الداخلة عند ما ننظر إلى خريطة البلاد نجد أنها من الشمال للجنوب تشغل نحو عشر درجات من درجات العرض الشمالى ، كما أنها من الشرق للغرب تشغل نحو عشر درجات من درجات الطول الشرقية .

ويمتد النطاق الساحلى لمسافة ستين ميلا للداخل ، تتبعه مسافة بين خمسين ومائة ميل من غابات منطقة الأمطار تتبعثر فيها أشجار النخيل ، ثم تجىء منطقة السافانا والغابات المفتوحة والأراضى المجدبة مع بعض مناطق مسطحة أشبه بهضبات يصل ارتفاعها بين ٤٠٠٠ و ٦٠٠٠ قدم عن سطح البحر ، وتمتلىء المنطقة الشمالية بقوافل الجمال وبالمدن المليئة بالدور التى تبنى من الطين حتى تبدو حين تكمل عمارتها وكأنها قد مرت بها ألف سنة ، وهذه المنطقة الشمالية ثلثا مساحة نيجيريا ولكن يسكنها فقط سبعة عشر مليونا ونصف من السود المتحفظين الذين يتجهون بأنظارهم إلى العالم العربى أكثر مما يتجهون إلى أوروبا .

الناس :

وتتلون المظاهر البشرية تلون الظواهر الجغرافية ، ففى الشرق يعيش الايبو IBOS ، وربما كان الايبو — على ما تقول جريدة التيمس اللندنية فى دراسة حديثة — أكثر القبائل الإفريقية تقدماً واحتمالا للعمل .

ويقوم مجتمع الايبو على الانفرادية وتعمل حكومتهم التقليدية على أساس الأسرة مع اعتبار العشيرة أكبر تنظيم سياسى ، ولم تنجح هنا تعاليم لوجارد للحكم غير المباشر ، بل ربما تكون

ترتيبات المجالس الريفية أصلح عند الايبو .

ويعيش اليوروبا فى الغرب ، وفى هذا الجزء أهم مدن نيجيريا ففيها لاغوس العاصمة وابيدان وبنين ، على حين نجد فى الغرب « بورث هاركورت وكالابا وانوجو ، وفى الشمال كانو ولوكوجو وسوكوتو » .

ومستوى اليوروبا الثقافى عال وهم سريعو التكيف مع الطرق والأساليب الأوروبية للحياة ، وفى أبيدان المركز الدينى للايفى IFE

وفى الشمال يعيش الهوزا والفولانى ، والفولانى غزاة انتهوا من غزو أرض الهوزا واستقروا عند ما جاء المستعمرون الإنجليز ، والهوزا والفولانى فقراء ولكنهم ليسوا معدمين ، وكلهم تجار رحل ومزارعون صغار ورعاة أغنام ، ويتمسكون بأهداب أوتوقراطيتهم وبالامارات التى يتولونها ، وهم شديدوا الحساسية بالنسبة لتخلفهم ويشعرون بالقلق لما يتوافر للشرقين والغربيين من اليوروبا والايبو من علم ومعرفة ويعملون جادين للحاق بهم .

النيجر نهر ودولة :

ينبع نهر النيجر الذى أخذت منه نيجيريا اسمها من جبال سيراليون ، ويسير لمسافة ٢٦٠٠ ميل متجهاً للشرق فى البداية ، ثم للجنوب فى قوس عنيف وسط غرب إفريقية حتى يصل إلى المحيط الاطلنطى الجنوبى فى دال طينية التربة ، وفتحات دال النيجر هى الأنهار الزيتية التى وصفها التجار الانجليز فى القرن التاسع عشر ، أولئك التجار الذين رسموا المصورات لأنفسهم وراحوا يقومون بأعمال الكشف الجغرافى أثناء بحثهم عن تجار زيت النخيل ، وكانت المنطقة يوم ذاك منطقة مستنقعات مليئة بالحمى الصفراء والملاريا .

وقد اندفعت عمليات الكشف بقصد البحث عن أسواق جديدة فى غرب إفريقية بدلا من المستوطنات الأمريكية التى فقدتها بريطانيا وهى عمليات بدأت فى طابع عجيب ، فإن الناس الذين جمع بينهم الشراب فى حان ساق البان بلندن ليلة التاسع من يونيو سنة ١٧٨٨ قد كوّنوا من أنفسهم جمعية للنهوض بعمليات الكشف الجغرافى فى داخل القارة ، وقبل أن تمر ثمانية أسابيع كانوا قد استأجروا « منجوبارك » للقيام بالكشف الجغرافى فى أرض النيجر باسم الجمعية .

وقد عرف الأوروبيون المنطقة الداخلية لأرض النيجر فى السنوات الأولى للقرن التاسع عشر ، وقد جاب الأرض عدة رحالة يتقدمون من الساحل للداخل تدريجياً تبعاً لمدى الطاقة والاحتمال لمواجهة الأوبئة والعلل المنتشرة فيما وراء الساحل ؛ على أن الأهم أن الإنجليز بدأوا يتدخلون فى

سياسة البلاد . وفى سنة ١٨٨٦ كان الإنجليز يقومون بالتحكم فى الحروب الأهلية القائمة بين اليوروبا فى الجنوب، وفى عام (١٨٨٦) تكونت شركة النيجر وهى التى افتتحت المركز التجارى على النهر فى (لوكوجا) فكان أن اصطدمت بالأمراء الذين يعيشون فى الشمال والذين يقومون بين حين وآخر بالإغارة على جنوب البلاد .

وفى أثناء هذا كان الفرنسيون الذين ثبتوا أقدامهم فى داهومى يطالبون ببلدة بورجو على الضفة اليمنى للنهر . ولكن شركة إفريقية التى كانت تتولى العمل والإدارة فى أوغندة بعثت إلى المكان ببعض رجال بوليس النيجر بقيادة الكابتن فردريك لوجارد وأتم لوجارد عقد معاهدة مع حاكم بورجو وأعطت هذه المعاهدة للإنجليز سيادة على المدينة وعلى الضفة اليمنى للنهر .

وكان لوجارد سياسياً كما كان من رجال الجندية . وفى سنة ١٩٠٣ كان قد استطاع الوصول إلى تحقيق سيطرة الإنجليز على كل شمال نيجيريا مع قيام حكومة إسلامية تستعين بعدد يحصى على أصابع اليد الواحدة من الإنجليز

والذى يعنينا هنا أن شمال نيجيريا وجنوبها قد انضما معاً فى وحدة فدرالية للإدارة والحكم سنة ١٩١٤ .

صور من البناء الداخلى :

وحديث التطور فى البناء الداخلى ليس فيه من جديد لدولة تتطور تبعاً لدوافع داخلية أو تبعاً للسير الطبيعى لنظام الحكم غير المباشر ، ولكن مع هذا فهناك بعض الصور الخاصة الجديرة بالملاحظة .

التعليم :

وتبدو أهم مظاهر النجاح الاجتماعى بنيجيريا واضحة فى « التعليم » ، وفى السنوات القليلة الماضية ، وفى جيل واحد وثب عدد المدارس من ٣٦٠٣ إلى ١٠,٠٠٠ ، ويستخدم عدد كبير من الناس غرف المطالعة العامة حيث توزع الكتب على المطالعين أكثر مما توزع الصحف حتى المصورة منها .

ويتعلم الناس القراءة والكتابة بدرجة مقبولة نوعاً ، فى مدة تتراوح بين ثلاثة وأربعة شهور ، ولكن المشكلة الهامة هى النقص فى عدد المدرسين ، ونسبة التعليم غير متوازنة فى البلاد : ففى الشمال من نيجيريا يعيش أكثر من نصف سكان نيجيريا ولكن إحصائيات التعليم تدل على أن فى الشمال ١٥٠٠ مدرسة أولية ، و ٥ مدارس ثانوية ، على حين أن فى الجنوب ٦٠٠٠ مدرسة أولية و ٢٠ مدرسة ثانوية ، وفى أبيدان جامعة بها عدد من الكليات كما أن بها مكتبة تحتوى على مائة ألف مجلد ، وفى الشمال بكانو المعهد الإسلامى لدراسة علوم الفقه والعبادات والشريعة الإسلامية .

ولنيجيريا عدد كبير من الطلاب الذين يطلبون العلم فى جامعات المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية .

وتقوم الآن حركة واسعة لتدريب النساء على الخدمة المدنية ورفع مستواهن الثقافى تبعاً لاقتراح عالم إفريقى هو جيمس أجرى الذى قال :
« عند ما تعلم رجلا فإنك تعلم فرداً ولكن عند ما تعلم أماً فإنك تعلم أسرة كاملة » .

الضرائب والقضاة :

تنظيم الضرائب والقضاة يتبع فى العادة التنظيم الذى رسمته وزارة المستعمرات البريطانية للأقاليم الإفريقية منذ بعيد ، ومع هذا فهناك نقاط لها طابعها المميز ، فالقضاة فى الشمال يتوارثون وظائف القضاء .

ونظام الضرائب عند الهوزا يعتبر معقداً إذ تجمع الضرائب وتجبى على الأرض وعلى الثروة الحيوانية وعلى الصناعات المختلفة للأهلين حتى صيد السمك ، وعلى الراقصات وأماكن القمار ، ومحال العبث واللهو بشتى صورهما .

السحر والشعوذة :

ومع التطور الثقافى والاجتماعى إلا أنه ليس بمستغرب أن نلقى فى أسواق لاغوس (العاصمة) بعض رجال السحر والمشعوذين ، ويبيع بعض من يعملون فى هذه الصناعة التعاويذ من عظام الماشية ومن قواقع البحر . وجزوع الأشجار الصغيرة وأوراق الأشجار ، وذيول الببغاء وحتى من الريش الأحمر ، ولكل من هذه الأشياء مناسبة استخدامها للوقاية أو للإيذاء ، ويعتقد كثيرون فى السحر . حتى أن المؤلف يقص قصة رواها له « الوورث » محرر المجلة الشهرية « نيجيريا » يقول : إن أحد القضاة قد حمل من قاعة المحكمة وهو يهذى والبصاق يتناثر من فمه لأن امرأة سبق أن أصدر ضدها حكماً اعتبرته غير عادل ومن ثم فقد قامت بإيذائه بوساطة السحر .

ويتحدثون عن رجال من المتطببين الذين يستخدمون السحر فى علاج المرضى بأنه يستخدم آلات بدائية معقمة ويضع فى يديه قفازاً من الجلد أثناء مزاولة أعمال السحر على مثال ما يفعل الجراحون وبعض الأطباء الذين يعالجون الأمراض المستعصية .

وقد جاء فى إحدى صحف أبيدان أن اتحاد سائقى سيارات الركاب قد قدم الأضاحى من الأرانب والماعز والكلاب إلى « أوسون » Osun آلة الحديد ليعاون فى منع حوادث السيارات

من الحديث عن الأعلام

المدن :

وبالإضافة إلى لاغوس العاصمة فقد عرض المؤلف للبلاد التى زارها ، وعرض لها فى وصف مجمل رصين — وإن كانت الفكرة كما أشرت من قبل — إلا أنه لم ينغمر فى المستويات الدنيا من الناس ، وبالمثل لم يتعمق إلى أعماق مختلف الأحياء من المدن . وقد يكون من الضرورى أن نقدم هذا الحديث عن المدن فى الترتيب الذى سار فيه :

أبيدان : على مسافة ثلاث ساعات بالسيارة من لاغوس على طريق معبد كثير المنحنيات ومبانيها ذات طابق واحد ، تزين بعض دورها صور مجسمة من الجص تمثل النساء والأسود والفيلة .

وتشتهر ابيدان بجامعتها المقامة فى ضواحيها ، كما تشتهر بأنها المدينة التى تجتمع فيها الجمعية البرلمانية للمنطقة الغربية ، ويبلغ عدد سكانها بين ٤٥٦,٠٠٠ وبين ٦٠٠,٠٠٠ وهى أكبر مدينة زنجية الكتلة السكانية بين جوهانسبرج والقا رة ، وسكان المدينة من اليوروبا وبينهم عدد كبير من الزراع الذين يفضلون الإقامة فى المدينة ، ويسعون منها عند شروق الشمس للعمل فى مزارعهم .

أويو : للشمال الشرقى من أبيدان ، وفى المدينة قصر الأفين ملك أويو . ويعيش الملك فى قصر من الحجر الطينى له جدار مرتفع ، وتحمل عربتان زوجات الملك عند تنقله (! !) وفى بلاطه أحد عشر زعيماً ، ويخرج الملك من قصره فى جولات طويلة لزيارة رعاياه فى المناطق المحاورة .

ايفى : على مسافة مائة وعشرين ميـلا للشمال الشرقى من لاغوس ويصل تعداد سكانها إلى خمسين ألف نسمة ، وفى المدينة متحف أنشأته الحكومة يضم كل تماثيل الرؤوس التى صنعت فى المدينة .

والمتحف عبارة عن « صالة » تتوسط فناء مكشوف له حديقة ، وفى « الصالة » ستة عشر تمثالا لرؤوس من معدن البرونز ، وقد قال بعض كبار رجال الفن فى وصفها إنها تشبه ما أنتجته إيطاليا واليونان فى عصر النهضة .

ويوجد فى دور المدينة من عشرين إلى ثلاثين تمثالا أحدها لرأس آخر ملكات اليوروبا وقد وجده الأثرى الألمانى ليو فروبينوس سنة ١٩١١ أثناء بحثه فى حفريات المدينة القديمة ، على أن الأثرى الألمانى نقل إلى ألمانيا نحو ثلاثين رأساً من البرونز كانت فى متحف برلين عند مطلع الحرب العالمية الثانية ، ومن مدينة ايفى جاء أول ملوك (بنين) القديمة وكانت العادة أن كاهن ايفى يرسل إلى الملك الجديد فى بنين رأساً من البرونز .

بنين : العاصمة القديمة لأقدم الإمبراطوريات السوداء ، وكانت وثيقة الصلة بمصر القديمة ، وقد زار رحالة اســـمه « الونودافيرو » بنين قبل عشرين عاماً من وصول كولمبس إلى أمريكا ، ثم عاد إليها ومعه سفير للبرتغال ، وقد وصف بعض الرحالة لمائتى سنة متوالية بنين بأنها مدينة محصنة بجدار يرتفع إلى عشرة أقدام ،

وفى القرن السابع عشر تعرضت بنين لحرب أهلية عارمة ، وفى سنة ١٧٠٤ زارها رحالة اسمه نينديل قال عنها إنها تحولت إلى خرائب وأن لا سكان بها غير عدد قليل جداً من الأفراد .

على أن المنطقة عاد إليها العمران ، وفى سنة ١٨٩٧ حاول نائب القنصل البريطانى زيارتها أثناء إقامة بعض الأعياد الدينية ، برغم تحريم اليوروبا دخول الأجانب بلدهم فى أثنـــاء الأعياد ، ولهذا ذبحه الناس ، وأرسلت حملة عسكرية بريطانية إلى العاصمة القديمة شقت طريقها بعنف ، وقد كتب الكومادور نيكلســـون من الأسطول البريطانى تقريراً عن الحملة وسمه بعنوان (بنين مذبحة الدم) ، وقد نهبت المدينة من تماثيلها العاجية والبرونزية التى اشتهرت بها وبيعت فى بريطانيا .

كانو : فى منتصف المسافة بين الحدود الشرقية والغربية ولأقصى الشمال فيما وراء الحدود الشمالية بقليل .

وكانو مدينة قديمة تبدو وكأنها قد خرجت من باطن الأرض ويحيط بها جدار عال سميك . .

وفى المدينة مسجد واسع الأرجاء أبيض الجدران ، وتكثر بها أشجار النخيل والمانجو ، وكانو مركز تجارى قديم للقوافل .

كالابار :

وتقع كالابار فى أقصى الطرف الجنوبى الشرقى لنيجيريا وبها محكمة أهلية . وهى من أهم مراكز تجمع قبائل الايبو .

وكالابار على سفوح الجبال التى يثب المسافر فوقها للوصول إلى الكمرون البريطانى

الأشخاص :

الحاج أبو بكر تافوا بالوا :

كان يتولى وزارة الأشغال فى الحكومة الفدرالية عند زيارة المؤلف للبلاد . واعتبره أكبر عضد للفلاحين فى الشمال ويقول إنه كافح طويلا من أجل زيادة السلطات الإقليمية .

قالت عنه مجلة (ويست أفريكا) غرب إفريقية :

لقد ولد فى عام ١٩١٢ وكان والده رئيساً لمقاطعة « ليرى » فى بوتش كما ينتمى إلى قبيلة جيرى ، وقد تلقى علومه الأولية فى مدارس الإقليم ، ثم ذهب إلى كلية كاتسينا التى تخرج منها معظم زعماء شمال نيجيريا ، وكان من

بين رفقائه فى دراسته بالكلية كل من ساردوانا (أمير المؤمنين) شيتما كاشيم – الحاج عيسى كايتا – ماداكن كانو

وبعد ذلك عاد إلى بوتشى ليعمل مدرساً ، لقد كان رياضياً ممتازاً برز فى العدو وقفز الحواجز ولعبة الكريكت ، وكان أيضاً مدرساً ناجحاً وقد استطاع أن ينال شهادة التخصص فى مادة التاريخ ، وبذلك عمل مدرساً فى كلية تدريبية ، وفى عام ١٩٤٥ ذهب إلى معهد التربية فى جامعة لندن ليصبح مدرساً تربوياً .

ولم يحصل الحاج سير أبو بكر على درجة علمية رغم ما عرف عنه من شغف للدراسة أثناء دراسته فى لندن .

لقد عاد مدرساً للتربية ولكن سرعان ما أصبح عضواً فى أول برلمان بالإقليم الشمالى ، ثم انتخب بعد ذلك عضواً فى الجمعية التشريعية ، وفى عام ١٩٥١ أنتخب مرة أخرى للبرلمان الجديد بالإقليم الشمالى ثم وزيراً فى الحكومة المركزية حيث عين وزيراً للعمل فى عام ١٩٥٢

وفى عام ١٩٥٤ أصبح وزيراً للمواصلات . وكان وزيراً ناجحاً وزعيماً لأكبر حزب سياسى فى البرلمان يرشحه لرئاسة الوزارة . وكغيره من زعماء الإقليم الشمالى فقد عمل فى كثير من اللجان والمصالح المتعددة ولقد ظهر فى حزبه كزعيم شعبى محبوب .

لقد كان متحمساً لعمل الإصلاحات فى شمال نيجيريا ، ولكنه يؤمن – فى الوقت نفسه – بأن التغيير المفاجىء لا يؤدى إلى سعادة الناس ، ومن رأيه أن يكون التقدم على مراحل وبالتدريج ، وعلى حين عرفه الناس فى الشمال بالرجل الخطير ذى الابتسامة العريضة فان سكان الجنوب كثيراً ما يهاجمونه لأنه صريح لا يعرف المراوغة فى حديثه .

وفى عام ١٩٥١ أثناء اجتماع البرلمان فى الإقليم الشمالى كان السبب فى تعيين لجنة منتخبة مشتركة لحكومة محلية ، وقد أدرج اقتراحه يومئذ فى شكل قانون جديد لأهل الشمال ، وكان أبرز ما قاله « إنى أومن بالحكم غير المباشر لأنه يتيح لنا مكاسب كبيرة ولكنى فى الوقت نفسه أمقت فكرة تكوين سلطة مستبدة لا تمثل الشعب ، فلا العقيدة ولا التاريخ يقران ذلك وكان هذا من أعظم أعماله الجيدة فى الإقليم الشمالى .

إن الحاج «سير أبو بكر» رجل متوسط القمة ولكنه قوى فى مظهره فله ابتسامة الصقر ووجه العابد والنظرة العارمة ويظهر بالرجل الحريص الوقور ، ورغم ذلك فانه يبتسم من حين لآخر وعلى العموم فانه رجل عاقل وكثيراً ما يوجه أسئلته المليئة بالسخرية

إنه يفكر دائماً فى نيجيريا حتى ولو كان بعض ما يجىء بالخير على البلاد ضاراً به أو بحزبه .

ويؤيد الحاج أبو بكر فكرة الوحدة الإفريقية ، وكان له شأن فى أزمة جنوب إفريقية ، الأزمة الخاصة بالتفرقة العنصرية .

ومقياس نجاح الحاج أبو بكر أن مؤيديه ومعارضيه على السواء لا يشكون فى كفاءته للدور الذى يجب أن يقوم به ، وعند ما تولى رياسة الوزارة سنة ١٩٥٧ بنى الرجل شهرته تدريجياً ليس داخل نيجيريا فحسب ، بل فى خارجها أيضاً .

* * *

دكتور أزيكوى :

يعرف باسم « زيك » يعتبره المؤلف أكبر شخصية سياسية فى البلاد ، اعتاد التجول ، فيرتدى ثياب الهوزا فى الشمال والديبو فى الشرق واليوروبا فى الغرب ، ويصدر «زيك» عدداً من الصحف ويتولى عدة أعمال عامة وله عدة مؤلفات عن إفريقية المتيقظة وله كتاب عن (ليبريا فى السياسة العالمية) .

وتقول جريدة « بيلوت » ويست أفريكان ، البيلوت التى هى العمود الفقرى للصحف الخمسة التى تتبع (الحزب الوطنى النيجيرى الكمرونى) الذى يتولى « زيك » رياسته إنه يسيطر مالياً على اثنى عشر مشروعاً تصل رؤوس أموالها إلى ما يقرب المليون من الجنيهات ، وتصوره جريدة(ديلى سيرفس) التى تعارض سياسته على أنه هو وحزبه يقدمون ثروة نيجيريا لأصحاب رؤوس الأموال الأجنبية .

وزيك طويل القامة يتوافر فى وجهه طابع الشباب حتى ليبدو أقرب إلى الخامسة والثلاثين مع أنه ولد سنة ١٩٠٤ ، وولد لأب كان يعمل كاتباً فى السكك الحديدية بشمال نيجيريا ودرس فى جامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية ونال الماجستير من جامعة كولومبيا ثم نال الدكتوراه منها أيضاً .

ويقول المؤلف : إنه أول إفريقى نال تعضيد الجماهير .

دكتور اوولوو :

رجل قصير القامة جميل الرداء من اليوروبا . وهو رئيس حزب العمل ، وللحزب الأغلبية فى المنطقة الغربية ، ولكنه فشل فى انتخابات الاتحاد الفدرالى سنة ١٩٥٥ .

بدأ حياته وليد أبوين فقيرين لا يعرفان القراءة والكتابة ، عمل فى عدة أعمال منها العمل فى الصحف ، وفى اتحادات العمال . ودرس للعمل فى المحاماة بلندن ، كتب كتاباً قيماً : (الطريق إلى تحرير نيجيريا) .

واوولوو رجل فدرالى النزعة يتأثر إلى حد بعيد بطابع الحكم فى سويسرا ويعضد فكرة قيام حكام تقليديين لليوروبا وهم الذين يعرفون باسم (أوبا) ، ويرى أن النظام الذى وضعه لوجارد لشمال نيجيريا ، والذى فعل فعل السحر هناك لا يصلح للجنوب وأنه من الخطأ اصطناع البيوت الحاكمة .

اديوجى اديريمى :

ناظر محطة سابق وكان وزيراً بلا وزارة مع عدة واجبات أخرى عند ما زار المؤلف البلاد ، وهو رجل متوسط الطول ملىء الجسم ، كان حاكماً لمدينة ايفى والناس هناك يحيون الحاكم بأن يطرحوا أنفسهم أرضاً رمزاً للخضوع .

men's characters and minds through physical activities. **Mens sana in corpore sano.** As instructors, therefore, we found ourselves dealing continually with people and things and not with abstract ideas. Our task was made immeasurably easier by the absolute trust all the students put in us, so that whatever we were doing, be it teaching mountain rescue or sailing a dinghy, the responsibility was ours and their response was immediate. How better to get to know and love a people than by such an intimate relationship? In everything we did we were expected to share all new experiences, hardships and pleasures.

The first half of each course was given to basic training and short expeditions; we gave the students the necessary skills and then the opportunity to exercise them. This basic training included swimming, seamanship, athletics, P.T., knotting, mapping, first aid, life-saving, work on the obstacle course and so on.

After this the expeditions began. Our students were shown that the course was in earnest by a stiff climb to the top of Little Cameroon, nearly 6,000 feet high. This climb through thick forest was exacting, and one which no one, students or staff even enjoyed very much. But it was something achieved, an impossible made possible, and so were the other expeditions, whether they were to the islands just off the coast or again through the forest around the bay. A further week was spent on community development education in social responsibility through works of improvement to local amenities. Then came "the mountain." To many this was the acid test, for all were required to climb the 13,370 ft. Mount Cameroon. Many students were afraid of this prospect and not all reached the top, but all of them attempted it.

This, then, is how the "Year Between" idea worked out in my own particular case. In a short time I was able to meet and understand Nigerians and Cameroonians much better than if I had worked in an office in Lagos, or taught in a college in Enugu. Our work forced each student to strip himself to his basic motives; courage or cowardise, hatred or love, greed or selflessness. In this process we were educated, too, for all our preconceived ideas about "The African" were swept away to give place a set of memories of people we had known and friends we had made. This understanding must surely, in itself, be sufficient answer to those who had doubts about the scheme in the first place. My "year to waste" had become very much "A year to spend".

huts with thatched roofs and their villages look like colonies of beehives clustered together. Our students came from all over Nigeria and, split up into sections of ten, they marched about fifteen miles a day frequently getting lost and generally being amazed at the life of the pagans they found around them. After the first few days of the expedition they began to find their own way and the staff were merely there to help them when they were completely lost. This to one who had only been in Nigeria a fortnight was quite an experience and I quote a typical day's entry in my diary:

> "For the first hour they went too far South, missed their path and ploughed across country. When they eventually stopped in the middle of nowhere, Muhammadu took over the lead and a new bearing was taken. This was followed faithfully up hill and down dale, through thick bush. Eventually we reached a village... more meanderings, and river-crossings at last brought us to the road..."

I never ceased to be amazed that we always reached our destination safely, even if we did often travel twice the necessary distance.

Afer the Jos couse my companion and I drove on to the Cameroons alone and after various adventures, including a sortie into French Territory, arrived three days after expected. Man O' War Bay must surely be one of the most beautiful places in West Africa. All round they bay thick forest reaches down to the water's edge, but on the cliffs in the centre a clearing has been made. Here a German planter built his home at the end of the nineteenth century. That elegant white house still stands and is now the main building of the Training Centre. It provides sleeping quarters for the students together with offices and a lecture room. It would be impossible to imagine a better site for the "Outward Bound" training that the centre offers. The bay forms a fine natural harbour for small boat work and swimming and rising behind it the peaks of the two Cameroon mountains provide ample scope for land expeditions. It was in such agreeable surroundings that we were to spend most of our "Year Between".

"Character training through adventure." "No sweet without sweat". "Build the man, build the community". "Great things are done when men and mountains meet, this is not done by jostling in the street".These sayings, heard many times in every course at the training centre, illustrate its aims better than any brochure could, the training of

THE YEAR BETWEEN

By A. J. Seeley

"In Eighteen Hundred and Sixty Two I found myself with nothing to do".

So runs the ballad about the "Great American Railway"; in July, 1958, I left school and equally found myself wiht nothing to do. I had a year to spare before going up to Oxford. With the end of National Service in England and the consequent pressure upon universities, this problem of the "Year Between", has become a common one. The majority spend it earning money; teaching, working in industry or just plain working, but I was one of a lucky few who were able to pass it in a more satisfying way. Early in 1958 a scheme worked out for such students to spend a year in the Commonwealth giving service as volunteers. It was called "Voluntary Services Overseas". So much has been said about the need for greater contact among the youth of the Commonwealth, and this scheme has proved to be so obviously a success, that there is little need to discuss the advantages and disadvantages of such an idea. What must be stated, however, is that it was very much an idea to be worked out by personal experience. The situations in which members of the scheme found themselves varied from school-teaching in Ghana to acting as Bishop's secretary in Sarawak. When we left England two things only were clear in our minds; that we were leaving to do a job of work, and that the work was to be a service to the country we were going to.

I went to the British Cameroons to spend a year with another student as an instructor at the Man O' War Bay Training Centre. Our knowledge of life in West Africa was practically nil and this enabled us to give a fresh, if occasionally unorthodox, approach to problems. We flew to Lagos, and then drove to Jos, Northern Nigeria, in a Land Rover, taking it in turns to sit squashed on the metal back bench. At Jos we quickly began work with a Schoolboys' Expedition on the Plateau. If Lagos had been disappointing as an introduction to West Africa, Jos fulfilled our wildest expectations. Here was "Darkest Africa" as the average Englishman always pictures it. Life in this area is indeed very primitive, even by Northern Nigerian standards; the people often go naked, their modesty provided for by a bunch of leaves fore and aft, renewed each day. They live in small mud

ment. The symbolical nature of the book may, in fact, be seen as wider still. Nini is a symbol of all those difficulties and distresses which occur at the meeting places of two worlds and two ways of life to neither of which she can ever totaly belong. Daughter of a white father and an African mother, she is, moreover, inheritor of all the prejudices, ambitions and habits of mind which the conditions of an earlier age instilled into those who brought her up. She has been formed and moulded to cope with one set of circumstances. But those circumstances are changed and her tragedy is that she cannot change with them. The book is reminiscent of other similar situations at other times — the American South after the Civil War, the tensions of the Anglo-Indian community in **A Passage to India.** Times are changing and what once passed for essential necessities and genteel virtues are being revealed as foolishness and cruelties.Nini has been taught to value as the greatest happiness the possibility of marrying into the white world. When an African proposes marriage to her, she feels her honour is outraged. But she becomes the mistress of one white official after another in the hope that these alliances might become a permanent one.

Nini is a figure of tragic proportions, destroyed in a fashion Aristotle would have applauded, by a fatal blindness and en enormous error of judgment. This book is not a study of the need to change social and economic conditions as, for instance, **Climbié** or **O pays mon beau peuple** are. It is a more profound study of the need to revise moral attitudes and inherited values. M. Sadji's book is unique among these novels of adjustment for the penetration with wich it sees below the obvious inequalities of the colonial system to those less palpable distortions of attitude and judgment which that system has produced. In the anatomy of such maladjustment there is a rich theme for the African writer.

present themselves in an almost diagrammatic form in a collection of three one-act plays by the Nigerian writer James Henshaw, **This is Our Chance.** The plays are modest in their intention and unassuming in their presentation; their didactic element is obvious. Each of them briefly displays one aspect of the changing society of Africa. The first deals with the conflict between the old ways and new ideas; the second is a fable-like illustration of what may be lost when old customs of courtesy and hierarchy fall into disuse;the third is an illustration of the difficulty of maintaining standards of probity in a society where the notion of incorruptibility is not a usual one. The struggle of Faye, the hero of M. Ousmane's book, **O pays mon beau peuple,** is similarly to adjust, to make two worlds which have met, merge. Here the problem is more externalised. Faye's struggle is not inside himself as Mezda's is: it is rather against the outward manifestations of conflict — between his family and his European wife, between the strongly Muslim sentiments of his father and his own agnosticism, between the habits of acceptance strong in the African farmers, and his own determination to improve. Again in M. Matip's novel, **Afrique nous t'ignorons,** there is a confusion of such conflicts — the impatient young against the aquiescent old, tradition against innovation and the essential conflict of African against European.

All these books (with the exception, of course, of Mr. Henshaw's dramatised situations) give, with their strong emphasis on the single central figure of the young man, very much the impression that to a great extent, both we and the authors are being dragged along at the heels of autobiography. The problem is, we feel, an immediate and personal one to these writers; they are creating out of their personal experience and their most intense preoccupations. The situation is not, then seen from a distance, nor is there any hint of a solution to the difficulties of the hero. It is of the essence of the pain of the situation that heroes should not know what to do. M. Beti's books, for instance, all end where the problem of adaption begins. In M. Abdoulaye Sadji's novel **Nini,** however, we have an attempt to present the problems more objectively and with a greater degree of finality.

The sub-title of **Nini** is **Mulâtresse du Senegal,** and in his foreword M. Sadji indicates that he has intended his novel to be a description of a particular case standing for a general predica-

shadow of the great paternalist figure of the Father Superior; away from it in the villages of the interior where the shadow of the Father Superior is merely an infrequent and passing cloud, he feels himself exposed, helpless and ignorant. When the priest leaves, convinced of the futility of his mission, the boy is left permanently exposed to this world in which he has forgotten how to live. Medza, the "failed B.A." of **Mission Terminée** is a similar, though more complicated figure. He is alienated from all worlds — from the world of the bush village, Kala, in whose energy and whose illusions he cannot share; from his father's world which represents the intention to advancement by means of learning the ways of the white man; and from the white world itself which he has no illusions about entering. He takes refuge in an aimless flight and the book ends with the reflection "that the tragedy of our nation... is that of a man left to his own devices in a world which he has not made and does not understand. It is the tragedy of a man bereft of any intellectual compass, a man walking blindly through the dark in some hostile city".

In various guises and in various places it is this hero that we meet with very frequently in West African novels.Amusa Sango the hero of Mr. Ekwensi's book, **People of the City,** is very like one of M.Beti's heroes in his essential bewilderment and insecurity, his inability to mould the world to his wishes or to adapt himself successfully to the demandes of the world. The life of the Africans in Paris in M. Socé's book, **Mirages de Paris,** presents a similar picture of a society without roots. They have adapted themselves superficially to Western life but their will is paralysed; they are absorbed in keeping afloat from day to day and feed on illusions. It is, incidentally, interesting to compare these characters with those heroes of some recent English novels and plays, who find themselves similarly adrift in a society where old hierarchies of birth and wealth and education are broken down, where there are new freedoms and new emptinesses. It is not only African society which has become fluid and shifting, where old values have been overturned and new ones not established. The conditions of the isolation of M. Beti's heroes are very much like those which afflict the heroes of Mr. Osborne's plays and Mr. Wain's novels, and Medza especially has many of the characteristics of what appears to be the contemporary hero — cynicism, a sense of the absurd, uncertainty and a constant underlying sense of loss.

These problems of adjustment

The Literature of Adjustment

M. Mongo Beti is a writer from the Cameroons who has written three novels. His first book, **Ville Cruelle,** which was written when he was twenty-three, he published under the pseudonym Eza Boto, in the Présence Africaine collection, **Trois Ecrivains Noirs.** His second and much longer novel, **Le Pauvre Christ de Bomba,** was published in 1956: and his latest novel **Mission Terminée** (which was appeared in translation in England as **Mission to Kala**) was published in Paris in 1957. In each of these three books M. Beti's fundamental preoccupation appears to be the same: the weight of the book falls on what seems to be for M. Beti the most interesting problem — that of how his heroes can learn to live again in a society from which they have been separated; how, after the contacts of colonisation, his heroes are to live in a post-colonial Africa.

What one gets, then, in M. Beti's work is a statement in its most insistent form of one of the most vital themes of contemporary African writing — the exploration of the problems of adjustment which face Africans in a country which, for good or ill, has been profoundly affected by the impact of another way of life. M. Beti's characters are not, as M. Oyono's are, in dircet conflict with the European presence in Africa. They are in conflict with those changed conditions of living, those different stresses and possibilities which the European presence in Africa has produced.

Each of M. Beti's three heroes finds himself faced with this central problem. They are, all three, adolescent boys seen at the moment when though they are still under authority, they are about to be set free of it (as Africa is breaking free from European tutelage). The first of them, Banda, is a young village boy: he is caught between the village where he feels himself out of harmony with the traditional ways of living, and the town with which he cannot cope, where indifference and cruelty appal him and where he has not learnt any of those skills of urban living which would enable him to survive. Denis, the priest's boy of **Le Pauvre Christ de Bomba,** is similarly adolescent, similarly inept. He lives his life under the

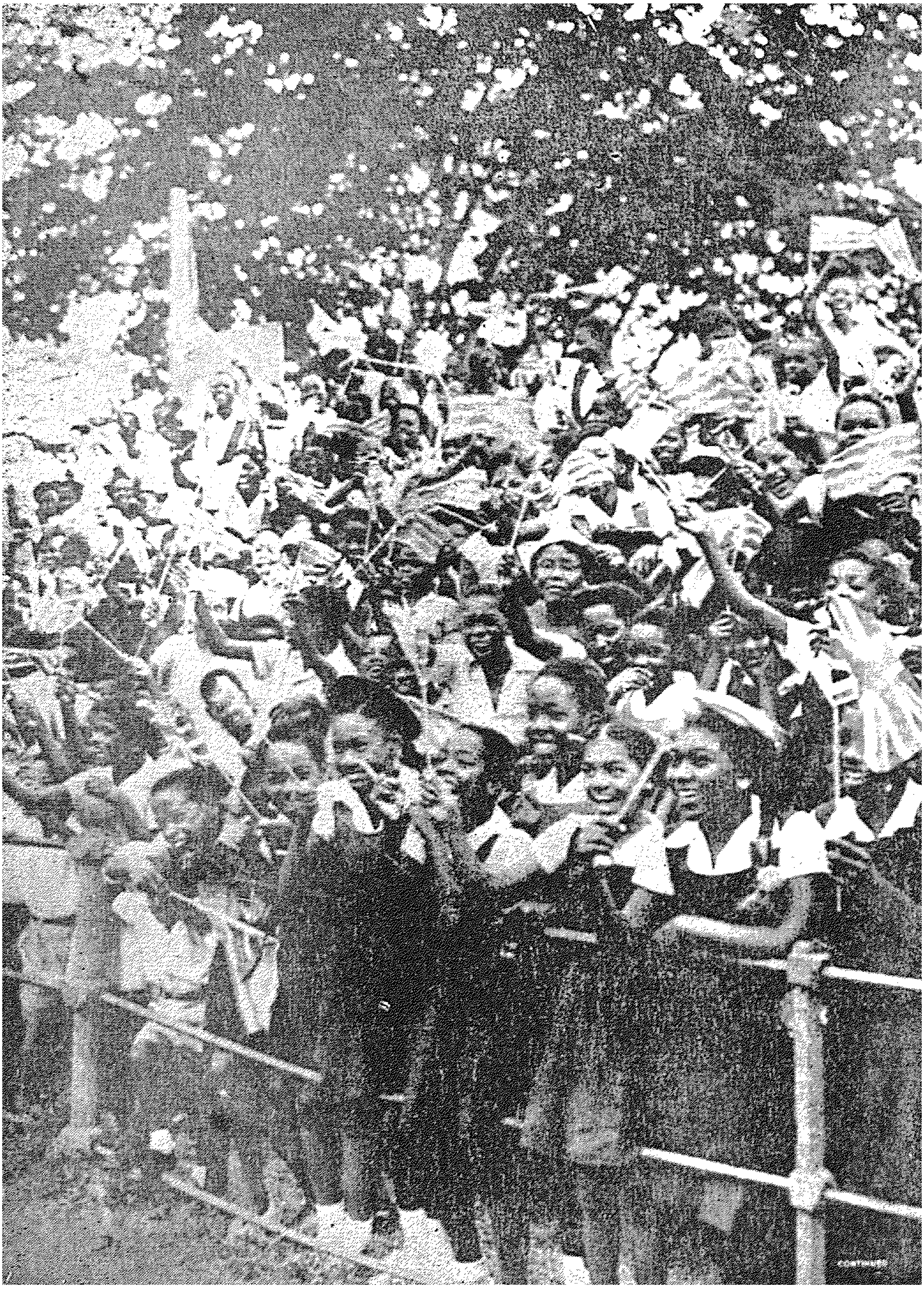

« الأفراح بالاستقلال »

3rd Year

No. 36 November 1960

Nahdatu IFRIQUIAH

96 pages

PRICE : P.T. 3.

IN THIS ISSUE

- AT TIBOTIB.
- INDEPENDENT NIGERIA.
- MINORITIES IN NIGERIA.
- AFRICAN LITERATURE.
- BOOK ANALYSIS.

السنة الرابعة

العدد ٣٧ ديسمبر ١٩٦٠

نهضة إفريقية

فى هذا العدد

- متاعب أوغندة
- زيارة الرئيس للسودان
- الدراسات اللغوية فى إفريقية
- مشكلة استيطان ابيض
- نقد الكتب

٩٦ صفحة

الثمن ٣ قروش

« من الفن الإفريقى »

نهضة إفريقية

تهدف هذه المجلة إلى :

١ – تنمية الوعى القومى الافريقى .

٢ – التعارف بين الافريقيين فى مختلف بيئاتهم وحياتهم الاقليمية .

٣ – نشر البحوث الخاصة والعامة التى تهم كل إفريقى فى مجاله الحيوى .

وللمشتركين الحق فى :

١ – الحصول على المجلة بانتظام وكذلك المطبوعات التى تصدرها المجلة بين وقت وآخر بثمن مخفض .

٢ – الافادة من خدمة لجنة الاتصال بالمجلة بقدر الامكان .

● ترحب « مجلة نهضة افريقية » بالمقترحات ، والآراء ، والنقد ، وتعمل على تحقيقها .

● ليس من الضرورى أن تكون المقالات التى تنشر فى هذه المجلة معبرة عن رأيها .

ترسل المراسلات باسم :

السيد رئيس تحرير مجلة نهضة إفريقية
٥ شارع أحمد حشمت – الزمالك بالقاهرة
تليفون المجلة ٨٠٧٦٥٨
الاقليم المصرى
بالجمهورية العربية المتحدة

ترسل قيمة الاشتراك فى المجلة إلى :

دار أخبار اليوم للتوزيع
٧ شارع الصحافة بالقاهرة

الاشتراك سنوياً :

لمصر والسودان ٣٠ قرشاً

ثمن العدد ٣ قروش

مطبعة كوستاتسوماس وشركاه

العدد ٣٧ ديسمبر ١٩٦٠

نهضة إفريقية
مجلة شهرية للثقافة الأفريقية

رئيس التحرير
محمد عبد العزيز إسحق

فكرة ..

(١)

سعدت الجمهورية العربية المتحدة بزيارة الدكتور « عبد الرشيد على » رئيس وزراء الصومال ، واستعاد كل من الوطنين — فى ظل هذه الزيارة — ذكريات لقائهما القديم ، وأمجاد لقائهما الحاضر ، وهكذا نرى الصلات تتأكد أكثر فأكثر بين أجزاء القارة التى تسير جميعها نحو وحدة شاملة مؤكدة .

(٢)

وأخيراً تم « انتصار كاذب » للقوى الدخيلة فى الكونغو . فأصبح لكازافوبو كلمة فى الأمم المتحدة ، وأصبح لموبوتو كلمة مزورة فى الكونغو . فى الوقت الذى أصبحت فيه شعلة الحرية مسجونة بسجن لومومبا ، ولكن الغد كفيل بانتصار هذا البطل على كل قوى الظلام من حوله . ولعل أقوى خطوة على هذا الطريق — طريق الحرية — كان هذا القرار الذى اتخذ بتأميم الممتلكات البلجيكية ، فالجمهورية العربية المتحدة تضع الآن على عاتقها مسئولية الدفاع عن كل إفريقية .

(٣)

حينما رأيت أبناء « لومومبا » فى منزل رئيس التحرير لا يحسون بغربة ، ولا يبكى على وجوههم الصغيرة فراق .. زاد إعجابى ببلادى ، وحبى لها !

« عبده بدوى »

فهرس العدد

	صفحة
متاعب أوغندة :	
للأستاذ محمد عبد العزيز اسحق	٣
هذه هى توجو :	٨
استيطان البيض ومشكلة الأرض :	
للأستاذة : سميرة محمود	١٩
نقد الكتب :	
للأستاذ عبده بدوى	٢٧
الدراسات اللغوية فى إفريقية :	
للأستاذ : رمزى عبده جرجس	٣٥
زيارة الرئيس للسودان :	٣٩
جولة مصورة حول إفريقية :	٤٥
مصر والسودان :	٥٣
شخصية العدد :	٥٧
من وحى إفريقية :	٦٢
قوانين التفرقة العنصرية :	
للأستاذ عبد السلام شحاته :	٦٥
كلمات وصور	٧٠
من القصص السودانى :	
للأستاذ عباس خضر	٧٩
ضوء على كتاب :	٩١

متاعب أوغنده

بقلم : الأستاذ محمد عبد العزيز إسحق

عند ما حصل الكونغو على استقلاله فى آخر يونيو من هذا العام كانت أمواج التفاؤل تتوالى على أقطار إفريقية الوسطى ، والشرقية . وعلى رأسها أوغندة .

فقد استطاع المؤتمر الوطنى الأوغندى فى خلال عام ١٩٥٩ أن يحصل على سلسلة من الانتصارات الشعبية كان أهمها فوزه الساحق فى انتخابات المجلس التشريعى ذلك الفوز الذى أجبر بريطانيا على أن ترسل « لجنة برلمانية » لفحص الحالة السياسية فى تلك البلاد ، وتقديم التوصيات إلى الحكومة البريطانية بشأن « التقدم الدستورى » .

وقد أتمت اللجنة تحقيقها المنتظر وأوصت بإجراء انتخابات عامة فى خلال عام ١٩٦٠ تتكون بعدها حكومة وطنية تكون مسئولة أمام البرلمان . ويتحقق بوجودها ما يسمى « بالحكم الذاتى » . تمهيداً لإعلان استقلال «أوغندة» فى أوائل عام ١٩٦١ .

وما إن شعرت العناصر الرجعية بهذا الخطر الداهم حتى انتفضت — من كل جانب — لتعرقل حدوث التطورات الدستورية التى تؤدى إلى الاستقلال .

وكان أول من تحرك «حكومة الكاباكا» التى تدير مقاطعة « بوغندة » وهى أكبر وأهم وأغنى المقاطعات الأوغندية الأربع وأكثرها تقدماً حضارياً .

لقد خشى «الكاباكا» وحكومته على سلطاته التقليدية من العهد البرلمانى المنتظر . ولم يفلح فى تهدئة مخاوفه ما بذله « المؤتمر الوطنى » من وعود لبقائه على « رأس الدولة » . فقد كان من الواضح أن المؤتمر يريد أن يضع السلطة التشريعية الكاملة فى يد البرلمان . والسلطة التنفيذية الكاملة فى يد الحكومة التى تستند إلى الأغلبية البرلمانية . ومعنى ذلك أن الملك ، أو «الكاباكا» يملك ولا يحكم .

وانضم إلى «الكاباكا» وحكومته فى موقفهم المناهض للتطور الدستورى المرتقب . مجلس زعماء القبائل المسمى « لوكيكو » . وهو مجلس تقليدى (غير منتخب) يحرص أعضاؤه على امتيازات وسلطات موروثة يخشون عليها من الضياع ، أو الوهن ، فى غمرة التيارات الشعبية الدافقة .

وسارع إلى تأييد حكومة الـ « كاباكا » والـ « لوكيكو » حزبان سياسيان معارضان للمؤتمر الوطنى الأوغندى . أحدهما قد انبعث — منذ فترة قريبة — من الكنيسة الكاثوليكية . واسمه « الحزب الديموقراطى » . وثانيهما تتبناه الكنيسة الإنجليكانية « البروتستنتية » واسمه « الحزب التقدمى . . ! » وكان كلاهما قد فاز بأكبر نصيب من الفشل فى انتخابات المجلس التشريعى إذ لم ينجح واحد من مرشحيهما فى تلك الانتخابات .

ومع ذلك فقد مضى المؤتمر الوطنى فى طريقه المرسوم نحو الحكم الذاتى . وعلى رأسه زعماؤه الثلاثة : « جوزيف كيوانوكا » والفقيه « جون كاليه » و « الدكتور كونوكا » تحوطهم التأييد والمؤازرة من الدول الإفريقية المتحررة ويبعث فيهم الأمل المشرق تحرر جارتهم الكبيرة « الكونغو » التى نفضت عنها الحكم البلجيكى . وحطمت بذلك أحد الأسوار الاستعمارية العالية الصفيقة التى كانت تحيط بأوغندة من كل جانب . وأخذ المكافحون الوطنيون فى « كمبالا » و « نيروبى » و « دار السلام » و « سالسبورى » يتطلعون إلى فجر الحرية الزاحف من « ليوبولد فيل » ويشددون الخناق على وزارة المستعمرات البريطانية ويصرون على أن يكون عام ١٩٦٠ عام التحرر للشعوب الإفريقية المجاهدة ، من منابع « النيل » إلى شواطىء « الزمبيزى » .

ولكن جو الحماس والتفاؤل ، قد أخذت تزحف عليه غيوم الأزمات الكثيفة المتلاحقة . فما أن حصل الكونغو على استقلاله حتى لاحقته مؤامرات الاستعمار من كل جانب من أوروبا — عبر البحر الأبيض — ومن أمريكا — عبر المحيط الأطلنطى . وقبل هذا وذاك . من « برازافيل » — عبر نهر الكونغو . وما هى إلا أسابيع قلائل حتى جاء إلى الكونغو عامل جديد . زاد من عوامل الفساد والفوضى وأعنى به الأمم المتحدة .

لقد وقع الكونغو المستقل فريسة للمطامع الدولية . منفردة . ومجتمعة . وبعد أن تطهرت أرضه من البلجيكيين الذين فروا كالفئران المذعورة فى أوائل يوليو إلى بروكسل وإلى المستعمرات البرتغالية والفرنسية والبريطانية المجاورة رأينا هؤلاء «السادة» يتدفقون من جديد على ليوبولد فيل وغيرها من المدن الكونغولية الكبيرة والصغيرة ، ولا يكتفون بمحاولة خنق استقلال الدولة الوليدة ، وإنما يهددون بطرد الأمم المتحدة من الكونغو . ويبعثون روح الأمل والانتعاش فى نفوس المستعمرين والمستوطنين الأوروبيين فى الترويسيات وأوغندة وكينيا وتنجانيقا .

وهكذا رأينا وزارة المستعمرات

البريطانية تنزع بالشمال ما كانت تمد به يدها اليمنى من مشروعات « التطور الدستورى » وشهدنا الحاكم البريطانى لأوغندة يتنكر لتقرير اللجنة البرلمانية (البريطانية) ويصر على أن تكون الحكومة الوطنية ، صاحبة الأغلبية البرلمانية مسئولة أمامه هو ، لا أمام البرلمان . . .

ويسرع الـ «كاباكا» فيطالب بتحديد امتيازاته (الملكية) وضمانها من قبل بريطانيا ، والنص عليها فى الدستور المنتظر ، قبل إجراء الانتخابات . .

ويهرع الـ « لوكيكو » فيقرر أنه لا بد لأعضائه ولمن يسمون « الحكام بالوراثة » أو الـ

من ضمان « حقوقهم » وامتيازاتهم أيضاً . . .

ويجتمع « الحزب الديموقراطى » و « الحزب التقدمى » ويدعوان بريطانيا إلى « التمهل » فى اتخاذ إجراءات « التطور الدستورى » ويشيران فى دعايتهما المسمومة إلى « فشل » تجربة الكونغو ، وإلى خطورة الانسياق وراء « المؤتمر الأوغندى الوطنى » ، الذى يوصم زعماؤه بالشيوعية . . ولا عجب فكل من لا ينتسب إلى الأحزاب الكنائسية فى أوغندة موصوم بأنه « شيوعى » . .

وفى الوقت الذى يصمم فيه « المؤتمر الوطنى » على أن تكون حكومة الأغلبية القادمة مسئولة أمام البرلمان لا أمام الحاكم العام (كما هو الحال الآن) ، يذهب « الكاباكى » إلى لندن ليلتمس بقاء سلطاته وامتيازاته ، ويذهب إليها كذلك وفد من الـ « لوكيكو » وزعماء القبائل ليتقدموا إلى وزارة المستعمرات بالملتمس نفسه . وتقف وزارة المستعمرات موقف الصامت الذى يريد كسب الوقت . بينما يعمل أذنابها فى أوغندة لتوسيع الهوة أمام المؤتمر الوطنى حتى لا يقفز فى الانتخابات القادمة إلى شاطىء التحرر والاستقلال ، وإذا بنا أمام مناورة جديدة تتمثل فى طلب مقاطعة «بوغندة» أن تستقل (وحدها) دون ارتباط بمصير المقاطعات الثلاث الشقيقات ، فى الغرب والشرق والشمال . وهى مناورة ترمى إلى إيجاد « كاتانجا » أخرى على منابع النيل . . .

وقد وقفت بريطانيا موقف المستنكر لهذه المحاولة (الانفصالية) وأخذت تحبذ (وحدة أوغندة) بل إنها مضت إلى أبعد من ذلك — وهذا هو بيت القصيد — إذ جعلت تشجع بعض الموالين لها من الزعماء الإفريقيين على بعث مشروع « اتحاد شرق إفريقية» الذى يرمى إلى الجمع بين أوغندة وكينيا وتنجانيقا وزنجبار — قبل أن تستقل — تحت إدارة واحدة . .

وهذا هو ما اندفع إلى الدعوة له السيد «جوليوس نيريرى» الزعيم « المعتدل » المعروف ، الذى هيأت

له الإدارة البريطانية سبيل الفوز فى انتخابات تنجانيقا منذ بضعة أسابيع . وعين بعد ذلك « الوزير الأول » فى حكومة « متعددة الأجـــاس Multi Racial تجمع الوزير الإفريقى إلى جانب الوزير الآسيوى إلى جانب الوزير الأوروبى . . .

وقد شهدنا السيد « نيريرى » . وهو يبدى نشاطاً فائقاً بين كواليس مؤتمر أديس أبابا (فى شهر يوليو الماضى) ورأيناه وهو يحاول إقناع الفقيد « جون كاليه » والسيد « أوجنجا أودنجا » بمزايا « الاتحاد الآن » (أى قبل الاستقلال) . وسمعنا « جون كاليه » وهو يقول له : لا تطلب المستحيل . لقد رفضنا هذا المشروع فى صورته البريطانية . ونحن نرفضه اليوم من وراء « قناعه الإفريقى » . . إن تحقيق هذا المشروع قبل الاستقلال معناه فتح أبواب أوغندة وتنجانيقا وزنجبار أمام المستوطنين الأوروبيين الرابضين فى كينيا . فليعمل كل منا على أن تستقل بلاده أولاً . ثم نجتمع بعد ذلك فى اتحاد نظيف متين .

ولم تفلح جهود السيد « نيريرى » مع زعماء أوغندة وجاراتها من أقطار إفريقية الشرقية . وكدنا نظن أن المشروع قد اختفى — على الأقل فى المرحلة الحاضرة — ولكنه ما كادت تمضى أسابيع قليلة على مؤتمر أديس أبابا حتى علمنا بانعقاد مؤتمر لمنظمة « حركة الوحدة الإفريقية لإفريقية الوسطى والشرقية » التى تختصر اسمها الأوروبى فيصبح « بافميكا » . وأذيع أن أهم بند فى جدول أعمال الاجتماع الذى تم فى إحدى قرى أوغندة كان مشروع « اتحاد شرق إفريقية » وقـــد فشل الاجتماع ولم يكن له أثر يذكر ، فإن زعماء اوغندة — وهى البلد المضيف — قاطعوا الاجتماع . وذكروا صراحة للسيد نيريرى أنه لا يوجد أوغندى واحد على استعداد للانتحار السياسى . بأن يوافق على « مشروع الاتحاد » . .

ولكن هذا كله لم يكف الزعيم التنجانيقى « المعتدل » فقد جمع أطراف عزيمته وترك المنطقة — التى يهمها الأمر — وشد الرحال إلى لندن وسط صيحات التحبيذ التى أطلقتها الصحافة الاستعمارية فى « نيروبى » و « دار السلام » . وهناك قصد إلى وزير المستعمرات لكى (يقنعه) بإقرار (مشروع الاتحاد) . ويبدو أن السيد « نيريرى » قد أخذته « النشوة » فلم يكتف بالمطلب القديم الذى كانت تطمح إليه وزارة المستعمرات ، وإنما أضاف إلى قائمة أقاليم إفريقية الشرقية « نياسالاند » أيضاً . .

وقد أثار هذا الصنيع استنكار الأصدقاء (البريطانيين) فإن ذلك معناه تفكيك « اتحاد وسط إفريقية » الذى يقف على دعائم ثلاث إحداها نياسالاند

وإلى جانب استنكار (الأصدقاء) ارتفعت من أوغندة صيحات التحذير للسيد نيريرى ولوزارة المستعمرات . ونحن نكتب هذه السطور فى الوقت الذى يبعث فيه « جوزيف كيوانوكا » رئيس المؤتمر الوطنى الأوغندى ببرقية إلى المستر ماكلويد وزير المستعمرات . ويقول فيها :

« لقد علمنا أن السيد نيريرى الذى ينتمى إلى تنجانيقا يفاوضك الآن حول « اتحاد أقطار إفريقية الشرقية » ونحن نؤكد لك أن شعب أوغندة لم يفوض سيادته بأية صورة من الصور . ولم يفوضه — على الخصوص — مؤتمر أوغندة الوطنى . كما أننا نؤكد لك أننا لن نفتح باب الحديث فى هذا الأمر إلا بعد أن تتحرر تلك الأقطار تحرراً تاما . إن السيد نيريرى تمثل نفسه فقط . وإن مهمة (ترتيب البيت) فى أوغندة تأتى عندنا فى المقام الأول قبل أن نشغل أنفسنا بذلك المشروع الأحمق .

هذا هو « الجو » الذى يناضل فيه « المؤتمر الوطنى الأوغندى » لتخليص بلاده من مخالب الاستعمار البريطانى الرابض فى قلب القارة المجاهدة وعلى منابع نهرنا الخالد .

وقد اقترب موعد المعركة الحاسمة فإن الانتخابات العامة ستجرى فى أوغندة فى شهر فبراير المقبل . وسوف لا تؤثر نتيجتها فى مستقبل أوغندة وحدها . وإنما سترسم هذه النتيجة طريق المستقبل لإفريقية الشرقية كلها . فإما استمرار للاستعمار (المقنع) وإما تحرر حقيقى وكرامة واستقلال .

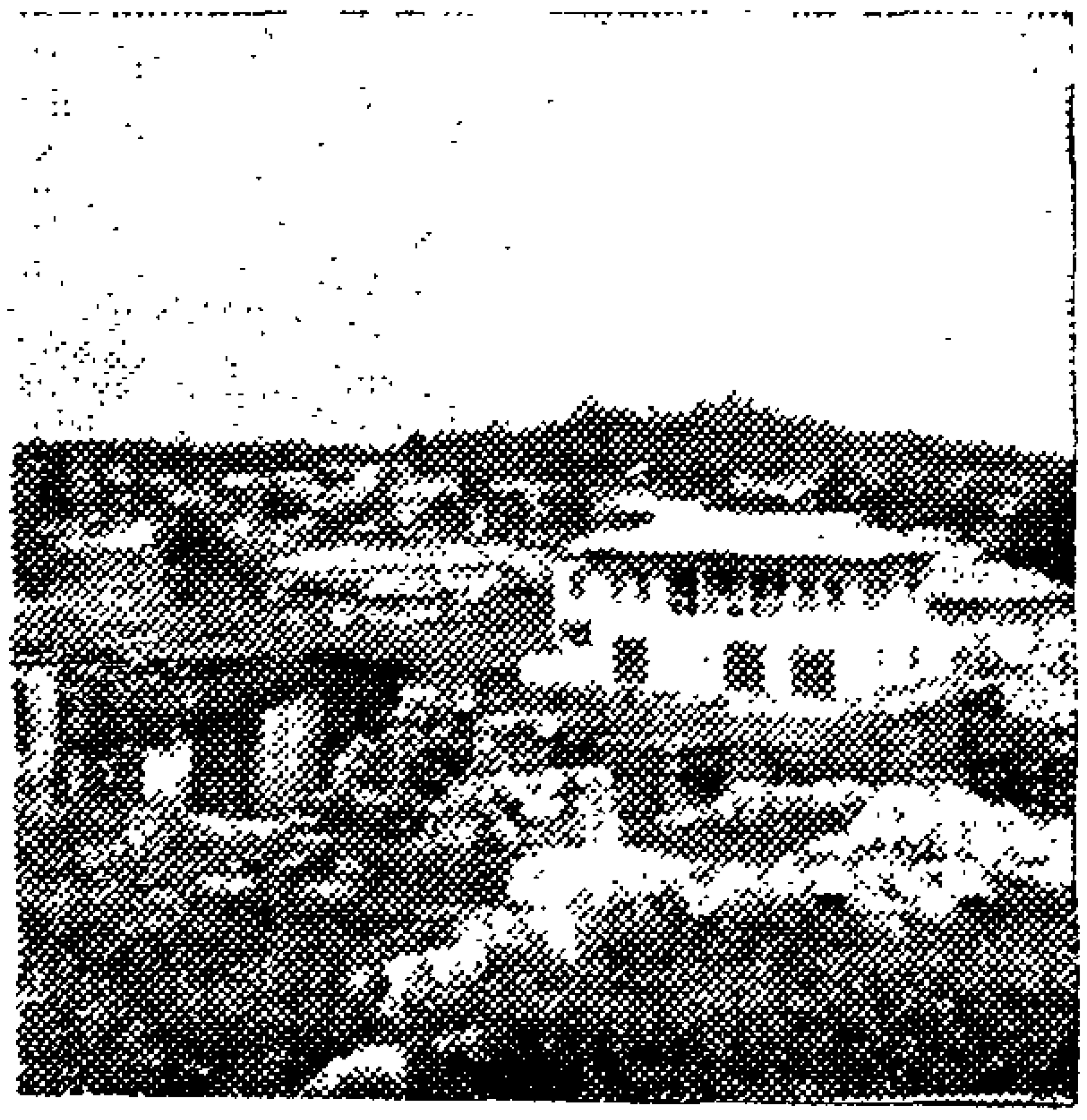

هذه هي توجو

١ — مقدمة :

توجولاند أو أرض التوجو ، ترجع تسميتها إلى كلمة توجو باحدى اللغات الافريقية فى الجنوب . ومعناها مستنقع Lagoon متصل بالبحر ، وهى شريط من الأرض يطل على الساحل الغربى لافريقية ويقع بين غانة ، وجمهورية داهومى وكانت سابقاً مستعمرة ألمانية . وبعد الحرب العالمية الأولى ، قسمت إلى منطقتين وضعت إحداهما تحت الادارة الانجليزية ، والأخرى تحت الإدارة الفرنسية . وحدود هذه المستعمرة مشابه لنظائرها من المستعمرات الواقعة على ساحل غينيا . فهى حدود مصطنعة غير طبيعية خطتها أهواء ساسة أوروبا فى الربع الأخير من القرن الماضى عند ما تكالبوا على استعمار افريقية . وتمتد أراضى توجولاند من ساحل المحيط الاطلنطى جنوباً إلى مسافة ثلثمائة وأربعين ميلا إلى الشمال . ويصل أضيق عرض لتوجولاند عند الساحل . إذ يصل إلى مسافة اثنين وثلاثين ميلا . ويبلغ أقصى عرض لها من الشرق إلى الغرب نحو مائة وأربعين ميلا وتقرب مساحة توجولاند بقسميها من ثلاثة وثلاثين ألفاً وخمسمائة ميل مربع ، أما التوجولاند الفرنسى فتبلغ ٢١,٥٠٠ ميل مربع تقريبا .

٢ — جغرافية توجولاند :

ساحل توجولاند منخفض ورملى ، ويعوق اتصاله بالبحر وجود حاجز رملى sandbar فضلا عن تعرض هذا الساحل للأمواج . وعلى بعد عدة مئات من الأمتار من الشاطئ توجد سلسلة من المناقع تتصل فيما بينها بأخوار . وتقع خلف المناقع إلى الشمال هضبة واطئة يتراوح ارتفاعها من مائتين إلى ثلثمائة قدم . وتتكون هذه الهضبة من تربة حمراء تحتوى على مركبات معدن الحديد . ويلى هذه الهضبة إلى الشمال سهول يتفاوت ارتفاعها من ألف وثلثمائة . إلى ألف وخمسمائة قدم فوق مستوى سطح البحر ، تعقبها مرتفعات وعرة هى عبارة عن تلال . يتجه محور التوائها من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى . ويبلغ ارتفاعها نحو ألفى قدم فوق مستوى سطح البحر وهى تقسم بلاد توجولاند إلى شكل مثلثين يتكافآن فى مساحتهما . وفى هذه المرتفعات يقع أعلى جبل فى توجولاند ويبلغ ارتفاعه ثلاثة آلاف وأربعمائة وست أقدام . وتقع إلى الشمال الغربى من تلال توجولاند منطقة أعشاب السافانا التى تتجمع أمطارها فى مجرى نهر أوتى Oti أحد روافد نهر الفولتا . وإلى الجنوب الغربى من هذه التلال تقع مجارى عدد من النهريات وتتجمع فيها مياه الأمطار التى تسقط فى هذه المنطقة . وتتجه هذه النهيرات

فى جريانها صوب الجنوب . وأهمها نهر مونو Mono الذى يكون الحد الفاصل بين توجولاند ، وداهوس . ومنها أيضاً نهر هاهو Haho ونهر سيو Sio اللذان يصبان فى مستنقع ساحلى يقع على سواحل توجولاند .

٣ – المناخ :

توجد فروق فصلية فى مناخ توجولاند ناشئة عن هبوب رياح الهرماتان الجافة التى تهب من الشمال . أما الرياح الموسمية الرطبة فتهب من الجنوب الغربى من جهة المحيط الاطلنطى . ويستمر هبوب رياح الهرماتان طوال العام فيما عدا فترة سقوط الأمطار التى يمتد سقوطها من شهر مايو إلى شهر أكتوبر . ويتراوح متوسط درجة الحرارة من ٧٢ فهرنهيت إلى ٩٢ ، ومتوسط الرطوبة من ٤٥٪ إلى ٦٧٪ ويبلغ متوسط المطر ٤٥ بوصة فى العام . أما متوسط مايسقط منه فوق تلال توجولاند فهو ستون بوصة . ويغزر فى المنطقة الواقعة جنوبى تلال توجولاند فى فترتين : الأولى تستغرق شهرى مايو ويونية والثانية تستغرق شهر سبتمبر . والمتوسط السنوى فى هذه المنطقة هو ٣٠ بوصة . ومتوسط درجة الحرارة بالنسبة للبلاد الواقعة على خطوط العرض نفسها ويمتد أثر رياح الهارماتان إلى الساحل لعدة أسابيع من ديسمبر حتى يناير .

٤ – النبات والحيوان فى توجولاند

اقتلعت بعض النباتات الطبيعية من توجولاند لتهيئة الأرض للزراعة ، ولكن لاتزال الغابات المدارية قائمة فى عدة جيوب فى التلال وعلى طول وديان الأنهار . وتنمو حول المناقع الساحلية حلقات كثيفة من البوص والغاب . وما ينمو من النباتات الطبيعية فى سائر أنحاء توجولاند هى الآن من نوع السافانا الطويلة والقصيرة . مما ينمو فى مختلف البلاد الواقعة على ساحل غينيا ، وتضرم فيها الحرائق كل عام . وتربة توجولاند فقيرة تخلو من المواد العضوية . وقد زرع قرب الساحل عدد كبير من نخيل جوز الهند . أما فى الأراضى الداخلية فكثيراً ما تزرع الذرة والكسافا واليام والقطن وشجر زيت النخل . كما يزرع على سفوح المرتفعات البن والكاكاو . والحاصلات الرئيسية فى منطقة السافانا الشمالية هى الفول السودانى والذرة والقطن والكابوك Kapok

والحيوانات البرية فى توجولاند مماثلة لنظائرها فى البلاد المجاورة فى غرب إفريقية . ولكن قل عددها فى السنوات الأخيرة بسبب ارتفاع نسبة كثافة السكان . وتندر رؤية الكبير منها ولا سيما فى الجنوب . بيد أنه فى الشمال كثيراً ما ترى من وقت لآخر ، الفيلة والأسود والفهود ، وتكثر القردة

وتتعدد أنواعها ، كما توجد التماسيح وأفراس النهر فى مجارى الأنهار كما تكثر الزواحف وهناك أنواع لاحصر لها من الطيور والهوام .

٥ — سكان توجولاند :

يعد سكان توجولاند من السلالة الزنجية غير أن التلال الوسطى فى بلاد التوجولاند تقسمها إلى منطقتين بشريتين متميزتين . فأهل المنطقة الشمالية من الفونتا وبين الذين اكتسبوا قدراً من دماء الحاميين ممن جاء عن طريق السودان ، وهؤلاء هم قبائل الداجومبا . والمامبروسى والكونكومبا فى الغرب ، ومثل جماعات الجورما Gurma والكابرى Kabre والتيم فى الشرق . أما فى المنطقة الواقعة جنوبى تلال توجولاند ، فانا نجد غالبية أهلها من الايفى Ewe وتدل الروايات المتواترة بين الايفى على أنهم جاءوا إلى أرض التوجومن جنوبى غرب نيجيريا ، وربما حدثت هذه الهجرة فى القرن السادس عشر الميلادى .

وتوجد جماعات قليلة العدد ، تسكن الأراضى الواقعة غربى المرتفعات الوسطى مثل قبائل الأفاتامى Vatame ولعلهم من سلالة السكان الأصليين لتوجولاند . وهناك أقوام يسكنون المنطقة الجنوبية الغربية لتوجولاند ، ويتكلمون لغة التوى Twi وهذا يمثل لنا أقصى انتشار للغة التوى إلى جهة الشرق .

وإذا استثنينا قبائل الداجومبا والمامبروسى ، فان غالبية سكان توجولاند ، لم تفلح فى الماضى فى إنشاء أى تنظيم حكومى . وفى الشمال كثيراً ما كانت الوحدات السياسية والاجتماعية مبنية على روابط القرابة والنسب كما هو الحال عند الكونكومبا . كما أنشأت جماعات الايفى فى الجنوب أكثر من مائة منظمة قبلية ، على الرغم من الصلات الثقافية التى تربطهم بأهل بلاد الداهومى ، وتأثرهم بدول الأكان التى قامت فى ساحل الذهب (غانة الآن) .

وهذه المنظمات القبلية يتكلم أهلها لهجات متعددة متفرعة من لغة الايفى . وقد تتفاوت هذه اللهجات فيما بينها إلى الحد الذى يتعذر فيه التفاهم بين المتكلمين بها .

وأهل الشمال والجنوب فى توجولاند من الوثنيين الذين يسميهم الأوروبيون بالحيويين أى الذين يعتقدون أن للأشياء المختلفة حتى الجمادات حياة وأن لها أرواحاً . وقد جدت بعثات التبشير المسيحى منذ سنة ١٨٤٠ فى تنصير الجنوبيين من أهل توجولاند ، كما انتشر الاسلام بين الشماليين على يد التجار المسلمين من الهوسا واليوروبا ممن وفد إلى مناطق الشمال واستقر بها . كما تغلغل الاسلام إلى حد ما بين الجنوبيين . ويشتغل الايفى فى الجنوب بالزراعة والتجارة ، كما يشتغل الشماليون بالزراعة ورعى الأغنام والماشية . ويبلغ سكان توجولاند الفرنسية نحو مليون وواحد وتسعين ألفا . وتعد درجة الكثافة للسكان فى توجولاند أعلى من غيرها بالنسبة لبلاد غرب إفريقية فهى ٤٢ نسمة لكل ميل مربع .

٦ — تاريخ توجولاند :

كانت المنطقة التى تسمى الآن بتوجولاند أرضاً يتنازع على امتلاكها ملوك الأشانتى فى الغرب ، وملوك داهومى فى الشرق . وظلوا يتداولونها إلى سنة ١٨٨٤ ، وكان الأوروبيون قد وصلوا إلى ساحل توجولاند منذ حركة الكشف الجغرافى التى بدأها البرتغاليون فى القرن ١٥ م. واشتغلت الأمم الأوروبية بالنخاسة وكانوا يحصلون على الأرقاء بوسائل مختلفة لبيعهم إلى المزارعين الأوروبيين فى القارة الأمريكية . وظلوا يشتغلون بالنخاسة حتى القرن ١٩ . ونظراً لأن ساحل توجولاند ليس صالحاً لرسو السفن ، فإن الجانب الأكبر من التبادل

التجـــارى فى الأرقاء ، ثم فى زيت النخيل بعد إلغاء النخاسة ، كان يجرى فى القلاع والمراكز الأوروبية القائمة على ســـاحل الذهب (غانة الآن) وداهومى .

وأعقب ذلك مجئ المبشرين الألمان إلى توجولاند فى سنة ١٨٤٠ ، ثم تلاهم التجار الألمان طبقاً للأسلوب الاستعمارى فى القرن الماضى ، حيث يقترن التبشير بالتجارة ثم يبسط النفوذ الأوروبى .

وفى يوليو سنة ١٨٨٤ جاء إلى توجولاند المستكشف الألمانى الطبيب جوستـــاف ناختيجال حيث أرسلته الحكومة الألمانية إلى غرب إفريقية بدعوى دراسة المصالح الألمانية فى هذه الجهات ، لكنه كان يعمل على إغراء سكان المناطق الساحلية من الإفريقيين على التوقيع على معاهدات يقبلون فيها وضع بلادهم تحت الحماية الألمانية . وقد أقرت الدول الأوروبية هذه الحماية فى مؤتمر برلين سنة ١٨٨٥ ، وحددت التخوم الساحلية بين توجولاند ومستعمرة الداهومى الفرنسية المجاورة لها بمعاهدة عقدتها ألمانيا مع فرنسا فى سنة ١٨٨٥ ، كما حددت التخوم الفاصلة بين توجولاند ، ومستعمرة ، ساحل الذهب البريطانية بمعاهدة عقدتها المانيا مع بريطانيا سنة ١٨٨٦ . وفى الفترة الواقعة بين سنة ١٨٨٧ و ١٨٩٠ توغلت المانيا فى داخلية توجولاند ، بتجريد حملات عسكرية لم تلق من الوطنيين سوى مقاومة يسيرة .

وقد أدى ذلك إلى تحديد التخوم الشمالية بين داهومى وتوجولاند بمعاهدة عقدت مع فرنسا فى ١٨٩٧ وأخرى مع إنجلترا فى سنة ١٩٠٤ لتحديد التخوم الشمالية بين توجولاند وساحل الذهب .

وقد اختار الألمان قرية « لومى » الواقعة على نهاية الطرف الغربى لساحل توجولاند لتكون العاصمة السياسية والتجارية لتوجولاند ، حيث لا تفصلها المستنقعات المحاذية للساحل عن داخلية البلاد ، فأنشأوا بها مدينة جديدة ، وأقاموا مرفأ صالحاً لرسو السفن . وذلك لتجنب نقل البضائع بالقوارب . وبنى الألمان خطوطاً حديدية ، منها ما يمر بالمنطقة الساحلية لنقل ما تنتجه من حاصلات زيت النخيل . ويصل الخط ثغر لومى ببلدة « انيشو » التى كانت تسمى سابقاً « لتل بوبو » إذ كانت هذه البلدة فيما مضى أهم مركز تجارى أوروبى فى توجولاند . وتبعد عن لومى بمقدار سبعة وعشرين ميلا . كما بنى الألمان خطا حديدياً آخر يتجه من ثغر لومى إلى الشمال الغربى ويصل إلى بلدة « باليميه » التى تبعد عن لومى بمقدار أربعة وسبعين ميلا . ويقصد بهذا الخط نقل محاصيل المنطقة الجبلية فى توجولاند . ثم مدوا الخط إلى بلدة

اتاكامى التى تبعد عن لومى بمقدار مائة وأربعة من الأميال . وذلك لاستغلال موارد المنطقة الوسطى من المستعمرة .

هذا وقد اقتصر الألمان إبان حكمهم توجولاند على استثمار مواردها الزراعية فى المنطقتين الساحلية والوسطى من هذه المستعمرة ولم يعنوا باستغلال ثرواتها المعدنية ، وتعذرت العناية بتربية الماشية لوقوع توجولاند فى المنطقة التى تنتشر فيها ذبابة تسى تسى . وقد أقامت الحكومة والشركات الألمانية الخاصة مزارع كبيرة فى توجولاند ، غير أن الوطنيين هم الذين توسعوا فى الأعمال الزراعية بفضل معاونة اخصائيين فى الزراعة تخرجوا من كلية نواتجا فى توجولاند . ومن الحاصلات الزراعية التى توسع الألمان فى انتاجها محاصيل لها قيمة تجارية مثل مستخرجات النخيل التى بلغت قيمة صادراتها فى سنة ١٩١٣ نحو ٢٤٠ ألف جنيه ، والمطاط الذى بلغت قيمة صادراته فى السنة نفسها نحو ٢٦ ألف جنيه ، كما توسع الألمان فى زراعة الكاكاو التى بلغت قيمة صادراته قبل الحرب العالمية الأولى نحو ١٧ ألف جنيه . وارتفعت قيمة صادرات توجولاند من ١٥٣ ألف جنيه فى سنة ١٩٠٠ إلى نحو نصف مليون جنيه فى سنة ١٩١٢ . وارتفعت قيمة الواردات فى الفترة نفسها من ١٧٦ ألف جنيه إلى أكثر من نصف مليون جنيه . وأغلبها من المنسوجات والمصنوعات . وفى سنة ١٩١٢ كانت ألمانيا تستأثر بنحو ٦٠ ٪ من الصادرات ، وتزود المستعمرة بمقدار ٤٢ ٪ من وارداتها .

وامتازت الادارة الألمانيــة لمستعمرة توجولاند بالدقة والكفاية . ولكن يصفها الكتاب الفرنسيون والبريطانيون بأنها كانت تقسو فى معاملة الوطنيين . كما أنها كانت تتبع نظام السخرة . وكان دخل المستعمرة فى سنة ١٩١٢ هو ١٦٠ ألفاً من الجنيهات ، والمنصرف يقرب من هذا المبلغ .

وعند نشوب الحرب العالمية الأولى هاجمت جنود المستعمرات البريطانية من ساحل الذهب والمستعمرات الفرنسية من داهومى ، مستعمرة توجولاند ، وأرغمت الحامية الألمانيــة على التسليم فى أواخر أغسطس سنة ١٩١٤ . واستأثرت بريطانية بادارة القسم الغربى من توجولاند بما فيه العاصمة لومى وخطوط السكك الحديدية . تاركة لفرنسا إدارة القسم الشرقى من المستعمرة . وهذا هو التقسيم الثانى لتوجولاند ، غير أنه لم يدم أكثر من خمس سنوات إذ اتفق كل من كليمنصو ولويد جورج فى سنة ١٩١٩ على أن تأخذ فرنسا ثلثى المستعمرة بما فيها الساحل كله ، والعاصمة والخطوط الحديدية ، وتأخذ بريطانيا الثلث الباقى الملاصق لمستعمرتها ساحل الذهب . وبعد أن تنازلت ألمانيا عن سيادتها على مستعمراتها ، اخترع نظام الانتداب بدعوى الأخذ بيد الشعوب المتخلفة فى مضمار الرقى . ووكلت عصبة الأمم الدول التى كسبت الحرب للقيام بهذه المهمة . وأصدرت فى سنة ١٩٢٢ قراراً بندب كل من بريطانيا وفرنسا لحكم الأجزاء التى اتفقتا على اقتسامها . وجعل الانتداب على توجولاند من نوع ب .

٧ — توجولاند فى عهدى الانتداب والوصاية :

تبلغ مساحة توجولاند الواقعة تحت الانتداب البريطانى والتى ضمت فيما بعد إلى غانة ، ١٣٫٠٤١ ميلا مربعاً ، وبلغ سكانها طبقاً لإحصاء سنة ١٩٤٨ أكثر قليلا من ثلث مليون . وأدارت بريطانيا القسم الشمالى كجزء مكمل للأقاليم الشمالية لساحل الذهب ، أما الجزء الجنوبى فألحقته إدارياً بالقسم الجنوبى من ساحل الذهب الذى كان يطلق عليه اسم : المستعمرة . وعندما أنشأت بريطانيا الجمعية التشريعية فى ساحل الذهب سنة ١٩٥١ كان يمثل القسم الجنوبى من توجولاند البريطانية

ثلاثة نواب وجملة نواب القسم الشمالى مضافاً إليه الأقاليم الشمالية لساحل الذهب هى ١٩ نائباً . ولا توجد فى توجولاند البريطانية مدن كبيرة سوى بلدة يندى فى الشمال عاصمة قبائل الداجومبا وعدد سكانها نحو ثمانية آلاف . أما المدينتان الرئيسيتان فى الجنوب فهما بلدة هو ولا يزيد عدد السكان فى كل منهما عن خمسة آلاف . وتعتمد توجولاند البريطانية فى حياتها الاقتصادية على الزراعة . والمحصول النقدى Cash Crop الرئيسى هو الكاكاو الذى يزرع فى الجنوب . ويشتغل الأهالى بزراعة المحاصيل التى يستهلكونها فى غذائهم . مع أنهم يصدرون منها جانباً مثل الفول السودانى واليام ، كما يصدرون جانباً من الماشية التى يقومون بتربيتها. وتجارة توجولاند البريطانية مدمجة فى تجارة ساحل الذهب . غير أن صادرات توجولاند قدرت فى سنة ١٩٥٣ بنحو أربعة ملايين ونصف مليون من الجنيهات أغلبها من الكاكاو (٤ ملايين) والذرة (نصف مليون) . والواردات أربعة ملايين أغلبها من المنسوجات والمصنوعات . ومع أن الإدارة البريطانية أنشأت عدداً من الطرق التى وصلتها بشبكة الطرق الخاصة لساحل الذهب ، فإن الجانب الأكبر من التجارة الخارجية لتوجولاند البريطانية ينقل على السكك الحديدية الخاصة بتوجولاند الفرنسية ، وتبلغ قيمة هذه التجارة المنقولة نحو سبعة ملايين من الجنيهات طبقاً لتقدير الإدارة الفرنسية فى سنة ١٩٥١ . وبلغ دخل الحكومة فى توجولاند البريطانية فى سنة ١٩٥٣ نحو مليونين من الجنيهات . والمنصرف نحو هذا المبلغ مضافاً إليه نصف مليون من الجنيهات لمشروعات التعمير .

وتبلغ مساحة توجولاند الفرنسية نحو ٢٠٫٤٦٣ ميلاً مربعاً . وقد بلغ سكانها ، طبقاً لإحصاء سنة ١٩٥٣ ، مليوناً و٥٣ ألف نسمة . منهم ١٠٨٨ من غير الأوروبيين .

وعاصمة توجولاند الفرنسية هى مدينة لومى على الساحل وسكانها ٥٣ ألف نسمة ، منهم أكثر من خمسمائة من الأوروبيين. ويحكم المستعمرة مندوب سامى فرنسى ، يعاونه مجلس استشارى من كبار الموظفين وجمعية نيابية تتألف من ثلاثين عضوا . ينتخبهم أكثر من ٥٠ ألفاً من الناخبين ، ويشترط موافقة هذه الجمعية على ميزانية الحكومة السنوية . كما تبعث توجولاند بمندوب يمثلها فى الجمعية الوطنية الفرنسية فى باريس ، ونائبين فى مجلس الجمهورية وآخر فى مجلس الاتحاد الفرنسى .

ولما أنشئت هيئة الأمم المتحدة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، تولت هذه الهيئة الإشراف على البلاد الواقعة

تحت الانتداب . وهو الإشراف الذى كانت تباشره عصبة الأمم السابقة فى فترة ما بين الحربين . وقد غير الانتداب إلى وصاية ، وبذلك صارت مستعمرة توجولاند بقسميها تحت وصاية الأمم المتحدة . ومع أن القسم الفرنسى من توجولاند لم يدمج فى مجموعة المستعمرات الفرنسية المعروفة باسم إفريقية الغربية الفرنسية . إذ كان يطلق عليه هو والكمرون الفرنسى اسم الأراضى المضمومة فقد كان له نصيب من التطورات الدستورية والسياسية التى استحدثها الفرنسيون فى مستعمراتهم فى غرب إفريقية فى السنوات التى تلت الحرب العالمية الثانية من سنة ١٩٤٥ إلى اليوم .

ولكن انفردت توجولاند بقسميها بمشكلة كبيرة تتعلق بالتوزيع الجغرافى لأنواع متجانسة من سكانها وقبائلها . فرقتهم الإدارة الاستعمارية ، وأخضعتهم لنظم وأوضاع حكومية مختلفة ، مما تطبقه كل من إنجلترا وفرنسا كدولتين منتدبتين ، ثم وصيتين على المستعمرة . تلك هى مشكلة جماعات ألإيفى فى الجنوب التى تسكن كلا من المنطقة الجنوبية الشرقية من غانة (ساحل الذهب سابقاً) والمنطقة الجنوبية من توجولاند البريطانية والفرنسية . وقد رغب ألإيفى فى ضم هذه المناطق كلها تحت إدارة واحدة . وهذا معناه أنهم طالبوا بضم جنوبى توجولاند الفرنسى الذى يسكنه جزء من ألإيفى إلى المنطقتين الخاضعتين لبريطانيا . وقد عارضت فرنسا فى ذلك . فقام ألإيفى بإرسال مندوبين عنهم إلى مجلس الوصاية التابع لهيئة الأمم المتحدة مطالبين بوضع مناطق ألإيفى تحت إدارة مشتركة ، وتعدد إرسال هذه الوفود منذ ١٩٤٧ ، وأرسل مجلس الوصاية لجاناً إلى توجولاند وساحل الذهب لدراسة هذه الرغبات التى تعذر تحقيقها فيما بعد لأسباب مختلفة . منها :

١ ــ أخطأ زعماء ألإيفى عندما طالبوا بوضع جميع المناطق التى يسكنونها تحت الإدارة البريطانية ، فقد أثار هذا حفيظة فرنسا .

٢ ــ كما أن الأمم المتحدة ليست لديها الصلاحية التى تخول لها أن تفرض حلاً تلتزم بإنفاذه الدولتان الوصيتان وهما : إنجلترا وفرنسا .

٣ ــ إن عملية توحيد ألإيفى ليست مقصورة على توجولاند بقسميها الفرنسى والبريطانى وإنما تشمل أيضاً جزءاً أصلياً من ساحل الذهب هو المنطقة الجنوبية الشرقية منه التى يسكنها أيضاً قسم من ألإيفى .

٤ ــ إن البريطانيين كانوا أسرع من الفرنسيين فى إعداد المناطق التى يحلمونها ، سواء ساحل الذهب أو توجولاند البريطانية ، للحكم الذاتى .

وقد ترتب على ذلك إزالة الحدود المصطنعة بين جماعات الداجومبا

والمامبروسى فى كل من الأقاليم الشمالية لساحل الذهب وشمالى توجولاند البريطانية . وقد شطرتهم الحدود التى أقامها الاستعمار حتى سنة ١٩١٤ . فأعيدت إليهم وحدتهم بضم شمال توجولاند البريطانية إلى الأقاليم الشمالية لساحل الذهب .

٥ – إن سكان جنوبى توجولاند الفرنسية والبريطانية ليسوا جميعاً من الإيفى .

غير أن الأمم المتحدة أوصت كلا من انجلترا وفرنسا بالعناية بهذه المشكلة . فاتفقت الدولتان فى سنة ١٩٤٨ على تشكيل لجنة استشارية مؤلفة من أعضاء بريطانيين وفرنسيين للنظر فى شئون الايفى وتخفيف قيود الحدود بين المنطقتين الفرنسية والانجليزية فى توجولاند . كما أنشأت حكومة ساحل الذهب مجلساً فى جنوب توجولاند البريطانية اسمه مجلس ما وراء الفولتا للنظر فى المسائل المحلية الخاصة بجماعات الإيفى التى تخضع للإدارة البريطانية سواء شرقى ساحل الذهب أو جنوبى توجولاند البريطانية .

التطورات الأخيرة :

فى سنة ١٩٥٥ منحت فرنسا توجولاند إدارة ذاتية فانتهى بذلك عهد الوصاية . وفى العام التالى صارت توجولاند جمهورية تتمتع بالحكم الذاتى وتباشر سلطة التشريع جمعية تشريعية ينتخب أعضاؤها كل خمس سنوات . ولها الحق فى سن القوانين والتصويت على الميزانية ويباشر السلطة التنفيذية سلطة الوزراء . يختارهم رئيس الوزارة . ويقوم المندوب السامى الفرنسى بتنسيق السياسة الإدارية لكل من فرنسا وتوجولاند من المسائل ذات المصلحة المشتركة وقد احتفظت فرنسا بمسائل الشئون الخارجية والدفاع الخاصة بتوجولاند . ويمثل توجولاند فى الجمعية الوطنية فى باريس نائب واحد . وفى مجلس الجمهورية الفرنسية شيخان . وفى جمعية الاتحاد الفرنسى مستشار واحد .

وجمهورية توجولاند مقسمة إلى خمس عشرة دائرة ولكل دائرة مجلس يباشر سلطات محلية واسعة ، كما توجد فى مناطق المدن مجالس إدارية تسمى بمجالس الكومون المختلطة .

هذا ولم تتأثر توجولاند بالاستفتاء الذى أجراه دى جول فى ٢٨ من سبتمبر ١٩٥٨ الذى عرض فيه على مستعمرات الاتحاد الفرنسى قبول دستور الاتحاد لتكوين المجتمع الفرنسى أو رفضه . وفى حالة الرفض يحق للمستعمرة أن تنفصل وتعلن استقلالها . وهو ما صنعته غينيا . إذ أن هذا الاستفتاء لا ينطبق على توجولاند باعتبارها من البلاد التى كانت خاضعة لنظام الوصاية .

أما توجولاند البريطانية ، فقد أجرى فيها استفتاء فى مايو ١٩٥٦

للوقوف على مدى رغبة أهلها فى الانضمام لساحل الذهب ، وأسفرت نتيجة الاستفتاء عن تأييد للاندماج فى ساحل الذهب بأغلبية يسيرة رجحتها أصوات الإيفى فى الجنوب ، ومع وجود أقلية كبيرة عارضت فى هذا الضم ، فإن الأمم المتحدة أقرت نتيجة الاستفتاء ، وانسلخت توجولاند البريطانية نهائياً عن توجولاند الفرنسية ، ولكن لا تزال هنـاك أصوات فى المنطقة الفرنسية تطالب باستعادة القسم البريطانى ، لأن الأغلبية الساحقة من أهله ليست مجمعة على الاندماج فى ساحل الذهب .

التعليم فى توجولاند :

لقد طبق الفرنسيون سياستهم التعليمية فى المستعمرات على توجولاند إبان انتدابهم ووصايتهم على القسم الفرنسى منها . وتتلخص فى إغفال اللغات المحلية وفرض اللغة الفرنسية فى المرحلة الابتدائية لصبغ الافريقيين بالصبغة الفرنسية اتباعاً لسياسة الهضم والتمثيل

وقد عبر أحد رجال الادارة فى المستعمرات الفرنسية ويدعى كارد عن خطة فرنسا التعليمية فى المستعمرات بعبارة موجزة هى : تعليم الكافة واستخلاص الصفوة ، لكنهم فى توجولاند قصروا فى استخلاص الصفوة . إذ لم ينشئوا بها مدرسة ثانوية واحدة حتى سنة ١٩٤٧ . وكان الألمان من سنة ١٨٨٤ إلى سنة ١٩١٤ قد بدأوا نظاماً تعليمياً فى المستعمرة عنوا فيها بالناحية العملية والمهنية . وحتى بعد ضياع توجولاند من أيديهم ، واصلوا الاهتمام بتعليم التوجولانديين . ففى عهد جمهورية فيمار من سنة ١٩١٨ إلى قيام هتلر فى سنة ١٩٣٣ عمد ممثلو البيوت التجارية الألمانيـــة إلى تقديم منح دراسية للطلبـــة التوجولانديين فى جامعتى بريمن وهامبورج ، كما كانت ألمانيا تمنح إعانات مالية للموظفين السابقين من أهل توجولاند ، ومن المدنيين والعسكريين الذين عملوا مع الألمان وأخلصوا للادارة الألمانية . وقد قامت حكومة الريخ الثالث فى عهد هتلر بدعاية قوية للألمان بين التوجولانديين عن طريق اتحاد ألفته وأسمته الاتحاد التوجولاندى ، واستخدمته فى إثارة الاضطرابات فى الفترة السابقة على قيام الحرب العالمية الثانية ، ومع قلة الفرص التعليمية التى منحت لأهل توجولاند ، فانه توجد فيها صفوة أصابت ثلاثة أنواع من الثقافات : الألمانية والانجليزية من سنة ١٩١٤ إلى ١٩٢٠ والفرنسية من سنة ١٩٢٠ إلى اليوم ، مما زود توجولاند بعدد من القادة الذين يتميزون بالحنكة والثقافة العالية وعلى رأسهم سيلفانوس أوليمبيو ، الذى أشاد جنتر بكفايته فى كتابه : فى داخل افريقية

والنهضة التعليمية فى توجولاند قد قطعت شوطاً كبيراً فى سبيل التقدم على الرغم من حداثتها . فقد زاد طلاب المدارس فى عام واحد من سنة ١٩٥٨ إلى سنة ١٩٥٩ من ٦٨ ألفاً إلى ٨٠ ألفاً . وفى توجولاند الآن اثنتا عشرة مدرسة ثانوية : ست منها أنشئت حديثاً . علاوة على مدرسة لعلوم الادارة . وأكثر من نصف هيئة التدريس فى هذه المعاهد من التوجولانديين وعدد المدارس الابتدائية ٤٧٧ مدرسة . وهناك معهدان لتدريب المعلمين : أحدهما حكومى ، والآخر تديره هيئة تبشيرية كاثوليكية ، كما توجد عناية بالغة بمكافحة الأمية يشرف عليها موظف يسمى بضابط التعليم الشعبى . ومهمته إعداد المدرسين الذين يقومون بتعليم البالغين القراءة والكتابة على طريقة لوباخ التى تمكن البالغ من تعلم القراءة والكتابة فى مدى ثلاثة أشهر ، يمتحن فى نهايتها . ويحصل الناجحون على شهادة معرفة القراءة والكتابة . وتمهد هذه الدروس لتعليم البالغين أفضل طرق الزراعة والعناية بالصحة ومكافحة العادات الضارة والطب التقليدى المبنى على السحر والخرافة . هذا وتنفق توجولاند نحو ٢٢ ٪ من ميزانيتها على التعليم ، وتخص جانباً منها على إرسال بعثات تعليمية فى الخارج .

وتعنى الحكومة بأداء الخدمات الاجتماعية

والصحية . فقد أنشئت في الأقاليم عشرة مستشفيات علاوة على مستشفى كبير فى العاصمة . كما أنشىء أربعة عشر مستشفى للأمومة ورعاية الأطفال . علاوة على مائة عيادة طبية فى الريف وتبذل الحكومة جهوداً طائلة للعناية بالصحة فى المناطق النائية التى يموت فيها أكثر من خمسين فى المائة من الأطفال ، قبل أن يبلغوا سن السادسة ، وتنفق حكومة توجولاند على شئون الصحة نحو ١٦ ٪ من ميزانيتها .

ويبدو أن حظ المسلمين فى توجولاند من الخدمات التعليمية مماثل لحظ اخوانهم فى سائر مستعمرات غرب إفريقية . فان القوى الاستعمارية والتبشيرية تعمل على حرمانهم من فرص التعليم . ويوجد مسجد للمسلمين فى لومى ، كما توجد مساجد أخرى للمسلمين فى الشمال . وقد جرت فرنسا على أن تراقب معاهد التعليم الحرة مراقبة شديدة حتى ما كان تبشيرياً منها . ولا بد أنها تراقب أيضاً المدارس القرآنية الخاصة بالمسلمين ، كما أنها تحارب تعليم اللغة العربية بمختلف الوسائل ، كما تصنع فى سائر مستعمراتها وكما كانت تصنع فى شمال إفريقية . ونعتقد أن هناك مجالا فسيحاً للجمهورية العربية المتحدة لنشر الثقافة العربية بين مسلمى توجولاند وتوثيق العلاقات الثقافية لو استطعنا كسب مودة زعماء توجولاند دون أن تؤثر علاقات المودة هذه على مركزنا فى غانة نظراً للخلافات والمنازعات المحتدمة الآن بين غانة وتوجولاند .

مشكلات توجولاند :

تواجه توجولاند مشكلات كثيرة داخليــة وخارجية . وقد استعانت على علاج جانب منها بالمساعدات الخارجية سواء من فرنسا أو من الأمم المتحدة . وقد حصلت من فرنسا ، فى الفترة من سنة ١٩٤٦ إلى سنة ١٩٥٥ ، على المساعدات فى سبيل التنمية الاقتصادية والاجتماعيــة تقدر قيمتها بأكثر من خمسة عشر مليوناً من الدولارات ، كما تسلمت توجولاند من هيئة تنمية المستعمرات الفرنسية اعتمادات كبيرة فى سنة ١٩٥٧ بلغت قيمتها ٣١ مليوناً من الفرنكات ، كما تقوم الهيئات التابعة لمنظمة الأمم المتحدة بتقديم خبرات فنيــة لتوجولاند . ولدى جمهورية توجولاند مشروعات كثيرة للتنمية الاقتصادية ، وعلى الأخص استغلال الثروة المعدنية . إذ تحتوى البــلاد على مناجم غنية بالفوسفات والكروم والبوكسيت والحديد . وينتظر أن يبلغ انتاج توجولاند من الفوسفات ما يقرب من مليون طن سنوياً . ولعل أكبر مشكلة خارجية تواجهها توجولاند ، هى نزاعها مع غانة الذى يرجع فيما مضى إلى مشكلة توحيد جماعات الإيفى. وقد زادت شقة الخلاف اتساعاً بتأثير عوامل مختلفة ، منها التنازع على الزعامة ، والرغبة فى التوسيع من جانب الدول المجاورة التى تتزعم حركة الجامعة الإفريقية تمهيداً لإنشاء ولايات متحدة إفريقية فى غرب إفريقية . ولعل من هــذه الأسباب أيضاً اختلاف نزعة الزعماء بسبب تباين ثقافتهم ، فالثقافة الفرنسية والإدارة الاستعمارية الفرنسية تختلف عن نظائرها فى المستعمرات البريطانية . وربما كان السبب الرئيسى هو الدسائس التى تبذلها كل من الدولتين الاستعماريتين :

فرنسا وإنجلترا ، لتقضي كل منهما على نفوذ الأخرى فى إفريقية . ولم ينس الفرنسيون بعد ما صنعه الإنجليز فى نهاية الحرب العالمية الثانية من إخراج فرنسا من سوريا ولبنان .

وقد أنشأ الفرنسيون فى توجولاند حزباً اسمه حزب التقدم التوجولاندى الذى يدين باستقلال توجولاند ويعارض اتحادها مع غانة بحجة جماعات الإيفى .

وقد احتدم النزاع بين توجولاند وغانة فى سنة ١٩٥٩ وأوائل العام الحالى . وتجاوز الانتقادات والتصريحات إلى حد تبادل الاتهامات .

ويهمنا بطبيعة الحال أن يزول الجفاء بين غانة وتوجولاند حتى تخصصا جهودهما لتدعيم استقلالهما بدلا من أن تستخدمها الدول الكبرى لتحقيق مآربها الاستعمارية لتسترد بيد ما أعطته باليد الأخرى وبخاصة بعد أن نالت كل منهما استقلالها كاملا .

استيطان البيض ومشكلة الأرض

بقلم : سميرة محمود

تمهيد :

لقد تقلبت على منطقة شرق إفريقية السياسة الأوروبية من ألمانية وإنجليزية إلى أن كانت الحرب العالمية الأولى فانتهت بسيطرة بريطانيا عليها، ولبريطانيا – كما نعرف – خبرتها الطويلة فى الاستعمار فى غرب القارة وجنوبها معاً . مما جعلها قادرة على التعامل مع الوطنيين .

فالسياسة البريطانية تتطور وفق الزمان والمكان ،ففى الحرب العالمية الأولى كانت تهدف الى استغلال البلاد استغلالا اقتصادياً مباشراً .

أما بعد الحرب العالمية الثانية فأيقنت أنه لا بد من اتباع سياسة مرنة تتمشى مع رغبات شعوب مستعمراتها التى تختلف فيما بينها من حيث التقاليد ، والدين والتاريخ والحرفة ، وتتلاءم مع حضاراتهم المختلفة فطبقت نظام الحكم غير المباشر . ويقوم أساساً على ترك السلطة المحلية فى أيدى القبائل والعشائر وإشراكهم فى مجالس نيابية بينما السلطات العليا ، والسياسة الاقتصادية فى أيدى الموظفين الإنجليز ، وذلك بين القبائل المتأصلة فى الزعامة كما فى كينيا وتنجانيقا . وتنتهج بريطانيا سياسة عامة ترمى إلى تدريب أهل المستعمرات للوصول فى النهاية إلى الحكم الذاتى داخل نطاق الكومنولث ، ولكنها فى الوقت نفسه لا تمنح أهل المستعمرات فرصة التعليم الكافى الذى ييسر لهم ممارسة هذا النوع من الحكم .

والتعليم هو سبب كل حركة وطنية إفريقية . وانتشار التعليم معناه الاحتفاظ بإفريقية للإفريقيين ، ومقاومة استيطان البيض واستيلائهم على أرضها ، ومعناه أيضاً ، مقاومة العادات الضارة التى تنتشر عادة مع انتشار البيض .

أما استيطان البيض فى شرق إفريقية البريطانية بصفة عامة . وفى مستعمرة كينيا بصفة خاصة . وما ترتب من مشكلات خاصة بامتلاك الأرض . فقد أصبح عاملا مهماً لا يمكن إغفال أثره فى توجيه الحوادث وتطوراتها . فالأرض مهمة جداً فى حياة الإفريقيين . سواء كانوا قبائل رعاة أو قبائل مزارعين . ويقول Hoblely (١) : « لقدصدق القول بأن الأرض التى تشغلها القبيلة وتعيش عليها هى أساس ومحور الحياة فى إفريقية » .

ويؤكد هذا أيضاً جومو كنياتا بقوله : « إن الأرض هى مفتاح حياة الناس ، فهى توفر لهم عملا رتيباً فى الزارعة ، وتمكنهم من تأدية حفلاتهم وطقوسهم الدينية باستمرار فى مواجهة

(1) Hobely, 1938 : Bantu Beliefs p. 316.

جبل كينيا الرابض فى بلادهم »[1]

والأرض فى شرق إفريقية نوعان إما مرتفعة Highlands وهى أرض خصبة تمتاز بمناخ مناسب ملائم للإقامة الأوروبية .

وإما أرض منخفضة Low lands وهى قليلة الخصب أو مناخها حار ورطب وسكانها قليلون إلا بعد أن أقامت الحكومة فيها المناطق المحجوزة الخاصة بسكنى الإفريقيين .

والحديث عن المستوطنين البيض فى شرق إفريقية يرجع بنا إلى الماضى (سنة ١٩٠٢) عند بدء عمليات التوطين الأوروبى حيث كانت أرض الهضبة إما مشغولة بالمزارعين من رجال القبائل ، وإما متروكة بوراً نتيجة لاستغلال زراعى سابق . وهذا تبعاً لنظام الزراعة المتنقلة الذى بموجبه يزرع الفلاح الإفريقى قطعة أرض عدداً من السنين حتى يضعف إنتاجها فينتقل لزراعة قطعة أخرى تاركاً السابقة للشمس والمطر حتى تعود خصوبتها .

ولقد كانت مناطق المرتفعات الشمالية الشرقية فى تنجانيقا عامرة بالسكان الوطنيين من جماعات البانتو ، ثم جاء بعض الأوروبيين واستوطنوا تلك المنطقة ، لأنها تلائمهم من حيث الجو ، مما أثار متاعب كثيرة .

(1) Kenyata. G. 1 35. Facing Mount Renya p. 21.

وحسب الإحصاءات لم يكن فى تنجانيقا فى سنة ١٩١٣ إلا ١٥,٠٠٠ أجنبى أغلبهم آسيويون فى النطاق الساحلى . ولم يتعد عدد الأوروبيين ٥٣٠٠ بما فيهم ٩٠٠ زارع ألمانى وعائلاتهم .

وقد انتزعت الأرض من الزراع الألمان على أثر زوال نفوذ ألمانيا السياسى من تنجانيقا بعد تسليمها فى الحرب العالمية الأولى . ولكن سمح لهؤلاء المستعمرين القدماء بالعودة فى سنة ١٩٢٥ ويدل إحصاء عام ١٩٣٥ على أن عدد البيض فى تنجانيقا بلغ ٨٤٥٥ شخصاً منهم ٥٥٠٠ وفدوا من بريطانيا وجنوب إفريقية ، ثم ٢٧٠٠ ألمانى . وحسب إحصاء عمل فى سنة ١٩٢٩ اتضح أن حوالى نصف الأرض المعطاة للأجانب تحت يد البريطانيين (١,٦٥٢,٠٠٠ فدان) من أكثر أراضى تنجانيقا خصوبة وأن نصيب الألمان معادل لنصيب الهنود تقريباً ، وأما اليونان فقد جلبهم الألمان للعمل فى مد الخط الحديدى فاستقروا فى تنجانيقا وتحولوا إلى زراع وأصبحت تحت أيديهم نسبة لها قيمتها من الأراضى الممنوحة للأجانب وبازدياد مساحة الأرض التى يزرعها الأجانب ازدادت الحاجة للعمال الوطنيين ، فبلغ عددهم ١٥٠,٠٠٠ عامل وهو عدد قليل بالنسبة لازدياد الزراعة التجارية ، وهو ما يشكو منه الزراع الأجانب

بالإضافة إلى سياسة الحكومة التى تقضى بتشجيع الإفريقيين على زراعة الأرض لأنفسهم وأثبت الإفريقيون أنهم قادرون على منافسة الأوروبيين كمنتجين زراعيين .

ومن أساليب حكومة الانتداب فى تنجانيقا أنها لا تعطى الوطنيين الأرض القريبة من السكك الحديدية ، ومعنى هذا أن الزارع الإفريقى لا يستطيع أن يزرع بقصد التجارة ما دام لا يجد وسيلة لنقل غلته إلى الأسواق الخارجية ، فيضطر إلى العمل فى مزارع الأوروبيين .

وعلى وجه العموم نجد أن المشاكل المتعلقة باستيطان البيض لا وجود لها فى تنجانيقا الوسطى بسبب انخفاض سطحها أولا ، ثم قلة الصالح من أرضها للزراعة التجارية .

أما مشكلة الأرض الحقيقيــــــة فتتمثل فى كينيا فى صورة واضحة بسبب الوضع الإقليمى، فالإفريقيون يقولون : إن الإنجليز أجلوهم عن أرضهم واحتلوها وجعلوا منها مقراً للمستعمر الأبيض ، ويرد الأوروبيون على هــذا بأن الأراضى التى استولوا عليها أراض لا مالك لها No man's land ويرى الدكتور ليكى Heaky أن الكيكويو قد هجروا منطقة الهضبة بسبب أربعة أوبئــة قاتلة أصابتهم وبقى منهم عدد قليل . وحينما وصل الأوروبيون للمنطقة لم يقيموا وزناً لهؤلاء الأفراد الباقين وظنوا أن الأرض ملك يباع ويشترى، فدفعوا بعض الأموال للموجودين واعتبروا الموضوع منتهياً . ولكن الكيكويو حين عادوا لأراضيهم وجدوا البيض يدعون ملكيتها ، فعارضوا بحجة أن الأرض ليست حيازة قبلية ، ولهذا لا يمكن للرئيس أو الزعيم أو أى فرد من القبيلة أن يتصرف فيها بالتنازل . وللكيكويو نظام خاص بحيازة الأرض وهو Gethaka وبموجبه تصبح الأرض ملكاً عائلياً وفردياً فى الوقت نفسه وليست ملكاً قبلياً ، وترتب على منطقهم أن الأرض ما زالت ملكاً للأفراد والعائلات وأن مغادرتها أو عدم شغلها بالزراعة لا يغير من حقيقة حيازتها شيئاً . وأن موقف الأوروبيين هو استيلاء غير مشروع أساسه القوة والاستغلال .

ومنطق الأوروبين عكس ذلك ، فهم يحتجون بأنهم اشتروا الأرض من أفراد القبيلة ، وأن القوانين الخاصة التى أصدرتها الحكومة فى كينيا أباحت لهم حق الاستئجار والتملك لأن الأرض لا مالك لها .

وترتبط قصة توطن الرجــل الأبيض بكينيا بمشروع إنشاء خط حديدى يمتد من ساحل المحيط الهندى إلى قلب القارة الإفريقية عبر الأراضى التى تسيطر عليها بريطانيا ، وأعلن الحاكم البريطانى « أن المحمية هى أرض

الرجل الأبيض . ولما كانت هذه سياستنا فمن الحمق والخطل ألا نعترف بعلوٍ وسيادة مصالح البيض ، وأن يكون هدف سياستنا وتشريعاتنا هو خلق مستعمرة بيضاء فى شرق إفريقية .

وفى عام ١٩٠٢ عرضت الحكومة البريطانية رسمياً على الوكالة اليهودية العالمية أن يتوطن اليهود فى كينيا ويقيموا وطنهم القومى هناك وأن تمنحهم لهذا ٣,٢٠٠,٠٠٠ فدان . ولكنهم رفضوا هذا العرض لضيق مساحة الأراضى الصالحة للزراعـــة وقلة الإمكانيات الطبيعية التى تساعد على استصلاح هذه الأراضى . وندرة الموارد المعدنية التى تساعد على إقامة حياة صناعية .

وأول مستوطن أوروبى هو اللورد « ويلامبو » الذى استولى على ١٠ آلاف فدان واشترك لورد « سكوت وبلايموث » فى تملك ٣٥٠ ألف فدان واستولى « دون أيرمكورن » على ٣٠ ألف فدان وامتلكت شركات شرق إفريقية ٣٢٠ ألف فدان . وامتيازات غابات جروجا ٢٠٠ ألف فدانومزارع دوا ٢٠ ألف فدان وشركة مزارع شرق إفريقية ٣٥٠ ألف فدان .

ولإضفاء ثوب الشرعية على هذا الاغتصاب أعلن الحاكم العام أن الإيجار السنوى للفدان بنس أو أربعة مليمات بأسعار ما قبل الحرب العالمية الأولى .

وجاء السند القانونى لهذا الاستيلاء فى شكل قانون أراضى التاج عام ١٩٠٢ ، والذى أعطى الحاكم حق تأجير الأرض لمدة ٩٩ سنة مقابل بنس واحد للفدان . ويشترط ألا تزيد مساحة القطعة عن ألف فدان . واستبعد القانون — صراحة — غير الأوروبيين من التملك أو الاستثمار فى مناطق الأرض المرتفعة .

وبدأ طرد الإفريقيين من أراضيهم ومنحوا فى مقابل هذا أراضى أخرى فى المناطق المنخفضة وسميت المنطقة المخصصة لكل قبيلة Native reserves

ويحدد القانون أراضى التاج بأنها جميعاً . الأراضى العامة والخاصة أو المملوكة للحكومة . ويروى أبعـــد المصادر[1] أن هذا النص جاء غامضاً بحيث لا يمكن معرفة هل أراضى التاج تشمل أراضى الأهالى أم لا ؟

واستمر ضغط الأوروبيين على الحكومة التى أصدرت عام ١٩١٥ قانوناً جديداً يحدد المساحة المؤجرة بما لا يزيد عن خمسة آلاف فدان بإيجار قابل للتعديل كل سنة . ويبدأ الإيجار من قيمة الشلن للفدان سنوياً حتى عام ١٩٤٥ . ثم يُعَدَّل الإيجار حتى نهاية المدة التى تصل إلى ٩٩ سنة ، ومعنى هذا القانون — صراحة — أن أراضى التاج تشمل أراضى الأهالى التى أصبح للحاكم إمكانية الاستيلاء عليها

(1) Bull. Vol. 1. p. 306.

وفق شروط معينة فى نص القانون .

ومن حق الحاكم منح الأراضى الزراعية حتى ولو كان بها قرى أو منازل للأهالى . مع عدم طردهم منها .

وإذا تركوها تصبح هى وأراضيهم ملكاً للحكومة .

وشهدت كينيا موجات عديدة من الهجرات المتتابعة أدت إلى توسع المستعمر فى توطين البيض والعدوان على الإفريقيين .

ففى سنة ١٩٠١ كان هناك — فى كينيا — ١٣ أوروبياً فقط ارتفع عددهم إلى ٣,٠٠٠ فى سنة ١٩١١ . ثم إلى ٩,٠٠٠ فى سنة ١٩٢١ ووصل عددهم سنة ١٩٤٨ ٤٢,٠٠٠ أوروبى منهم أربعة آلاف فقط يعملون بنشاط فى المستعمرة . ولا يزيد عدد المشتغلين بالزراعة من المجموع الكلى للبيض عن سبعة آلاف . وقد أثارت عملية التوطن الأوروبى مشكلات خطرة فى حياة الإفريقيين فى هذه المنطقة . وشهدت بلادهم أضطرابات متعددة .

وشهدت كينيا لجان الفحص والتحقيق المتعددة التى أوفدتها الحكومة البريطانية لتبين الحالة ، وتعرف أسباب التذمر والاستياء .

بدأت هذه اللجان الملكية سنة ١٩٢٢ وأشهرها لجنة هيلتون يوغ عام ١٩٣٠ ولجنة موريس كانز عام ١٩٣٢ .

وتقرير اللجنة الأولى كان فحصاً دقيقاً للموقف وتصويراً للنتائج السيئة التى ترتبت على انتزاع ملكية الإفريقيين ومنح أراضيهم للأوروبيين وقد أثر تقريرها فى الحكومة العمالية إذ ذاك — فى إنجلترا — فأصدرت كتاباً أبيض تقرر فيه تعهد بريطانية بعدم انتزاع الأراضى أو نقل حيازة الملكية لأى أوروبى فى المستقبل ، وكان هذا التعهد غطاء سياسياً فقط ، إذ لم تتوقف الحكومة فى كينيا عن منح الأراضى للأوروبيين فقد حدث عام ١٩٣١ اكتشاف الذهب فى منطقة كافراندو Kavirando فطردت الحكومة الأهالى ومنحت الأراضى للأوروبيين وللشركات وأمام عدم توقف الحكومة عن انتزاع الأراضى ثار الأهالى وانتشرت الاضطرابات . مما دعا الحكومة البريطانية إلى إرسال لجنة ملكية عام ١٩٣٢ أوصت فى تقريرها بتحديد مناطق التوطن الأوروبى وتحديد المناطق المحجوزة والمخصصة للقبائل .

وبموجب توصية اللجنة اتسعت مناطق التوطن الأوروبى لتمثل كل أراضى الهضبة البالغ مساحتها ١٦,٧٠٠ ميل مربع وأوصت اللجنة باضافة ٢١ ألف فدان إلى المناطق المحجوزة لسكنى الكيكويو . ولكنها لم تحدد موقع هذه الأراضى الإضافية وتركتها لتقدير الحكومة فى كينيا . وأوصت أيضاً . بدفع مبلغ ألفى جنيه تعويضاً ، لأفراد القبيلة وأصدرت القوانين الخاصة

بتملك الأراضى عام ١٩٣٨ طبقاً لتوصيات اللجنة الملكية الأخيرة . وعلى الرغم من ذلك فقد استمرت عمليات الترحيل الإجبارى للقبائل . ففى عام ١٩٣٧ طرد الكيكويو والواكامبا من أراضيهم وبيعت ماشيتهم لشركات اللحوم البريطانية ، وفى عام ١٩٣٩ طرد الثينا (قبيلة) من أراضيهم وصودرت ماشيتهم لحساب الحكومة

ويعيش بعض الإفريقيين فى هذه المرتفعات مثل الكيكويو إلا أن حوالى مليون نسمة منهم محصورون فى مساحة ضئيلة لا تتعدى ألفين من الأميال ، المربعة ، فإذا ما قورن هذا بالستة عشر ألفاً من الأميال المربعة التى يزرعها حوالى أربعة آلاف أوروبى لظهر مدى الظلم الذى وقع على كاهل أهل البلاد فى كينيا .

وللقبائل الرئيسية فى كينيا مثل الكيكويو والساى والكامبا مناطقها الخاصة ، ومعنى المناطق الخاصة أن حقوق الوطنيين فى الأرض مصانة لا يسمح للأوروبيين بامتلاك شىء منهـا ، ومساحة هذه المخصصات ٥١,٠٠٠ ميل مربع ، ولكن ليست كلها صالحة للزراعة غير أن السياسة البريطانية فى هذه الناحية يمكن وصفها بالتردد والغموض ، والسبب فى ذلك أنه كان هناك عاملان : العامل الأول : صالح البيض — والعامل الثانى : حاجتها للإفريقيين ، فمشكلة الإنجليز اليوم هى عدم ضمان عدد مناسب من الوطنيين للاشتغال بالزراعة فى أرض البيض ، وقد اتخذوا لحلها أخيراً ، مشروع نزع الأراضى الخصبة فى أقاليم المرتفعات كما سبق أن بينا ولكن هذا لم يحل مشكلة العمل ففرضت الحكومة ضرائب خاصة تعرف بضريبـة الرأس والكوخ Percy Giraund على الوطنين وكانت

ترجو من وراء ذلك أن يضطر الوطنيون إلى ترك المناطق المخصصة لهم ويبحثوا عن وظائف أو أعمال فى مزارع الأوروبيين كى يحصلوا على قيمة الضرائب ، وكلما شعر الأوروبيون بنقص فى اليد العاملة رفعت الحكومة قيمة الضرائب حتى يتحسن الحال .

ويقول Poll and Hut Tax حاكم كينيا السابق : إن الضرائب هى الطريقة الوحيدة لإرغام الوطنين على ترك أراضيهم . والبحث عن عمل . وبهذه الطريقة يمكن رفع تكاليف معيشة الوطنين وعليها تتوقف سد حاجة الأوروبيين من العمال ، ومقدار الأجر ، وقد أوصت لجنة سنة ١٩١٢ بفرض ضرائب على الوطنين من جهة وتخفيض الأراضى المخصصة لهم من جهة أخرى ، وبهذا يجبرون على الذهاب إلى ميدان العمل .

ونجد أنه فى الوقت الذى يعيش فيه ٢٩ ألف أوروبى فى مساحة قدرها ١٢ ألف ميل مربع يعيش ٥,٥ مليون

فريقى فى مساحة قدرها ٤٧ ألف ميل مربع أى أن متوسط ملكية الأوروبى هو ١٣٠٠ فدان ومتوسط ملكية الإفريقى ثمانية أفدنة ، وقد تم ترحيل القبائل من أراضيها . ومن بقى من أفرادها فى المنطقة المرتفعة أصبح يجبر على نوع من العمل يزاوله فى مزارع البيض . وعدد هؤلاء حوالى المليون فى مزارع البيض . وكانت النتيجة سيئة بالنسبة للفريقين فالمخصصات ازدحمت بالعمال العاطلين الذين لا يجدون أرضاً ، ولا طعاماً وفى الوقت نفسه أصبحت أرض البيض لا تجد من يزرعها .

سيادة المستوطنين البيض :

عاشت الطبقة العنصرية الأوروبية فوق مستوى المجتمع الإفريقى وسدت عليه منافذ النور والامتداد الاقتصادى والسياسى ولهذا لا نشهد فى كينيا من الإفريقيين من يعمل فى وظائف ومهن الكتبة والتجار والمستوردين والمصدرين والمدرسين . . .

إن المجتمع فى كينيا قد شهد آثار الاقتصاد النقدى والاقتصاد الرأسمالى والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأوروبية ، ولهذا أصبح من الطبيعى والحتمى أن تنمو فيه فئات المتعلمين والمثقفين ، والطبقات المتوسطة والمالكة ، ولكن وجود المتوطن الأوروبى منع هذا ، وحصر الاستفادة من هذه الآثار فى العنصر الأبيض فقط ، أو أنه ترك الفئات للعنصر الآسيوى كوسيط بينه وبين الإفريقيين

وارتبطت هذه الحواجز الاقتصادية المصطنعة بحواجز لونية ثقافية وأطماع سياسية لكى تؤكد أن كينيا هى بلاد الرجل الأبيض فقط . كل هذا أخمد وأوقف نمو الإفريقيين كطبقة وسطى ، وبالتالى ما يصاحب هذا النمو من حركات سياسية ، وأحزاب ، وتجمعات وهيئات على نمط فلسفة غرب أوروبا والموقف الحالى فى كينيا يتلخص فى أن الطاقة الإفريقية معطلة ، والفرص مغلقة . والسبب فى هذا هو المستوطن الأوروبى وما ارتبط به من أوضاع ونظم سياسية واقتصادية واجتماعية ويردد المتعصبون من المستوطنين فى كينيا المناداة بالانسحاب جزئياً من الكومنولث البريطانى بسبب ثورة الماو ماو . ويفكرون فى التخلص من التبعة للغرب . ثم شبت ثورة لصالح المستوطنين البيض مؤملين أن تتمخض هذه المحاولة عن إنشاء دولة تكون السيادة الكاملة فيها خالصة للبيض وحدهم . ولكن التهديد بالانسحاب من الكومنولث البريطانى لا يمكن أن ينفذ لأن كينيا تعتمد اعتماداً مطلقاً على الخزانة البريطانية .

ويتلخص موقف المستوطنين الأوروبيين فى أنهم يحاربون أى تكتل إفريقى . ويطالبون الحكومة دائماً

باتخاذ سياسة أشد وأقطع من التى تتخذها الحكومة البريطانية حالياً ، وهم ضد أى تعديل دستوى يهدد حكم الرجل الأبيض . ويحلمون بإنشاء دومنيون أبيض ينضم للكومنولث على غرار اتحاد جنوب إفريقية ، وهم يخشون تزايد عدد الآسيويين ويطالبون بإيقاف هجرتهم . ويؤمنون بأن لهم رسالة حضارية . ولذا فإنهم يعارضون أشد المعارضة فى ضمهم إلى قائمة انتخابية موحدة مع الإفريقيين . وقد أنشأوا جمعيات وأحزاباً تمثلهم : وهى جمعية المزارعين الأوروبيين عام ١٩٠٣ . ثم جمعية المستعمرين البيض عام ١٩٠٧ ، واتحاد الناخبين الأوروبيين عام ١٩٤٤ . وليس لديهم إحساس بالمسئولية ، وإنما تتحكم فيهم مصالحهم الاقتصادية الحالية فقط .

وتأثيرهم السياسى فى كينيا يتلخص فى الآتى :

١ - تكوين الحكومة ومؤسساتها وإداراتها بحيث تكون فى خدمة الرجل الأبيض .

٢ - الاستيلاء على الأراضى للمستوطن الأوروبى .

٣ - الانفاق على مناطق البيض وتقديم الخدمات الحكومية لهم أكثر من الإفريقيين .

٤ - إصدار تشريعات خاصة لهم تميزهم عن غيرهم .

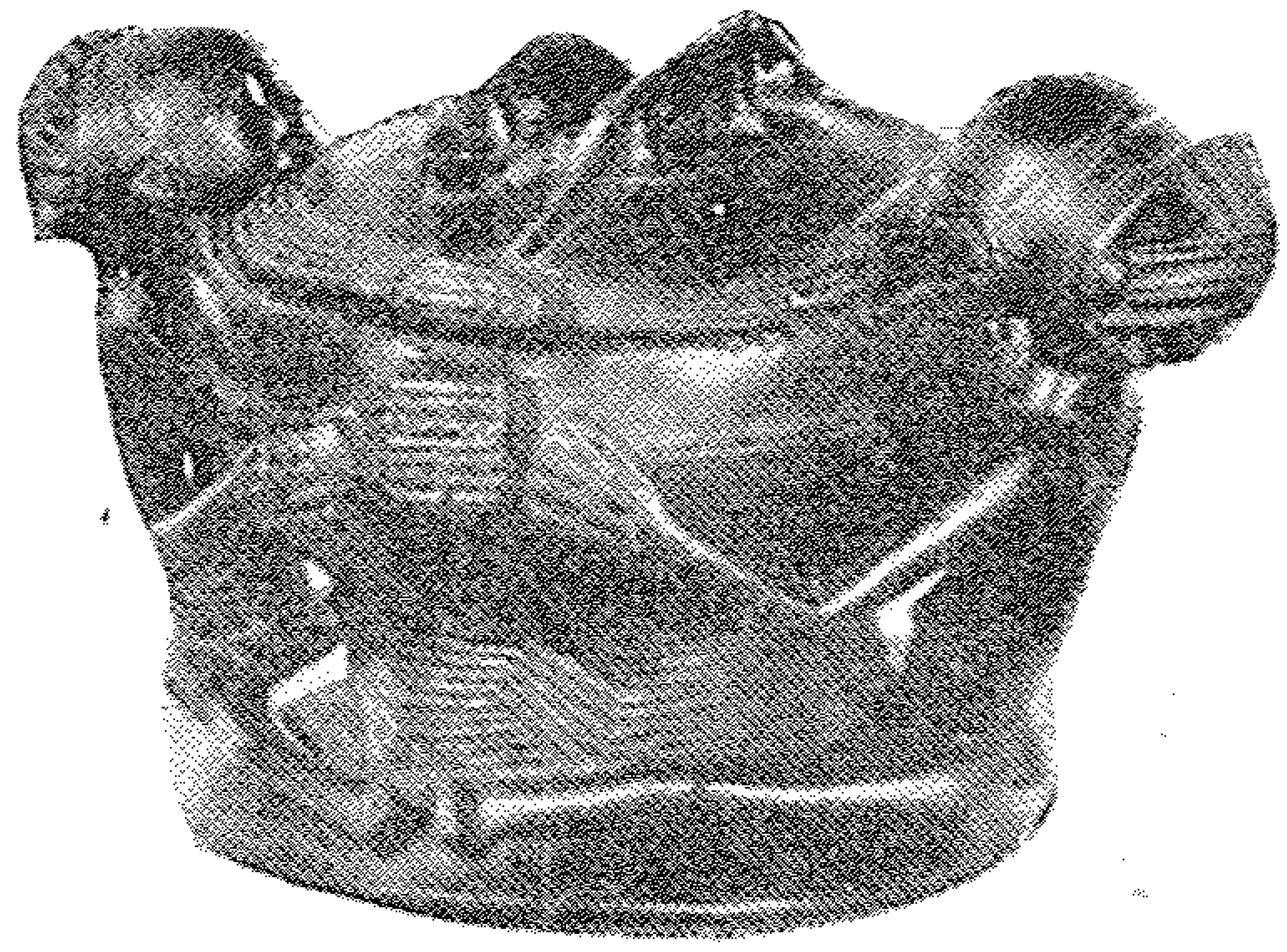

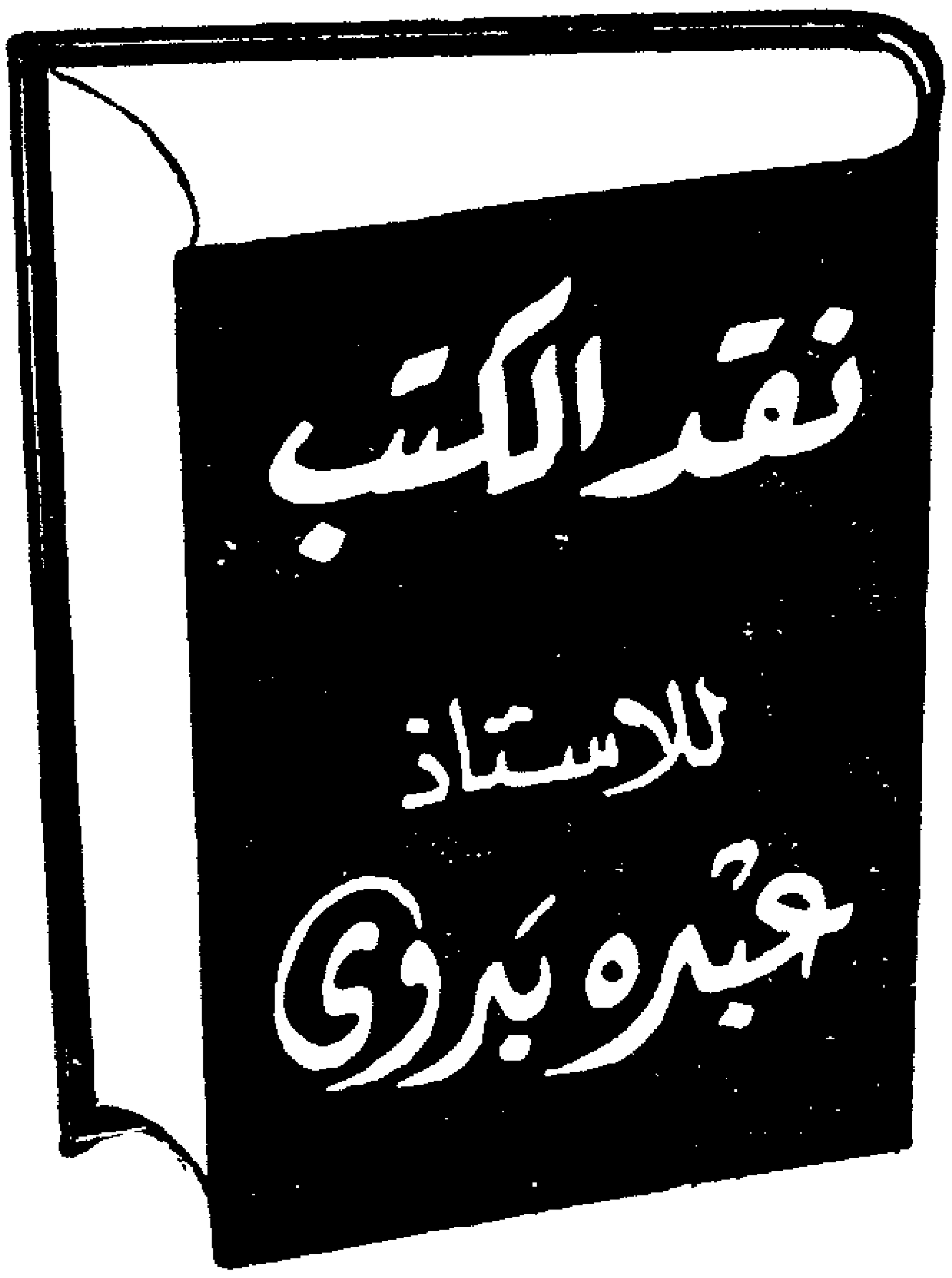

من الكتب التى ظهرت أخيراً عن إفريقية كتاب « إفريقية وراء الصحراء للأستاذ « صلاح صبرى » والكتاب موسوعة صادقة ، ولبنة موفقة فى بناء الفكر الإفريقى الذى بدأنا نحس بضوئه الغامر ، وبالفرحة بعودتنا كأشد ما نكون حماساً له . وتقديرا لقيمه . ومثله .

والمؤلف يبدأ – بحماس – مؤلفه بتأكيد الدور الحضارى القديم للقارة ، فقد أثرت فى الحضارتين الإغريقية ، والرومانية ، فقواعد الفن الإغريقى تقوم على أسس إفريقية صميمة وآلهة اليونان فى مسمياتها ، وفى تخصص كل منها تعتبر مرادفاً للعقائد الإفريقية القديمة ، وأعتقد أنه يقصد بهذا مصر فى الشمال لا أى بلد إفريقى آخر ، أما أن روما قد اعتنت أكثر العناية بإمبراطوريتها التى أقامتها فى إفريقية ، والتى تعتبر دعامة رئيسية لإمبراطوريتها – كما يقول – فهذا ما لا أعتقد أنه من مفاخر إفريقية .

وقد ذكر المؤلف أن إفريقية قد التقت مع التاريخ فى أكثر من موضع « فهى حين التقت معه فى علاقات أقامتها فى شرقها شعوبها مع شعوب أخرى غير إفريقية عبر البحر أو المحيط فبادلت علاقاتها مع العرب فى طور الجاهلية قبل ظهور الإسلام ، وبهجر العرب اليمن ، ثم هم يستقرون فى مقدشوه ثم فى ممباسة » وأعتقد أن هذا الكلام يقبل المناقشة فإفريقية القديمة لم تلتق فى الشرق فى هذه الفترة القديمة إلا بشعب واحد هو الشعب العربى . كما أن التعبير بهجر العرب اليمن لا يؤدى المعنى المقصود ، وأن استقرارهم فى مقديشيو – وهكذا تكتب – ثم ممباسة على الترتيب قد سبق بعمليات استقرار قبل ذلك تخطت فيه الحبشة إلى زنجبار . حتى السودان البعيد نفسه نرى هجرة « الحضارمة العرب » قبل الإسلام إليه . واستقرارهم عند « العتباى » وتلال « سنكات » . ثم نرى تحولهم إلى المسيحية فى هذه البلاد ، فمقديشيو ثم ممباسة لم يصبحا نقطتى ارتكاز للعروبة إلا فى وقت متأخر بعد الإسلام ، والذى أعرفه أن نقاط الارتكاز هى هكذا وفقاً للأهمية : مقديشيو ، بردة ، ملندة .

بمبا ، زنجبار ، مافيا ، كلوة ، موزمبيق ، سفالة .

ثم يذكر لنا المؤلف أن العنصرية « مباءة افتراء وضلالة » وأنها على حد قول الدكتورة « مارى جهودا » محاولة يقوم بها أشخاص غير واثقين من أنفسهم وذلك رغبة منهم فى أن يحافظوا على شخصياتهم . وأن الدراسات العلمية المستفيضة قد أثبتت أنه ليس هناك أساس علمى يقوم عليه التمييز العنصرى . فإذا كانت هناك فوارق فهى الفوارق الظاهرية التى ترجع إلى العوامل المسماة بالقابلية الكامنة للتغيير فى ميكانيكية التكوين الإنسانى ، والتى تعتبر سر قوته ، ومبعث قدراته على التوافق فى سرعة يتميز بها عن سائر المخلوقات — لمواءمة الأوساط المختلفة التى قد يوجد فيها ، ووسائل حياته المتنقلة المتباينة . ويضربون على ذلك أمثالا منها أن الهنود الأمريكيين — وهم حديثو عهد بالمعيشة وسط أمريكا — قد تغير لونهم الأحمر إلى لون قاتم ، وأن الإفريقيين الذين نقلوا إلى أمريكا قد تناقصت نسبة « الهيموجلوبين » فى دمائهم خلال ما يقرب من قرنين ، وهو الذى كان يحميهم من الإصابة «بالملاريا فى إفريقية . وأنه يتوقع تغير لون سكان أمريكا الشمالية إلى لون خمرى مشوب بالسواد .

ثم يعرض المؤلف لعمليات التطوير الداخلية فى القارة ، وأنها قد أصبحت حقيقة أكدت نفسها فى باندونج ، والقاهرة ، وطنجة ، وأكرا ، وأن كل دولة تستقل تسعى إلى الاتحاد مع دولة أخرى ، ويعلل المؤلف هذا بأن الحدود السياسية فى إفريقية خدعة . ولعل هناك سبباً آخر هو أن كل دولة تسعى إلى التكامل الاقتصادى لأن أكثر هذه الدول لا يستطيع مباشرة حياته معتمداً على نفسه .

.. ثم تعرض للقومية الإفريقية ورد على الأوروبيين الذين يقولون إن الفضل فى ذلك يرجع إلى اتصال إفريقية بأوروبا ، بأن إفريقية تلتقط الآن خيط التقدم من حيث سقط قبل الاستعمار . وذكر أن الظروف فى إفريقية قد خلقت لونين من التيارات الفكرية : أما التيار الأول الذى يعبر عن الوحدة الإفريقية فهو رد فعل على مظالم الأوروبيين فى القارة ، وهو فى الوقت نفسه يطالب بالاستقلال التام لهذه الأغلبية الإفريقية ، كما يطالب بعدم الانحياز فى المبادرة ، وتتجلى مفاهيمه فى التشكيلات السياسية الآتية :

١ — مؤتمر الدول الإفريقية المستقلة الذى يجتمع كل عامين ، ويضم رؤساء كافة الدولة المستقلة عدا اتحاد جنوب إفريقية ، وقد دعا « كوامى نكرومة » إلى هذا المؤتمر فى « أكرا »

عام ١٩٥٨ وكان الهدف من هذا الاجتماع رسم سياسة مشتركة فى الشئون الخارجية والاقتصادية والثقافية ، ودور المؤتمر لا يقف عند هذا ، وإنما يستمر عن طريق وفود هذه الدول لدى الأمم المتحدة ، التى تشكل الجناح الإفريقى فى الكتلة الافرسيوية .

٢ — منظمة الشعوب الإفريقية ، وهى حركة غير حكومية للأحزاب القومية ، وقد دعا إليها « نكرومة » كذلك فى عام ١٩٥٨ ، وهى تجتمع سنوياً ، وتتخذ سكرتيريتها الدائمة فى « أكرا » ، كما اختير لرياستها « توم مبويا » .

٣ — حركة التضامن الافرسيوى ، وهى حركة غير حكومية كذلك ، وتمثل الأحزاب القومية فى آسيا ، وإفريقية ، والشرق الأوسط . وتضم كلاً من روسيا ، والصين ، وقد دعا إليها الرئيس « جمال عبد الناصر » فى القاهرة عام ١٩٥٧ ، حيث اتخذت سكرتيريتها العامة .

٤ — الولايات المتحدة لغرب إفريقية ، وهى الفكرة التى نادى بها زيكوى الزعيم النيجيرى ، ثم تبناها نكرومة ، وتلاقى هذه الدعوة ترحيباً عاماً باستثناء حزب التجمع الديمقراطى وتهدف هذه الفكرة إلى ربط كل غرب إفريقية فى لون من الارتباط السياسى المرن ، وقد ظهر تطبيقها فى مشروع اتحاد غانة وغينيا .

٥ — جماعة الدول الإفريقيـــة المستقلـــة ، ويـــتزعمها نكرومة ، وسيكوتورى ، وهى تنادى بإنشاء عدد من المنظمات ، والجماعات الإقليمية

أما التيار الفكرى الثانى الذى يعبر عن وجهة الدخلاء فى القارة الذين يشكلون ٢٪ من السكان ، فيظهر فى الآتى :

١ — التفرقة العنصرية ، ومضمونها فصل العناصر اجتماعياً ، وسياسياً ، واقتصادياً ، وتهدف إلى إقامة مجتمعات متوازية يتطوّر داخلها كل عنصر فى طريقه الخاص .

٢ — المشاركة ، وهى فكرة تقوم على أساس قبول الاندماج السياسى والاقتصادى ، ولكن تحتفظ كل عنصر بالانفصال فى الإقامة ، والحياة الاجتماعية ، ومن غلاة الداعين إلى هذا « روى ويلينسكى » .

٣ — اللاعنصرية ، وتقوم على فكرة خلق الظروف التى يصبح الجنس فى ظلها أمراً لا يعتد به كعامل سياسى ، وشعارها ، حقوق متساوية لجميع الأفراد المتمدينين .

.. ثم حدثنا المؤلف فى الجزء الأول عن ألوان الاستعمار السائد فى إفريقية ، ومن أولها الاستعمار البريطانى الذى كان يهدف دائماً إلى إقامة ممتلكات بريطانية تمتد من الشمال حيث حوض النيل إلى رأس الرجاء الصالح ، والتوسع على جانبى هذا الخط الوهمى

ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، وتقوم هذه السياسة على استغلال الثروات ، وخلق الاتحادات التى تخدم مصالحها ، وتشريد الزعماء .

وتتجلى هذه السيطرة على قطاعات إفريقية كبيرة تظهر فى إفريقية الشرقية وهى تضم ما يأتى :

١ – أوغندة التى تقع فى أحضان مجموعة من البحيرات التى يصل ارتفاعها إلى آلاف الأقدام عن سطح البحر . ويذكر المؤلف أن هذا الاسم تحريف للإسم الأصلى الذى نطقه السواحيليون . «ولم يبق من الاسم الأصلى سوى مملكة بوجندا» . وقد كنت أحب أن يجهد المؤلف نفسه ويحقق هذا الاسم . أما قوله أنه لم يبق من الاسم الأصلى سوى مملكة بوجندا فشىء يزيد الأمر تعقيداً . ومهما يكن من شىء فالمؤلف يورد لنا قول ليفنجستون عن شلالات فيكتوريا «هذا الجمال وتلك الروعة الساحرة لا بد وأن الملائكة نفسها قد شهدته واستهواها قبل ارتفاعها إلى السماء» . فأوغندة كل الذى فيها أخضر . والإنجليز يسمونها «ايرلندة» الثانية . وقد أعطانا فكرة احتلالها بكلمات سريعة حماسية تتخلص فى أن الإنجليز وضعوا عليها كما وضعوا على غيرها علمهم بدون مقدمات . وقد كنت أحب أن يشير المؤلف إلى عملية التمهيد الكبيرة التى قام بها «غوردون» حين سحب الجنود المصريين من الحامية التى استقرت فى أوغندة ورفعت علمها ، وحين نجح فى تحويل الملك «امتيسه» عن الإسلام – بعد أن كان قد طلب من يعلمه ذلك – إلى المسيحية ، ثم عقب هذا إقامة شركة وضعت مقدرات البلاد فى يدها ، ونشرت المبشرين وأصبحت البلاد ممهـــدة للخطوات العسكرية الثقيلة .

وعلى كل فقد قسَّم البريطانيون أوغندة إلى أربع مقاطعات على كل واحدة منها ملك ، وولايتين تقعان تحت حكمهما مباشرة ، بحيث تنتهى كل السلطات إلى يد الحاكم العـــام البريطانى الذى يعاونه مجلسان تشريعى . وتنفيذى . ومن أروع ألوان المقاومة هناك تلك المقاومة التى انضم فيها الملك امتيسه مباشرة إلى الشعب مما اضطرهم إلى خلعه عام ١٩٥٣ . وقد أفادت عملية الخلع هذه فى تجمع القوى الشعبية التى اضطرت الإنجليز إلى إعادة الملك بعد ذلك . وكان أن طالب بإلغاء الحماية عام ١٩٥٩ ، ولكن الإنجليز سوَّفوا فى تحقيق هذا المطلب ، ولكن تجميع الطاقة حول الكاكا . وعدم وجود مستوطنين يعرقلون سير حرية البلاد يؤكد أنَّ البلاد تسير إلى حريتها الكاملة . رغم أن البلاد لا تميل إلى التكوينات الثورية كما فى غرب إفريقية أو جارتها كينيا ، ومع أن هذا الطريق السلمى محفوف بالخطر إلا أن الشعب

يحس متى يجب عليه أن يتحرك .

ثم يتحدث المؤلف عن كينيا : والمؤلف يتحدث عنها حديثاً شاعرياً يبعد به عن الأسلوب العلمى . وهذه سمة غالبة على الكتاب . فكينيا فى ناظره « رواب خضراء . وجبال تكسوها الثلوج . وأناس أولو عزم وبأس . إنها صورة من صور الكفاح المناضل الملتهب فالأرض الخضراء تخضبها الدماء . . أرض ساحرة تحوى شتى المناظر الرائعة التى تفننت الطبيعة وهى أعظم ساحر فى رسم معالمها . وإبداع مواطن الجمال والروعة فى أركانها . وبين الحقول الأنيقة فى مستعمرات المستوطنين . وتحت ناطحات السحاب فى نيروبى ما يلبث الباحث المدقق أن يلمس أحاسيس القلق الغامض » .

ثم يصل الحماس بالمؤلف إلى القول بمصادرة كل شيء هناك حتى « الحديث » والذى أعرفه أن الذى يعذب البريطانيين هو الكتمان ، وبخاصة حينما يمتنع الناس عن الكلام حفاظاً وحيطة على أسرارهم . ويتخاطبون بلغة الطبول . بل ويكادون يحرضون الناس تحريضاً على الكلام فى أى شيء هناك حتى يعرفون سر الأمور .

ومن أعظم المشكلات هناك وجود ٦٠,٠٠٠ من الأوروبيين يمتصون مقدرات ثمانية ملايين ، ويعيشون فى توثب دائم ، وعلى حد قول أحد الصحفيين الإنجليز « إن البحيرة التى بالقرب من مواقع قبيلة الكيكويو أشبه شيء بحالة كينيا . فهى تغطيها طبقة من الأعشاب تخفى الماء حتى لتخالها عن بعد امتداداً للأرض . فإذا خضت فيها أغرقتك فى أعماقها » . إن هؤلاء المستوطنين يضعون أيديهم على أغلب ثروة البلاد . ويريدون إبقاء الحكم فى أيديهم . بينما يرى الإفريقيون والآسيويون تحقيق ديمقراطية برلمانية تقوم على الانتخاب العام المباشر .

ثم يلقى المؤلف ضوءاً باهرا على ثورة « الماو الماو » فيذكر أن قبيلة « الكيكويو » التى تعتبر من أكبر القبائل هناك . كانت تعيش على نظام الزراعة التبادلية فبينما تستقر عاماً فى قطاع من ممتلكاتها نرى أنها تستقر عاماً فى قطاع آخر . حتى لا ترهق الأرض بالزراعة . ونظراً لقلة أفراد القبيلة فى الوقت نفسه ، وعملا بواجب الضيافة والكرم رحبوا بالأوروبيين على حد قول جوموكنياتا « عند ما جاء الأوروبيون أول الأمر . رحب أهالى الكيكويو بهؤلاء المتشردين . مدفوعين بعواطف الكرم والعطف، التى جبلوا عليها . وكان ترحيبهم مليئاً بالإشفاق والعطف ، وعلى هذا سمحواللأوروبيين أن ينصبوا خيامهم فى أراضيهم . بل أعطوهم الحق المؤقت فى زراعة جزء من هذه الأرض على نحو ما يفعلون مع

زملائهم فى القبيلة ! » . ولكن الأوروبيين لم يكونوا شرفاء ، فقد أرسلوا يطالبون بالمزيد من المهاجرين وتم فعلا تدفق الكثير منهم ، وحين قويت شوكتهم اغتصبوا هذه « الأرض الطيبة » اغتصاباً من قبيلة « الكيكويو » مما اضطر القبيلة أمام أسلحتهم ، ومساندة الحكومة إلى التشرد على السفوح المجدبة بعيداً عن أرضهم .

وقد أدى هذا إلى بلورة زعامات سياسية قوية فأقام جوموكنياتا أول منظمة سياسية قوية فى كينيا هى الاتحاد الإفريقى الذى دعا إلى نبذ المقاومة السلبية ، ووضع حدا للطغيان الأوروبى . ومن خلال هذه التكوينات ظهرت جماعة « الماو ماو » التى أزعجت إنجلترا ، وطامنت من كرامتها ، وانتهت بإلغاء القبض على «جوموكنياتا» وإيقاع مجزرة دامية فى صفوف الشعب والدخول فى مباحثات دستورية — على الطريقة الإنجليزية — لم تنته إلى شىء

ثم تكلم المؤلف عن إفريقية الوسطى ، فتعرض للاتحاد الفيدرالى فى الوسط الذى يضم أقاليم روديسيا الجنوبية والشمالية ونياسالاند ، ويهدف — كما جاء فى دستوره — إلى تحقيق الحكم الذاتى ، والنهوض بالمستوى الاقتصادى لشعوب إفريقية الوسطى ، وإيجاد الطاقات ، ورأس المال اللازم لذلك ، وإيجاد نظام مجتمع متعدد العناصر . وتظهر وجهة نظر الإفريقيين فى أنهم — كما جاء فى حديث واحد منهم — « يخشون فكرة الإدماج بين بلادهم ، وروديسيا الجنوبية ، وعند ما جاءت البعثة الملكية البريطانية لبحث العلاقات واحتمالات الاندماج بين روديسيا الشمالية ، وروديسيا الجنوبية ، ونياسالاند ، عارض الإفريقيون فى كل من روديسيا الشمالية ، ونياسالاند معارضة قوية ومنطقية ، ونشرت كثير من رسائل الاعتراض فى صحيفة مرآة البانتو . وما تزال أسباب الاعتراض قائمة ، ويمكننى أن ألقى ضوءاً على المسألة ، إذا ذكرت بعضاً من هذه الاعتراضات المنطقية الدامغة فى حجيتها ومنها :

١ — إن هناك قضية الأراضى فى جنوب روديسيا ، وهى قضية شديدة الحرج ، والتعقيد فهناك آلاف من الإفريقيين المعدمين الذين طردوا من أراضيهم الموروثة ، ويعيشون فى بلادهم الوطنية كأشباح ، وعلى أرض مملوكة للمستوطنين البيض ، وهؤلاء المعدمون سوف يهاجرون بلا شك إلى شمال روديسيا إذا ما تم الاندماج ، وبذلك يزيدون من مشكلة الأراضى .

٢ — إن سياسة جنوب إفريقية تجاه الوطنيين بصدد التفرقة العنصرية والاقتصادية والسياسية ، تتبع فى روديسيا الجنوبية على أنها السياسة الرسمية المثلى للحكومة ، وقد أوضح

رئيس وزراء روديسيا الجنوبية للجميع أن بلاده هى بلاد الرجل الأبيض . وأن الرجل الأسود سيظل دائماً خادماً للرجل الأبيض إن لم يكن عبداً له » . . ولكن الحكومة البريطانية لم تلاحظ هذه المخاوف . وسارت فى طريقها غير آبهة بمصالح السكان . كما سارت بطريقة غريبة فى ضرب حصار حول محميات « بتشوانا لاند . وسوازى لاند ، وباسوتولاند » لتتخذ منها سبيلا إلى الضغط على اتحاد جنوب إفريقية . وإبقائه داخل الكومنولث .

ثم يذكر لنا المؤلف أن القومية الإفريقية تنبثق أول ما تنبثق فى غرب إفريقية . لتركز حضارات محلية سابقة فيها . وإلى حقبة مثمرة عاشتها هذه المنطقة فى ظل الحضارة الإسلامية . وعلى حد قول شوديفو نوابا «طبيعتنا نحن الإفريقيين أن نحقق آمالنا بأسلوب يختلف عن الآخرين . بل إننا نحققها فى الغالب بأسلوب عكسى . ففى إفريقية المعاصرة تبزغ الشمس من الغرب وليس من الشرق ، فإنه فى الغرب نحاول نحن اليوم أن نصل إلى حل للمشكلة البعيدة فى التاريخ . . مشكلة اللون » فمن الغرب استطاعت القوى الإفريقية أن توجه ضربات قاصمة للاحتلالين الإنجليزى والفرنسى وأن تعتمد على نفسها فى خلق حياتها الخاصة بها كما حدث فى غانة ، وغينيا . ونيجيريا . وموريتانيا . والسنغال . وجمهورية السودان ، والفولتا . ساحل العاج . والنيجر ، وداهومى . . ولم يقف الأمر عند هذا الحد . بل تحركت كل هذه الثورات ، والانتصارات إلى جمهوريات إفريقية الاستوائية كتشاد . وإفريقية الوسطى ، وجابون . والكونغو . وكذلك الحال فى جمهوريتى بالجاش . والصومال ، ثم ينهى المؤلف هذا الفصل بحديث مفصل عن الاستعمار البلجيكى ، والبرتغالى . والإسبانى . والذى يؤدى إلى نتيجة واحدة هى تدمير إفريقية ، واستنزافها لصالح هذه الدول جميعاً مهما تعددت ألوان الاستعمار فى أشكال من المستعمرين . فإفريقية لم تعرف منهم من عطف على قضاياها ، وساندها . وأسلم ثرواتها لأبنائها ، وإذا كانت هذه « الحتمية » الاستقلالية قد طبعت هذه الدول . فإننا نجد نوعاً آخر من « الحتمية » قد طبع تصرفات كل الدول الإفريقية ، وجعلها تثور ، وتغتصب حقوقها ، رغم الجراح التى أنهكتها . والضحايا التى قللت من بنيها .

. . ثم حدثنا المؤلف عن دور الإدارة الاستعمارية فى ظل الوصايا الدولية كتوجولاند ، والكمرون ، رواندا أو راندى ، وتنجانيقا ،

والصومال . وحدثنا عن الدول الإفريقية الصاعدة كليبريا ، وغانة ، وغينيا ، والكمرون . وأن إفريقية الآن أصبح لها ثقل فى ميزان القوى العالمية ، وأنها تتغلب على مشاكلها الداخلية ، وتسير قدُماً نحو تحقيق الرفاهية للقارة . والسلام للعالم ، والثقة أعظم الثقة بالعالم العربى الذى تربطها به أعظم الروابط ، فهى تضم خمس دول من دول الجامعة العربية . وتحتفظ بالتاريخ المشرف للمد العربى داخلها ، وأن العرب قد آزروهم قديماً وحديثاً فى كفاحهم ضد الغزاة . ومهما يكن التسرب الصهيونى فإن الأيام تثبت دائماً أن العرب والافريقيين يد واحدة ، وقوة واحدة . وكلما ارتفع المد الثورى فى البلاد كلما تضاءلت عمليات التسرب الاسرائيلية فأبناء البلاد الحقيقيين يعرفون أنها واحد من وجوه الاستعمار المتعددة . وأنه لا مكان لها تحت شمس بلادهم . على حد تعبير المؤلف . إن روح التحرر التى بدأت تعم القارة . وتغمرها بفيض من التيارات الكاسحة . قد استوت على عودها وأخذت تؤتى ثمارها . وإن الدعوة إلى « أفرقة » إفريقية هى النداء الذى يرعب قوى الاستعمار الذابلة فى القارة العذراء .

وتبلورت الشخصية الإفريقية ، متميزة المعالم ، واضحة الأهداف ، تشد أزرها القومية العربية المتداخلة معها ، والقومية الآسيوية التى تتحالف مع هاتين العقيدتين ، ليكونوا جميعاً القوة الثالثة المرجحة فى ميزان القوى العالمية . ويؤكد الإفريقيون وحدة قضاياهم ، فهم وراء الشعوب المكافحة فى سبيل الحرية .

وتعلن القومية الإفريقية مولد النواة الأولى للولايات المتحدة الإفريقية وتطالب أن يوكل أمر الشعوب المتخلفة إلى الدول الإفريقية لتشرف على إدارتها . فهى أقرب إلى تلمس حاجاتها .

وتدخل الدول الإفريقية الجديدة فى المجتمع الدولى . وتعمل على إرساء دعائم قواعد جديدة فى القانون الدولى » .

وهكذا ينتهى بنا هذا الكتاب القيم — بعد هذه الرحلة الطويلة داخل القارة . إلى مفهوم جديد ، وعميق فى فهم القضايا الإفريقية . ولن تقلل نبرة الحماس . والمعالجة العاطفية لمضمون الكتاب هذا الجهد الكبير الذى بذله المؤلف . والذى نرجو لقلمه أن يظل يتحرك فى هذا المجال الذى يعتبر — بحق — من رواده .

الدراسات اللغوية فى افريقية

بقلم : ج . بيرى

ترجمة : رمزى عبده جرجس

سئلت أكثر من مرة خلال زيارة قمت بها مؤخراً إلى إفريقية الغربية عن السبب فى قلة ما يتردد من أخبار عن أبحاث اللغات الإفريقية . ولم يكن يعن لى أن أنباء هذه الأبحاث قد بلغت هذا الحد من الندرة . فما لا شك فيه أن أعمال البحث لم تنقطع قط ، وأنها ماضية على نطاق آخذ فى الاتساع ، بيد أنه لو كان حقاً ما يقال من أن جماهير الشعب لم يعد فى وسعها أن تتبع أنباء ما يجرى فى هذا الحقل العلمى على النحو الذى أتيح لها من قبل ، فإن التماس الأسباب التى أدت إلى ذلك لن يكون بالمهمة العسيرة . والسبب الأول — ونكتفى هنا بذكر سببين — هو مشكلة الشخصيات العلمية . فلقد نكبت الدراسات اللغوية فى إفريقية الغربية فى فترة العشر سنوات الماضية بخسارتين فادحتين لا سبيل إلى التعويض عنهما . تمثلتا فى وفاة عالمين جليلين ، لم تمض بين انتقال الواحد منهما والآخر غير سنة أو سنتين ، وهما «ديدريتش وشترمان» و «إيدا وارد» ، وبموتهما حرم هذا الميدان ، من ميادين العلم ، من أبرز رواده .

كانت الأستاذة العالمة إيدا وارد ، على وجه الخصوص ، من ذلك الصنف من العلماء الذين يصدر كل ما يأتون به عن وعى تام بالنتائج العملية العاجلة التى تترتب على جهودهم . وكانت هذه العالمة ذات شأن كبير فى نظر الجماهير ، ويقينى أنها قد نالت ثقتهم إلى حد بعيد .

أما السبب الآخر فإنى أرجح أن يكون ذلك التغيير الذى طرأ خلال العشر سنوات الماضية ، على النظرة إلى اللغات وإلى الدراسات اللغوية فى إفريقية الغربية بوجه عام . ويتضح هذا التغيير أكثر ما يتضح لدى الأقاليم التى ما زالت تعتبر اللغة الإنجليزية ، لغة رسمية للبلاد . وثمة دلائل تشير إلى أن الحكومات المحلية فى هذه الأقاليم ، قد باتت تولى اهتماماً كبيراً لمسألة العمل على إتقان مختلف الطبقات لهذه اللغة الواسعة الانتشار . ولهذا الموقف كل ما يدعمه من منطق ، ولكن الأمر الذى يستعصى على الفهم ،

هو أن ذلك الموقف قد أسفر فى بعض الأحيان عن إغفال مشين لحقوق اللغات المحلية ، بل لقد ذهب الأمر إلى حد النظر بنظرة الريبة والشك إلى كل اهتمام يوجه إلى هذه اللغات ، على زعم أنه يهدد بالفشل السياسة الرامية إلى نشر اللغة الإنجليزية ، وهى « السياسة السليمة القويمة » فى نظر هذه الحكومات ومن الملاحظ أن عدد المواطنين فى إفريقية الغربية الذين يدرسون لغتهم الوطنية دراسة جدية ، قد هبط فى الوقت الحاضر هبوطاً ذريعاً ، على خلاف ما حدث فى الفترة القصيرة التى أعقبت الحرب الأخيرة .

بيد أن النقطة الهامة فى نظرى الآن ، هى أن العمل فى لغات إفريقية الغربية ما زال جارياً . والقول بأن هذه الدراسات قد باتت فى دور الاحتضار بعيد عن الصواب كل البعد ، والحق أنه قد دب بها على العكس من ذلك . دبيب الجد والنشاط ، وبذلت جهود فى مجال البحث كان ينبغى أن تحظى بالتنويه فى إفريقية الغربية بالقدر الذى تستحق ، الأمر الذى لم ألمسه خلال زيارتى .

وما زالت المعاهد الرئيسية المخصصة لدراسة لغات إفريقية الغربية فى أوروبا هى « مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية » فى لندن ، و « المدرسة القومية للغات الشرقية الحية » فى باريس ، و « معهد اللغات الإفريقية » فى هامبورج . ولأكبر هذه المعاهد وهو « مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية » كرسى للأستاذية وسبع مناصب للمحاضرين يحتلها أساتذة متخصصون فى لغات إفريقية الغربية ، وقد اضطلع هذا المعهد ، دون معونة خارجية ، منذ سنة ١٩٥٠ وإتماماً لبرامجه بتمويل بعثات دراسية للعمل فى بلاد غانة ونيجريا وجامبيا وسيراليون ، بالإضافة إلى ساحل العاج وغانة البرتغالية وداهومى .

غير أن المشاركة الفعلية فى هذه الدراسات لا تقتصر بحال على هذه المراكز الثلاثة السالفة الذكر . فقد عقد فى لندن فى شهر مايو من العام الماضى « مؤتمر علمى » لمناقشة وسائل تيسير تدريس اللغات الآسيوية والإفريقية فى أمريكا ودول غرب أوروبا ، واشترك فى هذا المؤتمر مندوبون عن إحدى عشرة دولة ، واتضح من تقرير المؤتمر أن هناك اهتماماً كبيراً بالدراسات الخاصة باللغات الإفريقية ، لا من جانب الدول التى تربطها بإفريقية صلة مباشرة ، مثل فرنسا والبرتغال ، كما كان منتظراً ، بل من جانب دول أوروبيه أخرى ، ثم من جانب أمريكا بوجه خاص . وليس لدى الولايات المتحدة الأمريكية إلى هذا الحين ، أى معهد مستقل مخصص لدراسة اللغات الإفريقية وحدها ، ولكن هناك عدد من العلماء الأمريكيين ممن أسهموا بجهود طيبة ، نخص منهم بالذكر الأستاذ الراحل إدوارد سابير ، والأستاذين الحديثى العهد جوزيف جرينبرج ووليام فيلمرز . وعادة ما يتزايد عدد أساتذة هذا الفرع بازدياد الاهتمام الذى توليه

أمريكا لإفريقية والدراسات الإفريقية . ولقد شهدتُ خلال شهر مارس من هذا العام مؤتمراً عقد فى جامعة جورجتاون بوشنطن ، لمناقشة مستقبل السياسة الأمريكية تجاه تدريس اللغات الإفريقية . وحقق المؤتمر نجاحاً مشهوداً ، كما أعاد الاطمئنان إلى النفوس ، وكان باستطاعة الأستاذ جرينبرج أن يعلن عن منحة سخية تبلغ ٦٣٠٠ جنيه استرلينى قدمتها مؤسسة فورد لصالح أبحاث اللغات الإفريقية . ولعله من الجدير بالذكر أن فرنسا التى اتهمت فى الماضى بتخلفها فى الناحية اللغوية فى إفريقية الغربية ، قد بعثت إلى المؤتمر بثلاثة أساتذة كان من بينهم عالم لا يختص بغير اللغات الإفريقية .

وقد قدّم المؤتمر العلمى السالف الذكر مثلا يحتذى ، ويعد هذا المؤتمر أحدث المحاولات التى بذلت فى سبيل تحقيق التعاون الدولى فى مجالى التنفيذ والتخطيط فى هذا الفرع من فروع العلم .

ومن الخطوات التى يحتمل أن يكون لها أبلغ الأثر على الدراسات اللغوية فى إفريقية الغربية ، ذلك القرار الذى أصدرته « لجنة التعاون الفنى فى إفريقية ، جنوبى الصحراء » بالاشتراك مع « المجلس العلمى لإفريقية جنوبى الصحراء » وذلك فى عام ١٩٥٨ ، ويهدف هذا القرار إلى تأليف لجنة مشتركة من بين الدول الإفريقية تختص بالدراسات اللغوية . ومن بين المهام التى نيطت باللجنة وضع خطط لأبحاث علمية معينة تحظى باهتمام أكثر من دولة . ومن بين المشروعات التى طرحت فعلا على بساط البحث ، مشروع دراسة اللغات المولدة ، والرطانات واللغات المختلطة ، ومشروع دراسة التغييرات التى طرأت على اللغات الأوروبية من جراء استخدامها لغات ثانية أو ثالثة فى إفريقية . وللمشروعين أهمية خاصة بالنسبة لإفريقية الغربية .

وفى وسع اللجان الدولية والمؤتمرات العلمية من الطراز الذى ذكرته ، أن تؤدى رسالة جليلة فى ميدان الدراسات اللغوية فى إفريقية . وليس بنا حاجة إلى تأكيد الأهمية الكبرى التى تتعلق بهذه المؤتمرات ، وبما يمكن أن تضىء به من ثمرات . ويجب أن نضع نصب أعيننا أن الأبحاث والدراسات فى هذا المجال لم تزل بعد فى بداية الطريق . فما زلنا أمام مهام جسام ينبغى الاضطلاع بها يوما ما ، هذا على حين أن عدد اللغويين القادرين علمياً على التصدى ، ولو لجانب بسيط من هذه المهام ، لا يفى بالحاجة على الإطلاق . وعلى ذلك ، فإنه من المعهود فى هذه المرحلة أن يتطلب الأمر تدبير الأموال والأيدى العاملة اللازمة لميدان البحث برمته ، ومراعاة عدم إزدواج العمل . وكان المؤتمر العلمى محقاً ، فى اعتقادى ، إذ كرس جانباً كبيراً من وقته لمناقشة أولوية البحث بالنسبة للغات إفريقية المختلفة ، وربما كان لى أن أضيف إلى ذلك ، أن الدارسين للغات الإفريقية يحسون بضرورة الإسراع فى العمل ، الأمر الذى لا يعهد فى العادة فى غير هذا الميدان من ميادين البحث . فالزمن فى هذه الدراسات عنصر معوق . فكلما انصرم جيل من الأجيال ، تكبدت خسارة جديدة لا سبيل إلى تداركها .

لم يكن باستطاعتى فى هذه العجالة

إلا أن أشير فحسب إلى التيارات التى كانت لها فى اعتقادى أهمية خاصة والتى ظهرت مؤخراً فى مجال الدراسات الخاصة باللغات الإفريقية ، وقد يكون من الخير أن أختتم حديثى بعرض موجز للموقف كما يبدو لى .

ليس بوسع المرء أن يقطع ، إن طلب إليه أن يصدر حكماً على موقف هذه الدراسات . بأن الحال غير مرض . فالثابت أن دولاب البحث لم يتوقف قط ، خلال الفترة التى أعقبت الحرب الأخيرة . كما أن الاهتمام الجديد باللغات الإفريقية الذى بدأ يظهر – كما بينت من قبل – فى أمريكا وفى غيرها من البلاد ، يبشر بالخير ويدعو إلى التفاؤل فى غير مغالاة .

غير أن ثمة ناحية واحدة ، كنا نأمل أن يكون حالها غير هذه الحال ، فالقسط الذى يسهم به الإفريقيون فى هذه الدراسات لم يزل حقيراً هيناً . وعلى حين أنه من المحتمل أن يزداد عدد العلماء الأوروبيين والأمريكيين الذين يشتغلون جدياً بالأبحاث اللغوية الخاصة بإفريقية الغربية ، إلا أنه من خطل الرأى أن نحسب أن عدد العلماء الأجانب الذين سيجدون من أنفسهم استعداداً لأن يوقفوا حياتهم العلمية على دراسة اللغات الإفريقية دون غيرها ، سيبلغ يوما ما ، الحد المنشود ولو كانت هناك نية حقاً . للقيام بكل ما ينبغى القيام به فى هذا الميدان ، فإن على الإفريقيين أنفسهم أن يشمروا عن سواعدهم ويحزموا أمرهم على الأخذ بنصيب فعلى فى كل من ميدانى التدريس والبحث . والحقيقة أن ثمة جانب كبير من العمل لا يمكن لغير الإفريقيين أن يؤدوه بالصورة المنشودة وإذا لم يقم هؤلاء بعبئه فليس هناك من سبيل غير إغفاله كلية . ولقد أصبح لدى غانة ونيجيريا وسيراليون كليات جامعية أنشئت منذ وقت قريب . ولعل مما يدعو إلى السخرية ، فى نظرى دون شك وفى نظر الكثيرين أيضاً ، أن المراكز الرئيسية لدراسة اللغات الإفريقية ما زالت بأوروبا ، وأنها ستظل كذلك فيما يحتمل فترة أخرى من الزمن ، غير أن قرار غانة الذى صدر أخيراً والذى يقضى بإنشاء معهد للدراسات الإفريقية إنما يمثل خطوة موفقة جديرة بكل ترحيب .

زيارة الرئيس للسودان

ألقى كل من خطابى الرئيسين ضوءاً غامراً على العواطف الصادقة التى تلف الجمهورية العربية المتحدة والسودان . ففيها تاريخ البلدين . وحاضرهما المجيد . ومستقبلهما الزاهر وهــذا خطــاب الرئيس « جمال عبد الناصر » .

« سيادة الرئيس . . لقد كان قدومى إلى الخرطوم متتبعاً مجرى النيل الخالد من القاهرة إلى الخرطوم تجربة عميقة الأثر على فكرى ومشاعرى .

ذلك أن الرحلة على مجرى النيل أو على ضفافه : من شماله إلى جنوبه أو من الجنوب إلى الشمال قصة عظيمة عريقة ضاربة فى أعماق التاريخ إلى بعيد ممتدة من فجر الحضارة إلى يومنا هذا بغير توقف أو انقطاع .

وبرغم كل الظروف — وما كان أشقها فى بعض الأحيان — وبرغم كل العوائق — وما كان أصعبها فى بعض الأيام . فإن طريق النيل بقى مفتوحاً على الدوام يتدفق بالخير والمحبة والأمل فى المستقبل العزيز .

لقد هانت المشاق . ولانت العوائق ، وبقيت الشمس المشرقة على وادى النيل تمده بحوافز الحياة وتدفع الطاقات الخلاقة لشعوبنا التى تسعى على ضفافه تحاول أن تكتب صفحات جديدة فى تاريخه المجيد .

سيادة الرئيس :

ليست هذه أول مرة أجىء فيها إلى عاصمة السودان العظيم . فلقــد تشرفت بالخدمة هنا . جندياً للوطنية المصرية السودانية التى وحدت صفوفها لمجابهة الاستعمار وإجلائه عن وادى النيل . تحقيقاً لاستقلال بلدينا ، وتمكيناً للحرية فى كل منهما ولكى لا يكون على أرض أى منهما غير علم الوطن واستقلاله وحريته .

وإنه ليسعدنى اليوم أن أجىء لأول مرة إلى عاصمة السودان الحر المستقل الذى انطلق بقيادتكم الحكيمة وتوجيهكم الرشيد ليؤدى دوره الكبير . ولقد كان شعبكم الذى التقيت به فى كل أرجاء العاصمة المثلثة منذ وصلت إليها — يا سيادة الرئيس — هو نفس الشعب الحر الأبى الذى عرفت جنوده البواسل محاربين معى فى نفس الصف من ميدان القتال فى فلسطين . وكان كرمه الفائق فى استقبالنا هو نفس الكرم الرائع الذى هو من خصائصه الأصيلة وسماته البارزة .

سيادة الرئيس :

ما أظنني في حاجة إلى أن أعدد روابط الطبيعة . وروابط التاريخ بيننا لهذا فإني أستأذنك في التطلع إلى أمام . وفي نظرة إلى المستقبل نحاول فيها أن تتمثل آمالنا الكبرى لوادينا العظيم .

إن شعبنا — شعب الجمهورية العربية المتحدة — بإقليميها المصرى والسورى . يؤمن إيماناً غير محدود بأن الشعوب الحرة اليوم هي سيدة مسيرها وصانعة أقدارها . وأنها وحدها القادرة على أن تصوغ — من تجاربها وأحلامها سياسات مستقبلها وخطوات عملها . . .

ومن هذا الإيمان — يا سيادة الرئيس — يمارس شعبنا اليوم ثورة سياسية حفزته وتحفزه دائماً إلى مقاومة الاستعمار بكل صورة من صوره باعتباره خطراً داهماً يهدد حياة الشعوب . فضلا عن حريتها وكرامتها ومن عمق هذا الإيمان يشعر شعبنا بأن قضية الحرية لا تتجزأ، ومن ثم فإن معاركها الكبرى سواء على أرضه أو على أرض غيره من الشعوب هي في صميم الأمر معارك كل الشعوب . بهذا القدر شعرنا أن عدوان السويس لم يكن علينا وحدنا كما أن العدوان في الكونجو لا يهدد شعب الكونجو وحده . وإذا كنا نؤمن أيضاً أن نجاح قضية الحرية لا تتجزأ فإننا نؤمن أيضاً أن نجاح قضية الحرية هو المقدمة المنطقية لنجاح قضية السلام ومن هذا المعنى — يا سيادة الرئيس — أخذ شعبنا شعاراته التي رفعها فوق كفاحه الدولى وأبرزها تعزيز الحياد الإيجابى ، والتعايش السلمى . والتضامن الآسيوى الإفريقى . ومقاومة السيطرة الأجنبية والتميز العنصرى ، والتجارب النووية

ومن هذا الإيمان — يا سيادة الرئيس — يمارس شعبنا اليوم ثورة اجتماعية حفزته وتحفزه دائماً إلى وضع كرامة المواطن في الموضع الأسمى ، ذلك أن حرية الوطن هي تجميع لحرية المواطنين ولا يمكن أن تكون حرية المواطن في بلده إلا بقيام تكافؤ اجتماعى يمنح الفرصة المتساوية للجميع ويمد خير الأرض إلى جميع الأحياء عليها ، ومن عمق هذا الإيمان أقدم شعبنا على خطواته الكبرى في سبيل العدل الاجتماعى . ثم اندفع إلى خطة التنمية التي تستهدف مضاعفة الدخل القومى في الجمهورية العربية المتحدة إلى الضعف فيما لا يزيد على عشر سنوات ولم تكن الخطة في حقيقة أمرها غير دعامة للعدل الاجتماعى . ليكون هذا العدل أساس مجتمعنا الجديد .

ومن هذا الإيمان — يا سيادة الرئيس — يمارس شعبنا اليوم ثورة عربية ، حفزته وتحفزه دائماً إلى رفع صوته إيماناً بالقومية العربية ودعوة لها .

ولدعوة القومية العربية في مفهوم شعبنا أساسان ، هما الاستقلال السياسى

والحرية الاجتماعية . وبدون العزم الأكيد على صيانة الاستقلال الوطنى لكل بلد عربى وبدون العمل الواعى من أجل الحرية الاجتماعية لكل مواطن عربى ، تفقد دعوة القومية العربية معانيها لأنها تفقد حوافز الحياة .

هكذا فإن شعبنا فى نضاله العنيد من أجل استرجاع حقوق شعب فلسطين إنما يناضل من أجل قطعة من وطنه . وكذلك يستقر فى ضمائر شعبنا نفس المفهوم فى النضال العنيد من أجل حق شعب الجزائر فى وطنه الحر .

سيادة الرئيس

فى هـذه اللمحة السريعة إلى الأهداف الثورية لشعب الجمهورية العربية المتحدة حاولت أن أتطلع إلى مستقبل العلاقات بين شعبينا .

وإذا كانت أهدافنا الثورية هى التعبير عن آمالنا فإننا نرى أن مجال اللقاء بيننا فى المستقبل فى ميادين العمل الإيجابى فسيحة واسعة . مليئة بالاحتمالات الخلاقة والبناءة .

وإننا لنؤمن أن شعب السودان الشقيق يتطلع معنا إلى آفاق المستقبل من هنا فإننى أومن — ويؤمن شعب الجمهورية العربية المتحدة — معى أننا سنلتقى بشعب السودان العظيم كما التقينا دائماً فى معركة الكفاح من أجل أوطان ترفرف عليها أعلام الحرية . وعالم ترفرف عليه أعلام السلام .

ومن هنا أيضاً — فإنى أومن — ويؤمن شعب الجمهورية العربية المتحدة — أننا سنلتقى بشعب السودان فى معركة التطوير الاجتماعى الذى نمهد له ونحققه تطوير الزراعة والصناعة والخدمات ، ونؤمن أنه سوف يكون لدى كل منا ما يقدمه للآخر فى مجالات تبادل التجربة والعلم والتجارة . وإنا نرقب بإعجاب واهتمام خطى السودان الواثقة فى مجالات التقدم والإنشاء .

ومن هنا أخيراً — فإنى أومن ويؤمن شعب الجمهورية العربية المتحدة معى — أننا سنلتقى بشعب السودان العظيم فى معركة القومية العربية دفاعاً عن شرف كل وطن عربى واستقلاله . دفاعاً عن كرامة كل مواطن عربى وعزته .

سيادة الرئيس :

لقد أسعدنا أن تحضر معنـا احتفالات عيد الثورة فى القاهرة فى ٢٣ يوليو ويسعدنا أن نحضر معكم احتفالات ثورتكم فى ١٧ نوفمبر هنا فى الخرطوم . ومن دواعى الشرف أن نحمل إليكم اليوم من شعب الجمهورية العربية المتحدة على ضفاف الفرات والعاصى وبردى والنيل أمانى عريضة وتأييداً واسع المدى يقف وراء شعبكم محبة ووفاء وتجرداً لكى يتحقق النصر

لهذا الشعب العظيم الذى تتقدمون صفوفه وتقدرون زحفه إلى مستقبله . وفقكم الله يا سيادة الرئيس وشعب السودان العظيم .

والسلام عليكم ورحمة الله .

خطاب الرئيس عبود

السيد الرئيس : جمال عبد الناصر

يطيب لى أن أرحب بكم باسم جمهورية السودان أخاً، وعزيزاً علينا وبشعبكم شقيقاً وجاراً أثيراً لدينا. وأن أؤكد لكم نيابة عن الشعب السودانى أنكم تنزلون فى رحابه أهلا وتحلون أينما سرتم سهلا، ولعلك أيها الأخ الكريم قد لمست فى اللحظات القليلة التى قضيتها بين ظهرانينا بعض مظاهر الأخاء الأكيد والود المتين ، ولكن هذه صورة مصغرة وإن كانت معبرة عن المشاعر التى يكنها الشعب السودانى لسيادتكم وشعبكم العظيم، والتى سوف تشاهدون بعض نماذجها فى المناطق التى يسمح وقتكم بارتيادها فى هذه الربوع ، ذلك لأن وشائج الأخاء والمودة بين شعبى هذا الوادى أصيلة خلقها الله وغذاها النيل ونمتها اللغة وأثبتها تاريخنا منذ الأزل ، فالثقة متبادلة ، والكفاح مشترك، والتعاون قائم لمصلحة الطرفين ولن ينسى الشعب السودانى تلك اليد الكريمة التى أسدتها له الثورة المظفرة بقيادتكم الحكيمة فى سبيل استقلاله وحريته وما تسهمون به فى ميدان الثقافة والتعليم . وبالأمس القريب وافتنا البرقيات بقرار مجلس الأمة التاريخى بمساواة السودانيين المستخدمين بالجمهورية العربية المتحدة بأبناء تلك الجمهورية إلى نهاية خدمتهم .

السيد الرئيس : جمال عبد الناصر

إنه لمن يمن الطالع إن كانت أول زيارة لنا للجمهورية العربية المتحدة الشقيقة مرتبطة بعيد ثورتكم المظفرة فشاركناكم فرحتكم . وتمكنا من الوقوف على مقدار التقدم العظيم الذى أحرزه شعبكم العظيم فى جميع الميادين، كما أنه من حسن التوفيق أن تجىء أول زيارة لرئيس الجمهورية العربية المتحدة إلى جمهورية السودان مع عيد الثورة السودانية ، فتشاركون الشعب السودانى فى عيده الوطنى لنزداد سروراً وتتضاعف فرحته مما يدل على اتفاقنا فى الأحاسيس وتجاوبنا فى المشاعر . . إن العلاقات بين شعبينا بلغت درجة عظيمة من التفاهم والأخاء والمودة بقدر ما توافر لها من عناصر الوفاق حتى توحدت نظرتنا وتجاوب تفكيرنا فى الحكم على اتجاهات السياسة العالمية فنحن مثلكم نتمسك بالحياد وعدم الانحياز ، ونعمل لإقرار السلام العالمى تلك المبادئ التى هتفتم وشعبكم بها ورسختم أسسها وعملتم ولا تزالون من

أجلها سواء فى المحيط العربى أو فى المجال العالمى .

السيد الرئيس : جمال عبد الناصر

إن متانة العلاقات بين شعبينا وواجبهما نحو قضية السلام ليفرض عليهما، بحكم وضعهما الخاص، مسئولية كبرى إزاء المسائل الإفريقية، إذ لا يزال جزء كبير من قارتنا يرزح تحت نير الاستعمار، كما لا تزال بعض جذوره حية لم تستأصل بعد، كما أننى ألمح مع بالغ الاهتمام محاولة التسلل لعودة الاستعمار إليها، إما مباشرة كما هو الحال فى الكونغو أو غير مباشرة. ولا بد أننا فى غضون زيارتكم هذه سنتوافر على تبادل الرأى واتخاذ الخطوات إجادة للقضاء على الاستعمار فى جميع صوره وأشكاله .

ختاماً أتمنى لسيادتكم ولصحبكم طيب الإقامة بين أهلهم وذويهم .

.. وهكذا نرى صورة صادقة، وعميقة بين القطريق الشقيقين، كما نرى أن إفريقية لم تعد تتردد فيها غير تلك الأصوات الإفريقية الصادقة، فمنذ فترة وجيزة لم يكن يتردد فى أجواء القارة غير تلك الأصوات الإنجليزية، والبلجيكية، والبرتغالية، والإسبانية .

أما الآن فيتردد فيها أكثر من صوت صادق فى أكثر من مكان، ويتقابل فيها أكثر من زعيم على حب، ومودة، وفهم، ولن يتقرر مصير القارة إلا من خلال هذه الأصوات الصادقة، والزعامات المخلصة .

وقد كانت بوادر هذه الانتصارات المحققة فى تاريخ القارة رؤية الرئيس « عبود » فى القاهرة، ورؤية الرئيس « جمال » فى الخرطوم .

جولة مصورة حول

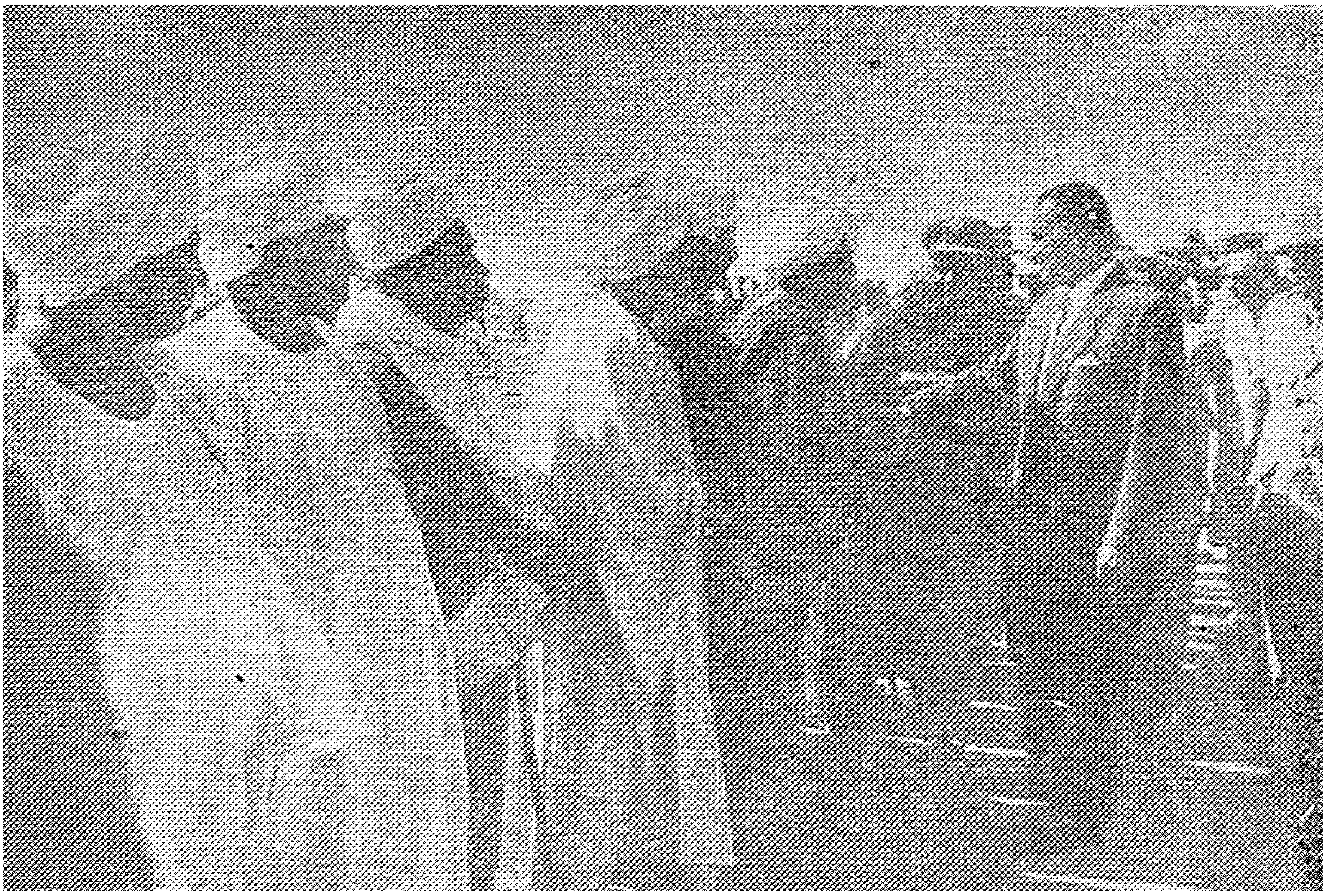

« الرئيس فى السودان »

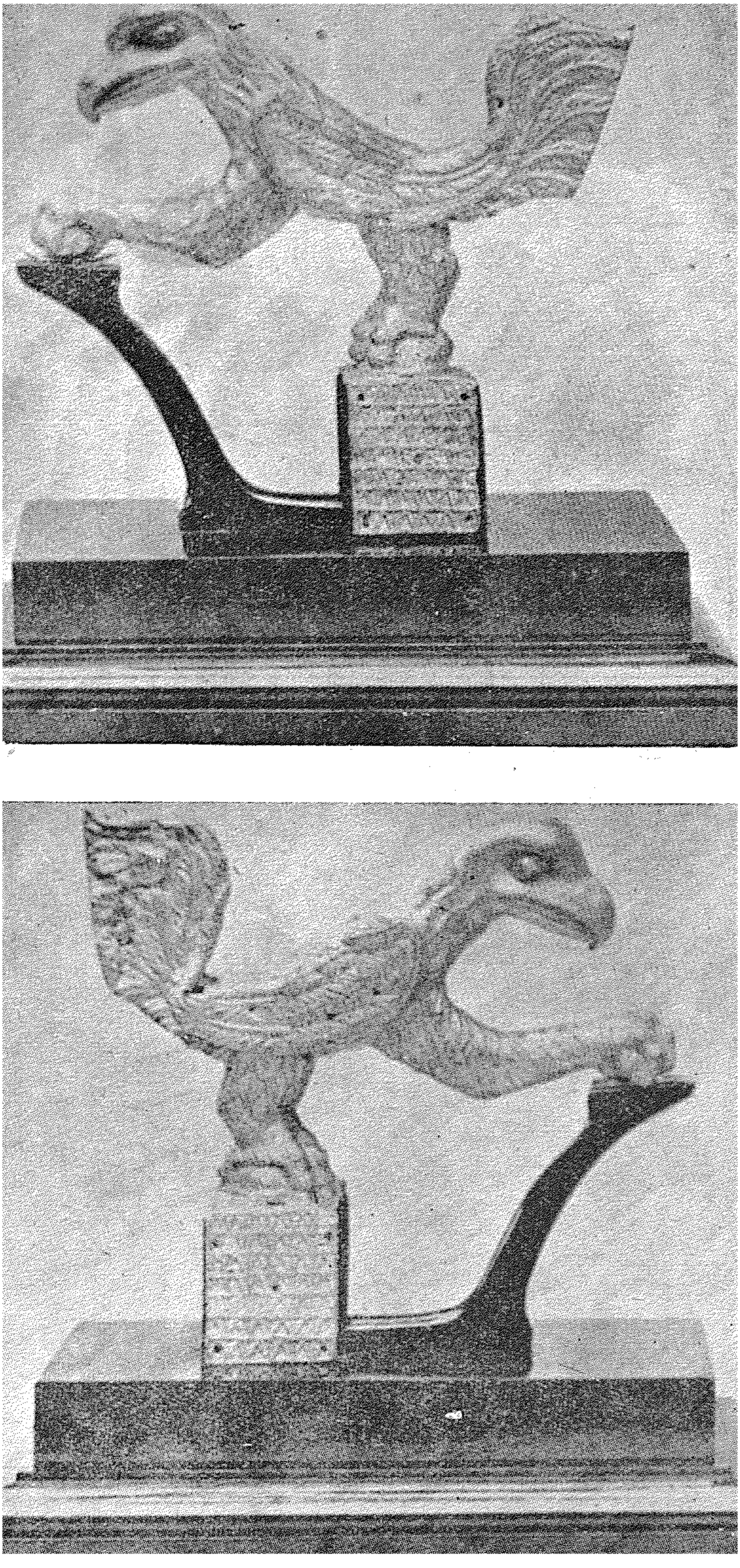

« من الفن الافريقي »

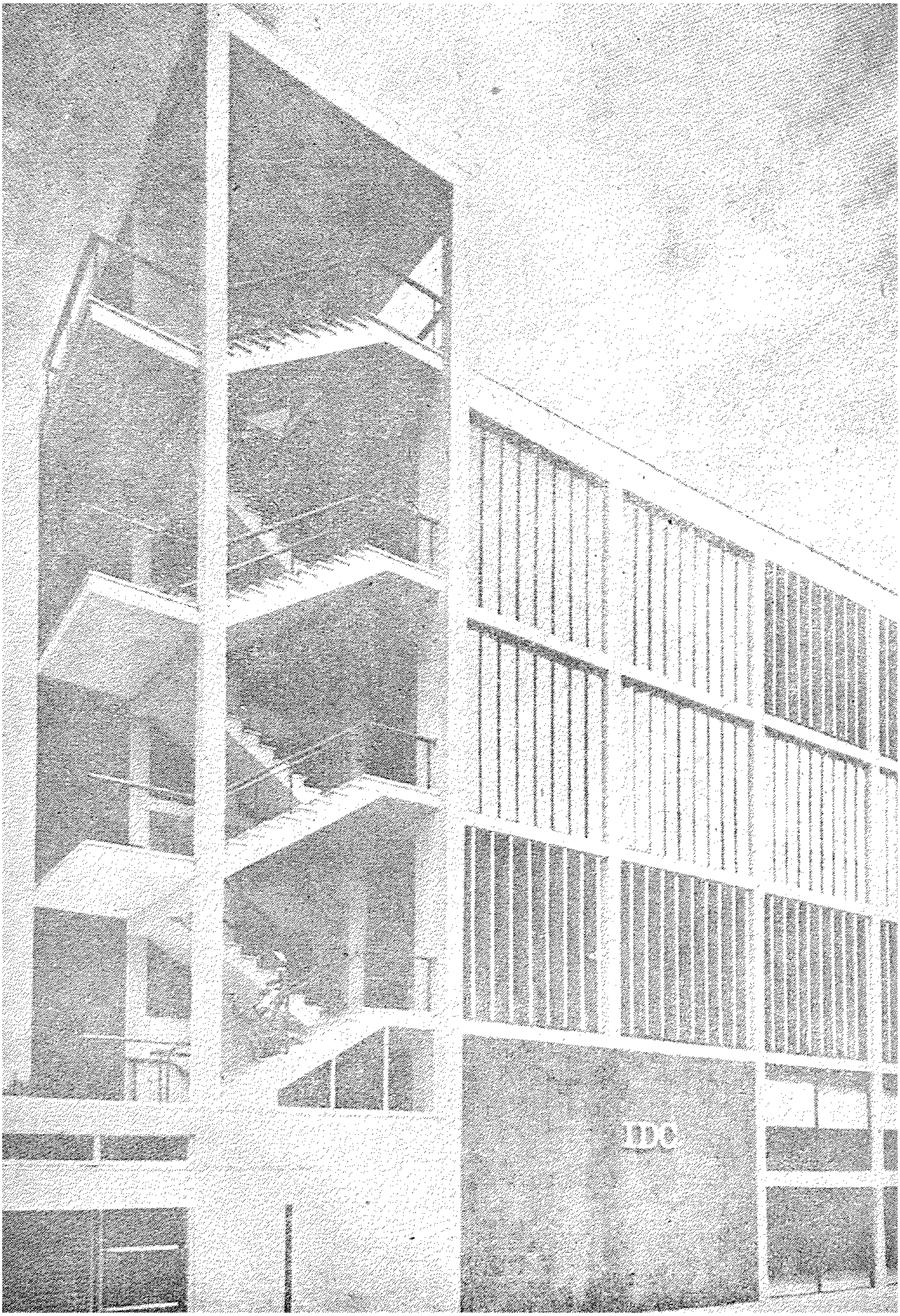

« من فنون العمارة فى إفريقية »

« الطرق الحديدية الحديثة فى إفريقية »

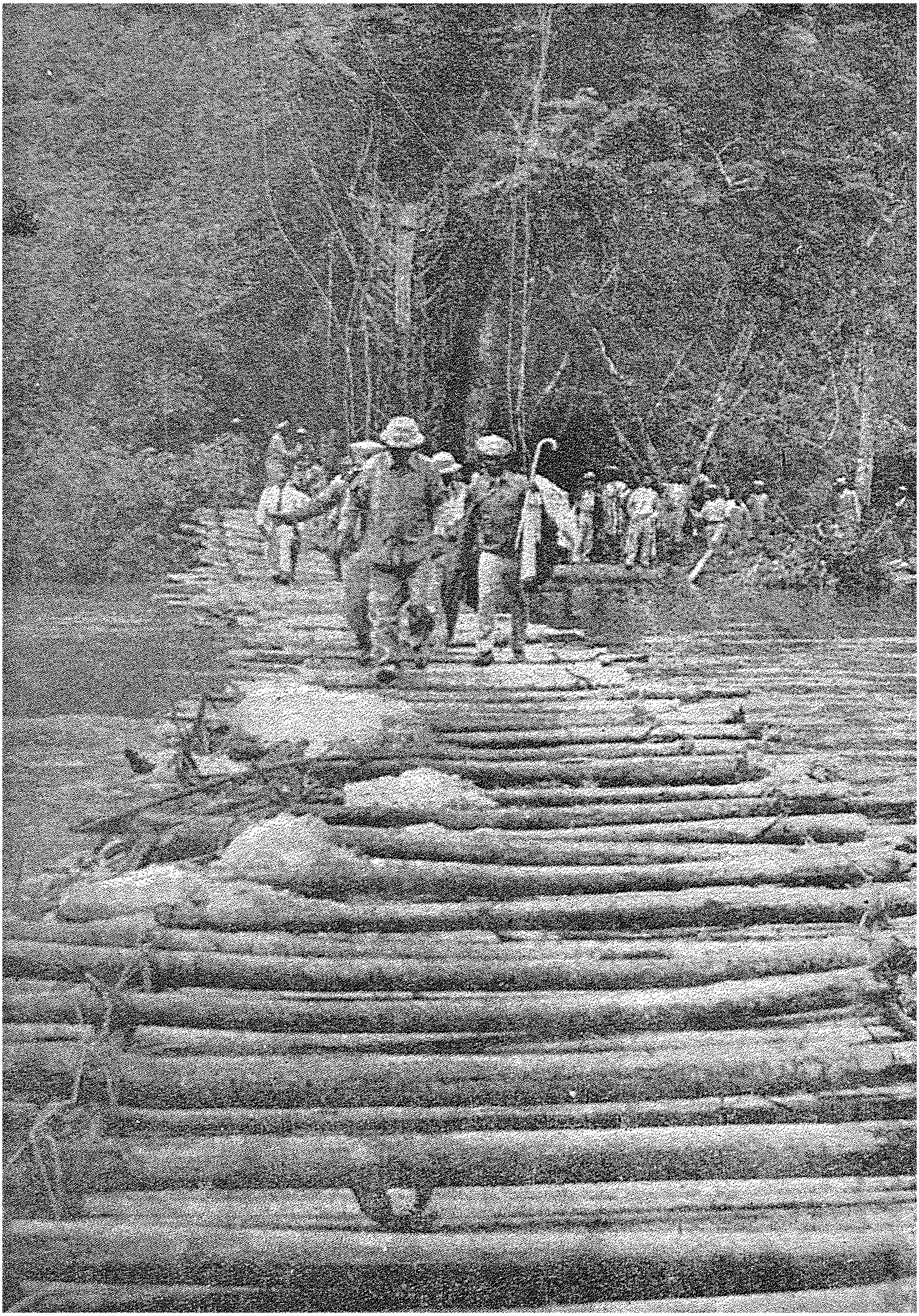

« الطرق الحلية فى قلب الغابات »

« العودة من النهر »

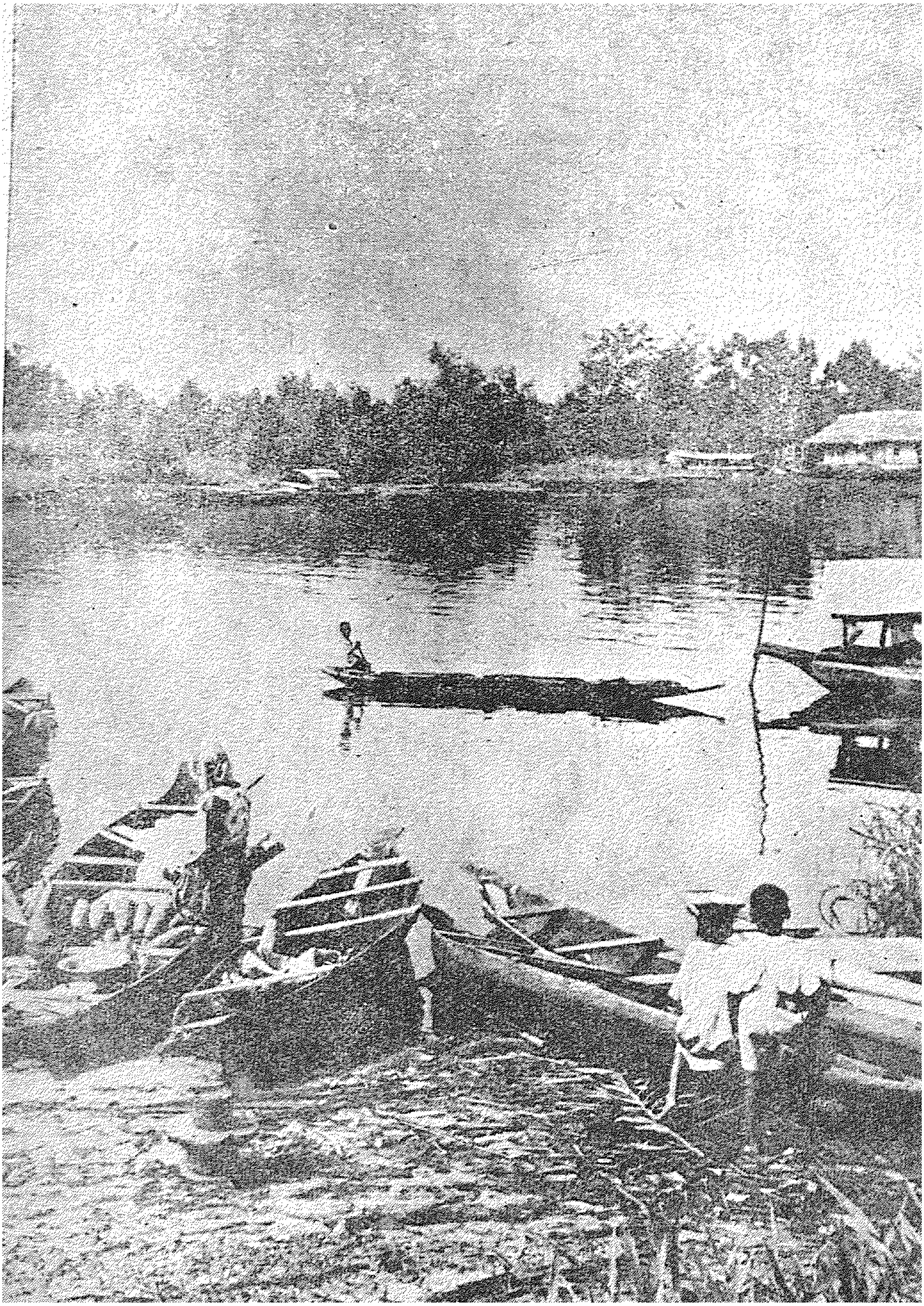

« من الأنهار فى إفريقية »

« إفريقي صغير بين الزهور »

مصر والسودان

ليس هناك ما هو أصدق من حديث التاريخ ، فإذا أدرنا فكرنا إلى أبعد نقطة فيه وجدنا عملية امتزاج رائع بين القطرين ، وعملية انعطاف ضاربة الجذور فى أعماق الحياة هنا ، وهناك

فنحن إذا تتبعنا التاريخ وجدنا مقدار هذا الانعطاف والترابط بين القطرين . منذ العصور الحجرية . ثم كان الارتباط العميق فى عصر المملكة الوسطى المصرية (٢٠٠٠ — ١٧٠٠ قبل الميلاد) حين قدمت الحضارة المصرية إلى السودان . وأصبح يحكم كإقليم مصرى من « كرمة » ولا تزال هناك آثار موجودة إلى الآن من هذا العصر ، كما أنه ذهب فى هذا العصر إلى دنقلة الملك « سنوسرت الثالث » وأمر بعدة إصلاحات عمرانية .

ثم كان عصر المملكة الحديثة المصرية الذى ظهر فيه التأثير الحضارى المصرى واضحاً فى السودان ، وأصبح فيه كل السودانيين يدينون بالديانة المصرية القديمة . ويتكلم أكثرهم كذلك باللغة المصرية .

واستمر هذا التأثير فى « العصر النبتى » (٧٥٠ — ٣٠٠ ق م) ، والعصر المروى (٣٠٠ — ٣٥٠ ق م) فلما أظل مصر العهد المسيحى . وجدنا أن المسيحية تأخذ طريقها من الشمال إلى الجنوب . وتتكون باسمها ممالك ثلاثة هى :

١ — مملكة النوبة .

٢ — مملكة المقرة .

٣ — مملكة علوة .

وفى عهدها تحولت اللغة النوبية من لغة حديث فقط إلى لغة تكتب بالحروف الإغريقية . ويترجم إليها الكثير من الإنجيل .

ثم كانت عمليات الدفع الإسلامى التى استمرت تطرق البلاد من الشرق . والغرب . والشمال . ولقد كان أخصبها . وأغزرها . وأحفلها بالخطوات العربية الطريق الشمالى الذى يبدأ من مصر ويظل يسير إلى السودان مما ترتب عليه ظهور ممالك إسلامية ثلاث فى السودان هى :

١ — مملكة الفونج .

٢ — مملكة الفور .

٣ — مملكة نقلى .

وقد ازدهرت هذه الممالك فى البلاد ، وعرفت مصر ، حتى إذا ما تساقطت تلقتها يد مصر القوية فى

من مظاهر الترحيب بالرئيس فى السودان

هذه الفترة فى عهد الحكم التركى . الذى أعاد إلى البلاد وحدتها . وحماها من عمليات التوثب الغربى التى كانت تنتظر نضج الثمرة ، ومهما تكن المظالم التى ارتكبها هذا العهد إلا أنها تتضاءل بجوار عملية التوحد السودانى التى تمت لأول مرة فى السودان على يديه . وبجوار وقوفه أمام الإنجليز الذين كانت عيونهم تدور حوله . وصداهم يعلو . ويعلو فى الشرق بالحبشة .

ثم تعدوا على التاريخ فترة من الزمن فنجد الثورة العرابية فى الشمال تقابلها ثورة « محمد أحمد المهدى » فى الجنوب . وثورة ١٩١٩ فى مصر تتولد عنها ثورة ١٩٢٤ . ثم تكون ثورة مصر الكبرى فى ٢٣ من يوليو عام ١٩٥٢ . وثورة السودان العظم فى ١٧من نوفمبر . ويرجف المرجفون أن أمام الثورتين مشكلات لا يمكن أن تحل بين البلدين . وأنه لا بد لهما من الاصطدام . ولا مكان لهدوئهما تحت الشمس . ولكن الحوادث تخيب هذه النظرة الحاقدة . فيصفو الجو . وتتعانق الثورتان . ونرى عبود فى القاهرة ، وجمال عبد الناصر فى الخرطوم .

والتاريخ الحديث لهذين القطرين يؤكد أن بلدين لم يصب عليهما من كيد الإنجليز ، وحقدهم ، وخداعهم ، مثلما صب على مصر والسودان فقد دمروا فيهما الطاقات ، واستنزفوا الثروات . وضربوا الأول بالثانى ، والثانى بالأول . واستحدثوا بدعة « الحكم الثنائى » التى استغل فيها اسم مصر . وتحت ستارها استأثروا بالبلاد وعملوا على الفصل بين شمالها وجنوبها . وبعثوا بأبنائها إلى الحروب . وبخيراتها إلى بلادهم . وجعلوا منها « مكملا » اقتصادياً لاحتياجاتهم فى ميادين الحياة ثم ناصروا فئة على فئة . وحزباً على حزب . ومدينة على مدينة . وأصبح السودان داخل ملايين الحدود التى تفصل بين الشعب . ثم داخل سلسلة الحدود الفولاذية الكبيرة بالأقطار المحتلة من حوله . ولكن الشعب لم يأبه بهذا كله . فقد أخذ يضم إليه أجزاءه الدامية . فنراه ينجح فى إحباط محاولة الفصل بين الشمال والجنوب ، وفى تجميع الطاقات السياسية . وتحويلها الوجهة الصحيحة . فبعد أن كانت موجهة إلى الشعب نفسه حولت بعنف . وبإصرار نحو الإنجليز . وإذا بمجالسهم التشريعية . وتشكيلاتهم السياسية تنهار وينكشف خداعها أمام الشعب ، وينسلك الجميع فى صف واحد موحد يطالب بكلمة واحدة هى الاستقلال .

ويتم هذا الاستقلال . وتأتى على قمته الثورة . فإذا بالبلاد تسير بخطى موفقة من نصر إلى نصر . فإلى جانب المكاسب الخارجية . وجدت المكاسب الداخلية التى أخذ يتطور السودان من

داخلها ، فيحقق المشاريع ، وينمى الثروات ، ويقيم الصناعات ، ثم أخيراً تتأكد الصلات بين السودان وجيرانه ، وبخاصة الجمهورية العربية المتحدة .

وفى ضوء هذا الود المتبادل كانت هذه الزيارة الموفقة للرئيس « جمال عبد الناصر » للسودان التى لا يقف أثرها عند تأكيد الروابط بين القطرين الشقيقين . وإنما يتعداه إلى زلزلة النفوذ الاستعمارى داخل إفريقية . فستترك هذه الزيارة أثرها بلا شك فى داخل القارة ، وبخاصة البلدان المجاورة له كأوغندة ، والكونغو .

ونحن ندعو إلى مزيد من هذه الزيارات الموفقة داخل القارة الإفريقية فخطوات الرئيس داخلها هى فى واقع الأمر خطوات حرية أكيدة على طريق هذه البلاد التى لم تتحرر بعد . وخطوات صداقة مثمرة على طريق البلاد التى استقلت . وفى كلا الحالين هى مكسب للقارة .

لكل القارة .

شخصية العدد

محمد محمد على

يعتبر الشعر فى السودان من أنضج الأشكال الأدبية هناك ، وما زال الشعراء هناك هم النجوم الساطعة فى سماء الأدب ، والذين يلتفت إليهم الناس كلما احتاجوا إلى إثراء عواطفهم والإحساس بأنفسهم ، وبخاصة أننا نرى هذا الشعر يرتبط بالأرض وبالحياة هناك أشد الارتباط ،فالشاعر السودانى الذى تعمق الحياة هناك ، وساعدته ظروفه على الارتباط بالطبيعة والحياة السودانية هو الشاعر الذى يمكن أن نقيس منه أعماق النفسية السودانية .

ومن هؤلاء الشعراء الذين عاشوا السودان سماء وأرضاً ، وأحداثاً الشاعر « محمد محمد على » ، فرغم أنه أقام فى مصر مدة تعليمه العالى ، ورغم أنه زار بعض البلاد العربية الأخرى إلا أنه من هؤلاء الشعراء الذين يمكن أن نحكم على شعرهم بأنه « سودانى » ، فأحداثه ، وأجواؤه ، وحرارته ، وأساليب تعبيره كلها سودانية ، وهذا بلا شك سمة من سمات الصدق الفنى ، لأن العالمية فى الفن — وإن لم يكن هذا مجال الحديث عنها — ترتكز تماماً على أسس محلية . فالمجتمعات الإنجليزية والألمانية ، والفرنسية ، والروسية ، والنرويجية من وراء أعمال شيكسبير ، وبرنارد شو ، وجيته ، وزولا ، وسارتر ، وتولستوى ، وتشيكوف ، وإبسن ، ولعل هذا هو الفرق بين عالمية العلم ، وعالمية الفن .

ومهما يكن من شىء ، فالشاعر يمكن دائماً أن يعطينا بلاده بطبيعتها وظروف الحياة بها حين يقول :

وجُبت البوادى بين الرفاق
وحيـــد المشاعر والفــكرة
شهدت الصباح بها والمساء
وموج الأصيل على الخضرة
ورعت الظباء تخذن «العدار»(1)
مجناً من الوبل ذى المرة
بكلب جرىء شديد المراس
هزبر هصور بـــلا عفرة
فطرن وطارفما إن ترى
سوى الطين ينزو مع الطفرة
ونحن من الوحل فى شدة

---

(1) نوع من الأذرة البرية .

نزل فنسقط فى الحفـــرة
فلما مللنا « الطراد » وثبنـــا
إلى الحلم ، وهو مدى الحسرة
ظفرنا بتيس كليم الإهاب
مليح المــلاحظ والغــرة
أبى عيوف شموس الفؤاد
إذا شام ظلا من الذلـــة

وهل أرضعته سوى حرة
تخطر فـــوق الربا الحرة
تهاوت أمانيــه فى غـــفلة
فأقوت مراعيــه فى لحظـــة
وأمست حلائله جازعـــات
يعدن المشاهــد فى حيرة
. . ترامى رفاقى على لحمه
وبت كئيبـــاً أخا نفـــرة

فالشاعر يقدم هنا فناً قديماً من الفنون العربية — لم يعد له وجود الآن — هو فن « الطراد » حين يخرج الشاعر مع رفاقه إلى الصيد فى مظانه ، وليس فى هذا مجرد تقليد لفن الطراد العربى القديم فقد تصدق هذه الدعوى حينما يتعرض لهذا اللون من الفن شاعر مصرى . ولكن حينما يتعرض له شاعر سودانى تساعده بيئته ، وظروف حياته على هذا اللون من الصيد نعرف أن الأمر ليس فيه التقليد ، وإنما فيه الأصالة كل الأصالة .

والشاعر حساس بكل ما يلم بوطنه حتى هذه الوفود الإفريقية المسلمة التى تعبر بلاده فى طريقها للحج فهو يقول :

حمدت القرى من كرام البخار
كبـــار الجفون عـــلى العسرة
يطوفون حولى طواف الحجيج
سعى من « نجيريا »[1] إلى الكعبة

وصادق فى الوقت نفسه حين لا يتبع التداعى الجمالى فيما يعرض من صور الحياة من حوله ، وحين يقدم الصور فى بساطة محببة ، لا يثقلها لون متعمد من ألوان البلاغة الزخرفية ، فالبلاغة عنده نابعة من الموضوع ، ومتطورة معه

على نشوة فى الديـــار ترانى
أروح وأغدو على خيمتى !
وأحـــلى من الكرم الحـــاتمى
وما قـــد أصبت من المتعـــة
مراح فتـــاة بفجر الشبـــاب
تضىء عشاء دجى « الحلة »[2]
يروعـــك منها قوام وصـــدر
طوى الثوب عنه سنى الفتنـــة
ونهـــدان ما عرفـــا لامســـا
سوى نضحة المـــاء من قربة
حبتهما البـــداوة من سحرهـــا
فجاءت مثـــالا من الروعـــة

والشاعر لا ينسى تقاليد بيئته ، فهو يقدم دائماً شريحة حية تتحدث بالأعماق النفسية لهذا الشعب ، فحين يقص علينا قصة نفسه فى قصيدته « قصة شاعر » نراه يقول :

كما الأطفال قد ولدوا

---

(١) دولة إفريقية استقلت فى أكتوبر من هذا العام .
(٢) الحى أو القرية .

نبى الشعر قــد ولدا
فلم يفــلق له قمــر
ولا ملك لــه سجــد
نعم قــد هلــل الأهل
وقامــوا حوله حشــدا
وتمم جــده بــرق
تــرد الكيــد والحسدا
. . وسال دم الخراف على
رحاب الــدار فى سرف
وفاح الطيب مثل شذى
زهور الروضــة الأنف
وزغــرد نســوة الحى
وشاع البشر فى الغرف
وقــد حفلت موائــدهم
بمــؤتلف ومختلــف
. . لقد صنعوا كما صنعوا
بمــولد صنــوه الأكبر
ولو علمــوا بأن لــه
بكل خميــلة منــبر
ومــلء دمائــه نغم
وتحت لســانه مزهــر
لمــا زادوه تكرمــة
ولا حفلوا بــه أكثر !

ونحن نراه يقصد إلى الكلمة ذات المدلول فى الحياة ، حتى ولو ابتعد عنها « الشعر الأنيق » فهو يذكر ، الطار ، والمداح ، والخفير ، والعدار ، والكسرة ، وشيطان لأن كل هذه الكلمات تضرب بجذورها ، وصداها فى النفس السودانية ، وإن لم يكن بعضها مستعملا فى العربية ، وأعتقد أن هذا من سمات المحلية الصادقة لأن « الكلمة » ما دام عليها عرق الشعب ، وما دامت قد واكبت تاريخه ، يصبح من حقها أن تعلن عن نفسها ، كخلية حية من خلايا العمل الفنى الصادق .

ونحن نرى الشاعر يتبع نفسه ، وعواطفه فى شعره . فنرى الإيمان مضيئاً فى بعض قصائده ، والشك ناتئاً فى بعض آخر . كما نراه يقف من مصر موقفاً معادياً فى فترة ما ، ثم سرعان ما يستعيد نفسه ويغمرها بحب البلاد التى لاقى فيها العلم . والثقافة ، والإخلاص حتى لنراه حين يطبع ديوانه «ألحان وأشجان» يرفع كل القصائد التى عرّض فيها بمصر فى فورة من فورات الغضب ، بل وفى القصيدة الواحدة كما فى قصيدته « عتاب النيل » التى يقول فيها :

أبا الخير عندى من عتابك قصة
روتها عن البيد الظماء قوافل
عطشنا وعشنا فى ربوع جديبة
تمر بها عجلان ركبك حائل
نعيش على التأميل منك وتنحنى
علينا صغاراً أمهات نواحــل
شرقن من الدمع الحبيس وأترعت
لهن من الدمع الغزير مناهــل
فهن من البأساء غــبر عوابس
وهن من الأدواء صفر تواكل
منازلنا مثــل القبور فما بهــا
ضياء بجنح الليل فهى مجاهل

فقد رفع منها الأبيات الآتية :

تهضمنا جيراننا وبدت لهم
من الغاصب الغربى منا مقاتل
ضعاف تقووا بالعدو على أخ
وعاشت لهم فيما بناه معاول
أبوا أن يذيقونا من الماء جرعة
وضاق به من ساحل الروم ساحل
وقد أورقت فى أرضهم كل صخرة
وفى أرضنا ترب «البطانة» ماحل
أحبك حبى للحياة وإن أبى
لك الجود والإنعام حب مخاتل

وهكذا نراه يعود إلى مصر ، يحتضن قضاياها ، ويصرخ من بلاده حين يقع الاعتداء الثلاثى عليها فيقول :

أحنو عليك بقلب شاعر
وأذود عنك بعزم ثائر
لك فى فؤادى موطن
رحب على الأيام عامر
لولاك ما سطعت على
أكواخنـــا زهر المنائر

وينشد فى مؤتمر الأدباء العرب الذى أقيم فى القاهرة :

فلى ها هنا إخوة صادقون
ولى مستراد ، ولى مضطرب
ولى معهد قد حبانى حباء
به قدعشقت اصطحاب الكتب
فيا مصر أنت الحبيب المفدى
ويا مصرأنت الهوى المصطخب

ثم نراه يلتحم فى الموجة العربية الكبيرة ، ويدعو إلى حاضرها ، ويبشر بغدها ، ويصبح واحداً من دعاتها الكثيرين فى السودان ، ويظهر هذا فى قصيدته التى أنشدها فى مهرجان الشعر بدمشق عام ١٩٥٩ .

عربى وخـــافقى عربى
ولســانى ومرجـــلى وفنائى
مجد قومى عقيـــدتى وصباحى
وسبيـــلى إلى الذرا الشماء
ما عرفنا غير العروبة من نو
ريجـــلى حنادس الظلماء
كرم الله أرضها فهى بعث
وانطلاق ، ووقدة من مضاء
ملء عينى عقبانها تزحم الشمس
وتزهو راياتها فى الضيـــاء

إن شعر « محمد محمد على » يعتبر ثمرة طبيعية لهذه الحياة التى عاشها فى السودان فحين نعرف أنه ولد فى حلفاية الملوك عام ١٩٢٢ لأسرة عريقـــة تتصل بناصر آخر ملوك العبدلاب ، والسلطان المتصوف «عجيب الحاج المانجلك» ، وحين نعرف أنه تلقى تعليمه فى المعهد العلمى بأم درمان ، ثم قدم إلى مصر ، حين نعرف ذلك .. نعرف كيف خلصت نفسه لبلاده ، وقضاياها ، وعروبتها .. وكيف استطاع أن يؤكد وجوده ، كواحد من الصف الأول فى السودان ، الذين يستمدون البلاغة من المضمون ، ويعتنقون مذهب البساطة فى التعبير ، وينظرون إلى الطبيعة والناس من حولهم نظرة واقعية .

وما أجدرنا بأن نتلمس السودان

– حين نريد الوصول إلى أعماقه – فى هؤلاء الشعراء الذين احترقوا بشمسه . وانصهروا فى أحداثه . وعاشوا فى بساطته ، ففى هؤلاء نرى وجه السودان الحقيقى . أما هؤلاء الذين يصرخون باسمه فى أكثر من مكان فيمكن أن يكونوا أى شىء إلا أن يكونوا شعراء سودانيين .

. . ومن هؤلاء الشعراء الذين يتحدث السودان من أفواههم الشاعر « محمد محمد على » .

هذا الشاعر الذى شارك فى قضية بلاده مشاركة فعالة . وانصهر فى أحداثها ، ورصد دبيب الكراهية ، وانطلاقات الفرح فى تاريخ هذه البلاد التى اهتدت إلى أسرار ماضيها ، وأشواق غدها .

والذى لم ينعزل فى الوقت نفسه عن طبيعتها الحارة ، وقيمها الجمالية ، وأساليبها الخاصة بحياتها التى تنحنى عليها من قديم بحب . وفهم . وصدق .

وفى الوقت الذى سيكتب فيه تاريخ هذه الفترة الأخيرة الحاسمة فى تاريخ السودان سيكون من ألمع أسمائه اسم هذا الشاعر اسم «محمد محمد على»

« ع . ب »

من وحى إفريقية

يسعد مجلة .. « نهضة إفريقية » أن تقدم هذه الباقة من الشعر السودانى تحية إلى « مصر » بمناسبة الرحلة التى قام بها الرئيس للسودان .

(١)

ثقافـــة مصر

للشاعر التجانى يوسف بشير

عادنى اليــوم من حديثك يا مصـ ... ـر رؤى وطوفت بى ذكـــرى
وهفا باسمك الفــؤاد وجـــت ... بسمات عـــلى الخواطر سكرى
. . أفلسنا إلفى هـــوى جمعتنا ... سرحـــة الفكر فى أواصر كبرى
أفكانت إلا الأصــول استقرت ... حيث كانت لنازح ما استقرا ؟
ثابتات هنـــاك تنسب أشبـــا ... ها ، وتنمى من العلائق كثرا
مصر راشت ، وثقفت ، وأعدت ... منه شمسا ، وأطلعت منه بدرا
هيأت فكره فأزغب فـــاستشــ ... ـرى فأعيى ركضا ، وأعجز طفرا
كيف يا قومنـــا نباعد من فكــ ... ـرين شدا ، وساندا البعض أزرا
كيف قولوا بجانب النيــل شط ... ـيه، ويجرى على شواطىء أخرى !
كلما أنــكروا ثقافـــة مـــصر ... كنت من صنعها يراعـــا وفكرا
جئت فى حـــدها غرارا فحيا الل ... ـه مستودع الثقافـــة مصرا !

(٢)

معركة القنال

للشاعر محمد المهدى المجذوب

قتـــال ولسنـــا نبـــالى القتـــال ... فيا مرحبـــا بالوغى والنضال
نذيب الســـلاح بنـــار الســـلاح ... ونسقى الرجـــال دمـــاء الرجال
عبـــاب بجيش هنـــا فى الجنوب ... له موعـــد فى عباب القتـــال
تدوى القنـــابل فى القـــاهـــرة ... فتخـــلع أظلالهـــا النـــاضرة

وتخرج للحرب في عدة ... كما تخرج الغابة الثائرة
وهيهات أن تخضع القاهرة !
تدق « فرنسا » على بابها ... وتزعق « إنجلترا » الفاجرة
تسوق ادعاء بلا حجة ... كما تدعى الشرف العاهرة
ويغضى أبو الهول عن رجسهم ... ويرنو بنظرته الساخرة
فينحسر البغى عن صخره ... ويرتد كالموجة العاثرة
. . فؤادى يخفق فى القاهرة ... تحبط به الأنفس الصابرة
إذا حلقت فوقهم طائرة ... ينادون فى عزة « يا جمال »
أبينا ولن نسلم القاهرة !

(٣)

إلى مصر

للشاعر محمد سعيد العباس

أسفرى بين بهجة ورشاقة ... وأرينا يا مصر تلك الطلاقة
ودعى الصب يجتلى ذلك الحسـ ... ـن الذى طالما أثار اشتياقه
كلمنا ذلك المشوق . وهل فى النا ... س من لم يكن جمالك شاقه ؟
أنت للقلب مستراد . وللعيـ ... ـن جمال يغرى ، وللشم طاقة
فتحت وردها أصائل آذا ... ر . وقد قرط الندى أوراقه
أنت عندى أخت الحنيفة ما اسما ... ك دينا . وما أجل اعتناقه
أنت ذكرتنى ولست بناس ... در ثدى رضعت منه فواقه !

(٤)

عناق قطرين

للشاعر إدريس محمد جماع

منذ فجر الحياة مصر أنالت ... وثبات الفنون أسمى محل
من تهاويل صخرها ولد الفن ... وينبيك عن عراقة أصل
بالحمى الحر والثقافة والما ... ضى سمت مصر للمحل الأجل
لست فى أرضكم غريبا فهذا النيـ ... ـع والشط قبلها كن قبلى
حمل النيل هذه الأرض من أر ... ضى ليحيا بخصبها بعض أهلى
رحلتى رحلة الغمائم لا تعـ ... ـر سوراً لصوبها المنهل
عربى الشعور صدرى كما امتد ... إلى سرحة العروبة أصلى !

حنـين

للشاعر حسن عباس صبحى

أحبابنـا أحبابنـا
النيـل فى كياننا
ترتيلة عريقة بيضاء
فياضة ككف موسى بابتهالات الصفاء
فجرها مزمار داود بألحان السماء
ترتيلة نقية كأدمع العذراء
تحنانها يهزنا . . يجذبنا لموطن الصبا
لمرتع الربوع . . مسرح الربا
للمقرن المفتون بالعناق بين عاشقين
الأبيض الرءوم ينبرى فى لهفة من الجنوب
ويلتقى بالأزرق المصفق الغضوب
لينهضا برحلة الخلود

غضبة شمسون

للشاعر محى الدين فارس

نقر الليـل بابنا فتحطم ، ومشى الموت حولنا فتهدم
وإذا بالرءوس تلُّ محاصيل . . تلال من الدماء تـكوم
أرض طروادة جواء من النـيران عطشان للدماء مطعم
قـد نزعنا قيودنا قد نزعناها . فككنا حبال فجر مطلسم
ومشينا والنصر تاج من الأضواء . تاج على الرءوس منمنم
فصحا نـائم . ودمدم إنسان ، وقد قطع السلاسل أبكم
يا لشمسون . . . يا لغضبته الكبرى يدك القلاع لا يتكلم
ضج فى «بور سعيد» كالحمم الراغى يذيق العدا كؤوس العلقم
فاعزفى يا رياح ملحمة النيران . . يا ليل ويك لا تتألم
مات عمى هنا ،وجدى ،وخالى ،وزهورى .. داس الأزاهير مجرم
. . وإذا النيل دمدمات عتيات ، وموج على الشواطىء يرزم
إننى أعشق الكفاح كفاحاً دموياً فصب موتك أقـدم

قوانين التفرقة العنصرية

القيود المفروضة على حرية الانتقال

تشتمل القوانين والقرارات واللوائح التنفيذية فى اتحاد جنوب إفريقية على قيود كثيرة فى هذه الناحية ، وهى لا تحد الانتقال فحسب. بل تقيد حرية التعاقد . والعمل . وذلك تحت ستار المحافظة على الأمن .

فإنه لا بد من الحصول على جواز للانتقال من منطقة معينة وإليها . كما يجب إبراز هذا الجواز أمام السلطات عند طلبها ، وإذا لم يقم الشخص بهذا فإنه يكون عرضة للعقوبة . وتبعاً للقوانين والقرارات المختلفة الصادرة فى الاتحاد فإنه يتحتم على الشخص أن يحمل ما يربو على خمس عشرة وثيقة فى وقت واحد . وفى بعض المناطق ينبغى الحصول على الوثائق الآتية :

– عقد مسجل للعمل الذى يؤديه كل رجل إفريقى .

– تصريح للرجل يسمح له بالبحث عن عمل .

– شهادة مصدق عليها من السلطات المحلية المختصة من هيئة الشئون الداخلية فى المنطقة التى يعيش فيها الفرد ، وذلك فى حالة انتقاله إلى المدن .

– إشعار يثبت أن الفرد ملتحق بعمل من الأعمال .

– جواز يتيح له السير ليلا .

– جوازات أخرى متعددة خاصة بالإقامة والسكن . وقد يعفى الشخص من ذلك ، ولكن لا بد من إظهار شهادة الإعفاء .

بعض القوانين الأخرى المتعلقة بالانتقال :

ينص قانون عقد العمل الخاص بالأهالى الصادر فى عام ١٩٣٢ على وجوب حصول المواطن الإفريقى على شهادة تثبت شخصيته وذلك فى حالة انتقاله من المنطقة التى يقيم فيها . وإذا أقام الشخص فى غير المنطقة المخصصة للإفريقيين الأهالى ، فإنه يجب أن يظهر شهادة من صاحب الأرض التى يعمل فيها بأنه عامل ولا يمتلك عقاراً فى المنطقة . وهذا مطبق فى إقليمى الترانسفال وناتال . وفى إقليم الترانفال وأورانج الحرة لا بد من حصوله على تصريح بالرحيل حين يريد ذلك . وكل إفريقى عليه أن يبرز شهادة بالإعفاء من الضرائب فى حالة الإعفاء .

وقد صدر قانون فى عام ١٩٥٢ لتوحيد الوثائق سمى (وثيقة المعلومات الشخصية) وهو لم يعد بأى نفع على الإفريقيين . لأنه استلزم الحصول على تصريح بالانتقال للشخص الذى كان يمكن اعفاؤه فى ظل القوانين السابقة المعمول بها .

قوانين تحديد الانتقال فى الميزان

إن المصاعب والمتاعب الناجمة عن وجود هذه القوانين وتطبيقها على الإفريقيين لأمر خطير يستحق الاهتمام ؛ فهى تحملهم أعباء الحصول على تصاريح وتجديدها . ومن أجلها يحكم عليهم بالغرامات حتى لمجرد نسيان حمل الوثائق المطلوبة ؛ فضلا عن المصاعب والمتاعب التى تنجم عن تصاريح السير ليلا مما يضطرهم إلى قضاء ليال فى السجن إلى أن يحين وقت المحاكمة . وهذا مما يهيء النفوس للشعور بالسخط ؛ الأمر الذى ينتهى إلى ارتكاب الجريمة . بل يحدث فى كثير من المدن أن يلقى القبض على الإفريقيين لمجرد الشك فى ارتكابهم جرائم ، وكثيراً ما يكونون أبرياء . ومع ذلك تحصل منهم رسوم للتحقق من صحيفة السوابق .

وثمة مصاعب أخرى ناجمة عن تطبيق قوانين الحصول على تصاريح الالتحاق بعمل أو للبحث عن عمل ، ومصدر هذه المصاعب ناجم عن قسوة الموظفين الذين يطبقونها ، خاصة أن معظم الإفريقيين قوم أميون لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، كما أن انتقال هؤلاء إلى المدن يلقى على كاهلهم مظالم فادحة ، منها إلقاء القبض على الأبرياء ، فمثلا ، هناك قانون يبيح زيارتهم للمدن لمدة اثنين وسبعين ساعة بدون تصريح ويصعب عليهم فى أكثر الأحيان إثبات ما إذا كانت المدة المسموح بها قد انقضت أم لا . وفى عام ١٩٥١ بلغ مجموع الاتهامات التى وجهت إلى الإفريقيين فيما يتعلق بمخالفة هذه القوانين ٢٣٢,٤٢٠ اتهاماً ؛ ارتفع هذا الرقم إلى ٤٦٦,٠٠٥ اتهامات عام ١٩٥٥ .

وتدل الدلائل على أن عدد هذه الاتهامات آخذ فى الازدياد .

ومما يذكر فى هذا الصدد أن لجنة ألفت عام ١٩٤٢ لبحث الحالة الإقتصادية والاجتماعية والصحية للإفريقيين . وقد أوصت اللجنة المذكورة بإلغاء القوانين التى تحد من حرية الانتقال ، لأنها تهدد هذه الحرية وتساعد على إذكاء الشعور بالظلم والقسوة ، ولكن توصية اللجنة لم تنفذ ، بل زادت التعقيدات التى شددت من قسوة هذه التشريعات .

الرقابة على وجود الإفريقيين فى المدن :

حددت إقامة الإفريقيين فى المدن نظراً للحاجة إليهم فى ميادين العمل التى يطرقونها . ونظراً لنمو الصناعات التى تحتاج إلى سواعدهم . وقد سنت القوانين التى تشدد الرقابة على تحديد العدد الذى يرى وجوده فى المدن ومراعاة إقامتهم فى الأماكن المعينة لسكناهم. فحددت كل سلطة محلية مناطق منعزلة لإقامة الإفريقيين وأطلقت يد هذه السلطات المحلية فى الرقابة على تنفيذ القوانين الخاصة بذلك . وكذلك حددت المدة التى يجب فيها على الإفريقى إعلان موطنه ، وتوقع السلطات على كل من يتأخر فى هذا الإعلان عقوبات صارمة .

وبعض نصوص التشريع الصادر فى عام ١٩٤٥ تعطينا صورة عن مدى الشدة المتبعة فى فصل الملونين عن البيض ، فهناك نص يخول للسلطات منع دخول عدد أكبر من العدد المعتاد

ارتياده للكنائس . وذلك إذا رأت ما يدعو إلى هذا المنع .

وثمة نص آخر يمنع كل صاحب مستشفى من علاج رجل إفريقى فى مستشفاه ، إلا فى حالة الضرورة القصوى . كما أن القانون خوّل للسلطات منع عقد أى اجتماع عام فى منزل من المنازل . إذا كان من بين الحاضرين أحد الإفريقيين . كما لا يجيز القانون زيارة صديق لأحد الإفريقيين الذين يقيمون فى المنشآت الخاصة بهم داخل المدن دون الحصول على تصريح بذلك .

وهناك تشريعات أخرى تحرم امتلاك الإفريقيين عقارات مملوكة للبيض داخل المدن ؛ كما تحرم امتلاك غير الإفريقيين لأراض أو ممتلكات فى مناطق أخرى غير مخصصة لإقامتهم.

وثمة مصاعب وعقبات ناتجة عن تشديد الرقابة على دخول الإفريقيين فى المناطق المخصصة لزملائهم فى المدن

والتعليمات واللوائح الجائرة تحدد بالتالى عدم انتقال الإفريقيين من موطنهم ، وتتخذ فى هذا التحديد أحكاماً صارمة ، فمثلاً الشخص الذى توطّن فى مكان ما وأقام فيه خمسة عشر يوماً متصلة ، ثم تركه لمدة لا تزيد عن أسبوعين فإنه يحرم من حق الإقامة فيه مرة أخرى ، كما أن هذا الشخص يمنع من الإقامة فى موطنه أكثر من اثنتين وسبعين ساعة إذا ارتكب مخالفة قانونية يزيد الحكم بالغرامة فيها على خمسة عشر جنيهاً ، أو إذا قبل العمل فى منطقة أخرى خارج المدينة ، ويجوز إبعاد الرجل الإفريقى . حتى ولو لم يرتكب أية مخالفة قانونية إذا كانت مدة إقامته فى المنطقة أربعة عشر عاماً . وذلك حين ترى السلطات إبعـــاده ، كما أن الشخص الذى عاش فى منطقة مدة تسع سنوات وعمل عند صاحب عمل واحد خلال تلك المدة . فإنه لا يجوز له البقاء أكثر من ٧٢ ساعة بعد تركه العمل .والشخص الذى أقام منذ مولده فى منطقة ما إقامة غير منقطعة فإنه لا حق له فى أن يستبقى عنده ابنته المتزوجة . أو ابنه البالغ الثامنة عشر من عمره . أو ابنة أخيه أو ابنة أخته ... الخ ، أكثر من ٧٢ ساعة ، ولا حق للشخص نفسه فى اســـتبقاء صديق جاء لزيارته أكثر من ٧٢ ساعة ،

ولا حق للشخص الذى أقام فى مكان واحد أربعة عشر عاماً متصلة والذى عمل عند صاحب عمل واحد بصفة مستمرة ، فى أن يستبقى زوجته أو ابنته غير المتزوجة أو ابنه البالغ ثمانية عشر عاماً ، أكثر من ٧٢ ساعة .

ومن يخالف هذه الشروط توقع عليه غرامة لا تزيد عن عشرة جنيهات ويحكم عليه بالحبس مدة لا تتجاوز الشهرين .

ويجوز بمقتضى القانون الصادر فى

عام ١٩٥٢ أن تطرد المرأة المتزوجة من موطنها إذا رأت السلطات أنها لم تحقق الشروط الواجبة للإقامة ، أو فى حالة طردها من عملها وعدم توافر عمل آخر لها .

وهناك قوانين تبيح إزالة المساكن والمنشآت الخاصة بالإفريقيين لأسباب تقدرها السلطات ، كأسباب الصحة والأمن ، وهكذا يمكن تدمير تلك المساكن بين عشية وضحاها بما فيها من منشآت عامة كالمدارس والكنائس مما يترتب عنه خسائر مادية كبيرة .

قوانين الإقامة فى المدن فى الميزان

أشار مجلس العلاقات العنصرية فى اتحاد جنوب إفريقية خلال اجتماعه السنوى لعام ١٩٥٦ إلى ما فى هذه القوانين الصارمة من جور ، الأمر الذى ينجم عنه غضب الجماهير . وأشار إلى خطأ سياسة تقسيم المناطق إلى بيضاء وسوداء ، وعدم توافر الاستقرار اللازم لاستقلال الإفريقيين الاقتصادى ، وإلى الظلم الصارخ فى عدم استمتاعهم بحق الإقامة والملكية ، وحرية العمل وممارسة النشاط الاقتصادى ، كما أشار إلى الحرية الممنوحة للسلطات فى تحديد مناطق إقامة الإفريقيين فى المدن ، مما يجعل إقامتهم متوقفة على أمر هذه السلطات ، لأنها أشبه بمنحة ، وكأنها ليست حقاً من الحقوق الأساسية، والقول نفسه يقال على ما للمراقب المحلى من سلطة ونفوذ لتقدير ما إذا كان الشخص ملائماً أو غير ملائم للتوطن فى المنطقة ، وأشار كذلك إلى الظلم البين والقسوة فى تنفيذ القوانين .

قوانين التميز فى الإقامة :

تحتم القوانين فصل كل طائفة عن الأخرى فى الإقامة ، فهناك الإفريقيون والبيض ، والملونون ، والآسيويون ، وهذه القوانين معقدة ، أشد التعقيد ، مما يجعل فهم الرجل العادى لها أمراً شاقاً بعيد الاحتمال . فالسلطات هى التى تحدد أجزاء معينة من كل منطقة لسكنى كل طائفة ، والطوائف أساس تقسيمها — كما رأينا — هو العنصر . وكثيراً ما تكون هناك مناطق مختلطة ثم يصدر الأمر بتخصيصها لطائفة معينة ، مع مراعاة امتياز العنصر الأبيض ، الأمر الذى ينتج عنه ظلم فادح يقع على الطوائف المغلوبة على أمرها ، فيفقد الأفراد الذين ينتمون لتلك الطوائف ممتلكاتهم ومساكنهم التى استقروا فيها منذ زمن طويل ، والتعويضات الممنوحة لا تجزى . ويجدون صعوبة كبيرة فى إيجاد أماكن جديدة لإقامتهم . وقد حدث فى عام ١٩٥٣ أن طرد ٥٧ ألف إفريقى من مساكنهم فى مدينة جوهانسبرج كيما يقيموا فى منطقة أخرى على بعد عشرة كيلومترات من المدينة ، وكانوا يعيشون فى منطقتهم مستقرين فى منازلهم منذ سنين . وحدثت شكوى عامة من هذا القرار الجائر ، ولكن الحكومة مضت فى تنفيذه رغماً عن المعارضة .

وأوصى مجلس العلاقات العنصرية لاتحاد جنوب إفريقية فى اجتماعه لعام ١٩٥٨ باتخاذ الإجراءات اللازمة الكفيلة بالحد من التميز العنصرى فى مناطق الإقامة ، وأشار إلى ما فى

القوانين من تعسُّف ، وما فى تطبيق السلطات الحكومية من قسوة وتعنت

وذكر بعض الأمثلة ، مثل فصل دور السينما والمطاعم والأندية على أساس التمييز العنصرى ، وكذلك الحال فى الرقابة على شئون العمل . واقترح التقليل من هذه الحواجز والعمل على إيجاد الضمانات التى تكفل استقرار الإفريقيين فى مناطق إقامتهم . ذلك أن الظلم من رأى المجلس المذكور يقع على الطوائف غير الأوروبية كالهنود والملونين ، وهم الذين يعيشون فى حالة عدم استقرار واضطراب نظراً لعدم كفالة التشريعات المعمول بها لضمان استقرارهم .

الرقابة على العلاقات بين الطوائف

تقتضى القوانين المعمول بها أن يسجل كل فرد حسب طائفته ، وتمنع الزواج بين الأوروبيين وغيرهم ، وتعتبر اتصال هؤلاء بغيرهم جريمة . وبحدد عـــدد التلاميذ فى مدارس الإفريقيين ويحد من إنشائها ، وتمنع ارتيادهم الأندية والأماكن العامة ، والحفلات التى تقام فى المناطـــق الأوروبية .

(من مذكرة تقدمت بها حكومة غانة لمؤتمر الدول الإفريقية المستقلة فى أديس أبابا)

لخصها : عبد السلام شحاته

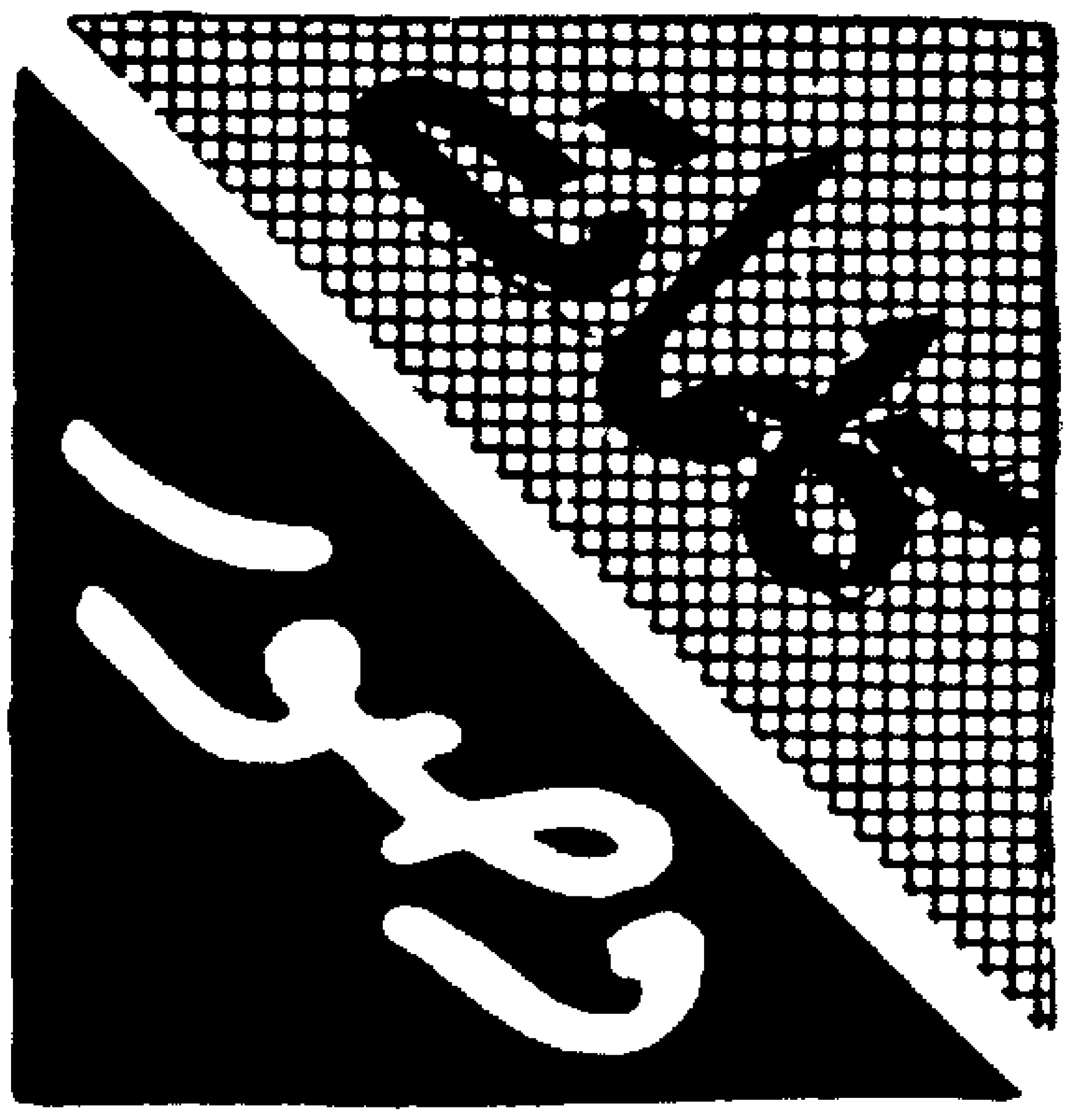

زيارة الرئيس للسودان :

أكدت زيارة الرئيس « جمال عبد الناصر » معانى الصداقة العميقة بين الجمهورية العربية المتحدة . وجمهورية السودان . هذه المعانى التى ربطت بين البلدين من أعمق أعماق التاريخ بأوثــق الروابط ، فأكثر الموجات الحضارية المصرية — إذا جاز لها أن تتسكر عند بعض جيرانها — وجدت لها منفسحاً فى السودان ، وقد تلقى السودان كل الثمار العقلية التى ازدهرت فى السودان ، وأضاف عليها من نفسه . ولم يقف من دونها حاقداً أو منعزلا . استجابة لهذا النداء العميق فى وجدانه الذى يؤكد أن التاريخ كان دائماً فى صف الانعطاف بين القطرين . فالسودانى يحس إلى الآن أنه متعاطف مع المصرى تعاطفاً لا يحسه نحو إنسان آخر ، وقد تأكد هذا بالظروف الواحدة . والطبيعة المتقاربة ، والجنس المتشابه . ، وأخيراً بالعروبة التى تظلل البلدين .

إننا ندعو إلى مزيد من التعارف بين الجمهورتين اللتين لا تقف صلاتهما عند حد الجوار ، والانتصار للعروبة ، وإنما تمتد إلى معنى آخر عميق هو مساندة القوى الإفريقية النامية . وتحريكها بكل وسائل الأعلام . وتزويدها بالرجال العاملين فى كافة مجالات الثقافة . والعمل على تكاملها اقتصادياً ، وإشعارها — أية حركة تحررية فى القارة — بأنها ليست وحيدة فى وقفتها ضد الطغيان ، . والعسف . والاستنزاف . وإنما من ورائها كافة الدول الإفريقية التى تحررت ، وتسهم الآن فى المجالات الدولية ، وبخاصة الجمهورية العربية المتحدة وجمهورية السودان . . .

وقد تجلى هذا الحب . وهذه الرغبة فى المزيد من التعارف حين استقبل السودان فى الرئيس كل أبناء الجمهورية العربية المتحدة ، أحسسنا بهذا فى مناطق الشرق . والغرب . والجنوب . وجاور هذا الإحساس إحساس آخر هو أن كلا من الرئيسين جمال عبد الناصر . وعبود يعملان بحب . وصدق لا من أجل بلديهما فقط ، وإنما من أجل هذا الكيان الأسود الكبير . . من أجل إفريقية ، حتى لمكن القول بأن كل واحد من الإفريقيين يحس تمام الإحساس أن هذه الزيارة موجهة إليه شخصياً ، سواء فى هذا الإفريقى المضغوط على

شعوره فى الكونغو ، والمهدرة إنسانيته فى جنوب إفريقية ، والمتربص للمعركة فى روديسيا ، والمتحين الفرصة فى كينيا ، والمستشرق الحرية فى أوغندة . والسعيد بالاستقلال فى غانة . وغينيا . وليبيريا . وداهومى . ونيجيريا .

ولا شك أن كل إفريقى يحلم باليوم الذى ستصبح فيه القارة «قرية» لكل إنسان مهما يستطيع أن يذهب فيها إلى أى مكان . ويستطيع أن يقابل فيها كل زعيم . فالقارة فى حاجة ماسة إلى مزيد من التعارف ، ومزيد من رفع القيود . ومزيد من الزيارات .

. . وبلا شك لقد فتح هذا الأمل فى نفوس كل الإفريقيين تلك الزيارة التى قام بها الرئيس للسودان :

الطوارق :

توجد هذه القبائل التى تعتز بعروبتها فى غرب القارة . وهم يعتزون باللثام الذى يغطون به وجوههم فيما عدا العينين ، ويلحقون نسبهم بواحد من الأنصار الخزرجين يسمى أبو الجانة . وزعيمهم الأمير على الأنصارى التنبكتى الذى من أقواله التى أكد فيها العروبة والإسلام قوله :

« إننا من الأمة العربية . جنسيتنا عربية ، وقوميتنا عربية إسلامية . والتاريخ يشهد ويثبت أننا لسنا أوروبيين فنحن عرب سنعيش ونموت ، ونحن على طلب الانضمام إلى وطننا ، ودولتنا الأصلية .

لن نتبدل ولن نتغير ، ذلك لأننا غصن من أغصان شجرة المغرب . ولسنا فرعاً من شجرة أوروبا » .

من كلمات الرئيس :

من كلمات « الرئيس جمال عبد الناصر » عن أثيوبيا قوله : « إن بيننا وبين الحبشة من علاقات الود الدائم ما لا يكون مثله بين الأخوين الشقيقين .

فنحن والحبشة بلدان متجاوران فى قارة ضرب عليها الاستعمار نطاقه . لتكون دولة أهلها كالبقرة الحلوب . تدر له من لبنها ما لا تدر لفصيلها المهزول .

ونحن وهى بإزاء ذلك الاستعمار كما يحكى عن ثيران ثلاثة : أبيض . وأحمر . وأسود . فى أجمة يتربص بها السبع . فإذا بدا لأسودها أو لأحمرها أن يشترى السلامة لنفسه من ظفر السبع بتسليم صاحبيه أو الإغضاء عما يصيبهما من ظفره ونابه . فقد أعان على نفسه بهذا التسليم . وما أقرب أن يصبح ذات يوم وهو يصيح بين مخالب السبع : « لقد أكلت يوم أكل الثور الأبيض » .

القضاء فى الحبشة :

جاء فى كتاب الحبشة للأستاذ

« حسن محمد جوهر » أن الحبشان مغرمون بالمجادلة ، بارعون فى المحاجة ، وإذا ما شجر بين اثنين خلاف ، مهما يكن تافها ، اختارا حكما ليحكم بينهما فيما فيه يختلفان ، ويرضيان عادة بحكمه . ولو جار ، أو حاد عن الحق

ويعقد هذا التحكيم فى الحقول . والطرقات . والأسواق . ويختار له الحكام عادة ظلال أشجار التين التى تضخم فى الحبشة . وتمتد فروعها إلى مسافات بعيدة . فتظل مساحات كبيرة . وينتهى التحكيم عادة بالصلح وإذا لم ينته به . ولم يصل القاضى أو الحكم إلى حكم ما وترك الأمر لله ، ابتأس المتهم ، وود لو حكم عليه بالإعدام لأن الإعدام عنده أهون من النار . وإذا حكم القاضى لأحدهما طار فرحاً . وخر ساجداً أمامه . داعياً له بطول العمر . وهاتفاً بدوام العدل .

وإذا حكم لأحد على أحد بدين ادعاه . جاز للدائن أن يسلسل المدين إلى رسغه . ويجره معه أينما ذهب ، وقد يظل المدين مسلسلا أياماً ، ولا يطلق سراحه إلا إذا رأى دينه أو أدى عنه .

وقد تطول المحاكمة . وتستمر أياماً . ويتعطل القاضى المختار عن عمله ؛ ومع ذلك فلا يرفض حبشى أن يكون قاضياً مختاراً . لأنه إذا فعل ذلك ، واشتهر عنه . رفض الناس أن يكونوا قضاته .

ومن عادة المتخاصمين المراهنة على كسب قضاياهم ، وقد يكون الرهان خروفاً أو مهلكا[1] ، أو رطلا من عسل ، أو صاعاً من دقيق .

وإذا طلب أحد المتخاصمين أن يراهن خصمه ، وجب على الخصم قبول الرهان . وإلا عد مغلوباً على أمره ، وخسر قضيته .

ولا يعطى للمحكمين أجر ، وإنما يفرض لهم شىء من الرهان إذا وجد .

وللحبشان ولع بحضور المحاكمات ، ولقد حكى سائح قال : « . . ورأيت أمة من الناس فى سفح تل ، فنحوت نحوهم لأجتلى خطبهم ، فألفيت محكمة منعقدة . ورأيت قاضيها وكان شوم[2] أقرب قرية من التل ، رأيته محاطاً ببعض أعوانه جالسين تحت شجرة كبيرة استعداداً للفصل بين المتخاصمين وكان عدد المتخاصمين نحو خمسين تعرفهم بعقد خاصة فى أطراف شاملتهم ووقع بصرى على الشوم فوجدته يصلى رئاء الناس ليوهمهم بتقواه وعدله .

وكان كل واحد من المتخاصمين يلح ، ويلحف فى أن تنظر قضيته أولا . وقد كان أعلى الجميع صوتاً . وأكثرهم جلبة وضوضاء نجار[3] . .

(١) عملة حبشية تساوى عشرين مليما مصرياً .

(٢) الشوم كلمة حبشية معناها عمدة القرية .

(٣) كلمة حبشية معناها تاجر .

بدأ بعرض قضيته من غير أن يؤذن له ، وكان صوته مؤثراً له نبرات أخاذة بمجامع القلوب ، وكانت فى نغماته قوة ، وفى أقواله رنة صدق وجد ، أثارت شوقى . واسترعت انتباهى وجعلتنى أقترب منه ، وعلى الرغم من أننى لم أفهم إلا قليلا مما قاله فإنى استشففت من لمحات وجوه النظارة ومن سيما وجه القاضى ، ووجوه أعوانه أنهم أخذوا بفصاحته . وسحروا ببيانه ، فصدقوا قوله . . »

النساء فى إفريقية :

جاء فى كلمة مشرقة للدكتورة بنت الشاطىء عن المؤتمر النسائى الإفريقى الذى عقد فى أكرا الكلمات الآتية : « وهزنى أن أرى أخواتى الإفريقيات يحمين تراث الآباء والجدود ويحرصن على صيانة تقاليد هذا الشرق العريق لئلا يجرفها تيار غربى .

سمعت إحداهن تقف لتعقب على حديث لمندوبة اليونسكو اقترحت فيه تشجير الحقول الزراع من ضربة الشمس ، فتقول : لكن أبى علمنا أن الأرض فى حاجة إلى الشمس !

وأضافت إفريقية أخرى : سمعت من جدى أن عدد الذين ماتوا بضربة الشمس فى كل قارتنا لا يكاد يذكر إلى جانب من ماتوا بضربة الاستعمار ، وعسف الطغاة فى قطر واحد من أقطارها .

وفى اللجنة الثقافية ، لم يكن لنا حديث إلا عن خطر الغزو الفكرى يتسلل ، بوسيلة أو بأخرى — إلى عقول أبنائنا . ووجدانهم ، فيفتنهم بسحر الغرب . وربما زين لهم أن ينسلخوا عن شرقيتهم ، وتداعى الحديث بيننا فكشف لنا عن حاجة مشتركة : هى أن يكتب تاريخنا من جديد ، بعد أن أمعن أعداؤنا فى تشويهه . وبتره ، وأن تحمل كل منا دعوة المقاومة للاستعمار الثقافى والوجدانى أينما كانت ، وتنبه إلى خطر المؤسسات الأجنبية التى تقوم بيننا ، وتغرق أسواقنا ببضاعة فكرية معينة ، يراد بها السيطرة على عقلية أبنائنا وقلوبهم ، وتعاهدنا كذلك على حماية تراثنا وفنوننا ، وآدابنا ، وتشجيع كل ما هو شرقى منها أصيل .

وهكذا عشنا معاً نحن الإفريقيات ، فى ماضينا المشترك ، ومصيرنا الموحد ، عشنا أياماً وليالى ليست كثيرة ، لكنها خصبة عامرة ، أكدت ما بيننا من تجاوب ، وتفاهم ، وتعاون ، وسجلت إصرارنا على أن نصون حرية وطننا ، ونحمل تبعاتها ، وأعلنت تصميمنا على أن نزود شرقنا الكبير ببناة الغد الكريم الذى أشرق فجره . . »

مؤتمر فى بيروت :

انعقدت فى الشهر الماضى ببيروت اللجنة التنفيذية لمنظمة تضامن الشعوب الإفريقية الآسيوية ، ففى هذا المؤتمر

قدمت التقارير الوافية عن خطوات التحرر فى القارة . وعن عمليات التعويق التى تحول بين القارة وبين فجر الحرية الشامل . وعن أهم المشكلات التى تشغل الرأى العام كالسلام . ونزع السلاح . وقضايا الكونغو . والجزائر . وجنوب إفريقية ، وكل البلاد التى ما زالت ترزح تحت عبء الاستعمار . وضرباته التى ما زال يوجهها هنا وهناك فى عشوائية شأن المنهار الذى يدافع عن بقاياه المتساقطة المنهوكة .

ومهما يكن من شىء فعملية الالتقاء بين الرجال المشتغلين بالقضايا الإفريقية . والآسيوية لها ثمرة أكيدة هى هذا الفهم العميق الذى تسير فى ضوئه القارة خطوات بعد خطوات . ذلك لأن هذه المؤتمرات تبصّر الجميع بالموقف الواحد الذى يجب أن يؤخذ . والضربة الأكيدة التى يجب أن توجه . ولعل هذا هو السر فى « تقابل وجهات النظر » كلما جدّ جديد فى القارة . . . وما أكثر ما نجد من جديد فى إفريقية .

الشعر فى المعركة :

من شعر المشاركة الوجدانية بين مصر والسودان قصيدة الشاعر السودانى « الشيخ يحى السلاوى » الذى كان معاصراً للثورة العرابية ، والذى ما كاد يسمع بها حتى أسرع إلى « مصطفى باشا » ياور مدير مديرية دنقلا طالباً منه ترحيله إلى القاهرة ليكون بجوار الثورة العرابية . حيث يرصد انفعلاتها . ويسجل خطواتها .

وقد تم ترحيله فعلاً . وفى القاهرة ألقى بنفسه فى غمار المعركة ، واتصل بأحمد عرابى وكافة العرابيين ، وكان نتيجة لهذا تلك القصيدة الكفاحية التى قيل إنها طبعت بماء الذهب وبيعت فى شوارع القاهرة كل نسخة منها بجنيه ذهباً .

ومن هذه القصيدة الأبيات الآتية :

شغل العدى بتشتت الأحزاب
والله ناصرنا بسيف « عرابى » !
والقطر فيه من الرجال كفاية
للحادثات فهم أولو الألباب
وحمية الإسلام تقضى بالوفا
حتما على كل امرىء أواب
ومحبة الوطن العزيز تحثهم
والفتح أذّن باتباع صواب
والمشركون خواسر فى سعيهم
والفوز فى العقبى بغير حساب
أنتم أولو الهمم التى بسهامها
كم من عدو آب شر إياب
لا تشغلنكم الحياة فإنها
ذل لمن يرضى بهتك جناب
ولقد نرى إخواننا فى حالة
تحتاج للأعوان والأصحاب
أعنى عساكرنا الكرام ومن أتوا
متطوعين لهم من الأعراب
والعاملين لهذه الخيرات من

عمد البلاد . وسائر الأحباب
حسب الإعانة فى الأفاضل قدرة
شمس المفاخر شيخنا « الانبابى »
وجناب قاضى مصر سيف شريعة
يسطو على كل امرىء متغابى
يا ربنا عجل لدينا نصرة
واجعل له الحسنى خير مآب
وامدد عساكرنا بأعظم قوة
يا عالما بالقانت الأواب
واشدد عراهم بالخليفة إنه
متكفل بالنصر للأحزاب
هذى مآثرك الجميلة زينت
رمضان بالترغيب والإرهاب
لثمان عشر منه قد أرخها
بالله نصرتنا . وسيف « عرابى »

فالشاعر هنا يعطى أملا فى كسب المعركة . ويثبت النفوس بما يذكره عن الشجاعة المستقرة فى النفوس . وعن الإسلام الذى يفرض الوفاء للقائمين بالمعركة . وعن الوطن الذى يجب أن يضحى الجميع فى سبيله . ثم هو يؤرخ لعمليات المساندة التى قام بها العاملون للثورة فيذكر الذين وقفوا من دونها بالمال والأرواح كالشيخ الانبابى . والسيد البكرى . وبيت السادات ، والهجرسى . و«البرنسات» والشيخ عليش . وابراهيم فوزى باشا ، وعلى الروبى ، وعلى فهمى . ثم يشجع الفكرة التى كانت لا تزال موجودة فى هذه الفترة وهى الاستعانة بتركيا .

وهكذا نرى — على يد هذا الشاعر السودانى — وثيقة من وثائق المعركة التى توضح الملامح الفكرية . والسياسية فى هذه الفترة الحاسمة التى اجتازتها مصر فى الثورة العرابية .

الإذاعة وإفريقية :

يهتم القائمون بالأمر فى إذاعة الجمهورية العربية المتحدة بالأركان الإذاعية الموجهة إلى إفريقية . وبخاصة ما يذاع منها بلغات إفريقية كاللغة السواحلية التى تنتشر فى قطاع كبير شرق القارة ووسطها كالصومال . وزنجبار . والكونغو . ولقد ذكر أخيراً أن بريطانيا تعانى الكثير من هذه الإذاعات التى تحمل إلى الإفريقيين دائماً صوت الجمهورية العربية المتحدة الذى يدعو إلى الإسلام . والحرية . وأن إفريقية للإفريقيين . ومهما يكن من شيء فالخوف من سماع صوت الإقليم الجنوبى ليس بجديد فى القارة . ففى الماضى كذلك كان صوت مصر الذى يتردد على شفاه السكان . وفى قلوبهم مما يزعج الاستعماريين ، ويجعلهم يضعون — لمجرد سماع ذكرها — يدهم على أسلحتهم . ونحن ندعو إلى المزيد من سماع هذا الصوت الذى تنخلع له قلوب المستعمرين . فالقارة لم تعرفه إلا صوتا للحرية نفسها ، وللقارة . ولكل ما هو إنسانى فيها .

تامنجو :

شهدت القاهرة أخيراً فيلماً تدور حوادثه حول بعض الإفريقيين ، فالفيلم يبدأ بمنظر حزين لقافلة إفريقية تساق من أرضها اغتصاباً بوساطة واحد من أبنائها ذى حول وقوة ثم تسلم لمغامر أوروبى فى مقابل برميلين من النبيذ . وفى السفينة يدور الصراع فى أعماق الإفريقيين بعد أن يوضع الحديد فى أيديهم وأرجلهم . فهم لا يريدون هذه الحياة الجديدة التى يتنازلون فيها عن حرياتهم ، ومن هنا يضربون عن الطعام . ويقود حملة العصيان «تامنجو» ويدمر أعصابهم المغامر الأوروبى حينما يأمر بأن يقذف بواحد منهم إلى عرض البحر . بينما يضحك زملاؤه من البحارة لأنهم يرون فيه التاجر الذى يترك « تامنجو » لكمال جسمه ويقذف بآخر من الثائرين بينما قائد الثورة ، والرجل الذى حاول أن يطعنه فى قلبه هو « تامنجو » .

ثم يدمر أعصابهم مرة ثانية حينما يشنق إفريقياً على السفينة ويعرضه على أنظارهم ، ولكن كل هذا لن يطفىء شعلة الحرية التى تقاوم فى نفوسهم ، وتشاركهم فى هذا إفريقية أخرى يحتفظ بها المغامر فى حجرته الخاصة بعد أن شنق خطيبها فى رحلة سابقة ، وهى فى مبدأ الأمر تثبط من عزيمة الإفريقيين ، وتقول لهم : إن البيض ينتصرون دائماً ، وإنه لا داعى للثورة ، ولكن المغامر يطمعها فى زواجه منها حينما يحس منها الانعطاف نحوهم ، وتنجح هذه المكيدة ، وتمتنع عن تنفيذ ما طلبه منها الإفريقيون

وهنا يحس « تامنجو » أنها خطر عليهم فيحملها إلى قاع السفينة ، ويعتصم الجميع فى داخلها مفضلين الموت على فقد الحرية ، والعرض فى الأسواق ، والبيع للبيض . وهنا يشعر المغامر بالضآلة ، ونراه يتحول فجأة إلى حب شديد للفتاة ، ويرغب فى استخلاصها منهم ، وتحاول هى الأخرى الوصول إليه بعد أن يناديها بشوق وحب ، وبعد أن يهددهم بالغاز الخانق ، ويأخذ عليه زملاؤه من البحارة هذا الضعف ، ويصل الصراع إلى قمته حينما يفضل الإفريقيون الموت على الحياة ، ويغنون أغنية حزينة من أغانى إفريقية تبدأ بكلمة دامعة هى « اوهورا » بمعنى الحرية ، وفى أثناء هذا يتركون « الفتاة الإفريقية » لتصل إلى المغامر الذى أحب كل منهما الآخر ولكن هذا الحب يتحول من قلبها إلى حب كبير هو حب الحرية ، فنراها تمتنع عن الخروج ، وتفضل البقاء معهم ، والموت بحرية . . وحينما يحس منها هذا الإصرار يحول واحد من مدافع السفينة إلى المكان الذى يتجمعون فيه . . . ويقضى على الجميع . .

ولكنهم يموتون أحراراً ! !

« ابتسامة إفريقية »

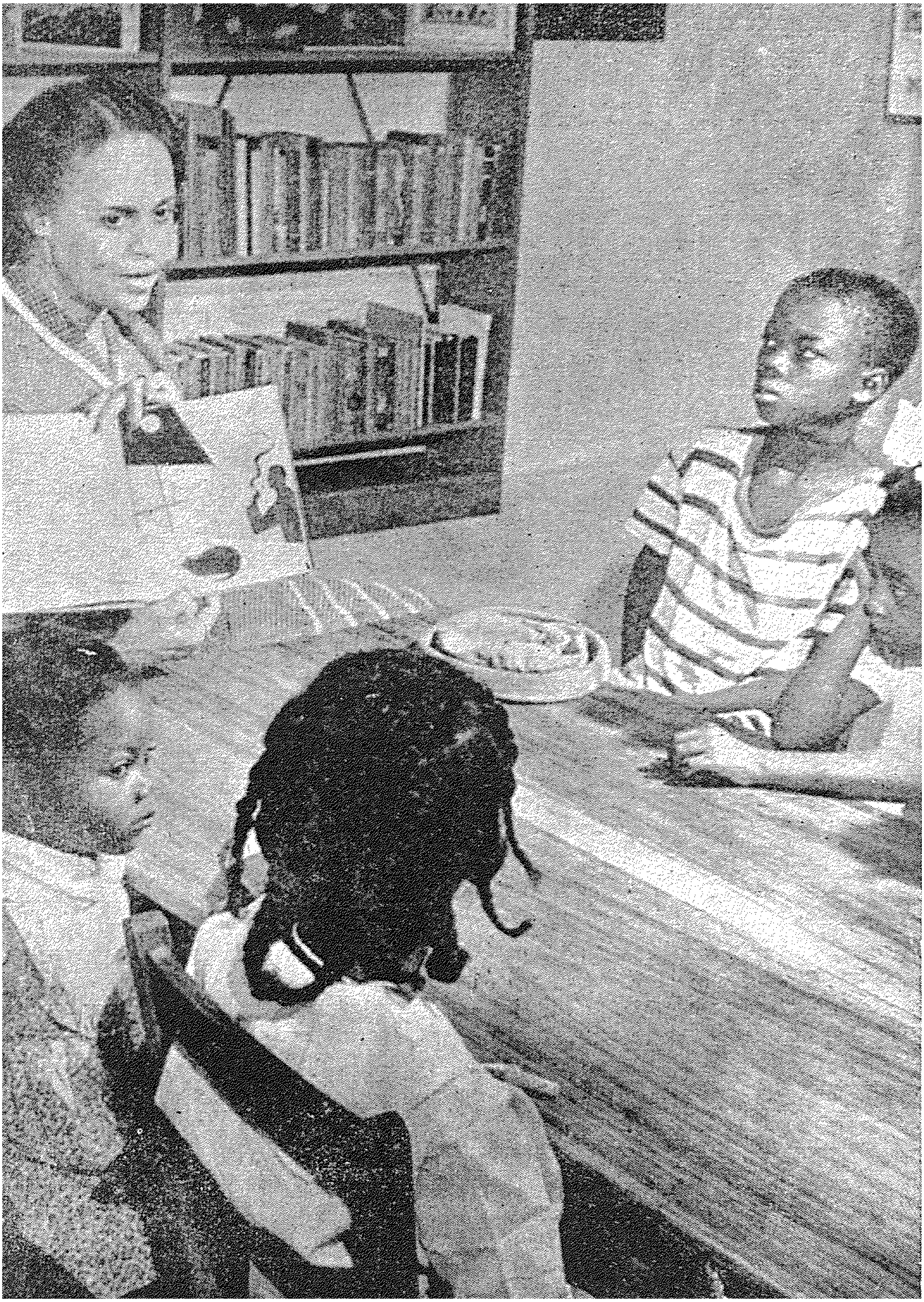

« درس فى المكتبة »

من القصص السوداني

السبيل

للأستاذ : عباس خضر

قالت الجدة العجوز لأحفادها الصغار : كان ... يا ما كان .. ولا يحلو الحديث إلا بذكر النبي عليه السلام . قال الأولاد : عليه الصلاة والسلام .

قالت الجدة : كان فى قديم الزمان رجل يطوف بالبلاد ويتنقل بين الربوع ومضارب البدو ، كى يبيع لأهلها الخرز ، والمناديل ، والأقراط ، والعقود والمرايا والأمشاط ، يقضى فى ذلك طول النهار . ثم يعود فى المساء إلى بلده وأولاده حاملا إليهم مارزقه الله ، وما تيسر له من أنواع الطعام . والحلوى والهدايا التى تفرح الأولاد .

وكان كثيراً ما يمر بأماكن لا يجد فيها ماء ليشرب منه ، فيصبر على عطشه ساعات طويلة حتى يصل إلى مكان به ماء ، وإذا حدث أن صادف فى الطريق « أزياراً » فيها ماء فرح بها فرحاً عظيماً ، وارتوى منها ، ودعا للمحسنين الذين وضعوها بأن يزيدهم الله من نعمه ويجزيهم خير الجزاء .

ثم قال فى نفسه : لماذا لا أفعل مثل أولئك المحسنين ؟ لا بد أن كثيراً من الناس يمرون بذلك الطريق الذى يقع على مسافة من منزلنا ، ولا بد أنهم يعطشون كما أعطش ولا يجدون ماء يشربون منه .

وفعلاً أتى بثلاثة « أزيار » ووضعها بالعراء على جانب الطريق وصار يملأها بالماء كل ليلة قبل أن ينام ، لأنه فى الصباح يكون مشغولا بإعداد بضاعته حريصاً على التبكير فى جولاته قبل أن تحمى الشمس ويشتد الحر .

وخطر له ذات صباح وهو يمر بالأزيار أن يتفقدها ويتحقق من امتلائها بالماء . ولكنه عند ما نظر فيها واحداً واحداً وجدها خالية من الماء . فقال فى نفسه لعل المارة بالليل كانوا كثيرين فشربوا الماء كله . ولكنه فى الصباح التالى مر بها ونظر فيها فلم يجد ماء ، فعجب ، واشتد عجبه لما تكرر ذلك فى الأيام التالية . وداخلة الشك فى أمرها . وفكر التاجر ملياً ، ثم استقر رأيه على أن يراقب الأزيار بالليل ليرى بنفسه ما يحدث . ملأ اثنين منها ، أما الثالث فتركه فارغاً ، ثم دخل فيه حتى لا يراه أحد . وظل ساهراً يترقب .

وبينما هو جالس القرفصاء فى ذلك الزير سمع صوتاً غريباً ، فنظر ، فرأى طائراً كبيراً عرف مما كان

يسمعه من أوصافه أنه « الرخ » .

هبط الرخ بجانب الأزيار ، ولم يمض قليل من الزمن حتى أحس التاجر بأن الزير يرتفع به ويرتفع .. فذهل وخاف وأيقن أنه هالك فى هذه الرحلة الجوية التى لا يدرى إلى أى شيء تنتهى به . وبينما هو فى خوفه وذهوله إذ أحس بالزير يهبط به شيئاً فشيئاً حتى استقر على الأرض ، فشعر بارتياح وداخله التفاؤل بالنجاة .

وأراد أن يعرف بأى مكان هو . فنظر من أعلى الزير فرأى الأرض التى أنزله بها الرخ ذات ألوان مختلفة . ذهبية وفضية وحمراء وخضراء .. تنبعث من جوانبها أضواء ترسل بريقاً يكاد يخطف الأبصار ، ورأى الرخ ينقل الماء من الزيرين المملوئين إلى صغاره التى تحركت لاستقباله وصارت تنطط على الأرض وتتواثب فى سرور والرخ يحنو عليها ويسقيها ويملأ الأوعية التى بجوارها .

وخرج الرجل من الزير وسار على الأرض ببطء وحذر . وجعل يتأمل ما حوله . فعرف أنه حل بأرض تكسوها الأحجار الكريمة من ذهب وفضة وزمرد ومرجان وغيرها فأخذ يجمع منها ما استطاع حمله .

وتعجب غاية العجب لأن الرخ لم يكن ينظر إليه كأنه لا يشعر بوجوده ... فجعل هو كذلك يبتعد عن طريقه ولا يقترب من صغاره .

ثم دخل الرجل فى الزير بما جمعه من الأحجار الكريمة ، وبعد قليل أحس بالزير يرتفع به ويطير فى طريق العودة ... ثم استقرت الأزيار الثلاثة فى مكانها حيث وضعها الرجل التاجر على مسافة من منزله .

حمد الرجل الله وشكره على نعمته ، ثم عزم على أن يستغل المال الذى حصل عليه فى فعل الخير ونفع الناس ، فأتى بأربعة أزيار أخرى ووضعها بجانب الثلاثة الأول ، فصار الجميع سبعة ، وصار يملأها بالماء كل ليلة . وبنى بجوارها مسجداً ، وصار يساعد كل محتاج .

وفى كل صباح يمر الرجل بالسبعة الأزيار فيرى الثلاثة فارغة ، والأربعة مملوءة . فيعلم أن الرخ يأخذ حاجته من الماء ويترك الباقى للعابرين وأبناء السبيل .

وقبل أن يموت التاجر أوصى أولاده أن يداوموا على رعاية الأزيار السبعة وملئها بالماء ، حتى يبارك الله لهم فى أموالهم وأولادهم ويعيشوا فى سعادة ، فحافظ الأولاد والأحفاد على العهد وحرصوا على تنفيذ الوصية .

قالت الجدة لأحفادها الصغار وقد شملهم السكون :— أتعرفون «السبعة الأزيار» التى يذهب إليها الناس من كل مكان ويشربون منها ويتبركون بها ؟ — نعم نعرفها .— إنها هى .. صارت « سبيلا » لله.

ضوء على كتاب

من الكتيبات التى ظهرت حديثاً كتيب « قصة ملكة سبأ بين الأسطورة والتاريخ » للدكتور زاهر رياض وقد بدأه بالمادة الثالثة من دستور أثيوبيا الذى صدر فى عام ١٩٣١ والتى تقول

« يقرر القانون أن الشرف الإمبراطورى سيظل بصفة دائمة متصلا بأسرة هيلاسلاسى الأول . سليل الملك هيلاسلاسى الذى يتسلسل نسبه بدون انقطاع من أسرة منليك الأول ابن الملك سليمان ملك بيت المقدس وملكة أثيوبيا المعروفة باسم ملكة سبأ » .

كما عقب بهذه المادة من الدستور الذى صدر فى عام ١٩٥٥ ، والتى نصت المادة الثانية منه على أن« يظل العرش بصفة دائمة محصوراً فى نسل هيلاسلاسى الأول ، المتسلسل من الملك سملاسلاسى الذى هو بدون توقف أو انقطاع من نسل أسرة منليك الأول بن ملكة أثيوبياً ملكة سبأ من سليمان ملك بيت المقدس » .

فالمحافظة على العرش تستند على عملية الإنجاب التى تنتهى إلى سليمان من بلقيس حينما زارته فى مقر حكمه . كما تؤكد هذا تلك القصة التى تعتبرها الحكومة قصة رسمية . والتى تضمنها كتاب « كبرانجست » أى سير الملوك.

والتى تحكى أن « ماكيدا » كانت ملكة عظيمة غطت مملكتها بلاد الحبشة واليمن . وأن هذه الملكة كانت على قسط كبير من الثروة . والجمال . وأنها كانت تسيطر على مصير التجارة بين الهند . وأسوان . وقد كان هناك تاجر غنى — يسمى تامارين أو تمر الدين — يملك خمسمائة وعشرين جملا . وثلاثمائة وسبعين سفينة ترامت أخباره إلى سليمان الذى كان يحكم بيت المقدس . والتى ما كادت أخباره تصل إليه حتى رغب فى أن يحمل إليه بعضاً من الذهب الأحمر ، والخشب الأحمر الذى يعز على السوس والذى يكثر أكثر ما يكثر فى الحبشة . والجزيرة العربية ، وقد لبى التاجر هذه الرغبة ، وحمل إليه ما طلبه منه ، فسر منه سليمان . وأغدق عليه العطاء .

ورغبه فى البقاء فترة من الزمن بمملكته حتى يشاهد سر الحياة فيها ، فلما انتهى موعد الزيارة سارع بالذهاب إلى الملكة « ماكيدا » فى الجنوب ، وأخبرها عن هذا العالم الجديد الذى رآه ، وهذه الحكمة التى تصدر عن سليمان ، كما قص عليها أمر الهيكل

الذى بناه فى القدس . واستخدم فى بنائه سبعمائة نجار . وثمانمائة بناء . وقد سمعت الملكة هذا الحديث فى أول الأمر فى شىء من عدم المبالاة . ولكنها ما لبثت أن انجذبت إليه . وأخذت تسائله عن كل ما يتعلق بسليمان . وقد أداها هذا كله إلى الرغبة فى الرحلة إليه . وإلى تحقيقها فعلا بعد أن استشارت الشعب . وهناك قابلها سليمان بكافة ألوان الترحيب . وأحاطها بألوان كثيرة من الترف . وتعدد اللقاء بينهما وكان الإعجاب . به وبخاصة حينما اكتشفت أنه يعرف لغة الحيوان والطير . ويسيطر على الأرواح والشياطين . وقد استطاع فى غمرة الإعجاب هذه أن يحولها عن عبادة الشمس إلى عبادة الله . وبعد ستة شهور رغبت الملكة فى العودة . ورغب سليمان فى الزواج منها . وكان أن دعاها إلى قصره الخاص به . وأمر بأن تقدم إليها ألوان من الطعام التى يشتد الظمأ بالمقبل عليها . وفى إحدى الليالى أمر الخدم بألا يقدموا لها الماء إذا طلبته . وإذا سألتهم عن مكانه ذكروا لها أنه بجوار سرير الملك ، ولم تجد أخيراً بداً من أن تدخل إليه فى حجرته التى كان يتظاهر بالنوم فيها . وأن تشرب حتى تنقع غلتها ، فلما استدارت راجعة قفز إليها مسرعا وقال لا : لقد أصبحت زوجتى وفقاً لقانون الملوك . فقد جئت إلى حجرة نومى .

وحصلت على شىء ليس لك وهو الماء الذى تقوم عليه الحياة ، وكان أن استجابت ، ووهبت نفسها له . فلما أطبق النوم أجفانه رأى فى الحلم أن شمساً ظهرت فى السماء . وظلت تسير حتى وصلت إلى أثيوبيا . وقد تحقق هذا حينما عادت وولدت ولداً قوياً حكيماً كأبيه . فلما سأل عن أبيه ذكرت له أنه سليمان . وأنه خاتم مملكته فى حوزتها . وستهبه له حينما يصير ملكاً . كما طلبت منه فى أحد الأيام أن يتوجه إلى أبيه . ووضعت فى يده الخاتم . فلما دخل على أبيه عرفه ، وأكرمه . وأجلسه معه على العرش وأطلق عليه اسم « منليك » . ورغبه فى البقاء معه حيث تابوت العهد . ولوح موسى . ولكن الابن صمم على العودة . فلما رأى سليمان منه ذلك طلب من كل الكبار فى مملكته أن يرسل كل واحد ابنه البكر معه ليخدموه هناك . وقد رحب الجميع بهذا . وكان أن أخذ الكهنة منليك إلى الهيكل . وأدخلوه قدس الأقداس . ولمس المذبح . وأعلن ملكاً . وفى الوقت نفسه احتشد أولاد الأعيان للرحلة الجديدة . ولكن فراقهم لتابوت العهد مزق نفوسهم ، وكان أن اقترح واحد منهم أن يجمعوا مالا ، ويصنعوا واحداً مثله من الخشب ، ويضعوه مكانه ، ونجحوا فعلا فى أخذ تابوت العهد بدلا من تابوتهم وفى الطريق ، وفى

مصر على وجه التحديد أخبر «منليك» بأمر السرقة «حتى لقد تعجب منهم المصريون . وزاد عجبهم حين وجدوا تماثيلهم تنحنى وتسجد له إذا ما اقترب منها ، وعند عبورهم البحر حماتهم الملائكة على أجنحتها . وكانت الأسماك تخرج من الماء وتتجمع حولهم . وطيور السماء تغنى لهم أغانى الفرح والسرور ، حتى وصلوا ساعين إلى حدود أثيوبيا »

وفى يوم قص سليمان حلمه على الكاهن صادوق فأوجس خيفة من أن يكون التابوت قد حمل معهم . فلما ظهرت لهم الحقيقة أمر سليمان بمطاردة ابنه ، ولكنهم وصلوا به إلى أثيوبيا . وكان أن جمعت الملكة حوله أعيان الدولة وجعلتهم يقسمون أمامه على ألا يقبلوا عليهم ملكة فى مستقبل يومهم . وألا يكون الملك إلا فى ذكور ذرية سليمان . وقد تولى من بعدها «منليك» .

وهناك أسطورة أخرى تروى أن الشعب كان يعبد ثعباناً ضخماً . وكان على كل واحد من الشعب أن يهبه ابنته الكبرى ، وكميات من الخمر واللبن كل عام . فلما جاء دور الفتاة « أتيجى أزب » ربطت فى فروع شجرة فى انتظار التهامها ، ولكن سبعة قديسين جلسوا تحت الشجرة طلباً للظل فكان أن تساقطت عليهم دموع الفتاة فلما سألوها عن قصتها وقصتها عليهم عزموا على قتل الثعبان ، وقتلوه بالفعل بصليب كان معهم ، وكان أن طارت نقطة دم منه إلى كعب الفتاة فصيرت رجلها رجل حمار ، فلما رأى الشعب ذلك نصبوها عليهم ملكة . فلما تواترت إليها أنباء حكمة سليمان رغبت فى عرض حالتها عليه ، وتنكرت بالفعل فى قافلة مسافرة إليه ، ولكن سليمان عرف هذا ، واحتال إلى شفائها بوساطة قطعة مباركة من الخشب ؛ ثم تمضى القصة متشابهة فى كثير من ملامحها بالقصة الأولى .

وإلى جانب نواحى الاتفاق فى القصة توجد جوانب اختلاف لعل أهمها تجاهل القصة الأولى لحكاية الثعبان . وعبادته مرة وعبادة الشمس مرة أخرى . وإظهار منليك بريئاً من قصة سرقة التابوت ، وإثباتها تارة أخرى ، وعدم الموافقة على تولى البنات الملك فى واحدة ، والموافقة فى الثانية . . الخ .

ومهما يكون من شىء فزيارة ملكة سبأ لسليمان حقيقة تاريخية يؤكدها ما جاء فى الأصحاح الرابع من سفر الملوك الأول الذى جاء فيه « وأعطى الله سليمان حكمة وفهماً كثيراً ورحبة قلب كالرمل الذى على شاطىء البحر ، وفاقت حكمة سليمان جميع بنى الشرق ، وكل حكمة مصر . . وكانوا يأتون إليه من جميع الشعوب ليسمعوا من حكمة سليمان من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا عن حكمته . » ، كما جاء فى الأصحاح العاشر من السفر نفسه « وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل كثيرة

فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً بجمال حاملة أطياباً ، وذهباً كثيراً جداً ، وحجارة كريمة ، وأتت إلى سليمان ، وكلمته بكل ما كان فى قلبها ، فأخبرها سليمان بكل كلامها ، ولم يكن أمراً مختفياً عن الملك لم يخبرها به ، فلما رأت الملكة سبأ (لعلها ملكة سبأ) كل حكمة سليمان . والبيت الذى بناه ، وطعام مائدته . ومجلس عبيده . وموقف خدامه وملابسهم . ومحرقاته التى كان يصعدها إلى بيت الرب لم يبق فيها روح بعد فقالت للملك : صحيحاً كان الخبر الذى سمعته فى أرضى عن أمورك وعن حكمتك ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناى » كما أشار إلى هذه الرحلة الأصحاح الحادى عشر فى سفر الملوك ، وفى الآية ٤٢ من الأصحاح ١٢ من انجيل متى . والآية ٣١ من الأصحاح ١١ من انجيل لوقا .

كما وردت هذه القصة فى القرآن الكريم فقد جاء فى سورة النمل « ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمدلله الذى فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين ، وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين ، وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون ، حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكاً من قولها وقال ربى أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ، وتفقدّ الطير فقال مالى لا أرى الهدّهد أم كان من الغائبين . لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين . فمكث غير بعيد . فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم . قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . إذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ، ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يأيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين . قالت يأيها الملأ افتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون . قالوا نحن أولوا قوة وألوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون

فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال فما آتاني الله خيراً مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون . قال يأيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين . قال عفريت من الجن . أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين . قال الذي عنده علم من الكتاب . أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ، ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم . قال نكروا لها عرشها ننظر اتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو . وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت : رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » . ثم يذكر المؤلف أن المصادر الدينية لم تلق ضوءاً كافياً على الملكة . وأن القصتين الإتيوبيتين تحاولان الوصول إلى هدف واحد هو أن ملك أثيوبيا هو ابن سليمان ملك المقدس . ثم يضعنا أمام حقيقتين فبينما يذكر أن سبأ جزء من اليمن ، وأنها كانت جزءاً من مملكة معين التي كانت مقسمة إلى ولايات . ثم تفوقت على معين في القرن السابع قبل الميلاد حين أهملت السدود التي كانت تحجز عنها الماء . وأن نفوذها لم تمتد بها إلى البحر الأحمر . . بينما يذكر المؤلف هذا نراه يواجه هذه الفكرة بفكرة أخرى هي أن دولة « أكسوم » قد امتدت في أوقات كثيرة فعبرت البحر ، وشملت أجزاء اليمن ، وأن لديه أكثر من دليل على اتساع هذه الدولة . وعبورها البحر . وشمولها أجزاء من اليمن في أوقات كثيرة من تاريخها . كما يذكر أن هناك من يقول إن سبأ كان اسما لمكان ما في أثيوبيا في الزمن القديم حمله معهم المهاجرون اليمنيون الذى استقروا في إثيوبيا . ثم نرى المؤلف يقول : إنه يقف « موقف المتحفظ » من زواج الملكة بسليمان . وإنجابها ولداً . وحضوره إلى أورشليم . ثم عودته بتابوت العهد رغم أنه لا يوجد دليل في الكتب السماوية أو مصادر التاريخ . أو أثر ، أو نقش يؤيد جزءاً واحداً أو أجزاء منها ! . . ثم يورد أخيراً ألواناً من التشابه بين المظاهر والمراسيم التي حرص عليها الأثيوبيون تشبها بالمظاهر والمراسيم التي كانت سائدة في أيام سليمان .

فالكلام على هذا النحو يعتبر محاولة لتبرير ما جاء في الأسطورتين . فنحن نعرف أن سبأ اسم لسبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . ثم

صار اسما لحى من الناس سموا باسم أبيهم ، أو اسم للقبيلة ، أو مدينة تعرف بمأرب باليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال ، كما نعرف أن اسم الملكة هو بلقيس بنت شراحبيل من نسل يعرب بن قحطان ، وكان أبوها ملكاً على اليمن كله ، وأن رعيته كانوا مجوساً يعبدون الشمس .

كما أن الهدايا التى حملتها بلقيس إلى سليمان لا توجد فى الحبشة ، وإنما توجد فى اليمن ، وأن ملوك أكسوم ظلوا على وثنيتهم حتى أوائل القرن الرابع قبل الميلاد ، وأن آثارهم تدل كذلك على أنهم كانوا يتفاخرون بنسبتهم إلى إله الحرب « ما حرم » ، وأن الأسطورتين السابقتين تعتبران دعاية سياسية للأسرة المالكة بعد الاستناد على ملامح منها فى القرآن ، والإنجيل وبخاصة أنهما انتشرتا فى القرن السادس الميلادى بعد ظهور الإسلام . ثم إن هناك عملية مشابهة لهذا كما يرى المؤرخ العربى أبو صالح الذى أرخ للكنائس والأديار فى مصر عام ١٢٢٥ حين ذكر أن أسرة « زجوى » التى ظلت تحكم حتى عام ١٢٧٠ فى الحبشة ترى أنها ترجع بنسبها إلى موسى ، وربما استندت فى هذا إلى ما جاء فى التوراة من أن موسى اتخذ لنفسه جاريه حبشية ، وكان هذا سلاحاً سياسياً رفعته فى وجه الأسرة التى اغتصبت منها الحكم ، فعمليات التزوير القائمة على أسس من السياسة معروفة فى كل التاريخ ومن هنـــا يجب أن نقف بالقصة . عند زيارة هذه الملكة اليمنية لسليمان ، وخروجها عن عبادة الشمس على يديه فمع أن هذا يتفق مع النصوص الدينية ، ويتمشى مع المنهج العلمى ، ومع القدرات الإنسانية ، نراه كذلك يبتعد بسليمان عن استدراج هذه الملكة بطريقـــة ساذجة إلى حجرة نومه ، بل نراه يضطجع مع خادمتها كذلك وإذا كنا نستبعد هذا عن ملك حكيم فكيف نقبله على نبى ، كما نراه كذلك يبتعد بابن سليمان عن المخاتلة ، والسرقة ، ولعل العقل لا يتصور أن التعبان الضخم الذى كان يهبه كل واحد من أفراد الشعب ابنته الكبرى ، وكميات كبيرة من الخمر واللبن ، يستطيع القديس الأول من السبعة أن يمسكه من لحيته ، ثم يقتل بصليب كان فى أيديهم ، وأن نقطة من دمه قد طارت على كعب الفتاة فصيرت قدمها قدم حمار ، ولماذا لم يفعل الدم بالقديسين ما فعله برجل الفتاة . وهناك من يقول إن السبعة القديسين كانوا فى وقت قريب جداً ، بعد انتشار المسيحية .

والكتاب بهذه الصورة ، وبالمنهج وعملية التحليل التى سار بها يحاول أن يخدم — كما خدمت الأسطورتان فى الماضى — الفكرة السياسية الشائعة ، والتى تسند الأسرة الحاكمة إلى سليمان من جهة ، والعهد القديم من جهة أخرى .

injustices and assertion of African claims. Since the defeat of the Mau Mau revolt this movement has grown. It is admitted that the members have not committed acts of violence.

The Kenya Government alleges that the political objects of the movement are similar to those of Mau Mau though they have not, so far as I know, been published. My expectation is that they do demand an end to the European ownership of the White Highlands and African representation in the Legislature on a fuller basis than the rejected moderate claims of Tom Mboya's group.

It is also alleged that this passive movement is practising oath-taking though I very much doubt whether the indecencies of Mau Mau oaths are being repeated. I am asking in Parliament for these unknown details.

Banned

The unchallenged facts, however, are that the new organization, Kisma Kia Muingi (the African Peoples' Party) has political objects, plans to press them forward by political means and repudiates methods of violence. Nevertheless the organization has been banned, 85 leaders and members have been arrested, and membership is punishable by seven years' imprisonment and leadership by forteen years' imprisonment.

Marshal Arthur T. Harris, known in the Royal Air Force as "Bomber Harris" has every reason to write to "The Times" asking why there are protests in Britain against the arrests in South Africa culminated in the Treason Trial when the Kenya Government with the support of the British Colonial Office regards it as necessary to act in this way in Kenya.

Marshal Harris points out that during the Mau Mau revolt 10,000 persons were killed, over 1,000 hanged and some 75,000 placed in prison camps without trial. He does not suggest that these actions in Kenya have been unnecessary, but with much justice points the inconsistency of condemning the Government of South Africa whilst such methods are employed in a British colony.

The warning should be given. British policy in Kenya is inevitably arousing an anger among the African population which will create a situation of danger unless the European community and the Kenya and British Governments are prepared to go much further in moving towards a democratic and equalitarian inter-racial society.

DANGER SPOT

By FENNER BROCKWAY Labour M.P. - House of Commons)

I want to draw special attention to a danger spot in Africa.

Since the ending of the Mau Mau revolt in Kenya attention to the problems of that territory has only been intermittent. Tension is now arising again in a threatening way. More than once I have urged that the European settlers in Kenya and the Kenya and the British Government must go very much further in giving concessions to the African population if co-operation between the races is to be established. The concessions have been woefully inadequate.

The African representatives in the Legislative Council have asked that their six million people should at least have half the members of the Legislature. This is a modest demand in view of the fact that the European, Asian and Arab-populations number less than a quarter of a million.

Nevertheless, the demand has been refused and the Lennox Boyd Constitution has been imposed. African indignation was reflected in the boycott of the Legislative Council by all the elected African members when the Constitution was adopted.

The tension is now shown by the fact that African political meetings in Nairobi have been banned. Apparently Mr. Tom Mboya, the leader of the African group in the Legislature, called a meeting in protest against the Lennox-Boyd Constitution.

Mr. Mboya made a speech of a quiet and reasoned character, but there were disturbances outside the hall among Africans who could not get in and a protest procession in support of the purposes of the meeting took place. Arising from this all African political meetings in the capital of Kenya have been forbidden.

Multi-racial?

It is claimed that Kenya is a multiracial society. Are Europeans to be permitted to hold meetings in Nairobi to support Lennox-Boyd Constitution? Are Asians to be permitted to indicate their support of the African demand? To prohibit public meetings of one race only shows how far the Government of Kenya has yet to go before it accepts inter-racialism.

There is another disturbing development. Towards the end of the Mau Mau disturbances a group of Africans who were opposed to the violence of Mau Mau decided to follow the Indian line of non-violent resistance to

mother's citizenship. The educator's African heritage helped him move through the race-conscious South with a minimum of discrimination being levied against him, but it also prevented him from becoming the President of Livingstone College though he was twice a candidate. Negroes resented a "foreigner" in their midst even though he was bent upon giving his life in service to them.

Aggrey in commenting upon the mixed feeling expressed toward him, once said: "I often receive kicks from both sides — white and and black. But all of that is in a day's work. One need not to be surprised."

The inspired man was conscious of the limitations of his "moderate" approach to racial problems. He once told Prime Minister Kwame Nkrumah when the great African nationalist was a student at Achimota College, "So far I have been able to make you hungry. Pray for me that when I come back (to Africa) I may be able to satisfy that hunger."

James E. K. Aggrey tried and nearly succeeded in lifting singlehandendly the veil that shut Africa away from the most advanced knowledge of his time. He preached that women were as qualified to learn as men and Negroes as qualified as whites. Pioneering in the advancement of education for African women, he once told a group of Africans, "The surest way to keep a people down is to educate the men and neglect the women. If you educate a man you simply educate an individual, but if you educate a woman, you educate a family."

On January 28, 1927, some 4,000 Africans surrounded the first 60 students of Achimota College — 36 boys and 24 girls. Aggrey, among the others, stood bare-headed on the new finished steps of the school to watch a dream just come true — a teacher training institute on the Gold Coast.

James Emman Kwegyir Aggrey had spent 20 year in America, travelled over the face of Africa as a member of the Phelps Stokes Commission, come within an unfinished Ph. D. dissertation of winning his doctorate from Columbia University, reared a family and proved to the world that an African can drink from the world's great pool of knowledge as much as any man alive. He had reached his peak without knowing it. Had attained the heights only slightly aware of the meaning it held for his beloved people in his two countries.

He was therefore most ill-prepared to stop his upward climb when he was in New York City on July 30th, he collapsed and died.

that line, hence he can speak for several paramount kings and his speech binds them. No paramount chief's line is higher than mine, and very few (are as high) as mine."

In 1874 Sir Garnet Wolseley armed and reinforced with allied African tribes marched into Kumasi, the capital of the powerful, proud and anti-British Ashanti tribe and burned the city to the ground.

The following year the Ashantis were said to be preparing an army to attack the British and avenge the disgrace of their stronghold. Aggrey's tribe, the Fantis, allied with the British so as to escape domination by the more aggressive Ashantis, was called to arms. The Ashantis were going to attack.

A dark, solemn-faced elder of the Fanti tribe announced that there would be the customary ceremony with the child before the battle. The sun reddened and flames lit the huts around the village fire and the ceremony began. An eight-day-old baby was taken from its mother's back and water sprinkled upon its lips and ritual words were said. James E. K. Aggrey had received his first initation into the customs of the Fanti tribe.

Ritual was always a part of Aggrey's life. African ritual and those of the West. At eight years he was selected as one of 20 to live in and study at the house of a white missionary. He taught 35 to 40 young boys when he was only 15, and at 23 he was a militant headmaster of an entire school and secretary of the Aborigines Rights Protective Association, which forced the defeat of an English Bill which would have taken land from the African. In the same year, James Aggrey sailed for America on a Bishop's Scholarship to Livingstone College in Salisbury, North Carolina.

The young ambitious African was a man in a hurry, and he rose to the head of his class, surprising his teachers and astounding his fellow students with his profound grasp of Latin, Greek and French, all of which he'd learned from the white missionaries in exchange for lessons in his own Fanti tongue.

He met and married the beauteous and brilliant Rose Hudson in 1907 and within five years became the father of three children. Sixteen years later the last child was born and was named Orison Rudolph Aggrey. Today, Rudolph is 31 and approaching the fame his father enjoyed.

Aggrey's family life was different from that of the average American Negro for the very reason that he was not an American Negro, though his children became citizens through their

Achimota College which the British were building. He had seen this method at work — and successfully so — at Hampton Institute and he strongly believed that Africa needed artisans as well as artists. A born phrase-maker, Aggrey's favorite, which he used often, was this: "You can play a tune of sorts on the white keys, and you can play a tune of sorts on the black keys, but for real harmony you must use both the black and the white."

Dr. W.E.B. DuBois criticized both Washington and Aggrey for placing stress upon manual arts instead of Shakespeare and pscychology. Dr. DuBois blasted the theory as a scheme to make it "easier to lynch Negroes and keep them in ignorance and peonage in the country districts." Aggrey's critic concluded, "... it is also easier to cheat them out of a decent income."

Summing up his retort in a single sentence, Aggrey said: "I want all my people to be educated in the larger sense, in heart, hand and head, and thus render Africa indispensable in spiritual, intellectual and commercial products to the world."

Aggrey's return to Africa after his sojourn of two decades in United States established his reputation as a great orator and brilliant thinker. He translated what he had learned at the American universities into fables and stories that excited the least educated African. He returned to his home a conquering hero. Gold Coast men and women filled the junctions and tin roofed halls to hear his word, and, in gratitude named their schools after him. The revered scholar taught the importance of knowing the world's great secrets, and he presented himself as proof that it could be done. Rarely-gifted, he inspired the ambitious and pacified the impatients.

James Emman Kwegyir Aggrey (he shortened his name) did not propose the militant forward push that ultimately won the independence of his home-state, Ghana, but he did fire the nationalistic pride in the African face, family and tribe that brought to leadership the present-day crusaders who are fighting for and have won independence for their countries.

Aggrey's Pride in 900-Year-Old Family inspired him to excel

The father of African education is a man whose career spanned two continents and whose heritage bridged 900 years. "My family," said James E.K. Aggrey, "as early as 1076 and before, gave their name, to the Carthagenian, sometimes called Phoenician, beads now worth their weight twice in gold. My father is a direct descendant of

Scholar championed Negro rights here, paved way for independence in Africa

"James E.K. Aggrey is a god to his people." John Henrick Clarke, African scholar, once spoke these words after returning from Aggrey's home at Anamabu, Gold Coast.

Kwame Nkrumah, Prim Minister of the Republic of Ghana says, "It was because of my great admiration for Aggrey, both as a man and a scholar, that I first formed the idea of furthering my studies in America."

James Emman Kodwo Mensa Humanfunsam Kwegyir Aggrey bears the name of an African family whose roots are 900 years deep in the soil of African history.

He was the first African to be named to administrative staff of the famed Achimota College. A Bishop's Scholarship to Livingstone College in the United States convinced the dedicated son of an African chief to sail to America when he was 23.

Inheritor of the spirit that made his father a leader in the Fanti Confederation, the first known attempt to organize Fanti tribes, Aggrey became Secretary to the Aborigines Rights Protective Society, the second important nationalist group to rise in Africa. This group bitterly opposed British law aimed at giving possession of Gold Coast land to English Landowners.

Once in America, Aggrey put his great energies to work in behalf of American Negroes, while studying and later teaching at Livingstone College. He organized the first Negro Credit Union in the United States, enabling poor farmers and plantation hands to buy supplies at wholesale prices, to save and borrow.

Aggrey did not escape the racial hostility of the South, but he advocated work, study thrift and cooperation as the best solution to the problem. Booker T. Washington's ideas of the importance of agriculture, carpentry, and masonry as part of the regular school courses greatly influenced him, and Aggrey urged inclusion of these manual arts in the African system, when after 20 years in America, he returned to his native land.

In the course of two return visits to Africa, Aggrey determined that education should not end with the absorbtion of logic and Greek. He insisted upon this dual feature of education in the new

me of these peoples who painted and engraved with such astonishing distinction? Here, too M. Lhote has something to add to the story. Near Aouarhet in the heart of the Tassili range he found the painting of a Negro mask whose stylisation is typical of west Africa belonging to a model in use among the Senouffo peoples of the Ivory Coast, where it is used for intiation rites.' But if M. Lhote has solved some old problems, he has also raised some new ones. For to add to the fascination of this particular find — in a place where Negro peoples had been never known to dwell — he can show that it was painted over the nude figure of a woman entirely white, with another white woman alongside it. Who painted those white women? and what did their whiteness really mean?

EDITOR'S COMMENT

Mr. Basil Davidson is a well known active sympathiser of the African freedom movements. Africans warmly appreciate this courageous efforts which he has made in mercilessy exposing the slave conditions in the Portuguese African colonies, the injustices of imperialism and the hollowness of apartheid in the domains of White Settlerdom in East, Central and South Africa. These circles have consequently taken fright at his activities, and dubbing him an "agent of sedition", have declared him a "prohibited immigrant" into "their territories". The British Colonial Office under Lennox-Boyd has developed cold feet and has backed these ill-advised fiats. But Mr. Davidson should have consolation in the knowledge that his warm-hearted efforts to correctly interpret Africa and to assign to her, her true place in world history and culture, enjoy the broad support of enlightened African opinion.

The Tassili Plateau (where these important archaeological finds have been made) is in Algeria, just opposite the large desert Fezzan Province of Libya where there is a large black minority. Some of the Africans of the Fezzan have blood ties with the people of EL KANEM (comprising present-day Tchad in Fr. Eq. Africa and Bornu Province in N.E. Nigeria). Until the coming of the imperialists, there were very frequent commercial and cultural contacts between the Fezzan and El Kanem. To this day Hausa, the lingua franca of West Africa, is said to be widely understood in the Fezzan and the well-to-do there are reported to be constantly tuning in to the Hausa broadcasts of West African Radio Stations and the BBC. Oil in commercial quantities has been recently struck in the Fezzan and Tassili Region of Algeria.

C., and with the horse, chariots and new forms of war and conquest. Lastly there came the period of the camel, beginning only a few centuries before the Christian era and continuing until now.

M. Lhote has filled in this bare outline with discoveries that wonderfully animate it. Basing himself on recognisable variation in painting and engraving styles, he distinguishes at least 16 phases between the time of the hunting people — and the time of the cattle keeping people — 'a fact', he says, 'that is astonishing and revolutionary, since it was unthinkable until now, that the Sahara could have known so many different populations'. The empty centuries enlarge and echo with forgotten peoples.

Animal Paintings

Paintings of animals abound, and have the same verve and character and immediacy of understanding that early rock paintings have generally shown elsewhere. But where the Saharan paintings most surprise is in their portrayal of humanity. Of all those copied by his expedition none is more arresting perhaps than that of a seated man and woman found in a cave near Sefar, and dated to the cattle-keeping period. In its sensitive portrayal of individuality this group must surely form one of the most extraordinary documents in the whole human story, some 5,000 or 6,000 years old though it may be, it qualifies in M. Lhote's opinion for comparison with work of the finest artistic schools the world has known.

Revolutionary Finds

These finds may be revolutionary in their importance. They suggests, to begin with, that the Sahara was occupied for long periods of prehistory — not or not only — by non-Negro people of Bushman or other type, but by people of recognisably Negro stock. They show, moreover, as M. Lhote says, that the first Negro phases have absolutely nothing to do either with the centres of Franco-Cantabrian art, or with those of South Africa rightly or wrongly called Bushman: this art originated here. Thus it turns out, on M. Lhote's impressive evidence the Negroes habitually lived and for long centuries much farther north than was supposed, but that the Sahara was nevertheless a barrier, even at that remote time, to the passage of ideas. Here in the Sahara Negro peoples evolved in the Late Stone Age an art of human portraiture whose classicism of line greatly reminds one of a modern work. They disappeared from history; but what became of their culture?

Did Africa, after all give the gods to Egypt? And what beca-

stone tools and harpoons it was possible to guess the density of their population. It was impossible to know what kind of people they had become.

Meanwhile there emerged in Egypt the civilisation that was to have its 'first dynasty' around 2,900 B.C; and southwards in the land fluttering with wings that lies beyond the rivers of Ethiopia, there also emerged the beginnings of those Negro and negroid peoples whom Europe would discover some four and a half thousand years later. Whence did they come? Where were their northern frontiers? By the coming of the Iron Age to tropical Africa — some times after the first centuries B.C. — the Sahara was a wilderness that few men could cross. The time of regular migrations had gone: tropical Africa was largely cut off from the cradles of civilisation.

It now seems likely that the key to several big questions — on the beginnings of the Neolithic period among Negro peoples and on the relation between the civilisation of the Nile valley and the Neolthic peoples living to the west and south-west of it — may be found in the Sahara. Although rock paintings are found elsewhere the Saharan region where M. Lhote has done most of his work is that of the Tassili mountains far down into the sand and rock and strange wind-fluted hills of the central desert. Here, through 16 months of toil between January 1956 and July 1957 M. Lhote and his colleagues suffered quenching discomfort in order to copy and register a range of paintings that spans a period which is probably as long as 8,000 years. 'This,' he says with reason, 'may be regarded in the present state of knowledge as the richest centre of prehistoric art in the world.' Not only does he report paintings and engravings of relatively late Egyptian provenance — after 1,500 B.C. — and later pictures of chariots and horses and the wild rush of desert warfare; he takes us far back beyond them into a time of remote migrations of which nothing was previously known.

Four great periods of Saharan habitation have been distinguished. The earliest was that of a hunting people who engraved their rocks in centuries that lie between 8,000 and 6,000 B.C. (at a time, that is, when the Palestinian settlement of Jericho, as Miss Kenyon has lately shown, acquired its earliest city walls). After these hunting people came a more advanced people who lived by herding cattle, perhaps from the beginnings of the fifth millennium B.C. Then the centuries slipped by until the horse was introduced around 1,200 B.

When Art Flourished in the Sahara

By BASIL DAVIDSON

(By Special Arrangement with the Author)

Oil is not the only contemporary reason why the great desert of the Sahara may soon mean something new to humanity. Emerging into the public eye after some 25 years of desert exploration. M. Henri Lhote has just presented France with the most striking exhibition of rock painting that anyone has seen since the opening of Lascaux — and one which, in some ways is much more intriguing than any thing that Lascaux has produced. Modest artifacts long since reported throughout the Sahara as evidence of ancient population in an epoch indefinable, but certainly remote, come suddenly into focus. We can look back at peoples who inhabited the great desert through empty millenia that followed Africa's last Pluvial.

These many rock paintings and engravings — and M. Lhote's magnificient exhibition can show, of course, only a tiny fraction of them — are in some respects the most spectacular of their kind that archaeologists have recovered from any part of the world. They push back the frontiers of knowledge of humanity into times where guesswork had had to serve — and this in a region of quite peculiar imports to the human story. Here in the howling wilderness of to-day there are pictures — even, one is tempted to say portraits — of Late Stone Age peoples whose destiny, as some believe, may have married with the earliest beginnings of the civilisation of Egypt.

Vanished Stone Agers

The peculiar importance of the region will be obvious from a moment's reflection. Whether or not it is true that homo sapiens first saw the light in east and southern Africa — and the balance of the evidence, at the moment, would hold that he probably did — what is abundantly sure is that primitive mankind recongnised no great natural barriers in Africa. Not only was the Sahara relatively populous; men travelled easily across it. But after the fourth millennium B.C. a period of desiccation appears to have set in. Gradually the Late Stone Age people of the Sahara vanished from the scene; and such was the nature of soil and climate, they vanished without leaving any of their bones for posterity to examine. From their

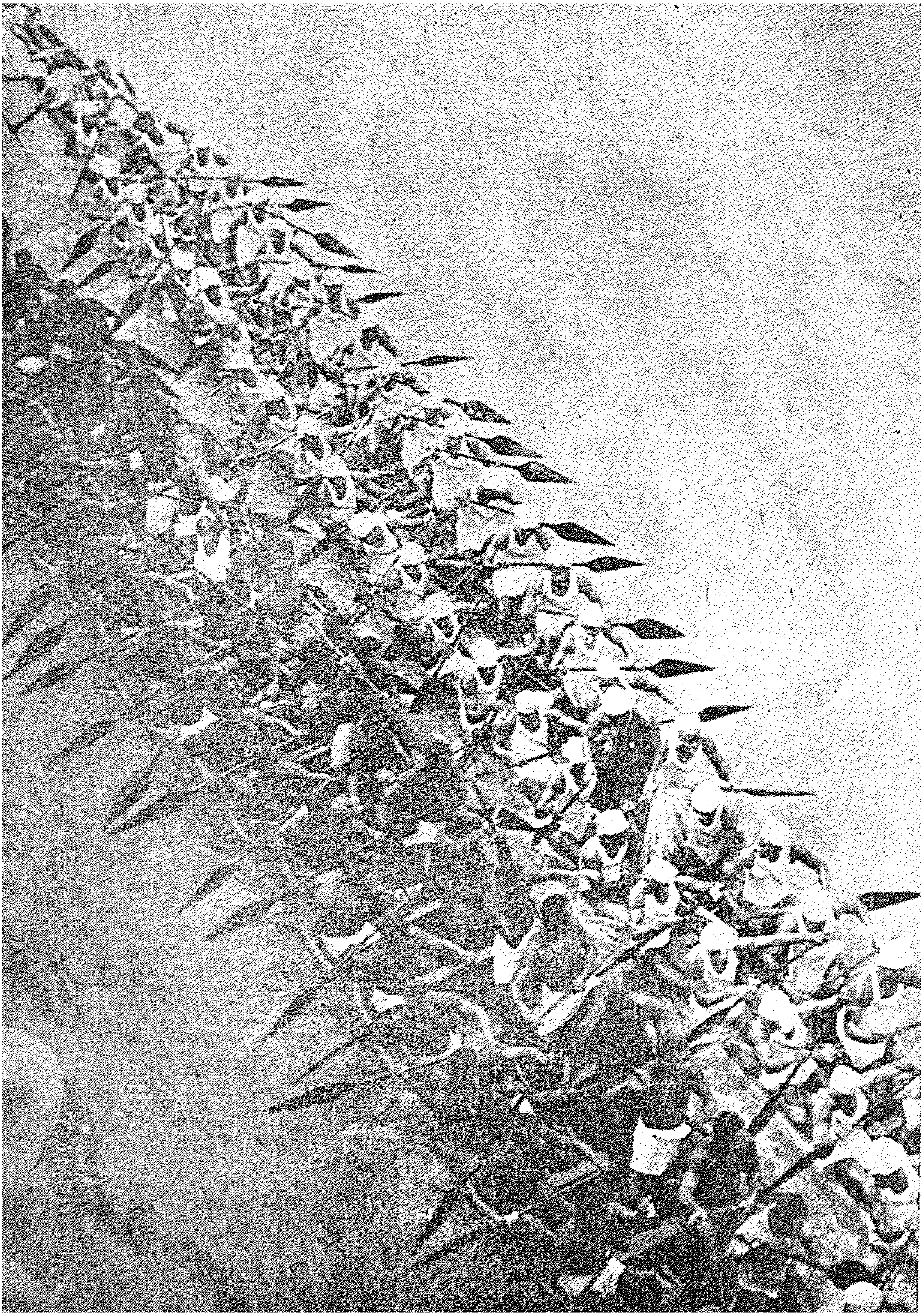

« قافلة إفريقية فى النهر »

th Year

No. 37 December 1960

Nahdatu IFRIQUIAH

96 pages

PRICE : P.T. 3.

IN THIS ISSUE

- TROUBLES IN UGHANDA
- PRESIDENT NASSER'S VISIT TO THE SUDAN
- LINGUISTIC STUDIES IN AFRICA
- THE PROBLEM OF WHITE RACE RESETTLEMENT
- BOOK ANALYSIS

السنة الرابعة العدد ٣٨ يناير ١٩٦١

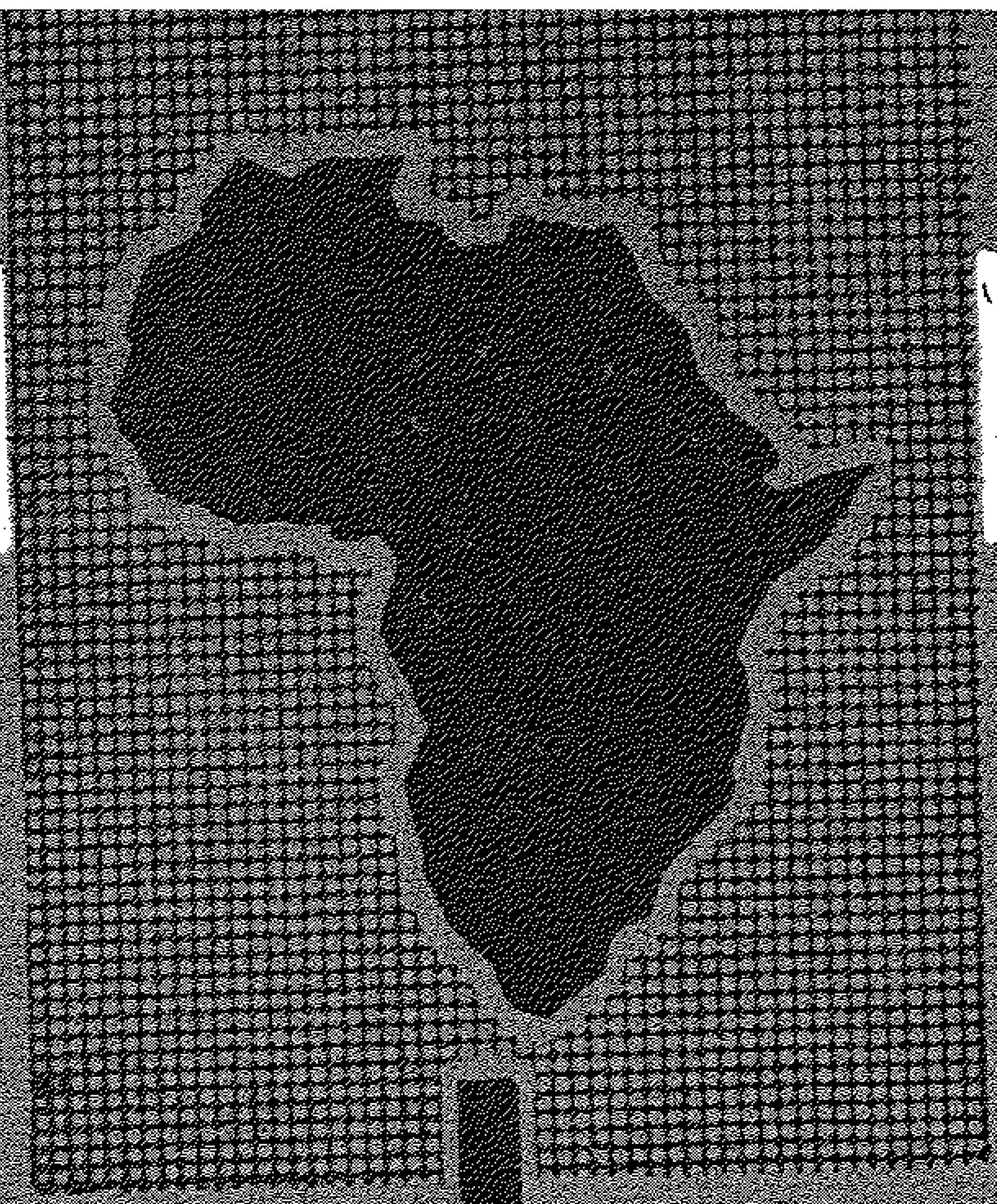

نهضة إفريقية

فى هذا العدد

- محنة الأمم المتحدة
- الهلال الأسود فى اتحاد جنوب إفريقية
- الملونون فى أدب « ريتشارد رايت »
- نقد الكتب
- كتاب الشهر

٩٦ صفحة

الثمن ٣ قروش

« الرئيس سيكوتوري »

نهضة إفريقية

تهدف هذه المجلة إلى :

١ – تنمية الوعى القومى الافريقى .

٢ – التعارف بين الافريقيين فى مختلف بيئاتهم وحياتهم الاقليمية .

٣ – نشر البحوث الخاصة والعامة التى تهم كل إفريقى فى مجاله الحيوى .

وللمشتركين الحق فى :

١ – الحصول على المجلة بانتظام وكذلك المطبوعات التى تصدرها المجلة بين وقت وآخر بثمن مخفض .

٢ – الافادة من خدمة لجنة الاتصال بالمجلة بقدر الامكان .

● ترحب « مجلة نهضة افريقية » بالمقترحات ، والآراء ، والنقد ، وتعمل على تحقيقها .

● ليس من الضرورى أن تكون المقالات التى تنشر فى هذه المجلة معبرة عن رأيها .

ترسل المراسلات باسم :

السيد رئيس تحرير مجلة نهضة إفريقية
٥ شارع أحمد حشمت – الزمالك بالقاهرة
تليفون المجلة ٨٠٧٦٥٨
الاقليم المصرى
بالجمهورية العربية المتحدة

ترسل قيمة الاشتراك فى المجلة إلى :

دار أخبار اليوم للتوزيع
٧ شارع الصحافة بالقاهرة

الاشتراك سنوياً :

لمصر والسودان ٣٠ قرشاً

ثمن العدد ٣ قروش

مطبعة كوستاتسوماس وشركاه
[illegible]

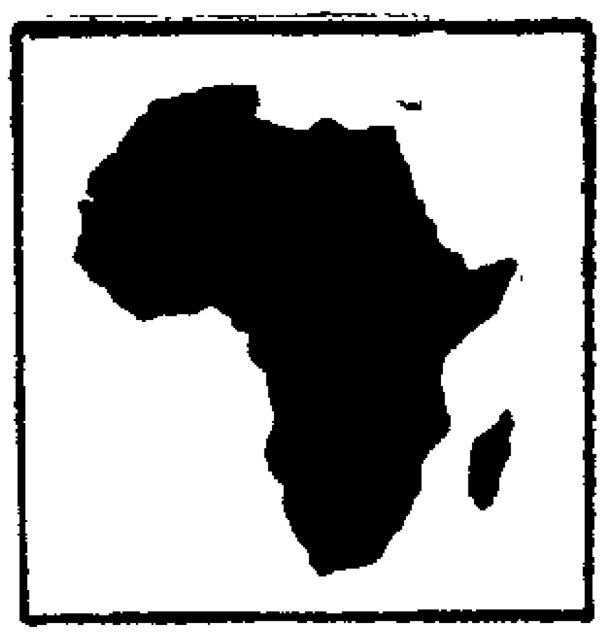

العدد ٣٨ ديسمبر ١٩٦١

نهضة إفريقية
مجلة شهرية للثقافة الأفريقية

رئيس التحرير
محمد عبد العزيز اسحق

فكرة ..

(١)

يعتبر مؤتمر « الدار البيضاء » من أعظم المؤتمرات التى تمت فى إفريقية فى الأعوام الأخيرة ، فقد نوقشت فيه قضايا القارة فى صراحة تامة ، ووضعت فى الوقت نفسه فى « قلب الضوء » بعد أن كانت تلف فى الماضى ، وتقدم على استحياء . . أما هذا المؤتمر فقد ناقش بحرية تامة قضايا الكونغو ، والجزائر ، وموريتانيا ، وفلسطين ، ومشكلات الصحراء ، والتفرقة العنصرية ، والوحدة الإفريقية . . ثم قدمت للعالم فى قوة مكتسبة من التصميم الذى يقف وراء كل قضية من هذه القضايا الكبيرة ، ولعل هذا « التصميم » هو ألمع نقطة ضوئية تولدت عن المؤتمر !

(٢)

لست مسجونا يا «لومومبا» رغم القضبان الجهمة التى تحيط بك ، فأنت فى « أنطون جيزنجا » الذى أكد وجودك فى « ستانلى فيل » ، وأنت فى كل المواطنين المحاصرين بقوات « موبوتو » ، وأنت فى هؤلاء البلجيكيين الذين ينادون بتقسيم « بلجيكا » كأنهم ينتقمون لتقسيم وطنك .

ثم إنك أخير — يا لومومبا — فى كل الأقلام الشريفة التى تغنى لعودتك !

« عبده بدوى »

فهرس العدد

	صفحة
محنة الأمم المتحدة :	
للأستاذ محمد عبد العزيز اسحق	٣
الهلال الأسود فى اتحاد جنوب افريقية :	
للدكتور عبد العزيز كامل	٩
مشروع أوروبا إفريقية :	
للأستاذ لمعى المطيعى	٢١
شخصية العدد :	
للأستاذ سعد غزال	٢٩
نقد الكتب :	
للأستاذ عبده بدوى	٣٤
الملونون فى أدب « ريتشارد رايت »	
للأستاذ فوزى سليمان	٤٢
جولة مصورة حول إفريقية :	٤٥
ضوء على كتاب :	٥٣
منليك الثانى	٦١
إفريقية فى خطاب الرئيس بعيد النصر	٦٧
كلمات وصور	٧٢
من الأدب الشعبى الإفريقى :	
للأستاذ طلعت السمرى	٨١
كتاب الشهر :	
للعميد (ا ح) محمد عبد الفتاح ابراهيم	٨٤

محنة "الأمم المتحدة"

بقلم : الأستاذ محمد عبد العزيز إسحق

كانت الدورة الخامسة عشرة للأمم المتحدة التى انتهت أعمالها فى أواخر ديسمبر الماضى ، دورة حافلة بالنضال مليئة بالمآزق ، مفعمة بصنوف المؤامرات والمناورات .

قد حضرها — لأول مرة فى تاريخ الأمم المتحدة — أقطاب العالم الكبار ، من الكتلة الشرقية والكتلة الغربية وجبهة الحياد ، وكان جدول الأعمال حافلا بالقضايا الضخمة التى تؤرق أجفان الأمم وتقلق ضمائر الشعوب ، وتبعث مخاوف البشرية من عوامل الفناء والدمار .

كانت أمام الجمعية العامة قضية الكونغو ، ذلك القطر الإفريقى المناضل الذى نال استقلاله بعد الكفاح المرير ، والذى اضطر — أمام خيانة البلجيك وعملائهم — أن يدعو الأمم المتحدة لإنقاذه ، فأرسلت إليه جنودها ، وأضفت عليهم الهيبة الدولية ، وحددت لهم أهدافهم التى تتلخص فى « الحفاظ على استقلال الكونغو ، ووحدته ، وإقرار الأمن والنظام » . وجعلت زمام الأمر كله فى يد سكرتيرها العام الذى بعث إلى « ليوبولد ڤيل » بممثل شخصى تخضع لأوامره القوات العسكرية ، والجهاز الإدارى الدولى .

ولم يمض على وصول قوات الأمم المتحدة أكثر من شهرين حتى رأينا الفوضى تعم البلاد بصورة أسوأ مما كانت عليه إثر مؤامرة البلجيك لإعادة احتلالها للكونغو ، وحتى كان دعاة تمزيق الكونغو ، قد جعلوا من « الوحدة » التى جاءت قوات الأمم المتحدة لتثبيتها ، جعلت من هذه الوحدة حلماً بعيد المنال ، وأصبح إقرار الأمن يعنى قتل القبائل الوطنية الثائرة على « تشومبى » فى « كاتانجا » و « كالونجى » فى كاساى ، وأصبح من المألوف أن تسارع قوات الأمم المتحدة إلى إنقاذ دعاة الانفصال ، بحجة « منع الحرب الأهلية بين القبائل » ، وكانت سخرية السخريات أن يقوم جنود الأمم المتحدة فى ليوبولدڤيـــل ، بحماية « المرافق العامة » كالإذاعة والبريد والمستشفيات ، وتتخلى فى الوقت نفسه عن حماية « البرلمان » . . . !

وكأن البرلمان لم يكن حصن

الحريات التى هى « منبع المرافق العامة » . . .

وهكذا استطاعت حفنة من المأجورين الذين يعرف العالم أجمع من أين أتوا بالمال والسلاح ، أن تفرض الحكم الدكتاتورى – فى أبشع صوره – على جمهورية الكونغو الوليدة على مسمع ومرأى من « الأمم المتحدة » ، وأن تبطش بأعضاء البرلمان الذين انتخبهم الشعب ، وأن تعتقل – وتعذب زعيم الأغلبية ورئيس الحكومة الشرعية .

وانتهى المطاف بالقضية إلى جدول أعمال الدورة الخامسة عشرة للأمم المتحدة .

وإلى جانب مأساة الكونغو ، كانت قضية الجزائر تحتل مكانها فى جدول الأعمال .

فقد مضى العام السادس على عرض هذه القضية على الهيئة العالمية – دون جدوى .

ذلك أن الجانب المعتدى – وهو فرنسا – له شركاء كبار فى عالم الاستعمار . وهم يعلمون أن مصير فرنسا ، كدولة مستعمرة ، مرتبط بمصيرهم تمام الارتباط ، ولهذا فهم لؤيدونها – بالباطل – ويحشدون يتأييدها الأذناب والأتباع .

وفرنسا ، فى الوقت نفسه ، عضو فى حلف الأطلنطى العتيد ، فكيف تتخلى حامية الحلف وراعيته وممولته الكبرى : أمريكا عن دعم حليفتها الأوروبية ، ومدها بالمزيد من المال والسلاح . . . ؟

وهكذا تواطأ « العالم الغربى » كله على إخماد الثورة الجزائرية ، وإنكار حقها فى تقرير المصير ، وأخذت الجبهة الإفريقية الآسيوية تناصر الجزائريين الأحرار بأقصى ما تستطيع وتطوّر الأمر فى الشهور القليلة الماضية حينما قرر الاتحاد السوفيتى والصين الشعبية إمداد الجزائريين بالمعونة العسكرية وبجحافل المتطوعين .

ودخلت الجزائر نطاق الحرب الباردة ، وأخذت سحب صراع عالمى رهيب تتجمع فى أفقها ، ودفعت بها الأحداث مرة أخرى إلى رحاب المنظمة العالمية ، كما دفعت بقضايا « نزع السلاح » و « التبت » و « محو الاستعمار » و « المجر » و « كوبا » .

وقد استطاعت الأمم المتحدة – فى دورتها هذه – أن تقف موقفاً واضحاً محدداً حينما وافقت بالإجماع ، ودون معارضة ، على الاقتراح السوفييتى بـ « إلغاء الاستعمار » . . .

ولم يكن هنالك مظهر للمعارضة ، إلا ذلك الموقف السلبى الذى اتخذته الدول الاستعمارية جميعاً بالامتناع عن التصويت .

وقد استطاعت الأمم المتحدة أن تتخذ هذا القرار – دون عناء – لسببين :

الأول : أن الاستعمار قد انكشفت شروره وآثامه وجرائمه ضد البشرية

بحيث لا تجرؤ دولة على تأييده علناً ، فتصبح عرضة لسخط الشعوب كافة في جميع أنحاء العالم ، وبخاصة ، في العالم الإفريقي المنكوب ، الذى تخطب وده الدول العظمى .

والثانى : أن القرار ، فى ذاته ، لا يتعدى « المجال الأدنى » ، فإنه لم يلزم الدول الاستعمارية باتخاذ إجراءات معينة لإنهاء الاستعمار ، ولم يحدد — كذلك — أى موعد لجلاء تلك الدول عن مستعمراتها . . .

ولهذا ، فإن هذه الدورة الخامسة عشرة ، تعتبر دورة فاشلة خرجت المنظمة الدولية منها وهى مرتبكة حائرة تنظر بقلق متزايد إلى مستقبلها ، وإلى آمال البشرية التى انعقدت — هباء — عليها . .

وإذا كانت هيئة الأمم تعجز عن وضع حد لسباق التسلح الرهيب ، وتقف مكتوفة اليدين أمام جرائم « إبادة الجنس » فى الجزائر ، وتتخادل أمام عملاء البلجيك وصنائع الدولار فى الكونغو ، فأى مبرر لبقائها بعد ذلك . ؟

إن كيان الأمم المتحدة قد أصبح فى مهب العاصفة ، منـــذ أعلن « خروشوف » فى مستهل هذه الدورة ، هجومه الشامل على « السكرتير العام » ، وحينما وصفه بأنه يتحدث بـ « لغة المستعمرين » . . .

وقد هبَّ « الغرب » كله لنجدة همرشلد ، ولم تشأ « جبهة الحياد » أن تتخذ إزاءه موقفاً عدائياً صريحاً ، وآثرت أن تفسح له مجال المراجعة ، عسى أن يقتنع بخطئه أو بخطأ أعوانه ، وأن يعود إلى ما سماه الرئيس جمال عبد الناصر « نقطة البداية » .

وتظاهر السكرتير العام بأنه يصغى السمع لجبهة الحياد ، إلى أن انجلى الهجوم الروسى ، وبدلا من أن يعود إلى « نقطة البداية » أخذ يقوم بمشاورات مع الرؤساء السابقين لهيئة الأمم المتحدة ، وأخذت السكرتيرية تذيع أنه يقوم بتلك المشاررات لتدعيم جهاز السكرتيرية حتى يصبح أكثر « فعالية » و « تمثيلا » للكتل والمجموعات المتعددة على مسرح السياسة الدولية .

ولم تنجل تلك المشاورات عن شىء يذكر ، وانطلق دبجول فى تنفيذ مناورته التى قصد بها خداع الأمم المتحدة وصرفها عن اتخاذ قرار يؤيد شعب الجزائر . تلك المناورة التى تتضمن مشروعه لاستفتاء (الفرنسيين) وسؤالهم عما إذا كانوا يوافقون على إجراء استفتاء لتقرير المصير فى ، الجزائر . . . !

وذلك معناه الواضح أن الفرنسيين يقررون مصير الجزائريين . . ! !

وبدأت المؤامرة فى دهاليز الأمم المتحدة حينما بذلت جهود الدول الاستعمارية الكبرى لإقناع الدول ، الصغرى بإعطاء فرصة لدبجول ، الذى (اعترف) بتقرير المصير للجزائر

ولا ينقصه إلا تأييد الفرنسيين .

ثم قامت فرنسا نفسها تحشد الدول الإفريقيـــة « التابعة » التى كانت مستعمرات لها ، ثم منحتها ، فى الأشهر القليلة الماضية استقلالا صوريًّا .

إن تسع دول « إفريقية » قد صوتت ضد استفتاء الجزائر المجاهدة ، فى هيئة الأمم المتحدة ، وأبت على هذا القطر الإفريقى الشجاع أن يحظى من الأمم المتحدة « بضمانات لتقرير المصير »

ولم تكن هذه صدمة للجزائر وحدها ، أو صدمة لإفريقية المتحررة وحسب ، وإنما كانت ، فى الواقع ، صدمة للأمم المتحدة نفسها ، فقد ظهر للعالم بأجلى بيان أن هذه المنظمة ، تضم أعضاء كثيرين « ناقصى السيادة » وأن عدد « التابعين » فيها ، قد زاد ، فى الفترة الأخيرة زيادة تنقص من « أهليتها » كحارس للعدالة وضامن للتحرر فى هذا العالم المضطرب .

ولقد تجددت المأساة نفسها لدى عرض قضية الكونغو ، فقد كان من المتوقع ، لدى عرض القضية على مجلس الأمن ألا يسفر الاحتكام عن إنصاف شعب الكونغو ، فإن فى مجلس الأمن ، فضلا عن « التوابع الكثيرة » التى تصوت إلى جـــانب أمريكا « أوتوماتيكياً » ، مثـــل مايسمى بـ « الصين الوطنية » ، إن فى ذلك المجلس آفة أخرى هى « حق الفيتو » ، الذى منحه دستور الهيئة للدول الكبرى ومن بينها دولة « فرموزا » .

ولكن الآمال كانت معقودة على « الجمعية العامة » ، فإن الغالبية العظمى من أعضائها التسعة والتسعين ، تتكون من دول صغرى ، ذاق أكثرها مرارة الاستعمار والاستغلال ، وحاق بها الجهل والمرض والتأخر من جراء سيطرة الدول الكبرى » . . .

وقد زاد من توقع الإنصاف لشعب الكونغو الإفريقى ، أن الجمعية العامة ، فى دورتها هذه ، قد أصبح بها ستة وعشرون صوتاً إفريقياً ، كان من المأمول أن تنضم إلى شقيقاتها المتحررات فى آسيا وأمريكا اللاتينية .

ولكن الحقيقة المرة أثبتت أن أكثر الدول التى نسميها نفسها — حتى بعد الاستقلال — الدول الناطقة بالفرنسية أثبتت أن أكثرها يسلك — بعد الاستقلال — سلوك المستعمرات ، وأن انضمام هـــذه الدول إلى الأمم المتحدة قد أضعف هذه المنظمة — من جهة — وضيق الفرص أمام الشعوب المجاهدة للتحرر من جهة أخرى .

والآن ، ماذا يحدث للجزائر والكونغو ، بعد خذلان الأمم المتحدة .

إن ديجول يتظاهر بتأييد حق الجزائريين فى تقرير مصيرهم ، ويريد أن ينال تأييداً لسياسته باستفتاء الشعب الفرنسى .

فلنفترض أنه قد فاز بهذا التأييد ، فأى نوع من « تقرير المصير » يبيته

ديجول للجزائر . . ؟

إنه يرمى إلى « تمزيق الجزائر » إلى أشلاء متناثرة ، فإن مشروعه الحالى يفترض أن حدود الجزائر لا تنسحب على « الصحراء » الغنية بالمعادن والبترول وقد بتر هذا الجزء فعلا عن الوطن الجزائرى وأصبح تابعاً لوزارة خاصة به فى فرنسا اسمها « وزارة شئون الصحراء » .

وأما الجزء الباقى ، وهو الذى يضم المدن الساحلية والمرتفعات الخصبة التى تليها إلى الداخل ففى مشروع ديجول تقسم بين « المستوطنين » ، الأوروبيين وأهالى البلاد الجزائريين ، وسوف يراعى « وضع اليد » عند التقسيم .

ومعنى ذلك أن يفوز السادة « المستوطنون » بأخصب البقاع وأجمل المدن ، وتترك (النفاية) لملايين الأهالى الوطنيين ، وسوف يكون هؤلاء الملايين — بعد ذلك — بين نارين ، نار « الساحل » الذى سيختار — طبعاً — الانضمام إلى فرنسا ، ونار « الداخل » أو الصحراء التى يحتلها الفرنسيون .

وليست صورة الكونغو الذى خذلته الأمم المتحدة أكثر إشراقاً من صورة الجزائر . . . فإن الأمم المتحدة ، لم توافق بالأغلبية المطلوبة ، وهى أغلبية الثلثين ، على أى حال يخرج شعب الكونغو من الورطة التى دفعته إليها (السكرتارية العامة) .

وقد اضطر دعاة استقلال الكونغو ووحدة أراضيه أن يضعوا خططهم الخاصة لإنقاذ بلادهم من التفكك والانحلال ، ومن وقوعها ، مرة أخرى بين مخالب الاستعمار .

فإن جيوش « الأمم المتحدة » فى الكونغو موزعة فى أدغاله اللانهائية لحماية « المزارعين » البلجيك والبرتغاليين ومن يقيم من تلك الجيوش فى المدن ، يحرس المطارات التى يضرب منها « مبوتو » دعاة الوحدة والاستقلال ويحرس شركات « النور » و « المياه » التى تؤدى خدماتها — فى المقام الأول — للسادة الأوروبيين وموظفى « الأمم المتحدة » . . .

والبقية الباقية من هذه الجيوش التى دعاها « لومومبا » لصون وحدة الكونغو واستقلاله ، قد بعث بها القائد (السويدى) « ڤان هورن » لكى تحمى « تشومبى » من بأس قوات (البالوبا) فى كاتانجا ، وهناك ، لا تكتفى قوات الأمم المتحدة ، بمنع البالوبا من تحرير كاتانجا ، وإنما هى تصطدم بهم وتناصر قوات تشومبى (التى يقودها ضباط من البلجيك) وتأسر المحاربين الشجعان من « البالوبا » وتقوم بتسليمهم للعميل البلجيكى فى كاتانجا .

ومن ينظر الآن إلى خريطة الكونغو يرى عجباً :

يرى مقاطعة ليوبولدڤيل ومعها

جزء من « الاستوائية » و « كاساى » تحت سلطة (مبوتو) الفعلية ومعه السيد (كازافوبو) . . ويرى جنوب كاساى أو ما يسمى « دولة المناجم » تحت السلطة الاسمية للسيد « كالونجى » والفعلية لشركات الماس (انجلو — بلجيكية) .

ويرى جنوب كاتانجا بما فيها « حزام النحاس » تحت السلطة الاسمية للسيد تشومبى والفعلية لاتحاد التعدين الأمريكى الإنجليزى الفرنسى الهولندى البلجيكى .

ويرى فى النهاية ، « منطقة التحرير » التى تضم المقاطعة الشرقية ومقاطعة كيفو وجزءاً من المقاطعة الاستوائية ، وهى المنطقة التى يتحصن فيها الآن أنصار لومومبا ويحاولون الزحف منها ، وتحرير الكونغو — من جديد — بوسائلهم الخاصة

فأى فشـــل لـــلأمم المتحـــدة و (سكرتاريتها) يماثل هذا الفشل الذى أحدث نكسة لحركة وطنية إفريقية تقدمية ، وأى خذلان لممثلى المنظمة الدولية أسوأ من هذا الخذلان الذى جعلها تتضاءل أمام النفوذ الأمريكى الذى يحمل راية « الاستعمار الجديد » وتتنحى أمام دولة صغرى مثل بلجيكا فتعود تلك الدولة لاستغلال الكونغو من جديد .

لقد كان من نتائج عجز الأمم المتحدة ، وجهازها الرئيسى ، وهو السكرتارية العامة ، أن أفصحت الكتلة الشرقية عن نيتها فى تكوين « هيئة أمم » خاصة بها إذا استمرت الهيئة الحالية فى تيارها « المتحيز . . الذى يتجاهل الحقائق تجاهلا يؤدى بها إلى إنكار وجود شعب يزيد تعداده على ستمائة وخمسين مليون إنسان ، وهو الشعب الصينى .

وكان من هذه النتائج أن فقدت إفريقية ثقتها فى عدالة المنظمة الدولية ونزاهتها وقدرتها على أداء واجبها ، وأن قررت الدول الإفريقية المتحررة أن تعمل « خارج نطاق الأمم المتحدة »

وفى خلال ذلك يحاول السكرتير العام ، محاولة واهنة لكى يستعيد زمام المبادرة ، الذى أضاعه موظفوه فى الكونغو .

وسوف تنجلى الشهور القليلـــة القادمة عن احتمالات كبيرة . .

فإما أن تسترد الأمم المتحـــدة صوابها ، فتفرض على الدول الكبرى قراراتها بمنع سباق التسلح (تمهيداً لنزع السلاح) وأن تناصر الشعوب التى استنجدت بها ضد المعتدين الأجانب كشعب الجزائر وشعب الكونغو .

وإما أن تنسحب منها الدول الساخطة ، كبيرة وصغيرة وتتحول المعونات المستورة الآن ، فى الجزائر والكونغو إلى تصادم صريح بـــين الدول الكبرى ، وفى ذلك إيذان لا ريب فيه بحرب عالمية مبيدة شاملة .

الهلال الأسود في اتحاد جنوب إفريقية

للدكتور : عبد العزيز كامل

يمر الأفريقيون الآن فى اتحاد جنوب إفريقية ، فى محنة تضيق حلقاتها يوماً بعد يوم ، تمثلها سلسلة من القوانين التى يتمخض عنها الفكر الاستعمارى والإيمان بالتفرقة العنصرية .

وآخر هذه الأفكار التى ابتدعها البيض فى جنوب إفريقية مشروع « البانتو ستانات » أى مواطن البانتو الخاصة . وهى على شكل هلال مخصص للإفريقيين حول منطقة البيض فى الشطر الشرقى من الاتحاد .

قانون الحكم الذاتى للبانتو :

ففى مارس ١٩٥٩ عرض مستر ديوت نل – وزير إدارة وتنمية البانتو فى حكومة اتحاد جنوب إفريقية – الخطوط الرئيسية لهذا القانون على برلمان الاتحاد . وأهم ما يتضمنه :

١ – إنشاء ثمان وحدات قومية للبانتو هى : شمال سوفو ، وجنوب سوفو ، وسوازى وتسونجا ، وتسوانا ، وفندا ، واكسوزا ، والزولو .

٢ – تعيين خمسة مندوبين عامين ليكونوا حلقة الاتصال الاستشارية المباشرة بين هذه الوحدات والحكومة ويقومون بتوجيه ونصح الوحدات ، والسير بها فى طريق التنمية .

٣ – يكون للسلطات الإقليمية التى شكلتها الحكومة على أساس قانون ١٩٥١ – حق اختيار ممثلين لهم من البانتو بعد استشارة الوزير المسئول .

٤ – تنقل إلى هذه السلطات الإقليمية – فى الوقت المناسب – جميع الصلاحيات التى كانت فى يد الحاكم العام والمتعلقة بحيازة الأرض .

٥ – كما تعطى لها سلطة التشريع وفرض الضرائب وتنفيذ الأشغال العامة وتوجيه السلطات الأدنى منها مرتبة .

٦ – إذا لم يبلغ البناء الإدارى فى أى منطقة من مناطق البانتو – فى أثناء مرحلة الانتقال – درجة تلائم إنشاء سلطة إقليمية ، كان للحكومة أن تشكل لجاناً إقليمية تقوم بأعمال المندوبين العامين .

٧ – يلغى تمثيل الإفريقيين فى البرلمان ومجلس الكيب الإقليمى مع تنفيذ النظام الجديد

كتاب أبيض :

وقدمت الحكومة للبرلمان – فى الوقت نفسه – كتاباً أبيض تشرح فيه وجهة نظرها . والأسس التى بنت عليها نظام الحكم الذاتى . وأخذت تردد فيه الحجج القديمة التقليدية ، التى تحاول بها تبرير حرمان الإفريقيين من الأرض ، وتدعم بها سلطة الرجل الأبيض وسيادته . ولنحاول تلخيص ونقد ما جاء فيه .

١ – يقول الكتاب الأبيض : إن أقصى نقطة جنوبية وصل إليها البانتو فى تقدمهم من الشمال كانت منطقة كى (فى الكيب الشرقية) . وأنهم لم يتوغلوا فى الداخل إلى ما وراء نهر الأورانج . وحتى فى هذا النطاق – بين كى والأورانج – لم يكن استقرارهم شاملا كل أجزائه . وأدت الحروب القبلية

وزحف البوير المستوطنين البيض الهولانديين ، إلى الشمال ، إلى اضطرابات واسعة فى الإقليم وتناقص عدد السكان فيه .

وحدد الكتاب الأبيض المناطق التى استقر فيها البانتو استقراراً كاملاً ولا تخرج فى مجموعها عما خصصه لهم قانون ١٩٥٩ وهو مناطق الهلال الأسود الذى يتكون من مجموعة البانتو ستانات السبع واعتبرها وطناً قومياً للبانتو . وخرج من هذا بأن « نحو نصف جنوب إفريقية البريطانى كما كان يسمى عام ١٩٠٩ وهو العام السابق لإعلان استقلال اتحاد جنوب إفريقية . كان يسكنه البانتو . وكان الأوروبيون يسكنون النصف الثانى . وكان هناك عدد قليل من الأوروبيين فى الشطر الذى يسكنه البانتو .بينما كان البانتو — فى الشطر الأوروبى — عمالا متنقلين لا يمثلون عنصراً ثابتاً مستقراً .

٢ — وعند إعلان الاتحاد روعيت هذه الأوضاع . ولم تضم إلى الاتحاد سوازى لاند وباسوتو لاند وبكوانا لاند (بتشوانا لاند) ولم تكن وقتئذ داخلة فى نطاق أى ولاية من الولايات الأربع التى تكون منها الاتحاد : الكيب وناتال والأورانج وترانسفال . وأكد الكتاب الأبيض كيف أن الوحدات الثلاث (أرض سوازى وباسوتو ويكوانا) عوملت معاملة خاصة من أول الأمر باعتبارها مواطن للبانتو .

وأراد أن يتخذ من هذا الوضع نقطة بدء لمعاملة بقية مناطق البانتو معاملة متميزة عن بقية أجزاء الاتحاد .

وأشار الكتاب إلى ما اتخذته حكومة الاتحاد من تخصيص مناطق معينة (معازل) للبانتو . وهو الوضع الذى أكدته قوانين ١٩٣٦ . وحجة حكومة الاتحاد فى هذا أنها ترغب فى أن تحتفظ لكل من وحدات البانتو القبلية بأرضها التى ترتبط بها تاريخياً .

والوضع المنطقى — عند حكومة الاتحاد كما جاء فى الكتاب الأبيض — أنه ما دامت هناك مناطق مخصصة معينة للبانتو تحفظ لهم فيها الحكومة حقهم التاريخى ، فلا بد من أن تخصص أيضاً للبيض مناطق تحفظ لهم فيها حقوقهم . وإلى هذه المناطق البيضاء — حيث المدن والصناعة والتعدين — هاجرت أعداد كبيرة من البانتو . وعمل هؤلاء ، دون أن يستقروا استقراراً كاملا . أى أن دخولهم أرض البيض كان موقتاً وخاضعا لرغبة الأوروبيين . وجاء هؤلاء العمال من معازل البانتو التى خصصتها لهم الحكومة ومن المحميات الثلاث : أرض سوازى وباسوتو ويكوانا .

٣ — ويتابع الكتاب شرح وجهة نظر الحكومة فى وضع العمال الإفريقيين فيذهب إلى أنهم جاءوا ليكتسبوا قدراً من المال يحصلون به على ما يحتاجون إليه ، وليعينوا بالمال أهلهم فى

المعازل ، على أن يتركوا المناطق الأوروبية بعد أن يحققوا أهدافهم من هجرتهم هذه المؤقتة إلى مناطق الصناعة والتعدين .

ولم يعرض الكتاب ظروف هذا العمل ،ولا الأجور الضئيلة التى يتقاضاها العمال الإفريقيون ، ولا السخرة التى كان يساق بها العمال فى رحلات طويلة مرهقة من المعازل إلى مناطق العمل ، ولا الضرائب التى فرضتها الحكومة على الإفريقيين لتجبرهم على العمل حيث يريد وبالأجر الذى تريد ، ولا نظام تصاريح المرور وهو أسلوب فى امتهان كرامة الإنسان والتحكم فى مصيره ، ولا نخفاض مستوى خصوبة المعازل الإفريقية واكتظاظها بالسكان . لم يعرض الكتاب شيئاً من هذا وإنما عرض القضية كأن الإفريقى عامل حر له الحق كل الحق فى أن يعمل متى شاء ، وأين شاء ، وكيف شاء . وله الفرص المكفولة لبرفع مستواه . وكأن معازل البانتو جنة الله فى أرضه يحيا فيها الإفريقيون فى سعة ورغد .

٤ — لهذا يتابع الكتاب الأبيض « الدفاع » عن أرض الإفريقيين فيقول « إن مناطق البانتو ظلت دائماً محفوظة كمجال حيوى للبانتو . ولا يستطيع أوروبى أن يسكنها إلا بإذن من أهلها ومن حكومة الاتحاد ، ولمدة مؤقتة ، ولهدف محدد . وتطبيقاً لهذه القاعدة ينبغى ألا يدخل أى فرد من البانتو أرض الرجل الأبيض دون موافقة المجتمع الأوروبى . وهذا الدخول لا بد أيضاً أن يكون لأداء خدمة معينة . وقد هاجرت أعداد كبيرة من البانتو إلى أرض الأوروبيين ، بينما ظل الأوروبيون ، ممنوعين من الهجرة إلى أرض البانتو ، وكأن الكتاب الأبيض يعجب : لماذا يرغب البانتو المعذبون فى الذهاب إلى جنة الرجل الأبيض ولا يشتاق أهل الجنة إلى الحياة فى جحيم المعازل الإفريقية حيث البؤس والمرض والشقاء ! !

٥ — والوضع القائم الآن — عند الكتاب الأبيض — أن فى مدن المناطق الأوروبية وريفها فيضاً من الإفريقيين الزائدين عن الحاجة . وكان من المسموح — لأى إفريقى — أن يقيم داره حيث شاء فى جنوب إفريقية ، مما دعا البانتو إلى أن يطالبوا بحقوق لهم فى المناطق البيضاء إلى جانب حقوقهم فى معازلهم الإفريقية . وهذا يناقض الوضع الذى يستهدفه النظام الجديد .

ولما كانت سياسة الاتحاد ترمى إلى تخصيص المعازل للبانتو يمارسون فيها حقوقهم السياسية ولا ينازعهم فى أرضهم أوروبى ، كان من المنطق أن يتعارض هذا مع ادعائهم بحقوق فى المناطق البيضاء ، أو أن يكون لهم ممثلون فى البرلمان الأوروبى .

٦ — وسار الأمر فى الاتحاد على أن يكون هناك مجتمعان منفصلان

أحدهما للأوروبين والثانى للإفريقيين ، لكل منهما نظامه وتطوره الخاص وتطبيقاً لهذه السياسة يمكن أن يقوم مجتمع البانتو على أساس الحكم الذاتى ويوفر هذا النظام للزعماء القبليين سلطة تنفيذية وتحتفظ — فى الوقت نفسه — حكومة الاتحاد بكل الضمانات التى تكفل إشرافها الحقيقى على السياسة والتعليم والاقتصاد فى البانتو ستانات الجديدة .

٧ — وقد صرح دكتور — فرورد رئيس وزراء اتحاد جنوب إفريقيا — بأنه إذا ما أثبتت البانتو ستانات قدرة على الوصول إلى مستوى الاكتفاء الذاتى ، فإنها ستكون « كمنولث جنوب إفريقيا » مع الشطر الأبيض الذى سيقوم بدور الرائد والمرشد للبانتو ستانات الناشئة .

ووصف الكتاب الأبيض تمثيل البانتو فى البرلمان بأنه « العقبة الكبرى فى سبيل تحقيق الحكم الذاتى بين البانتو » ، ذلك لأنه كان مصدر خوف الأوروبيين من أن يكتسحهم البانتو فى المجال السياسى . وهو — من ناحية أخرى — « لا يمكن البانتو من تدعيم مؤسساتهم لأن جزءاً من نشاطهم مستنزف فى المجالس السياسية الأوروبية

ويلخص الكتاب الأبيض سياسة الحكومة فى النقط الآتية :

(ا) إنشاء مناطق إدارية منسجمة للبانتو . وذلك بتجميع أفراد كل مجموعة من البانتو فى وحدة قومية لها موطنها الخاص (بانتو ستان)

(ب) تعليم البانتو إلى مستوى يمكنهم من تفهم مشكلات صيانة التربة والزراعة ، حتى يمكن لهم أن يقوموا بمسئولياتهم وحقوقهم فى الأرض .

(ج) وضع سياسة اقتصادية منهجية يقبلها البانتو ويقومون بتنفيذها .

(د) تعليم البانتو إلى مستوى يوفر من بينهم المعلمين اللازمين لمدارسهم ليحلوا — تدريجياً — محل الإداريين والموظفين الأوروبيين .

(ه) تدريب البانتو حتى يتوافر من بينهم الصالحون للإدارة والقضاء والتشريع .

مؤيدو التفرقة العنصرية :

جاء قانون الحكم الذاتى ١٩٥٩ ليتابع سياسة الابرتهيد (العزل الاجتماعى) التى سارت عليها حكومة الحزب الوطنى فى جنوب إفريقية من وقت أن تولى دكتور مالا رآسة الوزارة فى عام ١٩٤٨ . وهذه السياسة متابعة لقوانين التفرقة العنصرية التى وضعها هرتزوج فى عام ١٩٣٦ . وتلك بدورها يمكن ردها إلى ما سبق ذلك من قوانين ونظم تطلق يد البيض فى الاتحاد وتقيد الإفريقيين اقتصادياً وسياسياً ، واجتماعياً وهى التى أخذ فى وضعها البيض — لا من وقت قيام الاتحاد فى عام ١٩١٠ — بل من وقت أن بدءوا يحتلون هذه الأرض منذ ثلاثة قرون .

والبيض فى اتحاد جنوب إفريقية يمارسون هذه التفرقة بفلسفة خاصة يمكن تلخيصها فى النقط الآتية :

١ — كان الهولنديون أول من

احتل جنوب إفريقية من البيض ، واتخذوا منه وطناً استقروا فيه ، وأصبحوا يعرفون باسم « البوير » ثم « الأفريكانرز » . فصلتهم قد انقطعت بهولاندا وليس لهم وطن آخر يذهبون إليه . ووضعهم فى جنوب إفريقية له طابع خاص . فالإنجليز الذين كانوا فى الهند ، والهولانديون الذين كانوا فى أندونونسيا قبل استقلالها — استطاعوا بعد الاستقلال أن يعودوا إلى الوطن الأم فى بريطانيا أو هولندا . أما الافريكانرز فليس لهم « وطن أم » . وليس أمامهم إلا جنوب إفريقية يعيشون فوق الأرض ويرفهون فى ثراه . فالحقبة الأولى — إذن — أمام المستوطنين البيض بعامة فى جنوب إفريقية أنهم يعتبرون أنفسهم أبناء الأرض . ينطبق هذا على الافريكانرز كما ينطبق على الإنجليز الذين جاءوا من بعدهم عند ما وقع جنوب إفريقية تحت السيطرة البريطانية بعد الحروب النابليونية .

٢ — فإذا لم يكن أمام البيض إلا أن يبقوا . . فعلى أى أساس يكون البقاء ؟ هل على أساس من أوضاع البانتو ؟ معنى هذا أن ينتهى الافريكانرز كأمة وهم لن يرضوا لهذا أن يحدث لهم .

٣ — وهم إلى جانب ذلك لا يستطيعون نظرياً أو عملياً أن ينادوا بإذابة البانتو فى المحيط الأبيض لعدة أسباب ، أولها أن البانتو الآن يقربون من عشرة ملايين بينما البيض نحو ٣,٥ . والثانى أنهم يحسون أن التطور السكانى لجنوب إفريقية سيجعل الفرق بين عدد البيض والإفريقيين أكثر وضوحاً فى المستقبل أى أن الأغلبية المطلقة — من الناحية الديموجرافية — ستكون للإفريقيين . وهم يعتقدون أن الافريكانرز لن يصبحوا فى يوم من الأيام من البانتو ولن يصبح البانتو من الافريكانرز مهما اكتسبوا من ثقافة الغرب وحضارته .

٤ — وإذا كان : الإنجليز والافريكانرز — رغم معيشتهم المشتركة فى الاتحاد نحو قرن ونصف — لم يستطيعوا أن يتغلبوا على بعض نواحى سوء الظن والشك التى خلفتها حروب البوير ومحاولات البريطانيين فرض ثقافتهم على جنوب إفريقية وثورات الأفريكانرز دفاعاً عن كيانهم — إذا كان الإنجليز والافريكانرز لا زالوا يعانون بعض آثار هذا التاريخ رغم التقارب الثقافى ، فهل يمكن حل الإشكال بإدخال طرف ثالث ضخم العدد متباين الثقافة كالبانتو ؟

٥ — والافريكانرز حافظوا على لغتهم وثقافتهم أمام الغزو البريطانى ولم يرضوا — رغم قلة عددهم — أن يذوبوا فى هذا المحيط رغم عالمية الثقافة الإنجليزية . وعاشوا ، وعددهم نحو مليونين كجزيرة ثقافية تصطدم بها

الأمواج البريطانية والإفريقية .. لهذا كانت المناداة بالتفرقة العنصرية — عندهم — صيانة لكيانهم أمام الإنجليز وأمام الإفريقيين . وهم إذا كانوا قد استطاعوا الصمود أمام البريطانيين فإن الذى يقض مضاجعهم الآن هو هذا المد الإفريقى الصاعد .

٦ — ويقول الافريكانرز « إنه من العجيب أن العقل الأوروبى الذى يقدر العوائق الكبيرة أمام تكوين وطن مشترك بين الألمان والفرنسيين ، أو بين الألمان والهولانديين ، أو تكوين دولة كبيرة تضم كل أوروبا — من العجيب أن هذا العقل يطلب من جنوب إفريقية أن تكون وطناً لأمة واحدة مندمجة من الإنجليز والافريكانرز والإفريقيين والبوير » ؛ ويتابعون الدفاع عن أنفسهم قائلين « إن الناس خارج الاتحاد يفكرون فى المشكلة على أساس أن سكان الاتحاد مجموعة من « الأفراد » وليسوا « قوميات متعددة » فهم يظنون البانتو افريكانرز أو إنجليز غير متعلمين . ويطلبون أمرين لحل مشكلة الاتحاد أن يتعلم البانتو طرق الحياة الغربية وأن ينسى البيض أحقادهم اللونية . والأمر — عند البيض — غير هذا . فهم يعتبرون كل قسم من هذه الأقسام قومية متميزة فى تاريخها وثقافتها بحيث لا يمكن أن يكون بينها إلا أن يحافظ كل منها على كيانه . ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتمييز العنصرى

٧ — وعلى هذه الأسس من التفرقة تسير حكومة الاتحاد الآن بحيث لا يصطدم التيار الإفريقى بالتيار الأبيض . وأن يكون هناك فى الاتحاد : الجنوب الأبيض والجنوب الأسود .

٨ — وليس المسلوب فى جنوب إفريقية الآن تكييف الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفق دستور مثالى يوضع للاتحاد . ولكن المطلوب دستور يلائم حقائق الحياة القائمة وهى حياة يلخصها وجود البيض والسود كقوتين ينبغى ألا يتصادما وأن يكفل لكل منهما نموه وتطوره الخاص .

هذه هى خلاصة آراء وحجج المدافعين عن التفرقة العنصرية وقانون الحكم الذاتى للبانتو — ومشروع البانتو ستانات أو كما يمكن أن نسميه : الهلال الأسود فى اتحاد جنوب إفريقية وإذا كان هناك تقارب بين الإنجليز والافريكانرز جعلهما جبهة واحدة . فإن المشكلة الكبرى فى الاتحاد هى الجبهتان الكبيرتان : البيض والافريقيون . والأفريقيون — فى نظر البيض — ليسوا قومية واحدة وإنما يتوزعهم الولاء القبلى أكثر مما تجمعهم الوحدة الإفريقية ولنناقش الآن هذه الحجج :

قصة الأرض الحالية :

من الحجج التى يحاول بها البيض — وبخاصة الافريكانرز — إثبات «حقهم» فى أرض جنوب إفريقية ما كانت عليه الأرض وقت أن نزلوها . . ولهذا النزول قصة .

فجنوب إفريقية — فى أول الأمر — لم يكن

مقصوداً لذاته ، وإنما كان مرحلة من مراحل الطريق بين أوروبا والهند . ففى نهاية القرن الخامس عشر كشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح وظلوا مسيطرين عليه مدة قرن . وأصبحت لشبونة – عاصمة البرتغال – البندقية الجديدة . وكان الهولانديون أكبر عملاء لشبونه ، وحاولت إسبانيا الضغط على هولندا من أجل الصراع الدينى المذهبى فأغلقت ثغر لشبونه أمام التجار الهولانديين لتدمير ثروتهم القومية . وأحس الهولانديون الخطر يهدد عقيدتهم وثروتهم فأسسوا شركة الهند الشرقية الهولاندية فى عام ١٦٠٢ . وكانت الوسيلة التى استطاعوا بها التحرر من التحكم الإسبانى وصيانة حريتهم العقيدية والقومية .

وفى عام ١٦٥٢ أرسلت الشركة جان فان ريبيك إلى رأس الرجاء الصالح ليؤسس هناك محطة لتموين سفن الشركة بالخضروات والفاكهة واللحوم . وكانت الأوامر الصادرة له من الشركة أن يوجه كل عناية إلى المهمة التى نيطت به دون أن يدخل فى أى صراع مع من عساه يلقاهم من سكان الأرض . وظل الأمر كذلك قرناً ونصف قرن .

والذى يهمنا الآن ما يقوله المستوطنون الذين جاءوا ليسكنوا الأرض ويزرعوا فيها الخضر والفاكهة ويرعوا الماشية . وهم الطليعة الأولى للمستوطنين الأوروبيين فى جنوب إفريقية هؤلاء الافريكانرز يقولون إن جنوب إفريقية لم يكن وطناً للبانتو عند ما جاء ريبيك . فالبيض عند ما أخذوا فى التوسع شمالا كان البانتو يتحركون جنوباً . ولم يتلاق البيض والافريقيون إلا بعد قرن . ويذهب « بينار » فى دفاعه عن مشروع الحكم الذاتى إلى أبعد من هذا ؛ فيقول فى بحث له نشر فى عام ١٩٦٠ : « إذا كان هناك وافدون فالبانتو أحدث فى جنوب إفريقية من البيض وإن كلا من البيض والبانتو قد اعترف باحتلال الآخر الأرض منذ أقدم الأوقات . وقبل الأفريكانرز ومن ورائهم البريطانيون ثم حكومة الاتحاد تقسيم الأرض بين البيض والبانتو » .

ومن هنا يأتى الادعاء الذى تعرض لتنفيذه باحثون فى شئون جنوب إفريقية وهو أن الأرض كانت خالية من السكان إلا جماعات متناثرة من قبائل البوشمن والهوتنتوت البدائيه . ويذكر ليو ماركارد (١٩٦٠) فى كتابه « الشعوب والسياسيات فى جنوب إفريقيا » : « كثيراً ما يظن – خطأ – أن البيض كانوا فى جنوب إفريقيا قبل الإفريقيين . وقد سكن رجال من أوروبا ما هو الآن المقاطعة الغربية فى الكيب عام ١٦٥٢ ولم يجدوا إلا البوشمن والهوتنتوت .

ولكن هناك أدلة واضحة من الرحالين البرتغاليين المتقدمين ، ومن الأبحاث الاركيولوجية والانثروبولوجية الحديثة تبين أن الإفريقيين كانوا يعيشون فى ما هو الآن بقية أرض اتحاد جنوب إفريقيا منذ فترة تمتد على الأقل نحو ألف وخمسمائة عام » .

الروح القبلية والقومية

ادعاء آخر كثيراً ما ينادى به المستوطنون البيض وهو أن الإفريقيين تتوزعهم قبائل متعددة ولا يجمع بينهم ولاء إفريقى مشترك . وعلى هذا الأساس وضعوا مشروع البانتوستانات لتدعيم النفوذ القبلى والروح الانفصالية بين الإفريقيين . ولكن الواقع غير ذلك ، فهذا الأمر ينبغى أن تنظر إليه نظرة تطورية . ذلك لأن الولاء القبلى مرحلة من مراحل التطور تسبق الولاء القومى . وكثيراً ما استفادت المنظمات السياسية فى إفريقية من هذا الولاء . فتنظم هيئات تدافع عن مصالح قبلية كما حدث مثلا فى جمعية الكيكويو المركزية التى قامت فى كينيا دفاعاً عن مصالح القبيلة . ولكن سرعان ما تتحول هذه الجمعيات القبلية مع تطور الوعى إلى هيئات قومية تضم القبائل جميعاً وتتسع بها الولاءات الضيقة المحدودة لتشمل القطر كله . . ثم تنسق جهودها

بعد هذا مع المنظمات الإفريقية التى تعمل من أجل صالح القارة كلها .

فالولاء القبلى — على هذا الأساس مرحلة من مراحل نموّ الوعى . من أجل هذا جاهدت حكومات البيض فى اتحاد جنوب إفريقية لتمنع الضوء والماء عن هذا الكيان الوطنى وتحول بينه وبين النمو والتطور .. حاولت هذه الحكومات أن تحتفظ بالإفريقيين فى وضع قزمى ضئيل .. ولكن الجهود الدائبة التى بذلها الإفريقيون استطاعت أن تقاوم هذه السياسات إلى حد كبير . وإذا ما رجعنا إلى المؤتمر الإفريقى « باعتباره المنظمة التى قامت منذ عام ١٩١٢ لتدافع عن مصالح الإفريقيين أمام « اتحاد ليس لنا صوت فى سن قوانينه أو نصيب فى إدارته » رأينا أن هدفه الأول كان « تحقيق الوحدة والتعاون بين القبائل » ... فالتفرقة والأحقاد القبلية — كما يذكر دكتور سيمى الرئيس الأول للمؤتمر — هى سبب كل آلامنا وتأخرنا وجهلنا »

وكان أيضاً من أهداف المؤتمر « تشجيع التفاهم المتبادل وتوحيد جهود العشائر والقبائل والعناصر للدفاع عن حريتها وحقوقها » . فلا جدال إذن فى الوجود القبلى ، وإنما الذى يعنينا تسجيله هو جهود الإفريقيين فى تدعيم القومية الإفريقية فى جنوب القارة والرقى بالولاء من مستواه القبلى إلى مستواه القومى المحلى ثم الإفريقى العام .

وقد برهنت الأحداث الأخيرة فى جنوب إفريقية على أن الاحتجاج على الطغيان الأبيض يسير على مستوى إفريقى قومى وهو ما تخشاه وما تأبى الاعتراف به حكومة اتحاد جنوب إفريقيا .

بين القومية الإفريقية والطغيان الأبيض :

نأتى بعد هذا إلى النقطة الحساسة فى الموضوع كله .. وهى الصراع العنصرى بين البيض والإفريقيين وهو الصراع الذى يحسه أى فرد . ويصل تاثيره إلى كل فرد يحيا فى جنوب إفريقية » .

ويذكر ليو ماركارو (١٩٦٠) : « إن الإنسان يحس التفرقة العنصرية فى جنوب إفريقية فى كل شىء : فى محطات السكة الحديد والقطارات والمطارات والأتوبيسات ومكاتب البريد .. يحسها فى كل المؤسسات العامة .. فى البنوك فى ميادين السباق . وفى النوادى الرياضية .. على الشواطىء حتى فى المقابر يرى الإنسان كيف يعامل الأحياء والموتى من الأوروبيين معاملة تختلف عن معاملة الإفريقيين . وحيثما سار الإنسان تقابله هذه اللافتات « للأوروبيين فقط » ، « لغير الأوروبيين » وتغيّر هذا فى العام الماضى (١٩٥٩) فأصبح « للبيض فقط » و « لغير البيض » . وتنتشر هذه اللافتات فى طول البلاد وعرضها

ولا تخطئها العين فى مطعم أو فندق أو مشرب شاى أو سينما أو مسرح » .

فالتفرقة مطبقة فى كل مجالات الحياة : اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً .

وفى المشروع الجديد لن تخصص أرض جديدة للبانتو ، ولن تكون لهم أى حقوق فى ٢/٣ من مساحة الاتحاد ، وهى التى استأثر بها البيض . وحتى فى الـ ١/٣ من مساحة الاتحاد وهى التى تكون فيما بينها هلال البانتو ستانات سيكون الحكم الذاتى محدوداً ، وعلى المستوى القبلى والسلطة الحقيقية فى يد الحكومة المركزية .

وعند ما درس دكتور توملنسون مشكلات التنمية فى المناطق الإفريقية فى أوائل الخمسينيات ذهب إلى أنها تحتاج إلى ١٠٤ ملايين من الجنيهات ولكن الحكومة لم تعتمد منها إلا ½ مليون جنيه وهو ما يعادل ١/٣٠٠ من مجموع الدخل القومى للاتحاد .

فمشروع الهلال الأسود الذى تعتبره الحكومة حلا لمشكلة التفرقة أصبح قمة يدور من حوها الصراع وتحتوى الكثير من المتناقضات .

١ — مناداة الحكومة بأنها ستعطى البانتو ستانات حكما ذاتياً مع احتفاظها بالسلطة المركزية .

٢ — إن الإفريقيين فى بقية الاتحاد غرباء لا حقوق لهم ومع هذا يعتبرون جزءاً من الاتحاد .

٣ — سيكون فى البانتو ستانات سفراء ومندوبون من الحكومة المركزية . وفى الوقت نفسه ستكون هناك سلطات قبلية محلية وهى – عمليا – مفروضة على البانتو من بريتوريا .

٤ — ويزيد وضوح هذا التناقض إذا تذكرنا أن التسعة ملايين إفريقى سيسكنون ١/١٣ من المساحة بينما يمرح الثلاثة ملايين أبيض فى ١٢/١٣ من الاتحاد .

ولقد حاولت حكومة الاتحاد تخفيف هذا التناقض بضم مساحة المحميات الثلاث وهى باسوتو ويكوانا وسوازى إلى مساحة البانتو ستانات وهى محاولة ظاهرة الافتعال لأنها لم تكن أصلا داخلة ضمن الاتحاد . هذا إلى أن شطراً كبيراً من يكوانا لاند عبارة عن صنحراء جرداء ليست داخلة فى النطاق المعمور .

ولم تكتف الحكومة بهذا وإنما بدأت تعلن عن الثروات التى تحتويها أرض البانتو ستانات ومدى توافر الفرص الواسعة للاستغلال الاقتصادى

نذكر هذه التصريحات التى تحاول بها الحكومة الدعاية للمشروع : إن البانتو ستانات غنية بموارد المياه . وإن الأجزاء الشمالية الشرقية — ولو أنها جافة — بها خامات معدنيــة كالاسبستوس والبلاتــين والكروم والرصاص والنحاس والفحم والنيكل والحديد والباريوم والكورندوم والكاولين الخ . . . وأن توزيع البانتو ستانات صالح جداً لتوليد الكهرباء ، وأنها ليست بعيدة عن طرق المواصلات . . وأن هذه العوامل « سوق توثر على مستقبل البانتو فى مواطنهم هذه وتكون

جانباً له خطره من موارده المادية والبشرية » .

ويعلق سميسون (١٩٦٠) على هذا بقوله : هذا الاتجاه إلى الإعلاء من شأن إمكانيات البانتو ستانات يتناقض تماماً مع التصريحات السابقة عن هذه المواطن . وهى تصريحات تتفق جميعاً على التحذير من أخطار الفقر وازدحام السكان فيها » . وقد جاء فى تقرير توملنسون أن تربة المنازل تحتاج فى صيانتها وحسن الاستفادة فيها إلى نحو ٣٧ مليون جنيه هذا إلى ٣١ مليون جنيه لإنشاء صناعات جديدة و ٣٠ مليونا أخرى لمشروعات التنمية وإنشاء المدن .

نقطة أخرى لها خطرها ؟ :

ما الذى ستفعله الحكومة مع سكان المدن من الإفريقيين وهم يكونون نحو ثلثى المجموع الكلى للإفريقيين فى الاتحاد أى ما يعادل ضعف عدد البيض جميعاً ، وقد يفوقهم .

هؤلاء قد فقدوا روابطهم القبلية ووهنت صلاتهم بالمعازل وأصبحوا سكان مدن تحيا فيها أجيالهم المتعاقبة .. ولا تستطيع الحكومة عملياً واقتصادياً إبعاد هؤلاء إلى البانتو ستانات الجديدة وكل الذى ترغب فيه الحكومة أن تسلبهم حقوقهم فى المدن وقد عاشوا فيها ، وتربطهم بالبانتو ستانات وقد انقطعوا عنها .

لمصلحة من ؟ :

ولننظر الآن إلى الوضع الجديد لتقدير حساب الأرباح والخسائر فيه هذا القانون الجديد فى كلياته وتفاصيله من وضع البيض فى الاتحاد . احتفظوا لأنفسهم فيه بكل ما يحبون أن يحتفظوا به وفرضوا على الإفريقيين ما أرادوا دون أن يستشيروهم . فأرباح البيض منه هى خسائر الإفريقيين .

١ — هذا القانون خطوة واسعة خطتها حكومة اتحاد جنوب إفريقيا لتدعيم سياسة التفرقة العنصرية وسلب الإفريقيين حقوقهم الطبيعية فى الحياة والرقى : ففى عام ١٨٥٣ — أى منذ أكثر من قرن — كان لثلث الإفريقيين فى الكيب أصوات مقيدة فى جدول الانتخاب .. فتطور الوضع واستطاع سمطس وهرتزوج — عام ١٩٣٦ فى أثناء تعاونهما — إصدار قانون بإلغاء حق الإفريقيين فى تقييد أسمائهم فى القائمة الموحدة فى إقليم الكيب . وجاءت بعد هذا قوانين الابهرتهين (العزل الاجتماعى) الذى أصدرها دكتور مالان عام ١٩٤٨ لتشدد القبضة على الإفريقيين ، ثم جاء قانون ١٩٥٩ ليحرم الإفريقيين من كل حق فى الشطر الأبيض ويعطيهم بعض (الحقوق) فى البانتو ستانات .

٢ — ثم هذه (الحقوق) شكلية بحتة . لأن السلطة كلها ستكون فى يد الحكومة المركزية وإن سترتها —أحياناً—

بغطاء من الزعماء الإفريقيين الذين لا يعصون أو لا يستطيعون أن يعصوا — لها أمراً — وأى فرد منهم تسول له نفسه عصيان الحكومة فالطرد مصيره .

٣ — وهذا القانون تكملة سلسلة أخرى من القوانين من أهمها ما يتعلق بالتعليم . فقد حرم الوضع الجديد . الجامعات البيضاء على الإفريقيين .

حرمتها على الطلبة وعلى هيئات التدريس أيضاً ، على أن تنشئ للإفريقيين كليات خاصة تشرف الحكومة البيضاء على ماليتها وبرامجها ومستواها وعدد طلبتها ، وواضح جداً أنها ستكون كليات قزمية ضئيلة لا تستطيع أن تستجيب لحاجات التطور الطبيعى للإفريقيين .

٤ — من ناحية المساحة يمكن أن تلقى الأرقام الآتية بعض الضوء على المشكلة :

مجموع سكان الاتحاد حسب تقدير عام ١٩٥٧ — ١٤,٢ مليوناً منهم ثلاثة ملايين من البيض يقابلهم ٩,٥ من الإفريقيين ويبقى بعد هذا ١,٣ من الملونين ونحو نصف مليون من الأسيويين . من هؤلاء الافريقيين يحيا الثلثان — كما سبق القول — خارج المعازل . أى أن عددهم يعادل ضعف عدد البيض . وبعبارة أخرى تريد الحكومة أن تحشر تسعة ملايين ونصف من الإفريقيين فى $\frac{١}{١٣}$ من مساحة الاتحاد بينما تترك الـ $\frac{١٢}{١٣}$ لثلاثة ملايين من البيض . وتحرم الإفريقيين الذين يعيشون خارج المعازل من حقوقهم الطبيعية . ولا يمكن بحال من الأحوال أن تتسع المعازل لهذه الملايين ، ولا يمكن أيضاً ، أن تقوم الحياة فى الجزء الأبيض دون اشتراك الإفريقيين . فالأمر إذن لا يمكن أن يرقى إلى تقسيم حقيقى لجنوب إفريقية على أساس اللون ، وإنما الهدف الأكبر — كما يبدو — هو متابعة سياسة العزل الاجتماعى وتشديد الضغط على الإفريقيين وإيهام الرأى العام العالمى — بأن هذه الخطوة تعتبر — بالنسبة للإفريقيين أيضاً — جديدة اكتسبوها فى جنوب إفريقية .

٥ — فليس من الغريب إذن فى هذه الظروف أن تتشدد حكومة الاتحاد فى مشكلة تصاريح المرور . وأن تحدث بينها وبين الإفريقيين فى مارس الماضى هذا الصراع الدموى الذى راح ضحيته المئات من الأبرياء إلى جانب من ألقوا فى السجون وأن يشترك فى إضرابات الكيب ما يتراوح بين خمسين وستين ألفاً .

رأى الإفريقيين :

ولعل من خير ما يعبر عن الاتجاه الإفريقى حيال هذه الأوضاع الظالمة ما قاله الزعيم الإفريقى بيكوى عند ما قدمته الحكومة إلى المحاكمة فى

إبريل الماضى بتهمة تنظيم حملة ضد تصاريح المرور :

« إن هدفنا أن نقيم فى جنوب إفريقية حياة ديموقراطية على غير أساس اللون . إننا نعتبر مهمتنا التاريخية أن نسهم فى العمل نحو إقامة ولايات متحدة إفريقية تمتد من الكيب إلى القاهرة ومن مراكش إلى مدغشقر . إننا نطالب بحكومة من الإفريقيين بوساطة الإفريقيين للإفريقيين » .

وبعد : فإن هذا المشروع الذى تحاول حكومة الاتحاد الآن إقامته فى أقصى جنوب القارة تمثل حركة رجعية ترمى إلى سلب حقوق الإفريقيين وهى إذا نجحت كان مشجعاً للأقليات البيضاء فى القارة على التنكر لحقوق الإفريقيين باعتبار أن جنوب إفريقية ميدان من أخطر الميادين التى تطبق فيها سياسة التفرقة العنصرية .

أما إذا تكاتف الرأى العام العالمى والمنظمات العالمية على صيانة حقوق الإفريقيين فى وطنهم وفى جنوب القارة وثاب البيض إلى رشدهم ، ففى هذا خير كثير لهم وللإفريقيين معاً .

إن قضية جنوب إفريقية — من هذه الزاوية — تهدد — كما يقول جون هاكس — علاقات السلام فى العالم كله .

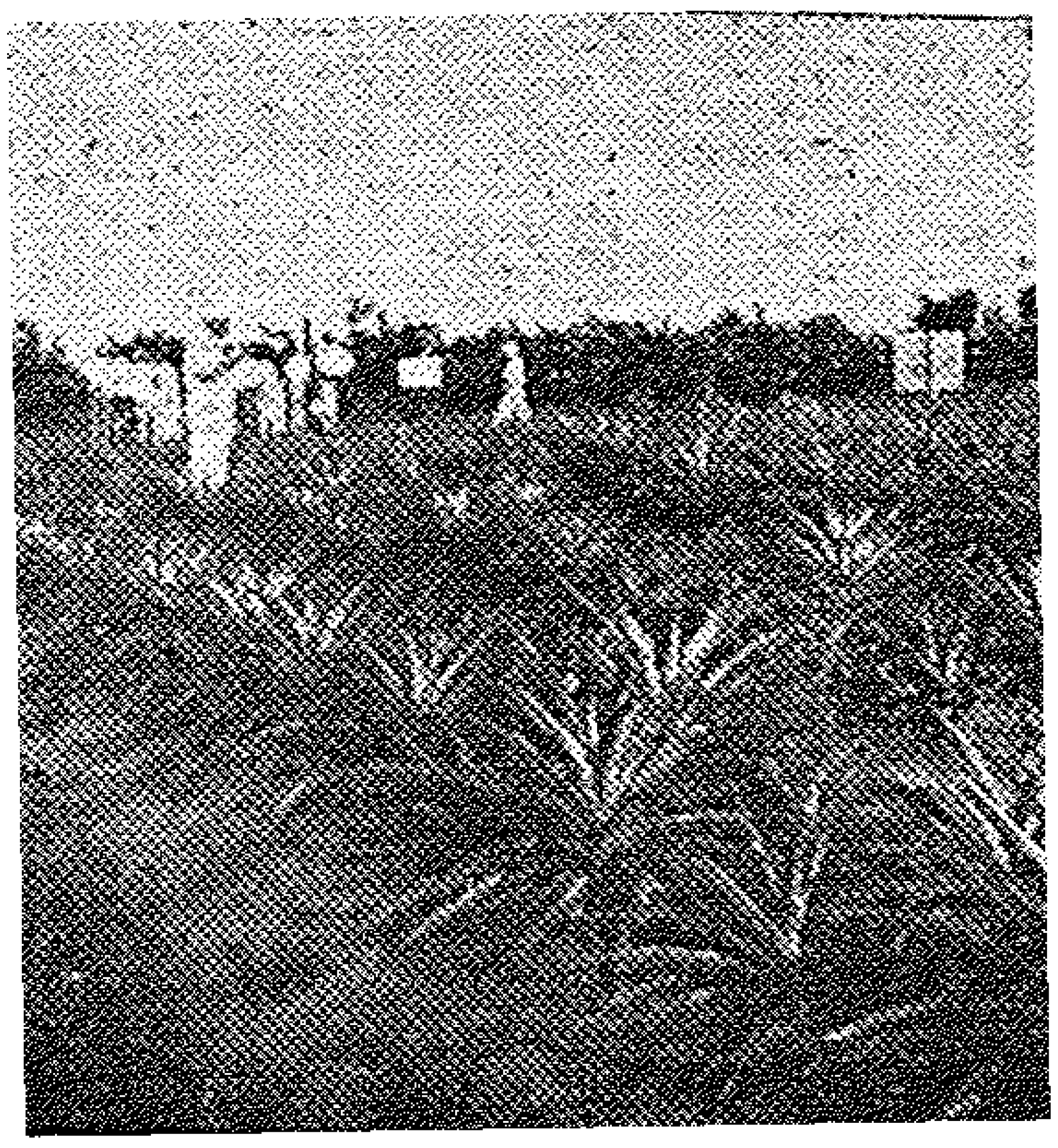

مشروع «أوروبا فريقية»

للأستاذ : لمعى المطيعى

أخذت الدوائر المالية والسياسية فى بلدان أوروبا الغربية ، وبخاصة فى ألمانيا الغربية وبلجيكا ، أخذت تتحدث عما أسمته بمشروع «أورو إفريقيا»

ويلاحظ المراقبون أن الحديث عن ضرورة وضع مشروع « أوروإفريقيا» موضع التنفيذ ، وقد اشتد فى الفترة الأخيرة ، وذلك لسببين :

السبب الأول .. تصدع النظام الاستعمارى فى إفريقية تحت تأثير ضربات الحركات الوطنية ، وإفلات كثير من بلدان إفريقية من السلسلة الاستعمارية ، واتجاه هذه البلدان لبناء اقتصادها الوطنى على أسس مستقلة .

السبب الثانى . . محاولة البلاد العربية إنشاء سوق عربية مشتركة لمواجهة السوق الأوروبية المشتركة وتضامن السوق العربية مع بلدان آسيا وإفريقية .

ولتوضيح طبيعة هذا المشروع الجديد . وارتباطه بالسوق الأوروبية المشتركة ، وهدفها الجديد فى إفريقية ، وخطته الاقتصادية ، وموقف الاتجاهات الاستعمارية التى تتطلع لإعادة مناطق نفوذها فى إفريقية ، وواجب بلدان إفريقية المستقلة .

ولتوضيح كل هذا يلزم شرح الموقف من بدايته ..

عود إلى وراء :

اجتمعت دول غرب أوروبا فى ٢٥ من مارس عام ١٩٥٧ فى روما ، وكان الاجتماع يضم ممثلى فرنسا وألمانيا الاتحادية وإيطاليا وبلجيكا وهولندا ولوكسمبرج ، وقد خرجت هذه البلدان ببيان تعلن فيه اتفاقها على ضرورة إنشاء سوق مشتركة ، عرفت بالسوق الأوروبية المشتركة ، والاتفاق حول تبادل المعلومات الذرية ، وكان إلى جانب هذه الاتفاقات اتفاق آخر يعد من أخطر هذه الاتفاقات ، وهو الذى عبروا عنه وقتئذ بمشروع «أورو إفريقيا» .

ولم تذع هذه الدول عن أغراض هذا المشروع فى ذلك الحين ، أكثر مما سطره الكاتب الفرنسى الاستعمارى « هنرى ديدمييه » فى صحيفة (فرانس أوترمير ، العدد ٣٢٧ ، عام ١٩٥٧) كتب يشرح مشروع « أورا إفريقيا » يقول :

« إن أورا إفريقيا — ومجرد هذا التعبير كاف فى حد ذاته للدلالة — مشروع يهدف إلى إقامة اتحاد وثيق

بين أوروبا وإفريقية لتحقيق الرفاهية العامة لسكان أوروبا وإفريقية . وذلك عن طريق الاستخدام المتبادل لموارد القارتين ، من أجل إشباع رغباتهم السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، وكذلك لإقامة كتلة يكون صوتها مسموعاً وإرادتها محترمة »

وقبل مناقشة هذا المشروع وأهدافه الحقيقية . نرى أن الدول الغربية الست المجتمعة فى روما تزعم أنها تريد ما يلى :

١ — إقامة اتحاد اقتصادى بين أوروبا وإفريقية .

٢ — إقامة كتلة سياسية من بلدان أوروبا وإفريقية .

٣ — تبادل موارد القارتين .

ولهذا أطلقوا اسم « أورا إفريقيا » للدلالة على الاتحاد المزمع إقامته بين أوروبا وإفريقية . . وأما لماذا فكرت بلدان أوروبا الغربية فى مثل هـــذا المشروع الخطير فهذا ما سنوضحه فى الفقرات التالية .

أزمة البلدان الاستعمارية :

لجأت دول أوروبا الغربية إلى مشروع « أورا إفريقيا » كمحاولة لإنقاذ الإمبراطورية الاستعمارية المنهارة فى إفريقية ، وكمحاولة استعمارية جديدة ، تحت اسم جديد للاحتفاظ بمناطق النفوذ ، ولكن بشكل جديد ، غير الشكل الاستعمارى التقليدى .

والمعروف أن الدافع الرئيسى لهذه المحاولة المقنعة هو الأزمة التى اجتاحت تلك البلدان الأوروبية الست ، التى خرجت بهذا المشروع ، فمثلا ، كانت فرنسا قد فقدت الهند الصينية ، فركزت الاحتكارات الفرنسية جهودها على إفريقية ، والبلدان التى كانت تحت النفوذ الفرنسى فى ذلك الحين ، وهى تضم منطقة تبلغ مساحتها ٩ ملايين من الكيلو مترات المربعة ، وعدد سكانها أكثر من ٥٢ مليون نسمة . . وفرنسا تحصل على ربع وارداتها من البلدان التابعة للاتحاد الفرنسى ، والاحتكارات الفرنسية تسيطر على نصيب كبير من التجارة الخارجية لمناطق ما وراء البحار (٧٨,٥٪ من واردات الجزائر و ٧٩,٥٪ من صادرات الجزائر ، كذلك ٧٨,١٪ من واردات إفريقية الغربية الفرنسية و ٨٠,٥٪ من صادراتها و ٦٤,٨٪ من واردات إفريقية الاستوائية الفرنسية و ٧٢٪ من صادراتها) ، وأسواق المستعمرات هامة ، وبخاصة بالنسبة لصناعات المعادن ، والسيارات ، والنسج الفرنسية ، كذلك بالنسبة لوسائل النقل الفرنسية . وفرنسا تبيع بضائعها للبلدان التابعة للاتحاد الفرنسى بأسعار أعلى من الأسعار السائدة فيها ، أو فى السوق العالمية . وهذا التبادل غير المتكافئ يمكن الاحتكارات الفرنسية من الحصول على ما يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ مليون فرنك من الأرباح سنوياً ،

وبالإضافة إلى ذلك فإن توفير العملة الخارجية بالاتجار مع تلك البلدان الإفريقية يصل إلى ما بين ٣٠٠ و ٥٠٠ مليون دولار سنوياً. زد على ذلك أن أكبر البنوك التجارية الفرنسية، مثل بنك باريس، والأراضي المنخفضة وجماعات مالى ميرابو، وروتشيلد المالية وغيرها تستغل تلك البلدان استغلالا بشعاً.

هذه هى الأرباح والمطامع، إلا أن الأزمة تضيق الخناق حول عنق فرنسا، فبعد أن أنفقت فرنسا أكثر من ٣ ملايين من الفرنكات على الحرب فى الهند الصينية وكانت العمليات الحربية فى الجزائر تستنفد أكثر من ٤٠٠ مليون فرنك سنوياً أو أكثر من ألف مليون فرنك يومياً، وثوار الجزائر يكسبون أرضاً جديدة كل يوم.. والحركات الوطنية فى البلدان التابعة للاتحاد الفرنسى تهدد النفوذ الفرنسى تهديداً مباشراً.. فاضطرت فرنسا إلى منح الحكم الذاتى لتوجولاند والكمرون واستقلت غينيا، واتحاد مالى..

والميزانية الفرنسية تتحمل ما بين ١٧٥ ألفاً و ٢٠٠ ألف مليون فرنك على إدارة البلدان.

ونشرت جريدة «لاكروا» فى ٣ من أبريل عام ١٩٥٧ أن الاقتصاد الفرنسى يتحمل ما يزيد عن ٤٠٠ مليون فرنك سنوياً من أجل الإبقاء على الإمبراطورية الاستعمارية.. أى أن وضع فرنسا العسكرى فى إفريقية ينهار، والوضع الاقتصادى يعكس أزمته فى فرنسا ذاتها، والوضع السياسى ليس فى صالحها سواء فى إفريقية أو فى غيرها، ولهذا كان على فرنسا أن تبحث عن خطة تحفظ لها نفوذها بشكل مقنع. فقام المفكر الاستعمارى الفرنسى «كاريتيه» برسم المشروع الاستعمارى الجديد، ومؤداه أن تقوم فرنسا بتراجع عسكرى مظهرى فى البلدان التى تقع تحت سيطرتها، وأن تشترك فى حلف يضمن لها مصالحها الاقتصادية، وذلك بالاشتراك مع الدول الأوروبية الأخرى، وكان ذلك كله يتمثل فى مشروع «أورا إفريقيا».

والأزمة التى تعرضت لها فرنسا، تعرضت لها أيضاً، «هولندا» نتيجة لكفاح الشعب الأندونيسى، فلم يتبق لهولندا سوى عدد ضئيل نسبياً من الممتلكات الاستعمارية وهى (غيانا الهولندية، والانفيل، وإيريان الغربية) وهذه أيضاً مهددة بالضياع منها، وكان لبلجيكا مستعمرات فى إفريقية — الكونغو، ورواندا أورندى — وتبلغ مساحتها ضعف مساحة بلجيكا ذاتها ٨٠ مرة، وتسيطر على ذهب الكونغو وتدخل مع الاحتكارات الأمريكية فى السيطرة على اليورانيوم، وتستغل أهل الكونغو أبشع استغلال.. غير أن

الأرض التى تقف عليها بلجيكا فى الكونغو بدأت تتغير فى الفترة الأخيرة لهذا لم يكن من الغريب أن نجد دوائر المال والسياسة فى بلجيكا ، أشد الدوائر تحمساً لإحياء مشروع « أورا إفريقيا » ووضعه موضع التنفيذ .

وأما إيطاليا ، وقد اشتركت هى الأخرى عام ١٩٥٧ فى مشروع « أورا إفريقيا » فأمرها معروف إذ أنها قد فقدت كل مستعمراتها خلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها ، وهى لذلك ترحب بالمشروع الجديد مؤملة أن تتاح الفرصة لرءوس أموالها فى العودة إلى إفريقية :

أى أن المحرك الرئيسى لمشروع « أورا إفريقيا » هو محاولة بلدان أوروبا الغربيــــة الاحتفاظ بنفوذها فى إفريقية ، أو إعادة النفوذ الضائع بشكل آخر .

وفيما يلى سوف نعرض لموقف باقى الدول الست الموقعة للاتفاقية ، وللمطامع الاقتصادية خلف هــذا المشروع الجديد . .

اتفاق على الفريسة :

ولا يظن أحد أن اتفاق الدول الست على استعمار إفريقية تحت اسم « أورا إفريقيا » جاء بسهولة . . ولكنه اتفاق على نهب الفريسة . . ولا يخفى مع هذا ما بين الاحتكارات فى مختلف هذه الدول من منافسة .

وقد لعبت الاحتكارات الفرنسية الدور الرئيسى فى تجميع هذه الدول حول هذه الفكرة : وذلك لأن الاحتكارات الفرنسية ، تدرك علاقة رءوس الأموال فى كثير من هذه الدول بالاحتكارات الأمريكية ، وهى بــذات الوقت لا تحبــذ سيطرة الاحتكارات الأمريكية فى إفريقية ، سواء فى فترة عقد الاتفاقية ، عام ١٩٥٧ وذلك بأثر موقف أمريكا فى حرب السويس ، وسواء فى الفترة الأخيرة حيث ينزع ديجول إلى شىء من الاستقلال عن النفوذ الأمريكى الآخذ فى الازدياد فى أوروبا الغربية ، وقد كتبت صحيفة (استيرى الإيطالية فى ١٥ من فبراير عام ١٩٥٧) تقول فى هذا المعنى :

« من الطريقين المفتوحين أمام الحكومة الفرنسية فى هذا الموقف الصعب – وهما دعوة رأس المال الأمريكى ، وطلب اشتراك الدول الأوروبية الأخرى فى هذه العملية – اختارت الطريق الثانى . ولا شك أن هذا القرار قد اتخذ بتأثير العداء اللاشعورى لأمريكا بسبب موقفها من العدوان على مصر » .

وهكذا تجمعت الدول الأعضاء فى اتحاد الفحم والصلب الأوروبى ، ومعهم ألمانيا الغربية . .

واحتكارات ألمانيا الغربية ، شأنها شأن الاحتكارات الفرنسية تحاول أن

تدعم وتحافظ على نظام الاستقلال الاستعمارى للشعوب الإفريقية ، إلا أنها بذات الوقت لا ترغب كثيراً فى تحمل نتائج مغامرات الاحتكارات الفرنسية ، فى إفريقية ، وتقف إلى جانب ألمانيا الغربية فى هذا الشعور: هولندا وإيطاليا ولوكسمبورج . ومع هذا نجد الاتفاق يعقد فى ذلك الوقت بين « أديناور » و « جى موليه » فى الوقت الذى تنشر فيه صحيفة « لايزين نوفيل فى ٢٨ فبراير وحتى ٤ من ابريل من عام ١٩٥٧ » مقالات وتقارير لدوائر الأعمال والصناعة فيها تعتب على عدم تحمل حلفاء فرنسا ! العبء كاملا معها . على حد تعبيرها .

إلا أن المهم بعد ذلك كله . هو الاتفاق حول استقلال إفريقية اقتصادياً بشكل جديد مقنع ، يحفظ للاستعمار بعض سلطانه . . وقد عبر عن هذا المعنى صراحة مسيو « لافارج » رئيس القسم الفرنسى بالمجلس البرلمانى للحركة الأوروبية قائلا :

« إن ما يهمنا اليوم ليس استثمار رءوس الأموال . وإنما التضامن الأوروبى فى مواجهة هذه المشكلة — يقصد أنهيار النفوذ الاستعمارى » .

وداخـــل إطار الاتفاق عـــلى الفريسة ، نجد فى ألمانيا الغربية بعض الدوائر تبدى مخاوفها من أن يضر اتفاق ألمانيا على المشروع ، مصالحها فى البلاد العربية وبعض بلدان آسيا وأمريكا اللاتينية .

وبالنسبة إلى بلجيكا ، فإن موقفها مرّ بمرحلتين . . فى الفترة التى عقد فيها المشروع . فقد كانت تلتزم بدفع ٧٠ مليون دولار للمساهمة فى رأس مال المشروع على حين أنها تحصل فقط على ٣٠ مليون دولار . وقد خشيت بعض الدوائر وقتئذ أن يؤثر هذا المشروع على مشروعات الألومونيوم فى الكونغو ولهذا كان يرى « سناتور فرناند ويهوس » ومعه « بول هنرى سباك » وزير الخارجية آنذاك . بأن تبقى الكونغو بعيداً عن منطقة السوق الأوروبية المشتركة . .

وأما فى الفترة الأخيرة فقد وجدنا الدوائر البلجيكية أشد الجهات تحمساً ودعوة لتنفيذ المشروع . وذلك لأن السيطرة البلجيكية على الكونغو لم تعد كما كانت من قبل ، وهى تأمل فى باقى الدول أن تساعدها على إعادة استقلالها الاقتصادى للكونغو . .

إلا أن هذه المخاوف الجزئية ، والمنافسات المؤقتة . لم تحل دون اتفاق الاستعماريين على مشروعهم الجديد .

الاستعمار الجماعى :

لعل أحسن تعبير أطلق على مشروع « أورا إفريقيا » هو التعبير الذى أطلقته صحيفة تايمز الإنجليزية — سوف نوضح سبب هذا الموقف فيما

بعد – فى عددها الصادر بتاريخ ٢٢ فبراير من عام ١٩٥٧ . . قالت : « إن عبارة « الاستعمار الجماعى » يمكن أن تعبر بحق عن مشروع « أورو إفريقيا » .

وتاريخ التفكير فى الاستعمار الجماعى لإفريقية يعود إلى عام ١٩٥٠ إبان الحديث عن مشروع « شومان » واقترنت الخطوة الأولى بقرار من الجمعية الاستشارية للمجلس الأوروبى اتخذ فى ٢٥ من سبتمبر عام ١٩٥٢ (وهو المسمى بمشروع ستراسبورج) وقد نصح القرار الدول الاستعمارية بفتح ممتلكاتها فيما وراء البحار لرأس المال من دول غرب أوروبا . وبإقامة بنك أوروبى . على أن يعمل ذلك البنك بالتعاون مع البنك الدولى للإنشاء والتعمير . . ومن الطريف أن هذا القرار الذى وضع بناء على اقتراح « جوهانز سملر » ، رجل الصناعة وممثل ألمانيا الغربية ، قوبل بالعداء من لندن وباريس .

وفى عام ١٩٥٣ ، حيث كانت تجرى الترتيبات لإعادة تسليح ألمانيا الغربية ، ثارت اقتراحات بإنشاء قاعدة عسكرية وصناعية لكتلة غرب أوروبا فى إفريقية . . وقد نشرت صحيفة « ألمانيا اليوم فى العدد ٣ مارس ١٩٥٥ » أن الاقتراحات تركزت فى إقامة مصنع للصلب والألمنيوم فى غينيا تستخدم الحديد الخام المحلى ، والألمنيوم الخام المحلى ومصادر القوى المائية ، وإقامة مصانع كبيرة للطائرات والذخيرة فى جبال أطلس ، وقد وضعت الخطة لعقد قرض لتمويل المشروع .

وقد اتخذت قرارات لزيادة التعاون الاستعمارى فى نطاق اتفاقيات باريس فى أكتوبر من عام ١٩٥٤ وكولونيا فى مارس من عام ١٩٥٥ ، التى عقدت لرجال البنوك والصناعة . ولهذا الغرض تكونت عدة شركات مثل : الشركة الدولية للبحث والتعاون الصناعى ، والشركة الإفريقية ، أسهمت فيها شركة اربدشنيدر ، وشركة هاهن أوند كولب وفروشتال .

وفى المؤتمر الذى عقد فى باريس فى ٢٠ و ٢١ فبراير من سنة ١٩٥٧ عقد اتفاق بين رؤساء حكومات الدول الست وتبلور الاتجاه فى أن موارد إفريقية تضمن إمداد صناعة أوروبا الغربية بالمواد الأولية والوقود . وقد تركز الجدل حول مسألتين : حجم الاستثمارات المشتركة ، والإشراف عليها . .

وبالنسبة لحجم الاستثمارات فقد قدمت اقتراحات كثيرة حول (٣٥٠ و ٤٠٠ مليون فرنك) .

وثار جدل بين ممثلى فرنسا وألمانيا الغربية حول (الإشراف) فرأت فرنسا أن يترك لها الإشراف التام ، ورأت ألمانيا الغربية أن يحدد وكلاء

السوق المشتركة المبالغ التى تخصص لكل مشروع .

وقد تم الاتفاق النهائى على أن يكون مجموع المبالغ التى تخصص للاستثمار (٢٨١,٢٥٠,٠٠٠ دولار) تسهم فيها كل من فرنسا وألمانيا الغربية بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار ، وتسهم كل من هولاندا وبلجيكا بمبلغ ٧٠ مليون دولار، وتسهم لوكسمبورج بمبلغ ١,٢٥٠,٠٠٠ دولار والنتيجة هى ربح صاف قدره ٣١٢ مليون دولار لفرنسا و ٣٥ مليون دولار لهولندا و ٤٠ مليون دولار لبلجيكا و ٣٥ مليون دولار لإيطاليا ومليون دولار ونصف للكسمبورج .

وقد ارتفعت الأصوات من جديد لتدعيم هذا « الاستعمار الجماعى » ، لأنه ينظم عمليات الاستغلال بين الدول الست . . وقبل أن نحكم على هذه المؤامرة الاستعمارية الجديدة ، يحسن أن نعرض لموقف أهم دول المعسكر الغربى ، ونعنى بها بريطانيا وأمريكا .

موقف أمريكا وبريطانيا :

تنظر الولايات المتحدة إلى مشروعات «أورو إفريقيا» بعين الرضا. وذلك لأن دوائر الأعمال فى الولايات المتحدة تريد أن تتغلغل فى إفريقية ، وذلك عن طريق تغلغل شركات هذه الدول الست ، ومعظمها يتداخل فيها رأس المال الأمريكى . . ودخول هذه الدول ومعها رأس المال الأمريكى إلى إفريقية ، يدعم حلف الأطلنطى ، والأحلاف الاستعمارية الأخرى .

ولعل خير ما يعبر عن موقف الولايات المتحدة ، ما قاله جون فوستر دالاس فى حديث له نشرته مجلة (أفريك نوفيل فى ١٩ مارس عام ١٩٥٧) « إن أورا إفريقيا يجب أن يكون المحور الذى يمتد من الشمال إلى الجنوب بدلا من الخطوط الأرضية التقليدية التى تمتد من الشرق إلى الغرب » ومعنى هذه الملاحظة الجغرافية السياسية ، هو وضع إفريقية فى معسكر يخضع للغرب سياسياً واقتصاديا . .

وأما إنجلترا فقد أبدت مخاوفها من هذا المشروع لا حباً فى بلدان إفريقية وإنما حرصاً على مصالح الكومنولث التجارية .

إرادة الشعوب ونوايا الاستعمار :

يهدف الاستعمار من وراء مشروعه هذا إلى إدماج إفريقية فى كتلة الغرب، والسيطرة الاقتصادية عليها ، واستمرار نهب خيراتها ، وإطالة عمر الاستعمار فى إفريقية غير أن ما يريده الاستعمار شىء ، وما تريده وتفرضه الشعوب شىء آخر . . وعلى الرغم من أن جميع قوى الاستعمار تتكاتف بدرجات متفاوتة لإنجاح هذا المشروع ، إلا أن

هناك عوامل كثيرة ، تجعلنا نقول بضرورة فشله وهزيمته ، شأنه فى ذلك شأن كثير غيره من مشاريع الاستعمار . وهذه العوامل يمكن إيجازها فى :

١ — خروج كثير من بلدان إفريقية من السيطرة الاستعمارية . وضعف النفوذ العسكرى للاستعمار فى هذه المناطق .. وأن البلدان الإفريقية حديثة الاستقلال تتجه فى بناء اقتصادها القومى وجهة مستقلة . لا ترتبط فى ذلك بالتكتلات الاقتصادية العالمية .

٢ — النضال المتصاعد فى إفريقية والمتجه إلى تصفية النفوذ الاستعمارى العسكرى ، أو السياسى . أو الاقتصادى .

٣ — التعاون الآسيوى الإفريقى فى المجال الاقتصادى والتجارى ، والاتجاه إلى تدعيم هذا التعاون مما يضعف نظام المعونات المشروط الذى ستطلع إليه بعض الدول الكبرى .

٤ — يقظة الدول الإفريقية وغيرها من البلدان الحديثة إزاء التكتلات الاقتصادية الدولية كمشروع السوق الأوروبية المشتركة .. وقد تجلت هذه اليقظة فى مشروع السوق العربى المشترك ويقظة الداعين له إزاء التكتلات الاقتصادية . وضرورة التضامن الآسيوى الإفريقى الاقتصادى .

٥ — استمرار تصدع النظام الاستعمارى . وتزايد المنافسات الداخلية بين كثير من الدول الاستعمارية مما يساعد على إضعاف هذه المشروعات الاستعمارية .

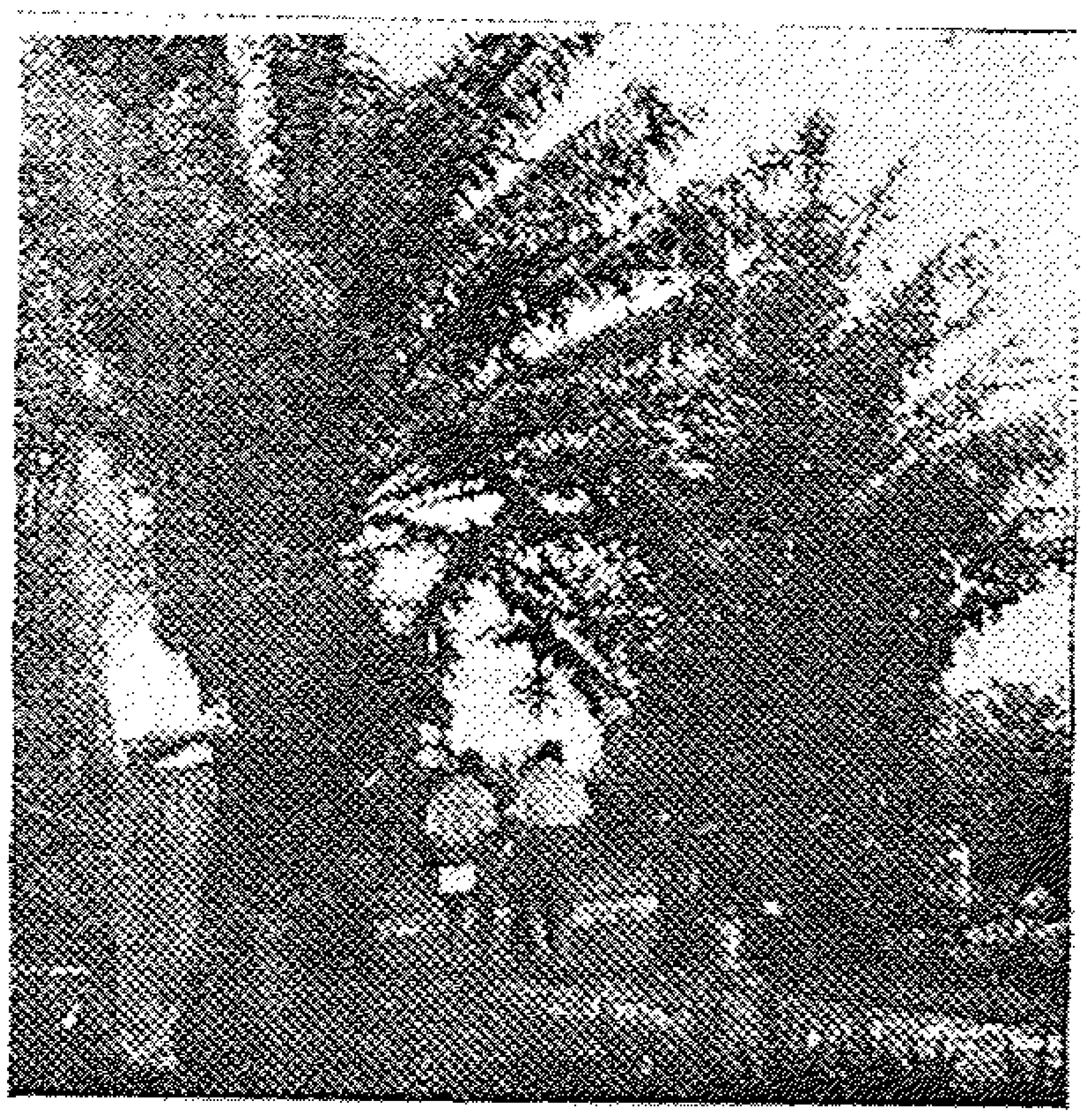

شخصية العدد

للأستاذ سعد غزال

.. فى أواخر سبتمبر . وفى أوائل أكتوبر ١٩٦٠ كانت رحلة النهاية لمحمود حربى الزعيم الصومالى ، الذى كان ضمن ركاب الطائرة العربية (السبعة عشر) العائدة من چنيف . والتى انفجرت فوق جزيرة إلبا تجاه الساحل الإيطالى ، وابتلعها البحر بما فيها ومن فيها . . . ومحمود حربى هذا ، شاب أسمر ، لم يتجاوز الأربعين خريفاً ، ولد فى جيبوتى بالساحل الصومالى لأبوين صوماليين فقيرين ولذلك نشأ بسيطاً فقيراً بعيداً عن حياة الرفاهية ، وتزوج من صومالية أنجبت له طفلة فى عامها الخامس . وتلقى العلم فى «كتّاب» البلدة ، لأن المدارس إذ ذاك كانت وقفاً على الأجانب . وفى «الكُتّاب» — وعلى يد العريف — درس القرآن والحديث ومبادىء الدين ، ونهل من الفكر الصومالى الأصيل ، وحفظ (بوعى) ما يزخر به الأدب الصومالى من قصيد وملاحم وقصص وأساطير — وخرج بعد ذلك إلى ميدان الحياة عاملاً بين ألوف العمال الذين يعيشون تحت الحكم الفرنسى المسيطر على بلادهم ، أحوال البلاد السيئة وقتذاك وما يلاقيه شعبها من تسلط الفرنسيين واستبدادهم هى التى دفعته إلى العمل من أجل الخلاص من النفوذ الأجنبى ، كما دفعه حب التحرر لبلده .

وكان الساحل الصومالى الفرنسى يعانى الضيق والحرمان والكبت والمصادرة بعد الحرب العالمية الأولى .

وبحث حربى عن مجالات للعمل الوطنى ولكنه لم يستطع فى هذا الجو الخانق أن يجد متنفساً لأفكاره أو منطلقاً لنشاطه . وأخيراً لاحت له فى عام ١٩٣٨ فرصة العمل فى معسكرات العمل فى ميناء «جيبوتى» فالتحق بها لأنه قدّر أنه يستطيع فى خضمّ هذا العمل الجماعى الذى يضم المئات من العمال الصوماليين ، أن يعمل لفكرته الوطنية التحررية .

وأخذ يعمل فى محيط العمال من بنى جلدته . . يبث فيهم روح الوطنية ويدعوهم إلى العمل المشترك من أجل استخلاص حقوقهم العمالية وحقوقهم الوطنية . ولم يكد يبدأ خطوات عملية فى هذا السبيل حتى نشبت الحرب العالمية

الثانية بعد بضعة أشهر من التحاقه بالعمل . وحينئذ سبق العمال قسرًا إلى ميدان القتال ، ولكن حربى وجد فى القتال فرصة نفيسة للتدريب على حمل السلاح وإتقان العمليات الحربية . الأمر الذى يستلزمه الكفاح المنتظر ضد الاستعمار . وعبأت السلطات الفرنسية فرقاً بأكملها من الصوماليين لتحارب فى صف الحلفاء . وكان « حربى » وزميله فى النضال « أحمد قمنى » ضمن المقاتلين فى الجبهات الأمامية فى الميدان الأوروبى حتى انتهت الحرب ، فعاد حربى إلى معسكرات العمل بميناء « جيبوتى » ، ثم بدأ ينظم العمال فى تنظيم نقابى ، ويرسم للحركة الخطة والمنهاج المفصل . وفى هذا الوقت كان الصوماليون — كغيرهم — ينتظرون من الحلفاء الوفاء بالعهود التى قطعوها لهم قبل الحرب ، كما يأملون تحقيق الاستقلال الذى وعدوهم به فى نظير مساعدتهم — إن طوعاً وإن كرهاً — لجانب الحلفاء .

ولكنهم أصيبوا بخيبة أمل كبيرة حين أصدرت فرنسا فى عام ١٩٤٦ دستوراً جديداً يقضى بأن يصبح الصومال الفرنسى جزءاً من الاتحاد الفرنسى وكان إعلان هذا الدستور فى الوقت الذى ينتظر فيه الناس لاستقلال يعتبر تحدياً سافراً لأمانى الصوماليين وخذلاناً لهم وإنكارًا لحق تقرير المصير الموعود . وكان الموقف الموقف يقتضى العمل السريع فقام محمود حربى عام ١٩٤٧ بتأسيس نقابة عمال الميناء وهى أول نقابة عمالية فى تاريخ البلاد. والواقع أن هذه النقابة مدرسة للكفاح الوطنى الوليد . وبعدنكبة فلسطين عام ١٩٤٨ وتوطن العصابة الصهيونية الأرض العربية قام فى «جيبوتى» نشاط تجارى جديد فى صورة المؤسسات اليهودية ، التى كانت على صلة مباشرة بإسرائيل . وتحالف الاستعمار الفرنسى مع الاحتكار اليهودى ضدالعامل الصومالى.

والصوماليون — كشعب مسلم — يؤيدون العرب فى قضية فلسطين ويشاركونهم مشاعر السخط على ما قام به الصهاينة ، بتأييد من الدول الاستعمارية ، من اغتصاب لحقوق عرب فلسطين . وكانت هذه المشاعر فى نفوسهم حين قامت مظاهرات عام ١٩٥٢ التى نظمتها ودعت إليها النقابة العمالية بقيادة محمود حربى ، والتى تقرر فيها القيام بإضراب عام شامل ضدشركات الاحتكار اليهودية والأجنبية .

والحق أن محمود حربى كان يعتقد اعتقاداً جازماً أن أنجح الطرق لتقوية الحصار ضد إسرائيل هى استقلال الصومال الفرنسى . وكان السبب المباشر للإضراب هو الاحتجاج على سوء استغلال العامل الصومالى، والمطالبة ببعض حقوق العمل ومنها رفع الأجور . وقد نجح الإضراب وزادت أجور العمال على الأثر بمقدار ١٥٪ :

واحس محمود حربى بعد نجاح حركة

الإضراب واستجابة الشعب لزعامته أن البلاد في حاجة إلى تنظيم سياسي يرتفع إلى مستوى الأحداث والظروف ، وأن مشاكل البلاد وقضية الحرية فيها فوق مستوى التنظيم النقابي البحت ، فقام حربي بتأسيس حزب التحرر الديمقراطي (عام ١٩٥٥) الذي يهدف إلى تحقيق الاستقلال والوحدة الصومالية . وفي هذه الفترة اشتدت حركة الكفاح الوطني في الصوماليين البريطاني والإيطالي ، وتجاوبت هذه الحركات مع مثيلتها في الصومال الفرنسي وفي بقية المناطق الأخرى ونتيجة لاشتداد الحركة وتزايد نشاطها وارتباط النضال بين أجزاء الصومال المختلفة ، اضطر الاستعمار الفرنسي في الصومال إلى التغيير من خطته بعض الشيء ، فعمد إلى تكوين مجلس إقليمي وانتخب محمود حربي رئيساً لهذا المجلس . وظن القائمون على السياسة الفرنسية أن الهدوء سيعود إلى الساحل الصومالي بعد قيام هذا المجلس ، ولكن تبين خطأ تقديرهم حين لم يمنع قيام هذا المجلس نشاط الوطنيين ، كما كانوا يتوقعون ، بل على العكس ازداد النشاط في عهده ، وقويت الحركة الوطنية عن ذي قبل حتى بلغت درجة كبيرة في عام ١٩٥٦ . ورأى الاستعمار الفرنسي أن البلاد على أبواب ثورة واقعة . وللمرة الثانية انحنت فرنسا للعاصفة ، ورأت أن تسلم - ولو موقتاً - بالأمر الواقع . فأعلنت قيام الحكم الذاتي ودعت إلى تكوين حكومة وطنية تتولى شئون الحكم في الداخل ، ووقع الاختيار على « محمود حربي » ليكون رئيساً للوزارة .

وكان اختيار حربي على أساس أنه الشخصية السياسية الأولى ، والرجل الذي لا يختلف عليه أحد بين طبقات الشعب جميعاً . ورب معترض يقول : وكيف قبل حربي أن يكون رئيساً للوزارة في ظل الاستعمار ، ووجود الحاكم العام الفرنسي ؟ والواقع أن الفرنسيين كانوا يعلقون أملاً كبيراً على رئاسة حربي للوزارة ، إذ كانوا يريدون أن يتخذوا من الحكومة الذاتية ومن رئاسة حربي لها ستاراً لتنفيذ مطامعهم . وتعطيل حركة المطالبة بالاستقلال والوحدة ، وكانوا يعتقدون أن «حربي» يستطيع تهدئة الأحوال في البلاد لشعبيته . وإيمان الوطنيين به ، وحرصهم على عدم إحراج حكومته . هذا التقدير وإن كان معقولا في منطق الاستعمار إلا أن الحوادث بعد ذلك أثبتت خطأ الفرنسيين حين ظنوا أن محمود حربي ممن يمكن شراءهم بمال أو منصب.

والحقيقة أن « حربي » قبل رئاسة الوزارة - برغم قسوة الظروف - لأنه كان يعتقد أن مجرد تسليم فرنسا بفكرة الحكومة الذاتية انتصار جزئي في سبيل القضية ، ولذلك وافق على قبول الوزارة ، لا تسليماً بالوضع الاستعماري ، وإنما استفادة من هذا الكسب الجزئي على أساس أنه مرحلة من مراحل الاستقلال الكامل .

ولم يدع حربي فرصة إلا اغتنمها في سبيل تحقيق النصر لقضية بلاده . وكان لايني عن المطالبة بالاستقلال الكامل وتحقيق وحدة الصومال الكبير .

وعندما ذهب إلى باريس تمثل بلاده في مجلس النواب الفرنسي شن هناك حملة كشف فيها عن أساليب الاستبداد الفرنسي في المستعمرات ؛ وبين فيها وحشية الحكم الفرنسي في الصومال .

وأخيراً جاءت المرحلة الحاسمة

فى نضال محمود حربى ، برئاسة ديجول للوزارة الفرنسية وإجراء الاستفتاء على دستور الجمهورية الخامسة فى سبتمبر عام ١٩٥٨ ، وكان على المصوتين أن يقولوا رأيهم فى اختيار الاستقلال أو الدخول فى الاتحاد الفرنسى . وفى ذلك الوقت كان محمود حربى فى فرنسا ، هو والزعيم سيكوتورى (الرئيس الحالى لغينيا) . ورئيس وزراء النيجر ، واتفق ثلاثتهم على مقاومة هذا الاستفتاء والمطالبة بالاستقلال . وعاد كل منهم إلى بلاده يحارب فكرة الاستفتاء . ونظم حربى حملة شعبية ضد المشروع . وهو رئيس للوزراة . وكانت نتيجتها أن الشعب رفض الدستور فى يوم الاستفتاء ؛ وإن كانت النتائج الرسمية التى أذاعتها السلطات الفرنسية قالت : إن الصومال قد وافق على المشروع » . والدليل على كذب هذا الادعاء هو أن إعلان النتيجة لم يذكر به موافقة الصومال الفرنسى على حدة ، وإنما أدمجت نتيجة الصومال مع مدغشقر مع بعض المناطق الإفريقية الأخرى وأعلن أنها جميعاً قد وافقت على الدستور الفرنسى دون ذكر بيان تفصيلى نتيجة كل بلد على حدة ،وحدث هذا فى الوقت الذى أعلنت فيه فرنسا أن غينيا قد رفضت المشروع حتى تلبس فرنسا . زوراً – أمام العالم – ثياب العدالة – وذلك لأنها تعرف أن العالم أجمع قد علم كيف قال أبناء غينيا رأيهم فى دستور ديجول ، بل فى ديجول نفسه حين زيارته لهم قبل الاستفتاء ، تلك الزيارة التى قوبل فيها أسوأ مقابلة فى حياته وقذفه أبناء غانة بالحجارة والطماطم ،وهتفوا بسقوط الاستعمار الفرنسى فى حضرته

أما محمود حربى فكان قد شاهد بنفسه التمهيد لعملية تزييف إرادة الشعب فى ساحل الصومال – وكان ذلك قبل موعد الاستفتاء .

وجاء يوم الاستفتاء وكان يوماً مشهوداً إذ صوّت محمود حربى نفسه برفض المشروع ثم طلب التصويت بالثقة على حكومته أمام المجلس التشريعى وقد وقف المجلس إلى جانبه وجدد ثقته به . ولكن حربى قدم استقالته من رئاسة الوزارة احتجاجاً على تزييف نتائج الاستفتاء ، وكانت النتيجة معروفة سلفاً ، فقد زيف الفرنسيون إرادة الشعب الصومالى ، وأعلنوا أنه يؤيد الدستور الفرنسى . وترك حربى الحكم وانضم إلى صفوف الشعب فى حركة النضال والمقاومة ضد الاستعمار .

وأخذ يقود الحركات الشعبية فى شوارع جيبوتى ، وذات يوم رفع عصاه وأشار إلى الجماهير قائلا : « إن هذه العصا هى رمز استقلالكم وعليكم أن ترفعوا العلم من فوقها » ورددت جموع الشعب فى صوت قاصف كالرعد « سنرفع العلم من فوقها »

واستمرت المظاهرات الشعبية الصاخبة تجتاح الشوارع فى جيبوتى هاتفة بسقوط الاستعمار الفرنسى ، ومطالبة بالاستقلال التام فى ظل الوحدة الصومالية ، واشتبك الشعب مع قوات المستعمر وكانت معارك دموية ، وقبض على كثير من الأحرار أودعوا السجون بعد محاكمات صورية ، كما حكم على محمود حربى غيابياً بالسجن عشرين سنة ، والنفى بعدها خارج البلاد عشرين سنة أخرى . وكانت التهمة الموجهة إليه هى مقاومة الدستور الفرنسى .

وفى هذه الأثناء كان حربى قد خرج خفية من البلاد متجهاً إلى القاهرة ، ثم عاد إلى مقديشيو حيث دعا إلى تكوين « الحركة القومية للوحدة الصومالية » وهى عبارة عن تجمع يضم كل القوى الصومالية المعادية للاستعمار بمختلف أحزابها وهيئاتها السياسية ، على أن تلتزم هذه الحركة برامج موحدة تكون دستوراً ، لعملها المشترك فى هذا الميدان ، وأن تختار قيادة موحدة . وعقدت الحركة أول جلسة لها فى ٣٠ من ديسمبر عام ١٩٥٩ فى مقديشيو . واختير محمود حربى رئيساً للمؤتمر . فخطب يشرح فكرة المؤتمر بأسلوبه القوى . وكانت صوماليا فى ذلك الوقت ما زالت تحت الوصاية ، وقد أحست السلطات بخطورة الحركة ، فدهمت مكان الاجتماع ومزقت شمل المؤتمر بالقوة ، وأمرت حربى بلزوم بيته فترة من الوقت .

وفكر حربى بعد ذلك فى عقد مؤتمر آخر فى هرجيسة عاصمة الصومال البريطانى ، ولكن الأمور تطورت فى ذلك الوقت واستقل كل من الصومال البريطانى والإيطالى قبل الموعد المحدد . وبذلك أخذ الكفاح شكلا جديداً .

وكانت فكرة حربى بعد استقلال هذين الجزأين من الصومال ، ووحدتهما هى تركيز العمل فيها من أجل تحرر بقية الأجزاء وتوحيدها ضمن الصومال الكبير . وكان يرى أنه يتحتم قبل ذلك تهيئة الرأى العام فى الداخل وفى الخارج لاستقبال هذه الخطوة ، وكسب التأييد العالمى إلى صفها . ولهذا قام بسلسلة متصلة من الرحلات تحقيقاً لهذا الغرض فى الفترة من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٠ فانتقل إلى القاهرة وحضر مؤتمر التضامن الآسيوى الإفريقى فى كل من أكرا وكوناكرى ، حيث اختير ممثلا للصومال فى اللجنة التنفيذية للمؤتمر . وفى كلا المؤتمرين استطاع حربى بنشاطه وجهوده استصـــدار قرارات تؤيد حرية الصومال ووحدة أجزائه الخمسة . وعاد حربى إلى الجمهورية العربية المتحدة فى العام الماضى حيث قابل الرئيس جمال عبد الناصر وتباحث معه فى القضيـــة الصومالية ، وفى الوقت نفسه قام بتأسيس مكتب الصومال بالقاهرة ، ثم سافر بعد ذلك إلى الصين ، ثم إلى أوروبا ثم ألمّ به المرض من كثرة الجهد والتعب فنصحه الأطباء بالعلاج والراحة فسافر إلى جنيف للاستشفاء ، وبعد أن قضى هناك مدة أصاب فيها بعض العلاج أراد العودة إلى بلاده . وبينما هو فى طريق عودته من جنيف إلى القاهرة ناداه أجله المحتوم .

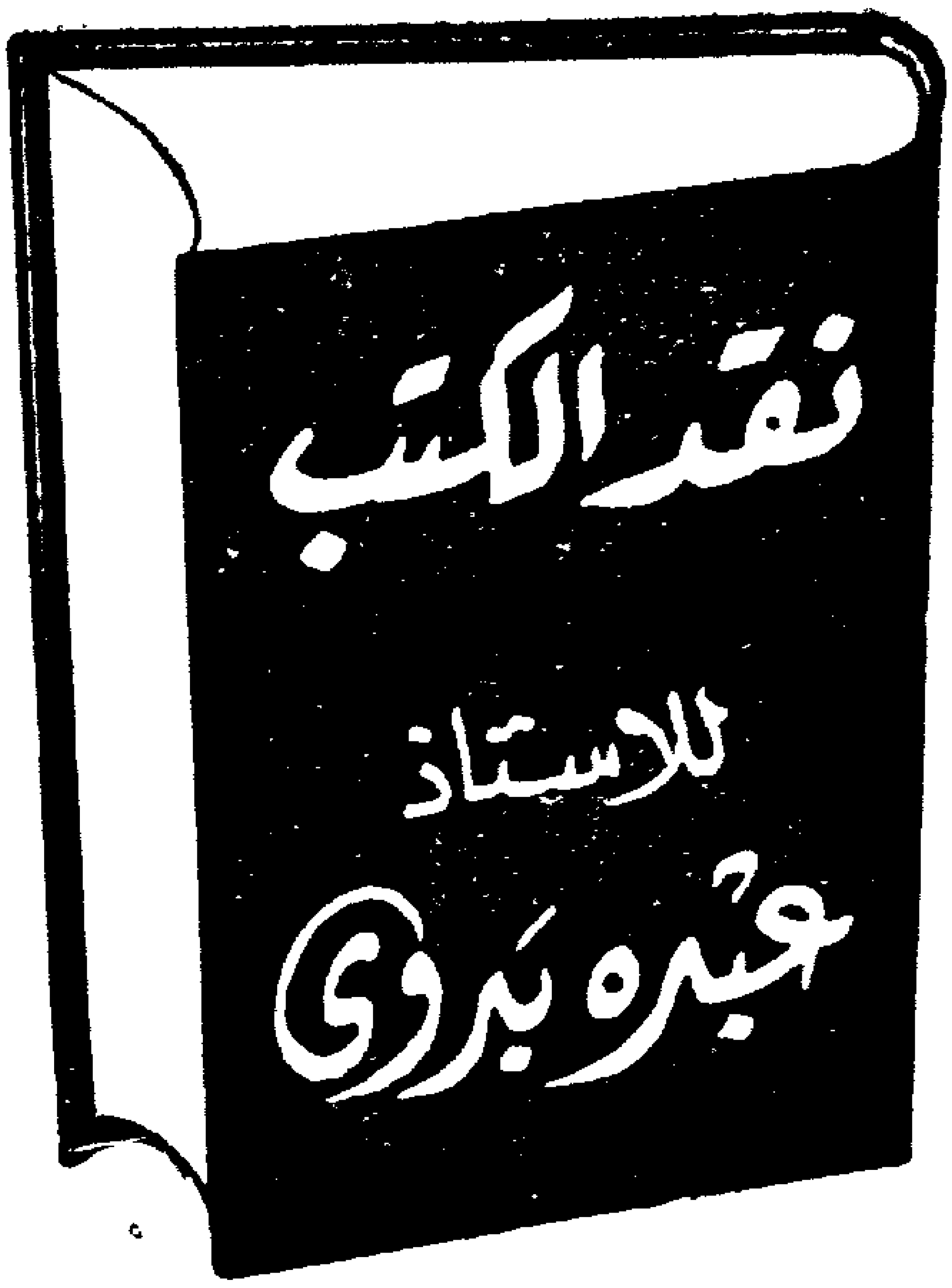

صدر أخيراً كتاب « البكباشى المصرى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل » للدكتور نسيم مقار وهذا الكتاب يقدم وثيقة صادقة للجهود المصرية فى الكشوف عن منابع النيل ، ويقدم لنا واحداً تقف جهوده مع جهود الأجانب الذين برزت جهودهم — بصورة واضحة — أمام العالم كله بعكس جهود « البكباشى سليم قبطان » ومن هنا أخذ المؤلف على عاتقه إعطاءنا صورة علمية عن جهود هذا الضابط البحرى . الذى رغم أن أصله من « كريت » إلا أنه حضر إلى مصر ، واندمج فى الشعب . واستطاع أن يلتحق بالبحرية المصرية فى عهد محمد على ، وأن تسند إليه قيادة الحملات الكشفية فى النيل الأبيض ، ومناطق النيل العليا للمرة الثالثة بعد أن فشلت الحملتان الأولى والثانية — بقيادته — بسبب العوائق الطبيعية التى وقفت فى طريقهما .

* * *

والمؤلف يقدم لنا ملامحه الجسمية والنفسية حين يذكر أنه كان ممتلىء الجسم . مهيب الطلعة خبيراً بشئون الملاحة . وتصريف الأمور ، ومعاملة الناس بالحسنى ، حريصاً على أداء الصلوات الخمس فى أوقاتها ، حليماً يصبر على المكاره ، حتى فى الوقت الذى كان يتعرض فيه للأخطار مع رجاله فى تغلغله للجنوب كان لا ينصح بإطلاق النار على القبائل هناك ، وإنما كان يبعث إليهم الهدايا ، والمترجم الذى يطمئنهم على أنفسهم . وعلى أموالهم . كما أنه كان يستشير دائماً فى كل خطواته من معه ، ولا تقف حدود هـــذه الشورى على المهندسين ، والضباط . وإنما كانت تتعداها إلى الجنود كذلك ، كما أنه كان فى الوقت نفسه دقيقاً صارماً فى تطبيق القوانين واللوائح العسكرية على كل من يتهاون من مرافقيه .

والجدير بالذكر هنا أن الحملات التى قادها « سليم قبطان » بين عامى ١٨٣٩ ، ١٨٤٢ ، تعتبر بحق أول محاولة علمية قام بها المصريون للكشف عن منابع نهر النيل ، فقد أثارت اهتمام وتقدير العالم الخارجى ، وكان لها صدى فى الأوساط العلمية فى أكثر

من بلد أوروبى ، حتى لقد وصفها « مسيو جومار Gomard » عضو الجمعية الجغرافية بباريس فى مجلة الجمعية بقوله « إنها باكورة ثمار الحضارة التى انبعث فى مصر ضوؤها منذ خمس وعشرين سنة . وهى صالحة ولا بد أن تبقى كذلك لتكون قاعدة للاستكشافات الآتية » .

كما وصفها الدكتور « فريدريك بنولا » الذى مثل مصر فى مؤتمر الجغرافيا الدولى المنعقد فى باريس عام ١٨٨٩ بقوله : « إنها كانت السبب فى الحصول على المعلومات التى وصل إليها العلماء بعد ذلك . بل هى الأساس الذى انبنى عليه حل مسألة النيل » .

ذلك لأنها قامت بدراسات طبيعية وجغرافية لمجرى النيل الأبيض . وكشفت عن الجهات والقبائل المستقرة فى هذه المناطق ، والتى كانت مجهولة قبل وصول « سليم قبطان » . وخطوات موفقة على الطريق الذى انتفع به المكتشفون من بعد . كصموئيل بيكر . وسبيك ، وجرانت ، كما أنها فتحت طريق الملاحة والتجارة فى النيـــل الأبيض ، ومناطق النيل العليا . وشقت طريقاً انتفعت به البعثات ، والإرساليات العلمية والتبشيرية فى تغلغلها نحو الجنوب ، وترتب على هذا ، كما يقول المؤلف ، أن « وجدت المدنية والحضارة سبيلها إلى جنوب السودان الذى كان حتى ذلك الوقت فى عزلة تامة عن العالم المتمدين » ونحن نسائله أية مدنية . وأية حضارة تلك التى استقرت فى الجنوب ، وقد كان من أغراض البعثات والإرساليات ومن ورائهما الاستعمار تجميد الحياة هناك . والمحافظة كل المحافظة على تقاليدهم ، وسلوكهم فى الحياة حتى أن الجنوبى كان يعاقب حينما يستر جسمه . أو يتخذ لنفسه زياً كزى الشماليين ! ، وزورة واحدة للجنوب — قبل الحكم الوطنى — تؤكد هذا القول ، وتؤكد أن المدنية والحضارة — كما يقصدها المؤلف — لم تعرف البلاد فى هذا العهد ، فليس قدوم طوائف من البيض . وجعل التبشير فى خـــدمة المستعمر ، وتزويدهم بالردىء من الخمور والللامع من الخرز ليس فى هذا وغيره مما يشابهه شىء من الحضارة أو المدنية .

* * *

ثم يقدم المؤلف الفصل الأول عن تقدم حركة الكشوف الجغرافية فى السودان على عهد الإدارة المصرية (١٨٢١ — ١٨٤٨) ، فيذكر أن امتداد هذه الإدارة المصرية للسودان كان نقطة تحول فى تاريخه بما أقامه هناك من وحدة إدارية واقتصادية ، وفى ظل هذه الوحدة الجديدة نشطت حركة الكشوف الجغرافية التى كانت قد تراخت قبل ذلك بسبب تفكك المجتمع ، وعدم ترحيب الملوك بالرحالة

والمكتشفين ، وسوء المواصلات ، وعدم الاهتمام بشئون الملاحة حتى فى القطاعات الصالحة له بالنيل ، ومما يروى فى ذلك أن إسماعيل حين أرسل إلى الملك عجيب ملك الفونج سفينة لإحضاره قال : « إنها أول سفينة رآها على وجه الماء بأجنحة بيضاء ! »

أما فى عهد الإدارة المصرية فنرى الرحالة والمكتشفين يتوافدون على السودان كالرحالة كومب (١٨٣٤). وبكلر مسكاو (١٨٣٧) . والحملة التى أوفدت لفتح السودان كانت تضم بعض العلماء والمكتشفين الإفرنج كالعالم الفرنسى « كايو » . ورفيقه « ليتورزك » . والطبيب الرسام رتشى كما كانت تضم بعض الإنجليز . والإيطاليين . والأمريكانيين . ومع أن تركيز بعض هؤلاء العلماء كان على المناطق التى يوجد بها الذهب والمعادن . إلا أنهم لم ينسوا دراسة الخصائص الطبيعية والجغرافية للبلاد . وقد ساعد نشر هذه الأبحاث على الاهتمام بالسودان وإعداد العدة لزياراته التى تتابعت بعد ذلك من المهتمين بطبيعة هذه البلاد . وقد زاد فى إقبالهم ترحيب مصر بهم . وتشجيعهم ، وكان أن اكتشفت هذه البلاد علمياً . وقدمت للعالم الذى كان لا يعرف عنها شيئاً قبل ذلك . وتعتبر هذه الكشوف مقدمة للاهتمام بالقارة الإفريقية بصفة عامة عند الأجانب .

* * *

ثم يقدم لنا المؤلف الحملة الأولى لسليم قبطان فى النيل الأبيض ، ويقدم لنا بعض الوثائق للحملة يقول فيها سليم :

« وإذ كنا موقنين أن تدوين كتاب لهذه الرحلة من أهم حوادث التاريخ ومن بواعث الفخر والمجد لمن عهد إليهم القيام به ، وكان من أقصى آمالنا وأشرف رغائبنا الفوز برضى صاحب السمو مولانا الجليل ، والحظوة باستحسانه الكريم ، فقد آلينا عن أنفسنا بذل قصارى همتنا واجتهادنا لأداء المهمة التى تفضل فعهد إلينا بها خير قيام إن شاء الله »

فالهدف الرئيسى من هذه الحملة لم يكن الكشف عن منابع النيل الأبيض فقط . وإنما كان الرغبة فى الوصول إلى منابع النيل . وتقديم صورة جغرافية عن الطبيعة هناك . وتمدين القبائل . وهذا يدلنا على الفرق بين المكتشف المصرى . والمكتشف الغربى .

ومهما يكن من شيء فقد بدأت هذه الحملة رحلتها فى ١٦ - ١١ -١٨٣٩ وكانت تتألف من ٤٠٠ جندى . وثمان ذهبيات كل واحدة منها مسلحة بمدفعين وعدد من البحارة . وقياستين . وخمسة عشر مركباً لحمل المؤن والعتاد الحربى . ولم يكن بها أوروبى واحد غير المهندس الفرنسى « تيبو » الذى أطلق على نفسه اسم « إبراهيم أفندى » .

وقد سجلت الرحلة أن أول القبائل التى صادفتها كانت قبائل الفتكاب ، والجموعية ، وموسى مقبولة ، والحسانية ، ثم وصلت فى ٢٧ - ١١ -

١٨٣٩ إلى مواطن الشلك الذين كان أكثرهم يفرون كلما رأوا واحداً من الحملة ، ولكنهم أمنوا جانبها حين رأوا أنهم يقدمون لهم الهدايا . ويتوددون إليهم . فأقبلوا عليهم . وقدموا لهم الحطب . والوقود والمواد الغذائية ، ثم وصلت الرحلة إلى مصب « السوباط » فى ١٦ - ١٢ - ١٨٣٩ . واكتشفت هناك خيرة راكدة كبيرة بالقرب منها طائفة « النوير » التى ما كادت ترى الرحلة حتى أحضر عشرة منهم « عجلا » على الشاطىء ثم أخذوا يعذبونه بوحشية حتى مات . وقد ترجم هذا العمل لسليم قبطان بأن القبيلة تتحداه بهذه الطريقة . وكأنها تقول سنفعل بكم ما فعلنا « بالعجل » الآن ! . ولكن ما لبثت الرحلة أن رأت أربعين منهم قادمين ، وقد وصف سليم هذا اللقاء فقال :

« وقايضناهم على ما معهم من الذرة والسمسم بأشياء من الزجاج ، وقد فعلوا ذلك على غير علم من شيخهم لأننا لم نشك أبداً فى أنه لو وقف على ما حصل منهم لما كتم غيظه وهو ما حصل فعلا ، إذ علمنا أنه وبخ هؤلاء الرجال على فعلهم فأمرت عندئذ العسكرى محمد بالذهاب إليه لطلبه فلم يحضر الرجل بنفسه وإنما أرسل إلينا على يد آخر معزة وقليلا من التبغ على سبيل الهدية ، ولطالما سألنا هذا الرسول .واستفهمنا منه فلم نستطع أن نعلم من أقواله أكثر من أنه هو وأصحابه من النوير ، فأخلينا سبيله بعد أن أعطيناه شيئاً من المصنوعات الزجاجية ، وقلنا له إنه كان يجب أن يحضر معه شيخه لما كان فى عزمنا من إتحافه ببعض الهدايا ، وأفهمناه بوساطة العسكرى محمد ، أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى خوفه ، ثم أذنا له بالانصراف على أن يرافقه هذا العسكرى . . على أن الشيخ لم يرض ، بوسيلة ما . بتأكيداتنا الودية ، ولكن أرادت الحكمة الإلهية أن يدعو أحد رجاله من العسكرى محمد . ويخبره بما عزم عليه أصحابه من الكيد لنا والتنكيل بنا . وكان مما أخبره به أن المعزة كانت مسمومة . وأن الغرض الذى كانوا يسعون إليه هو اكتساب ثقتنا حتى إذا استنمنا إليهم عبثوا بنا شر عبث » .

والمؤلف يظلم هؤلاء الناس حين يعلق على هذه القصة بأنها تكشف عن بعض خصال الزنوج . وطبائعهم . وروحهم الشريرة العدائية . ولكنى أذكر سيادته بأن هذه القبائل كانت تعرف فى هذه الفترة الغزوات المفاجئة لخطفهم . وبيعهم كعبيد . وأنهم لاقوا من هذا العنت الكثير . وأن ما فعلوه لا يكشف عن روحهم الشريرة قدر ما يكشف عن خوفهم من الغرباء بعد أن لاقوا على أيديهم الكثير . ولعل فرار الأهالى من الحملة بصفة منتظمة يؤكد هذا . فقد كانوا يبتعدون ما أمكن عن سير الرحلة .

وعلى كل فقد قابل أعضاء الرحلة بعد النوير « الكيك » . وقد اعتقد جماعة من هذه القبيلة أن أعضاء الرحلة رسل من عند الله . كما أظهر لهم البعض العداء ، ثم قابلوا الشيخ الأكبر لقبيلة « البندر له هيال » الذى وجد أنهم يتزينون « بالحديد » وعرف منهم أنه يوجد بوفرة على بعد ثلاثة أيام من

مساكنهم ، ثم وصلوا إلى قبيلتى العلياب والبحور، وفى ٢٧ - ٢ - ١٨٤٠ وصلت الحملة إلى خط العرض ١٠ - ٦° شمال خط الاستواء ، حيث رفعت العلم المصرى ، وأطلقت ٢١ مدفعاً تحية لمصر ، ثم قررت العودة ، وفى عودتها اكتشفت السوباط ومواطن الدنكا ، ومع أنها لم تتوصل إلى منابع النهر للعوائق الطبيعية التى وقفت أمامها إلا أنها استطاعت أن تخطو خطوة أكيدة فى اكتشاف منابع النيل .

* * *

ثم تم تجهيز الحملة الثانية ، والمؤلف لا يذكر لنا التاريخ الذى تحركت فيه من مصر ، وإن كان قد ذكر أنها غادرت الخرطوم فى ٢٣ - ١١ - ١٨٤٠ تحت قيادة سليم قبطان ، وقد كان من الطبيعى أن تمر فى الطريق التى مرت به الرحلة الأولى . وكان ما أضافته من جديد هو أنها وصلت إلى خط عرض ٤,٤٢° من خطوط العرض الشمالية . وقد تمكنت فى هذا القطاع من كشف مواطن « الشبر » الذين استقبلوا الرحلة بالترحيب ، وطلبوا منها قبول هداياهم من الماشية ، وقد كانوا يتزينون بحلقات من الحديد فى أرجلهم وأذرعتهم ، وحول رقبة كل واحد منهم مزمار من قصب الغاب إلى جانب عقود من الخرز ، وقد وصفهم فرن Werne الألمانى الذى كان يرافق الرحلة بقوله :

« إنهم شعب لطيف وسيم الطلعة طويل القامة قوى البنية يبدو على محياه وسلوكه نوع من التأدب واللطف والبشاشة والكرم ، وإن الإنسان حين يراهم يكاد لا يصدق أنه فى وسط إفريقية » .

ومن بعد بُعد السير كشفت الحملة مواطن الإليان ، والبوكو ، والبامبار ، الذين يمارسون الزراعة والرعى .

وفى ٢٠ - ١ - ١٨٤١ ، ما كادت الرحلة تصل إلى مواطن البارى حتى ألقت مقداراً من الخرز الزجاجى فإذا بهم يتدافعون نحو أعضائها ، ويذكرون أن لهم زعيما عظيما يسمى « لاكونو » وقد أعدت العدة لمقابلته فإذا به يقدم على ظهر سفينة تصحبه زوجته السلطانة « إشوك » ، وبعض أفراد حاشيته ، وفرقة موسيقية ، وقد استقبلته الحملة بالتحية . وتبودلت الهدايا ، ثم قدم السلطان معلوماته عن المناطق المجاورة ، وأغرى « سليم » بفتح مملكة « البرى » التى تجاوره ، والتى تمتاز بتوافر النحاس فيها ، ولكن « سليم » صمت أمام هذه الرغبة ، كما حدثه عن سلسلة المرتفعات المعروفة باسم « لوجاجة » وكيف أن أهلها يأكلون اللحم البشرى ، ويمشون على أيديهم وأرجلهم بعد هذا الطعام .

وقد عرفت الحملة أن « البارى » يستخرجون تراب الحديد من المرتفعات ويشكلون منه بعض الصناعات ، وقد دهشوا حين عرفوا أنهم يزرعون القطن ، ويتاجرون .

وفى ٢٥ - ١ - ١٨٤١ توصلت الرحلة إلى جزيرة جانكير ، ووجدت نفسها أمام حاجز صخرى يعترض مجرى النهر جنوب هذه الجزيرة ، وقد اقترح « فرن » بقاء الحملة حتى سقوط الأمطار ، ولكن سليما ، ورفقاءه آثروا العودة إلى الخرطوم ، بعد أن حققت تقدماً عن الرحلة الأولى بمقدار ١,٢٨ من خطوط العرض الشمالية .

* * *

ثم يذكر المؤلف — كعادته — أن الحملة الثالثة قد غادرت الخرطوم فى ٢٧ - ١١ - ١٨٤١ على ظهر عشر سفن مسلحة ، وبقوة مقدارها ٤٠٠ رجل ، وقد وصلت إلى الحد الذى وصلته الرحلة الثانية ولم تتقدم خطوة ثانية ، وكان مما عاقها عن التقدم عدم عناية « أحمد باشا أبو ودان » حاكم عام السودان — وصحة اللقب حكمدار عام السودان ، لأن لفظ حاكم عام لم يعرف إلا فى فترة الحكم الثنائى — بأمر الرحلة .

* * *

ثم يقدم المؤلف فى الفصل الرابع نتائج هذه الحملات الكشفية الثلاث فى النيل الأبيض على الوجه الآتى :

أولا : النتائج العلمية والجغرافية :

١ — دراسة جغرافية النيل الأبيض ومناطق النيل العليا التى تعد الأولى من نوعها ، بل التى تعتبر فتحاً جديداً فى عالم الجغرافيا باعتبار أن أغلب هذه المناطق كان مجهولا تماماً قبل هذه الرحلات .

ومما يحمد لهذه الرحلات تلك التقارير التى توضح الطرق والمسالك فى ٢٠ جدولا كل منها يحتوى على ١١ خانة توضح اليوم ، والساعة ، والطريق ، وعرض النهر ، وعمقه ، وسرعة التيار ، درجة الحرارة ، وترتيب الجزائر ، وأسمائها ، واتجاه الرياح ، وبعض الملحوظات ، بالإضافة إلى وصف الطبيعة ، وجغرافية هذه المناطق ، وتسجيل الخرائط ، ودراسة حياة القبائل والشعوب التى صادفتها الرحلة .

٢ — التمهيد لارتياد أعالى النيل والكشف عن منابعه ، والقضاء على أسطورة أن النيل ينبع من « جبال القمر » الواقعة بين خطى العرض الثامن والسادس شمال خط الاستواء ، وقد تحقق بالفعل ظهور ثمرة هذا الكشف ، لأن هذا الطريق سرعان ما حمل التجار المغامرين ، والمبشرين ، وكان ممن حملهم « صموئيل بيكر » الذى بلغ شاطئ بحيرة البرت ، واعتلى نيل فيكتوريا ، واكتشف شلالات مرشيذون ، ثم قابله هناك المكتشفان الإنجليزيان سبيك ، وجرانت اللذين شقا طريقهما عن طريق الساحل الشرقى لإفريقية بعد أن عرفا الصعوبات التى

قابلت «سليم قبطان» فى طريقه إلى الجنوب .

٣ – اقتداء الضباط المصريين فى عهد إسماعيل بجهود البكباشى سليم قبطان . فقد تكونت مدرسة أركان الحرب عام ١٨٦٥ . وكان من رسالتها إعداد ضباط مصريين للقيام بأعمال الكشوف الجغرافية . وقد أسهم هؤلاء فى الكشوف التى تمت عقب ذلك فى أعالى النيل . والتى اقترنت باسم «غوردون» و «شاييه لونج» . و «ارنست دى بلفورن» و «جيس» كذلك اشتركوا فى كشف كردفان الذى اقترن باسم «بروت» . ولم يقف الأمر عند هذا . بل تعداه إلى السودان الشرقى . وقد كان من أروع أعمالهم إسهامهم فى رسم خريطة لإفريقية عام ١٨٧٧ وفقاً للكشوف التى تمت فيها . واستناداً إلى أوثق المصادر الجغرافية .

٤ – نقل تقاوى بعض الغلات المصرية إلى مناطق النيل العليا مثل الذرة النيلية . والذرة العويجى . والحمص . والفول . وبعض أنواع الفواكه والكروم .

ثانياً : النتائج الاقتصادية والاجتماعية :

١ – فتح طريق الملاحة والتجارة فى النيل الأبيض والسودان الجنوبى ، بعد أن كان السودان الجنوبى يعيش فى عزلة تامة عن السودان الشمالى ، ومن هنا عرفت تجارة العاج ، ثم الرقيق ، وتكونت عن هذا الطريق ثروات هائلة حدت بهؤلاء التجار إلى الوقوف فى وجه الحكم المصرى .

٢ – فتح طريق المدنية والحضارة إلى جنوب السودان بقدوم البعثات التبشيرية . وهذا ما اختلفنا فيه مع المؤلف . لأن الثابت من أعمال هذه البعثات أنها كانت تتحرك فى خدمة الاستعمار ، وأنها كانت من وراء القضاء على المظاهر العربية التى كانت قد تسربت إلى هناك . ومن وراء فكرة فصل الشمال عن الجنوب . ومن وراء فكرة الضم إلى أوغندة . ثم أخيراً من وراء المذبحة الأخيرة التى قام بها الجنوبيون ضد الشماليين . فقد كانت هذه البعثات التبشيرية ستاراً للاستعمار الإنجليزى الذى لم يخط بالبلاد خطوة واحدة إلى الأمام .

. . . ثم يختم المؤلف كتابه بقوله «فهذه الحملات الكشفية التى أرسلتها مصر بقيادة البكباشى سليم قبطان فى النيل الأبيض . ومناطق النيل العليا فى الفترة بين عام ١٨٣٩ . ١٨٤٢ لم تهدف من ورائها إلى استغلال أو استعمار لمصلحتها الخاصة . وإنما سعت بها إلى زيادة معارف الناس عن تلك البقاع الإفريقية المجهولة . وطبعتها بطابع إنسانى تمثل فى سلوك سليم قبطان

مع الزعماء والمشايخ المحليين الذين التقى بهم فى جهات النيل العليا . فهو لم يفعل مثلما فعل غيره من الرحالة والمكتشفين الأوروبيين الذين سعوا فى الجهات والبلاد التى اكتشفوها إلى التغرير بزعمائها الوطنيين . فعقدوا معهم اتفاقات ومعاهدات هدفوا من ورائها إلى استعمار هذه البلاد . واستغلال مواردها لمصالح دولهم الذاتية والاستيلاء عليها فى نهاية الأمر .

ولعل هذا العمل الذى فعله البكباشى المصرى سليم قبطان خير دليل يضحد ادعاءات بعض المفترين على مصر حين وصموها بوصمة الرغبة فى الفتح والاستعمار لتزيد من نفوذها . وتحقق مغانم مادية كانت بعيدة كل البعد عن خواطر أبنائها . فما أرادوا إلا العلم لذاته . متغاضين عن أى نفع مادى . بل جعلوا هدفهم المعرفة وخدمة الإنسانية لذاتها . . . وهكذا يقدم لنا المؤلف — بصدق وأمانة — وثيقة هامة من وثائق الكشف العلمى الذى أسهمت به مصر فى الكشف عن منابع النيل . بعد أن زحمت رؤوسنا بأسماء صموئيل بيكر . وسبيك . وجرانت . ونحن وإن كنا لا ننكر جهود هؤلاء المكتشفين إلا أنه يسعدنا أن يكون أمامها جميعاً اسم الضابط المصرى « سليم قبطان » .

وإذا عرفنا أن هذا الكتاب جزء من رسالة الدكتوراه للمؤلف عرفنا أى جهد وراءها . وعرفنا أن رسالته — التى نود أن نراها مطبوعة قريباً — يجب أن تكون فى كل بيت مصرى .

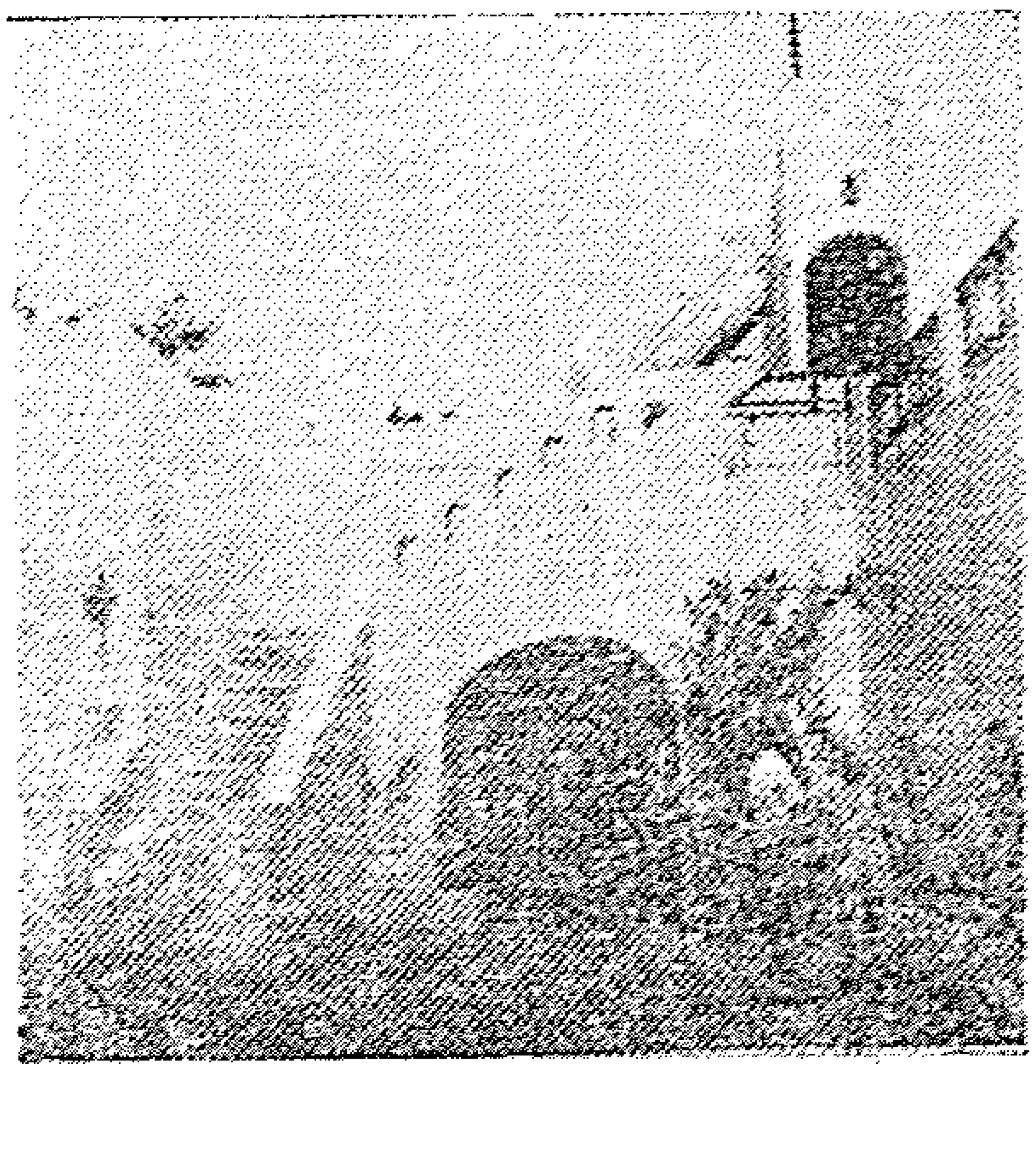

الملونون في أدب «ريتشارد رايت»

للأستاذ : فوزى سليمان

لقد أقبل الناس على أدب ريتشارد رايت — فى أمريكا وفى كل العالم — وتحمسوا لأعماله الأدبية وخاصة الأولى منها لأنها مست حياتهم .. حياة الملايين الذين يجترون التعاسة والهوان ويقاسون من ظلم الإنسان .. ويتطلعون من خلال تساؤلهم إلى مستقبل أفضل .

وُلد رايت فى مزرعة بالقرب من مدينة « نانسي » بولاية مسيسيبى من أب مزارع وأم معلمة وهى التى تولت تربيته وتعليمه ، وتفتحت عيناه على مأساة الجنس الذى ينتمى إليه . . لقد فطن إلى أن هناك نوعين من البشر ، نوع لونه أبيض ، ونوع لونه أسود . . والنوعان لا يمتزجان ولا يختلطان أبداً . . اللهم إلا فى معركة . . ويعيش الأبيض فى حرية ، ورغد أما الزنجى فحياته ضنك وتعب وخوف دائم . . . ولم يستطع عقله الصغير أن يفسر هذه الظاهرة العجيبة ، فأخذ يسأل أمه وجدته عن سر اللون الأسود . . «لماذا أنا أسود ! ؟ » . . وكانت أمه تهرب من إجابته .. وهو يزداد بأسئلته إلحاحاً وإصراراً وتعجباً . .

ومرت به تجارب وهو يخطو فى رحاب الحياة . . تجارب صغيرة . . ولكن كان لها أبلغ الأثر فى نفسه . . وعمقت إحساسه بالمأساة . . كان يلعب وهو صغير مع بعض أترابه من السود ، فإذا بشلة من البيض تتحرش بهم ، وتمسك به بينما تمكن زملاؤه من الفرار ، وتعرض لضرب مبرح من البيض . . فشجوا رأسه . . وتحامل الصبى على نفسه وذهب إلى المنزل انتظاراً لعودة أمه ليشكو لها ويستنجد بها . . ولعجبه الشديد وجد أمه فى غاية الانزعاج والاضطراب لاشتباكه مع أطفال بيض . . أخذت تلومه وتعنفه لأنه لم يستطع الهرب مثل زملائه . . فهم من خلال كلماتها المهذبة أن على الزنجى دواماً أن يهرب . . أن يهرب من الرجل الأبيض . . وصرخ الصبى « لماذا ياأماه ! » ولكن كان عليه هو أن يجيب على هذا السؤال من خلال انفعاله العميق ، الذى ظل يعمق ويعمق . . مع إحساسه بمأساة مجاميع الزنوج التى ينتمى إليها . . وما يقع تحت بصره كل يوم من حوادث وما يشاهده من ألوان التنكيل التى يرتكبها الرجل الأبيض . . والحكومة

والسلطات تسانده ، وما على الأسود إلا أن يحنى رأسه ، ويتقبل مأساته ومصيره فى استسلام .

.. وماجت نفس الصبى .. وتفجرت أدبا .. أدبا زنجياً إنسانياً خالصاً . ولم يكن «رايت» هو أول من عالج مشكلة الزنوج فى الأدب ، فقد سبقه كثيرون ، ولحق به كثيرون لأن مشكلة الملونين فى أمريكا تصور أزمة اجتماعية ، واقتصادية ، ولا بد أن تنعكس هذه الأزمة على صفحات الأدب .. فنجدها متمثلة فى آثار مارك توين ، وچويف سيمون كوتر ، وأرسكين كالدويل ، وغيرهم ، غير أن «رايت» كان أول كاتب زنجى يعيش مأساة الزنوج من الداخل ، ويعبر عنها فى كتاباته ، بل إنه لم يتناول موضوعاً آخر . وقد بدأت شهرته عندما أصدر قصة «أولاد العم توم» ثم «ابن بلدى» ثم «صبى أسود» التى أصدرها عام ١٩٤٥ ويقال إنها قصة حياته هو.

ويتميز «رايت» عن غيره ممن تناولوا مشكلة الزنوج فى كتاباتهم ، بأنه يعبر عن هذه المأساة ببساطة عذبة مقنعة ، فيها عمق ، ووعى ، ولكنها تقطر دماً وعرقاً ، ودمعاً . وهذه البساطة وهذا الصدق الواعى هما اللذان مكنا له فى قلوب الملايين من المعذبين فى الأرض ، فسرعان ما أصبح «رايت» كاتباً عالمياً وانتشرت مؤلفاته وترجمت إلى معظم لغات العالم ..

يقول رايت : «كنت فى صباى فى حاجة إلى عمل لأستطيع مواصلة العيش ، واهتديت إلى وظيفة بواب لإحدى المحلات التى تبيع الملابس الرخيصة للزنوج ، وهؤلاء كانوا يقبلون على المحل يشترون أو يدفعون أقساط ما أخذوا . وكان صاحب المحل وموظفوه من البيض يعاملون الزنوج باحتقار شديد .. وقد أجبرت نفسى أن أخفى شعورى الحقيقى حتى لا أثور ويقطع عيشى .. وفى أحد الأيام وبينما كنت أنظف قطعاً من النحاس الأصفر ، جاء صاحب المحل وابنه فى سيارتهما وكان يجلس بينهما امرأة زنجية ترتجف من الخوف ، ونزل المدير وابنه ، ودفعا بالمرأة أمامهما – بين السب والصفع – إلى المخزن الخلفى .. ومر كثيرون من البيض أمام هذا المشهد ، ولم يبد على أى منهم أنه قد لاحظ شيئاً غريباً .. بل إن رجل البوليس ظل واقفاً على الرصيف الآخر لا يهمه شىء .. وبعد قليل انبعث صراخ مخيف من المخزن ثم ظهرت المرأة فى الطريق وهى تجرى وتتعثر ويسيل الدم من بين ساقيها ، وهى تمسك ببطنها ، وقد تمزقت ملابسها .. وعلى الرصيف الآخر تلقاها رجل البوليس ، وألقى القبض عليها بتهمة السكر والعربدة ، وأودعها عربة الداورية .

«وفى داخل المخزن كان الرجل وابنه يغسلان أيديهما الملوثتين ، وكانت أرض المخزن كذلك ملوثة بالدم .. وعندما لحقانى قال الأب بعصبية «هذا ما نفعله بالزنوج الذين لا ينفذون أوامرنا .. فما قولك أيها الصبى ؟ وألجمت الدهشة والاشمئزاز لسانى .. فلم أحر جواباً ، وهنا ضحك الابن ضحكة صفراء وقدم لى لفافة سجائر وتلطف فقدم لى ثقاباً »

ويعود «رايت» فيصف ما يلاقيه أبناء جنسه التعس

«كنت راكباً دراجة المحل فى طريقى إلى المدينة لتوصيل بعض

الطلبات للزبائن ، وفى الطريق تعطلت الدراجة ومرت بى سيارة يركبها جماعة من البيض ، عرضوا على أن أتعلق بحافة السيارة ففعلت . . وكانوا يتناولون الخمر . . وعرض على أحدهم أن أشرب الخمر فاعتذرت بأنى لا أشرب ، فما كان منه إلا أن ضربنى فى وجهى بزجاجة الويسكى الفارغة ، فسقطت أتخبط فى دمائى على قارعة الطريق . . وأخذوا هم يضحكون ساخرين . . ثم اقترب منى أحدهم متوعداً بأن هذا جزاء من يرفض لأبيض طلباً . . أو لا يعرف آداب الحديث مع أسياده البيض . . وقال لى إننى يجب أن أشكرهم لأنهم تركونى على قيد الحياة . . !

« ومرة أخرى التحقت بعمل فى مصنع للعدسات . وكان صاحب المحل يعطف على ، ولكن عمال المحل من البيض لم يكونوا يشاطرونه موقفه منى ، وعند ما لاحظوا أن صاحب المحل يريد أن يلقننى الحرفة . . دبروا فى نفسهم أمراً . . وذات صباح نادانى أحدهم

ريتشارد .. اقترب هنا .. أريد أن أحدثك فى أمر هام .

— ما هو هذا الأمر يا سيدى ؟

— يقول زميلى إنك قد سببت بالأمس . .

— إن هذا غير . . .

ثم فطنت إلى أننى لو قلت أن هذا غير معقول أو غير صحيح فمعنى هذا أن زميله كاذب . والويل لى إذن . . وإذا سكت فمعنى هذا أننى أثبت هذا الجرم على نفسى . . وأدركت خطتهما ونواياهما الماكرة نحوى . . وقبل أن أتحرك من مكانى أو أفكر فى إجابة لبقة ، كانا قد أمسكا بى وأوسعانى ضرباً ولم تُجد توسلاتى واستعطافاتى ، ولم يتركانى إلا والدماء تسيل من جروحى . . وإلا بعد أن انتزعا منى وعداً بعدم العودة إلى المصنع ثانية . . وإلا فإن الموت ينتظرنى ! وخرجت أهيم على وجهى فى الطرقات ، وأسائل نفسى . . من أنا ! ! . ولماذا أنا أسود ! ! وما المصير الذى ينتظرنى وينتظر كل أسود !

وبعد .. فقد كانت قصص «رايت» سجلا حافلا لمأساة الزنوج . . أو مأساة التفرقة العنصرية فى كل مكان . . أو هى مأساة الاستعمار والاستغلال والاستبداد فى كل مكان . . وكان كل سطر نخطه صرخة مدوية تهيب بشعوب الأرض المستعبدة أن تهب لتستعيد حريتها وقداستها . . وأن تقضى على الاستعباد والاستغلال . . وعند ما علا صوته أكثر مما يجب تحركت لجان مكارثى الإرهابية التى أخذت تحقق مع الأحرار وتشنق الحرية فى نفوس الأبطال وتحرق آثارهم الأدبية والفنية . . وخيل إلى هذه اللجان أنها قد قضت على صرخة الحرية . . ولكنها كانت واهمة . . فقد ذهب مكارثى وانتصرت الحرية . وإن كان رايت قد توفى منذ حوالى الشهرين . . ومهما كان الحكم عليه . . فإن أعماله الأدبية فى تصوير حياة الزنوج ستظل صيحة الحق أمام الضمير الإنسانى .

جولة مصورة حول

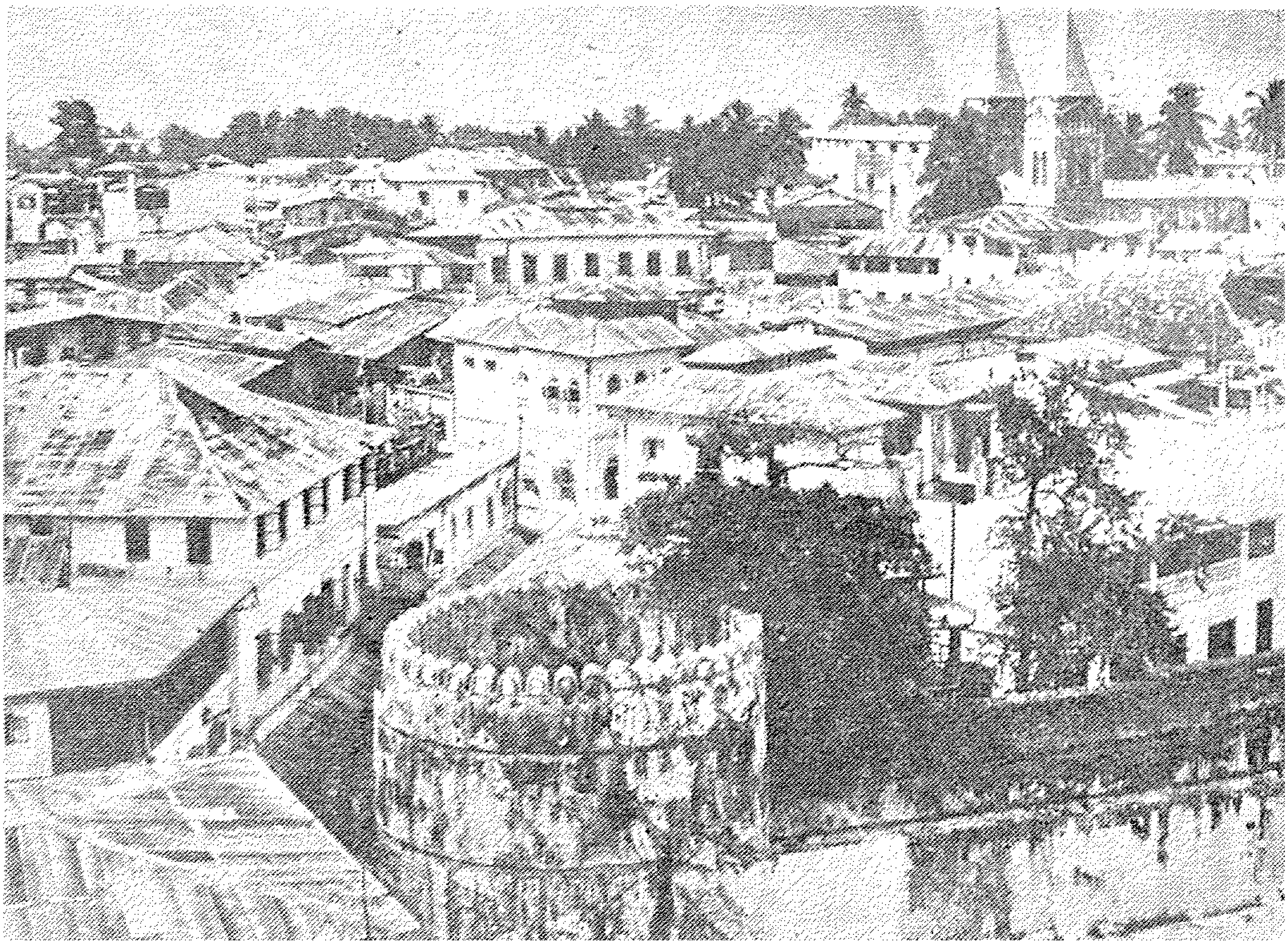

« منظر من أثيوبيا »

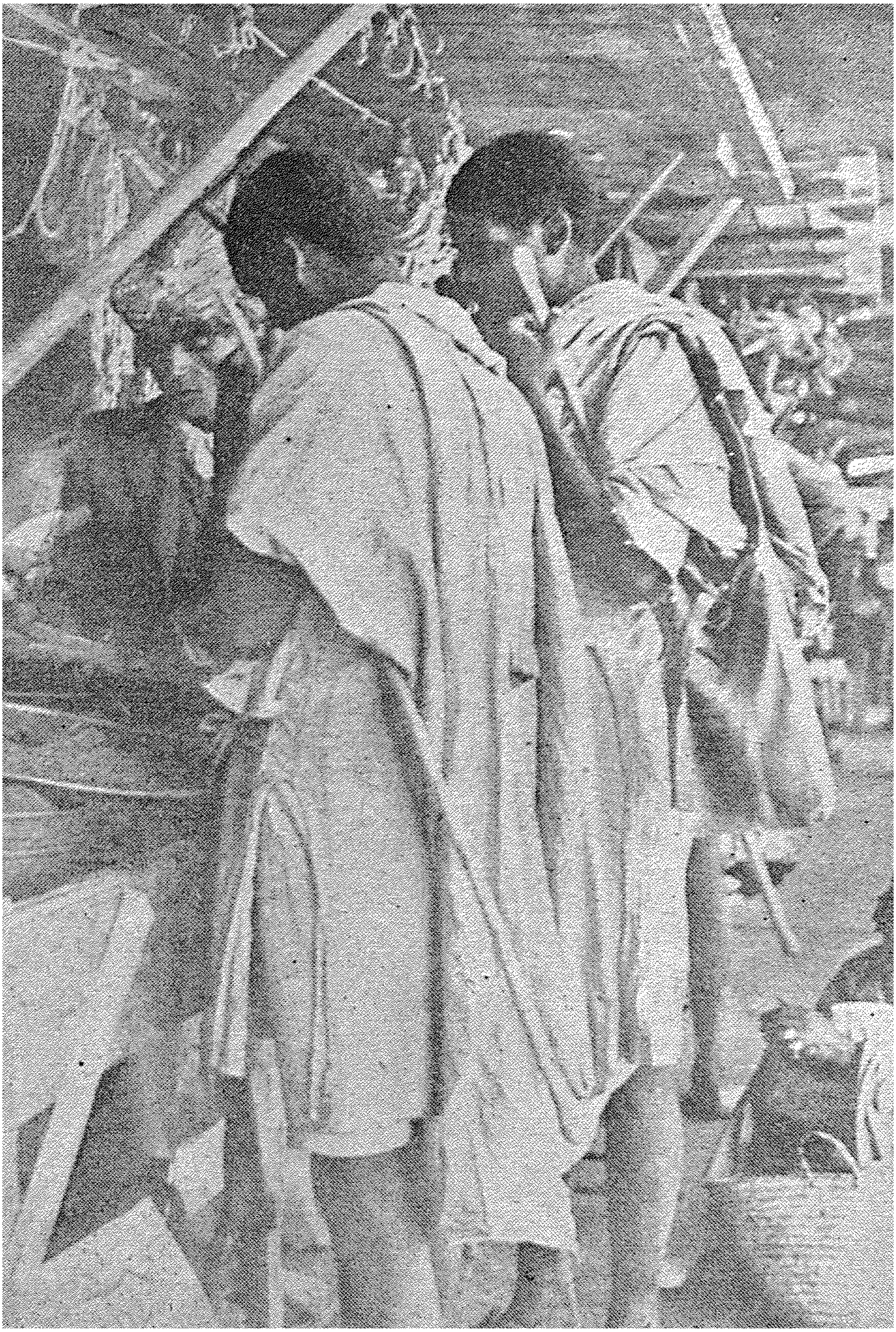

« مواطنان من اثيوبيا »

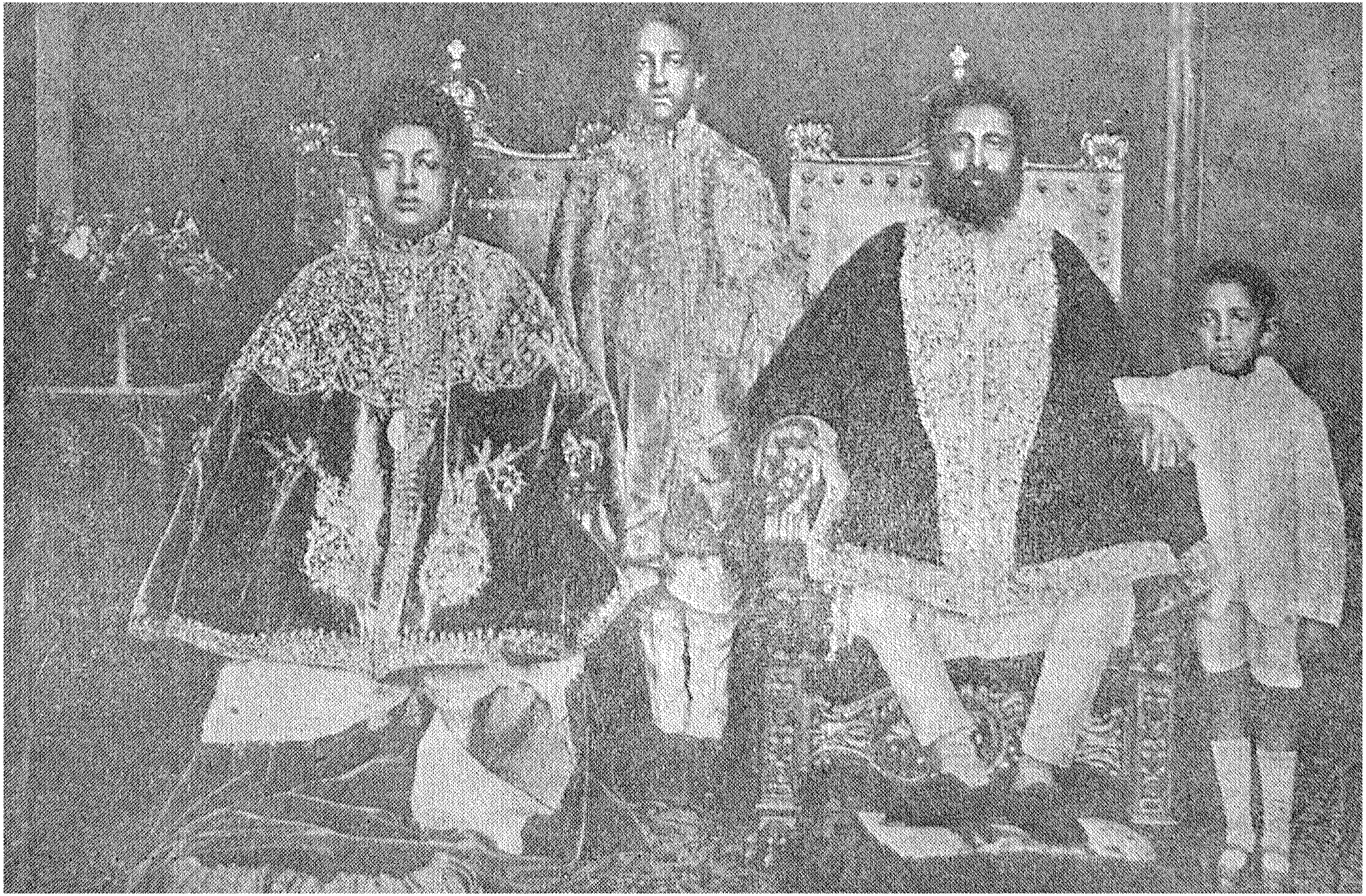

« الأسرة الحاكمة في أثيوبيا التي قام ضدها الانقلاب الأخير »

« لومومبا . . والوطنية »

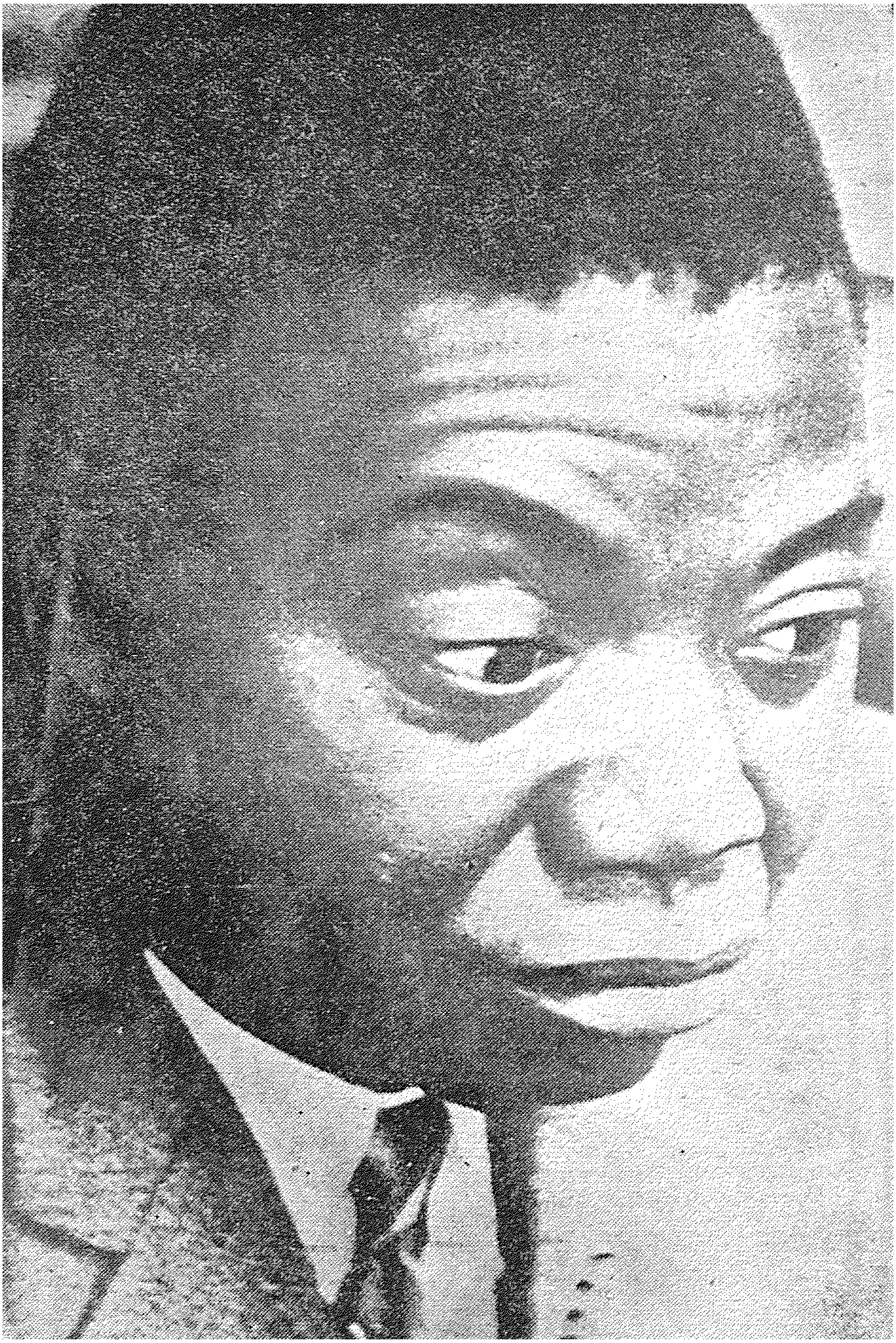

« تشومبى . . والخيانة »

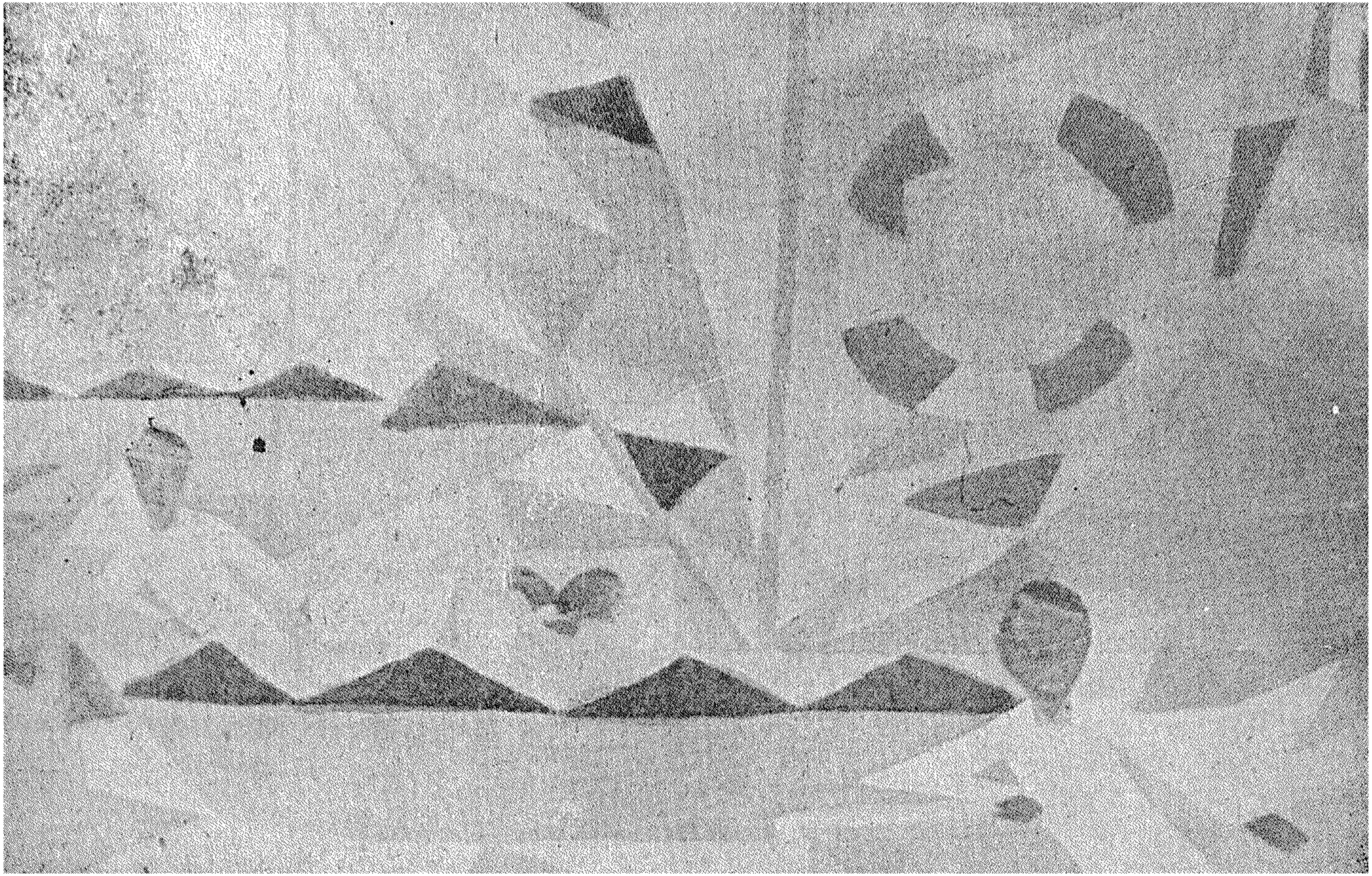

« . الر الحديث فى إفريقية »

« من الرسم الحديث فى إفريقية »

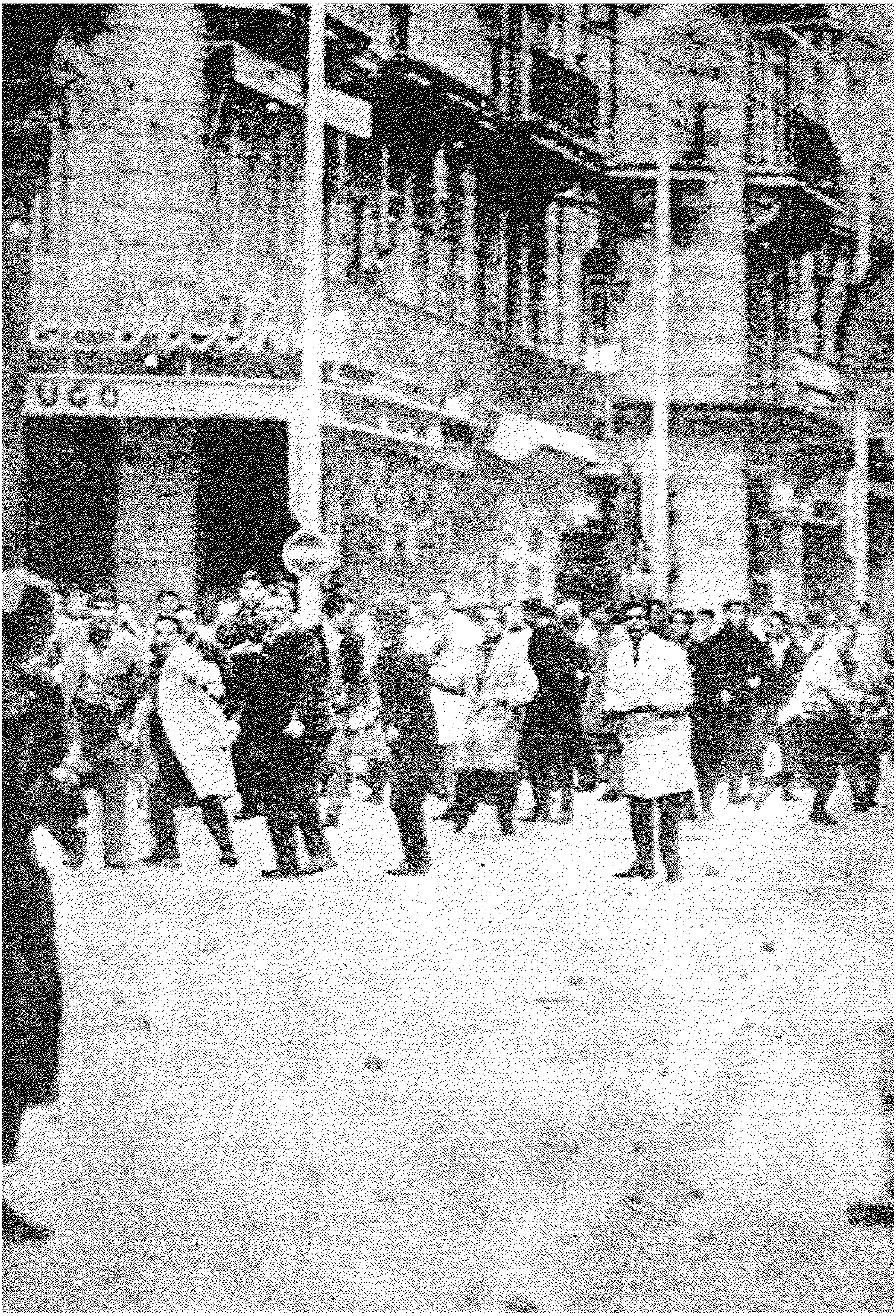

« الثورة فى الجزائر »

ضوء على كتاب

[لعل الأحداث الأخيرة التى هزت «أثيوبيا» وجعلتها تشتعل بثورة مدمرة على أيدى الحرس الإمبراطورى هى التى تدعونا الآن إلى تقديم كتاب «الحبشة» للأستاذ «حسن محمد جوهر» حتى يمكن وضع القارئ وجهاً لوجه أمام طبيعة هذه البلاد . وظروفها الاجتماعية والسياسية . وظروف الثورات التى تقوم فيها بين الحين والآخر ، فقد عجزت الصحافة عن تقديم حلول جذرية تفلسف الأحداث ، ومجرياتها ، ومن قبل ذلك قوى الدفع التى تجعل من شعب آمن بين يوم وليلة حزمة من الانفعال ، والأعصاب ، والتوثب] .

والمؤلف يبدأ فيعطينا صورة عن الطبيعة هناك . فعلى الرغم من أنها تقع فى قلب المنطقة الحارة إلا أن جو هضابها معتدل يشبه فى جملته صيف بعض جهات أوروبة ، حتى لقد وصف أحد الرحالة جو أديس أبابا[1] بقوله : «لا إخال أن جو أى بلد آخر يعدله . فهو بحق مثال للجودة . . تستيقظ كل صباح فتستقبل شمساً

(١) معناها الزهرة الجديدة .

ضاحية ، حرارتها لا تعدو حد الاحتمال أبداً . وذلك لارتفاعها العظيم ؛ ولرقة هوائها ؛ وبرد النسيم الذى يهب عليها دائماً غير مقتر . . وإذا ما أقبل الليل انخفضت درجة حرارة هوائها . وأمسى الجو جميلا . وأمكنك أن تنام نوماً هادئاً مريحاً . وأصبحت وأنت لا تصدق أنك على مقربة من خط الاستواء» .

وهضبات الحبشة تتغطى بطبقة من الصخور البركانية[1] . كما أنها مضرسة تكثر فيها الأخاديد ، والأودية التى تنصب إليها المياه فتأخذ طريقها هنا وهناك جداول وأنهاراً . وما تزال فى جريانها هذا حتى يتصل أكثرها بروافد النيل الثلاثة : البحر الأزرق ، والسوباط . والعطبرة . وهكذا تنتظم البلاد عدة ظواهر طبيعية تتراوح بين البرودة . والاعتدال ، وشدة الحرارة والجدب ، والخصب ، على أن أهم ظاهرة مناخية هناك هى «الأمطار الموسمية» التى تعتبر مصدر الفيضان النيل ، والتى تبدأ فى يونية ، وتنتهى فى أواخر سبتمبر ، وقد تسقط الأمطار فى فبراير ، ومارس ، ويطلق عليها أهل البلاد «المطر الصغير» ، على أنها لا تأخذ مظهراً حتمياً فى هذه الفترات المحددة ، وقد يكون سقوط هذا المطر غزيراً بحيث يعطل سير الحياة هناك

(١) يرجع إليها الفضل فى خصوبة الأرض السوداء بمصر .

كما قد تكثر العواصف الرعدية فى أثناء الأمطار .

ومع أن معظم الأراضى هناك خصيبة إلا أن ما يزرع فيها قليل بالنسبة لمساحتها ، وقد قلت هناك الغابات التى كانت منتشرة ، وأصبح ما يميز أكثرها الآن تلك المراعى الكثيرة التى تنتشر عليها ملايين من البقر الصغير الحجم ذى السنام . ومن الخيل ، والحمير . والبغال ، والضأن ، والماعز . والتى تتحول — أى المراعى — فى نهاية فصل الجفاف إلى هشيم يطلقون به النار قبل أن تهطل الأمطار الجديدة . ولقد وصف سائح منظر هذه النيران بين المناظر الطبيعية هناك بقوله : « . . أشرفت من رأس أحد التلال المطلة على ضفة نهر تكازا الشمالية فرأيت ضباباً أبيض كالثلج منتشراً فوق النهر الذى ينساب متلوياً فى واد سحيق ، تكسو جوانبه أدغال كثيفة من شجر الأبنوس ، والمطاط ، والتمر الهندى ، تسرح الفيلة فى جنباتها ، ورأيت النار تلتهم الكلأ ، والشجيرات المنتثرة فيه . وتتصاعد منها ألسنة حمر من اللهب يداعبها الهواء فتنثنى ، وتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، ويخرج منها دخان داكن ينتشر فى الفضاء فينشر جواً خانقاً فى الربا المجاورة ، ومددت بصرى فنفذ من هذا المنظر إلى منظر رائع أشد روعة ، جميل أشد الجمال ، منظر جبال « سمين » وقللها الزاهية فى الفضاء ، كأنها غرقى فى لجة من لجين ، صاغتها أشعة القمر الفضية الساجية الباردة » .

ثم يحدثنا المؤلف عن السكان فيذكر لنا أنهم ليسوا شعباً واحداً ، وإنما شعوب متعددة تختلف فى الجنس ، واللغة ، الدين ، والمظهر ، والصفات والعادات ، أما الأثيوبيون الأصلاء فلا يزيدون عن ثلث السكان الحاليين ، وأكثر استقرارهم فى الشمال ، والوسط كما يسكن « الجلا » فى الجنوب ، والجنوب الغربى ، ويسكن «الصومال» فى الجنوب الشرقى ، ونحن نرى الأثيوبيين فيما بينهم يختلفون أشد الاختلاف فبينهم الأسود الحالك ، والنحاسى اللون الذى يختلط بأبناء الصعيد فى مصر ، كما تتدرج ملامحهم ملامح الزنجى الأفطس الأنف ، الواسع المنخرين ، الغليظ الشفتين ، الفلفلى الشعر إلى ملامح العربى الوسيم ، الأقنى الأنف الأدعج العينين ، السبط الشعر ، كما أنهم يختلفون من مكان إلى آخر ، ولا شك أن هذا الاختلاف قد جاء نتيجة لاختلاطهم بالأجناس الأخرى كالجلا ، والشنكلا .

وقد قرب المؤلف هذا إلى الذهن بالقصة التى أوردها « الدكتور مراد كامل »[1] والمتناقلة عنهم من أنه جاء من أورشليم إلى الحبشة ثمانية أشخاص يتمثلون فى المعانى الآتية : الحماقة ،

(١) الكاتب المصرى (فبراير ١٩٤٦)

وصلابة الرأى ، والأنفة ، والحضارة ، والشجاعة ، والأمانة ، والسذاجة ، والسياسة ، فلما وصلن إلى بلاد « تيجرى » قالت الحماقة « لقد وجدت مستقرى » وتخلفت عن الركب ، وانطلقت الأخريات ولما وصلن بلاد « سمين » قالت صلابة الرأى « قد وجدت مكانى وسأمكث به » وسارت الباقيات ، ولما بلغن بلاد « وجارا » قالت الأنفة « قد وصلت إلى ضياعى ومتاعى وسأعيش بها » ، وتابع الركب سيره ، ولما وصلن إلى بلاد « جندار » قالت الحضارة لأخواتها « يا أخواتى لقد وجدت معسكرى وسأقيم فيه » وسارت الأربع الباقيات فلما وصلن إلى بلاد « بيجمدار » قالت الشجاعة « سأستقر هنا فقد أعجبنى المكان » ولما بلغ الثلاث الباقيات « دبراتابر » وقفت الأمانة على قمة الجبل ، وأرسلت ببصرها إلى بلاد جوجومام ، وقالت لأختيها « أستأذن منكما فإنى مبحرة إلى وطنى » وتابعت الأخرتان السير إلى بلاد « أمهرا » فقالت السذاجة لأختها « سأقيم هنا » ثم ألقت عصا تسيارها ، فسارت السياسة إلى أن استقرت بمقاطعة « شوا » وهناك حلت ومن هناك حكمت .

ثم يعطينا المؤلف صورة عنهم فيذكر لنا أن الحبشى يشبه تمثـال البرونز ، فهو نحيف ، معتدل القوام ، مفتول العضل ، فى جسمه استدارة ، ولذا يعتبره النحاتون نموذجاً كاملا لجمال الجسم ، ورشاقة القوام ، ثم هو — بوجه عام — ثبت ، متزن ، قوى الأعصاب ، بارد المزاج ، قليل التهيج ، ولكنه مختال ، فخور ، يحسن الحيلة وزخرفة القول وتمويهه ، ويعرف بالقسوة على حيواناته ، وخدمه ، ومن هم أقل منه مكانة ، ولعل هذا يوضح عمليات التعذيب التى يقوم بها ملوكهم فالملك « تاوضروس » استقدم ، محتالا ، الرءوس المتآمرين عليه ، ثم أمر بالقبض عليهم ، وتقطيع أيديهم ، ثم أرجلهم ، ثم صلبهم على فروع الأشجار ، وقد حكم هذا الملك نفسه على« ثائر » بالحرق البطىء حتى يموت ، كما استقدم أهل قرية ، وأوقد لهم ناراً عظيمة ، ثم ألقاهم جميعاً فيها .

ومن عادة الأثيوبى أن الصغير إذا أساء إلى الكبير ، فإنه يكفر عن إساءته بأن يحمل حجراً ضخماً ، ثم يسير مثقلا إلى من ساء إليه ، وهو يهتف فى استعطاف « اصفح عنى واغفر ذنبى » ، وما يزال كذلك حتى يقبل الرجل الكبير فيرفع عنه الحجر ، ثم يقول له « عسى الله أن يغفر لك » كما أن من عادته إدمان شرب الخمر ، ومن الأمثال هناك « أن الماء للضفدع والطفل والقرد » وأن القسس والرؤساء « لا يحجزهم تقى عن محرم أو محظور » .

وقد عرف الأثيوبيون بالشجاعة فهم يهجمون على الأسود فى الغابات ، ومن يقتنص أسداً يكون من حقه أن

يقابل « الإمبراطور » ليقص عليه قصة هذا الحدث الذى ما يكاد ينتهى منها حتى يتوجه الإمبراطور بلبدة الأسدة ، ولا يلبسون فى الحرب إلا اللون الأحمر حتى لا يرى العدو جراحهم فيطمع فيهم .

وقد تفوقوا على الإيطاليين فى الحروب المتكافئة كما حدث فى عامى ١٨٩٦ - ١٩٣٨ . ولم يستطع الايطاليون احتلال البلاد إلا بالوسائل الحربية الحديثة ، واشتراء ذمم بعض الرؤساء .

وهم فى جملتهم شعب جم الأدب . معتز بنفسه . متحفظ فى كلامه ومن الغريب أنه لا توجد فى لغته لفظة « لا ! » ، فهم حينما لا يريدون قضاء شيء يقولون « ا » فقط .

ومن عادتهم أكل اللحم النيء ويسمون هذا اللون من الأكل « بروندون » . وقد تعجب من هذا السياح ، وعجبوا من الواحد منهم يعض على قطعة بفمه ، ثم يستل سيفه أو سكينته . ويولى وجهه نحو الداعى . ثم يهز رأسه ، وأخيراً يقطع اللحم من أسفل إلى أعلى دون أن تجدع أنوفهم . وقريب من هذا قول المقريزى عنهم « ويأكلون اللحم نيئاً حتى لقد أخبرنى من شاهد الحطى (أى النجاشى) داود بن سيف أرعد يأكل كرش بقرة نيئاً ، وما فيه من بقايا الغرث يسيل على حنكه ، وشاهد رجلا يأكل دجاجة وهى تصيح ! »

كما أن المسيحيين منهم لا يأكلون الحمامة لاعتقادهم أن المسيح ظهر فى صورة حمامة للحواريين ، كما لا يأكلون الديك لأن المسيح قال لبطرس « عند صياح الديك ستنكرنى ثلاث مرات ! » ولا يأكلون الأرانب ، وربما جاء إليهم هذا التأثير من التعاليم اليهودية ، وكذلك الحملان الصغيرة ، وقد حرم عليهم الإمبراطور « يوحنا » شرب الدخان ، وكان عقاب الشارب « قطع شفتيه » ، كما أنهم يشربون القهوة بعد الأكل — الذين لا يتناولونه فى العراء خوفاً من الشياطين والحاسدين ولا يضعون عليها السكر بل الملح !

ولم يكن الأحباش ، ملوكا وسوقة ، قبل مقدم فخر الدولة المصرى يتخذون من اللباس إلا ما يستر عورتهم ، ومن هذا قول المقريزى فى كتابه الإلمام « إنهم عراة الأبدان لا يكادون يعرفون لبس المخيط ، بل يرتدون ويتزرون فى أوساطهم ، وقد كان الحطى (النجاشى) داود بن يوسف أرعن يخرج عرياناً وقد عصب رأسه بعصابة خضراء . . ولم يتميز اسحق بن داود بن يوسف أرعد عن رعيته بالملابس الفاخرة إلا بعد أن أقدم عليه من قبط مصر نصرانى يعقوبى يعرف بفخر الدولة ، فنظم الدولة ، وأصلح شئونها ،

وضبط أمورها ، وأشار بإدخال كثير من أساليب الترف والنعيم » .

* * *

أما المرأة الحبشية فهيفاء جميلة كتمثال من البرونز ، جبهتها عالية مدورة ، وأنفها أقنى ، وعيناها واسعتان براقتان ، أما أهدابها فتلقى فتوراً جذاباً ، وهن — وبخاصة الفقيرات — لا يملن إلى نظافة أجسامهن ويندر استعمالهن « الصابون » اكتفاء بنوع محلى من النبات يوجد عندهم ، وقلما يقيم الرجل لعفتها وزناً ، والرجل هو صاحب الكلمة الأولى فى هذا المجتمع ، ويسمونه « جيته » . وأحسن الأماكن فى البيت هناك تخصص للرجل والمكان التالى للبغل ، أما الزوجة والولد والحمار فينامون فى أقل هذه الأماكن ، والرجل يدخل الكنيسة فى حفل زواجه ، ومعه عصا ذات مقبض من الصلب رمزاً لسلطته وعنفوانه . ومن الأمثال هناك التى تلقى ضوءاً على مكانة المرأة قولهم « العصا للحمار والنساء» ويروى « هربرت ڤيڤيان » أن بعض الرحالة رأوا بعض النساء هناك ، مقرونات مع الثيران يجرون المحاريث ، ومجتمعاً كهذا يكثر فيه السحر ، والترهات ، وقدرة الجن على إفساد حياة الناس ، ومن الأمراض العصبية التى تصيب المرأة هناك مرض البودا وهو أن يسكنها شيطان ، ومرض لا يصيب إلا العذارى ويسمى هناك الزار ومعناه الروح النجس ، وتقلد المصابة بهذا المرض أصوات الفهود .

كما أن هناك ثلاثة أنواع من الزواج هى :

١ — الزواج العرفى .

٢ — الزواج المدنى .

٣ — الزواج الكنسى .

* * *

أما اللغات هناك فتتمثل فى المجموعات الآتية :

(ا) المجموعة السامية ولغاتها :

١ — الجعزية : وهى أقدمها وأقربها إلى العربية ، وقد بطلت فى الحياة العامة ، ولكنها تستعمل فى الصلاة .

٢ — الأمهرية : وهى اللغة الرسمية .

٣ — العربية : وتنتشر فى الشرق ، والمدن التجارية ، والأماكن التى يكثر فيها المسلمون .

(ب) المجموعة الحامية ، وأهم لغاتها :

١ — الجلا : وهى لغة قبائل الجلا .

٢ — الصومالية : وهى لغة سكان القرن الشرقى .

(ج) المجموعة الإفريقية ، وهى أقل المجموعات أهمية .

* * *

والأثيوبيون يحتفلون عادة بعيد مريم العذراء بالصلاة ، والرقص ، والغناء ، وبعيد يحيى عليه السلام ، وفى هذا العيد يغتسلون فى الأنهار ، والبرك ، والبحيرات ، ويتحنون ، ويتهادون بالزهر ، والموت عندهم له ضجة عظيمة فهم يمزقون ثيابهم ، ويغرسون أظفارهم فى وجوههم ،

وأجسامهم ، ويعرضون تراث الفقيد على الناس حتى لا ينسى ، ويستمر الحزن عليه سبعة أيام ، وهم يجلسون لتلقى العزاء على الأرض ، ولقد رأى أحد المبعوثين المصريين « الإمبراطور هيلاسلاسى » نفسه جالساً على الأرض فى مأتم خاله .

* * *

أما قصة الدين هناك فتدور حول أن الشعب كان يدين باليهودية ، وفى عام ٣٢٠ غرقت سفينة كانت تحمل بعض المسيحيين فى البحر الأحمر . ولما مثلوا أمام النجاشى أحبهم ودخل المسيحية على أيديهم ، وقد رجع أحد هؤلاء المسيحيين إلى الإسكندرية وقص على بطريقها القصة فعينه مطرانا للحبشة وأمره بالعودة ليتم تنصير الشعب هناك « ومنذ ذلك الوقت أصبح تعيين أسقف مصرى مطراناً للحبشة تقليداً دينياً ، وعرفاً متبعاً » ، ومن هنا كان دور القداسة الذى يتمتع به المطارنة المصريون فهم الذين يتوجون الأباطرة ويحلون الناس من بينهم ، ثم استبدل المطران المصرى بمطران حبشى ، وإن ظلت الصلة الدينية قائمة بالكنيسة بمصر .

ويكثر بأثيوبيا القسس ، والرهبان والشماسون حتى لقد قدرهم البعض فى فترة ما بخمس السكان المسيحيين ، ومن هنا تكثر الكنائس هناك التى تشبه بيع اليهود فى الشكل الخارجى ، والنظام الداخلى ، وهى عادة مظلمة لا توجد بها نوافذ ، ولكنها تضم عدة أبواب واحد منها للقسس ، والثانى للرجال ، والثالث للنساء ، وقد ذكر أحد السائحين أنه رأى صورة للشيطان على باب كنيسة فسأل القسس عن سبب وجودها فذكر له لقد « نقشت لتذكر الرجال دائماً عند دخول الكنيسة بخبث النساء ومكرهن وبأفعالهن القبيحة التى تشبه أفعال الشياطين » .

أما الإسلام فقد وجد طريقه هناك على أيدى المهاجرين الأول فى عهد النبى ، وبوساطة تجار العرب المسلمين ، وبقدوم جماعات كبيرة من العرب إلى الحبشة . ثم كان دور سلاطين الإسلام فى الصومال فى نشر الاسلام فى تلك البلاد ، مما استدعى الأثيوبيين إلى الاستعانة بالبرتغاليين — باسم الدين — ضدهم .

ثم حدثنا المؤلف عن الصوماليين هناك فذكر أنهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

١ — القسم الأول يسمى « الأشا » اى الخلص ، وينتمى أفراد هذه الفريق إلى بعض أشراف العرب .

٢ — القسم الثانى ويسمون « هاوية » ويغلب عليهم الدم الحامى ، ويقل فيهم العنصر العربى .

٣ — القسم الثالث ويسمون « الرهانوين » وتكثر فيهم الدماء الافريقية .

كل هذا إلى جانب « المرجان » ، و « البيدير » ، وقد ذكر المؤلف أن الإسلام وجد طريقه بين هؤلاء ،

الصوماليين ، وأنهم قد تأدبوا بآدابه مما حدا ببعض الكتاب الغربيين أن يقول « إن من أعظم مزايا الإسلام فى شرق إفريقية ، كما فى سائر البلاد الإسلامية ، تشجيع الناس جميعاً على تثقيف عقولهم ، وعلى إبداء آرائهم ، والكشف عن بدائع أفكارهم ، ومكنون أسرارهم ، وأنهم ما زالوا فى حياتهم آمنين حتى قدم البرتغاليون فهدموا قلاعهم ، وحرقوا مساجدهم ودورهم ، مما اضطرهم إلى التوغل فى داخل القارة حاملين الإسلام فى قلوبهم ، ومعاهدين الله على نشره وهكذا « كان قدوم البرتغاليين إلى شرق إفريقية على الرغم مما اقترفوه من جرائم وحشية ، نعمة فى ثوب نقمة » .

* * *

ثم حدثنا المؤلف عن « الجلا » ، وأورد ما يقال عن أصلهم من أنهم من الأرومة الحامية ، أو أنهم آتون من وراء البحار ، وقد تكون هذه البحار هى ما وراء البحر الأحمر أى من بلاد العرب ، أو من وراء البحيرات الاستوائية ، كما ذكر أنهم ينقسمون إلى قبائل ، ولكنهم يتكلمون لغة واحدة تسمى الجلا أو الأرمو ، وهى من اللغات الموسيقية التى يحلو سماعها ، وقد وصفهم رحالة بريطانى بقوله : « سراتهم مثل أكفائهم البريطانيين ، طيبو النحيزة ، ميامين النقيبة ، كرام النفوس ، إذا لقيتهم هشوا لك وبشوا ، وإذا جالستهم أنسوا إليك ، وإذا استنجدتهم خفوا لنجدتك ، أو استعنتهم طاروا سراعاً لمعونتك ، ليس لهم مطمع سياسى خاص ، ويحرصون الحرص كله على تحاشى الجدل النعاسى ، وتجنب الحوار الحزبى ، ثم أفرد المؤلف فصلا خاصاً بالدين فذكر أن الأديان هناك إلى جانب الإسلام ، والمسيحية هى :

١ — اليهودية ، والذين يعتنقون هذا الدين يسمون « الفلاشة » ، وهى كلمة مشتقة من الكلمة الحبشية «فالاى» والتى معناها منفى أو غريب ، ويزعم هؤلاء أنهم قدموا مع الملكة « سبأ » بعد زيارتها لأورشليم ، وقد اعتصموا من المسيحية فى عدة أماكن منعزلة واستطاعوا أن يقفوا كظاهرة ناتئة فى المجتمع الأثيوبى إلى اليوم ، وهم على غير عادة اليهود يحتقرون التجارة ويحترفون الزراعة .

٢ — ثم يوجد « الكمانت » وهم طائفة من الأحباش يعتقدون فى كائن أعلى ، وفى الحياة الآخرة ، ويتعبدون أمام صخور معروفة هناك بعبارات سرية ، وهم يشتغلون بالزراعة والرعى .

٣ — ثم يوجد الوثنيون فى بعض أطراف الحبشة ، وهم يعتقدون فى السحر ، ولهم كهان يأتمون بهم ، وأكثرهم احتراماً للكاهن الذى يسمى « منزل الغيث » الذى يقيم فى مكان

منعزل ، فإذا ما عجز هاجمه الناس ، ورموه بالحجارة حتى يموت .

.. وهناك بعض القبائل التى تعبد السماء ، أو إله السماء ، أو الشمس لاعتقادهم أنها عين إله السماء ، كما يؤمنون بالحلول فى الأنهار والأشجار .

* * *

ثم يتحدث المؤلف عن تاريخ الحبشة فيذكر أن بعض المؤرخين يذكرون أنهم ساميون قدموا من الجزيرة العربية عن طريق باب المندب بينما يرى فريق أنهم حاميون سلكوا الطريق السابق ، ويرى آخرون أن من القبائل الحبشية من يشبهون سكان مصر فى عصر ما قبل الأسرات ، ولقد تأثروا بجداتهم العرب ، كما تأثر العرب بهم ، ثم أثر فيهم الروما ن واحتكوا بالعثمانيين ، والبرتغاليين ، والمصريين ، والايطاليين ، ثم أصبحت بلادهم خالصة لهم .

.. ثم يقف الكتاب — لتاريخ نشره — دون توضيح لعمليات النمو الحضارى فى هذه البلاد ، وزيادة على ذلك فإن هذا المؤلف تغلب عليه النزعة الأدبية ، ويبتعد عن المنهج العلمى فى تناوله لموضوعه ، وقد ساعد على هذا اهتمامه بالأساليب المتوارثة مما أبعده تماماً عن الأسلوب العلمى ، ومما يؤخذ عليه ضحالة المراجع ، وتركيزه على مساوئ الشعب ، وجريه وراء المثيرات التى كانت تقتضيه ذكر عدة قصص — لا حاجة لها — فى عدة صفحات ولكنه فى الوقت نفسه يلقى ضوءاً على هذه البلاد التى قامت بها ثورة على الإمبراطور .

« ع . ب »

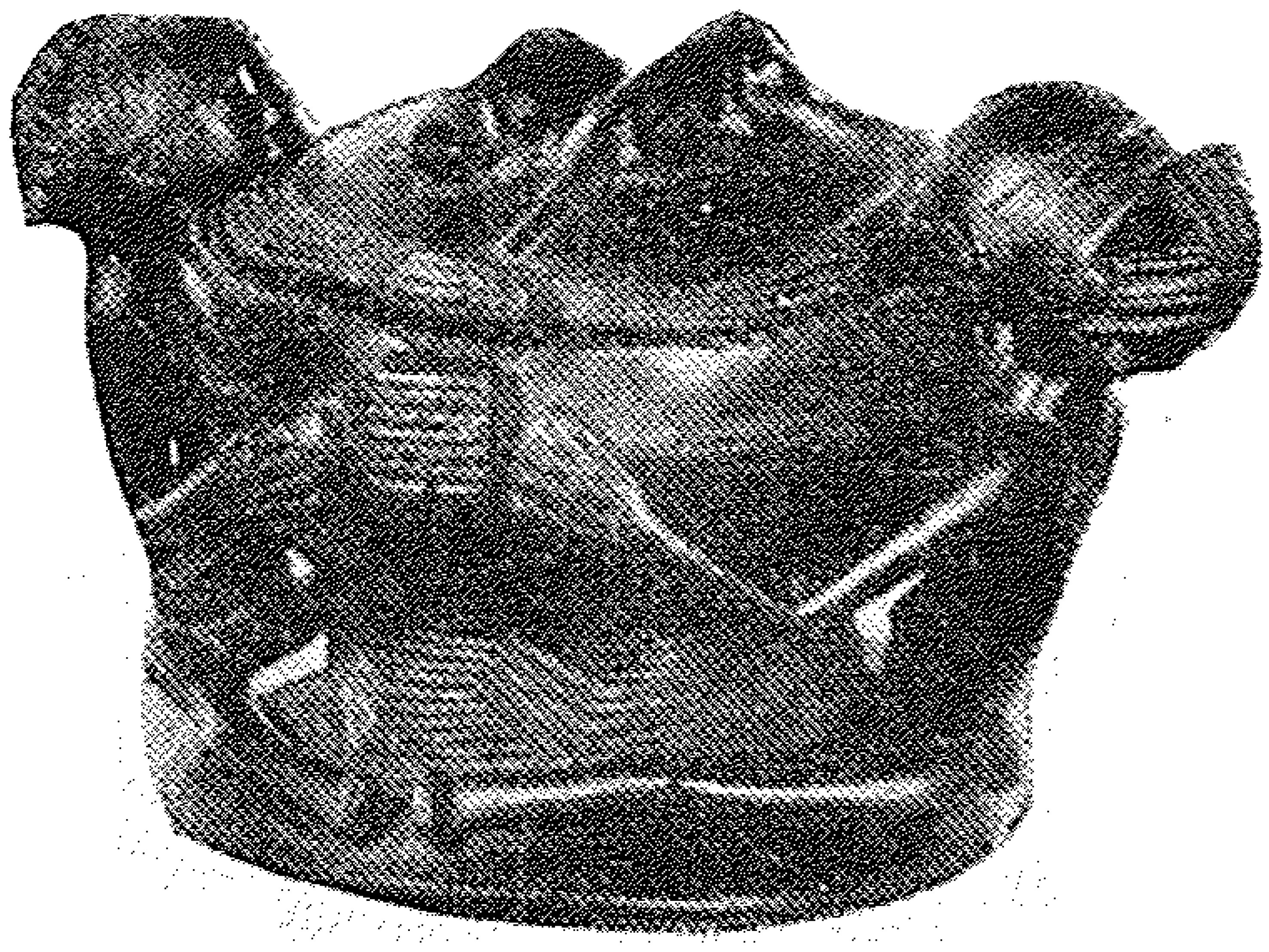

منليك الثانى

تعتبر شخصية منليك الثانى من بين أقوى الشخصيات التى ظهرت فى إفريقية فى نهاية القرن التاسع عشر وتركت آثاراً واضحة فى تاريخ هذه القارة وتاريخ الاستعمار فيها .

نشأ منليك فى الإقليم الجنوبى من الحبشة ، إقليم شوا . وتمكن بفضل قوة شخصيته من السيطرة سيطرة تامة على هذا الإقليم . ورأى الحبشة مقسمة بين رؤساء إقطاعيين يدينون بالولاء لأكبر رأس أو ملك فيهم . وهو ملك الأمهرا فى الشمال . فبدأ فى رسم خططه للوصول إلى الاستيلاء على الإمبراطورية الحبشية بأكملها . واتبع فى ذلك السياسة تارة والقوة تارة أخرى . والتحالف مع جيرانه مرة ، والانشغال عن تلبية نداءات الإمبراطور من الشمال مرة أخرى ، حتى تمكن — فى ظرف سنوات قليلة — من الاستيلاء على الإمبراطورية ، ومن توسيع حدودها فى المناطق المجاورة .

عرف منليك أن الدول الأجنبية كانت قد بدأت فى توجيه أنظارها إلى الحبشة ، وأنها بدأت تلعب على ذلك التنافس الموجود بين الأقاليم الجنوبية والأقاليم الشمالية . تمهيدا لضرب القوى الوطنية الواحدة بالأخرى . وإضعافها لتسهيل السيطرة عليها .

تأكد من أن الدول الاستعمارية قد حاولت التحالف مع ملك شوا من قبل ، فى عهد سهلاسيلاسى . وأرادت إقامة علاقات معه لاستغلال موارد داخل القارة . ودفعه — إن لزم الأمر — إلى مهاجمة القوة المصرية الناشئة فى وادى النيل . فلوحت له أهمية مركزه . وعقدت معه المحالفات والاتفاقيات التجارية — وإن كانت هذه المحاولات لم تؤد إلى نتيجة إيجابية .

ثم رأى بعد ذلك أن الإنجليز يتدخلون فى الحبشة من الشمال سنة ١٨٦٧ بقيادة الجنرال نابيير الذى سجل اسمه فى مجدلا بعد انتحار الإمبراطور تيودور . وقام الإنجليز بعد ذلك بتنصيب يوحنا الرابع إمبراطوراً على

الحبشة ، قبل انسحاب قواتهم العسكرية وجلائها عن البلاد .

كان هذا الإمبراطور الجديد ضعيفاً ، ويدين بالولاء والإخلاص للملكة فكتوريا ، وفضلته إنجلترا على غيره نظراً لمرونته وسهولة التأثير عليه . وكان فى هذا يختلف تماماً عن ذلك الأسد الذى يسيطر على الجنوب فى شوا ، ولا يقبل تدخل الأجانب فى شئونه وشئون بلاده .

لم يصطدم منليك الثانى بيوحنا الرابع فى الشمال ، بل أظهر له الطاعة والإخلاص ، وتزوج من إحدى بناته ، تقرباً منه ، وانتظاراً لوراثة الإمبراطورية .

ولقد شاهدت الحبشة فى ذلك الوقت تقلبات سياسية عنيفة فى الأقاليم المحيطة بها ، إذ أن إيطاليا جاءت إلى سواحل البحر الأحمر لإنشاء مستعمراتها فى عصب ، وازداد النفوذ البريطانى فى الإمبراطورية المصرية ، وزاد تدخل الإنجليز فى شئون هذه الدولة حتى ثارت ثائرة المصريين بقيادة عرابى ، وثائرة السودانيين بقيادة الإمام محمد أحمد المهدى . وتلا ذلك ، بطبيعة الحال ، الاحتلال البريطانى لمصر ومحاولة السيطرة على السودان ، وقيام الدولة المهدية فى الأقاليم الجنوبية من وادى النيل .

لم تؤثر هذه الأحداث التى جرت فى وادى النيل فى مركز منليك فى شوا كما أثرت فى موقف يوحنا الرابع فى الشمال ، إذ ان انجلترا جاءت تعرض على الإمبراطور المساعدة فى إخلاء الحاميات المصرية فى شرق السودان ، وتعده بالأموال والأسلحة إذا قام بهذه العملية . وأراد يوحنا الرابع أن يحصل على جزء من الأسلاب ويحتل مصوع ويتخذها مخرجاً لبلاده على البحر الأحمر . ولكن إنجلترا رفضت هذا الطلب وعادت وتركت سلطاتها فى مصر تُرتب أمر احتلال الإيطاليين لهذا الميناء الهام .

بدأ الشقاق بين يوحنا الرابع وبين الإيطاليين ، خصوصاً وأن قواتهم الاستعمارية فى شرق إفريقية بدأت فى التوسع والتوغل فى إقليم تجرة الذى خضع للإمبراطور الحبشى ، ولكن منليك الثانى لم يتدخل فى هذا الشقاق ، بل أيد يوحنا الرابع فى موقفه السياسى تجاه الإيطاليين ، ولكنه لم يرسل إليه بالإمدادات العسكرية التى طلبها منه الإمبراطور لوقف تقدم الإيطاليين . واحتفظ منليك بقواته الحربية سليمة لاستخدامها فى بناء إمبراطورية حبشية جديدة لا تخضع للإيطاليين ولا للإنجليز.

احتفل منليك الثانى بانتصار قوات الإمبراطور على الإيطاليين فى دوجالى سنة ١٨٨٧ وهنأ الإمبراطور ، ولكنه واصل سياسة التوسع صوب الجنوب ، والجنوب الشرقى فخرج لاحتلال هضبة هرر الإسلامية ، وأرسل

حملات متتالية إلى بلاد الجالا والكافا .

لن نناقش هنا موقف منليك تجاه المسلمين فى المناطق الجنوبية التى احتلها ولكنا نشير إلى أن أمير هرر «عبدالله» كان قد تسلم حكم هذه البلاد من أيدى الإنجليز بعد إخراج المصريين منها . وهكذا قام منليك بسياسة توسعية ، ولكنها كانت معادية لازدياد النفوذ البريطانى فى إفريقية .

ظل منليك بعيداً بنفسه وبمنطقته عن التسلط الأوروبى على شرق إفريقية ، ولكن ذلك لم يمنعه من تحسين علاقاته مع كل الدول الأوروبية ، ما دامت هذه الدول لا تسعى إلى السيطرة على إقليمه ، فاحتفظ بعلاقات ود مع الفرنسيين الذين أقاموا قاعدتهم فى أوبوك على ساحل الصومال ، وأخذ فى الاتجار معهم وفى الحصول منهم على الأسلحة والذخائر . كما احتفظ بعلاقة ود مع الكونت أنتونيللى ، مندوب إيطاليا الذى جاء ينشد وده ويغريه بالتحالف مع بلاده . ولكن منليك أغمض عينيه وأصم أذنيه عن ذلك الصراع الذى بدأ يقوى بين شمال الحبشة والإمبراطورية المهدية . وكان هذا الصراع يخفى وراءه تنافساً دولياً بين إنجلترا ، صديقة يوحنا الرابع وعدوة المهديين ، وبين إيطاليا التى اصطدمت بيوحنا الرابع ، فعملت على تحسين علاقاتها بعبدالله التعايشى فى أم درمان ، وبعثمان دقنه فى شرق السودان .

انتهى هذا الصراع بمقتل يوحنا الرابع ، وخلا الجو بذلك أمام منليك الثانى للوصول إلى عرش الإمبراطورية ، ولكنه احتاج إلى الأموال والأسلحة للسيطرة على كل الحبشة ، فلم تتأخر إيطاليا ، وعرض عليه الكونت أنتونيللى معاهدة صداقة عقدت فى أوتشيللى سنة ١٨٨٩ . ووقع منليك على هذه المعاهدة ، واعترفت به إيطاليا إمبراطوراً على الحبشة ، ثم وقعت معه على اتفاقيتين ماليتين لإقراضه بضعة ملايين من الليرات بضمان رسوم جمارك إقليم هرر . وهكذا بدا أن أحداً لن يتمكن من الوقوف فى وجه منليك ، الإمبراطور الجديد للحبشة .

ولكن سرعان ما ظهر خبث نية الحكومة الإيطالية التى استندت إلى المادة السابعة عشر من معاهدة أوتشيللى ، وأعلنت للدول الأوروبية وضعها للحبشة تحت حمايتها . وكانت هذه المعاهدة قد كتبت باللغة الأمهرية وباللغة الإيطالية . فادعت حكومة روما أن المادة السابعة عشرة منها تنص على تنازل الإمبراطور لإيطاليا عن إدارة العلاقات الخارجية لبلاده . ورد منليك على ذلك بأن النسخة الأمهرية من المعاهدة تذكر أنه يكلف إيطاليا بالقيام بالاتصال بالدول الأجنبية ، وليس فى هذا التكليف أى خضوع من الحبشة لإيطاليا .

حقيقة أن منليك الثانى لم يكن ضليعاً فى القانون الدولى ، ولكنه احتفظ ببعض المستشارين الأوروبيين الذين ساعدوه فى هذه المعركة الدبلوماسية التى ارتبط بها مستقبل بلاده واستقلالها وساعده الموقف الدولى وانقسام العالم فى ذلك الوقت إلى معسكرات متنافسة فى الحصول على تأييد الدول المعادية لإيطاليا .

اعترفت كل من إنجلترا وألمانيا وبلجيكا بالحماية الإيطالية على الإمبراطورية الحبشية ، فاستند منليك الثانى إلى المعسكر الفرنسى الروسى ، وأصر على استقلال بلاده . وساعده على ذلك أن إيطاليا نفسها لم يكن لها من الإمكانيات المادية والمعنوية ما يسمح لها بحكم الحبشة حكماً فعلياً .

أرادت إيطاليا أن تضغط عليه فى تنفيذ الاتفاقيات المالية ، فرفض منليك استلام بقية القرض ، وأسرع بارسال ما تسلمه منه إلى أحد المصارف فى عدن ، ووضعه تحت تصرف حكومة روما ، وأعلن للدول الأوروبية أن بلاده مستقلة تامة السيادة — وإن كان قد طالب فى هذا الإعلان ، الذى نشره سنة ١٨٩١ ، ببلاد لم تكن خاضعة له ولم تدخل فى إمبراطوريته ، ولكنه حاول المساومة ، وادعى أن إمبراطورية أجداده وصلت فى قديم الزمان إلى النيل الأبيض فى الغرب وإلى سواحل البحر الأحمر فى الشرق، وهدف بذلك إلى أن تنتهى هذه المساومة ، بعد تنازل منه ، إلى الاحتفاظ بالبلاد التى يحكمها فعلاً .

كان منليك فى هذه المسألة بسيطاً ساذجاً . ويمكننا أن نفسر محاولته توسيع حدود بلاده برغبته فى التأكد من أن أحداً لن يناقشه فى السيادة على الحبشة نفسها ، إذ لم يكن له هو نفسه من القوة ما يسمح له بالسيطرة على كل هذه المنطقة التى ادعاها لنفسه .

وعلى أية حال ، فقد أصمت إنجلترا أذنيها عن هذه المطالب ، وشرحت إيطاليا وجوب عدم الاستماع إليه ، حتى لا تنشأ سابقة خطيرة أمام الدول الاستعمارية فى إفريقية ، فشرحت أن هذا الاحتجاج يشبه احتجاج أى زنجى آخر فى إفريقية ، وإذا ما التفتت إليه الدول الأوروبية فإن ذلك سيضطرها إلى إعادة النظر فى علاقات كل منهما مع الشيوخ المحليين فى المناطق التى فرضت عليها حمايتها . ولكن فرنسا والروسيا رفضتا الأخذ بوجهة النظر الإيطالية . ولم يكن ذلك تأييد مبدأ حرية الشعوب أو للعمل ضد النظام الاستعمارى وحركة تقسيم إفريقية ، بل إبعاداً لإيطاليا عن هذه المناطق تمهيداً لزيادة نفوذهما فيها . ولكن منليك الثانى عرف كيف يفيد من هذا التنافس الدولى والانشقاق بين التكتلات العالمية ، واستخدم ذلك فى المحافظة

على استقلاله وفى وقف توغل القوات الاستعمارية فى شرق إفريقية .

حاول منليك الثانى أن يسوى المسألة سلمياً مع إيطاليا ، ولكن هذه الدولة الأوروبية اعتقدت فى إمكان التفريق بين الأحباش ، وفى خلق زعامة جديدة فى شمال الحبشة تناوئ سيادة منليك فى الجنوب . وأخذت فى زيادة عدد قواتها فى إرتريا ، وأخذت تهدد الحبشة تهديداً صريحاً ، ولكن منليك تمكن من توحيد كلمة الأحباش ، وتمكن من الحصول على الأسلحة وبعض الخبراء الفنيين من جيبوتى . وحينما وجد أن المسألة تتطلب حلا عسكرياً — خصوصاً بعد توغل الإيطاليين فى شمال بلاده — أسرع بإرسال قواته صوب الشمال . وكان يوم عدوة يوماً مشهوراً فى التاريخ . قضى فيه الأحباش على زهرة الجيش الإيطالى وعلى مدفعيته .

اهتزت العواصم الأوروبية لأنباء هذه الهزيمة الساحقة التى لحقت بقوات أوروبية منظمة على أيدى الإفريقيين . واهتزت حكومة لندن لهذه الهزيمة أيضاً ، وخشيت إنجلترا قيام تحالف بين الأحباش والسودانيين يؤثر على موقف قوات الاحتلال البريطانية فى مصر . وكانت إنجلترا مشغولة فى ذلك الوقت بحربها فى جنوب إفريقية ، ورأت أن إمبراطوريتها مهددة بالضياع . أسرعت إيطاليا إلى طلب الصلح مع منليك ، واعترفت باستقلال الحبشة . وأخذت فى تحديد الحدود بين إرتريا وإمبراطوريته . كما جاءت فرنسا تنشد التعاون للمرور عبر بلاده وتنفيذ سياستها فى قطع القارة الإفريقية بين شرق وغرب ، وفى الوصول إلى أعالى النيل فى فاشودا ، ولكن منليك الثانى انتهز هذه الفرصة لإجبارها على تحديد امتداد مستعمراتها فى ساحل الصومال بخمسين ميلا موازية للساحل ولم يقدم لها عوناً يذكر للوصول إلى أعالى النيل . أما إنجلترا فإنها أسرعت إلى إرسال بعثة رنل رود لوقف أى تحالف بين منليك والمهديين — خصوصاً وأنها كانت قد قررت إعادة غزو السودان — فوافق منليك على الاحتفاظ بحياده تجاه هذه الحرب التى شنها الإنجليز على السودانيين . ولكنه أجبر البريطانيين على تقليل مساحة الإقليم الذى يحتلونه من بلاد الصومال .

حقيقة أن شخصية منليك تعتبر — من وجهة النظر الإفريقية — شخصية تعمل على التوسع فى الأقاليم المجاورة لها . كما أن أحداً لا يستطيع أن ينكر الصفة الإقطاعية التى قامت عليها حكومته ، ولا سوء المعاملة الذى أذاقه للمناطق الإسلامية التى خضعت له . ولكن أحداً لا يستطيع كذلك أن ينكر كفاحه ضد قوات الاستعمار الأجنبية الأوروبية ، وإنشاءه قوة حربية إفريقية وقفت سداً منيعاً أمام

توغل الحملات الاستعمارية الأوروبية فى جزء هام من أجزاء القارة الإفريقية ، وله موقع استراتيجى يسمح له بالتحكم فى غيره من الأقاليم .

تمكن منليك الثانى إذن من إقامة التوازن بين نفوذ الدول الأوروبية المختلفة فى بلاده ، وأجبر هذه الدول على أن تعترف بهذا الاستقلال ، وتحافظ كل منها عليه أمام محاولات الدول الأخرى .

وكان منليك ضخم الجثة . لا يعرف القراءة والكتابة ، ولكنه كان مولعاً بالحرب والصيد . يمكننا أن نعتبره شخصية بدائية ، فخورة بقوتها الجسدية ، رغم امتيازها بذكاء واضح.

وظل منليك الثانى يصرف أمور الدولة بنفسه حتى السنوات الأولى من القرن العشرين ، ثم أخذت قواه العقلية فى الضعف ، وأخذت تنتابه دورات هياج خطيرة ، فاضطرت زوجته إلى تصريف أمور الدولة بنفسها ، وقضى منليك بقية حياته كالوحش الهائج فى غرفة محكمة ووراء القضبان الحديدية . وكان يهذى بضرورة الهجوم على الإيطاليين ومنع الإنجليز من المجىء إلى البلاد .

إفريقية في خطاب الرئيس بعيد النصر

حيا الله البطل العظيم الذى أضاف إلى حياتنا معان جديدة ، والذى عمقها وأخرجها من محليتها ، فبعد أن كنا نعيش داخل دائرة ضيقة من الأحداث والحياة ، نراه يمد فى نفس كل مواطن أرضاً جديدة ، وآفاقاً أخرى مليئة بالنور ، وأعلام الحرية .

ولعل من أعمق الأشيـاء التى استقرت فى حياة المواطن العربى الجديد وأصبح يحس بها فى كل شىء من حوله ، ويتابعها ، وينفعل معها ، هى تلك الأحداث الدائرة فى إفريقية ، وهذا الامتداد الكبير الذى يثرى الحرية يوماً بعد يوم ، ويقدم الضحايا ، والأموال فى سبيل أن يمارس حياة الإنسان الكريمة فى بلاده .

وقد جاء هذا الوعى الصادق نتيجة لهذه السياسة الحكيمة التى تسير عليها ، فما من خطاب سياسى إلا وذكرت فيه مساندة الجمهورية العربية المتحدة لكل قضايا الحرية فى القارة ، وكافة قضايا الفكر ، والإنسان داخلها .

وفى الخطاب الذى ألقاه الرئيس فى عيد النصر ببور سعيد نراه يركز على الأحداث فى القارة الإفريقية ، ويدافع عنها ، ويتوعد المستعمرين وكل الذين يخونون قضايا الوطن فى بلادهم ، فنحن نراه يقف بجوار الجزائر ، والكونغو ، ويضىء الطريق السليم أمام الأمم المتحدة التى خانت مبادئها فى الكونغو .

وهذا بعض ما جاء فى هذا الخطاب الرائع الذى تحدث فيه بلغة الشعب ، ولغة الأحداث الجديدة :

« نحن نؤمن بحق الجزائر فى الحرية »

نحن نساعد الجزائر لأننا نؤمن بحق الجزائر فى الحرية والاستقلال ونحن نتضامن مع شعب الجزائر ضد جميع قوى الاستعمار ونحن نستنكر محاولات فرنسا وحلفاء فرنسا لتنكرهم لكل المبادئ اللى أعلنوها ورجعوا عنها .

حلف الأطلنطى اللى بيقولوا إنهم بيمثلوا العالم الحر ، ولا يمثلوا إلا الحب فى الاستعباد والسيطرة لأن حلف الأطلنطى هو اللى بيساعد فرنسا وهم بقى اللى بيقولوا حيدوا اسرائيل القنبلة الذرية .

إذن بيبقى حلف الأطلنطى فى هذه الحالة هو عدونا الأول لأن حلف الأطلنطى اللى بيدى فرنسا فى الجزائر

الأسلحة، واللى بيدى اسرائيل الأسلحة واللى بيقولوا إنهم حيدوها القنبلة الذرية . فى هذا الحال أصبح العداء اللى بيننا واضح ويجب أن نأخذ كل الاحتياطات حتى نقابل هذا العداء بمثله . . إننا نعادى من يعادينا ونصادق من يصادقنا .

دى فكرتنا للحياد يعنى إيه حياد ويعنى إيه حياد إيجابى . . مش يعنى واحد ييجى يضربنى قلم أقول له خلاص أنا محايد مليش دعوة بيك . أبداً . . بنعادى من يعادينا واللى بيضربنى قلم بأمسك فى زمارة رقبته ما أسيبوش . . دا الحياد . . دا الحياد الإيجابى . أما احنا بنقول إن احنا بنتبع سياسة الحياد الإيجابى يعنى بنصادق من يصادقنا ونعادى من يعادينا ، إذا كانوا فاكرين إن احنا بنقول إن احنا بنتبع سياسة الحياد الإيجابى علشان كده بيعتدوا علينا ويعتدوا على الأمة العربية أو يدوا اسرائيل أسلحة ويعاونوها ونعتبرهم أصدقائنا ونقول والله احنا محايدين ملناش دعوة بيكم اعملوا اللى انتوا عايزين تعملوه لغاية ما تخلصوا علينا . بيبقوا طبعاً مغفلين ما بيفهموش أى حاجة . الحياد الإيجابى هو أن نعادى من يعادينا ونصادق من يصادقنا حلف الأطلنطى بيعادينا فى الجزائر . حلف الأطلنطى بيعادينا فى معاونته لإسرائيل وفى تسليحه لإسرائيل . . حلف الأطلنطى والدول الغربية والاستعمار الغربى بيعادونا وبيعادوا المبادئ ونحن فى هذا نصمم على مبادئنا .

بيجو الأمريكان بيقولوا إيه . بيقولوا الله دا أنتم ما انتوش محايدين لأنكم فى الأمم المتحدة صوتم مع الروس ١٤ مرة وما صوتوش معانا أبداً . بنقول لهم يا جماعة افهموا احنا ما بنبيعش أصواتنا . أصواتنا مش للبيع لا ليكم ولا للروس ولا لغيركم ، ولكن احنا نصوت وفق مبادئنا . . تعالوا نشوف القرار اللى قدمته الدول الإفريقية الآسيوية ضد الاستعمار طيب نصوت معاكم ازاى أما أنتم موقفتوش مع القرار الذى يستنكر الاستعمار ويوصى بتصفية الاستعمار هل عايزينا نراضيكم ونقول والله علشان خاطر عيون الأمريكان بنصوت مع بقاء الاستعمار ومع استعباد الشعوب . احنا بنصوت مع المبادئ ، إذا كانوا الامريكان شايفين إن احنا ما بنصوتش معاهم ، يبقوا هم بيصوتوا ضد مبادئ الحرية وضد المبادىء اللى أعلنوها بعد الحرب العالمية الثانية وضد مبادئ الاطلنطى اللى أعلنها روزفلت هم تنكروا لهذه المبادئ . العملية مش تصويت ولا بيع أصوات احنا ما بنبيعش صوتنا لأى بلد بأى مبلغ . . إذا كانوا لسه بيشتروا شوية أصوات من بعض الدول شبه المستقلة فهذا كلام انتهى بالنسبة لنا . أصواتنا ليست للبيع .

« الرئيس جمال عبد الناصر »

بيجوا يدوا اسرائيل معونة : ٣٠٠٠ مليون دولار أخذتها اسرائيل فى السنوات العشر الماضية ، إذن أما اسرائيل النهاردة تجيب مفاعل ذرى علشان تعمل منه قنبل ذرية نسأل نفسنا مين اللى دفع ثمن المفاعل الذرية اللى بيجيبوا منه القنبلة الذرية . . مين اللى دفع الفلوس اللى يستخدموها فى السلاح ؟ . هل إسرائيل هى اللى دفعت الفلوس ، واللا اللى بيدوها الفلوس وبيدوها المعونة .

كل رصاصة بتوجه لتقتل عربى دافع ثمنها أمريكا والاستعمار الغربى كله . . ليه لأنهم هم اللى بيدوا اسرائيل الفلوس . هم اللى بيدوا اسرائيل السلاح هم اللى بيدوا اسرائيل القوة والتدعيم ، وهم اللى بيفتكروا دائماً مطالب اسرائيل وينسوا مطالب العرب أو حقوق الشعوب ، وحيجيلهم يوم إن شاء الله يتأسفوا على هذا الوضع اللى هم خذوه ، لأن العالم العربى سيقوى ويقوى ويبنى ويبنى حتى يفرض مشيئته وحتى يعيد لشعب فلسطين حقوقه كاملة . .

نبص النهاردة فى الجزائر نجد هناك مجزرة فى الجزائر ونجد التحالف الغربى ونجد حلف الأطلنطى والدول الغربية تقف ضد حق الجزائر فى الحرية وفى تقرير المصير نجد السلاح اللى بتحارب بيه فرنسا بييجى من أمريكا والمساعدات اللى بتحارب بها فرنسا بتيجى من أمريكا ويقولوا لنا دا انتو واخدين فى صحافتكم . ويشتكوا وتنشر جرايد أمريكا ، ويقولوا فى هذه الأيام فيه اتجاه مضاد لأمريكا ومضاد للغرب فى الجمهورية العربية المتحدة ، وفى القاهرة . . هو الاتجاه مع الحق ، إذا كان حال أمريكا فى كل هذه القضايا حال مايل حال مش ماشى مع الحق . . حال يتنافى مع الأسس والمبادئ . . .

فاحنا نؤيد قضية الجزائر ونضع كل ما يمكن لنا وكل إمكانياتنا فى سبيل استقلال شعب الجزائر . ونتيجة كفاح شعب الجزائر اللى ضحى بمليون جزائرى ، ماتوا لغاية النهارده فى سبيل حريتهم ، سبع سنين بيحاربوا مسلموش — فرنسا قعدت سبع أيام وبعدين سلمت لهتلر — أما الجزائر سبع سنين مسلموش لأنهم شعب مصمم على أن يستقل .

ومن الواضح أن الوهم اللى كانت فرنسا بتعتقده أن الجزائر فرنسية انتهى وأنا شفت فى التليفزيون ، فى القاهرة ، شعب الجزائر فى الجزائر وفى وهران بيحارب وبيقاتل ، شفت أطفال عشر سنين ماسكينهم جنود فرنسا ماشيين وراهم بالمدافع الرشاشة ومخلينهم حطين أيديهم على رأسهم . إذا كانوا أولاد اللى عندهم عشر سنين بيرهبوا جيش فرنسا يبقى الأمل فى الاستقلال والحرية أمل كبير . شفت المرأة الجزائرية خرجت وقدامها المدافع الرشاشة الفرنسية . شفت المرأة الجزائرية

بتقاتل وشوفت الشعب الجزائرى بيستشهد وهو راضى . . وشفت هذا فكنت أحمد الله على هذا الإيمان وعلى هذه القوة . . قوة فرنسا من عند أمريكا وقوة شعب الجزائر من عند ربنا . . ولا بد أن تنتصر قوة الله . . دا موقفنا بالنسبة للجزائر ، وبالنسبة لمؤامرات الاستعمار . . ومبادئنا ليست للبيع أبداً لأننا نشعر أن لا بد أن نكون أوفياء لهذه المبادئ .

الأمم المتحدة خانت مبادئها فى الكونغو

بتطلع جرايد الغرب وتقول أن الجمهورية العربية المتحدة ما أيدتش هيئة الأمم فى الكونغو ، وأن جمال عبد الناصر بيعض الأيد اللى سندته فى سنة ١٩٥٦ . محاولات يراد بها الباطل نحن نؤيد المبادئ . أما رحنا إلى الأمم المتحدة فى سبتمبر هذا العام وقلنا إن احنا بنجد أن هناك خطر هذا الخطر يهدد الكونغو ويهدد أيضاً الأمم المتحدة . فى سنة ١٩٥٦ كلنا حمدنا للأمم المتحدة الموقف اللى وقفته ضـــد العدوان ، وكنا بنعتبر أن هذا يمثل نقطة تحول بالنسبة للأمم المتحدة التى تنظر إليها الدول الصغرى بأمل كبير . . ولكن خاب هذا الأمل حينما تولت الأمم المتحدة المسئوليات فى الكونغو أصبحت الأمم المتحدة فى هذا العمل مطية للدول الاستعمارية ، تنفذ سياسة الاستعمار ، الاستعمار الذى يريد أن يقضى على الحكم الوطنى ويجعل من باتريس لومومبا أمثولة لأفريقيا كلها ، علشان كل واحد فى إفريقيا يخاف من أن مصيره ، إذا وقف فى وجه الاستعمار ، بيبقى هو مصير باتريس لومومبا .

الوطنيين ما بيخافوش لأن كل واحد وطنى بيكون مستبيع بيطلع فى سبيل مبادئه . . بينجح فى سبيل هذه المبادئ أو يلاقى أى شىء . . دى سنة الوطنيين على مر الزمن وعلى مر التاريخ . . النكسة اللى حصلت فى الكونغو والقضاء على العناصر الوطنية ووضعها فى السجون وتقييدها بالحبال لن تؤثر على أفريقيا ولن تنتكس قضية الحرية فى إفريقيا بل بالعكس ستجعل الشعوب الافريقية أشد حذراً . .

النهارده كل واحـــد حيستعين بالأمم المتحدة حيفكر مرتين أو ثلاثة لأنه حيعرف الأمم المتحدة ستنفذ سياسة الاستعمار أو ستنفذ سياسة أمريكا » .

« هذا هو الفهم الجديد للأحداث فى القارة . والخطوة الموفقة التى تؤنس الأحرار الذين يشهرون أسلحتهم وتشجع المترددين الذين لم يحملوا السلاح بعد فى وجه أعداء حريتهم ، أما هؤلاء الخارجين عن إجماع القارة ، والمارقين عن الصف فهذا الخطاب سلاح من نوع آخر يتغلغل فى قلوبهم ، ويدمر حياتهم ، ويكشفهم لكل المواطنين فى القارة » .

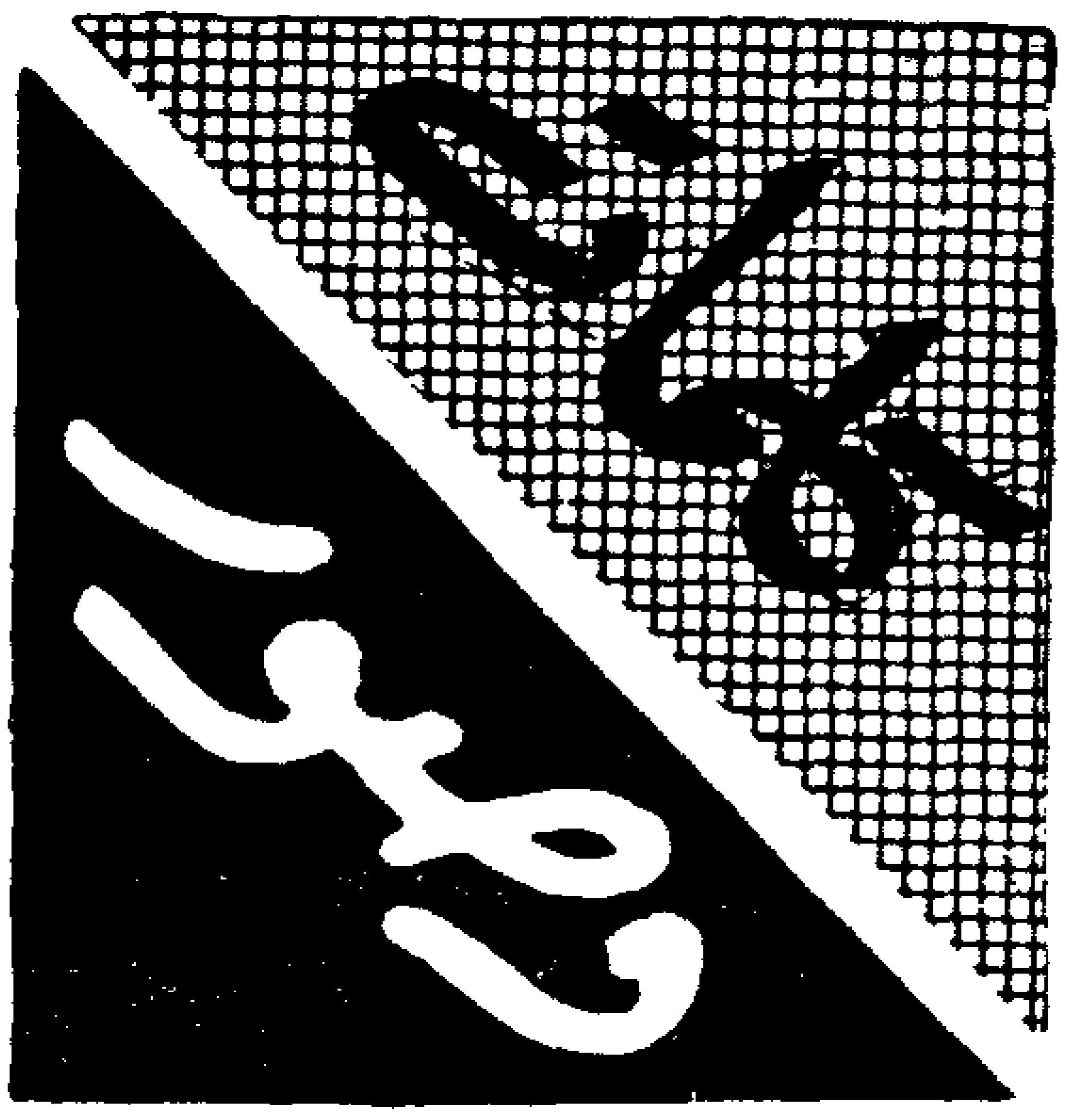

من خطاب الرئيس :

فى الفرحة بعيد العلم ، والمواهب المضيئة . والأفكار المشرقة ذكّر السيد الرئيس بالصراع الدائر فى إفريقية ، وكيف أن قوى الاستعمار والغدر ما زالت تحصد الأرواح ، وتنشر الظلام من أجل تحطيم قوى التحرر التى ظهرت واضحة فى القارة الإفريقية وهكذا يمتلىء قلب الرئيس بالإيمان بفجر هذه القارة وغدها ، فقد جاء فى خطابه الآتى :

« أيها المواطنون .. وسط هذا الحشد المجيد . من معارك الحرية فى كل مكان حولنا تحتفلون اليوم بعيد العلم وسط معركة الحرية العربية فى الجزائر المقاتلة ، ووسط معركة الحرية الإفريقية فى الكونغو الصامد . وسط كل هذه المعارك التى تقودها الشعوب المناضلة ضد الاستعمار بكافة صوره وأشكاله . وسط هذا كله يجىء احتفالكم بهذا العيد تكريماً للفنانين والعلماء . وليس احتفالكم اليوم بعيد الفن والعلم إلا تأكيداً للدعائم التى تقوم عليها الحرية فى وطننا ، كما أن هذا الاحتفال وسط الأحداث التى تحيط بنا ليس فى حد ذاته إلا توكيداً لتقبل شعبنا الحر لمسئوليات دوره الطليعى فى حرية غيره من الشعوب واستعداده لأن يجعل من أرضه قاعدة تصنع بدورها للحرية قواعد جديدة تسهم فى صنع عالم السلام الذى تريده الشعوب

إن الحرية بطبيعتها لا يمكن أن تكون إقليمياً ، ولهذا فإن الشعب الحر لا يملك إلا أن ينتصر للحرية فى كل مكان . ومن ناحية أخرى فإن الحرية بمنطقها الزمنى تدرك أن نجاحها فى مكان هو أمن وتدعيم لنجاحها فى مكان آخر . لهذا فيا لها ثمة من رابطة تربط الأحرار فى كل مكان ، رابطة تنبع من المصلحة المشتركة كما تنبع من الشعور المشترك .

أيها الأخوة المواطنون . لقد حاول الاستعمار أن يستخدم أرقى ما وصل إليه الجنس البشرى لكى ينحرف عن غرضه ، ويسخره لخدمة مطامعه ، هكذا مثلا رأينا الاستعمار الفرنسى فى الجزائر يستعمل القوة لكى يضرب بها الحق ، ويحاول استخدام العلم ليضرب به الحرية ، لقد رأينا المذابح الوحشية تجرى علناً ، وعمليات القتل الجماعى تباشر دون رقيب من القانون أو الشرف لإخضاع الشعوب . وقهر

إرادتها . بل إن الاستعمار – كما حاول في الكونغو – لم يكتف باستخدام القوة لضرب الحرية ، وتمزيق أوصالها ، بل حاول أن يفرض الجهل ، وأن يعوق التطور الحتمي عن أخذ مداه . ولما حاولت القيادة الوطنية في الكونغو أن تتمرد على هذا الحصار الذي أريد به عزل شعب الكونغو عن الحضارة صبَّ الاستعمار على هذه القيادة الوطنية غضبته ، وحقده ، وليس أمامنا في الجزائر ، أو في الكونغو إلا أن نكون أوفياء لدورنا ، لدور شعبنا في الطليعة ، ودور وطننا كقاعدة ، وإذا كان الاستعمار في الجزائر يضرب الحرية بالقوة فإن واجبنا هنا أن نعمل من أجل مزيد من القوة لتكون قوتنا للحرية دعامة ، وسنداً .

وإذا كان الاستعمار في الكونغو يحاول أن يفرض الجهل فإن واجبنا أن نحطم الحصار ، وأن ندخل ضياء الحرية الباهر إلى قلب القارة الإفريقية !

يوم الجزائر :

هزت أحداث الجزائر التي راح ضحيتها مليون جزائري الضمير العربي فكان المؤتمر الشعبي الكبير الذي أسهم فيه الإفريقيون في القاهرة ، والذي أعلن فيه « كمال الدين حسين » أن القضية في جذورها هيا قضية الحرية في كل من إفريقية وآسيا ، فقد جاء في حديثه « هناك أيضاً معارك ما زالت قائمة إلى اليوم ، فليست معركة الجزائر وحدها هي التي تخوضها الشعوب المتحررة والتي تريد لنفسها الحرية والاستقلال والعزة والكرامة . . ولكن هناك معارك كبيرة أيضاً في إفريقية وفي آسيا ، وهناك معارك في الكونغو حيث يريد أبناء الكونغو الأحرار أن يحصلوا على حريتهم وعلى استقلالهم ، ويأبى الاستعمار وعملاء الاستعمار ، وتأبى قوى الشر في العالم أن تعطيهم هذه الحرية ، وأنهم الآن يدبرون مؤامرتهم الغاشمة لسحق إرادة شعب الكونغو ، وهناك معارك كبيرة في جنوب إفريقية وفي كينيا وفي روديسيا معارك كثيرة في كل بقعة من بقاع إفريقية وكثير من بقاع آسيا . . القوى الجديدة المنبعثة التي تريد لنفسها الحياة تحارب الآن على قوى البطش ، والاستعمار وأعوان الاستعمار من الصهيونية والعملاء .

فالصهيونية تعاون الاستعمار لتنفيذ أهدافه ، ولسحق قوى الشعوب في إفريقية وآسيا ، إن الاستعمار يستخدم الصهيونية كمخلب قط في هذه البقاع لتثبيت أقدامه .

مؤتمر العمل الإفريقي بلاجوس :

رغم الدعايات المغرضة ضد الجمهورية العربية المتحدة نراها تثبت وجودها ، وتصبح النقطة المضيئة في هذا المؤتمر ، وقد كان من الأشياء

التى قوبلت بها هناك — كما ذكر السيد حسين الشافعى وزير الشئون الاجتماعية والعمل المركزى ورئيس الوفد هناك — أن الاستعماريين حاولوا تقسيم إفريقية إلى إفريقية ما فوق الصحراء وإفريقية ما بعد الصحراء لإخراج العرب تماماً من القارة ، كما حاولوا تصوير مستوى المعيشة فى مصر على غير حقيقته حين ذكروا أن متوسط دخل الفرد فى الإقليم الجنوبى ١٠٩ دولارات فى فى السنة ، وفى نيجيريا ٩٦ ، وفى الحبشة ٣٠ بينما هو فى الجزائر ٢٧٠ ، وفى جنوب إفريقية ٣٧٤ متناسين أن هذا الإحصاء بالنسبة للإقليم الجنوبى كان فى عام ١٩٥٤ ، ثم كان الرد على دور اسرائيل التى تريد التدخل فى إفريقية — بل التى تتدخل فعلا مدفوعة بالقوى الاستعمارية — بأن الجمهورية العربية على أهبة الاستعداد لتقدم كافة المساعدات للدول الإفريقية الناهضة .

وهكذا كشف هذا المؤتمر عن الأعاصير التى ما تزال تهب على إفريقية وأن مشكلاتنا مع اسرائيل ليست على الحدود فقط وإنما داخل هذه القارة الكبيرة ، وأن على الجمهورية العربية المتحدة تحويل طاقة كبيرة من نشاطها إلى هذه القارة لتحطيم رءوس الجسور التى ما زالت باقية فى كل مكان والتى تظهر الآن على أشكال الاتفاقات الثنائية ، وربط إفريقية بحلف الأطلنطى ومشروع أورو إفريقية ، وتدعيم الزعامات المنحرفة ، فهذا هو دور الجمهورية العربية المتحدة التى كانت ابنا للحرية ثم صارت أباً لها كما قال الرئيس « جمال عبد الناصر » .

مصر أصل الحضارة :

جاء فى كتاب « مصر أصل الحضارة » للأستاذ سلامه موسى نقلا عن الأستاذ سيليجمان مؤلف كتاب « مصر وإفريقية الزنجية » أنه كانت هناك أربعة طرق للانتقال بين مصر وإفريقية وهى :

١ — الطريق الشمالى الغربى أو ما نسميه الآن طرابلس وتونس .. الخ ، وقد كانت قرطجنة (تونس) تتخذ قرص الشمس المصرى رسما لنقودها فى القرن الثالث قبل الميلاد .

٢ — طريق النيل الأبيض .

٣ — طريق النيل الأزرق .

٤ — طريق الواحات .

وبهذه الطرق الأربعة كانت تصل حضارة مصر إلى أنحاء إفريقية فتعرف فى الحبشة ، والبحيرات ، ونيجيريا ، بل فى الكونغو .

ويجب أن نلتمس الأصل فى العقائد الزنجية ، وأنظمتهم الاجتماعية فى عقائد مصر القديمة ، ونحن نراها فى سنة ١٩٤٧ بعد الميلاد ، كما كانت قبل ٥٠٠٠ سنة فى مصر بلا تنقيح أو تبديل ، لأن هذه القبائل راكدة لا ترتقى ، ولا تقلع عن تقاليدها القديمة .

نذكر الآن بضعة أشياء ، وعادات

ليست مشابهة لما كان يمارسه آباؤنا قبل آلاف السنين ، بل مطابقة لأنها منقولة نقلاً لم ينقح ، ففى الأسرة الخامسة مثلا كانت العادة الفاشية أن يلوى قرن البقرة ، ولا تزال رسوم باقية تبين لنا ذلك اللى ، وإلى الآن يمارس رعاة البقر فى السنوير (فى السودان) هذه العادة .

وتحنيط الجثة فن مصرى قديم يحتاج إلى علم بالكيمياء والعقاقير كما يحتاج إلى أقمشة كثيرة تلفف بها المومياء ، وقد عجز الزنوج فى الكونغو عن الكيمياء والعقاقير ، ولكنهم يلففون جثة الملك أو الأمير بأقمشة كثيرة هى المظهر الخارجى للتحنيط .

والآلات الموسيقية التى تستعمل فى إفريقية الغربية الآن هى الآلات المصرية القديمة ذاتها ، وقد كان الصقر شعار الملوكية عند الفراعنة ، وهو كذلك الآن عند الملوك فى أوغندة وهنا يجب أن نقرر أن المسألة ليست مسألة مشابهة ، بل مطابقة .

وقد نشأت المملكة المروثية فى الجزء الشمالى من السودان واتصلت بالحبشة ، وكانت هذه المملكة طبعة أخرى للمدنية المصرية ، ووسيلة لنقلها ، وتوزيعها فى الأقطار المحيطة ، فعرف بناء الهرم فى السودان كما عرفت الربة « هاتور » ، ونقلت بالطبع عادات مصرية ، كما درست الثقافة المصرية .

ومما يجب أن يلاحظ هنا أننا نجد العادات أو الشعائر المصرية التى شاعت بين الزنوج فى إفريقية تحتفظ احتفاظاً عجيباً بمسحتها البدائية ، حتى لقد ترتقى فى مصر بعد ذلك وتتخلص منها ، أو ترتقى بها إلى طور أعلى ، ولكنها تبقى بين الزنوج على أصلها الذى زال من مصر ، وليس هذا مقصوراً على الزنوج ، بل هو عام بين جميع الأمم أو القبائل الراكدة التى تفشت بينها ثقافة مصر القديمة .

ففى مصر قبل الأسرة الخامسة كان الاعتقاد بخلود الروح والتمتع بالعالم الآخر مقصوراً على الملوك والأمراء والكهنة ، ثم ثار الشعب وطلب تعميم هذا الحق . ولكن ما زلنا نجد الاعتقاد القديم قائماً فى بعض أنحاء إفريقية وآسيا . وفى مصر كان الاعتقاد القديم أيضاً يقول بالتضحية البشرية ، وقد زال هذا الاعتقاد قبل الأسرة الأولى ، ولكن هذه التضحية عرفت فى شمال السودان حتى حين كان الحاكم والياً مصرياً موفداً من مصر .

بل هناك ما يدعو إلى الظن بأن فرعون مصر فى الأزمنة البعيدة كان يعد من الآلهة ، وأنه كان يقتل إذا ظهرت عليه أمارات الشيخوخة ، وذلك لأن المهمة الأصلية له هى الزرع ، وصحة الزرع كانت تتوقف على صحته وقوته، فإذا ألم به الضعف

من مرض أو شيخوخة قتل حتى يقوم بمهمته شاب يتمتع بالصحة والقوة ، وارتفعت مصر من التضحية البشرية ، ومن قتل الأمير ، وصار الفراعنة يبعثون البعثات للبحث عن الذهب والجواهر التى تديم الشباب والقوة ، ويضعونها فوق قبورهم لهذا الغرض نفسه ، ولكن الثقافة الأولى — ثقافة التضحية وقتل الأمير أو كاهن المطر والزرع — لا تزال قائمة بين الزنوج فى إفريقية إلى يومنا هذا ، حتى أن الكاهن يطلب إلى قومه أن يقتلوه إذا أحس بالضعف ، لأنه يعتقد أن ضعفه هو ضعف للأرض والزرع ، وأن من المصلحة أن يتولى شاب الحكم بدلا منه لكى يزيد البركات ، ثم يجب ألا يبرح من أذهاننا أنه حين يقتل يعد نفسه قد انتقل للعالم الآخر ، وأن حياته هناك متصلة بحياته هنا ، على نحو ما فهم الفراعنة تماماً حين استعدوا للعالم الثانى بالتحنيط .

الشعر الشعبى فى السودان :

من معانى الشعر الشعبى فى السودان هذه الصورة الجميلة التى يرسم فيها الشاعر محبوبته ببراعة فهو يقول : « قابلتها إبان الأصيل وهى تمشى لثقل أردافها فى تؤده حتى لكأن من يراها يظن أنها تنتزع أقدامها من أرض رطبة ، وكلما سارت فتنت بقدمها الدقيقة الممتلئة باللحم ، وخصرها التحيل المنسق ، ورقبتها المرتفعة ، وكتفها الذى أخفى اللحم عظامه . أما حاجبها فكان مرتفعاً فوق عين لامعة واسعة ، تماماً كما يرتفع الهلال فوق ماء النيل الصافى الذى يفوق الزلال فى طعمه ! » .

ولعل فى هذا اللون الجميل من المحلية — الذى يتميز به الشعر الشعبى — ما يحبب شعراء « الفصحى » فى الالتفات حول بيئتهم الجغرافية ، والنفسية ، واستيحاء « الرموز » ، الكبيرة التى تتغلغل تاريخياً فى أعماق كل واحد منهم ، فنحن الآن فى أشد الحاجة إلى أن نبعث فى نفوسنا النيل ، والامتداد الأخضر على جانبيه ، وأفراح الحصاد ، والشوق إلى الخصب فى بذرة ، وفى شجرة ، وفى إنسان !

قبيلة البارى فى السودان :

وصف « ورن Werne » ملامح هذه القبيلة عام ١٨٤١ بقوله : « إنها لطيفة بصورة تلفت النظر ، وأنهم طوال القامة ، أقوياء البنية ، أنوفهم عريضة بعض الشىء ولكن ليست مفلطحة ، بل على العكس من ذلك مرتفعة قليلا ، كما هو ملاحظ على أنف رمسيس الثانى ، أما الفم فهو ممتلىء وإن كان يختلف عن فم الزنوج ، مشابه فى هذا — كذلك — فم قدماء المصريين كما هو واضح فى تماثيلهم ،

ومن هذه الملامح – كذلك – أن الجبهة عريضة مقوسة ، والعيون صافية معبرة ، والسيقان ممتلئة » .

إفريقى :

من ديوان « باقة نور » للأستاذ « عبده بدوى » هذه القصيدة التى ضمنها الشاعر مشاعره نحو الإفريقيين

هزنى وجهـك الأصم
جامداً شامخ الألم :
والسـواد الذى به
عشش الليـل واعتصم
عشت فى القيد قصة
فوقهـا ينقر العـدم
ثم دقت عـزائم
فوق أرض من الظلم
فإذا الفجر رايـة
فى السموات تزدحم
حـولها كل جبهـة
حـرة النـور تقتحم
كل كـف تحوطها
موجة . . وهى كالخضم
حبـذا الحربـة التى
لم تطل رأسك الأشم
والمـراعى سخيـة
قد أفاقت عـلى نغم
والأساطـير فى الدجى
حـول نيران تضطرم
كلما جـفّ ظلها
غرد النـور فى القمم
واستـدارت حمامة
بين غصنين تبتسم !
عـالم السلم عـالم
أنت ربانـه العـلم
فانشر النـور وارفاً
فى اخضرار على الأمم
واكس بالدفء والسنا
كل من جاع أو حرم
أنت كف رحيمـة
والدنا طفلك الهـرم
فابتسم فـوق وجهـه
يسفر الليل عن حلم
عن حيـاة رخيّـة
كأغاريد فى النسم !

القيادة الإفريقية :

يعتبر الدكتور « كوامى نكرومه » من أوائل الزعماء المتعاطفين مع السياسة التحررية للقارة ، والذين لا ينظرون لإفريقية إلا من خلال إطار وحدتها العام ، وفى سبيل هذا نراه يسارع دائماً بمساندة قوى التحرر ، ويصمم الأفكار التى من شأنها تحريك التاريخ ، ودفعه فى إفريقية ، وقد كان آخر ما فكر فيه إنشاء « قيادة إفريقية » تستطيع فى ظلها القارة أن تتخلص من كثير من المعوقات ، وفى الوقت نفسه تندفع إلى تحقيق ذاتها ، وإلى تكاملها الاجتماعى ، والاقتصادى ، وهذه هى أهم النقاط التى يقوم عليها مشروعه .

– إنشاء لجنة إفريقية فى الأمم المتحدة للنظر فى المنازعات التى تقوم بين الدول الأعضاء ، بحيث تسهم الدول الأعضاء فى الاتفاق على هذه اللجنة حسب عدد سكان كل دولة ، على أن تكون التسوية عن طريق دولة إفريقية من الدول الأعضاء ، أو عن طريق الأمم المتحدة ، وفى الوقت نفسه تمتنع اللجنة عن التدخل فى الشئون الداخلية لأية دولة إلا إذا طلبت دولة ذلك ، أو انهارت حكومة وساد اضطراب كما فى الكونغو ، وستراعى هذه اللجنة حل هذه المشكلات ودياً فإذا فشلت هذه المساعى اتخذ إجراء عسكرى لغرض هدنة ، وسيعين هؤلاء الوسطاء من الدول غير المتنازعة .

وسيكون لهذه اللجنة مجلس تنفيذى دائم ، ويكون للمجلس التنفيذى سكرتير عام دائم ، وهيئة من الموظفين .

– تكون للقيادة العليا قاعدة دائمة ، ومقر قياده فى إفريقية تعمل تحت قيادة رئيس أركان حرب ، وسكرتيرية ، وإدارات للتخطيط والشئون الإدارية ، وسيكون أهم ما تقوم به هذه القيادة هو « فرض الهدنة » على طرفى الصراع ، وتزويد القيادة بما تطلب من قوى عسكرية لفرض السلام .

وسيقوم رئيس أركان حرب القيادة العليا بتقدير الامكانيات العسكرية للدول الأعضاء ، وجمع الاشتراكات ، ودرس وسائل المواصلات ، والاذن بالعمليات العسكرية التى يحتمل اللجوء إليها فى حالة حدوث اضطرابات ، وتنظيم قواته التى سترسل من الدول الأعضاء فى ضوء تقاريره ، والتى ستصبح فور تكليفها بأية عملية غير تابعة لقيادة حكومتها ، وإنما تتبع ما يصدر إليها من المجلس التنفيذى من تعليمات .

.. هذه إحدى الثمار الإفريقية المباركة التى سيكون لها – بلا شك – صدى موفق فى العالم الإفريقى ، الذى يأخذ طريقه الآن إلى الاستعداد الكامل أمام القوى الدخيلة التى أصبحت تحارب الآن باستماتة فى سبيل بقائها عن طريق التدخل السافر ، والتدخل المستتر .

صحف غرب إفريقية :

ما زالت إنجلترا تلعب دوراً خطيراً عن طريق الصحف التى تتبع شركة « صحف غرب إفريقية » البريطانية بلندن ، والأمل كبير فى تأميمها فى المستقبل القريب ، وبيان هذه الصحف كالآتى :

فى نيجيريا :

١ – ديلى تايمز ، وتوزع ١٠١,٣١٣ نسخة يومياً .

٢ – صنداى تايمز ، وتوزع ١٣٠,٣٢١ نسخة يوم الأحد .

فى غانة :

١ – ديلى جرافيك ، وتوزع ٧٦,٥٣١ نسخة يوم الأحد .

٢ – صنداى مرر ، وتوزع ٦٠,٤٦٦ نسخة يوم الأحد .

فى سيراليون :

ديلى ميل ، وتوزع ١٠,٣١٨ نسخة يومياً .

فى كل المناطق :

١ – ويست افريكان ريفيو (شهرية) .

٢ – ويست أفريكا (أسبوعية) .

« المرح فى إفريقية »

« فى واحد من الأسواق الريفية

من الأدب الشعبي الإفريقي

ترجمة : طلعت السمري

١ — الشمس ، والقمر والنجوم

... حدوته من سانتالي

قديماً كان أباؤنا الأولون يقولون إن الشمس والقمر زوجان ، أنجبا ذرية هائلة .

وكان الأولاد يتبعون دائماً أباهم الشمس .. والبنات يتبعن أمهن القمر ، فالأب والأولاد يجتازون الفلك عبر النهار .. والبنات وأمهن كن يأخذن طريقهن عبر الليل ..

وأصبح هؤلاء الأطفال مبعث ألم وضرر بالغين لسكان الأرض ، فالأولاد كانوا يصلونهم بالحرارة والبنات يشبعونهم برداً وزمهريراً . وفي أحد الأيام ، حدث جمهرة كبيرة من الناس الذين ارتفعت أصواتهم عالية .. مدوية .. شاكية .. إلى الشمس والقمر قائلين :

« أصلحا أطفالكما ! ! إنهم يؤذننا ليلا ونهاراً ولا يدعونا نستريح .. ولا يمكنونا من أن نستمتع بطعامنا في سلام ! ! »

وعند ما سمع الشمس والقمر هذه الشكوى من سكان الأرض ، غضبا جداً من أطفالها ثم اندفعت القمر قائلة :

« لا حياة لأطفالنا ، إذا كانوا سبباً حقيقياً في هذا البؤس الزائد لسكان الأرض ! ! فن جانبي أنا سألتهم بناتي .. وعليك أنت أن تبتلع أولادك ! ! »

وحافظ الشمس على كلمته ، كعادة الرجال ولم يكن غادراً كالنساء وفي التو التهم أبناءه .. أما القمر فلم تفن بناتها ، بل أخفتهن في حقيبة ضخمة وقالت لزوجها إنها قد نفذت ما قالته عنهن ..

ولما جاء المساء تسللت بناتها خارجة من الحقيبة .. الواحدة تلو الأخرى ، وعرف الشمس بأن القمر لم تف بوعدها معه ، فغضب غضباً شديداً ، ورفع عليها عصاه محاولا قتلها .

وفي رعب ، أعطته بنتين من بناتها .. وهكذا هدأت من روع الشمس . وأطلق الناس على أبناء الشمس والقمر اسم النجوم .. أما الاثنتان اللتي أعطتهما القمر للشمس خوفاً من عدم تنفيذ وعدها عند ما حاول ضربها استمرتا تنتظران الشمس إحداهما قبل الغروب والأخرى قبل الشروق .

ومنذ أن تنازع الشمس والقمر ، لم يعودا يجتمعان قط ، فكلما جاء أحدهما

إلى السماء . . يذهب الآخر فى التو .

وكلما كان يتذكر الشمس غدر القمر ، كان يمسك بعصاه ويطاردها ، وهكذا والقمر من خوفها لم تستطع البقاء فى السماء طويلا . .

٢ — حجه . . حدوته من أرتريا

حدث يوماً ، أن عطشت الضبع والحمار ، فذهبا معاً ليشربا من النبع . . وفى الطريق لم تكن للضبع رغبة فى الطعام . . إذ جف لعابه وتشقق لسانه .

فلماوصلا النهر جلسايطفئان ظمأهما ، الضبع أعلى حافة النبع ، والحمار أسفله . . وبعد برهة تحدثت الضبع كالشخص الحصيف قائلة :

« لماذا لوثت مياهى . . حتى صارت موحلة ؟ »

فصاح الحمار فى لهجة غاضبة وقال :

« هذا مستحيل ! ! »

ثم استمر قائلا :

« إن الماء تسقط لى من عندك ! ! »

فقالت الضبع :

« ماذا ؟ لقد قلت لك إنك لوثت مياهى »

فرد عليها الحمار :

« اسمعى يا عزيزتى الضبع . . إذا كنت تريدى التهامى . . فالتهمينى دون مراوغة ، خير من أن تبحثى عن حجة ، لأنه أحياناً لا تختلف حججنا كثيراً » .

٣ — الشمس والقمر . . حدوته من نيجريا

كان القمر والشمس صديقين حميمين . . ويوماً قال القمر للشمس :

« تعال هنا يا صديقى ، إننا نود التخلص من أطفالنا ! ! ما رأيك لو قذفنا بهم فى عرض البحر ! ! »

فوافق الشمس . . وفى الحال قيد كل أطفاله السواطع ووضعهم فى حقيبة هائلة ، أما القمر فقد أهاب بأولاده بعيداً ، وبدلا من أن يملأ الحقيبة بأولاده . . ملأها بالحصاة . .

وهكذا التزم الشمس بعهده وقذف بالحقيبة المليئة بأولاده إلى الماء ، أما القمر فقد اكتفى بقذف الحقيبة المليئة بالحصاة . .

وفى الصباح . . عند ما ظهرت الشمس فى السماء ، لم يكن محيطا هذه المرة بأولاده السواطع لتدور حوله ، وبعدها جاء المساء وانبثق القمر ، ولكن ظهر واضحاً وحوله أولاده تبرق متلألئة .

فغضب الشمس كثيراً وثار على القمر . . فقال له القمر :

« لا تغضب منى ! ! وحاول أن تنظر أسفل إلى النهر . . فانك ستجد أولادك ! ! »

ونظر فشاهد كل أبنائه تدور وقد بدت كالأسماك مشرقة فى النهر .

٤ — الملك الطاغية .. والفلاح الحاذق .. حدوته من تاجيك .

ذات مرة كان هناك ، ملك قاس جداً ، يستمد سروره من تعذيب رعيته دون أدنى سبب . وكان لديه طريقة عجيبة لعقاب مذنبيه وهى أن يأخذ ورقتين ، ويكتب على إحداهما كلمة « الموت » وعلى الأخرى كلمة « الحياة » ثم يطويهما ويضعهما أمام ضحيته . فاذا سحب المتهم الورقة ذات كلمة « الموت » يرسل للمقصلة ، أما إذا سحب الورقة الأخرى ذات كلمة « الحياة » فسيكون حراً طليقاً .

وحدث مرة أن أهان الملك ، أحد الفلاحين فأرسله للسجن توطئة لاعدامه وقرر الملك الطاغية ألا يعامله بالطريقة المعهودة .. لأنه ربما يسحب الورقة ذات كلمة « الحياة » فيفر من العقاب .. لهذا قلب الملك هذا الأمر فى رأسه ملياً واستقر على أن يكتب كلمة « الموت » فى كلتا الورقتين ويقدمهما للفلاح المزارع . . .

ولكن أحد رجال القصر الملكى أخبر الفلاح بهذه الحيلة الماكرة ، ففكر الفلاح ملياً ليجد الحل ويصبح فى بر السلام .. وجاءه الملك ومعه الورقتان ، فأخذ المزارع أحد الورقتين وإبتلعها وقال للملك : « انظر يا مولاى ما هو مكتوب على الورقة المتبقية ! ! إذا كانت عليها كلمة « الحياة » فأكون أنا قد ابتلعت الورقة الأخرى ذات كلمة « الموت » وعلى هذا أستحق الاعدام ، أما إذا كان العكس ، فسأكون حراً طليقاً ! !

القتل والانتحار فى إفريقيـــــة

بقلم بول بوهنان

عرض وتقديم العميد (ا . ح) محمد عبد الفتاح ابراهيم

الكتاب وكاتبوه

موضوعان قل أن يطرقهما كاتب وبخاصة فى دراسة عامة تشمل منطقتين فسيحتين من قارتنا إفريقية ، ثم تغطى فى جملتها قرابة الثلاثمائة صفحة من الحجم الكبير ، بالرغم من أن موضوعى الدراسة يرجعان إلى أعماق دراسات علم الأنثروبولوجية الاجتماعية .

والواقع أن « القتل » و « الانتحار » يبرزان فى القاعدة الاجتماعية للمجتمع الذى يحدثان فيه ، ثم إنهما يقدمان أفضل الوسائل لدراسة مقارنة للاضطراب الاجتماعى فى أى منطقة .

والذى لا شك فيه أن هذه الدراسة تعتبر فتحاً جديداً فى ميدان مهمل من ميادين دراسة علم الاجرام المقارن .

والشيء الذى يستحق الذكر بالنسبة لهذا الكتاب أن كاتبيه قد عاشوا طويلا فى مناطق إقامة القبائل التى كتبوا عنها ، ثم إنهم بعد أن عرضوا الحقائق فى وضوح تام ناقشوا الدوافع فى ضوء التقاليد والعادات القبلية ، وانتهوا إلى أن ما لا يتفق مع هذه العادات والتقاليد لا يحدث إلا فيما ندر ، كما أوضحوا العلاقات بين أطراف كل قضية ، وانتهوا إلى إيضاح كيف أن توتر العلاقات الزوجية أو الأسرية أو العلاقات فى بناء المجتمع تنتهى إلى الموت فى صورة ما من الصورتين

وقد قدم الكتاب وعلق عليه الأستاذ الدكتور بول بوهنان أستاذ الأنثروبولوجى فى جامعة نورثويسترن يونيفيرستى والمدير الفنى لبرنامج البيئات البشرية فى وسط إفريقية ، كما عرض لدراسة النظريات الأساسية للقتل والانتحار فى إفريقية .

وقد عاونه فى تقديم بعض الدراسات عن « البوثوجا » و « الجيسو » و «البوثيورو » و « البوليو » و « الكافيرندو » و « الألور » الأساتذة فولرزوجين لافونتين وبيتى وويلسون وسوثهول وكلهم من أساتذة الأنثروبولوجى الذين قاموا بالأبحاث والدراسة فى أكثر من مكان فى غرب إفريقية وهضبة البحيرات ، وامتدت مناطق دراساتهم لتغطى جزءاً كبيراً من شرق القارة ، وقد قدم بوهنان فى الصفحة السابقة للمقدمة خريطة لإيضاح مناطق إقامة القبائل التى وجه عنايته إليها فى الدراسة التفصيلية الخاصة مما نفهم منه أنه عنى هو وزملاؤه بالناس على رافد النيجر الأيمن وبالناس عند الطرف الشمالى الشرقى لبحيرة فيكتوريا ، ثم على النيل الأعظم بين بحيرتى فيكتوريا والبرت وللشرق من كيوجا ، وقد نفهم سبب هذا عند ما ندرك أن بوهنان قد انصرف طويلا للبحث الاجتماعى فى المناطق التى كانت تتولاها بريطانيا فى غربى وشرقى قارة إفريقية سيما وأنه قد عمل طويلا كمحاضر للأنثروبولوجيا الاجتماعية فى جامعة أوكسفورد .

كيف عالج بوهنان وزملاؤه موضوع البحث :

وقد عرض الرجل دراساته ودراسات زملائه فى أسلوب منطقى رتيب فقدم للكتاب لإيضاح الدافع وراء هذه الدراسة ، وأوضع الأسس التى وضعها للجداول الإحصائية التى قدمها فى لحق الكتاب ثم تحدث فى حديث عام عن النظريات الخاصة بالقتل والانتحار عند الشعوب التى عنى بدراستها ، وبدأ الفصول التى قدم فى كل منها شعباً فى دراسة تفصيلية مخصصة وشغل هذا الحديث التفصيلى الفصول السبعة بين الفصل الأول والفصل التاسع ، وانتهى فى الفصل التاسع بعرض طوابع القتل والانتحار فى صورة عامة عند هذه الشعوب فى هذه المنطقة الفسيحة من القارة ، وفى لحق الكتاب قدم ٨ جداول إحصائية بيانية قسمت إلى :

١ – فى حوادث القتل :

التاريخ للحادث ، اسم وعمر وقبيلة المتهم ، اسم وعمر وقبيلة القتيل ، العلاقة بين المتهم والقتيل ، السلاح الذى استخدم فى القتل ، الدافع ، ظروف القبض ، ما قضت به المحكمة .

٢ – فى حوادث الانتحار :

التاريخ ، اسم المنتحر ، طريقة الانتحار ، الدافع .

ولم يغفل أن يوضح ملاحظاته على كل حادث وهى ملاحظات توضح بعض غوامض القضية .

منطقة البحث : ومن الجدير أن نلاحظ بأنه فى عدا التيف سكان وسط شرق نيجيريا فإن الدراسات الأخرى كلها وافقت حوالى منابع النيل الأعظم فى شرق كينيا وأوغندة : أى بين نيانزا وبحيرتى كيوجا والبرت .

نظريات القتل والانتحار :

والسؤال الأساسى الذى وضعه بوهنان لنفسه وزملائه كدعامة لتوجيه البحث :

هل يقتل الإفريقيون بعضهم بعضاً أو يقتلون أنفسهم للأسباب نفسها وفى المواقف ذاتها مثلهم فى هذا مثل الأوروبيين والأمريكان ؟ ! فإذا لم يكن هذا .. فلماذا ؟ ولماذا تتباين الظروف والملابسات ؟ !

ومع أنه يبدأ الكتاب بهذا السؤال إلا أنه لا يعرض لمناقشته لتوه بالنسبة للإفريقيين ، بل يعرض لهذا فى سبع وعشرين سنة ليناقشه فى أمريكا وأوروبا حتى يستطيع أن يجعل القارئ نفسه يستنتج الإجابة أثناء مطالعته لفصول الكتاب ، وهو يناقش هذا فى دراسات علماء أعلام من المجتمع الغربى أمثال سمبسون ، دوركهيم ، زيلبورج ، كافان ، هالبورتشز ، ومنينجر وغيرهم .

ويقول : إن الناس عند ما يدرسون « القتل » فى المجتمع الغربى يتجهون إلى المحامين والقضاة والبوليس ، وعند ما يتجهون لدراسة « الانتحار » يذهبون إلى الإخصائيين الاجتماعيين وعلماء النفس ، ويقول (ص ١٩) أن القتل جريمة فى المجتمع الغربى ما لم يرتكب بوساطة الدولة أو بوساطة عملائها ، واعتبارها جريمة يرجع إلى رأى الشعب عادة فيها .

ويخرج بوهنان قبل نهاية فصله التمهيدى بسطور ، بفكرة دراسة «القتل» فى المجتمع الإفريقى كأنموذج أو كمثال لعلم الأمراض الاجتماعية Social Pathology للقبائل المختلفة ، ولهذا فإنه من الضرورى اعتبار « القتل » عملا نهائياً فى سلسلة من الحوادث ، لا عملا تمهيديا ، وأننا نعنى بدراسته كنهاية لغيره لا كبداية لشىء آخر .

ولما كانت دراسات الإجرام ليست مجرد دراسة لجرائم ، بل دراسة رد الفعل الاجتماعى للجريمة ، ولهذا فلا يمكن أن ينظر إليه فى طابع القتل الذى يقوم به رجل البوليس كعمل مضاد لتهديد موجه إليه ، ولا إلى القتل الذى يعتبر تكفيراً عن الجرم الذى يقال له « إعدام » أو « عقوبة » ومن ثم فإن دراسة القتل فى المجتمع الإفريقى نتيجة لدراسة « الفعل » الذى يعتبر خروجاً على النظام العام لصيانة حياة الأفراد .

ويناقش بوهنان هنا أيضاً ما خرج به علماء الاجتماع وعلماء (علم الإنسان وأعماله) الأنثروبولوجى من أنه لتفهم « الانتحار » فى المجتمع البدائى فإنه من الضرورى أن نعرف طبائع الحياة فى هذه المجتمعات ، وإن كان بوهنان يبرز ما انتهى إليه « ستاينمتز Steinmetz » من أن الانتحار نادر الوقوع فى المجتمعات البدائية ، وأن هذه المجتمعات أكثر جنوحاً وانصرافاً عن الانتحار عنها من الشعوب المتحضرة

والغريب أن الصور تختلف عند ما ننظر إلى هؤلاء الإفريقيين فى مجتمعات خارج إفريقية ، ففى دراستنا للإفريقيين فى البرازيل نجد أن اليوروبا والذين جاءوا أصلا من داهومى يتجهون إلى قتل رؤسائهم من البيض ، على أن الذين جاءوا من موزامبيق أو من الفولانى يتجهون فى الغالبية للانتحار لا للقتل .

ويناقش بوهنان فكرة الدافع للانتحار . ويقول : إن نوعين من « الدافع » يجب توقعهما ، (دافع) يعرفه المنتحر ولكنه ذهب معه ومن ثم فلا قيمة كبيرة له من الناحية الفنية لأنه فى الواقع يعتبر مجهولا ، كان عملاً تفكير شخص ما فلما أن قتل هذا الشخص نفسه دون أن يخلفه وراءه مسطوراً فإنه لم يعد شيئاً ، و (دافع) يقدره الأحياء على أساس أنه رأى الناس ، رأى البيئة ، رأى

المجتمع ، على أنه يستمد قيمته من أنه فى الواقع رأى هؤلاء الناس فى شيئين اثنين . .

— ماذا يستحق الحيــاة . . ولماذا ؟ . . .

— وماذا يستحق أن يفقد الإنسان حياته من أجله وفى سبيله ؟ .

وهنا نجد أنه من السهل أن نربط بين (الدافع) وبين سيكلوجية المجتمع ، كما يجب أن نلاحظ بأن المحاكم فى قضايا القتل ليست مرغمة على تقدير (الدافع) بقدر ما هى معنية بالبحث عن طابع (الإصرار) أو (العمد) ، ولهذا فقد يكون من الأفضل دائماً مناقشة تفسير الناس (للفعل) نفسه سواء أكان (قتلا) أم (انتحاراً) لا البحث عن (الدافع) .

عند التيف سكان وسط نيجيريا :

والتيف شعب نصف بانتو كان تعداده سنة ١٩٥٣ أربعة أخماس المليون يعيشون فى جماعات تختلف بين الخمسة وبين المائة والخمسين ، وهم زراع يعملون فى الأرض ، و ٨٣ ٪ من الذكور يعيشون فى هذه الجماعات ولهذا فإن الناس الذين يتجاورون فى الإقامــة تربط بينهم عادة القربى والمصاهرة ، ومن ثم قام نظامهم الإدارى على أساس العشائر ، وليس لفرد سلطة خارج هذه الطبقات وإن كان هناك أناس أقوى مكانة وأخطر زعامة . ثم جاءت حكومة أجنبية ونشرت فكرة إعداد سلطات قانونية وحكومة مسئولة ودور للقضاء وفرضت أسلوب القضاء البريطانى بدلا من القضاء التقليدى للأهلين ، وكل ما أدهش الأهلين أن يجدوا الأوروبيين يحكمون بإعدام رجل لأن كل جريمته أنه قتل رجلا آخر .

دلائل الألفاظ :

ويستخدمون للتعبير عن القتل كلمة (وايوان) Wuan ثم يضيفون إليها عدة كلمات للتعبير عن وصف القتل ، فبالصدفة (شا إيكور) Shaaikor وعن جهل ، Shalanegh (شالنيج) ، وكانت حوادث القتل — دون قصد — تحدث بكثرة أثناء عمليات الصيد الجماعى حتى صدر قانون حرم هذا ، وقد كان التيف يقومون بهذا الصيد فى المدة من يناير إلى أبريل أى فى القسم الأخير من موسم الجفاف ، والعادة أنهم يلتقون فى دائرة حول حيوانات الصيد ثم يقذفونها بسهامهم المسمومة ، ومن ثم فإن أى إصابة تكون قاتلة . وفى المدة من سنة ١٩٣١ إلى سنة ١٩٤٧ حدثت ٢١ حادثة قتل من هذا النوع لم يصدر حكم فى تسع منها ، وحكم فى الباقى إما بالبراءة لعدم وجود أدلة ، وإما بالسجن مدداً

تتراوح بين أربعة أشهر وثمانية عشر شهرا .

على أن الذى يعنينا أن جملة حوادث القتل عند التيف فى تسع عشرة سنة كانت ١٢٢ حادثة منها ٤٧ بالسهام المسمومة و ٣٣ بالمدى و ١٩ نتيجة الضرب والإيذاء و ٥ بأسلحة نارية و ٣ بحراب و ٣ بفأس و ١٢ بوسائل مختلفة متباينة ، ومن هذا يبدو أن حوادث القتل الناتجة عن الضرب والإيذاء أقل بكثير من تلك التى تحدث بوساطة آلات نافذة قاطعة كالمدى والحراب والسهام . فإذا ما بحثنا حوادث الانتحار عند «التيف» نجد أنها أكثر ما تحدث فى أشهر فبراير ومارس وأبريل أى فى الشهور الأخيرة من فصل الجفاف ، وهذه الفترة هى التى يتوافر فيها الغذاء من الصيد وتكثر فيها الاجتماعات والحفلات ، أما المدة من مايو إلى ديسمبر فهى فترة رى الأرض وزراعتها ، وجنى المحصول يشغل الناس عن الاجتماعات فتقل النسبة للانتحار ، ومع هذا فإن الفروق لا تخرج إلى الحد الذى يجعلها بارزة ملحوظة على مثال ما تخرج به من مقارنتنا لحوادث الانتحار على مدى شهور العام فى مجتمع أوروبى أو أمريكى .

فإذا نظرنا إلى ١٢٢ حادثة قتل من ناحية جنس القاتل وجدنا أن ١١٠ حادثة القاتل فى كل منها رجل واحد و ٦ حوادث القاتل فيها مجموعة من الرجال . وحادثة واحدة القاتل فيها امرأة وحادثة واحدة لم يعرف جنس القاتل . إذ لم يمكن التعرف عليه ،

عند الباسوجا سكان جنوب شرقى أوغندة :

الباسوجا من المجموعة التى تتحدث لغة البانتو والتى تغطى أغلب أرض إفريقية من حوافى السودان الجنوبى إلى رأس الرجاء الصالح ، على أنهم يرجعون — بصفة أقرب — إلى شعوب البانتو التى تسكن المنطقة حول بحيرات فيكتوريا والبرت وادورد وتنجانيقا فى جنوب شرقى إفريقية ، وهى شعوب بينها وحدة لا ترجع إلى اللغة بقدر ما ترجع إلى ثقافة مشتركة وإلى نظام اجتماعى متماثل ، وكلها تعتقد فى الأرواح التى تسيطر على شئون البشر

على أنه من الضرورى أن نفهم بأنه من الناحية اللغوية تجىء الكلمات مركبة على أصل واحد هو « سوجا » Soga فالفرد ماسوجا ، والأرض باسوجا واللغة لوسوجا ؛ ومجتمع السوجا عبارة عن سلسلة من الدول الملكية الصغيرة المكونة من زراع الأرض الذين يتوزعون فى عدد من العشائر الأبوية أى التى ينتسب أفرادها إلى الأب .

وفى نهاية القرن التاسع عشر كان فى المنطقة — التى يعيش فيها اليوم نحو نصف مليون من الباسوجا — من

الممالك ما يتراوح بين اثنتى عشرة إلى خمس عشرة مملكة لكل حاكمها ورعاياها. ويرجع كل حاكم إلى عشيرة ملكية يتوارث أفرادها الحكم والسلطان ، ويتعاون الباسوجا فى الملمات فيرعون أرملة المتوفى وأولاده ، ويتعاون أفراد العشيرة عند بناء أحد أفرادها بفتاة ما ، فيجمعون أجر الزوجة كما يطلبه أهلها وذلك بعد أن يستشيروا أحد كبار السن الذين يعرفون أنساب العشائر حتى لا يخترق هذا الزواج أيا من التقاليد الواجبة الاتباع عندهم .

دلالة الألفاظ :

وكلمة قتل هى (اوكوتا) Okota وكلمة انتحار هى (اوكوتيا) Okotia أى قتل النفس ، وللحياة (بولامو) Bdamo قيمة كبيرة فى ثقافة الباسوجا وهم يعتقدون أن الحياة البشرية الطيبة التى تتوافر لصاحبها كل الفضائل إنما هى جزاء له فى الدنيا ، ومع هذا فإنهم يعتقدون فى حياة أخرى بعد الموت يتأثر فيها بالخير أو بالشر شبح الشخص لا الشخص نفسه ، ومن ثم فإن قتل شخص ما إنما هو سلبه أفضل ما يملك ، ولهذا فإن القتل لا يكون عادلا إلا فى الحرب . وعند الدفاع عن النفس ، وعند ما لا يستطيع الفرد السيطرة على مشاعره كأن يجد امرأته فى صحبة رجل آخر اصطحاباً له مؤثراته الجنسية ، ولكن قد يقتل الفرد نفسه لغرام فاشل ، أو حزناً على أم مريضة تتألم ، أو لتخفيف عبء نفقاته عن عاتق أبنائه إلا أن هذه لا تعتبر عذراً مقبولا فى المجتمع عامة .

وقد كان الباسوجا فيما مضى يتقبلون القتل للثأر .

ومع أن تعداد الباسوجا على ما جاء فى إحصاء سنة ١٩٤٨ وصل بهم إلى ٤٠٥,١١٠ فإن الاتهامات بالقتل — بما فى هذا حوادث السيارات — كانت ١٩ حادثة سنة ١٩٥٢ ثم ١٣ فى سنة ١٩٥٣ ثم ١٧ فى سنة ١٩٥٤ على حين وصلت حوادث الانتحار إلى ٢٣ و ٢٣ و ٣٩ فى السنوات الثلاث المذكورة ، والفكرة فى هذا كما قلت ، هو الاعتقاد بأن القتل خطيئة إلا فى حال الدفاع الشرعى عن النفس والعرض وفى الحرب ، وأن الانتحار مهما كان السبب خطأ لا يغتفر .

على أن هذه الأرقام التى قدمناها عن القتل والانتحار عند الباسوجا لا تتضح لنا جيداً إلا عند ما نقارنها ببعض بلاد أخرى من العالم فى السنوات من ١٩٥٢ إلى ١٩٥٤ ، فعلى حين كان المتوسط بالنسبة لكل مائة ألف من السكان فى الباسوجا ٤ حوادث قتل ، كان المتوسط ٨,٢ فى شيلى و ٥,٢ فى سيلان و ٤,٨ فى الولايات المتحدة ؛ وكان المتوسط بالنسبة لحوادث الانتحار ٧ عند الباسوجا على حين أن المتوسط ٢٠,٥ فى اليابان و ١٠,٨ فى انجلترا

وويلز و ١٠,١ فى الولايات المتحدة و ٨ فى سيلان . وكان أكثر الأسلحة استخداماً فى حوادث القتل العصا ثم السكين ، وكانت أعم وسائل الانتحار الشنق إما فى المنزل وإما بالتدلى من أحد غصون الأشجار .

عند الجيسو سكان المنحدرات الغربية لجبل الجون :

الجيسو الذين يقيمـــون عـــلى المنحدرات الغربية لجبل الجون وعلى الحدود الشرقية لأوغندة من شعوب البانتو ويصل تعدادهم إلى ربع مليون ويعملون بالزراعة وتربية الماشيـــة ويقوم تنظيمهم الاجتماعى على أساس سلسلة من العشائر المحلية وكان هؤلاء يستخدمون القضاء القبلى لنهو مشكلاتهم ولكن لم يلبث هذا أن تطور إلى قضاء يقوم على قانون موضوع ، وإن لم يكن قد أغفل التقاليد القبلية إغفالا تاماً ، ولكن المهم هو أن بعض رجال الإدارة يقولون: إن السكر هو العامل وراء أغلب الحوادث ، ولكن فى التسع والتسعين جريمة قتل التى حدثت فى السبع السنوات الأخيرة كانت عشر حوادث فقط سببها السكر ، وكانت أربع حوادث وقع فيها القتل عن سبق إصرار وترصد .

ومرة أخرى نجد فى إحصائيات حوادث القتل هذه أن ٢٢ جريمة قتل كان السلاح المستخدم هو العصا ، على حين أن أربع عشرة جريمة ارتكبت باستخدام السكين ، واثنتى عشرة حادثة باستخدام الحربة ، وحادثة واحدة كان السلاح المستخدم هو الفأس ، وخمس حوادث كان السلاح قطعة من الخشب ، وست حوادث ارتكب القتل فيها بوساطة أدوات منزلية .

وكانت العادة عند الجيسو أنه بعد انتهاء مراسم الأحزان يجتمع الأهل لتوزيع ممتلكات المتوفى ويتقاسمون التزاماته ثم يتشاورون فى سبب وفاته ، هل السحر أو السم إن لم يكن سبب الوفاة واضحاً كالضرب أو الطعن ، ولكن ليس معنى هذا أن يقال : إن مجتمع الجيسو كان يبحث دائماً عمن يحمل جريمة قتل عند وفاة فرد من المجتمع إلا أن هذا البحث كان من تقاليد المجتمع لعدم إهدار دم قتيل ، والعادة أن جريمة القتل تسوى بدفع الدية ،أو تقوم الحرب بين الجماعتين : جماعة القتيل وجماعة القاتل ، ولم يكن الرجل يطالب بدم امرأته لأن هذا من شأن أسرتها ، وفكرة الأخذ بالثأر نشأت عن الرغبة فى توازن القوى بين العشائر ، ولهذا فإن عشيرة القتيل تقتل رجلا مقابل رجلها الذى فقدته بشرط أن يكون مقارباً له فى السن وفى المكانة الاجتماعية . فإذا كان القتيل كهلا قتلوا بدله امرأة ، ويعتبر الأمر قد سوى وانتهى بمجرد الأخذ بثأر

القتيل ، أما إذا كانت الروابط بين العشيرتين قوية فان الأمر يسوى عن طريق الدية لا الأخذ بالثأر ، وتقضى الدية من الماشية التى تجمعها عشيرة القاتل بالتعاون معاً ، وتستخدم الماشية فى أن يبنى شقيق القتيل بامرأة تلد له أولاداً يحملون اسم المتوفى ، والعادة أن الأخذ بالثأر لا يحدث إلا بين العشائر التى تقيم فى قرى مختلفة .

وفى التسع والتسعين حادثة قتل التى وقعت فى السنوات السبع بين سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٤ ، قتل اثنا عشر لصاً أثناء قيامهم بالسرقة ، وقتل ثلاثة رجال بسبب إغراء زوجات رجال آخرين ، وقتل ٢٦ فى شجار بسبب الأرض أو الممتلكات أو أجر الزوجة أو التدخل لفض منازعات .

ويعتبر الجيسو الانتحار اختياراً بين الحياة وبين الموت،والرجل ينتحر عند ما تجهده الحياة ، ولهذا فانهم لا يعتبرون نقص القوى العقلية أو الجنون سبباً للانتحار ، ولا يعتبرون كذلك أن السحر يمكن أن يؤدى إلى الانتحار لأنهم يعتبرونه وسيلة لقتل آخر لا لقتل النفس ، فاذا انتحر رجل بأن علق عنقــه إلى شجرة قطعت الشجرة وأحرقت حتى لا تثير فى رجل آخر الرغبة فى إنهاء حياته .

والجيسو يقولون إن الرجل الذى لا أولاد له ، أو الذى لم يوفق فى زواجه برغم بنائه بأكثر من امرأة على التوالى دون أن تظل امرأة طويلا معه فان هذا الرجل يكون مثار سخرية زملائه وخلانه فى حلقات الشراب ، ولا يسمع له رأى فى حلقات المناقشة، ومن ثم فإن هذا الرجل ينهى حياته بيده .

وفى الثمانى والستين حادثة انتحار، كان المنتحرون أربعين رجلا وثمانيا وعشرين امرأة ، وأنهى أربعة وستون من هذه الجملة الحياة بالشنق .

عند البونيور وسكان غرب أوغندا :

ويقيم البونيورو فى غرب أوغندة مساحلين بحيرة البرت ويصل تعدادهم إلى مائة وعشرة آلاف يسكنون منطقة تصل مساحتها إلى أربعة آلاف وسبعمائة ميل مربع ، وهم من عمال الأرض ويكسبون بعض المال من القطن والتبغ ويعيشون فى مستوطنات موزعة وسط الأراضى الزراعية الخصبة ، وتقيم كل أسرة فى أكواخ يحيط بها سياج من أشجار الموز ومن الحدائق ولا يبعد أى مسكنين عن بعضهما مسافة أبعد من مدى الصوت .

وللبونيورو ملك تقليدى من عشيرة تتولى الحكم بالوراثة ويعاونه حكام إقليميون يعينهم هو ، والبونيورو يبنون بأكثر من زوجة ويدفع الرجل أجر زوجته لأسرتها عند البناء بها ، والبونيورو كغيرهم من الناس يقتل بعضهم البعض وقد يقتلون أنفسهم ،

ولكن من الصعب الإجابة على التحديد عما إذا كان البونيورو المتزن يمكن أن يقتل بإصرار وتربص ، والبونيورو كالجيسو يعتقدون بأن الموت نتيجة المرض يجب أن يكون بسبب خارجى هو عادة أرواح الموتى ، على أنهم لاعتقادهم بأنه قد يكره الرجل رجلا آخر، ومن ثم فانه يعمل لموته وموت أبنائه ، والكراهية تؤدى عادة إلى وفيات كثيرة ، ولهذا فانهم ينسبون إلى السحر الكثير من حوادث الموت ، كما يعتقدون بأنه من الممكن إحداث الوفاة باضافة السم إلى الطعام أو بدفن بعض قرون الثيران فى باطن الأرض على طريق يمر به الشخص المراد قتله بالسحر ، ولهذا فانه عند ما يمرض شخص ما ويموت يعتبر الناس أعداءه أو من يكون قد اشتجر معه فى الأيام الأخيرة الفاعل لعملية القتل التى تمت بوسائل غير معروفة .

وقد تعرض البحث الاجتماعى فى أرض البونيورو للاثنتين والستين حادثة قتل التى وقعت فى العشرين سنة التى انتهت بعام ١٩٥٥ ، وفى تقسيمها من ناحية الجنس بالنسبة لطرفى كل جريمة وجد أن تسع عشرة حادثة قتل فيها رجال نساء ، وأن طرفى الجريمة كانوا رجالا فى اثنتى عشرة حادثة ، وأن حادثتين فقط قتلت فيهما امرأة امرأة أخرى ، وحادثة واحدة كذلك قتلت فيها امرأة طفلا ، أما الثمانى والعشرون حادثة الأخرى فقد أغفلت بسبب أن الجناية وقعت دون قصد .

والذى يستحق الذكر أن أكثر من نصف الحوادث التى كانت الضحايا فيها نساء ، أن القتيلات كن زوجات أو عشيقات سابقات للقتلة وأن الدافع كان هجر الزوجة أو العشيقة للرجل ، كما أن أكثر من نصف الحوادث التى قتل فيها رجال رجالا آخرين كانت هى أيضاً بدافع مماثل ، ولكن الرجل بدلا من أن يقتل المرأة المغواة قتل الرجل الذى إجتذبها إليه ، وكل هذا يوضح تماثل الدوافع بين مجتمع البونيورو وبين المجتمع الحديث فى الكثير من عوامل القتل العاطفى .

ومع أن البونيورو لا يؤمنون بفكرة الانتحار ويعارضونها إلا أنه ما من شك فى أن الانتحار طابع ثقافى من طبائع المجتمع ، ويعتبرون أن الرجل الذى يقتل نفسه أو المرأة التى تنهى حياتها إنما يفعل أو تفعل هذا لتجنب خطر أكبر .

والبونيـورو كالجيسو يقتلعون الشجرة التى تدلى من أغصانها من انتحر ويحرقونها حتى تصير رماداً ، والمنزل الذى ينتحر فيه فرد يحرق ويهجر مكانه ، فإن لم يتم هذا كان بقاء الشجرة أو المنزل سبباً فى أضرار كثيرة تلحق بالأحياء .

ونسبة الانتحار عند البونيورو

كبيرة إلى حد أنه إذا كان عدد حوادث القتل قد وصل إلى اثنتين وستين حادثة فى عشرين سنة ، فإن حوادث الانتحار وصلت إلى ١٢٤ فى عشر سنوات ، وكانت وسيلة الانتحار فى ٩٠٪ من هذه الحوادث الشنق ، وامرأة واحدة أحرقت نفسها فأحرقت كوخها أيضاً ، وانتحر رجل بالسم وانتحر أربعة رجال بطعنات المدى أو الحراب . ومع تباين أسباب ودوافع الانتحار فان الأغلبية كانت بسبب المرض ، أو بسبب كبر السن والفقر ، كما انتحر البعض بسبب العار الذى سببته زوجاتهن أو بسبب العلاقات مع الزوجات .

ويعتبر الانتحار بسبب الفقر وكبر السن طابعاً جديداً فى المجتمع ، فان البونيورو لم يعرفوا قبلا ، ترك كبار السن أو المرضى دون رعاية ، فقد اعتنى المجتمع منذ بعيد بالرعية الاجتماعية لكبار السن والمرضى .

عند الجوليو لشرق نيانزا فى أرض كينيا :

الليو (والمفرد « جاليو » والجمع « جوليو ») يمتازون بأنهم الشعب الوحيد فى كينيا الذى يتكلم لغة من لغات النيلوتيين ، وعلى مدى قرون وفى اتساع تدريجى بالحرب أو بالتسلل السلمى ، هاجر الناس عبر النيل فى أوغندة إلى كينيا ، وتعنى كلمة « ليو » المستنقع ولهذا فإن كلمة « جوليو » تعنى شعب المستنقع .

ويحتشد الليو فى وسط نيانزا حيث يعيش نحو النصف مليون ، وإن كانت هناك شعوب فى شمال وجنوب نيانزا ، وينقسم الليو إلى اثنى عشر قسما لكل قسم زعيمه أو رئيسه ، وكل قسم هو فى حد ذاته يعتبر مجتمعاً قائماً بنفسه ، ولا يزال الليو برغم اعتناقهم المسيحية بالتبشير يتبعون النظم التقليدية فى العبادات والاحتفالات والأعياد ، والنظام الأسرى قوى لم يغير منه ضغط الحضارة الغربية .

ودور المرأة فى مجتمع الليو دور تابع ، وليس لها أى نشاط فى الاحتفالات الرئيسية ولا فى التقاليد الدينية ، كما أنه ليس لها سلطة سياسية ، ولا تكون النساء طبقة من طبقات السن كما فى المجتمعات الأخرى وتظل المرأة ملكاً لأبيها وعشيرته وعند الزواج ملكاً لزوجها وعشيرته ، وتعدد الزوجات طابع الحياة عند الليو ، ولكن مع هذا فان عدداً كبيراً من الرجال لم يبنوا بأكثر من زوجة واحدة ، ولم يكن الليو يتجولون بعيداً عن مناطق قبائلهم ، ولكن فى السنوات الأخيرة عرفوا الطريق إلى نيروبى ، بل إلى ما وراءها للعمل وكسب العيش .وقد أثبتت الإحصائيات الأخيرة أن نصف الذكور فى نيروبى وأن

أربعين فى المائة من النساء البالغات قد تركن مناطق القبائل إلى نيروبى وغيرها .

القتل عند الليو :

ويعتبر الليو العنف فقداناً لسيطرة غير ضرورى ، وهم يعتبرون أن الغاية لا تبرر الوساطة إذا تطلبت الوساطة العنف ما لم تكن كل الوسائل الأخرى قد جربت وانتهت بالفشل .

والعنف الذى ينشأ مباشرة إثر الشجار أو السكر ، أو الخيانة أو الإجهاد العقلى ، أو الجنسى ، أو الخلافات الأسرية والذى ينتهى بالقتل لا يعتبر كالجريمة التى تتم عن تدبير وقصد وإصرار ، ويرى الليو أن الحوادث الناشئة عن مثل هذه الدوافع المرغمة لا تستحق العقاب .

ومن الطريف فى تاريخ جماعات الليو أن شاباً قتل كهلا من قبيلة « سيمى » ثم فر إلى قبيلة « أوجينيا » وقامت الحرب بين القبيلتين لسنوات طوال ، ثم اجتمع كبار السن فى القبيلتين للاتفاق ووضع حد لهذه الحرب الضروس ، وكان الاتفاق غريباً فى بابه ، فإن القتيل لم يكن له ابن ليمنح امرأة من قبيلة القاتل كدية لأبيه ، وليس فى قبيلة القاتل فتاة تصلح زوجة ، وإذن فان القاتل يتزوج ابنة القتيل على أن تكون لها الصدارة وتكون هى بمثابة الرجل فى الأسرة ، وتعامل معاملة الرجال فى عشيرتها .

والرجل الذى يجد جثة قتيل فى طريقه يقف ليبكيه كأعز أهله ، فاذا كان القتيل من عشيرة يمكن أن يتزوج منها من وجد جثته منح زوجة له على أساس أن روح القتيل قد ربطت بينه وبين عشيرته ، فاذا كان الذى وجد الجثة امرأة تزوجها أحد أفراد عشيرة القتيل .

ويعتبر قتلى الحوادث كجزاء تنزله أرواح الأسلاف بالعشيرة، ولهذا يجب ترضيـــة الأرواح بتقـــديم الأضحيات والهبات .

وقد بلغ عدد حوادث القتل بين سنة ١٩٤٩ وسنة ١٩٥٤ ، ٤٦ حالة أغلبها كانت نتيجة للسكر ، وبالرغم من أن الجعة التى يحتسيها الليو ليست كثيرة الكحول إلا أنه بسبب مداومتهم للشراب فى الاحتفالات التقليدية من الصباح الباكر إلى ساعة متأخرة من الليل وأحياناً إلى الصباح التالى ، فإن كمية الكحول تكون كبيرة مؤثرة .

الانتحار عند الليو :

ومن سوء الحظ بالنسبة لمن تعنيهم الدراسات الاجتماعية ، فإن الليو لا يبلغون عن حوادث الانتحار إلا فيما ندر ، بالرغم من أنه من الضرورى تبليغ السلطات بحوادث الانتحـــار أسوة بحوادث القتل ، ولكن الفكرة هى أنهم يعتقدون بأن الانتحار يأتى بالشر

للعشيرة كلها ، ولهذا فإنهم يتكتمون حوادث الانتحار وتقوم أسرة المنتحر أو المنتحرة بتقديم الأضاحى وأداء العبادات للتطهر من الجرم ، وحوادث قليلة بلغتها للسلطات ، على أساس أنها كانت فى طابع يجعلها أقرب إلى القتل منها إلى الانتحار .

وقد أمكن بالتجوال بين قبائل الليو فى وسط نيانزا تسجيل ما تعيه الذاكرة لعدد ٢٢٠ حادث انتحار كان منها تسعون حالة لذكور ، ومائة وثلاثون لنساء ، وتتباين الأسباب فيها ولكنها فى العادة تكون بسبب شعور عاطفى بالعار ، أو فقد الشرف أو هبوط المستوى .. كفقد الثروة ، بل أحياناً قد ينتحر الشاب لأن أخاه الأقل مرتبة منه فى الأسرة قد تزوج قبله . ومسألة الأقل مرتبة فى الأسرة تتطلب إيضاحاً ، فان ابن الزوجة الأولى له المرتبة الأولى حتى لو كان ابن الثانية أكبر سناً ، فليس الترتيب فى الأسرة تبعاً للسن ، بل تبعاً لمرتبة الأم .

وتعرف نساء الليو الانتحار بسبب الخلافات الأسرية والخوف من عقاب الزوج أو الأب ، كما تعرفه بسبب الغيرة بين الزوجات أو بسبب الحزن الشديد والمرض كذلك .

الخاتمة :

إننا نستطيع أن نخرج من هذه الدراسة التفصيلية لبعض الشعوب الإفريقية بأن مسألة القتل للسرقة ، أو بسبب استخدام السحر للإيذاء مسألة عامة معروفة فى كل المجتمعات الإفريقية .

كما نعرف أن القتل بسبب المنازعات على الأرض أكثر حدوثاً فى شرق إفريقية بسبب قلة الأراضى الخصبة ، ولا يعرفها التيف سكان غرب إفريقية لتوافر الأراضى الزراعية عندهم ويجب ملاحظة أن قلة الأراضى كانت من الأسباب المباشرة التى أدت إلى ثورة الماو ماو ، والشىء الذى يجب أن نلاحظه أيضاً هو أن قتل المرأة لزوجها من النادر أن يحدث فى أى مجتمع إفريقى إلا عند الجيسو ، وإن كان قتل الأم لأولادها الصغار معروفاً فى كل المجتمعات وبخاصة عندما تتحطم الأسرة ، وذلك فى غمرة المؤثرات العاطفية العميقة .

ولا تعرف المجتمعات عدا البونيورو قتل الحماة « أم الزوجة » وذلك للاحترام التقليدى الذى للحماة فى كل المجتمعات الإفريقية .

والشىء الذى يثير الانتباه فى هذه الدراسة ، هى النسبة بين الرجال والنساء فى حوادث الانتحار ، فهى عند الليو ٤١٪ للذكور و ٥٩٪ للنساء ، وعند البونيورو ٦١٪ و ٣٩٪ ، وعند الجيسو ٥٩٪ و ٤١٪ وعند السوجا ٦٩٪ و ٣١٪ على التوالى المذكور ،

أى أنه فيما عدا الليو فان نسبة الانتحار بين الرجال أكبر فى كل المجتمعات الإفريقية .

أما بالنسبة لوسيلة الانتحار فان الوسيلة الأكثر استخداماً فى المجتمعات الإفريقية هى الشنق ، على أنها هى الوسيلة التالية للأسلحة النارية فى الولايات المتحدة ، وفى إنجلترا لا تسبقها إلا استخدام الغاز ، أما فى ألمانيا فلا يزال الشنق هو الوسيلة المثالية لقتل النفس .

* * *

والآن قد تكون هذه الدراسة دراسة غير محببة إلى النفس ، ونحن عادة لا نجد دراسة مماثلة فى المجتمعات المتحضرة إلا فى بعض البيانات التى تشملها الإحصائيات الرسمية السنوية ، وتجىء فى جداول بين عدد كبير من الجداول البيانية التى تعرض لمختلف اتجاهات المجتمع ، ومن ثم فإنها تضيع فى خضم هذه الكثرة من الإحصائيات.

والدراسات التى تعنى بالقتل أو بالانتحار والحديث عن هذا أو ذاك فى المجتمعات المتحضرة ، هو فى الواقع وقف على دراسات علم الإجرام ، وقد يشار إليها فى دراسة عوامل ومؤثرات المشكلات الاجتماعية والاقتصادية ، ولهذا كانت هذه الدراسة دراسة فذة بالنسبة للمجتمعات التى كانت موضع البحث .

ولكن عندى كما قلت فى مقدمة هذا العرض ، أن دراسة « القتل » . و« الانتحار » تقدم وسيلة طيبة لدراسة الاضطراب الاجتماعى فى المجتمع . ولعلنا قد خرجنا من دراستنا هذه بأن المجتمعات الإفريقية أقل اضطراباً من كثير من المجتمعات المتحضرة والحمد لله .

« عارضة أزياء إفريقية »

4th Year

Issue No. 38 January 1961

Nahdatu IFRIQUIAH

96 pages

PRICE : P.T. 3.

IN THIS ISSUE

- U.N. Dilemma.
- Black Crescent in Union of South Africa.
- The Coloured Races in Richard White's Literary Works.
- Book Analysis.
- Book of the Month.

السنة الرابعة — العدد ٣٩ — فبراير ١٩٦١

نهضة افريقية

في هذا العدد

- السمسار الغريب
- الكاميرون
- الأقليات في نيجيريا
- نقد الكتب
- كتاب الشهر

٩٦ صفحة

الثمن ٣ قروش

« في الغابة »

نهضة إفريقية

تهدف هذه المجلة إلى :

١ – تنمية الوعى القومى الافريقى .

٢ – التعارف بين الافريقيين فى مختلف بيئاتهم وحياتهم الاقليمية .

٣ – نشر البحوث الخاصة والعامة التى تهم كل إفريقى فى مجاله الحيوى .

وللمشتركين الحق فى :

١ – الحصول على المجلة بانتظام وكذلك المطبوعات التى تصدرها المجلة بين وقت وآخر بثمن مخفض .

٢ – الافادة من خدمة لجنة الاتصال بالمجلة بقدر الامكان .

● ترحب « مجلة نهضة افريقية » بالمقترحات ، والآراء ، والنقد ، وتعمل على تحقيقها .

● ليس من الضرورى أن تكون المقالات التى تنشر فى هذه المجلة معبرة عن رأيها .

ترسل المراسلات باسم :

السيد رئيس تحرير مجلة نهضة إفريقية
٥ شارع أحمد حشمت – الزمالك بالقاهرة
تليفون المجلة ٨٠٧٦٥٨
الاقليم المصرى
بالجمهورية العربية المتحدة

ترسل قيمة الاشتراك فى المجلة إلى :

دار أخبار اليوم للتوزيع
٧ شارع الصحافة بالقاهرة

الاشتراك سنوياً :

لمصر والسودان ٣٠ قرشاً

ثمن العدد ٣ قروش

مطابع كوستا تسوماس وشركاه

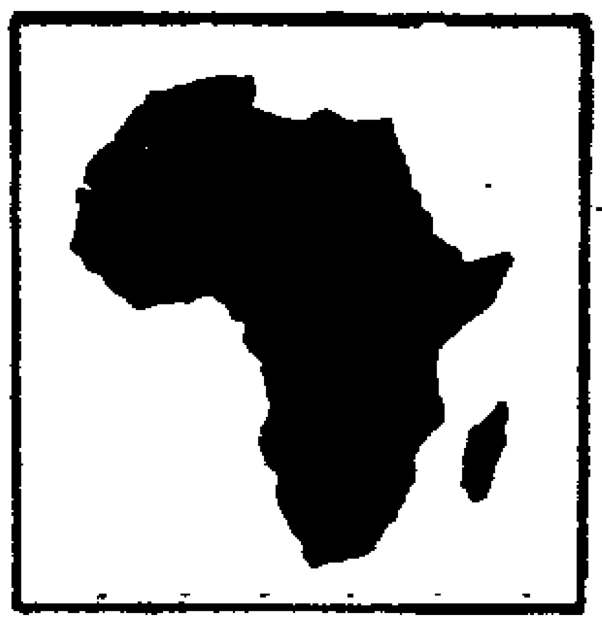

العدد ٣٩ فبراير ١٩٦١

نهضة إفريقية
مجلة شهرية للثقافة الأفريقية

رئيس التحرير
محمد عبد العزيز إسحق

فكرة ..

— ١ —

أظهرت ثورة « هنريك جالفاو » التى تمت على ظهر الباخرة « سانتا ماريا » أنها موجهة ضد فساد الحكم فى الداخل والخارج ، وليس خارج هذه البلاد سوى مستعمرات « انجولا ، موزمبيق ، غينيا البرتغالية ، سان جوا ، كانبدا » فى إفريقية ، فأى دليل بعد هذا على أنه قد آن الآوان لأن تسلط الأنوار على ما يجرى داخل هذه البلاد الإفريقية ، وأنه قد آن الأوان كذلك لأن تطرح مشكلة مستعمرات البرتغال فى إفريقية على مؤتمر من الدول الإفريقية .

— ٢ —

ما زال الحال متحرجاً على الحدود الأثيوبية والصومالية بعد حادث الاصطدام الذى ذهب ضحيته ألف صومالى ، ولعل ما يثير حقاً فى هذا الحادث أن الذين قادوا المعركة ضد الصوماليين كانوا من الأمريكيين ، وكذلك الأسلحة !

— ٣ —

بدأ الرأى العام العالمى يلتف حول « لومومبا » فى سجنه ، ويسخر من العملاء الذين يتبادلونه لمصلحة الاستعمار ، ولكن الغد كفيل بملء ذراعيه بكل الكونغو بعد أن انحسرت من حوله كل الدعايات المغرضة ، وأصبح علما مشعاً بالحرية ، والنور ..

« عبده بدوى »

فهرس العـدد

صفحة

السمسار الغريب :
للأستاذ محمد عبد العزيز اسحق ٣

الكاميرون :
للأستاذ محمد اسماعيل محمد ٨

الأقليات فى نيجيريا :
للأستاذ محمد جلال عباس ١٣

مؤتمر الدار البيضاء ٢١

نقد الكتب :
للأستاذ عبده بدوى ٢٩

القائد الافريقى هانيبال :
للأستاذ مصطفى الشهابى ٣٧

الحالة الصحية فى الكونغو : ٤٣

جولة حول إفريقية ٤٥

من القصص السودانى :
للأستاذ عباس خضر ٥٤

العلاقات التجارية فى إفريقية
للأستاذ مختار السويفى ٥٨

مغامرات فى إفريقية
بقلم جون بولارد ٦٣

شخصية العدد : ٦٩

كلمات وصور : ٧٣

كتب إفريقية : ٨٢

من القصص الإفريقى : ٨٤

كتاب الشهر : ٨٩

السمسار الغريب

بقلم : الأستاذ محمد عبد العزيز اسحق

كان « الوطن القومى اليهودى » يطوف كالحلم الغامض فى مخيلة « وايزمان » وأعوانه وهو يحاول إقناع الساسة الإنجليز الانتهازيين بتحقيقه ، فى أوائل هذا القرن .

وكان المشتغلون بالشئون الدولية فى العالم أجمع لا يرون (منفذ إبرة) لتحقيق ذلك الحلم المبهم المشوه ، فإن قيام « دولة » فى أى زمان يستلزم أولا وجود « أرض » ، ويستلزم ثانياً وجود « شعب » يعيش عليها وينعم بخيراتها ويذود عن حماها . . . شعب له كيان ، ولغة ، واقتصاد ، وروابط بجيرانه من الأمم والشعوب .

ولم يكن لأصحاب دعوة «الوطن القومى » أو « الصهيونيين » أن يزعموا وجود خاصية واحدة من خصائص إيجاد عضو جديد فى الأسرة الدولية . فإن الدين اليهودى ، كان يعد الرابط الوحيد بين يهود العالم الذين تفرقوا — منذ أن حلت عليهم اللعنة السماوية — فى أقطار الأرض واكتسبوا جنسياتها وإن كانوا قد ظلوا على الدوام (طابوراً خامساً) يبيع الوطن ولا يعبد — فى الواقع — إلا الدرهم والدينار

ولكن المتهوسين من أصحاب الأحلام لا يدركهم اليأس والقنوط ، فقد ظل الصهاينة — وعلى رأسهم وايزمان — يتحينون الفرص ، ويبذلون الأموال ، لكى تعينهم (دولة قوية) على اغتصاب بقعة من الأرض يقيمون عليها (وطناً قومياً) . وكانت الأحلام تؤكد أن تلك البقعة لن تكون إلا (الأرض الموعودة) أو (أرض فلسطين) . . .

وعلى الرغم من أن الصهيونيين قد ركزوا جهودهم على بريطانيا حيث يوجـد الساسة المؤمنـون بالتوراة وبالذهب على حد سواء ، فإن رجال الحكم البريطانيين لم يبلغ بهم الانحراف — فى أول الأمر — إلى تصور إمكان اقتلاع عرب فلسطين من ديارهم وإحلال اليهود فى مكانهم . ولهذا فقد كانوا يقبضون الذهب ويرتلون التوراة ، ثم يحاولون إقناع اليهود باختيار مكان آخر يقيمون فيه وطنهم القومى المبتكر

الذى يتنافى مع أبسط اتجاهات المجتمعات الحديثة ، والذى يرمى إلى جعل هذا الوطن (دولة أساسها العنصر ، وقوامها الدين) .

كان الإنجليز يعلمون أن البشرية قضت آلاف السنين ، وقدمت ملايين الضحايا ، وأراقت بحور الدماء لكى ترتقى فوق مستوى التعصب الدينى والعنصرى ، والقضاء على خرافة « الجنس المتفوق » أو « شعب الله المختار » بتعبير التوراة . . .

ولهذا فقد عرض الإنجليز على زعماء الصهيونية أن يقطعوهم أرضاً ضمن اتحاد جنوب إفريقية ، ولكن هؤلاء الزعماء ، وجدوا أن هذا العرض سيبعدهم جداً عن « بيت المقدس » ولا يفتح احتمالا للتوسع والزحف إلى أن يصلوا إلى النيل ، ومنه — حسب أساطيرهم — إلى الفرات ، فرفضوا العرض ورفضوا بعد ذلك أن يقطعهم الإنجليز جزءاً من كينيا ، واستمروا فى الطلب والمساومة إلى أن حدث التوافق الاستعمارى اللعين بين مطلب الصهيونيـــة ، ومطلب الاستعمار البريطانى . . .

إن اللورد « بلفور » الذى أصدر تصريحه المشئوم بالمعاونة على إنشاء « وطن قومى » لليهود فى فلسطين ، لم يكن ينظر إلى القروض التى قدمها « روتشيلد » لبريطانيا أثناء الحرب العالمية الأولى وحسب ، ولم يكن يهدف إلى تآلف الرأسماليين اليهود المتسللين كالأخطبوط إلى اقتصاديات أوروبا وأمريكا فقط ، وإنما كان ينظر إلى ما تجمع فى أفق الشرق الأوسط من « نذر » القومية العربية .

لقد ثار العرب حينئذ على الترك ، وسوف يثورون فى المستقبل على كل طاغية مستعمر ، وليس أشد إضعافاً لروح الثورة من التقسيم والشتات ، وإيقاع الفرقة بين الصفوف وتمزيق البلد الواحد إلى عدة بلاد .

وزاد الإنجليز على هذا كله ، وضع جرثومة للفساد ، فى ثنايا ذلك الجسم الممزق الأوصال .

وهكذا ولدت « إسرائيل » على يد الاستعمار ، وفى عروقها « العنصرية » و « التعصب الدينى » ، ونمت فى الوقت نفسه القومية العربية نمواً لم يكن يخطر على بال ، ولم تمض أعوام قلائل ، بعد محنة فلسطين ، حتى كانت هنالك جيوش عربية تملك النفاثات وتستند إلى البوارج والغواصات ، ووقف الاستعمار ، ومعه وليدتـــه الشوهاء « إسرائيل » فى حيرة من أمرهم . . . ماذا يفعلون أمام هذا المارد الجبار الذى أحاط هذه الدولة الممقوتة وشدد عليها نكير الحصار .

ولقد زاد من خشية الاستعمار وحيرته أمام المستقبل اندلاع « الروح الوطنية » فى إفريقية من أقصاها إلى أدناها ، وزاد الأمر « سوءاً » ، أن الوطنية الإفريقية وجدت لها وقوداً فى

القومية العربية ، وجاءت « المؤتمرات الإفريقية » من شعبية وحكومية ، فوثقت — فى العامين الماضيين — وقربت بين شعوب القارة وأزالت الشكوك والأوهام ، وقربت يوم التضامن والاتحاد . . . ضد الاستعمار .

هنا ، التقت (مصالح) بريطانيا ، وفرنسا ، على وجه الخصوص ، مع مصالح الدولة المنبوذة .

لقــد كانت مهنة (اليهودى) الرئيسية ، على مر العصور هى « السمسرة » فى ميــادين التجارة والاقتصاد ، فلما أن أصبح للهود « دولة » لم يكن عجيباً أن تتخذ المهنة نفسها ، التى لا تنطوى — غالباً — على مغامرة مثيرة ، وإن كانت مضمونة الأرباح . . .

وعند ما أخذ الاستعمار يتراجع أمام القوى الوطنية فى إفريقية ، وجد فى (إسرائيل) سمساره البارع المضمون ولكى تمهد لهذا العميل نفوس القادة والشعوب أخذت تبث فى الأذهان أن تلك الدولة « الصغيرة » هى خير نبراس للشعوب النامية ، وأنها — أى إسرائيل — لا يخشى من جانبها تحكم أو سيطرة . وكانت بريطانيا — أو فرنسا — قبل أن تتراجع من بلد إفريقى تفتح أبوابه لإسرائيل وتأذن لها بإقامة القنصليات والبعثات الاقتصادية ، وتوعز إلى الحكومــات الإفريقيــة (بالتعاون) مع رأس المال الصهيونى ، والذى يزور اليوم غانة أو ليبريا أو نيجيريا أو سيراليون يجد « طبعة » متشابهة من منظمة اقتصادية واحدة تسمى « شركة التعمير » ، ويجد العقود المجزية بملايين الجنيهات معقودة بين تلك الأقطار الإفريقية وبين إسرائيل ، ويجد مراكز الدعاية الإسرائيلية قائمة على قدم وساق ، ويجد (المال) اليهودى منساباً إلى مناطق السلطة والنفوذ ، ويرى (الحصار العربى) لإسرائيل مهدداً بالشرخ والانهيار ، بل يرى النذر التى تومىء إلى أن إسرائيل التى نحاصرها هنا فى الشرق الأوسط ، هى فى طريقها لكى تحاصرنا من وراء خطوطنا فى القارة الإفريقية . .

وقد بذل ممثلو الشعوب الإفريقية ، وممثلو الحكومات المستقلة ، غاية جهدهم — منذ مؤتمر أكرا عام ١٩٥٨ — لكى يكشفوا دور « السمسار الصهيونى » فى إفريقية ، وما زلنا نذكر صيحة ممثل الجمهورية العربية المتحدة فى أديس أبابا وهو يقول لإخوانه فى المؤتمر :

« إن إسرائيل تعيش على الاستجداء ، وإن أمريكا تمدها بما يقــدر بمليون دولار فى كل يوم لكى تسند اقتصادها المنهار ، فمن أين لها أن تساعدكم . . !

إنها لا تساعدكم وإنما تأتيكم بأموال المستعمر وبشروطه وما يستتبع هذه الشروط من قيود وأغلال » . .

ولئن كانت المؤتمرات الإفريقية السابقة قد استطاعت أن تتخذ من

القرارات ما (يدين) إسرائيل وخاصة فى موقفها من قضية اللاجئين ، إلا أن لطمة « مؤتمر القمة » فى كازابلانكا قد فاقت التصورات والحدود .

لقد طارت إلى الأبد خرافة « الدول الصغيرة التقدمية » وأصبحت إسرائيل تسمى علناً ورسمياً « رأس حربة الاستعمار » ووصمت إسرائيل — دولياً — بأنها « وباء استعمارى » لا يقتضى الحذر فقط ، وإنما يقتضى أن تتكاتف الشعوب لعزله والتخلص من شروره ، وأدركت الدولة التى سبق لها أن فتحت أحضانها لإسرائيل أنها احتضنت (نجساً) يجب طرحه ، والابتعاد عنه . .

ونحن نذهب الآن إلى اجتماع « دار السلام » فى تنجانيقا لكى نقول لممثلى الشعوب التى تقف على عتبة الاستقلال هناك ، إن الوباء على الأبواب ، وإن « عميل الاستعمار » الذى يبتسم لهم ويقدم المال الحرام فى « نيروبى » و « أكرا » و « منروفيا » و « باماكو » إنما هو نفسه الذى يقف فى نيويورك ، وفى هيئة الأمم المتحدة لكى يناصر كل مشروع استعمارى ، ويناوئ ويرفض كل مشروع يعود بالحرية على شعب من الشعوب . .

ولسوف نحيل هؤلاء الإخوة إلى « سجل العار » الذى يضم مواقف إسرائيل فى الأمم المتحدة إلى جانب دول الاستعمار ، وإلى عرقلتها لجهود « الكتلة الإفريقية الآسيوية » و « المجموعة الإفريقية » على حد سواء .

لقد عارضت إسرائيل — منذ سنتين — فى إلزام الدول الاستعمارية بتقديم بيانات إلى الأمم المتحدة عن إدارة تلك الدول للمستعمرات .

وعارضت مشروع ليبيريا فى تحكيم الأمم المتحدة بين الدول الاستعمارية والأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتى ،

وامتنعت عن تأييد الكتلة الإفريقية الآسيوية فى طلب إجراء انتخابات فى الكاميرون قبل إعلان « الاستقلال » .

وأيدت اتحاد جنوب إفريقية فى محاولته ضم إقليم جنوب غرب إفريقية ، دون إجراء انتخاب أو استفتاء .

وأعطت صوتها ضد تكليف هولندا وأندونيسيا بمواصلة المفاوضات للوصول إلى حل يتفق وميثاق الأمم المتحدة . . !

وفى قضية الجزائر صوتت إسرائيل ضد جميع المشروعات التى قدمها المجموعة الإفريقية الآسيوية ، وخاصة ما يتضمن أن حالة الحرب فى الجزائر تهدد الأمن والسلام الدولى (. . . !)

ورفضت مشروع إلزام الطرفين (فرنسا والجزائر) بقبول حق تقرير المصير .

واعترضت على تكليف الطرفين الدخول فى محادثات لتقرير الشروط اللازمة لتقرير المصير .

وفى مسألة التجارب الذرية الفرنسية فى قلب إفريقية صوتت إسرائيل فى اللجنة الأولى – خلال الدورة الرابعة عشرة – ضد القرار الذى تقدمت به المجموعة الإفريقية الآسيوية ، والذى يدعو فرنسا إلى التوقف عن القيام بتجاربها الذرية ،وأكدت موقفها ذاك بالتصويت فى الجمعية العامة ضد دعوة فرنسا للامتناع عن تلك التجارب .

بل إن « فجور » إسرائيل السياسى قد بلغ بها أن تعارض فى سماع بعض « مقدمى العرائض » المجاهدين إلى الأمم المتحدة كما حدث فى حالتى الزعيمين « إيمارى بوندى » و « شيرمان بول »

هذا هو سجل العار « الذى سيقرؤه إخواننا فى الكفاح وسيعلمون منه بعض الدوافع التى كانت وراء قرارات « كازابلانكا » ، وهى القرارات التى نزعت النقاب – فى عنف – عن وجه السمسار الغريب .

الكاميرون

بقلم : الأستاذ محمد اسماعيل محمد

يختلف الموقف فى الكامرون اختلافاً بيناً عن الموقف فى أى من الدول الإفريقية التى نالت استقلالها خلال عام ١٩٦٠ . فالكامرون ما زال يواجه فى الوقت الحالى الكثير من المشكلات المعقدة التى زرعها الاستعمار زرعاً فوق الأرض الإفريقية لكى يضمن بقاء سيطرته على بقعة يصفها القائمون على وضع الخطط فى حلف الأطلنطى بأنها موقع استراتيجى غاية فى الأهمية ولا غنى عنه ، كقاعدة حربية فى حالة وقوع حرب جديدة ؛ فضلا عن أن الكامرون يقع على مفترق الطرق بين إفريقية الغربية وإفريقية الوسطى الاستوائية وما زال يزخر بثروة نباتية وخشبية ، وحيوانية ، ومعدنية ضخمة . وقد دلت البحوث الأخيرة على وجود بترول ، وبوكسيت : مادة يستخرج منها الألمنيوم والشب ، ويورانيوم أيضاً فى أرضه .

ومن ثم كان تشبث الاستعمار ، البريطانى والفرنسى تسانده دول حلف الأطلنطى بالبقاء فى هذا الوطن الإفريقى ، بقاء صريحاً فى صورة قوات أجنبية ، أو قواعد عسكرية ، أو وجوداً مقنعاً فى صورة محالفات واتفاقات ، ومعاهدات استغلالية . ومن ثم أيضاً ، كان التمزيق للوطن الواحد إلى عدة أجزاء بحدود مصطنعة والتفريق بين أبنائه ، حتى يسهل على الاستعمار السيطرة والسيادة .

ويعانى الكامرون منذ حوالى مائة وعشرين عاماً من التدخل الأجنبى ، ومن الاستعمار بشتى أشكاله سواء أكان احتلالاً عسكرياً ، أو انتداباً أو وصاية . فقد عرف البرتغاليون طريقه عام ١٨٤٢ ، ثم فرضت عليه ألمانيا القيصرية الحماية عام ١٨٤٤ . وما كادت الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها ، وتعلن ألمانيا استسلامها ، حتى انقضت فرنسا وبريطانيا على الكامرون وقامتا بتقسيمه فيما بينهما . وفى عام ١٩١٩ أقرت معاهدة فرساى شطر الكامرون إلى جزئين : شرقى ويمتد شمالا على طول الحدود الغربية لجمهورية إفريقية الوسطى حتى بحيرة تشاد ، وهو الجزء الأكبر ومساحته ١٦٧,٠٠٠ ميل مربع ويسكنه ٣,١٨٧,٠٠٠ نسمة وعاصمته يا أوندى ؛ وباتت فرنسا — بتخويل من عصبة الأمم — الدولة صاحبة الانتداب على هذا الجزء ، ثم أصبحت — بعد الحرب العالمية الثانية — تديره

باسم وصاية الأمم المتحدة . أما الجزء الغربى الذى يتاخم نيجيرية فتبلغ مساحته ٣٤,٠٠٠ ميل مربع ويسكنه ١,٥٩١,٠٠٠ نسمة منهم ٧٥٥,٠٠٠ فى الجزء الشمالى و ٨٣٦,٠٠٠ فى الجزء الجنوبى وعاصمته بويه ؛ وكانت بريطانيا هى الدولة صاحبة الانتداب عليه بجزئيه الشمالى والجنوبى وما زالت تديره باسم وصاية الأمم المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى عامنا هذا (١٩٦٠) .

هذا . ويذكر المؤرخ الفرنسى مسيو فوسار فى كتابه « دراسة الكامرون » أن اختيار خط مايوكراوا كحدود بين الكامرون الغربى ، والكامرون الشرقى لم تراع فيه على الإطلاق وحدة البلاد التاريخية ، ولا تكوينها الطبيعى ، أو البشرى مما أدى إلى خلق مشكلة إنسانية لآلاف العائلات المشتتة فضلا عن المشكلات الاقتصادية والجغرافية والسياسية التى أحاقت بهذا الوطن الإفريقى منذ ابتلى بالاستعمار حتى اليوم .

ولم تكتف بريطانيا بهذا التقسيم الذى تم بينها وبين فرنسا ، بل تعللت بأسباب إدارية ، فشطرت الكامرون الغربى الذى تتولى الانتداب عليه إلى قسمين : شمالى وجنوبى . وألحقت القسم الشمالى إدارياً بشمال نيجيرية عام ١٩٢٣ مخالفة بذلك نصوص معاهدة فرساى المعقودة عام ١٩١٩ وأخذت تدير شئون القسمين الشمالى والجنوبى للكامرون الغربى من نيجيرية قبل استقلالها .

ولكن شعب الكامرون لم يستسلم لذلك التفتيت الذى أرغم عليه ، وافتعله الاستعمار وفقاً لمصالحه هو دون أدنى تقدير لمصالح البلاد أو أهلها فراح شعب الكامرون ينادى بالاستقلال ويطالب بوحدة بلاده ، وبجلاء المستعمر عن وطنه . وقام شعب الكامرون بمظاهرات صاخبة ، وثورات متتالية مطالباً بتحقيق أمانيه الوطنية . ولجأ الاستعمار إلى الحديد والنار فقتل الآلاف ، وامتلأت السجون والمعتقلات بالأحرار من أبناء الكامرون ولم يفت هذا العسف فى عضد شعب الكامرون ، ولم يزده إلا إصراراً على الكفاح واستمساكاً بالمطالبة بحقوقه المشروعة فى الحرية . والوحدة ، والاستقلال .

وأمام هذا الإصرار من جانب شعب الكامرون على بلوغ أهدافه اضطر الاستعمار اضطراراً إلى التستر وراء صيغ حرفية وأشكال صورية يعرفها أحرار العالم فى كل مكان فمنحت فرنسا الكامرون الشرقى استقلالا ذاتياً فى ١٦ من أغسطس عام ١٩٥٨ . وفى أول يناير ١٩٦٠ منحته استقلالا صورياً وضمته إلى الوحدة الفرنسيه دون أن تمهد لذلك الاستقلال بإجراء انتخابات يختار فيها الشعب من

سيتولون السلطة نيابة عنه أو يؤلف مجالس نيابية، فقامت فيه ثورة عارمة تحولت إلى حرب أهلية ، دعت سكرتير عام الأمم المتحدة مسيو داج همرشولد إلى التصريح بقوله : « إن من المؤسف حقاً أن الكامرون ، وهو أول دول الوصاية الدولية التي تحصل على استقلالها ، يحتفل بهذا الاستقلال في ظل إراقة الدماء » . ثم عبر همرشولد عن أمله في التوصل إلى حل سريع للخلاف نظراً لما للأزمة التي تكتنف الكامرون الشرقي من صدى عميق في العالم بأسره .

أما بريطانيا فقد أجرت في الجزء الشمالي من الكامرون الغربي استفتاء في ٧ من نوفمبر عام ١٩٥٩ لمعرفة رغبة الشعب في الانضمام إلى نيجيرية المستقلة . ففضل الشعب البقاء تحت وصاية الأمم المتحدة إلى أن تتاح له الفرصة ليعبر عن رأيه في شهر فبراير من عام ١٩٦١ في الاستفتاء الجديد الذي سيجرى في الكامرون الغربي بقسميه الشمالي والجنوبي طبقاً لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة فيما إذا كان يرغب في البقاء تحت وصاية الأمم المتحدة لفترة أخرى ، أو يؤثر الاستقلال ، أو يفضل الاستقلال والانضمام إلى الكامرون الشرقي .

ولكن يبدو أن نتيجة الاستفتاء سوف تكتنفها الكثير من المصاعب . وقد أشار لهذه المصاعب ، بل وأعلنها قبل أن يجرى الاستفتاء كل من السيدين أحمد اهيدجو رئيس وزراء الكاميرون الشرقي ، والسيد فونشا رئيس وزراء الكامرون الغربي . فقد صرحا بأن كلمة «نعم» لصالح توحيد الكامرون الغربي مع الشرقي في الاستفتاء الذي أوصت الجمعية العامة للأمم المتحدة بإجرائه في الكاميرون الغربي بجزئيه الشمالي والجنوبي ، لن تعني توحيداً على الفور ، ذلك لأنه ينبغي ، في رأي السيد فونشا ، أن يحصل الكامرون الغربي على معونة من المملكة المتحدة (بريطانيا) لمدة خمس سنوات كي ينتعش اقتصادياً ، ويستطيع في هذه الحالة أن يحقق التوازن مع الجزء الشرقي من الكامرون الموحد . ويذكر السيد أحمد اهيدجو رئيس وزراء الكامرون الشرقي أن بلاده ينبغي أن تظل مرتبطة بالاتحاد الفرنسي ، وأن تستمر في دائرة الفرنك الفرنسي حتى تستطيع أن توازن اقتصادياتها ! ! ؛

ومن ثم نرى أن فرنسا منحت في أول يناير ١٩٦٠ الكامرون الشرقي استقلالا لم تمهد له بإجراء الترتيبات الضرورية ليسلم الشعب مقاليد الحكم لمن يختارهم من أبنائه ؛ ثم ضمت فرنسا الكامرون الشرقي للاتحاد الفرنسي على غير رغبة أهله ، بدليل الحرب الأهلية القائمة فيه حتى الآن ، وهكذا أصبح لفرنسا الآن في الكامرون الشرقي سيطرة ونفوذاً كبيرين يمكنانها من إدارة المسائل حسب أهوائها .

وتحذو بريطانيا حذو فرنسا فتسعى بكل الوسائل إلى الإبقاء على سيطرتها على الكامرون الغربي ، ويبدو ذلك بوضوح من الترتيبات القائمة على قدم وساق في هذا الجزء من الكامرون في الوقت الحالي . فقبل حلول موعد الاستفتاء في شهر فبراير الحالي ، عمدت بريطانيا إلى نقل عدد كبير من قواتها من نيجيرية إلى الكامرون ، فضلا عن العدد الضخم من الموظفين

الذين عينتهم للإشراف على الاستفتاء من التابعين لها والذين تدفع لهم مرتبات سخية للغاية . وكل هذه الأمور ومثلها لا يمكن أن تكفل الحرية التامة الواجب توافرها للشعب حين ينبغى أن يدلى برأيه لتحديد مستقبله .

ويطالب شعب الكامرون الأمم المتحدة أن تتخذ الاحتياطات ، وأن تكفل الضمانات الضرورية حتى تأتى نتائج الاستفتاء الذى سيجرى يوم ١١ من فبراير عام ١٩٦١ منزهة عن الشبهات . ويلح فى أن يتم الاستفتاء تحت الإشراف المباشر للأمم المتحدة فى جو مناسب تماماً ، هادئ كل الهدوء ، وذلك للأهمية البالغة لما ستسفر عنه نتيجة الاستفتاء من تأثير مباشر على مستقبل شعب الكامرون .

الحالة الاقتصادية والاجتماعية :

الزراعة هى عمل السكان الأساسى فى الكامرون – وأهم المحاصيل الزراعية ، الكاكاو الذى تعتبر الكامرون خامس دول العالم التى تنتجه . ويعتمد على محصول الكاكاو حوالى ٥٠٠,٠٠٠ كامرونى إذ يمثل ٧٥٪ من دخلهم . والواقع أن ٥٠٪ من صادرات الكامرون كلها يعود عليها من الكاكاو . وهو بذلك يمثل ما يساوى ٣٣٪ من ميزانية الكامرون ومن المحاصيل النباتية الهامة أيضاً ، الموز ، والفول السودانى ، وفول الصويا ، والقطن ، والدخان ، والأرز ، والذرة ، والبن . وتنتج الكامرون من الموز حوالى ٨٥,٠٠٠ طن سنوياً .

وبالكامرون غابات تبلغ مساحتها حوالى ثلث مساحة الكامرون الكلية وهى غنية بالأخشاب ، والأبنوس ، والمطاط ، والنخيل وما يستخرج منه من زيوت . وتستغل هذه الغابات شركات أجنبية وأغلبها فرنسية ، أو احتكارات فرنسية ألمانية مثل شركة « الوكام » ويقدر ما تقطعه هذه الشركة من أخشاب الغابات – مع التحفظ – بمليارين من الأطنان فى كل عام . أما الزيوت مثل زيت الحبوب وزيت النخيل فتمثل حوالى ١٢٪ من صادرات الكامرون .

وبالكامرون أيضاً ، مزارع شاسعة تربى فيها الأغنام والخيول والأبقار والضأن والماعز والخنازير .

والكامرون غنية بمعادنها .فتوجد فيها مناجم ذهب ، وقصدير ، ورصاص ، ومنجنيز ، وتنجستن وتيتانيوم . وحديد . ونحاس ، وأورانيوم .

كما اكتشف أخيراً منجم للبوكسيت شمال يا أوندى . وتقدر كمية البوكسيت فى هذه المناجم بما لا يقل عن ألفى مليون طن . وتعد بذلك أكبر مناجم عرفت حتى الآن فى الدول الرأسمالية . وقد اكتشفت أيضاً ، منابع للبترول عام ١٩٥٥ .

وبالكامرون بركان نشط يسمى ماونت كامرون قريباً من ميناء دوالا ، ويبلغ ارتفاعه حوالى ١٣,٣٧٠ قدماً ولهذا يعتبر أعلى قمة فى غرب إفريقية . وبها ثلاثة عشر مسقطاً للمياه تستخرج منها الكهرباء التى تبلغ تكاليف الكيلوات منها حوالى $\frac{1}{22}$ من تكاليف مثيله بفرنسا

وما زالت ثروة الكامرون الزراعية والمعدنية فى أيدى الاحتكارات الفرنسية والألمانية والبريطانية . فتحتكر شركة

بيكيناى أوجين الفرنسية فى منطقة ايداى استغلال الألمنيوم وتستخرج منه سنوياً حوالى ٤٥,٠٠٠ طن .

ومما هو جدير بالذكر أن ميزانية الكامرون الفرنسى تبلغ ١١,٠٠٠ مليون فرنك فرنسى والعجز فيها يصل إلى ٦,٠٠٠ مليون فرنك . وأن ميناء دوالا وبها مطار جوى هام يسمح بهبوط الطائرات الكبيرة ، بها ٥٠,٠٠٠ عاطل من مجموع السكان البالغ عددهم ١٦٠,٠٠٠ نسمة .

وأن التعليم لا تزيد نسبته عن ٦٪ من مجموع الشعب بعد حوالى نصف قرن من الانتداب والوصاية ، وأن هذه النسبة تكبدت تكاليف باهظة وقاست « الأمرين » من التفرقة العنصرية .

أما عن الحالة الصحية فى الكامرون الشرقى فلا يتجاوز عدد الأطباء ١٢٥ طبيباً ؛ أى بمعدل طبيب واحد لكل ٢٥,٠٠٠ نسمة . هذا علماً بأن بعض أطباء المدن مخصص لعيادة الأجانب وحدهم . ولا يتجاوز عدد الأماكن فى المستشفيات الخاصة والحكومية ١٨٥٥٠ سريراً ، أى بمعدل سرير واحد لكل ٣٧٠ نفساً تقريباً . ولما كان الاستعمار الفرنسى فى الكامرون يؤمن بالتفرقة العنصرية ، فقد خصصت فى المستشفيات أبنية للإفريقيين ، وأخرى للأجانب . ومعنى ذلك أن عدداً كبيراً من الكامرونيين فى المستشفيات يفترشون الأرض ، أو يغادرون المستشفى قبل الإبلال من أمراضهم .

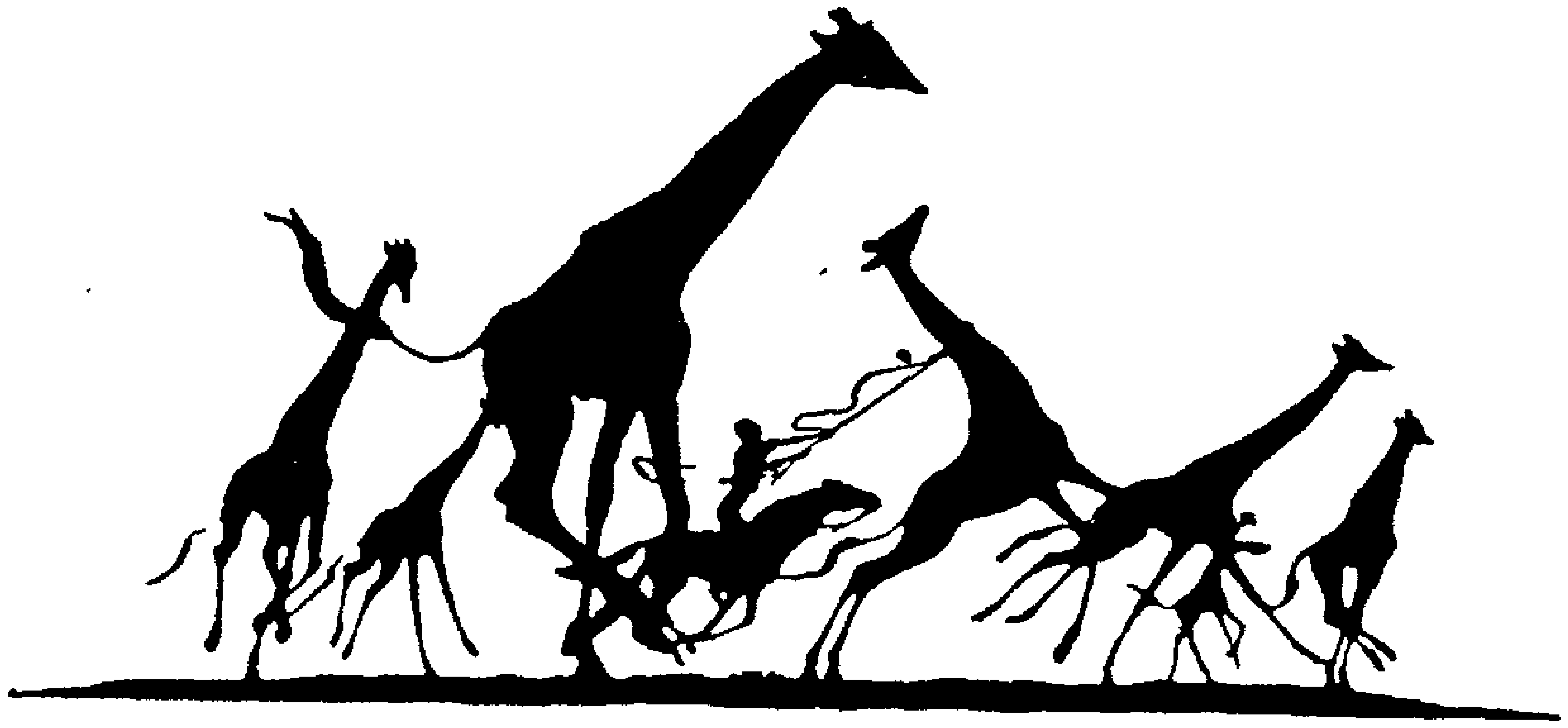

الأقليات في نيجيريا

بقلم : محمد جلال عباس

مقـــدمة :

أوردنا في مقال سابق مثالا من أمثلة المشكلات التي خلفها الاستعمار في ميدان العلاقات بين الأقطار الإفريقية التي تستقل تباعاً ، وهي مشكلة الإيوي التي تصور ما يقوم حول الحدود المزيفة التي رسمها المستعمرون بأيديهم من خلافات تهدد العلاقات السياسية القائمة بين أقطار هذه القارة وشعوبها .

وهناك نوع آخر من المشكلات التي خلفها الاستعمار تتمثل في إثارة الخلافات والمناقشات بين القبائل في داخل القطر الواحد ليستطيع المستعمر بعد مغادرته للبلاد أن يجد عن طريق هذه الخلافات ثغرة ينفذ منها ويستعيد من خلالها ما كان له من نفوذ سابق .

وتعتبر مشكلة الأقليات في نيجيريا التي نعرضها في هذا المقال ، أوضح مثال لهذا النوع من المشكلات التي لم يكن لها وجود قبل عهد الاستعمار .

الإسلام والطريق إلى الاندماج :

كانت نيجيريا قبل الاستعمار تنقسم إلى ممالك وإمارات متعددة ، ففي الشمال إمارات الهوسا ومملكة برنو ، وفي الجنوب ممالك اليوروبا ، وجماعات الإيبو التي عاشت حياة قبلية صرفة ، ولقد تتابعت على نيجيريا منذ القرن الخامس عشر هجرات متتابعة من جماعات الفولاني المسلمين الذين بسطوا سلطانهم على شمال نيجيريا ووسطها ، وامتدت آثارهم إلى بلاد الكمرون ، كما استطاعوا أن يضموا مملكة برنو والأجزاء الشمالية من بلاد اليوروبا إلى اتحادهم الذي كونوه في أواخر القرن الثامن عشر .

وقد انتشر الإسلام على يد جماعات الفولا بين سكان النطاق الأوسط في نيجيريا مثل جماعات التيف ، والنوبي ، والبورجو ، والجواري ، والجوكون ، وغيرها ، كما انتشر بين جماعات اليوروبا حتى أصبح نحو نصفهم أو أكثر يعتنقون الإسلام .

واستطاع ملوك الفولا منذ توليهم

الأمور فى البلاد أن يقيموا الحكم على أسس إسلامية دقيقة ، وأخذت جميع القبائل التى انضوت تحت لواء الإسلام تندمج بعضها مع البعض الآخر ، بل وكانت مناطق غرب إفريقية كلها بسبيلها إلى الدخول فى الإسلام لتندمج هى الأخرى فى وحدة إسلامية كبيرة

ولقد ساعد المبدأ الإسلامى الذى يستند إلى الآية الكريمة « يأيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . . ساعد هذا المبدأ على تحقيق التآلف والتعاون والتعارف بين القبائل المختلفة ، وكانت جميع تلك القبائل التى تسكن المنطقة بسبيلها إلى الاندماج الفعلى لتحقيق مجتمع إسلامى متحد متكامل .

ثم أتاها الاستعمار :

وبينما شعوب وقبائل نيجيريا تسير فى هذا الطريق الذى رسمه لها الإسلام سيراً حثيثاً ، والإسلام يزحف بخطى ثابتة فى أنحاء غرب إفريقية بعامة ونيجيريا على وجه الخصوص ، إذا بالمستعمرين يتوالون على المنطقة ، وإذا بطلائع المستعمرين البريطانيين يصلون منذ منتصف القرن التاسع عشر بدعوى العمل على إلغاء تجارة الرقيق ، ويكنون فى صدورهم الهدف الأصلى لهم الذى يتمثل فى السيطرة على هذه البلاد ذات الثروات الطائلة ، فكونو مستعمرة لاجوس سنة ١٨٦١ ، ثم مستعمرة أنهار الزيت سنة ١٨٨٥ بينما ظل الشمال منطقة نفوذ شركة إفريقية المتحدة ، ثم شركةالنيجر الملكية التى خلفتها .

تكوين الوحدة السياسية :

وفى العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، بعد أن استطاع البريطانيون بسط نفوذهم فى المنطقة الشرقية المحيطة بكالايار على مساحة واسعة ، أطلقوا اسم محمية جنوب نيجيريا سنة ١٨٩٣ على محمية أنهار الزيت ، كما تسلمت السلطات الاستعمارية الرسمية منطقة نفوذ شركة النيجر الملكية وأعلنت هذه المنطقة محمية بريطانية تحت اسم محمية شمال نيجيريا وذلك بعد أن انتهى اتفاق الحدود بين إنجلترا وفرنسا سنة ١٨٩٨ ، ثم اتجهت السلطات الاستعمارية البريطانية بعد ذلك إلى ضم الأجزاء التى تكونت منها نيجيريا لتكون من مجموعها وحدة سياسية ، تخضع لحاكم عام واحد .

ولئن كان الاندماج قد تم فعلا ، إلا أنه لم يتم بالطريقة الطبيعية التى كان سائراً فيها على يد الدعاة المسلمين من الفولا والهوسا ، وكان تخطيط الحدود غير مرض للشعوب ، فقد أدت الحدود الشمالية إلى تقسيم الهوسا إلى قسمين : قسم خضع للنفوذ الفرنسى فى منطقة النيجر العسكرية وقسم بقى

فى نيجيريا ، كما أدت الحدود الغربية إلى عزل جزء من جماعات اليوروبا فى داهومى الفرنسية عن غالبية شعب اليوروبا فى نيجيريا .

الحكم غير المباشر :

وقد اتبع البريطانيون فى حكم نيجيريا النظام الذى وضعه اللورد لوجارد ، ذلك النظام الذى عرف باسم الحكم غير المباشر ويقضى هذا النظام بتثبيت الحكام الوطنيين فى مراكزهم إذا ما رضوا بالحكم البريطانى وأدوا الخدمات المطلوبة منهم للسلطات الاستعمارية ، ونفذوا الأوامر التى تصدر إليهم من البريطانيين ووضع فوق هؤلاء الحكام جهاز إدارى من رجال الحكومة الاستعمارية يتولى الإدارة والحكم وتنفيذ السياسة المرسومة عن طريق توجيه هؤلاء الرؤساء الوطنيين وإصدار الأوامر إليهم . وكان الحكام الوطنيون فى أغلب مناطق شمال نيجيريا مسلمين ، وينتمون إلى أسر فولانية ، واتبع معهم الإداريون البريطانيون ما كانوا يتبعونه مع المصريين الذين كانوا يعملون فى الإدارة بالسودان فى عهد الحكم البريطانى ، فكانوا يصدرون أوامر صارمة وقوانين مجحفة ، ويفرضون على هؤلاء الحكام الوطنيين — كما كانوا يفرضون على الإداريين المصريين فى السودان — تنفيذ هذه الأوامر بدقة ، وتطبيق تلك القوانين تطبيقاً حرفياً كى يضج أبناء الشعب منها ويضيقوا بصرامتها فيلجأون إلى الحكام البريطانيين متظلمين لهم ليخففوا الأحكام والضرائب وغيرها . وكانت السياسة البريطانية تهدف من وراء ذلك إلى إضعاف مركز الحكام الوطنيين وبخاصة فى المناطق التى كانت تسكنها قبائل تختلف فى أصولها عن القبائل التى ينتمى إليها الحكام مثل جماعات النطاق الأوسط فضلا عن أن تلك القبائل والجماعات الصغيرة على أنهم المنقذون . وتعتبر هذه الخطة المنبثقة عن نظام الحكم غير المباشر هى أول بذور الفرقة التى نثرها المستعمر وسط الشعب النيجيرى .

التقسيم الإدارى وأصل المشكلة :

فى سنة ١٩٣٩ قسمت نيجيريا إلى ثلاثة أقاليم هى :

١ — الإقليم الشمالى وعاصمته كادونا .

٢ — الإقليم الغربى وعاصمته إيبادات .

٣ — الإقليم الشرقى وعاصمته اينوجو .

وكان كل من هذه الأقاليم يمثل مجموعة من الوحدات القبلية الإقليمية أو الأمارات الأصلية ، وطبقاً لهذا التقسيم أصبح الإقليم الشمالى يضم جماعات الهوسا والفولا والكنورى فى الشمال ، والقبائل العديدة التى تسكن

النطاق الأوسط جنباً إلى جنب مع جماعات الفولا والهوسا ، مثل جماعات النيف والنوبى واليورجو والأنجاس والجوارى والجوكون ونحو مائتى قبيلة صغيرة أخرى .

وأصبح الإقليم الغربى يضم جماعات اليوروبا فى الغرب وفى شرقه جماعات تتكلم لغة اليوروبا أهمها البنى والسوبو والجيكرى والايرهوبو وكذلك بعض الايبو الغربيين ، كما أن بها قسما من قبيلة الايجا ويعيشون فى منطقة دلتا النيجر .

أما الإقليم الشرقى فيضم جماعات الايبو الذين يكونون غالبية السكان ، وقبـائل الايبيبيو والايفيك وبعض القبائل الأخرى الصغيرة التى تعيش فى شرق الإقليم ، هذا فضلا عن الايجاو الذين يعيشون فى منطقة دلتا النيجر .

وقد أدى هذا التقسيم الإدارى إلى وضع قبلى خاص يتلخص فيما يلى :

١ — أصبح بكل إقليم أغلبية من إحدى الجماعات أو بعضها مثل الهوسا والفولا والكتورى فى الإقليم الشمالى واليوروبا فى الإقليم الغربى والايبو فى الإقليم الشرقى .

٢ — أصبحت القبائل الصغيرة فى كل إقليم ، بعد اندماجها ، تمثل كل منها أقلية صغيرة بجانب القبيلة الرئيسية .

٣ — عزلت الحدود عشائر من بعض القبائل الكبرى فى أقاليم غير الأقاليم التى بها أغلبية الجماعة ، مثل جماعات اليوروبا فى مديريتى ايلورين وكبا بالإقليم الشمالى ، وجماعات الايبو الغربيين فى ينين بالاقليم الغربى .

٤ — شطرت بعض القبائل إلى شطرين مثل جماعات الايجاو الذين أصبحوا مقسمين بين مديرية الدلتا فى الإقليم الغربى ومديرية الأنهار فى الإقليم الشرقى .

تقوية جذور المشكلة :

وبعد أن نثر الاستعمار بذور المشكلة وهيأ لها البيئة الصالحة التى تنمو فيها وتتفاقم أخذ يعمق جذورها ويتعهدها بالإنماء ، واتبع لذلك خطتين رئيسيتين :

الأولى : ملء كتب المدارس بالحقائق المشوهة التى تغذى المشكلة .

الثانية : استغـلال الأحزاب السياسية بتوجيهها الوجهة القبلية التى تساعد على تقوية المشكلة .

وقد اتجهت الخطة الأولى إلى إثارة الكراهية والأحقاد بين القبائل ، وخلق العقد النفسية لدى أبناء القبائل الصغيرة وتتمثل هذه الخطة فى وضع مناهج فى المواد القومية (التاريخ والجغرافيـا والتربية الوطنية) بحيث تمتلىء بحقائق مشوهة وإشارات خفـية أو صريحة تهدف إلى إقناع التلاميذ ببيروقراطية الحكام الوطنين وبخـاصة الفولا ، وبفساد نظم الحكم الإسلامى التى كانت متبعة قبل عهد الاستعمار ، وما زالت قائمة على يد تلك الطبقة الفولانية الحاكمة .

فنجـد كتب التاريخ مليئـة

بالأحداث المشوهة للحقائق كأن تذكر أن المسلمين قد فرضوا أنفسهم على القبائل، كما أنها تجسم الادعاء الاستعماري بأن الفولا هم تجار الرقيق الذين كانوا ينتزعون بالقوة أبناء القبائل الأصلية من بين أهليهم ليبيعوهم فى أسواق النخاسة .

هذا ، ولا تخلو كتاب عن نيجيريا يتناول الدراسة الجغرافية أو الاقتصادية أو التاريخية ، إلا وقد خصصت فيه صفحات كثيرة تمتلىء بالتحليل الملتوى لتكوين الشعب النيجيرى ودراسة النسب المئوية لمختلف العناصر فى أقاليم نيجيريا ، ومقارنتها بنوع الحكم الوطنى القائم وبخاصة فى الإقليم الأوسط ، وكثير من كتب الجغرافيا التى نشرت عن نيجيريا تعطى صورة من النسب المئوية لجماعات الهوسا والفولا بحيث تقلل من هذه النسب بدرجة كبيرة فى النطاق الأوسط لكى يظهر لأبناء قبائل هذا النطاق من غير الفولا والهوسا أنهم خاضعون لعناصر لا تكوّن أغلبية ، مما يثير فى نفوسهم الحقد على تلك الجماعات التى كان لها فضل نشر الثقافة الإسلامية بين هذه القبائل ونقلها من مرحلة البداوة إلى سلم التحضر .

أما الخطة الثانية فقد بدأ تنفيذها بعد أن كون الدكتور نامادى أزيكوى حزبه القومى المعروف باسم المؤتمر العـام لنيجيريا والكمرون والذى جمع فيه عناصر من جميع سكان نيجيريا وقد بدأ البريطانيون يستغلون انتماء الدكتور أزيكوى لقبائل الايبولبروجوبين سكان نيجيريـا الدعايات المغرضة بأن هدف هذا الحزب هو سيطرة شعب الايبو على كل نيجيريا ، فتكون حزب جماعة العمل فى الإقليم الغربى بزعامة أوبو فامى أودلاوو ليمثل اليوروبا ومؤتمر الشعوب الشمالية بزعامة الحاج أحمد وسردونا سوكوتو وأبو بكر تاقاوا بلاوا ، كما تكونت أحزاب متعددة فى منطقة الكمرون الخاضعة للوصاية البريطانية .

وأخذ البريطانيون يتبعون طرقهم الخاصة فى إثارة المنافسة والعداوة بين المنضمين لكل من هذه الأحزاب الثلاثة مستغلين الوضع القبلى أداة لتحقيق غرضهم ، وكان من نتيجة ذلك أن بدأت تظهر آثار التعصب القبلى فى الانتخابات العامة للمجالس التشريعية المتتالية منذ سنة ١٩٤٦ ، فكان حزب الدكتور أزيكوى لا يجد له مؤيدين فى الإقليم الغربى سوى قبائل الايجاو والايدو والبنين وغيرها من القبائل الصغيرة خلاف اليوروبا ، وكان حزب جماعة العمل يجدون مؤيديهم فى قبائل الايبيبيو والقبائل الصغيرة التى تعيش فى شرق الإقليم الشرقى . كما كان الحزبان يجدان فى سكان النطاق الأوسط من القبائل الصغيرة مؤيدين لهم ضد مؤتمر الشعوب

الشمالية ، وبالعكس كان حزب الشعوب الشمالية يجد له مناصرين فى مناطق القبائل الصغيرة فى الإقليمين الشرقى والغربى .

وهكذا نجح الاستعمار فى تحويل المنافسة فى ميدان الانتخابات إلى منافسة قائمة على أساس قبلى .

ظهور المشكلة ونموها :

بعد أن نجح المستعمر هذا النجاح فى تقوية جذور المشكلة فى نفوس أبناء القبائل ، وفى ميدان النشاط الحزبى ، أخذ رجاله من الإداريين يوحون إلى رجال القبائل الصغيرة ، وبعض زعمائها ، والطبقة النصف المثقفة من أبنائها بأن قبائلهم ضائعة وسط القبائل الكبيرة المجاورة ، لذا وأن وجودهم فى كنف أغلبية من القبائل الكبيرة سوف يفقدهم الكثير من حقوقهم ويحرمهم من تحقيق ما يصبون إليه من تقدم وتحضر . ثم اتبع موظفوا الإدارة الاستعمارية خطة عملية لإخراج المشكلة إلى حيز الوجود الرسمى تتلخص فى خطوتين :

الأولى : تشجيع أبناء القبائل الصغيرة التى أسموها أقليات على تكوين أحزاب سياسية مستقلة تعارض الأحزاب الكبرى القائمة فى الأقاليم الثلاثة مثل حزب مؤتمر اتحاد النطاق الأوسط الذى كونه السيد تاركا من أبناء قبيلة النيف ، وهيئة الأنهار بزعامة بيريه من قبيلة الايجاو ، وأخذت مثل هذه الأحزاب تعقد المؤتمرات لتطالب بالحقوق التى أوهمهم رجال الاستعمار بأنها مغتصبة .

والثانية : هى أنهم أخذوا يستكتبون الزعماء الموالين لهم شكاوى وملتمسات يملأونها بمخاوفهم ويطالبون فيها بالانفصال وتكوين أقاليم جديدة لها استقلالها الذاتى .

المشكلة أمام مؤتمر الدستور :

اتخذت السلطات الاستعمارية ووزارة المستعمرات من الشكاوى والملتمسات ذريعة للتدخل بصورة رسمية ، فشكلت فى سنة ١٩٥٢ لجنة عرفت باسم لجنة الأقليات لبحث الموضوع وتقرير ما تراه بشأنه ، وقامت تلك اللجنة بزيارة بعض النقاط المتنازع عليها ، كما زارت بعض المدن الكبرى للتباحث مع الشاكين وانتهت إلى وضع خطوط لتقسيم جديد لنيجيريا ادعت أنه يحقق للأقليات القبلية الطمأنينة .

ويتلخص هذا التقسيم كما هو موضح فى الخريطة فيما يلى :

١ — تفصل المنطقة الشرقية من الإقليم الغربى والتى تمثل مديرية بنين والجزء الشمالى من مديرية الدلتا لتكون إقليما جديداً يعرف باسم إقليم الغرب الأوسط

٢ — تفصل المنطقة الشرقية من الإقليم الشرقى لتكون إقليمى أوجوجا وكالابار

٣ — تضم مديرية الأنهار فى

الإقليم الشرقى مع الجزء الجنوبى من مديرية الدلتا فى الإقليم الغربى لتكون إقليم ايجاو

٤ — تضم ايلورين وكبا من الإقليم الشمالى إلى الإقليم الغربى لأن بها أغلبية من اليوروبا .

٥ — تفصل مديريات النطاق الأوسط لتكون أقليماً قائماً بذاته .

وقــد ظن المستعمر أنه بهذه المقترحات سيتمكن من تحقيق حلم طالما راوده ، ألا وهو تفتيت وحدة نيجيريا وتفريق كلمة شعبها ليطيل من عمر استعماره لهذا القطر الإفريقى الغنى بثرواته ، فأثاره مندوبوا وزارة المستعمرات فى مؤتمر الدستور الذى عقد فى لندن سنة ١٩٥٤ ولكن أجل بحثه ، وأعيد النظر فيه تحت إلحاح ممثلى الحكومة البريطانية فى مؤتمر سنة ١٩٥٧ بعد أن كانت أحزاب الأقليات قد تكونت ، وتقدمت للمؤتمر بإيعاز من المستعمرين بعدة مذكرات وطلبات خاصة بهذا الموضوع وتمكن مندوبوا بريطانيا من أن يحصلوا على توصية بتكوين لجنة لبحث مسألة الأقليات والتحقق من صحة الطلبات التى قدمت والمعلومات التى وردت فى المذكرات .

وفى مؤتمر الدستور الثالث الذى عقد فى لندن سنة ١٩٥٩ بذل ممثلوا وزارة المستعمرات جهوداً أخرى للوصول إلى الحل الذى يحلمون به ، غير أن المؤتمر رأى ألا تتخذ أية خطوات إيجابيــة نحو تنفيذ تقسيم المقترح إلا بعد الاستقلال ، وأعيدت التوصية بتشكيل اللجنة التى تقوم بدراسة هــذا التقسيم لمطابقته على الأوضاع الفعلية والإمكانيات العملية لإنشاء أقاليم جديدة داخل الاتحاد الفيدرالى ، وفى معرض المساومة على تحديد موعد الاستقلال نجح ممثلوا الحكومة البريطانية فى الاحتفاظ لإنجلترا ببعض الحقوق المتعلقة بالموضوع ليكون لهم أصبع يلعبون بها وقت اللزوم إذا ما اتجهت نيجيريا بعد الاستقلال نحو الحياد الإيجابى ، إذ اضطر ممثلوا الأحزاب النيجيرية أن يوافقوا على إعطاء بريطانيا بعض الحق فى الإشراف على نتيجة عمل اللجنة وإقرار ما تنتهى إليه ، أو الاعتراض عليه .

الوضع الحقيقى للمشكلة :

وعلى الرغم من هذه الضجة التى أثارها المستعمرون حول موضوع الأقليات القبلية فى أقاليم نيجيريا فإن هناك حقائق تدل على أن شعب نيجيريا محافظ على وحدته ، ويمكننا أن نلخص الأوضاع الحقيقية للمشكلة وفقاً للدراسة الموضوعية المحايدة فيما يلى :

١ — إن غالبية سكان النطاق الأوسط راضون عن وضعهم ، ويعيشون فى وئام مع عناصر الفولا ، وليس أدل على ذلك من أن نتائج الانتخابات أثبتت هذه الحقيقة ممثلة فى أن أغلبية نواب النطاق الأوسط ينتمون إلى حزبى الشمال الرئيسيين : مؤتمر الشعوب الشمالية واتحاد العناصر التقدمية الشمالية

٢ – إن غالبية سكان إقليم الغرب الأوسط المقترح يعارضون فى تكوين الإقليم فضلا عن أن بعض سكان الإقليم ، وهم الإيبو الغربيون يفضلون الانضمام إلى الإقليم الشرقى أو البقاء فى الإقليم الغربى عن أن يدخلوا ضمن هذا الإقليم المقترح .

٣ – إن إقليم أوجوجا المقترح إنشاؤه فى النصف الشمالى الشرقى من الإقليم الشرقى ستخلق فيه من جديد مشكلة الأقليات إذ أن جزءه الغربى تسكنه عناصر من الإيبو تمثل أغلبية ، بينما بقية القبائل فيه تمثل أقلية .

٤ – إن إقليم نهر كالايار المقترح إنشاؤه فى النصف الجنوبى الشرقى من الإقليم الشرقى ستبقى فيه أيضاً ، المشكلة ممثلة فى سيادة أغلبية من الايبو والايفيك على أقلية من القبائل الصغيرة.

٥ – إن الإيجاو فى منطقة يورت هاركورت وأهوادا بالإقليم الشرقى يعارضون الانضمام إلى إقليم الأنهار المقترح ليضم جميع الايجاو ، وذلك لأنهم يعيشون فى وئام مع الايبو والمثل يقال عن إيجاو الإقليم الغربى فانهم يعيشون فى وئام مع اليوروبا .

وهكذا نجد أن التقسيم لم يقم على أساس سليم من رغبات القبائل الصغيرة ، فان تنفيذه سوف تترتب عليه مشكلا ت اقتصادية وإدارية كثيرة أهمها :

١ – أن النطاق الأوسط يعتبر أفقر مناطق نيجيريا من حيث إنتاجه الاقتصادى ، ولكنه غنى بموارده الاقتصادية التى تتطلب رؤوس الأموال الطائلة لاستغلالها ، كما يحتاج إلى رأس المال العام الذى يستخدم فيه ، والذى يمثل جزءاً من ميزانية الإقليم الشمالى .

٢ – أن المناطق التى ستفصل من الإقليمين الغربى والشرقى سيترتب عليها اختلال الوضع الاقتصادى فيها جميعاً وذلك لأن نطاق الكاكاو فى الإقليم الغربى ونطاق نخيل الزيت فى الإقليم الشرقى ستفتت بين الأقاليم ، الأمر الذى يؤدى إلى إهمال الإنتاج فى بعض أجزاء هذه المساحات .

٣ – إذا قصرت الوظائف الإدارية الرئيسية فى هذه الأقاليم الجديدة على أبناء القبائل الصغيرة ، فان مشكلة توافر الكفايات اللازمة لشغل هذه الوظائف سوف يكون لها أثرها الكبير فى مستقبل هذه الأقاليم .

وليس من شك فى أن هذه المسألة التى خلقها الاستعمار فى ميدان العلاقات بين القبائل فى نيجيريا لها أثرها ولكن بصورة أخف مما صوره المستعمر ، ولذا فإن القضاء على هذا الأثر أمر يسير يمكن للحكومة الوطنية بعد الاستقلال أن تحققه إذا ما أبعدت أصبع الاستعمار عن الأمر ، وإذا ما حافظت على النظم التقليدية التى كانت قائمة قبل عهد الاستعمار وتطويرها بما يتلاءم مع الحضارة الحديثة ، ويعتبر إعادة التقسيم على أساس من رغبات القبائل الفعلية فى داخل نطاق الاتحاد الفيدرالى دون إخلال بالوضع الاقتصادى من أهم الوسائل التى يمكن أن تحقق حلا لمثل هذه المشكلات ، كما تعتبر من أهم الوسائل التى تفوت على الاستعمار فرص التدخل فى شئون الأقطار الإفريقية بحجة الرعاية الأبوية لبعض العناصر أو المسئولية الحضارية التى يدعيها لنفسه .

وإن إقامة الحدود الجديدة فى كل إفريقيــة على أساس من رغبــات الإفريقيين مع إزالة الحدود المصطنعة التى رسمها المستعمر ليعتبر الحل الكبير لكل المشكلات الإفريقية فى الأساس المتين للتعاون بين شعوب القارة لتحقيــق السلام والمشــاركة بنصيب فعال فى الحضارة العالمية .

مؤتمر الدار البيضاء

فى خطاب الرئيس

[كان لقاء تاريخياً هذا اللقاء الذى تم بين الرئيس « جمال عبد الناصر » ومجلس الأمة ، ففيه قد عرض للقارة ومشكلاتها ، وكيف أن هذه المشكلات قد وضعت فى الضوء ، فإذا بالاستعمار ما زال يدمر فى القارة بعدة قوى ظاهرة ومستترة ، وإذا بالصهيونية وجه آخر من وجوه الاستعمار البشعة ، وإذا بالوجوه تتعدد ، وتتشكل فهى مرة ضغوط اقتصادية ، وهى أخرى تفرقة عنصرية .. الخ هذه الوجوه التى تحطمت تماماً فى هذا المؤتمر الذى وضع القارة داخل السواعد القوية للرئيس جمال عبد الناصر ، والملك محمد الخامس ، والرئيس كوامى نكرومة ، والرئيس أحمد تورى ، والرئيس موديبو كيتا . . ولن تستطيع قوة بعدذلك أن تنفذ إلى القارة بشر ، ومن حولها هذه السواعد التى تحيط القارة بحب ، وهذا العزم الذى يحيطها كذلك بالطمأنينة ، والسلام الدائم] .

.. لقد امتد النضال العربى على خط عريض ممتد من باندونج إلى الدار البيضاء وأثبتت الأيام والتجارب أن هذا الخط العريض هو خط السلامة العربية . . وهو أيضا خط السلام .

وعلى هذا الخط العريض من باندونج إلى الدار البيضاء خضنـــا المعارك مع غيرنا من الشعوب . . . خضناها على أرضنا وخضناها عــلى أرض غيرنا من طلاب الحرية .

لم نكن وحدنا نقاتل معاركنا ، وإنما كانت شعوب كثيرة تؤمن بمثل ما نؤمن به تقف معنا . . كذلك لم نتخل يوماً عما آمنا بأنه واجبنا فى نصرة غيرنا وأننا لندعو الله أن يقود هذه الجمهورية دائماً إلى طريق الواجب وأن يملأها بالعزيمة تشد إيمانها لتكون طليعة كل زحف وقاعدة كل نضال من أجل الحرية .

ذلك أن الحرية لا تصان باستجداء المستعمر ولا بمساومته ، ولا تصان الحرية بمهادنة الاستعمار أو بملاينته . . وإنما تصان الحرية بعيداً عن قصور الرجعية والإقطاع ، وبعيداً عن الهمس الذليل ، وبعيداً عن الأنانية الفردية تستر نفسها وراء ميوعة الألفاظ وفى حمى التعبيرات المطاطة .

إن معارك الحرية لا تواجه إلا بالنضال الإيجابى الواعى ولا تقاتل إلا مع الأرض فى مواجهة قوى الاستعمار ذاتها ولا يمكن أن تكون لها غير نتيجة واحدة هى دحر الاستعمار وتصفية وجوده .

وفى باندونج على سبيل المثال استطاعت طلائع التحرر فى آسيا

وإفريقية أن تحشد ضد الاستعمار وضد أدواته قوى شعبية ضخمة وإذا كنا نعتبر معركة السويس نقطة تحول فى تحرير القارة الإفريقية . . فلقد كان النداء للتحرر الإفريقى صادراً من باندونج .

ولقد واجه مؤتمر باندونج أدوات الاستعمار كما واجه سيدها الذى تعمل من أجله . . وكان أوضح دليل أن إسرائيل – كأداة بارزة من هذه الأدوات – منعت من حضور مؤتمر باندونج ورغم أنها تدعى انفسها أنها قطعة من آسيا فلقد كان الإجماع الآسيوى الإفريقى على وضع إسرائيل وراء أسوار العزل باعتبارها مصدر عدوى ، وباعتبارها ظاهرة من ظواهر الداء الاستعمارى وعرضا من أعراضه .

كذلك حدث فى مؤتمر الدار البيضاء . . وكانت اسرائيل تتصور أنها بعد صدمتها فى آسيا قادرة على التسلل بليل إلى القارة السوداء . . فإذا مؤتمر الدار البيضاء . . يظهرها صراحة أمام نفسها وأمام أصحابها وصانعيها بصورتها الحقيقية التى وردت فى نص القرار الرسمى بشأنها وهو كما يلى :

« يلاحظ المؤتمر باستنكار أن إسرائيل دأبت دائماً على مناصرة الاستعمار كلما جرى بحث للمسائل الهامة المتعلقة بإفريقية ولا سيما مسائل الجزائر والكونغو والتجارب الذرية فى إفريقية .

لذلك يندد المؤتمر بإسرائيل بوصفها أداة فى خدمة الاستعمار بنوعيه القديم والجديد ، ليس فقط فى الشرق الأوسط ، بل فى إفريقية وآسيا ويدعو المؤتمر كافة دول إفريقية وآسيا إلى الوقوف أمام هذه السياسة الجديدة التى يستخدمها الاستعمار بخلق قواعد له . »

وكان واضحاً من هذا القرار ومن أصدائه أن الطلائع المتحررة فى إفريقية قد فتحت عينيها على حقيقة إسرائيل . . وكشفت مستتر نواياها وأهدافها .

ولقد كان رد الفعل فى إسرائيل هو الغيظ المرير أول الأمر . . ثم كانت المحاولة بعده للمناورة من وراء القرار وإبطال مفعوله . . وتجلى ذلك أكثر ما تجلى فى غانة حيث حاولت إسرائيل أن تشكك فى مدى تمسك غانة بقرار الدار البيضاء .

ثم رأى الدكتور كوامى نكرومة رئيس جمهورية غانة أن يصدر بياناً وجه فيه الضربة القوية إلى مناورات إسرائيل بأن أعلن فى غير غموض ولا مواربة ، أن قرار الدار البيضاء فيما يتعلق بإسرائيل يمثل خطأ أساسياً فى سياسة غانة .

وكان صدى هذا البيان أن عادت إسرائيل إلى غيظها المرير وزادت فيه بعد أن فشلت مناوراتها ، وإننا لنؤمن أن هذا الغيظ المرير سيكون هو الحصاد الوحيد لكل ما حاولت إسرائيل أن تزرعه فى قارتنا الإفريقية المتيقظة .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة

ولعله مما يساعد الشعوب الإفريقية على إدراك أهداف الاستعمار ووسائله وعلى إدراك دور إسرائيل فى خدمة هذه الأهداف باعتبارها إحدى وسائل تحقيقها هو أن الاستعمار يكرر نفسه الآن فى إفريقية .

إنه يصنع فيها لمواجهة المد الثورى نفس ما صنعه فى العالم العربى من قبل فى مواجهة نفس المد الثورى .

إنه يلجأ إلى تقسيم الوطن الكبير

إنه يكرر فى الكونغو ، على سبيل المثال ، نفس ما قام به من قبل فى سورية .

وكما نرى الاستعمار الآن يفصل جزءاً من الكونغو يسميه « كاتنجا » ويقيم عليه عميلا من عملائه اسمه « تشومبى » فلقد فعل نفس المحاولة من قبل .

ولن يصعب علينا أن نلتفت من حولنا فى الشرق العربى ، فنجد نموذجاً قديماً لكاتنجا . . وأن نعثر على الدمى العاجزة التى وضعها المستعمر كما وضع تشومبى وإن كانت لها الأسماء العربية .

وفى مثال آخر هو الجزائر يحلم الاستعمار بأن يكرر نفس الذى صنعه من قبل لأمتنا العربية فى فلسطين وهو إخراج شعب أصيل من أرضه وإحلال شعب غريب غيره على هذه الأرض .

فلقد استولى المستوطنون الغرباء فى الجزائر على كل الأرض ، وأخرجوا من الأرض أصحابها . . والاستعمار الآن يتحدث عن تقسيم فى الجزائر ينتزع قطعة من الوطن العربى الجزائرى ويعطيها للمهاجرين القادمين من وراء البحر لتكون لهم وطناً ، ولتكون لمطامعه الاستعمارية قاعدة ومنطلقاً يهدد منه الشعوب المتطلعة إلى تحرير إرادتها لكى تستطيع بهذه الإرادة الحرة أن تبنى نفسها وأن تساهم فى بناء عالم يسوده السلام .

وإننا لنؤمن أن الشعوب الإفريقية قد رأت الضوء فى الدار البيضاء .

رأت الضوء فى تجربتنا مع القواعد التى أقامها الاستعمار فى العالم العربى ورأت الضوء فى تجاربها هى فيما يقوم به الاستعمار الآن فى قلب القارة .

والنتيجة المحققة هى أن إفريقية تبينت أن إسرائيل تشكل خطراً على الأمن الإفريقى باعتبارها قناعاً للعدوان الاستعمارى .

كذلك فقد أبان وفد الجمهورية العربية المتحدة بوضوح أن جمهوريتنا فى دفاعها الصامد عن البوابات الشمالية الشرقية للقارة الإفريقية ، تؤمن أن مؤخرتها المتصلة بالقارة سوف تكون فى أمان من أى تسلل إسرائيلى باعتباره اسما مرادفاً للتسلل الاستعمارى .

ولقد استطاع مؤتمر الدار البيضاء بعد ذلك أن يمنحنا فرصة رائعة ولست أشك أنكم توافقون معى على أنه فى مقدمة هذه الفرص أن مؤتمر الدار

البيضاء أتاح لنا أن نلتقى بالشعب العربى العظيم فى المغرب ، وأن نرى رأى العين أن شعارات الكفاح العربى الحر إنما هى تعبر حقيقى عن الشعوب العربية ؟

لقد رأيت فى الدار البيضاء المطلة على المحيط الأطلسى نفس الذى رأيته فى الدمام المطلة على الخليج العربى : نداءات النضال العربى من أجل استرداد فلسطين ومن أجل تحرير الجزائر .

نداءات النضال العربى بالوحدة بمعناها النضالى ومعناها المصيرى .

نداءات النضال العربى من أجل التحرر الاجتماعى .

نداءات النضال العربى ثورة على الاستعمار وعلى كل ما يستعمله الاستعمار من أدوات وأساليب .

وإذا كنت قد وصلت بالحديث إلى تجربة الدار البيضاء فلا بد لى أن أشيد هنا بالجهود المخلصة التى بذلها ملك المغرب ، الملك محمد الخامس بالدعوة إلى هذا المؤتمر وبالعمل الصادق لإنجاح أعماله .

كذلك أتاح لنا هذا المؤتمر أن نلتقى بعدد من قادة التحرر الإفريقى بعضهم سبق لنا شرف التعرف إليه كالرئيس كوامى نكرومة رئيس جمهورية غانة وبعضهم الآخر كان لقاؤنا بهم لأول مرة وفى الطليعة منهم أحمد تورى رئيس جمهورية غينيا ، والرئيس موديبوكيتا رئيس جمهورية مالى .

وإنه لما يسعدنا أننا نتوقع أن نستقبلهم جميعاً هنا فى الجمهورية العربية المتحدة خلال الشهور القادمة .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة :

وكذلك أتاح لنا مؤتمر الدار البيضاء فرصة عظمى لاستخلاص إرادة عمل إفريقى بناء .

ولقد كان انعقاد المؤتمر فى حد ذاته هو المقدمة التاريخية للإرادة التى تجلت عنه والتى تتمثل فيما أصدره من قرارات .

فإن مجرد انعقاد المؤتمر يحمل فى طياته معانى تاريخية بعيدة الأثر ، عميقة التأثير :

فأولا : كان هذا المؤتمر يمثل إرادة إفريقية المستقلة . . ويتبع هذا على الفور أن المؤتمر كان يمثل ، ثانيا ، إيمان شعوب القارة بوحدة الكفاح وبالتالى بوحدة المصير .

وثالثاً . . فإن المؤتمر بهذا الذى اجتمع به يمثل وحدة القارة ذاتها مع وحدة الكفاح فيها ، ووحدة المصير . . فلقد تلاشت الخطوط الوهمية التى حاول الاستعمار وضعها لتفرقة القارة وتقسيمها ولم تعد هناك إفريقية عربية وإفريقية سوداء . ولم تعد الصحراء الكبرى التى اعتبرها الاستعمار خطاً فاصلا بين أقسام القارة كما

تصورها ، بل كما أرادها عمداً وبسوء قصد ، إلا جسراً يصل ويربط امتداد الأرض ويربط امتداد الأمل ويربط امتداد الكفاح تحقيقاً لهذا الأمل .

تلك كانت المقدمة التاريخية التى مهدت لهذا المؤتمر وأعطته قيمته الكبرى .

أما إرادة العمل التى انتهت إليها أعماله فإنكم تجدونها فى قراراته التى أودعت مكتب مجلسكم ، والتى سوف تتولون دراستها ومناقشتها ليكون رأيكم فيها أقوى وشائج ارتباطنا بها.. وهى فى مجموعها ثمانية قرارات :

قرار بإعلان ميثاق إفريقى لتصفية الاستعمار والقواعد العسكرية ، وتنسيق التضامن الإفريقى فى المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية . وقرار فى مشكلة الكونغو . وقرار فى مشكلة الجزائر . وقرار فى مشكلة فلسطين . وقرار فى مشكلة التجارب الذرية ، لم يقتصر على استنكار تجارب فرنسا الذرية فى إفريقية ، وإنما امتد فشمل تعاونها الذرى المشبوه مع اسرائيل . . وقرار فى مشكلة التميز العنصرى . وقرار فى مشكلة موريتانيا . وقرار فى مشكلة رواندا أوراندى .

ولقد كانت هنا مجموعة من النقاط وضعها وفد الجمهورية العربية المتحدة أمام أعماله ، لتكون أشبه بالعلامات التى تحدد درب المسير . . وإنى لألخص هذه النقط فيما يلى :

أولا : كنا نرى أنه إذا كانت مشكلة الاستعمار فى الكونغو والجزائر بالذات هى أبرز موضوعات البحث فى هذا المؤتمر فإنه كان يتعين علينا ألاّ ننسى أن المعركة ضد الاستعمار فى الكونغو وفى الجزائر هى جزء من المعركة ضد الاستعمار فى القارة الإفريقية كلها .

وإذا كان الاستعمار يريد أن يجعل من معركة الكونغو أمثولة لإرهاب الكفاح الإفريقى . فإن علينا أن نتضافر جميعاً لجعل معركة الكونغو مثلا للانتصار الإفريقى تشجيعاً للحرية فى القارة كلها .

وكذلك الأمر فى الجزائر التى أصبحت معركة الأحرار جميعاً فى كل مكان .

ثانياً : كنا نرى أن مشاكل إفريقية هى جزء من قضية السلام العالمى ، ومن ثم فإن تجاوبنا أخذاً وعطاء مع بقية الشعوب ، وشعوب آسيا فى الطليعة والمقدمة منها ، أمر حيوى لدفع الكفاح الإفريقى إلى أهدافه ، ومن ثم فإن مشاكل نزع السلاح ومشاكل توجيه الطاقة الذرية إلى الأغراض السلمية لا يجب أن تقل فى تقديرنا عن مشاكل تصفية الاستعمار والقضاء على التفرقة العنصرية .

ثالثاً : كنا نرى أن التطوير الاقتصادى والاجتماعى لشعوب القارة هو ركيزة الكفاح الإفريقى وهو المعنى

الأصيل للحرية المنشودة . وبغير الاتجاه إلى التنمية الاقتصادية وإلى العدل الاجتماعى فإن الفرد الإفريقى يفقد كثيراً من حوافز النضال الإيجابى من أجل الاستقلال . وأن تعاون شعوب القارة فيما بينها لتحقيق تطويرها أمر تحتمه الضرورة وتفرضه إلى أقصى الحدود وفى جميع الحالات وعلى رأسها تبادل السلع وتبادل الخبرات . وتدعيم وسائل الاتصال بكافة أنواعها .

رابعاً : كنا نرى أن الأمم المتحدة أداة كبرى يجب أن تؤدى دورها فى خدمة الكفاح من أجل الحرية وفى خدمة التطور الاقتصادى والاجتماعى وأن استخلاص الأمم المتحدة من براثن المناورات الاستعمارية معركة هامة يتعين على الشعوب الإفريقية والشعوب المتطلعة إلى الحرية أن تخوضها ، وأنه يتعين علينا أن نجد الوسائل الكفيلة بحماية الأمم المتحدة ، كأداة فى خدمة السلام الدولى القائم على العدل ، من كل تربص بها ، حتى تستطيع هذه الأداة بدورها أن تحقق الغرض المرجو منها .

خامساً : كنا نرى أن نجاح أهداف الكفاح الإفريقى لا يتحقق بدفع إفريقية إلى الحرب الباردة بين الكتل ، وإنما تتحقق أهداف هذا الكفاح إذا تحولت إفريقية إلى أرض لقاء بناء لا أرض صراع مدمر بين هذه الكتل . . وأن استخلاص أداة الأمم المتحدة من براثن الاستعمار هو انتصار كبير فى إمكانه تحقيق هذا اللقاء البناء بين الدول الكبرى . فإن الأمم المتحدة أسلم إطار لهذا اللقاء وأضمن دائرة لحدوده .

سادساً : كنا نرى أنه من المسئوليات الكبرى علينا أن نصون وحدة الزحف الإفريقى ، وألا نجعل الاستعمار يجرنا إلى معارك فرعية مع العناصر الرجعية المعادية للتقدم .

وإذا كنا نعرف كيف جرب الاستعمار هذه المحاولة معنا فى الشرق العربى ، فإننا نعرف أنه برغم تصدينا لهذه المحاولات فلقد ظل الهدف الذى تسعى الجمهورية العربية المتحدة إليه هو الهدف الأصيل : تحرير كل وطن عربى وتحرير كل فرد عربى سياسياً واقتصادياً .

سابعاً : كنا نرى أنه من الأمور المحتمة أن نحدد لكل مرحلة من مراحل النضال الإفريقى نصيبها من الأهداف وبمعنى آخر فإن المسئوليات التى نتصدى لحملها يجب أن تتكافأ مع قواتنا الذاتية حتى نستطيع السير بها إلى أهدافها .

وكانت تلك فى رأينا مسألة هامة لتوكيد جدية الكفاح الإفريقى وواقعيته بالنسبة للشعوب التى تحمل مسئوليته بل وبالنسبة لغيرها من الشعوب . على أن تبقى الأهداف الشاملة للكفاح واضحة ظاهرة باعتبارها الطاقات

الدافعة إلى تحمل المسئوليات فى المراحل المتلاحقة .

وإننا لنحمد الله الذى قاد مسيرنا إلى ما انتهينا إليه من قرارات تمثل إرادة العمل الإفريقى وما توصلنا له من تنظيمات كفيلة بدفع هذه الإرادة إلى تحقيق غاياتها .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الأمة
لقد كان إيمانى الدائم أن المسئولية الكبرى التى تقع علينا هى أن نخوض فى نفس الوقت معركتين :

معركة الحرية . .

ومعركة البناء تدعيما للحرية .

كذلك إيمانى الدائم أن الدعوة الحقيقية لأهدافنا إنما تقوم أولا على أساس أن يكون وطننا نموذجاً لما ندعو إليه . .

وإذا كنا نؤمن بالحرية فإن دعوتنا للحرية ينبغى أن تتمثل فى نضالها الوطنى ضد الاستعمار دفاعاً عن حدودنا .

وإذا كنا نؤمن بكرامة الفرد فإن كل مواطن من أهلنا يجب أن يكون نموذجاً لعزة الفرد وقيمته .

وإذا كنا نؤمن بالوحدة العربية فإن العمل من أجلها لا يدفعه إلا أن تكون جمهوريتنا تحقيقاً مستمراً ومتطوراً للأمل العربى .

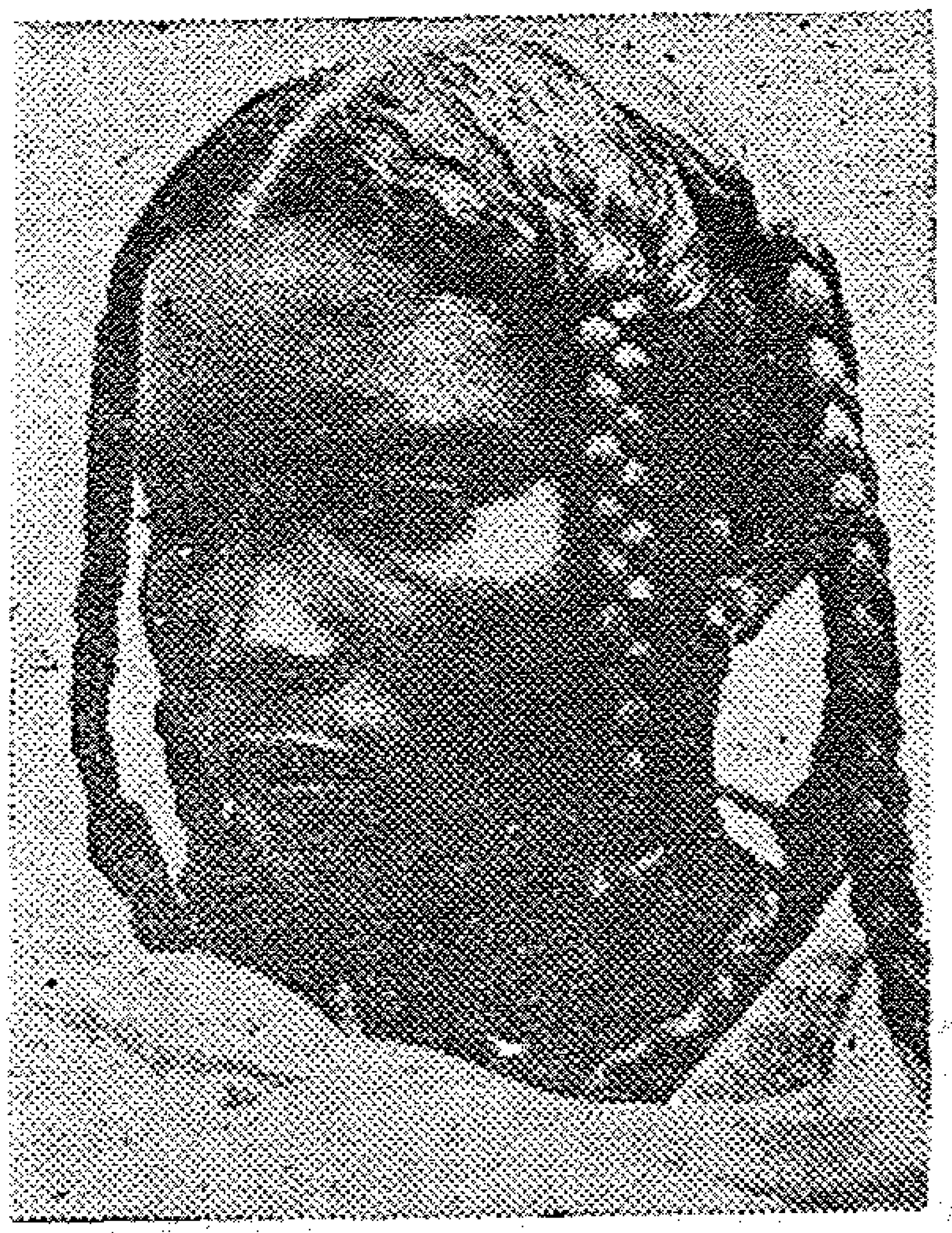

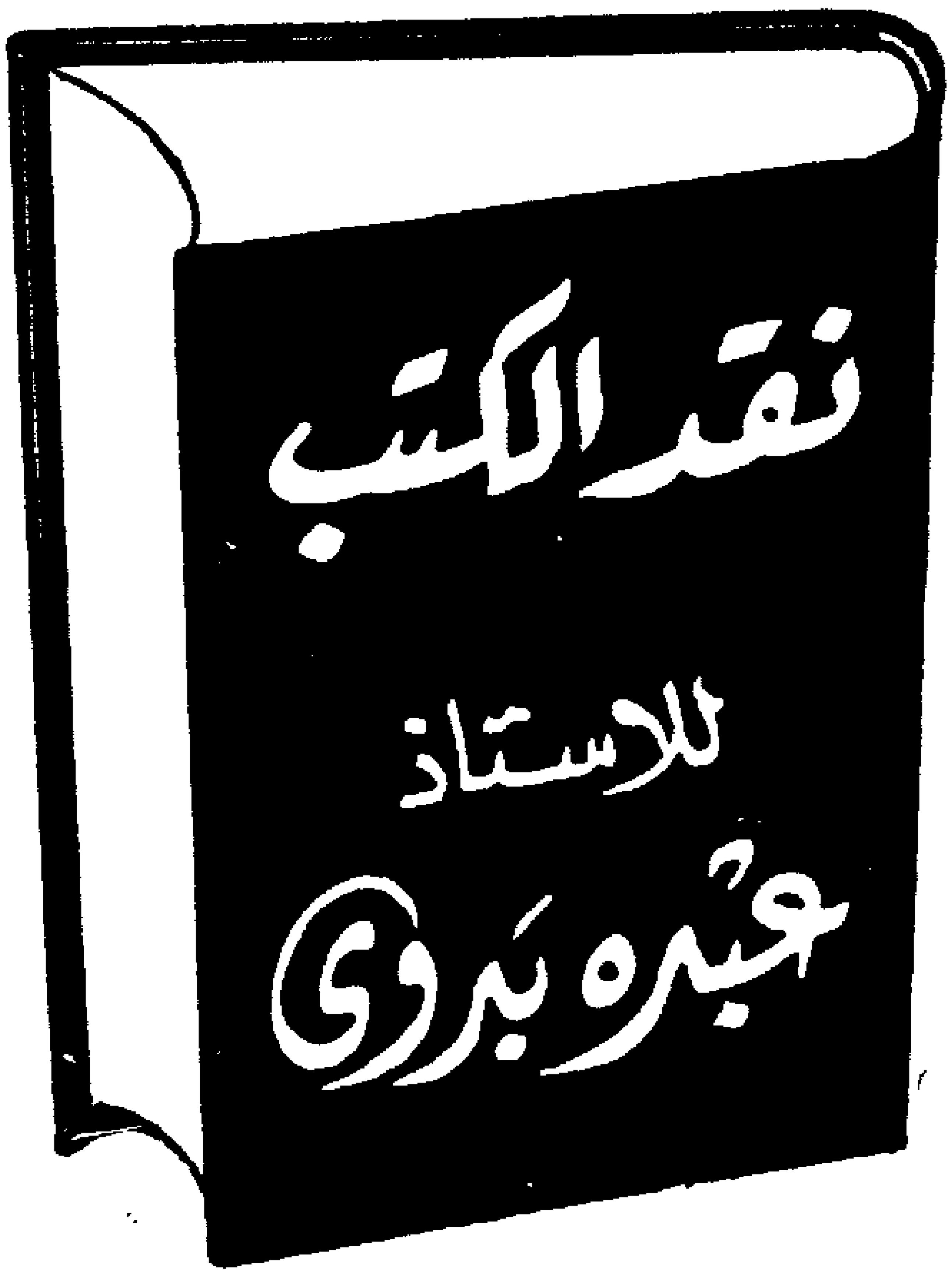

من الكتب الجديدة التى تزدهى بها المكتبة الإفريقية ذلك الكتاب الذى صدر أخيراً للدكتور « محمد محمد حسنين » بعنوان « الاتحاد الفرنسى — الجماعة الفرنسية . فرنسا فيما وراء البحار » .

وقد وضح المؤلف فى المقدمة أن تاريخ الاستعمار الفرنسى يرجع إلى أول القرن السادس عشر ، إذ تكونت إمبراطورية ضخمة على يدى «ريشيليو» و « كولبير » ، وقد تضاءل نجم هذه « الإمبراطورية الأولى » فى عام ١٧٦٣ ثم أفل بعد معاهدة صلح باريس فى ٣٠ مايو عام ١٨١٤ ، ويرجع الفضل فى عملية التحطيم هذه إلى إنجلترا فى كلتا الحالتين .

ثم بدأ عهد « الإمبراطورية الثانية » لفرنسا فى عام ١٨١٧ كرد فعل لضياع الإمبراطورية الأولى وقد تضخمت هذه الإمبراطورية بغزو الجزائر عام ١٨٣٠ ، وتونس فى عام ١٨٨١ ، ثم زاد هذا التضخم عقب الحرب العالمية الأولى حين غنمت فرنسا بعض المستعمرات التابعة لتركيا ، وألمانيا .

وقد وضعت هذه الأقطار تحت الانتداب ، ثم حول الانتداب إلى وصاية فرنسية ، وقد ابتدع لهذا الاستعمار عدة أسماء تحت ضغط الظروف السياسية ، فقد سميت الدول المستعمرة بإمبراطورية فرنسا ، أو فرنسا ما وراء البحار ، ثم الاتحاد الفرنسى الذى وضحه ديجول بقوله إنه الدول التى تدور فى فلك فرنسا لأن هذا الاتحاد أشبه ما يكون بنظام المجموعة الشمسية ، أو على حد تعبير «كولمان» بأن فرنسا تسود داخل الجمهورية ، والجمهورية تسود داخل الاتحاد .

وقد تحول مصطلح « الاتحاد الفرنسى » إلى « الجماعة الفرنسية » فى ٢٥ سبتمبر عام ١٩٥٨ مع الجمهورية الفرنسية الخامسة التى أجرت استفتاء يقوم على « لا » و « نعم » فإذا أجابت دولة « بلا » خرجت من الجماعة ، وإذا أجابت « بنعم » كان لها الخيار بين ثلاثة أشياء : هى الوضع الراهن ، ووضع المقاطعات الفرنسية ، ووضع الدولة العضو فى الجماعة ، والدولة الوحيدة التى قالت « لا » كانت غينيا ،

واحتفظت خمسة أقاليم فرنسية بوضعها السابق وهى ساحل الصومال الفرنسى ، وكومور . وكاليدونيا الجديدة . وبولينزيا الفرنسية ، وسان بيروميكلون كما اختار اثنا عشر إقليما أن يصبح دولا مستقلة ، وفى الوقت نفسه أعضاء فى الجماعة الفرنسية الإفريقية وهى : موريتانيا . السنغال . السودان . فولتا العليا . ساحل العاج ، داهومى . النيجر . تشاد . أوبانجى تشارى . الكونغو . جابون . مدغشقر .

* * *

ثم وضح المؤلف فى الفصل الأول الاتجاهات المختلفة فى سياسة فرنســا الاستعمارية وهى :

١ — سياسة الإخضاع .
٢ — سياسة الإدماج .
٣ — سياسة الاستقلال الذاتى .

١ — أما سياسة الإخضاع فنظام اقتصادى وسياسى فى الوقت نفسه . وينهض أساسه الاقتصادى على إخضاع مصالح الدولة المستعمرة إلى الدولة التى تقوم بوظيفة الاستعمار . ذلك لأن الدولة التى وقع عليها الاستعمار تستغل ثرواتها ، وتحتكر أسواقها . وطرق النقل إليها . بحيث تصبح « مكملا » اقتصادياً للدولة المعتدية ، ومما يحدد هــذا أن دائرة المعــارف تعرف المستعمرات بأنها الدول التى استعمرت « من أجل الدولة الأصل » . ذلك لأنه يحرم على هذه الدول أن تتعامل اقتصادياً إلا مع الدول التى استعمرتها .

ويعتبر هذا النظام تطبيقاً لمذهب التجاريين ، الذى يرتكز على قاعدة واحدة هى تحقيق دخول الذهب والفضة للدولة الأصل . وقد عملت بهذا « المذهب التجارى » فترة من الزمن إسبانيا ، وإنجلترا ، وفرنسا التى سمته بمذهب « كولبير » ، وقد نقد هذا الاتجاه فيها الوزير «ترجو »فى قوله « إن المستعمرات مثل الثمار تحملها الشجرة إلى أن تنضج نضجاً كافياً ثم تنفصل عنها ! » ، كما هاجمه فى إنجلترا آدم سميث بقوله « إن إنشاء إمبراطورية لمجرد فتح أسواق تجارية لحرى بأمة من أصحاب الحوانيت » وقد كانت هولندا آخر دولة تأخذ بهذا النظام إلى أن قررت عصبة الأمم فى عام ١٩٢٦ إلغاء احتكار تجارة المستعمرات الذى يعتبر الأساس الأول لنظام الإخضاع . وقد وقعته فرنسا عام ١٩٣١ .

وهكذا حول إلغاء الاحتكار نظام الإخضاع إلى ما يسمى « سياســة المركزية المباشرة » بمعنى أن المستعمرة تدار بوساطة المستعمرين لصالحها ، دون أن يكون للمواطنين تدخل فى هذه السياسة . وفى الوقت نفسه يعترف بمصالح المستعمرة اقتصادياً ، وإن كانت هذه المصالح لا تتفق مع مصالح « الدولة الأصل » .

٢ — أما سياسة الإدماج فتقوم على فلسفة تقول بأن أقاليم ما وراء البحار

ليست فى الواقع إلا امتداداً للدولة الأصل ، وأن سكان هذه الأقاليم تكون لهم الحقوق والواجبات التى تتوافر فى الدولة الأصل ، وتترتب على هذه السياسة النتائج الآتية :

(ا) اشتراك السكان فى الحياة السياسية للاقاليم ، وانتخاب ممثلين عنهم فى الجمعيات السياسية المنشأة بمقتضى الدستور .

(ب) وحدة تناسق النظام القضائى .

(جـ) عدم تعارض سياسة الإدماج مع اللامركزية أو الاستقلال الذاتى الإدارى

(د) اختفاء الرسوم الجمركية فى العلاقات التجارية بين الدولة الأصل والأقاليم ، ووضع تعريفة جمركية على الواردات الأجنبية .

ونظرية الادماج هذه ترجع إلى العهد الملكى القديم ، وقد نادت به الثورة فى شعارها التقليدى عن الوحدة ، وتماسك الأجزاء ، وسادت فى عصر حكومة المؤتمر ، والجمهوريتان الثانية ، والثالثة .

وقد انتقد نظام الإدماج هذا « روبرتس » . وأكد أنه نظام مفتعل تنقصه المرونة الإدارية ، ومراعاة ظروف كل مستعمرة على حدة . فمثل هـذا النظام يشل التقـدم فى المستعمرات ، ويوقف فيها حركة التطور الذاتى التى تقوم أساساً عـلى مراعاة ظروف كل إقليم على حدة ، ثم يسخر من هذه النظرية فى قوله « إن الظروف قد تتغير ، ولكن قانون نابليون باق إلى الأبد ، وإذا كان لا يصلح لأهل المستعمرات فالعيب عيبهم لا عيب القانون . فليتلاءموا مع القانون . أو فليسمعوا العامل الآخر للاستعمار الفرنسى وهو طلقات المدفع الرشاش ! ! » .

كما جاء فى مذكرة حزب الشعب الجزائرى أن ظاهر هذا النظام تحقيق التماثل بين المستعمرة ودولة الأصل ، أما باطنه فهو لا ينطبق فى الجزائر إلا على المستعمرين المقيمين فقط ، دون السكان الأصليين . فالذى يريده المستعمرون هو إدماج أرض الجزائر فى فرنسا وليست تسوية مواطنيها بالفرنسيين ومن هنا يصبح هذا النظام « إدماجاً » بالنسبة للمستعمرين و « إخضاعاً » بالنسبة للمواطنين !

ومع أن نظام الإدماج قد طبق على عدة مستويات مثل الإدماج الكامل والإدماج المخفف . والإدماج مع الاستقلال الذاتى ، إلا أنه ظل دائماً يضغط على الأقاليم . ويقتل فيهم الشعور الوطنى .

٣ — أما سياسة الاستقلال الذاتى فتنحصر فى ترك السكان فى الأقاليم يباشرون حكم أنفسهم بأنفسهم فى الشئون المحلية . والتطبيق الفرنسى له يرجع إلى عام ١٩٥٥ — ١٩٥٦ حين منحت « تونس » استقلالا ذاتياً داخلياً مع قيام اتحاد بينها وبين فرنسا يتضمن قيام التعاون بين البلدين ، فى الوقت الذى يظل فيه تمثيل تونس السياسى موكولا إلى فرنسا ، وكذلك مشروعية الدفاع ، ثم عدل هذا بعد ذلك فى

صالح تونس، وإن ظل محتفظاً بعلاقة التعاون بين البلدين ، وبإبقاء قاعدة «بنزرت» البحرية فى البلاد . على أن هذا النظام يأخذ عدة مستويات كذلك ، فهناك الاستقلال الذاتى الكامل ، والاستقلال الذاتى الناقص ، والاستقلال الذاتى الإدارى .

والفرنسيون يعتبرون الاستقلال الذاتى سياسة إنجليزية ، وانعكاساً للفردية القصوى التى تتسم بها النظم الإنجليزية ، وهو ما عبر عنه الخديوى اسماعيل بقوله « إن لدى البريطانيين دواء واحدا لكل شعب ألا وهو الحكومة النيابية » ، ولذلك نرى الفرنسيين يؤيدون نظام « الإدماج » ويعملون على تأكيده بدلا من نظام « الاستقلال الذاتى » ، ذلك لأن الحضارة الفرنسية فى نظرهم كنز يجب أن ينتفع به أبناء المستعمرات ، ومن هنا فعليهم أن يتكيفوا بالعادة الفرنسيين وأن يتناسوا ماضيهم وثقافتهم وتاريخهم ، وينصهرون تماماً فى البوتقة الفرنسية بحيث يتكون منهم « كائن فرنسى » .

من هذا نرى أن الاستعمار كما يقول « لوشير » مشروع ينحصر فى هجرة المستعمرين ، وسيطرتهم على الإقليم المستعمر ، وهناك مدرستان تبرر الاستعمار والناحية الاقتصادية وهما المدرسة الألمانية والمدرسة الإنجليزية ، أما الأولى فتبرر هذا الاستعمار بأن تزايد السكان بألمانيا مع ضيق المساحة يدفع بالشعب دفعاً إلى إيجاد الرفاهية ، ومن هنا كان الدافع له فى مد نفوذه فى أكثر من مكان ، ويعتبر « فريدريك ليست » زعيم هذه المدرسة التى ترى أن المستعمرات هى أفضل الوسائل لترويج المصنوعات ، ولوضع اليد على الصادر والوارد فى الأمة التى بلغت قمة النمو الاقتصادى .

أما المدرسة الإنجليزية فتعتمد على نظرية « مالتس » المتشائمة عن اختلال التوازن بين السكان والموارد الغذائية ، وبعبارة أخرى أن هناك ميلا إلى ازدياد السكان بنسبة أسرع من الميل إلى زيادة المواد الغذائية ، وأنه يمكن أن يتضاعف سكان كل دولة فى خلال خمسة وعشرين عاماً إذا سارت الأمور سيراً طبيعياً ، وقد كانت نتيجة هذا التفكير التوسع لخلق آمال جديدة أو على حد سيسيل رودس « يوحد الأمل حيثما يوجد المكان » .

ويمكن إرجاع الاستعمار بعيداً عن النظريات إلى ما يأتى :

١ – الثورة الصناعية .
٢ – الحصول على سلع الشرق بثمن بخس .
٣ – اضطراد الكثافة السكانية فى أوروبا .
٤ – الحصول على قواعد استراتيجية جديدة .
٥ – الاستيلاء على اليد العاملة .

* * *

وقد تعرض المؤلف لتطور السياسة الفرنسية التى مرت بالنظام الملكى القديم ، وعهود الثورة ، والقنصلية والإمبراطورية الأولى ، وحكومة

العودة ، ملكية يوليو ، الجمهورية الثانية ، الإمبراطورية الثانية والجمهورية الثالثة ، ثم دستور عام ١٩٤٦ الذى يتلخص فى الأخذ بمبدأ الإدماج بالنسبة لمقاطعات ما وراء البحار . والاستقلال الذاتى بالنسبة للدول الأعضاء ، ومبدأ الإدماج مع الاستقلال الذاتى بالنسبة لأقاليم ما وراء البحار .

وقد تكونت عناصر الإمبراطورية الفرنسية فى عهد الجمهورية الثالثة من القطاعات الآتية :

١ – الاقطار الواقعة تحت الانتداب مثل توجو ، والكامرون .
٢ – الدول الواقعة تحت الحماية كتونس ، ومراكش .
٣ – الأقطار التى اعتبرت مقاطعات من دولة الأصل كالجزائر .
٤ – المستعمرات ، وتشمل الأقاليم السابقة ، والتى كانت تدار بوساطة وزارة المستعمرات الفرنسية .

أما عناصر الاتحاد الفرنسى فى عهد الجمهورية الرابعة فكانت تشمل :

١ – الجمهورية
(ا) المقاطعات الأوروبية .
(ب) مقاطعات ما وراء البحار كالجزائر .
(ج) أقاليم ما وراء البحار هى : السنغال والسودان وغينيا وساحل العاج وداهومى وموريتانيا والنيجر وفولتا العليا والكونغو الأوسط وأوبانجى تشارى وتشاد وجابون ومدغشقر ، وساحل الصومال .
٢ – الأقاليم المشتركة وتضم توجو والكامرون .
٣ – الدول المشتركة وتضم الدول التابعة لها فى آسيا .

أما عناصر الجمهورية الفرنسية فى عهد الجمهورية الخامسة فكانت تشمل :

١ – الجمهورية
(ا) المقاطعات الأوروبية .
(ب) مقاطعات ما وراء البحار .
(ج) أقاليم ماوراء البحار .
٢ – الدول الأعضاء ، ويشمل إحدى عشرة دولة تملك السيادة الداخلية .
أما « توجو » فقد استقلت ، وكذلك الكامرون

ثم تحدث المؤلف عن الأجهزة المركزية فى الاتحاد السابق . والجماعة الحالية ، وعن الهيئة التنفيذية الاتحادية ، والمجلس التنفيذى الحالى . والهيئة التشريعية الاتحادية . ومجلس شيوخ الجماعة فى الدستور الحالى ، والهيئة القضائية الاتحادية . وإجراءات التقاضى . وإقامة المساواة الوظيفية بين الدول المشتركة . وأنظمة الحكم فيما وراء البحار . وتطورها بعد عام ١٩٤٦ ووقف وقفة كبيرة عند « الجزائر » فذكر أن مقاطعات الجزائر السابقة لدستور عام ١٩٤٦ — على حد قول كولمان — لا يمكن إلا أن تندرج تحت طبقة مقاطعات ما وراء البحار ، على أن « فيار » يزعم أنها جزء من المجموعة المركزية مع فرنسا وكورسيكا ، بينما « ريشامب » يقول إن الشراح يضعونها بين مقاطعات ما وراء البحار مع الاعتراف بأنها ذات وضع خاص جداً

على أن قانون الجزائر الصادر فى ٢ سبتمبر عام ١٩٤٧ ينص فى مادته الأولى على أن الجزائر تتكون من مجموعة مقاطعات ذات شخصية مدنية واستقلال مالى ، وتنظيم خاص ،

ويقف على رأس هذا التنظيم حاكم عام يعينه رئيس الجمهورية ويتبع وزارة الداخلية .

ويعاون الحاكم العام سكرتير عام. ومجلس الحكومة الذى يتكون من ستة أعضاء يعين الحاكم العام اثنين منهم . بينما تعين الجمعية الجـزائرية الباقين . أما الجمعية الجزائرية فتضم قسمين . كل قسم يمثله ستون عضواً . ومدة الدورة ست سنوات وتفسير ذلك أنه يوجد ازدواج فى سكان الجزائر . فهناك قسم يخضع فى أحواله الشخصية للقانون المدنى الفرنسى . بينما يخضع الفريق الآخر لقانون الأحوال الشخصية المحلى . ويعقب « كولمان » على هذا النظام بقوله إن هذا النظام سيحقق الأغلبية للنصر الجزائرى البالغ عدده تسعة ملايين على المستوطنين الأوروبيين البالغ عددهم ٨٠٠ ألف نسمة .

على أنه بعد أن شبت الثورة الجزائرية تخلى الجزائريون عن مقاعدهم فى الجمعية الجزائرية مما ترتب عليه تعطيلها فى فبراير عام١٩٥٦ . وحلها فى ابريل عام ١٩٥٦ ثم وضع نظام للحكم هناك فى ٥ فبراير من عام ١٩٥٨ . وقد نص فيه على أن الجزائر جزء متمم للجمهورية الفرنسية . وفى الوقت نفسه تعترف بشخصيتها عن طريق إقامة الاستقلال الذاتى للأقاليم فى حدود هذا القانون . والهدف من وراء تقسيم الجزائر إلى أقاليم معروف وهو القضاء على « الوحدة » هناك .

ثم حدث الانقلاب الأخير الذى كان ثمرته « دیجول » والذى جاء فى شروط قبوله للحكم هذا الشرط وهو « أن يحل محل الاتحاد الفرنسى المركزى اتحاد حديد تمنح فيه أقاليم ما وراء البحار حكماً ذاتياً محلياً يصل إلى درجة الاستقلال » . وقد صرح بعد ذلك بأن مستقبل الجزائر سوف يقوم على دعامتين هما : الاعتراف بشخصية الجزائر، وارتباطها الوثيق بفرنسا . ومن أجل تدمير هذا الشرط الأخير تقوم الآن الثورة الجزائرية .

ثم تعرض المؤلف لنظام الحكم فى الجزائر . وفى مقاطعات ما وراء البحار الأخرى . وفى أقاليم ما وراء البحار . وقدم تحليلا لوزارة فرنسا لما وراء البحار . والوزارات الأخرى المختصة بأقطار ما وراء البحار . وللنظام التشريعى . والقضائى . ولنظام الحكم فى الأقاليم المشتركة فى الاتحاد الفرنسى السابق . ولنظام الحكم فى الدول الأعضاء فى الجماعة الحالية .

ثم تحدث عن الشخصية القانونية لأقطار وأقاليم ما وراء البحار . وأن الشخصية القانونية لجماعة معينة يجب أن يتحقق فيها شرطان هما :

١ — شرط موضوعى هو وجود مصلحة جماعية منفصلة عن المصالح الفردية ، لكونها أوسع مجالا ، وأبعد أفقاً من النظرة الفردية .

٢ – شرط شكلى هو وجود تنظيم – فى هذه الجماعة – قادر على توليد إرادة جماعية تعبر عن المصلحة الجماعية ، وتمثلها فى المجال القانونى .

فبالنسبة للجزائر قبل عام ١٩٤٧ يرى فريق أنه كانت لها شخصية قانونية . بينما يرى فريق آخر أنه لم تكن لها شخصية قائمة بذاتها . أما فيما بعد ٢٠ من سبتمبر عام ١٩٤٧ فقد نص القانون على أن الجزائر مجموعة من المقاطعات . لكل منها شخصية مدنية . واستقلال مالى . ونظام خاص . وطبقاً لهذا القانون نرى أن الوضع الإدارى قد تغير بإدماج أقاليم الجنوب فى الجزائر . وباعتبار المجموعة الناشئة من المقاطعات الأصلية . ومقاطعات الجنوب ذات شخصية قانونية قائمة بذاتها .

أما الجزائر حسب قانون ٥ نوفمبر عام ١٩٥٨ فنرى أن الجمعية الفرنسية تقرر أن الجزائر جزء متمم لفرنسا . وأن على مقاطعات الجزائر أن تدير شئونها بحرية كاملة . . ومهما يكن من شىء فقد قامت حكومة الجزائر الحرة فى ١٩ من سبتمبر عام ١٩٥٨ مستهدفة الانفصال التام عن فرنسا . وقد بلغ عدد الدول التى اعترفت بها سبع عشر دولة . ويترتب على هذا الاعتراف وجوب معاملة حكومة الثورة كدولة ذات شخصية دولية . فللثوار كافة الحقوق التى يرتبها القانون الدولى العام للدولة المحاربة .

* * *

وقد تعرض المؤلف بعد ذلك للشخصية القانونية للأقاليم المشتركة . وللدول المشتركة . وللدول الأعضاء فى الجماعة الحالية . كما تعرض للمركز القانونى للسكان فى أقطار ما وراء البحار . فذكر أن اصطلاح «الجنسية» حديث لم يكن يعرفه المشرع الفرنسى اكتفاء بعبارة صفة الفرنسى .

والجنسية فى نظر القانون هى انتساب الفرد إلى دولة معينة فهى حالة قانونية تترتب عليها حقوق . والتزامات متبادلة بين الفرد ودولته فتدخل بذلك فى دائرة القانون العام . على أن التشريع يعتبر مصدر «الجنسية» وعلى حد قول نيوبيه « إن الجنسية هى علاقة سياسية بين الفرد وإحدى الدول أو ما يقوم مقامها » وتعنى عبارته الأخيرة الأقاليم الموضوعة تحت الانتداب . ومن هنا يكون لسكان التوجو . والكامرون جنسية خاصة . على أن المؤلف يرى أن الجنسية هى انتماء الفرد إلى دولة معينة سواء كانت هذه الدولة كاملة السيادة أو ناقصتها كالدول المحمية أو الدول التابعة . ومن ثم يرد على « فيس » الذى لم يلحظ الفرق بين الدولة والأمة . ذلك لأن الأمة ليست مرادفة للدولة « فكم من أمة لا تكون دولة وكم من دولة تتكون من عدة أمم » .

وتترتب على « الجنسية » الحماية الدبلوماسية فى الخارج . ومباشرة

الحق السياسى فى الداخل على أن هذه الحقوق مجتمعة تكون ما نعبر عنه المواطن ، ثم يطبق المؤلف المصطلحات القانونية على فرنسا فى الداخل والخارج

وأخيراً يقدم المؤلف خلاصة رأيه عن مشكلة الجزائر فيقول : إن لشعب الجزائر الحق فى أن يختار حكومته ، وأن يقرر مصيره ولو كره المستعمرون كذلك جاء فى ديباجة ميثاق الأمم المتحدة أن الشعوب كبيرها وصغيرها متساوون فى الحقوق . ومن ثم فليس لشعب أن يتحكم فى شعب آخر . ولا ريب أن لشعب الجزائر قوميته المتميزة عن القومية الفرنسية . وفى هذا المعنى أدلى بلقاسم بحديث لصحيفة نيوراين زيتونج التى تصدر فى بون قال فيه « نحن لا نريد أن نصبح فرنسيين لأننا لسنا كذلك » .

ويرى المؤلف أن أعظم دليل على أن الجزائريين ليسوا فرنسيين ، هو اضطهاد الفرنسيين لهم اضطهاداً عنصرياً وثقافياً ، ودينياً ، وأنه إذا أريد للاستفتاء أن يصبح حلا يخدم قضية الجزائر فلا بد أن يتم تحت رقابة لجنة دولية ، بعيداً عن تدخل الدول المحتلة عامة عن طريق الإرهاب أو الدعاية أو ما يشبه ذلك ، ولا شك أن النتيجة ستكون الانفصال عن فرنسا باعتباره جزءاً لا يتجزأ من الأمة العربية .

ومن هذا نرى الكتاب موسوعة عالمية فهو دراسة سياسية قانونية تحليلية مقارنة . ويكفى أن نذكر أنه يعتبر رائداً فى هذا المجال ، وإذا كان لا بد من ملاحظة عابرة فهى التكرار فى بعض الأحيان ، وعدم تحديد المصطلحات فقد عبر عن كلمة «باى» التى كانت تعتبر مصطلحاً لرئيس الدولة فى تونس بلقب « بك » المعروفة عندنا . والمصطلحان مختلفان ، كما أن المؤلف اعتمد كثيراً على بعض الصحف اليومية فى نقاط تستلزم التحقيق العلمى .

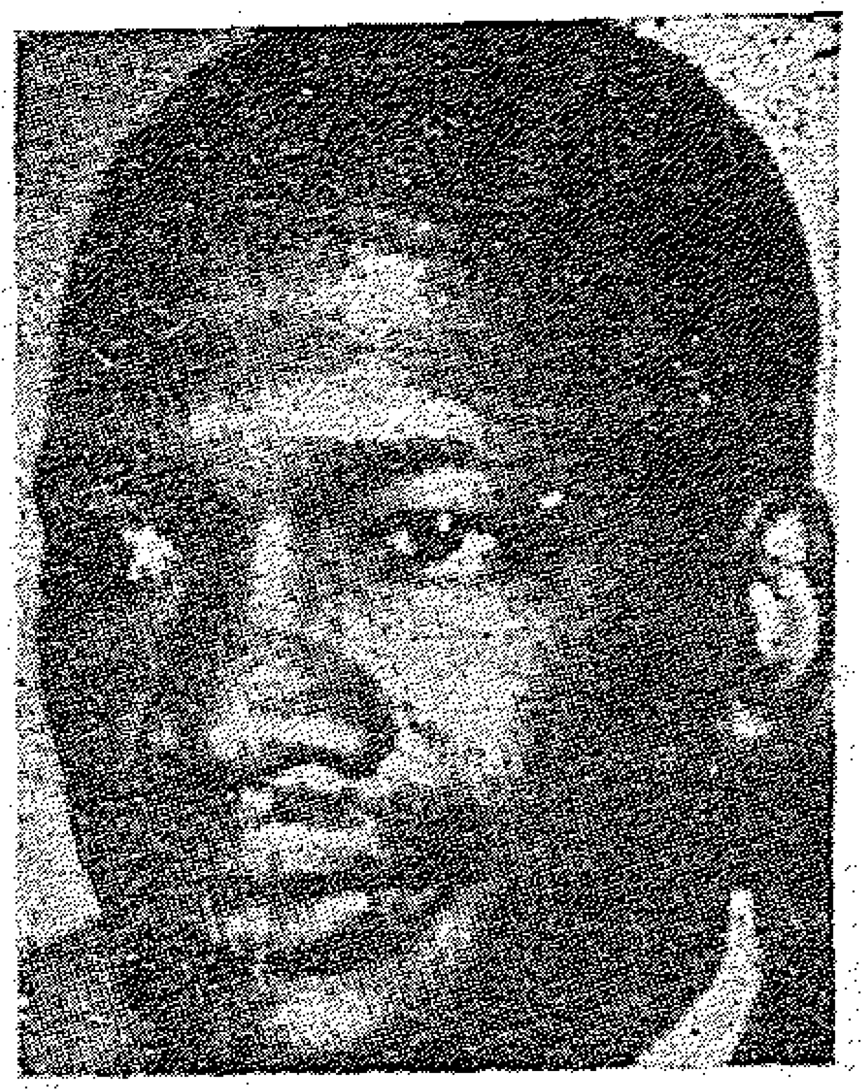

القائد الافريقى هانيبال

للأستاذ : مصطفى الشهابى

نبدأ جولتنا مع هذا البطل الإفريقى العربى حين نراه فى صغره يلح فى الذهاب إلى الحرب مع والده «هملكار» وحين نراه يقسم على قاعدة تمثال الإله « بعل » بأنه سيظل طول حياته عدواً لروما ، ومن ثم أبحر مع والده إلى إسبانيا .

وفى إسبانيا ظهر نبوغ هانيبال الحربى فى المعارك التى اشترك فيها — رغم صغر سنه فلما توفى هرزدوبال اختار الجنود القرطاجية هانيبال قائداً لهم ، ثم أيدت حكومة قرطاجة ذلك الاختيار وثبتت هانيبال فى منصب قائد جيوشها .

كانت قرطاجة يومئذ عاصمة لدولة عربية أنشأها الفينيقيون (سكان لبنان القدماء) فى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد وتقع على مسافة خمسة أميال شمال مدينة تونس الحالية .

ويسميها الافرنج Carthage وأطلق عليها مؤسسوها اسم « قريت حديشت » ومعناها بالفينيقية « المدينة الجديدة » ليفرقوا بينها وبين صور عاصمة فينيقية يومئذ أو ليميزوها عن مدينة تقع فى شمالها الغربى وكانت تسمى « اوتيكا » .

وأخذ شأن قرطاجة يعلو منذ القرن السادس قبل الميلاد ، وقد بلغت ذروة مجدها فى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد أيضاً ، وذلك حين ظهر فيها قائد حربى دوخ الأمم وفتح البلاد وشهد له أعداؤه بالمهارة الحربيـة والبراعة فى الحيلة العسكرية ، وعـدَّه المؤرخون من أكبر القـواد الذين يتحدث عن مفاخرهم التاريخ . وتشيد بذكرهم الأجيال المتوالية . ذلك هو « انيبال » أو « هانيبال » أو « حنيبعل » (أى رحمة الاله من « حنو » السامية أى رب أو سيد) ذلك الفارس القرطاجى الذى ما كاد يتولى القيادة

القائد « هانيبال »

العامة لجيش قرطاجة[1] حتى أخذ نجمه في الصعود إذ تمكن أن يكتسح جميع الجيوش المعادية له في إسبانيا وبلاد الغالة (فرنسا) وصار ينتقل من نصر إلى نصر . ويضم من يحب الانضمام إليه من جيوش أعدائه .

وأصبحت قرطاجة الدولة الأولى في البحر المتوسط بفضل أسطولها العظيم وجيشها الباسل وشملت أملاكها أجزاء واسعة على شواطىء تونس والجزائر ومراكش (المغرب) وإسبانيا وجزر صقلية ومالطة وسردينيا وكورسيكا .

وأصبح البحر المتوسط بحيرة . قرطاجية بمعنى الكلمة وحق للقرطاجيين أن يرددوا تلك العبارة :

« لا يجرؤ شخص في الوجود أن يغسل يده بمياه البحر المتوسط دون إذن منا »

في ذلك الوقت كانت روما قد استكملت تكوينها وبسطت سلطانها على شبه جزيرة إيطاليا . ولما أرادت أن توسع أملاكها خارج شبه الجزيرة وجدت قرطاجة عقبة كأداء أمامها بثرائها الطائل وأسطولها الضخم ومستعمراتها الواسعة فاعتزمت القضاء على قرطاجة والاستيلاء على أملاكها .

وقد ساعد روما على تحقيق تلك الأمنية عاملان .

١ - إن قرطاجة كانت تستخدم جنوداً مرتزقة . قل أن تخلص لمن استأجرها إذ ضمت يونانيين وفرنسيين ولوبيين وإسبانيين بعكس الرومان الذين كانوا يقاتلون لرفع شأن بلادهم .

٢ - إن القرطاجيين اساءوا معاملة سكان مستعمراتهم ولذلك انضموا إلى أعدائهم .

بدء الصراع :

كان يتولى الحكم في جزيرة صقلية أميران : أحدهما على سيراكيوز (سرقسه) والآخر على مسينا وأراد أمير سرقسة أن يضم إليه (مسينا) فاستغاث أميرها بروما فبادرت إلى نجدته وتمكنت من الاستيلاء على جزيرة صقلية والتجأ أمير سيراكيوز إلى قرطاجة فقامت الحرب . غير أن روما انتصرت وانتهى الأمر بالصلح سنة ٢٤١ ق . م على أن تظل أغلب أجزاء صقلية تحت حكم الرومان .

لم يكن ذلك الصلح سوى هدنة . وحدث أن قام الجنود المرتزقة في قرطاجة بثورة فانتهزت روما تلك الفرصة واستولت على جزر سردينيا وكورسيكا فقام هزدروبال بالاستيلاء على جزء كبير من إسبانيا ودرب فيه جيشاً لقتال الرومان غير أنه قتل قبل أن يتمكن من الاشتباك مع روما .

اتجهت أنظار القرطاجيين إلى هانيبال فولوه قيادة الجيش فأسرع لمحاصرة مدينة إسبانية التي كانت تحت حماية روما فما كان من روما إلا أن أرسلت وفداً إلى قرطاجة يطلب من أهلها أن يستنكروا عمل هانيبال ويسلموه إلى الرومان .

ولم يكن من السهل قبول مثل هذا

---

(١) قرطاجة في شمال إفريقية وهي غير قرطاجنة التي تقع على الساحل الشرقي لإسبانيا وقد أنشأها القرطاجيون ومعنى اسمها «قرطاجة الصغيرة» .

العرض فجمع رئيس وفد روما عباءته بيديه وقال :

– إنى أحمل إليكم فى عباءتى السلم والحرب فاختاروا منهما، أيها القرطاجيون ما تريدون .

فقالوا :

– اعطنا ما تشاء .

فأجاب :

– ها أنا أعطيكم الحرب .

وقامت الحرب ووجدها نيبال أن الحكمة تقضى باتخاذ طريق البر حتى يتفادى الأسطول الرومانى ولذلك تحرك من إسبانيا على رأس جيش يتألف من مائة وخمسين ألف جندى وثمانين فيلا يتقدمها فيله الخاص الذى دعاه « الظافر » . ٢٠٠٠ ثور . ثم عبر جبال البرانس واخترق فرنسا واجتاز جبال الألب برغم برودة الجو يومئذ بسبب حلول فصل الشتاء ونزل بشمال ايطاليا فلما أصبحت جبال الألب خلفه ونهر البو أمامه وبحر الادرياتيك عن يساره وخليج جنوه عن يمينه وقف بين جنوده خطيباً وقال :

« أيها الجنود إنى لا أدرى إذا كان الحظ لكم أو لمن فى أيديكم من الأسرى ، فقد شد بكم جميعاً الوثاق ، وحمت الحاجات ، فعن اليمين وعن الشمال بحران يكتنفانكم وليست لديكم سفينة واحدة تهرعون إليها . ومن بين أيديكم نهر « بو » وهو نهر أعرض وأسرع جرياً من الرون . ومن خلفكم جبال الالب ، تلكم الجبال التى لم تستطيعوا اقتحامها إلا بشق الأنفس حتى فى أيام وفرة عددكم . فهيا أيها الجيوش ، فليس أمامكم إلا الفناء أو النصر على الأعداء يوم لقائكم لهم .

أيها الجنود ، لا تيأسوا فان تلك القدرة الالهية التى ألقت بكم فى هذا المأزق الحرج الذى يرغمكم على القتال هى عينها التى أعدت لكم على مرأى منكم نعيماً عظيماً ليكون أجراً لكم على انتصاركم وجزاء لا يرجو أعظم منه إنسان من الله الباقى .

اننا ان لم نستطع ببأسكم وحميتكم إلا أن نعيد إلى حوزتنا صقلية وسردينية . اللتين سلبهما العدو من آبائكم سلباً . لكان ذلك جزاء وفاقاً لا يستهان به . ولكن أين هاتان مما أعد لكم من ثروة رومة الطائلة . وأموالها المكدسة وغنائمها التى سلبتها الأمم الأخرى، كل هذه وأصحابها ستكون لكم وفى حوزتكم .

إنكم أيها القوم طالما استعبدتم واستخدمتم فى رعى الأغنام والماشية فوق تلك الجبال الشاسعة جبال لوسيتانيا وكلتبيريا . ولما تجزوا بعد جزاء يساوى ما تحملتم من مشاق وصادفتم من أخطار . أما الآن فقد آن أن تعوضوا خير عوض على مسيركم الشاق المجهد . وعلى اقتحامكم الجبال الشاهقة . وعبوركم الأنهار الكثيرة . وجوسكم خلال الديار التابعة لأمم عديدة مسلحة . وهنا حيث جعلت العناية الالهية منتهى سعيكم ومحط رحالكم ، وههنا تضعون حداً لجهودكم الحربية المجيدة ، وتجزون الجزاء الأوفى على خدماتكم التى أديتموها تمام الأداء .

إنى أربأ بكم أيها القوم أن تتصوروا أن الانتصار صعب المنال ، أو تعتقدوا كما يعتقد الناس أن اعلان حرب على رومة أمر عظيم له وقع فى النفوس ولتعلموا أنه كثيراً ما تغلب جيش مستصغر على عدو مستعظم ، وصمد له فى معارك أريقت فيها الدماء ، وحصدت فيها الرؤوس وكم ثلت عروش فخمة ، وأفنيت أمم عريقة فى المجد على أيدى جيوش قليلة العدد .

وإنكم لو جردتم رومة من اسمها الفخم البراق وصيتها الذائع فما الذى يبقى لديها مما تستطيع أن تقف به أمامكم وتنافسكم فى قوتكم وبأسكم . . . !

وإننا لو تغاضينا عن خدماتكم الجليلة فى تلك الحروب الطاحنة المتعاقبة التى دامت عشرين حولا أظهرتم فيها ما أظهرتم من البسالة والاقدام نلتم فيها ما نلتم من الفوز والنصر المؤزر . أقول لو تغاضينا عن هذه كلها لبقيت لكم مفاخر أخرى أعلى شأناً وأجل منزلة.

ألم تأتوا من أسوار هركوليس (جبل طارق)، ألم تجوسوا خلال ديار لأقوام عرفوا بالمهارة الحربية أمثال الإسبان والغال (فرنسا)، ألم تصلوا إلى هذه البلاد منتصرين فائزين . . . !

ومع ذلك فمن ستقاتلون . . . ! ستقاتلون فلول جنود قواهم غير ناضجة وجيشاً يعوزه النظام . قد كسرت شوكته ، وحاصره الغال صيف العام الماضى . وما بالكم بجيش لا يعرف قائده ولا يعرفه قائده . . ! »

وبعد نحو تسعة قرون قام طارق ابن زياد بحملة مماثلة ، فلما علم بما أعده لذريق ملك القوط من جيش جرار ، أحرق طارق السفن التى أقلت جنوده حتى يقطع كل أمل فى فرارهم وعودتهم إلى بلادهم وخطبهم خطبته المشهورة التى منها :

« أيها الناس ، أين المفر ، البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا انكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدب اللئام . الخ »

فما أعجب التاريخ إنه دائماً يعيد نفسه.

وأحدثت خطبة هانيبال أثرها فى نفوس جنوده إذ ما لبث أن التقى بالرومان فى عدة مواقع انتهت بهزيمتهم هزائم ساحقـــــة وقد كان هانيبال يستعمل خطة المفاجأة فى حروبه فيوقع الاضطراب فى صفوف العدو .

من ذلك أنه كشف ذات مرة حين انسدل الظلام أن عدوه يعسكر فى واد عميق ونيرانه موقدة .

فأمر هانيبال رجاله بأن يجمعوا مثتى ثور على قمة الأكمة . وأن يربطوا بقرنى كل ثور مشعلا من الخشب الراتنجى السريع الالتهاب . وحين أعطى هانيبال إشارة متفقاً عليها أوقد الرجال النار فى الخشب ، ودفعوا الثيران إلى الوادى وخزاً وركلا ، فانطلقت وقد جن جنونها باربعمائة مشعل ملتهب ، وشقت طريقها على غير هدى خلال المعسكر تبث الذعر وتنشر الخراب وتشعل المنطقة كلها .

ثم هجم هانيبال وهزم عدواً دب فى صفوفه دبيب الفوضى .

ثم ولى هانيبال وجهه شطر روما فلما علم أهلها بتحركه نحوها فزعوا ودب الرعب فى قلوب حكامها وشعبها وكانوا كلما تجادلوا أو تنازعوا يقول بعضهم لبعض « كيف نجادل ونخاذل بعضنا بعضاً وهانيبال على الأبواب ! »

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت عبارة « هانيبال على الأبواب » انذاراً بخطر مقبل ودعوة للاتحاد .

ولكن هانيبال لحسن حظ روما وسوء حظه هو — لم يبادر للاستيلاء عليها ، بل وقف وقفة المتردد الذى يحجم ولا يقدم فاستعجله قواده وطلبوا إليه أن يسير بكتائبه إثر فلول الرومان الهاربة ، ولما لم يجد الحاحهم شيئاً صاحوا به :

« إن أمامك خمسة أيام لتقتحم أسوار روما وتفتح لك أبوابها وتدخلها وتجلس مجلس الحكم فى الكابيتول ويخضع لك قناصلها ويحكموك فيما شجر بينهم ويسلموا لك » .

ولكنه يحقق جاههم وبذلك

يستفد هانيبال من انتصاره إذ كان من واجبه أن يحطم روما فوراً مما دعا مهربال Maharbal أحد قواده إلى انتقاد مسالكه بقوله :

« عرفت كيف تنتصر ولكنك لم تعرف كيف تستغل هذا النصر » .

لجأ الرومـــان فى الدفاع عن عاصمتهم إلى تعيين فابيوس مكسيموس دكتاتوراً فعمد إلى مناوشة هانيبال دون أن يدخل معه فى معركة حاسمة وذلك فى الوقت الذى كان فيه الأسطول الرومانى يحول دون وصول أية ، امدادات من قرطاجة .

غير أن الرومان رغبوا فى نصر عاجل واعترضوا على تلك الخطـــة وأطلقوا على صاحبها اسم « المؤجل » وعزلوه وعينوا مكانه قنصلين .

جهز هذان القنصلان جيشاً كبيراً ولكن هانيبال هزمهما واستمر فى فتوحه حتى سيطر على إيطاليا وصقلية ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على مدينة روما وظل يحاول اقتحامها بين آن وآخر مدة خمسة عشر عاماً دون أن يستطيع أخذها ،وأنجده أخوه هزدروبال وقصد إليه على رأس جيش دحره الرومان وقتلوا قائده وألقوا برأسه فى معسكر أخيه هانيبال وبذلك حرموا بطل قرطاجة من نجدة ربما غيرت مجرى التاريخ .

وشجع ذلك النصر الرومان وأخذ خطباؤهم يرددون فى آخر كل خطبة « لتهدم قرطاجة » فحفز ذلك الرومان على مهاجمة قرطاجة رأساً فذهب سبيو (شبيون) الذى اشتهر باسم الإفريقى فيما بعد لفتحه إفريقية ، لمهاجمة قرطاجة .

فعجل هانيبال للقائه والتقى به على مسافة ١٥٠ كيلو متراً من قرطاجة ولكن سيبو هزمه فى موقعة زاما سنة ٢٠٢ ق . م وكانت تلك أول هزيمة صادفها هانيبال .

وعقد بين روما وقرطاجة اتفاق تنازلت بمقتضاه قرطاجة عن أملاكها فى إسبانيا وعن الجزر التى تملكها فى البحر المتوسط وأن تدفع جزية سنوية وتسلم أسطولها . وأخيراً ألا تشتبك فى حرب مع أية دولة إلاّ بإذن من روما .

وعين هانيبال حاكماً لقرطاجة وظل فى منصبه سبعة أعوام حاول فيها النهوض مرة أخرى بقوة قرطاجة الحربية وأحس الرومان بجهوده ولمسوا ما بلغته عدوتهم من رخاء فطلبوا تسليم هانيبال .

ضاقت قرطاجة فى وجه هانيبال وخشى أن يسلمه الجنود المرتزقة إلى أعدائه فقصد إلى صور عاصمة فينيقية مهد أجداده فلم يجد بها ما يحقق ميوله الحربية فغادرها إلى سورية ونزل فى ضيافة ملكها اليونانى انطوخيورس الثالث الذى كان يعد جيشاً لقتال روما فنصحه هانيبال أن يجهز أسطولا ولكن

دسائس رجال البلاد جعلت الملك لا يرحب بفكرة هانيبال .

وأحس هانيبال أن أنطوخيورس يفكر فى تسليمه لروما حتى ينال رضاها ولذا فر إلى كريت وإلى آسيا الصغرى حيث أقام فى إحدى دويلاتها .

وفى أثناء مقامه بها طلب إليه ملكها أن يقود جيشاً ليقاتل به ملكاً آخر فلبى هانيبال دعوته وتولى قيادة جيشه وانتصر انتصاراً باهراً دوت له أرجاء الإمبراطورية الرومانية .

وخشيت روما من بزوغ نجم هانيبال بعد أفوله فأوفدت بعض جنودها للقبض عليه وعرف هانيبال بما اعتزمه الرومان وعلم أن مضيفه لن يعارض فى تسليمه .

فأعد فى القصر الذى أقام به سبعة منافذ ليهرب منها إذا اضطره الحال .

ووصل الجنود الرومان وضربوا على قصره حصاراً وعند ما حاولوا القبض عليه وجد المنافذ السبعة محوطة بالجند ولم يجد سبيلا للخلاص من القصر ثم العذاب والقتل . سوى الانتحار فتناول سما زعافاً كان يخفيه فى خاتم له فمات وهو فى الخامسة والستين .

وهكذا انتهت حياة بطل عظيم دعاه مونتسيكو الفيلسوف الفرنسى « المارد الجبار فى الزمان القديم » .

ولا تزال خطط هانيبال الحربية تعتبر نموذجاً لفن القيادة فى الحروب ، بل إن نابليون بونابرت نفسه لجأ إلى بعض خطط هانيبال فى معركة « استرالتز » المشهورة .

نهاية قرطاجة :

تكرر اعتداء ملك نوميديا . إحدى الدول الافريقية يومئذ . على قرطاجة فلما قامت تدافع عن نفسها اعتبرت روما فى هذا الدفاع خرقاً للمعاهدة وأغارت عليها ورأى القرطاجيون لعجزهم عن الدفاع أن يسترضوا روما بالتنازل عما لديهم من سفن وأسلحة . ولكن روما أصرت على طرد القرطاجيين من بلدهم .

عندئذ هب القرطاجيون على بكرة أبيهم وبنوا أسطولا جديداً وقاوموا الرومان عامين إلا أنهم أخفقوا فى ردهم .

وهاجم الرومان المدينة وأشعلوا فيها النيران التى ظلت مشتعلة سبعة عشر يوماً وخربوها ونقلوا ما بها من تحف وآثار إلى روما كما نقلوا المرمر الذى بقى إلى بيزا . وبنوا بها كاتدرائيتها المشهورة .

وهكذا قضى الرومان على دولة عربية فتية ولكنهم لم يستطيعوا محو صحيفتها الذهبية من سجل التاريخ .

الحالة الصحية في الكونغو

في مطار القاهرة الدولي . وفي الدقائق التي سبقت سفر الدكتور فتحي سليمان الطبيب العربي بالهيئة الصحية العالمية في الكونغو دار هذا الحديث بين سيادته وبين الزميلة هدى هنري .

● ما العمل الذي قامت به هذه الهيئة العالمية إزاء شعب الكنغو ؟

● ... كان أول عمـل قامت به الهيئة الصحية العالمية إرسال وفد من أطبائها في شهر يوليو ١٩٦٠ لدراسة الحالة الصحية في الكونغو وتقديم التوصيات المناسبة لمواجهة المشكلات الصحية التي واجهتها البلاد عقب الاستقلال بسبب مغادرة غالبية الأطباء الأجانب .

● وكيف وجدت الحالة في الكنغو وقتذاك ؟

● ... كان بالكنغو قبل الاستقلال حوالي ٩٠٠ طبيب لم يبق منهم إلا حوالي ٩٠ في عواصم الأقاليم والمدن الكبرى فقـط : وأصبحت المستشفيات والوحدات الطبية المنتشرة في مختلف أرجاء الكنغو خالية تماماً من الأطباء .

● وما الذي ترتب على ذلك ؟

● ... كان من جراء ذلك أن سارعت الهيئة الصحية العالمية بتوجيه نداء إلى لجنة الصليب الأحمر الدولي ، وإلى جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر لترسل متطوعين من الأطباء ، والمهندسين الصحيين ، والممرضات لتوزيعهم على مختلف المناطق حسب الحاجة إليهم ، ووصلت ٣٥ فرقة ، كان من بينها فرقة الهلال الأحمر في إقليمنا الجنوبي .

● وهل تكفي هذه الفرق الطبية لسد الفراغ المترتب على سحب الأطباء الأجانب من الكنغو ؟

● ... يبلغ عدد سكان الكونغو حوالي ١٤ مليوناً يسكنون مساحة شاسعة من الأراضي تبلغ حوالي ٢ ١/٤ مليون كيلومتر مربع أي أن متوسط كثافة السكان تقل عن ستة أشخاص في كل كيلومتر مربع ، وهذه حقيقة لها أهميتها من ناحية تنظيم الخدمات الصحية وما يواجه القائمين على تلك الخدمات من صعاب بسبب بعد الشقة وندرة سبل المواصلات .

● إننا نعرف أن سيادتك مختص بالخدمات في شرق الكونغو ، فهل نستطيع أن نأخذ فكرة عن هذه المنطقة وعن سكانها من حيث لغتهم وعاداتهم وجنسياتهم ؟

● ... تشمل هذه المنطقة من الكونغو إقليم كيڤو وعاصمته بوكاڤو ، والإقليم الشرقي وعاصمته ستانلي ڤيل ، والجزء الشرقي من إقليم كاتنجا وعاصمته . اليزابيث ڤيل . واللغـة السائدة في الإقليم الشرقي وإقليم كيڤو هي اللغة السواحلية وبها نسبة كبيرة من الكلمات العربية ، والمواطن العربي ، عندما يزور تلك المنطقة من الكونغو يشاهد الكثير من الظواهر التي تجعله يحس أنه بين أهله وعشيرته ، فمن المألوف أن ترى في شرفة فندق مطار ستانلي ڤيل عدداً من تجار المصنوعات العاجية والخشبية والجلود يرتدون ملابساً تشبه ملابس إخواننا السودانيين ، وهؤلاء التجار يتحدثون العربية بطلاقة وعندما يتبينون أن المشتري من أبناء الجمهورية العربية المتحدة يبدون استعدادهم لبيع السلعة له بثلثي ما سبق أن حددوه لها من ثمن ، فإذا تبين لهم أنه مسلم انخفض الثمن إلى الثلث فقط . وهناك

ظاهرة أخرى : كثرة اليونانيين ومعظمهم يشتغل بالتجارة بمختلف فروعها وتجدهم ما زالوا يتحدثون اللغة العربية فغالبيتهم ممن ولدوا وقضوا الكثير من سني حياتهم في مصر وما زال الكثير منهم له أقارب في القاهرة أو الاسكندرية ، وفي مدينة بونيا في أقصى شرق الاقليم الشرقي على القرب من بحيرة ألبرت يحتل اليونانيون مكانة اجتماعية مرموقة منهم يديرون معظم المتاجر والفنادق وكذا في ستانلي ڤيل نفسها .

ولا تقتصر تلك الظواهر على ذلك بل تتعداه إلى التشابه في الأمراض المتوطنة في تلك المنطقة . ففي وادي الوزيزي مثلا ، تنتشر البلهارسيا والملاريا والانكلستوما وهذا الوادي يشتهر بزراعة القطن ويقع على الضفة الغربية لبحيرة تانجانيقا وعلى ضفاف نهر الوزيزي في إقليم كيڤو .

ما الأمراض التي لها صفة الانتشار هناك ؟

● الأمراض الأخرى المنتشرة في تلك المنطقة هي « الجويتر » أو تضخم الغدة الدرقية ، ومرض الفيل وأمراض نقص التغذية وبخاصة في الأطفال وأخطر أمراض الأطفال مرض اسمه « الكواش يوركر » وهو أقصى درجات مرض نقص البروتينات في غذاء الأطفال ونسبة الوفيات به كبيرة جداً ، واسم المرض هو الاسم الذي أطلقه عليه أهل البلاد ومعناه يفسر أعراض المرض تفسيراً واضحاً : وهي ضمور جسم الطفل وتحول لون شعره إلى اللون الأحمر ، ثم يصاب الطفل بقروح يصعب علاجها وتنتهي به إلى الموت في غالب الأحوال ، وما زال مرض الطاعون مستوطناً في الجزء الشمالي الشرقي من الاقليم الشرقي في المنطقة القريبة من مدينة بونيا بالقرب من بحيرة البرت .

كيف كانت الحالة الطبية قبل الاستقلال . وهل كان هناك أطباء من أبناء الكونغو ؟

● ... كان في الكونغو في عام ١٩٥٩ : حوالى ٩٠٠ طبيب بشرى ، ٨٢ صيدلي ، ٤٢ طبيب أسنان ، وعدد المستشفيات بالكونغو ٤٥٩ مستشفى ، ٢٤٨٢ مصحة ، ١١ معمل تحليل . لم يكن بالكونغو طبيب واحد - وسيتخرج طبيبان من أهل الكونغو في يونيو ١٩٦١ من جامعة لوڤانيام بالقرب من ليوبولدڤيل . وكان بالكونغو ١٣٧ مساعداً طبياً من أهالي البلاد بالاضافة الى عدد كبير من الممرضين والممرضات يعملون بالمستشفيات والمصحات .

● وما الدور الإيجابي الذى قامت به الهيئة الصحية العالمية لتواجه هذا النقص في الأطباء ؟

● ... حاولت الهيئة الصحية العالمية أن تتغلب على هذه المشكلة بأن أرسلت ٦٠ مساعداً طبياً إلى جامعات فرنسا لدراسة مدتها ٣ سنوات يتخرجون بعدها أطباء ، كما أوفدت الهيئة أيضاً ٦ من الحاصلين على الشهادة الثانوية إلى كليات سويسرا وفرنسا لدراسة الطب ، وقبلت جامعة لوڤانيام في ليوبولدڤيل ثلاثين طالباً من أهالي الكونغو الحاصلين على الشهادة الثانوية لدراسة الطب في العام الدراسي ١٩٦٠-١٩٦١ .

ولقد قررت الهيئة أن تعين ١٣٠ طبيباً للعمل مع حكومة الكونغو تدفع الهيئة مرتباتهم خلال العام الأول من تعيينهم .

● هل وجدتم تعاوناً من شعب الكنغو ، وهل اضطراب الحالة السياسية أثر على نشاطكم كأطباء ؟

... في الواقع أن أهالي الكونغو يتميزون بطيبة القلب واستعدادهم التام للتعاون مع المسئولين عن الخدمات العامة خاصة الخدمات الطبية ويظهر الأهالي حباً كبيراً واحتراماً للمشتغلين بالخدمات الطبية على مختلف طبقاتهم ويقبل الأهالي إقبالا ملحوظاً على المستشفيات والمصحات ، وهذا مما يسهل - كثيراً - مهمة القائمين على الخدمات الصحية لا سيما الوقائية منها . ومن المألوف أن ترى جميع المشتغلين بالمستشفيات ومعامل التحليل والمسئولين عن جميع عينات الفحص يقومون بعملهم بصفة منتظمة وفي المواعيد المقررة رغم الاضطرابات السياسية ، وقد كان لذلك أثر كبير في تسهيل مهمة فرق الصليب الأحمر .

جولة مصورة حول

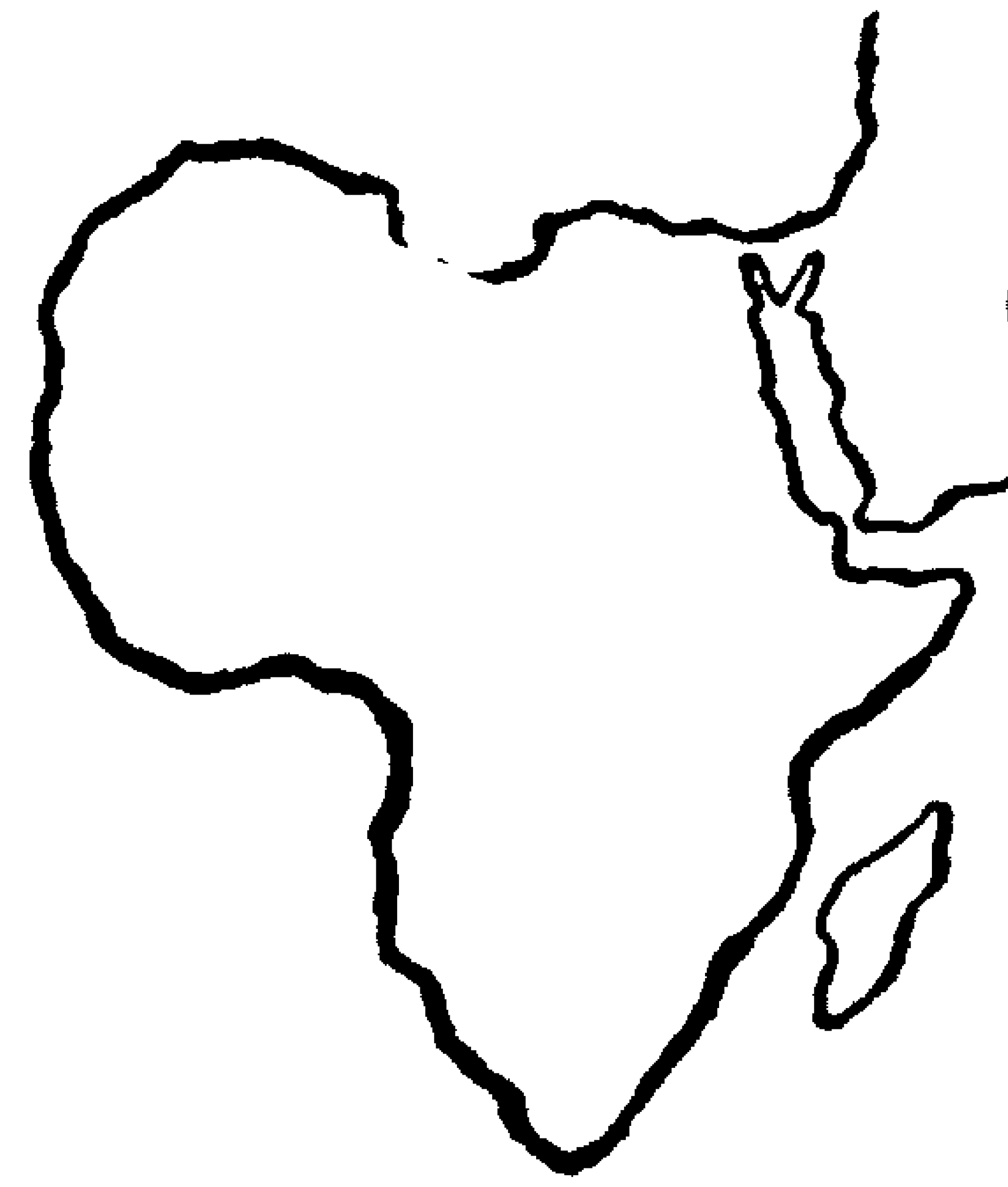

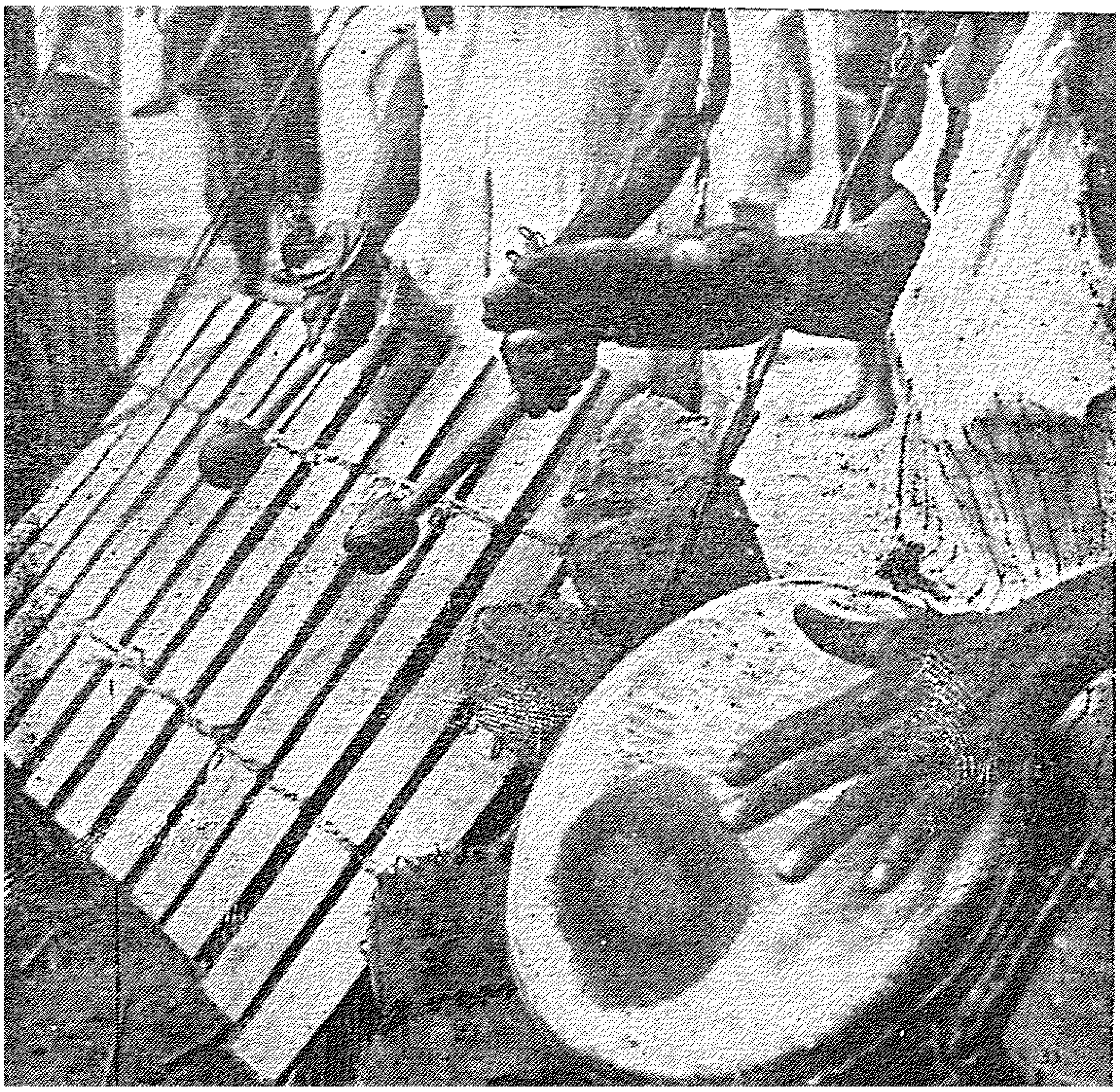

آلات موسيقية إفريقية

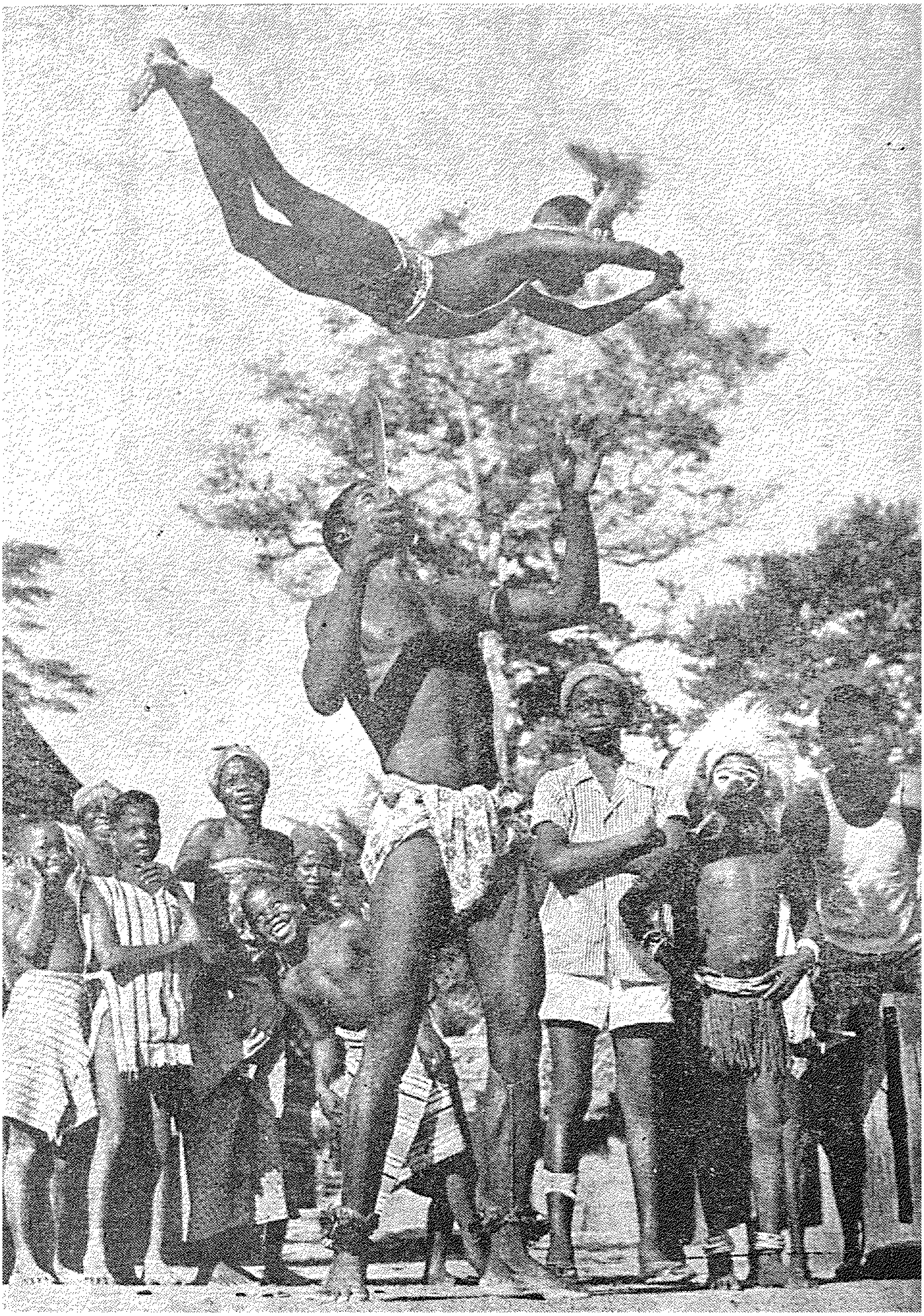

« رقصة الخنجر »

« قفزة فى الهواء »

[لم تقف المرأة فى إفريقية بعيدة عن الأحداث فى القارة ، فقد شاركت فى كل المعارك التحررية بحماس ، وقوة ، وإيمان ، فرؤيت أمام المظاهرات ، وفى السجن ، وفى ساحة الشهداء . . واليوم تشق طريقها إلى الحرية ، وإلى النور !]

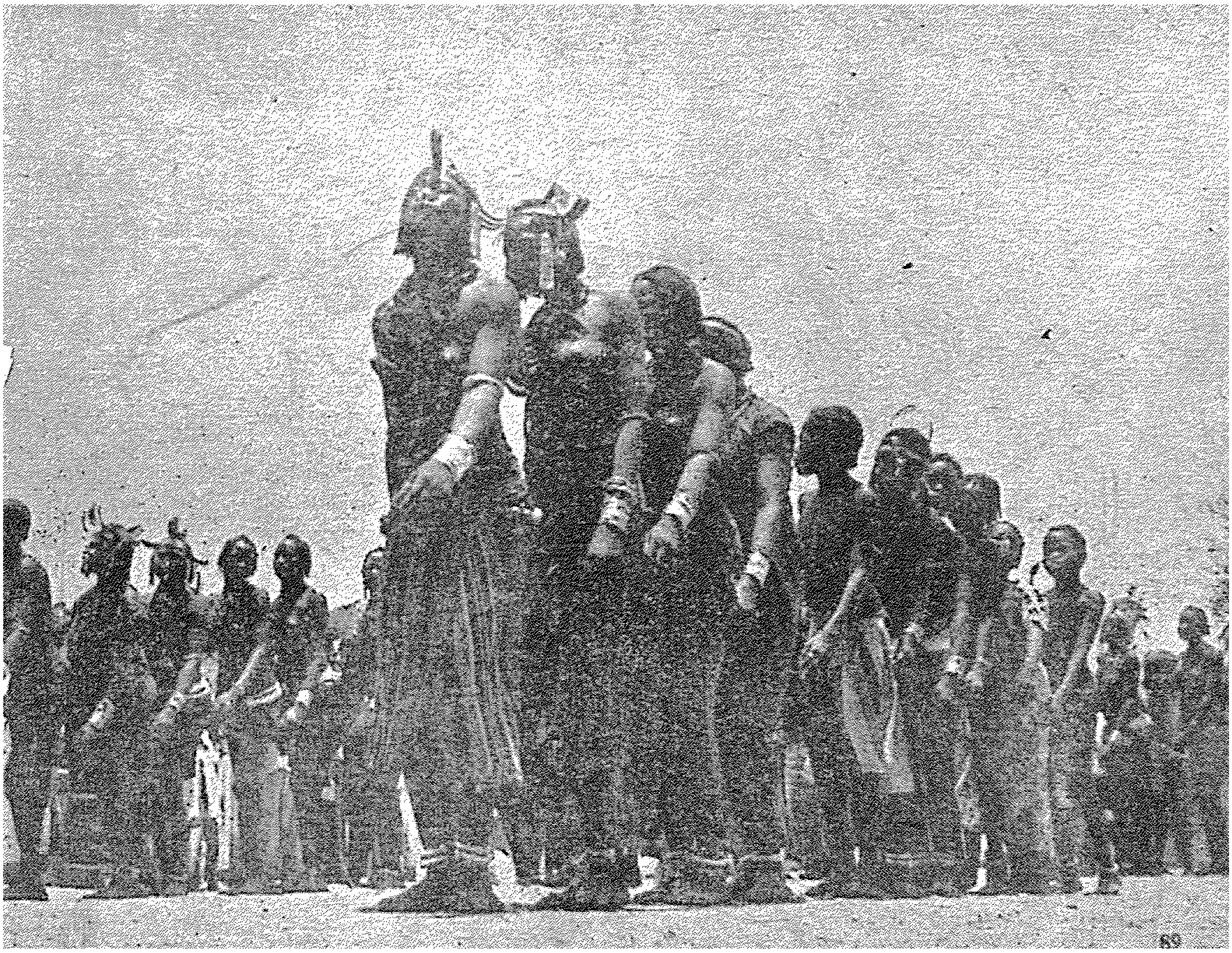

• تجمعـــات فنيـ

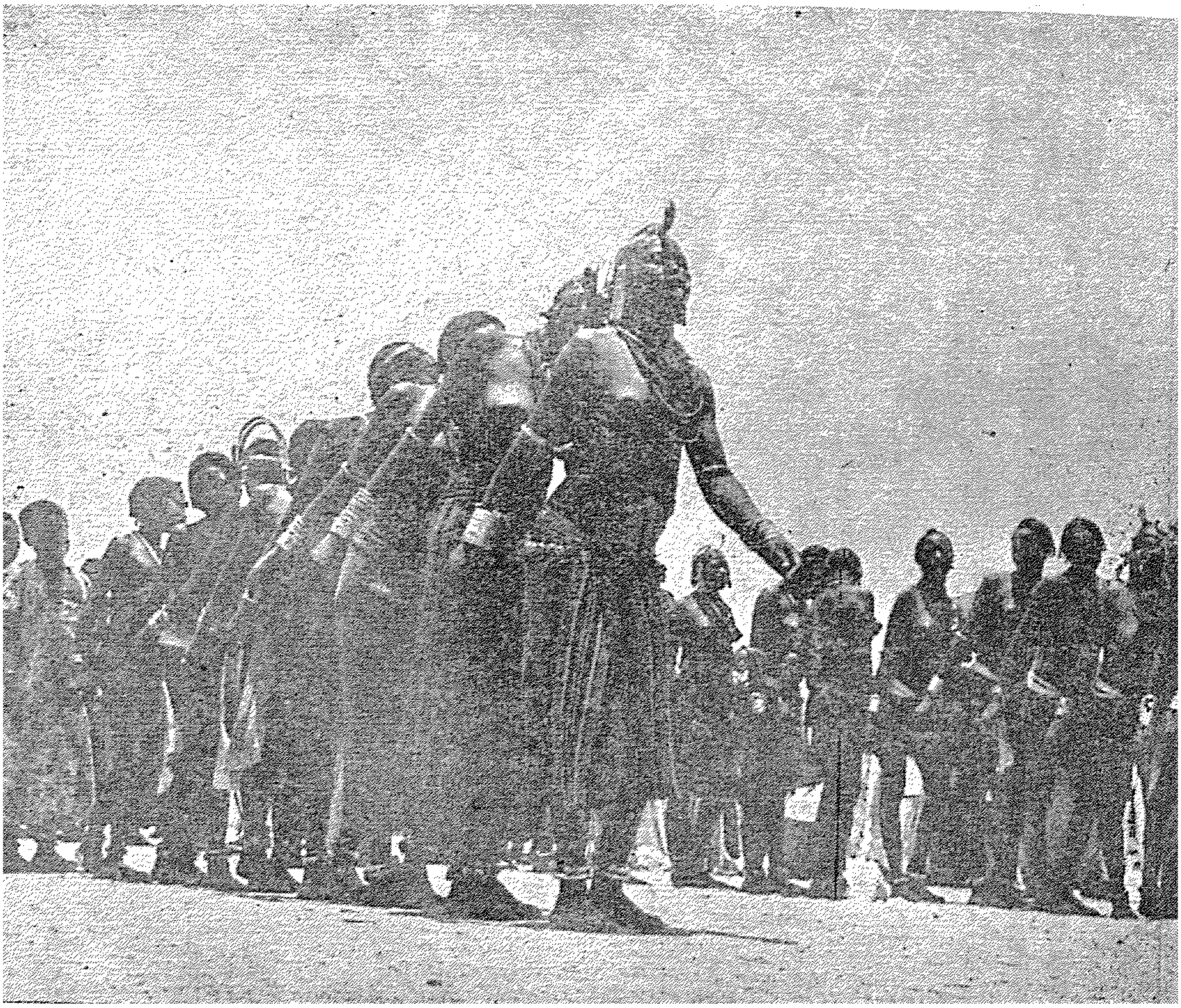

للمـــــرأة »

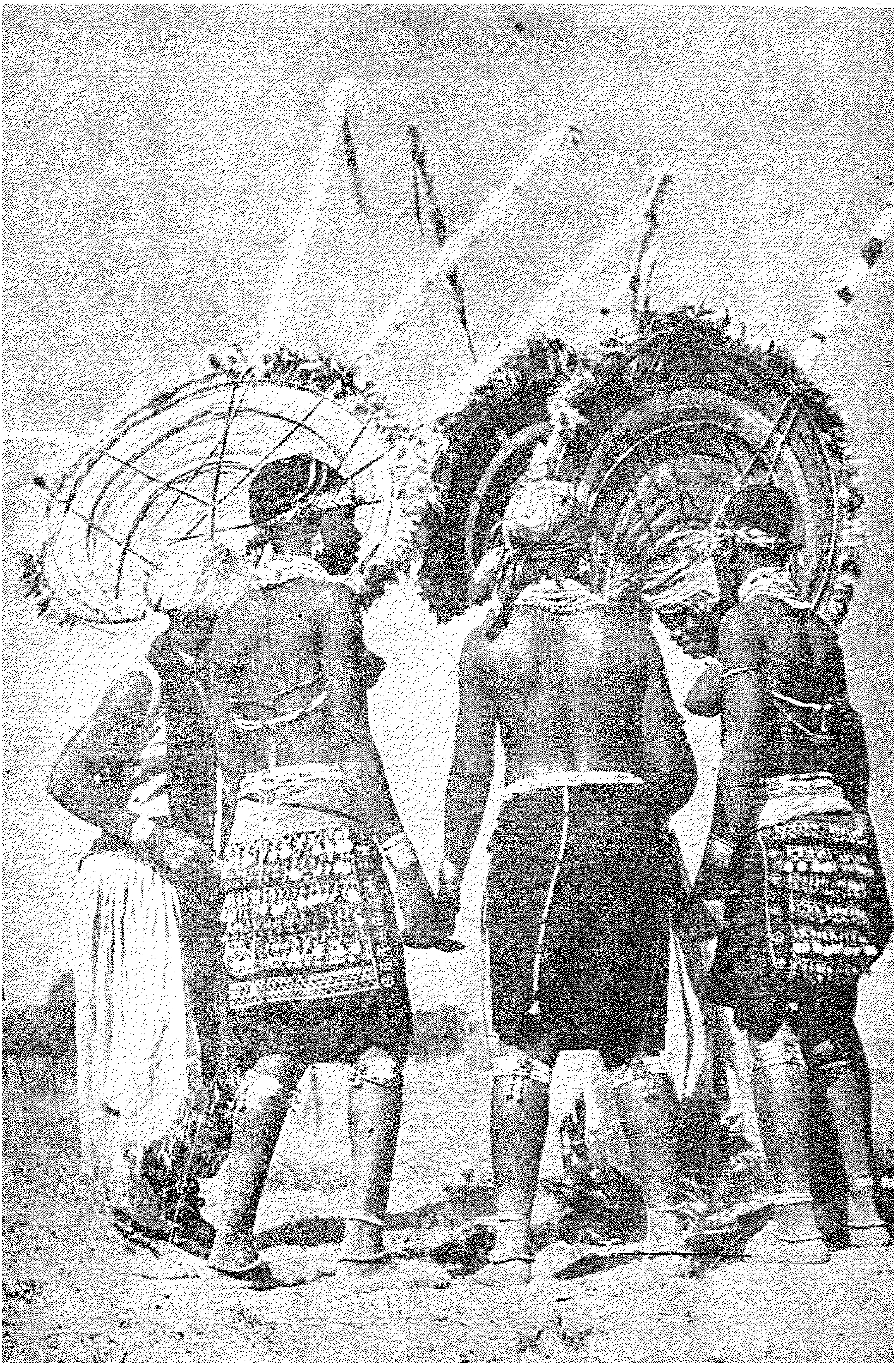

« قبعـات فنيـة »

« ألوان من الزينة »

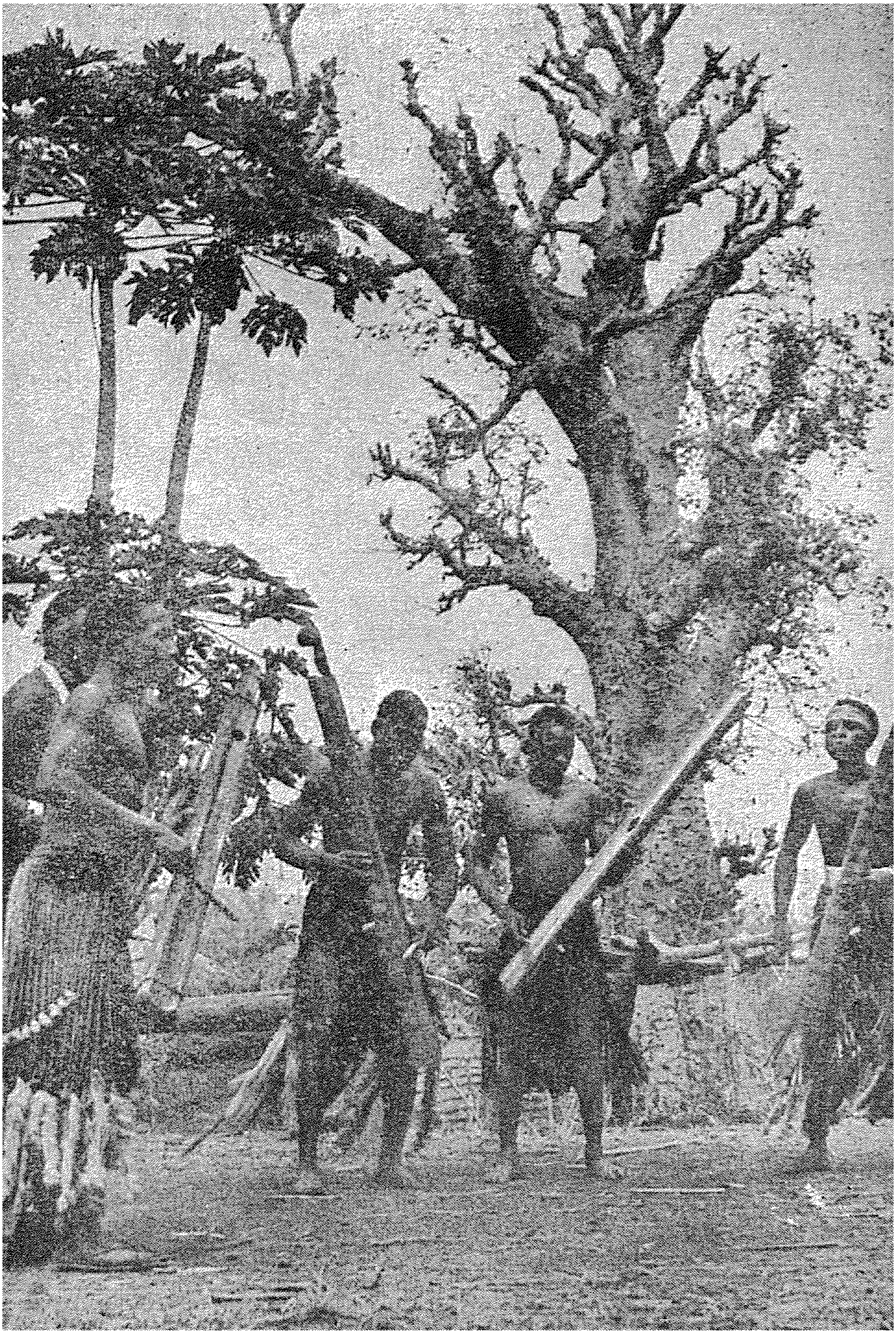

« الموسيقى والسلام فى إفريقية »

« العصى والتعصب عند البيض »

من القصص السوداني

« فاطمة السمحة »

الأستاذ : عباس خضر

كان فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان بإحدى قرى الغرب فتاة اسمها « فاطمة » امتازت بطيبة القلب وبجمال طبيعى لم تحظ به واحدة من بنات القرية ، حتى أصبحت معروفة فى قريتها « بفاطمة السمحة » .

وكانت فاطمة مطمع شباب القرية ، كل منهم يتمنى أن تكون له زوجة . وقد اعتنت بها أمها منذ الصغر . وكانت تخشى عليها من « عين الحسود » فلم تكن ترسلها لجمع الوقود أو لإحضار الماء من بعيد ، كما كان يفعل فتيات القرية .

وقد سمع بها فارس من قبيلة مجاورة للقرية اسمه « ابن النمير » فحاول أن يراها ، فكان يخرج إلى الأماكن التى يجمع منها فتيات القرية الوقود أو يحضرن منها الماء ، ويسأل الفتيات عنها ، فيقلن له : وماذا تريد من فاطمه السمحة ؟ إنها لا تخرج أبداً ، فأمها تحجزها فى البيت خوفاً عليها أن تصيبها عين حاسد . . .

وكان ابن النمير يكلم الفتيات وكأنه مغمض العينين أو مسحور — لا يلتفت إلى ما فى أية واحدة منهن من جمال ، لأنه كان مشغول القلب بفاطمة وبما سمع من أوصافها ، فلا يريد أن يرى حسناً فى غيرها . . . ينطبق عليه قول الشاعر :

« والأذن تعشق قبل العين أحياناً »

وحاول فتيات القرية عدة مرات أن يصطحبن فاطمة فى غدواتهن وروحاتهن ، ولكن أمها كانت ترفض حتى استطعن مرة — وكانت فاطمة فى نقاهة من حمى أصابتها — أن يقنعن أمها بخروجها كى تتنزه وتشم الهواء وتستعيد صحتها وعافيتها .

ورأى ابن النمير فاطمة بين الفتيات . فزاد افتتانه بها وكاد يجن من حبها ، ولكنه عبثاً حاول أن يكلمها أو حتى تلتقى عيناه بعينيها ، فقد كانت تغضى وتنظر إلى الأرض من شدة الحياء .

وتحدث ابن النمير بحبه لفاطمة

السمحة . . . وشكا من إعراضها عنه وأنها لا تكلمه ولا تنظر إليه ولو كأى بنت من البنات . فقالت له امرأة عجوز :

– « اطمئن . . سأجعلها تكلمك ويكون كل شيء على ما تحب » .

فقال لها وهو يشعر كالغريق امتدت إليه يد النجاة :

– لك عشر بقرات إن كلمتنى فاطمة .

وفى المرة الثانية التى خرجت فيها فاطمة مع الفتيات لقيتهن العجوز وتقربت إليهن بمزاحها وكلامها المعسول وخصت بالحديث فاطمة السمحة ، ولكن هذه ما كادت تسمع من فم العجوز اسم « ابن النمير » حتى ظهر على وجهها الغضب والخوف ، فأشاحت وذهبت بعيداً عنها . . كانت تشعر بمزيج من الارتياح والخوف . . إنها لا تكره ابن النمير ، فقد استرقت إليه النظر دون أن يشعر فخفق قلبها . . ولكنها تخاف من أمها ومن أهلها . بل هى تخشى من هؤلاء الفتيات أن يذعن عنها أى شيء والبنات غيرتهن عمياء . . .

وفعلا امتدت ألسنة البنات بالهمس . . . وتحدث بعضهن عن حب ابن النمير لفاطمة السمحة ، وبلغ الحديث مسامع أهلها ، واستشاط شباب قبيلتها غضباً ، وأرسلوا إلى ابن النمير يتوعدونه ، وتحرش به بعضهم ، واشتبك واحد منهم مع واحد من أقاربه .

وابن النمير فارس شديد شجاع مرهوب . لم يكن ليسكت على أى استفزاز أو يعبأ بأى تهديد ، لولا أن الذين يهددونه ويستفزونه هم أهل فاطمة السمحة . فلم يكن أمامه إلا أن يتحلى بالحلم والصبر .

أما فاطمة فقد ظلت بعد ذلك فى البيت لا تخرج منه .. حتى اضطر أهلها إلى الارتحال من القرية لأنها أجدبت ، فقد انقطع عنها المطر وجف الزرع وهلك كثير من الماشية بسبب الجوع والعطش .

ارتحلت القبيلة وسارت تقطع الفيافى والجبال . وكانت فاطمة تركب فى هودج مع البنات . وذات يوم هبت عاصفة شديدة أظلمت الكون وجرف تيارها كل شيء حتى لم يعد أحد قادراً على أن يسير فى اتجاه معين ، بل كانت الريح الهوجاء تطيح بهم إلى حيث تشاء .

ولما هدأت العاصفة وظهرت معالم الكون وجد البنات – ومعهن فاطمة – أنفسهن فى مكان لم تشاهده أعينهن من قبل . ولمحن عن بعد ناراً تشتعل فاتجهن نحوها ، فلما اقتربن منها وجدن بجوارها رجلا طاعناً فى السن بلغ من الكبر درجة لا يستطيع معها الحراك ، فتقدم إليه البنات وطلبن منه أن يدلهن على الطريق حتى يلحقن بأهلهن ، فنظر الرجل العجوز إلى فاطمة وقال لها :

– إنى أخشى عليك يا بنية من قطاع الطريق ، فأنت جميلة فاتنة ، وعند ما يرونك على هذا الجمال لن يتركوك .

فقالت له فاطمة :

– وماذا أفعل يا عم ؟

– عليك أن ترتدى جلد رجل عجوز !

دهش البنات من كلام الرجل وقلن له :

– جلد رجل عجوز ؟ ! وأين هو ؟ !

– اسمعن يا بنياتى ولا تعجبن .. أنا أستطيع أن أتخلص من جلدى ..

– كيف تتخلص من جلدك ؟

سكت الرجل برهة ثم أشار إلى شجرة قريبة مجردة من الأوراق وقال لهن :

– اقطعن فرعاً من هذه الشجرة واضربن به على رأسى سبع مرات .

ففعل البنات ما أشار به الرجل الكبير ، فتخلص من جلده ، ولبسته فاطمة السمحة ، فبدت كأنها رجل عجوز !

وسار الفتيات فى طريقهن لا يدرين إلى أن ينتهى بهن المسير ، وإذا هن يرين من بعيد فرساناً يمتطون خيولا مقبلين نحوهن ، فذعرن ، وجرت كل واحدة منهن فى ناحية تحاول الاختفاء والهرب ، وتمكن الفرسان من أخذ بعضهن ، ولم يعبئوا بفاطمة التى تظهر فى شكل رجل شيخ قد حطمته السنون ... وشرعوا فى السير ، فقالت إحدى الفتيات كأنها تحدث نفسها :

« شالوا العوار وخلوا النوار » .

وسمعها أحد الفرسان ، فتلفت يبحث عمن عسى أن يكونوا قد تركوه فلم يجد غير شيخ مسن يختبىء وراء شجرة ، فاحتار فى أمره ... أيكون هو « النوار » الذى تقصده الفتاة .. ولكنه أخذه بالرغم من مظهره الذى لا يغرى به .

كان الشيخ المسن هو فاطمة السمحة ، وقد عرفت فى الفارس الذى أخذها « ابن النمير » فسارت معه مستسلمة .

وكل ابن النمير إلى الرجل العجوز رعى الغنم ، وكان يحس فى قرارة نفسه بالشك فى أمره ، فكان يأتى إليه ويسأله هل هو فى حاجة إلى شىء ، وكان أحياناً يراقبه من بعيد دون أن يراه ... وفى إحدى هذه المرات نظر فرأى منظراً عجيباً ! رأى الرجل العجوز يضرب على رأسه بفرع شجرة سبع مرات ، فيبدو فتاة فى ريعان الشباب تتدفق حيوية وجمالا .. جمالا لم ير له مثيلا إلا ... وتذكر حبيبته وفاتنته فاطمة السمحة ... إن هذا الحسن الرائع يشبه حسنها ! فزاد عجبه ، وسر بذلك سروراً عظيما .

عاد ابن النمير دون أن يظهر نفسه للفتاة ، ثم رجع بعد برهة فرآها قد تحولت إلى شكل الرجل العجوز ، فأقبل عليه وجعل يحادثه فى شئون مختلفة متبسطاً معه ... حتى قال له :

– أتراهننى على أن أحمل بأسنانى هذا الخروف السمين .. ؟

فقال له العجوز وهو مأخوذ بظرف ابن النمير ومشارك له فى مرحه :

– وعلى أى شىء يكون الرهان ؟

– إذا لم أستطع حمل الخروف بأسنانى فلك أن تطلب منى ما تشاء وأنا أفعله ، وإذا حملته طلبت أنا منك ما لا بد أن تفعله .

قال العجوز وهو متورط فى جو المداعبة والمرح :

– قبلت .

وأسرع ابن النمير فحمل الخروف بأسنانه كأنه ريشة . . . وسار به مسافة ورجع ثم أنزله إلى الأرض وهو يقول ظافراً :

– هيا أيها الرجل العجوز . . نفذ ما أطلبه منك .

– ماذا تريد ؟ !

– أن تضرب على رأسك بهذا الفرع سبع مرات . .

ذهلت فاطمة ، وأدركت أنه عرف سرها ، فقالت له فى محاولة يائسة :

– هلا أعفيتنى أيها الفارس من هذا الشرط . . ؟

– لا . إنى متمسك به .

ولما رأته مصراً لم تجد مفراً من أن تجيب طلبه . . . وبدت أمامه على حقيقتها . . فاطمة السمحة الحبيبة الجميلة الفاتنة . .

فصاح مسروراً :

– فاطمة السمحة !

– أنا يا ابن النمير . .

– أنت حبيبتى وأنا أريد الزواج منك .

– لا مانع لدى ، ولكن هل تقبل شرطى كما قبلت شرطك ؟

– نعم ، أقبل وأنفذ كل ما تريدين .

– أن تذهب بى إلى أهلى وتخطبنى منهم .

فكر ابن النمير برهة ، وساوره الشك فى أن يقبل أهلها زواجها منه ، ولكنه لم يجد بداً من أن يفى بما وعد ، وليكن الأمر ما يكون .

وسار بها فى أثر أهلها أياماً وليالى حتى وصلا إليهم فى أحد المراعى التى نزلوا بها . وشرح لهم كل شىء ، كما حكت لهم فاطمة قصتها .

شكر أهل فاطمة ابن النمير على مروءته ووفائه ، وتشاوروا فى أمر زواجه من ابنتهم ، ثم استقر رأيهم على هذا الزواج .

وأقيمت الأفــراح ، وذبحت الذبائح ، ورقص البنات ، وعاش الزوجان الحبيبان فى تبات ونبات .

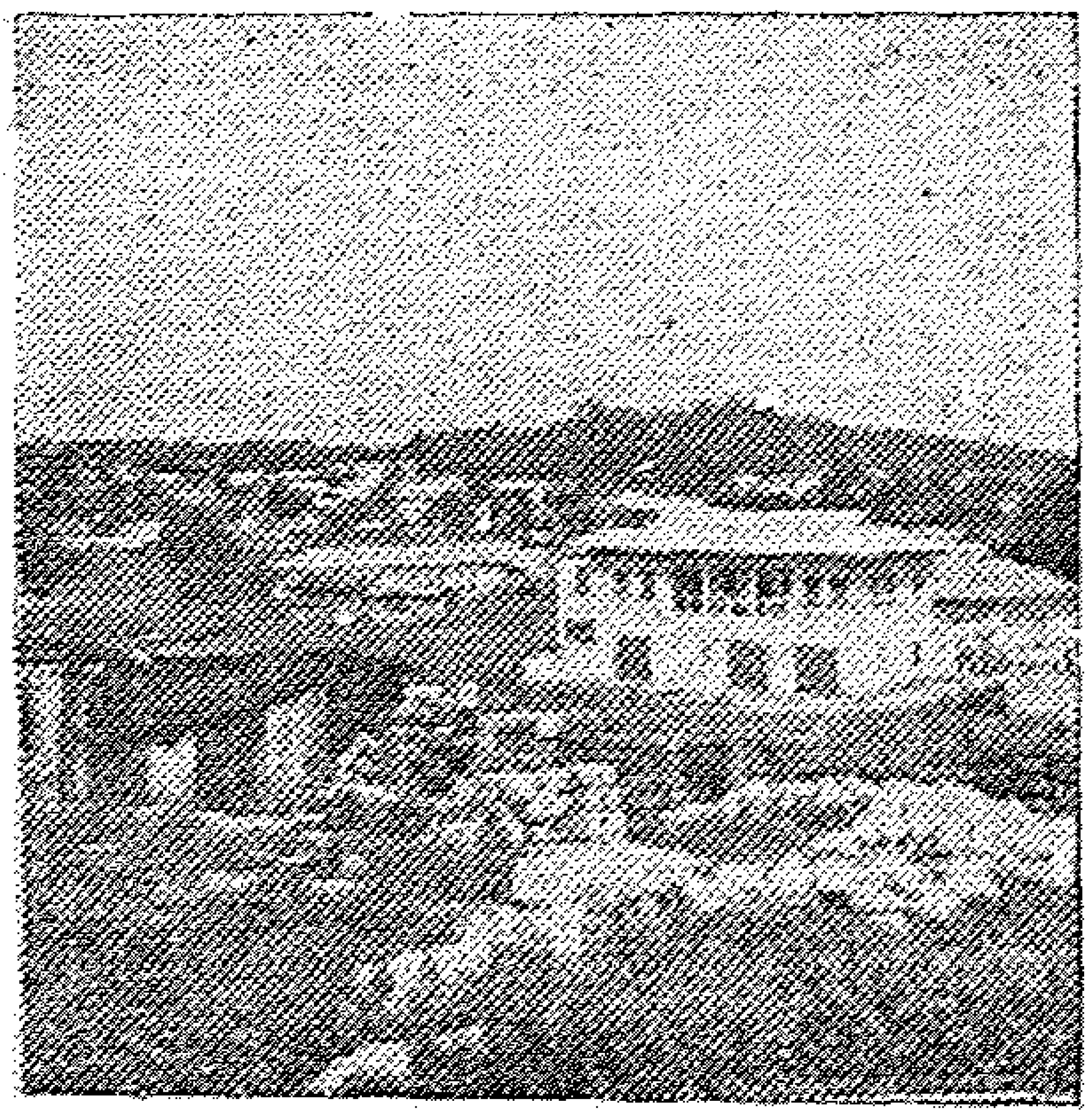

العلاقات التجارية الإفريقية

بقلم : مختار السويفى

مقدمة :

على مر العصور المختلفة ، ارتبطت الأقاليم الإفريقية فيما بينها بروابط تجارية . وقد كان من الضرورى أن تقوم مثل هذه العلاقات مهما كانت الصور التى تتخذها . . فقد تشكلت سبل التجارة الإفريقية حسب روح العصر وطبيعة البضائع المتبادلة ، بل وحسب طبيعة الأقاليم (البيئة) التى كانت تمارس فيها ، وكان من نتيجة هذا التشكيل أن اتخذت التجارة الإفريقية صوراً مختلفة ، سواء من ناحية التقييم التجارى أو من ناحية وسائل المبادلة نفسها : فمثلا ، كان التجار فيما مضى - بل وما زال بعضهم إلى الآن - يتبادلون البضائع على أساس المقايضة ، فكانوا ينقلون حاصلات الأقاليم المختلفة ويبادلونها بحاصلات أقاليم أخرى . وإلى جانب أساس المقايضة كانت المبادلات التجارية تتم أيضاً ، عن طريق اتخاذ المواشى كأساس لتحديد قيمة الحاصلات النباتية والحيوانية الأخرى ، وكذلك فقد اتخذ سن الفيل كأساس لتقييم السلع الأخرى وعلى الأخص الأقمشة والخرز . . .

وقد قام التجار العرب بالدور الأكبر فى ربط الأقاليم الإفريقية بعلاقات تجارية وطيدة . ويقول « تريمنجهام » فى كتابه « الإسلام فى السودان » إن الإسلام فى إفريقية ارتبط بالتجارة إلى حد كبير . فقد قامت قوافل التجار المسلمين بانشاء وتدعيم الطرق التجارية بين المراكز الإسلامية فى شمال إفريقية والبلاد الواقعة فيما وراء الصحراء الكبرى ، كما قاموا أيضاً بإنشاء طرق تجارية أخرى ربطت بلاد المغرب العربى وبلاد السنغال وأعالى نهر النيجر ومنطقة بحيرة تشاد ، وأنشأوا هناك مراكز ومحطات تجارية سرعان ما ازدهرت على إثر إنشائها العلاقات التجارية بين الأقاليم الغربية وأقاليم وسط القارة وجنوبها

أما عن النشاط التجارى فى أقاليم شرق إفريقية ، فقد قام التجار العرب أيضاً ، بتنمية العلاقات التجارية بين وادى النيل وأقاليم شرق القارة . فقد ارتبطت بلاد النوبة بمصر الإسلامية « بمعاهدة البقط » التى قصد بها تنظيم العلاقات الاقتصادية والتجارية بين البلدين ، وقد أثمرت هذه العلاقات وأدت مهمتها الحضارية . فنشأت مدينة « عيذاب » وذاعت شهرتها التجارية ، ثم أعقبتها مدن أخرى على الساحل الشرقى للقارة مثل مدن سواكن وزيلع وبربرة ومقدشيو ، وقد لعبت هذه المدن دوراً كبيراً فى تنشيط العلاقات التجارية بين إفريقية وآسيا من ناحية ، وبين الأقاليم الساحلية الشرقية وأقاليم وسط القارة وجنوبها من ناحية أخرى .

الدول الاستعمارية تنهب إفريقية :

ثم مرت التجارة الإفريقية بعد ذلك بدور الخطف والسلب والنهب . ففى سنة ١٤٧١ م حين نزلت سفن البرتغال على ساحل خليج غانة ، أقاموا هناك محطة بحرية حربية تجارية أعقبتها محطات أخرى على طول الساحل الغربى لإفريقية . وسرعان ما نشأ شكل لم يسبق له مثيل فى العلاقات التجارية ،

فلم تعد هناك مبادلات تجارية بالمعنى المفهوم . ولم يعد هناك أساس لتقييم السلع . . لقد اقتصر الأمر على استعمال هذه المحطات الحربية كوسيلة للخطف والسلب والنهب دون مقابل . . لقد خطفوا الإنسان الإفريقي نفسه وباعوه في أسواقهم التجارية . ويغنينا ذلك عن ذكر الحاصلات النباتيه والمعدنية والحيوانية الأخرى التي تم الاستيلاء عليها دون أي مقابل . . وبعد البرتغال نزلت هولاندا لتسهم في تدعيم هذا الشكل من التجارة الذي يقوم على استعمال القوة فقط في الحصول على السلع التجارية النادرة وبيعها في الأسواق التي تحتاجها بأغلى الأسعار الممكنة . ثم نزلت إنجلترا وفي جعبتها مشاريع ضخمة للسيطرة الاقتصادية على القارة الإفريقية بأكملها . ثم نزلت فرنسا وأسبانيا وبلجيكا وألمانيا . . وأصبحت موارد القارة كلها أسلاباً للاستعمار بكافة أشكاله وصوره ؛ سواء أتم السلب بطريق الخطف المباشر أم بطريق إقامة الشركات الاستعمارية التي تستغل الغابات والمزارع والمناجم والإنسان والحيوان في جميع الأقاليم الإفريقية دون أي استثناء .

وباستقراء الإحصائيات التجارية التي تصدرها الجهات المعنية . نستطيع أن نرى بوضوح أن التجارة الإفريقية تتسم بطابعين ظاهرين :

الطابع الأول : أن الصادرات من الدول والمستعمرات الإفريقية تمثل نسبة تفوق بكثير نسبة الواردات إليها .

الطابع الثاني : أن هذه الصادرات تتجه كلها إلى الدول الاستعمارية التي كانت – أو ما زالت – تستعمر هذه الدول والمستعمرات الإفريقية . وكما تقوم الدول الاستعمارية بامتصاص الصادرات الإفريقية . فهي تحتكر أيضاً توريد البضائع إلى هذه الدول والمستعمرات .

وهناك حقيقة لا يمكن إغفالها ؛ وهي أن الولايات المتحدة الأمريكية قد دخلت في الميدان الإفريقي وأصبح لها شأن كبير في استيراد البضائع الإفريقية وتوريد السلع الاستهلاكية لمعظم أنحاء القارة ؛ كما أن ألمانيا الغربية واليابان قد نشطتا في السنوات الأخيرة وأنشأتا علاقات واسعة بينهما وبين الدول والمستعمرات الإفريقية . غير أننا لا نستطيع أن نتبين مدى خطورة هذه الإحصائيات قبل أن نعرف نبذة عما تكتنزه القارة الإفريقية من ثروات ضخمة لها الشأن الأكبر في الإنتاج العالمي .

ثروات القارة وسلعها التجارية :

لا جدال في أن إفريقية أغنى أنحاء الأرض بثرواتها النباتية والحيوانية والمعدنية . وتنحصر الأهمية الكبرى لهذه الحقيقة في أن معظم هذه الثروات ما زالت بكراً لم تستغل على الوجه

الأكمل ، ولا يمكن بحال أن تنضب أو تفقد ضرورتها للعالم كله .

وفى عجالـــة وبأبسط الكلمات الممكنة ، نستقرئ فيما يلى نشرة النشاط الاقتصادى فى إفريقية التى تصدرها هيئة الأمم المتحدة ، ونخرج بالحقائق الآتية :

فى مناطق الغابات الحارة التى تمتد فى حوض نهر الكونغو ، وغانة ، وليبريا ، ونيجريا ، وسيراليون ، وإفريقية الاستوائية الفرنسية ، والكاميرون وكينيا ، وأوغندا ، والصومال الإيطالى توجـــد أكبر وأرقى أنواع الثروة الخشبية فى العالم كله (خشب الأبنوس والموجنا والكافور والساج وخشب الحديد والخشب الأصفر) . كما توجد فى هذه المناطق أيضاً ، أضخم ثروة من الفواكه البرية وزيت النخيل « ٨٠٪ من إنتاج العالم » وجوز الهند والكولا والمطاط ، ويزرع بها أيضاً الكاكاو بأكبر الكميات فى أوسع المساحات الممكنة « ٦٦٪ من الإنتاج العالمى » وتزداد هذه النسبة باضطراد ؛

وفى المناطق الرعوية — وهى تعادل حوالى ٤٠ من مساحة القارة — تربى الثروات الحيوانية « اللحوم » . وتزرع الأراضى بأوفر الحاصلات ، كما تنمو أشجار الصمغ العربى التى يبلغ إنتاجها أكثر من ٨٧٪ من إنتاج العالم .

وتعتبر المناطق المعتدلة فى الشمال والجنوب من أغنى مناطق العالم بالكروم والبرتقال والتين والزيتون ، وتنمو فيها أشجار الصنوبر والبلوط والفلين (خصوصاً فى الجزائر والمغرب ومراكش الأسبانية) . وتزرع فيها الحبوب وقصب السكر والقطن بكميات هائلة .

أما الثروات المعدنية ، ففى إفريقيـــة (وبخاصة أقاليم الكاب والترنسفال وأورنج) أعظم وأكبر مناجم الماس فى العالم . وقد وجدت فى بريتوريا باتحاد جنوب إفريقية أكبر قطعة من الماس وجدت حتى الآن (٢١ أوقية) . وقد بلغت قيمة صادرات الماس من اتحاد جنوب إفريقية وحده فى سنة ١٩١٧ ما يعادل ١٧,٧٠٠,٠٠٠ جنيه ، وفى سنة ١٩٥٧ أصبح يصدر — بالاشتراك مع بعض المستعمرات البريطانية — ما يعادل ٩٨,٤٪ من إنتاج الماس فى العالم .

ويوجد الذهب فى إفريقية من قديم الزمن ، وكان الفينيقيون يتاجرون فى الذهب الذى يحضره إليهم السكان من وسط القارة إلى ساحلها الشمالى . أما الآن فيستخرج الذهب من أقاليم وسط القارة وجنوبها (روديسيا وغانة والترنسفـــال وناتال وموزمبيق) . وتبلغ صادرات الذهب من هذه الأقاليم أكثر من ٦٠٪ من الإنتاج العالمى .

ويوجد الفحم بكثرة فى جنوب إفريقية ، وقد ساعد على قيـــام

صناعات عدة تقوم بتسويق الحاصلات النباتية والزراعية والحيوانية ، وفضلا عن ذلك فمن إفريقية فى كل عام يصدر ٨٧٪ من إنتاج الكوبالت العالمى ، وأكثر من ٥٠٪ من المنجنيز ، وحوالى ٣٠٪ من إنتاج النحاس والانتيمونى والفوسفات ، كما تصدر الكونغو وحدها ما يقرب من ٥٠٪ من احتياجات الدول الغربية من اليورانيوم

وتكتنز القارة بصفة عامة ثروات ضخمة من المعادن الأخرى مثل الرصاص والفضة والبلاتين والألومنيوم والبوكسيت والكروم والبوتاس والزئبق والكبريت والنترات والجرافيت والزنك والصفيح .

وغنى عن الذكر أن الدول الاستعمارية التى تقاسمت أراضى إفريقية فيما بينها تقوم بعمليات استنزاف مستمرة لهذه الثروات المعدنية كلها ، فضلا عن سيطرة الاحتكارات الاستعمارية واستغلالها لأكثر من ٧٥٪ من مساحة الأراضى الزراعية فى القارة .

تدعيم التجارة الدولية بين ج . ع . م والدول الإفريقية :

لا شك ، إن تنمية العلاقات التجارية بين الجمهورية العربية المتحدة والدول الإفريقية مسألة تستحق الدراسة لتخطيطها بما يتلاءم مع مركزنا بين الدول الإفريقية الناهضة .

وقد لاحظنا فيما سبق أن قدمناه كيف تمتص الدول الغربية معظم صادرات الدول والمستعمرات الإفريقية ، وكيف تحتكر توريد ما تحتاجه من السلع التجارية ، وكيف أن هذه العلاقات التجارية تحكمها الريبة والنهب والاحتكار والاستغلال إلى أقصى حد ممكن .

واستقراء لإحصائيات العلاقات التجارية بين الإقليم المصرى من ج.ع.م وبين الدول الإفريقية ، نلمس إلى حد كبير مدى ما تعانيه هذه العلاقات من قحط . فبينما لم تزد قيمة الصادرات إلى هذه الدول والواردات فيها عن بضع آلاف من الجنيهات . نجد أن هذه العلاقات منبتة الصلة تماماً بين الإقليم المصرى وبعض هذه الدول .

غير أن بعض الدول الإفريقية تحظى بنصيب قابل للزيادة من العلاقات التجارية بينها وبين الإقليم المصرى . فحسب إحصاء سنة ١٩٥٩ ، كانت قيمة الواردات من السودان حوالى ١,٨٠٠,٠٠٠ جنيهاً ، وقيمة الصادرات إليه حوالى ٥,٥٧٢,٠٠٠ جنيه . وبلغت قيمة الواردات من ليبيا حوالى ١,٤٠٠,٠٠٠ جنيهاً ، فى حين أن قيمة الصادرات لم تتجاوز ٤٠٠,٠٠٠ جنيه .

وفيما عدا هاتين الدولتين نجد أن التبادل التجارى بين الإقليم المصرى وبقية الدول والمستعمرات الإفريقية ضئيل الحجم للغاية . فقد بلغت قيمة

الصادرات إلى غانة مثلا حـــوالى ٥٨,٠٠٠ جنيه . فى حين لم تزد قيمة الواردات منها عن ٢٦.٠٠٠ جنيه . وبلغت قيمة الواردات من تونس حوالى ٣١,٠٠٠ جنيه ولم تزد قيمة الصادرات إليها عن ٢٢.٠٠٠ جنيه . أما الكونغو فقد بلغت قيمة الواردات منها ٤.٣٢٩ جنيهاً فى حين أن قيمة الصادرات إليها لم تزد عن ٤٣٤ جنيهاً . وكذلك الحال فى مدغشقر فلم تتجاوز قيمة الواردات منها ٥٣٨ جنيهاً ولم تزد قيمة الصادرات إليها عن ٣٩٨ جنيهاً .

هذه ولا شك إحصائيات تلزمنا بإعادة التفكير فى تخطيط علاقاتنا التجارية مع إفريقية . خاصة بعد حصول كثير من الدول الإفريقية على استقلالها وأصبحت تصرف أمورها بنفسها .

ونود أن نشير إلى أن اسرائيل تحاول جاهدة أن يكون لها شأن فى التجارة الإفريقية . فقد قامت بتأسيس شركة « النجمة السوداء » للملاحة البحرية فى غانة . وبرغم أن هذه الشركة قد أصبحت تحت إشراف حكومة غانة إلا أن النوايا الإسرائيلية لا يمكن أن تخفى .

كما اشتركت اسرائيل أيضاً مع كل من اتحاد جنوب إفريقية وبورما (فى آسيا) فى تأسيس شركة « النجوم الخمسة » لتتولى تسيير خطوط بحرية منتظمة بين جنوب إفريقية وجنوب شرق آسيا . وتتولى بواخر هذه الشركة الآن نقل الأرز والمنتجات الأخرى من بورما إلى اتحاد جنوب إفريقية . ثم تنقل الفحم والمنتجات الأخرى من هذا الاتحاد إلى بورما .

وتعمل إسرائيل الآن بكل ما تستطيعه من جهد وحيلة على إقامة علاقات تجارية بينها وبين دول غرب إفريقية .

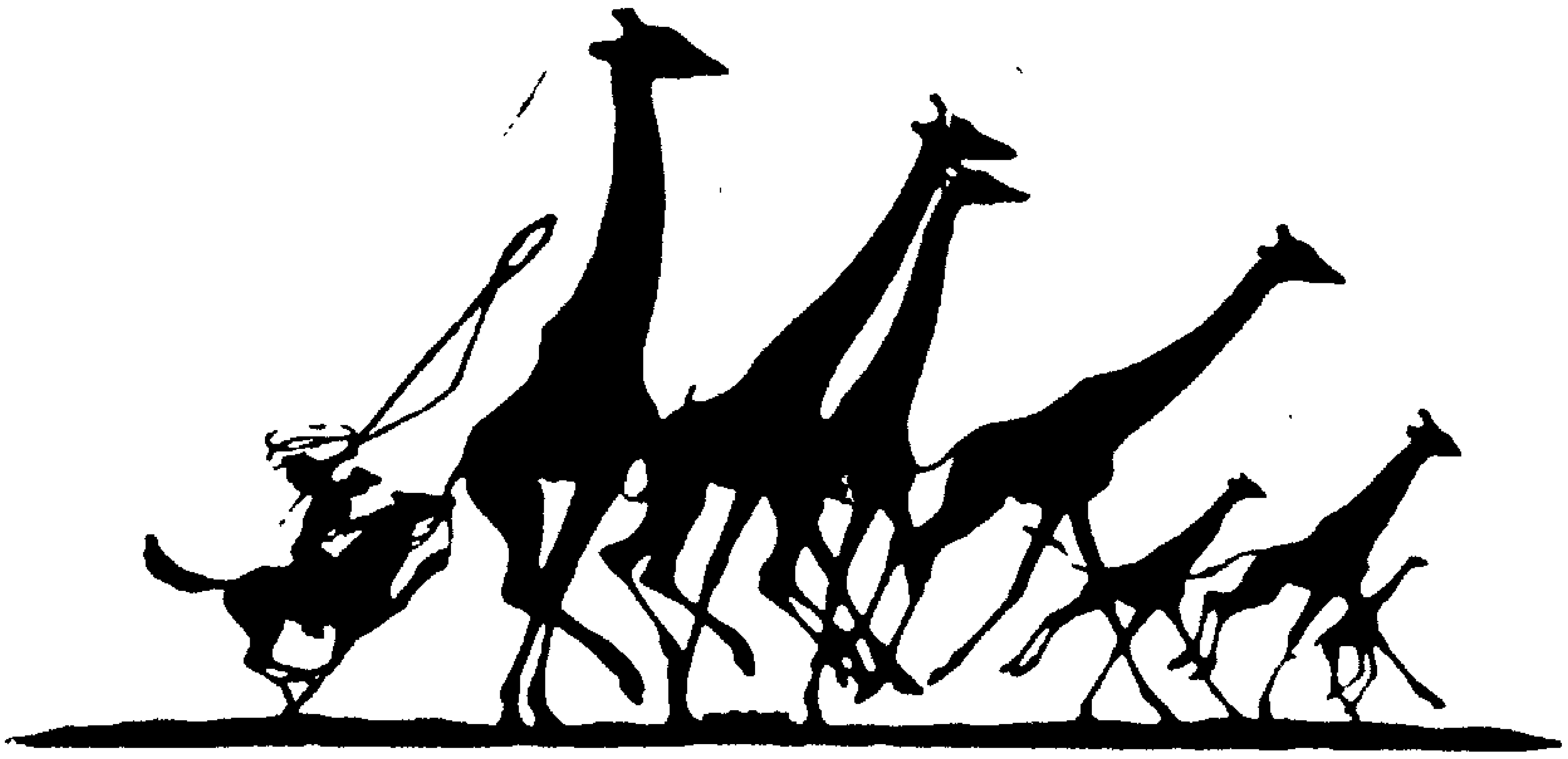

مغامرات فى كينيا

بقلم جون بولارد

إنها تلك الرغبة الجامحة التى تجيش فى النفس البشرية نحو المجهول والتى تدفعنا إلى المغامرة والبحث .. ولقد كان المجهول بالنسبة لى يتمثل فى طائر اتخذه جنكيزخان شعاراً له .. هو النسر الذهبى .. وكان البحث فى حد ذاته مثيراً إذ قادنا إلى مغامرات بين الأحراش والغابات ، وصعوبات فى تسلق الجبال لا تقل روعة عن تلك اللحظة التى تحققت فيها أمنيتى وعثرت على النسر الذهبى .

وقد كان يرافقنى فى المرحلة الأولى من رحلتى « هوايت » الذى لم يكن مقتنعاً بفكرة البحث عن النسر الذهبى ، ولكنه جاء معى لأنه مغرم بتسلق الجبال . وهناك فى كينيا كنا على موعد مع رجل يدعى « هوك » وهو رجل أوروبى سئم حياة العالم الأبيض وفضل العيش فى إفريقية وقد طلبنا منه أن يعد لنا رحلة عبر كينيا ، وما كان علينا إلا أن نقضى بعض الوقت فى مزرعته لحين بدء الرحلة . وإنها لمزرعة عجيبة حقاً ، فهى بجانب مساحتها الواسعة تحتوى على مجموعة نادرة من الحيوانات المفترسة والأليفة جنباً إلى جنب . وصرنا نتنقل بين أرجائها حتى دنت الشمس من الغروب فوقفت بالنافذة ورأيت منظراً جعلنى أقف مشدوهاً من روعته .. فهناك ، بعيداً ، يقف جبل كينيا شامخاً تتوج الثلوج قمته حيث تنعكس أشعة الشمس الغاربة عليه ، وكأنه جبل من شعاع .. وشعرت بأنه ينادينى ، وبأنى سوف أجد فيه ضالتى المنشودة . وفى التو سألت « هوك » : « هل رأيت النسر الذهبى فى جبل كينيا ؟ » . وكان جوابه .

بالطبع يوجد هذا الطائر فى جبل كينيا ، وإن كنت لم أره ، ففى الواقع هو يحتاج إلى عين خبيرة للتعرف عليه ، وآمل أن تكون محظوظاً فى رحلتك » وذهبت إلى الفراش وعشرات الأسئلة تدور برأسى وانتظرت ما سوف يحمله الغد فى جعبته من مغامرات .

.. وجاء الغد وبدأنا رحلتنا بحثاً عن النسر الذهبى . وقطعنا بعض الأراضى الجرداء . ثم تلتها مساحة من الأعشاب ، ثم مررنا بمنطقة كثيفة بالأشجار . وأخيراً وصلنا إلى سفح جبل كينيا . ولم يكن المسير سهلا فقد كان الطريق وعراً . وأدى تجمع السحب فوق السهل وقت الظهيرة إلى تعذر الرؤية حتى إننى ضللت طريقى ، ومرت فترة غير قصيرة حتى نجحت فى اللحاق بهم . وأصبحنا على ارتفاع ١٤٠ ألف قدم مما جعلنى أشعر بالدوار ولكن رغبتى فى تسلق جبل كينيا تغلبت عليه . وكنت قد قرأت أن جبل كينيا فى الأصل بركان هائل ثم هدأ فكان جبلا . وأن المنطقة الجليدية التى تحوطه تنحدر حتى الغابات ، وتعجبت من وجود الثلوج فى هذه المنطقة الاستوائية . وكان الصعود إلى جبل كينيا مهمة شاقة ، فكنا نتقدم ببطء وبدأ الدوار اللعين يصيبنى مرة أخرى وفى هذه لم أستطع مقاومته . فما كان من « هوايت » إلا أن تخلى عن محاولته

الوصول إلى القمة . . وهكذا فشلت فى الصعود إلى قمة جبل كينيا .

وفى الصباح بدأنا رحلة العودة ، وكان يخيم علينا السكون ، فكل واحد منا مشغول بأفكاره ، فلقد كنت مكتئباً لفشلى فى الوصول إلى القمة . وكذلك « هوايت » الذى لم يستطع — بسببى — الصعود إليها . وفجأة . وأنا أرقب الأفق البعيد ، وجدت ضالتى المنشودة . . . أجل وجدته يسبح من خلال الضباب وكان يشبه الصقر ولكنه مغطى بوشاح ذهبى » .

وبقيت لحظة وأنا فى ذهول ، لقد تحققت الآن من أن النسر الذهبى يوجد فى جبل كينيا . . . واستردت أنفاسى اللاهثة وأخذت أصيح وأنا أشير إلى الفضاء ، ولكن لم يستطع أحد أن يفهم معنى إشاراتى ، ولقد كان النسر ما زال يسبح فى الأفق . وفى ومضة خاطفة رأيت نسراً آخر يطير ، ثم ثالثاً ورابعاً . وأصبحت أجرى من مكان إلى آخر كالمأخوذ لأتتبعهم . . وشعرت أنى محظوظ حقاً فى مغامراتى مع النسر الذهبى ، فإن كثيرين أمضوا حياتهم يبحثون عنه ولم يحظوا بمقابلته . ومع عودتى أخبرت « هوك » بنجاح مغامراتى ، فما كان منه إلا أن هنأنى بحظى وأخبرنى بأنه يوجد فى مزرعته الأخرى عرين يقطنه هذا الطائر . وهكذا ما كدت أنتهى من رحلة حتى بدأت الاستعداد لرحلة ثانية . ولم يستطع « هوايت » أن يصحبنى فى رحلتى إذ أنه كان مشغولا بتسلق جبل « الهملايا » لذلك افترقنا وأكملت رحلتى بدونه .

ومرة أخرى وجدت نفسى أعبر الأدغال بحثاً عن النسر الذهبى . . ويوجد شىء فى الهواء الذى يستنشقه الإنسان هنا ، فإنك تشم رائحة عطر ممزوجة برائحة الأشجار . وكثيرون لم يستطيعوا مقاومة سحر الحرية التى يشعر بها الإنسان وهو بين الغابات . وكنا نقابل فى الطريق مختلف أنواع الطيور النادرة تنتقل من غصن إلى آخر وكأن وجودنا لا يعنى شيئاً بالنسبة لها . . وشعرت بالراحة والهدوء وأنا وسط هذا الجمال ، ولكن راحتى وهدوئى لم يدوما . . إذ كنت أركب حصاناً ومررنا بجانب مجرى ماء ووجدت « هوك » يبتعد وحذوت حذوه ولكن الحصان كان قد رأى الماء ولا شىء يمكن أن يقاوم سحر الماء فى إفريقية إذ أنى فى لحظة وجدتنى أغوص فى الماء حتى أذناى . . وسمعت صوت هوك وهو يحثنى على الخروج من الماء لأن هذا ضار بالحصان . . وشعرت بالغيظ فإن الماء ليس ضاراً بالحصان فقط ، بل براكب الحصان أيضاً . وهكذا خرجت وكل ملابسى مبتلة ودعابات « هوك » تلاحقنى .

وأخيراً وصلنا إلى المزرعة وحمدت الله حيث استطعت أن أبدل ملابسى

لمبتلة ، ولقد تمتعنا بعشاء شهى وكنت منهمكاً فى تناول طعامى عندما قال لى « هوك » : « هل أنت مستعد أن تغامر بحياتك فى سبيل مقابلة النسر الذهبى ؟» فرمقته بنظرة تساؤل ، هل يمكن أن يكون هذا العرين بهذه الخطورة ؟ فقال « هوك » : « إنه إذا أردت أن ترى العرين فما عليك إلا أن تنزل إليه بوساطة حبل ؛ وهذا أمر غير مضمون العاقبة وبخاصة أن وزنك ثقيل » . ولم أستطع النوم فى هذه الليلة فالرغبة جامحة والحياة ثمينة .

وأصبحت وأنا أتبع « هوك » ، وكنا قد وصلنا إلى ربوة عالية عند ما وجدته متردداً كأنه يحاول أن يتذكر شيئاً وأخيراً صاح : « لقد عثرت على المكان » . وكانت فى عينيه دعوة موجهة لى لكى أنزل إلى العرين الذى كان بين الصخور . . وغامرت وكان آخر شىء نظرت إليه وأنا على سطح الأرض هو الحبل الذى تتعلق به حياتى . وبدأت أتحسس طريقى بين الصخور ، وكلما تقدمت كلما خفت الضوء ، وأخذت أتعثر فى طريقى إلى أن زلت قدماى فجأة ووجدت نفسى أتدحرج فى الظلام إلى أن وصلت إلى القاع . . ونظرت إلى حيث كنت فرأيت « هوك » والآخرين وقد تضاءل حجمهم وأصبحوا وكأنهم مربعات صغيرة على حافة الهاوية . وجعلنى منظر الصخور بشكلها الدائرى أشعر بالدوار وسمعت صوت « هوك » خافتاً كأنه صدى من بعيد وهو يردد : « أين الكهف ، يا بولارد ، يميناً أم شمالا حتى أدلى الحبل ؟ » .

فصحت : « إنه إلى اليمين » ولكنى كلما قلت إلى اليمين ينجذب الحبل إلى الشمال وكأنه يسخر بى ، وعجز « هوك » أن يفهم ما أريد وخيل إلى أنه حكم على بالفناء فى هذا الكهف . وساد سكون رهيب . . ثم وجدت الحبل يقترب منى وسعدت به . . وكنت فى حالة ترقب خوفاً من أن يطير النسر الذهبى دون أن التقط له صورة ولكن ضاعت على هذه الفرصة فلقد انطلق النسر من فوق رأسى كالصاروخ بدون أن أحصل على هذه الصورة النادرة .

وفى طريق العودة التفت إلى « هوك » وقال : « أتدرى أن شعار جنكيز خان كان النسر الذهبى الذى يرمز إلى الملك ، وتوجد خرافة فارسية تقول : « إنه إذ مر عليك ظل هذا النسر فإنه مقدر عليك أن تصبح ملكاً » . فلم أتمالك أعصابى وصحت : « يا إلهى ! . . إن هذا الطائر قد مر من فوق رأسى هذا الصباح » . فنظر إلى « هوك » وقال : « أجل يا صاحب الجلالة بولارد » . وفى هذه الأثناء سمعنا صوت أحد الصبية وهو يصيح : « لقد وجدت فهداً كبيراً » . فاندفع « هوك » خلفه وهو يقول : « أسرع ، يا بولارد ، إذا أردت أن ترى مغامرة مثيرة » . وفى لحظة أصبحنا فى قلب الغابة . . وكان الأمر يتطلب سكوناً تاماً . . وشعرت أننى على أعتاب مغامرة مثيرة حقاً . . فكلنا كنا نترقب اللحظة الحاسمة التى يعطى فيها « هوك » إشارته للكلاب بتتبع الفهد وفجأة أعطاها ومرت لحظات ثم سمعنا نباح الكلاب فاتجهنا صوبه . . وهناك رأينا الفهد يقف بعظمة وكأنه يتحدى القدر الذى وضعنا فى طريقه ، ثم تقدم « هوك » نحوه بثبات . . والفهد متحفز . . ولم تمض لحظات إلا وكان

« هوك » ملقى على الأرض يحاول أن يصارع أنياب الفهد التى تشق طريقها إلى جسمه .. وبعد صراع دام استطاع « هوك » أن يخلص نفسه من بين أنياب الفهد ، وأن يمسكه من الخلف وكان العرق يتصبب من جسمه ممزوجاً بدمه .. واندفع اثنان من الصبية لمساعدة « هوك » وتمكن الثلاثة من أن يربطوا الفهد فى إحدى الأشجار .

وأصبحت فى حاجة إلى الراحة بعد هذه التجربة المثيرة . فنصحنى « هوك » بأن أجرب حظى فى صيد السمك ، ورأيتها فكرة صائبة فحملت سنارتى وتوجهت صوب الغابة بحثاً عن مجرى ماء إلى أن وصلت إلى حافة النهر .. وكنت منهمكاً مع سنارتى وإذا بى أسمع صوتاً . وكأن شيئاً يتحرك خلف الأغصان . وأى صوت فى الغابة ينذر بالخطر . وكم كان مضحكاً أن أرى جماعة من القرود يتابعون مغامراتى مع السنارة ، وكأنهم يشاهدون مباراة لكرة القدم . ولكن يبدو أن تكرار المحاولة وبالتالى تكرار الفشل جعلهم يفقدون المتعة . وبدأت أشعر بالملل بعد أن تخلى عنى جمهورى . وقررت العودة ولكنى اكتشفت أنى قد ضللت الطريق .. وأخذت أطرق كل سبيل .. وسرت على أمل أن يلوح لى نور المزرعة بدون جدوى .. وتنبهت إلى أن هذه البقعة ترومها وحوش ضارية .. وتخيلت أن خلف كل غصن وحش على وشك أن يفترسنى ، وبينما أنا تائه فى دوامة من أفكارى لمحت نوراً خافتاً ينبعث من بعيد ، وشكرت السماء . فلقد كان نور المزرعـــة . وشعرت أن أيامى أصبحت معدودة وأن رحلتى قاربت على الانتهاء ، وكان يؤلمنى أن أترك كينيا قبل أن أودع طائرى الحبيب ودون أن أحاول للمرة الأخيرة الوصول إلى قمة جبلها . إذ أنى كنت دائماً أنظر إلى النسر الذهبى على أنه رمز لسحر الجبال وروعة الأماكن البعيدة . وعندما لمس « هوك » رغبتى هذه أرشدنى إلى رجلين إيطاليين خبيرين فى تسلق الجبال هما « سورا » ، و « جبريولى » لكى يصحبانى فى رحلتى . ولم يسعنى إلا أن أشكره ، وأن أعده بالرجوع إليه لوداعه قبل أن أترك كينيا .

وهكذا بدأنا رحلتنـــا الأخيرة وكانت بمثابة رحلة وداع لكينيا . ولم يمض وقت كبير حتى كنا فى قلب الأدغال . وبجانبى « سورا » فهمس فى أذنى : « إنى أدعو الله ألا نقابل أى خرتيت فى طريقنا وبخاصة أنه لا توجد أشجار يمكن أن نتسلقها » . وكان الخوف يبدو عليه وهو يخاطبنى . وبالفعل لم تكن منطقة صالحة لمقابلة وحوش ضارية .. وكم كانت قسوة المفاجأة عند ما سمعنا صوت زمجرة ، وصحت بأن يسرعوا لينجوا بحياتهم

فإن « خرتيتاً » قادم ؛ ووقفت برهة بدون حركة من هول المفاجأة ، ولكنى استطعت أن أتخلص من ذهولى وأهرع إلى أقرب شجيرة واحتضنتها بين ذراعى .. وكان الصوت يقترب .. وأخذت الأرض تهتز وكأن قطاراً يشطرها .. وفى اللحظة التالية أحسست بشىء يجذبنى من الخلف .. وشعرت بألم فى ظهرى ، ونظرت خلفى فوجدت عجلين كبيرين قد احتكا بى وهما يجريان .. ولم أتحمل الصدمة فسقطت على الأرض ، ولم أتنبه إلا على صوت «سورا» وهو يدعو ربه أن يكون « جبريولى » ما زال على قيد الحياة ، وبرغم شدة الصدمة لم أستطع أن أكتم ضحكاتى وأنا أرى « جبريولى » وهو يزحف على يديه ووجهه شاحب كأنه مومياء بعثت فيها الحياة . وإذا « بسورا » يقول فى صوت مرتعش — بعد أن أفزعه منظر « جبريولى » — « هل أنت متأكد أنه لا يوجد وحش آخر أو أى « خرتيت » ؟ وبالطبع أكدت له أنه الآن فى أمان ، على حين كانت الأقدار تسخر منى ، فإنى لم أكد أنهى كلامى إلا وقد سمعت صوت حشرجة ينبعث من الأحراش وفى لحظة اندفع نحونا « خرتيت » ، وبينما كنت أسرع إلى الشجرة لحت « سورا » و«جبريولى» يهرولان نحو الأحراش .. ومضت فترة أعددت فيها نفسى لاستقبال الموت ، ولكن يبدو أنى لم أكن على موعد معه إذ أن المعجزة قد وقعت ، ولم يسلك « الخرتيت » الطريق إلينا ، ولم يكن من السهل على فى هذه المرة أن أقنع « سورا » بزوال الخطر .

ووصلنا إلى الكوخ الذى على سفح الجبل كى نمضى فيه الليلة قبل محاولة الصعود إلى القمة ، ولكننا لم نستطع النوم من شدة البرودة . وبدأنا نتسلق الجبل والظلام يخيم عليه لدرجة أنى كنت لا أرى الطريق ، وكان التسلق فى هذه المرة أشق من المرة الأولى ، فانه فى كل خطوة كانت تغوص قدماى فى الجليد ، وشعرت أنى لا أتقدم على الإطلاق .. وأخذت أكد لألحق بهم بدون جدوى ، فلقد كنت كانسان فى النزع الأخير . وبدأ يظهر خيط من النور وأنا أصارع الثلوج . وقد اقتربنا من ربوة فى الجبل من الصعب على اجتيازها ، ونجحوا هم فيما فشلت فيه .. وهناك مبدأ فى صعود الجبال يقول : إذا لم تكن متأكداً من أنك تستطيع أن تعود من الطريق الذى سلكته فلا تحاول أن تسير فيه .. ولم أكن متأكداً ؛ لذلك قررت البقاء وتركتهم ليصلوا إلى القمة . وشعرت باليأس وأنا أرقد وحيداً على الثلوج على حين أن الآخرين يسعون إلى القمة .. وتذكرت كلمات « هوك » وهو يقول لى : « إنه توجد حكمة تقول — أن تسافر مملوءا بالأمل خير من أن تصل إلى هدفك » .

وقررت الرجوع على أن أنتظرهم فى الكوخ . ومرت الساعات بطيئة .. وبدأ الظلام يزحف على الجبل مرة ثانية .. ولم يعودوا . وأخذت أسائل نفسى ترى ماذا حدث لهم ؟ إنها مخاطرة كبرى أن يظلوا فى العراء إلى هذه الساعة ، إذ لا يوجد معهم مصباح ينير لهم الطريق ، وإذا اضطرهم الظلام أن يبقوا فى مكانهم حتى النور فانهم إذا نجوا من الموت برداً فلن ينجوا من خطر تساقط الحجارة عليهم .. وترقبت قدومهم بلا أمل ، وتصورت النهاية المفجعة التى سوف تؤول إليها رحلتى ، ولكنى سمعت صوتاً هاتفاً فى الجبل ولم أصدق أذناى وهرعت إلى الخارج وأمعنت النظر وخيل

إلى أن أرى أشباحاً ، ولم تكن هذه الأشباح غيرهم . وكم كانت رحمة السماء واسعة فشملتنا . . وكان رجوعهم إيذاناً بعودة القافلة.

ومن بعيد لاحت لى مزرعــة « هوك » . . وتذكرت أول مرة رأيتها فيها . . وبدأت الصور والأحداث التى مرت بى تتلاحق فى مخيلتى وكأنها كتاب أقرأ سطوره . . حقاً لقد كانت رحلة العمر . . ولا أنكر أننا تعرضنا لأخطار كثيرة أثناء توغلنا فى قلب هذه الأرض العذراء ، والمغامرات كان بعضها يبعث على الضحك فى بعض الأحيان . . ولكننا رأينا الطبيعة فى أروع صورها طبيعة الأرض ، طبيعة الجبال والغابات ، حتى طبيعة الحياة تشعرك بأن هذه الحياة فى أبسط صورها بعيدة عن تعقيد المدنية .

إنها الحياة كما أرادها الله وليس كما أرادها الإنسان .

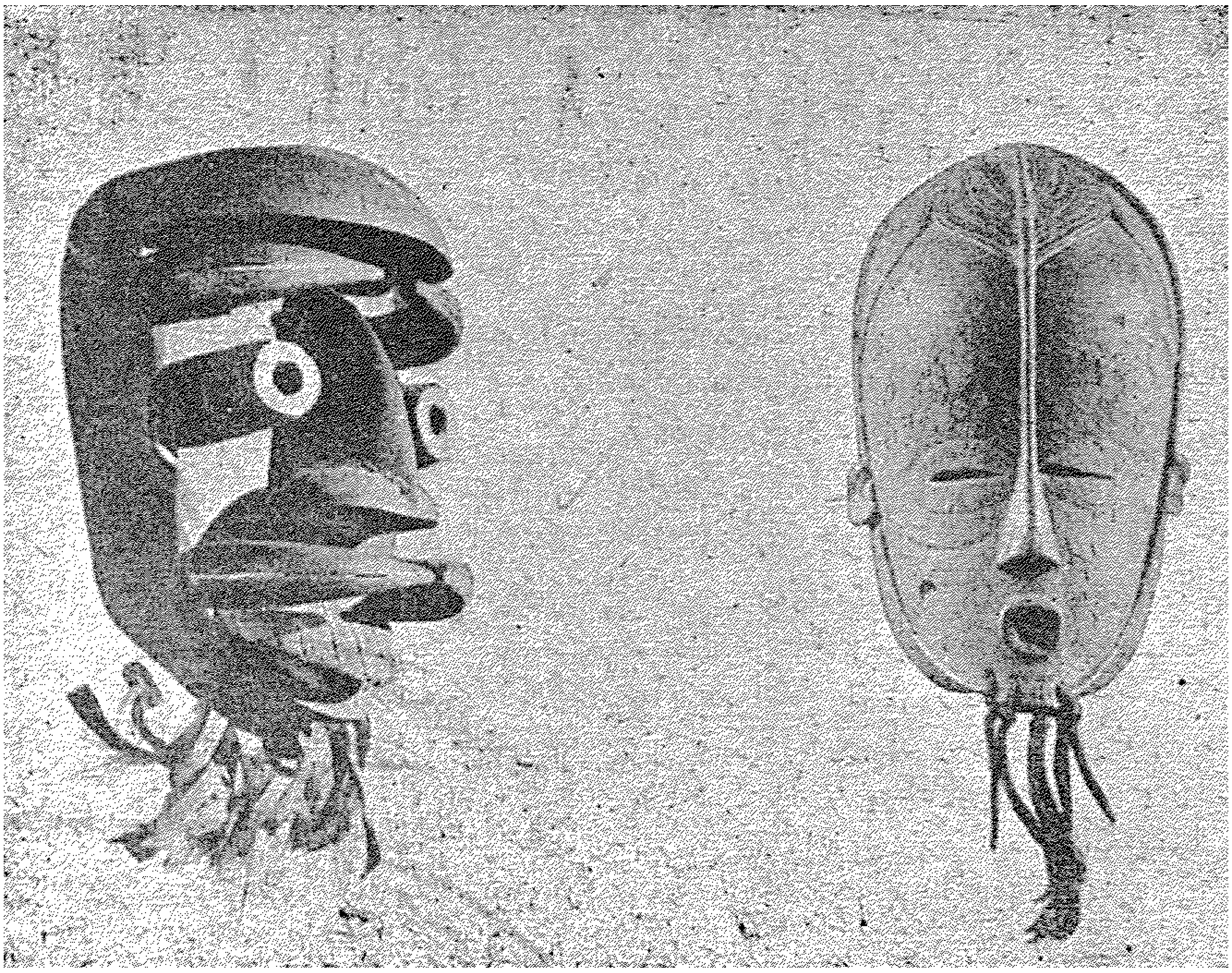

شخصية العدد

ماء العينين

بطل من أبطال إفريقية الغربية ، وأسد من الأسود الذين يعتز بهم المغرب ، كما تعتز بهم إفريقية فى كفاحها ضد الاستعمار .

نشأ فى منطقة صحراوية ، وهى المعروفة الآن بموريتانيا . وتربى فى هذه البيئة التى تخلق فى أبنائها عشق الحرية والتشبث بالاستقلال . وكان المجتمع الذى نشأ فيه « ماء العينين » مجتمعاً عربياً إسلامياً ، فشب فى بيئة صالحة وأهلته عصبيته وذكاؤه لتزعم عرب القبائل فى وقت من أشد الأوقات صعوبة عليه .

عاصر ماء العينين حركة تقسيم القارة الإفريقية بين الدول الاستعمارية وعمل كل من هذه الدول على وضع أيديها على المناطق التى تحلو لها ، والتى يعترف لها غيرها « بحق » التوسع فيها . فدفعه ذلك إلى الكفاح أمام هذا الخطر الداهم الذى أخذ يهدد أهله وبلاده .

بدأ الفرنسيون يحاولون فى نهاية القرن التاسع عشر استكشاف المناطق الغربية من إفريقية ، وذلك عن طريق بعثات خاصة تجوب هذه المناطق وتنصح حكوماتها الاستعمارية باتخاذ ما يتطلبه الموقف من استعداد . شهدت هذه الفترة نشاطا كبيراً للفرنسيين فى هذا الميدان . وكانوا يقومون بمهمة المخابرات عن إمكانيات البلاد وقوتها للدفاع عن نفسها . رأى ماء العينين هذا النشاط ، وعرف ما قد يترتب عليه ، خصوصاً بعد أن تمكن الفرنسيون ، بطرق مماثلة ، من وضع أيديهم على مناطق مجاورة . فصمم على وقف هذا التوغل ودعا رؤساء القبائل إلى التعاون معه فى هذا الميدان ، وإلى عدم إمداد الأجانب بأية معلومات أو تزويدهم بالمؤن اللازمة لهم فى رحلاتهم

ولكن قوة فرنسا الاستعمارية أخذت فى الازدياد ، وأخذت قواتها تتوغل من غرب القارة صوب الداخل ، محاولة بسط نفوذها ، بل وسيطرتها ، على كل إفريقية ، الغربية . كما أن هذه الدولة عملت على الاتفاق مع إسبانيا لتقسيم مناطق النفوذ فى هذا الجزء الهام من العالم . فوقعت هاتان الدولتان معاهدات واتفاقيات لتقسيم صحراء المغرب الجنوبية إلى قسم يتبع إسبانيا ،

وهو ما سمى فيما بعد بريودى أورو والباقى يخضع لفرنسا ، وهو الذى حمل فيما بعد اسم موريتانيا . أما فى الشمال فإن فرنسا ستقبل ترك منطقة الريف الشمالية لإسبانيا نظير اعتراف هذه الدولة الأخيرة بالحماية الفرنسية على بقية المغرب .

كانت كل هذه المناطق موحدة قبل مجىء قوات الاستعمار إليها ، ولم تكن صحراء موريتانيا إلا امتداداً طبيعياً للإمبراطورية المغربية . بل وجزءاً من أجزائها عرف فى التاريخ باسم شنقيط . وأعطى المغرب عدداً كبيراً من بين أهم رجالاته .

شعر « ماء العينين » بخطورة تقسيم البلاد بين الدول الأوروبية . كما شعر بخطورة توغل الأجانب فيها . فعمل على توطيد الصلات بسلطان المغرب . كما عمل على توحيد كفاح الإفريقيين ضد المستعمرين الأجانب . وقاد بذلك حركة الجهاد الإسلامية التى عبأ فيها قوى الشعب العربى فى جنوب المغرب . وكافح ضد الفرنسيين مدة سنوات طويلة . ولهذا فإنه يمكننا اعتبار ماء العينين رجلا من رجال العروبة ومن رجال إفريقية ومن رجال الجامعة الإسلامية ومن أبطال الكفاح ضد الاستعمار .

كان الفرنسيون يحاولون إغراء العرب فى أول الأمر بترك قوافلهم ومواصلاتهم تمر بأمان نظير دفعهم لجزية سنوية لهؤلاء العرب . وكانت السلطات الفرنسية فى السنغال نفسها توصى بدفع هذه الأتاوة للبدو . ولم تحاول هذه السلطات الاستعمارية التدخل فى أى نزاع ينشأ بين العرب . ولكن هذا الاتجاه تغير مع الزمن ، خصوصاً بعد أن زادت حاجات فرنسا إلى المواد الخام وحاجتها إلى الأسواق الخارجية للتصريف . وقبلت بالتالى زيادة الضرائب وزيادة قوتها العسكرية ، واستخدامها فى الاستعمار . فأخذت فرنسا تحاول . عن طريق سلطاتها فى غرب إفريقية . التدخل فى الخلافات التى تنشأ بين العرب . ثم رفضت دفع الجزية على قوافلها . وأخذت فى الاستعداد عسكرياً لفرض سيطرتها على الإقليم فى تعاون مع إسبانيا ، وكل فى منطقتها .

رأى ماء العينين توغل الحملات الفرنسية فى بلاده . فاتجه صوب الشمال . ونجح فى إقناع ملك المغرب بضرورة إنشاء جبهة موحدة فى الشمال والجنوب وأمام كل من الفرنسيين والإسبانيين . ووافق السلطان على هذه السياسة . وأرسل أحد أقاربه على رأس قوة من الجيش المغربى النظامى إلى الجنوب لوقف تدخل الأجانب فيه .

رفضت كل من فرنسا وإسبانيا ، بطبيعة الحال . الاعتراف بهذه الوحدة التى لم يدعمها أحد لبحث دعائمها

أو أسسها التاريخية . وكانتا فى ذلك تنفذان سياسة التفتيت والتفرقة ، حتى تنتصرا على القوى الوطنية . ولكن ماء العينين رفض الاستماع إلى هذه الادعاءات الغربية ، وانتهز فرصة وجود قوات ملك المغرب لكى يعلن الجهاد باسمه ويعبئ قوى المسلمين والعرب فى معركتهم .

واستمرّ هذا الجهاد مدة سنوات طويلة . ولم يتمكن الفرنسيون من القضاء عليه . ولكنهم انتهزوا فرصة مجيء سلطان آخر ضعيف فى المغرب . وكان يخشى على نفسه من شعبه . ولا يجد حرجاً فى الالتجاء إلى الأجانب . فضغطوا عليه وأجبروه على سحب قواته من موريتانيا وعلى الاعتذار بأن السلطان السابق لم يرسل ابن عمه إلى موريتانيا إلا ليتأكد من صحة الطلبات التى قدّمها الأهالى للقصر بهذا المعنى . فأصبح على بدو الجنوب أن يواصلوا معركتهم وحدهم أمام القوات المعتدية .

لم يفت هذا التراجع فى عضد ماء العينين ولا فى قوة عزيمته وإيمانه بقضية بلاده ، فواصل الحرب . وساعدته طبيعة البلاد الصحراوية وخفة حركة أبنائها على المهاجمة فى أكثر من جهة . فوصل رجاله إلى حدود السودان والسنغال والجزائر ، ودخلوا فى أراضى المغرب تارة وفى ريودى أورو تارة أخرى . ولم تتمكن القوات الفرنسية من مطاردتهم ، رغم قوة تسليحها وازدياد عددها . أصبح رجال الصحراء لا يخرجون من معركة إلا ليستعدوا لخوض معركة جديدة . وشعرت فرنسا أنه ليس فى وسعها التغلب على قوة هذا الشعب . خصوصاً إذا كانت له قيادة ماء العينين . وكم من مرة اعتقد فيها العالم أن فرنسا لن تتمكن من التوغل فى صحراء موريتانيا . واستخدمت فرنسا الحرب الاقتصادية ضد الأهالى ، فعملت على مصادرة إبلهم وإتلاف محصول كل قبيلة تتعاون مع ماء العينين . ولكن ذلك لم يزد أغلبية الشعب الموريتانى إلا إصرارا واستماتة فى الدفاع عن حقوقه .

واستعدت القوات الفرنسية . قبيل الحرب العالمية الأولى . لاحتلال المغرب . فقام ماء العينين من موريتانيا إلى المغرب على رأس حفنة من رجاله للدفاع عنه ضد الأعداء . وكان أكثر ضعفاً من رؤساء الشمال . ولكنه قرر الدفاع عنهم بعد أن كانوا قد تخلوا عنه منذ سنوات قليلة . وأثبت بهذا وحدة الأراضى الموريتانية والمغربية . ووحدة المعركة ، ووحدة الشعب أمام عدو مشترك

ولقد ضيق الفرنسيون الخناق على « ماء العينين » حتى صعب عليه تنفيذ عملياته الحربية والقيام بتحركاته . وقد استشهد وهو يواصل جهاده فى سبيل دينه وأهله وبلده ؛ فقده المجاهدون ؛ ولكنه كان معهم فى كل مكان وفى

كل جهة ، إذ أن أبناءه والمخلصين له فى جهاده واصلوا المقاومة دون هوادة ويعتبر الهيبة أو هبة الله ، أحد هؤلاء المجاهدين الصناديد الذين ساروا على آراء قائدهم ماء العينين ، واعتقدوا فى آرائه التى تلخصت فى ضرورة تعبئة الشعور الإسلامى كمرحلة أولى لخلق الشعور القومى الوطنى بين العرب والإفريقيين .

واليوم وهذه البلاد التى شغلها الزعيم « ماء العينين » قد أصبحت تشتعل بالحرية ، وتورق بالسلام ، وتزدهر بالروح العربية الجديدة التى غمرت كل هذه المنطقة ... أصبحنا نحس بالفخر كل الفخر لأن جهاد هذ الزعيم العظيم اعتبر القاعدة الكبيرة التى قامت عليها الروح الثورية فى هذه المنطقة ، والتى كانت ثمارها تلك الدولة العظيمة مملكة المغرب ، ثم الجمهورية الموريتانية التى نالت استقلالها أخيراً .

والأمل كبير فى أن يصبح كل هذا القطاع الكبير فى « وحدة » واحدة ، بعيداً عن عمليات التفتيت التى قامت بها فرنسا فى كل هذه المنطقة الضخمة .

.. ويوم تتم هذه الوحدة ، سنتذكر جميعاً أنه من الزعماء الكبار الذين رفعوا على هذه المنطقة « علم تحرر عربى » الزعيم الكبير « ماء العينين » .

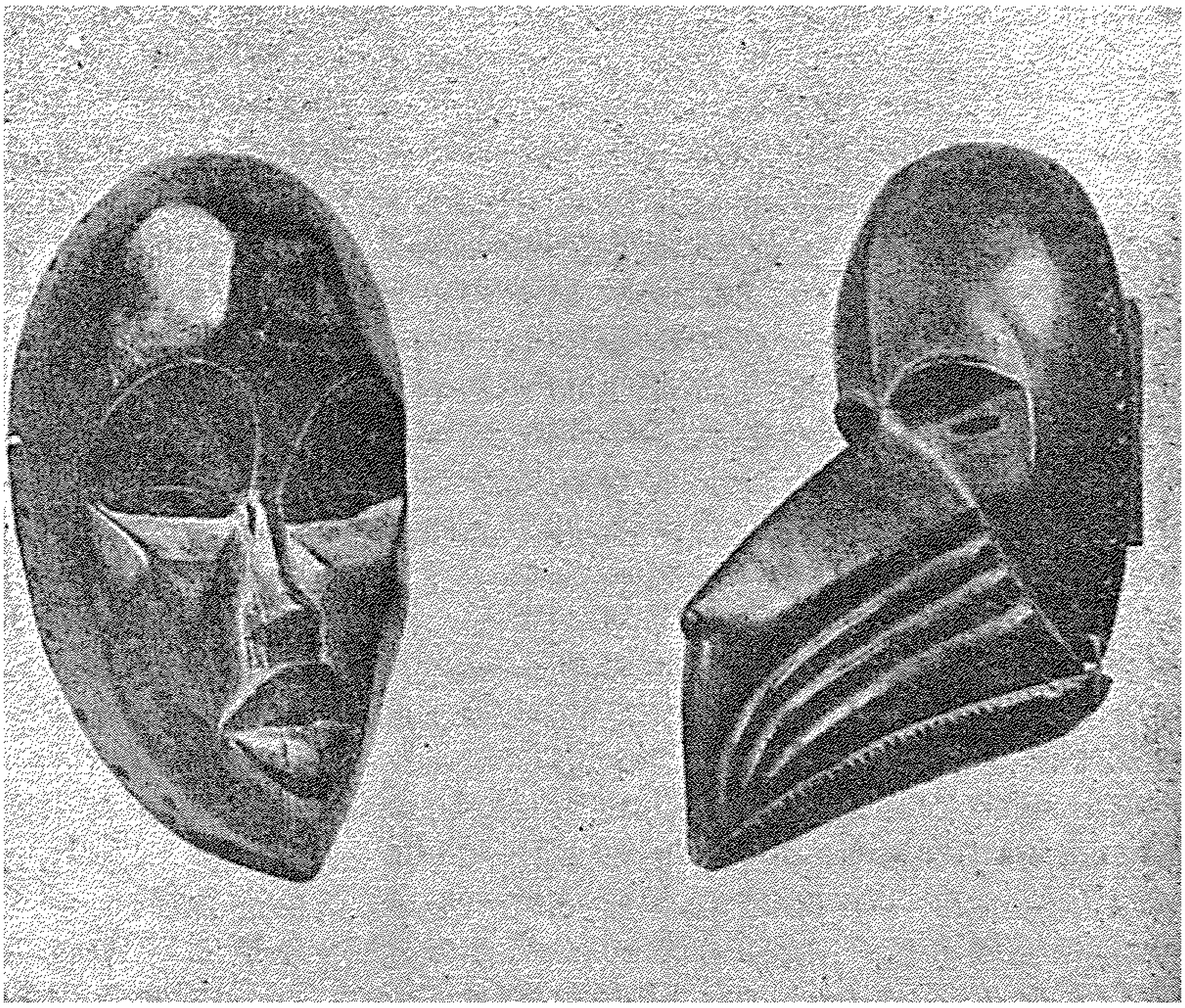

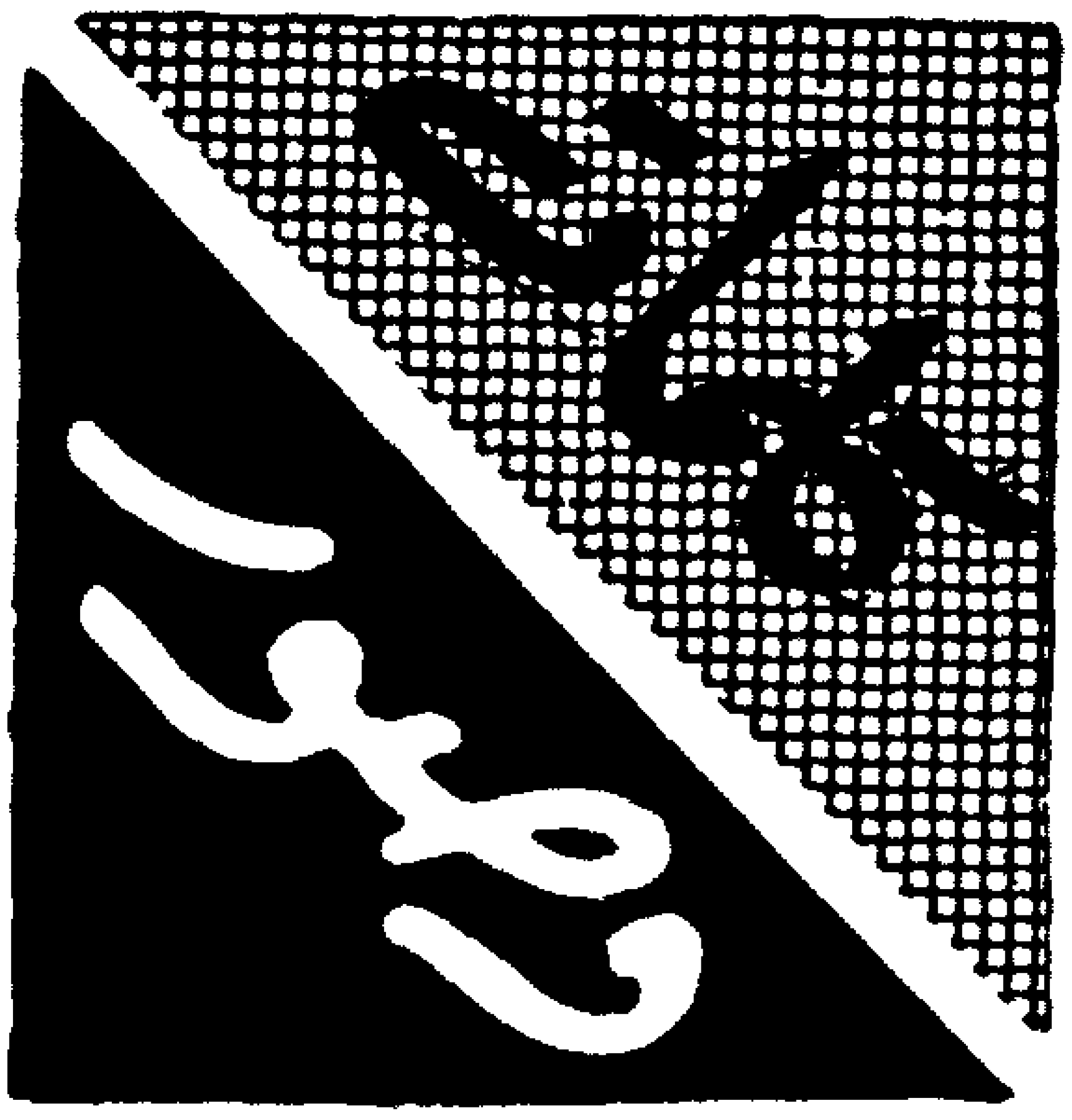

الرئيس يهنىء سيكوتورى :

بعث الرئيس جمال عبد الناصر برقية تهنئة إلى رئيس جمهورية غينيا بمناسبة فوزه فى انتخابات رئاسة الجمهورية فى غينيا هذا نصها :

« كان لنبأ فوزكم الباهر فى انتخابات رئاسة الجمهورية أجمل الوقع لدى ولدى الجمهورية العربية المتحدة حكومة وشعبا وإنه ليسعدنا جميعاً أن نعرب لكم فى هذه المناسبة عن أصدق التهانى القلبية راجين لكم التوفيق فى مهمتكم حتى تشاركوا مع الشعوب الحرة فى إقامة دعائم السلام وفى العمل معها جنباً إلى جنب من أجل رفاهية شعوب إفريقيا ونهضتها وإنه يسرنى أن تتوطد أواصر الصداقة القائمة بين شعب غينيا وشعب الجمهورية العربية المتحدة للعمل على كل مافيه خيرهما وصالحهما ويطيب لى أن أبعث إليكم بأخلص تمنيات الصحة والسعادة راجياً لشعب غينيا الصديق فى عهده الجديد كل رفعة وتقدم وازدهار ».

وقد رد رئيس جمهورية غينيا بهذه البرقية :

« رداً على العبارات الحارة الودية الواردة فى الرسالة التى وجهتموها إلى بمناسبة انتخابات الرئاسة لجمهورية غينيا ، أود أن أبعث إليكم بخالص شكرى وعميق تقديرى ، وأن اجماع الشعب الغينى الذى تبدى بمناسبة انتخابات الرئاسة لهو الدليل على تصميمه على السير باطراد فيما يقوم به من عمل لصالح الاستقلال الحقيقى لإفريقية ووحدتها الفعلية وهو الطريق الوحيد للوصول إلى التطور السريع فى الميدانين الاقتصادى والاجتماعى للشعوب الإفريقية ، وإن هناك شيئاً أبعد من الصداقة الطبيعية التى تربط بين شعبينا وهذا الشىء هو الأخوة التاريخية التى يجب علينا أن نعمل جاهدين على تقويتها أكثر فأكثر لنجعل منهما عاملا خلاقا : ومحركا فى تشييد الصرح السياسى لإفريقية ، وتحقيق تقدمها.

إن وحدة المصالح التى تحرك شعوبنا ، وآمالنا المتشابهة فى تحقيق الرقى ، والعدالة والسلام ، وكذا التوافق الذى تتميز بها مقدراتنا التاريخية ، هذه كلها عوامل إيجابية من شأنها أن تتيح لنا التغلب على الخلافات الواهية من أجل أكثر الحلول عدلا للمشكلات المشتركة بيننا ، وأوفرها فائدة لشعوبنا ، وإنى إذ أذكر لكم عميق عبارات شكرى ، أود أن أعرب لكم عن رغباتنا الأكيدة فى رؤية عرى الصداقة والتعاون وهى تنمو بين دولتينا ، تلك العرى التى هى انبعاث للاحساسات المختلفة التى يكنها شعب غينيا نحو الجمهورية العربية المتحدة » .

وهكذا توضح هاتان البرقيتان المتبادلتان تلك العواطف الكريمة التى يكنها الرئيسان للشعبين العربى والغينى ، وهذا العزم القوى على خلق إفريقية القوية المتحررة من جديد بعيداً عن كل التيارات الدخيلة ، والقوى الأجنبية ، ذلك لأن إفريقية تنمو الآن نمواً طبيعياً من داخلها . بعيداً عن كل القوى الأجنبية .

مؤتمر التضامن الافرسيوى :

لقد دفعت الأحداث كل القوى فى القارة إلى أن تتحد ، وتتكتل ،

وترفع صوتها من أجل الحرية فى كل مكان فى إفريقية ، تلك الحرية التى تكاد تضيع فى الكونغو ، والتى تسيل دماء فى الجزائر ، ويضغط عليها فى أكثر من مكان بإفريقية حتى لا ترفع علمها الكبير بدلا من تلك الأعلام الدخيلة التى ما زالت تضيق بها الآفاق الإفريقية ، أو تلك الأعلام المزورة التى تتخذ لها لوناً إفريقياً . بينما تستند على أذرع غريبة عن القارة . كذلك العلم الذى رفع أخيراً فى « كاتنجا » باسم « تشومبى » .

ومن أجل هذه الحرية التى يجب أن تسود القارة . والتى هى فى الوقت نفسه حق المواطنين الإفريقيين من أجل هذا عقد مؤتمر التضامن « الافريقى الآسيوى » بالقاهرة فى ٢١ - ١ - ١٩٦١ وقد بدأ المؤتمر بقراءة برقية الرئيس جمال عبد الناصر التى جاء فيها « يسرنى أن أرسل إليكم أطيب التمنيات راجياً لاجتماعكم كل نجاح . إن قضية الجزائر والكونغو هما قضيتا الشعوب الآسيوية الإفريقية ، وهما تمثلان مرحلة هامة من مراحل النضال ضد الاستعمار ، إن الجمهورية العربية المتحدة وقد استطاعت أن تتخلص من نير الاستعمار بعد أن قاست منه عدة سنوات عديدة لتقف بكل إمكانياتها بجانب المناضلين ضد الاستعمار ، وفى سبيل استقلالهم وحريتهم ، إن معركة الكونغو والجزائر هى معركة الحرية التى لا تتجزأ فى كل مكان من أرجاء هذا العالم ، وإنى واثق أن مؤتمركم سيخرج بنتائج عملية حاسمة من شأنها أن تساعد على حل هاتين المشكلتين الخطيرتين » .

ثم قال الأستاذ أنور السادت فى كلمته : « إنه ليسعدنى أن أرى هذه الوجوه الصديقة العزيزة ، وأن نلتقى مرة أخرى فى القاهرة لكى ندعم تضامننا ، ونعلن للعالم أننا ما زلنا متمسكين بمبادئ التضامن التى أرسينا قواعدها معاً هنا فى القاهرة ، وفى كوناكرى ، والتى ما زالت إلى يومنا هذ تكافح كل الاستعمار ، وكل الاستبداد بقوة وعزم وإصرار » .

ثم تلا الأستاذ يوسف السباعى برقيات التأييد التى تلقاها المؤتمر من خروشوف ، وملك المغرب ، وشواين لاى ، ورئيس وزراء منغوليا الشعبية ، ورئيس وزراء كوريا ، ولاوس ، والصومال ، ورئيس بعثة الكونغو فى القاهرة .

ثم وقف مندوب الكونغو ، وتكلم عن قضية بلاده ، بعمق وفهم ، واستطرد إلى التعذيب الوحشى الذى يلاقيه لومومبا فقال : « إنكم تعلمون الوحشية التى عومل بها لومومبا . . . فلا تنسوا نضال هذ الشعب الباسل الذى يحارب فى الغابات والأدغال ، ويسقط تحت أقدام المستعمرين ، إن الاستعماريين يمدون ممثليهم فى بلادنا بالسلاح ، ولذلك فقد فقد شعبنا الثقة

فى الأمم المتحدة تماماً ، ولذلك أتقدم بالمقترحات الآتية :

١ – التدخل المباشر لصالح شعب الكونغو بمساعدته ماديا ومعنوياً

٢ – إرسال ممثلين دبلوماسيين إلى « استانلى فيل »

٣ – إرسال فنيين من جميع الخبراء الى « استانلىفيل » .

٤ – إنشاء لجنة خاصة فى منظمة الشعوب الآسيوية الإفريقية لمساندة قضايا الكونغو »

ثم تحدث مندوب الجزائر فقال « باسم شعب الجزائر أحييكم وأقول إن وسائل الكفاح من أجل الاستعمار قد زادت ، وإن وعى الشعوب قد استيقظ ، وفى سبيل هذا فقد شعب الجزائر ١،١٠٪ من سكانه من أجل حريته » .

كما تحدث مندوب لاوس ، وكوبا ، والصين ، ومنغوليا ، وروسيا وغينيا واليمن ، والأستاذ فؤاد جلال مندوب الجمهورية العربية . وانتهى المؤتمر بانتخاب الأستاذ أنور السادات رئيساً ، ومندوب الكونغو وكيلا ، ومساندة قضية الحرية فى الكونغو ، والجزائر ، وفى كل مكان بالقاهرة ، وتوضيح هاتين القضيتين للرأى العام العالمى .

ضوء على كينيا :

تقع كينيا فى شرق القارة ، وتشترك فى الحدود مع أوغندة ، وتنجانيقا ، والصومال ، ، وأثيوبيا ، وعاصمتها « نيروبى » ويبلغ سكانها ثمانية ملايين نسمة ، منهم ٢٠٪ من المسلمين وهى دولة مستدلكة ابقايا الدول التى غزاها الاستعمار . وإن كان من أهم ما تصدره ، البن ، والشاى ، والزبد ، والدقيق ، والسكر ، والقطن والأسمنت ، وبعض الفواكه والمعادن التى أعدت بتنظيم خاص لتكون فى خدمة الاستعمار الإنجليزى .

ومع أنها تضم قبائل متعددة ظلت واقفة دون عملية الاندماج بفعل الاستعمار إلا أن اللغة السواحيلية تجمع بينها جميعاً ، كما تجمع كثيراً من الدول كزنجبار ، وتنجانيقا ، وأوغندة ، ورواند أورندى ، وبعض القطاعات فى الكونغو .

وقد قامت بعدة ثورات قمعت بعنف ، وكلنا لا ينسى العنف الذى أخمدت به حركة « الماو ماو » فى عام ١٩٥٢ ، والتى استمرت مشتعلة ثلاثة أعوام بقواها الداخلية فقط ، والتى استدعت الإنجليز إلى إقامة معسكرات اعتقال ، أهمها معسكر « لامو » الذى يضم كل من يرفع صوته فى وجه الإنجليز ، ولكن أمواج الحرية تتدفق على هذه البلاد فى هذه الأيام بضراوة ، وعنف .. وغداً يشرق منها فجر ، وتسطع جبهة قوية ما زالت تنتظرها العيون فى شوق وحب هى جبهة الزعيم « جوموكينياتا » .

ضوء على غمبيا :

تقع هذه البلاد غرب القارة ، ويبلغ عدد المسلمين بها ٩٥٪ من عدد السكان ، وتحد غرباً بالمحيط الأطلسى ، وشمالا وجنوباً بالسنغال .

وقد دخل إليها الإسلام عن طريق مراكش (المغرب) فى أوائل القرن الثانى الهجرى على أيدى التجار العرب الذين كانوا يزرعون القارة ، وينشرون الدعوة بسلوكهم الطيب ، ومعاملتهم الإنسانية ، فقد كانوا يتجاوزون صحراء موريتانيا إلى السنغال ، ومنها إلى « غمبيا » ، وظل الإسلام يسيطر على مصائر الناس ، ويعتبر قانونهم الأعلى حتى قدم الإنجليز ، وظلوا يناوشون البلاد حتى سقطت فى أيديهم فى أواخر القرن التاسع عشر بعد أن تغلبوا على الزعيم الوطنى « فوديبا » فى مدينة « بيشبى » ، « طوربى » فى مدينة « تمنجور » .

وقد آن لهذه البلاد التى يحجبها الإنجليز بأكثر من ستار أن تأخذ مكانها تحت شمس الحرية التى سطعت فى أكثر من مكان بالقارة . والتى ذوبت فى الوقت نفسه كل قوى الطغيان التى تقف ناتئة — كجزيرة صخرية — فى بحر الحرية الكبير ، ولكن المد الثورى يرتفع ، ويغرق كل قوى الظلام . وغداً لن نرى فى « غمبيا » علماً دخيلا ، أو قوة أجنبية ، ذلك لأن القوى الوطنية تزدحم الوطن هناك ، ولن تترك مكاناً صغيراً لنظرة دخيل !

حضارة الخرطوم :

جاء فى كتاب مصر الفرعونية للدكتور أحمد فخرى « ومن بين أقدم الحضارات التى عثر عليها العلماء فى وادى النيل بوجه عام « حضارة الخرطوم » التى يرجع تاريخها إلى ما بين عامى ٥٠٠٠ ، ٤٧٠٠ ق . م ، وقد ظهرت بقاياها أثناء الحرب العالمية الثانية ، وهى حضارة لا شك فى صلتها بحضارة شمال الوادى ، ولكنها كانت متأثرة بطابع محلى أملته صلة السكان بغيرهم ممن كانوا يعيشون إلى الجنوب منهم . وكان سكان الخرطوم القدماء على درجة من التقدم جعلتهم يصنعون أدوات مختلفة من الحجر ، ومن العظم ، ويتحلون بالخرز والعقود المصنوعة من بيض النعام . وعرفوا صناعة الفخار وزخرفته بوساطة أجزاء من السلسلة الفقرية لبعض الأسماك تشبه المشط يديرونه حول الإناء قبل أن يجف ، كما كانوا يزخرفون الأوانى بوساطة الحبل أو أصابع اليد ، وكان هؤلاء السكان يعيشون على مرتفع غير بعيد من النهر يقضون فيه جزءاً من السنة فقط .

وليس لدينا دليل قاطع على أنهم مارسوا الزراعة رغم معرفتهم للفخار الذى يلازم الناس عند ما يتحولون

إلى الزراعة ويصبحون منتجين للقوات .

وهناك وحوه وشبه عدة بين فخار الخرطوم وفخار البدارى وما عثر عليه المنقبون فى النوبة وفى غربى السودان مما يدل على انتشار ثقافة واحدة فى جزء كبير من هذا الجزء من العالم فى ذلك العهد .

ذكريات المفرق للشاعر عزيز أباظه :

طالعتها فانفض عناء السفر
وامتلأ من الخرطوم سبح البصر
واهبط بموشى خميلاتها
بين الربى الخضر وشط النهر
واخشع إذا جئت فناء الحمى
وآنست عيناك ضوء الحجر

واحرص على دمعك لا ينهمر
واشدد على قلبك لا ينفطر
قل للتى تنعم فى خدرها
بالنوم ، قد طال على السهر
سمراء لفاء : غلامية
مشبوبة الأعطاف ، ريا الثغر

تقوم إن قامت لحاجاتها
ظبى تهادى أو نسيم خطر
استغفر الله فلم يبد لى
ما يضمر البرد ، وتخفى الخمر
الكنى بالظن مستيقن

نوه بالزهر أريج الزهر
هل إلى المقرن من عودة
عربد بى الشوق له والذكر
ماعادنى سحر عشياته
الا عرتنى صبوة تستعر
ياجيرة الجنب وأهل الهوى

والعهد لا عاد خلاف غبر
لن يظمأ الظامئ منا وفى
قلب أخيه قطرة تعتصر
أنتم سواد العين منا ، وهل
يصلح الا بالسواد النظر !

مكتبة إفريقية :

ظهر العدد الأول من مجلة « مرآة العلوم الاجتماعية » التى تصدرها رابطة أساتذة المواد الاجتماعية وكله يؤرخ لسير الأحداث بالقارة الإفريقية ، ومن أجمل ما قرأت فى هذا العدد دعوة الأستاذ « فوزى سليمان » إلى إنشاء « مكتبة إفريقية » فى كل مدرسة حتى يمكن للأساتذة والتلاميذ تصحيح الأخطاء التى كانت تكتب فى الماضى عن القارة من خلال أقلام أعدائها ، وحتى يمكن متابعة الخطى السريعة المذهلة التى تسير بها الآن القارة الإفريقية ، والتى نرتبط بها بأكثر من رباط .

وقد كان جميلا أن تبدأ المدرسة الإبراهيمية بتحقيق هذا الاتجاه ، فقد رأينا فيها جمعية تسمى « الجمعيـــة الإفريقية » ، كما رأينا نواة للمكتبة الإفريقية التى أشار بها الأستاذ « فوزى سليمان » ، وكل الذى نرجوه هو تعميم هذه الفكرة فى كافة المدارس حتى ينشأ الجيل الجديد وقد وضع يده وفكره على كل القارة الإفريقية .

مهرجان للشعر الإفريقى :

أقيم فى جمعية الشبان المسلمين مهرجان للشعر الإفريقى ، وقد افتتح هذا المهرجان الأستاذ « على الجمبلاطى الذى ألقى ضوءاً شاعرياً على قضايا القارة ، ووضح كيف أن الشعراء

العرب وراء كل الحركات التحررية فى إفريقية ، ثم توالت القصائد من السادة الدكتور أحمد هيكل ، روحية القليني ، سعد دعبس ، شريفة فتحى ، جيلى عبد الرحمن ، عبد اللطيف النشار ، حشاد ، عبده بدوى ، محمد التهامى . فتحى عامر .

ثم عقب على هذا المهرجان الأستاذ الناقد عبد اللطيف السحرتى الذى بدأ حديثه بأنه يخشى الشعراء لأن فيهم طاقة من الطاقات الذرية . وهى نفس الطاقة التى فاضت شعراً قوياً عميقاً هز الحاضرين . فالترسيب الإنسانى الذى يستقر فى وجدانهم هو نفسه قوة خالقة ظهرت فى هذا التعاطف الذى ظهر واضحاً فى الحديث عن القارة الإفريقية فقد تناولوا قضاياها وعرضوها لنا من خلال إنسانيتهم . ونفسهم الشفافة . فكان هذا الشعر الذى جعل الجمهور يرتبط بالقارة . بل ويمتلىء . ويحس أنها قد استقرت فى روحه . وتعمقت فى وجدانه .

قبيلة الجالا :

من القصص الشعبى الذى يردده أفراد هذه القبيلة قصة « الضبع والثعلب وهى تروى أن ضبعاً شرساً أخذ يتجول فى الغابة . ويهز الطبيعة من حوله بصوته القوى . ورغبته فى الافتراس . وبينما هو يسير رأى ثعلباً فهجم عليه ، وسرعان ما حمله بين أسنانه ، وحدّق فى وجهه بعينيه الناريتين . ولكن الثعلب تغلب على نفسه ، وأخذ يصيح بصوت مرتعش طالباً الرحمة حتى يعود لأبنائه الصغار الذين ينتظرونه على أمل العودة لهم بشيء يأكلونه ، فرق له الضبع وذكر له أنه لا رغبة له فى التهامه . وأنه وقد ذاق طعم فصيلته من قبل زاهد فيه ، وحين سأل الثعلب « ماذا يراد منه » أجاب الضبع « بأنه يريد أن يهيىء له مكاناً يستطيع أن يستظل به فى اليوم الحار . واليوم الممطر .

فأدار الثعلب أفكاره . وعزم على العبث به ، ثم نظر إليه نظرة خوف وقال له « لو كنت رجلا أيها الضبع لما اجترأت على إذلالى بهذه الطريقة ! » وهنا صاح الضبع « ليس هناك شيء فى العالم يمكن أن يخيفنى أيها الثعلب الحقير » وهنا تحداه الثعلب وهو يقول « إذن لا بد من التجربة . . ومع أنى أنى أرتاح إلى قولك هذا إلا أنى أريد أن أرى بعينى قوتك وهى تتفوق على قوة الرجل » وهنا صرخ الضبع «امض أمامى . ولنبحث عن هذا الرجل الذى أكثرت من الحديث عنه فى غير حياء » فقال الثعلب فى صوت مؤدب « لنر ذلك عملياً يا سيدى الضبع » .

وهكذا نجح الثعلب فى استثارته ، وبينما هما يتجولان سمعا خطوات واهنة . وصوتاً ضعيفاً ، وشيئاً يتحرك فى جهد من بعيد ، وهنا صاح الضبع

ساخراً « أهذا هو الرجل الذى تتحدث عنه » فأجاب الثعلب بتواضع « إن ما ترى الآن ليس رجلا .. لقد كان فى الماضى فقط رجلا أم الآن فلا » .

وتابعا السير . وعن قريب منهما نحا صبياً يلهو . ويعبث . ويحاول الوصول إلى إحدى الثمار المعلقة ولكنه يسقط . وهنا ضحك الضبع وقال « لا بد أن هذا هو الرجل الذى تكلمت عنه » . ولكن الثعلب انحنى أمامه وهو يقول « ليس هذا رجلا يا سيدى الضبع ، وإنما سيكون رجلا فى المستقبل » .

وواصلا السير . وفجأة وجدا شاباً عملاقاً . يتوهج بالصحة . ويتألق بالعزم . وفى يده بندقية . فمال الضبع على الثعلب وقال له « أهذا الرجل الذى تتكلم عنه ؟ » فابتسم الثعلب . وازدهى . وأجاب بصوت قوى « نعم هو يا سيدى الضبع فأرنى شجاعتك » .

فقال له الضبع « سترى . وسأؤدبك على لهجتك هذه المتشفية التى تكلمت بها الآن متى انتهيت من التهامه » .

وفى خطوات واثقة تقدم الضبع من « الرجل » وهو يصيح ليلقى الرعب فى قلبه ، ولكن الرجل لم يتحرك من مكانه ، وإنما حرك البندقية فى يديه فإذا بالضبع يسقط وعيناه تقدحان بالهزيمة أكثر مما تقدحان بالألم .

وهنا وجدها الثعلب فرصة سانحة لأن ينطلق إلى أولاده الذين طال عليهم غيابه . ولكن من فوق جثة الضبع الطريح .

إفريقيـــة والتاريخ

من القصائد الجميلة التى ساند بها الشعراء قصيدة « إفريقية والتاريخ » للشاعر « كيلانى حسن سند » والتى يقول فيها : —

فتح التاريخ لنا بابه
ينتظر خطانا الوثابه
القلم بيمناه .. معه
واليسرى تحضن كتابه
إفريقيا تنهض واقفة
من رد إلى الميت صوابه
وقفت والريح مزمجرة
فازدادت فى الريح صلابه
المارد ينهض محموما
عيناه تشعان مهابة
ويدق طبولا نعرفها
من زمن ويسن حرابه
فى الكونغو ، كينيا ، أوراس
قد أخذ يجمع أصحابه
فلأن رياحاً من آسيا
نفحته رياح جوابه
قد هب نميلاً فى شره
من دمنا الأبيض أكوابه
.. ما زال الشيخ بريشته
يكتب ويسجل إعجابه
والبيض قطيع مذعور
يجرى ويلملم أسلابه
حرموا البستان وإن نهبوا
ما فيه ، وعصروا ، أعنابه
والسوط الأسود .. جلاد
ثورى قد صب عذابه
وابتسم الشيخ لقد أبصر
قمراً يكتسح .. سحابة
وغلاما فى الحقل يغنى
ويدير بيده دولابه !

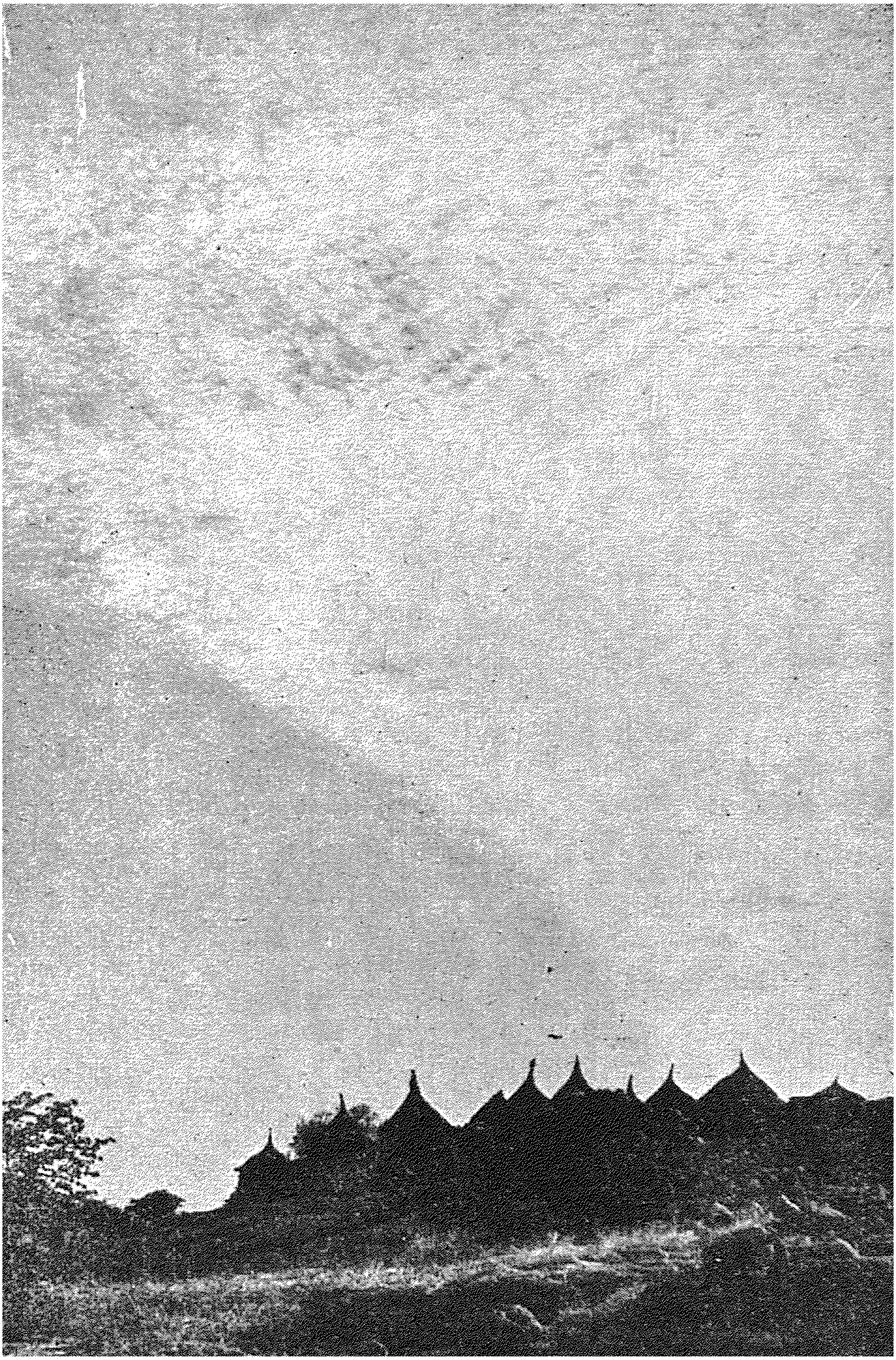

« قرية إفريقية »

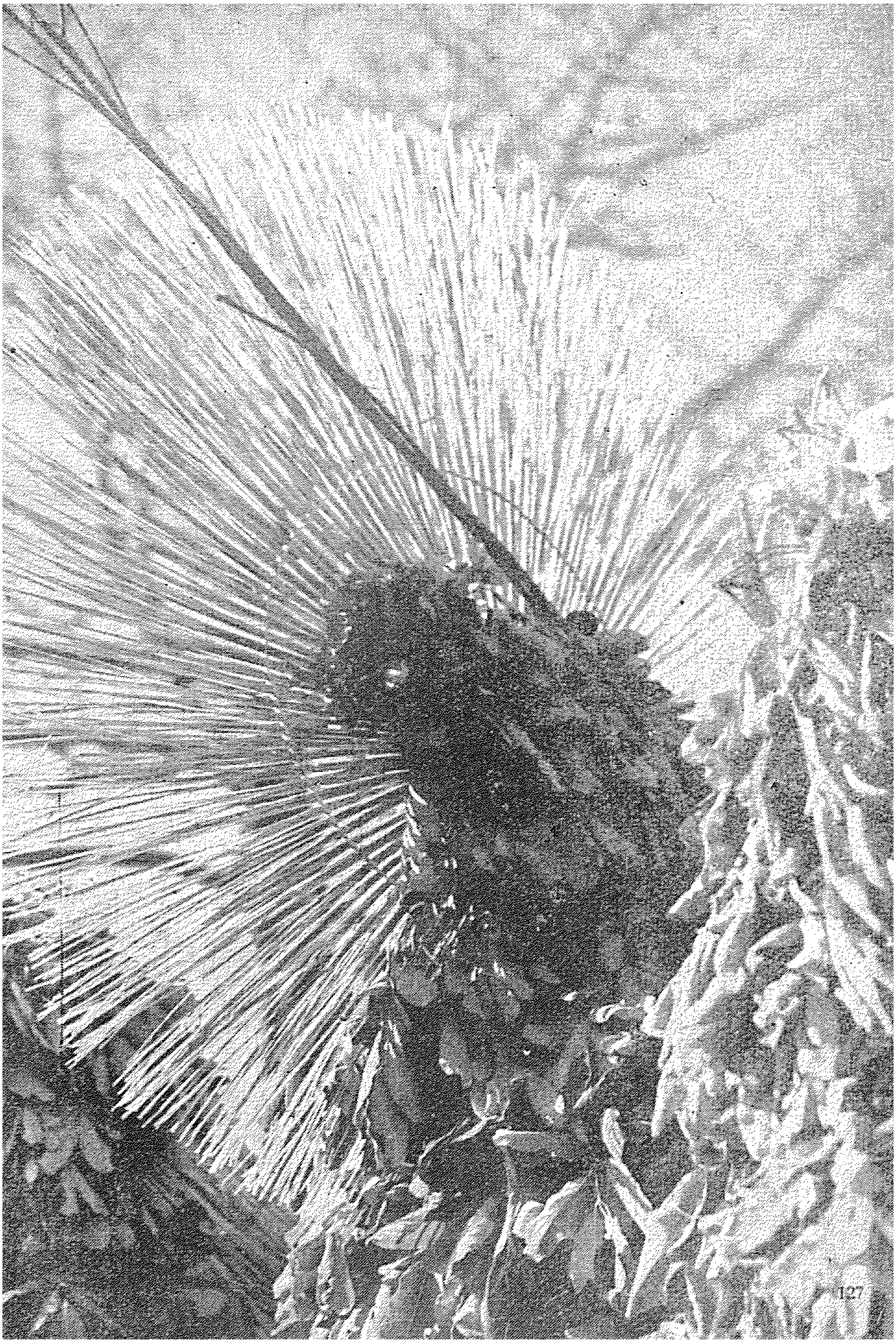

« واجهة كوخ إفريقى »

كتب إفريقية جديدة

1) A survey of North West Africa : by Nevill Barbour. (1959).

يعتبر هذا الكتاب أساساً لدراسة شمال إفريقية من الناحية التاريخية والسياسية والاجتماعية . فهو يتناول شعوب شمال إفريقية كلها قبل الاحتلال وبعده — فمن العصور الوسطى — وأواخرها والدول البربرية ، ثم الاحتلال الأوروبى والكفاح من أجل الاستقلال .

ويتكلم عن كل وحدة من وحدات شمال إفريقية : —

١ — المغرب الأقصى :

ويتناول تاريخه من الإمبراطورية الوسطى حتى المملكة الحديثة . والأوضاع السياسية ، والحياة الاجتماعية . والأحوال الاقتصادية . والحماية الفرنسية .

٢ — الجزائر : التحليل نفسه

٣ — موريتانيا .

٤ — تونس .

٥ — المملكة المتحدة الليبية .

هذا الكتاب يفيد دارس شمال إفريقية .

---

2) A History of Ghana by Word. (1958) (تاريخ غانة)

تناول هذا الكتاب وصفاً للتاريخ القديم لشعوب غانة ، ثم وصول المستعمرين الأجانب — برتغال ، هولنديون ، إنجليز لتجارة الذهب والعبيد وثورة الأشانتى ، والأقاليم الوطنية الأخرى ، ثم تكتل السلطة الإنجليزية .

وينتهى الكتاب بوصف للتطور الاقتصادى والسياسى الأخير الذى جعل من غانة أول دولة إفريقية مستعمرة تحصل على استقلالها ، وهى فرصة قيمة بالنسبة للدول الإفريقية الأخرى .

---

3) Constitutional Developments in Nigeria — by Rolu Ezera (1960). U. P. Cambridge

يتناول الجانبين التاريخى ، والطبيعى لنيجيريا ، ثم الحالة الدستورية قبل الحرب . ودستور ريتشارد سنة ١٩٤٦ .

التطور الدستورى الحكم الذاتى ، تناول القبائل ومقاومتها للاستعمار .

---

4) Nations and Empires : by Reinhold Niebuhr. (1959)

يتناول الدول الاستعمارية الكبرى : أمريكا وروسيا ونظمها السياسية ، ويفرق بين الأمة والإمبراطورية . . وهو دراسة تفصيلية للنظم السياسية فى

الدول الكبرى ويفرق بين الاستعمار الغربى ، والشيوعية والحرب الباردة . وهو كتاب سياسى .

---

5) The Making of Modern Uganda : by Kenneth Ingham (1958), London.

وقد تناول هذا الكتاب يوغنده قبل الحماية . ودخول إنجلترا من ١٨٨٤ — ١٩٠٠ . ومشاكل الحرب العالمية الأولى وما بعدها .

عصر الإدارة غير المباشر ١٩٣٠ — ١٩٣٩ .

الحرب وإعادة تكوين أوغندة ١٩٣٩ — ١٩٤٦ .

التوسع فى أراضى أوغندة

وكيفية تكوين أوغندة

كتاب : East African Chiefs صدر سنة ١٩٦٠ ومؤلفه Audrey Richards. بلندن .

ويحتوى هذا الكتاب على دراسة التطور السياسى فى بعض قبائل يوغندة وتنجانيقا ، وذكر قبائل البانتو التى تعيش ما بين البحيرات . وفى اتحاد تنجانيقا الكوما ، وأعطى فكرة عن المجتمعات المتفككة فى يوغندة ، ثم عمل مقارنات بين تلك القبائل ونظام الحكم فيها ، ونظام الحكم الأوروبى الذى دخل المنطقة مع الاستعمار ، ثم تكلم عن الاقطاع فى منطقة ما بين البحيرات.

إفريقية المعاصرة .

2) Contemporary Africa : by Bisheshwar Prasad (1960), Printed in India.

وقد شمل هذا الكتاب فصولاً متعددة عن .

١ — أوجه السياسات الإفريقية .

٢ — دور التقاليد والعادات فى المجتمع الإفريقى .

٣ — تاريخ العلاقات الأوروبية مع إفريقية .

٤ — السياســـات الاستعمارية فى إفريقية .

٥ — الحركات السياسية والوطنية فى شرق إفريقية .

---

3) Oil and State in the Middle East : by George Lenczowski. New York, 1960.

ويتكلم هذا الكتاب عن البترول واقتصاديات الشرق الأوسط . والمشاكل الإقليمية على الحدود — مثال (مشكلة البوريمى) والتحكم الدولى من القوى الأوروبية المسيطرة على بيع البترول ، ونشأة الاتحاد العربى الذى سيتصرف فى البترول ويبيعه حسب مصلحة العرب .

من القصص الأفريقي

ترجمة: على شلش

كلام

حدث ذات مرة بالقرب من مدينة أكرا على خليج غينيا أن خرج فلاح إلى بستانه لكى يجمع شيئاً من ثمار البطاطا لبيعه فى السوق . وبينما كان يحفر الأرض ليقتلع الثمار . إذا بثمرة من ثمار البطاطا تقول له : حسناً ، ها أنت تجىء أخيراً . إنك لم تعتن بى ولم تشذب الطفيليات من حولى قط ، ومع هذا أقبلت الآن بفأسك . فاغرب عن وجهى ودعنى وشأنى ! »

واستدار الفلاح ونظر حواليه ثم تحول ببصره صوب بقرته والدهشة تعلو وجهه . وكانت البقرة تجتر طعامها وتمضغه على مهل وهى تنظر إليه .

سألها قائلا : أما رأيت شيئاً ؟

واستمرت البقرة تمضغ طعامها دون أن تقول شيئاً . لكن كلب الرجل قال :

« ليست البقرة هى التى حادثتك . إنها البطاطا . وقد قالت : دعنى وشأنى .

وغضب الرجل لأن كلبه لم يحدث قط أن تكلم من قبل ، وفوق هذا لم يكن راضياً عن الطريقة التى تكلم بها الكلب . ومن ثم استل سكينه واندفع إلى نخلة قريبة ، فانتزع عوداً منها قاصداً أن يعاقب به كلبه . وعندئذ قالت النخلة :

« الق بهذا العود على الأرض ! »

وكاد الرجل أن يفقد صوابه بسبب الطريقة التى كانت تجرى عليها الأمور وما أن هم بإلقاء العود بعيداً حتى قال الأخير : « أيها الرجل الق بى برفق ! »

ووضع الرجل العود برفق على حجر قريب ، وعندئذ قال الحجر :

« ماذا حدث ، ارفع هذا الشىء عنى ! »

وإلى هنا كان الأمر كافياً ، إذ شرع الفلاح المذعور فى العدو تجاه قريته .

وفى الطريق قابل صياداً كان يسير فى الاتجاه الآخر وقد وضع على رأسه شبكة الصيد .

وسأله صياد السمك : « ماذا فى الأمر ؟ »

فأجاب الفلاح : لقد قالت لى

البطاطا دعنى وشأنى ! ثم قال الكلب اصغ لما تقوله البطاطا ! وعند ما رحت لأضرب الكلب بعود من شجرة النخيل قالت النخلة : الق بالعود ! وعندئذ قال العود افعل ذلك برفق ! ثم قال الحجر ارفع هذا الشيء عنى ! »

فقال الرجل صاحب شبكة الصيد « أهذا كل ما هنالك ؟ أهذا يجلب الذعر ؟ »

وعندئذ قالت شبكة الصيد : حسناً وهل رفع العود عن الحجر ! »

وصاح الصياد : « ماذا ! ؟ » ثم ألقى بالشبكة على الأرض وشرع يعدو مع الفلاح . وفى الطريق قابلا نساجاً يحمل على رأسه ربطة من القماش . فسألهما النساج قائلا : « لماذا تسيران فى اندفاع ؟ » .

قال الفلاح : لقد قالت لى البطاطا « دعنى وشأنى ! » وقال الكلب «اصغ لما تقوله البطاطا » ! وقالت النخلة الق بهذا العود ! فقال العود « افعل ذلك برفق ! » ثم قال الحجر « ارفع ذلك عنى ! » .

ثم واصل الصياد الكلام قائلا : وقالت شبكة الصيد « ليس هناك ما يسبب الذعر مطلقاً » وعندئذ قالت ربطة القماش التى وضعها النساج فوق رأسه : حقاً . فلو أن هذا قد حدث لك لما توانيت عن العدو أيضاً ! » .

وصاح النساج « ماذا ؟ ! » ثم ألقى بربطة القماش فى الطريق وشرع يعدو مع الرجلين الآخرين .

وأقبلوا وهم يلهثون على مكان منخفض من النهر . فوجدوا رجلا يستحم . وسألهم الرجل قائلا : أراكم مسرعين ، أتطاردون غزالا ؟

فقال الرجل الأول وهو يتنفس بصعوبة : لقد تحدثت البطاطا إلى . وقالت دعنى وشأنى ! وقال كلبى اصغ إلى البطاطا ! . وعند ما قطعت بنفسى عوداً من النخلة قالت الق بهذا العود ! وقال العود افعل ذلك برفق ! وقال الحجر ارفع هذا الشيء عنى ! »

وقال الصياد وهو يلهث : وقالت شبكتى هل فعل الرجل ما طلبه الحجر منه ؟ » .

وتمالك النساج نفسه وجمجم قائلا وقالت ربطة القماش التى أحملها لقد عدوت أيضاً ! »

وعندئذ سألهم الرجل الواقف فى النهر :

« أهذا هو سبب عدوكم ؟ »

فرد النهر قائلا : حسناً ، أما كنت تعدو لو أنك كنت فى مثل موقفهم ؟ »

وعندئذ قفز الرجل من الماء وشرع يعدو مع الآخرين ، مخترقين الشارع الرئيسى فى القرية ، المؤدى إلى بيت العمدة .

وأتى خادم العمدة بأريكة ليجلس

عليها العمدة الذى راح يصغى لشكاواهم وأخذ الرجال الثلاثة يعيدون سرد ما حدث لهم .

قال الفلاح ، وهو يهز ذراعيه : خرجت إلى بستانى لأقتلع شيئاً من البطاطا . وعندئذ بدأ كل شيء يتحدث ! فقالت البطاطا دعنى وشأنى ! وقال كلبى اصغ إلى البطاطا ! وقالت النخلة التى بهذا العود ! وقال العود افعل ذلك برفق ! وقال الحجر ارفعه عنى ! » .

وقال الصياد : وقالت شبكة الصيد التى كنت أحملها : حسناً ، هل قام الرجل بذلك ؟ »

وقال النساج : وقال قماشى انك ستعدو أيضاً !

وقال الرجل الذى كان يستحم وعيناه متوهجتان والألفاظ تخرج من بين شفتيه بخشونة « وقال النهر مثل هذا ! » .

واستمع العمدة إليهم بصبر ، لكنه لم يستطع أن يمع الغيظ والانفعال عن أن يتسربا إلى وجهه . وقال وهو يقطب حاجبيه ويضيق من فتحة عينيه :

والآن إن هذه القصة فى الحقيقة قصة وحشية . ومن الأفضل لكم أن تعودوا إلى أعمالكم قبل أن أشرع فى عقابكم بسبب تعكيركم للأمن والسلام .

ومن ثم مضى الرجال الأربعة فى النهاية عائدين ، وهز العمـــدة رأسه وأخذ يتمتم قائلا :

« إن هراء كهذا كفيل بقلب كيان المجتمع »

وعندئذ قالت الأريكة التى كان يجلس عليها :

« يا لها من حكاية مثيرة ، أليس كذلك ؟ تصور ، بطاطا تتكلم ! » .

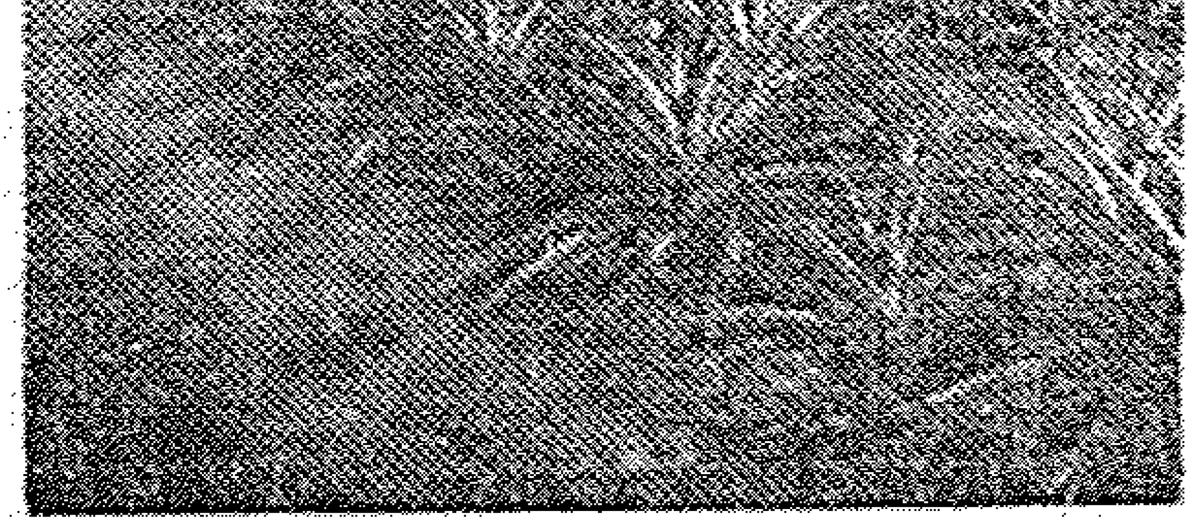

من وحي أفريقية

للشاعر : رابندرانات طاغور

(هذه القصيدة « برهان صادق على رابطة الأخوة التى تجمع بين آسيا وإفريقية » ، كما قال ، بحق ، المناضل الافريقى الشهيد جون كالى ، حين قدمها لقراء مجلة « نهضة أوغندة » عن المجلد الثانى ، يونيو ١٩٥٩ ، عدد ٣)

فى ذلك اليوم المبكر لشمس عصر قلق .
عند ما هز الإله رأسه بعنف . وهو
يزدرى ما جنت يداه . متحسراً
على جهوده البدائية .
اختطفتك موجة عجلى . يا إفريقية . وانتزعتك .
من مكانك فى فؤاد الشرق .
وجعلتك ترقدين فى حظيرة كثيفة من الضوء الشحيح .
تحرسك أشجار ضخمة .
هناك أودعت . ببطء .
أسرار التيه المغلقة .
فى الأقبية المظلمة لمستودع أسرارك العميق .
وجعلت علامات الأرض والماء غامضة . لا تبين .
فبعث سحر الطبيعة الخفى طقوساً سحرية
فى عقلك . من وراء حدود الضمير .
وتنكرت فى إهاب مسخ لكى تضللى الرعب
وحاكيت الوحشية السامية
فجعلت نفسك تبدين مخيفة لكى تقهرى الخوف .
إنك مختفية . واأسفاه . خلف قناع أسود .
يعتم عزتك الإنسانية

إلى أبعد درجات إبصار الزراية .
لقد سطا عليك أولئك الصيادون
بفخاخهم التى خصصوها لاصطياد الإنسان ،
أولئك الصيادون الذين كانت وحشيتهم أشحذ
من أنياب ذئابك .
الذين كان كبرياؤهم أعمى
من غاباتك المظلمة
لقد تعرى نهم المتمدينين الضارى . وأبان
عن خسته الصفيقة
وبكيت أنت . وأخمدوا صيحتك .
وأضحت دروب غابتك موحولة بالدموع والدماء .
بينما تركت أحذية اللصوص المسمارية
آثارها التى لا تمحى
عبر تاريخ ذلتك
وطوال الوقت . فيما وراء البحر .
كانت أجراس الكنائس تدق فى مدنهم وقراهم .
والأطفال بين أحضان أمهاتهم . يهدهدون .
ثم أنشد الشعراء الترانيم للجمال

* * *

واليوم عند ما تختنق سماء الشمس الغاربة . فى الأفق الغربى .
بعاصفة من الغبار .
وعند ما يزحف الوحش متسللا من عرينه
المظلم .
معلناً وفاة النهار . فى نباح مفزع
عندئذ . اقبل يا شاعر الساعة التى خطها القضاء .
وقف بباب تلك المرأة المغتصبة .
قف بباب المرأة المغتصبة .
وسلها المغفرة .
ولتكن هذه هى آخر كلمة عظيمة لك .

كتاب الشهر

مصر وافريقة الزنجية

للعلامة ج . سليجمان

عرض وتقديم عميد (ا . ح) **محمد عبد الفتاح ابراهيم**

الكتاب والكاتب

— كتاب يبدو فى مظهره وإخراجه طابع الدراسات الأكاديمية ، وليس هذا ابتداعاً ، بل كان الابتداع لو صدر فى غير هذا الطابع الرصين البسيط ، والفكرة فى الدراسات الأكاديمية للعلماء الأعلام أن قيمة الكتاب تكمن فى إعطاف موضوعه ومكانة كاتبه ؛ وقد ضمن هذا الكتاب الأمرين .

— على أن الكتاب فى الواقع قد صدر قبل ربع قرن ، وصدر بعد أيام من تقديمه كدراسة ألقيت فى الثلاثين من نوفبر سنة ١٩٣٣ بجامعة ليفربول بمناسبة « درع فريزر » ، وليس أحق من هذه المناسبة بكتاب فى مثل الموضوع الذى عرض له ، ومن قلم رجل كتب عن إفريقية هو وزوجه عشرات الكتب والدراسات عن إفريقية وبخاصة فى حوض النيل .

— والمتعلمون اليوم قد لا يعرفون فريزر ، فهو عالم اسكتلندى من علماء الأنثروبولوجى الأفذاذ (علم الإنسان وأعماله) وله كتاب الأملود (الغصن) الذهبى The Golden Bough يعتبر أهم المراجع التى كتبت فى هذا العلم الذى يعتبر أساس كل الدراسات الاجتماعية ، وقد عاش السير جيمس جورج فريزر بين سنة ١٨٥٤ وسنة ١٩٤١

— والموضوع الذى عرض له سليجمان فى كتابه (مصر وإفريقية الزنجية) يناقش مسألة « الملك المقدس » فى عدد محدد من الثقافات الحية التى لاتزال أساطيرها وتقاليدها مروية مؤكدة . وإن كان سليجمان — فى الواقع — يعنى بأن يربط بين وجود (الملك المقدس) والتقاليد الخاصة به فى إفريقية بجنوب الصحراء . وبين التقاليد الخاصة به فى مصر القديمة فى عصور معرقة فى القدم . موضحاً أن هذه التقاليد جاءت مع مجموعة قوقازية هاجرت إلى إفريقية هى « الحاميين » ، الذين كان مصريو قبل عهد الأسرات فرعاً من فروعهم . أو أنها كانت معتقدات مصرية خالصة أصيلة نشأت

فى مصر القديمة وانتقلت منها إلى إفريقية الزنجية تبعاً للاتصال الثقافى . .

— ولعل فكرة التقديس هنا جاءت تبعاً للمعتقدات التى نشأت أول ما نشأت فى هذا الجزء من وادى النيل الذى نعرفه اليوم باسم (الصعيد) من الاعتقاد بأن حياة الملك أو الحاكم بمعنى أصح — باعتبار أن هذه التقاليد جاءت قبل عهد الأسرات — ترتبط بمحاصيـــل الأرض ووفرتها ورخاء السكان . ولهذا فقد كان الحاكم هو الذى يهدم الحاجز الحجرى لتروى المياه الحقول . وارتباط الحاكم بالمحصول واضح فى تقاليد الشيلوك والدنكا والنوير واللوتوكو وعند . الباجندا وغيرهم وغيرهم .

— والفكرة هنا أن سليجمان لم يكن أول من عرض لدراسة تقاليد (الملك المقدس) فقد سبقه العلامة موريه الفرنسى وسبقه فريزر نفسه . ولكن سبق سليجمان غيره من الباحثين فى تقصى هذه التقاليد بين شعبين من النيلوتين هما الشيلوك والدنكا ، وتبعه ايفانز بريتشارد فدرسها بين (النوير) ثم عمل ميك لتقصيها فى غرب إفريقية[1]

— ولكن عندى أن كتاب سليجمان إنما يمتاز بالموضوعات التى عرض لها الرجل إلى جانب البحث الأصلى ومنها :

١ — الطرق التى انتقلت عبرها الثقافة المصرية إلى إفريقية الزنجية .

٢ — صور النفوذ الثقافى إلى جانب تقاليد الملك المقدس وحفلات عيد « السد » .

٣ — الحقائق التى تثبت وجود طرق عبر الصحراء قبل عصر استخدام الجمل فى إفريقية .

وهذه هى الاتجاهات الدراسية للعلاقات والصلات ونفوذ مصر الثقافى فى إفريقية الزنجية منذ أبعد العصور .

طرق انتقال الثقافة إلى قلب إفريقية وغربها :

ويناقش سليجمان الطــرق التى سارت عبرها ثقافة مصر القديمة إلى إفريقية محدقاً فى خريطة إفريقية . وهذا التحديق — فى الواقع — جعلنا نتبين هذين النطاقين للغابات والصحراء ثم هذه الطرق الثلاثة الواضحة التى وصلت بها ثقافة مصر إلى قلب إفريقية الزنجية . وهذه الطرق هى :

١ — الطريق على النيل الأبيض فيما وراء ملتقاه بالنيل الأزرق ثم للجنوب على طول النيل الأعظم نحو منابعه فى قلب القارة .

٢ — على النطاق الساحل لشمال إفريقية والوصول إلى المنطقة فى شمال السنغال . .(ولكن

---

(١) فكرة (الملك المقدس) Divine King جاء عنها طابع مبسط فى « الملك الأسقف» Priest-King ، ولم يظهر هذا الاصطلاح فى معجم اكسفورد ولا فى فهرست دائرة معارف ستنجس ، وقد استخدم فريزر الاصطلاح Priestly Kings بوجهة النظر للرجال الذين هم ملوك وأساقفة ، وذلك لما لهؤلاء الملوك من قوى خارقة للعادة فيماوراء الطبيعة ، وتتوقف على أعمالهم فى سير الحياة رفاهية المجتمع ، ولا شك أنه شىء غير (التندانا) Tendana زعيم الأرض ، راجع (اشانتى الأرض الداخلية) مجلد ١ ص ١٥ (المقدمة) .

لم يتضح ما إذا كان طريق السير قد بقى ساحلا البحر أو أن الطريق قد انحدر للجنوب بغرب ماراً بجبال الأطلس .

٣ — على طول النيل الأزرق حتى سفوح تلال الحبشة إلى ما يعرف اليوم بأوغندة ثم عبر البحيرات العظمى إلى الكونغو .

على أنه تبعاً للتماثل الثقافى بين دار النوبا فى جنوب كردفان والمناطق الشمالية لساحل الذهب (غانة) يمكن أن يكون هناك الطريق الرابع للثقافة الذى يجرى للغرب من دار نوبا ماراً بدارفور ووادای إلى بورنو وشمال نيجيريا على طول منطقة تمتد بين خطى العرض الشماليين ١٠ و ١٥ درجة .

وقد يكون الطريق الأكثر وضوحاً الطريق على طول النيل الأبيض ومع هذا فإنه من الصعب أن يكون هو الطريق الرئيسى الذى سار فيه النفوذ الثقافى المصرى إلى قلب إفريقية السوداء، فمن الضرورى أن ندرك بأن المنطقة للجنوب من ملتقى النيلين لم تكن مشجعة للرحلة والإقامة . وبخاصة لهذه العوائق المعطلة فى السدود على النهر . ولكن لو أغفلنا هذا الطريق إغفالا تاماً فكيف يمكن أن نعلل تعويج قرون الثيران والتى صورت رسومه على قبور الأسرة الخامسة من الدولة القديمة وهو الطابع الذى نراه عند النوير اليوم . .

* * *

ومسألة أخرى تستأهل الملاحظة بالنسبة للطريق على النيل الأعظم إلى مكان الخرطوم الحالية، ثم من هناك على طول النيل الأزرق إلى حواف تلال الحبشة ثم إلى البحيرات العظمى غرباً نحو الكونغو . فقد كانت فى (كرمة) على مقربة من الشلال الثالث مركز حضارى مصرى قديم أثناء حكم الأسرة الثانية عشرة من الدولة المتوسطة من أدلة قوية تثبت أن هذا المركز الحضارى كان قائماً منذ أيام الأسرة السادسة فى الدولة القديمة . وقد انتشرت هذه الحضارة فى الألف سنة التالية وأوجدت الحضارة المروية . بقاعدتها سويا على النيل الأزرق لجنوب الخرطوم بأميال قليلة . وقد امتدت إلى مكان خزان مكوار الحالى فقد وجدت فى حفريات الخزان مدافن من الصد المروى .

والواقع أن الشلالات على النيل لم تعطل الملاحة تماماً ولا يمكن القول بأنها كانت حاجزاً منع الاتصال بين مصر العليا وبين أرض النوبة وما إلى ورائها فى السودان الشمالى منذ أبعد العصور . ولهذا فإننا يجب أن ننظر إلى هذه الطرق فى جملتها كخطوط اقتراب إلى قلب القارة ثم إلى ما وراء هذا للشرق والغرب فى المدى الذى كان لقوة الدفع أن تصل إليه .

ويقدم سليجمان فكرة أن هذه الحضارة قد سارت مساحلة البحر المتوسط حتى طرفه الغربى ودارت مع الساحل الغربى لإفريقية إلى منطقة فى شمال السنغال .

وعلى أية حال فإننا لا نحاول هنا أن ننظر إلى هذه الطرق نظرة فاحصة مستهدفين أن نتخير من بينها ما نظنه كان الأصلح لانتقال الحضارة فى قرون متعاقبة متتالية ، فلا مكان لهذا هنا . بل الأصح أن ننظر إليها على ما يقول سليجمان أنها كلها فى جملتها قد شهدت قوافل التجارة والرحالة ، هذه القوافل التى نقلت الحضارة والتقاليد . وأخذ الناس منها ما أخذوا . وضاع منها ما ضاع مع الأيام وبقى الكثير الذى يؤكد لنا نفوذ الطابع الثقافى المصرى القديم فى هذا النطاق من إفريقية إلى جنوب الصحراء عند هضبة البحيرات ومناطق الغابات .

صور التماثل فى الطابع الثقافى :

وتتعدد الصور الثقافية المماثلة . الصور التى لا يمكن أن تجيء بوحى الخاطر بل هى وليد انتقال تقليدى ، فنجد فى أوغندة أثر هذا النفوذ واضحاً من العلاقة المميزة بين كل ذكر من أعضاء الأسرة المالكة وبين العقاب . فكل من أفراد الأسرة المالكة يضيف إلى طوطم عشيرته رمز العقاب ، مع أنه لا توجد عشيرة فى أوغندة طوطمها العقاب . ويقول روسكيو فى كتابه (الباجاندا) ص ١٢٨ طبع لندن ١٩٢١ : (أنه من الواضح إمكان الاضطراب فى التصوير بين البازى وبين العقاب طوطم الدولة المصرية القديمة .

وعند (الباكتيارا) نجد الملك يمارس عادة « اصطياد الأمم » وهى لا يمكن أن تكون إلا صورة منقولة من الطابع المصرى القديم فى عبر السد عند ما كان الملك يطلق أربعة أسهم من قوسه فى الاتجاهات الأربعة الأصيلة ذاكراً أسماء الأمم التى فى كل من هذه الاتجاهات داعياً بأن تدين لحكم الفرعون (١) .

والقيثارة التى نجدها عند (الأزندى) بزراعها الممتدة للأعلى . والتى يقولون لها (كوندى) Kundi تشبه أدق الشبه القيثارة التى نلقاها مرسومة بكثرة على قبور الفراعين الأولين . واستخدام أهل الكونغو الكثير من الأقمشة للف جثث الموتى ليس غير صورة منسوخة من عادة المصريين القدامى فى تغطية الجثث بعد تحنيطها ، وكذلك فإن عقيدة « تعدد الأرواح » عند القبائل الشمالية فى أرض الكونغو ترجع إلى المصدر المصرى القديم نفسه لهذه العقيدة .

---

(١) نجد هذا الطابع المصرى القديم مثلا بوضوح فى آثار الأسرة الخامسة والعشرين (٧١٢ — ٦٣٣ ق . م) ونجد صورة طهارقه وزوجه الملكة ، والملكة هى التى تقذف بالسهام ، ونجد غيرها تمثل الفرعون وهو يطلق السهام فى عين السد أو فى حفلات التتويج فى آثار الكرنك ، ويسجل روسكيو ملك (الكيثارا) عند الأونيورو يطلق السهام متصيداً الأمم فى حفلات تتويجه .

ولكن هل انتقلت هذه العقائد والتقاليد المصرية من الكونغو إلى نيجيريا ؟

هنا . لا توجد الأدلة الواضحة ومن الضرورى الحذر فى الإجابة . وإن كان من الصعب أن نشك إطلاقاً فى أن النفوذ الثقافى المصرى قد وصل إلى غربى إفريقية . فمما لا شك فيه أنه قد وصل ، وليس هنا من سبيل لأن نترك المؤثرات النفسية تتدخل . وإن كان بعض الباحثين يتزمتون أحياناً فيقولون بأن الآراء والأفكار قد تتماثل إلى الحد الذى يمكن معه القول بأن التقاليد الواضحة التماثل لم تنتقل عن أصل واحد. بل إن كلاً منها له أصالته الخاصة به . وأنه كان ابتداعاً لا نقلا ولا تقليداً .

ومع تقبل فكرة الابتداع فى كل مجتمع مهما كان نصيب هذا المجتمع من الحضارة والثقافة إلا أنه من غير الممكن أن نقول بأن الاحتفالات التى تجرى فى شرق إفريقية وغربها والتى تعتبر صورة كاملة مماثلة لاحتفالات عيد السد[1] عند المصريين القدامى كانت ابتداعاً وليست منقولة عن الأصل المصرى القديم .

ومهما كانت درجة توارد الخواطر فى الابتداع فمن غير الممكن أن يسير الابتداع فى طابع واحد لإجراءات العيد ، من العدو لمسافة محددة وزرع شجرة . و « اصطياد الأمم » بقذف السهام فى الاتجاهات الأصلية . والبناء بزوجة جديدة .

قد يكون من الممكن أن نتقبل تماثل الفكرة . فكرة قياس واختيار صلاحية الملك للحكم . فهذا مبدأعام ، وفى العصر الحديث تختبر الحال الصحية لمن يتولون مناصب رئيسية فى الدول . ولكن تقبل المبدأ العام لا يمكن من تقبل أن يكون تسلسل الإجراءات قد جاء أيضاً تبعاً للابتداع ومحض الصدفة . وهكذا نجد أن تماثل الطوابع هو الذى يلزمنا بالرجوع بالأمر إلى الأصل المصرى القديم . وتقبل مبدأ سير النفوذ الحضارى المصرى إلى قلب القارة .

التخطيط لرحلات القوافل قبل عصر استخدام الجمل :

ويناقش سليجمان حقائق الرحلات البرية للسفر عبر الصحراء قبل وجود الجمل بمناسبة هجرات القادمين من الغرب فيما وراء حدود السودان إلى سواحل البحر الأحمر فى طريقهم للحج إلى مكة ، وهو يقول إن هذه الهجرات التى لا تزال تشير فى الصورة البدائية الأولى لفقر المهاجرين تدلنا على الطابع الذى سارت

(١) عيد السد هو العيد الذى يجرى لاختبار شباب الفرعون وقوته وصلاحيته للحكم بعد سنوات من حكمه ، وقد احتفل رمسيس الثانى بهذا العيد فى السنوات ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤١ أو ٤٢ ، ٤٤ من حكمه واحتفل به امنحوتب الثالث فى السنوات ٣٠ ، ٣٦ من حكمه .

تيماً له قوافل نقل النفوذ المصرى إلى إفريقية السوداء فى العصور السابقة لوصول الجمل إلى إفريقية .

ومن المعروف أنه لا توجد أى أدلة على استخدام الجمل فى شمال إفريقية حتى عصر الرومان أو قبل هذا بقليل ، وذلك برغم ما تقوله مس كاتون تومبسون نتيجة اكتشافها لحبل مجدول يصل إلى ثلاثة أقدام من شعر الجمل ترجع به إلى عصر الدولة القديمة فى مصر ؛ وعلى نقيض هذا نجد أن الحمار عرف فى مصر فى الألف الرابعة قبل الميلاد ، وعرف فى ليبيا بين القرنين الثالث والرابع عشر قبل الميلاد ، ومن ثم فمن الممكن القول بأن حركة الانتقال من وادى النيل للغرب وللجنوب إنما استخدم فيها الحمار للنقل .

على أننا لكى نستطيع أن نتفهم تنظيم السفر فى تلك الأيام الغابرة يجب أن ننظر إلى الأسلوب الذى كان لا زال باقياً حتى عدد يعد على أصابع اليد الواحدة من السنين ، بل لعله لا يزال له بعض الطابع اليوم .

يقول سليجمان أنه عرف من «آركل» (١) أن الرجال والنساء يسرن على الأقدام أما الأطفال فيوضعون مع الأحمال فوق ظهور الحمير إلى جانب أدوات الطهى وقراب المياه ، وبمثل هذه الصورة تستطيع القافلة أن تسير لثمانين ميلا بين مورد مياه وبين مورد آخر ، وهم ينظرون إلى هذا من ناحية الفاصل الزمنى لا من ناحية المسافة ، وقد كانت القوافل تسير بسرعة بين ثلاثة وثلاثة أميال ونصف الميل فى الساعة ، ثم تتناقص هذه السرعة فى المراحل المجهدة ، وكان من الواضح أن السير ليومين وثلاث ليال مستطاع ولكن إذا جاء اليوم الثالث دون الوصول إلى مورد المياه التالى قتل الظمأ الحمير .

ومع أن حديث سليجمان المنقول عن آركل يجيء خاصاً بسكان نيجيريا المتجهين شرقاً للحج ، وهو يصف نظام السير فى المسافة المجهدة بين الفاشر وآبار أم كدارة (عشرين ميلا لغرب الأبيض) إلا أن هذا التنظيم يعتبر صالحاً لأن يكون القاعدة التى اتبعت فى ذلك العصر المعرق فى القدم .

على أنه من الضرورى أن نذكر هنا بأنه كانت هناك فيما مضى على عدة طرق معينة موارد مياه أكثر مما هو موجود منها حالياً على هذه الطرق نفسها . فإن الكثير من موارد المياه قد جفت نتيجة لطمرها بالرمال تبعاً للإهمال بسبب تغير وسائل السفر ، واستخدام السيارات فى العصر الحديث كوسيلة للانتقال على كل هذه الطرق الصحراوية . هذا عدا أن بعض هذه الآبار قد أتلفت عن عمد بوساطة القبائل الضاربة على مسافات منها كوسيلة دفاعية لمنع الاعتداء والاغارة بوساطة القبائل الأخرى .

ويقدم سليجمان نقلا عن آركل أيضاً فكرة إمكان استخدام طريق الأربعين بين أسيوط فى مصر العليا وبين الفاشر . وهو يقول إن حركوف قد سار فى هذا الدرب فى الألف الثالثة قبل الميلاد ، ووصـــل إلى أقصى الجنوب ثم عاد حاملا معه فيما حمل من الهدايا قزماً صغيراً أدخل السرور على قلب الفرعون .

---

(١) آركل A. J. Arkell من رجال الادارة فى الخدمة السياسية بالسودان يعمل حالياً مدرساً للحفريات المصرية بجامعة لندن ، له دراية واسعة بالاثار السودانية وشعوب السودان وله عدة مؤلفات آخرها (السودان حتى سنة ١٨٢١ ميلادية) صدر سنة ١٩٥٥ .

صحيح أنه توجد فى الطريق اليوم منطقة طويلة خطرة معدومة المياه بين بير نطرون وبين دارفور . ولكن تدل الأساطير على أنه كانت هناك آبار فى « وادى هوا » Hawa وأنها قد جفت . وللأساطير نصيبها من الصحة لأنه توجد اليوم آثار حفر لتخزين مياه الأمطار فى الطرف الجنوبى للوادى . أو قد يكون من الممكن الاتجاه من وادى نطرون فى اتجاه شمالى غربى إلى (ميرجا) ومنها إلى تيبيستى فقد كانت تتوافر آبار المياه على الطريق منذ أبعد العصور .

* * *

وقد يمكن أن نطبق المبدأ نفسه بالنسبة للطرق التى لأبعد من هذا للغرب ، فقد أثبتت التجربة إمكان سير قوافل الحمير بين (جاترون) Gatrun ودار فرتيت فى شمال غرب مديرية بحر الغزال فى السودان النيلوتى . وأنه يمكن السفر من (زويله) إلى بلما ، بل وإلى بحيرة تشاد عن طريق « جاترون » .

ومن سيوه لا تزال حتى العصر الحديث تسير قوافل الحمير ، إلى زويله ومرزوق بعد الاتجاه للشمال بغرب إلى جغبوب لتجنب غروز الرمال ثم طريق (جالو) إلى عجيلة ومنها إلى زويله . وعند زويله ينقسم الطريق إلى فرعين أحدهما يسير للجنوب إلى بلما وتشاد والآخر غرباً بجنوب إلى مرزوق ثم يتابع السير إلى كانو .

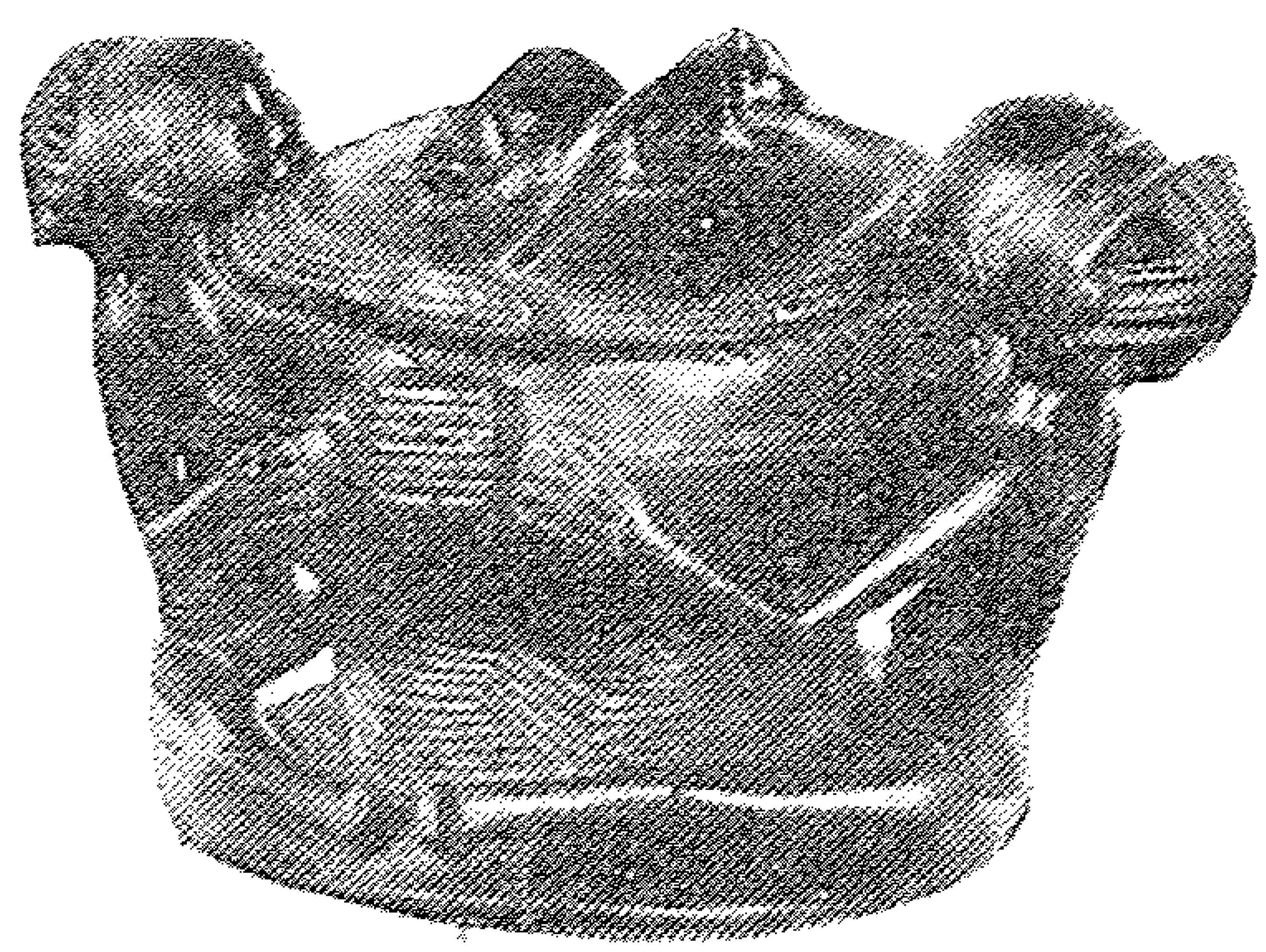

NAHDAT IFRIQUIAH

The magazine aims at :

1. Promotion of African National consciousness.
2. Acquaintance among Africans in various regions and environments.
3. Publication of private and public treatises of interest to Africans whatever their pursuits.

The subscribers have the right:

1. To receive regularly the magazine and the pamphlets which are occasionally issued at a reduced price.
2. To make use of the services rendered by the magazine Executive committee, as far as possible.

- Nahdatu Ifriquiah welcomes any proposals, ideas and criticism promising to do its best to carry them out.
- It is not necessary that the articles published should always represent the magazine's attitude.

Correspond with :
Chief editor of Nahdatu Ifriquiah magazine.
5, Ahmed Hishmat Street,
Zamalik, Cairo.
The Egyptian Region,
United Arab Republic.
Phone : 807658.

Subscriptions should be sent to:
Dar Akhbar El Yom for distribution.
7, Sharia El Sahafa, Cairo.
(30 piastres a year) :
for Egypt and Sudan.
3 piastres for every copy.

Nahdatu Ifriquiah
A monthly Magazine
for
African Culture

Editor in Chief
M. ABD EL AZIZ ISHAK

« الإفريقية فى الصحراء »

Forth Year

Issue No. 39, February 1961

Nahdatu IFRIQUIAH

96 pages

PRICE : P.T. 3.

IN THIS ISSUE

- The Foreign Broker.
- The Cameroon.
- The Minorities in Nigeria.
- Book Analysis.
- Book of the Month.

السنة الرابعة　　العدد ٤٠　　فبراير ١٩٦١

نهضة افريقية

فى هذا العدد

- مأساة الإنسان
- دم هذا البطل
- الأسس الاقتصادية لمشكلة الكونغو
- شخصية لومومبا
- مشكلة « رواندا أورندى »

عدد خاص
لومومبا

« لومومبا بين أبنائه »

نهضة إفريقية

نهدف هذه المجلة إلى :

١ – تنمية الوعى القومى الافريقى .

٢ – التعارف بين الافريقيين فى مختلف بيئاتهم وحياتهم الاقليمية .

٣ – نشر البحوث الخاصة والعامة التى تهم كل إفريقى فى مجاله الحيوى .

وللمشتركين الحق فى :

١ – الحصول على المجلة بانتظام وكذلك المطبوعات التى تصدرها المجلة بين وقت وآخر بثمن مخفض .

٢ – الافادة من خدمة لجنة الاتصال بالمجلة بقدر الامكان .

● ترحب « مجلة نهضة افريقية » بالمقترحات ، والآراء ، والنقد ، وتعمل على تحقيقها .

● ليس من الضرورى أن تكون المقالات التى تنشر فى هذه المجلة معبرة عن رأيها .

ترسل المراسلات باسم :

السيد رئيس تحرير مجلة نهضة إفريقية
٥ شارع أحمد حشمت – الزمالك بالقاهرة
تليفون المجلة ٨٠٧٦٥٨
الاقليم المصرى
بالجمهورية العربية المتحدة

ترسل قيمة الاشتراك فى المجلة إلى :

دار أخبار اليوم للتوزيع
٧ شارع الصحافة بالقاهرة

الاشتراك سنوياً :

لمصر والسودان ٣٠ قرشاً

ثمن العدد ٣ قروش

مطابع كوستا تسوماس وشركاه

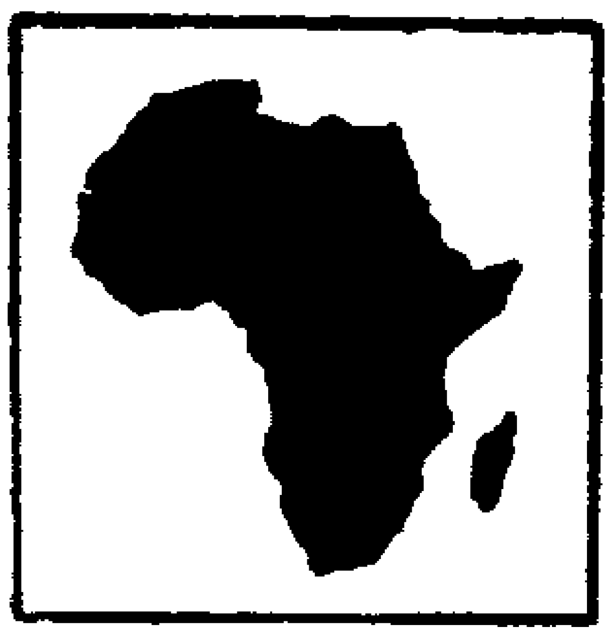

العدد ٤٠ فبراير ١٩٦١

عدد خاص
بلومومبا

نهضة إفريقية
مجلة شهرية
للثقافة الأفريقية

رئيس التحرير
محمد عبد العزيز إسحق

فكرة ..

لم تعد فى العيون دموع بعد هذه المأساة التى انتهت بقتل « لومومبا » ، وإنما بقى التطلع إلى «أنطوان جيزنجا» ، ومساندته على طريق الدم ، وتعبئة الشعور العام من حوله ، ذلك لأنه الشجرة الصلبة التى تقف الآن فى الأرض الحزينة ، والقلب الذى يستطيع أن يحمل السلام ، والحرية ، والوحدة فى الكونغو ، والعلم الذى تتلاقى عنده الأكف وهو يرتفع فى إصرار ، واقتحام ليغطى كل أرض الكونغو ! .

إن هذا الرجل لم ينبت فجأة فى أرض المعركة ، ولم تتألق على جبينه القيادة من شهور فقط حينما أعلن قيام حكومته الشرعية ، وإنما هو واحد من الذين عذبوا على يد الاستعمار البلجيكى ، وضموا مواطنيهم إلى قلوبهم ، واحتضنوا الجراح ، وتلقوا القتلى .. وكان آخر هؤلاء « لومومبا » .

ولعل من المحنة — حقاً — للضمير العالمى أن يقتل « لومومبا » لأنه نادى بالحرية ، وقاوم تفتيت البلاد ، ووثق فى الأمم المتحدة ، بينما يعيش كل الذين تآمروا عليه .. كل الذين قتلوه .. ومن هنا تأتى مسئولية « جيزنجا » ، وتأتى مسئولية العالم فى مساندته ، والالتفاف حول مبادئه ، وحول الدم الذى أريق .

« عبده بدوى »

فهرس العـدد

	صفحة
مأساة الإنسان :	
للأستاذ عبد المنعم الصاوى	٣
دم هذا البطل :	
للأستاذ عبد العزيز وصفى	٦
الدوافع لمشكلة الكونغو :	
للأستاذ محمد عبد العزيز اسحق	٩
لومومبا :	
للأستاذ عبده بدوى	١١
الأسس الاقتصاديه لمشكلة الكونغو :	
للدكتور عبد العزيز كامل	١٧
مؤامرة على ضفاف الكونغو :	
للأستاذ محمد رضوان محمد	٣٤
مشكلة رواندا أوراندى :	٤٠
من وحى إفريقية :	٤٢
جولة حول إفريقية :	٤٤
ماذا بعد قتل لومومبا :	٥٣
كلمات وصور :	٥٧
كتاب الشهر :	
للعميد محمد عبد الفتاح ابراهيم	٦٧

مأساة الإنسان

بقلم الأستاذ عبد المنعم الصاوى

.. وماذا يمكن أن نسمي ما وقع فى الكونغو أخيراً ، إلا أنه مأساة ؟ !

لقد قتلوا لومومبا .. ذبحوه ! ثم خافوه ... حتى وهو ميت ، فأبوا أن يرشدوا عن مكان مصرعه ، وأين هى جثته بعد أن مات .

ولو أن لومومبا ، رجل عادى ، ممن لا دخل لهم فى سير الأحداث ..

لو أن لومومبا ، فلاح ساذج بسيط ، أو راع من رعاة الغنم ، أو تاجر ، أو صاحب أية مهنة أخرى ..

لو أنه مواطن عادى ، من أبناء الكونغو ، لأصبح من حقه أن تحميه القوانين ، وأن تقف إلى جواره حقوق الإنسان ، فلا يتعرض لمثل هذا المصير

ولكنه ، وهو الرجل الذى وقف يدفع عن بلاده المحنة ، فى عناد وإصرار ، ويقود حركة المقاومة فى بسالة وشجاعة وتضحية ، ثم ينتصر آخر الأمر ، فيتولى منصب رئيس الوزراء .

وهو ... وهو فى كرسى رئاسة الوزراء ، لا يتردد لحظة فى الاستعانة بالأمم المتحدة ، ودعوتها لتحمى حقوق الشعب من الاستعمار ومن عملاء الاستعمار إيماناً منه بمبادئ الكرامة والشرف ، وتطلعاً إلى حماية الضمير العالمى لما ترسب فى قلوب أبناء الكونغو على مر الأجيال ، من كفاح فى سبيل الخلاص .

وهو ... وهو فى منصبه الرفيع ، يأبى أن يحنى رأسه للتيار ، ويقف وقفته الرائعة ، يحمى مقدسات وطنه ، ويصون كرامة بلاده ، ويدفع الثمن من مؤامرات المتآمرين ، وخيانة الخونة ، فيهتز مقعده من تحته ، ومع هذا يصر على أن يثبت هذا المقعد بإيمانه بالله ، وبالشعب .

وهو ... وهو فى محنته يواجه الأعاصير ، فيخلع مرة ، ويعود مرة ، ويلتقى بالشعب دائماً ، يعكس مشاعره ، ويردد فى أذنيه أهازيج

النصر فى مستقبل قريب .

وهو ... وهو فى مهربه ، يتخفى من عناصر الخيانة والغدر ، ويدرك تماماً أن الضمير العالمى الذى تمثل له فى قوات الأمم المتحدة ، قد انقلب إلى شيطان أحمر ، يتطاير الشرر من عينيه ، ليحرق بقية المقاومة فى ضميره .

وهو ... وهو بين يدى أعدائه والعملاء الخونة الأشرار ، يظل رافعاً رأسه لا يحنيها لأحد ، ويتلقى الضربات واللطمات ، فلا تلين له قناة .

وهو ... وهو فى سجنه بين جدران سود ، يضىء بتضحياته طريق المجاهدين الأحرار ، فيتجمعون على الطريق ، وفى قلوبهم ظمأ للثأر ، واندفاع نحو الحرية .

وهو ... وهو بين براثن خصومه يتعرض لأقسى ما يتعرض المكافحون الشرفاء ، بل ويتعرض لمصير مجهول ، فيئن له العالم المتحضر ، وتتردد الصيحة بين الأحرار من أجله . وهو حيث هو لا يئن ، ولا يصيح ، ولا يرتاع .

وهو ... وهو فى مكانه المجهول ، حيث الخطر والتهديد بالموت ، يصبح أنشودة حية ، تتردد على كل لسان ، وينطلق بها كل ضمير .

وهو .. وهو أخيراً ، وقد أصبح نشيداً من أناشيد الحرية ، وشعاراً من شعارات الكفاح الطويل المضنى الصبور ، يواجه أخس مؤامرة عرفتها الأخلاق .

وهو ... وهو يواجه سكين الجزارين الأدنياء ، أتصوره ولم يرفع عقيرته بالشكوى ، ولم ترتعد فرائصه أمام الغدر الجبان ، ولكنه دفع ثمن الحرية ، أعز دم سال على أرض القارة النامية .

... ذلك لأنه حيثما كان ، وفى كل خطوة خطاها ، كان يعلم أنه ليس فرداً فى مجموعة الناس ، ولا هو مواطناً من أبناء الكونغو العاديين ، يروح ويجىء ، كما يروحون وكما يجيئون ، ولكنه كان مجموعة مبادئ ، ومجموعة صور تعكس روح الملايين من أبناء قومه .

كان أبداً ، الكبرياء القومى الأصيل بين أبناء الكونغو .

وكان أبداً ، كرامة الإنسان الشريف ، فى أرض إفريقية .

كان أبداً ، صورة حية نابضة ، لمستقبل الوطن الأبى الحر .

كان أولا وآخراً ، نداء يتردد بين الشفاه ، وخفقة تعلو وتهبط بها الصدور ، وهاجس الحق والخير ، فى الضمير الوطنى ، ونفحة الله الجليلة ، فى جسد الناس .

هكذا كان لومومبا .

وهذا ما أدركه لومومبا .

ومع هذا ، وبرغم هذه المعانى

الكريمة العميقة ، فإن الخسة بلغت أدنى مراتبها ، فى نفوس دمرتها الخيانة وبددتها الرذيلة ، ولوثتها الشهوة ، فانطلقت تعبث بكل معنى شريف ، لتمهد الأرض للدنايا تولغ فيها بغير حساب .

وكانت المأساة البشعةضد لومومبا فى الكونغو .

وهى مأساة الإنسان . لا فى الكونغو وحدها . ولكن فى كل شبر من الأرض الطيبة .

على أن هذه المأساة ، لن تغير من روح البطولة فى الكونغو ، ولا بين الشعوب الحرة المكافحة .. فإن الجريمة ترتد عادة إلى صدور مرتكبيها لتقضى عليهم ...

هكذا فى أرض مجهولة ، مات لومومبا ... ليحيا لومومبا ، فى كل أرض ، وعلى كل لسان ، وفى كل قلب . وعلى كل ضمير .

دم هذا البطل

للأستاذ عبد العزيز وصفى

لعل العالم لم يروع بحادث ما كما روع بمقتل الزعيم « لومومبا » على أيدى الخونة الذين يملأون الكونغو الآن بزئيرهم ، وبحجب الظلام الكثيفة التى تنهال هنا وهناك فى كل مكان بالكونغو فقد استطاعوا وأد الفجر الذى أطل من روحه . ولمع فى عينيه ، وتألق فى جبهته فإذا بكل شىء من حوله نور ، وإصرار ، وحرية !

ذلك لأنّ « لومومبا » ما كاد يجمع الطاقات المضيئة فى يده ، ويوجهها بفهم . وإخلاص . وصدق ، لخدمة الوطن . حتى كانت سحب الخيانة تتجمع . ورياح الحقد تصرخ . وأنياب الغدر تتهيأ لتلتهم الحريـة الجديدة ، والوطن المستقل حديثاً ، والذى كانت لا تزال أشعة الحرية تتلاقى فى جبينه . وتتداح فى قلبه . ثم تستقر فى أعماقه .

فرغم أن بلجيكا قد طرقت عليه باب السجن الذى وضعته فيه فى عام ١٩٥٩ ، وطلبت منه أن يسافر إلى مؤتمر المائدة المستديرة ببروكسل إلا أنها كانت تؤمل سقوطه فى الانتخابات

ولكن الشعب التف حوله ، وآزره ، وسانده ، ودفع به إلى أن وقف على قمة التظيم الوطنى بالبلاد ، وإذا به يتألق كماسة سوداء كبيرة ، ويصبح الرجل الأول فى البلاد !

ولم يرض هذا القوى الاستعمارية فنراها تتكتل ، وتتجمع للقضاء عليه ، فنراها تدفع « باتحاد التعدين » الذى تتمثل فيه مصالح أمريكا ، وبلجيكا ، وفرنسا ، وهولندا ، وإنجلترا ، إلى أن يدفع هو الآخر بتشومبى إلى رفع راية الانقسام فى كاتنجا . ونراها تدفع كذلك « اتحاد شركات الماس » إلى أن يتمرد باسمه « كالونجى » فى إقليم « كاساى » ولم يقف الأمر عند هذا بل نرى بلجيكا تستولى على « رصيد الذهب » ، وتهربه إلى بروكسل لتعجيز حكومة لومومبا ، وإظهارها بمظهر العاجز أمام طوائف الموظفين الذين يعيشون على مرتباتهم ، وحين تتم لهم عمليات « التخريب » هذه نراهم يدفعون « كازافوبو » إلى عزل « لومومبا » ، ويساندونه فى هيئة الأمم ويوافقون على عملية العزل هذه فى حقد وغضب ، فقد أزعجتهم تماماً نسمات

الحرية الوليدة الرطبة التي هبت على هذه البلاد الحديثة الاستقلال ! ثم تأتى الضربة الأخيرة حين تتدفق الأموال والأسلحة إلى « موبوتو » ليساند « كازافوبو » الذى وقف فى وجهه البرلمان ، والشعب ، والحرية نفسها ! ذلك لأن حرية البلاد كانت تطارده هو الآخر ، فهو من كبار الطبقيين الذين ذلت البلاد على أيديهم . واستنزفت الثروات عن طريقهم . وكانوا ستاراً كثيفاً يخفى وراءه وجوه البلجيكيين ! وحقدهم ! وغضبهم على حرية البلاد !

. . وأمام كل هذه الأحداث نرى « لومومبا » يستنجد بالأمم المتحدة . ويركن إليها . بل ويطير إلى نيويورك لحضور دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة التى تقرر فيها إرسال قوات الأمم المتحدة إلى بلاده ، ويعود وعلى شفتيه ابتسامة كبيرة . ويراوده حلم « توحيد » البلاد على يديه فإذا بالسعادة تظلل وجهه . والنور يغمر كل كيانه . ويفتح ذراعيه ليضمهما على كل الكونغو ، ويحدق بعمق فى وطنه وهو ملء كيانه ! وملء قلبه !

على أنه يصحو مفزعاً من هذا الحلم ، لأنه يرى خيانة الأمم المتحدة واضحة فى بلاده . فيرى نفسه سجيناً بقواتها . وممنوعاً من التجول فى بلاده ، ولا يقف الأمر عنده بل يتعداه إلى أنصاره فتلاقى القبائل التى تناصره ، كالبالوبا التشريد ، والقتل على يديها . وينزعج للمصير الذى تردت فيه البلاد . فيريد الخروج إلى الشعب . ولكنهم يحيلون بينه وبينهم . ويقترح عليهم الأخذ برأى البرلمان فيصمون آذانهم عن ندائه . ويذكرون له بأن حدوده قد ضاقت . وأن البيت هو المدى الذى يمكن أن يتحرك فيه ، ولكن لومومبا يحس أن الكونغو كله هو حدوده . وأن الشعب يناديه . ويبتهل إليه فى أعماقه . ويستجيب للنداء القوى . ويخرج من معتقله بصحبة « موريس مبولو » وزير الشباب فى حكومته . و « جوزيف أوكيتو » وكيل مجلس الشيوخ . وإذا بهم جميعاً يقعون فى قبضة جنود « موبوتو » . ويحاصرون فلا تتحرك الأمم المتحدة ، ويسجنون فتبتسم فى أعماقها . وينقلون إلى كاتنجا . فتزداد البسمة على شفة « داج همرشولد » كأن الأمر لا يعنيه . ذلك لأنه كان يفكر بعقلية الاستعماريين وينفذ مشيئتهم . ويتلقى التعليمات منهم . وما كان كل هذا فى رأى السكرتير العام للأمم المتحدة إلا أجزاء صغيرة من الخطة العامة التى صممها فى ضميره . والتى كانت تطبيقاً لكل ما طلبه الاستعماريون . ولم تكن هذه الخطة سوى إطفاء الشعلة التى تخفق فى ضمير لومومبا . وتتجمع باسمها القبائل . ويحتشد الرأى العام العالمى فى وميضها . . . وتم له ما أراد ولكن لن تموت بموت «لومومبا» حرية الكونغو ،

ووحدته ، ومستقبله ؟ فعلى دمائه سيجتمع الأحرار ، وتخفق الرايات ، وتحتشد القوى لبعث كل ما دعا إليه لومومبا ، وكل ما أراده لشعبه ، ووطنه .. والتقدم الإنسانى !

ذلك لأن الأيدى تمتد من كل مكان ، ثم تمتد ، حتى تتلاقى على حيث سال دمه ، « حيث توقف عمره » حيث نفذ الرصاص إلى حب الكونغو فى قلبه .. ثم تقسم على هذا الدم المطلول ، على القلب المثقوب بالرصاص على العينين اللامعتين رغم الموت . على الشفتين اللتين ترتسم عليهما كلمة « الكونغو » مخضبة بالدم .. ستقسم على كل هذا بأن تعود كل المبادئ التى نادى بها لومومبا ، والوحدة التى ذهب ضحيتها . والحرية التى تغنى بأشواقها والغد المزهر الذى تمناه لبلاده !

ذلك لأنه أحب بلاده كأقوى ما يكون الحب . وحملها فى نفسه بفقرها وغناها . بحزنها وفرحها ، بخصبها وجدبها . بالغابات التى كانت تظلل الأفكار التحررية فى رأسه . بالقرى الحزينة التى كان يأوى إليها مع رفاقه . بالمناجم التى كانت تقتل العمال فى بلاده وتحيى المواطنين فى بلجيكا ، بالقوى البشرية التى كانت تستنزف فى المدينة لخدمة البيض ! !

حمل « لومومبا » كل هذا فى ضميره ، ومن أجله لم يقبل خيانة وطنه ككازافوبو ، وموبوتو ، وتشومبى ، وكالونجى ، فقد كان يمكنه أن يمالىء أعداء البلاد ، وأن يعيش الآن كما يعيش هؤلاء الخونة فى بلاده ، ولكن كل شىء كان يدعوه للثورة من أجل الوطن .. الأرض المحدبة صرخت أن يخلصها من الخطوات الدخيلة ، السماء الملتهبة نادته بأنها لاتريد أن تظل وجوههم .. الغابات .. الحقول .. المناجم .. الأنهار .. كل شىء كان يناديه بأنه قد سئم من الظلم ، وتململ من العبودية . كل شىء كان فى انتظار نسمات الحرية ، ولم تكن لتهب هذه النسمات إلا من حب هذا البطل لبلاده ، وأشواقه لغدها . وتطلعه لمستقبلها !

وقد استجاب « لومومبا » لكل هذا ، وراح ضحيته ، ولكن دمه سيجمع القلوب من جديد، وسيوحد القبائل، وسيضم المقاطعات ، وحين تتحقق وحدة الكونغو ستكون على هذه الوحدة « نقطة دم » ، وحين سيرتفع علم واحد على ربوع هذه البلاد ستكون عليه « نقطة دم » . وسيحس كل مواطن هناك « بنقطة الدم » هذه تؤرقه إن هو حاد عن مبادئ لومومبا ، ذلك لأن لومومبا قد أصبح فكرة ، وما دامت ستتحقق هذه الفكرة فلن يضير لومومبا شىء أنه ذهب ضحيتها ، فقد عاش للكونغو ، ومات من أجله .. وما أجمل الحياة والموت فى سبيل الوطن !

الدوافع لمشكلة الكونغو

بقلم : الأستاذ محمد عبد العزيز اسحق

إن العالم يغلى الآن حقداً على هؤلاء الذين أشعلوا النار فى الكونغو والذين أهدروا كرامة البشرية . وتلاعبوا وراء النوايا الطيبة . ووضعوا الأشواك فى الطريق الذى كان يسير فيه « لومومبا » أمام شعبه . وهو يضم بين قلبه آمال غده . وأفراح مستقبله . والزهو بانتصارات الحرية التى حققها فالحرية أمل . وفرحة . وزهو ! !
وإن الإنسان ليتساءل عن مصير هذه البلد الذى أصبح محاطاً بالظلام . والغدر . والتسلل . ويتساءل ترى لو لم تحرض الشركات . والمصالح الغربية تشومبى فى كاتنجا . وكالونجى فى كاساى ؟ ولو لم يدفع الأمريكيون وحلفاؤهم بكازافوبو وموبوتو إلى المعركة ؟ ولو لم تخن الأمم المتحدة مبادئها فى الكونغو ؟ أكان يصبح مصير الكونغو كما هو الآن ؟ أكانت تقام هذه المجازر ؟ أكان الرؤساء من أبناء البلاد يتسولون الجنود . والقادة من البلاد الغربية . وبخاصة فرنسا وبلجيكا ثم يدفعون بهم إلى المعركة ليقتلوا مواطنيهم . ويحرقوا قراهم . كما يطاردون الأحياء منهم إلى الغابات . والمستنقعات ليموتوا مع خيوط الحرية التى تلمع فى جبينهم . وتتألق فى عيونهم !

إن شيئاً من هذا ما كان ليحدث لو لم يتدخل الاستعمار . لو لم يرى أن من واجبه أن يستعرض كل قواه . ويحشد كل دسائسه . ويدفع بكل قواته إلى المعركة لا ليدمر الاستقلال فقط فى الكونغو . ولكن ليدمر كل القوى التى تريد أن تحقق ذاتيتها فى القارة . والتى تستشرف الحرية بعيداً عن مناطق النفوذ . والأمر لا يقف عند هذا فقط وإنما يتعداه إلى ارهاب الدول التى تحررت . وجعلت من رسالتها دفع عجلة التحرر فى القارة . وتحققت على يدها الوحدة فى أكثر من بلد . ونادت بالتكامل الاقتصادى فى كل القارة . وتلاقت فى أكثر من مؤتمر . وعند أكثر من فكرة . فتم لها فى غمرة أضواء الحرية وفرحتها

التفاهم على أن من حق القارة أن تستقل ، وأن تكون خيراتها لأبنائها ، وأن تتعاون فيما بينها وبين نفسها . وأن تتحد . وأن تضع مقدراتها فى يدها ، فبهذا وحده يمكن أن تسير ، وتدفع التاريخ بعد أن كان قد توقف سيره ، وأصبح راكداً فى أكثر أنحاء القارة !

وهكذا لم تكن الضربة موجهة إلى الكونغو فقط قدر ما هى موجهة إلى موجات التحرر بالقارة ، وطاقات الدفع الجديدة التى تذخر بها ، والتى ترى أن من حقها أن تلحق الحياة ، وأن تستمتع بها ، وتشارك فى سير الحياة فيها فى فهم ، وصدق ، وإخلاص .

هذه الحقيقة التى يجب أن تعرف ، والتى يجب أن ينظر فى ضوئها حين توضع حلول عملية لمشكلة الكونغو . وحتى تعود إلى هذه البلد الطمأنينة ، والتمتع بالحرية التى من حق كل إنسان أن يعيش بها ، ويتمتع بنسماتها ، وتعميقها للحياة .

هذه هى الحقيقة الكبيرة التى دفعت بالكونغو إلى أن يقف على قمة الأحداث ، وإلى أن ينهار اقتصادياً ، ويتحطم كأمة بعد أن كان الأمل معقوداً عليه فى أن يأخذ دوره الكبير فى القارة ، وألا يكتفى بالحرية التى مست وجدانه ، وإنما يعمقها ويرسلها إلى كل البلاد التى تقف بجواره ، بل إلى كل الدول التى لم يرتفع فيها إلى الآن علم ، والتى ما زالت تُستنزف مناجمها وتغتصب أراضيها . وإذا كان لا بد من المحافظة على شيء . . فلن يكون هذا الشيء سوى الغابات ليتنزه فيها السادة ، ولن يكون كذلك سوى التقاليد الضارة ، والقوى المعوقة لحركات التقدم ، وللسير بالإنسان إلى أن يعيش فى كرامة .

ومهما يكن من شيء فقد وضحت هذه الحقيقة لكل ذى عينين فى العالم ، ولكل الذين يحافظون على شرف الإنسانية ، وميثاق العدالة ، وهكذا ترشدنا دماء « لومومبا » إلى هذه الحقيقة الكبيرة ، وتدفع بنا للإحاطة بها ، وللدفاع عنها من أجل الإنسان وشرفه فى المعركة ضد كل القوى التى تحاول أن تهدر الإنسانية فيه .

لومومبا

للأستاذ : عبده بدوى

لقد كان الزعيم «لومومبا» — بحق — رجل عامى ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ فقد شغل العالم من حوله ، وجعله منقسما إلى قسمين : قسم يتعاطف معه ، ويحرك يده جرياً وراء أخباره ، ويتلهف على الصحيفة والمجلة ليرى وجهه ، ويشرب أخباره ، فإذا ما مل من وسائل الإعلام هذه هبط إلى نفسه ، واستعاد معرفته بالرجل فإذا به فى موكب ضخم من النور ، والحرية ، والاقتحام الجرىء !

أما القسم الآخر فقد عبس فى وجه هذه القوى الجديدة ، ولاحقها بالظلام والحقد ، والمؤامرات ، ولكن هذه القوى الشريرة أخذت تتوارى ، وتنهزم أمام الأضواء الإنسانية حتى تساقط الكثير منها ، ولكن ما بقى منها كان من الحقد بحيث أمكنه أن يصوب « ضربة قاتلة » إلى قلب لومومبا !

ولعل بطولة هذا الرجل لا ترجع فقط ، إلى أنه عرف كيف يتفوق على نفسه ، وينسى القبلية ، ويتسامى عن المشاحنات ، تتناثر ، إلى حد جعله لا يقدر ما «لتقاط الحقد» هذه من ضرر ، وإنما ترجع إلى أنه عاش يحمل كل آلام وطنه ، كل أحزانه ، كل دموعه ، كل دمائه التى تدفقت فى حقول المطاط ، كل أطرافه التى كانت تبتر فى الحقول ، وتقدم للبلجيكيين كدليل على أن هؤلاء المواطنين السود يعملون بجد فى ضيعة « ليوبولد » فى إفريقية !

ورغم أن هذا الزعيم قد ولد فى ٢ يوليو عــام ١٩٢٥ فى « كاتاتا كوركومبى » بمنطقة « سامكورو » ، بإقليم « كافاى » ، وتلقى تعليما محدوداً فى إحدى المدارس الأولية بمنطقة « ستانلى ڤيل » ثم تدرب بمدرسة البريد « بليوبولد ڤيل » لثلاثة أعوام ، ثم حصل فى عام ١٩٤٥ على وظيفة صغيرة بمكتب بريد « ستانلى فيل » ، ووصل بعد أحد عشر عاماً إلى وظيفة كاتب أول ببنك التوفير . . . رغم كل هذا إلا أنى أميل إلى أنه ولد يوم مولد الكونغو فى الوجود ففى قلبه قد عاشت غاباته ، ومراعيه ، ونظمه ، وتقاليده ، ومساحته التى تزيد على تسعمائة ألف ميل مربع ، وسكانه الذين يبلغون

عشرين مليونا . ثم داست هذا القلب خطوات الرحالة «ستانلى» فى عام ١٨٧٤ . وخطوات أخرى بعيدة هى خطوات «ليوبولد الثانى» الذى كان يحلم بإمبراطورية فى إفريقية . ومن أجل هذا يعقد مؤتمراً للجغرافيين الأوروبيين فى بروكسل فى عام ١٨٧٦ ثم يذكر فى هذا المؤتمر أن الغرض منه هو شق مجرى «للحضارة !» فى هذا الجزء المقفل من إفريقية . ومن أجل هذه الغاية يستدعى إليه «ستانلى» ويؤسسان معاً فى عام ١٨٧٨ «جمعية دراسات أعالى الكونغو» . ثم يعلن أنه سيتدخل بالقوة فى هذه البلاد .

ويكون هذا الإعلان هو «الطلقة» التى أعلنت بدء السباق الأوروبى فى إفريقية إذ أن انجلترا سرعان — فى دوى هذه الطلقة — ما سيطرت على مصر . والصومال . وأوغندة . والسودان ونيجيريا . وإفريقية الشرقية . وتوسعت فى جنوب إفريقية . وغانة . وغينيا . وسيراليون .

بينما تضع فرنسا يدها وتتوسع فى تونس . والسنغال . والكونغو الفرنسية وساحل العاج . ومدغشقر .

وكذلك الحال بالنسبة لألمانيا . والبرتغال . وإيطاليا .

. . يذكر هذا «لومومبا» ويذكر أن الشعب قد أخذ يتساقط كما تتساقط أوراق الخريف على أيدى البلجيكيين . ذلك لأن الشعب قد تناقص إلى اثنى عشر مليونا . وحرم من التعليم . ومن الحياة الكريمة . وسيق جميعه للتنقيب عن اليورانيوم . والنحاس . والمعادن الأخرى . وتسليم ذلك إلى بلجيكا .

وإنه ليذكر كذلك أن هذا الهدوء الذى غطى الشعب قد أطمع هؤلاء البلجيكيين فى أن يدمجوا الكونغو فى بلادهم . حتى لقد جاء فى خطاب للملك فى عام ١٩٥٠ قوله : «إن والدى الذى ارتبط هو وأسلافه بهذا البلد قد غرس فى نفسى منذ نعومة أظفارى فكرة توحيد بلجيكا بالكونغو . وخلق أمة موحدة منهما !» .

ولكن هذه الأفكار تزعج هذا الزعيم فنراه يؤسس فى عام ١٩٥٨ حزباً . ويدخل به فى معارك مع الاستعماريين . وقد تطور هذا الحزب على يديه . وأصبح قوة إيجابية . ويتآمر عليه البلجيكيون فنراهم يقبضون على «لومومبا» ويودعونه السجن . وإذا بالشعب من حوله هتاف واحد بالحرية مما اضطرهم إلى إطلاق سراحه . ودعوته إلى مؤتمر «المائدة المستديرة» فى بروكسل . ويعود فيتلقاه الشعب بالفرح الغامر . بينما يلقاه الاستعمار بعمليات «التخريب الداخلى» فنراه يتحرك بوساطة «تشومبى» . وكالونجى وكازافوبو . وموبوتو . وأخيراً بالأمم المتحدة . ذلك لأنه روعهم بنجاحه الساحق فى الانتخابات . ووضع قبضته على كل المصائر هناك .

ولم يكن بد من إعلان استقلال البلاد . ومن سفر الملك « بودوان » إلى الكونغو ليعلن هذا الاستقلال بنفسه ، وهناك روع الملك أكثر من مرة لأنه ما كاد يستقبل فى المطار . ويسير ركبه الجزيل حتى تقدم منه مواطن عادى . وانتزع السيف المعلق بجانبه . ثم أخذ يلوح به وهو يقول : « الاستقلال . الاستقلال » . ولقد ذعر الملك أيما ذعر . وهو يتلقى درساً فى الوطنية من هذا المواطن العادى فى الكونغو .

على أن ذعره الحقيقى كان فى البرلمان . فرغم أنه تقدم من المنصة . واغتصب بسمة ثم تكلم فقال : « إن استقلال الكونغو يعتبر لحظة حاسمة ليس بالنسبة للكونغو فقط وإنما – ولا أتردد فى القول – لكافة القارة الإفريقية » رغم هذا إلا أنه عاد يصبب عرقاً من جديد . وهو يتلقى درساً قاسياً من لومومبا . فقد آثر هذا الزعيم أن يقول كلمة الكونغو بشجاعة على أنه سرعان ما احتل المنصة . وما كاد يهدأ التصفيق . حتى حدق فى وجه الملك ثم ألقى أروع خطاب له . هذا الخطاب الذى جاء فيه « . . بالرغم من أن استقلال الكونغو قد أعلن اليوم بالاتفاق مع بلجيكا – وهى دولة صديقة سنتعامل معها على قدم المساواة – إلا أنى أؤكد أن كل واحد منا لا يستحق أن ينتمى إلى الكونغو إذا هو تناسى أن بلاده قد هزمت فى كفاحها الذى كانت تخوض غماره يوماً بعد يوم . ولقد كان كفاحاً مريراً لم يضن علينا البلجيكيون فيه بالحرمان . والآلام . والدماء .

لقد حاربنا فى معركة نبيلة عادلة . لنضع حداً للاستعباد الذليل الذى فرضه علينا حكمكم الإرهابى المشين . ومن هنا فجراحنا من الجدة بحيث لا تزول من ذاكرتنا . فقد خضعنا للسخرة فى مقابل أجور لم تكن تكفينا . . أجور لم تكن توفر لنا القوت الضئيل . والملابس المحتشمة . أو حتى تمكننا من تربية أطفالنا تربية كريمة .

فقد كنا نعامل بالإهانات واللطمات التى كان يتحتم علينا أن نتحملها من الصباح إلى المساء لا لشىء إلا لأننا إفريقيون . كان هذا بعد أن تم استيلاؤكم على الأراضى التى نملكها فى ظل قوانين جائرة لا مبرر لها إلا فرض إرادة القوى على الضعيف . فالقانون كان يختلف تماماً . عند تطبيقه على السود والبيض فى أرضنا ! وهكذا رأينا القصور الفاخرة للبيض . والأكواخ الحقيرة لنا نحن السود !

ومن منا سينسى المشانق والرصاص الذى راح ضحيتها الكثير من أبناء الكونغو ؟ ومن منا سينسى السجون التى احتضنت من تجاوز عنه الرصاص !

ومهما يكن من شىء فإن الآلام والجروح التى تركها حكمكم على

قلوبنا وأجسادنا قد انتهى ، ولكننا سنخوض معاً ، كفاحاً سامياً مريراً يسير ببلادنا نحو السلام ، والرخاء والعظمة .

ولسوف يرى العالم أجمع ما يمكن للإفريقيين أن يقوموا به في هذه الحياة فسيتحول الكونغو إلى مركز للقوة والنفوذ للقارة الإفريقية جميعها »

.. وفى الوقت الذى رفع فيه هذا الزعيم علم الحرية خفاقاً على بلاده نرى تشومبى يعلن انفصال إقليم كاتنجا ، وكالونجى يصرح باقتطاع إقليم كاساى عن « الوطن الأم » . ونرى بلجيكا تعتدى بالجنود المسلحين على « ماتادى» وتسرق رصيد الذهب . ثم نرى كازافوبو يقيل لومومبا ، ويعطل البرلمان ، ونرى الأموال الأمريكية ، والبلجيكية تتدفق على « موبوتو » . ليقوم بثورة تساعد « كازافوبو » . ثم نرى الأمم المتحدة تسجن لومومبا فى منزل . وتمنعه من الاتصال بالشعب الذى يحبه . وحين يحطم الحصار المضروب من حوله ويقع فى أيدى رجال « موبوتو » نراها تعتبر الأمر مسألة داخلية ، ثم حين تطلق سراحه حامية « تايسفيل » نراها لا تسارع إلى حمايته . وحين يساق إلى « كاتنجا » نراها غير آبهة لكل الأحداث الموجودة هناك ؛ ذلك لأنها كانت مشغولة بتسليم كازافوبو مقعداً فى الأمم المتحدة ومحاربة القبائل المناصرة للومومبا وبخاصة قبيلة البالوبا ، وبالمحافظة على أرواح البيض الذين عادوا ثانية إلى الكونغو ، بعد أن أخرجهم منه لومومبا ، عادوا لينشروا الظلام ، والحقد ، وليطفئوا الشعلة التى ارتفعت بيد لومومبا .

ومن « بلجيكا » يعلن أن «لومومبا» قد قتل ، وتتضارب الأنباء حول أنباء مقتله ، وتطلق أخبار كاذبة لخدمة قضية الغدر ، ولتعذيب الإنسانية ، ويترقب العالم هذه الأحداث ، ويعيش فى دوامتها ، وكل نفس فيه متعلق بمصير الحرية هناك ، وكل أشواق عينيه متجهة إلى حيث قالوا إن لومومبا موجود .

ثم يقف «تشومبى» وكأس الشامبانيا يهتز فى يده ويعلن أن لومومبا فر من سجنه ، وأنه قتل فى أثناء فراره ، وأنه لن يعلن عن مكان موته .

.. ويروع العالم من جديد ، وينحنى على جرح فى قلبه . فلم يدر تشومبى أنه أغمد فى قلب كل إنسان فى العالم نصلا دامياً . وأن هذا العصر مسئول عن مقتل هذا الزعيم ، وأنه بغدره هذا قد وضع الضمير الإنسانى فى محنة ، وعلق فى كل هدب دمعة ، وحفر فى قلب كل إنسان مكاناً كبيراً يضم لومومبا بأمجاده . . . يضمه وهو ينشر روح الحرية فى بلاده . . وهو يحاصر قوى الاستعمار . . وهو يسقط والرصاص فى قلبه . . قلبه الذى أحب الكونغو ، وعاش أحزانه ، وبكى مآقيه ،

وحمل باسمه إلى السجن . ثم إلى الحصار ، ثم إلى التعذيب ، ثم إلى الموت ! !

وأى موت هذا الذى ماته هذا الزعيم الكبير ، إنه الخلود بعينه ، أما الذين ماتوا فهم هؤلاء الذين انخدعوا ببلجيكا . وسددوا ضربتهم إلى الداخل . . إلى وطنهم حيث يعيش فى قلب لومومبا . . حيث يورق . ويتغنى . ويحلم بالفجر !

الذى تلقى الضربات هو الكونغو نفسه . لأن هذا الوطن بغاباته . وأنهاره . ومناجمه . وحقوله . كان قد جسم فى شخص لومومبا . . .

وهكذا تداعى الوطن ولومومبا يتداعى . وأصيب بنفس الرصاص الذى اندفع إلى قلبه . ووقع حين وقع لومومبا ، ومات حين مات !

ولن يحيا هذا الوطن إلا إذا أخذ بثأره من قاتليه . . إلا إذا حرمت أرضه على البلجيكيين . . إلا إذا حوصر الخونة من العملاء . وقبض عليهم . وقدموا طعاماً للرصاص باسم العدالة . واسم لومومبا . واسم الوطن الذى مات .

إن كل إنسان فى العالم مسئول عن « دم هذا الرجل ! » الذى كان الأمل لمواطنيه . والفرحة فى العلم الذى رفع باسم الحرية . والنور فى الجفون التى أشرقت باسم الاستقلال . . وما دام كل هذا قد انطفأ مرة واحدة فلا بد من الانتقام له . فالوطن الذى سقط لا بد أن يقوم مرة ثانية . لا بد أن يورق ويزدهر . ويتغنى بالحرية .

ومع أننا نعرف قيمة هذا الدم الذى أهدر . إلا أننا لا نبخل به على شعب الكونغو . ما دام سيرتفع . . . «علماً أحمر قانياً» من جديد على كل الربوع . . علماً ينادى باستقلال البلاد . . علماً يطارد كل الذين خانوا الحرية . . علماً يصرخ بأن الكونغو لن يكون مزرعة لبلجيكا . وبنكاً لأمريكا ورأس جسر لفرنسا . ووسيلة ضغط لإنجلترا . وستاراً للبرتغال .

ذلك لأن علم الحرية حين يسقط تتلقاه أكثر من يد . . ينحنى عليه أكثر من قلب . . يسانده الشعب نفسه . ويجاهد — من جديد — لكى يرتفع بالسلام والحرية .

وعلم الكونغو حين وقع بمقتل لومومبا تلقته يد « انطوان جيزنجا » نائبه ، وتجمع من حوله كل الشعب بإصراره . واقتحامه . وتطلعاته . بل تجمع من حوله كل الشرفاء فى العالم . وأخذوا يدفعونه خفاقا قويا إلى السماء . . قلب السماء !

ولقد كانت فى مقدمة هذه الأمم بلادنا التى بادلته حبا ، وميتا الحب والإخلاص . والتقدير !

لقد أحب لومومبا الجمهورية العربية المتحدة التى أضاءت فى جبينه ،

ولمعت فى ضميره . وجعلته يؤثرها بفلذات كبده . . جعلته يقول لبياترس وفرانسوا . وجوليانا «اذهبوا فستجدون لكم أبا هناك هو الرئيس جمال عبد الناصر» .

والذى لا شك فيه أن « لومومبا » كان يتذكر الجمهورية العربية المتحدة فى كل مكان توجه إليه ! كان يتذكرها والرصاص يثقب عمره . ويستقر فى أعماقه . ويفجر دمه .

وبلادنا لا يسعها إلا أن تبادله حباً بحب . وترفرف بأجنحة الحنان على فلذات كبده . فالجمهورية العربية لن تنسى له أنه أحبها . وأخلص لها . وأغمض إحدى عينيه — وهو يموت — على الكونغو . والثانية على القاهرة . حيث يعيش أبناؤه . . . وحيث تعيش الحرية .

لقد مات بدون دموع . كما يموت كل الأبطال . ونحن نودعه كذلك بدون دموع كما يودع الأبطال ولكننا نعاهده على أن تكون بلادنا نصيرة للحرية فى بلاده . ومؤيدة للمبادئ التى دافع عنها . فهذا هو ما يرضيه لأنه فى الحقيقة عاش باسم الكونغو ! !

ومات باسم الكونغو .

الأسس الاقتصادية لمشكلة الكونغو

بقلم الدكتور عبد العزيز كامل

الجبهة المنعزلة :

يذكر « رث سليد » فى دراسته للكونغو (١٩٦٠) أن هذا القطر ظل عهداً طويلا كأنه جزيرة هادئة بعيدة عن التأثرات المعادية للاستعمار . وكانت الخرائط التى تنشرها بلجيكا عـــن الكونغو تحمل هذا التأثير . فى هذه الخرائط كانوا يرسمون حدود الكونغو كأنها مربع ضخم فى إفريقية الوسطى له امتدادان واضحان : أولهما يتجه غرباً ليكون منفذاً للكونغو على المحيط الأطلسى . والثانى يتجه شرقاً ليشمل إقليم « رواند أورندى » الموضوع تحت وصاية الكونغو . وفيما عدا المنفذ البحرى الضيق لم يكن للكونغو أى مخرج مباشر يربطه بالمحيط ، وإنما تحيط به أقطار إفريقية أخرى .

وإلى وقت قريب لم تكن هناك عناية واضحة بمعرفة جيران الكونغو الإفريقية . فقد كان فى عزلة عن القارة ، واستطاع الاستعمار البلجيكى هناك أن يفرض على الكونغو حصاراً شديداً وأن يقيم حوله أسواراً من الصمت جعلت أحداثه — إلى وقت غير بعيد — تسير فى طريق معزول عن بقية القارة . واستفاد الاستعمار البلجيكى من بعض الظروف الجغرافية ومن الواقع التاريخى لتطور الاستعمار الأوروبى وتوزيع قوى الاستعمار حول الكونغو .

فإلى جنوب الكونغو تقع أنجولا التى تسيطر عليها البرتغال . وإلى الجنوب الشرقى روديسيا الشمالية وإلى الشرق تنجانيقا وأوغندة ويسيطر عليهما الاستعمار البريطانى . أما فى الشمال فهناك نطاق ضيق فى منطقة الزاندى يشترك فى حدوده مع السودان ، وإلى غربه جمهورية إفريقية الوسطى ثم جمهورية الكونغو (برازافيل) .

بهذا كان الاستعمار الفرنسى يجاور الكونغو من الشمال والغرب . والاستعمار البريطانى يجاوره من الشرق والجنوب . والاستعمار البرتغالى من الجنوب الغربى وتلاقت مصالح القوات الاستعمارية فى استنزاف ثروات هذه الأقاليم المدارية الغنية ، وعزل أخبارها — فى الوقت نفسه — عن العالم الخارجى .

وكان الكونغو المستعمرة الأوروبية الوحيدة التى تقع فى إفريقية الاستوائية شمال وجنوب خط الاستواء . وتبلغ مساحتها . إذا استبعدنا « رواند أوروندى ٩٠٢.٠٨٢ ميلا مربعاً . بينما مساحة بلجيكا نفسها ١١.٧٧٥ . وتعادل جزءاً من ثمانين جزء من مساحة الكونغو .

ليوبولد فى الكونغو :

وترجع مأساة الكونغو ومطامع الاستعمار فى ثرواته الاقتصادية الكبيرة إلى القرن الماضى . عند ما اشتد التنافس الاستعمارى بين بريطانيا وفرنسا وألمانيا . واشتدت الحاجة إلى الخامات اللازمة للتطور انصناعى فى أوروبا . وإلى الأسواق لتصريف الإنتاج . والميادين البكر لتوظيف رؤوس الأموال وقام الرحالة والكاشفون بدور كبير فى توجيه الأنظار إلى قلب القارة . وكان « ستانلى » من أبرز الأسماء التى ظهرت فى ميدان الكشف الجغرافى فى حوض الكونغو .

كان ستانلى يريد أول الأمر أن تستفيد بريطانيا من ثمرة كشوفه فى إفريقية الاستوائية . وخاصة فى حوض الكونغو . واستطاع هذا الرحالة أن يكشف فى الحوض شبكة من المجارى المائية التى يمكن اتخاذها طرقاً للتوغل فى الإقليم واستغلاله اقتصادياً والسيطرة عليه سياسياً . ولكن بريطانيا وقتئذ كانت فى شغل بمشكلاتها فى غرب القارة وجنوبها . لهذا اتجه ستانلى إلى ليوبولد ملك بلجيكا ليقدم إليه ثمرة كشوفه وليتعاون معه فى أمر استغلال الكونغو .

وكون ليوبولد — بعد أن فشل فى ميادين استعمارية متعددة — « الرابطة الدولية للكونغو » برأس مال كبير قدمته الدول التى كانت تسهم فى التجارة الإفريقية والميدان الاستعمارى .

كان تأليف هذه الرابطة عام ١٨٧٦ ووضع ليوبولد نفسه على رأسها . وتذرع بأن هدف الرابطة نشر الحضارة الأوروبية فى الكونغو وبعد تكوين الرابطة بعامين منح ليوبولد ستانلى عقداً مدته خمسة أعوام يقوم فى أثنائها بفتح طريق تجارية يمكن بها تجنب المساقط المائية القريبة من المصب وتربط الشاطىء بما فوق المساقط حتى يمكن التوغل فى الداخل لاستغلال حوض الكونغو . وكان على ستانلى أن يحاول « إقناع » زعماء القبائل الإفريقية بالاعتراف بحماية « الرابطة الدولية » واستطاع ستانلى أن يجمع أربعمائة معاهدة عقدها مع هؤلاء الزعماء ؛ حتى تستطيع الرابطة أن تثبت أمام الدول الأوروبية سيطرتها الفعلية على الكونغو .

وهذه المعاهدات وسيلة من الوسائل الملتوية التى استطاع بها الاستعمار السيطرة على إفريقية . ويذكر « لنارد وولف» نقلا عن أحد قناصل بريطانيا فى الكونغو « إن أية دولة أوروبية تستطيع

امتلاك أى جزء من إفريقية بالقماش والخمور » ومنها من استولت على مساحات كبيرة نظير بضعة أثواب مطرزة ومجموعة من المناديل وأغطية الرأس وزجاجات الخمر .

ولعل الرحالة الألمانى « كارل بيترز » — الذى ضم تنجانيقا الحالية — إلى ألمانيا فى أواخر القرن التاسع عشر كان أكثر صراحة من كل الرحالة الذين شرحو طريقة « المعاهدات الشرعية » فى الاستيلاء على القارة . فقد كان الرحالة الأوروبى — المكلف بجمع المعاهدات — يرسل الرسول إلى الزعيم الإفريقى حاملا إليه الهدايا ويستأذن فى إقامة معسكر . ويدعو الزعيم إلى مائدة موفورة الطعام والشراب . وفى هذا الجو الأخوى ! يوقع معه وثيقة الصداقة أو الحماية . بعد أن يقرأ أحد المرافقين النص الأوروبى الذى لا يفهم منه الزعيم الإفريقى شيئاً . وفى هذه المعاهدات شروط غريبة من فرض الحماية والاستيلاء على ثروات الأرض الظاهرة وغير الظاهرة . وحق الرابطة أو الجمعية أو الدولة الأوروبية فى استغلال المنطقة . وإدخال ما تشاء فيها من أنظمة . وفرض الضرائب وإنشاء الجمارك . . . كل هذا فى مقابل التزامات غامضة نحو الزعيم الإفريقى كإيجار محدود ، أو مرتب سنوى أو احترام ملكية الزعيم لمنطقة صغيرة من الأرض .

وليس من المعقول أن يوقع أى زعيم إفريقى على مثل هذه الشروط نظير الهدايا التافهة التى كان يقدمها مندوبو الشركات والحكومات . والأشد من ذلك عجباً أن تدافع الدول الأوروبية عن « شرعية » هذه المعاهدات وتستند إليها فى السيطرة على القارة .

استطاع ليوبولد إذن أن يحصل تحت يده هذه الوثائق . ليعلن بها حمايته زعماء الكونغو وقبائله . واستطاع أن يوقف التوسع الفرنسى ويجعله قاصراً على الضفة الغربية من الكونغو الأدنى . وأن يوقف التوسع البرتغالى . فيقتصر على أنجولا . وتقاربت هذه القوى عند مصب النهر . كما استطاع أن يحصل على اعتراف فرنسا وألمانيا بالرابطة الدولية وسيطرتها على الكونغو

وجاء مؤتمر برلين ١٨٨٥ فاعترف « بدولة الكونغو الحرة » وأرغمت البرتغال على قبول الاعتراف . كما اعترفت بريطانيا أيضاً ، وأصبح الكونغو تحت السيطرة الشخصية لليوبولد .

السجن الكبير :

ومنذ عام ١٨٨٥ أصبحت «دولة الكونغو الحرة » سجناً يديره الجلاد الكبير ليوبولد . واستخدم ليوبولد أبشع الوسائل فى الاستغلال الاقتصادى وأصبح السكان عمالا مرغمين على العمل فى جمع المطاط والعاج وممنوعين من

الحصول على أى ربح لأنفسهم من هذه العملية . ويشرح دافيدسون المعاملة البشعة التى لقيها شعب الكونغو « فى ظل نظام ليوبولد » . وكيف أن هذا الطاغية استدعى عدداً كبيراً من الضباط الأوروبيين من أمم شتى ليقودوا المجندين من الفرق الوطنية . وصار البطش هو الأمر اليومى . وكتب المبشر الأمريكى ميرفى فى جريدة التايمز فى سنة ١٨٩٥ يصف طريقة الإغارة التى يقوم بها المجندون الإفريقيون بقيادة الأوروبيين على عمال السخرة المتمردين فقال « وضعت الأيدى المقطوعة — أيدى الرجال والنساء والأطفال — فى صفوف أمام الكوميسير الذى راح يعدها ليتأكد من أن « جنوده » الوطنين لم يضيعوا الرصاص فى الهواء » ! !

وكتب مبشر آخر يصف فظائع نظام ليوبولد وكيف أن جنوده كانوا يخرقون القرى التى يرفض أهلهــا السخرة فى جمع المطاط . وجاء فى كتاب أبيض أصدرته الحكومــة البريطانية فى عام ١٩٠٤ أن كل رصاصة يطلقها الجندى الإفريقى لا بد أن تبررها يد يمنى مقطوعة .

وتناقص عدد السكان وظهرت العبرة السوداء من محاربة تجارة الرقيق وتصديره من إفريقية . فهذه الدول الاستعمارية كانت تحاول الاحتفاظ بالإفريقيين فى القارة ليصبحوا رقيقاً فى قارتهم محرومين من كل حق . وليس أمامهم إلا أن يحققوا مطامع الاستعمار البشعة ، ويرضوا النهم الأوروبى إلى المال والمواد الأولية .

وأصبح الكونغو سجناً كبيراً يتحكم فيه ليوبولد . ويساق فيه الشعب إلى جمع المطاط والعاج ، وليس أمامه إلا الموت بالرصاص أو الجلد بالسياط إذا سولت له نفسه عصيان أمر المستعمرين

. . . هكذا كان الكونغو فى مطلع القرن العشرين . . قرن الحضارة الأوروبية وعدالة الرجل الأبيض ! !

وأخذت تتسرب أنباء هذه المظالم إلى العالم الخارجى . وكيف أن شعب الكونغو يساق إلى الفناء إرضاء لمطامع الاستعمار الذى لا هم له إلا المطاط والعاج وكيف تحولت الدماء السائلة من جراح الكونغو . والآلام التى تفيض بها حياته . وحبات العرق المنحدرة من الجباه السوداء . والأنين الموجع الذى تضطرب به الحناجر . . كيف تحول هذا كله إلى قصور فخمة فى بروكسل ومتاحف وأرصدة فى البنوك . وجواهر تتلألأ على الصدور والنحور . ورشاوى تدفع لجرائد مأجورة .

استطاعت هذه الأنباء أن تتسرب رغم الحصار الحديدى المضروب على الكونغو واضطر الطاغية إلى أن ينقل الكونغو من ملكيته الخاصة إلى ملكية الدولة فى عام ١٩٠٨ .

حدث هذا بعد أن نقص عدد

السكان فى بعض مناطق الكونغو فى مطلع القرن العشرين بما يتراوح بين ٦٠ ، ٧٠٪ مما كانوا عليه بعد مؤتمر برلين فى عام ١٨٨٥ وأقرب الأمثلة إلى ذلك ما حدث فى إقليم البحيرات فى الجزء الشرقى من الكونغو .

وجه جديد لمظالم قديمة :

كان من المنتظر بعد أن أصبح الكونغو خاضعاً لحكومة بلجيكا أن تحدث تعديل فى النظام الذى وضعه ليوبولد وأن تضع الحكومة حداً لمظالم شركات الامتياز واحتكارها التجارة .

ولكن الذى حدث هو استمرار المظالم فى إطار إدارى جديد . وكعادة الاستعمار كونت بلجيكا لجاناً تبحث الوضع فى الكونغو وتبعث بتقاريرها إلى البرلمان البلجيكى .

وكانت التقارير تتضمن القليل مما تحدث فى الكونغو ولم تخل الأمر من بعض أعضاء أرهقت المظالم نفوسهم فتحدثوا عنها بشىء من الصراحة . وبعد نحو أربع سنوات من بدء مسئولية حكومة بلجيكا عن الكونغو بدأت تصرح للأهالى بأن تجمعوا بعض الغلات ويتجروا فيها . وتقلل — بعض الشىء من نفوذ شركات الاحتكار .

وجاءت الحرب العالمية الأولى وأصبحت بلجيكا ميداناً تحرثه الدبابات ويتناثر فيه الحطام والأشلاء . وخرجت من الحرب مثخنة بجراحها . وكأنها كانت تريد تضميد هذه الجراح بأربطة من جلود شعب الكونغو ! !

وبقيت السخرة والإبعاد عن موطن القبيلة وتكوين قوات الأمن . وإجبار الشيوخ والمسنين والنساء على العمل فى تعبيد وصيانة الطرق . ويذكر دافيدسن نقلا عن مصدر رسمى فى الكونغو عام ١٩٤٧ « أنه ليس هناك من شك فى أن العمل الإجبارى فى تعبيد وصيانة الطرق هو أشد الأعمال تعرضاً للبغض . إما لأنه يستلزم رحلات طويلة وإما لأنه يعنى العمل الشاق لأمهات الأطفال والصغار والحوامل » .

وأدى هذا الإرهاق وقلة العائد على شعب الكونغو من الاستغلال الاقتصادى إلى انتشار السل والحمى الشوكية والتيفويد والانفلونزا .

وبرغم هذا كله استطاع هذا الشعب أن يقاوم الفناء وأن يبقى مع قسوة الغابة والحيوانات الطليقة الكاسرة والوحوش الآدمية التى قذفتها مطامع الاستعمار من أوروبا . والاستغلال الاقتصادى المنظم وزيادة الأمراض وارتفاع معدلات الوفيات .

إقليم كاتنجا :

وسرعان ما اجتذب الكونغو أنظار العالم مرة أخرى عند ما كشفت مناجم النحاس الهائلة فيه فى إقليم كاتنجا . . وهو الإقليم الذى سالت على أرضه

دماء البطل الشهيد باتريس لومومبا وركزت فيه قوات الاستعمار جهودها وطعنت استقلال الجمهورية الفتية هذه الطعنات الغائرة . . وإقليم كاتنجا من الناحية الاقتصادية له الصدارة بين أقاليم الكونغو الستة .

فقبل كشف النحاس كان المطاط على رأس قائمة الصادرات من الكونغو وقد استطاع ليوبولد فى عام ١٨٩٢ أن يمد نفوذه على هذا الركن الجنوبى الشرقى من حوض الكونغو وفى الوقت الذى تطلعت فيه أنظار بعض الزعماء الإفريقيين إلى الاتصال ببريطانيا .

ويمكن القول بأن عهد التعدين فى الكونغو يبدأ من عام ١٩٠٦ عند ما بدأ استغلال نحاس كاتنجا . وكان الناتج محدوداً جداً حتى عام ١٩١١ . وسرت الأخبار عن الثروات الضخمة التى تخفيها الأرض . تحت الغابات العذراء فى الإقليم . ومن قبل هذا بذل الجيولوجى البلجيكى « جيل كورنيه » جهداً كبيراً استطاع به أن يكشف هذه الموارد النحاسية فى كاتنجا ، وكانت أبحاثه فى الفترة ما بين ١٨٩٠ — ١٨٩٢ .

ومنح ليوبولد امتيــازات فى مساحات واسعة من الأرض لشركات التعدين . وبخاصة « شركة كاتنجا » التى تكونت عام ١٨٩١ و « اللجنة الخاصة لكاتنجا » واعترفت الحكومة البلجيكية بهذه الأوضاع عند ما تسلمت مقاليد الأمور فى الكونغو فى عام ١٩٠٨ . ومنذ ذلك الوقت أصبحت كاتنجا أهم مركز للاستغلال الاقتصادى الأوروبى فى الكونغو . ومعظم النشاط التعدينى فى كاتنجا فى يد الاتحاد الكبير الذى تكون منذ عام ١٩٠٦ وتسيطر عليه رؤوس الأموال البلجيكية والبريطانية ويحمل اسم « الاتحاد التعدينى لكاتنجا العليا » .

وكان الإنتاج أول أمره فى المنطقة المجاورة لاليزابث ڤيل من المنجم الكبير الذى عرف باسم « نجمة الكونغو » . ثم تحرك مركز الثقل الاقتصادى نحو الشمال الغربى بما يقرب من مائة ميل فأصبح فى كامبوف .

وامتد الخط الحديدى الأول من روديسيا الشمالية إلى إقليم كاتنجا عام ١٩١٠ . بوساطة هذا الخط الحديدى أمكن نقل الفحم من مناجم وانكى فى روديسيا الجنوبية .

وفى عام ١٩٣١ أمكن لكاتنجا أن تجد منفذاً غربياً إلى المحيط الأطلسى وذلك عند ما تم مد الخط الحديدى من نيجويلا وتوبيتو عبر انجولا . وهذا الطريق أقرب إلى أوروبا من الطريق الشرقى الذى يمتد فى روديسيا الشمالية والجنوبية وموزمبيق حتى ميناء بيرا على المحيط الهندى .

وحدثت ثلاثة تطورات اقتصادية لها أهميتها الخطيرة :

أولها : إقامة مصانع الصهر فى

البزابثفيل وجادوتفيل وبهذا أصبح معظم النحاس يصدر بعد صهره .

الثانى : التوسع فى استخراج واستخدام الفحم من منجمين هامين فى الكونغو بدلا من الاعتماد على منجم وانكى فى روديسيا الجنوبية .

الثالث : التوسع فى توليد الكهرباء فى الكونغو . وبدأ هذا العمل من مساقط كورنيه الواقعة على نهر لوفيرا الأعلى .

وبهذا أمكن أن يصبح الجزء الجنوبى من كاتنجا أكبر منطقة للاستيطان الأبيض فى إفريقية المدارية إلى جانب منطقة المرتفعات البيضاء فى كينيا .

وتعتمد هذه الصناعات على اليد العاملة الإفريقية المهاجرة من أقاليم الكونغو الأخرى ومن أنجولا وإفريقية الشرقية البرتغالية ومن رواند أوروندى بل إن سلخ رواند أوروندى من تنجانيقا عقب الحرب العالمية الأولى ووضعها تحت الانتداب ثم الوصاية البلجيكية كان هدفه الأول ضمان الحصول على مورد بشرى ثابت لأعمال التعدين فى كاتنجا ، وتسهم كاتنجا الآن بنحو خمس الإنتاج العالمى من النحاس وتحتل المكان الثانى فى الإنتاج بعد أمريكا الشمالية .

ويقدر احتياطى النحاس فى كاتنجا وروديسيا الشمالية بحوالى ٦٣٥ مليون طن أو ما يقرب من ٤٠٪ من الاحتياطى العالمى .

إلى جانب هذا تسهم كاتنجا بنسبة كبيرة من إنتاج الكوبالت تبلغ نحو ½ الإنتاج العالمى ويستخرج بالقرب من جادوتفيل إلى الشمال الغربى من البزابثفيل .

ولا تقتصر أهمية كاتنجا على إنتاج النحاس والكوبالت وإنما تسهم بنصيب كبير فى إنتاج الماس واليورانيوم

فنحو ٦٢٪ من إنتاج الماس العالمى يأتى من الكونغو وخاصة من مناجم بوشماى ووادى نهر تشيكابا فى إقليم كاتنجا . ويستخرج اليورانيوم من منجم شنكولوبوى قرب جادوتفيل . وهذا المنجم هو أكبر المناجم الثلاثة لليورانيوم فى العالم كله . . هذا عن إسهام كاتنجا فى إنتاج القصدير بقدر محدود يبلغ نحو ٨ ٪ من مجموع الإنتاج العالمى عام ١٩٥٧ الذى كان ٧٦,١٠٠ طن . وللملايو — فى جنوب شرق آسيا — لها الصدارة فى إنتاج هذا المعدن وحصتها وحدها ٣٤٪

بهذا أصبحت كاتنجا أضخم منطقة تعدينية فى إفريقية المدارية ، وتطور هذه المنطقة قد لا نجد له نظيراً فى العالم كله . وفى العاصمة البزابثفيل ترتفع ناطحات السحاب والمبانى الضخمة .

والآن أصبح من الممكن الوصول إلى كاتنجا من ثلاث طرق رئيسية :

١ — من الغرب عن طريق الخط الحديدى من بنجويلا أو لوبيتو على المحيط الأطلسى الجنوبى . وهذا الطريق يخترق أنجولا البرتغالية .

٢ — خطوط حديد جنوب إفريقية عبر روديسيا .

٣ — ثم هناك الاتصال الحديث بالخط الحديدى إلى بحيرة تنجانيقا ومنها إلى دار السلام (عاصمة تنجانيقا) على المحيط الهندى .

هذا فضلا عن المواصلات الجوية المنتضمة بين الإقليم وأوروبا .

الفحم الأبيض :

وللكونغو منزلة خطيرة فى إمكانية توليد الكهرباء . وقد تمكن مؤتمر الطاقة العالمى المنعقد فى لندن عام ١٩٥٠ من تقدير القوة الكامنة الممكن توليدها من مجارى المياه فى العالم بحوالى ٥,٦ ألف مليون كيلوات ساعة . وتأتى إفريقية فى مقدمة القارات من حيث القوى الممكن استغلالها بنسبة قدرها ٤٠٪ من الإمكانيات العالمية .

ويحتل الكونغو رأس القائمة بين الدول الإفريقية فى هذا الأمر . وبه هو والأقطار الاستوائية التى كانت خاضعة لفرنسا ⅔ من جملة إمكانيات توليد الكهرباء فى القارة كلها .

ويعلق ماكدونا (١٩٦٠) — على هذه القوى الضخمة فيقول : « إن أى مؤسسة صناعية فى أوروبا أو أمريكا تعتمد فى صناعاتها على استهلاك قدر كبير من الكهرباء — كالألومنيوم والصناعات الكهربائية الكيمائية والكهربائية المعدنية ، ينبغى أن تأخذ فى اعتبارها توظيف رؤوس أموالها فى إفريقية وإلا فقدت مركزها أمام الفرص الجبارة التى تتيحها القارة » .

على مفترق الطرق :

من هذا العرض تبدو بعض جوانب الأهمية الاقتصادية للكونغو . وتستطيع هذه الجوانب أن توضح لنا الدوافع الحقيقية للمشكلة هناك . ويمكن أن نلاحظ النقط الآتية :

١ — أن إقليم كاتنجا يعتبر قاعدة للاقتصاد الاستعمارى لا فى الكونغو وحده ، وإنما فى إفريقية الاستوائية والمدارية كلها .

٢ — أن بلجيكا ليست وحدها المالكة للشركات الاقتصادية هناك وإنما هناك قوى اقتصادية أخرى على رأسها بريطانيا .

٣ — أن هناك مصالح مشتركة فى نطاق النحاس الممتد من كاتنجا إلى روديسيا الشمالية بحيث إن النطاقين يتكاملان اقتصادياً .

٤ — أن التوجيه الاقتصادى لكاتنجا ليس نحو بقية أجزاء الكونغو وإنما اجتهد الاستعمار فى أن يجعل منافذ هذا الإقليم مستقلة عن بقية أجزاء الكونغو . فهو يستطيع الاتصال بالعالم

الخارجى عن طريق روديسيا وموزمبيق وطريق بنجويلا وطريق دار السلام . وبعبارة أخرى استطاع الاستعمار من أول الأمر أن يقلل من الروابط التى تربط بين كاتنجا وبقية الكونغو وأن يجعل من كاتنجا إقليما له مصالحه الخاصة ومواصلاته الخاصة التى لا تعتمد على بقية أجزاء الكونغو .

٥ — أن الاستعمار لم يجعل من كاتنجا احتكاراً لدولة واحدة ، وإنما جعلها ميدانا مشتركاً بين أكثر من دولة ليضمن تعاون القوى الاستعمارية فى سبيل المحافظة على أوضاعها فى الكونغو .

واتضحت المؤامرة الاستعمارية على الكونغو من أول يوم : فإما أن تخضع الكونغو المستقل اقتصادياً للاستعمار بعد أن استقل سياسياً . وإما أن تقوم الثورات فى أجزائه المختلفة وبخاصه فى إقليم كاتنجا .

وعند قيام الثورة فى كاتنجا يستطيع الاستعمار أن يمونها باستخدام مطارات الإقليم الخاصة والخطوط الحديدية التى تربطه بالشرق والجنوب والغرب وكلها مناطق يسيطر الاستعمار عليها وعلى منافذها البحرية .

وإذا اشتدت الثورة ولم يستطع الاستعمار السيطرة على بقية الكونغو ، كان فى مقدوره وقتئذ أن يعلن انفصال كاتنجا عن بقية جسم الكونغو بعد أن مهد لذلك بتنظيم طرق مواصلاتها وخطوطها الحديدية . وفى هذه الحالة يمكن أن يمهد لربطها فى اتحاد اقتصادى مع روديسيا الشمالية وبهذا يوحد سيطرته على نطاق النحاس الضخم فى إفريقية المدارية .

هذا — فيما يبدو — تخطيط المؤامرة الكبيرة التى حاك الاستعمار خيوطها وبدأ فى تنفيذها فى الكونغو واستخدم فيها العملاء .

ولكن لماذا لجأ الاستعمار فى الكونغو إلى استخدام العملاء ولم يتبع الأسلوب السافر الذى اتبعته فى كينيا وجنوب إفريقية ونياسالاند ؟

المستوطنون :

يرجع هذا الأسلوب إلى مدى صلاحية الكونغو للاستيطان الأبيض . وعدد المستوطنين البيض فيها قبل الاستقلال نحو ٧٠ ألفاً ثلاثة أرباعهم من البلجيكيين . بينما مجموع السكان نحو ١٣ مليوناً . ومعظم البيض مركزون فى إقليم كاتنجا . هذا الوضع يجعل الأسلوب الاستعمارى ذا طابع خاص فى الإقليم . ففى جنوب إفريقية حيث يرتفع عدد البيض إلى نحو ثلاثة ملايين يستطيع الطغيان العنصرى أن يبرز سافراً فى مقاومة المد التحررى الإفريقى ولكن فى الكونغو لا يستطيع الاستعمار — أو على الأقل يجد من الأنسب لديه أن يختفى وراء عملاء من أبناء الإقليم ليجعل الصراع داخلياً بين الجهات

الإفريقية . ويقف وراء عملائه يمدهم بالعون والعتاد . ويمهد لهم الجو فى المنظمات العالمية ويحيك المؤامرات الدولية حتى يستطيع هؤلاء العملاء مقاومة الحركة التحررية ؛ ويستهلك طاقة الإفريقيين فى كفاح داخلى .

وقد حرصت بلجيكا مدة استعمارها الكونغو على أن تحتفظ فيه بمستوى منخفض فى التعليم والثروة القومية والبناء الاجتماعى ، وحافظت فى بعض الأجزاء على الأوضاع القبلية ودعمت نفوذ من يوالونها من زعماء القبائل ، بينما حطمت الأوضاع القبلية فى مناطق التعدين والصناعة ، وعزلت الإفريقى عن قبيلته وتقاليده التى كان يعيش بها ، ولم تعط هذا الجيل المعزول عن ماضيه فرصة يكون فيها حاضره ويبنى مستقبله . وبهذا فقد روابطه القديمة وحرمته من التعاون مع مواطنيه على إذابة الأوضاع القبلية ، أو النزعات الفردية الجديدة ، وصهرها فى قومية متحدة متماسكة .

الاستغلال الزراعى :

بقيت بعد هذا كلمة عن الإنتاج الزراعى فى الكونغو وتسيطر عليه — إلى حد كبير — شركات ضخمة لها احتكاراتها وامتيازاتها . فالشركة التى مدت الخط الحديدى بين ليوبولدفيل ومتادى منحتها الحكومة نحو مليون فدان من أراضى الغابات فى حوض بوسيرا رافد الكونغو . ولا تزال هذه الشركة تحتكر الأرض دون أن تعنى كثيراً باستغلالها . وهناك — على سبيل المثال — امتياز آخر لشركة ليفر البريطانية كان مقداره أول الأمر — عام ١٩١١ — نحو ١,٨ مليون فدان وهبط الرقم عام ١٩٤٥ إلى نحو ٣٠٠ ألف فدان وتخرج الشركة من هذه المساحة زيت النخيل الذى تستخدمه فى صناعة الصابون ، وظلت هذه الشركة تعتمد مدة كبيرة على ما يقدمه الوطنيون من ثمار النخيل البرى ، واضطر الأهالى إلى ذلك ليحصلوا على قدر من المال يسددون به الضرائب الحكومية المفروضة عليهم .

والقطن من الغلات النقدية الهامة . فى الكونغو ويسيطر الأوروبيون على زراعته . والإقليم الشرقى من أهم مراكز إنتاجه . وكانت بلجيكا لا تشجع الأهالى على زراعته حتى تستطيع أن توفر منهم الأيدى العاملة اللازمة لصناعات التعدين وحتى لا ينافسوا الأوروبيين فى الإنتاج الزراعى .

وجهة الكونغو :

وإذا كان الاستعمار قد استطاع فى هذه الجولة أن يقضى على البطل الشهيد «باتريس لومومبا» . وأن يزود خصومه من الأوروبيين السود — من أمثال تشومبى — بالسلاح والمال . . فإن المستقبل ليس فى صالح الاستعمار

ذلك لأن المناطق المدارية شاهدت ثلاث دورات من الاستعمار . الدورة الأولى اصطلت بنارها المداريات الأمريكية واستطاعت هذه أن تستقل وتقوم فيها حكومات قومية . واضطر الاستعمار الاقتصادى أن يبحث عن حقول جديدة واتجه إلى المداريات الآسيوية وبذل جهوداً ضخمة فى استغلالها ابتداء من النصف الثانى من القرن التاسع حتى الحرب العالمية الثانية . واستطاعت هذه المداريات عقب هذه الحرب أن تخلع عن أعناقها نير الاستعمار وظهرت دول جديدة فى جنوب آسيا وجنوبها الشرقى . واشتدت قبضة الاستعمار على الميدان الثالث .. على المداريات الإفريقية . ومن أجل هذا تدور المعارك عنيفة بين القوميات الصاعدة والرجعية الاستعمارية فوق أرض إفريقية .

ولقد كانت المعارك الماضية كلها انتصارات متوالية على الاستعمار .

واستطاعت المداريات الإفريقية أن تسجل النصر تلو النصر فى معارك التحرير وشاهد مطلع النصف التالى من القرن العشرين استقلال كثير من دول إفريقية . وأمكن تحرير شمال القارة كله . والمعركة الأخيرة فى الجزائر قائمة . وأمكن أيضاً تحرير ساحل غانة وسواحل البحر الأحمر . وبقيت المعاقل الاستعمارية فى جنوب القارة وشرقها . ومن هذه المعاقل تحارب الحركات التحررية فى القارة .

فالاتجاه العام نحو التحرر . والثمن تدفعه القارة من دمائها وطاقاتها .. وعن قريب ستستطيع الموجة التحررية الممتدة من شمال القارة أن تطهر وسطها وشرقها وجنوبها . وأن ترتفع أعلام الحرية فى القارة .

وفى أفراح النصر لن ننسى أن رداء المجد نسجته أيدى الشهداء .

وتحية إلى لومومبا فى الخالدين .

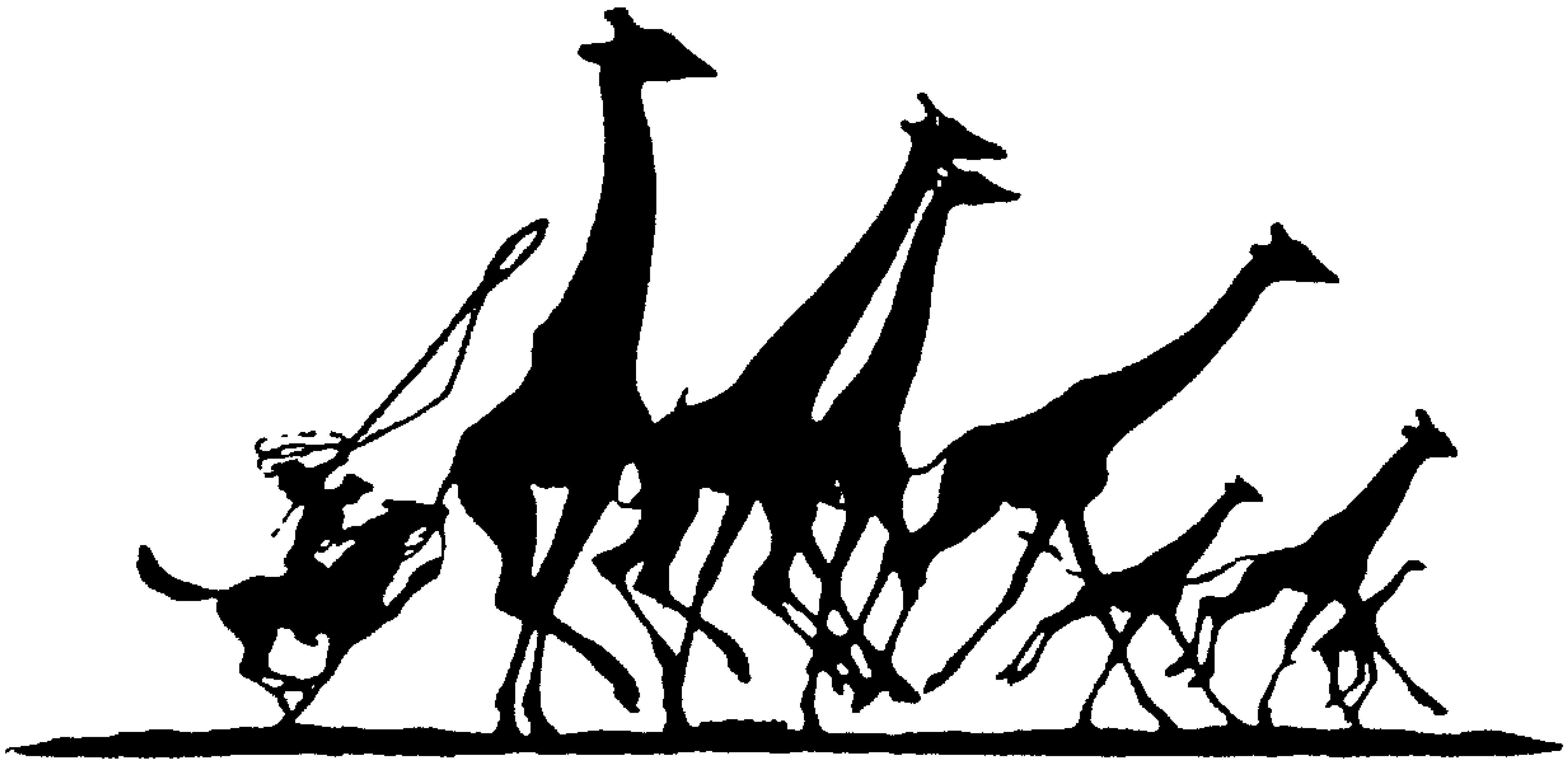

مؤامرة على ضفاف الكونغو

بقلم : محمد العزب موسى

بعد الحرب العالمية الثانية . اتخذ الاستعمار شكلا جديداً هو الشكل الجماعي . فقد تناست الدول الاستعمارية خلافاتها السابقة التي أشعلت نيران حربين عالميتين . وأسهمت جميعاً في شركة استعمارية واحدة تعمل على الاحتفاظ بما بقي لها من نفوذ . وترسم الخطط لمشروعات المستقبل .

السبب في ذلك أن الكفاح ضد الاستعمار اتخذ أيضاً الشكل الجماعي بعد الحرب . وظهرت الفكرة الأفروأسيوية التي تعتبر الاعتداء على الحرية في أي جزء من آسيا أو إفريقية اعتداء على القارتين بأكملهما . وقد أيدت هذا الكفاح الكتلة الاشتراكية رغبة منها في توجيه الضربة القاضية إلى الرأسمالية في نقطة ضعفها وقوتها معاً وهي الاستعمار . وكل ذلك لم يدع مجالا أمام الدول الاستعمارية للانقسام . فأقدمت على توحيد سياستها ومصالحها لا سيما بعد أن تولت الولايات المتحدة زعامة العالم الرأسمالي وأنشأت عشرات المنظمات السياسية والاقتصادية والعسكرية للدفاع عن « العالم الحر » .

ومن أحدث وأوضح تطبيقات نظرية الاستعمار الجماعي تلك المؤامرة التي دبرت أخيراً على ضفاف الكونغو فالمعروف أن إفريقية أصبحت هدفاً للاستعمار بعد الحرب الثانية . نظراً للفقر الذي أخذت تعانيه أوروبا الغربية في أعقاب الحرب . وانكماش أساسها الاقتصادي نتيجة لفقدان مستعمراتها في آسيا . مما جعل أنظار المستعمرين تتجه إلى إفريقية باعتبارها حلا جزئياً على الأقل لمشاكلهم الاقتصادية .

وترتبط المصالح الاستعمارية في الكونغو ارتباطاً لا انفصام فيه ، فإن بلجيكا التي تعودت أن تحصل من الكونغو على دخل سنوي لا يقل عن مائتي مليون دولار . لم يكن من المعقول — وهي الدولة الضئيلة الموارد — أن تتركه يحول ببساطة استقلاله الصوري إلى استقلال حقيقي . أما بريطانيا وفرنسا والبرتغال فلها مستعمرات إفريقية تحيط بالكونغو . ولها مصلحة مباشرة في ضرب الحركة التحررية فيه لأن نجاح هذه الحركة يهدد المستعمرات البريطانية في أوغندة وكينيا وتنجانيقا واتحاد وسط إفريقية الاستعماري . كما يهدد أنجولا البرتغالية

والدول الإفريقية التى منحتها فرنسا استقلالا شكلياً ، لا سيما أن الحركات التحررية فى هذه الدول والمستعمرات أصبحت فى حد ذاتها خطراً كافياً . وارتفعت فيها أصوات المستوطنين والموظفين الرسميين تطالب بالرحيل قبل انفجار مرجل القومية الإفريقية .

أما الولايات المتحدة . فلها أيضاً مطامع ومصالح واسعة النطاق فى إفريقية . فقد تغلغل النفوذ الأمريكى إلى عدد كبير من شركات الاستغلال الأوروبية القديمة . وهى تملك بالفعل نصف رءوس الأموال المستثمرة فى الكونغو . وقد ارتفعت تجارتها غير المتكافئة مع القارة الإفريقية بعد الحرب مباشرة من ١٥٠ مليون دولار إلى ١٢٠٠ مليون دولار أى بنسبة ٨٠٠٪ وتستورد الولايات المتحدة حالياً من إفريقية ٩٧٪ من احتياجاتها من خام الكولومبيوم و ٨١٪ من زيت النخيل و ٦٨٪ من الكوبالت و ٥٢٪ من الجواهر و ٢٣٪ من المنجنيز كما أن الكونغو يكاد يكون مصدرها الوحيد من اليورانيوم الذى يلعب دوراً حيوياً فى صراع القوى العالمى [1].

ولذلك فما أن بدأت القوى الوطنية تتحرك بقيادة باتريس لومومبا لتحويل الاستقلال الصورى إلى استقلال حقيقى حتى هبت الدول الاستعمارية ذات المصالح الواسعة فى الكونغو وإفريقية فى تنفيذ مؤامرة جماعية تحت ستار الأمم المتحدة تهدف إلى الإبقاء على الوضع الراهن فى الكونغو . ولا يعنينا ما إذا كانت هذه الدول قد دبرت تلك المؤامرة نظرياً أم توافقت عليها عملياً . بل يكفينا أنها مؤامرة محبوكة الأطراف . ذات أهداف محددة ، وتكتيك مدروس . وقد مهدوا لها — كأى معركة حربية أو سياسية — بستار من الدخان يتقدمون وراءه .

وكان لهذا الستار جانبان .

الجانب الأول التلويح بأن الكونغو أصبح ميداناً للحرب الباردة ، وأن الاتحاد السوفيتى له فيه أطماع مباشرة ، لا سيما بعد أن هدد لومومبا بأنه قد يضطر إلى طلب مساعدات سوفيتية . وكان الهدف من ذلك التمويه على الرأى العام العالمى — وخاصة فى إفريقية وآسيا — بأن الاتحاد السوفيتى يهدف إلى تحويل الكونغو إلى كوريا أخرى ، وقد جازت هذه الخدعة على الكثيرين . ولعبت دورها كستار من الدخان يتقدم المتآمرون وراءه .

أما الجانب الآخر من ستار الدخان فهو تلك الدعاية التى أطلقتها أبواق الاستعمار من صحف وإذاعات ووكالات أنباء بأن أهالى الكونغو تحولوا عقب الاستقلال إلى لصوص . وهاتكى أعراض . وسفاكى دماء وأن الرجل الأبيض فى الكونغو يواجه

1. Wallbank: T.W. Contemporary Africa: P: 17.

جرائم يقشعر لها الضمير الإنساني ، ثم اتضح أن هذه الجرائم كان يرتكبها البيض أنفسهم ضد أهل الكونغو الأبرياء ، وأنها كانت مجرد أكذوبة غريضة اتخذوها كستار من الدخان لتبرير جرائمهم مثلما كان أسلافهم فى القرن التاسع عشر يصورون الإفريقيين بأنهم من آكلي لحوم البشر .ويختلقون صور المبشرين فى أوانى الطهو الإفريقية ليبرروا حروب الإبادة التي يشنونها عليهم !

وتحت ستار الدخان الذى أطلقته الدعاية الاستعمارية تقدم المتآمرون لتنفيذ أهدافهم الثلاثة المحددة ، وهى :

١ — تحطيم الحكومة الشرعية التي يرأسها باتريس لومومبا والتي تعمل من أجل تحقيق الاستقلال الكامل للكونغو

٢ — إيجاد حكومة صورية تنفذ ما تمليه عليها المستعمرون وتمكنهم من السيطرة على الكونغو سياسياً واقتصادياً

٣ — تفتيت وحدة الكونغو . والحيلولة دون ظهور دولة قوية موحدة حتى يظل فريسة سهلة للاستعمار .

وبالنسبة للهدف الأول ، تمكنت المؤامرة من إصابة حكومة لومومبا بالشلل . وتعطيل البرلمان المنتخب من الشعب . ثم بلغت أقصاها بالقبض على لومومبا وجماعة من أقوى أنصاره فى الحكومة والبرلمان وإيداعهم السجن فى ظروف أبسط ما يقال عنها أنها تنافى المبادئ الأساسية للإعلان العالمى لحقوق الإنسان .

وبالنسبة للهدف الثانى ، عمل المتآمرون على تأييد « جوزيف كازافوبو رئيس الجمهورية وحكومته الوهمية برئاسة « جوزيف ايليو » ، والمعروف أن دستور الكونغو لا يمنح رئيس الجمهورية سلطات واسعة كرئيس الوزارة وأن كازافوبو خائن موتور يحقد على لومومبا منذ بدء الصراع بينهما على رئاسة الوزارة قبل الاستقلال وكل أهمية كازافوبو أنه زعيم قبلى لحزب أباكو وهو حزب الأقلية . ولما وجد المتآمرون أن أغلبية الشعب تؤيد لومومبا ، وخشوا أن يفشل عميلهم فى سحق المقاومة الشعبية فقد قرروا تزويد كازافوبو بالقوة العسكريه ، وتمكنوا من رشوة الكولونيل جوزيف موبوتو رئيس أركان حرب الجيش الوطى ، وكان واحداً من أنصار لومومبا قبل تنفيذ المؤامرة التى بدأت عند ما قام موبوتو بانقلاب وهمى أعلن فيه عزل كازافوبو ولومومبا معاً ، وكان كل منهما قد عزل الآخر ، ولكن سرعان ما اتضحت اللعبة ، انضم موبوتو إلى كازافوبو وصار حرباً عواناً على لومومبا ، وأطلق عصاباته المسلحة لتنشر الذعر والإرهاب فى قلوب الشعب الأعزل . ثم بلغت المؤامرة أقصاها بالنسبة لهذا الهدف بتمكن الولايات المتحدة من الضغط على الأمم المتحدة لقبول تمثيل وفد كازافوبو ، رغم أن وفد لومومبا الشرعى كان

يقف على أبواب الأمم المتحدة ويفعل المستحيل من أجل القيام بمهمته وأقيمت فى وجهه شتى أنواع العراقيل .

وبالنسبة للهدف الثالث . كانت المؤامرة أكثر وضوحاً ، فمنذ الأيام الأولى للأزمة ، وقبل أن يتأكد المتآمرون من إمكان نجاحهم وحتى لا يقطعوا على أنفسهم خط الرجعة إذا انتصرت القوى الوطنية فى الجولة الأولى ، أمروا عميلهم الخائن مويس تشومبى بإعلان انفصال كاتنجا وهى أغنى أقاليم الكونغو . وتلاه البرت كالونجى ، عميلهم فى كاساى ، فأعلن أيضاً استقلال الإقليم تحت اسم « دولة المناجم » ، وكانت هناك محاولة أخرى لفصل منطقة باكونجو ، وانهالت مساعدات المستعمرين على عملائهم الانفصاليين رغم أنهم لم يجرؤوا على الاعتراف بدولهم المزعومة . وعاد إلى كاتنجا آلاف العسكريين والمدنيين البلجيكيين وهم عدة الاستعمار الحقيقية على زعم أنهم خبراء فنيون .

ومن المؤسف أن العامل التنفيذى لبلوغ هذه الأهداف كان هو الأمم المتحدة نفسها ، وكانت الأمم المتحدة قد دخلت الكونغو بناء على رغبة الحكومة الشرعية لإجلاء القوات البلجيكية المستعمرة ، ولكنها سرعان ما انقلبت حرباً على السلطة الشرعية والحركة الوطنية ، وبدا واضحاً أن قيادة الأمم المتحدة — ولا سيما فى عهد دكتور بانش — قد ساعدت فى عشرات الحالات على تنفيذ الأهداف الاستعمارية فى الكونغو متحدية فى ذلك قرارات مجلس الأمن التى تبرر وجودها هناك .

ولقد كانت قرارات مجلس الأمن صريحة وواضحة . فهى تخول السكرتير العام للأمم المتحدة إنشاء قوة دولية من الدول التى ليست لها أطماع استعمارية للإشراف على إجلاء القوات البلجيكية من الكونغو ، والعمل على استتباب الأمن والنظام ، بالتعاون مع الحكومة الشرعية للبلاد . . .

فماذا كانت النتيجة ؟

فشلت قوة الطوارئ الدولية فى إجلاء البلجيكيين ، بل عاد المستعمرون البلجيكيون إلى الكونغو تحت شارة الأمم المتحدة وعلمها ، وعند ما تحرك لومومبا لتأديب الخونة والمتآمرين تصدت له الأمم المتحدة وأغلقت دونه المطارات ومحطة الإذاعة ، فى الوقت الذى تركت فيه الخائن تشومبى يستعمل مطارات كاتنجا ، وتركت فيه الخائن كازافوبو يستعمل إذاعة برازافيل ثم أقدمت قيادة الأمم المتحدة على تجريد قوات لومومبا من السلاح ، وأغرتها على خيانته بدفع مرتباتها المتأخرة ، ثم تركت عصابات موبوتو تنشر الإرهاب الأسود فى طول البلاد وعرضها ، كما أسهمت قوات الأمم المتحدة مساهمة فعالة فى إخماد الثورات المحلية ضد تشومبى وكالونجى ،وتصرفت

فى مخصصات الأمم المتحدة على نحو يتعارض مع قرارات مجلس الأمن . واتخذت موقفاً سلبياً، إن لم يكن مؤيداً للتدهور المستمر للقانون والنظام .

وكان لقيادة الأمم المتحدة منطق غريب . . إذا طلبت منها الحكومة الشرعية المساعدة امتنعت بحجة أنها لا تتدخل فى الشئون الداخلية أما إذا ناداها عملاء الاستعمار فإنها تهب إلى نجدتهم فى شهامة تحسد عليها،وآخر مثال على ذلك تسليمها خمسين من زعماء قبيلة بالوبا المناهضين لتشومبي إلى خصمهم لمعاقبتهم . . . فأين هى أسطورة الشئون الداخلية ؟ !

وعند ما ألقت عصابات موبوتو القبض على رئيس الوزراء الشرعى الذى دخلت الأمم المتحدة لتؤيده . لم تحرك ساكناً رغم أنها تملك ٢٥ ألف رجل مسلحين بأحدث الأسلحة . واكتفت بإرسال تقرير عن عذاب لومومبا وتركته يواجه المصير الأسود بين أيدى سفاحين ليست لهم أدنى صفة قانونية على الإطلاق .

وحتى يهئ الاستعماريون لمؤامرتهم أسباب النجاح قرروا إبعاد أصدقاء شعب الكونغو عن الميدان . فأوحوا إلى عملائهم بطرد الاتحاد السوفيتى وتشيكوسلوفاكيا ثم غانة والجمهورية العربية المتحدة . مما ترتب عليه بالتالى انسحاب خمس دول إفريقية وآسيوية من قيادة الأمم المتحدة فى الكونغو . وكان ذلك — كما لاحظ فالريان زورين — بمثابة قرار بعدم الثقة فى نشاط الأمم المتحدة فى الكونغو .

وصارت المؤامرة أكثر وضوحاً عند ما انتقلت المعركة إلى مجلس الأمن والجمعية العامة ، فقد تكاتف ، الاستعماريون بما لهم من قوة عددية فى المنظمة العالمية على الحيلولة دون إطلاق سراح لومومبا ، أو نزع سلاح قوات موبوتو . أو تشكيل لجنة إفريقيـــة للإشراف على نشاط السكرتير العام فى الكونغو ، أو إرسال لجنة التوفيـــق المقترحة فأعربوا بذلك عن رغبتهم الصريحة فى تجميد الوضع على ما هو عليه طالما انقلب ميزان القوى إلى صالحهم .

إن المؤامرة التى دبرت عـــلى ضفاف الكونغو لن تقف عند حدوده . . إنها أخطر وأوسع مما يبدو لأول وهلة . . إنها إشارة البدء لمعركة فاصلة يريد الاستعمار المحتضر أن يسترد فيها خسائره السابقة أو يرفع راية التسليم إلى الأبد . . إنها مؤامرة لضرب حركات الاستقلال الوطنى فى إفريقية كلها ، ونهب كنوز القارة العذراء ، وإطفاء مشعل الحرية فى العالم أجمع ، وبخاصة بعد مقتل الزعيم « لومومبا » .

وإفريقية هى كنز الأرض الأكبر تحوى ثروات وامكانيات لا حد لها إذ تنتج كميات هائلة من الفحم والحديد والنحـــاس والرصـــاص والكروم

والبوكست والألمنيوم والأنتيمـــونى والأسبستوس والذهب والفضة والبلاتين والجرافيت والمنجنيز والنيكل والزئبق والصفيح والزنك والبترول والبوتاس والفوسفات والنترات والكبريت . والقطن والجوت والقنب والصوف وزيت النخيـــل والمطاط والصـــويا والأخشاب والشاى والبن والسكر والكاكاو . وجاء فى إحدى نشرات النشاط الاقتصادى فى إفريقية التى تصدرها الأمم المتحدة أن إفريقية تنتج بالنسبة لإنتاج العالم فيما عدا الاتحـــاد السوفيتى : ٩٨٫٤٪ من الماس و ٨٧٪ من الكوبلت و ٦٠٪ من الذهب و ٥٠٪ من المنجنيز وأكثر من ٢٥٪ من النحاس والفوسفات والأنتيمـــونى : وحوالى ٦٦٪ من الكاكاو و ٨٠٪ من زيت النخيل . كما ينتج الكونغو وحده حوالى ٥٠٪ من اليورانيوم العالمى .

ولا يخفى الاستعماريون شغفهم بإفريقية ؛ وعزمهم على اخضاعها لنفوذهم ، فيقول جون فوستر دالاس فى كتابه « حرب أم سلام » « تمكن لإفريقيه أن تغنى أوروبا الغربية كلها عن الاعتماد على موارد أوروبا الشرقية وآسيا . وهو هدف يجب أن يتحقق » .

ويقول جون جنتر فى كتابه « فى داخل أفريقيا » « إن إفريقية هى جبهتنا الأخيرة ، لقد فقدنا معظم آسيا . أما إفريقية فباقية . . إن إفريقيه هى أثمن غنيمة على الأرض . . مفتوحة كالفراغ وتكاد تكون محرومة من الدفاع الكامل » .

وقالت صحيفة « نيوز كرونيكل » البريطانيـــة « لقد أقامت بريطانيا إمبراطوريتين عظيمتين فى أمريكا والهند ثم فقدتهما . غير أنها ترى الآن أن ما لديها من الفرص يتيح لها أن تتطلع إلى إقامة إمبراطورية ثالثة فى إفريقية تكون أعظم إمبراطورياتها جميعاً » .

ويقول الكاتب الأمريكى والتر ولبانك فى كتابه « أفريقيا المعاصرة » « إن إفريقية أصبحت بمصادرها ومركزها الاستراتيجى — فى هذه المرحلة من الحرب الباردة — ذات أهمية حيوية للدفاع عن العالم الحر ؛ فإذا حدث أن أغلقت خطوط المواصلات الغربية فى البحر المتوسط . لأمكن نقل الرجال والمعدات بطريق الجو عبر إفريقية . أو بطريق البحر حول إفريقية — إلى المحيط الهندى والشرق الأقصى » .

يأمل الاستعماريون إذن أن تنجح مؤامرتهم فى الكونغو ليتخذوا منـــه قاعدة لضرب حركات التحرر فى إفريقيـــة . وإخضاعها لاستغلالهم الاقتصادى . والإفادة من مركزها الاستراتيجى فى معارك الحرب الباردة والساخنة ؛ وبذلك يضربون (ثلاثة عصافير بحجر واحد) . .

غير أنهم يقدرون . . فتسخر الأقدار .

الظروف السياسية المعاصرة في الكونغو

للأستاذ محمد رضوان محمد

على الرغم من أن أزمة الكونغو كانت تشتد أحياناً ، فى الشهور الأخيرة إلى درجة بالغة الخطورة . إلا أنها لم تصل إلى مثل ما وصلت إليه حالياً من التأثير الشديد فى الرأى العام العالمى بعد أن تحققت السياسة المرسومة منذ أول الأمر للفتك بحرية الكونغو . ووحدته . والتى أدت فى نهاية المطاف إلى اغتيال « لومومبا » الرئيس الشرعى للحكومة والمؤيد من البرلمان والشعب .

والواقع أن مصرع « لومومبا » بهذه الصورة التى هزت الرأى العام ، كان بمثابة حلقة من الحلقات التى رسمها الاستعمار فى الأيام الأخيرة للتخلص من الزعماء الإفريقيين المخلصين وتجدر الإشارة إلى أن إعلان عملاء الاستعمار فى الكونغو ، أن وفاة « لومومبا » ليست إلا مسألة داخلية لا تهم إلا الكونغو وحده يذكرنا بموضوع اغتيال فيلكس مومى — الزعيم الكاميرونى الكبير — عند ما أعلن على أثر مصرعه مسموماً فى سويسرا فى نوفمبر الماضى بأنه لم يهتد إلى الفاعل .

وعند ما انتهز الاستعماريون هذه الفرصة فأخذوا يرددون أن انتهاء أحد الطرفين المتنازعين فى الكاميرون قد يكون من شأنه إنهاء الخلافات الداخلية بين شطرى الشعب .

ولا شك أن جريمة إراقة دم « لومومبا » تقع على سلطات الاستعمار التى لم يكن عملاؤها فى الكونغو إلا مجرد أدوات فى يدها . وأن سلطات الأمم المتحدة قد خانت رسالتها فتهادنت مع الاستعمار وأدواته إلى درجة زعزعت هيبتها . وأصبحت معها لعبة فى معركة الإبادة التى شنها الاستعماريون على شعب الكونغو . ولو أخذ برأى أنصار همرشولد القائلين بأن موضوع الكونغو قد تعقد عليه حله وألا دخل لسوء النية فيه . فإنه ليستوى فى نظرنا . ونظر الرأى العام العالمى أن يكون همرشولد عاجزاً عن حل قضيـــة الكونغو — كما يقول أنصاره — أو أن يكون شريكاً فعالا فى المؤامرة — كما يقول الآخرون —

وسنستعرض فيما يلى موجزاً لتطورات القضية فى الأمم المتحدة منذ الاجتماع

الأول لمجلس الأمن وكيف أن ثقة « لومومبا » فى الأمم المتحدة وحسن نيته فى جهودها أدت فى النهاية إلى مصرعه ومصرع الحرية فى الكونغو .

(أولا) : بعض التواريخ الهامة عند إعلان الاستقلال :

١ — أجريت خلال شهر مايو ١٩٦٠ — قبيل الاستقلال مباشرة — أول انتخابات نيابية فى الكونغو .

٢ — فى ٢٢ من يونية ١٩٦٠ انتخب كازافوبو أول رئيس للجمهورية وتشكلت أول وزارة وطنية برياسة « لومومبا » .

٣ — فى ٣٠ يونيه ١٩٦٠ أعلن استقلال الكونغو .

٤ — فى ٩ يولية ١٩٦٠ أعلن تشومبى الانفصال بمنطقة كاتنجا .

٥ — ثقة لومومبا بالأمم المتحدة دفعته لطلب معونتها فى ١٠ من يوليو ١٩٦٠ .

٦ — أعلن همرشولد فى اليوم نفسه قراره بتقديم المعونات الفنية والإدارية اللازمة .

٧ — فى ١٤ من يوليو ١٩٦٠ أعلن « لومومبا » قراره بقطع العلاقات الدبلوماسية مع بلجيكا .

(ثانياً) الاجتماع الأول لمجلس الأمن :

دعا همرشولد مجلس الأمن للاجتماع فى ١٣ من يوليه ١٩٦٠ وأصدر المجلس القرار التالى فى اليوم التالى بأغلبية ٨ أصوات وامتناع بريطانيا ، وفرنسا ، وفرموزا :

« يدعو المجلس حكومة بلجيكا إلى سحب قواتها من الكونغو وتخول للسكرتير العام اتخاذ الإجراءات اللازمة — بالتشاور مع حكومة الكونغو — لتزويد هذه الحكومة بالمعونة العسكرية بالقدر اللازم إلى أن تستطيع قوات الأمن الوطنية بوساطة جهود حكومة الكونغو ومعونة الأمم المتحدة من أداء واجباتها كاملة طبقاً لرأى هذه الحكومة » .

وعلى أثر هذا القرار بدأت تصل للكونغو القوات الدولية التابعة للدول المختلفة وكان من بينها قوات من الجمهورية العربية المتحدة والدول الإفريقية الأخرى .

(ثالثا) الاجتماع الثانى لمجلس الأمن :

وبالنظر إلى :

١ — تباطؤ بلجيكا فى إجلاء قواتها .

٢ — مواصلة « لومومبا » لاحتجاجاته على موقف بلجيكا من ناحية . وموقف عملاء الاستعمار فى الكونغو من ناحية أخرى .

٣ — رغبة همرشولد فى عرض تقريره الأول عن الكونغو .

فقد عقد مجلس الأمن اجتماعه الثانى بحضور مندوب عن الكونغو وأصدر المجلس بتاريخ ٢٢ يوليو

١٩٦٠ القرار التالى وقد صدر بالإجماع « يدعو المجلس حكومة بلجيكا إلى التعجيل بتنفيذ قرار المجلس الصادر فى ١٤ من يوليو ١٩٦٠ بشأن إجلاء قواتها وخول المجلس السكرتير العام السلطة لاتخاذ الإجراءات الضرورية لتحقيق ذلك كما يلتمس المجلس من جميع الدول :

أ ــ الامتناع عن أى إجراء يؤدى إلى تأخير استتباب الأمن وممارسة الحكومة الكونغولية لسلطتها .

ب ــ والامتناع عن أى إجراء يؤثر فى وحدة الكونغو واستقلاله .

(رابعاً) الاجتماع الثالث لمجلس الأمن :

وعلى أثر رفض تشومبى دخول القوات الدولية كاتنجا وتهديده بمقاومتها وبالنظر إلى مواصلة بلجيكا تلكئها فى سحب قواتها فقد عقد مجلس الأمن اجتماعه الثالث . حيث أصدر القرار التالى فى ٩ من أغسطس ١٩٦٠ بأغلبية ٩ أصوات وامتناع فرنسا وإيطاليا :

أ ــ تأكيد قرارى المجلس السابقين

ب ــ دعــوة حكومــة بلجيكا لسحب قواتها فى الحال طبقا للترتيبات السريعة التى يقررها السكرتير العام فى هذا الشأن .

جـ ــ ضرورة دخــول القوات الدولية إقليم كاتنجا .

د ــ القوات الدولية يلزم أن تظل بمنأى عن المنازعات الداخلية .

هـ ــ دعوة جميع الدول الأعضاء لتنفيذ قرارات المجلس .

و ــ دعوة السكرتير العام لتنفيذ القرار .

وكان أن دخلت القوات الدولية إقليم كاتنجا بتاريخ ١٢ أغسطس ١٩٦٠ بعد الاتفاق فى هذا مع تشومبى .

(خامساً) بدء الخلاف بين لومومبا وهمرشولد :

اتسعت شقة الخلاف بين الطرفين للأسباب الآتية :

١ ــ فسر « لومومبا » تأخر دخول القوات الدولية كاتنجا على أنه أمر مدبر لعرقلة مساعيه لوحدة الكونغو .

٢ ــ رأى « لومومبا » أن فى اتصالات مندوبى همرشولد بتشومبى ما يعنى الاعتراف الضمنى بتشومبى وموقفه .

٣ ــ اختلاف وجهات نظر الطرفين فى تفسير قرارات مجلس الأمن . وقد أصر همرشولد على أن هذه القرارات لا تعنى استخدام القوة لإخضاع كاتنجا وأنه ليس من حق القوات الدولية حماية ممثلى حكومة لومومبا أو تمكينهم من استعمال تسهيلات الأمم المتحدة فى وسائل النقل .

٤ ــ لوحظ أن هناك تفرقة فى معاملة الأمم المتحدة لقوات كل من لومومبا وتشومبى . وقد فسرت قرارات المجلس فى كثير من الأحيان لصالح

تشومبى ، وفى الوقت الذى حرم على حكومة لومومبا استخدام المطارات ودار الإذاعة سمح لحكومة تشومبى باستخدام مطارات كاتنجا .

٥ – لوحظ أن القوات الدولية تعمل على عزل الحكومة الشرعية عن العالم الخارجى وعن الاتصال بالشعب الكونغولى نفسه .

وكان أن أعلن « لومومبا » أن همرشولد متآمر – والقوات الدولية – مع كازافوبو فى الانقلاب الذى دبره الأخير لإقالته . كما صرح همرشولد أنه يعتبر كازافوبو السلطة الشرعيه فى الكونغو . وأن من حقه إقالة رئيس الوزراء .

(سادساً) الاجتماع الرابع لمجلس الأمن :

بالنظر إلى :

١ – استمرار التوتر فى الكونغو بسبب انفصال كاتنجا وكاساى .

٢ – تعدد الخلافات بين همرشولد و « لومومبا » على تفسير قرارات مجلس الأمن . فقد اجتمع المجلس فى ٢١ من أغسطس ١٩٦٠ وانتهت اجتماعاته بدون قرارات ، الأمر الذى اعتبر بمثابة موافقة من المجلس على وجهة نظر همرشولد فى تفسيره للقرارات السابقة .

(سابعاً) مؤتمر وزراء خارجية الدول الإفريقية فى ليوبولد فيل :

انعقد المؤتمر فى ليوبولد فيل فيما بين ٢٥ إلى ٢٩ أغسطس ١٩٦٠ ، واشترك فى الاجتماع السيد حسين ذو الفقار صبرى نائب وزير الخارجية وقد اختتم باستصدار عدة قرارات أهمها ما يأتى :

أ – المحافظة على استقلال الكونغو ووحدته .

ب – التنديد بأى انقسام أو انفصال يمكن أن يحدث فى جمهورية الكونغو .

جـ – تأييد الحكومة المركزية الشرعية

د – مناشدة الزعماء الكونغوليين المحافظة على وحدة بلادهم مع التعاون فيما بينهم .

(ثامنا) أحداث أوائل سبتمبر ١٩٦٠ :

على أثر اشتداد الخلاف بين « لومومبا » من جهة وبين كازافوبو والقوات الدولية وممثلى همرشولد من جهة أخرى فقد تطورت الحالة فى الكونغو إلى ما يأتى :

أ – أذاع كازافوبو – فى ٥ من سبتمبر ١٩٦٠ – بياناً تضمن إقالة لومومبا وتكليف إليو رئيس مجلس الشيوخ بتأليف وزارة جديدة .

ب – أذاع لومومبا فى اليوم نفسه بياناً تضمن أن قرار رئيس الجمهورية غير دستورى ، وأن مجلس الوزراء قرر عزل كازافوبو من رياسة الجمهورية ، وأن المجلس بالتالى سيتولى سلطات رئيس الدولة .

جـ – قرر مجلس النواب – فى

اجتماعه أثر ذلك – اعتبار كل من قرارى «لومومبا» وكازافوبو كأنهما لم يصدرا . وفسر همرشولد ذلك بأنه اعتراف من «لومومبا» بصحة قرار كازافوبو بعزله .

د – قرر مجلس الشيوخ الثقة بحكومة «لومومبا» .

هـ – عاد البرلمان بمجلسيه فقرر فى ١٢ من سبتمبر ١٩٦٠ تجديد الثقة بحكومة «لومومبا» .

(تاسعاً) الانعقاد الختامى لمجلس الأمن :

تمكنت أمريكا والدول الغربية من تأجيل انعقاد المجلس عدة مرات ، وعند اجتماعه فى ١٠ من سبتمبر ١٩٦٠ اختلفت أمريكا وروسيا بشأن تصرفات همرشولد والقيادة الدولية فتقرر إحالة الموضوع برمته إلى الجمعية العامة فى جلسة استثنائية تنعقد يوم ٢٠ سبتمبر ١٩٦٠ .

(عاشراً) الانعقاد الاستثنائى للجمعية العامة :

أصدرت الهيئة العامة قرارها الأول بشأن الكونغو متضمناً ما يأتى :

أ – تأكيد المجلس لقرارات مجلس الأمن السابقة فى ١٤ ، ٢٢ يوليو وفى ٩ من أغسطس ١٩٦٠ .

ب – اتخاذ السكرتير العام الإجراءات الفعالة لتنفيذها ، ومساعدة حكومة الكونغو لإعادة الأمن والاستقرار فى بلادها مع تأمين وحدتها وسلامة أراضيها .

جـ – دعوة جميع زعماء الكونغو لإيجاد حل سلمى لخلافاتهم الداخلية تأميناً لوحدة بلادهم .

* * *

ويمكن بذلك تلخيص موقف الأمم المتحدة من مشكلة الكونغو فيما يأتى :

١ – إن تدخل الأمم المتحدة فى الكونغو كان تلبية لطلب رئيس الجمهورية كازافوبو ، ورئيس الحكومة «لومومبا» وكان الطلب صريحاً يتضمن إخراج البلجيكيين من الكونغو مع تقديم المعونة الفنية والإدارية اللازمة .

٢ – إن كانت قرارات مجلس الأمن قد نصت على هذه الغاية ، إلا أن موقف همرشولد وقيادة القوات الدولية فى الكونغو من حوادثه الداخلية أدت إلى تدهور الوضع فى الكونغو ، وبالتالى فقد أدت إلى الإجراءات التى انتهت بمصرع «لومومبا» .

٣ – انحياز همرشولد والقيادة الدولية لجانب كازافوبو .

٤ – تحريم استخدام الإذاعة والمطارات على لومومبا .

٥ – تفسير همرشولد لقرارات مجلس الأمن بما يتفق مع الآراء المعادية «للومومبا» .

٦ – التراخى فى حسم موضوع انشقاق كاتنجا .

٧ — حماية كازافوبو وأتباعه والتعاون مع حكومة الانقلاب الذى قاده موبوتو .

٨ — موقف الهيئة الدولية تجاه تفسيرات همرشولد الأمر الذى اعتبر بمثابة تأييد ضمنى لهذه التفسيرات .

٩ — اقتراع الجمعية العامة للأمم المتحدة لصالح وفد كازافوبو لتمثيل الكونغو وكانت النتيجة ٥٣ صوتاً ضد ٢٤ صوتاً مع امتناع ١٩ .

* * *

وتجدر الإشارة إلى أن موقف الأمم المتحدة من ناحية . ومواقف الجهات الاستعمارية وعملائها من ناحية أخرى . ساعدت على تعدد وجهات نظر بعض الدول الإفريقية تجاه مشكلة الكونغو ، ويمكن بذلك تقسيم هذه المجموعة إلى فئات ثلاث :

١ — الفئة الأولى التى أجمعت على الاعتراف بحكومة « اومومبا » وعلى التنديد بأعمال موبوتو وجيشه .

٢ — الفئة الثانية وهى التى دفعتها مصالحها إلى مناصرة أعمال الأمم المتحدة وإجراءات مندوبيها فى الكونغو .

٣ — الفئة الثالثة وهى التى نادت بتأييد كازافوبو .

ولم تحد الجمهورية العربية المتحدة عن جانب الحق والعدل وسارت سياستها تجاه مشكلة الكونغو وفق المبادىء الآتية :

أ — المحافظة على استقلال الكونغو ووحدة أراضيه .

ب — مساندة حكومة لومومبا الشرعية .

جـ — استنكار تدخل القوات الدولية فى الشئون الداخلية للكونغو . وعدم تمشيها مع روح قرارات مجلس الأمن .

د — وربما كان أروع القرارات التى اتخذتها حكومة الجمهورية العربية المتحدة اعترافها فى التو والساعة بحكومة انطوان جيزنجا كحكومة شرعية فى الكونغو وما تم تنفيذه بالفعل من افتتاح مكتب فى القاهرة لحكومة جيزنجا وآخر فى ستانلى فيل لحكومة الجمهورية .

* * *

ولا شك أن فى هذه الثورة العارمة التى اجتاحت بلاد العالم وشارك فيها رؤساء الحكومات المتحررة . وزعماء الحياد الرأى العام العالمى غضبته لهول الجريمة التى ارتكبت ضد شعب الكونغو ، ووحدته ، أبلغ الدلالة على أن الأذناب والعملاء قد تضافروا لخدمة الاستعمار ومصالحه مؤيدين فى ذلك بالموقف الذى وقفته الأمم المتحدة وقواتها فى غير جانب المنطق والعدل .

وإذا بدا لعملاء الاستعمار فى الكونغو أنهم بتخلصهم من « لومومبا » يكونون قد مكنوا لأنفسهم من حكم الكونغو فى ظل مصلحتهم الخاصة . والمصالح الاستعمارية الأخرى فقد خاب فأل من افترى وستظل روح « لومومبا » ترفرف فوق الكونغو مرشدة وهادية .

وما حرقوه وما ذبحوه . . .

مشكلة رواندا أورندى

فى قلب القارة الإفريقية حيث يدور رحى صراع عنيف بين القوى الطاغية التى درجت على سلب الحريات وبين الشعوب التى آمنت بالحرية — برزت مشكلة رواندا أوروندى لتأخذ لها مكاناً بين الأحداث التى تمر بها هذه القارة الصاعدة . .

فلقد بقيت رواندا أوروندى : هاتان المملكتان اللتان تقعان فى منطقة البحيرات العظمى ٤٠ عاماً تحت الوصاية البلجيكية . وفى طيلة هذه الأعوام كان الاستعمار البلجيكى يقدم الوعود تلو الوعود بمنح شعبها الحكم الذاتى ولكنها كانت — دائماً — مجرد وعود كاذبة . وزادت محنة شعب رواندا أوروندى بعد أن نال الكونغو استقلاله . إذ أن بلجيكا نقلت ميدان نشاطها الاستعمارى إلى هذا البلد . والاستعمار بذلك يعد نفسه ليدخل من جديد فى شئون الكونغو عبر إقليم كيفو . المجاور لرواندا أوروندى . وأخذ المستعمر يحيك المؤامرات ضد الشعب لكى يضمن بقاءه فى المنطقة . . وكانت سلسلة طويلة من المؤامرات ومن الأفعال الوحشية . . أولها موت ملك رواندا أوروندى فى ظروف غامضة . وتلى هذه الجريمة مؤامرات لا تقل بشاعة عنها وهى : إثارة حرب القبائل . حرق القرى التى كان وقودها جثث الوطنيين ، والقبض على ألوف الشباب الثائر والزج بهم فى السجون والمعتقلات ، ونفى عدد كبير من قادة الحركة الوطنيـــة ، والسعى لتفكيك وحدة المملكتين التزأمتين . .

فبهذه السياسة حطمت بلجيكا كل ما نص عليه ميثاق الأمم المتحدة ، وتجاهلت كل الالتزامات المفروضة عليهم فى اتفاقية الوصاية التى تستند إليها فى وجودها هناك : المساعدة عـــلى تكوين الأحزاب السياسية الوطنية . والموافقة على قيام مجلس وطنى ، وإعداد شعب رواندا أوروندى للحكم الذاتى الذى يليه الاستقلال الوطنى .

وبعـــد سنين طويلة مـــن حكم الإرهاب استطاع الزعماء الوطنيون أن يخترقوا النطاق الحديدى الذى فرضته بلجيكا على هذه المنطقة ، وأن يعرضوا قضيتهم على الرأى العام العالمى ممثلا فى هيئة الأمم المتحدة . وناقشت الجمعية العامة — فى دورتها الحالية — تلك القضية وقررت بحث تحديد موعد إجراء الانتخابات فى رواندا أوروندى فى أثناء انعقادها فى مارس القادم .

وقدم « مايكل راجاسانا » سكرتير

حزب الاتحاد القومى عدة طلبات للجنة الرابعة التى أرسلتها الأمم المتحدة إلى رواندا أوروندى لتقديم تقرير عن الحالة هناك ، ويعتبر تنفيذ هذه الطلبات الخطوة الأولى للقضاء على الاضطرابات السياسية التى تجتاح المنطقة ، والتى سوف تمكن البلاد من أن تخطو نحو الاستقلال فى جو يسوده الهدوء والسلام .

وهذه الطلبات كما يلى :

١ — تدخل الأمم المتحدة المباشر للمساعدة على الاحتفاظ بوحدة المنطقة

٢ — عفو شامل عن الزعماء السياسيين .

٣ — إلغاء معتقلات نياماتا والمعتقل الجديد الذى أنشئ حديثاً فى ضاحية كيونجو .

٤ — إعادة توطين اللاجئين وتعويضهم عن ممتلكاتهم .

٥ — سحب جميع القوات البلجيكية المرابطة فى رواندا أوروندى ، وتصفية قواعدها العسكرية .

٦ — حل الجمعيات التى شكلت أخيراً ، والحكومات المعينة من قبلها .

٧ — قيام الأمم المتحدة بإجراء انتخابات ديمقراطية عامة للبلديات وللأمة بقصد تشكيل جمعيات ينتخبها الشعب ، على أن تجرى هذه الانتخابات فى مايو أو أوائل يونيو .

٨ — تحديد الدورة الخامسة للجمعية العامة للأمم المتحدة موعداً لاستقلال رواندا أوروندى بحيث يعلن الاستقلال بمجرد انتهاء الانتخابات العامة .

٩ — إلغاء جميع التدابير السياسية والإدارية وغيرها من التدابير التى اتخذت لعرقلة حركة الاتحاد بين رواندا وأوروندى .

١٠ — إرسال لجنة سياسية من الأمم المتحدة تكون مهمتها السير بهذه المنطقة نحو الاستقلال .

١١ — عودة موامى كيجرى الخامس إلى بلاده .

١٢ — قيام الأمم المتحدة بتنظيم لمؤتمر المائدة المستديرة على وجه السرعة يضم جميع زعماء الأحزاب السياسية فى رواندا أوروندى وذلك لتحقيق وفاق وطنى حقيقى .

ولقد وضعت رواندا أوروندى قصة كفاحها أمام مؤتمر الدار البيضاء بجوار قصص الكفاح الإفريقية الأخرى وأعلن أقطاب إفريقية على العالم أنهم يحملون مسئولية منح هذه الشعوب حريتها .

إنه الزمن الذى يتطور بسرعة فى هذه القارة وإذا كانت القارات الأخرى كتبت قصص كفاحها فى قرون عديدة فإن هذه القارة إنما تكتب تاريخ كفاحها الحافل فى سنين قليلة .

هـ . هـ

من وحي أفريقية

«أزهار لومومبا»

للأستاذ : عبده بدوى

(ذكرى لقاء مع أبناء لومومبا . . بياتريس فرانسو . جوليانا . . ففى هذا اللقاء قال لى « فرانسو » ما أخبار الكونغو ؟)

كانوا أزهاراً حالمة ... خفقت للقائى تحنانا . . .
« فبياترس » رفرف فى كتفى ... وبجنب « فرانسو » « جوليانا »
وحديث أقطعه حينا ... ليعود وديعا . وسنانا
وحنين طفل ذوبنى ... فبكيت دموعا . وحنانا
وسؤال قام يحاصرنى ... وأنا أتضاحك أسوانا
عزفته ستة أهداب ... تبكى آنا . . تشدو آنا
قالوا « . . قد ودعنا الكونغو ... ودعنا بالشوق أبانا
وحنانا من أم كانت ... تسقينا حبا . . ترعانا
والسور . . وأحواض زهور ... وطيوراً تملأ دنيانا
والغاب رهيبا ممتدا ... والشعب يغنى فرحانا
وجنودا تحمى جنتنا ... من مصر . وحينا من غانا
حدثتنا لا تترك قلبا ... – والماء بكفك – عطشانا ! »

فاهتاجت أيام حياتى ... وأخذت أحدق حيرانا
أأقول لهم إن لومومبا ... قد فارق يوما دنيانا ؟
والأم توارت فرحتها ... فغدت تمثالا غضبانا

والسور تهدّم . . والأزها ر ذوت.. والطير اغرورق أشجانا
والبيت انهارت وقفته باباً . . ردهات . . أركانا !
أأقول لهم إن الكونغو لم يصبح للشعب مكانا ؟
أأقول – وهزت أعماقي همسات طافت ألحانا –
هو صوت « فرانسو » يجذبني من نفسي دمعا حيرانا
ويقول فتضحك مقلته وتغيم بدمع أحيانا
« . . لا تجهد نفسك إن أبي سيعيد إلينا الوديانا
سيعيد لأعشاش الكونغو الطير الأزرق لهفانا !
سيمد على كل حياة من فيض يديه بستانا
سيردُّ إلى الغاب بنيه وإلى الحرية إنسانا !
. . الريشة لم تترك يده فاسمع في الأفق الألوانا
والبذرة بين أنامله ما زالت تحمل نيسانا ! »

وإذا بالحزن يدكُّ غدي والدمع يهزُّ الأجفانا
و « بياترس » غاف في كتفي وبقرب « فرانسو » « جوليانا »

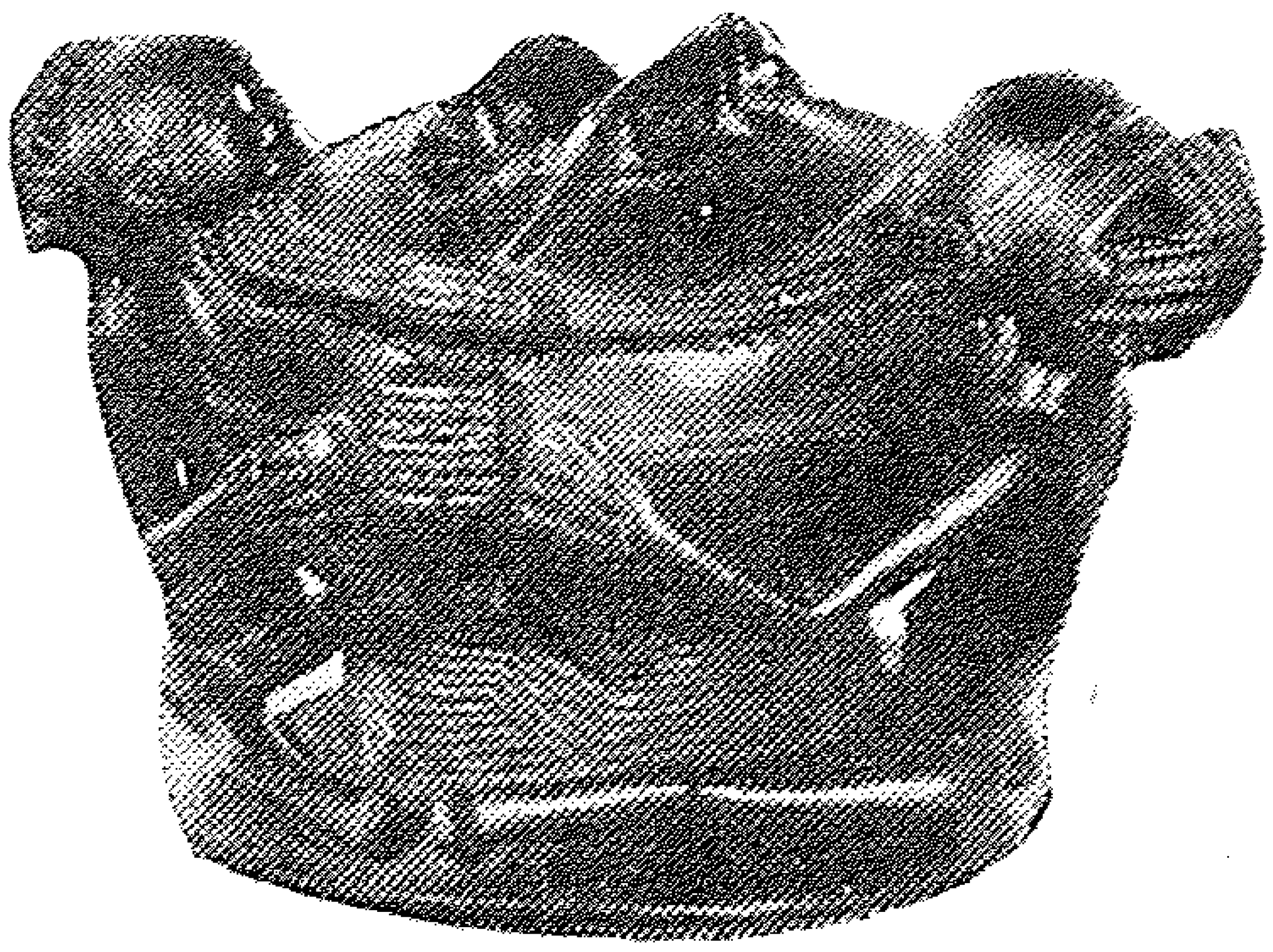

جولة مصورة حول

« لومومبا بين عواطف الشعب »

« لومومبا يسحر المواطنين بخطبه »

« لومومبا يطل على الشعب »

« مواطن يحيي لومومبا بكلمة تاتا كوموز الاسيلي »

« لومومبا فى واحد من مواكبه الشعبية التى

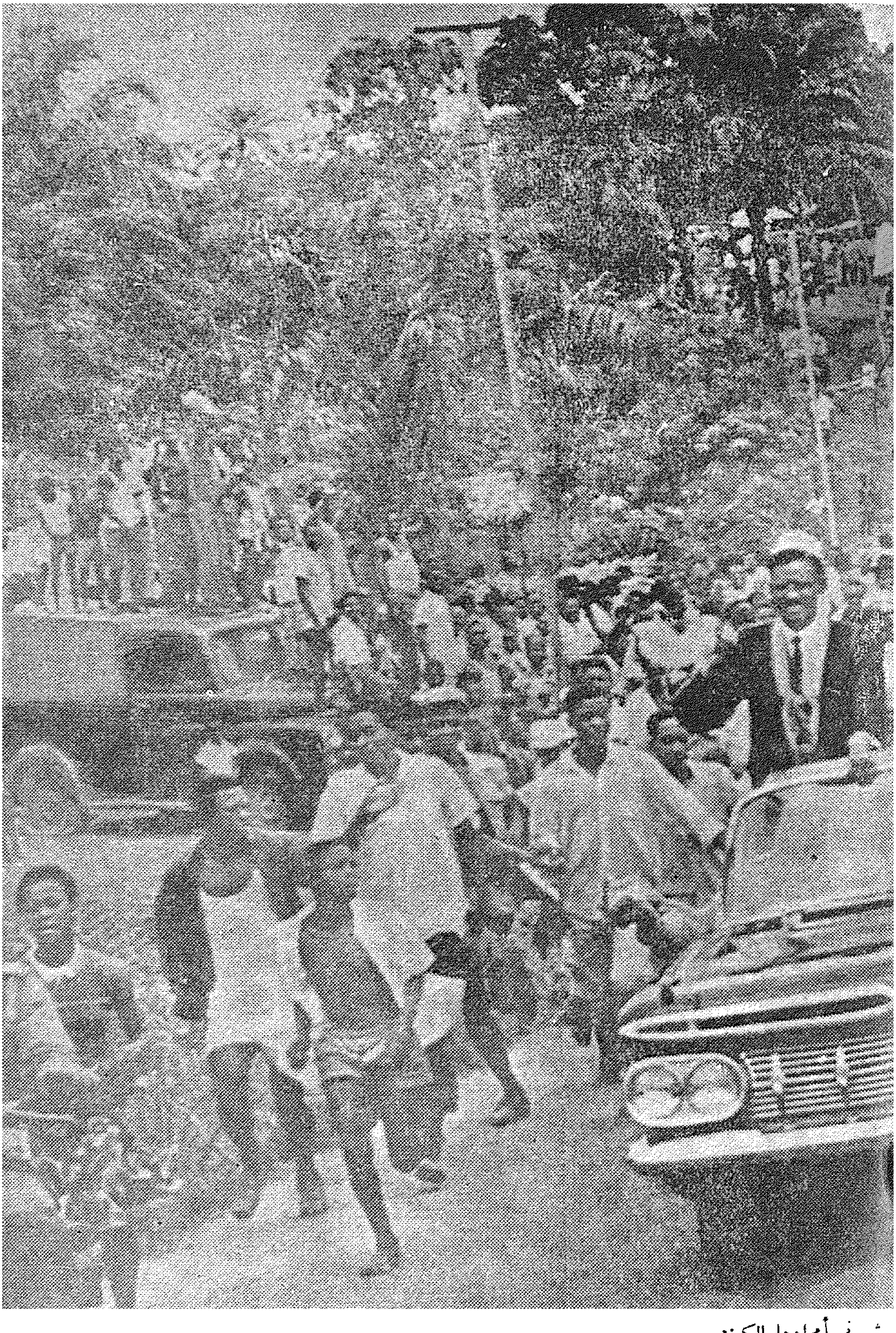

ثـ فى أمجادها الكونغو »

« بياترس الإبن الأكبر للومومبا »

« جوليانا وعروستها »

« الأستاذ عبد العزيز وصفى ومن حوله أبناء لومومبا الثلاثة »

ماذا بعد قتل لومومبا ؟

إن أصوات الجماهير التى كانت تحيي لومومبا وكفاحه ، وتدق بعنف فوق قلوب القتلة ، والتى لم يخل منها بلد محب للحرية ، قد تجمعت كلها فى القاهرة ، والتفت حول أولاده الذين يعيشون بها ، وانبثق فى أعماقها سؤال هو « ماذا بعد قتل لومومبا ؟ » وقد كان المؤتمر الذى عقد فى القاهرة فى ١٥ - ٢ - ١٩٦١ إجابة على هذا السؤال . .

فقد افتتحه « كمال الدين حسين » بالكلمة الآتية :

إنه ليحق لكم أنتم أبناء الجمهورية العربية أن تتكاتفوا مع إخوانكم من أبناء شعب الكونغو . إنه يحق لكم أيها الإخوة أن تقفوا بجانب إخوانكم ، بل ويجب عليكم أن تقفوا معهم صفاً واحداً . إن الاستعمار بعد أن فشل فى معركة قناة السويس أمام جبهتكم المتحدة أراد أن يجرب حظه فى مكان آخر من قارتنا الإفريقية ، فأراد أن يرهب شعب الكونغو فقام بقتل لومومبا . إنهم قتلوا لومومبا ، ولكن لن يمكنهم أن يقتلوا روح لومومبا . إن روح شعب الكونغو لن تموت أبداً . إن هذه الكلاب المسعورة .. كلاب الاستعمار فى إفريقية يجب أن تخرج ، وستكون صيحتنا اخرجوا أيها الذئاب المستعمرة

وقال : إن لومومبا لم يمت أبداً ولن يموت أبداً ، فهو يمثل مبادئ وعقيدة ، ولا بد أن تزيد قضية هـذه المبادئ وضوحاً باستشهاد بطل مثل لومومبا . . .

وقال : إن أسفنا عند ما نجتمع هنا الآن . أسفنا على هذه الكارثة التى حلت بالضمير العالمى . . . على هذه الكارثة التى حلت بضمير الإنسانية حينما تتواطأ قوى الأمم المتحدة . . . والأمم المتحدة حينما تتواطأ مع الاستعمار كى تقدم على هذه الجريمة البشعة التى نراها اليوم ليست الجريمة فقط — جريمة قتل لومومبا — ولكنها جريمة قتل شعب الكونغو ، ووأد الحرية فى الكونغو ، وفى كل بلاد آسيا وإفريقية . ولم يكن هذا غريباً ، أيها الأخوة المواطنون .

إن الرئيس جمال عبد الناصر ، كان يتوقع هذا . . إن الرئيس جمال عبد الناصر قد أنذرهم فى الأمم المتحدة وقد حذرهم فى الأمم المتحدة . وأنه — ببعد نظره — كان يرى هذا المصير الذى يمكن أن تصل إليه قضية الكونغو إذا لم تتخذ الأمم المتحدة قرارات لتنفذها

وخطوات حازمة لتنفذها .. وإنى لأعيد على مسامعكم نص ما قاله الرئيس جمال عبد الناصر بخصوص الكونغو فى الأمم المتحدة فى دورتها الماضية ، قال :

« وتشهد القارة الإفريقية اليوم بداية صورة جديدة من صور هذا الاستعمار ، وكانت السويس نهاية الاستعمار السافر المسلح ومغبرته ..

« .. واليوم نجد أن فى الكونغو بداية الاستعمار المقنع ، الذى لا يتورع حتى عن محاولة استغلال الأمم المتحدة ذاتها شعاراً يخفى وراءه مطامعه ويقوم من خلف ظهره ، بمناوراته ، لتحقيق أغراضه ، ولكن .. ولقد كان المعنى الحقيقى لحرب السويس ، بالنسبة للحركات التحررية فى آسيا وإفريقية إنه قد مضى ذلك العهد الذى كانت القوى الاستعمارية تملك أن تحشد الجيوش فيه وتوجه الأساطيل إلى ضرب حركات التحرر ، لقد أثبتت حرب السويس ، أن الحرية لها أسلحتها ، وأن الحرية لها أصدقاؤها فى كل مكان . ولقد تصور الاستعمار أن تيار الحرية ثورة عاطفية تترك شعلتها إلى مداها حتى يفرغ وقودها ، فإذا هى تنطفئ . وكانت التجربة التى واجهها شعب الكونغو الحر . وإننا لنسانده فيها ، ونناصره ، أن يثبت للاستعمار أنه إذا كانت الحرية بسلاحها ، وأصدقائها قادرة على الدفاع عن نفسها ضد العدوان المسلح ، كما حدث فى السويس ، فإن للحرية فكرها ووعيها وأنها لتقدر على أن تكشف وجه الاستعمار من وراء الأقنعة التى يتستر بها ويتوارى وراءها ..

على أن الخطر الأكبر الذى يواجهه شعب الكونغو ، وواجهناه معه ، هو أن الاستعمار يحاول اليوم أن يتخذ من الأمم المتحدة أحد أقنعته .

هكذا وجدنا للمحاولة الاستعمارية فى الكونغو ضحيتين .. شعب الكونغو والأمم المتحدة .. ومن أجلهما الآن ، وما يواجهان من خطر ، نناشد الذين يؤمنون بالحرية وبالأمم المتحدة طريقاً إلى تقرير المجتمع الإنسانى ، أن يقفوا صفاً واحداً للدفاع عنهما معاً ..

ولقد ذهبت الأمم المتحدة إلى الكونغو بدعوة من حكومة الكونغو الشرعية ، وليدة يوم الاستقلال وثمرته لتحقق هدفين : أولهما حماية استقلال الكونغو ، وثانيهما صيانة وحدته الوطنية .. وكانت حماية الاستقلال تستهدف إجلاء جنود الاستعمار .. وكانت صيانة الوحدة الوطنية تستهدف إزالة الحواجز الصناعية التى حاول الاستعمار بواسطة أعوانه أن يمزق الوطن الواحد ويفرقه ..

ونسأل أنفسنا الآن ماذا حدث .. نسأل أين هو الاستقلال فى الكونغو ؟

والجواب أن الاستعمار بجنوده ، وسلاحه مازال فى أجزاء من الكونغو ..

ونسأل وأين هى الوحدة الوطنية ؟

والجواب أنه من المفارقات المروعة أن حكومة الكونغو الشرعية الوطنية تواجه المصاعب ، بينما جماعة التمرد التى يحركها الاستعمار هى وحـــدها المستقرة فى كاتانجا . . وإنه لتدهور فى الموقف خطير . . ولكن الخطر الأكبر أن ذلك كله حدث وعلم الأمم المتحدة يرفرف فوق الكونغو . . كيف حدث ذلك ؟ ومن المسئول عنه ؟

تلك أسئلة من حقنا هنا ، بل من واجبنا أن نجد الإجابة عنها ، لا من أجل شعب الكونغو وحده وإنما أيضاً من أجل الأمم المتحدة ومن أجل شرف علمها ، ولسوف يتبقى بعد ذلك كله سؤال ، كيف نواجه الموقف ؟

والجواب فى رأى الجمهورية العربية المتحدة أنه لا بد أن تعود الأمور سيرتها الأولى . . إن تصحيح الخطأ يقتضى الرجوع إلى ما قبل نقطة بدايته » .

وقال كمال الدين حسين :

هذه أيها الاخوة المواطنون هى الكلمات الواعية ، الكلمات التى نطق بها رائدكم ورئيسكم جمال عبد الناصر فى هذا الوقت . . إنه كان بهذه الكلمات.

ليس المجرم فى هذه الجريمة هو تشومبى أو كازافوبو أو غيرهما من الخونة العملاء فى الكونغو فحسب ، ولكن هؤلاء أقل المجرمين شأناً ، وأحقرهم نفساً ، ولكن المجرم الحقيقى هو الاستعمار . . الاستعمار بكافة أنواعه وأشكاله . . استعمار بلجيكا ، واستعمار فرنسا واستعمار إنجلترا ، واستعمار أمريكا . . كل القوى الاستعمارية مجرمة فى حق شعب الكونغو ، ومجرمة فى حق كل الشعوب التى تريد الحرية .

ثم تكلم بعد ذلك مندوب الكونغو « ارسان يوجى » سكرتير أول وزارة الشباب بحكومة لومومبا ، فتدفق فى الحديث عن القضية التحررية فى بلاده ، وموقف الخونة من هذه القضية ، وأن « لومومبا » حياً أو ميتاً سيظل دائماً رمزاً للتحرر لا فى الكونغو فقط بل فى كل إفريقية ، وأنه لن يكون بعد مقتل لومومبا سوى انتصار المبادئ التى نادى بها ، والتى راح ضحيتها .

وبعد أن تعاقب الخطباء أعلنت القرارات الآتية :

١ — يعلن المؤتمر تأييده الكامل ومساندته لكفاح شعب الكونغو فى سبيل استقلال ووحدة أراضيه وأن يناضل ضد الاستعمار بكامل إمكانياته حتى تتخلص الشعوب من سيطرته البغيضة .

٢ — يعلن المؤتمر سخطه واستنكاره للدور الحقير الذى لعبه الاستعمار وعملاؤه ضد شعب الكونغو ، ويندد بموقف الدول الاستعمارية التى تآمرت

مجتمعة ضد استقلال الكونغو وهى بلجيكا وفرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة ، ويحمل هذه الدول مسئولية خلق العملاء . . كازافوبو ، وتشومبى ، وكالونجى ، وموبوتو الذين ارتكبوا ضد الكونغو واستقلاله ووحدته أكبر الجرائم .

٣ — يستنكر المؤتمر العمل الإجرامى الذى ارتكبه العملاء الاستعماريون ويحيي البطل الشهيد ويؤكد للعالم أن موت لومومبا سيزيد النضال فى سبيل الحرية قوة وامتداداً .

٤ — يستنكر المؤتمر موقف الأمم المتحدة الذى اتخذ منها الاستعمار مطية لتنفيذ أغراضه .

٥ — يندد المؤتمر بالدور الإجرامى الذى قام به همرشولد ويطالب بعزله والتحقيق معه .

٦ — يطالب المؤتمر بإزالة الحكومات العميلة فى الكونغو فوراً ونزع السلاح من المرتزقة وبتمكين برلمان الكونغو من مواصلة أعماله . .

٧ — يدعو المؤتمر حكومات إفريقية إلى الاعتراف بحكومة ستانلى فيل التى يرأسها جيزنجا . ويطلب إلى جميع الشعوب الإفريقية أن تأخذ مكانها الحق بين أعضاء الأمم المتحدة وتقديم المساعدات المالية وغيرها لها . حتى يتحقق لشعب الكونغو حقه الكامل فى التحرر الكامل ووحدة أراضيه .

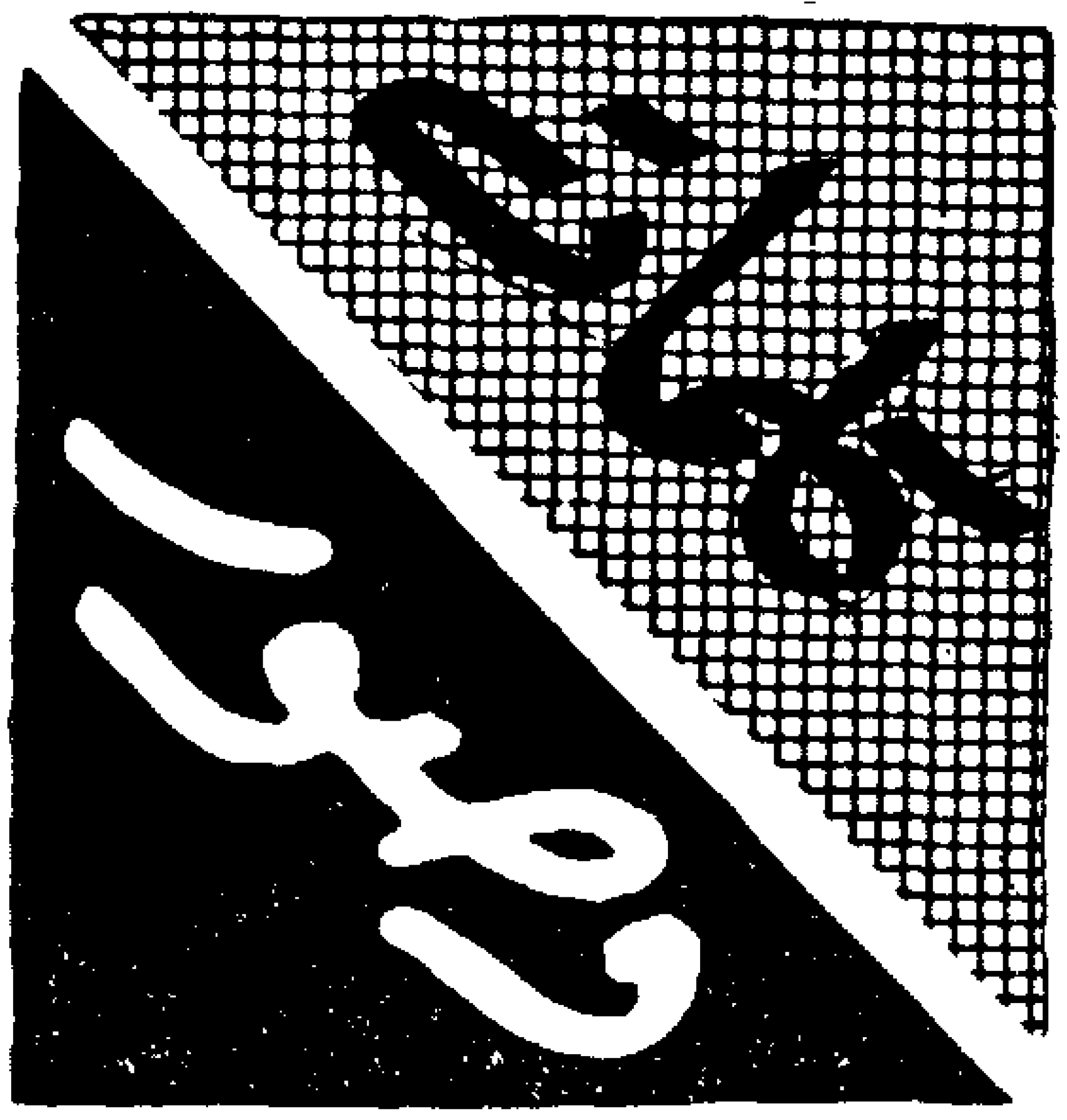

صدى الحادث فى الجمهورية العربية المتحدة :

لقد روع العالم كله لهذا الحادث الإجرامى الخطير الذى تم تحت سمع الأمم المتحدة ، وهيبتها ، ورجالها المسلحين ، ذلك لأن الرجل الوطنى الذى حمل أعباء الحرية من سجن ، ومطاردة ، وتعذيب ، وقتل هو الذى ذهب ضحية للخيانة فى الخارج ، والرجعية فى الداخل ، فقد انتهز الاستعماريون الفرصة ، ووضعوا فى ذهن تشومبى وكالونجى أن الاستقلال والوحدة سيقضيان على ثروات المناجم الضخمة فى كاتنجا ، وكاساى .

ثم ذكروا لكازافوبو أن نجمه السياسى بدأ يأفل بجوار نجم «لومومبا» الثابت الضوء ، العميق الأشعة ، وأنه لكى يلمع نجمه لا بد أن يقوم بعمل يؤكد وجوده ، ويحفظ عليه مهابته بين قبيلته من « الأباكو » ، ويحفظ عليه الثروات الضخمة التى يتلقاها من الشعب ، وممتلكاته المتعددة ، كما ذكروا له أن منصب رئاسة الجمهورية ليس جديراً به وأنه منحه منحاً من « لومومبا » حين فاز حزبه بالأغلبية ، وأن الجدير به أن يكون « ملكاً » للكونغو . . عادوا به إلى حلمه القديم بإقامة « ملك » للأباكو ، ثم دفعوا إلى الميدان بموبوتو ، ومن ورائه المال والسلاح ، ثم اكتملت الحلقة بالموقف المشين الذى وقفته الأمم المتحدة من « لومومبا » ، وكان أن تمت عملية « القتل » البشعة التى تعتبر عار القرن العشرين ، ومحنة الضمير العالمى .

. . وقد أزعج كل هذا الجمهورية العربية المتحدة التى ساندت قضايا الحرية فى هذه البلاد ، ودفعت بأبنائها إلى هناك ، ثم سحبت هؤلاء الأبناء حين تأكدت من خيانة الأمم المتحدة لقضية العدالة فى الكونغو .

وكان أن أعلن الدكتور عبد القادر حاتم وزير الدولة أن الجمهورية العربية المتحدة تلقت بالحزن العميق نبأ مقتل الزعيم الوطنى لومومبا ، وأن الرئيس « جمال عبد الناصر » كان تأثره بالغاً عند ما رفع إليه هذا النبأ وفيما يلى نص البيان الذى أذاعه الدكتور عبد القادر حاتم :

لقد تلقت الجمهورية العربية المتحدة بالحزن العميق نبأ الجريمة الوحشية التى أغتيل فيها زعيم الكونغو الوطنى ورئيس حكومته الشرعية . .

ومع أن النبأ كان متوقعاً منذ

أذيعت تلك الروايات الملفقة عن هرب باتريس لومومبا من السجن الذى كان معتقلا فيه . . والتى كان واضحاً أنها لم تكن أكثر من ستار من الدخان لتغطية الحقيقة المروعة . .

فإن توقع النبأ وانتظاره لم يخفف من الصدمة التى شعرت بها الجمهورية العربية المتحدة . . التى كان شعبها يتابع فى إعجاب فائق كفاح هذا الزعيم الوطنى المناضل . .

ولقد ضاعف من هذه الصدمة ما جاءت به الأنباء حول الطريقة المجرمة التى ارتكب بها هذا العمل الشائن والقسوة المخيفة التى تم بها .

ولقد رفع النبأ فور وصوله رسمياً للقاهرة إلى رئيس الجمهورية وقد كان تأثره بالغاً وكانت وجهة نظره . .

« أن جريمة قتل باتريس لومومبا سوف تؤرق الضمير الإنسانى كله لأنها مسئوليته . . فقد تمت محاولة اغتيال استقلال الكونغو كوطن . . ثم تمت بالفعل جريمة قتل لومومبا كإنسان . . وكزعيم لهذا الوطن . . بينما كانت الأمم المتحدة التى كانت ثمرة نضال الشعوب من أجل الحرية والاستقلال والتى كانت صورة الضمير الإنسانى فى سعيه إلى مثله الأعلى موجودة فى الكونغو وبينما علمها يرفرف على هذه القطعة من إفريقية التى تنزف اليوم أغلى دمها .

وتشعر الجمهورية العربية المتحدة بإخلاص ، أن تبعة دم باتريس لومومبا تقع على سلطات الاستعمار التى لم يكن عملاؤها فى الكونغو كمويس تشومبى إلا مجرد أدوات فى يدها ، وتشاركها فى ذلك سلطات الأمم المتحدة فى الكونغو . . التى خانت منذ البداية رسالتها . . وتهاونت مع الاستعمار ومع أدواته حتى أصبحت مجرد لعبة فى المعركة المميتة التى شنها الاستعمار على شعب الكونغو ليضرب استقلاله الوليد ويغتال قادة هذا الاستقلال ورواده .

وقد كان هذا المصير هو . . مع الأسف نفس المصير الذى حاولت الجمهورية العربية المتحدة بكل قواها منذ اليوم الأول لمهمة الأمم المتحدة فى الكونغو ، ثم خلال دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة فى نيويورك التى شارك فى أعمالها رئيس الجمهورية العربية المتحدة ، ثم بعدها حتى مؤتمر الدار البيضاء . . أن تنبه إليه وتحذر من عواقبه وكان يدفعها إلى ذلك إيمانها بمستقبل الحرية فى إفريقية وحرصها على ميثاق الأمم المتحدة ومبادئها .

ولقد كان إصرار الجمهورية العربية المتحدة على سحب قواتها من الكونغو إجراء أرادت منه الجمهورية العربية المتحـــدة أن يكون نذيراً للاحتمالات المظلمة الخطيرة التى يمكن أن تترتب على المغامرات الاستعمارية المجنونة فى الكونغو ، ولكن الاستعمار

وصل بالجنون إلى مداه ، وأقدم على اغتيال باتريس لومومبا .

وتشعر الجمهورية العربية المتحدة أن اغتيال لومومبا لن يكون نهاية النضال الحر فى إفريقية ، وإنما سيكون بداية لمرحلة جديدة فى هذا النضال وما كان لومومبا إلا جندياً فى زحف الحرية الإفريقية .. ولسوف يدرك الاستعمار أن حيوية النضال من أجل الحرية قادرة على أن تضع فى المعركة بدل الجندى الذى سقط بالأمس كتائب لا حصر لها من جنود الحرية .. سيكون باتريس لومومبا وما يمثله من المعانى والقيم علماً تصل به إلى غايات النضال التى تريدها الشعوب الحرة .

.. وقد توجت هذه المساندة الإنسانية بالاعتراف بحكومة أنطوان جيزنجا ، وبالرسائل التى تبودلت مع دول مؤتمر الدار البيضاء ، وبافتتاح مكتب سياسى فى القاهرة لحكومة جيزنجا ، وافتتاح مكتب آخر للجمهورية العربية المتحدة فى « ستانلى فيل » .

رأى الصحافة :

لقد أحست الجمهورية العربية المتحدة أن مقتل « لومومبا » هو مقتل للحرية فى الكونغو ، وأن هذه الجمهورية الحديثة الاستقلال ستتغلب على كل الصعاب ، وستستعيد الثقة بنفسها ، ثم تقف ثانية لتنادى بكل المبادئ التحررية التى نادى بها لومومبا ، وراح ضحيتها فى الوقت نفسه .. فالراية لم تسقط من يد « لومومبا » حينما قتل وإنما تلقتها يد أخرى قبل أن تمسها أكف الخونة .. تلقتها يد « جيزنجا » الذى عاش مع لومومبا فى كل كفاحه ، ثم سار على الطريق الذى شقه له ، ومهما كانت الدماء التى تخضب هذا الطريق فإننا سنصل إلى الحرية التامة للكونغو ، ووحدته !

وفى ضوء هذا تحدثت الأقلام العربية ، وحاصرت الصحافة هنا كل قوى الظلام ، ورسمت الخطوط لمستقبل الكونغو ووحدته .

ومن أقوى الكلمات فى هذا المجال ، تلك الكلمة الإنسانية للأستاذ عبد المنعم الصاوى وكيل وزارة الثقافة والارشاد القومى تحت عنوان « قبر لومومبا .. فى القاهرة » بالأهرام ، والتى جاء فيها :

« المتآمر الصغير الذى أعلن أن الحكومة المزيفة فى الكونغو ، لن تكشف عن المكان الذى دفنت فيه جثة لومومبا ... نسى ، أن الدنيا كلها تعرف هذا المكان ، فى قلوب الأعزة الأحرار .

إن لومومبا لم يلق مصرعه فى أرض بعينها ، ولا فى مكان بعينه ، فمصير البطل أبداً ، ضمير الإنسان .

وهو هنا ، وفى الكونغو ، وفى فلسطين ، وفى الجزائر ، وفى عمان وفى كوبا ، وفى كل مكان ، تهفو

فيه نفس إلى العدل ، والكرامة ، والحرية وتتفاعل مع كفاح الأحرار من أجل الخلاص .

ولقــد كانت القاهرة أبداً ، وستستمر ، ملتقى الأحرار المضطهدين الهاربين من المأساة ، بما فى رؤوسهم ، من عقائد ، وما فى ضمائرهم من مبادئ ، وما فى قلوبهم من مشاعر الكرامة والشرف .

وكانت القاهرة أبداً ، وستستمر ملجأ عزيز المنال ، لكل صاحب رسالة ، أو عقيدة ، أو رأى .

فإن تكن نفوس الصغار فى الكونغو ، تخاف أن تعلن عن مكان مصرع لومومبا فليكن فى قلب القاهرة هذا المكان ، رمزاً لنضال الأحرار ، وتخليداً لأعز دم سال فى أرض القارة المناضلة .

ليكن هذا القبر فى القاهرة ، عاصمة الأحرار ، وقد قضت على الخوف ، مع ما قضت عليه من الرجعية والاستعمار .

وليصبح هذا القبر ، نداء يتردد فى أسماع الأجيال ، عن نضال الأحرار ودماء الأبطال ، وآمال الإنسان ، وكيف يفرض وجوده ، على قيود المؤامرة ، وعوامل الخيانة ، وبقايا الرذيلة .

وليصبح فى القاهرة ، للومومبا قبر ، يلخص معانى الصبر والإصرار . وأبناء ، يؤكدون معانى الأمل والرجاء » .

* * *

.. ومن هذه الكلمات المؤثرة كلمة الأستاذ كامل الشناوى بجريدة الجمهورية تحت عنوان « لا تبكوا .. انتقموا » ، والتى جاء فيها :

« قتلوا لومومبا . ذبحوه . دفنوه فى أرض مجهولة . ومع ذلك فإن لومومبا لم يمت . ولن يموت . فإنه لم يكن مجرد حاكم شعبى ، أو زعيم قومى . ولكن كان نبياً من أنبياء الحرية ، يدافع عن حق شعبه ضد كل قوى الاستعمار ببسالة ، وإصرار ، وإيمان . والنبى يموت جسداً . ويحيا رسالة .

وهكذا أصبح لومومبا .

إن الأرض المجهولة التى دفنه فيها أعوان تشومبى لم تحو جسداً . ولكن حوت كنزاً أثمن من كل ما يحويه تراب كاتنجا من كنوز التانجستين والأورانيوم

إن لومومبا رمز الكونغو ، الأسمر الغنى بالمواد الخام ، وتشومبى رمز الاستعمار الأوروبى الأبيض الذى يعيش على نهب خامات الكونغو ، فالصراع ليس بين لومومبا وتشومبى ، وإنما هو بين لومومبا والاستعمار .

والذى قتل لومومبا ليس جماعة من القرويين كما زعمت حكومة الخونة ، ولكن القاتل هو الاستعمار الأوروبى تمثله بلجيكا وفرنسا ... وبريطانيا وأمريكا ... بل تمثله الأمم المتحدة التى رابطت هناك بقواتها لتحمى الشعب من الاستعمار ، وإذا هى

تحمى الاستعمار من الشعب . . . .
ووقفت «تنسلى» برؤية لومومبا ، وأعداؤه من الخونة والعملاء يخطفونه ، ويقيدونه من يديه وقدميه . . . ويصفعونه على وجهه . ويزجون به فى السجن . ثم ينقلونه إلى بلدة نائية تتبع كاتنجا ، حتى يستطيعوا ذبحه فى أمان !

وبعد ما تمت المأساة .. تحرك ضمير همرشلد وطالب بتأليف لجنة دولية للتحقيق فيما حدث . . !

ودمعت عين أمريكا فى مجلس الأمن ، وناشدت شعب الكونغو ألا يلجأ إلى الانتقام حتى لا يتعرض للتمزيق !

ووصف مندوب بريطانيا ذبح لومومبا بأنه حادث قتل وحشى ! !

والقتلة الحقيقيون هم هؤلاء ، وحلفاؤهم ، إن الاستعمار ذبح لومومبا عند ما ذبحت الكونغو نفسها !

وإذا كان لومومبا نبياً فى كفاحه فإنه نبى فى تفكيره وشعوره .. فمنذ اليوم الأول من وصول قوات الأمم المتحدة إلى الكونغو ، توقع الكارثة من الرجل الأبيض ، ولو كان على صدره شارة الأمم المتحدة !

إن نضال لومومبا ، ووقفته وصموده . قد خنقت الرمق الأخير من أنفاس الاستعمار . ومن هنا كانت وحشية الاستعمار فى محاربة لومومبا . .

إن ثورة روسيا حسمت الموقف بالنسبة للاستعمار فى شرق أوروبا .

وثورة الصين طاردت الاستعمار فى شرق آسيا وجنوب شرق آسيا :

وثورة القاهرة قضت على الاستعمار فى الشرق الأوسط وامتد خطرها إلى إفريقية كلها .

وكان لومومبا ، يؤدى رسالة الخلاص من الاستعمار فى منطقة تلتهب ، وتتوثب . كان يواجه الاستعمار وحوله ثورات على الاستعمار فى كينيا ، وروديسيا الشمالية وأنجولا المستعمرة للبرتغال ، وجنوب إفريقية .

ولكن مصرع لومومبا ، إذا كان قد قضى عليه جسداً ، فقد أحياه مبدأ ، وروحاً ، وعقيدة ، وأصبح رفات لومومبا مسماراً أخيراً فى نعش الاستعمار الأوروبى الذى شاخ ، فصار مثل النمر ، عند ما يشيخ لا يحارب . ولكن ينهش ، ويذبح !

لا تذرفوا الدموع على لومومبا ، ولكن افتحوا رؤوسكم لرسالته . ومدوا أيديكم لتنتقموا من الاستعمار فى كل مكان ! »

.. ومن هذه الكلمات الصادقة كلمة الأستاذ أحمد بهاء الدين تحت عنوان « روسيا تضع نهاية همرشولد » والتى جاء فيها :

« بالقرار الذى أعلنه الاتحاد السوفيتى ، أصبح خروج همرشولد من سكرتيرية الأمم المتحدة أمراً لا مفر منه !

فقد أعلن الاتحاد السوفيتى أنه

بتداء من اليوم ، لن يعترف بمستر داج همرشولد كسكرتير للأمم المتحدة ولهذا القرار سابقة مماثلة ، فبعد الحرب الكورية ، قرر الاتحاد السوفيتي مقاطعة مستر تريجفى لى السكرتير العام للأمم المتحدة فى ذلك الوقت . وإزاء التجاهل المستمر له من الاتحاد السوفيتى ، وهو إحدى الدول الكبرى وأحد الأعضاء الخمسة الدائمين فى مجلس الأمن ، لم يجد « تريجفى لى » مفراً من أن يقدم استقالته قبل أن تنتهى مدته القانونية .

وعند ما تولى داج همرشولد منصبه كسكرتير عام للأمم المتحدة ، قال فى أحد تصريحاته — وأنا أنقل من الذاكرة — ما معناه أن السكرتير العام للأمم المتحدة لا يمكن أن يمارس مهمته إذا فقد ثقة إحدى الدول الخمس ، الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن .

واليوم يواجه داج همرشولد هذا الموقف . فالاتحاد السوفيتى قد أعلن عدم اعترافه به . ولا يستبعد أن تحذو سائر الدول الشيوعية حذو الاتحاد السوفيتى . يضاف إلى ذلك النقد الواسع الموجه ضده من بلاد كثيرة فى العالم ، فى مقدمتها الدول المحايدة . .

وقد شن خروشوف على همرشولد حملة هائلة عند ما شهد دورة الأمم المتحدة ، ذلك أن ما تم فى الكونغو فى ذلك الوقت ، من طرد كل البعثات الدبلوماسية الشيوعية ، تم تحت سمع الأمم المتحدة وبصرها ، وكجزء من نتائج سياستها ، كان انحيازاً واضحاً من سكرتيرية الأمم المتحدة ليس من حقها أن تتورط فيه . فهى تمثل نقطة التقاء كل القوى فى العالم ، وليس من حقها أن تميل — حتى فى عواطفها — مع أحد الجوانب !

وقد صمد همرشولد يومها لهذه الحملة . ولكن مقتل لومومبا جاء صفعة رهيبة لموقفه ، خصوصاً وأنه تلقى تحذيرات كثيرة منذ أمد بعيد عن سوء معاملة لومومبا فى سجنه وضرورة تدخله . ولكن موقفه كان على الدوام متراخياً . وكان واضحاً أن سياسة التراخى هذه إنما تعطى الوقت لفريق معين لكى يسلح تشومبى ويتخلص من لومومبا ، ويؤجل اجتماع البرلمان الشرعى . وفى هذه اللحظة الدامية التى يشهد فيها موت لومومبا بفشل سياسة همرشولد . . يجىء قرار الاتحاد السوفيتى لينزع رجلا جديدة من أرجل المقعد الذى يجلس عليه السكرتير العام . . ولكى يصبح خروجه فى واقع الأمر محتوماً ! . . »

أمريكا فى الكونغو :

لا يستطيع إنسان أن يغفل عن الدور الخطير الذى قام به الامريكيون فى الكونغو ، فقد كانوا وراء الأموال والأسلحة التى تدفقت على « موبوتو » ، وكانوا كذلك « الرافعة » التى حملت كازافوبو إليها ، ثم أجلسته على مقعد

فى الأمم المتحدة ، ولا يقف الأمر عند هذا ، وإنما نراها تقف وراء أمريكا ، وهذا ما أكده « ريتشارد والد » فى مقال تحليلى بجريدة « نيويورك هيرالد تريبيون » عن موقف كنيدى من القارة الإفريقية ، وقد جاء فيه أن المشكلة الكبرى التى ستواجه الرئيس كنيدى أثناء تحديد موقفه من إفريقية فى الشهور القليلة القادمة هى أن يفكر جيداً فيما يجب على أمريكا أن تقوله .

ولن تكون هذه المهمة بالأمر السهل كما يتصور البعض ، ولكن من الجنون المطبق فى الوقت نفسه أن يلتزم الرئيس الأمريكى الصمت والسلبية أمام الأحداث التى تدور فى القارة الإفريقية .

ويستمر « ريتشارد » فيقول : إن علينا أن نبدأ هنا من الحقيقة التى تعودنا أن ننساها أحياناً . وهى أن إفريقية كتلة واحدة صلبة ، وأن شعوبها لم تتعلم بعد أن تتبادل الكراهية مع هؤلاء الذين يعيشون خارج حدودها .

وإذا كانت الدبلوماسية الأوروبية تجيز أن يدلى وزير خارجية أمريكا بتصريحات تسىء إلى فرنسا — إذا رغب فى ذلك — دون أن يسبب ذلك إزعاجاً كبيراً فى الأوساط بين البلدين ، فإن الأمر تختلف تماماً بالنسبة لإفريقية ، لأن وزير الخارجية الأمريكى الذى يهاجم غينيا ، أو ليبريا ، أو أية دولة إفريقية أخرى يتعرض فى الحال إلى حملة قاسية من كل الإفريقيين ، كما يتلقى فى الوقت نفسه سيلا من الرسائل من نصف سكان القارة يهاجمونه فيها ، ويتوعدونه .

ويتساءل الكاتب ما الذى سنفعله نحن الأمريكيين تجاه الأحداث التى تجرى فى بعض الدول الإفريقية ؟ ثم يعقبه بأن الزعماء السود ينظرون إلى أمريكا نظرتهم إلى أية دولة استعمارية غربية ، لأن التناقض واضح فى السياسة الأمريكية ، فهو فى الوقت الذى تتظاهر فيه بعدم استعدادها للتدخل المتحيز من مشكلات إفريقية الداخلية ، نراها فى أحيان أخرى تتخذ لنفسها المكان الذى يثير عليها حنق الإفريقيين وسخطهم .

فعند ما تشكو الأمم المتحدة من أن البلجيكيين يعودون ثانية إلى الكونغو التى رحلوا عنها ، نجد الحكومة الأمريكية تقف خلف بلجيكا ، وتساندها ، ويعقب المعلقون السياسيون على ذلك بأن أمريكا قد فضلت أن ترضى شريكتها فى « حلف الأطلنطى » على أن تكسب رضاء الشعوب الإفريقية التى لا تحب بلجيكا ، ولا ترضى عن وجودها فى أى شبر من بلادها ، وهكذا أعلنت أمريكا بتصرفاتها فى أكثر من موقف بأنها ترتبط مع حلفائها بروابط الدبلوماسية الغربية التى تهدر على مذابحها مصالح الإفريقيين .

بل إن هذه السياسة التى تنتهجها

أمريكا تجعلهـا فى مصاف الدول الاستعمارية التى تشكل عنصراً لا يقبل الإفريقيون التعاون معه .

وهكذا يعترف هذا المعلق السياسى الذى يعتبر من أبرز المعلقين السياسيين فى جريدة « الهرالد تريبيون » بأن أمريكا تقف وراء بلجيكا سافرة ، وتؤيد سياستها فى الكونغو على الرغم من إهدار ذلك الحق البلاد الشرعى فى الحرية ، والتخلص من مستعمريه .

ومع أن أمريكا تدرك أن هذا الموقف من جانبها يعرض سمعتها للضياع عند شعوب إفريقية ، إلا أنها تصر على المغامرة بهذه السمعة حفظاً منها على وحدة « حلف الأطلنطى » وتدعيما فى الوقت نفسه لأطماع الكتلة الاستعمارية الغربية .

والواقع أن حكومة الولايات المتحدة قد أظهرت فى أكثر من مناسبة أنها موالية للدول الغربية ، ومؤيدة لسياستها ، فهى تساند كل دولة غربية ترتبط بإفريقية بأى لون من ألوان الارتباط ، فموقفها من المجازر التى ترتكبها حكومة جنوب إفريقية مع المواطنين موقف شائن ومعيب ، وتأييدها المطلق لتصرفات بريطانيا فى منطقة شرق إفريقية قدأثار عليها سخط الإفريقيين وكراهيتهم ، ومساعداتها الإيجابية للجيوش الفرنسية فى الجزائر قد جعل منها شريكة فى الجريمة التى ترتكبها فرنسا ضد الجزائريين .

« لومومبا وهو يرتدي العباءة العربية وبجانبه رئيس التحرير »

« لومومبا وزميلاه مقيدون بحبال الخونة »

كتاب الشهر

الكونغو

بقلم جون لانوشيه

عرض وتقديم العميد أركان الحرب **محمد عبد الفتاح ابراهيم**

الكتاب والكاتب :

كتاب كان ثمار رحلة فى أرض الكونغو لسنة كاملة ، رحلة قام بها أربعة من الرجال : بلجيكى ، وإنجليزيان ، وأمريكى كان القصد منها تصوير فيلم إخبارى عن الكونغو ، وكانت الحكومة البلچيكية هى التى احتملت نفقات الرحلة ، ويسرت وسائلها للأربعة ، ومهدت لهم الطريق ، ولم تقم الحواجز فى طريقهم ، بل مكنتهم من التجوال حيث شاءوا ، أو حيث كانت آلة التصوير تقودهم .

والكتاب ، قد صدر سنة ١٩٤٥ بقلم مؤلفه ، ورسم الصور « أندريه كافن » وأصدرته شركة « ويلو آند هوايت » الأمريكية ، ولكن عندى أن هذه أصدق دراسة كتبت عن الكونغو ، ولو كتب كاتب كتاباً فى الغد عن الكونغو ، لما فعل أكثر من أن ينقل هذا الكتاب ثم يضيف إليه حوادث الاثنى عشر شهراً الأخيرة ليبدو وكأنه جديد فى طابعه ومعلوماته ، ولقد أستطيع أن أقول بأننى قرأت هذا الكتاب أكثرمن مرة ، منذ أن بدأت اضطرابات الكونغو ،وكنت كلما طالعت صفحاته وجـدتنى أتلمس اتجاهات الأمور ، وأدرك التطورات التى تقع ، أو يمكن أن تقع : ذلك لأن الرجل كان يكشف فى كتابه عن الكنز الدفين فى أرض الكونغو والإمكانيات الكبيرة التى فى خزانته المادية والبشرية ، وهذا هو السبب فى أنى لم أنصرف عنه إلى كتاب حديث الظهور مما صدر فى تواريخ حديثة .

والكاتب جون لانوشيه أصلا من رجال الصحافة أكثر مما يعمل فى

كتابة موضوعات الأفلام الاخبارية ، ثم إن له عيناً بصيرة نقادة . ومن ثم فهو يحدد اللقطات التي تبرز الموضوع الذى يستهدف إخراجه لا فى كلمات وسطور ، بل فى صور تجرى بسرعة مع آلة العرض أمام النظارة .

وقد عرض الرجل موضوعه فى خمسة عشر فصلا .

وفى الكتاب عشرات اللوحات كلها للناس من الرجال والنساء على شتى الصور ، وكلها من رسم «أندريه كافن»

وقد قدم الرجل فى كتابه بعض أغنيات شعبية . ما أحرانا أن نقف اليوم أمام اثنتين منها ، ففى أغنية (الصديق) يقول . . .

إن الرجل الذى يذهب فى طريقه
إلى رحلة طويلة غير متوقعة
يجب أن يخبر صديقه
أجل ، أجل يجب أن يخبر صديقه الحبيب

إن الذى يذهب بعيداً فى صمت
ان يجد صديقاً ينتظره
ليبتسم له ويعانقه بحرارة
عند ما يعود من رحلة

إن المسافر سيعود
ولكنه سيجد صديقه قد رحل

وفى الأغنية التى رسمت بعنوان (امرأة من الزندى تبث حزنها يقول :

لقد مات الطفل
فلنغطى وجوهنا بقماش أبيض
لقد ولدت أربعة أطفال
فى كوخ زوجتى
ولكن الرابع هو الذى بقى
إننى أريد أن أبكى
ولكن فى هذه القرية
لا يسمح لأحد بأن يبدو محزوناً .

ولكن اليوم فى أرض الكونغو تبكى كل أم طفلها الذى ذهب وغيبه التراب فى مكان مجهول ، ذهب ولن يعود .

ماذا رأى الرجل فى أرض الكونغو :

ويبدأ الرجل كتابه ليحدثنا بما رآه فى أرض الكونغو فيقول :

« والواقع أننى من ناحية التاريخ كنت وأنا أخطو خطواتى الأولى أدرك بأن هذه المناطق التى يقال لها إنها بدائية ستلعب دوراً هاماً حاسماً فى دنيا الغد . فهى من الناحية الجغرافية تمثل الحلقات الاستراتيجية لحضارة الغد . ومن الناحية الصناعية فإن الكثير من المعادن الغامضة ذات الأهمية الحاسمة ، توجد مغيبة فى باطن الأرض فى الغابات الموحشة . وفى الهضاب العارية . فى مناطق لم يرقب فيها الناس وجهاً أبيضاً من قبل ، وكان هذا كله يقع فى المنطقة التى كانت ترسم على المصورات ، حتى تاريخ حديث دون تفاصيل . وتوضع بدلها كلمتان اثنتان « مناطق مجهولة » .

والكونغو بالنسبة للرجل العادى عبارة عن مناطق فسيحة يعيش فيها السحرة المشعوذون، الذين يعالجون كل العلل بالأدعية والسحر ، وآكلو لحوم البشر ، ثم لا شيء غير هذا ، ولكن الشيء المجهول — حقاً — هو السرعة الهائلة التى تطورت بها الأرض . والناس ، وكان أولئك الذين احتملوا عبء هذا التطور هم أبناء أولئك الذين قاتلوا جباة الضرائب فى الدولة الحرة التى كان يملكها وحده ليبولد الثانى .

على أن الأكثر إثارة للدهشة هو « المأساة البشرية » لأن المليون ميل مربع والاثنى عشر مليوناً من الكونغوليين ، فعند ذهابى إلى المعمل الصحى للتطعيم قال الطبيب — مشيرا إلى مساعده وهو طوى طويل القامة نحيفها ، حتى ليكاد فى تحركاته يشبه لفحة من هواء تمر بسرعة — .

إن مساعدى هذا ابن أخ زعيم من زعماء القبائل، اشتهر بأنه كان يأكل لحوم البشر . لقد درس بعض سنين . ثم جاء إلى هنا ، يستطيع أن يفعل كل ما نعلمه له مرة واحدة ، ولكن لا لغة مكتوبة لقبيلته . ويقدمون الماعز والدجاج تضحية للآلهة عند ما ينتشر وباء بين أفراد القبيلة . ولقد وعدنى بأن يعود إلى قبيلته ، ليعلمهم كيف يحاربون الحمى ،وكيف يجففون البركة المقدسة حيث يتوالد « الصعو »وينظفون الأرض ، التى كانت لقرون مباءة للأمراض . وبذلك يمكن أن يغير وجه الغابة الفسيحة .

وكانت هذه الصورة التى حدثنى بها الطبيب الأبيض هى الصورة التى فعلها الكنغوليون فى جيل واحد . .

وعند ما انصرفت من المعمل الطبى لقيت رقيباً (شاويشاً) كان قد ذهب مع القوات التى أرسلت لمعاونة الإنجليز فى الحبشة . وقد أعير لهيئة أركان الحرب الانجليزية هناك ، وكان الرجل ينقل من « مفتاح المورس » إلى كلمات مسطورة بالإنجليزية التى تعلمها بسرعة بين أربعين وخمسين كلمة فى الدقيقة . وعند ما استوقفت الرجل لأسأله عن سر مهارته ازدادت دهشتى ، لأنى أعرف أن سكان الغابات فى الكونغو يستخدمون دقات الطبول ليبعثوا بالأنباء لمئات الأميال . وأنهم يستخدمونها منذ قرون قبل أن يصل الغرب لاستعمال مفتاح « مورس » للإشارة .

على أن الكونغو ليست كلها غابات وأحراش ، بل إن الصورة العامة تتحول من السافانا فى الجنوب إلى المناطق الجافة ، حيث تجرى سلسلة مرتفعات كيفو فى قمم مبعثرة هنا وهناك لها جمال وروعة ، وتعلو حتى لتبدو وكأنها تتجه إلى كوكب آخر خارج الأرض التى نعيش فيها ، ثم تندفع المرتفعات لتعيب فى هضبة عارية من كل شيء . . هضبة فسيحة غبت فى باطنها ثروات لا حصر لها ، تلك

هى أرض كاتنجا .

على أن الصورة العامة لمناطق الإنتاج صورة متماثلة ، مدينة جميلة فيها المنتديات ، وحمامات السباحة ، ودور السينما ، وما إلى هذا من أماكن الترويح الحضرية ، ولكن مع هذا تحيط بها ، لمئات الأميال ، مناطق عارية من كل شىء فيما عدا بعض الأشجار المتشابكة التى تكون جزءاً من غابة قد قطعت أشجارها لإفساح الطريق لغلات التعدين . وفى هذه المناطق الفسيحة تعيش جماعات من الوطنيين وتبدو المدينة بالنسبة لهم كسراب بعيد وسط الركام الذى يبنون منه تلالا صناعية، مما يخرجون من باطن الأرض ، ولكن الأرض لا تعرف الهدوء ففى كل مكان تجد الطائرات والقاطرات هذه تذهب وهذه تجىء ، فالمناجم لا تتوقف ، والمصانع لا تتوقف وعمال الليل يغيرون عمال النهار ، والأرض تخرج ما فى أحشائها ومداخن المصانع تنفث الدخان من أفواهها ، وكل هذا لصالح الغرب ولامداد دولاب الحرب بحاجته من المعادن .

لقد كثر الحديث وتعددت الكتابات عن « دنيا الغد » . لقد وضعت الرسوم وتعددت الاحصائيات وأعد كل شىء، ليمكن الانتفاع إلى غاية ما يمكن من الموارد . وللكونغو فى غمرة هذه الصورة وهذه الإحصائيات مكان كبير ، بل لعله مكان فى الصدارة ، والشىء الذى يستحق الذكر هنا، هو أن تجربة الكونغو قد أثبتت أن إعداد العناصر البدائية للنهوض والتقدم لا يحتاج لقرون للتعليم ، وأنه من الممكن إعداد الناس دون تدمير تقاليدهم القبلية، ترى هل من الممكن أن ينظتم عقدهم معاً فى وحدة قومية ؟

إن مظاهر التقدم فى الكونغو أكثر وضوحاً هناك مما هى فى المستعمرات الأخرى التى تجاوره، وليس هذا بسبب ما فيها من ثروات معدنية فحسب ، بل إن الجزء الأكبر يرجع إلى طبيعة الناس أنفسهم، وإلى المواهب الدفينة فيهم ، وهناك مثل لاتينى قديم يقول : « يوجد دائماً شىء جديد فى إفريقية »، وهذا الشىء الجديد فى تقديرى هو الأمل فى الكونغو . . . الأمل الذى يجب أن يزدهر .

قصة التاريخ :

كانت كلمة إفريقية فى العالم القديم تعنى الأرض القريبة من قرطاجنة ، ولكن مع ازدياد المعرفة بالقارة . استخدم اسم إفريقية من وجهة عامة للدلالة على المناطق الجديدة التى خرجت إلى أعين سكان العالم القديم ، فيما وراء النطاق الساحلى فى شمال إفريقية .

وتقول الأساطير القديمة الكثير عن إفريقية والإفريقيين، ولكن الذى يعنينا هو أن القارة كانت منذ العصر الأوسط مسرح القتال بين الدول الطامعة الواحدة ضد الأخرى . ومع

أن الفينيقيين ، واليونان ، والرومان والعرب ، والترك ، والنورمانديين ، والبورتغاليين ، قد عرفوا القارة .. عرفوها فى صورة أو فى أخرى ، فإن وسط القارة قد بقى لغزاً .

وجاء هنرى الملاح وبدأ الدوران حول ساحل إفريقية ،وكان ملك الكونغو الفارس الأول هو الذى منح البرتغال مستعمرتهم الحالية فى أنجولا .

وعملت بريطانيا ، وهولندة . والبورتغال ، فى تجارة الرقيق ، والملكة اليصابات التى لامت « جون هوكنز » سنة ١٦٥٢ لتعامله فى تجارة الرقيق مع الإسبان ، لم تلبث بعد سنوات قليلة أن منحته رتبة فارس لخدماته لوطنه ! ! ، وكانت حركة تجارة الرقيق عنيفة دامية مليئة بالمآسى مركزها هذه الأرض على طول الساحل الغربى من إفريقية .

على أنه فى المائة والخمسين سنة التالية ،كانت أرض الكونغو مسرحاً لمنافسات متزايدة بين الأوروبيين — مثلها فى هذا مثل باقى أرض إفريقية — وفتح المستكشفون والمبشرون من رجال الإرساليات الطريق ومهدوه لبيوت الاستثمار التجارى الصناعى وكان هؤلاء رأس الحربة للاستعمار السياسى بعد الاستعمار الاقتصادى . وضاعت فى قرارات مؤتمر برلين لسنة ١٨١٥ فى خضم الكسب الهائل من تجارة الرقيق ، ويجب أن نذكر هنا أن مونتسيكو قد كتب فى القرن الثامن عشر « من المستحيل أن يكون الله سبحانه وتعالى بحكمة قد وضع روحاً طيبة فى جسد أسود ، من المستحيل أن نقول عن هؤلاء الناس أنهم بشر وإلا كان لنا أن نشك فى أننا مسيحيون» على أن أول محاولة لكشف أرض الكونغو جاءت سنة ١٧٨٩ بوساطة جوسى لاكيردا اعيرا ، وبعد ثمانى عشرة سنة حاول هذا إنجليزى اسمه الكابتن « چيمس توكى » ولكنه فشل ، وكان الدكتور « دافيد ليفنجستون » هو أول من اخترق الأرض إلى داخل الكونغو ، وأوضح للناس الصورة البشعة لتجارة الرقيق ، وقد اقترنت حملته بالحرب الأهلية الأمريكية التى أيقظت الضمير العالمى الذى كان يغط فى ثبات عميق ، وضاعت أنباء ليفنجستون ، فأرسل چيمس جوردن بنيت من رجال النيويورك هيرالد ، أرسل ستانلى الصحفى الإنجليزى ، الأمريكى للبحث عن ليفنجستون فوجده يوم ١٠ من نوفمبر سنة ١٨٧١ فى أوجيجى ،حيث اكتشفا معاً الساحل الشمالى لبحيرة تنجانيقا فكان حلم صحب ليفنجستون طوال أيامه الأخيرة لأنه كان يفكر فى قرب كشفه لمنابع النيل

على أن ستانلى عند ما عاد إلى إفريقية كان هو أول من سار فى نهر الأساطير . نهر الكونغو من منبعه إلى مصبه . وأثارت رحلة ستانلى كل

قراء الصحف ، ولكن رجلا واحداً رأى فى هذه الأنباء شيئاً آخر كان هذا الرجل هو « ليبولد » الذى كان يحلم منذ صباه بفكرة الحصول على مستعمرة للبلجيك فى إفريقية .

ولهذا فإنه عند ما رست السفينة بستانلى فى مرسيليا عام ١٨٧٨ كان ينتظره رجلان يدعوانه لزيارة بروكسل ليناقش مع ليبولد مشروعاً إفريقياً ، ولكن ستانلى كان يفكر فى أن يقدم الأرض لبريطانيا ولكنه لم يجد أذناً صاغية فاتجه إلى شركات الاستثمار ولكن بالرغم من أنه ألقى ثلاثين محاضرة عن وسط إفرقية ، فقد كان من الواضح أنها مقامرة ، وكان ليبولد الثانى تواقاً ليقامر .

على أن ستانلى سافر فى فبراير سنة ١٨٧٩ إلى إفريقية لا إلى الساحل الغربى ، بل إلى الساحل الشرقى ليذهب إلى زنجبار حاملا صورة ليبولد مع هدية لسلطان زنجبار ، وفى حقيبته ساعتين ذهبيتين هدية من ليبولد إحداهما لقنصل أمريكا والثانية لأكبر التجار الهنود فى زنجبار .

وفى أغسطس يصل ستانلى إلى الكونغو باسم الملك ليبولد الثانى عاملا له .

على أن الذى يعنينا أن نبرزه هنا هو أن دول أوروبا قد أدركت كلها بأنها أخطأت فى التعرف على أهمية الكونغو ، كان دى برازا يحاول ضم الكونغو إلى فرنسا ، وكانت البرتغال تزعم أن لها السبق على أساس رحلة سنة ١٤٨٤ ، وفى سنة ١٨٨٢ حاولت البرتغال أن تحصل على تعضيد بريطانيا لمطلبها فى معاهدة توقعها مع ايرل جرانفيل وزير خارجية بريطانيا .

وقامت عاصفة من الاحتجاجات فى أوروبا عند ما عرف الناس سر المعاهدة المتوقعة . وكان مؤتمر برلين لسنة ١٨٨٤ هو الذى قرر أمر الكونغو .

ومع أن أربع عشرة دولة حضرت المؤتمر من بينها الولايات المتحدة ، فان الدول المتنافسة كانت أربع ، هى فرنسا وألمانيا وبريطانيا والبرتغال ، ثم هيئة لها طابع اقتصادى عرفت باسم الجمعية الدولية للكونغو . وكانت هى وليدة أطماع ليبولد الثانى وتمول منه ، واستطاع ليبولد أن يجعل الدول الأربع تتطاحن فيما بينها ولوضع حد لهذا التطاحن اعترفت الدول فى نص معاهدة المؤتمر على منح الشخصية الدولية كدولة ملكية لهذه الجمعية الدولية للكونغو .

وقد دهشت كل الدول لهذا القرار ، ولم تقل دهشة الناس فى البلجيك عن الناس فى العالم كله فقد وجدوا ملكهم يمتلك دولة جديدة ، ثم دهشوا لأن يطلب الملك من السلطة التشريعية البرلمانية أن تضع النصوص الضرورية لهذا التملك ، ووافق البرلمان ، وأضحى ليبولد يمتلك مليون ميل مربع فى منطقة ترسم على المصورات تعلوها كلمتان فقط هما « مناطق مجهولة » !

وفى سنة ١٨٩٠ عقد فى بروكسل مؤتمر لتنظيم تجارة الخمور كوسيلة للحد من تجارة الرقيق . ثم عقدت معاهدة بين البلجيك وبين حكومة الكونغو الحرة لتقرضها البلجيك قرضاً تنال فى مقابله حق ضم الكونغو إليها فى سنة ١٩٠١ .

وكانت مرحلة من مراحـــل الاستغلال الجشع إلى حد أن صحيفة إنجليزية خرجت بسلسلة من المقالات بعنوان « ليبولد فى الكونغو » جاء فيها أن الملك لم يزر الكونغو قط . وأنه هو ورجاله يعملون من بروكسل ويعتمدون على تقارير تصلهم من إفريقية متحدثة عن تقدم مزعوم .

وكان ليبولد نفسه هدف كل الحملة . فقد كان يمثل رأسماليـــة استغلالية . وكان القرض الذى وقعه فى ٣ من يوليو سنة ١٨٩٠ بخمسة وعشرين مليون فرنك على أن يسدد فى مدى ستة شهور بعد عشرة أعوام من تاريخ توقيع العقد . قد وصل فى ٢ من يناير سنة ١٨٩١ إلى نحو اثنين وثلاثين مليون فرنك ، ودفعت حكومة الكونغو بطريقـــة غير قانونية من مصارف انتورب فى مارس سنة ١٨٩٤ مزيداً من القروض بضمان الغرفة التجارية البلجيكية .

وفى أغسطس سنة ١٩٠١ طالب برلمان بلجيكا بضم الكونغو ولكن ليبولد عارض هذا . وهنا قامت حملة عالمية تتهم حكومة الكونغو بسوء معاملة المواطنين . وفى يوليو سنة ١٩٠٤ أرسل الملك ليبولد لجنة إلى الكونغو للتحقيق وفى سنة ١٩٠٦ أصدر الملك ليبولد بعض قوانين لمحاولة إصلاح الحال .

ولكن شيئاً لم يكن فى الاستطاعة تحقيقه لأن الطابع الاستغلالى كان يسود كل شىء وفى ٢٨ من نوفمبر سنة ١٩٠٧ وقعت معاهدة ضم بمقتضاها الكونغو إلى حكومة البلجيك فى أكتوبر سنة ١٩٠٨ . وانتقل الاستغلال من رأسمالية خاصة إلى رأسمالية حكومية .

(وكان الشعب وحده هو الذى يعمل لتقدمه فى ضوء الصورة العامة لسنة التطور فى العالم الإفريقى من شمال القارة إلى جنوبها . وكان الدافع وراء هذا كله هم الناس)

على أنه قد يكون من الضرورى أن نذكر هنا بأن ميثاق ١٨ من أكتوبر سنة ١٨٩٨ قد نص على :

١ — فصل الكونغو عن بلجيكا على أن يكون للكونغو نظامه التشريعى الخاص به .

٢ — تكوين إدارة مالية خاصة بالكونغو .

٣ — تحديد سلطات الموظفين البيض .

٤ — ضمان حقوق الوطنيين .

ولكن شيئاً من هذا كله لم يتم ، فقد كان هناك بعض منازعات حول

الأرض يجب أن تتقرر ، وفى سنة ١٩٠٨ تم الاتفاق الفرنسى البلجيكى لتتولى فرنسا الأرض التى اعتبرت لها فيها حق السبق . وتدخلت بريطانيا باسم حماية حقوق المواطنين واشترطت عدة اشتراطات مقابل اعترافها لبلجيكا بحق التملك . وفى سنة ١٩١٠ حددت على الأرض الحدود السياسية بين الكونغو وبين شرق إفريقية .

وكان ليبولد الثانى قد مات سنة ١٩٠٩ .

ومع بدء حرب سنة ١٩١٤ . سنة ١٩١٨ غزت ألمانيا أرض الكونغو ومع هزيمة ألمانيا الإمبراطورية أعطت عصبة الأمم لبلجيكا انتداباً على رواندى أورندى لـ ٢٥ ألف ميل مربع وثلاثة ملايين من السكان) وقد تولت حكومة الكونغو إدارتها ، وإن كانت قد بقيت لها إدارتها المالية وحدها ، وكان كل وجه الخلاف إلزام بلجيكا بتقديم تقرير سنوى عنها لعصبة الأمم .

ومع الحرب العالمية الثانية وضحت أهمية الأرض الغنية بمواردها الطبيعية ، ومع التطور الصناعى الحديث وضحت المكانة الحاسمة الأهمية التى لها .

أحاد من الناس :

ولكن ماذا هى هذه الأرض ؟ !

ثم من هم هؤلاء الناس ؟ ! !

هنا يجب أن نفكر بامعان فيما يقوله المؤلف ، من أن الزمن لا يعنى شيئاً فى البلاد الاستوائية ، ففى هذه الحرارة المحرقة لا يعنى بتسجيل أى شىء وكل ما يمكن أن يوجد من أبناء الناس هو ما يمكن أن تعيه الذاكرة . سيما وأن كل ما يبدو لساكن الغابة هو الصورة التى تراها عيناه فى حاضره الماثل أمامه ، ومن ثم فان المؤرخين والجغرافيين الذين يبحثون تاريخ الأرض ، أو تاريخ اناس لا يعرفون إلا القليل ، سواء أرجعوا بدراستهم إلى الماضى البعيد أو إلى الماضى القريب .

ومن الضرورى أن تعرف أن هذه الأرض كلها كانت بحراً داخلياً ومع مرور الزمن خرجت البراكين من قلب الأرض أسفل سطح الماء وبذلك قامت السلاسل الجبلية والهضاب ، واندفعت المياه منحسرة إلى المحيط الأطلنطى تاركة مجرى الكونغو وحده الذى يسير من منبعه إلى مصبه فى مسافة ٣٠٠٠ ميل ، ولكن هناك ظاهرة جغرافية أخرى هى بحيرة تنجانيقا التى تحصل على مياهها من عدة موارد مختلفة . والتى تغطى منطقة كبيرة فى اتجاه طولى شمالى جنوبى فى هضبة يصل ارتفاعها إلى ٤٧٠٠ قدم ومنها يخرج أحد فروع نهر الكونغو الرئيسية نهر لوالابا الذى يروى أرض كاتنجا وما جاورها وكاتنجا أكثر مناطق الكونغو أهمية من ناحية الثروات المعدنية الدقيقة بها ، ويسير لوالابا فى مجرى متعرج منحدراً مع الهضبات لمسافة بين أربعين وخمسين ميلا حتى ينطلق بعد (كوندى)

فى عدة بحيرات صغيرة ، فاذا ما جاء الشتاء كانت هذه المنطقة كلها عبارة عن مستنقع فسيح تغطى الحشائش وأشجار البردى الجزء الصغير وتبدو وكأنها تسير وسط مياه النهر الذى تصل سعته فى المنطقة بين (بوكاما) ، و (كونجولو) إلى ٣٠٠ قدم بعمق عشرة أقدام .

وعند ستانلى فيل يسقط الكونغو اسم لوالابا ليتخذه اسمه الذى يعرف به ويسير بعد مساقط ستانلى لمسافة ٩٨٠ ميلا فى مسار هادئ يصلح للملاحة فى كل فصول العام . وإن كان مساراً متعرجاً بين الشمال الغربى حيناً والجنوبى الغربى حيناً آخر حتى يصل إلى بركة ستانلى .

ويخترق النهر بعد بركة ستانلى سلسلة الجبال الغربية بقوة إلى حد أنه يوجد الكثير من الشلالات التى تعطل الملاحة . وتجد ثلاثين مسقطاً من المساقط الحادة التى تصل أحياناً إلى ٨٠٠ قدم فى مسافة ثلاثين ميلا ، وآخر هذه المساقط شمال ماتادى مباشرة وعند « ماتادى » يتسع النهر وتتيسر الملاحة إلى حد أن السفن الكبيرة يمكن أن تسير لمسافة ٨٥ ميلا من المحيط الأطلنطى داخل مجرى النهر حتى تصل ماتادى .

ويترك النهر ماتادى متجها إلى المحيط واقعاً فى المحيط الفسيح كميات كبيرة من المياه إلى حد أن المسافرين لمسافة ٣٠ ميلا من الساحل يمكن أن يرقبوا بوضوح الخط الذى يفصل بين مياه النهر ومياه المحيط .

. . . والناس كلهم من البانتو كحديث عام عن الأجناس والسلالات ولكن العصبية القبلية أقوى من كل شىء آخر . سيما بعد قرابة ثلاثة أرباع القرن من الحكم الاستعمارى الذى يستهدف أول ما يستهدف تفتيت الروابط بين الجماعات

ومع تعدد القبائل إلا أن عددها يبدو كبيراً تبعاً للمناطق الفسيحة التى تشغلها من جهة . أو من جهة أخرى لرغبة الناس فى تجسيم مكانتهم . ولهذا فكل أناس يسمون أنفسهم « شعباً » .

فالباكويا يسمون أنفسهم شعب اليوشنجو . وهكذا الباتجالا . والبالوبا (الناس الذين منهم الزعيم الشهيد لومومبا) . وهذه المسميات ذات مقطعين . المقطع الأول (با) يعنى الناس أى الشعب . والمسميات ترجع إلى طبيعة البيئة أو طبيعة الناس فى مظاهرهم الجسمانية . فالباكوبا تعنى شعب « البرق » ، والباياتجا ، شعب ورق الشجر ، والباجوامبى تعنى شعب الناس ذوى الشامة فى وجوههم .

وللزعامة احترامها وتقديسها ، و « التيبيمى » ملك شعب اليوشنجو الرجل الذى يبتسم قط والذى يقول عنه المؤلف أن له ستمائة زوجة رئيس

قبلى له كل السلطات ويشاوره مجلس من كبار السن .

ونجد عند الزعيم بين رجاله المقربين « الموآريدى » وهى كلمة تعنى المؤرخ البدائى ، وهذا الرجل هو الذى يحتمل مسئولية الاحتفاظ بالأساطير القديمة والتقاليد القبلية يحفظها عن ظهر قلب ويتوارثها عنه ابنه الأكبر .

وللتيبيمى التقاليد والمحرمات التى تنظم حياته فهو لا يمكن أن يتكلم عند ما يكون ممسكاً بخنجره ، ولا يتحدث إلى أى فرد يحمل سلاحاً ولم يسمح له أن يطأ الأرض بقدميه بل يسير فى مسكنه على حصير مجدول ، وينتقل محمولا على محفة ، وكل الناس من الدم الملكى لا يتناولون طعاماً قبل أن تتزوقه نساؤهم .

ومع أن الرياسة القبلية لا تزال مرعية الجانب إلا أن التطورات الثقافية جاءت بطوابع جديدة على مثال ما حدث فى كل مكان من إفريقية ، زعامة الشباب المثقف الذى جاء مع بداية التنظيمات الحزبية السياسية . وهى حزبية تستند فى الكثير من صورها إلى التنظيمات القبلية العامة أو على الأقل تبعاً للتحديدات العامة بين الولايات .

وقصة الخليقة عند الباشنجو قصة طريفة لا محل لها هنا وهى تستحق الدراسة بمقارنتها بقصة الخلق عند باقى شعوب هضبة البحيرات ، على أنه بالرغم مما يقوله الكثيرون من علماء الأنثروبولوجى (علم الإنسان وأعماله) فان تقاليد عبادة الأسلاف أو تقديسهم — على الأقل — لها مكانتها فى أرض الكونغو .

وللارساليات الكنسية نشاطها فى الكونغو ويناقش المؤلف فى الصفحات من ٨٧ — ٩٣ بعض المعتقدات وبخاصة عقيدة الموت ، فان الناس يعتبرون الموت الذى لا يتسبب عن العنف وعن جرح دامى إنما يكون نتيجة السحر الأسود ، أو بسبب الأرواح الشريرة التى يمكن أن تطرد بوساطة الصراخ العالى ودقات الطبول أو بتهديد الأرواح الشريرة بالإيذاء .

ويعتقد الناس فى المتنبئين الذين يمكن أن يعرفوا الماضى والمستقبل ويستطيعون أن يوجدوا الماء والصيد فى القرى ، ويعتقدون فى الأحلام ولو حلم الزعيم فى نومه بأنه قد نقل منطقة إقامة قبيلته فانه يغيرها لتوه عند ما يستيقظ من نومه مهما احتمل هو وشعبه فى هذا من تضحيات .

ويعرض المؤلف للشد والجذب بين الإرساليات الكاثوليكية والإرساليات البروتستانتية ، ويشكو رجال الكنيسة البروتستانتية من أن المنطقة التى تركت لهم هى المنطقة التى يشعر أهلوها بأن الحكومة لا تعنى بأمرهم .

ويتولى الكاثوليك جل المدارس التعليمية وفى سنة ١٩٤٥ كان عدد

الطلاب فى مدارس الكاثوليك مائتين وأربعين ألفاً .

كاتنجا تجربة صناعية :

كاتنجا فى الجنوب الشرقى ، وعند ما تزور وتترك البزابث فيل فإنك تقطع الطريق ، يشغلك التفكير فى سبب عدم اختيارها عاصمة للبلاد بدلا من ليوبولدفيل منذ أن نقلت العاصمة من (بوما) . ذلك لأن البزابث فيل واسعة الطرق حديثة البناء أنيقة المتاجر طيبة الهواء جميلة الرواء .

على أن درجة الحرارة فى كاتنجا فى المعدل تدور حول ٦٨ درجة فهرنهيت . ومتوسط سقوط المطر لا تزيد عن ٥٥ بوصة فى العام .

وتسيطر على استغلال أرض كاتنجا أربع شركات رئيسية . تمتلك كل الموارد فى الكونغو، وكان رأس مالها منذ خمس عشرة سنة فى حدود سبعمائة وخمسين مليون جنيه — ليس من المعروف على وجه التحقيق الأصل الذى بدأت به — وللشركة التى تستغل مناجم النحاس الصدارة فهى تستخدم ١٢٠٠ بلجيكى وأربعة وعشرين ألفاً من الوطنيين . وفى المنطقة أيضاً استثمارات للذهب والماس والقصدير والكوبلت والراديوم الخام ومن ثم كانت كاتنجا أغنى منطقة بالمعادن فى القارة كلها .

ولما كانت كاتنجا بعيدة عن البحر فانها كانت آخر منطقة احتلها البلجيكيون ، وقد عطلت المعركة ضد تجارة الرقيق فى المنطقة الشمالية من تطور المنطقة الجنوبية الشرقية .

ولكن هذه المناطق تقف دائماً وراء المتاعب الخاصة بالعمل والعمال .

وقد حصل ليفنجستون وغيره من المستكشفين على معلومات عن كنوز المنطقة التى أطلق عليها اسم أحد الزعماء الرئيسيين والذين يتزعمون القبائل بين اللوالابابا واللوابولا .

وقد اهتم « سيسل رودس » بالتقارير عن منطقة كاتنجا ولكنه كان مشغولا بأرض الزميبزى عند ما أرسل ليبولد الثانى بول لومارنيل رسمياً ليضم أرض كاتنجا للكونغو .

وكان بعض المواطنين المستعمرين الذين جاءوا من الشمال والذين كانوا يغلون النحاس من أرض كاتنجا وينقلونه إلى شمال إفريقية للاتجار به هناك يحاولون بدورهم تملك الأرض

وكان نحاس كاتنجا يصهر وتصنع منه النقود التى يتعامل بها الناس من تانجانيقا إلى كاساى .

وفى سنة ١٨٩٠ فى الوقت الذى بعث به الملك ليوبولد رسوله لومارنيل تكونت جماعة جديدة باسم (جمعية الكونغو للتجارة والصناعة) تحت رئاسة الكسندر ديلكوميون لاستكشاف كاتانجا من زاوية الامكانيات الصناعية والتجارية .

وهنا يحدثنا المؤلف عن بعثة

أرسلت لمقابلة السلطان المسيرى من المستعمرين للاتفاق على استغلال أرض كاتنجا وكيف أن أحد رجالها بودسون أطلق الرصاص على السلطان فقتله وكيف أعدم الأهلون بودسون وعاد باقى أفراد بعثته شرقاً إلى زنجبار .

وهنا نجد فى سنة ١٩٠٠ المهندس الانجليزى روبرت ويليامز وشركة استغلال تنجانيقا يمنحان احتكاراً فى استغلال أرض كاتانجا الجنوبية . وفى سنة ١٩٠٦ أوجد بعض المهندسين الانجليز والبلجيكيين وبعض موظفى الحكومة (اتحاد المعدنين) وبـدأ المهاجرون يفدون من أوروبا وأمريكا، أولئك الذين يهرعون إلى كل مكان يقال إن الذهب فيه ، وفى سنة ١٩٠٩ خطط الكولونيـــل وانجرى مكان اليزابث فيل . وفى سنة ١٩١٠ قام أول بناء من المدينة الجديدة فى أعلى الهضبة فى شمال شرق « لوبو مباشى » .

على أن الشئ الذى يستحق الذكر هو أن العمال الوطنيين فى مناجم كاتنجا ينقلون من لونامى وكاساى على مسافة ٨٠٠ ميل شمال نطاق النحاس ، وقد كان العمال أصلا يجندون لهذا العمل حتى سنة ١٩٠٨ عند ما منع القانون هذا التجنيد .

إن فى باطن الأرض كل ألوان المعادن ولكن الاحصائيات التى يمكن الوثوق بها تعتبر سراً من أسرار الصناعة . ولكن الأرباح التى توزع على المساهمين هى وحدها التى يمكن أن تدل على عظم الرخاء الذى يمكن أن يكون نصيب البلاد .

إن خريطة الكونغو تكشف عن شبكة هائلة من مجارى المياه فى نهر رئيسى وفروعه الكثيرة ، ولهذا لم يكن غريباً أن يقول الناس عن بلادهم « أرض المياه » ، وهذه الشبكة الكبيرة من الأنهار والنهيرات الصالحة للملاحة تمكن من الاتصال بين مختلف أجزاء الكونغو . ولكن الأرض التى قدسها المواطنون الأولون لأنها كانت تجيئهم بالغلات تحتفظ فى باطنها أيضاً بثروات معدنية لا تنضب هى التى أوجدت الغلات الاقتصادية التى لا يمكن أن تنضب ما بقيت الحياة والتى جعلت لأرض الكونغو أهميتها الحاسمة فى دنيا الغد ! !

لقد يبدو كتاب جون لاتوشيه كتاباً ليس بالجديد على قياس تاريخ اصداره ونشره ، وهو لم يعرض قط لحديث السياسة والسياسيين ولكنى فضلت عرض كتاب لاتوشيه على عرض أى كتاب آخر حديث ذلك لأنه فى الواقع أفضل كتاب عرض الصورة الصحيحة للناس وللبلاد ، وأوضح دون قصد منه عوامل ودوافع الاستغلال والتى هى علة كل ما تشهده أرض الكونغو اليوم من أحداث جسام .

LA TOMBA DI LUMUMBA AL CAIRO

Prof. Abdel Moneem El-Sawi

Sottosegretario di Stato.
Per la Cultura e l'Orientamento Nazionale.

Il piccolo intrigatore annunciando che il governo congolese non rivelerà il luogo in cui è sepolta' la salma di Lumumba, dimentico' che tutto il mondo conosce bene questo luogo. E' nel cuore di coloro che lottano per la libertà ed aspirano alla dignità.

Se il luogo ove Lumumba è stato assassinato resta ancora sconosciuto, è ben inteso che la memoria dell'Eroe rimarrà sempre viva nell'animo e nella mente di tutti.

Ovunque Lumumba è presente: qui al Cairo, nel Congo, in Palestina, in Algeria, in Oman ed in Cuba cioè ovunque gli animi aspirano alla guistizia, alla dignità ed alla libertà.

Il Cairo fu e continuerà sempre adessere la culla dei liberali ed il baluardo dei perseguitati e dei fuggiaschi dall' appressione e dalla tirannia, cioè il rifugio di caloro che hanno una certa ideologia, il sentimento dell'onore e della virtu'.

Il Cairo è sempre stato e sarà per eterno una indistruttibile fortezza per coloro che hanno una missione da compiere o una dottrina da difendere.

Se i traditori non osano precisare dove Lumumba sia stato crudelmente ucciso, il Cairo lo considererà sempre come simbolo della libertà e del martirio per l'indipendenza africana, e nella città del Cairo — sede dei liberali ed ormai sottratta dal timore, dal reazionismo e dai colonialismo — dovrebbe essere costruita una tomba per Lumumba che le future generazioni ricorderanno come simbolo dell'eroismo e consacreranno questo sangue versato per la causa del benessere umano nonostante gli intrighi, il tradimento e l'ingiustizia.

Che sia innalzata al Cairo una tomba per Lumumba come simbolo della pazienza e della insistenza, nella città dove vivono i figli che accertano il significato della speranza.

LUMUMBA'S GRAVE IS CAIRO

By

Ustaz Abdel Monem Al Sawi

Under-Secretary of the Ministry of Culture and National Guidance

The mean conspirator who declared on behalf of the false government in Congo, that he would not reveal the place where Lumumba was buried, forgot a fact, that all the world knows where Lumumba is buried. He is truly everywhere; in the inermost depth of the hearts of free unconquered people.

Lumumba has not been assassinated on a certain land or in a definite place, for a true hero never dies; his fate is the conscience of man.

It is here and there and everywhere: In Congo, in Palestine, in Algeria, in Oman, in Cuba; in all these lands where people long for justice, dignity and yearn for freedom; where all these lofty aspiration unite in the struggle of the free for the sake of salvation.

Cairo, has always been and will remain thus; a stronghold for the free oppressed people who seek refuge from despotism to safeguard their deeply rooted faith, cherished ideals and their honour enclosed in their hearts.

Cairo is for ever an invincible sanctuary for every apostle who devotes his life to spread his mission, faith or principles.

If these despiteful conspirators fail to locate Lumumba's burial place, let Cairo be their place to symbolize the endless struggle of free people and to immortalize the dear, sacred blood which flowed on the land of awakening Africa.

Let it be here in Cairo, the Capital of free people where there is no room for fear or imperialism.

From this grave there will be a call to remind coming generations of the struggle of free people, the blood sacrified by heroes and high aspirations of man

Lumumba's tomb will defy every conspiration, treatchery and vice; it will be an embodiment of patience and persistence. He, too, will have many a disciple inspired by undying hope and expectation.

the days of the trusteeship in this Territory are distinctly numbered.

"Since everyone agrees that time is running out, the United States delegation would like to join the Visiting Mission and other delegations in making an appeal to the Belgian Government. We ask them to give further thought to the conditions in the Territory and the ways and means of laying a foundation for a national reconciliation — especially in Ruanda.

"Reconciliation, as we see it, must rest on a number of conclusions which I hope the Government of Belgium will accept as soon as they have been able to escape from a very natural preoccupation with pre-independence problems in the Congo. These conclusions are as follows:

"1. The violent incidents which have recently occurred in Ruanda do not reflect a broad popular revolution against social injustice. The violence which has occurred is more properly to be compared to an incipient civil war — a struggle for power between two factions of the population in anticipation of early independence.

"2. The political party known as UNAR, which commands the following of hundreds of thousands of Hutus who are loyal to the Mwami, is primarily an African nationalist movement pure and simple and almost exactly like those found in other African territories.

«3. Unconsciously, the plea for social justice which gave rise to the recent violence has become the principal obstacle to the movement for independence. This of course, is most dangerous.

"4. The loyalty of millions of Hutu to their Mwami, Kigeri V, is in fact the key of restoration of the national unity in Ruanda.

"5. Kigeri V is basically an upright man, humble, approachable, abstemious, and if given the proper encouragement might be able to rally 90 per cent, of the population in the very near future.

"Based on these conclusions, the United States delegation has a few suggestions which it hopes will be considered by the Belgian Government."

But these wise counsels have not been followed, and we are now facing a deadlock.

In conclusion, I should like to make a solemn appeal to this Fourth Committee to recognize the gravity of the situation facing our country, and I urge this Committee to put an end to the barbarous acts of genocide that are being committed by the Belgian colonialist regime in Ruanda-Urundi, more particularly in Ruanda.

the United Nations **vis-a-vis** the Territory of Ruanda-Urundi. Other interesting details and particular points — such as the falsified communal elections of June-July 1960 — will be furnished by UNAR representatives subsequently. You will hear statements demonstrating the extent to which Belgian colonialism has sabotaged the independence of Ruanda-Urundi.

The Belgian colonial Government, is adopting a negative attitude with respect to the recommendations of the Visiting Mission first of all and to those of the Trusteeship Council, has brought discredit upon this Organization in the eyes of the indigenous population. The Belgian Government continues its policy of conquering by dividing and has opened a profound breach which can only be filled by the efforts of the United Nations.

We feel that the General Assembly must take the necessary measures to restore peace in this country, which has been so sorely tried by the most reactionary colonialism. But we should like to give the following warning in advance: Belgium and its authorities are not ready to abide by the decisions of the General Assembly. For this reason we hope that the United Nations will take all necessary measures to have its resolutions respected. It must make Belgium understand that Ruanda-Urundi is not its own fief and that the United Nations has a word to say on this matter.

Beligium received very prudent advice, among which I should like to quote the statement made by the Chairman of the Visiting Mission to the Trusteeship Council, a representative of the United States of America:

«... One is that the current effort by organized gangs to impose social justice in Ruanda, and to impose it by violence if necessary, has run its course. The people have absorbed as much social reform as they can for the moment, and violence need not break out again.

"The second point is that I believe national reconciliation at any moment, if suitable arrangements are made to deal not with some political groups but with all political groups — in or out of exile — who have a vital interest in the Territory's future. Otherwise the people of Ruanda-Urundi will have to be ruled by force, which the Ardministration itself would be the first to recognize as being no way to terminate its trusteeship.

"But time is moving very fast in Africa — so fast, in fact, that

remain in exile; tens of thousands of refugees wander without shelter in the neighbouring districts.

My desire to be brief constrains me to restrict my account of recent political events in Ruanda-Urundi. I would venture now to submit to the Fourth Committee the proposals of UNAR which contain the solution which will bring an end to political chaos in the Territory and will enable the country to accede immediately to independence in peaceful conditions.

Our proposals are as follows:

(1) Immediate intervention of the United Nations to help us to attain the unity of our Territory which the colonialist authority is trying to destroy;

(2) Immediate and unconditional general amensty measures;

(3) The suppression of the Nyamata concentration camps and of the new camp recently established in the Kibungu district;

(4) Repatriation of the refugees and idemnification for the loss of their property;

(5) The immediate withdrawal of Belgian troops stationed in Ruanda-Urundi and the liquidation of their military bases;

(6) The dissolution of the recently appointed assemblies and revocation of the government appointed;

(7) The organization by the United Nations of general democratic muncipal and national elections to set up assemblies elected by the people; these elections should be held in May or the beginning of June;

(8) The setting, by the fifteenth session of the General Assembly, of a target date of independence for Ruanda-Urundi, independence which should be proclaimed immediately after the national elections;

(9) Abrogation of all political administrative and other meausures that have already been taken to halt the unification movement between Ruanda and Burundi;

(10) The sending of a political mission of the United Nations whose task would be to lead this territory to independence in an atmosphere of peace;

(11) The return of Mwami Kigeri V to his country;

(12) The immediate organization by the United Nations of a round-table conference which would group together the leaders of all the political parties in Ruanda-Urundi in order to achieve a true national reconciliation.

My conclusions will be brief and limited to a few considerations concerning the attitude adopted by Belgium towards

were thrown into prison; many of our members were killed or deported or sent to the Nyamata concentration camp. These so-called communal elections conferred, of course, political monopoly on the neo-colonialist party, the PARMEHUTU.

But Belgian colonialism did not stop there. When Mr. d'Aspremont Lynden, the gentleman from Katanga, who was appointed Minister for African Affairs, at the end of September 1960, he hastened to support the following: (a) the legal division, without the consent of the people, of Ruanda-Urundi into two States: Ruanda and Burundi; (b) the installation in Ruanda of a government and an assembly all the members of which are appointed by the Belgian Resident-General of Ruanda-Urundi and all of whom are of course members of the neo-colonialist party; (c) the cancellation of the long hoped for round-table conference which, according to a categorical promise of the Belgian Government itself, was to take place in October 1960; (d) the early holding of legislative elections which would, still according to the promise of the Belgian Government take place after the round-table conference.

However, not only does tension continue in Ruanda but the political atmosphere is deteriorating and spreading to Burundi where an emergency regime has been installed for the last eight months. At the same time a sort of a puppet government has been established in Burundi under the camouflaged name of **commissaires généraux du pays** —general commissioners for the State: all the members of this government are also appointed by the Resident-General.

Disorders broke out there but were quickly repressed, although with casualties; the nationalist leaders were placed under house arrest and others were sent into exile. The Belgian parachute commandos go in for acts of brigandage to intimidate the population and compromise the free communal elections with a view to ensuring a victory for the reactionary political parties. The situation in Burundi is at present very tense.

We are now confronted in Ruanda-Urundi with estiablished neo-colonialism which the Belgian colonial authorities are seeking to consolidate by hastening legislative elections before the political climate at present dominated by daily disorders improves.

As a result of these disorders the Nyamata concentration camp is full of tens of thousands of people; the political leaders are still lying in prison while others

litical leaders of UNAR, including its President François Rukeba, were thrown into prison: the majority of them were tortured. Others fled and crossed the frontier. More than 3,000 of our members were imprisoned. The concentration camp of Nyamata was set up.

However, on 20 November 1959 the spokesman of UNAR — myself — sent a petition to the Fourth Committee of the General Assembly requesting that a mission of inquiry should be urgently sent to Ruanda-Urundi. The General Assembly adopted a resolution 1419 (XIV) to that effect, and a mission was sent at the beginning of March 1960. The mission made recommendations for an immediate general amnesty and for the organization of a round-table conferencee in Brussels at which all political leaders should be present with a view of studying the whole range of problems arising in Ruanda-Urundi and particularly national reconciliation. The mission advised against holding communal elections under a regime of military occupation and before the holding of the round-table conference: the mission further requested the abolition of the military regime and the reintegration and payment of indemnities to the refugees, etc.

At the Trusteeship Council meetings (7 August 1959-30 June 1960) I, as spokesman of UNAR, made a further petition that the anti-democratic communal elections should be cancelled and the conclusions of the mission of inquiry supported. I made similar recommendations to those given by the mission and asked Belgium to put them into effect (document No. 4/4/4404).

The Belgian imperialists considered these recommendations to be devoid of all foundation and entirely unacceptable. In the meantime, Belgian forces again invaded Ruanda-Urundi replacing Congolese units which were returning home after the independence of their country. Internal disorders grew worse: fires and massacres by the Belgian army became the rule which was applied against anybody suspected of being member or sympathizer of UNAR.

Despite the wise advice of the Trusteeship Council, the Belgian Government conniving with PARMEHUTU and APROSOMA, decided to go through with the so-called communal elections in June 1960 in an atmosphere of extreme tension. UNAR was obliged to abstain during these anti-democratic elections and this led to new disorders with reprisals against those abstaining.

The other leaders of UNAR

means Moslems), etc., who were demanding independence in order to enslave the Hutu race, after having thrown out the whites and destroyed the Church. All the colonialist newspapers asked for the positive action against us so that the people which they called Hutu should not be deprived of their benefactor — the Belgian trustee. The so-called Hutu political parties established by the Belgian Government demanded that Belgium should remain for a long time in the Trust Territory and claimed that to tolerate UNAR meant the enslavement of the Hutu people forever who according to them reprsent 85 per cent of the population. These neo-colonialist parties engaged in excessive demagogic activity against what, on the advice of the colonial Administration they called "Tutsi colonialism". At the same time, the official Press took pains to misinform international opinion about the political developments in Ruanda-Urundi by creating a state of psychosis such that it should be believed that the presence of Belgium was necessary for a long time to come, in order to bring about the end of tribal strife.

I would venture now to turn aside for a moment and state that in our view nobody failed to understand the true intentions of Belgium; no intelligent person was able to swallow whole the incongruous viewpoints which Belgium tried to thrust upon the world opinion.

Events were not slow in occurring. Thus, on 2 November 1959 a series of fires and murders were suddenly set under way in Ruanda by the joint action of the PARMEHUTU and APROSOMA political parties. With the obvious complicity of the Belgian colonial administration many of our members and sympathizers were killed over a period of six days when they had no means of defence. On 8 September 1959 the people who had been attacked made a counter offensive and inflicted serious losses on their assailants. It was in fact the beginning of a civil war which had been sought after and provoked by Belgian colonialism operating among the political groups of the country.

It seems, however, that well-intentioned intervention by the responsible authorities could have stopped events from going further, but this most reactionary colonialism had drawn up its plans to exploit this deplorable situation to the utmost. A regime of military occupation was decreed; Belgian parachute commandos from Kamina in the Congo invaded the Territory. On the subsequent days the po-

follows: immediate internal self-government followed by national independencee; complete reform of the customary authorities including the election of indigenous communal authorities; the establishment of a national assembly elected by universal suffrage of adults under United Nations supervision; fiscal reform; land reform in order to abolish abuses; and finally, a frank consultation between the political leaders of the Territory and the representatives of the Administering Authorities for the joint study of the reforms needed before national independence.

Finally, talks did take place betweeen the political leaders of the Territory and the representatives of the Administering Authority for the joint study of reforms needed before the national independence. The reaction of the Belgian colonial administration to these demands was very lively, for they considered them to be a serious threat to the interests of Belgium. The Belgians claimed that if these so-called extremist elements carried the elections, they — the Belgians —would be thrown out of the country. Thus, instead of seeking means of conciliation, the Belgian colonial Government felt that the time had come to resort to the exploitation of the tribalism it had encouraged for so long. The Belgian colonialists needed above all a plan of action against the nationalists, but first and foremost they needed to win over sections of the native population to put their plan into action. It is unfortunate fact that there were, particularly in Ruanda, a number of those men who are always ready, if they receive money or any of the other privileges which a colonial regime can bestow, to sacrifice the independence of their own country and give assistance to the colonial regime in order to establish its sucessor — subtler but no less harmful — neo-colonialism. These men were for the Belgian colonial Government a powerful instrument which might bring about the political death of the **Union nationale ruandaise** and this was only possible by fishing in troubled waters.

It was then that a so-called "anti-feudel" campaign was set under way by the political parties already created by the Belgian Administration, by the Press which was entirely in the hands of foreigners and by the Colonial Administration itself. The violent campaign concerned consisted — and still consists today — of qualifying our party, UNAR, as a political party of "feudal Tutsi", "communist fellow travellers", **"swahilisants"** (which in this context

THE BURNING QUESTION IN RUANDA-URUNDI

By Mr. MICHEL RWAGASANA

Never has the problem of Ruanda-Urundi been of such paramount importance as to-day. The great number of petitioners is a tangible sign of the political struggle now under way between the various political groups prior to independence. This shows to what extent the political situation in Ruanda-Urundi is serious and how complex the matter is. The national consciousness was already awakened in 1957 by a document issued by progressive elements consisting of what was then called the **conseil supérieur du pays** — the higher council of the State. This document entitled **"une mise au point"** — a clarification — demanded the democratization of our institutions in order to provide for internal self-government. It called for the abolition of the servitude regime and for the adoption of measures that would lead the country towards the end of the trusteeship system. Shortly after the publication of this document, another document appeared entitled the **Manifeste des Bahutu.** It also demanded the creation of democratic institutions and the continuation for a long period of Belgian trusteeship. These documents were, moreover, given to the Visiting Mission that came to Ruanda-Urundi in 1957. It is beyond all doubt that there were already two schools of thought at the time. One school advocated internal self-government in a short time and the other a refusal to increase rapidly the powers of the indigenous people as that might put an end to the trust system at an early period of time. The foreign Power already clandestinely favoured the latter. It was during that period of time of political growth that Mwami Mutara III, who had clearly come out in favour of autonomy, died mysteriously at Usumbura in July 1958.

As a result of his unexpected death for which the Administering Authority was never able to give an explanation such that would calm public opinion, disorders broke out in the Kibuye district. They were, however, very quickly repressed. On 28 July 1959 Mwami Kigeri V was proclaimed by the people Mwami or King of Ruanda. A few days afterwards in difficult political conditions he took the oath to reign as a constitutional monarch. On 13 September 1959 the **Union nationale ruandaise** (UNAR) held its first national congress at Kigali in Ruanda. Our demands at the time were as

ians — **from whatever faction.** As a result, each faction has from time to time, accused the United Nations of interfering.

Faction. After two and a half months of serious confusion in the Congo, it is obvious to the United Nations Secretariat, the Security Council and the General Assembly that the most urgent need in the Congo is for a reconciliation between the political factions. Until and unless this is achieved, any really effective United Nations economic assistance is rendered impractical. It was with this understanding that the Security Council tried to pass, and the General Assembly in emergency session succeeded in passing, a resolution (with a vote of 70 to 0) appealing to the Congolese to solve their internal conflicts with the assistance of Asian and African representatives appointed by Hammarskjoeld's Advisory Committee on the Congo.

The resolution, supported by all the Afro-Asians, appealed to members of the UN for urgent voluntary contributions to a United Nations Fund for the Congo to be used under United Nations control and in consultation with the Central Government of the Congo. "Without prejudice to the sovereign rights of the Republic of the Congo," the resolution called upon all states to refrain from the direct and indirect provision of arms or other materials of war, except upon the request of the Secretary General.

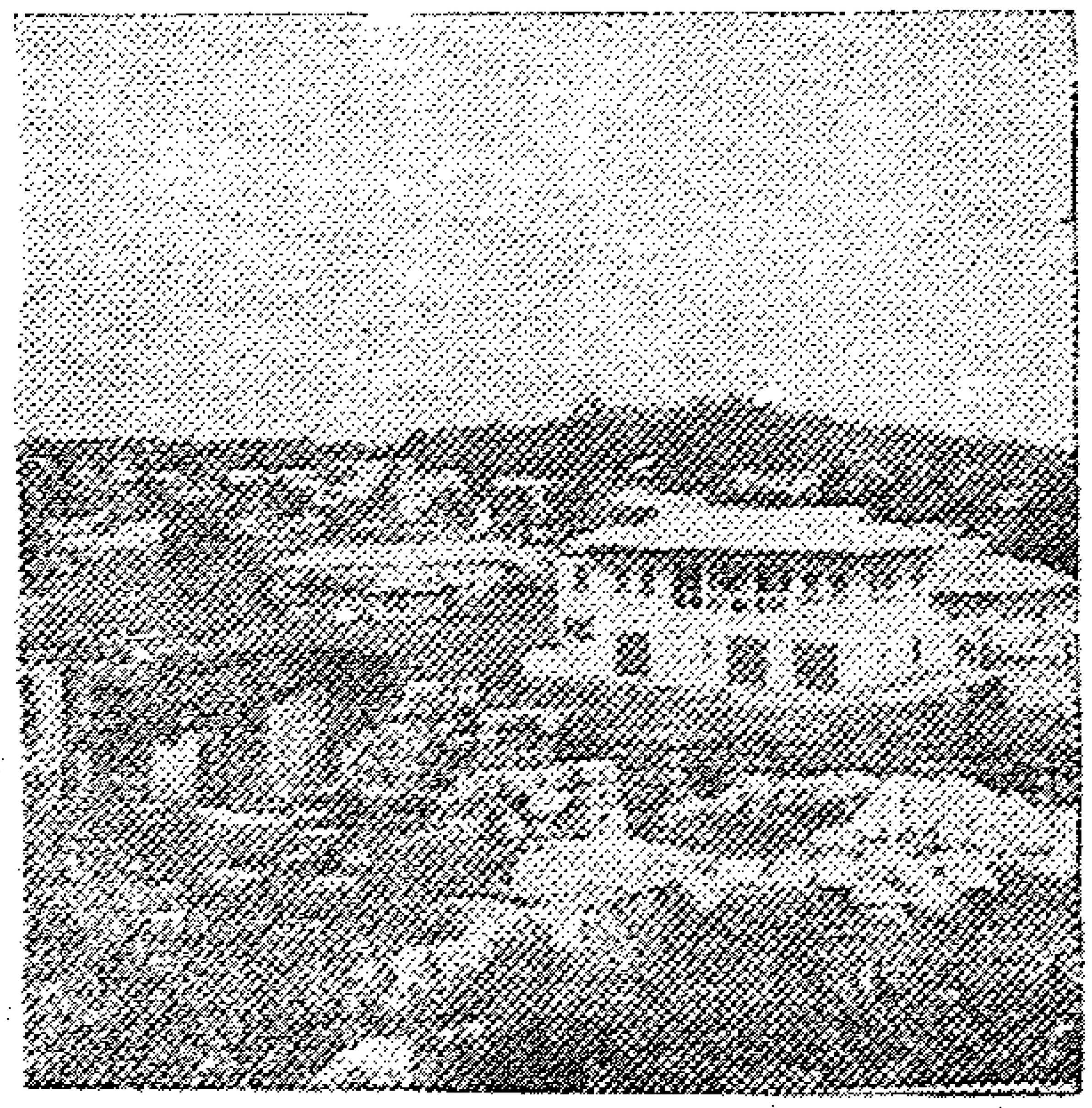

it was imperative that the colonials withdraw — both military and civilian personnel — from the Province of Katanga. This task of course has not been an easy one for him. There are circles in Wall Street, Washington and several European capitals who fully support the Belgian desire to remain in the wealthy province.

Despite the obsolescence of bases — since the development of missiles — there are also military circles which consider the NATO base in Katanga important. Once the Americans withdraw from the Moroccan base, the only other NATO base in Africa will be the one in Libya, on the Mediterranean. When it became clear that the Central Government of Congo, headed by Premier Lumumba, would not be likely to join any Western military alliance, the realization of Katanga's secession increased in importance to Western military circles.

Prime Minister Lumumba became impatient with the Belgian reluctance to withdraw and with the inability of the United Nations to force a withdrawal. And in his impatience with the United Nations, he turned to others in the hope of achieving the unity of the Congo immediately. He then accused the United Nations of interference.

The most tenet of Hammarskjoeld's philosophy on Africa calls for keeping the continent out of the cold war struggle. According to the Secretary General, the involvement of Africa in this contest would only hinder the development of the new nations and could possibly bring about a third major war with fearful consequences for all.

The Break-up. The sorry episode of the "break-up" of the Central Government followed by the UN take-over of the airports, ports and radio and UN support for Kasavubu made it look as though UN was no longer playing an impartial role. Yugoslav, Ghana, UAR and finally Soviet criticism of UN action precipitated a crisis in the UN organization.

While the UN in emergency session broke its head over the credentials of Congolese delegates another "government" was set up in the Congo by the Army Chief of Staff, Col. Joseph D. Mobutu bringing the total of "governments" to three, not counting Tshombe in Katanga who is generally discounted as a stooge who will fall once the Central Government is able to stabilize itself enough to take over Katanga from the Belgians.

As the confusion mounted, the United Nations Command, now directed by UN Special Representative Rajeshwar Dayal, has tried to protect all politic-

question of upholding the territory's integrity.

The Secretary General and his representative, Dr. Bunche, argued, however, that the nature of the UN force was that of a "peace force" and that any use of force, except in self-defence, would be contrary to the Charter of the United Nations. As a result of the recent tribal warfare, the United Nations Command has found it necessary to qualify this principle to prevent genocide.

Belgians in Katanga. The Belgians support — or creation — of Tshombe and his "government" in Katanga produced another serious problem politically, for the United Nations Command. The Security Council placed primary importance on the withdrawal of all Belgian troops from the Republic of Congo. The withdrawal from the other five provinces — Kasai, Kivu, Orientale, Equateur and Leopoldville — proceeded reasonably well, but some of the troops were then deployed in Katanga Province, and the troops initially in Katanga remained. This faced the Secretary General with the problem of getting the Belgians out of Katanga, despite the insistence of Tshombe that Katanga was no longer an integral part of the Congo. Mr. Hammarskjoeld found it necessary to "negotiate" with Tshombe in order to accomplish the withdrawal. This "negotiation" which, however, resulted merely in great promises, brought on the wrath of the Central Government, headed by Premier Patrice Lumumba, and the criticism of his African and other friends.

Although the United Nations troops were finally able to enter Katanga, as a result of the efforts of Mr. Hammarskjoeld, and the major part of the Belgian forces did withdraw, there has been no statement to-date on the completion of the Belgian withdrawal. On the contrary, Belgian officers, disguised as civilians in some cases, have led the tribal warfare which has resulted in heavy loss of lives in the Provinces of Katanga and Kasai. Other Belgians — "technicians" — continue to run the Kamina airbase (reportedly established as a NATO base and fully equipped for nuclear attack), which the United Nations considers necessary to the economy of the area, since it provides employment for the entire community.

Critics of the United Nations Command in the Congo have argued that the Secretary General did not fully respect the integrity of the Republic of the Congo. Hammarskjoeld either trusted the Belgians too far or did not do his utmost to persuade Belgium, either directly or through her NATO allies, that

80 per cent reduction and prices have risen more than 40 per cent in most basic commodities.

Like many people emerging from colonial domination, the Congolese were filled with high hopes — some of them unrealistic — for immediate benefits from independence. First to be disillusioned were the members of the Force Publique who were not allowed to take over from the Belgian officers. The mutiny of the Force — with all its consequences — provided the Belgians with the excuse to return to the Congo with troops, ostensibly to restore order.

Ten days after the first disturbances in the Congo, the United Nations, on the authority of the Security Council, flew international troops into the new State to take over from the invading Belgian army. The Belgian reluctance to withdraw their forces, as requested by the Council resolution of July 14, led to another resolution of the Council on July 22 calling for "speedy" withdrawal. By this time the Belgians had set up a puppet government headed by Moise Tshombe in the Katanga Province which produces 60 per cent of the Congo's mineral wealth.

The Belgian attempt to induce Katanga to secede from the Republic of Congo, thus destroying the economy and returning to Belgian control the mineral wealth, brought about the Security Council decision (of July 14) calling for the entry of UN forces into the Province of Katanga necessary.

First Snag. The United Nations Congo Operation ran into the first serious snag when it failed to enter Katanga on schedule. Under Secretary Ralph Bunche (US), who had represented Mr. Hammarskjoeld at the independence ceremonies and was in the Congo five days later when trouble began, was asked to remain as the Secretary General's representative to head the operation. Following the Security Council directive, Dr. Bunche went with his assistants to Katanga to make arrangements for the entry of UN troops to replace the Belgians. When told by the puppet Tshombe that the entry of UN troops would be resisted with force, Dr. Bunche delayed the action.

Many observers at United Nations Headquarters feel that this was the first mistake of the UN Command in the Congo. According to this view, if the UN had gone ahead and entered the "secessionist" province, as directed by the Security Council, later loss of life, which ran into thousands, might have been avoided, and the UN would have avoided the criticism of the Central Government over the

political leaders. Mobutu tried to short-circuit this plan by calling the conference himself, dispensing with the services of the government.

These are the outlines of the picture that a UN delegation which visits Congo will observe. The initiative for the restoration of democratic government now rests again with the UN. It has to move cautiously to further the cause of genuine freedom in Congo and avoid playing into the hands of the colonialists.

HOW IT CAME ABOUT

The strategic territory of the Congo — more than four times the size of France — attained independence on June 30 only eighteen months after the first signs of militant political awareness. Before the Leopoldville disturbances of January 1959, the Belgian colonizers gave every indication of holding on to their African copper and uranium mines for good. Guided for eighty years by the motto, "pass d'elites, pas d'ennuis" (no elite, no troubles), the paternal Belgians made every effort to see that their African charges received nothing higher than secondary education. Congolese who did not accept manual labour sometimes found their hands cut off by their Belgian masters. Jobs in the civil service and professions were denied to the indigenes of the Congo.

Following the Round Table Conference in Brussels last January — which highlighted even at that time the differences between Lumumba and Kasavubu — when the Belgian Government decided to grant independence to the Congo in six short months, no efforts were made to turn over the administration of the territory to the Africans. According to United Nations reports, "at the time of independence there were only seventeen Congolese university graduates, not one doctor, no engineers, professors, architects, etc., and few, if any qualified lawyers... and it will take some twenty-two years before the Congo can produce enough of its own doctors to staff even a reduced schedule of health services."

Rich State. The mineral-rich Congo produces 311,000 tons of copper annually (about 9 per cent of the Western supply) and 18,587,000 pounds of cobalt (about 55 per cent of total world production) in addition to zinc, germanium, cadmium, radium, uranium, tin and industrial diamonds. While the Congolese fared better, economically, than Africans in other colonies, their situation was never proportionate to the mineral wealth of the territory. Following independence and the flight of capital to Switzerland and Belgium, the Congo franc is selling at about

he stood by his original demand —conciliation or no conciliation, Katanga wanted full independence. The most important figure in the Congo drama, Lumumba, held that there was no need to convene such conference when a ready-made solution was already available — restoration of Parliament and the Government approved by it.

Demand on U.N. Mobutu's role in the frustrating power struggle in Congo had become clear even earlier when he put in a demand before Rajeshwar Dayal, the UN Secretary General's Special Representative, for the removal of Guinea and Ghana troops from the UN force. The demand was apparently influenced by the discovery of a letter alleged to have been written to Lumumba by the Premier of Ghana, Nkrumah. The letter was stated to have been found in Lumumba's briefcase on the day he was arrested by Mobutu. Even if the letter is proved to be genuine—the Ghana's Charge d'Affaires in Leopoldville did not repudiate it —there is nothing in it beyond advice from the head of a friendly state and little to warrant any charge of interference. Nkrumah gave an assurance that "in any crisis I will mobilize the Afro-Asian bloc and other friendly nations in the present attempt to dethrone you" and added, "we have been in the game for some time now and we know how to handle the imperialists and colonialists. The only imperialist or colonialist I will trust is a dead one." The letter also spoke of the "treachery" of Kasavubu and Tshombe but advised Lumumba not to make an issue of it. It suggested that he should work with the United Nations until he had consolidated his position and that the officers of the Force Publique (now the Congo Army) could be trained in Ghana.

The United Nations Command reacted to Mobutu's demand for removal of Ghana and Guinea troops with the toughness it has now come to assume towards disruptionist efforts. While the troops continue to stay, Rajeshwar Dayal, the UN Secretary General's Representative's appeal to Congolese parties to compose their differences and work for stability has not elicited any fresh move or yielded happier results than the mediatory efforts of the six African envoys in Leopoldville. Mobutu's idea of a round tabe conference is probably the outcome of these efforts, though it has not come in the shape they wanted. Their aim was to restore the democratic government established under the country's provisional "fundamental law" until a permanent constitution was drawn up by a round-table conference of

with 37 seats, while the Abako Party of Kasavubu won 13 seats, and the Conakat Party (of Tshombe) eight seats. The remaining seats were divided between several parties of which the largest were the African Solidarity Party, the Albert Kalonji group of the Congo National Movement and the Congo National Progressive Party.

Since his seizure of command over the army, Mobutu who has been reported to be living on pills to restore his nerves shattered by two attacks on his life, has been steadily and so far unsuccessfully working to eliminate Lumumba from Congo politics. His attempt to arrest and imprison Lumumba was foiled by the UN Command which, as a result of world criticism, had begun to get second thoughts and interpreted its duty as necessitating protection impartially to all Congo politicians.

Mobutu's Conference. Mobutu's latest attempt has been to isolate Lumumba and circumvent the Congo Parliament by convening a Round Table Conference of political leaders from the six provinces of the country. The conference was called in the name of the Kasavubu regime by Mobutu, its real author. The arrangements and organisation of the conference was left to Mobutu's "Council of Commissioners"—a farcical affairs of students called to man the government and on the face of it ridiculous in a country Belgian colonialism had restrained educational progress to strictly one dozen graduates. The Council, or the "graduates government" as cynical newsmen call it, has been protesting its intention not to claim any share in political power, but confine itself to running the essential public services. Mobutu's idea of organisation of the conference was to send a chartered plane to collect delegates from the provinces.

The UN authorities at first appeared to bless the conference proposal in the hope that it might go some way to effect a reconciliation between Congo's political leaders. But it did not take long for the emptiness of the hope to become clear. The Lumumba strongholds, the three provinces of Kivu, Orientale and Leopoldville, opposed the conference in telegrams sent to President Kasavubu—not to Mobutu, the convenor. Albert Kalonji of Le Miniere Etat, the "breakway state" of Kasai demanded, probably with a view to forestall any move to arrest him, that the conference should be held in (French) Congo and that Lumumba should be allowed to attend, if at all, only as a deputy of the National Assembly. Katanga's Moise Tshombe was too busy quelling tribal revolts against his regime to answer;

CONGO—A TEST CASE FOR U.N.

What kind of picture will a delegation on behalf of the U.N. as proposed by Prime Minister Jawaharlal Nehru in his address to the General Assembly on Monday, see if it visits Congo? The Prime Minister suggested dispatch of such a delegation to find out how many foreigners, apart from those belonging to the U.N., were present in Congo and how far they were interfering with local affairs.

His statement on the Congo, the part of his address which received the most frequent and longest cheers, helped to clear some of the confusion of understanding and purpose regarding the situation in the newly-freed state and the character of UN operations. Since the manner of execution of the Security Council's Congo decisions had called forth vigorous criticism not only from the Soviet Union but from two leading states in Africa, Ghana and UAR, a re-statement of UN objectives in Congo had become imperative.

The Prime Minister's terse description of what he considered to be the UN's functions in Congo left no scope for doubt:

1. To help the present elected Parliament of Congo to meet and function.

2. Every type of military or semi-military personnel of Belgium should be made to leave Congo.

3. The presence of Belgians, including military men, in Katanga, is a cause of disruption.

4. It is essential to maintain the integrity of Congo.

Parliament. This means, in effect, endorsement of the position of Prime Minister Patrice Lumumba and of the stand taken by Ghana and UAR in relation to the activities of the UN Congo Command. Restoration of authority and freedom to function to the Congo Parliament will swiftly change the situation in the country by bringing back Lumumba to full and effective power. This the adventurist General Joseph Mobutu, the sergeant-major who has seized command of the army, has been doing his best to prevent.

A majority of the Congo Parliament is in clear support of Lumumba. The Parliament was elected in the middle of May, six weeks before the transfer of power from Belgian to Congolese hands. No less than 113 parties had contested the election to the 137-member Parliament. Lumumba's Movement Nationale Congo emerged the strongest party in the election

« السيدة بولين مع أولادها فى الكونغو »

Forth Year

Issue No. 40, February, 1961

Nahdatu IFRIQUIAH

SPECIAL ISSUE
ON
LUMUMBA

IN THIS ISSUE

- Human Tragedy.
- This Hero's Blood.
- Economic Principles of the Congolese Problem.
- A Lumumba Profile.
- Ruanda Urundi Question.

السنة الرابعة

العدد ٤١ — مارس ١٩٦١

نهضة افريقية

في هذا العدد

- الكونغو في مهب الأعاصير
- ألوان من التفرقة العنصرية
- من الكشوف الجغرافية
- شخصية العدد
- نقد الكتب

٩٦ صفحة

الثمن ٣ قروش

« لومومبا . . وجيزنجا »

نهضة إفريقية

نهدف هذه المجلة إلى :

١ – تنمية الوعى القومى الافريقى .

٢ – التعارف بين الافريقيين فى مختلف بيئاتهم وحياتهم الاقليمية .

٣ – نشر البحوث الخاصة والعامة التى تهم كل إفريقى فى مجاله الحيوى .

وللمشتركين الحق فى :

١ – الحصول على المجلة بانتظام وكذلك المطبوعات التى تصدرها المجلة بين وقت وآخر بثمن مخفض .

٢ – الافادة من خدمة لجنة الاتصال بالمجلة بقدر الامكان .

● ترحب « مجلة نهضة افريقية » بالمقترحات ، والآراء ، والنقد ، وتعمل على تحقيقها .

● ليس من الضرورى أن تكون المقالات التى تنشر فى هذه المجلة معبرة عن رأيها .

ترسل المراسلات باسم :

السيد رئيس تحرير مجلة نهضة إفريقية

٥ شارع أحمد حشمت – الزمالك بالقاهرة

تليفون المجلة ٨٠٧٦٥٨

الاقليم المصرى

بالجمهورية العربية المتحدة

ترسل قيمة الاشتراك فى المجلة إلى :

دار أخبار اليوم للتوزيع

٧ شارع الصحافة بالقاهرة

الاشتراك سنوياً :

لمصر والسودان ٣٠ قرشاً

ثمن العدد ٣ قروش

مطابع كوستاتسوماس وشركاه

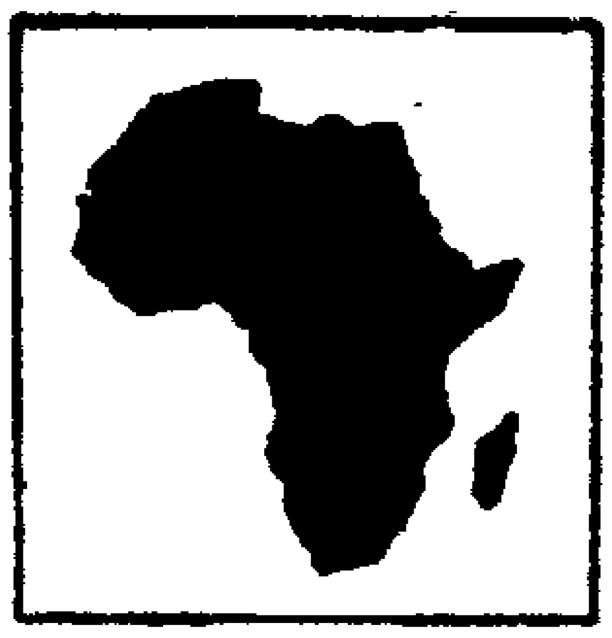

العدد ٤١ مارس ١٩٦١

نهضة افريقيه

مجلة شهرية للثقافة الأفريقية

رئيس التحرير

محمد عبد العزيز اسحق

فكرة ..

— ١ —

لقد كانت ظاهرة بارزة فى عيد الوحدة هذا العام هذا الاهتمام القوى بقضايا الحرية فى القارة الإفريقية ، فقد حفلت خطب الرئيس بأن الجمهورية العربية المتحدة تساند كل قضايا الحرية فى إفريقية ، وتذود عنها « الغربان » بعد أن نهشت قلبها ، وحاولت أن تعود إلى الآفاق التى طردت منها . ولكن وعى كل الدول الإفريقية ، يترصد هذا الوباء ، ويذوده عن الأرض ، وحياة الناس ، ومستقبلهم .

وفى ضوء هذه الحقيقة سمعنا هذه التأكيدات فى دمشق ، ومن السيد عمر لطفى فى الأمم المتحدة ، ومن هذه الالتقاءات التى تمت بين الرئيس وملك رواندا — أورندى المعزول ، وزعماء روديسيا ، وبين المسئولين ووفد « مالى » الذى يزور الآن البلاد .

وهكذا نرى أن الجمهورية العربية المتحدة درع للحرية ، وقاعدة للاستقلال .

— ٢ —

تتردد الأنباء بأن جنود « مبوتو » ينضمون طواعية إلى جيش « جبزنجا » وأن دماء لومومبا قد كشفت الآن التضليل الذى ساد الكونغو ، وهكذا يخدم لومومبا قضية بلاده فى حياته ، وفى موته !

« عبده بدوى »

فهرس العـدد

	صفحة
الكونغو فى مهب الأعاصير : للأستاذ محمد عبد العزيز اسحق	٣
ألوان من التفرقة العنصرية : فى إفريقية : للدكتور عبد العزيز كامل	٩
من حركات الكشوف الجغرافية فى السودان : للدكتور نسيم مقار :	١٩
نقد الكتب : للأستاذ عبده بدوى	٣٠
مشكلة الكونغو فى أعياد الوحدة :	٣٧
جولة مصورة حول إفريقية :	٤٤
ضوء على كتاب :	٥٣
شخصية العدد :	٦٠
كلمات وصور :	٦٥
العودة إلى الحرية :	٥٤
من وحى إفريقية :	٧٧
من القصص الإفريقى : للأستاذ عبد الواحد الامبابى	٧٨

الكونغو في مهب الأعاصير

بقلم: الأستاذ محمد عبد العزيز إسحق

تهاوت جثث الزعماء الكونغوليين الأبطال فى معتقلاتهم الرهيبة فى « كاتانجا » وفى جنوب « كاساى » وترنحت معها آمال الإفريقيين فى استقلال الكونغو ووحدة أراضيه وفى مستقبل الحرية فى القارة الإفريقية جمعاء .

لقد اجتمعت — قبل الفاجعة بأيام — اللجنة التوجيهية لمؤتمر الشعوب الإفريقية فى « دار السلام » . وكان مكان لومومبا — عضو اللجنة — خالياً . ولكن إخوانه المجتمعين ، ومن حولهم شعوب تنجانيقا وكينيا وزنجبار ، وإلى الجنوب منهم أقوام مجاهدون فى الروديسيات وأنجولا وموزمبيق ، وفى أقصى القارة إلى أطراف رأس الرجاء الصالح شهدت بنفسى كيف كانت تخفق القلوب الحانية على الزعيم السجين وكيف كانت تختلج الملامح العاطفية المعذبة مع ما يذاع عنه من أخبار أو شائعات .

وفى مدينة « سالسبورى » سمعت أفراد الشعب الإفريقى يدعون « جوشيا أنكومو » بقولهم (رئيسنا) وإذا جاء ذكر « لومومبا » قالوا عنه (زعيمنا) ، وفى « جوهانسبرج » كان اسم « لومومبا » تصحبه قشعريرة الأمل فى أجساد عمال الفحم وحفار مناجم الذهب فى سراديبهم المظلمة الرطبة الراكدة الهواء فى أعماق الأرض . .

وفى ذات يوم .. فى أوائل فبراير هبت نسائم منعشة على الخواطر المكتئبة ، فقد أذيع أن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية قد دعا إليه « تمبرليك » سفيره فى ليوبولد فيل . وأن الرئيس الأمريكى الجديد — بعد أن رأى ثبات أعوان لومومبا فى الجانب الشرقى من الكونغو ، وبعد أن شهد ، وشهد معه العالم أجمع أن لومومبا السجين لا يقل قوة ورهبة عن لومومبا الطليق ، وأن قوى الحرية — فى أركان الدنيا — تتأهب زاحفة لنصرة لومومبا ، لم يستطع أن يتجاهل الواقع المحسوس وأن ينساق — كما انساق سلفه — مع المطامع الاستعمارية الاحتكارية . وإنما ارتأى أن يسلك طريق العدالة ، وأن يعمل على توجيه التيار فى الكونغو بحيث تعود الحياة البرلمانية ويفرج عن

الزعماء السياسيين وتتكون حكومة ائتلافية تمهد لتعرف رأى الشعب عن طريق انتخابات جديدة ، وأن يعاد تنظيم الجيش الكونغولى بحيث لا يتدخل فى السياسة .

وكانت نتيجة هذه السياسة — لو نفذتها — معروفة محتومة ، يعرفها الاستعمار كما تعرفها الشعوب الإفريقية فإن عودة البرلمان معناه عودة لومومبا ظافراً إلى الحكم ، وإعادة تنظيم الجيش الكونغولى ، معناها إبعاد (غير العسكريين) والطفيليين على الحياة العسكرية وعلى رأسهم (مبوتو) الذى كان — منذ أقل من سنة — موظفاً على الآلة الكاتبة ، واندفع فى تأييد اومومبا فأرسله ليتدرب على (النظام العسكرى ثلاثة أشهر ، ولما عاد عينه (كولونيل) ثم رقاه رئيساً لأركان الحرب .

كان لا بد إذن — لو أخذت هيئة الأمم بسياسة الرئيس الأمريكى المقترحة أن يعود الحال فى الكونغو إلى ما كان عليه قبل (انقلاب مبوتو) على الأقل ، وأن يهيأ الجو أمام حكومة وطنية لا تتهاون فى استعادة « كاتانجا » ، و « كاساى » ، وهنا مربط الفرس لدى الاستعماريين المسعورين من بلجيك وإنجليز وفرنسيين :

لقد تواطأ هؤلاء جميعاً ، وتقاسموا العمل للقضاء على لومومبا بأى ثمن ، حاولوا عزله عن الشعب — وتقييد حركته — بوساطة قوات الأمم المتحدة ، فما ازداد الشعب إلا تمسكاً به ، والتفافاً حوله .

وحاولوا « شراء » البرلمان فأجلوا انعقاده شهراً بمرسوم من كازافوبو ، فلم يستجب البرلمان ومنح ثقته مرة ثانية وثالثة لرئيس الحكومة لومومبا ، وتحمس البرلمان مرة أخرى فكاد أن يصدر قراراً بعزل كازافوبو ، رئيس الجمهورية .

ولم ييأس الاستعمار وأعوانه فمنعت المرتبات عن أعضاء البرلمان إلى أن ضاقت بهم الحال ، فأطلت الدولارات والفرنكات داعية إياهم للانفضاض عن لومومبا ، ومد البعض يده — كارهاً — فتناول ما يفرج ضائقته ، ولكن أغلبية البرلمانيين ظلت ، مع ذلك ، على ولائها للزعيم الوطنى . واستحال على الاستعمار أن يعقد البرلمان على هواه حتى بعد سجن لومومبا وحتى بعد اغتياله . . .

ولما فشل الاحتيال على البرلمان ، حاولوا الاحتيال على الجيش ، فبعثروه فى أنحاء شتى ، وأبقوا فى « ليوبولدفيل » جماعة صغيرة أغروها بالفرنكات الحقيرة فأيدت مبوتو فى (انقلاب) هزيل لم تزد « قوته » يوم إعلانه عن ثلاث من « سيارات الجيب » . .

ومع ذلك ، ففى خلال الشهر الأول من الانقلاب ، اتصل لومومبا برءوس هؤلاء المتعاونين مع الاستعمار ،

وشهدتهم ، ذات يوم من أكتوبر الماضى ، فى بيت لومومبا ، يعرضون مساعيهم لوحدة الصفوف ، ثم قرروا ندب وفد منهم ، يمثل مختلف القبائل ، للطواف بالمقاطعات والدعوة إلى الوحدة وجمع الشمل وتكوين حكومة — يرأسها لومومبا — وتجمع كافة الزعماء .

وبارك لومومبا مساعيهم ، وسافروا إلى « كاتانجا » فرفض تشومبى أن يقابلهم ، واستمروا فى طوافهم ، مؤيدين من الجيش والشعب ، وعادوا إلى ليوبولدفيل ليجدوا أمراً — من مبوتو — بالقبض عليهم وتجريدهم من رتبهم العسكرية وإعادتهم إلى بلادهم النائية .

وظهـر الملحقـون العسكريون الأجانب حول « مبوتو » ، هذا يمده بالدولارات ، وذلك يقدم له السلاح ، وثالث يأتى له بالملابس العسكرية الزاهية ، وفى ذات يوم من نوفمبر ، أقام (استعراضاً) لقواته ، ظهرت فيه بملابسها (الأمريكية) وأسلحتها (الإنجليزية) وضباطها (البلجيك) ، ومرت القوات بهذه الهيئة أمام منصة كان بين الجالسين عليها ممثلون « للأمم المتحدة » التى جاءت — أصلا — لإزالة التدخل الأجنبى بجميع صوره وألوانه .

وفى خلال تلك الأشهر المثقلة بالمؤامرات والمناورات بذل ممثلو الدول الإفريقية فى ليوبولد فيل جهد المستميت لوقف تيار الاستعمار ، وجمع كلمة الزعماء ، واستنشادهم ضمائرهم لإنقاذ الوطن ، وإنقاذ القارة الإفريقية كلها من حفرة رهيبة قد يتطلب الخروج منها عشرات السنين .

وفشلت جهودنا ، بعد أن لمع الأمل أكثر من مرة ، فقد انضم إلى الدولار والفرنك ، مستشارو السوء ، وحقد الزعماء (الأقزام) على لومومبا العملاق ، وخشيتهم من الانطفاء ، واحداً وراء آخر أمام شخصيته اللامعة الوهاجة . . .

بل إن الجهود التى بذلناها ولم توفق ، جعلت الاستعماريين يدفعون عملاءهم دفعاً فى الاتجاه المضاد ، فشدوا الحصار على لومومبا واعتقل أنصاره من النواب والشيوخ (رغم حصانتهم البرلمانية) وأحدثوا انقلاباً — وقتياً — فى « ستانلى فيل » وانطلق مبعوثو « تشومبى » فى أوروبا يجمعون له الجند المرتزقة ، وامتد الصراع إلى نيويورك فطرد ممثل لومومبا (أى ممثل الحكومة الشرعية المنتخبة) من هيئة الأمم وحل محله مندوب كازافوبو ممثلا لشعب الكونغو . . . !

ولم يقف لومومبا المحاصر فى ليوبولد فيل مكتوف اليدين ، فقد بعث بأولاده إلى بلد إفريقى شقيق ، وأرسل « جيزنجا » إلى « ستانلى فيل » (فقلب الانقلاب) وأوفد « كاشامورا » إلى مقاطعة « كيفو » فطهرها من

أعوان مبوتو ووقف بها – وجها لوجه – أمام القوى البلجيكية المجاورة فى « رواندا » ، وحمس أنصاره فى « ليوبولدفيل » فقام شباب حزبه بالمظاهرات ووزعوا المنشورات وسقط منهم القتلى والجرحى أمام مكاتب الأمم المتحدة وعلى مشهد من الضباط ، والجنود الدوليين .

وبعد أن صمد « لومومبا » فى مقر رياسة الحكومة ثلاثة أشهر تكشفت له فيها نوايا « الأمم المتحدة » تكشفاً نهائياً وعرف فى خلالها من معه ومن عليه بين الدول الإفريقية قرر أن يحطم الحصار وأن يذهب إلى معاقله فى شرق الكونغو وأن يجعل من تلك المعاقل موثباً لتحرير البلاد من جديد .

وتتبع العالم « لومومبا » ، وهو يشق طريقه فى صفوف الأعداء ويوشك أن يبلغ بر الأمان . ولكن سوء الطالع – سوء طالع الكونغو – أفسد الخطة بعد أن أوشكت على النجاح ، وشهد العالم مرة أخرى ، ذلك النمر الشجاع يتحدى جلاديه وهو مقيد بالأغلال ، ويخيف كازافوبو ومبوتو وأعوانهما المدججين بالسلاح .. يخيفهم فلا يجرءون على إبقائه بالقرب منهم فى سجن فى معسكر ليوبولد فيل . فينقلونه بعيداً فى سجن « تيسفيل » ويحيطونه بالزبانية الممتلئة قلوبهم بالشر والحقد والكراهية .

وأترك الحديث لحظة لمجلة «تايم» الأمريكية وهى تقول : « لقد مضت أيام على لومومبا فى سجن تيسفيل ، استطاع خلالها أن يتألف قلوب الحراس (الزبانية) وبدأ هؤلاء الحراس يتمردون على قادتهم ، وتسربت الأنباء إلى ليوبولد فيل فطار مبوتو وكازافوبو إلى المعسكر ووجدا لومومبا يتنقل فى أرجائه ، ويصرف شئونه . »

وقد صادف ذلك ، بوادر تحول السياسة الأمريكية إلى اتجاه لا يلائم (شركات التعدين ، فى كاتانجا وكاساى) ولا يرضى المستعمرين وأذنابهم فى (الكونغو الفرنسى) وفى الروديسيات وهنا طعن الاستعمار لومومبا طعنته الغادرة القاتلة ، فتم نقله مع زميليه إلى كاتانجا ، ووضع بين يدى زبانية جدد (من البلجيك) لا يرتجى أن يتحرك لهم « ضمير وطنى » كالذى تحرك لدى المخدوعين الكونغوليين من حرس « تيسفيل » .

عندئذ أيقن أصدقاء لومومبا أنه مقضى عليه . وفى اجتماع « دار السلام » كنا ننظر إلى مقعده الخالى ونحن نشعر فى قرارة أنفسنا أن هذا المقعد سيظل خالياً إلى الأبد . وما هى إلا أيام قلائل حتى أذيعت أنباء المهزلة المدبرة ، مهزلة الفرار والقتل على أيدى (القبائل المعادية) ، و « شهادة الوفاة » التى كتبها طبيب بلجيكى ولم يستطع أن يخفى من خلالها شعور التشفى والشماتة .

لقد اجتمع « مجلس الأمن » بعد

ذلك فى جو عاصف مرعد شمل الدنيا بأسرها ، واتخذ قرارات اقترحتها الجمهورية العربية المتحدة ، وليبيريا ، وسيلان . وتقضى هذه القرارات بالتحقيق العادل فى « مقتل لومومبا » وفى استخدام القوة — إذا اقتضى الأمر — لوقف الحرب الأهلية ، وفى بذل الجهد لإعادة البرلمان وتكوين حكومة ائتلافية ، وسحب البلجيكيين ، من عسكريين وخبراء — من أراضى الكونغو .

وهذا كله جدير — إذا نفذ — بتحقيق آمال الوطنيين الإفريقيين . ولكن ، من الذى يوكل إليه التنفيذ .

إن الذى يوكل إليه التنفيذ هو السكرتير العام للأمم المتحدة ، وممثلوه فى الكونغو ، فما مدى الأمل و«الثقة» التى يمكن أن تعقد على السيد همرشولد وممثليه . . .

إن هذه القرارات تدعو — مثلا — إلى انعقاد البرلمان ، وقد يقرر البرلمان — بل إنه من المقطوع به أن يقرر — وحدة البلاد ، فهل نتوقع من السكرتير العام للأمم المتحدة أن يعمل على إعادة كاتانجا إلى الكونغو . . ؟ وهل ننتظر منه أن يأمر جيوشه بإسقاط الطائرات (الكاتانجية) التى يقودها الطيارون البلجيك والتى تعمل منذ أشهر على إبادة البالوبا . . . ؟

هل يرغب السيد همرشولد فى تحدى (اتحاد التعدين) فى كاتانجا وشركات الماس فى كاساى وأن يصر على جلاء العسكريين وأشباه العسكريين من البلجيك وغيرهم من الأجناس المرتزقة عن مناطق المناجم . . ؟

لقد أعلن المندوب البريطانى فى مجلس الأمن — بعد أن وافق على المشروع العربى الليبيرى السيلانى ، أنه يفهم من عبارة (استخدام القوة إذا اقتضى الأمر ، منع « التحام » الجماعات الكونغولية المتعارضة) . ومعنى ذلك أن بريطانيا تؤمن بضرورة (بقاء الحال كما هو عليه الآن) ومنع أى « التحام » جديد ، أى أن تبقى كاتانجا كما هى ، وكاساى وليوبولد فيل فى جانب ، وكيفو وستانلى فيل فى جانب آخر . ولن تتوانى بريطانيا وعملاؤها فى الروديسيات عن العمل بوسائلهم الخاصة على إقرار هذه السياسة .

وأعلنت بلجيكا أنها لا توافق على جلاء (الخبراء) وغيرهم ممن يعملون فى خدمة (حكومة) كاتانجا وفى (جيش) مبوتو .

وصمتت فرنسا ، ولكن (الأب يولو) رئيس الكونغو (الفرنسى) لم يتردد فى الاعتراض على قرارات مجلس الأمن ، وهو الذى يؤوى ، فى عاصمته (المستقلة) « برازا فيل » جنود المظلات الفرنسيين .

ولعل الأسوأ من هذا كله أن قيادة الأمم المتحدة فى الكونغو قد بعثرت قواتها على ملايين الأميال المربعة ، فى

الأدغال والأحراش لحماية المزارعين (الأجانب)، فى حين ركز تشومبى ومبوتو قواتهما فى بقع محدودة.

وقد جاء وقت عجزت فيه قوات الأمم المتحدة فى ليوبولد فيل –عسكريا– عن أن تواجه قوات مبوتو.

والمشكلة بعد هذا كله، مشكلة نفسية.

لقد كنت أتحدث منذ أيام، مع زعيم إفريقى عن أحداث الكونغو فأبدى يأسه من السكرتير العام للأمم المتحدة وقال باختصار: إن همرشولد رجل أوروبى...

وقد لمست هذا الشعور فى كافة المجتمعات الإفريقية التى مررت بها فى هذه الرحلة من نيروبى إلى رأس الرجاء الصالح...

والخوف الذى يخالج الجميع أن تكون موافقة الدول الكبرى على هذه القرارات (خدعة جديدة) أشبه، بالخدعة التى قامت بها نفس هذه الدول ونفس مجلس الأمن حينما فرضت (الهدنة) على الدول العربية واليهود، وعاونت اليهود فى الخفاء وأمدتهم بالسلاح الثقيل الذى مكنهم من فرض (الأمر الواقع) وهو اغتصاب فلسطين

مهما يكن من أمر، فهناك حقيقتان:

أولاهما أن مصرع لومومبا لن يمنع نساء الكونغو من أن تلد بطلا آخر...

وثانيهما أن الدول الإفريقيـــة المتحررة، وأصدقاءها فى أنحاء العالم، لن يخذلوا الأحرار فى «ستانلى فيل» وسوف يكون لهم النصر، ولو بعد حين.

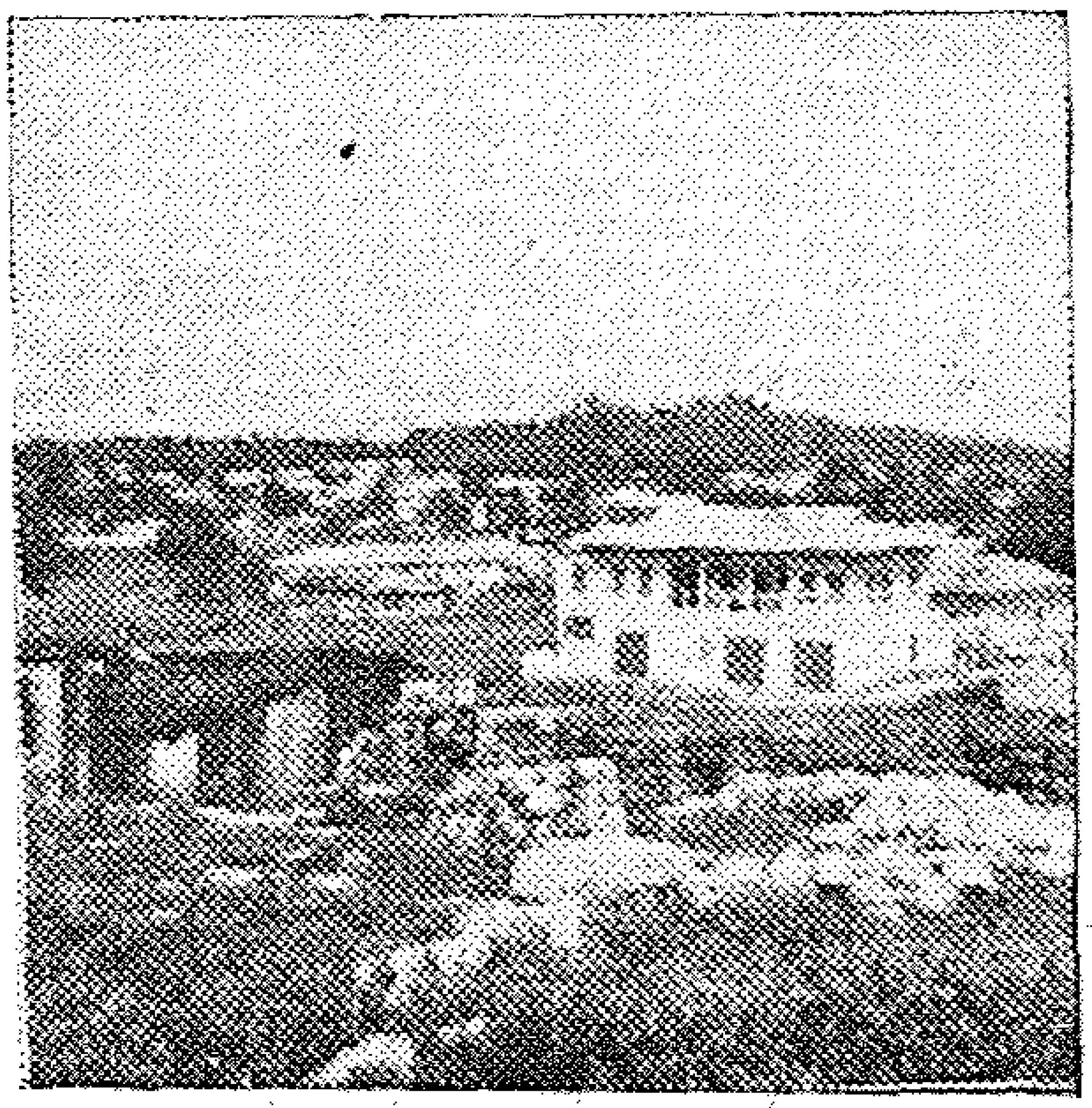

ألوان من التفرقة العنصرية في افريقية

الدكتور عبد العزيز كامل

لا ترتبط مشكلة العنصرية فى إفريقية باللون وحده ، وإن كان من مقوماتها العريضة . وإنما هناك عوامل أخرى متعددة : ثقافية ، واجتماعية ، وسياسية ، واقتصادية تتفاعل جميعاً لتحدد ملامح هذه المشكلة فى القارة .

وليس البيض وحدهم هم الذين يمارسون سياسة عنصرية فى إفريقية ، وإن كانوا يحملون الوزر الأكبر فيها ، ومن الممكن أن نميز فى القارة بين نوعين من العنصرية ؛ نستطيع أن نسمى الأولى : العنصرية السوداء وهذه مارسها أفراد أو جماعات ترجع بأصولها إلى إفريقية واصطلى بنارها أبناء القارة أنفسهم . والثانية : العنصرية البيضاء وهذه مارسها المستوطنون البيض عند ما استقروا فى إفريقية وبخاصة فى الجنوب والوسط والشرق جنوب الصحراء ، وفى نطاق البحر المتوسط ، وبخاصة فى الجزائر حيث للعنصرية البيضاء طابع متميز .

العنصرية السوداء :

ولا ترتبط العنصريـــة السوداء باللون ، ولا بالصفات الجسمية . وإنما ترتبط أساساً بالميراث الثقافى . وهى الآن آخذة فى الزوال من القارة . وإن كان هذا لا يمنع من الإشارة إليها كحقيقة تاريخية . وقد استطاعت إفريقية فى تطورها الجديد أن تسير فى طريق التخلص منها خطوات نرجو أن تزداد سرعة وثباتاً .

ظهرت العنصرية السوداء فى ليبريا وسيراليون ولها علاقتها الوثيقة بظروف تكوّن هاتين الوحدتين السياسيتين .

سيراليون :

ففى أواخر القرن الثامن عشر أنشأت بريطانيا مستعمرة سيراليون . وكانت وقتئذ قاصرة على شبه الجزيرة ، وحاول البريطانيون أن يتخذوا منها منطقة إيواء لصغار الأرقاء . ثم نقلوا إليها بعض الرقيق من زنوج أمريكا الذين حاربوا فى صف البريطانيين ، فى حرب الاستقلال الأمريكية . ووفد إليها أيضاً بعض زنوج جمايكا وأصبح يطلق على هؤلاء الوافدين اسم ، (الكريول) . .

هؤلاء الكريول يكوّنون أقلية من المستوطنين السود يبلغ عددهم الآن نحو ثلاثين ألفاً ، بينما الإفريقيون الأصليون نحو مليونين .

وهناك فارق واضح بين الفريقين فالكريول متقدمون ثقافياً ، وتكنولوجياً وقد أفسحوا المجال لسيطرة الشركات الاستعمارية ، وأنشأت لهم بريطانيا كلية

«فرينون» منذ قرنولها صلتها بجامعة درهام البريطانية .

ولم تتوافر للإفريقيين الأصليين الفرص التى توافرت للكريول من التثقيف والتكوين الاجتماعى . ولهذا ظلوا فى وضع متخلف عن هؤلاء الذين احتكوا بحضارة الغرب .

وأحس الكريول الفارق الكبير الثقافى بينهم وبين الإفريقيين الأصليين — أو سكان الداخل ، كما يسمونهم — فأقاموا حاجزاً عبقرياً على أساس ثقافى . فاللون واحد . والكريول لا يتزوج من الداخل ، وقد يرى هذا عاراً ، بينما يقبل إخاء الإفريقى فى الدين والعقيدة . . ونشأ بهذا تناقض مرير بين فردين يجمع بينهما الجنس وتفرق الثقافة . . يقبلان الوقوف معاً أمام الله ، ويرفضان رباط النسب والمصاهرة

وتقع سيراليون بين ليبريا وغينيا . والأولى لها صلاتها القوية بالولايات المتحدة ، وكانت لغينيا روابطها بفرنسا قبل استقلالها ، وحال هذا الوضع دون توسع سيراليون إلى الداخل عندما حاول البريطانيون هذا فى أواخر القرن التاسع عشر . والأجزاء الساحلية أكثر إنتاجاً من الأجزاء الجبلية الداخلية التى تتعرض لجرف التربة ، ولا زال زيت النخيل أهم مواردها .

ومع تطور الوعى الإفريقى ، وعلو الموجة التحررية أخذت بريطانيا تفكر فى تطوير حكمها لسيراليون ، ويعطى هذا التطوير أغلبية فى المجلس التشريعى للإفريقيين الأصليين ، وهو أمر لم يكن من السهل على الكريول أن يتقبلوه . وصرح دكتور بانكول بريت Bankole Bright فى مؤتمر صحفى عقده فى لندن « نحن الكريول لا نستطيع أن نقبل أغلبية من سكان الداخل فى المجلس التشريعى ، وليس من المعقول أن يتحكم أفراد من المحمية فى الكريول فهؤلاء — أى الكريول — رعايا بريطانيون بالمولد ، ومن المستحيل أن يقوم نظام ديموقراطى يتساوى فيه المسيحيون والوثنيون بينما بعض هؤلاء — أى الوثنيين — لا زالوا يأكلون لحوم البشر ! ! »

إلى هذا الحد بلغ عنف الهجوم على الإفريقيين ، واتهامهم بأبشع ما يوصف به إنسان . . أن يأكل لحم أخيه ميتاً . . ومن الذى يلقى الاتهام الجائر ؟ إخوتهم فى الوطن والعنصر ! ! . .

وقد مضى دكتور بريت إلى قبره حاملا معه هذه العنصرية السوداء وأخلى الطريق لأجيال جديدة من أبنـــاء سيراليون الذين يعملون فى جبهة واحدة تضم الكريول والإفريقيين الأصليين وطالبوا معاً باستقلال سيراليون ووحدتها

وجاء هذا بعد تطور طويل يمكن إرجاع بذوره إلى الحرب العالميـــة الأولى التى دفعت بالإفريقيين من الداخل إلى الساحل . وعملوا فى المدن فى حرف بسيطة أول الأمر ، ثم جاءت

الحرب العالمية الثانية ، وأحدثت برامج التنمية والتطور العام ثورة فى أوضاع السكان الأصليين ، وفتحت لهم الطريق إلى المدارس والجامعات فى الوطن والخارج . واستطاع الوعى الجديد أن يكتسح الغيوم السود التى كانت تحجب شمس الحرية عن أرض سيراليون .

ليبريا :

وشاهدت ليبريا أيضاً فى مراحل تطورها لوناً من ألوان العنصرية ، السوداء ، التى تجنح الآن إلى المغيب . .

ونشأت ليبريا كثمرة من ثمار جمعية الاستعمار الأمريكية ، ويرجع قيام هذه الجمعية إلى عام ١٨١٧ . ولا زالت قائمة حتى الآن . كما أسهمت فى قيامها هيئات أخرى . تستهدف جميعاً إسكان الزنوج الأمريكيين المحررين فى غرب إفريقية .

وكانت هناك أسباب متعددة دعت أمريكا إلى انتهاج هذه السبيل التى سلكها البريطانيون فى سيراليون عام ١٨٢٠ . وحدث أول إسكان أمريكى عام ١٨٢٢ فى جزيرة بروفيدانس عند منروفيا وتتابع وصول وفود المحررين فى الجزيرة ، وبالقرب منها ، وظلت جمعية الاستعمار الأمريكية ترعى شئون المستوطنين المحررين حتى عام ١٨٤٧ عند ما أصبحت ليبريا دولة حرة شعارها : « حب الحرية جاء بنا إلى هنا » .

وفى عام ١٨٥٧ أصبحت مستعمرة « ماريلاند فى ليبريا » — وكانت عاصمتها هاربر — جزءاً من ليبريا ، وقامت مشكلة العنصرية فى ليبريا من أول يوم . فالمحررون الأمريكيون قد انقطعوا منذ أجيال عن حياة القبيلة وأصبحوا أمريكيين أكثر منهم ، إفريقيين . ويبلغ عددهم الآن نحو خمسة عشر ألفاً يقابلهم مليون ونصف من الإفريقيين الذين لم يبرحوا قارتهم .

ومساحة ليبريا ٣٧,٣٩٢ ميلا مربعاً ، ويعيش الليبريون الأمريكيون فى المدن الساحلية ، أو فى مزارعهم على جانبى نهر سانت بول الذى يصب فى المحيط شمال منروفيا — العاصمة — وهناك من الإفريقيين نحو خمسين ألفاً قد اكتسبوا الثقافة الغربية .

ويحيا فى ليبريا نحو سبعة آلاف من الأجانب منهم أربعة آلاف من إفريقية ، وبخاصة من صيادى السمك من قبيلة الفانتى التى تسكن الأجزاء الساحلية من « غانة » . ثم هناك ٦٠٠ أمريكى نصفهم يعملون فى مزارع المطاط التابعة لشركة فايرستون . هذا إلى أعداد من اللبنانيين ، والهولانديين ، والبريطانيين ، والفرنسيين ، والألمان ، والإسبان .

وهناك فرق واضح بين الليبيريين الأمريكيين ، والإفريقيين القدامى : فالوافدون لهم تكنيكهم الزراعى الحديث بينما القدامى لا زالوا على وسائلهم التقليدية البدائية ، وهذا التكنيك

الحديث ليس إيجابياً فى كل نواحيه ، لأن المستوطنين لا يمارسونه بأنفسهم ، وإنما تمارسه شركات امتياز لها رؤوس أموالها الأجنبية ، ومن أهم هذه الهيئات شركة « فايرستون » وتستغل المطاط المحلى . ومزارعها الرئيسية فى السهل الساحلى إلى الغرب من منروفيا ، تعتمد ليبريا على عائد هذه الأوضاع الاحتكارية ، وضرائب الأرباح فى ضمان جزء كبير من دخلها القومى .

* * *

وتبلغ المساحة التى تسيطر عليها شركة « فايرستون » مليون فدان . وقد بدأ تصديرها المطاط عام ١٩٣٣ ، أى بعد سبع سنوات من بدء الامتياز ، وفى عام ١٩٤٥ كان المطاط يمثل ٩٦٫٦٪ من مجموع صادرات ليبريا . ثم هبط الرقم أخيراً إلى ٦٦٪ للتوسع فى استخراج خام النحاس . وبعض الصادرات الأخرى .

يبدو من هذا شدة الارتباط بين اقتصاديات ليبريا والشركات الاقتصادية الأجنبية فيها ، سواء كانت هذه الشركات تعمل فى الميدان الزراعى أو الصناعى . وتبدو بالتالى قوة العلاقة بين الليبريين الأمريكيين ، وهـــذه الأوضاع التى يقوم عليها الهيكل الاقتصادى للدولة .

وقد كان للتوسع الزراعى أثره فى اشتداد الطلب على اليد العاملة الإفريقية ، وهو اشتداد كانت له آثاره لا فى ليبريا وحدها ، وإنما فى غرب إفريقية بعامة .

والذى تهمنا الإشارة إليه ما حدث عند ما اشتد طلب المستوطنين الإسبان فى جزيرة فرديناندوبو على اليـــد العاملة . . فهذه الجزيرة تقع فى خليج غانة ، وهى تحت الحكم الإسبانى ، وأخذ المندوبون الذين يعملون لحساب الإسبان فى جمع اليد العاملة من ليبريا لترحيلهم إلى الجزيرة . وكان تصدير اليد العاملة تحت ظروف سيئة للغاية ، تصل إلى درجة الرق المنظم . وتكونت لجنة تحقيق فى الفظائع التى ارتكبها مسئولون رسميون فى ليبريا مهدوا لهذا الرق الجديد وأعانوا على وجوده .

وتكونت لجنة دولية لتحقيق هذه الفظائع ، ونشرت اللجنة تقريرها فى عام ١٩٣١ . وأظهر التقرير أن الإسبانيين — فى سبيل الحصول على يد عاملة رخيصة لمزارعهم فى الجزيرة — اتفقوا على أن يدفعوا لبعض الموظفين فى حكومة ليبريا مبالغ تتراوح بين ١٢ ، ١٦ جنيهاً فى مقابل كل عامل إفريقى يسلمونه إليهم .

وأصبح هناك ، صيد رجال حقيقى لا يختلف عن غارات تجار الرقيق .

كان المندوبون يصطادون الشباب من الإفريقيين الأصليين من الغابات ، وتقبض عليهم قوات الحدود الليبرية . وبرز فى هذه التجارة البشرية اسم

منتر يانسى وكان وقتئذ نائباً لرئيس الجمهورية .

ويذكر هولمان جيمسون (١٩٦٠) فى دراسة له عن هذه المشكلة قصيدة كانت ترثى بها نساء قبيلة واديبو رجالهن الذين وقعوا فى براثن الإسبان فى فرديناندوبو عن طريق من أعانوهم على هذا الأمر من المسئولين الحكوميين وعلى رأسهم مستر يانسى Yancy :

كنا هنا عند ما جاءت المتاعب إلى شعبنا
من أجل هذا جاء يانسى إلى أرضنا
قبض على أزواجنا وإخوتنا
وأرسلهم إلى « نانابو »(١)
وهناك ماتوا
وهناك ماتو

* * *

اخبرنا
يا نسى . لماذا . . ؟
يا نسى . . لماذا . . ؟
ليس لنساء « واديبو » أزواج ؟
يا نسى . . لماذا ؟
ليس لنساء « واديبو » إخوة ؟
يا نسى . . لماذا ؟
ماتت الأمهات والآباء والأبناء . .
وهم ينتظرون الغائبين ؟ ! .
يا نسى . . لماذا ؟ . .

ويعلق هولمان جيمسون على هذه المرثية الدامية بقوله : « إنهذه القصيدة إدانة لكبار من موظفى ليبريا ، وإدانة للاستعمار الإسبانى وعملائه ، ويضع هولمان جيمسون ، يانسى فى مرتبة الجلادين ، الذين ذاقت على أيديهم إفريقية أشد العذاب ، مثل ليوبولد جلاد الكونغو ، وكان من نتيجة هذا التحقيق الدولى أن أدين الجهاز الحاكم القائم . وأجبر الرئيس كنج على الاستقالة . كما حوكم واتهم كثير من كبار الموظفين .

كان هذا عام ١٩٣١ . وتطورت الأوضاع بعد الحرب العالمية الثانية ، وبعد أن زار «جنتر» ليبريا فى عام ١٩٥٥ ضيفاً على الحكومة قال « إن الغالبية العظمى من الأهالى لا زالوا محرومين من ثمار الحكم ، أو العمل فى ليبيريا ، ولكن « تبمان » Tubman — رئيس الجمهورية — عمل أكثر مما عمل أى رئيس سابق ، واستطاع أن يرى ، أن ليبريا لن تكون دولة قادرة على الحياة إذا كان ١٪ من سكانها يتحكمون فى ٩٩٪ من الأهالى . إن الأهالى لم يحصلوا على الكثير من « تبمان » . ولكنهم أخذوا شيئاً . وأصبح منهم — لأول مرة — أعضاء كثيرون فى مجلس النواب ، وإن كانوا محرومين من مجلس الشيوخ . . إنجموع القبائل لا يمكن أن تظل إلى الأبد تحيا تحت هذه الضغوط ، وما يعمل له تبمان هو توحيد الشعب » .

وبعبارة أخرى يحاول إنهاء نظام العزل الاجتماعى الذى فرضه الإفريقيون الوافدون على الإفريقيين القدامى .

وتنص الفقرة الرابعة من وثيقة

(١) جزيرة فردينادوبو

استقلال ليبيريا على ما يأتى :

« نحن شعب جمهورية ليبيريا . كنا أصلا من سكان الولايات المتحدة فى أمريكا الشمالية . وقد اقترحت جريدة نيجيرية هى لاجوس ويكلى ريكورد تعديل هذا النص إلى « نحن شعب ليبيريا الذى يتكون من المواطنين الأصليين لهذا القطر ، وأبناء الإفريقيين الذى أخذوا إلى حياة الأسرى فى نصف الكرة الغربى . . » فهذا التعديل قد يكون له أثر طيب على نفوس الشبيبة من أبناء الليبيريين الأمريكيين .

والآن . . من الذى سيقوم بهذا التوحيد . . الوافدون ، أم سكان القطر القدامى ؟

لا تستطيع أن تتكهن بذلك ، وإنما الذى يمكن تأكيده : هو أن الوعى الجديد فى إفريقية قد استطاع أن يرتفع فوق حاجز العنصرية السوداء ، وعن قريب سيتمكن من إزالة بقايا العنصرية السوداء من هذه الدول الإفريقية ، حتى تتفرغ القارة للقضاء على العنصرية البيضاء وفى شرق إفريقية ، ووسطها ، وجنوبها ، وشمالها .

وصفوة القول أن العنصرية السوداء فى غرب إفريقية كان أساسها ثقافياً . . جاء من اختلال الوضع الثقافى بين المحررين الذين عادوا إلى القارة ، والإفريقيين الأصليين الذين لم يبرحوها فالوافدون رأوا أنفسهم جزءاً من عالم تركوه وراءهم بحثاً عن الحرية ، فلما جاءوا إلى أرض الأجداد . . الوطن الأول الذى سيعيشون عليه ليربطوا بين حاضرهم ومستقبلهم ، لم يستطيعوا أن يربطوا بين الحاضر والماضى . . . ووقفوا موقفاً انعزالياً عن قومهم . . وهم منهم وإليهم ، وطبقوا عليهم تفرقة عنصرية ، هم كانوا أول الكافرين بها فى العالم الجديد . . وسقوهم من الكأس المرة التى طالما تجرعوها على ضفاف المسيسبى وفى مزارع القطن فى تكساس ولويزيانا ، وحقول القصب فى جزر الهند الغربية .

عادوا إلى إفريقية يمارسون هذا اللون البغيض من التفرقة . . التفرقة بين الأسود والأسود . .

وإذا كانت الظروف فى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين قد جعلت هذه الممارسة أمراً يباركه الاستعمار الغربى . . . فان النصف الثانى من القرن العشرين يشاهد تطوراً جديداً فى الرأى العام العالمى ، والموازين الدولية . . فقد ظهرت على المسرح دولا إفريقية جديدة . وأصبحت القارتان العتيقتان : آسيا وإفريقية . . قارات المستقبل ، يعيش فيها أكثر من نصف البشر ولها مواردهما الاقتصادية الجبارة ووعيهما القومى الجديد ، واتجاهاتهما فى السلام العالمى ، والحياد الإيجابى ، وعدم الانحياز .

هذه التطورات الكبيرة فى إفريقية أثرت تأثيراً عميقاً على تطور الأحداث فيها ، وأثرت على النظرة إلى مشكلات القارة . . . وألقت الضوء القوى على العنصرية السوداء ، فبدت كائناً بشعاً كريهاً ، لا يستطيع أن يحيا فى الأفق الجديد الذى تسعى نحوه القارة .

من أجل هذا ، بدأت تذوى هذه الأشجار السامة ، وتتساقط ، ثم جرفها تيار الوعى

الجديد ليلقيها بعيداً عن شواطئ إفريقية .. فى محيط التاريخ .

يبدو من هذا ، كيف أن العامل الثقافى كان له أثره فى إيجاد التفرقة العنصرية بين أبناء القارة الذين لم يبرحوها ، وأبنائها الذين عادوا إليها من العالم الجديد ، وكيف أن تطور القارة استطاع أن يمهد السبيل إلى ملء الفجوة التى تفصل بين الأبناء حتى تخلو أرض إفريقية من هذه الأخاديد العنصرية التى فرقت بينهم زمناً ..

العنصرية البيضاء :

تختلف العنصرية البيضاء فى طبيعتها عن العنصرية السوداء .. فالأساس فيها لونى يرتبط أوثق الارتباط بعوامل اقتصادية ، وسياسية ، واجتماعية .

ويمكن أن نقسم مناطقها من الناحية الجغرافية إلى قسمين : الأول : العالم العربى الإفريقى ، والمشكلة هنا لا زالت قائمة فى الجزائر .

الثانى : العالم الإفريقى جنوب الصحراء ، وأهم الأقطار التى ابتليت بالعنصرية : اتحاد جنوب إفريقية ، واتحاد وسط إفريقية ، وشرق إفريقية البريطانى ، وبخاصة تنجانيقا وكينيا ، ثم الأقطار الواقعة تحت النفوذ البرتغالى فى موزمبيق وأنجولا .

والفارق واضح بين القسمين الأول والثانى : ففى القسم الأول لقى الاستعمار الفرنسى حضارة قائمة لها أصولها العربية الإسلامية ، وامتدادها التاريخى وروابطها الأفقية مع بقية أجزاء العالم العربى والإسلامى ، وهى ظروف لم نجدها فى أجزاء إفريقية الواقعة جنوب الصحراء إذا استثنينا الجزء الشرقى المطل على المحيط الهندى ، والذى استطاع المسلمون فيه أن ينشئوا دولا مستقرة ، ترتكز على الجزر الساحلية والسهل الساحلى وتمتد منه حتى استطاعت حمل المؤثرات العربية والإسلامية إلى الأجزاء الشرقية من حوض الكونغو ، ولو طال بها الوقت لاستطاعت أن تكتفى بالمؤثرات العربية والإسلامية الزاحفة ، من غرب القارة إلى نطاق الغابات وتتعاون الموجتان الشرقية والشمالية على نشر الثقافة العربية والإسلامية ، فى الأجزاء الباقية من القارة .

ومع أن هناك دولا وممالك زنجية كانت قائمة فى جنوب الصحراء .. فى حوض الكونغو وهضبة البحيرات الاستوائية وأجزاء متفرقة من وسط وجنوب القارة .. إلا أن هذه الدول لم تكن لها حضارة مشتركة تجمعها ولا لغة واحدة تربط بين أبنائها .. وكانت هناك عقبات من الغابات والمستنقعات تحول دون الاتصال ، أو — على الأقل — تعوقه . وكان اقتصاد هذه الدول قائماً إلى حد كبير على أساس الاكتفاء الذاتى دون عناية كبيرة بالاتصال بالخارج .

وليس معنى هذا وجود تعارض ، أو تضارب بين الأوضاع الحضارية فى الشعوب الزنجية جنوب الصحراء قبل التطورات الاستعمارية ، فقد أثبتت

الدراسات الأثرية والأنثروبولوجية وجود أوجه شبه رئيسية بين الديانات الإفريقية ونظم الحياة . . ولكن تفسير وجوه التشابه هنا لا زال محل دراسة ، ولم يكن الشبه مدعاة إلى « ربط » هذه الوحدات كما فعلت الثقافة العربية الإسلامية فى الشمال ، وعلى هذا لم تستطع هذه الجوانب المتشابهة من الحضارات الزنجية أن تكتل الإفريقيين صفاً واحداً فى مقابلة الاستعمار الأوروبى الذى طرق عليهم قارتهم من أبواب متعددة ، ولم يكن رد الفعل الاستعمارى عنيفاً متجاوباً سريع الانتقال ، كما حدث فى الأجزاء الشمالية من القارة .

الجزائر :

المستوطنون الأوروبيون فى المغرب العربى كله نحو مليونين أى نحو ٨٪ من مجموع السكان . منهم ١,٢ من المليون فى الجزائر بنسبة ١٢٪ من عدد السكان . وتهبط هذه النسبة فى تونس إلى ٧٪ وفى المغرب إلى ٤٪ . والفرق واضح بين الجزائر وتونس والمغرب . فمجال الاستيطان الأوروبى فى الجزائر أوسع . واستطاع المستوطنون — بتأييد من الحكومة الفرنسية — انتزاع ٢,٧ من المليون هكتار من الأرض الزراعية يمتلكها نحو ٢٥ الفاً ، بينما بقى للإفريقيين ٧,٧ من المليون هكتار يملكها نحو نصف مليون عربى وانتشر المستوطنون فى السهل الساحلى الخصب ، وأخذوا يزحفون نحو الجنوب وأصبح لهم فيه أكثر من ألف قرية .

فالمستوطنون فى الجزائر يملكون أكثر من ربع الأرض الزراعية بمعدل قدره ١٠٨ هكتاراً للفرد بينما يهبط متوسط الملكية بين العرب إلى ١٤ هكتاراً .

هذه الركيزة من المستوطنين الأوروبيين فى أرض الجزائر تمثل أساساً عريضاً فى الصراع بينها وبين فرنسا ، إلا أن العوامل التى جعلت من أرض الجزائر منطقة خصبة يطمع فيها المستوطنون ، وجعلت من موقعها بالقرب من فرنسا سبباً فى تقصير مسافة نقل العتاد الحربى ، وسهولة نقل الجنود . . هذه العوامل كانت بدورها عميقة الأثر فى تدعيم حركة الكفاح هناك .

فالسلسلة الجبلية تمتد موازية للسهل الساحلى ، وهى ليست جافة ، وإنما تتوافر فيها فرص الحياة التى تستطيع أن تأوى المجاهدين ، وتجعلهم ينتشرون على طول الجبهة الموازية للنطاق الساحلى كله ، بحيث تكون المسافة بين مناطق الإيواء ، فى الجبال ومناطق الصراع فى السهل قصيرة نسبياً ، ومن اليسير أن يمتد المجاهدون — على هذا الأساس — من حدود تونس إلى حدود المغرب .

ناحية هامة فى المشكلة هى ارتباط الجزائر ببقية أجزاء الوطن العربى بحيث أصبح هذا الوطن محوراً أفقياً يدعم حركة التحرر ، متعامداً على

المحور الاستعمارى الذى يهاجمها من الشمال .

ويبدو تأثير العامل الجغرافى فى ناحية أخرى هى موقع الجزائر بالنسبة لما يمكن أن نسميه خط التقسيم بين المعسكرين الشرقى والغربى ، هذا الموقع استفادت منه حركات التحرر فى جنوب شرق آسيا عند ما كانت تستند إلى الكتلة اليابسة الداخليـة وتستغل عمق الدفاع وتحاول طرد القوات الغازية إلى المحيط الذى جاءت منه . وهو الوضع الذى جعل من الأجزاء الباقية تحت السيطرة الاستعمارية فى آسيا بثوراً صغيرة على أطراف القارة مآلها الزوال .

أما فى الجزائر فلم يكن للمجاهدين إلا النطاق الجبلى . وكانوا معزولين نسبياً ، ثم تدعم وضعهم بالمحور الأفقى واشتد ارتباطهم بالعالم العربى عند ما تطور الوعى فيه ، ثم قوى الارتباط بما وراء الصحراء جنوباً . وأصبح الجنوب لهم أمناً بعد أن استقلت كثير من الوحدات السياسية فى غرب إفريقية .

وجاءت قرارات مؤتمر الدار البيضاء فى يناير ١٩٦١ تدعم الأوضاع التحررية فى القارة ، وتؤكد أن الصحراء الكبرى ليست عائقاً يحول دون تعاون أبناء القارة ، وأن قضايا الجزائر وفلسطين ينبغى أن يهتم بها كل إفريقى . وأصبح الكفاح الجزائرى يعمل ومن حوله كثير من الأصدقاء بعد أن كان الاستعمار يحيط به من كل جانب . واستطاعت روافد العون أن تجد لها أكثر من طريق إلى المجاهدين فى الجزائر .

ولقــد حاول الفرنسى إذابــة الجزائريين فى المحيط الفرنسى والقضاء بذلك على الكيان الجزائرى ، وبعبارة أخرى القضاء على العنصرية بامتصاص الجزائريين فى الجسم الفرنسى ، ولكن محاولات فرنسا باءت بالفشل . . وهى ليست محاولات قصيرة الأمد ، ولا محدودة المدى ، وإنما هى تمتد إلى القرن التاسع عشر . . إلى عام ١٨٣٠ عند ما غزت فرنسا أرض الجزائر . وأصدرت قانوناً عام ١٨٤٨ باعتبار الجزائر جزءاً مكملا لفرنسا . وبمقتضى هذا القانون أصبحت الجزائر ــ قانوناً ــ أرضاً فرنسية . وشجعت الحكومة الفرنسية الجزائريين على التجنس ، بالجنسية الفرنسية . وأصدرت قانوناً فى عام ١٨٦٥ يقضى باعتبار الجزائريين المسلمين فرنسيين بشرط أن يخضعوا لجميع أحكام القانون الفرنسى . ورفض المسلمون هذا العرض وأصروا على التمسك بالشريعة الإسلامية ، والتعامل بها .

وعادت فرنسا عام ١٩١٩ تعرض على الجزائريين « فرصة » التمتع بحقوق المواطنة الفرنسية . . ولكن موقف الجزائريين ظل على صلابته رغم

التضحيات الكبيرة وقاوموا هذاالفناء بمزيد من الصبر والتمسك بقوميتهم .

وعند ما فشلت سياسة الإدماج ، حاولت فرنسا أن تتبع سياسة جديدة أطلقت عليها سياسة « المشاركة » ، وقصدت بها أن يحتفظ المسلمون بأوضاعهم الإسلامية ، ويتمتعون بحقوق الجنسية الفرنسية ، وكان هذا عام ١٩٤٤ ، ولكن المسلمين رفضوا هذا العرض الجديد ، كما رفضوا سياسة الإدماج من قبل .

وقام الشعب الجزائرى بثورته الكبرى فى نوفمبر ١٩٥٤ ، ولا زالت الثورة قائمة حتى الآن ، وظل وفياً على المطالبة بحقوق بلاده . وأعلن قيام حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية فى سبتمبر ١٩٥٨ .

يبدو من هذا العرض مدى تأثير الثقافة العربية والإسلامية ، على المشكلة العنصرية فى الجزائر ، ففرنسا كانت ولا تزال ترغب فى ابتلاع الشعب الجزائرى ، ومعنى هذا أن ينتهى كشعب له كيانه المتميز ، وثقافته ، وتاريخه ، وأن يتحول إلى عصارة حية تسرى فى الجسم الفرنسى .. وهو وضع انتحارى لا يمكن أن يقبله شعب يشعر بوجوده وبقيمة هذا الوجود .

وعلى هذا لم تكن المشكلة الأساسية بين فرنسا والجزائر مشكلة لون بقدر ما هى مشكلة ثقافة وحضارة ، والعنصرية هنا ترتكز أول ما ترتكز على محاربة الثقافة العربية والإسلامية ، وعلى محاولة اقتطاع الجزائر من جسم العالم العربى وتصفية وضعها تدريجياً لتصبح جزءاً من الكيان الفرنسى .. جزءاً لا كيان له .. وإنما تبقى فرنسا وتفنى الجزائر .

هذه العنصرية الفرنسية البيضاء ذات الطابع الثقافى لا نكاد نجد لها نظيراً فى القارة جنوب الصحراء ، أما عن العنصرية البيضاء القائمة على مبدأ العزل الاجتماعى ، فموعدنا معها فى مقال آخر .

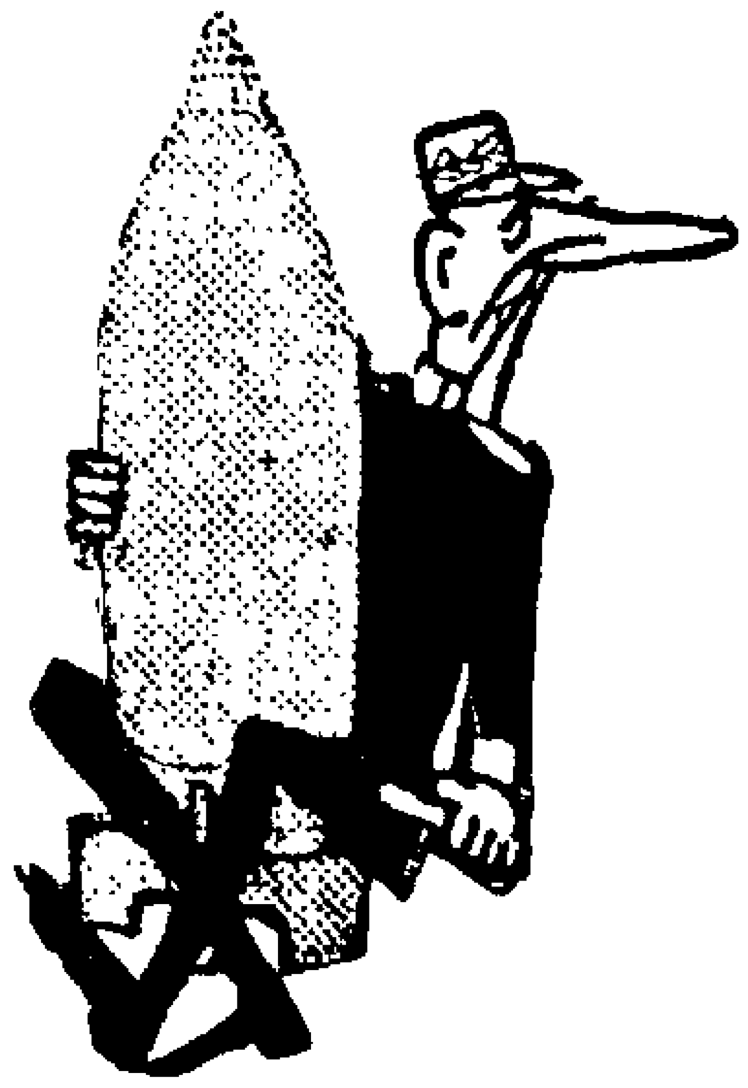

من حركات الكشوف الجغرافية فى السودان

الدكتور نسيم مقار

لا جدال فى أن امتداد الإدارة المصرية إلى السودان عام ١٨٢٠ - ١٨٢١ كان نقطة تحول فى تاريخ هذه البلاد . فقد خلقت هذه الإدارة المصرية الجديدة فى الأقاليم السودانية المختلفة التى امتدت إليها وحدة ادارية واقتصادية ، إذ جعلت المشيخات والقبائل المتفرقة فى هذه الأقاليم التى لم يكن يربط بينها نظام معين ، تخضع لأول مرة فى تاريخها لإدارة واحدة ذات قوانين موحدة وسياسة اقتصادية معينة هدفها استثمار موارد البلاد الطبيعية وعمرانها والسير بها فى طريق المدنية الحديثة التى كانت مصر قد أخذت بأسبابها فى أوائل القرن التاسع عشر .

ولقد أصاب هذا التطور الذى مرت به الأقاليم السودانية تحت الإدارة المصرية شتى نواحى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وشمل ميادين متعددة واتخذ صوراً وأشكالا متنوعة .

ومن المظاهر الدالة على ذلك التطور تقدم حركة الكشوف الجغرافية فى الأقاليم السودانية فى هذا العهد؛ حتى يتقف المرء على هذه الحقيقة ينبغى أن يلم بالظروف والعوامل المختلفة لتراضى حركة الكشوف الجغرافية فى السودان قبل الفتح المصرى الأول سنة ١٨٢١ ، وما كان من أمر تقدم هذه الحركة الكشفية بعد هذا الفتح .

عوامل تراضى حركة الكشوف الجغرافية فى السودان قبل الفتح المصرى الأول سنة ١٨٢١ :

من الواضح أن طبيعة الظروف التى عاشها السودان والسودانيون . والحكومات الوطنية القائمة بحكم هذه البلاد قبل الفتح المصرى الأول سنة ١٨٢١ لم يكن من شأنها أن تشجع أو تساعد على القيام بأى نشاط علمى أو جغرافى على نطاق واسع — كالكشف عن منابع نهر النيل الذى يجرى بفروعه المختلفة فى أقاليم السودان من أقصاها إلى أدناها ولا يعرف أحد عن أصله أو منبعه شيئاً — سواء من جانب هذه الحكومات الوطنية فى الداخل أم من جانب الرحالة والمكتشفين الأجانب فى الخارج .

فقد عاش السودان الشمالى قبل امتداد الإدارة المصرية إليه دون إدارة موحدة تشرف على مرافق البلاد وتقوم بالمشروعات العمرانية التى تفيد الصالح العام أو المصلحة العليا فى البلاد ، إذ قامت فى أقاليمه المختلفة سلطنات وممالك منفصلة ومستقل بعضها عن بعض تمام الاستقلال فى شئونها الداخلية والخارجية لا يجمع بينها أى هدف أو سياسة مشتركة . ففى السودان الشرقى والأوسط كانت سلطنة سنار بنظمها وتقاليدها المعينة فى الحكم

والإدارة ، وفى الغرب سلطنة دارفور ومملكة تقلى وقد كان أيضاً لكل منها نظمه وتقاليده المميزة فى إدارة المناطق التى خضعت له . أما السودان الجنوبى فقد عاشت فيه قبائل وشعوب بدائية متفرقة وفى نزاع دائم فيما بينها .

وحتى هذه السلطنات والممالك التى قامت فى أقاليم السودان الشمالى المختلفة رغم ما تحمله من هذه التسمية لم تكن تمثل دولا أو حكومات بالمعنى المعروف فى وقتنا الحاضر ، لها برامج إصلاحية أو سياسية عامة تسعى إلى تحقيقها للنهوض بمستوى شعوبها . فيما عدا فرض الضرائب والرسوم الجمركية على المزارعين والتجار والبدو والإشراف على حركة القوافل فى الداخل ومع الخارج التى كان للسلاطين والملوك (المكوك) نصيب الأسد فيها ولم يكن هناك أى تنظيم أو توجيه لنواحى الحياة الاجتماعية أو الاقتصادية فى البلاد من جانب تلك الحكومات المحلية . بل ترك كل شىء تقريباً على طبيعته يكيف نفسه وفق ظروفه الخاصة والطبيعة المحيطة به .

ومن ثم لم يكن من المنتظر والحالة هذه أن تقوم على أيدى السلطنات والممالك فى أقاليم السودان المختلفة أية مشروعات عامة تتعلق بدارسة طبيعية وجغرافية هذه البلاد كالبحث عن المواد الأولية فى باطن الأرض أو الكشف عن منابع النيل إلى غير ذلك من المشروعات العلمية والعمرانية التى هى من صميم واجبات الحكومات المنظمة .

والحق يقال إن الإمكانيات المختلفة للقيام بمثل هذه المشروعات والأعمال العلمية والجغرافية لم تكن متوافرة لدى هذه الحكومات السودانية ، وأوضح مثل لذلك تأخر وسائل النقل والمواصلات فى بلاد السودان فى ذلك الوقت . إذ اعتمد السودانيون اعتماداً يكاد يكون كلياً على الإبل والطرق الصحراوية فى نقل المسافرين والمتاجر ، بينما أهملوا استغلال نهر النيل وفروعه المختلفة فى النقل المائى رغم صلاحيته فى كثير من أجزائه ، ووفرة الأخشاب فى بعض جهات السودان التى يمكن أن تقوم عليها صناعة السفن اللازمة لخدمة هذا الغرض .

ومرجع ذلك هو جهل السودانيين وقتئذ بصناعة السفن وشئون الملاحة إلى الحد الذى يمكن أن يقال معه إن الأمر لم يكن يعدو قوارب بسيطة الصنع ، مثل التى اعتادت بعض الجماعات الزنجية مثل « الشلك » المقيمة فى أعالى النيل الأبيض صنعها لاستخدامها فى شن الغارات الانتقامية على قبائل التبارة المجاورة وسلبها ماشيتها . وحتى هذه القوارب — كما يؤكد ذلك الرحالة « فرن Werne » الألمانى الذى زار هذه الجهات — كانت ألواحاً من الخشب أو سيقان الأشجار الضخمة شد بعضها

إلى بعض الجبال ليفية ، ولم يكن للمعادن وجود بها ولو مسمار من حديد . ويمكن أن نتصور هذا القصور فى صناعة السفن فى بلاد السودان فى ذلك الوقت إذا علمنا أن سلطنة سنار رغم وقوعها على النيل الأزرق لا يوجد فى تاريخها ما يحمل على الاعتقاد بأنها كانت تملك أسطولا نهرياً من السفن أو المراكب يمكنها من حماية حدودها من غارات المغيرين من الأحباش المجاورين أو القبائل الزنجية المتاخمة لحدودها . وظل الحال كذلك حتى خضعت البلاد للإدارة المصرية عام ١٨٢١ فكان تقدم صناعة السفن من أبرز مظاهر النهضة الصناعية التى شهدها السودان على عهد هذه الإدارة كما كان التوسع فى النقل المائى تبعاً لذلك أهم ما أصاب نظام النقل والمواصلات من تطور فى ذلك العهد .

ومن ثم لم يكن من المتوقع أن تقوم الحكومات السودانية فى أقاليم السودان المختلفة قبل الفتح المصرى الأول عام ١٨٢١ بمشروع للكشف عن منابع نهر النيل وهو المشروع الذى سنرى أن الإدارة المصرية فى السودان قد أولته كبير اهتمامها وساعدها على القيام به ما توافر لديها من الامكانيات والاستعدادات المختلفة مثل السفن . والكفايات العلمية والفنية وغير ذلك من مقومات مثل هذه الرحلات الكشفية الطويلة .

كذلك من عوامل تراخى حركة الكشوف الجغرافية فى السودان قبل الفتح المصرى الأول سنة ١٨٢١ م أن السلاطين والمكوك (الملوك) فى أقاليم السودان المختلفة لم يكونوا يشجعون قدوم الرحالة والمكتشفين الأجانب إلى بلادهم خشية أن يكونوا من الجواسيس الذين يريدون التجسس على أوطانهم بقصد الاستيلاء عليها . كما أن السودانيين فى ذلك الوقت كانوا بصفة عامة ينظرون إلى هؤلاء الأجانب من ذوى البشرة البيضاء على أنهم مصابون بأمراض خبيثة ، وأن لون بشرتهم الأبيض المشرب بالحمرة دليل على إصابتهم بهذه الأمراض الخبيثة ، ومن ثم وجب مقاطعتهم وعدم السماح لهم بدخول البلاد .

يضاف إلى ذلك ما كان يكتنف طرق المواصلات بين الأقاليم السودانيه والخارج من الصعاب والمخاطر وبخاصة فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر عند ما أخذت عوامل الضعف والانحلال تدب فى كيان السلطنات الوطنية مثل سلطنة سنار وسلطنة دارفور ، وشغل السلاطين والملوك بالفتن والحروب الأهليه عن تأديب بدو الصحراء القاطنين عبر الطرق الصحراوية التى اعتادت قوافل التجارة والمسافرين أن يسلكوها ولا سيما الطرق الصحراوية التى ربطت بين أقاليم السودان ومصر مثل طريق

الأربعين فى الغرب وطريق العتمور أو القبّاى فى الشرق وقد كانت تمثل المنافذ الخارجية الرئيسية للسودان فى ذلك الوقت .

ومن أجل هذا كله لم يجرؤ على زيارة السودان قبل الفتح المصرى الأول سنة ١٨٢١ من الرحالة ، والمكتشفين الأوروبيين إلا نفر قليل مثل جاك فرنسوا بونسيه Poncet الذى زار سنار والحبشة بين عامى ١٦٩٨ ، ١٧٠٠ وأعقبه زيارة كرمب Krump البافارى لسنار سنة ١٧٠١ - ١٧٠٢ م ، ثم زيارة « لى نواردى رول Le Noir du Roule الذى قتل عام ١٧٠٥ وكان لملك سنار يد فى قتله . وكان ذلك إيذاناً بغلق الطريق إلى هذه البلاد فى وجه الرحالة والمكتشفين إغلاقاً يكاد يكون تاماً استمر حوالى سبعين عاما بعدها استطاع جيمس بروبس الأسكتلندى زيارة الحبشة (١٧٧٠ — ١٧٧٣) وقد نجح بمساعدة ملك الحبشة وتفهمه لحقيقة أغراضه العلمية فى الكشف عن منابع النيل الأزرق أحد الروافد الرئيسية لنهر النيل . أما الكشف عن منابعه الاستوائية (أعالى النيل) فقد ظل لغزاً جغرافياً يحير الأذهان .

أما الفترة التى سبقت الفتح المصرى الأول سنة ١٨٢١ مباشرة فلم يستطع زيارة السودان خلالها سوى رحالة واحد عربى هو الشيخ محمد بن عمر التونسى الذى زار دارفور فى الفترة بين ١٨٠٣ ، ١٨٢٠ واثنان آخران من الأوروبيين هما الرحالة الراحالة الإنجليزى وليم « جيمس برون Browne الذى كانت زيارته لدارفور عام ١٧٩٥ ومكث فيها ثلاث سنوات ، ولكن المعاومات والأخبار التى جاء بها عن هذا الأقليم لم تبلغ من الدقة والتفاصيل ما بلغته تحريات ومشاهدات الرحالة التونسى ، أما الرحالة الأوروبى الآخر فهو« جون بورخارد Burchardt السويسرى الذى قام برحلة إلىالسودان (١٨١٣ — ١٨١٥) زار خلالها بربر والدامر وشندى والعطبرة وفوز رجب والتاكا وسواكن ومنها عبر البحر الأحمر إلى الحجاز فالقاهرة . وقد ساعد على نجاح رحلته فى هذه البلاد إلمامه باللغة العربية وبالقرآن الكريم وآدابه فضلا عن استعداده الفطرى والقدرات التى اكتسبها عن طريق تدريب نفسه على الرحلات الشاقة . هذا إلى جانب تنكره فى زى تاجر مسلم وإطلاقه على نفسه اسم الحاج ابراهيم عبدالله ومع ذلك فقد قاسى الكثير من المتاعب والمخاطر فى أثناء رحلته فى بلاد السودان من طبيعة البلاد القاسية ومن السكان أنفسهم . حتى إنه كان يضطر أحياناً إلى تدوين ملاحظاته وما يجمعه من المعلومات فى

ظــل جمله تحت قصف الريـــاح والعواصف الرملية التى كانت تسبب له الكثير من المضايقات والمتاعب فى أثناء الكتابة . وذلك خشية أن يراه أحد المواطنين فيشك فى أمره ويقع له ما لا تحمد عاقبته .

نشاط حركة الكشوف الجغرافية فى السودان بعد الفتح المصرى الأول سنة ١٨٢١ :

استمرت الظروف داخل السودان لا تشجع الرحالة والمكتشفين على زيارتها إلى أن خضعت هذه البلاد للحكم المصرى ، فتغيرت الأحوال وساد الأمن ربوع البلاد إلى الحد الذى أثار إعجاب وتقدير جميع الأوروبيين الذين زاروا أقاليم السودان فى تلك الفترة (١٨٢٠ – ١٨٤٨) .

فالرحـــالة « كومب Combes (١٨٣٤) بعد أن يعدد الأمثلة على انتشار الأمن فى ربوع السودان المصرى يستطرد قائلا « إنه لأمر يدعو للدهشة أن يصل الباشا إلى هذه النتيجة المرضية فى بلاد بعيدة عنــه » .

أما «بكلرمسكاو Puckler Muskau الأمير الألمانى الذى زار السودان عام ١٨٣٧ فيذكر أن الطريق الصحراوى إلى شندى الذى كانت تكتنفه الأخطار وقت سياحة الرحالة « بور خارد Burchardt قد أصبح الآن يسوده الأمن كما هو الحال فى الديار المصرية .

والكاتب الفـــرنسى « دهيران » Deherain الذى عرف بقسوة أحكامه على الإدارة المصرية فى السودان لم يسعه إلا أن يعترف لها بالفضل فى توطيد الأمن فى ربوع السودان ، ويشيد بالقول « أن التاجر أصبح فى مقدوره أن يتجول فى هذه البلاد وينتقل من جهة لأخرى دون حاجة إلى أن يكون برفقة قافلة أو جماعة من الجلابة تتعاون فى دفع ما قد تتعرض له من أخطار الطريق ، وهو ما كان يتبع قبل الحكم المصرى » .

ولقد ترتب على انتشار الأمن والطمأنينة فى ربوع الأقاليم السودانية التى امتدت إليها الإدارة المصرية أن أخذ يفد على تلك الأقاليم الكثير من السائحين والمكتشفين ووجدوا من الإدارة المصرية المساعدات والتسهيلات اللازمة

والواقع أن تشجيع الحكومة المصرية السياحة فى السودان والقيام بالدراسات العلمية والجغرافية فى أقاليمه المختلفة قد وضح منذ اللحظة التى بدأت فيها الاستعدادات لضم هذه البلاد للحكم المصرى . فقد انتظم فى حملة اسماعيل على السودان عام ١٨٢١ نفر من العلماء والمكتشفين الافرنج كانت لهم وظائف علمية وجغرافية مختلفة فى خدمة هذه الحملة منهم العالم الفرنسى « كايو » Cailliaud ورفيقــه « ليتورزك » Letorzec والطبيب الرسام « رتش »

Ricci اللذان كانا ساعده الأيمن فى إعداد البحوث الجغرافية وعمل الأرصاد الفلكية و « كورنر » الإنجليزى وزميله « كونستانت » Constant و« زوكولى » Zuccoli و « سيجاتو » Segato من الطليان و « انجلش » English ، و « برادتش » Bradish من الأمريكان.

وهؤلاء المكتشفون والعلماء الذين رافقوا اسماعيل فى حملته على السودان قاموا بأبحاث عامية وجغرافية فى بلاد السودان سجلوها فى كتب أسفارهم ورحلاتهم فى هذه البلاد ، وقد كانت مهمة بعضهم الرئيسية: هى البحث عن معدن الذهب والمعادن الأخرى فى الأقاليم السودانية المختلفة . ولكن هذا البحث قد اقتضى أو اقترن به دراسة الخصائص الطبيعية والجغرافية لتلك الأقاليم .

من ذلك ما قام به « كايو » السالف الذكر وهو أحد المهندسين الذين عهد إليهم بمساعدة إسماعيل فى التنقيب عن معدن الذهب . فهذا العالم الفرنسى — بالإضافة إلى الشرح الوافى الذى تناوله فى كتاب رحلته لقصة البحث عن الذهب فى المناطق التى جرى فيها البحث عنه فى سنار وفيزوغلى ، والكناميل وفاداس وغيرها — قدم وصفاً لطبيعة وجغرافية هذه المناطق وكذلك البلاد الأخرى التى مرت بها حملة إسماعيل ، فكانت الأعمال الجغرافية التى قام بها فى السودان من أبرز ما خلده فى هذه الرحلة .

فقد استطاع « كايو » — بعد أن وفق زميله ليتورزك السالف الذكر فى إكمال تعيين المواقع بوساطة الأرصاد الجوية أن يضع خريطة للنيل من وادى حلفا إلى مصب نهر التومت ، وأن يعين بالضبط مـواقع ما فى هذه الجهات من الجبال والآكام . ويعلق الدكتور فردريك بنولا الذى مثل مصر فى مؤتمر الجغرافيا الدولى الذى عقد فى باريس سنة ١٨٨٩ على هذا العمل الجغرافى الذى قام به كايو « بأنه لولا عناية هذا الرجل بالمعارف وانكبابه على تقدمها لما تيسر لنـــا الحصول على جملة أرصاد جوية منتظمة ولا على تعين المساحات وتقدير الأبعاد » . وفضلا عن ذلك حرر « كايو » رسائل مهمة عن الطرق والمسالك وكتب نبذاً مفيدة فى الجغرافية الطبيعية لبلاد السودان التى مرت بها الحملة فى مسيرها . . كما ألف كتاباً فى لغات القبائل المختلفة المتوطنة بتلك الجهات . ثم إنه أضاف إلى هذه الأعمال تاريخ السكان ووصف طبائعهم وبيان أحوالهم ومعايشهم . فكان صنعه هذا عملا جغرافياً جليلا وصفه بنولا السالف الذكر « بأنه من أنفس الذخائر وأجلها ، إذ أن ما جاء به من الملحوظات والبيانات لم يكن للعلماء معرفة به ولا وقوف عليه من قبل » .

وليس من شك أنه قد تيسر لكايو أن يقوم بهذه الأعمال العلمية والجغرافية الجليلة بفضل ما كان له من الحظوة ورفعة المكانة عند الأمير اسماعيل وأخيه ابراهيم وقربه منهما وحسن رعايتهما له وإقبالها عليه .

ولقد قوبلت رحلة « كايو » فى السودان لدى الأوساط العلمية بفرنسا بالتقدير والاعجاب وعند ما عرضت على المجمع العلمى فى باريس أشارت اللجنة التى شكلت لفحصها بقيمتها العلمية والجغرافية ، وأمرت على سبيل التشجيع والتقدير العلمى بطبعها على نفقة حكومة صاحب الجلالة ملك فرنسا ، كما منح كايو ،هبة مالية سخية .

وجاء نشر رحلة كايو ورحلات غيره من العلماء والمكتشفين الذين رافقوا حملة اسماعيل على السودان بمثابة وحى والهام للعالم الأوروبى إذ أخـــذ الكثير من الأوروبيين يتحركون لزيارة السودان المصرى الذى أصبح يطلق عليه « أثيوبيا » .

والواقع أنه ما إن استقر الحكم المصرى فى السودان حتى وفد على هذه البلاد فى تلك الفترة (١٨٢١ - ١٨٤٨) عدد كبير من الرحالة والمكتشفين من مختلف جهات أوروبا ومنهم - حسب الترتيب الزمنى لزياراتهم الأقاليم السودانية - الرحالة وادنجتن وهمبرى Waddington and Hambry من الإنجليز (١٨٢١) . لينان دى بلفون Linant de Bellefonds البلجيكى (١٨٢٧) كادلفين وبروفيرى Cadalvene & Breuvery الفرنسيان (١٨٢٩) . روبل Ruppell الألمانى (١٨٢٩) ، هوسكنز Hoskins الانجليزى (١٨٣٣) ، كومب Combes الفرنسى (١٨٣٣ - ١٨٣٤)هولرويد(١٨٣٣) ، Holroyd الانجليزى (١٨٣٦) بوكلر مسكاو Puckler Muskau الألمانى (١٨٣٧) بالم Pallme الانجليزى (١٨٣٧) ، روشيجر Russeger الألمانى (١٨٣٧) ، فرن الألمانى (١٨٣٩) ، برون رولية Brun Rollet الفرنسى (١٨٤٣ -١٨٤٥)لبسيوس Lepsius الألمانى(١٨٤٤) ، بترك Petherick الانجليزى (١٨٤٧) ، ترمو Tremaux الفرنسى(١٨٤٨) ميللى Melly الانجليزى (١٨٥٠) .

وقد وجد هؤلاء الرحالة وغيرهم من السائحين والمكتشفين الأوروبيين الذين زاروا السودان فى هذه الفترة التى أعقبت الفتح المصرى (١٨٢١ - ١٨٤٨) التشجيع والاهتمام من جانب الحكومة المصرية القائمة بحكم هذه البلاد ، بل لقد كلفت فريقاً منهم بعض الأعمال العلمية والكشفية فى الأقاليم السودانية التى خضعت لحكمها مثل المسيو « روبل » والمسيو « هاى » اللذين أوعزت إليهما بالتنقيب عن المعادن فى بلاد بربر ودنقلة وكردفان . وقد أمكن لهاى أن يكشف مجرى النيل حتى حلفاية . أما « روبل » فذهب إلى جهات كردفان حيث حدد موقع مدينة الأبيض عاصمة الأقليم بوساطة الأرصاد الفلكية كما استطاع بمساعدة « هاى » أن يرسم أول خريطة علمية لبلاد كردفان .

على أن جميع الرحالة والمكتشفين الذين زاروا الأقاليم السودانية بعد الفتح المصرى الأول سنة ١٨٢١ قد عنوا بصفة عامة بوصف أحوال السودانيين الاجتماعية وما كان يسود بينهم من العادات والتقاليد وبخاصة ما بدا غريباً فى نظرهم وغير مألوف فى أوطانهم الأوروبية ، كما أشاروا فى الوقت نفسه إلى نظم المعيشة عند بعض الجماعات والقبائل السودانية التى التقوا بها فى أثناء سياحاتهم فى هذه البلاد . كذلك تعرضوا لبعض معالم تاريخ السودان فى عهد السلطنات الوطنية قبل الفتح المصرى وإلى طبيعة الحكم المصرى فى الأقاليم السودانية التى خضعت له وسجلوا كل هذا فى كتب أسفارهم ورحلاتهم التى نشروها فى أنحاء أوروبا وأمريكا .

ولقد أثارت تلك الحقائق والأخبار ، التى نشرها هؤلاء الرحالة والمكتشفون عن الأقاليم السودانية التى تيسر لهم زيارتها بعد الفتح المصرى الأول سنة ١٨٢١ ، اهتمام الرأى العام الأوروبى بهذه الأقاليم وبالقارة الإفريقية عامة ، وبدت الرغبة فى كشف مجاهل هذه القارة المظلمة ، وبخاصة الكشف عن منابع النيل الاستوائية التى

كانت لا تزال حتى ذلك الوقت تمثل أعقد مشكلة جغرافية فى قلب إفريقية .

الاهتمام بالكشف عن منابع النيل

ولقد وجد اهتمام الرأى العام الأوروبى بالكشف عن منابع نهر النيل صداه لدى حكومة محمد على القائمة بحكم مصر والسودان، التى أرادت أن تضع من جانبها حلا لهذه المسألة ، بعد أن توافرت لديها الظروف والإمكانيات المختلفة للقيام بهذا العمل الجغرافى ، فهى صاحبة النفوذ على الشطر الشمالى لوادى النيل وقسم كبير من شطره الجنوبى ، والأمر بهذا الوضع يعنيها أكثر من أية حكومة أخرى قائمة فى هذا الحوض ، بل وأقدر منها على القيام به لما تملكه من الاستعدادات اللازمة له .

ومن المعروف أن الكشف عن منابع نهر النيل شغل أذهان الكثيرين منذ قديم الزمن ، وجرت محاولات فى العصور المختلفة للكشف عن هذا السر الجغرافى قام بها رحالة ومكتشفون من أجناس مختلفة وأكثرهم أجانب عن وادى النيل والقارة الإفريقية .

ولقد استطاع جيمس بروس James Bruce الاسكتلندى فى أواخر القرن الثامن عشر أن يكشف عن منابع النيل الأزرق أحد روافد نهر النيل الرئيسية التى تمده بمياه الفيضان سنوياً من أمطار مرتفعات الحبشة . وذلك خلال زيارته هذه البلاد (١٧٧٠ – ١٧٧٣) . ولكن هذا الكشف لمنابع النيل الأزرق لم يحل مسألة الكشف عن منابع نهر النيل الرئيسى التى ظل يكتنفها الغموض

وإن أحداً من الجغرافيين لم يجرؤ على المخاطرة بالسير جنوباً فى المجرى الرئيسى لنهر النيل (النيل الأبيض) بعد الحملة التى كان قد أرسلها القيصر نيرون الرومانى من عدد من الضباط .

وفى عام ١٨٢٤ م ركب المسيو «هاى» — وهو كما قدمنا أحد المهندسين الأوروبيين الذين استعان بهم محمد على فى أعمال البحث عن المعادن فى بلاد بربر ودنقله وكردفان — البحر الأبيض (النيل الأبيض) حيث تقدم نحو الجنوب مسافة ٤٦ ساعة فيما وراء الخرطوم . وفى عام ١٨٢٧ قام المسيو لينان دى بلفون على نفقة الجمعية الإفريقية البريطانية برحلة فى النيل الأبيض وسار فى مجرى النهر جنوباً حتى وصل إلى قرية «الليس» (بالقرب من الكوه Kawa) عند خط عرض ٤٢° ، ١٣° على مسيرة حوالى ١٥٠ ميلا جنوب الخرطوم ثم تقدم إلى أقصى الحدود الشمالية لبلاد الشلك .

وقد فوت رحلة «لينان دى بلفون» الأمل فى إمكان القيام برحلات كشفية فى النيل الأبيض إلى مدى أبعد مما وصل إليه . فكان أن أرسلت

الحكومة المصرية بعثة كشفية فى النيل الأبيض من إبراهيم الكاشف وخورشيد بك استطاعت أن تصل إلى بلاد الشلك على جانبي النهر . وتوغلت فى بلاد الدنكا جنوباً حتى وصلت إلى ما وراء الخط العاشر من خطوط العرض الشمالية . أما البقاع التى تمتد إلى ما وراء ذلك فظلت بعيدة عن أعين العلماء .

حملات البكباشى المصرى سليم قبطان الكشفية فى أعالى النيل (١٨٣٩ – ١٨٤٢):

ولما كانت الحكومة المصرية جد حريصة على الوصول إلى حل حاسم فى مسألة الكشف عن منابع النيـــل واستطلاع خبايا المجهول من هـــذه الأصقاع النائية فقد أعدت حملة كشفية أكثر استعداداً من الوجهة العلمية بقيادة أحد ضباط البحرية المصرية ويدعى البكباشى محمد سليم قبطان . ثم تلتها بحملة أخرى (فى النيل الأبيض) . ولما لم تصل هذه الحملة إلى هدفها المقصود فى الوصول إلى منابع نهر النيل بسبب العوائق الطبيعية التى اعترضت سيرها فى مجراه جنوب جزيرة جانكير ، فقد أعقبتها بحملة ثالثة بقيادة سليم قبطان نفسه ، إذ كان والى مصر شديد الثقة بكفاية هذا الضابط المصرى .

والحملة الأولى قد سافرت من الخرطوم فى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٣٩ وعادت فى ٣٠ مارس سنة ١٨٤٠ بعد أن وصلت جنوباً إلى خط عرض ٤٢° ، ٤° من خطوط العرض الشمالية .

والحملة الثانية وقد خرجت من الخرطوم فى ٢٣ من نوفمبر سنة ١٨٤٠ وعادت فى ١٨ من مايو سنة ١٨٤١ . بعد أن وصلت جنوباً إلى خط عرض ٤٢° ، ٤° من خطوط العرض الشمالية .

والحملة الثالثة وقد غادرت الخرطوم فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٤١ وعادت فى ٦ من مارس سنة ١٨٤٢ ، بعد أن بلغت فى عناء ما بلغته الحملة السابقة .

وكل حملة من هذه الحملات التى قادها سليم قبطان فى النيـــل الأبيض كانت تضم عدداً ليس بقليل من العساكر تحملهم السفن والمراكب التى كان بعضها مزوداً بالمدافع لحماية الحملة والمحافظة على سلامتها فى هذه الجهات النائية التى لم يكن يشملها النفوذ المصرى فى السودان . ويقطنها أقوام بدائيون .

كما رافق هذا البكباشى المصرى فى حملاته الكشفية هذه عدد من الخبراء والمهندسين الأوروبيين ، لمعاونته فى مهمته العلمية ، ومنهم « ثيبو » Thibaut الفرنسى الذى رافقه فى الحملة الأولى تحت اسم مستعار هو « ابراهيم الشايقى » وكان خبيراً بهذه البلاد لكثرة طوافه فى جزائر الشلك .

و « ساباتييه » Sabatiet ، و « دارنو »

D'Arnaud الفرنسيان والمهندس الألمانى « فرن » ، وقد رافق هؤلاء الحملة الثانية ؛ أما الحملة الثالثة فقد رافقها المهندس الفرنسى « دارنو » السالف الذكر .

وجه الأهمية لحملات سليم قبطان :

لا غرو فإن الحملات التى قادها هذا الضابط المصرى بين عامى ١٨٣٩ ، ١٨٤٢ م تعد أول محاولة علمية قام بها المصريون للكشف عن منابع نهر النيل أثارت اهتمام وتقدير العالم الخارجى . وكان لها دوى عظيم فى الأوساط والمحافل العلمية والجغرافية فى أنحاء أوروبا فى ذلك الوقت ، إذ وصفها مسيو « جومار » Gomard عضو الجمعية الجغرافية فى باريس فى مجلة الجمعية بعددها الصادر فى يوليو سنة ١٨٤٢ « بأنها باكورة ثمار الحضارة التى انبعث فى مصر ضوؤها منذ خمس وعشرين سنة ، وهى صالحة ، ولا بد أن تبقى كذلك لتكون قاعدة للاستكشافات الآتية » . كما وصفها الدكتور فردريك بنولا الذى مثل مصر فى مؤتمر الجغرافيا الدولى المنعقد فى باريس ١٨٨٩ « بأنها كانت السبب فى الحصول على المعلومات التى توصل إليها العلماء بعد ذلك ، بل هى الأساس الذى انبنى عليه حل مسألة النيل » وذلك بفضل ما قامت به من الدراسات الطبيعية والجغرافية لمجرى النيل الأبيض وما كشفت عنه من الجهات والقبائل فى هذه المناطق البعيدة التى كانت حتى ذلك الوقت لا تزال مجهولة وليس لعلم الجغرافيا أية معرفة بها . حقيقة أنها لم تستطع مواصلة سيرها جنوباً فى مجرى النيل الأعلى إلى أبعد من خط عرض ٤٢ ، ٤°° بسبب العوائق الطبيعية ، إلا أنها مهدت السبيل لارتياد هذه المناطق العليا للنيل والكشف عن منابعه وحل هذا اللغز الجغرافى القديم .

فالرحالة والمكتشفون الأوروبيون الذين قاموا بحملات للكشف عن منابع نهر النيل الاستوائيه أمثال « صموئيل بيكر » و « سبيك » وزميله « جرانت » من الإنجليز ، إما أنهم ساروا فى الطريق نفسه الذى سلكه سليم قبطان فى مجرى النيل الأبيض كما فعل صموئيل بيكر السالف الذكر . وإما أنهم أفادوا من تجاربه والمخاطر التى صادفته فى هذا الطريق مثل منطقة السدود النباتية التى كان سليم قبطان أول من كشف عن وجودها فى مجرى هذا النهر ونبه الأذهان إلى خطورة السير فيها ، فعمل البعض على مجانبتها والسير فى طريق آخر للكشف عن منابع نهر النيل ، وذلك كما فعل « سبيك » و « جرانت » اللذان سارا من ساحل إفريقية الشرقى .

هذا إلى جانب النتائج الأخرى

الهامة التى حققتها حملات سليم قبطان الكشفية فى النيل الأبيض وكان لها تأثير بعيد المدى فى تطور أحوال هذه البلاد الاجتماعية والاقتصادية ، فهى قد فتحت طريق الملاحة والتجارة فى هذا النهر ومناطق النيل العليا بعد أن كانت تلك المناطق شبه مقفلة فى وجه أى نشاط تجارى فى السودان الشمالى . فنشطت على أثر هذه الحملات الصلات التجارية التى ينبغى أن تكون بين شطرى السودان ، كما أخذت جماعات الرحالة والمغامرين الأوروبيين الباحثين وراء الثروة تفد على أعالى النيل بعد أن كشفت هذه الحملات عن غنى تلك الجهات بثرواتها الطبيعية . وقد قام هؤلاء الرحالة والمغامرون بمزيد من الدراسات الجغرافية والعلمية عن هذه المناطق النائية من أعالى النيل ، ولكن سرعان ما تكشفت نواياهم الاستعمارية فكانوا طلائع الاستعمار الأوروبى إلى هذا الجزء من حوض النيل . وليس هذا ذنب مصر التى سعت بهذه الحملات الكشفية إلى زيادة معارف الناس عن تلك البقاع الإفريقية المجهولة وتحقيق أهداف علمية سامية . وإنما ذنب أولئك المستعمرين الأوروبيين الذين استغلوا جهودها العلمية لتحقيق أغراضهم الذاتية .

وبعد . فهذه صفحة مشرقة فى تاريخ وحدتنا مع السودان ، تكشف عن جهود مصر الصادقة فى تقدم حركة الكشوف الجغرافية فى هذا القطر الشقيق .

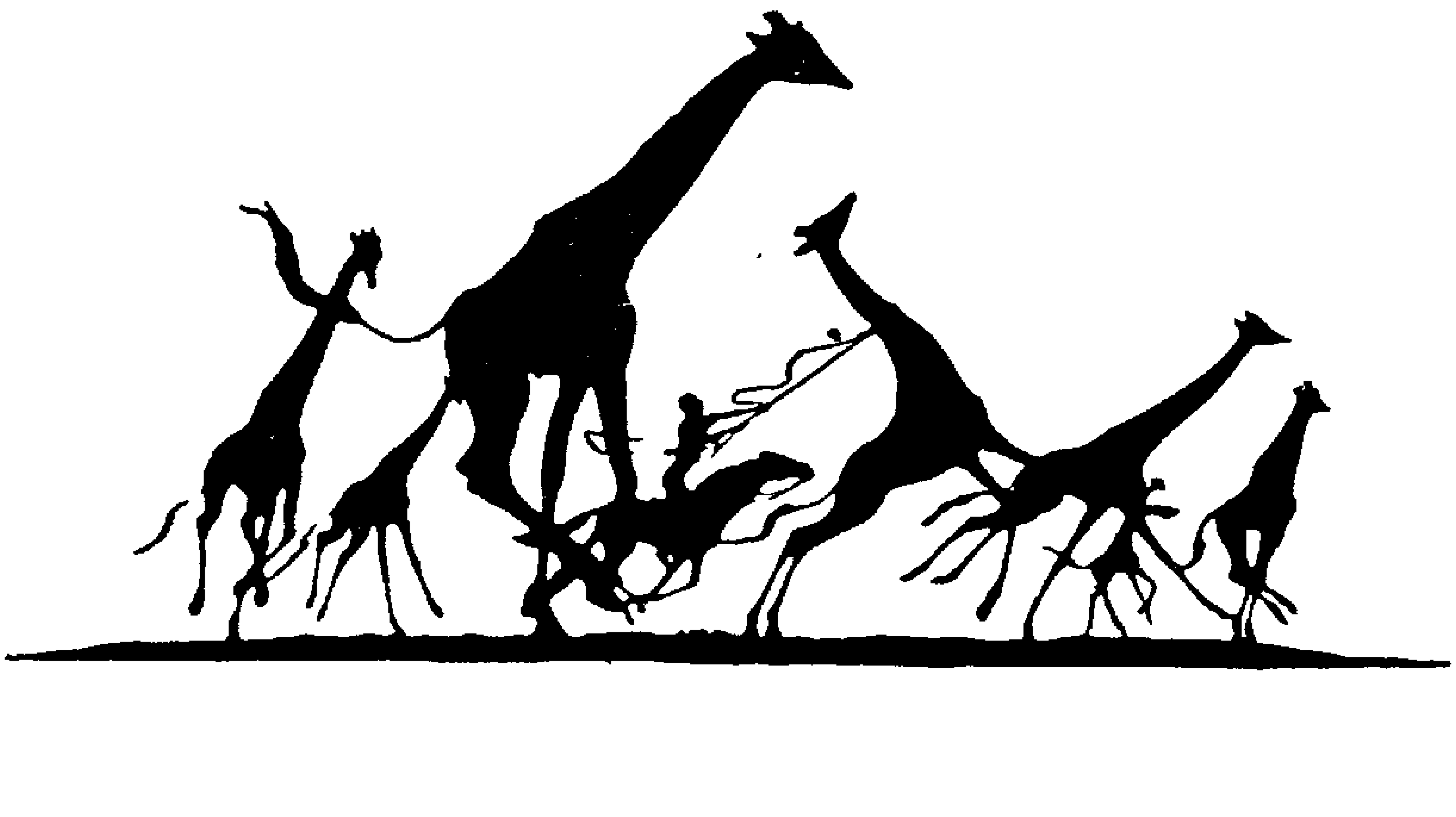

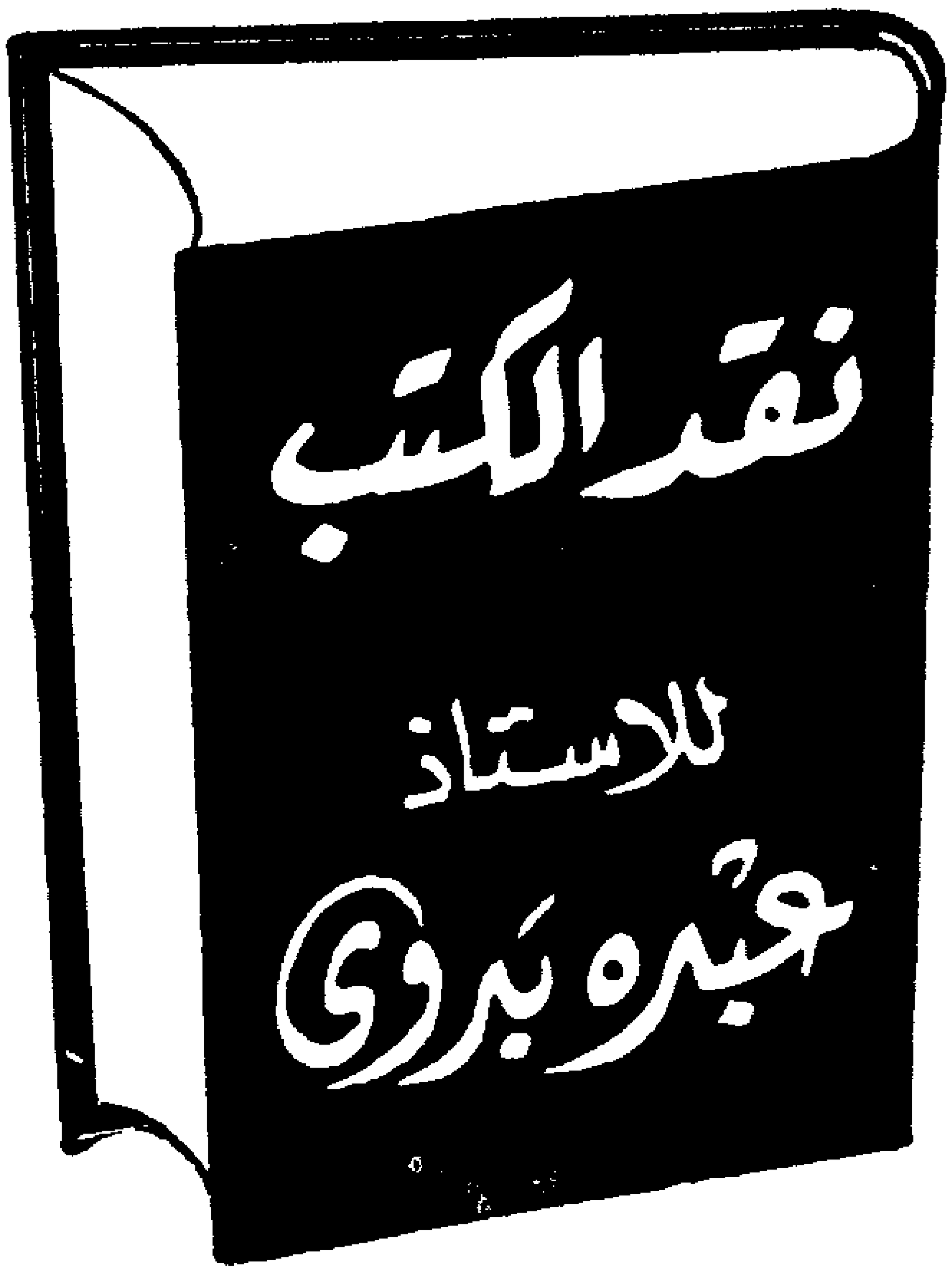

من الكتب التى ظهرت أخيراً فى المكتبة الإفريقية كتاب « أوغندة بين الاستعمار البريطانى والكفاح الوطنى » للأستاذ « محمد عبد المنعم يونس » كواحد من الكتب القيمة التى تصدر عن المكتبة التاريخية بإشراف الدكتور « أحمد عزت عبد الكريم » ، ومع أن هذا الكتاب ليس أول كتاب يتعرض لجانب من جوانب القارة ، إلا أنا نطالب بالتركيز فيها على القضايا الإفريقية استجابة للقارئ الذى كان محروماً من قبل إلى التطلع إلى هذه الغاية ، وبخاصة فى سلسلة جادة كهذه السلسلة .

ومهما يكن من شىء فالدكتور أحمد عزت عبدالكريم يقدم لنا أوغندة فى المقدمة بهذه الكلمات « أوغندة ليست غريبة عنا ، ففضلا عن الرابطة الإفريقية التى تربطنا بها ، فإن أوغندا دولة « نيلية » بل إن المنبع الدائم لنهر النيل يخرج من أرضها . وقد أملى هذا الوضع علينا جميعاً — ولا يزال يملى — التزامات متبادلة ، ولقد كانت أوغندا — أو الجزء الأكبر منها — جزءاً من دولة وادى النيل فى القرن التاسع عشر ، وكان ذلك كفيلاً بأن يوصل إليها تيار الحضارة العربية الإسلامية التى حملت مصر لواءها فى القارة الإفريقية فى ذلك العهد ، ولكن العصر الذى تكونت فيه هذه الدولة وافق — فى الوقت نفسه — عصر التدخل الأوروبى الاستعمارى فى القارة ، وهنا تكمن المأساة » .

والمؤلف يبدأ كتابه بتقديم عرض جغرافى يوضح فيه أن هذا الوطن يقع أكثره فوق هضبة البحيرات ، وأن مساحتها تبلغ ٩٣،٩٨١ ميلا مربعاً ، وأن مساحة المسطحات المائية بها تشكل ١٥٪ من مجموع المساحة الكلية ، وأنها تحد شمالا بالسودان ، وشرقاً بكينيا ، وجنوباً بتنجانيقا ، وغرباً بالكونغو . أما مناخها فهو من النوع الاستوائى ، وإن الارتفاع بها يخفف نوعاً ما من شدة الحرارة ، وإن كانت تكثر بها الأوبئة ، وذبابة تسى تسى التى تجلب النوم ، على أنه بصفة عامة يلائم التقدم الزراعى ، وفى الوقت نفسه لا يلائم الاستيطان الأوروبى ، ومن أهم الحاصلات بها زراعة الموز وتشرف عليه الزوجة ، والقطن ويشرف عليه

الزوج ، هذا إلى جانب الثروة الحيوانية التى تتوافر فيها الصفات العامة والحيوانات التى تعيش فى الغابات الاستوائية ، والثروة المعدنية التى تتشكل من خامات معدنى النحاس والقصدير .

على أن من أهم المدن هناك مدينة « عنتبة » التى تقع على بحيرة فكتوريا مباشرة ، وهى العاصمة ، ويبلغ عدد سكانها ٧,٩٤٢ أكثرهم من الإنجليز ، الذين اختاروا لها هذا المكان بالذات ليمكنهم الفصل بين مقاطعتى أوغندة ، وبوجندة ، ولأنها بعيدة عن المناطق التى يوجد فيها ذباب « تسى تسى » ، ثم إنها تعتبر من المحطات الجوية العالمية لأنها تقع تماماً فى منتصف المسافة بين (القاهرة ، جوهانسبرج) .

أما البلد الثانى هناك فهو « كامبالا » التى تقع شمال « عنتبه » ، وهى مركز حكومة « بوجندة » التى أصبحت إحدى مديريات أوغندة ، وبوجندة هذه تمثل المملكة القديمة فى هـــذا العالم القديم ، ومن هنا يقيم بها « الكاباكا » ، ومما هو جدير بالذكر أنها تقوم على سبع تلال كما هو الحال فى روما ولشبونه .

أما ثالث المدن الكبيرة فهى « جنجا » ، وهى الآن مدينة حديثة ، بعد أن كانت التماسيح تتجول فى شوارعها فى الماضى ، وكذلك أفراس النهر.

ثم يحدثنا المؤلف فى الفصل الثانى عن التطور التاريخى لهذه البلاد فيذكر أن الجهات المعروفة الآن باسم أوغندة كانت تنصبُّ فيها فى الماضى هجرات حامية ، ونيلية ، ونيلية حامية من الشمال ، وأن هؤلاء الغزاة قد سادوا فى الجهات الشمالية ، وأنه قد تكونت من هذه الهجرات ، ومن السكان الأصليين عدة ممالك منها بوجندة ، وبونيورو ، وأنكولى ، ثم يذكر سريعاً أن العرب كان لهم دور بعد الإسلام فى شرق إفريقية ، وأن أحمد بن ابراهيم قد وصل إلى بوجندة حوالى عام ١٨٤٤ ، وأن نشاط العرب قد زاد فى الشرق الإفريقى بعد أن نقل السلطان سعيد عاصمة ملكه من مسقط إلى زنجبار .

وقد كنت أحب للمؤلف أن يعمق هذا الفصل ، ما دام قد وضعه تحت عنوان (التطور التاريخى وبدء الاتصال بالعالم الخارجى) فيذكر لنا تأثر هذه البلاد بالحضارة الفرعونية فقد وجدنا فيها الصلة بين الأبناء والذكور فى بيت الملك ، وبين النسر المصرى الذى لا يوجد فى هذه البلاد ، والمحافظة على الجثمان الملكى ، وقذف السهام فى الجهات الأصلية على نحو ما كان متبعاً فى الحضارة الفرعونية القديمة ، وعلى نحو ما ذكره روسكو فى كتابه الباجندا الذى رجع المؤلف إلى كتابين له وترك هذا الكتاب .

ثم إن المؤلف يذكر أن نشاط العرب فى الشرق الإفريقى قد ظهر فى عهد الدولتين : الأموية والعباسية ، ولكن الحقيقة تؤكد أن العرب قبل

الإسلام قد عرفوا نوعاً من المتاجرة مع شرق القارة ، وبخاصة فى زنجبار ، وأنهم تخطوا البحر الأحمر فى هذه الفترة المبكرة ، ويمكن الرجوع فى هذا إلى ما كتبه ماكميكل ، والدكتور عبد المجيد عابدين ، ومقال فى مجلة الكتاب للأستاذ عباس محمود العقاد ، ولكن لعل المؤلف كان يقصد إعطاء صورة سريعة عن اتصال البلاد بالعالم الخارجى .

وعلى كل فقد تعرض الكتاب للكشف عن منابع النيل الاستوائية ، فنراه يذكر أن بطليموس قد وصف هذه المنابع بشىء يقرب من الصحة ، وأن أول من عنى بها فى العصور الحديثة «جيمس بروس» فى القرن الثامن عشر ، ثم كانت البعثات التى تمت فى عهد محمد على ، وجهود برتون . وسبيك . وجرانت ، وستانلى ، وبيكر . وأمين باشا ،

وقد كنت أحب أن يضيف إلى هذا الزحام من الأسماء الأجنبية اسم الرائد المصرى «سليم قبطان» الذى فتح لهم الطريق . وانتفعوا بتقدمه فى الجنوب ، وبمذكراته . وتقاريره ، ولن ننخدع باسم أمين باشا لأنه فى الحقيقة طبيب ألمانى يدعى Edward Shmitzer. على أن خطوات المكتشفين قد عبدت الطريق للإرساليات التبشيرية . .. ثم يقدم لنا المؤلف مديرية خط الاستواء وكيف كانت تحت السيطرة المصرية ، ثم تعرضت لضغط المهدية ، وكيف قاومت المهدية بعنف ، ولكن أمر الإخلاء قد وصل إلى الحامية من نوبار وكان لا بد من الرحيل ، كما يوضح لنا «التنافس الاستعمارى فى أعالى النيل» ، وكيف أنا لو نظرنا إلى أية خريطة للساحل الشرقى لإفريقية فى أوائل عام ١٨٨٥ لم نجد لأية دولة أوروبية أية أملاك فى تلك البلاد ، ولكن سرعان ما اشتد التنافس على هذه المنطقة وبخاصة بين إنجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا وبلجيكا ، وكيف أن بريطانيا كانت تستهدف القضاء على الإمبراطورية المصرية فى إفريقية لتتفرغ بعد ذلك للدول الأوروبية ، وفى ضوء هذه الخطة نراها تجبر مصر على سحب الحملة التى كانت موجهة لفتح الساحل الشرقى ، وتجبرها على الخروج من السودان . وكيف أنها نجحت فى ذلك ، ثم أخذت تتقاسم الغنيمة مع هذه الدول . وكان من نصيبها أوغندة التى كانت كالثمرة الناضجة بعد أن عاثت فيها البعثات التبشيرية ، والتجار ، وشركة شرق إفريقية البريطانية ، وقد عبر عن هذا لوجارد الذى ثبت أقدام الإنجليز فى هذه البلاد بقوله فى كتابه قيام إمبراطوريتنا الشرقية الإفريقية «لنا حق مكتسب بطول الزمن فى امتلاك شرق إفريقية وبحيراته إذ قد

اكتشفها جميعها رحالة بريطانيون ، ودخلت إرسالياتنا المسيحية أولا على أثر مكتشفينا » ، على أن الأمر ما كاد يستقر لهم حتى عملوا على تدعيمه بالقضاء على الجنود السودانيين الذى استقدمهم لوجارد بعد أن تمت تصفية النفوذ المصرى فى المنطقة الاستوائية . فبعد أن عملوا على استقرار الأمر بالبلاد وضعت خطة للتخلص منهم ، ثم نفوا « موانجا » ملك أوغندة ، و « كابنى » ملك « أوينورو » إلى سيشل ، وتلاعبوا بالملوك بعد ذلك .

ثم كان أن قدم الإنجليز أوغندة على مذبح الحرب العالمية الأولى فقد دمروا اقتصادياتها ، ودفعوا بأبنائها إلى المعركة ، ثم تكرر الأمر فى الحرب العالمية الثانية ، ولكن الحرب ما كادت تهدأ حتى بدأ الشعور الوطنى يغلى ، وتطلع المواطنون إلى الحرية ، وكان أن قامت عدة ثورات ، وأدخلت إصلاحات دستورية ، وكان على قمة التنظيم الثورى دعوة كاباكا بوجندا الإنجليز إلى مغادرة البلاد ، ولكن الانجليز نفوه فى عام ١٩٥٣ ، ثم عاد .

.. ثم قدم لنا المؤلف سكان القارة فذكر أنه رغم صغر مساحتها إلا أنها تتمتع بكثافة سكانية ، وأن السكان فيها ينتمون إلى إفريقية ، وآسيا ، وأوروبا ، وأن الإفريقيين يمثلون الغالبية العظمى ، وأن أميز العناصر الإفريقية عنصر « البانتو » ، أما العنصر الأسيوى فيتمثل فى العرب الذين كان قدومهم حوالى عام ١٨٤٨ وإن كنا نميل إلى أن العرب قد انتشروا فى هذه المنطقة قبل هذه الفترة . ومن هؤلاء الآسيويين كذلك الهنود الذين تتركز الأعمال التجارية الآن فى أيديهم ، ثم كان الأوروبيون الذين تقاطروا على البلاد بعد عام ١٨٥٤ . على أن الأوروبيين والآسيويين لا يتجاوز عددهم ٩ ٪ من مجموع السكان ، وإن كانت تتركز فى أيديهم إدارة البلاد ، والتبشير ، والاقتصاد ، ثم يذكر المؤلف أن الهنود قد حلوا محل العرب فى الأعمال التجارية دون أن يوضح لنا أن الإنجليز عملوا على ضرب القوى العربية واستخلاص شئون التجارة من أيديهم وتسليمها للهنود ، فالكلام بالصورة التى ذكرها المؤلف يعطى القارئ فكرة كسل العربى ، وانعزاله بعيداً عن الأعمال التجارية ، مع أن أكبر مكاسبه فى هذه القارة بالذات قد كانت فى الأكثر قبل مجىء الأوروبيين قائمة على التجارة ، وفهمه لشئونها ، واكتسابه ثقة أهل البلاد بالأمانة ، والمظهر الطيب .

* * *

ثم حدثنا المؤلف عن التوزيع الدينى فى البلاد . وكيف أن الإسلام هو أول الأديان السماوية التى دخلت هذه البلاد ، وقد وفد على البلاد عن طريق السودان فى الشمال ، وعن طريق

ساحل إفريقية الشرقى حيث كان عرب مسقط ، وعمان ، وحضرموت ، واليمن يتوافدون على هذه البلاد للتجارة كما كان لإقامة الفرقة السودانية أثر كبير فى نشر الإسلام فى هذه البلاد . ويبلغ عدد المسلمين هناك ٢٥٠.٠٠٠ نسمة ، ويرجع المؤلف انتشار الإسلام إلى عدة عوامل منها :

١ – كثرة القادمين من التجار العرب المسلمين الذين يحرصون على أداء مناسكهم فى مواقيتها .

٢ – اتفاق إباحة الزواج فى الإسلام لأكثر من واحدة مع تقاليد البلاد الأمر الذى لا يبيحه الدين المسيحى .

٣ – إيمان المسلمين الوافدين بأنهم مجاهدون فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية ، وكثيراً ما يتزوج المسلم من وثنية أو مسيحية وسرعان ما تعتنق الأسرة بأكملها أو القبيلة كلها الإسلام بمحض إرادتها .

٤ – تنور الأهالى وتقدم الوعى بينهم جعلهم ينظـرون إلى المسيحية على أنها من المستحدثات الأوروبية ، كما أدركوا أغراض الأوروبيين الاستعمارية التى يخفونها تحت ستار التبشير .

٥ – اختلاط العرب المسلمين بالأهالى واندماجهم فيهم فى يسر وتسامح بعكس الأوروبيين الذين يفضلون العزلة والترفع عن الاختلاط بالأهالى ، وإقامة الحواجز الاجتماعية ، وعلى هذا انتشر الاسلام رغم امكانيات الأوروبيين الوفيرة ووسائل الترغيب والاغراء العديدة التى يجتذبون بها الأهالى .

وهذا الكلام يقبل المناقشة فقد أغلقت البلاد أو كادت فى وجه العرب بعد أن احتلت البلاد ، وأن إباحة الزواج لا تعتبر سبباً جوهرياً بدليل أن بعض الكنائس فى إفريقية أصبحت تجيز الزواج بأكثر من واحدة بل إن الطائفة الانجليكانية فى أوغندة بالذات قد خرجت منها طائفة تسمى « بامالاكى » تجيز عدد الزوجات ، فهذا الأمر إذن ليس قاصراً على العرب المسلمين .

ثم لعل الأستاذ « محمد عبد المنعم ! » ينسى أن الإسلام لا يبيح الزواج من الوثنية وإنما يبيحه من الكتابية فقط وهى المسيحية واليهودية . ثم كيف يبيح المؤلف لنفسه أن يقول إن الأهالى ينظرون إلى المسيحية على أنها من المستحدثات ، ويقول فى أول الفصل إن العرب دخلوا البلاد عام ١٨٤٨ .

ثم أخيراً نسائل المؤلف لماذا لم يجد الشجاعة التى وجدها بعض الأوروبيين والتى تقول : إن الإسلام ينتشر فى إفريقية لما فى تعاليمه من وضوح وبساطة وواقعية .

* * *

ثم يوضح المؤلف بعض العوائق التى قام بها الأوروبيون هناك لوقف المد الإسلامى فيذكر أن الإنجليز هناك ناصروا البروتستانت على الكاثوليك . فإذا كان هذا مسلكهم إزاء هاتين الطائفتين ، فكيف يكون مسلكهم إزاء الدين الإسلامى ، وأن غوردون قد وقف دون أن يسهم المصريون والسودانيون فى « أسلمة » البلاد ، ففى الوقت الذى طلب فيه الملك امتيسه عالمين ليرشداه إلى الإسلام . نراه يبعث إليه ببعثة لتحول بينه وبين هذا الدين ، ولتدخله المسيحية ، وأن السلطات البريطانية تمنع السفر إلى مصر

للتزود من الدين الإسلامي وتمنع الدعوة باسمه ، وأنها تشتت مراكز تجمعهم في البلاد في الوقت الذي تقرب فيه بين مراكز البروتستانت والكاثوليك ، وتغدق عليهم الأموال ، وتضع تحت أيديهم كل وسائل التبشير الممكنة .

* * *

أما المسيحية فقد أخذت تغزو أوغندة ابتداء من عام ۱۸۷۷ ، وبعد أن نجحت في تنصير الملك امتيسه وإبعاده عن الإسلام ، وبعد أن مزجت بينها وبين التعليم ، واعتمدت لها الأموال . ووضعت الدولة في خدمتها ، ومن هنا كانت النتيجة التي توضحها هذه الإحصائية التي تمت في عام ١٩٤٨ ، والتي تقول إن عدد البروتستانت ٧٥٠,٠٠٠ ، وعدد الكاثوليك ١,٤٥٠,٠٠٠ ، في حين أن عدد المسلمين في هذه السنة ٢٥٠,٠٠٠ ، وعدد الوثنيين ٢,٥٠٠,٠٠٠ .

* * *

ثم تحدث المؤلف عن الحكم فذكر أن بريطانيا بدأت استعمارها بتعديل الحدود ، ثم قسمت البلاد إلى ست مديريات ، ثم كونت المجلس التشريعي والمجلس التنفيذي ، ثم أقامت حكماً غير مباشر في بوجندا وخلاصة ما يأتي

١ – إعطاء الرئيس الوطني سلطة كبيرة تمكنه من تنفيذ الحكم الاستعماري .

٢ – إقامة حاجز دفاعي بين الحكام البريطانيين والشعب .

٣ – تقليل نفقات الإدارة الحكومية .

ولكن كل هذا لم يهدئ من الشعب الذي كان يرغب في الحرية ، ومن هنا كانت ثوراته الكبيرة في عام ١٩٤٥ ثم ١٩٤٩ ، ثم في ١٩٥٣ ، وكانت ثورته من قبل في عام ١٩٢١ حينما كانت هناك فكرة إدماج البلاد في اتحاد فدرالي مع بقية أجزاء شرق إفريقية ، وذلك بقصد تحويل أوغندة من مستعمرة استغلالية إلى مستعمرة استيطانية للرجل الأبيض ، وقد وضح هذا أحد المواطنين في كتاب له بعنوان « أمنا بوجندا » ففيه يقول

« لكن يبدو أن بريطانيا وهي التي دعت إلى القضاء على تجارة الرقيق ، قد ابتدعت وسيلة أخرى لاسترقاق الناس وهم آمنون في أوطانهم ، فبينما هي تلغي هذه التجارة إذا بها تحميها في ثوب آخر ، والحق أن تجارة الرقيق قديماً كانت خيراً مما ابتدعته بريطانيا حديثاً ، وذلك لأن عدداً محدوداً كان يؤخذ رقيقاً وكان الباقي من الشعب يظل في وطنه ينعم بالراحة والطمأنينة ، في حين أن تجارة الرقيق الحديثة تشمل الأطفال والنساء ، وصارت القوانين البريطانية تضع نيراً ثقيلا حول أعناقنا ، حتى ولو خيل إلينا أننا ما زلنا نعيش في أوطاننا ، ونحن في بوجندا لم نعان بعد كثيراً من هذا الاستعباد ، ولكن سيأتي وقت قريب تغتصب فيه أرضنا ونعمل فيها أجراء بعد أن تصبح ضياعاً للمستعمرين البريطانيين ، لا نملك فيها شيئاً ، بل نسام ألوان الذل والعبودية والهوان مثلنا في ذلك مثل إخواننا في كينيا ، وجنوب إفريقيا ، وغيرها من المستعمرات البريطانية » .

* * *

ثم يوضح المؤلف أن الاستعمار في هذا الوطن يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين ذلك لأن رجال الإرساليات قد عملوا على تدمير استقلال البلاد في تعاون

تام مع رجال الإدارة البريطانية ، ولقد كان الصراع الكبير بين البروتستانت والكاثوليك على أرض هذه البلاد هو الذى جر البلاد إلى الوقوع تحت السيطرة البريطانية ، بل لقد تقاسمت هذه السياسة الرؤساء باسم الدين فوضع قانون يحتم أن يكون الملك ورئيس الوزراء ووزير المالية من أتباع الكنيسة الإنجليكانية بإنجلترا ، وأن يكون وزير العدل من أتباع الكنيسة الكاثوليكية ، ومن هنا خضع هؤلاء القادة مرتين للإنجليز الأولى منهما لرجال الإدارة ، والثانية لرجال الدين وكان أن سخرت اقتصاديات البلاد للسلطة الحاكمة من الإنجليز ولرجال الكنيسة.

وقد قاوم الشعب كل هذا فظهرت جماعة « باتاكا » ، وجماعة « شباب بوجندا » ، والمؤتمر الوطنى الأوغندى والحزب الديمقراطى ، والحزب التقدمى ، وحزب المؤتمر المتحد ، وكلها أخذت تدافع عن التلاعب بالشعب باسم مصالح بريطانيا والكنيسة ، ولقد تساقط الكثيرون وهم يدافعون عن قضايا الوطن حتى لقد أطلق على هذه البلاد اسم أرض الشهداء السود !

كما ظهر فى فبراير حزب « الحركة الوطنية » الذى هدف إلى إنهاء المنازعات بين مختلف الأحزاب ، ودعا إلى الحكم الذاتى ، ومقاطعة المنتجات البريطانية ، حل الجمعية التشريعية ، وإجراء انتخابات حرة لبرلمان جديد . وإجراء مفاوضات تنهى السيطرة الإنجليزية فى عام ١٩٦١ ، ولكن الإنجليز سارعوا بحل هذا الحزب ، ولكنه عاد من جديد باسم « حركة الحرية » يطالب بحرية البلاد ، وإخراج الإنجليز ، كما ختم المؤلف كتابه بكلمات موجزة وإنشائية عن الزعيم « جون كالى » الذى احترق أخيراً فى طائرة ، وببعض الإحصائيات

وهكذا نرى هذا الكتاب يقدم عرضاً طيباً لقضية هذا الوطن ، فوراءه جهد موفق ، ومراجع متعددة ، وإن كنا نراه لا يصل بالأحداث إلى النتائج التى ستترتب على انتخابات فبراير عام ١٩٦١ ولا يشير إليها مطلقاً ، كما أنا نخالفه فى بعض الأعلام فهو يتحدث فى ص ٥ عن بلدة « ينمولى » وصحتها « نيمولى » ، ويقول « بونيورو » ، وصحتها بورنيو ، ويقول جوردون مع أن كافة المؤرخين ، والمكاتبات الرسمية تسميه « غوردون » ، وقد جرى فى كل الكتاب على أن أوغندا بالألف وصحتها فى النطق العربى بالهاء هكذا « أوغندة » ، كما أنه يطلق على دولة زنجبار اسم « جزيرة زنجبار » وهى فى الحقيقة أكثر من جزيرة وأهمها جزيرة بمبا ، كما نراه يعيد بعض النصوص دون داع كما حدث فى نص لوجارد فى ص ٦٧ ، ٨٠ .. وكل هذه الأشياء لن تقلل من القيمة الكبيرة التى لهذا المؤلف القيم الذى يسد مكاناً خالياً فى المكتبة العربية .

مشكلة الكونغو

فى أعياد الوحدة

ما زالت مشكلة الكونغو تشغل الرأى العام العالمى ، وقد اهتم بها اهتماماً خاصاً فى الجمهورية العربية المتحدة ، ذلك لأن بلادنا كما قال السيد الرئيس بعد أن كانت ابنا للحرية أصبحت أبا لها ، ولأن الإقليم الجنوبى نفسه يعيش فى الشمال الافريقى ، ولأن العروبة تحتل مساحات كبيرة من القارة الافريقية ، ولها فيها مجد ، وحضارة ، وثقافة ، ولعله فى ضوء هذا يمكن الرد على الصحف الاستعمارية التى رأت من وجهة نظرها تناقضاً فى سياسة الجمهورية العربية المتحدة ، ويمكن كذلك أن نعرف مقدار الانعطاف ، والحب الذى تكنه بلادنا للقارة الإفريقية ، فهى تعتبر نفسها مسئولة عن رفع أعلام الحرية فيها ، وعن تدعيم هذه الحرية والدفاع عنها ، فلن تكون القومية العربية آمنة على نفسها إذا ظل الاستعمار يضرب فى القارة ، ويهدد ، ويصفى القوى الوطنية .

على أن الجمهورية العربية المتحدة وهى تحتفل بعيد الوحدة الثالث لم تنس قضية الحرية فى القارة ، ومن هنا كانت كلمة الرئيس من دمشق . والتى جاء فيها :

« إننا حينما نتبنى قضايا الحرية ، نتبناها ، لأننا نشعر أن قضية الحرية لا تتجزأ فى أى مكان .. إننا حينما نتبنى قضايا الحرية فى إفريقية ، ونقف لنساند الشعب الافريقى ، إننا فى هذا أيها الأخوة المواطنون ، نذكر الأيام العسيرة التى مرت بنا .. أيام تأميم قناة السويس وأيام العدوان الثلاثى ، وكيف هبت الشعوب الحرة فى كل مكان ، لتقف معنا وتساندنا .. إننا نشعر أن هذه المساندة لنا من الشعوب الحرة فى إفريقية ، وفى آسيا ، مكنتنا من أن ننتصر فى معركة قناة السويس ..

فإذن أيها الاخوة المواطنون .. قضية الحرية لا تتجزأ .. فإذا انتصرت الحرية فى أى مكان ، فهذا انتصار لحريتنا وتدعيم لاستقلالنا ، ولقوتنا .. ولهذا فإننا لا يمكن بأى حال أن نتنكر لمبادئنا أو نتنكر لأهدافنا .. فإذا نادينا بالحرية وإذا نادينا بالمبادئ ، وبالمثل العليا ، فإن علينا أن نساعد كل من يسعى إلى الحرية وإلى الاستقلال .. وكل من يكافح فى سبيل التخلص من

الاستعمار ، أو من أعوان الاستعمار . .

وحينما ساعدنا ، وعاونا شعب الكونغو المقاتل فى سبيل حريته ، لم نكن نهدف إلا أن نرفع علم الحرية . وكنا نشعر أيها الاخوة المواطنون ، أن الكونغو كدولة ، وشعب صغير ، يجب أن يجد المساندة من الشعوب الصغيرة الأخرى . . الشعوب الحرة . الشعوب المستقلة . . لأن الكونغو إذا سقط ، فإن هذا سيمكن الاستعمار من أن يكرر العملية مرة أخرى ، حتى تسقط البلاد التى تسعى إلى حريتها . .

وإننا أيها الاخوة المواطنون . . نحمل الاستعمار مسئولية ما حدث فى الكونغو . . فإذا وقفت أمريكا ، لتعلن أنها تؤيد كازافوبو كرئيس شرعى لجمهورية الكونغو ، فلا يمكن لنا إلا أن نتساءل ماذا عمل كازافوبو حتى تؤيده أمريكا ؟ ؟

لقد اغتصب كازافوبو حكم الكونغو . . وحل برلمان الكونغو . . وقضى على حكومة الكونغو . . ثم خضع للاستعمار وأصدر كازافوبو أوامره بتسليم لومومبا إلى عميل الاستعمار تشومبى .

إذن . . فإذا قتل لومومبا فمن القاتل ؟

القاتل الأول تشومبى ، ومن فوقه العميل الاستعمارى الأول كازافوبو ، ومن فوقه الاستعمار . . فإذا أيدت أمريكا كازافوبو ، بعد مقتل لومومبا، فإن أمريكا لا بد ، أن تكون شريكة لكازافوبو فى جريمته النكراء . .

هذا هو مفهومنا لهذا . . وإلا فلماذا تؤيد أمريكا كازافوبو إذا كانت تريد السلام القائم على العدل . .

وبالأمس أيها الاخوة المواطنون ، سلم كازافوبو عميل أمريكا ، تسعة من وزراء لومومبا إلى عميل آخر . وأعدموا . . وأعلنت أمريكا أنها تؤيد كازافوبو . .

من القاتل ؟

الاستعمار هو القاتل . . الاستعمار ، هو الذى يريد أن يقضى على حرية الكونغو ويضعه داخل مناطق النفوذ . . وعلينا فى هذا أيها الاخوة المواطنون ، واجب كبير نحو الكونغو ونحو إفريقية . . لأن زيادة الدول الحرة إنما هى تدعيم لحريتنا . . أما زيادة الدول التى يحكمها العملاء ، فإنما هو قضاء على الحرية فى كل مكان . . وقضاء على الأمم المتحدة ، وعلى ميثاق الأمم المتحدة . .

الأمم المتحدة التى أغمضت أعينها عما جرى فى الكونغو . . والتى أرسلت قواتها إلى الكونغو ، ولكنها استخدمت هذه القوات ضد لومومبا ، ثم عادت بعد هذا ، وبعد أن اعتقل لومومبا ، لتترك لأعوان الاستعمار الحرية الكاملة، ليقضوا على العناصر الوطنية ،ويصفوها

هل نستطيع أن نسكت على ما يجرى هناك ؟ !

« الرئيس جمال عبد الناصر »

هل نستطيع أن نسكت ، والعناصر الوطنية تصفى بواسطة الاستعمار ، وأعوان الاستعمار ؟ ؟ وكلنا نعلم ما هو بلاء الاستعمار ، وما هو بلاء أعوان الاستعمار ؟

لا يمكن لنا أيها الأخوة المواطنون أن نغمض أعيننا .. ولا يمكن لنا بأى حال من الأحوال أن نسكت .. لأننا رفعنا راية الحرية ، ونصمم على أن ترتفع راية الحرية فى كل جزء من أجزاء العالم .. لأن ارتفاع راية الحرية فى كل جزء من أجزاء العالم ، إنما هو أمن لنا ، وطمأنينة .. وهو سلام لنا ، وأمان .. لأن التهديد الذى نتعرض له هو تهديد الاستعمار ، وأعوان الاستعمار تهديد الدول الاستعمارية ، وتهديد الدول التى يحكمها أعوان الاستعمار .. فإذا قضى على أعوان الاستعمار ، وارتفعت راية الحرية .. وإذا قضى على الاستعمار فإنما يسود السلام القائم على العدل فعلا ، كما نريد ، وكما نتمنى ..

لهذا أيها الأخوة المواطنون، ساعدنا وساندنا شعب الكونغو فى كفاحه من أجل حريته ، ومن أجل استقلاله .. لأن معركة الكفاح من أجل الحرية ، معركة واحدة .. ومن أجل الاستقلال معركة واحدة ..

إننا إذا سرنا فى سياستنا الإفريقية على هذا النمط ، فإننا لن نمكن لإسرائيل أبداً أن تضع لنفسها قدماً فى إفريقية .. لأن الاستعمار الفرنسى ، أو البلجيكى ، أو البريطانى ، حرم علينا الدخول إلى إفريقية فى البلاد التى تخضع لنفوذه .. أى مواطن من الجمهورية العربية المتحدة ما يقدرش يدخل بلد تحت الاستعمار الفرنساوى ، أو الاستعمار الإنجليزى مايدلهوش «فيزا» علشان يدخل

ولكن إسرائيل لها كل التسهيلات إسرائيل ؛ الاستعمار يساعدها ، حتى تخضع إفريقية ، وتسيطر على إفريقية .. ولهذا فإن علينا واجباً كبيراً ، علينا أن ننبه إفريقية ، وشعب إفريقية إلى الاستعمار الجديد .. الاستعمار الصهيونى الذى يتعاون مع الاستعمار القديم البريطانى ، والفرنسى ، من أجل السيطرة ومن أجل الاستغلال ، ومن أجل وضع البلاد الإفريقية داخل مناطق النفوذ .

هذا أيها الأخوة المواطنون جزء من معركتنا ضد إسرائيل ، وضد الصهيونية .

وإن شعوب إفريقية ، وقادة إفريقية الذين اجتمعوا فى مؤتمر الدار البيضاء استطاعوا أن يعرفوا ، وأن يكشفوا خطر اسرائيل ، وأن يروا فيها الاستعمار الجديد ..

هذا أيها الأخوة المواطنون ، من ناحية القضاء على الاستعمار والقضاء على الاستغلال السياسى .

ثم رد السيد الرئيس على هؤلاء الذين يرون تناقضاً فى موقف

الجمهورية العربية المتحدة من قضية الكونغو بخاصة ، وقضايا القارة الإفريقية بعامة ، فقد جاء فى خطاب سيادته فى ٢٢ - ٢ - ١٩٦١ ما يأتى :

« اليوم أيها الأخوة المواطنون كنت أقرأ إحدى صحف الاستعمار التى تظهر باللغة العربية فى بيروت وكانت تقول أن هناك تناقض بين الجمهورية العربية المتحدة فمصر تهتم بإفريقية وسوريا لا تهتم بإفريقية وأنا أعلم أن الشعب السورى على مر السنين وعلى مر الزمن كان يهتم بقضايا الحرية فى كل مكان وفى كل زمان ،الشعب السورى هو شعب واع لماذا حافظ على عروبته وعلى قوميته، لماذا حافظ على استقلاله وعلى حريته ، لماذاحافظ على إصالته ، لماذا جعل من سوريا ومن دمشق قلب العروبة النابض، وقلب الحرية النابض، لماذا لأن الشعبالسورى الواعى كان دائماً يهتم بقضايا الحرية فى كل مكان وحينما هبت الثورة فى أندونيسيا ضد الاستعمار هب الشعب السورى ليساند إخوته فى أندونيسيا ضد الاستعمار .

وحينما قامت الثورة فى الكونغو ضد الاستعمار ، ومن أجل الحرية قام الشعب السورى يشعر بأن واجبه أن يؤيد هذه الحرية وحينما وصلت إلى اللاذقية كان أول ما سمعته قصيدة من شاعرة عربية ماذا استمعت فى هذه القصيدة استمعت كلاماً عن الوحدة وعن القومية العربية استمعت كلاما عن البطولة والفداء ثم استمعت شعراً عن إفريقيه وعن باتريس لومومبا المناضل المكافح .

ونحن مع قضايا الحرية فى كل مكان .

هذه أيها الاخوة هى مشاعر شعب الجمهورية العربية المتحدة قضية الحرية فى كل مكان هى قضيتنا كفاح من أجل الحرية فى كل مكان هو كفاحنا أما خطة الاستعمار الجديدة التى يسير عليها الآن منذ مؤتمر الدار البيضاء أن مصر تتجه إلى إفريقية وأن عبد الناصر الآن تحول عن العروبة ويتجه الآن إلى إفريقية هذا كلام الاستعمار وأعوان الاستعمار وصحف الاستعمار التى تكتب بالعربية فى بيروت وكلنا نعرف هذه الصحف وشعب لبنان العربى الأصيل يعرف أيضاً هذه الصحف .

هذا أيها الاخوة المواطنون هو ردنا على عملاء الاستعمار وعلى الاستعمار وستسحق الأمة العربية الاستعماربأقدامها وستسحق أعوان الاستعمار بأقدامها وسيبقى العلم العربى عالياً خفاقاً وستبقى القومية العربية عالية خفاقة وستسير الأمة العربية فى طريقها نحو الحرية الحقيقية والوحدة الحقيقية والله يوفقكم أيها الأخوان والسلام عليكم ورحمة الله » .

كما ألقى السيد الرئيس خطاباً آخر من دمشق طالب فيه الأمم المتحدة

بالتحقيق فى مقتل لومومبا بعيدا عن سيطرة الاستعمار فقد جاء فى هذا الخطاب :

« أما فى الحقل الخارجى فإن إرادتنا تنبع من جمهوريتنا الحرة المستقلة ولا يمكن أن نقول إلا الحق الذى نقتنع به .

واليوم أيها الاخوة المواطنون أعلنا دائماً كما أعلنا فى الماضى رأينا بالنسبة للسياسة الدولية أننا مع الحرية وأننا مع الاستقلال . وأننا مع تقرير المصير ، وأننا ضد الاستعمار وضد أعوان الاستعمار وعلى هذا الأساس سرنا فى الأمم المتحدة وعلى هذا الأساس سرنا فى المجالات الدولية . .

واليوم أيها الاخوة المواطنون أقول لكم . كما قلت لكم بالأمس إننا حينما نقف مع قضايا إفريقية ومع قضايا الاستقلال فى كل مكان إنما نقف مع قضايا استقلالنا وتدعيم استقلالنا . وحينما نؤيد الحرية فى الكونغو وقضية الحرية فى الكونغو إنما نؤيد قضية الحرية التى نادينا بها من أول يوم فى جمهوريتنا . .

إننا اليوم ننظر إلى الكونغو وننظر إلى الاستعمار وإلى ألاعيب الاستعمار وننظر إلى أعوان الاستعمار فى الكونغو . . القتلة أمثال كازافوبو وتشومبى وكالونجى وأقول إن لأعوان الاستعمار نهاية ونطالب الأمم المتحدة أن تحاسب أعوان الاستعمار على جرائم القتل التى ارتكبوها وإلا فإن الشعوب كلها ستفقد ثقتها فى الأمم المتحدة وفى عملها .

لقد تقدمت الجمهورية العربية المتحدة مع الدول الآسيوية الافريقية بقرار فى مجلس الأمن يطالب بإجراء تحقيق محايد فى الكونغو حتى نعلم من هم القتلة وحتى نعرف من هم القتلة ونحن اليوم نطالب باسم شعب الجمهورية العربية المتحدة وباسم الشعوب الحرة فى كل مكان أن تسير الأمم المتحدة فى هذا الطريق وتقوم بتحقيق سريع وألا تكون تحت سيطرة الاستعمار وتحت سيطرة الدول الاستعمارية فتتهاون بعد هذا القرار كما تهاونت فى الماضى .

لقد قدمنا قراراً ووافق عليه مجلس الأمن يطالب بالتحقيق المحايد ويطالب أيضاً بعودة البرلمان ويطالب بعودة البرلمان الشرعى فى الكونغو ويطالب بنزع أسلحة القوات التى تستخدم فى السياسة .

ويطالب بأن نقضى على أى فرص للحرب الأهلية فى الكونغو ونحن اليوم نطالب الأمم المتحدة بتنفيذ هذا القرار لأنها تقاعست فى الماضى وتقاعست سكرتيريتها عن تنفيذ قرارات مجلس الأمن من أجل وحدة الكونغو ومن أجل استقلاله . ونعلنها عالية من هنا أن الأمم المتحدة إذا فشلت اليوم بعد هذا القرار فى الكونغو فإنها تضع بيدها

مسمار نعشها لأن الشعوب تفقد فيها الثقة وتعتبرها صنيعة الاستعمار ويكون مصيرها كمصير عصبة الأمم فى الماضى

لا بد للأمم المتحدة من أن تخرج من مناطق نفوذ الاستعمار وتعمل على أن تسود مبادئ الحرية وميثاق الأمم المتحدة . .

إننا ننظر بترقب للموقف لنرى ماذا سيكون تصرف الأمم المتحدة ضد القتلة . . ضد عملاء الاستعمار من أجل وحدة الكونغو ومن أجل استقلاله .

وإننا فى نفس الوقت نقول إننا على استعداد لأن نساعد شعب الكونغو فى سبيل تحقيق حريته وفى سبيل تحقيق استقلاله .

كما أقام الاتحاد القومى مؤتمراً شعبياً احتفالا بالعيد الثالث للوحدة . وقد تعرض فيه السيد كمال الدين حسين لنفس المشكلة فذكر أن آخر ضربة للاستعمار قد وقعت مباشرة على قلب الكونغو . وأن الاستعمار لم يقف وحده فى الكونغو . وإنما ضرب بيد العملاء الذين يخدمونه . ثم ذكر أنه لا حيلة فى أن يعـــادى الاستعمار الجمهورية العربية المتحدة لأنها حصن الحرية ، وقلعة الاستقلال . ثم ختم خطابه بقوله : « إننا حين ننادى بالحياد نذكر معه أنه حياد إيجابى ، والإيجابية هنا تعنى اشتراكنا مع باقى أفراد الأسرة الدولية فى الادلاء برأينا فى أحداثها . وأن نسهم فى تكوين الضمير العالمى الحر غير الخاضع لنفوذ ولا لسلطان الدول الكبرى .

إننا حين نؤيد قضية الحرية فى الكونغو فإننا نؤيد قضية حريتنا . وإننا حين نقاوم الاستعمار فى الكونغو فإننا نقاوم الضغط الاستعمارى علينا ، إذ أن انتصار الاستعمار فى الكونغو توطيد لأقدامه فى كل القارة الإفريقية . وفى كل مكان من العالم » .

وهكذا نرى أن الجمهورية العربية المتحدة لم تنس فى أفراحها قضية إفريقية . ولم تطلقها شعارات زائفة على أثر مقتل لومومبا . وإنما وقفت بإصرار وقوة تدافع عن الحرية . وعن كرامة الإنسان فى الكونغو . وفى كل مكان فى إفريقية .

جولة مصورة حول

« باليه إفريقى »

« رقصات مرحة »

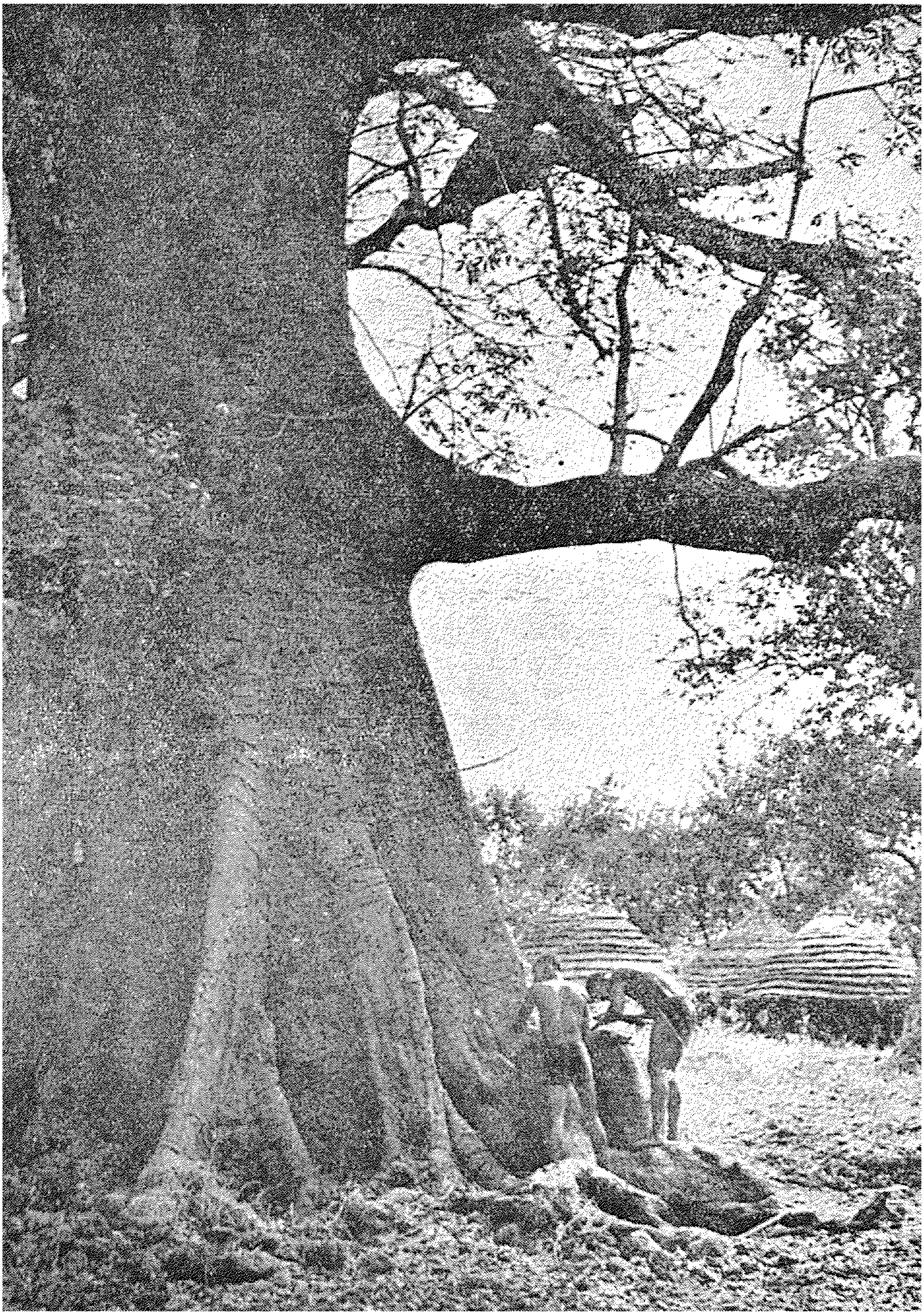

« شجرة ضخمة ترشد إلى القرية »

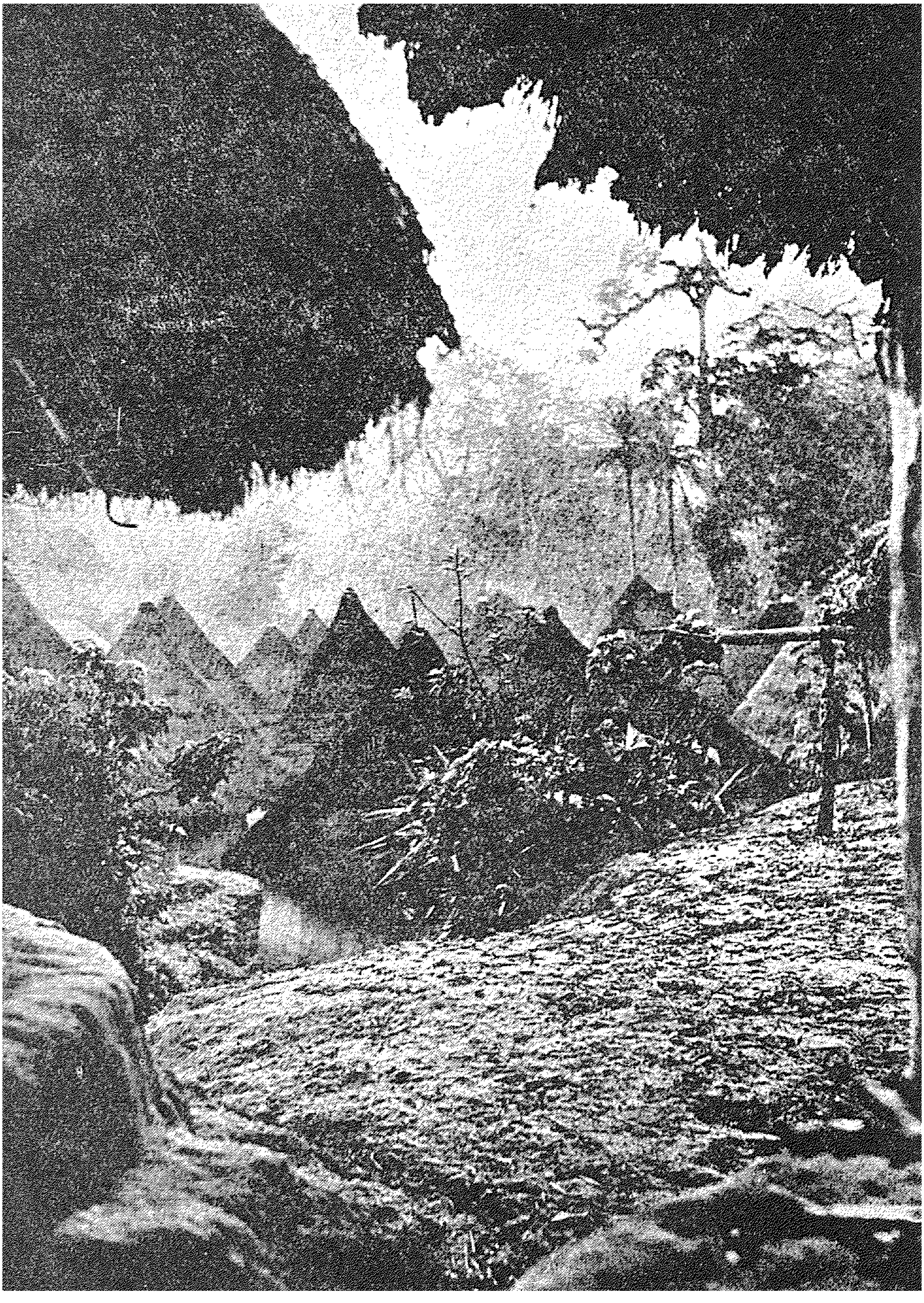

« قرية إفريقية »

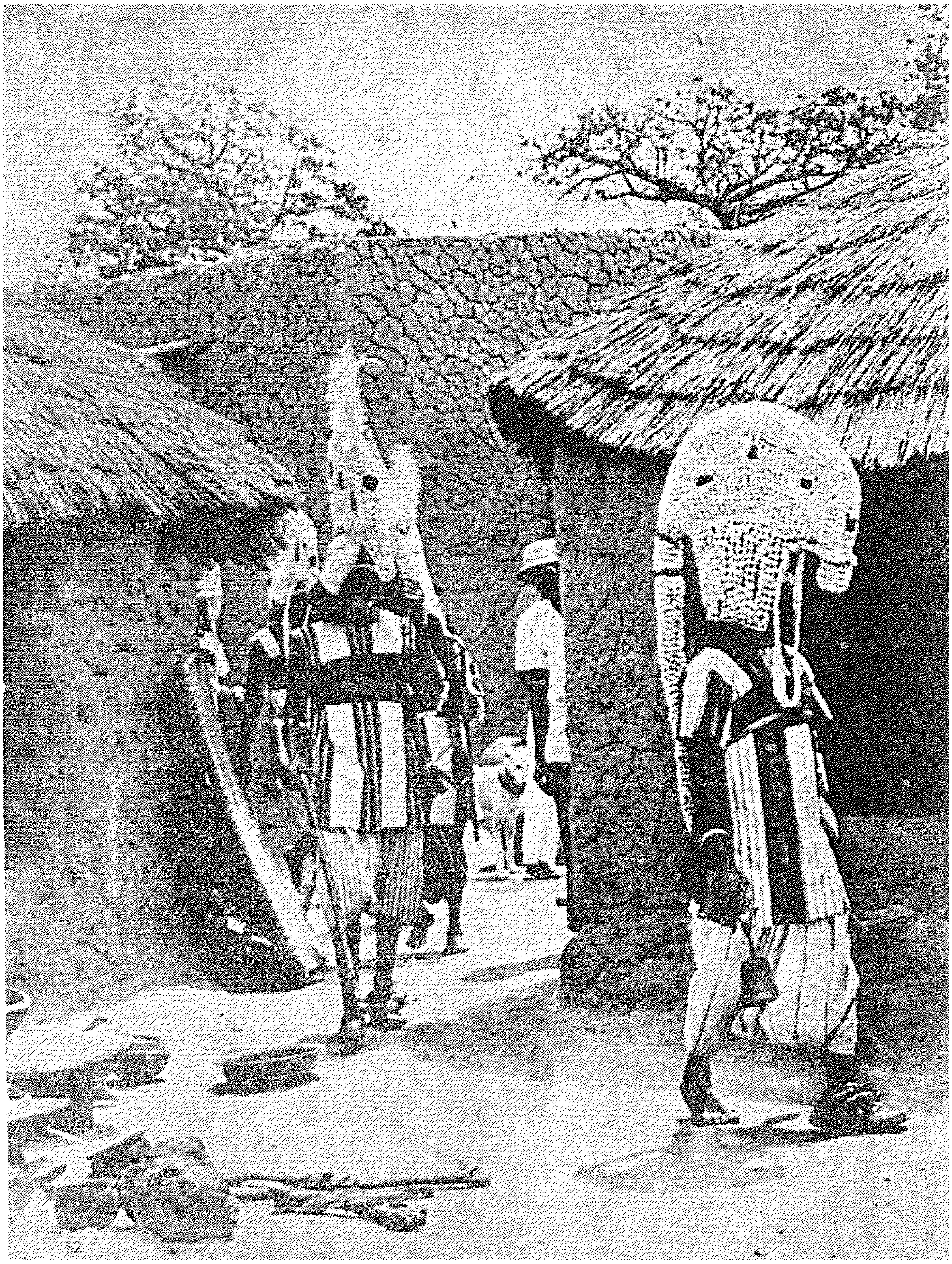

السيدة بولين فى طريقها إلى ستانلى فيل

تمثال لومومبا الذى سيقام فى ليننجراد »

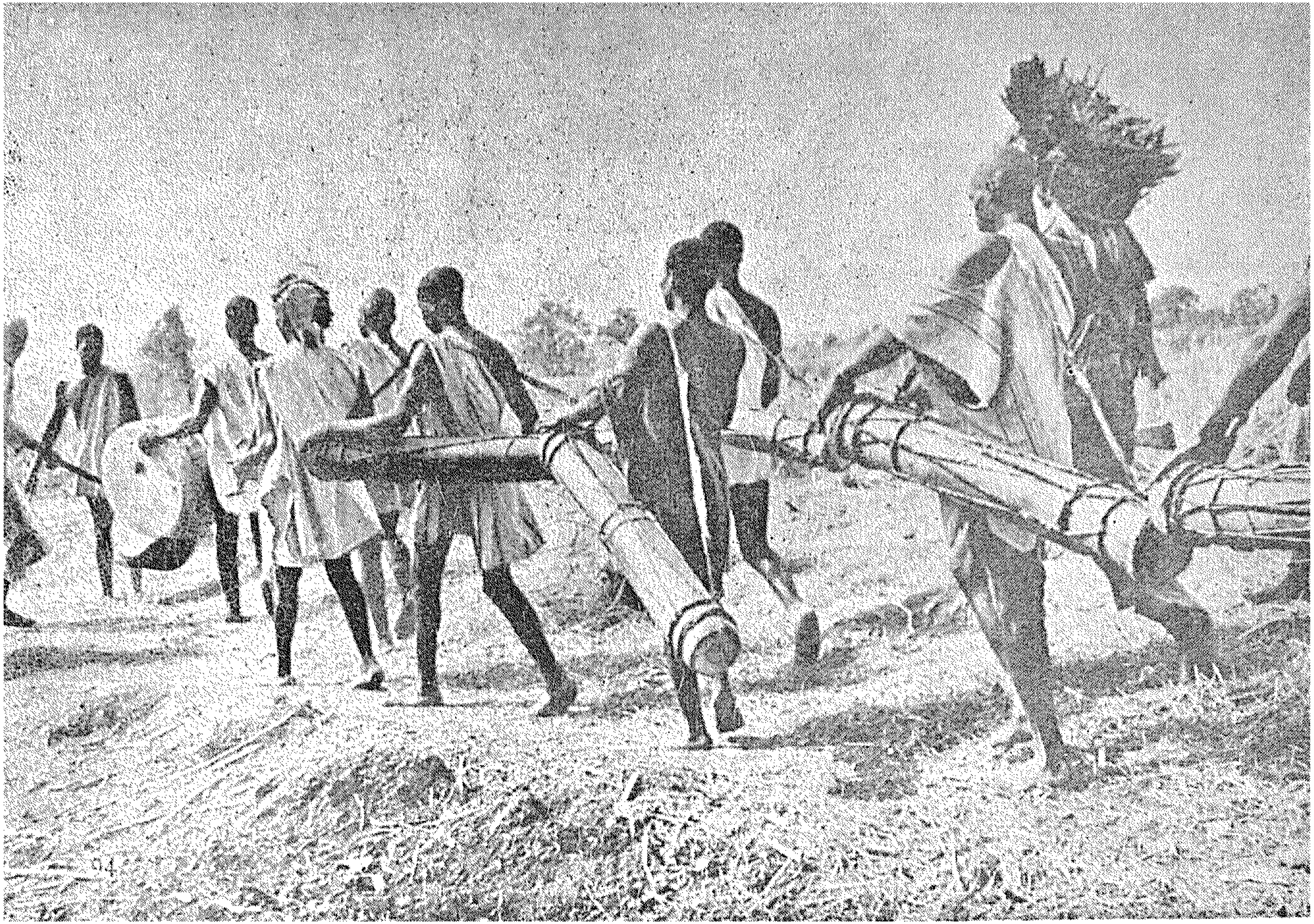

« الطبول الإفريقية »

ضوء على كتاب

من الكتب التى ظهرت أخيراً وعالجت واحداً من القضايا الكبيرة التى تشغل أذهان الساسة ، والتى كانت مثار بحث فى مؤتمر الدار البيضاء كتاب « قضية موريتانيا » للأستاذين محمد إسماعيل محمد ، وعبد الخالق عامر ؟

والمؤلفان يقدمان لنا « موريتانيا » على الخريطة فيذكران أنها من بلدان الغرب الإفريقى . فيحدها من الشمال إقليم تندوف والساقية الحمراء ، ومن الجنوب نهر السنغال ، وشرقاً جمهورية مالى والصحراء الجزائرية ، وغرباً المحيط الأطلسى ، وتبلغ مساحتها ٤١٩,٠٠٠ ميل مربع حسب الحدود السابقة التى وضعتها لها فرنسا حين احتلها .

وهذه المنطقة هى ما كان يسميها العرب « شنقيط » ، ثم أطلق عليها الأوروبيون بعد ذلك «موريتانيا» لأن الفرنسيين كانوا يطلقون على أهلها اسم Maurs ، أما الإنجليز فكانوا يطلقون عليها اسم Moors بمعنى المغاربة ، وكلمة المور هذه أطلقها الإسبان قديماً على العرب الذى قدموا إلى الشمال الإفريقى فى عصر بنى أمية ، واستطاعوا بقيادة عقبة بن نافع . وطارق بن زياد بالاشتراك مع البربر فتح الأندلس .

والمنطقة بصفة عامة تتكون من سهول فسيحة ، وصحراء ممتدة ، وكثبان رملية ضخمة ، وتتخلل كل هذه بعض الوديان . والواحات ، والينابيع . وبعض الأرض الصالحة للزراعة . وإن كانت تغلب عليها المراعى الفسيحة التى تربى عليها الثروة الحيوانية الضخمة التى تنشط اقتصاد البلاد ، إلى جانب ما يغله النخيل ، وأشجار الزيتون ، وما يتدفق على طول الساحل الموريتانى من ثروة سمكية هائلة ، كما توجد بها كذلك قطاعات ضخمة من الأماكن التى يستخرج منها الملح ، والزيت ، والحديد ، والنحاس الأحمر ، والبترول والمنجنيز ، والكوبالت ، والفحم .

فالبلاد بهذه الصورة كنز ضخم دعا فرنسا — حينما اشتد الوعى القومى فى البلاد — إلى أن توجه نداء إلى كل من ألمانيا . وإيطاليا ، وبريطانيا لاستثمار أموالها فى هذه البلاد ، وليمكن الضغط بوساطة رأس المال هذا على مقدرات البلاد . وليمكن توجيهها الوجهة السياسية والاقتصادية التى تريد.

فإذا تركنا هذا وتعديناه إلى الثروة البشرية وجدنا أن السكان جميعاً من العرب باستثناء حوالى ٧٪ من الزنوج المسلمين الذين يقيمون على ضفاف نهر السنغال ، ذلك لأن المغاربة — وهم يرجعون إلى أصل مختلط من العرب والبربر — قد شقوا طريقهم إلى هذه المنطقة فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ثم اجتاحتها القوى الإسلامية ، وضمتها نهائياً إلى « المغرب » أيام حكم المرابطين الذين امتد نفوذهم حتى السنغال ، وقد تعاقبت على هذه البلاد دولة المرابطين والموحدين ، والمرينيين .

ثم جاء الاستعمار الفرنسي ، وعمل على « فرنسة » السكان ، وأقام سياسته على الاندماج ، ومن هنا حصر اللغة العربية فى مكان ضيق ، وأخمد كل القوى التى تحس بها ، وصال وجال وجال فى البلاد .

ومما هو جدير بالذكر أن مساحة موريتانيا تبلغ مليوناً وعشرين ألف كيلو متر مربع تقريباً ، فهى ضعف مساحة المغرب ، ويقيم على هذه المساحة الضخمة ما يقرب من مليون نسمة .

* * *

ثم يقدم المؤلفان هذه البلاد عبر التاريخ فيذكران أن هذه البلاد كانت ترتبط من قديم الزمن بالمغرب الأقصى أى مراكش ، وأن هذه البلاد قد دخلت التاريخ حين هزمت قواتها القرطاجنيين ، ذلك لأن هذا الاستعمار القديم كان يضغط على هذه البلاد ويسميها كما يذكر المؤلفان « منجم حبوب روما » ، ولعل التسمية الحقيقية كانت « مخزن حبوب روما » .

ومهما يكن من شيء فالمؤلفان يقفان بالتاريخ عند حدود التأثر الرومانى كأنه « نقطة بدء » للتاريخ فى هذه المنطقة ، ومما لا شك فيه أنه كانت لهذه المنطقة حياتها الخاصة قبل مجيء الرومان ، وقد كان من الضرورى التنقيب عند هذا الماضى ، وتحديده ، ورسم خطوط الصراع بينه وبين الرومانيين ، ما دام المؤلفان قد وضعا هذا العنوان الكبير وهو « موريتانيا فى التاريخ حتى بداية القرن العشرين » .

ومهما يكن من شيء فقد تدافعت الموجة العربية الأولى هذه البلاد ، ومستها بعصاها السحرية ، فإذا بها تنجح فى إدخال المغاربة فى الإسلام ، وإدماجها إدماجاً كاملا بحيث أصبح من المتعسر التميز بين العربى والمغربى فى هذه البلاد ، بحيث أنه لم يكد يتم على وفاة الرسول نصف قرن حتى كان عقبة بن نافع متوغلا بجيوشه فى الأرض المغربية ، ثم توج هذا العمل بحملة موسى بن نصير الذى يعتبر الفاتح الحقيقى للمغرب .

ومن هنا أصبحت هذه البلاد نقطة ارتكاز ووثوب للقوى العربية على أوروبا ، فنراها فى عام ٧٠٩ تلحق سياسياً بدولة الخلفاء الشرقية ، ونراها

بعد ذلك ، بأقل من عامين ، تشب من وراء طارق بن زياد إلى الأندلس ، ذلك لأن المغرب قد ظل على الدوام « القاعدة الخلفية » التى تقوم على حماية الإسلام فى شبه الجزيرة التى كان الخطر يتهددها دائماً من الشمال . ويظهر هذا واضحاً فى عهود المرابطين ، والموحدين ، وبنى مرين ، كما كان المغرب .. فى الوقت نفسه .. «قاعدة أمامية» لنشر الإسلام فى الأجزاء الجنوبية من الصحراء ، وبلاد السودان ، وبعبارة أدق تلك الرقعة الممتدة من بلاد المغرب شمالا ، وساحل المحيط الأطلسى غرباً ، ووادى النيل شرقاً .

على أن دولة الخلافة الشرقية لم تلبث قبضتها أن تراخت فوق الإمبراطورية الإسلامية ، ومن هنا نرى بعض النزعات الاستقلالية ، فى الأندلس على يد الخليفة الأموى ، وفى المغرب على يد الأدارسة الذين استقلوا بالبلاد ، ووضعوا الخطة للاستقلال بها بعيدة عن سلطة الخلفاء ، وقد احتفظ الأدارسة بوحدة المغرب إلى أن انهارت فى منتصف القرن الحادى عشر . ولكن ما كادت هذه الدولة تضمحل حتى ظهرت دولة المرابطين فى شنقيط (موريتانيا) ، وأخذت تمد نفوذها فى الشرق ، وتستانف سياسة الفتوح الإسلامية فى إسبانيا ، وقد نبعت هذه الدولة من عدة قبائل تبلغ السبعين وتسمى قبائل « الملثمين » ، لأنها كانت القبيلة الوحيدة التى تتخذ اللثام دون بقية القبائل ، وقد قامت هذه الدولة بمجهود كبير فى نشر الإسلام فى أكثر من مكان بإفريقية ، وبخاصة السودان الغربى ، بحيث انبسط ظلها تماماً على منحنى نهر النيجر فى الجنوب إلى البحر المتوسط فى الشمال ، بل تجاوزته إلى الأندلس ، وكان من أقوى رجالها يحيى بن إبراهيم ، والداعية الإسلامى الكبير عبدالله بن ياسين ، ويوسف بن تاشفين الذى امتد نفوذه من السنغال إلى نهر الأيبر ، ومن المحيط الأطلسى إلى الجزائر .

ثم تولت حكم البلاد دولة « الموحدين » التى تتكون من قبائل انحدرت من جبال الأطلس وأهمها وأقواها قبيلة صنهاجة ، بعكس المرابطين الذين ينتمون إلى القبائل القادمة من الصحراء ، وقد كان رائد هذه الدولة بحق الزعيم الدينى « المهدى بن تومرت » الذى دعا إلى نظرية ترتكز على التوحيد والزهد وطهارة الأخلاق ، ثم تولى من بعده تلميذه « عبد المؤمن » الذى وسع رقعة المملكة وأصبح المغرب فى عهده يؤلف دولة واحدة من الأندلس إلى برقة ، ولكنها ما لبثت أن ضعفت .

ثم تولى حكم البلاد « المرينيون » الذين ينتمون إلى المغرب الشرقى ، ولكن القوى الأجنبية الممثلة فى الإسبان والبرتغال أخذت تتوغل فى ممتلكاتها .

وكان أن قام « السعديون » كرد فعل لعملية التغلغل الأجنبي هذه برياسة « محمد بن عبدالله » ، وقد دخلوا فعلا فى صراع مرير مع البرتغاليين ، وتمكنوا من هزيمتهم أكثر من مرة ، وقتل ملكهم « سباستيان » ، وكان أن سارعت إسبانيا بعقد اتفاق ودى معهم ، ولكن الدولة لم تلبث أن تضعضعت مما دعا الإنجليز إلى احتلال طنجه، والبرتغال إلى احتلال مدينتى الجديدة والمهدية ، وكذلك وضع الإسبانيون يدهم على سبته ، والعرائش ، وأصيلة .

وقد انصرفت الدول الأوروبية عن الصراع فى هذه المنطقة فى القرنين السابع عشر ، والثامن عشر لانشغالها بالحروب التى شبت بسبب الإصلاح الدينى ، وكان أن تهيأ الجو لقيام الأسرة العلوية التى استردت الممتلكات التى ضاعت قبل ذلك ، ثم كانت عمليات البعث الأوروبى ، وأفول الدولة العثمانية سبباً فى التدخل المباشر فى هذه المنطقة على يد فرنسا ، وإسبانيا ، بالحركات الكشفية ، والمعاهدات ، والشركات ، والتدخل البحرى ، ثم أخيراً رأت فرنسا لتأمين السنغال الذى وضعت يدها عليه الاستيلاء على موريتانيا ، وتم لها ما أرادت .

والمؤلفان يصلان إلى هذه المرحلة بسرعة دون أن يتعرضا للسياسة العثمانية فى هذه المنطقة ، وقد لعبت دوراً خطيراً كان يمكن الاعتماد عليه فى التاريخ لهذه المنطقة الكبيرة .

* * *

ثم تعرض المؤلفان بعد ذلك إلى « موريتانيا فى ظل الاحتلال الفرنسى » فذكرا أن هذا الإقليم منذ أقدم العصور يعتبر جزءاً لا يتجزأ من المغرب الأقصى ، وأن الموريتانيين لم يرفعوا الرايات البيضاء أمام العدوان الفرنسى ، وإنما ظلوا يقاومونه المرة بعد المرة منذ وطئت قدماه بحقد، قلب بلادهم، وكان من أوائل المقاومين بإصرار وفهم لروح المقاومة الأمير إدريس وقد ظلت شعلة المقاومة حتى عام ١٩٣٤ ، ثم ازدادت حينما وضعت الخطط لإبعاد الصبغة المغربية عن بعض المناطق تمهيداً لفصلها النهائى عن المغرب ، وقد مر هذا الاحتلال فى البلاد بعدة مراحل هى :

١ – عند ما كانت أجزاء كثيرة من المغرب تعتبر أقاليم عسكرية اعتبرت موريتانيا كذلك إقليما عسكرياً خاضعا للأحكام العرفية من أول عام ١٩٠٩ إلى عام ١٩٢٠ .

٢ – تم وضع موريتانيا بين عامى ١٩٢٠ ، ١٩٤٦ تحت الانتداب الفرنسى .

٣ – صارت إقليما فرنسيا – حسب الخطة الفرنسية الشاملة للاستعمار فى إفريقية وآسيا – من عام ١٩٥٨ إلى عام ١٩٥٩ .

٤ – أصبحت بمقتضى « مشروع ديجول » جمهورية إسلامية داخلة فى نطاق الجماعة الفرنسية منذ عام ١٩٥٩ .

وهكذا تم لفرنسا ما أرادت من تقطيع أوصال المغرب ووضع قسم كبير منه تحت السيطرة الفرنسية مدعية لنفسها أن المغرب لم يحكم قبضته على

هذه المناطق ، ولكن هذه المنطقة كانت مكونة من إمارات تخضع لسلطان المغرب — وكان يدعى للسلطان فى أيام الجمعة — وكان هؤلاء الحكام يفدون دائماً إلى مقره لتجديد البيعة ، كما كان سلاطين المغرب يقومون بالزيارات المتعددة لهذه المناطق .

على أنه منذ استقلال المغرب بحدوده المعاصرة نجد أن سكان موريتانيا كانوا يعلنون فى ثوراتهم أنهم ضد عمليات البتر ، وأنهم راغبون فى الانضمام إلى الوحدة المغربية ، وقد استمرت المعارك الدامية كأحد ما تكون المعارك فى أعوام ٥٦ و ٥٧ و ١٩٥٨ ، وقد كان من أبرز ما فعلته فرنسا فى هذا المجال هو اختطاف الزعماء ، الموريتانيين ، واعتقالهم فى إحدى القلاع الصحراوية ببلدة « تيشيت » ، وحل المنظمات السياسية وإيداع رجالها فى السجون ، وقد اضطر هذا النساء فى موريتانيا إلى أن يرسلن البرقية التالية للمسئولين فى المغرب :

« إن النساء الموريتانيات يجددن ولاءهن ، واخلاصهن لجلالة الملك ، ويعلن من جديد عن تعلقهن بالعرش العلوى ، ويشتكين لصاحب الجلالة من الضغط وألوان الاضطهاد التى يتعرضن لها هن ، وباقى سكان موريتانيا من الحكومة الصورية » .

وقد تم فى أوائل شهر سبتمبر عام ١٩٥٨ عقد مؤتمر فى الرباط أكد فيه كل زعماء موريتانيا والصحراء أن بلادهم جزء لا يتجزأ من المغرب ، كما طالبوا فى الوقت نفسه بعرض القضية على الأمم المتحدة ، وقد ردت فرنسا على هذا بإيداع خمسين من المواطنين فى السجن ، وبإعدام الزعيم الوطنى الموريتانى « حرمه ولد بابانا » ، والتمهيد لإعلان البلاد « جمهورية » داخل نطاق الأسرة الفرنسية ، لتضرب الوحدة المغربية من جهة ، ولتصبح هذه البلاد من جهة أخرى منفذاً بحرياً للصحراء ، وقاعدة تفصل الكيان الإفريقى عن الاتصال بالعالم العربى ، كما تهدد بها الدول الإفريقية المجاورة .

* * *

وقد خرجت قضية هذه البلاد إلى المجال العالمى ، حينما عرضت هذه القضية فى مؤتمر « كوناكرى » للشعوب الإفريقية الآسيوية الذى انعقد فى ١١ من إبريل عام ١٩٦٠ ، والذى انتهى فيه المؤتمر إلى ما يأتى بشأن المسألة الموريتانية

١ — يستنكر المؤتمر قيام حكومة مصطنعة مفروضة على الشعب عن طريق انتخابات مزيفة .

٢ — يندد بسياسة القمع وانتهاك الحرية وحقوق الإنسان .

٣ — يطالب بإجراء انتخابات حرة تحت المراقبة الدولية لتكوين أجهزة معبرة عن إرادة الشعب .

٤ — يعارض قيام قواعد عسكرية لا تشكل خطرا على موريتانيا فحسب ،

وإنما تتعداه إلى الشمال الإفريقى ، وإفريقية السوداء .

كما نجح الزعماء الموريتانيون فى تسجيل قضية بلادهم فى جدول أعمال مجلس جامعة الدول العربية فى أغسطس ١٩٦٠ ، وجدول أعمال الأمم المتحدة فى دورتها الخامسة عشرة لعام ١٩٦٠ ، هذا وقد أيدت الجامعة العربية تلك القضية ، ودعت إلى التمسك بوحدتها مع المغرب ، كما صدرت بلاغات مشتركة تؤيد هذه القضية بين المملكة المغربية والدول العربية .

أما الأمم المتحدة فناقشت هذه القضية فى ١٥-١١-١٩٦٠ ، وفى يوم ٢٦-١١-١٩٦٠ توقفت فجأة المناقشات فى اللجنة السياسية . ولم يتخذ بشأنها قرار ، فقد أسقطت اللجنة الموضوع برفضها التعديل الذى اقترح العراق إدخاله على مشروع القرار الذى تقدمت به أندونيسيا ، وليبيا ، والأردن والذى يقول : « إن اللجنة تؤكد مبدأ احترام كل من الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة وسيادتها على أراضيها . وتعرب عن أملها فى أن يتمكن الطرفان المعنيان من الوصول إلى حل سلمى للمشكلة على أساس تقرير المصير ، أما التعديل العراقى فكان يقترح وضع عبارة « إن اللجنة توصى بالبدء فى إجراء المفاوضات للوصول إلى حل سلمى للمشكلة » بدلا من عبارة « إن اللجنة تعرب عن أملها فى تحقيق هذا الهدف » . وقد أيد التعديل العراقى ٣١ صوتاً ، ورفضه ٣٩ ، وامتنع ٢٥ عن التصويت . وما كاد يتم هذا حتى عقد « السيد محمد بوسنه » رئيس الوفد المغربى مؤتمراً ذكر فيه أن إسقاط اللجنة السياسية للمسألة الموريتانية فجأة كان بلا شك إجراء مدبراً ، ومتعمداً ، وليس له ما يبرره !

* * *

وفى ٢٨ نوفمبر عام ١٩٦٠ أعلن قيام « جمهورية موريتانيا الإسلامية » وأعلن فى الوقت نفسه انضمام هذه الجمهورية إلى « مجموعة الدول الفرنسية وإذا كانت الدول العربية قد عارضت انسلاخ هذه البلاد عن المغرب ، فإن تونس هى البلد العربى الوحيد الذى وافق على عملية الانسلاخ هذه ، وقد صار يوم الاستقلال هذا يوم حداد فى المملكة المغربية ، وكان أن أعلنت وزارة الخارجية أن الحكومة المغربية تلقت بدهشة بالغة وأسف عميق قرار الحكومة التونسية الخاص بالاعتراف باستقلال موريتانيا ، وأضاف البيان أن هذا الموقف المنحاز من الحكومة التونسية لا يهدد الصداقة والتضامن بين البلدين فقط ، وإنما يشكل خطراً على تضامن المغرب العربى كذلك .

وقد وقف المغرب فى الأمم المتحدة دون ضم موريتانيا إلى الأمم المتحدة ، وكان أن استخدم الاتحاد السوفيتى حق الفيتو ضد اتخاذ قرار يقضى بضمها إلى

الأمم المتحدة . وأعلنت المغرب هذه القضية العادلة على مستوى دولى ، وكان آخر ما قامت به هو عرض هذه القضية العادلة على مؤتمر الدار البيضاء الذى رأى ما يأتى :

١ - نظراً للمناورات الاستعمارية التى ترمى إلى تقسيم أراضى الدول الإفريقية بغية إضعافها .

٢ - ونظراً لأن فرنسا اقتطعت من المغرب جزءها الجنوبى (موريتانيا) رامية من وراء ذلك إلى دعم سلطتها فى إفريقية ، واستغلال خيرات البلاد ، وإيجاد منفذ لها تجاه المحيط الأطلسى .

٣ - ونظراً لأن إقامة دولة صورية تدعى بموريتانيا رغماً عن إرادة السكان المعنيين بالأمر مما يعتبر خرقاً للتعهدات الصريحة التى أمضتها فرنسا ، وتعهدت بها بالمعاهدات ، والاتفاقيات الدولية .

٤ - ونظراً إلى أن تكوين دولة من موريتانيا ليس إلا وسيلة استعملتها فرنسا لتطويق الدول الإفريقية ، وإنشاء قواعد تستطيع فرنسا منها أن تهدد القارة عن طريق عدد من أتباعها .

٥ - ونظراً إلى أن الإكثار من الدول المصطنعة فى إفريقية يشكل تهديداً مستمراً على سلامة القارة الإفريقية ، ويقوى فى الوقت نفسه الاستعمار .

٦ - ونظراً إلى أن الغاية التى ترمى إليها فرنسا هى الاستغلال الاقتصادى واستعمال هذه المنطقة ضد الدول الافريقية لموقعها الاستراتيجى والإبقاء على الحواجز المصطنعة داخل إفريقية .

٧ - ونظراً لأن الدفاع عن وحدة كل دولة إفريقية ، ووحدة أراضيها هو فى نفس الوقت دفاع عن حرية إفريقية ، فان المؤتمر :

١ - يستنكر ، ويندد علانية بكل نوع من أنواع الاستغلال الاقتصادى والسياسى والعسكرى لإفريقية .

٢ - ويعلن المؤتمر عزمه على إحباط كل محاولة لتقسيم أجزاء القارة الإفريقية ، وجعلها من التوابع .

٣ - ويؤيد المؤتمر كل عمل تقوم به المغرب فى موريتانيا لاسترجاع حقوقه المشروعة فيها .

وهكذا يقدم لنا هذا الكتاب وثيقة جديدة ضد الاستعمار الفرنسى ، وكيف يتهاون بمقدرات البلاد ، ويقيم دولا يتحرك من داخلها ، وهذا ما ظهر أخيراً فى القضايا الإفريقية ، فقد رأينا بعض الدول الإفريقية التى تنضم إلى «المجموعة الفرنسية» تقف فى عناد ضد الدول الإفريقية ، ورأينا بعض هذه الدول كذلك يعلن انفصاله عن بعض الدول التى كون معها الاتحاد ، ولكن الغد كفيل بقيام وحدة تضم هذين البلدين الكبيرين تحت راية العروبة .

ولعل ما يذكر بالفخر للمؤلفين أن هذا الكتاب هو أول كتاب صدر عن القضية بفهم ، ودراسة شاملة .

شخصية العدد

السلطان سعيد

« سعيد بن سلطان » هو ذلك الرجل الآسيوى الأصل ، الذى تمكن فى النصف الأول من القرن التاسع عشر من إقامة دولة إفريقية آسيوية مجيدة ، امتد نفوذها على كل السواحل الشمالية الغربية للمحيط الهندى فى جنوب الجزيرة العربية وفى شرق إفريقية .

كان من سلالة سلاطين مسقط الذين شجعوا التجارة فى العصور الوسطى بين الشرق الأقصى ، وبين الخليج العربى والمداخل الجنوبية للبحر الأحمر وأقاليم شرق إفريقية . فترأسوا حركة الملاحين العرب ، وازدهرت فى عهدهم الحضارة والمدنية الإسلامية على السواحل ، وامتد الإسلام مع تجارتهم فى كل مكان .

رأى المحيط الهندى فى أوائل القرن السادس عشر مجىء البرتغاليين ، مستعمرين متحكمين ، مستغلين ، فسيطروا على موزمبيق ، وعلى سواحل إفريقية الشرقية ، وهاجموا العرب عند بوغاز باب المندب ، وعند الخليج العربى ، ولكن العرب احتفظوا بحيويتهم رغم سيطرة السفن البرتغالية على الملاحة فى هذه البحار . وانتهز العرب ضعف البرتغاليين بعد قرنين ونصف ، وعملوا على توحيد صفوفهم مرة جديدة ، وبدأوا فى تخليص بلادهم وتجارتهم من سيطرة الأجانب . وترأس أئمة مسقط هذه الحركة المجاهدة ، وتمكنوا من طرد البرتغاليين من السواحل العربية فى آسيا وفى إفريقية . وكان « سعيد بن سلطان » أحد هؤلاء الأئمة العرب فى مسقط .

استولى « سعيد بن سلطان » على السلطة فى مسقط سنة ١٨٠٦ . وتمكن من إقامة دولة عربية له فى زنزبار . . أمضى النصف الأول من حياته يثبت فيه دعائم حكمه فى جنوب شرق بلاد العرب ، ثم أمضى النصف الثانى منه فى إقامة نظام سياسى واقتصادى جديد فى شرق إفريقية ، وتمكن — بالسياسة تارة وبالقوة مرة أخرى — من إخضاع كل ساحل إفريقية الشرقى لحكمه ، وأخذ فى تعيين الحكام فى المدن الهامة ، على طول ذلك الساحل ، وعضدهم ببعض قوات من جيشه الصغير .

انتشرت على طول ساحل شرق

إفريقية مدن لها أن تصرف كل أمورها الداخلية ، وأن تنفذ مشاريعها فى توافق مع غيرها من المدن ، ولم يتدخل السيد سعيد إلا فى حالة قيام ثورة أو اشتباك مسلح مع القبائل الداخلية . وكان همّ حكام هذه المدن: هو إدارة الشئون الاقتصادية وجمع الرسوم على الصادرات والواردات وتشجيع التجارة ، فيمكننا أن نقول إذن أن السيد سعيد احتفظ لنفسه بالسيادة على هذه الإمبراطورية الكبيرة . وكان عليه – بطبيعة الحال – أن يحمى هذه المدن من أى هجوم تقوم به الدول الأجنبية عليها ؛ وكان له أن يمنع الأهالى من الدخول فى صلات وعلاقات مع الدول الأجنبية بشكل يهدد سلامة الدولة .

امتد النفوذ الإسلامى فى عهد السيد سعيد إلى هضبة البحيرات الاستوائية وإلى حوض الكنغو والنيل ، حمله العرب والصوماليون مع تجارتهم من الساحل صوب الداخل . وازدهرت التجارة . وزاد انتشار الإسلام واللغة العربية بتوغل قوافل التجار العرب والمسلمين فى داخل القارة .

عمل السيد « سعيد » بطريقة بسيطة على تنمية التجارة ، مما سجل اسمه بين أكبر الأمراء التجار العرب الذين عرفهم التاريخ ، ولم يتدخل فى إدارته لأملاكه الإفريقية إلا بالقدر اللازم لمحافظته على نظامه الاقتصادى . واشتهر فى التاريخ بتفوقه فى هذا الميدان ، الميدان التجارى والحضارى ، حتى أكثر من تفوقه فى الميدانين السياسى والحربى .

وضع السيد سعيد برنامجاً اقتصادياً لشرق إفريقية ، نجح فى تطبيقه وفى الحصول على نتائج هامة له ، فأدخل فى هذا الإقليم عملة نحاسية جديدة ، علاوة على العملة الفضية الأجنبية التى استخدمها الأهالى مثل ريال ماريا تريزا والعملة الإسبانية ، ثم بسط النظام الجمركى ، وفرض ضريبة موحدة هى ٥٪ على كل الواردات ، وأعفى الصادرات من كل رسوم . كما أنه شجع زراعة القرنفل ، وعمل على إنعاش وتوسيع نطاق تجارة القوافل مع الداخل ، كما شجع التجار الأجانب على العمل فى موانى شرق إفريقية ، وعقد معاهدات تجارية مع كل من الولايات المتحدة الأمريكية ، وإنجلترا وفرنسا ، سمح لها فيها بإنشاء قنصليات فى زنزبار ، ومنح رعاياها حقوق التجارة . وشجع السيد سعيد أبناء الهند على الإقامة فى بلاده ، وضمن لهم حرية العبادة ، واستعان بهم فى الشئون الاقتصادية .

سار السيد « سعيد » على هذه السياسة منذ عام ١٨٣٠ حتى عام ١٨٥٦ فتضاعفت إيراداته من الأقاليم الإفريقية عشر مرات عما كانت عليه

من قبل . وازدهرت مدينة زنزبار . وأصبحت أكبر ميناء فى شرق إفريقية . وأكبر مستودع للتجارة الإفريقيـــة الآسيوية . والمورد الرئيسى لتزويد العالم بالقرنفل . وأكبر سوق لتجارة سن الفيل .

ويمكننا أن نرجع أهمية زنزبار فى عهده إلى توغل التجارة العربية داخل القارة الإفريقية أكثر من إرجاعها إلى تجارة القرنفل نفسها . فيمكننا بالتالى اعتبار المناطق الإفريقية التى وصلت إليها هذه القوافل امتداداً لدولة السيد « سعيد » على الساحل — وإن كانت لم تخضع له بالفعل — وإن كان هو نفسه لم يحاول إنشاء حكومات منظمة فيها . ولكنا نرى أن توغل هذه القوافل التى حمل أفرادها الأسلحة النارية ساعد على احتفاظ سكان الداخل بالولاء لعرب السواحل الإفريقية . فاحترم الإفريقيون كلمته ونفوذه . وأصبحت خطابات التوصية التى يزود بها الرحالة والمستكشفين الأجانب قبل بدئهم رحلاتهم تشهد له بهذا النفوذ .

كانت زيادة نفوذ السيد « سعيد » فى الأقاليم الإفريقية على حساب إدارته لإقليم مسقط . ففضل فى سنة ١٨٤٠ نقل عاصمته إلى زنزبار التى اتخذها قاعدة لحكمه . واضطر من وقت لآخر إلى العودة إلى جنوب الجزيرة العربية لإخضاع إحدى القبائل أو للقضاء على إحدى الثورات . ولكن ذلك اضطره إلى زيادة الاعتماد على السلطات البريطانية فى الهند للاحتفاظ بأملاكه الآسيوية .

كانت إنجلترا قد خرجت قوية بعد حروبها مع نابليون فى سنة ١٨١٥ . واستولت على مستعمرة رأس الرجاء الصالح وسيلان وجزيرتى موريس وسيشل . فأصبح فى استطاعتها أن تتدخل وتضم أى جزء من الأراضى المطلة على المحيط الهندى ، دون أن يعارضها فى ذلك معارض — شعر السيد « سعيد » بأن الإنجليز يمكنهم أن يدافعوا عنه ضد هجوم الوهابيين أو الفرس أو المصريين الذين ذهبوا إلى البلاد العربية . إلا أنه لم يعقد أية محالفة رسمية مع إنجلترا — رغم تدخل الإنجليز فى صالحه ، ورغم أهمية تجارته مع الهند التى خضعت لبريطانيا . ورأى السيد « سعيد » أن إنجلترا تتوسع فى المحيط الهندى ، فتحتل عدن سنة ١٨٣٩ فتنازل لها عن بعض الجزر الصغيرة المسماة كوريا موريا عند الساحل الجنوبى لحضرموت . وذلك نظير عدم تدخل البريطانيين فى أملاكه ونظير عدم سماحه للفرنسيين بالتوسع فى السواحل الصومالية المطلة على المحيط الهندى .

ولكن تفوق إنجلترا البحرى فى المحيط الهندى اضطر السيد سعيد إلى قبول السياسة البريطانية الخاصة بمحاربة تجارة الرقيق. وكانت إنجلترا قد أخذت من ادعاءاتها الإنسانية ستاراً تخفى وراءه محاربتها للدول التى تعتمد على الأيدى العاملة المشتراة : وهم العبيد . فى إنتاجها الزراعى والصناعى فيما بعد . وأخذت إنجلترا لنفسها حق تفتيش السفن الأجنبية ومصادرة ما عليها من شحنات بشرية . حتى تحرم حقول القطن وقصب السكر فى أمريكا من منافسة المستعمرات البريطانية الأخرى بعد أن أعانت الولايات المتحدة استقلالها عن إنجلترا . وعملت إنجلترا على توكيد سيادتها البحرية . وأخذت فى القضاء على التجارة الإفريقية ، وعلى القوة البحرية للإفريقيين نتيجة لمصادرة سفنهم وشحناتها . وأخذت إنجلترا تفكر فى محاولة منع تصدير العبيد من القارة الإفريقية منعاً تاماً ، فزادت أهمية السيد « سعيد » فى نظر السياسة البريطانية ، خصوصاً وأن المورد الرئيسى لتجارة الرقيق كان هو وسط القارة ، وكانت أملاك السيد « سعيد » مخرجاً من أهم مخارجها .

كان من السهل على إنجلترا أن تضغط على حكومتى فرنسا والبرتغال لمنع تصدير الرقيق من مستعمراتهما .

وكان فى استطاعة الأسطول البريطانى أن يتولى الباقى ويستولى على السفن التى تقع فى قبضته . ولكن الأمر كان أكثر صعوبة بالنسبة لزنزبار ، إذ أن إلغاء تجارة الرقيق كان يحرم السيد « سعيد » من مصدر هام لفرض الرسوم الجمركية ، وكان يعنى حرمان المجتمع الشرقى من إحدى دعائمه التى استند إليها منذ فجر التاريخ ، رغماً عن أن الإسلام كان قد نظم وسائل تحرير العبيد وحض على حسن معاملتهم .

جاهد السيد « سعيد » ضد السياسة البريطانية . وتوصل إلى إقناع البريطانيين بضرورة التدرج فى سياسة منع تجارة الرقيق فى أملاكه . كانت الحكومة البريطانية قد عرضت عليه فى سنة ١٨١٢ ثم فى سنة ١٨١٥ أن يتعاون معها فى محاربة هذه التجارة . ولكن سعيدا رفض القيام بهذا الدور الذى يخرج عن طاقته ، فواصلت السلطات البريطانية فى الهند الضغط عليه ، فاضطر فى سنة ١٨٢٢ إلى أن يوافق على نصف ما طلبته بريطانيا منه . أعلن استحالة القضاء على تجارة الرقيق « الداخلية » — أى هذه التجارة القائمة بين ممتلكاته الإفريقية وممتلكاته الآسوية — إذ أن النظام الاقتصادى كان قائماً عليها ، ولكنه وافق فى معاهدة مورسبى المعقودة فى هذه السنة

على منع رعاياه من الاتجار فى الرقيق مع الخارج ، وذلك فيما بين موانيه وأية أرض تقع إلى الجنوب من رأس دلجادو أو إلى الشرق من خط يمر من رأس ديو إلى نقطة تبعد ستين ميلا عن شرق «سوقوطرة» .

كان هذا تنازلا كبيراً من جانب السيد سعيد ، اضطر إلى تنفيذه وتحمل نتائجه ، حتى لا يترك لإنجلترا حرية التدخل فى بلاده وحرية العمل على اصطياد سفن العرب والإفريقيين ومصادرتها بدعوى اشتغالها بتجارة الرقيق ، والقضاء بالتالى على تجارة الإفريقيين وقواتهم البحرية .

لم تمض سنوات طويلة حتى أعاد الإنجليز الكرة ، وجاءوا يضغطون مرة جديدة على السيد سعيد ، فاضطر هذا السلطان إلى أن يشرح لهم خطورة الموقف وخطورة الاصطدام بالأرستقراطية التجارية إذا ما تعرضت رؤوس أموالها للضياع . ولكن إنجلترا أصرت على موقفها ، فلم يجد مفراً من قبول معاهدة جديدة فى سنة ١٨٥٤ تحرم على التجار العرب نقل الرقيق إلى الخليج العربى وإلى البحر الأحمر . ونفذ بهذا جزءاً جديداً من السياسة البريطانية وتحمل بها مسئولية جديدة نتيجة لمساسها بمصالحه التجارية . ولكنه حرم إنجلترا من فرصة التدخل فى سواحله ، ومن فرصة إطلاق مدفعية الأسطول على المدن العربية .

أظهر السيد سعيد أنه سلطان مستنير ، لا يقل عن الغربيين فى نزعاتهم الإنسانية وفى احترامه للذات البشرية . كما أظهر أنه حاكم مستنير يرفض استخدام القوة لوقف هذه التجارة التى عاشت منذ قديم الزمان ، ويعرض بذلك الاقتصاد الإفريقى لخطر الانهيار السريع أو يهدد دولته بخطر الثورة المسلحة .

ولم يغب عن فكر السيد سعيد أمر إنشاء أسطول بحرى حديث ، شابه إلى حد بعيد الأسطول المصرى الذى أنشئ فى هذه الفترة نفسها . وازدهرت فى عهده الحياة فى موانى شرق إفريقية بدرجة لم تصل إليها من قبل . ويعتبر عهده من أمجد العصور التى شاهدها هذا الإقليم الإفريقى فى وحدة مع أقاليم جنوب شرق الجزيرة العربية . وكانت شخصيته من أقوى الدعائم لقيام هذه الوحدة الإفريقية الآسيوية وبقائها . وما أن تختفى هذه الشخصية من الحياة ، حتى تنقسم الدولة إلى إقليمين يخضع كل منهما لأحد أبنائه ، ويزيد تدخل إنجلترا فى كل من الإقليمين ، حتى ينتهى بهما الأمر إلى الخضوع للنفوذ البريطانى فى أواخر القرن التاسع عشر .

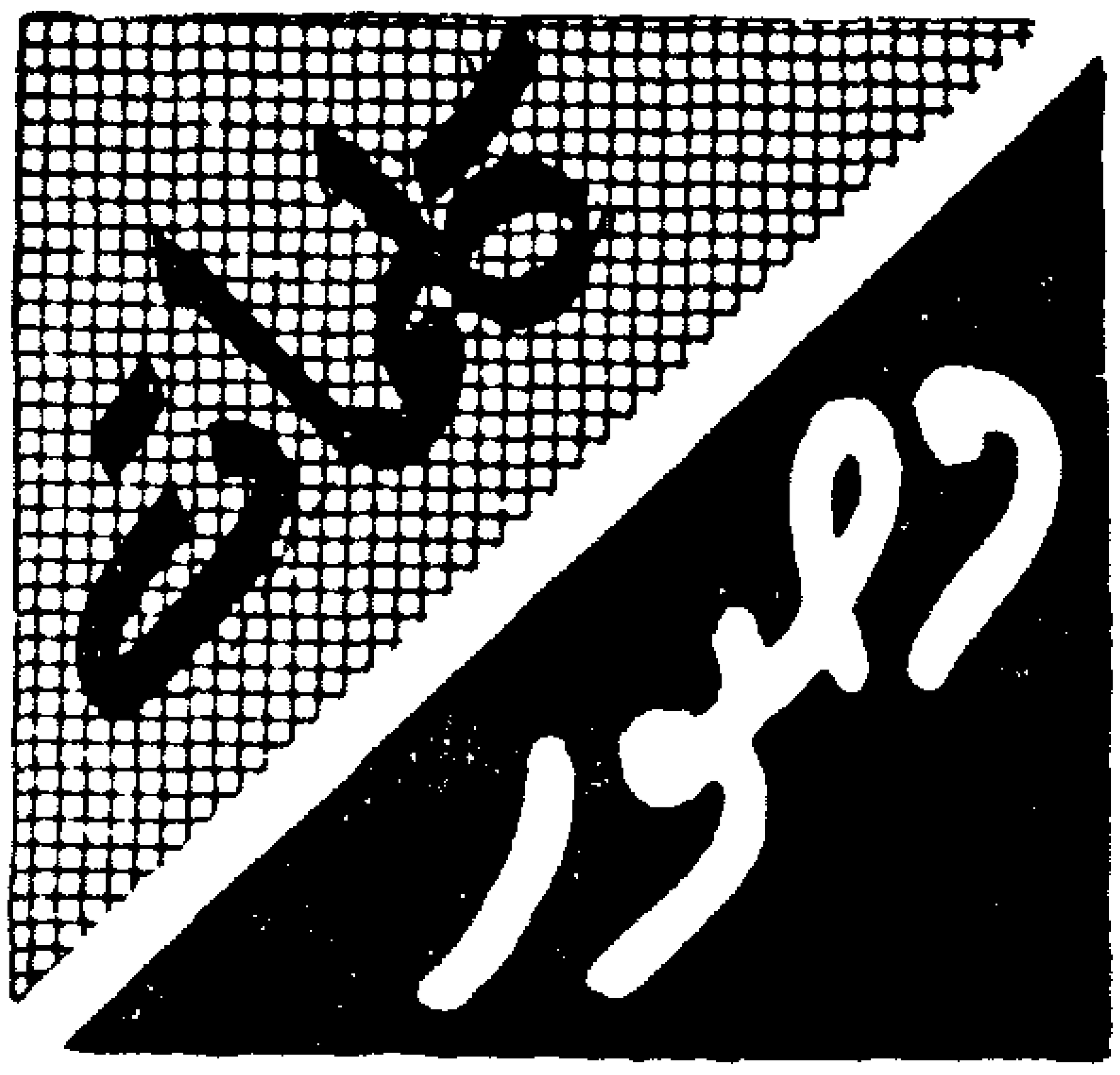

روانـدا – أورندى :

يذكر بعض الكتاب أن سكان هذه البلاد من قدماء المصريين الذى اندفعوا فى خطوات سريعة جنوب خط الاستواء حيث استقرت بهم الحياة على مراعى « رواندا » ، ومن هؤلاء المصريين الذين اندفعوا إلى هذه البلاد وجدت عادة تقديس البقرة . وقد استمرت الحياة البسيطة فى هذه البلاد حتى تم استيلاء الألمان عليها . ثم انتدبت عصبة الأمم بلجيكا للوصاية عليها عام ١٩٢٤ ، وظلت تماطل إلى الآن فى إعطاء هذه البلاد حقها فى الحرية .

والشعب هناك من العمالقة فطول الفرد منهم مترين وقد قال عنهم الدكتور محمد محمود الصياد « إن عمالقة رواندــ أورندى من شعوب الباتوتسى — أو الواتوتسى كما تسمى أحياناً — هم ورثة حضارة قديمة قدم « أوزيريس » ولكن هذا لا يعنى بالضرورة أنهم ساروا فى الطريق الذى سلكه إخوانهم المصريون ، لقد فرضت عليهم الحياة ظروفاً تأخرت بهم عن الركب ، ولكنهم ظلوا أهل طعان ونزال حتى تغلبت على شجاعتهم أسلحة الألمان ، وكان موامى — أى الملك — كفرعون هو مالك كل شىء . وهو حامى العدالة . وهو سليل الآلهة . وقد لقبه رعاياه « بذياجاسانى » أى الإله العادل الخير العظيم ، ولكن المستعمر راعه هذا النظام . وتماسكه فحاربه بكل وسيلة حتى فقد « موامى » كل سلطاته العليا . وضعف نفوذه على رعاياه ، ولم يبق له إلا راقصوا البلاط الذين يذكرونه بمجد دارس ، وعظمة ذهبت مع الأيام » .

ولقد كان آخر هؤلاء الملوك « كيجرى » الذى عزله البلجيكيون أخيراً عن السلطة ، ليخلو لهم الجو ، وليمكنهم التلاعب بمقدرات البلاد مع العناصر الرجعية .

الملك كيجرى الخامس :

لقد شغلت أخيراً مشكلة « رواندا أورندى » الأذهان ، وبخاصة بعد أن اتخذ منها البلجيكيون قاعدة لضرب استقلال الكونغو ، والعودة إليه ، كما قاموا فيها بإثارة الحرب بين القبائل ، وزجوا بالقوى الوطنية إلى السجون ، ولكن العناصر الوطنية تمكنت من عرض قضية البلاد على هيئة الأمم المتحدة ، واتخذت قراراً بإجراء انتخابات حرة فى مارس عام ١٩٦١ ،

كما نجحت فى عرض القضية فى مؤتمر الدار البيضاء .

وقد تلفتت بلجيكا فرأت أن وراء حركة المد الوطنى « موامى كيجرى » وكان أن عزلته ، وأعلنت قيام جمهورية فى البلاد ، ووضعت على رأس التنظيم رجلا يؤمن بمصالحها ، ويتمتع بعطفها .

وقد شهدنا أخيراً أن « موامى كيجرى » لم يسلم بالأحداث فى بلاده ، فرأيناه يخرج ليعرض قضية بلاده على البلاد التى تؤمن بالحرية ، وتكافح من أجلها ، وكان أن ذهب إلى المغرب حيث قابل الملك « محمد الخامس » وتباحث معه فى مستقبل بلاده ، وعرض أمامه الدور القذر الذى يقوم به البلجيكيون فى البلاد ، وكيف أنهم اتخذوا من النكسة الوطنية فى الكونغو قاعدة لتدمير كل القوى الوطنية الموجودة الآن فى « رواندا أورندى »

ومن الرباط توجه الملك إلى القاهرة مباشرة ، ففى مساء ٢٣-٢-١٩٦١ فوجىء مطار القاهرة باشارة لاسلكية تذكر أن على إحدى طائرات « إير إنديا » الملك « موامى كيجرى » ، وأنه يرغب فى مقابلة المسئولين بالقاهرة وسرعان ما رحبت به القاهرة ، وفتحت له قلبها — كعادتها — فهى قلعة الحرية الكبيرة ، والمرفأ الذى يلجأ إليه المكافحون ليتزودوا بالطاقة ثم يستأنفون رسالة الحرية ، التى تعتبر القاهرة قاعدة لها .

الأمريكى القبيح :

« الأمريكى القبيح » عنوان كتاب لمؤلفين أمريكين ، وضحا فيه جمود سياسة أمريكا وتحيزها فى إحدى الدول الوهمية ، وكيف اصطدمت فى هذا البلد بالسياسة الاشتراكية ، وينتهى الكتاب وقد أعطانا ملامح للدبلوماسية الأمريكية بأنها دبلوماسية قبيحة ، وقد استند إلى هذا الرمز الأستاذ محمد حسنين هيكل ، ثم أخذ يرد على وسائل الأعلام الخاضعة للنفوذ الأوروبى والأمريكى ، والتى أخذت تصيح بأن الجمهورية العربية المتحدة تلعب بالنار فى إفريقية ، وأن جمال عبد الناصر يلقى ظله الآن على إفريقية ويضمها بين يديه ، وقد جاء فى هذه الكلمة :

« وكأنى كنت أقرأ فى قصة « الأمريكى القبيح » وأنا أسمع هذه الصيحات علينا من كل مصدر فى أمريكا يتهمنا بالتدخل فى الكونغو ، وباللعب بالنار فى إفريقية . صيحات ترددها صحافة الولايات المتحدة ، وإذاعاتها ، ويرددها العملاء فى كل عاصمة استطاعت فيها أمريكا أن تشترى العملاء .

والجمهورية العربية المتحدة تتدخل فى الكونغو لأنها أيدت استقلاله ، وحرصت على صيانة هذا الاستقلال

عن طريق الأمم المتحدة ، ولما وجدت الأمور تنحرف عن غاياتها سحبت قواتها من القيادة الدولية هناك قائلة إنها لا تريد أن تكون شريكة فى المؤامرة على شعب الكونغو ولا شاهدة عليها .

أما الولايات المتحدة فهى البريئة عن التدخل . . منزهة القصد ملائكية الهوى ! لم تفعل إلا أنها ضغطت على همرشولد كى لا يدخل كاتنجا فى الوقت الذى حدده بنفسه لدخولها حتى لا تضيع استثماراتها فى مناجم الماس ، والنحاس ، والكوبالت ، وأدت بذلك إلى نكبة الأمم المتحدة فى الكونغو

لم تفعل إلا أنها دفعت الأموال لكازافوبو ، وموبوتو ليكون انقلابهما على لومومبا .

لم تفعل إلا أنها وافقت على تسليم لومومبا إلى تشومبى لكى يضرب بالرصاص ، ثم يذبح بعد الضرب بالرصاص ، هو ومن وقف معه من أعلام النضال الوطنى فى الكونغو .

هكذا . . أمريكا شاركت فى قتل لومومبا . . . وليس هـذا تدخلا والجمهورية العربية المتحدة شاركت فى البكاء عليه . . وهذا هو التدخل بعينه ! » .

ثم وضح الكاتب أن اتهام الجمهورية العربية المتحدة لم يظهر إلا بعد أن تم مؤتمر الدار البيضاء ، وأدينت فيه إسرائيل ، وكشفت خطتها للعالم بأسره بأنها استعمار مقنع جديد تتخفى وراءه المصالح الأمريكية والأوروبية !

. . وهكذا نرى أمريكا وعملاءها تتخبط فى سياستها الخارجية ولعل آخر هذا التخبط هو هذه المنشورات السياسية التى قام بإلقائها فى القاهرة مساعد المستشار الصحفى الأمريكى فى القاهرة ، والتى يهاجم فيها لومومبا ودمه ما زال يسيل ، ويؤيد القتلة وأيديهم ما زالت تطلق الرصاص على العناصر الوطنية فى الكونغو .

هذا هو الوجه السافر لأمريكا . . الوجه القبيح الذى لم يعد يخفى قبحه على أحد !

وحشية الفرنسيين :

وصف كاتب فرنسى إحدى الهجمات الفرنسية على إحدى القرى الجزائرية بقوله كما جاء فى كتاب الجزائر الثائرة لكوليت وفرانسيس جانسون « أعيد وصف ما رأيته : كلب مربوط إلى وتد أخذ يئن عند ما رآنا على حين راح آخر ينبح على الجانب الآخر من الطريق ، وكان بعض الدجاج يقتات بهدوء وسط جثث مبعثرة لاحظت من بينها جثث عدد من الأطفال تقل أعمارهم عن العاشرة ، ولا أذكر أنى رأيت جثث رجال إلا قليلا جداً ، فإنى ما زلت أرى على سبيل المثال طفلة جاثية وقد أمسكت برأسها بين يديها ، وشيخاً ، وجماعة من ثلاث نساء ما زالت كل

واحدة منهن تحتضن وليدها ، وهذا غير جثث سائر السكان المنتثرة حول الأكواخ ! وأدهشني أنه لم تفح أية رائحة من المكان ، ولو صح أن وقوع الحادث كان يوم السبت لكانت هذه الظاهرة مما يدعو إلى الدهشة ، وربما كان تفسير ذلك أن انخفاض الوادى قد حال دون وصول أشعة الشمس إليه ، ولاحظت كذلك أن الدماء التى نزفت من القتلى ما زالت حمراء .

والقرية لم تهدم عن آخرها ، فمعظم دورها ما زالت قائمة . إلا أن كل الأمتعة كانت مبعثرة كما لو كان السكان قد حاولوا النجاة بأنفسهم فى أثناء المعركة ! »

وهكذا نرى فرنسا تهدر شرف الإنسان وكرامته ، ولا تقيم وزناً للضمير الإنسانى . ولعل هذا وحده هو أقوى المعاول التى تضرب الآن بعنف على قلب هذه الدولة التى تترنح الآن تحت أكثر من ضربة . لعل أقواها ما يوجه إليها فى الجزائر .

مذبحة الألف :

وتحت هذا العنوان كتب الشاعر « سعد دعبيس » قصيدته بعد الحوادث الأخيرة التى قامت بها فرنسا فى الجزائر والتى راح ضحيتها ألف إنسان . . ألف قلب . . ألف أمل ففيها يقول :

دمدمى . دمدمى دماء الشهيد
واعصفى واعصفى بليل عنيد
ارعشى الأرض يا دماء الضحايا
أيقظيها من غفلة وجمود !
يا مصابيح مزقتها الدياجى
ألف حر يا أرض . ألف شهيد
مزقتهم « باريس » راحوا ضحايا
ألف كهل يا أرض . . ألف وليد
الذين انحنوا لهتلر يوما
وتراموا فى ذلة وسجود
زيفوا اليوم فى الجزائر وجها
حسبوا فيه أنهم كالأسود
أظهروا فنهم بقتل عجوز
مقعد ، واغتيال طفل وليد

* * *

الدموع التى بكتها فرنسا
فى دياجى « باستيلها » الهمجى
يوم كان السفاح فيها إلها
عرشه من ظلالها الدموى
يوم كانت مشانقا ودماء
وتسابيح للدجى الوثنى
يوم كان الباستيل يطوى أساها
وبقايا حطامها البشرى
نسيت ماضيا شريدا رماها
للأسى المر ، والظلام الشقى
ومضت تلعن الصباح وتشدو
من جديد لحقدها التترى
لعنت ليلها ، وحنت إليه
وتبدت بها طباع بغى
فهى تلهو بحقده ، وتغنى
وهو يلهو بشعبها الأنثوى

* * *

اصرخى اصرخى . . دماء الضحايا
واعصفى واعصفى . . بليل عنيد
ألف حر من الجزائر أذكوا
ألف بركان صارخ بالوعيد
ألف حر . . وبعدهم ألف ألف
لا يبالون باللظى والحديد
كل يوم لنا مع الظلم ثأر
وشهيد يمضى وراء شهيد !
كل صبح يطل سوف نراه
من بريق اللظى ، وقصف الرعود
ولنا فى الغد القريب صباح
يوم نطوى معابدا للقيود

يوم يطوى الصباح ليل فرنسا
فى دياجى « باستيلها » من جديد

* * *

ضوء على تشاد :

تعتبر « تشاد » كالقلب من إفريقية فهى تقع فى وسط القارة ، وتحد شمالا بليبيا وتونس ، وشرقاً بجمهورية السودان ، وغرباً بنيجيريا والكاميرون، وجنوباً بالمحيط الأطلسى ، والكونغو .

وتقدر مساحتها بنحو ٢٠٠ مليون كيلو متر ، كما يقدر سكانها بخمسة ملايين نسمة ، نسبة المسلمين فيها ٨٥٪ وقد دخل إليها الإسلام فى القرن الخامس عشر عن طريق تونس ، ومن رواد المسلمين هناك « عبد الكريم صالح » الذى جمع الناس حول كلمة الإسلام هناك ، واستطاع باسمها أن يدخل الحرب ضد الملك « رقومنداتى » وأن يهزمه ، ثم يتولى الملك ، ويتزوج ابنة هذا الملك التى أنجب منها أبناء وقفوا تحت راية الإسلام هناك .

وقد تنبهت فرنسا إلى هذه المنطقة، فأرسلت بعض مكتشفيها عن طريق الجمعية الجغرافية بباريس عام ١٨٩٧ ، وكان أن احتلت البلاد تماماً فى عام ١٩٠٩ ، وكان أول ما فعلوه هناك أن جمعوا خمسمائة عالم مسلم ، ووضعوا الحديد فى أيديهم ، ثم ذبحوهم ، ثم أخذوا فى تفتيت البلاد إلى مقاطعات ، وظلوا يضغطون البلاد حتى تمكنت أخيراً من الإفلات من قبضتهم عام ١٩٥٩ .

ضوء على فولتا العليا :

يسكنها نحو أربعة ملايين . نسبة المسلمين بينهم ٧٥٪ . وتبلغ مساحتها حوالى ٢٨٠ ألف كيلو متر مربع وتحد شمالا باتحاد مالى ، وجنوباً بغانة ، وساحل العاج . وغرب بتوجولاند وشرقاً بالنيجر . أما عاصمتها فهى « وجادوجو » ، ومن أهم المدن هناك « بودوبولسو » ، وقد نالت الاستقلال أخيراً على يد الزعيم الوطنى « ياقومى مريس » فى ٤-٨-١٩٦٠ بعد سلسلة من الكفاح المرير مع فرنسا ، كان آلمها لنفس الشعب اغتيال الزعيم « دونسر كلوبلى » الذى دعاه «دبجول» للمفاوضة فى باريس ، وهناك غدر به فى عام ١٩٥٨ .

ولكن الشعب واصل كفاحه ، واستطاع أن يصل إلى حريته ، وأن يلون بالدماء الغزيرة التى تدفقت منه علم الحرية الكبير الذى يرفرف فى سمائها ..
فى سماء فولتا العليا !

أسطورة :

توجد فى أرض الصومال قبيلة تسمى « اليبر » ، وقد عاشت على التعاويذ ، والتمائم ، والسحر ، وما زال بعض أفرادها إلى الآن يباشرون هذا اللون الغيبى من الحياة ، يروى عن

جدها البعيد أنه كان من أمهر السحرة فى زمانه ، وأنه كان معاصراً للشيخ اسحق الذى كان من أشراف حضرموت ثم انتقل إلى هذه البلاد مكوناً بمن معه من المهاجرين قبيلة « الأشا » الموجودة هناك .

وقد سمع الشيخ اسحق هذا بساحر قبيلة اليبير ، فأرسل إليه ليلاقيه عند أحد الجبال الموجودة هناك ، وفى الموعد المحدد حضر الساحر فسأله الشيخ اسحق

– لقد بلغتنى عنك أشياء مذهلة
– ما سمعته أقل من حقيقتى
– هذا غريب
– ليست فى هذا غرابة ففى استطاعتى القيام بما يعجز عن القيام به أى مخلوق .
– إذن فأرنى
– اطلب ما تريد
– أريد منك أن تدخل أمامى من هذا الجبل ثم تنفذ من حجارته الصماء إلى جانبه الآخر فى الجهة المقابلة لدخولك
– هذا يسير

وفى مثل لمح البصر كان الساحر يشق طريقه فى الجبل ، ويظهر فى الجهة المقابلة له ، وينظر بتحد إلى الشيخ اسحق ، ولا يصدق الشيخ عينيه ، ويطلب منه مرة ثانية أن يكرر عملية الدخول هذه ، ويستجيب الساحر ويعجب الشيخ ولا يصدق عينيه ، فنراه يطلب منه القيام بهذا العمل للمرة الثالثة .

على أن الساحر ما كاد يقوم بهذا العمل حتى نرى الشيخ يتنبه إلى هذه الحقيقة ، فيرفع يديه إلى السماء – وقد أدرك خطر الساحر – ويطلب من الله أن يسد عليه كل منافذ الجبل ، وأن يبقيه فى جوفه ، وقد استجاب الله دعاءه ، وقضى الساحر نحبه فى الجبل .

وحين بلغ ابن الساحر الخبر نراه يقدم على الشيخ اسحق مغاضباً ، ومطالباً بدية أبيه ، ومن هنا يقول الشيخ « إن موت أبيك كان لا بد منه للصالح العام ، وأنه على كل الناس أن يشتركوا فى دفع هذه الدية لأن وجوده كان خطراً عليهم » ومن هنا يجتمع الناس ، ويتفقون فيما بينهم على أن على كل صومالى يولد له ولد أن يعطى جلد « العقيقة » التى يذبحها من أجل المولود لأبناء الساحر !

من أقوال نكرومه :

يحتاج البلد الحديث الاستقلال الذى يقوم على العدالة الاجتماعية والحكم الديمقراطى إلى تنظيم دقيق وحازم عقب الفترة التى تتبع الاستقلال مباشرة ، وذلك باتخاذ قرارات حاسمة ، وحادة حتى ولو كانت تحمل طابع القسوة ، ولأن هذه القسوة مظهر من مظاهر الرحمة ، وقوة دفع للحياة الكريمة .

من أقوال سيكوتورى :

إن قضيتنا لا تقف عند حدودنا ، وإنما تمتد ثم تمتد حتى تشمل كل إفريقية السوداء ، فنحن مسئولون عن قضايا الحرية فيها ، وعن رفاهية كل

الذين يعيشون بها ، وعلى شعب غينيا أن يستمر فى حمل مشاعل الحرية بدون تعب ! فمشاعل الحرية تحمل بالقوة والحب !

من أقوال أبو بكر تافوابالو :

إننا فى محاولتنا إيجاد حكومة تقوم على أسس سليمة ، واقتصاد سليم ، واختصاصات موحدة إنما نقوم فى الوقت نفسه ببناء الأمة ، ومع أن هذا سوف يحتاج إلى وقت كبير إلا أنا سنصل إلى ما نرجوه لنيجيريا الموحدة ،

ولقد عارضت بشدة فكرة تأجيل الاستقلال إلى الوقت الذى نكون فيه قد استعدينا لتحمل أعبائه كاملة ، ذلك لأنى كنت أعتقد أننا لن ندرك معنى الحرية الحقيقى إلا إذا مارسنا هذه الحرية عملياً .

فعند ما يكون للشعب استقلاله يشعر على الفور بالفخر والمسئولية .. وبالفخر والمسئولية يمكن للشعب أن يتخطى كل الأشواك ، وأن ينتصر .

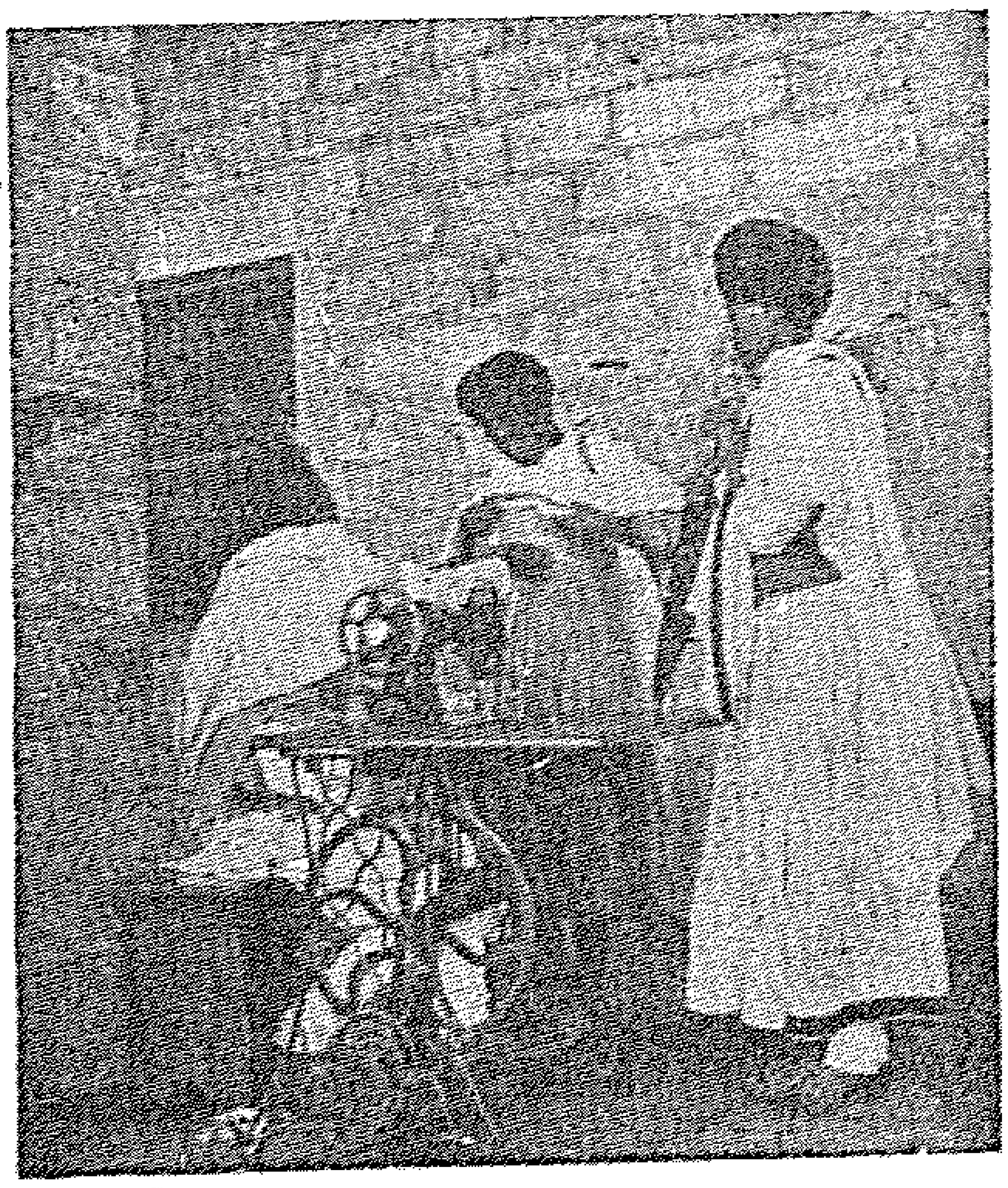

« الاستعداد لحفل القرية »

« من جوانب المرح في إفريقية »

العودة إلى الحرية

لقد تلقت المدنية الإفريقية ضربة قاضية عقب سقوط إمبراطورية «مالى» فتفتتت وحدتها الاجتماعية . وساعد ظهور التنافس بين قبائلها المتعددة على تحطيم كل محاولة لإعادة بنائها ، مما سهل على الأوروبيين تشجيع . وممارسة تجارة الرقيق التى تركت طابعها الذى لن يمحى من التاريخ الإفريقى . وحتى اليوم نجد ملايين الإفريقيين فى إفريقية وأحفادهم فى جزر الهند الغربية وفى الولايات المتحدة يعيشون فى رق وعبودية .

ولكن قيام الحرب العالمية الثانية مكن الإفريقيين من الاتصال بالعناصر المتقدمة داخل قارة إفريقية وخارجها مما كان له أكبر الأثر فى الإفريقيين الذين بدأوا يدركون أن مدنيتهم القديمة التى كانت تقوم على أسس من المساواة ، وانعدام الفوارق بين الطبقات كانت شيئاً مشرفاً ، جديراً بكل تقدير وإعزاز ، بغض النظر عما قد تصفها به القوى الاستعمارية من أنها مدنية بدائية ، وفى الوقت الذى بدأ فيه هذا الإدراك يتخذ لنفسه جذوراً عميقـــة فى قلوب الإفريقيين تنبـــه المستعمرون لهذا الخطر وما تلاه من شعور بدأ يعم المستعمرات بالسخط وعدم الرضا .

كما أن القوات الاستعمارية — لكى تتمكن من الاحتفاظ بإفريقيـــة فى خدمتها وتحت سيطرتها لاهية عما ترسف فيه من أغلال وعبودية — عمدت إلى انتقاء عدد قليل من أبناء إفريقية يحاربون فى معركتها ، ويعملون . لمصلحتها ، وسمحت لهم بتلقى العلم فى بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ونشأتهم على تمجيد سياستهم ولقنتهم التنكر لماضيهم القديم . وعلمتهم الخجل من كل ما هو إفريقى وصبتهم فى قالب خاص أشعرهم بأنهم من طبقة خاصة تسمو على غيرها من طبقات الشعب الإفريقى ، ولكى يزيد الطين بلة ، شجع المستعمرون هؤلاء الإفريقيين المتمدينين على الدخول فى مناقشات عقيمة وجدل لا معنى له ولا هدف . ومنافسة لا جدوى منها ، خلاصتها « أن تكون السيطرة من بينهم لمن تلقوا العلم فى بريطانيا أو أمريكا ؟ »

فقد حاولت قوى الاستعمار جاهدة على خلق طبقة اجتماعية خاصة فى إفريقية أولتها السلطة والنفوذ حتى تنفذ سياستها الاستعمارية وتعيث فى البلاد

الإفريقية فساداً . فتمجد السياسة الغربية وتسعى وراء الثراء والغنى عن أى طريق ، مشروع كان أو غير مشروع . وأصبح بعض الإفريقيين يحاولون التنكر لتاريخهم والحط من قيمة تقاليدهم وماضيهم وتمجيد كل ما هو أوروبى .

ولقد ازداد قلق المستعمرين عند ما أدركوا أن قبضتهم الحديدية على إفريقية قد بدأت تتراخى . وأن سيطرتهم وسيادتهم على الافريقيين لن تدوم إلى الأبد فبدأوا سياسة جديدة شعارها « التحالف المشترك » ومعونة الأمم المتخلفة .

ومن الغريب حقاً أنه لا يزال يوجد بين الإفريقيين من يثقون بالغربيين .

وقد رأينا هذا واضحاً فى هذه الأيام فى التيارات التى تهب الآن بعنف على الكونغو وتكاد تعصف به وتقضى على استقلاله . وتدمره . بعد مقتل اومومبا والكثير من أنصاره ، فالجو قد خلا هناك للعملاء الذين تحركهم بلجيكا وأمريكا وإنجلترا . وفرنسا ، وهى بلا شك نكسة للحرية فى إفريقية ، إذ أنا لم نجد إلى الآن بلداً بها يتحرر ، وتتاح له فرصة الاستقلال حتى يحطم القيود ، ويدمر الروابط التعسفية التى تربط استقلاله بالدول التى كانت تستنزفه . وتسرق وجوده الحى ، وتغتصب اللقمة من أفواه أبنائه .

ولكن العكس قد حدث تماماً فى الكونغو ، وأصبحت القوة الراجحة الآن لكازافوبو . وموبوتو . وكالونجى ثم أخيراً للسفاح تشومبى الذى قتل الحرية فى بلاده حين قتل لومومبا !

على أن الأمر لا يقف عند حد الكونغو . لأنا نرى بعض الدول ترسف فى العبودية رغم إعلان استقلالها كما حدث فى بعض الدول التى تسير وفقاً للسياسة الفرنسية . حتى لقد رأينا بعض هذه الدول الإفريقية المستقلة « صورياً ! » تصوت ضد قضايا الحرية فى القارة . وتقف إلى جانب المستعمرين . وتدير ظهرها للحرية فى القارة . وللمدافعين عنها !

على أن هذه « النتوءات » فى السياسة الإفريقية التحررية العامة لا بد أن تزول وأن تضمحل فسيغمر — فى يوم قريب — ضوء الحرية القسوى كل زاوية .. كل ركن .. كل غاب ، كل نفس فى إفريقية . وحينئذ تعلم الشعوب أن بعض السادة الذين ولتهم أمورها قد خانوا قضية الحرية فى إفريقية بعامة ، وفى بلادهم بخاصة ، وسترى أنهم جروا وراء سراب

كاذب حين ساروا فى فلك السياسات الغربية والأمريكية ، وأنه كان من الأجدر بهم أن يتبعوا سياسة تنبع من ضمير القارة ، وأحلامها ، وتطلعها إلى المستقبل !

إن هؤلاء جميعاً سينكشفـون للشعب ، وسيتوارون ، ولن يلمع إلا أولئك الذين لم ينخدعوا بالسياسة الغربية ، بالقتلة ، بالمغامرين الذين أذلوا كل شبر فى القارة ، وأذلوا كل جبهة حاولت أن ترتفع ، وألصقوا الجميع بالتراب ، وبأحذيتهم

ولعل ما يريح حقاً ، وما يملأ النفس الآن بالغبطة أن القوى الوطنية بدأت تصعد الآن بحق ، وبدأت تضغط على هؤلاء المارقين والمخدوعين فالمستقبل لهؤلاء الذين يسيرون على طريق الحرية الصعب بقوة ، وإيمان واستهانة بالمصاعب . ومهما كان هذا الطريق صعب ، ومهما كانت الأشواك التى تدمى أقدام السائرين ونفوسهم ، فإنه نجد دائماً من يفتحه . . من يقتحمه ويفضله على الطرق الأخرى السهلة لأنه الوحيد الذى يقود إلى الحرية !

على أن الأمل كبير كذلك فى عودة الخارجين إلى الحرية . ففى القارة الآن رأى عام يقوِّم ، ويهدى ، ويفتح الطرق أمام النور ! وأمام الحرية

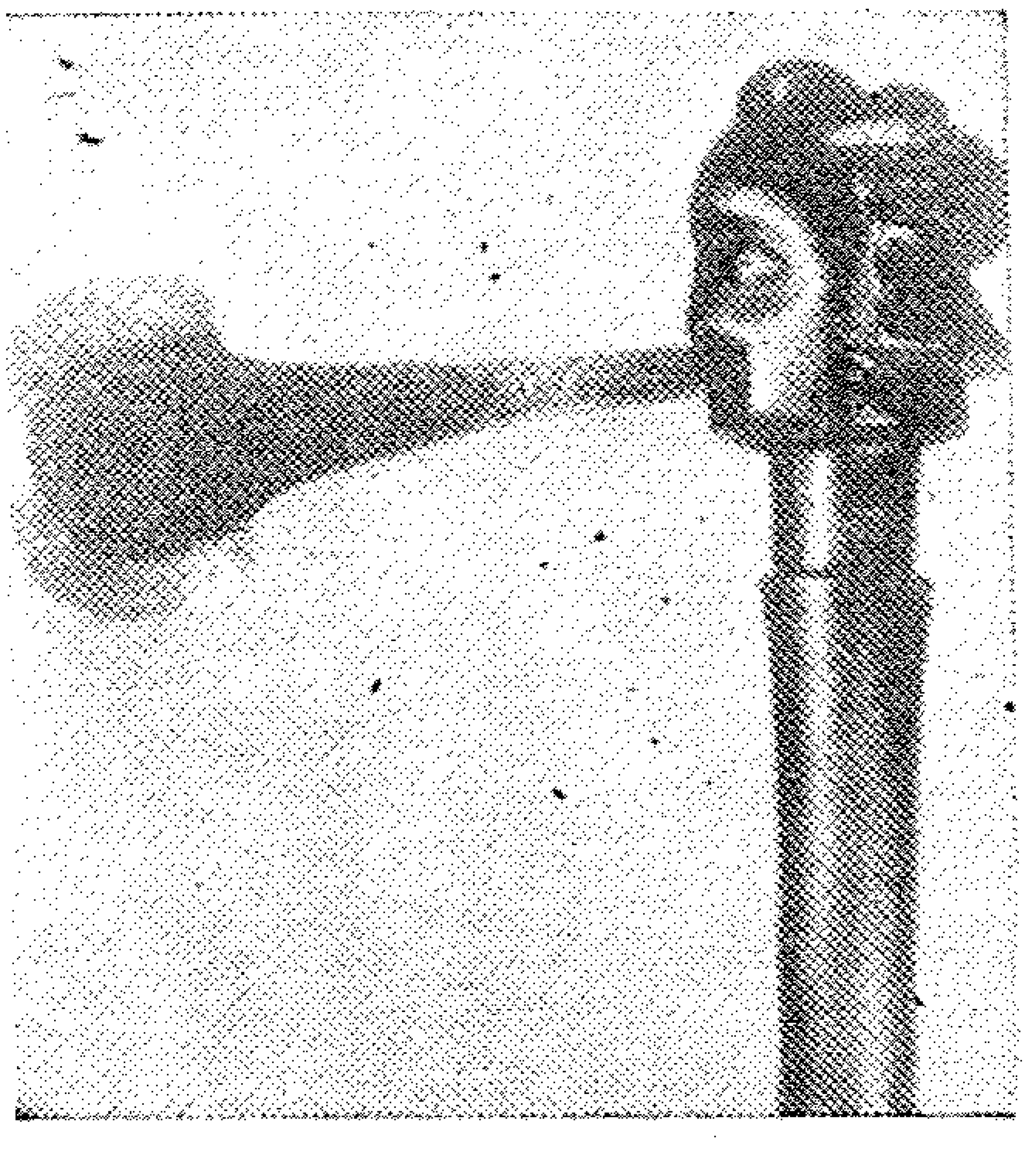

من وحي أفريقية

للأستاذ عبده بدوي

(أذاعت الأنباء أن لومومبا وزميليه قد دفنوا في الظلام بعد قتلهم – في حفرة عميقة كجرح غائر – بالقرب من قرية «كاتوتو» قرب مدينة «جادتوفيل») .

كاتوتو .. قد وقفت حيرى   قد أمستْ مطرقة الورق
لم تزهر في مقلة راع   محزون . مرتعد ، قلق
أو تنمو إن مسَّت يدها   كف تتخضب بالعرق
أو تبسم حين ترى طفلا   قد ضم «الكونغو» في الحدق
.. قد ماتت إلا أنفاسا   تتردد عاتية الحُرق
وإذا خطوات غاضبة   وصراخ غراب في الطرق
وجنود تنبش في أرض   ويصيح شقي بعد شقي
« . . . فلنحفر ثم لنلقيهم   في حقد مجنون ، نزق
لن يثنينا رعد يدوي   أو ذعر البدر المختنق
أو خيط من نور باق   ما بين الجبهة والعنق ! »
ويفيض الحزن فليس يُرى   شيء لم ينج من الغرق
لكن الفجر رأى بعثا   وسحابا منهل الغدق
وثلاث زهور دامعة   من فوق القبر المؤتلق
هي روح لومومبا ، واوكيتو   ومبولو . . . ضاحية العبق
هي فرحة شعب قد قتلت   هي آهة قلب محترق
هي راية حزن قد رفعت   حمراء على صدر الأفق
ستظل على الأفق الباكي   جرحا ، وبقايا من شفق !

من القصص الإفريقي

ترجمة وتلخيص عبد الواحد الامبابي

وليم كونتون William Conton مؤلف هذه الرواية ، هو نفسه كيزى كامارا . البطل الذى يلعب الدور الرئيسى فى هذه القصة الطويلة ، ووليم كونتون الذى نقدم له هنا ملخصاً لقصته الجديدة «الإفريقى» The African أحد الأدباء الإفريقيين اللامعين الذين يكتبون باللغة الإنجليزية .

اسمى كيزى كامارا ، ولدت فى موسم كانت الأمطار فيه تهطل بغزارة على قريتنا « اوكو » فى دولة سونجهاى إحدى مستعمرات غرب إفريقيـــة البريطانية . وكان والدى يشتغل بالفلاحة والصيد . يتردد يومه كله بين الفدان الذى يزرعه حول كوخنا . وبين الخرى الملىء بالأوحال الذى يصطاد منه السمك . وكنت الولد الثانى . كما كنت الطفل الثامن فى الأسرة التى تتكون من أحد عشر عضواً ، والواقع أننى نشأت فى طفولة بريئة خالية من كل ما يشوبها . أو يفسدها ، ولقد تعودت منذ صباى أن أسمع الأجانب البيض يتهمون أبناء جلدتى بأنهم قوم كسالى لا يميلون إلى العمل . . يفضلون الاسترخاء والنوم . إلا أن ذكرياتى المبكرة عنهم مليئة بصور الكفاح المتواصل . . كفاح الرجال والنساء وهم يعملون حول الحى المترب الذى كنت أعيش فيه ، أو بعيداً عنه . وكان منهم من يكنس ، ومن يطبخ ، ومن يبنى ويحفر ويزرع ويحصد . ولم يكن أمام الشباب من فترات يستريحون فيها خلال النهار سوى لحظات قليلة ، وكانت أمى المسكينة — وهى أقرب مثل أمامى — تدير بجانب عملها المنزلى حانة لبيع نبيذ النخيل . وحانوتاً لبيع الملح ، وحب العزيز . وبعض الفواكة الطازجة . وكانت تتخذ من حائط الشرفة الأمامية لمنزلنا حاجزاً لحانوتها . أما خزينـــة النقود التى كانت تضع فيها ما تبيع به . فكانت عبارة عن صندوق قديم من صناديق السجاير ، وكانت ترفعه إلى أعلى وتحركه فى الفضاء لتعرف مقدار دخلها . ومنزلنا يقع فى مشارف القرية ، ولذلك فقد كنت أرى بين الحين والآخر سيارة صغيرة ، أو عربة « لورى » تأتى لتتزود بالماء ، أو يشترى سائقها بعضاً من البضائع التى تبيعها أمى ، وكان مجىء هذه

السيارات يعتبر حدثاً كبيراً فى حياتنا نحن أطفال القرية ، فقد كنا ننتهز فرصة غياب السائق عن سيارته ونأخذ فى الفرجة على هذه الآلة العجيبة التى كنا جميعاً نعتقد أنها ذات قوة رهيبة . وأنها صنعت فى بلاد بعيدة جداً ، تسمى بريطانيا . أما سائقوها — الذين كانوا يضعون فوق رؤوسهم القبعات — فكنا نظنهم جماعة خاصة من القسس عينوا فى أعمالهم لخدمة هذه الروح . والواقع أن أحداً منا لم يكن يفكر يوماً فى أنه سيركب هذه الآلة ، لقد كان عالمنا الذى نعيش فيه عالماً آمناً . أما العالم الذى صنعت فيه هذه السيارة فهو عالم آخر ليس فيه سلام أو أمان ، وليست هذه السيارة إلا نذير الشر ، ورسول الشيطان .

كانت قريتنا لوكو التى نحبها جميعاً تضم عشرين منزلا ، شيدت كلها من اللبن ، وكان للزعيم أكبر هذه البيوت وأكثرها رفاهية . وفى نهايتها مجرى نهرى تعودنا أن نستحم فيه ، ونشاهد سيارات اللورى وهى تمر من فوق القنطرة فنصرخ بأعلى عقائرنا خوفاً من أن تنهار القنطرة وتسقط هذه السيارة فوقنا ، ولقد كنت فى صباى على جانب من الذكاء ، الأمر الذى جعل أسرتى تذهب بى إلى المدرسة دون بقية إخوتى كنا ونحن أطفال صغار نجتمع فى فناء القرية نروى القصص ونحكى الحواديت وكانت قصصى دائماً أطولها وأحبها إلى قلوب الصبية . ولا أستطيع أن أخفى أن أخى الأكبر كان أكثر منى دقة فى أداء النكتة المضحكة . كما كانت أختى وكذلك . أخى الأصغر أبرع منى كثيراً فى دق الطبول ، وفوجئت فى أحد الأيام . — وعمرى لم يتجاوز الحادية عشرة — بأبى ينادينى أكيزمى عليك أن ترتدى أحسن ثيابك وتلبس حذاءك بعد أن تغسل قدميك جيداً ثم تتبعنى . وتطلعت إلى والدى فرأيته مرتدياً حلته الكاكية النظيفة ، ثم سرنا حتى وصلنا إلى المدرسة الابتدائية التى تديرها الإرسالية الأمريكية . وما أن صعدت أول درج من درج هذه المدرسة حتى أحسست بشىء من الخيلاء وحب الاستطلاع ، والحق أن شعورى بالخيلاء كان أقوى . وأكثر من شعورى بالفضول ، إلى أن دخلنا إحدى الحجرات فنهضت سيدة أمريكية رائعة الجمال ، وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة ، واستقبلتنا ، وهى تحيينا وكأنها تعرفنا منذ زمن طويل ، كانت ذات بشرة بيضاء مشربة بالحمرة ناعمة مصقولة حتى لتمنيت أن أمد يدى لألمسها وأتحسسها ، وحين تكلمت إلينا أدركت أن صوتها غير طبيعى ، وأن الرنة الموسيقية تنقصه ، وحتى الصبى الذى استدعته ليتولى الترجمة بيننا وبينها لم يكن يعرف تماماً ماذا تريد أن تقول ! وإننى لأعجب الآن كيف

استطعنا بهذه السرعة أن نجيد هذه اللغة الأجنبية . ونتقن مخارج حروفها . وقد كان التعلم فى هذه المدرسة بالمجان ويوم أن ألحقنى والدى بها أحسست بأنه قد وضعنى فى طريق طويل لا نهاية له . طريق كان مليئاً بالمعالم التى تشير كل منها إلى مرحلة جديدة فى دنيا المعرفة ، وكنت مشغوفاً بأن ألتقط كل كلمة تتفوه بها هذه السيدة الأجنبية . وأتمنى أن أتحدث مثلها لأن فى لغتها جاذبية وسحراً ، ولكنى أدركت فيما بعد أن هذه الجاذبية لم يكن لها من سبب سوى أن هذه اللغة كانت غريبة عنا ، ولكل شىء غريب دائماً طابع السحر والجاذبية .

تعلمنا هذه اللغة بسرعة لأننا كنا حريصين على التحدث بها فى أية فرصة تسنح لنا . وفى إحدى الأيام أعانت الآنسة « شوارتز » عن حاجتها إلى أحد التلاميذ ليعيش معها ويساعدها فى أعمال المنزل بعد الانتهاء من اليوم المدرسى . واندفعنا جميعاً . كل منا يتمنى أن يحظى بهذا الشرف العظيم ، ووقفنا فى صفوف منتظمة . وسارت بيننا متهادية ، كملكة تستعرض حرس الشرف . وأخذت تتفرس وجوهنا واحداً بعد الآخر حتى وقع اختيارها علىّ أنا بالذات . ولا أدرى حتى الآن ماذا كان فىّ من دواعى الإغراء حتى تفضلنى هذه الآنسة على من عداى من زملائى ! ! ولكنها قالت لى : حسن يا كبزى تستطيع أن تأتى معى بعد استشارة والديك . وكان طبيعياً أن يفرح والداى بهذا الخبر لأن ذلك سيخفف — على الأقل — أحد الأفواه التى كان أبى يسعى لإطعامها . وذهبت إلى مسكن الآنسة « شوارتز » لأول مرة واتخذت من الشرفة الخلفية مكاناً لنومى . والحق أننى لم أنم ليلتى الأولى . فقد كانت السعادة بوجودى هنا تغمر كل كيانى . سأعيش إلى جوار السيدة التى تتحدث دائماً اللغة الإنجليزية . وستكون مكتبتها فى متناول يدى أقرأ منها ما أشاء ، والواقع أن كل ما كنت أطمع فيه قد تحقق لى . فقد تقدمت فى اللغة الإنجليزية حتى قرر أساتذتى فى المدرسة الابتدائية أننى قد أصبحت أهلا للالتحاق بالمدرسة الثانوية فى ساجريسيا .

كانت ساجريسيا العاصمة تعنى بالنسبة لى عالماً مثيراً جديداً . وقد عرفت عنها الشىء الكثير من أصدقائى الذين ذهبوا إليها . وكذلك من الأحاديث التى كانت تدور بين « شوارتز » وزميلتها الأمريكية التى تساكنها . أما هى بالنسبة لوالدى فقد كانت موطناً لأناس ليسوا أهلا للثقة ، فهى مدينة تضم جماعة من البيض والسود . أصبح الإفريقيون فيها . وكأنهم أجانب يتحدثون بلغة أجنبية ، ويسلكون سلوك الأجانب بالرغم من سواد بشرتهم ، ويذكر الشيوخ من

أهل قريتي أن البيض وبعض أصدقائهم من أهالى ساجريسيا السود قد حاربونا واقتطعوا منا بعض الأراضى . وبالرغم من قيام شعبنا فى « لوكو » بثوراته المتكررة ضد هؤلاء المغتصبين . فإن الموت كان مصير الكثير منا . ولقد كنت أعتقد أن ذهابى إلى أية مدينة أخرى غير ساجريسيا لمواصلة تعليمى الثانوى . إنما كان يعنى حرمانى من اكتشاف عالم آخر أوسع من عالمى الذى نشأت فيه . أو على الأقل حرمانى من اكتشاف أسرار عالم الرجـــل الأبيض . ولقد أدركت بأن والدى كان يفضل التعليم الحر عن التعليم المحافظ وكان يريدنى أن أكتشف لا أن أعيش تقليدياً وأخيراً تقرر أن أذهب إلى ساجريسيا . وخلال الأيام الأخيرة التى كنت أقضيها فى « لوكو » استعداداً للسفر ظللت أتردد على منزل السيدة الأمريكية — الذى قضيت فيه أربع سنوات كاملة . وتعلمت فيه أشياء كثيرة — وبين منزل أبى وأمى وديار بعض أصدقائى وزملائى . وكاد قلبى ينخلع من الحزن بالرغم من أننى فى ساجريسيا لن أكون بعيداً جداً عن أهلى وقريتى . وتعجبت من أمر هذه السيدة الأمريكية التى تركت أهلها وبلادها وجاءت لتعيش بين أناس تختلف تقاليدهم ولغاتهم عن تقاليدها ولغاتها . وقلت لنفسى هل يترك الإنسان وطنه إلا إذا كانت هناك رسالة كبرى يؤديها . وأخذت أسائل نفسى أى رسالة تؤديها هذه السيدة . ويومها كنت صغيراً لا أستطيع أن أعى سر الرسالة التى جاءت من أجلها هذه السيدة ! !

وفى هذه الأيام الأخيرة فى لوكو أحسست بأننى أرى لأول مرة فى حياتى الجمال الحقيقى للمناظر الطبيعية التى عشت فيها كل هذه السنين دون أن أدركها . فالبساط الأخضر من الحشائش القصيرة التى تغطى منحدرات الطريق تبدو الآن فى عينى وكأنها شىء جديد لم أره من قبل . وأشجار الغابة القريبة من كوخنا الحبيب تبدو بثمارها. وكأنها أعمدة من النور الفضى تتوهج فى ضوء القمر . أما الأشجار التى كان من واجبى أن أعتنى بها فى منزل السيدة الأمريكية فقد امتدت حتى لامست السقف المرتفع . وأزهرت براعمها المغلقة حتى زينت المكان بألوانها الذاهية الجميلة . وتطلعت إلى القرود التى تلعب فوق أشجار المانجو . والتى كانت — منذ وقت مضى — هدفاً لحجارتى . فوجدتها تهز رأسها لى فى هذه اللحظة . وكأنها عرفت قصة سفرى إلى ساجريسيا ورأيت جد هذه القرود يغمز لى بعينيه وكأنه يريد أن يؤكد لى أن أبناءه وأحفاده لا يكنون لى شعور الكراهية والشماتة .

لقد كانت أمى أكثر عطفاً علينا من والدى ، كان من حقى دائماً عليها أن أطلب وكان من واجبها أن تعطى . .

ثم جاء يوم السفر ، وكان يوماً شديد البرودة ، فصعدت إلى سيارة اللورى بجانب والدى وجلست الآنسة « شوارتز » بجوار السائق ، وألقيت النظرة الأخيرة على قريتى التى تركت فيها أجمل تجارب حياتى ، وتجمع الأهل والأصدقاء لتوديعى ورأيت فى عينى أمى بريق الفخار والفرحة ، وعلى الرغم من الأوحال والأمطار التى كانت تتساقط بغزارة فى هذا اليوم فقد قدم الجميع على توديعى ساعة السفر وفى هذه اللحظة فقط أدركت إلى أى حد أصبحت محور آمال وطموح كل أهل القرية جميعاً ، وحين سرح خاطرى — بعد أن سارت السيارة فى الطريق الطويل — تخيلت أبناء قريتى فوجدتهم أناساً يمثلون عندى صورة الوطن ، ومعانى الحب والسلام .

لا أذكر الآن من هذه الرحلة سوى منظر القطار الذى رأيته لأول مرة فى حياتى ، لقد دهشت لرؤية كل شىء فيه . . . الصفير والعربات الكبيرة المقطورة وراء هذه الآلة الضخمة . . ثم اختفائه بعد أن خلف وراءه دوائر كثيفة من الدخان التى أحالت الطريق إلى ليل دامس ، وأخذت سيارتنا تصعد مرتفعاً ، ثم تهبط منحدراً حتى لاحت أمام عينى مناظر البيوت الشاهقة فأدركت على الفور أننا قد وصلنا إلى ساجريسيا ، وإذا بنا أمام منزل الإرسالية ، الذى سأقيم فيه ، فاستقبلنا هناك رجل عرفت فيه — فيما بعد — أنه الموظف المسئول عن شئون الدراسة وبينما كان يتحدث مع والدى حديثاً يدور حول امتحان القبول الذى يمكن على أساسه أن ألتحق بالمدرسة الثانوية ، ووالدى على ثقة كبيرة من أننى سأجتاز هذا الامتحان بجدارة ، وإذا بوالدى يقدم إليه بعض الفواكه الطازجة فشكره بحرارة ، وبعد أن استقر بى المقام أحببت أن أتجول فى شوارع المدينة فدهشت لأن الناس كثيرون للغاية ، تزدحم بهم الطرقات وتمتلىء بهم الأسواق ، كانوا يتحدثون لغة غريبة ليست هى اللغة الإنجليزية التى أعرفها كما لم تكن لغة الهوسة التى نتكلم بها ، وأخذت أمشى وأتطلع إلى المنازل المبنية من الحجارة أو الخشب ، واختلط على الأمر فلم أستطع أن أفرق بين السود والأوروبيين لأن لون بشرتهم جميعاً كان أبيض مشرباً بالحمرة ، إلا أننى كنت سعيداً لأن لأن فرص تعلمى اللغة الإنجليزية على نطاق أوسع أصبحت مهيئة لى أكثر من أى وقت مضى ، وكنت أعتقد يومذاك أن تعلم هذه اللغة هو أهم هدف فى حياتى . .

ثم شاهدت البحر ، وقد يكون الناس وما يقدمون من منتجات أيديهم مثار اهتمام الصبيان ممن هم فى سنى أكثر من اهتمامهم بالطبيعة ومظاهرها ، ولكن البحر وميناءه الملىء بالناس

كم كانت لطيفة وطيبة. فى هذه اللحظ أخذت أتطلع إلى ملامحها الدقيقة وبشرتها السوداء ويديها وقدميها فأرى فى كل منها دليل الكفاح من أجل أبنائها.. غمرنى بالرعب والدهشة. وفى اليوم التالى عزم أبى على السفر فذهبت لتوديعه، وغاب اللورى الذى كان يحمله فى شارع طويل. فأحسست بأنه الشارع الوحيد الذى يربطنى بقريتى المحبوبة، وعشت ليلة الفراق فى حلم كبير أرى فيه صورة أمى وإخوتى وجميع أصدقائى فى « لوكو » .. وفى الصباح ذهبت أتجول فى المدينة فراعنى منظر بيت فسيح مبنى من الطوب الأحمر على شاطىء البحر، وأدركت — عندما رأيت جنوداً يرتدون الملابس الرسمية — أن هذا البيت ليس إلا بيت الحاكم، ورأيت فى يد أحد الجنود مدفعاً، وكنت قد قرأت الكثير عن مثل هذا السلاح، ولدهشتى رأيت هذا الجندى يتحدث لغة الهوسة، بل إنه من أفراد قبيلتى، فسألته ما إذا كان قد اقتحم معركة حربية قبل ذلك، وعند ما أجابنى بالنفى طلبت منه أن يدلنى على جندى آخر يكون قد دخل معركة حربية، وحين جلست إلى هذا الجندى شعرت بالخيلاء وأنا أسمعه يحدثنى عن تجاربه فى الحرب، لقد أحسست بالفرحة الكبيرة وأنا أرى بطلا من أبطال قومى، وشعرت بأن الإحساس بالغربة لم يعد له بعد ذلك وجود عندى؛ ثم عدت إلى منزل الإرسالية ففوجئت بوالدى هناك، ينتظرنى، وعلمت فيما بعد أن اللورى قد تعطل بسبب حادث تصادم. وأن السائق الجبان قد ترك السيارة بمن فيها من المسافرين وفر هارباً داخل الغابات. وفى الليل جلست أنا وأبى وطباخ الإرسالية، وهو بطل من أبناء قبيلة الهوسة — نتجاذب أطراف الحديث، أو بعبارة أخرى، كان الأثنان يتحادثان على حين كنت أصغى أنا إلى ما يقولان .. كان الحديث بينهما ينقلنى إلى جو قريتى فتنفرج شفتاى دون أن أدرى. ثم أحس بالدموع تتقاطر من عينى فتتساقط ساخنة على وجنتى .. ثم سافر والدى فى اليوم التالى، وبدأت أستعد لدخول امتحان القبول. وحين نجحت بعثت إلى والدى بهذه البشرى، فتلقيت منه رسالة رقيقة بخط أستاذى الذى كان يدرس لى فى مدرسة القرية. ولا أستطيع أن أنكر أن هذا الخطاب كان حدثاً خطراً فى حياتى. لا لأنه أول خطاب أتلقاه من والدى، بل لأنه كان بمثابة المهماز الذى يغرسه الفارس فى جسد حصانه ليضاعف من سرعته، كان الخطاب يتضمن تهنئة والدى، وأمى وكل أفراد أسرتى بالنجاح الذى أحرزته، وفيه نصيحته التى تقول :

لقد بدأت الآن يا ولدى تتسلق شجرة النخيل التى كان من الصعب أن تتسلقها، وإن الجميع هنا فى « لوكو » يرقبون خطواتك إلى

أعلى ، إن الثمار الناضجة توجد دائماً ، فى أعلى الشجرة ، فاذا فشلت فى أن تصل إلى القمة ، فان هؤلاء الذين يرقبونك – سواء منهم من ظل حياً أو من مات – سيلعنونك ، وإذا ما وصلت إلى القمة ، وقطفت الثمار لتأكلها وحدك فستسقط على الأرض وتموت ، أما إذا عدت إلى وطنك بعد أن تجنى هذه الثمار ، وأشركت معك أهل بلدك ومواطنيك فسيمدحك الجميع ويشكرون ذلك الذى أوجدك إلى الحياة .

لقد كنت قبيل تسلمى هذه الرسالة أحس بحنين العودة إلى بلدى ، وما كنت أدرك قبل ذلك ما هو الهدف الذى جئت من أجله إلى هذه المدينة سوى أن أتعلم اللغة الإنجليزية ، أما الآن ، وبعد أن قرأت رسالة والدى . فقد تأكدت أننى أبنى نفسى لأنفع مواطنى . وأننى جئت هنا لهدف أكبر مما كنت أعتقد . . وأكبر من مجرد وجودى فى هذه المدينة بين قوم أكثر مدنية وحضارة من أهل « لوكو » . . إننى هنا وسأظل فى كل وقت وفى كل مكان من أجل أبناء قومى . .

كان مبنى المدرسة الثانوية التى التحقت بها فى « ساجريسيا » يشبه معظم المبانى الشاهقة فى تلك المدينة الواسعة . وكانت الدراسة فيها صعبة لدرجة تتطلب بذل الجهد الكبير فى المذاكرة . وكنت التلميذ الهوسوى الوحيد فى المدرسة . الذى ظل محافظاً على تقاليد قبيلته وعاداتها . وإن كان هناك آخرون من أبناء قومى من التلاميذ الذين تأقلموا بجو ساجريسيا ، والحق أقول إن زملائى فى الفصل من أبناء ساجريسيا كانوا ينظرون إلىّ على أننى أقل منهم مرتبة ، ويعتبروننى إنساناً غير مثقف ، خشناً ، فى حاجة إلى تحضير ، وتطوير . ولكننى تعلمت كيف أعتمد على إيمانى بأننى أستطيع – إن آجلا أو عاجلا – أن أثبت وجودى بمجهودى . لقد تعلمت كيف أصطنع الابتسامة عند ما كان زملائى فى الفصل يتحدثون باللغة باللغة الساجريسية . لأننى كنت واثقاً من أن حديثهم كان يدور عنى . وبعد العام الأول لم أجد ضرورة لهذه الابتسامة المتكلفة . فقد تعلمت لغة ساجريسيا . وسرعان ما أصبحت موضع الاحترام من جميع التلاميذ بعد أن أثبت تفوقاً ملحوظاً فى الدراسة . وبعد أن كثر المال فى يدى . وصرت أرتدى أحسن الثياب .

على أن الحقيقة التى يجب أن أؤكدها هنا : هى أننى لم أكن أهتم كثيراً بفتيات ساجريسيا . وأذكر أننى كنت أسير فى شارع « الأمير هنرى » فى إحدى الأمسيات مع أحد أصدقائى . ممن كانوا أكبر منى سناً فقال لى – وكان اسمه كودجو – هل ترى هاتين الفتاتين اللتين تسيران أمامنا ؟ فنظرت فى سذاجة ، لا أدرى شيئاً ، وهنا أخبرنى بأنه يعرف إحداهما ، وطلب منى أن أسرع السير للحاق بهما ، وأسرعنا خلفهما ، حتى أصبحنا على بعد خطوة أو خطوتين منهما ، فرأين

الفتاتين أسرعتا السير حين احستا باقترابنا منهما وعندئذ قلت الكودجو باللغة الهوسوية : إن من الوقاحة يا صديقى أن نتابعهما أكثر من ذلك . لقد كنت أعرف أن بعدى عن أهلى وغربتى فى هذه المدينة . وآمال أهل قريتى تتطلب منى أن أكرس كل وقتى وجهودى للعلم فعكفت على كتبى ألتهمها كطعام شهى . وكنت قد ادخرت مبلغاً لا بأس به من المال فاستعنت به لأخذ دروس خاصة فى المواد التى أحسست بأننى ضعيف فيها . واختلطت بتلاميذ المدارس الثانوية فى ساجريسيا . لا لأننى كنت شديد الرغبة فى مصاحبتهم أو الاستذكار معهم . بل لأننى كنت أود أن أعرف أى المدرسين أقوى فى مواد تخصصهم حتى أستعين به .

وقبيل الامتحان بأسبوعين وقعت مشادة بينى وبين « صمويل » ابن أحد المدرسين حين أعلن فى الفصل بصوت مرتفع « إن كل التلاميذ الذين وفدوا من السنغال يجب أن يعودوا إلى بلادهم للبحث عن عمل هم هناك ، فأحسست بأن الغضب يثور فى عروقى كعمود الزئبق فسألته بصوت هادئ بعد أن نجحت فى كظم غيظى والتحكم فى أعصابى ، لماذا تنادى بهذه الدعوة يا صمويل وأنت شاب إفريقى ، فأجابنى على الفور بحكمة يرددها أبناء ساجريسيا « إن من لا يعرف إلى أين يسير ينبغى أن يعرف — على الأقل — من أين أتى »

وهنا انفجر الجميع بالضحك . فثارت ثائرتى وكنت شاباً طويل القامة ممتلىء الجسم ، وكان هو كذلك ، وما هى إلا لحظات قليلة حتى كان الدم الساجريسى والدم اللوكوى تمتزجان على الأرض . فتدخل الكبار وأوقفوا هذه المعركة . إلا أن كلاً منا ظل يكيل للآخر أقذر ما يعرف من ألفاظ السباب والشتائم . وانصرفنا . ثم بعد تناول الغذاء دعانا والد صمويل . والحق يقال : أنه لم يكن متحيزاً لابنه ، وأصلح ما بيننا . وأخذ يقرأ علينا بعض نصوص الإنجيل التى تنادى بالأخوة وبدا هذا الرجل منافقاً فى نظرى . وخائناً فى نظر صمويل .

جاء الامتحان . وظهرت النتيجة . وكنت أنا وصمويل وصديقنا جرانديا من بين الطلبة المتفوقين . وكان هذا يعنى — حسب لوائح التعليم فى بلادنا — وجود أمل لدينا نحن الثلاثة بالحصول على منحة دراسية لإكمال تعليمنا فى الجامعة . وكانت أسباب سوء التفاهم بينى وبين صمويل قد زالت تماماً . فعزمنا على القيام بنزهة خلوية ليلة ظهور النتيجة ، وسرنا معاً حتى وصلنا إلى مكان قريب من مبنى الجامعة . وكانت الأضواء الفضية التى تبعثها النجوم تكلل هاماتنا ، والأشعة الذهبية التى يرسلها القمر تفرش أمام أقدامنا بساطاً رائعاً من النور . وجلسنا بجانب نافورة قطرات مائها تبدو فى ضوء القمر كقطع من النقود الفضية ، وأخذنا نرفع عقائرنا بأغنيات الشباب المرحة . وكان طلبة الجامعة الذين

ينزلون إلى المدينة يتوقفون عندنا ، ويشتركون معنا أحياناً، فى ترديد بعض الأغانى التى كنا نؤديها ، ثم واصلنا سيرنا حتى بلغنا ربوة مرتفعة قليلا عن سطح السهل فاتخذنا منها مسرحاً نؤدى عليه بعض مناظر من رواية « ماكبث » لشكسبير . . وهى الرواية التى كانت مقررة علينا فى السنة الأخيرة ، وكنا متأثرين بهذا الكاتب الإنجليزى الكبير ، فأدينا التمثيلية بإتقان أمام جمهور غير منظور ، وأحسسنا ونحن نؤديها — عن ظهر قلب — بأن المدرسين الذين منحونا التقديرات العالية فى الامتحان كانوا على حق ، ثم عدنا إلى المدينة وقد ملأت البهجة قلوبنا ، وبدأنا نشعر بأننا على أعتاب حياة جديدة تتفتح أمامنا أبوابها .

بعد أربعة أشهر كنا على ظهر إحدى البواخر التى ستبحر بنا إلى إنجلترا لتلقى العلم فى جامعاتها . وعزمت على أن أدرس اللغة الإنجليزية وآدابها ، بينما أصر صديقى صمويل على دراسة الطب . وكان علينا أن نوقع تعهداً قبل السفر يلزمنا بخدمة الحكومة خمس سنوات بعد العودة ، وعدم الزواج من الخارج دون موافقة الجهات المسئولة ، وبعد ذلك بأربعة أشهر وصلنا مجلد ضخم يضم نصائح الأهل والأصدقاء. وقبل السفر بيوم واحد وصل أخى إلى ساجريسيا لتوديعى وبينما كنت أضغط على يديه محيياً دس فى يدى قطعة كبيرة من الماس ، وأخبرنى بأن والدى يطلب منى أن أحتفظ بهذه الماسة معى لتكون دائماً رمزاً لإخلاص أهلى وعشيرتى ، ولتكون تذكرة لى بهم فى غربتى ، لقد ظلت هذه الماسة أثمن ما أعتز به فى حياتى لأننى كنت أرى فيها — ولا زلت حتى الآن — الشعلة المحيدة لروح إفريقية والثروة الوفيرة لخيراتها ، بل كنت أرى فيها الجانب المعبر عن طاقاتها وقدراتها ، لقد أصبحت هذه الماسة أمام عينى فى كل وقت الشعاع المتسلل لنجمة الحرية فى إفريقية . . والضوء القوى الذى سيوقظ العملاق النائم . . وبينما أنا فى طريقى إلى الباخرة وقعت عيناى على فتاة فى مثل عمرى انتهزت فرصة هطول الأمطار وانهمكت فى أخذ حمام ، تماماً كما كنت أفعل فى مثل هذه الظروف ، وكان وجهها الأسود يلتمع بالضوء وترسل الضحكات العالية وهى تحك جسدها الأبنوسى برغاء الصابون فلوحت لها بكلتا يدى تحية الوداع وردت على التحية وشفتاها تنفرجان عن صفين جميلين من اللؤلؤ الناصع ، إن الإفريقيين يدركون تماماً أهمية الأمور الرمزية فى مستقبل حياتهم ، ولقد أشعرتنى هذه الفتاة المرحة التى تتمتع بالكثير من السعادة دون أن تفعل الكثير من أجل الحصول عليها أن فى إفريقية أشياء يجب العودة إليها ، إنها

تتمتع بالسعادة الروحية والمادية . . . وهما كل ما فى الحياة من ثروة .

رست الباخرة فى ميناء ليفربول ووقعت أعيننا على الأرض الموعودة وتطلعنا فى ذهول إلى المبانى الشاهقة ، وحركة المواصلات المزدحمة ، وبينما كنا فى انتظار القطار الذى سينقلنا إلى البلاد التى سنستقر فيها رأينا منظراً آثار دهشتنا ، لقد رأينا أمام أعيننا رجلا أبيض يمسك بيده مكنسة ينظف بها الشارع . . وتعجبنا كيف يوجد على ظهر الأرض رجل أبيض يقوم بمثل هذه الأعمال ! ! لقد تعودنا دائماً أن نرى البيض فى بلادنا حكاماً أرستقراطيين وملاكاً مستبدين ، بل ملوكاً تنقصهم التيجان ، وصاح آبياه ، شكراً لك يارب لأنك أتيت بنا إلى هنا . . لقد كنت أشك دائماً فى أن هناك سبباً معقولا يدعونى إلى المجيء إلى بريطانيا أما الآن فقد علمت أنه كان لا بد أن أحضر هنا لأرى بعينى ما كنت لا أصدقه لو سمعته . .

وذهب بى القطار إلى « يوركشير » واستقر بى المقام فى أحد المنازل المعدة للطلبة هناك ، وحين اختلطت بالناس فى هذه المدينة اكتشفت – فى الواقع – أشياء جديدة على ، لقد عرفت بأن الإنجليز فى بلادهم يختلفون عنهم تماماً خارج بريطانيا ، لقد كان الشيء الذى أثار اهتمامى – ولا شك فى أن آثار اهتمام كل الإفريقيين – هو روح الفردية عند الإنجليز ، إن الروابط الأسرية تكاد تكون معدومة عندهم تماماً ، فقد يحدث أن يتزوج الشاب الإنجليزى دون أن يحضر زفافه أحد من أفراد عائلته ، وتذكرت على الفور مجتمعنا الإفريقى المتماسك حيث لايستطيع الفرد هناك أن يقدم على خطوة ترتبط بدور هام فى حياته دون أن يستشير الكبار فى أسرته ، ولا تكاد تقع كارثة لأحد منا حتى يحضر الجميع لمواساته ومساعدته ، ولذلك كنا نضحك سخرية ، واستهزاء ، حين نسمع الأساتذة الإنجليز يتحدثون عن الروابط الأسرية وكانت النكتة الشائعة بيننا : هى أن الإنجليزى يعامل كلبه كما يعامل ابن عمه ، ويعامل ابن عمه تماماً كما يعامل ابن رجل غريب عليه .

وقضيت العام الأول فى يوركشير وكنت أقوم فى آخر كل أسبوع برحلة خلوية جميلة ، أصور فيها بعض المناظر الطبيعية التى كانت تروقنى ، وحرصت على التردد على بيوت الشباب حيث كنت ألتقى بعدد كبير من الطلبة الذين تتباين اتجاهاتهم وميولهم وكنت أجد لذة عجيبة فى الحديث معهم والجلوس إليهم ، وفى إحدى رحلاتى صادقت مستر جو وهو شخص أدق ما يقال فيه أنه مستر بكويك بطل إحدى روايات ديكنز ، تصادقنا ، وكان لطيفاً للغاية رجلا ساذجاً تضحكك كل تصرفاته . وفى بساطة حديثه سحر يجذبك إليه دائماً ، دعانى إلى تناول الغداء على مائدة إحدى مقاهى البلدة ، وأصر على أن يدفع هو الحساب ، فأعطيت له هذه الفرصة لأنه كان من خفة الدم بحيث لم أكن أحب أن أغضبه ، أو أرفض له طلباً ، وعلى إحدى الموائد وقع بصرى على فتاة شقراء ، تدلى شعرها الأصفر الذهبى على ظهرها وكأنها شجرة البلوط ، ورأيتها تجوس موائد الجالسين

بالتفاتة بطيئة كأنها تتحرك بفعل آلة أوتوماتيكية ، وكنت قد التقيت ، بالكثيرات من الشقراوات . إلا أن واحدة منهن لم تترك فى نفسى أثراً كما تركت هذه الفتاة ولأول مرة أراها . . كانت تجلس على بعد خمس ياردات منا . والتقت عيناى بعينيها الزرقاوين الهادئتين . فأحسست برعشة تهز كل جسدى . وكانت نظراتها لى . أنا بالذات تعنى أنها تريدنى . فاستأذنت من صديقى جو . وجمعت كل شجاعتى وانتقلت إليها لأحييها . وحين ابتدرتها قائلا : سعدت صباحاً كنت أتوقع بأنها لن تجيبنى . فالشقروات ينظرن إلى أمثالنا من السود نظرة الازدراء والاحتقار . ولكم كانت دهشتى عظيمة حين أجابتنى بصوت موسيقى هادئ سعدت صباحاً . وعندئذ وجدت الفرصة مواتية للحديث معها فقلت : إننى أعتذر إذا كنت قد سلكت معك هذا السلوك المعيب . غير أنها أطرقت بعينيها إلى الأرض وأدارت وجهها عنى . فأحسست بشعــور الاستياء ينتابنى وخيل إلى أنها تريد أن تبعدنى عنها فسارعت قائلا . . إذن فهل تسمحى لى بالانصراف . وهنا رفعت رأسها محملقة فى وجهى ثم قالت : أين تعلمت اللغة الإنجليزية بهذه الطلاقة ؟ فأجبتها . . فى إحدى مدارس سونجهاى فى غرب إفريقية . . إن الكثيرين فى مثل هذه المدن يتحدثون الإنجليزية ربما أكثر طلاقة منى فأجابت ما كنت أعرف ذلك من قبل ، إننى من بريتوريا من جنوب إفريقية ، وهنا اطمأنت نفسى فقلت لها إذن فكلانا من إفريقية ، عالم صغير . . أليس كذلك ؟ فابتسمت فى هدوء وأردفت قائلة : ألست معى فى أن غرب إفريقية تختلف عن جنوب إفريقية ، فأجبتها إن الاختلاف بين المنطقتين ليس اختلافاً كبيراً . أو أساسياً كما تعرفين . وهنا أحسست بالسرور لأننى وجدت موضوعاً للحديث يهم كلا منا على السواء فأضافت قائلة :

« إن فى جنوب إفريقية بعض البيض الذين لا يؤمنون بمبدأ التفرقة العنصرية ، وإننى واحدة منهم ، وفى هذه اللحظة فقط أدركت بأن فى هذه الفتاة شيئاً يدعونى إلى الإعجاب بها ، ثم استطردت قائلة : ليس معنى هذا أنه لا توجد أسباب تاريخية وراء فكرة التفرقة العنصرية » .

فقلت لها :

إن رئيس وزرائكم أكثر الناس تعرضاً لكراهية الإفريقيين . وليس فى إفريقية شخص يهتم بالبحث عن الأسباب التاريخية لفكرة التفرقة العنصرية ، ولكن كل ما نعرفه عن هذا الرجل هو أنه يريد أن يفرق بين الأبيض والأسود ، لأن البيض فى نظره عنصراً أسمى من السود ونتيجة لهذه السياسة الخرقاء اضطر الإفريقيون لمهاجمة بعض الهولنديين الذين وفدوا فى زيارة لغرب إفريقية ، كما أن أحد القسس الهولنديين لم يستطع أن يمكث فى بلادنا إلا تحت حماية البوليس ، ولدينا معشر الإفريقيين إحساس قوى بأن أول دولة ستتعرض لهجوم الولايات الإفريقية المتحدة عند ما تقوم سيكون إتحاد جنوب إفريقية .

وهنا لزمت الصمت هنيهة ثم قالت فجأة :

إن ما تقوله شيء مؤلم فعلا فالواقع أن الكراهية العنصرية أمر شر كله بصرف النظر عمن يقوم به أو يوجه إليه ، ثم حدقت فى بعينيها الجميلتين قائلة : إن شعبى من البوير كما تعرف ، ولو رأونى أتحدث إليك الآن ، أو حتى سمعوا بما أقوله لك لأوسعونى ضرباً بسياطهم لقد جئت هنا لأتأكد بنفسي بأنه لا جدوى من التعصب العنصرى . بعد أن أحرزتم معشر السود تقدماً عظيماً فى مختلف المجالات العلمية والأدبية والفنية ، لقد أردت أن أتعرف إلى أكبر عدد ممكن من الطلبة الإفريقيين الذين يدرسون فى جامعة لندن ، ولكن ألست ترى أن ما تقوله أنت الآن يساعد على إقناع شعبي بأن الأبيض والأسود لا يمكن ولا ينبغى لهما أن يعيشا معاً ؟

وهنا أحسست بالخجل فاستدركت قائلا :

إنى آسف يا عزيزتى وينبغى أن تعرفى أن معظم أفراد شعبى جماعة تميل إلى السلام وحب التسامح

وطال بنا الحديث بعد ذلك وعلمت منها أنها يتيمة الأبوين ، جاءت إلى إنجلترا بصحبة أخيها وصديقهما للدراسة فى جامعة لندن . ثم دعتنى لزيارة جان أخيها وفردريك صديقها . وقالت لى ... إنها تفضل أن أتحدث إليهما لأقنعهما بأننا معشر السود قوم جديرون بالثقافة والرقى ، فسارعت إلى تلبية رغبتها . وحين التقينا طابت منى أن أقدم نفسى ففعلت ، ثم قدمت هى نفسها قائلة أنا جريتا هالس وإنى لسعيدة أن أقدم لك أخى جان وخطيبى فردريك هيرتزوج ، ثم انصرفنا على أن نلتقى فى موعد آخر فى بار رويال كزويك ، وحين حل الموعد وذهبت لقاء جريتا وجدتها جالسة فى ركن قصى من المقصف — وأعتقد بأن أى شخص يتحكم فى حواسه الخمس كان لا بد وأن يفكر أكثر من مرة فى المحافظة على مثل هذا الموعد — فقابلتنى بابتسامتها المشرقة . وإذا كان لا بد من الاعتراف بالحقيقة فإننى أقرر هنا أننى لم أجشم نفسى عناء الذهاب هذه المرة إلى رويال كنزويك كى أقنع هؤلاء الناس بأن يتحولوا عن فكرتهم فى مسألة التعصب العنصرى . ولكننى كنت شغوفاً إلى رؤية جريتا مرة ثانية ، وكنت أرتدى ملابس السهرة . التى تعودت أن أرتديها فى حفلات ساجريسيا . فغدوت شخصاً يستحق اهتمام كل من يراه ، وابتدرتنى جريتا قائلة : إن أخى جان سيحضر بعد قليل ، أما خطيبى فردريك فإنه لن يحضر وأخشى ألا يكون موافقاً تماماً على هذه الفكرة بأكملها ، فتمالكت نفسى حتى لا أظهر لجريتا شيئاً من غيرتى من فردريك . ولكننى أحسست بأننى قد كسبت جولة انتصار عليه فقلت لها : لا تبالى يا عزيزتى . فإن هذا لن يعجل بنهاية العالم . ولكنها استدركت قائلة : لا يا كنزمى إننى أعلق أهمية كبيرة على لقائك به . فسينتهى من دراسته خلال أربعة أسابيع ويعود إلى وطنه . وربما لا تتقابلان بعد ذلك . وهنا وجدت فرصة للحديث عن فردريك فقلت لها :

هل يزعجك أن تتزوجيه إذا لم يقتنع بآرائى فى التفرقة العنصرية ؟

فأجابتنى قائلة : نعم هذا هو

بالضبط ما أفكر فيه ، فإن والده كان يملك مزرعة فى جنوب إفريقية ، وتعود أن يعامل السود معاملة وحشية ، فكانوا يحرقون زراعته ، وفى أحد الأيام انتهزوا فرصة وجود سيارته وأشعلوا فيها النار فأصيب والد فردريك إصابة أدت إلى وفاته . وأعتقد أن هذا هو سبب كراهية فردريك للجنس الأسود كله . وهنا قلت لها بعد أن وضعت يدى على يدها إذن فخذينى معاك حيث يوجد فردريك وجان فإننى أحب أن أتحدث إليهما ، وسرت مع جريتا حتى وصلنا الحجرة التى يقطن فيها جان وفردريك وطرقت جريتا الباب بتموة فانفتح عن شاب طويل القامة عريض المنكبين حيته جريتا بابتسامة حارة . ثم ابتدرته قائلة : هذا هو كيزى كامارا الفتى الذى صعدت به إلى الجبل إنك تعلم يا فردريك من هو . . . ولماذا جاء معى إلى هنا . فأجابها — بعد أن نظر إلى بعينين تملأهما الكراهية والحقد — أظنك تذكرين ما قلته لك هذا الصباح «إننى لم أقطع ستة آلاف ميل لكى أعقد صداقات مع بعض الزنوج الذين رفستهم فى جنوب إفريقية» وأحسست بالدم يغلى فى عروقى . وكان هناك هناك شيء واحد يجب أن أقوم به فوراً فقلت له : ليس من الذوق أن أركلك هنا بحضرة جريتا ، ولكنى أحب أن أقول لك .. إن حديثك معى على هذه الصورة يدل — على الأقل — على أنك لم تستفد كثيراً مما تعلمت . وخرجت مسرعاً إلى مبنى بيوت الشباب ، وانتحيت جانباً على شاطىء النهر هناك وسرحت مع خواطر لا عدد لها ، وفجأة شعرت برجل يربت على كتفى ليقول لى : إن جماعة من كيزويلك يريدون مقابلتى . فنهضت لأقابل جريتا وأخاها جان الذى ابتدرنى قائلا : إننا نأسف كثيراً لما حدث اليوم ، فسلوك فردريك معاك كان خشناً ، ولعلك تلتمس له العذر بعد أن قصت عليك جريتا جانباً من قصة والده مع السود . أضف إلى هذا أن فردريك شديد الغيرة على جريتا ، وقد اشتعلت غيرته عليها حين رآها تتلطف معك فى الحديث ، وتنادى بأنها تؤمن بأفكارك فيما يتعلق بمسألة التفرقة العنصرية ؛ على كل حال أرجو ألا يكون فى نفسك من هذا الموضوع شيء وإننى أدعوك أنا وجريتا إلى حجرتنا لنتناول العشاء معاً ، ولن يكون معنا فردريك لأنه انتقل إلى فندق آخر هذا الصباح . وأومأت جريتا بعينيها لى لتؤكد دعوة أخيها بالحضور فوعدتهما بتلبية رغبتهما . وتوطدت العلاقة بينى وبين جريتا وخرجنا معاً فى نزهات كثيرة إلى الخلاء ، كنت فى كل مرة أكتشف فيها شيئاً جديداً ، وكانت الرحلة تنتهى دون أن يقول كل منا للآخر كل ما يريد ، وفى إحدى

المرات أخبرتنى جريتا بأن فردريك قد فسخ خطبته لها . وحين فكرت فى الزواج بها تذكرت هذا التعهد الكتابى الذى أخذته على نفسى أمام الحكومة . وحين دعتنى إلى الخروج معها فى إحدى الأمسيات . وتوغلنا قليلاً فى الطريق الطويل الهادئ سمعنا صوت بوق يتردد صداه فى الأفق من حولنا . وسرعان ما شعرنا بسيارة تقترب منا . ولم تمض ثانية واحدة حتى ندت عن جريتا صرخة مدوية أفقدتنى وعيى . ولما أفقت وجدت نفسى راقداً فى سرير باحدى المستشفيات وحين سألت عن جريتا أخبرت بأنها قد ماتت . فأحسست بالسرير يهتز من تحتى وتلبدت الحجرة بسحب كثيفة لم أستطع أن أرى حتى من كان حولى ، وصحت فى وجه رجال البوليس الذين وفدوا إلى المستشفى لأخذ سؤالى إنه فردريك الشاب الجبان الذى دفعته الغيرة والحقد إلى اقتلاع هذه الزهرة اليانعة من جذورها . إلا أنى عرفت فيما بعد أن فردريك قد استطاع أن يثبت لرجال البوليس أنه كان فى لندن وقت وقوع الحادث . ولكننى ظللت متأكداً من أن دماء جريتا تلوث يد فردريك وتدينها بالجريمة البشعة . وفى أحد الأيام جاءنى صديقى صمويل بعد أن بحث عنى كثيراً ، وبكى كالطفل الصغير حين رآنى على هذه الصورة ، غير أنى لم أستطع أن أخبره بأمر جريتا ...

.. وانتهت فترة إقامتى بالمستشفى ففكرت فى الذهاب إلى ليفربول .. المدينة الكبيرة التى يمكن أن أنسى فيها بعض ذكرياتى الأليمة ، وكان صمويل قد تحول عن دراسة الطب إلى دراسة القانون بينما كنت مصراً على دراسة الأدب الإنجليزى . وعرض على صمويل أن نعيش معاً فى مسكن واحد فرحبت بالفكرة وفى نيوكاسل كنا نجتمع كل ليلة بعد الانتهاء من واجباتنا الجامعية لنستعرض مشكلات بلادنا السياسية ، وندرس ما يمكن أن يؤدى بنا إلى الحصول على الحكم الذاتى الحقيقى ، وعزمنا على قراءة كل ما يتصل بقضية الحرية فى غرب إفريقية ، ثم وقعنا تعهداً كتابياً بالعمل على تحقيق الاستقلال لبلادنا ، ولقد ظلت هذه الوثيقة معى ، كذخيرة غالية أعتز بها فى حياتى . وعدت إلى وطنى الحبيب بعد أن حصلت على درجة البكالوريوس فى الأدب الانجليزى من جامعة لندن بتفوق ، وكنت قد قضيت خمس سنوات كاملة بعيداً عن وطنى وأهلى ، وحين عدت بعد هذه الفترة وجدت شعبى يغلى كالمرجل وقد تبدلت أحواله عما كانت عليه من قبل ، وجلست أفكر فى حيرة واضطراب ... هل أوافق على هذا التطور الذى يتسم بطابع المادية الغربية وحضارة أوروبا .. أم أظل مخلصاً لتقاليد إفريقية وأجدادى الأولين ... وكنت قد عزمت على أن أنسى كل ما يتعلق بجنوب إفريقية وأن أسدل ستاراً على أخبارها ، غير إنى وجدت عينى تتركز على عنوان ضخم فى إحدى الصحف البريطانية ، فوجدتنى أنجذب بقوة مغناطيسية لقراءة هذا الموضوع الهام الذى يتعلق بموقف حكومة جنوب إفريقية من الملونين ، فقد عزلت الحكومة أصوات الملونين عن الانتخابات العامة ، ولقد أحسست بثورة عارمة تجتاح كل كيانى لهذا الظلم الذى يقع على جماعة من أبناء جنسى ، وعندما قرأت تعليق رئيس تحرير هذه المجلة الإنجليزية أعجبنى قوله : إن حكومة جنوب إفريقية تحاول اليوم أن ترجع عقارب الساعة إلى الوراء ، ثم قلبت صفحات هذه المجلة ؛ فوجدت فيها صورة لعدد من رجال البوليس البيض فى إحدى مدن جنوب إفريقية يرغمون السود على الانتقال من منازلهم

ورأيت أحد ضباطهم يحمل امرأة إفريقية تحتج على هذه المعاملة ، ويحاول وضعها فى إحدى عربات اللورى ، وكان يحملها كما لو كانت حيواناً ، وقرأت تحت هذه الصورة العبارة التالية : «ما هو نوع المستقبل الذى تنتظره هذه المرأة ؟ ! ! وشعرت بأن سحابة كثيفة تحجب الضوء عن عينى وصعد الدم إلى رأسى فأشعلت لفافة تبغ واتجهت إلى شرفتى أفكر ماذا أفعل ؟ وفكرت فى أن أكتب إلى صمويل أعرض عليه بعض المقترحات التى اتخذت بشأنها قراراً نهائياً ، لقد قررت أن أكرس حياتى وجهودى للعمل داخل ميدان السياسة فى ساجريسيا أولا ، ثم فى إفريقية كلها بعد ذلك ، وفكرت طويلا فى الطريقة التى أنفذ بها مشاريعى وأفكارى . . هل ألجأ إلى وسيلة العنف والتدمير أم ألجأ إلى سياسة البناء والسلام ، وأخيراً قررت أن تكون سياستى سياسة بناءة ، قررت أن أعطى لكل طفل إفريقى فرصة يؤكد فيها وجوده ، وأن أمحو خرافة سمو الجنس الأبيض على الجنس الأسود ، وأصبح شعارى فى الحياة هو إنكار الذات ، والتضحية من أجل الآخرين

وكان أكبر هدف يجب أن أعمل على تحقيقه : هو أن أستعيض عن التعاليم التى أتى بها الغرب إلى بلادنا بنظام الإسلام الذى وفد إلينا من الشرق . وكان الصراع عنيفاً . وخلوت إلى نفسى أكتب إلى صمويل أستحثه على الحضور فوراً إلى ساجريسيا لإنشاء حزب سياسى ينظم حركتنا وكفاحنا . وكان معنى هذا أننا قد وضعنا أقدامنا على الطريق الطويل الملىء بالأشواك . ففكرت فى الزواج قبل أن نستأنف كفاحنا الحقيقى . وذهبت إلى قريتى أطلب من والدى أن يبحثا لى عن زوجة مناسبة فى لوكو ، وكم كانت دهشتهما عظيمة ! إذ أن من الغريب أن يتمسك شاب إفريقى تعلم فى أوروبا بتقاليد بلاده القديمة — مثلما فعلت — فقد كان المعروف أن يتزوج من هم مثلى ، ممن تلقوا دراساتهم فى أوروبا بأجنبيات ، ولكنى أردت أن أضع فرملة لسلطان العادات الأوروبية على الشباب الإفريقى ثم عكفت بعد ذلك على دراسة كل ما يتعلق بإفريقية ، واختلطت بالناس فى كل مكان ، وارتديت الملابس الإفريقية الفضفاضة فى كل رحلاتى ، ولم أكن أتحدث باللغة الإنجليزية إلا عند ما يكون الأمر ضرورياً لذلك ، وأخيراً تلقيت الرد من صمويل بالموافقة على كل ما اقترحته عليه ووعدنى بالحضور فوراً ، وفى الذى حدده للوصول ذهبت لاستقباله ، فوجدت فى وجهه مظاهر التحمس والتصميم . وبدأنا العمل بعد ذلك بعد أن وضعنا شعارتنا :

(الاتحاد فوراً . والحكم الذاتى خلال خمس سنوات) وأخذنا نصدر النشرات التى نشرح فيها سياستنا وأعلنا عن تأسيس حزبنا الجديد وظللنا نجتمع كل يوم ونظمنا القيام بحملات دعاية لأهداف الحزب . فانضم إلينا عدد كبير من أبناء سونجهاى ، وأدركت الحكومة مدى خطورة هذه الحركة فألقت القبض على صمويل ، وأصدرت حكمها عليه بالسجن سنتين ، ولم أكن أتوقع أن ينتشر الخبر بهذه السرعة ، فقد وفد إلى السجن مئات من أبنـــاء

سونجهاى ، من مختلف القرى والدساكر لزيارة صمويل . وشعرت الحكومة بأنها قد أخطأت ، لأن سجن الزعماء المحبوبين أمر يسىء إليها أكثر مما يساعد على استتباب النظام . وفكر أعضاء الحزب فى إجراء انتخابات عامة لاختيار زعيم الحزب وقائده . وحين ظهرت النتيجة كانت بالطبع فى صالحى فتقدم منى « كاى كاى » ودس فى يدى برقية كان عليها توقيع صمويل كتبها فى زنزانته . وبعث بها إلى كاى ليسلمها إلى فيما لو نجحت فى الانتخاب وكانت هذه البرقية تتضمن أحر تهانٍ من أعز صديق ، وتأكيده لى بأن أظل وفياً ومخلصاً لمبادئنا . وبدأت بمعاونة بعض زملائى فى الحزب أضع الدستور الذى يحدد أهدافنا . وكنت قد تلقيت رسالة من بعض الزعماء السياسيين الآخرين . . رسالة يطلبون إلى فيها تحديد وقت ، ومكان للاجتماع بهم لمحاولة إدماج حزبى فى أحزابهم ، فرفضت هذه الفكرة من أساسها ، لأن هؤلاء الزعماء بعد أن بدأوا بداية طيبة تبشر بخير للوطن لم يلبثوا أن تخلوا عن مبادئهم وقنعوا بالوظائف التى منحتها إياهم حكومة المستعمرين ، بل أغراهم المال عن التفكير فى مستقبل البلاد ، ثم خرج صمويل من السجن وبدأنا كفاحاً حقيقياً فى سبيل تحقيق الأهداف التى تعهدنا بها أمام الشعب وفى أثناء إحدى الاجتماعات مع بعض الأحزاب الأخرى تلقينا رسالة مطولة من إخواننا السود فى جنوب إفريقية جاء فيها :

« هذه صرخة نبعث بها من ماسيدوينا ، إنكم يا أبناء سونجهاى ، لا تجهلون كيف يعمل البيض على انتهاك حرمات الدستور ، والقانون فى جنوب إفريقية حتى يظل السود عبيداً وأرقاء فى بلادهم ، ولقد ظللنا نكافح بكل الوسائل الدستورية ، ولكننا لم ننجح ، إنكم داخل مناطقكم فى غرب إفريقية تتمتعون بحكم أنفسكم . ولذلك نهيب بكم ، ونحن أبناء عمومتكم وخؤولتكم أن تذكروا أنه لم تكن ، قبل مجىء الرجل الأبيض إلى بلادنا ، حدود سياسية بين بلدنا وبلدكم ، بل لقد كانت هناك روابط عديدة من الدم ، والفكر ، والشعور المشترك ، وإذا لم تستمعوا جيداً إلى صرخاتنا ، فإنه لن توجد دولة أخرى على ظهر الأرض سوف تنصت إلى نداءاتنا ، وسنفقد جميعاً ؛ الأمل فى الحياة الحرة الكريمة ، إن كل ما نرجوه منكم فى هذه اللحظة : هو أن تمدونا بالمال حتى نستطيع أن ننجح فى حملاتنا ضد البيض ، وستكون هذه المساعدة المالية قرضاً نسدده لكم فى يوم من الأيام ، ونأمل أن تصبح بلادنا — كما قال الله — وطناً لنا جميعاً ، نحن أطفاله »

وتداولت الأيدى هذه الرسالة . كل يقرأها فى صمت وتأثر ، وقفزت إلى ذهنى فى هذه اللحظة صورة لمصانع البيض ومزارعهم فى أوغندة . وتنجانيقا ، ويوغنده . وقد أصابها الخراب بسبب مقاطعة السود لها ، وحين سألت نفسى لماذا لا يقوم إخواننا الإفريقيون فى جنوب إفريقية بمثل هذه الحركة ، تذكرت أن هذه الخطوة تتطلب شيئاً من التنظيم والمال ، وهما أمران لا أستطيع أن أطالب بهما السود فى جنوب إفريقية . ثم سرحت بخاطرى أسائل نفسى ألسنا نطالب

بتحقيق القومية الإفريقية ؟ أليس من أهم أهدافى . وأهداف الحزب الذى أتولى قيادته ، أن نعمل على عقد مؤتمر لكل شعوب إفريقية لنضع أسس الولايات الإفريقية المتحدة ؟ ولا أستطيع أن أنكر أننى فى هذه اللحظة قد تذكرت فردريك خطيب جريتا فصرخت فى الموجودين : يجب أن نلبى رغبة إخواننا فى جنوب إفريقية ، وانصرفت على أن أدبر الأمر وأذهب بنفسى إلى قيادة حركة المقاومة ضد البيض فى الجنوب ، فذهبت فى اليوم التالى إلى قريتى « اوكو » لأودع الأهل وأطلب دعوات والدى . وعند ما أظلم الليل وأشع القمر فى ليلة اكتماله بأضوائه الفضية الزاهية . تسللت إلى الطريق الذى يقودنى إلى منطقة الجنوب . وعند ما وصلت إلى هناك — بعد سلسلة من المغامرات الخطيرة الجريئة — فكرت أولا ، فى أن ألتقى بفردريك لأنتقم منه لجريتا التى قتلها لأنها كانت تعطف على السود . وتحارب فكرة التفرقة وكنت أعتقد بأن هذه الخطوة تعتبر جزءاً من رسالتى فى جنوب إفريقية . وظللت أبحث عنه حتى عرفت بأنه يتردد على إحدى النوادى . ووجدت أن أسلم طريقة لاقتناصه . هى أن أعمل فراشاً فى هذا النادى ، وبذلك تتاح لى الفرصة لتنفيذ ما عزمت عليه . وحين كنت أقدم كؤوس الويسكى لفردريك . باعتباره أحد أعضاء النادى ، صرخ فى وجه سكرتير النادى ألم أقل لك : إننى أكره هؤلاء السود ولا أحب أن أرى واحداً منهم يعمل هنا ، وهنا رثيت لهذا المسكين الذى تجرد من كل إحساس بالإنسانية وتابعته بعد أن خرج ثملا لا يدرى إلى أين يسير . وكانت الليلة شديدة البرد . والأمطار تهطل بغزارة وقوة ، فسرت وراءه وفى منتصف الطريق كانت الخمر قد لعبت برأسه فاصطدم بحجر كبير كان يعترض طريقه ووقع مغشياً عليه . وكادت الأمطار أن تدفنه تحت سيولها المنهمرة وتتولى هى عملية الانتقام بدلا منى . وفى هذه اللحظة توقفت . كتمثال لا روح فيه . يتصارع فى أعماقى عاملان : عامل الانتقام والقضاء على هذا الوغد الذى قتل جريتا . والذى لا يفتأ يردد لعناته على كل من هو أسود . وعامل الرحمة التى تملأ قلوبنا نحن الإفريقيين . والإحساس بكرامة الإنسان من حيث هو إنسان . وأخيراً وجدتنى أنحنى على هذه الجثة وأحملها بين يدى وسرت بها حتى وصلت إلى المنزل الذى يقيم فيه فألقيته هناك ، وعدت لأن الشيطان لم ينتصر على إرادة الخير عندى وقلت لنفسى : لو يعلم الناس أننا جميعاً أبناء الله وأن التفرقة التى يصطنعونها لخلق حواجز واهية . ليست إلا نزوة الإنسان عند ما يسيطر عليه الشيطان ويتمكن منه ، لو يعلم الناس ذلك لعاشوا فى سلام وحب وأمان.

KENYA MY LAND

Oh when?
Sitting under the Kenya wild
mango-tree
On the green bank of Tana
River
When shall I count the ripe
mangoes?
When shall I see the nimble
squirrel at play ?
Oh when?
While plucking green wild tree
leaves
And turning old memories in
my mind
When shall I let fall a tear
In the streams of the areca
grove
When? Oh when?
Oh Kenya! when shall I enter
your arms?
When shall I play with your
waves?
When shall I feel the soft foam
of your lakes
And the cold snows of your
mountains?
On my dark body
When? Oh when?
Your wounds do burn like fire
Your sorrow dance never like
smoke
Oh Kenya !
When shall I gather in the
basket of my heart
Your carnation-like tears?
When? Oh when?
Uneasy are your inhabitants
Your Land is preciously-rich
When I shall cover your life
With my sky-like love ?
When? Oh when?
The dark days are no more
The white-man's dreams
to make you his is
A matter of the past
The day of freedom in Africa
is breaking
The sun of the Revolution is
ablaze
Oh Kenya !
When shall an African shine
like a red ruby
On your gone battle-field?
When? Oh when?!

NAHDAT IFRIQUIAH

The magazine aims at :

1. Promotion of African National consciousness.
2. Acquaintance among Africans in various regions and environments.
3. Publication of private and public treatises of interest to Africans whatever their pursuits.

The subscribers have the right:

1. To receive regularly the magazine and the pamphlets which are occasionally issued at a reduced price.
2. To make use of the services rendered by the magazine Executive committee, as far as possible.

- Nahdatu Ifriquiah welcomes any proposals, ideas and criticism promising to do its best to carry them out.
- It is not necessary that the articles published should always represent the magazine's attitude.

Correspond with :

Chief editor of Nahdatu Ifriquiah magazine.
5, Ahmed Hishmat Street,
Zamalik, Cairo.
The Egyptian Region,
United Arab Republic.
Phone : 807658.

Subscriptions should be sent to:
Dar Akhbar El Yom for distribution.
7, Sharia El Sahafa, Cairo.
(30 piastres a year) :
for Egypt and Sudan.
3 piastres for every copy.

Nahdatu Ifriquiah
A monthly Magazine
for
African Culture

Editor in Chief
M. ABD EL AZIZ ISHAK

« إفريقية . . والثورة »

Forth Year

Issue No. 41 March 1961

Nahdatu IFRIQUIAH

PRICE., P.T. 3.

96 pages

IN THIS ISSUE

- The Congo between the two Horns of the Dilemma.
- Patterns of Racial Discrimination.
- Some Geographical Explorations.
- Personality of the Month.
- Book Analysis.

السنة الرابعة | العدد ٤٢ | أبريل ١٩٦١

نهضة أفريقية

فى هذا العدد

- ندوة القاهرة للشعوب الأفريقية
- حسن الجوار والتفرقة العنصرية
- الأسباب الحقيقية للتفرقة العنصرية
- نقد الكتب
- كتاب الشهر

٩٦ صفحة

الثمن ٣ قروش

« وجه من مالى »

نهضة إفريقية

تهدف هذه المجلة إلى :

١ – تنمية الوعى القومى الافريقى .

٢ – التعارف بين الافريقيين فى مختلف بيئاتهم وحياتهم الاقليمية .

٣ – نشر البحوث الخاصة والعامة التى تهم كل إفريقى فى مجاله الحيوى .

وللمشتركين الحق فى :

١ – الحصول على المجلة بانتظام وكذلك المطبوعات التى تصدرها المجلة بين وقت وآخر بثمن مخفض .

٢ – الافادة من خدمة لجنة الاتصال بالمجلة بقدر الامكان .

● ترحب « مجلة نهضة افريقية » بالمقترحات ، والآراء ، والنقد ، وتعمل على تحقيقها .

● ليس من الضرورى أن تكون المقالات التى تنشر فى هذه المجلة معبرة عن رأيها .

ترسل المراسلات باسم :

السيد رئيس تحرير مجلة نهضة إفريقية
٥ شارع أحمد حشمت – الزمالك بالقاهرة
تليفون المجلة ٨٠٧٦٥٨
الاقليم المصرى
بالجمهورية العربية المتحدة

ترسل قيمة الاشتراك فى المجلة إلى :

دار أخبار اليوم للتوزيع
٧ شارع الصحافة بالقاهرة

الاشتراك سنوياً :

لمصر والسودان ٣٠ قرشاً

ثمن العدد ٣ قروش

مطابع كوستا تسوماس وشركاه

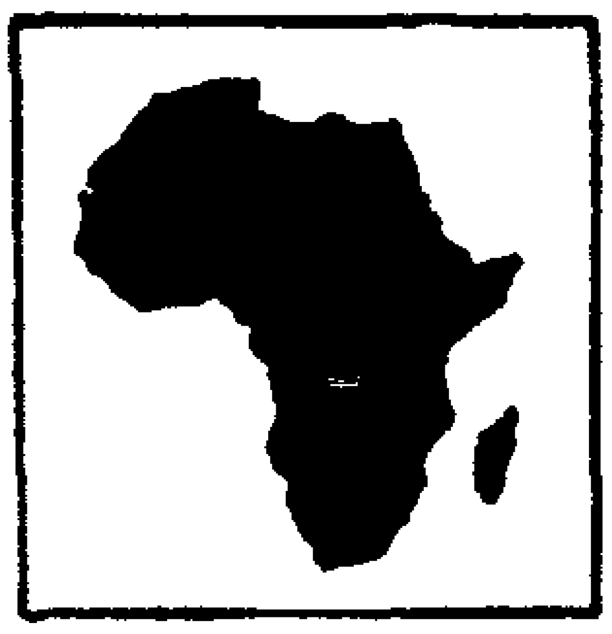

العدد ٤٢ ابريل ١٩٦١

نهضة افريقيه
مجلة شهرية للثقافة الأفريقية

رئيس التحرير
محمد عبد العزيز اسحق

فكرة ..

— ١ —

تعتبر قرارات المؤتمر الثالث للشعوب الإفريقية نصراً جديداً للقارة ، فهى فى جوهرها نداء قوى بالتحرر والوحدة ، وفى الوقت نفسه إيمان بأن هؤلاء المكافحين لا يعملون فى (فراغ) حين يعودون إلى بلادهم . . ذلك لأن المؤتمر ما زال منعقداً بكل قواه فى كل وطن إفريقى ، ومن هنا فقد بقى على هؤلاء القادة الذين حضروا المؤتمر أن يفجروا فى بلادهم الطاقة التى شحنوا بها فى القاهرة ؛ فوراء كل واحد منهم القوة الحقيقية لإفريقية !

— ٢ —

شاهدنا فى المؤتمر (أعلاماً بيضـاء) ، ومعناها أن هذه الدول ما زالت تعتبر مزارع خاصة بالبيض ، وحقاً لقد كان منظرها مؤثراً ، ولكن من عاش أمجاد المؤتمر أحس أنه سيرى أعلاماً حقيقية فى المؤتمر الرابع . . أعلاماً حقيقية لرواندا أورندى ، روديسيا الجنوبية ، ساحل العاج ، باستولاند ، انجولا ، جنوب غرب إفريقية ، سيراليون . .

— ٣ —

نسمع دائماً عن المناجم التى تنهار على الإفريقيين فى جنوب إفريقية ، والذى نرجوه أن تتحد كل القوى الوطنية الموجودة هناك ، وتجرى فى مجرى واحد ، وإذا كان لا بد أن ينهار هناك منجم ، فليكن هذا المنجم الذى يضعون فيه خلافاتهم ، فبهذا وحده يتحدد انتصارهم !

« عبده بدوى »

فهرس العـدد

صفحة

ندوة القاهرة للشعوب الإفريقية
للأستاذ محمد عبدالعزيز اسحق ٣

حسن الجوار والتفرقة العنصرية
للدكتور عبد العزيز كامل ٧

الأسباب الحقيقية للتفرقة العنصرية
للأستاذ محمد مراد السبطاسى ١٧

أسلحة فى ميدان التفرقة العنصرية ٢٢

نقد الكتب :
للأستاذ عبده بدوى ٢٧

الشعر الإفريقى فى اللغة البرتغالية
للأستاذ فوزى سليمان ٣٥

جولة مصورة حول إفريقية ٤٤

فرنسا وحرب الجزائر ٥٢

ضوء على كتاب ٥٩

من وحى إفريقية
للشاعرة نويمًا دى سوسا ٦٥

كلمات وصور ٦٨

من القصص السودانى
للاستاذ عباس خضر ٧٧

كتاب الشهر
للعميد (ا . ح) محمد عبد الفتاح ابراهيم ٨٠

ندوة القاهرة للشعوب الإفريقية

بقلم : الأستاذ محمد عبد العزيز إسحق

عاد ممثلو الشعوب الإفريقية ، للاجتماع للمرة الثالثة فى مدينة القاهرة فى الربع الأخير من شهر مارس عام ١٩٦١ ، وكان اجتماعهم الأول فى « أكرا » فى ديسمبر من عام ١٩٥٨ ، واجتماعهم الثانى فى تونس (يناير ١٩٦٠) ، وكان المنتظر أن يحدث اجتماع هذا العام فى يناير أيضاً اولا انشغال كثير من زعماء شرق إفريقية فى الانتخابات التى جرت فى بلادهم لتكوين أول « مجالس تشريعية » فى تمهيد الـ « برلمانات » تجيء مع الاستقلال التام .

وعند ما فرغ هؤلاء الزعماء من حملاتهم الانتخابية (فى كينيا وأوغندا وزنجبار) توافدوا هم وزملاؤهم فى الكفاح من باقى أنحاء القارة إلى القاهرة لحضور هذه « الندوة » التى هى أشبه « باجتماع عائلى » منها « بمؤتمر دولى » .

إن الطابع الإنسانى والعاطفى هو الذى يميز هذه المؤتمرات الشعبية الإفريقية ، فإن أعضاءها — فى الغالب — قادة مكافحون لا يملكون من القوة المادية أو العسكرية ما يقارن بما يملكه أعداؤهم من رجال الاستعمار ولكنهم يملكون « الطاقة » الشعورية والأخلاقية التى يبثونها فى شعوبها فإذا هى الشعوب أنهار متدفقة أو ألسنة من اللهيب المشتعلة التى تتراجع أمامها الجيوش النظامية وتضطر الإمبراطوريات الكبيرة أن تداورها وتحاورها وتطلب مهادنتها والتفاهم معها .

وهكذا تدافعت إلى القاهوة وجوه تتراوح ظلالها السمراء . والتقى القادمون من « سيراليون » و « غامبيا » و « السنغال » بقادة التحركات التحررية فى « روديسيا » و « كينيا » ، و « باسوتولاند » واستطاعت مجموعات من الشباب الإفريقى المناضل أن تشق طريقها عبر سياج الاستعمار فى أنجولا وموزمبيق وغينيا البرتغالية وأن تنضم إلى ركب التحرر فى القاهرة .

وفى يوم السبت ٢٥ مارس تجمع ركب التحرر فى قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة ، ومن حولهم — على الجدران العالية — أعلام الدول الإفريقية التى حطمت أغلال الاستعمار وأعلام الشعوب التى تخوض المعركة

الآن ، وصور الشهداء الذين قدّموا أرواحهم فداء الحرية والوحدة الإفريقية باتريس لومومبا ، فليكس مومى ، جون كاليه ، ومحمود حربى .

وفى مقاعد النظارة تجمع الألوف من شباب القاهرة والرابطة الإفريقية ، فتياناً وفتيات ، وقد انطلقت حناجرهم هاتفة بحياة الحرية وسقوط الطغيان وتمجيد الشهداء .

وفى اللحظة الموقوتة تقدم إلى المنصة زعيم إفريقى يعرفه العالم أجمع ، يعرفه منذ أن وقف — ومن ورائه الشعوب الإفريقية — عام ١٩٥٦ — فى وجه غارات الاستعمار المدمرة على بور سعيد ، ولم يكتف بأن رد المعتدين وألقى بهم إلى البحر ، وإنما صفق باب القارة الشمالى نهائياً فى وجه الاستعمار الغربى وأذنابه من الإسرائيليين

تقدم جمال عبد الناصر فتحدث إلى القادة الإفريقيين حديث الأخ الأكبر المجرب الخبير . سجل أمامهم ما أحرزته الحركات الوطنية من انتصارات وأبان عن أسبابها ، وصارحهم بما تعرضت له من نكسات — وخاصة فى الكونغو — وأفصح عن عوامل الضعف ، وصور نهج المستقبل وبث الآمال فى النفوس والحماس فى القلوب

وفى الصباح من اليوم التالى ، تجمعت الوفود فى مبنى « مجلس الأمة » وانعقدت ندوة عامة أخذت تصغى يومين كاملين لرؤساء الوفود الذين تتابعوا على منصة الخطابة وأخذ كل منهم يعرض على مسامع « العائلة الكبرى » ما قطعته بلاده من مراحل الجهاد الوطنى وما اعترض سبيلها من صعاب .

ثم انقسم المؤتمر — كالعادة — إلى لجان اقتسمت فيما بينها دراسة المشاكل السياسية والاقتصادية والثقافية وأخذت كل لجنة تبحث ما وكل إليها من نقاط ، وتقترح ما تراه من توصيات ، وعرضت الحصيلة كلها فى النهاية على لجنة « رؤساء الوفود » التى اتفقت فى النهاية على ما أذيع من قرارات .

كان من أهم ما عرض له المؤتمر مشكلة « الاستعمار الجديد » وهو الذى حدد معالمه فى القرار الأول بأنه « استمرار النظام الاستعمارى بالرغم من الاعتراف رسمياً بالاستقلال السياسى فى البلاد الناشئة » .

ووصفه بأنه « نوع غير مباشر من السيطرة السياسية والاقتصادية أو الاجتماعية أو العسكرية أو الفنية » وبأنه « أعظم خطر يهدد البلاد الإفريقية التى نالت استقلالها حديثاً أو التى توشك أن تحصل عليه » .

وجاء فى ديباجة القرار الأول « حين يصبح الاعتراف بالاستقلال القومى شيئاً لا مفر منه ، ويحاول الاستعمار أن يجرد هذا الاستقلال من روحه ، وذلك عن طريق فرض

اتفاقيات اقتصادية وعسكرية وفنية ، غير متكافئة . أو إقامة حكومات من الأذناب بعد إجراء انتخابات مزيفة ، أو عن طريق ابتكار قواعد دستورية مزعومة ترمى إلى تغطية المستوطنين الذين يؤيدون التفرقة العنصرية » ...

« وحينما تبدو هذه الوسائل غير كافية لعرقلة الحركة الشعبية للتحرر يحاول الاستعمار ، بوسائله الخاصة ، أو عن طريق تدخل الأمم المتحدة تقسيم (بلقنة) الدول الحديثة الاستقلال ، أو تفرقة القوى السياسية والنقابية المناضلة ؛ وفى الحالات اليائسة — مثل الكونغو — يذهب الاستعمار إلى حد استخدام المؤامرات بوساطة الجيش والبوليس ، بل يلجأ إلى القتل المتعمد .

ولعل أهم ما تضمنه هذا القرار هو ذكر الدول التى يعتبرها مصدر « الاستعمار الجديد » وهى :

الولايات المتحدة الأمريكية ، وألمانيا الاتحادية ، وإسرائيل وبلجيكا وبريطانيا وفرنسا وهولندا واتحاد جنوب إفريقية .

وبعد أن أوضح المؤتمر معالم الخطر الخارجى المتمثل فى « الاستعمار الجديد» ودعا إلى مناهضته بالوسائل الفعالة ، وعلى رأسها عدم الاعتراف بـ « حكومات الأذناب » وبعد أن استنكر موقف بعض الدول الإفريقية المستقلة ، التى تتخذ — تحت ستار الحياد — مواقف سلبية تخدم الاستعمار بسلبيتها ، انتقل إلى مسألة « التكوين الإفريقى والقضاء على بقايا الاستعمار » . وبسط وسائل السيطرة الاستعمارية التى عاقت النمو الطبيعى للدول الإفريقية ، وكان من نتيجتها أن أصبح الإفريقى ضحية للاضطهاد والاستغلال والنهب . ودعا المؤتمر إلى القضاء على « بقايا الاستعمار » بإعادة تنظيم الإدارة والاقتصاد ، والتشريع ، والمنظمات ، الاجتماعية ، وبإدخال « الإصلاح الزراعى » وإيجاد عملة وبنوك قومية ، وبإنشاء خطوط مواصلات تساعد على التعاون المثمر ، وبالقضاء على المناهج الدراسية التى تشوه التاريخ الإفريقى وتترك لدى الشباب شعوراً بالنقص .

وإذا ما اطمأن المؤتمر إلى تخطيط « إعادة التكوين الداخلى » ، تلفت إلى « الوحدة الإفريقية » ونظر إليها من زوايا السياسة ، والاقتصاد ، والثقافة ، ودعا إلى إنشاء « مجلس استشارى إفريقى » يتكون من ممثلى برلمانات الدول المستقلة ، وتكون له سكرتيرية دائمة تعقد جلسات دورية لوضع سياسة مشتركة تنسج الدول الإفريقية على منوالها .

وأوصى كذلك بإنشاء « مجلس للدول الإفريقية » تعهد إلية دراسة وتنفيذ توصيات المجلس الاستشارى ، وبتكوين لجنة من الخبراء الإفريقيين لوضع سياسة اقتصادية إفريقية مشتركة ولجنة من القادة العسكريين (الإفريقيين)

يعهد إليها دراسة وتنظيم دفاع إفريقى مشترك ، ولجنة ثقافية يعهد إليها وضع سياسة إفريقية لشئون التعليم والتبادل الثقافى .

وفيما يختص بموضوع « تحرير الشعوب غير المستقلة » أوصى المؤتمر بخطوات عملية فعالة لتحقيق هذا الهدف ، أهمها إنشاء « صندوق لتحرير إفريقية » . ومساهمة الدول الإفريقية المستقلة فيه مساهمة اختيارية .

كما أوصى بإنشاء محطة إذاعة ، تسمى « محطة إفريقية الحرة » وأن توضع هذه المحطة تحت إشراف مؤتمر الشعوب وأن تكون فى بلد إفريقى مستقل يسمح له موقعه الاستراتيجى بأن يقود حملة فعالة لمساعدة المناضلين الإفريقيين من أجل الحرية .

وأعلن المؤتمر تضامن الحركة التحررية الإفريقية مع « جميع قوات الحرية والتحرر فى العالم » . كما طالب المجاهدين الإفريقيين أن يناضلوا «بكافة وسائل العنف وعدم العنف — ليحققوا سريعاً تصفية الإمبريالية والاستعمار فى القارة الإفريقية .

وكان من أهم ما عرض له المؤتمر اتخاذ موقف صريح وواضح إزاء « الأمم المتحدة » فى ضوء تدخلها لتسوية المشاكل الإفريقية .

فعرض أولا لـ « ميثاق الأمم المتحدة » وقرر أن تزايد عدد الدول الإفريقية المستقلة ، من جهة ، وتزايد أهمية إفريقية فى الشئون العالمية ، من جهة أخرى ، يتطلب مراجعة ميثاق الأمم المتحدة « حتى يكون لقارتنا التمثيل الملائم فى مجلس الأمن والهيئات الأخرى التابعة للأمم المتحدة .

واستطرد قرار المؤتمر بشأن الأمم المتحدة يقول : « ونظراً لأن ما قامت به الأمم المتحدة فى الكونجو قد كشف بوضوح عن عجز تكوينها الحالى عن تنفيذ قرارات مجلس الأمن وعن خضوعه للقوى الاستعمارية .

ونظراً لأن الأمم المتحدة قد أصبحت بذلك أداة للاستعمار الجديد الذى تدخل الدول الاستعمارية — فى ثيابه — مرة أخرى إلى البلاد المستقلة .

يدعو المؤتمر الدول الإفريقية المستقلة والبلاد الأخرى المحبة للسلام أن تطالب بإعادة تنظيم السكرتيرية العامة ومراجعة ميثاق الأمم المتحدة حتى يتفق مع الموقف العالمى الراهن »

وانتقل المؤتمر بعد ذلك ، من العموميات إلى الخصوصيات ، فعرض للبلاد الإفريقية المناضلة واحدة بعد أخرى ، وعلى رأسها الجزائر والكونغو واقترح :عونها جميعاً دبلوماسياً وعسكرياً واقتصادياً ، كما أوصى بإعداد الفنيين والإداريين من أبناء تلك المناطق بحيث تكون كل منطقة قادرة على إدارة شئونها بنفسها فور حصولها على الاستقلال .

وانتهى المؤتمر ، وقد اكتسب كل عضو فيه « شحنة شعورية عارمة ، يعود بها إلى قومه فيلهب مشاعرهم ويدفع بهم إلى صفوف الكفاح والنضال

حسن الجوار والتفرقة العنصرية

للدكتور عبد العزيز كامل

شاربفيل ولانجا :

٢١ مارس من عام ١٩٦٠ يوم لا ينسى فى تاريخ الكفاح الإفريقى . ففى ذلك اليوم حدثت مأساة شاربفيل ولانجا فى اتحاد جنوب إفريقية وفيها سقط سبعون شهيداً من الإفريقيين صرعى الغدر والخيانة . وأصيب مئات بجراح ، وسارعت الحكومة بإعلان الأحكام العرفية واعتقلت ما يزيد عن ١٩٠٠ وتتابعت بعد هذا إجراءاتها التعسفية التى أثارت عليها الضمير العالمى ودفعت بقضية التفرقة العنصرية إلى المحافل الدولية وإلى الصفحات الأولى من الجرائد العالمية وتناقلت وكالات الأنباء الأحداث البشعة واستنكرت التفرقة البغيضة التى تمارسها حكومة جنوب إفريقية والتى حاولت أن تسدل عليها ستاراً براقاً جديداً ، فأعلن المسئولون فيها أنهم لا يمارسون تفرقة بين العناصر وإنما تقوم الحياة هناك على أساس من « حسن الجوار » بين العناصر والسلالات المتعددة .

و « حسن الجوار » هو الشعار الجديد الذى ترفعه حكومة فرفورد . وهو شعار لا يغير من الواقع الأليم الذى يحيا فية الإفريقيون فى الاتحاد .

ولعل من واجب الوفاء فى الذكرى الأولى لمأساة شاربفيل ولانجا أن نذكر أحداث ذلك اليوم وتعرض فيها وجهتى النظر الحكومية والإفريقية .

تصريحات المرور :

وقبل الدخول فى تفاصيل ما قالته الحكومة ، ينبغى أن نذكر أن يوم ٢١ مارس ١٩٦٠ كان اليوم الذى اختاره حزب مؤتمر الجامعة الإفريقية (حزب باك)[١] للتعبير تعبيراً سلمياً عن احتجاج الإفريقيين على « تصريحات المرور » . وأعلن « الباك » ذلك فى يوم ١٤ من فبراير ١٩٦٠ .

وفى ذلك اليوم (٢١ مارس ١٩٦٠) يترك الإفريقيون تصريحات المرور فى منازلهم ويذهبون إلى أقرب مركز للشرطة حيث يسلمون أنفسهم للسلطات المسئولة . وإذا ما قدمتهم الحكومة إلى المحاكمة كان عليهم أن يمتنعوا عن الإجابة عن السؤال

---

(١) Pan-Africanist Congress

التقليدى « مذنب أو غير مذنب ؟ » وألا يدفعوا أى كفالة مالية للإفراج عنهم ، كما طالبوا برفع الحد الأدنى للأجور .

وأعلن مستر سوبكوى زعيم « الباك » أن الاحتجاج ينبغى أن يأخذ صورة المقاومة السلبية الدقيقة دون لجوء إلى أى مظهر من مظاهر العنف . وطالب سوبكوى قوات البوليس بعدم الاعتداء على الإفريقيين . ولم يسهم حزب « المؤتمر الإفريقى الوطنى » (آنك)[1] فى هذه الحملة الإفريقية لأنه رآها غير محتملة النجاح .

ويستهدف حزب « الباك » القضاء على السيادة البيضاء وإعطاء الإفريقيين حق تقرير المصير وتكوين « ولايات متحدة إفريقية » تمتد من كيب تون فى أقصى الجنوب إلى القاهرة فى أقصى الشمال ، ومن شرق القارة إلى غربها . ويعتبر مستر سوبكوى ، الإفريقى « كل إنسان لا يدين بالولاء إلا لإفريقية ، ويكون على استعداد لتقبل الحكم الديموقراطى للأغلبيـــة الإفريقية » .

وترجع مشكلة تصريحات المرور إلى العهود الأولى من القرن التاسع عشر عند ما ابتدعها العقل الأوروبى المستعمر فى أقصى جنوب القارة ليتحكم فى تنقل الإفريقيين من مكان إلى آخر وليصون الأمن — كما يدعى — ولكن الهدف الأول لتصريحات المرور هو ضبط مجىء الإفريقيين إلى المدن من المعازل الإفريقية . والمعازل هى المواطن التى خصصها الأوروبيون للإفريقيين بعد أن انتزعوا منهم أجود أرضهم . وعلى هذه المعازل يحيا الإفريقيون حياة بائسة تحت ضغوط الفقر والمرض والحاجة إلى المال ، وتقسو الحكومة عليهم بالضرائب لتضطرهم إلى الهجرة إلى المدن ومواطن الصناعة والتعدين ليحصلوا على ما يمسك رمقهم ، ويساعدهم على دفع الضرائب المفروضة عليهم ، ولضبط هذه العملية ولتوزيع اليد العاملة الإفريقية بما يتفق مع أهداف الصناعة الأوروبية لجأت الأقليـــة البيضاء المسيطرة إلى نظام تصريحات المرور .

ومنذ عام ١٩٥٢ اتخذت حكومة الاتحاد نظاماً جديداً يقضى بجمع التصريحات المختلفة للفرد فى تصريح جامع واحد ينبغى على كل إفريقى يزيد عمره عن السادسة عشرة أن يحمله .. هذا التصريح الجامع نجد فيه عدة تصريحات : منها تصريح الإقامة ، وشهادة من المستخدم الأوروبى الذى يعمل عنده الإفريقى ، وهذه الشهادة ينبغى أن يوقعها صاحب العمل الأوروبى كل شهر ، ونجد فى التصريح إيصالا بتسديد الضريبة المفروضة على الإفريقى ، وتصريحا بالتنقل فى أثناء

---

(١) African National Congress

الليل . . . ولا يعطى تصريح الإقامة للإفريقى إلا إذا عاش فى المنطقة منذ ولادته وعمل عند أوروبى واحد مدة لا تقل عن عشر سنوات أو أن يكون عاش فى المنطقة – وفق القانون – مدة خمسة عشر عاماً ، وإلا فعليه أن يحصل على تصريح خاص لمدة اثنتين وسبعين ساعة يبحث فى أثنائها عن العمل وعند حصوله على العمل واتفاقه مع أحد البيض عليه أن يستصدر تصريحاً آخر .

ومن الجرم ألا يبرز الإفريقى تصريحه إذا طلب منه ذلك أو كان تصريحه الجامع غير مستوف للتصريحات المتعددة فيه ، وفى اتحاد جنوب إفريقية يمكن أن نقسم نشاط البوليس إلى قسمين متساويين أحدهما تستغرقه ، مشكلة تصريحات المرور ، ويقدر عدد الإفريقيين الذين يحاكمون سنوياً من أجل هذه المشكلة بنحو نصف مليون إفريقى .

واحتجاج الإفريقيين على تصريحات المرور لا ينقطع . وتاريخ جنوب إفريقية يسجل الكثير من حركات المقاومة السلبية ومن أبرزها ما حدث فى أعوام ١٩١٠ ، ١٩١٩ ، ١٩٣١ ، ١٩٤٦ ، ١٩٥٢ ، فى كل هذه الدورات كان الإفريقيون يعمدون إلى وسائل متعددة من المقاومة السلبية يعبرون فيها عن ضرورة إلغاء هذه التصريحات . . كانوا أحياناً يحرقونها حرقاً جماعياً ، ويسلمون أنفسهم لدوائر البوليس وتقدمهم الحكومة إلى المحاكمة وتقضى على مقاومتهم بوسائل الضغط العنيفة . وكانت أعظم المقاومة موجهة إلى تصريحات المرور الخاصة بالنساء .

يوم ٢١ مارس :

ولقد مر هذا اليوم فى معظم مدن اتحاد جنوب إفريقية دون اصطدام . وذهب مستر سوبكوى زعيم حزب الباك إلى مركز شرطة جوهانسبرج (فى إقليم الراند بالترانسفال) وسلم نفسه مع خمسين من أعضاء الحزب وقبض عليهم المسئولون تمهيداً لتقديمهم إلى المحاكمة . وحدثت تجمعات إفريقية فى كثير من المدن فرقتها الحكومة بوسائل متعددة منها أن تطير فوقهم طيارات نفاثة وتحاول تشتيتهم أو أن يلجأ البوليس إلى الوسائل المألوفة التى لا تصل إلى القتل كإلقاء القنابل المسيلة للدموع .

وكان من الممكن أن يمر هذا اليوم هادئاً فى شاربفيل – أو على الأقل بخسائر محدودة – كما حدث فى مدن أخرى فى الاتحاد . ولكن الذى حدث أن أطلق رجال الشرطة النيران على الإفريقيين فقتلوا منهم سبعة وستين وجرحوا ١٨٦ وتقدر المصادر الحكومية عدد الإفريقيين المتجمعين فى ميدان القرية بنحو عشرين ألفاً .

وهنا نجد أنفسنا على مفرق طريقين

أولها : المصادر الحكومية التي تحاول – كعادتها – أن تلقي اللوم على الإفريقيين ، وأن تجعل قوات الشرطة في موقف المدافع عن نفسه وحياته ، وأن العدوان بدأ من جانب الإفريقيين فلم يجد رجال الشرطة أمامهم إلا أن يطلقوا النيران دفاعاً عن أنفسهم .

والثاني : المصادر الإفريقية ويؤيدها المنصفون من رجال الصحافة والدين في داخل جنوب إفريقية نفسه . ووثائقهم وحججهم أقوى من أن تلين أمام حجج الحكومة المتهافتة ودعواها المفتراه وأكاذيبها المكررة الممجوجة .

ماذا قالت الحكومة ؟

وقد صرح دكتور ڤرفورد رئيس حكومة اتحاد جنوب إفريقية في يوم (٢١مارس) أنه في ليلة ٢٠ - ٢١ مارس اخترق نحو ألفين من الإفريقيين شاربڤيل – وتقع شمال مدينة ڤرينجنج[١] بنحو خمسة أميال – (والمدينة الأخيرة تقع في إقليم الراند في الترانسفال) . وهناك اقتحموا بيوت الآمنين وصادروا تصريحات المرور وأرهبوا الأهالي ، وأجبروهم على السير معهم في المظاهرة وحطموا في أثنـــاء سيرهم صناديق التليفونات . وفي اليوم التالي تجمع نحو خمسة آلاف من البانتو (الإفريقيين) أمام مركز شرطة شاربڤيل ليقبض عليهم المسئولون بتهمة عدم حمل تصريحات المرور . وزاد عدد الأهالي حتى أصبح عشرين ألفاً . وكانت أسلاك التليفون مقطوعة والتوتر بادياً . وكان اللفتنت كولونيل بينار هو المسئول عن شرطة شاربڤيل واستطاع أن يخترق جموع الأهالي وأن يدرك بعربته مركز الشرطة . وحاول الكولونيل شبنلجر – من قوة الشرطة – أن يقبض على أحد الأهالي قرب بوابة الشرطة فقذفه الأهالي بالحجارة وزحف الأهالي نحوه فأمر بينار رجاله بالاستعداد لإطلاق النار . وعندئذ – كما يقول ڤرفورد – انطلقت ثلاث رصاصات من الجانب الإفريقي الذي تابع زحفه إلى مركز الشرطة فأطلق الشرطة نيرانهم من بنادقه السريعة الطلقات دون أن يصدر إليهم أمراً بذلك وهنا تراجع الإفريقيون وتفرقوا وأوقف الشرطة إطلاق النار .

وادعى رجال الشرطة – في أثناء التحقيق – أن الأهالي كانوا مسلحين بالعصي والحجارة وقطع الحديد . وأن مركز الشرطة طلب نجدة باللاسلكي – بعد أن قطع الأهالي أسلاك التليفون – ووصلت خمس سيارات محملة بالجنود والسلاح من « ڤرينجنج » . وقال بينار إنه أمر الجنود بعدم إطلاق النار وإن أمرهم بأن تكون الأسلحة معدة . وأن الطائرات النفاثة حلقت فوق رءوس الأهالي في طيران منخفض لم يفلح في

(١) Vereeniging

تفريقهم ، وأن الأهالى قذفوا الشرطة بالحجارة وأطلقوا عليهم بعض أعيرة نارية ، وأن رجال الشرطة أطلقوا النار دون أن يصدر إليهم بذلك أمر . وأن الأمر صدر بعد عدة ثوان بإيقاف إطلاق النار . وأن اتجاه الريح لم يمكن قوات البوليس من استخدام القنابل المسيلة للدموع .

هذه خلاصة آراء المسئولين فى حكومة اتحاد جنوب إفريقية عن مأساة شاربڤيل . . ولننظر الآن إلى الجانب الآخر من القضية ، وهو الجانب الذى برز فيه اسم دكتور ريڤز أسقف جوهانسبرج الذى اضطر إلى الفرار من المدينة عند ما أصبحت حياته مهددة بالخطر ، لأنه قال ما يعتقد أنه الحق فى قضية شاربڤيل ، كما برز فيه اسم دكتور فريدمان وهو الطبيب الذى قام بفحص جثث ضحايا هذه المأساة .

وسنحاول فى هذا المقال الاستناد إلى أقوال هذه المصادر الأوروبية، ثم نذكر بعدها ما قاله سوبكوى . . وليس من المعقول أن يكون هؤلاء الرجال مثل فريدمان وريڤز متواطئين مع الإفريقيين ، أو متجنين على الحكومة ، أو لهم مطامع سياسية تدفعهم إلى أن يقفوا هذا الموقف العادل ضد طغيان حكومة ڤيرفورد ضد التعصب العنصرى البغيض الذى أثمرت أشجاره السامة فى عهد حكومته .

ولقد أثبت دكتور فريدمان فى تقريره الطبى عن ٥٢ من شهداء شاربڤيل أن ٧٠٪ من الرصاصات قد أطلقت عليهم من ظهورهم . وأكد ثلاثة من الجراحين الذين فحصوا جثث الشهداء ما ذهب إليه فريدمان فى تقريره . ولم يُقتل أى فرد من رجال البوليس فى هذا الحادث وإن أصيب اثنا عشر فرداً منهم بجراح طفيفة .

وعلى أساس هذه الشهادات الطبية ثبت –بما لايدع مجالا للشك– أن رجال الشرطة أطلقوا الرصاص على الإفريقيين من ظهورهم ، وكان من الممكن — لو أراد رجال الشرطة مجرد فض هذا التجمع — أن يطلقوا الرصاص فى الهواء بدلا من أن يطلقوه فى ظهور الأهالى العزل من أى سلاح .

وإذا كان الإفريقيون يرغبون فى الاعتداء فعلا ، فقد كانت عربة اللفتنت كولونيل « بينار » مارة من بينهم، فلماذا سمحوا لها بالمرور وسطهم إذا كانوا يريدون بالرجل سوءاً ؟ وكيف سمحوا لعربات النجدة بالوصول إلى مركز الشرطة ؟ وكيف انتظروا حتى تتجمع القوات الضاربة ، ويقف رجال الشرطة وأسلحتهم فى أيديهم ثم يبدءون بعد هذا فى قذف مركز الشرطة بالحجارة ؟ وإذا كانت معهم — كما يدعى رجال الشرطة — أسلحة نارية فلماذا لم يضربوا بها رجال

الشرطة ؟ وقد ثبت فعلا أن رجال الشرطة لم ينلهم أى سوء إلا بعض جروح طفيفة وأنهم جميعاً ظلوا على قيد الحياة .

وكيف يستساغ أن يطلق رجال الشرطة النار دون إذن من القائد وهو بينهم ؟ وأن يكون الضرب (فى المليان) مباشرة وأن يكون بالبنادق السريعة الطلقات ، وأن يتساقط العشرات صرعى فى ثوان محدودة ! !

ألا يبدو التهافت واضحاً فى هذه الرواية مهما كان المصدر الذى قالها والمنبر الذى قيلت من فوقه ؟ ! . . ألا تتهاوى هذه الحجج أمام قوة الحق والدم البرىء المراق على أرض ، شاربفيل ؟ ! . .

ألا تتسق هذه السياسة الغادرة الخائنة مع الاتجاه الأثيم الذى يتبناه البيض إلى أقصى جنوب القارة ؟ أليس هذا درساً يريد الطغيان الأبيض أن يلقيه على الزحف الإفريقى الصاعد نحو الحرية والكرامة ؟ !

أصوات الحق :

ثار نفر من الأحرار فى جنوب إفريقية على هذه المجزرة البشرية التى لوثت بها الحكومة يدها . وقام عدد من المحامين بجمع شهادات من مائة من الجرحى الإفريقيين فى المستشفى . . وقام دكتور ريفز أسقف جوهانسبرج بنشرها والدفاع عنها . وتلقى هذه الشهادات الضوء على الأسباب الحقيقية للمأساة وتطورها حتى وصلت إلى مداها . .

ويمكن أن نلخص هذه الشهادات فى النقط الآتية :

١ – إن الإفريقيين ذهبوا إلى مركز شرطة شاربفيل لأن مندوبى حزب « باك » أخبروهم أن مشكلة تصريحات المرور ستناقش هناك وأنهم سمعوا أن مندوباً مسئولا من البيض سيأتى من بريتوريا ليتحدث إليهم فى هذا الأمر .

٢ – أقر كثير من الإفريقيين الجرحى أن رجال الشرطة أخبروهم بأن يذهبوا إلى مركز الشرطة .

٣ – أقر كل الجرحى أن عدد المتجمعين لم يزد عن خمسة آلاف وأن هؤلاء كانوا هادئين ومنظمين .

٤ – لم تكن مع الإفريقيين عصى أو أى أسلحة .

٥ – أن الرئيس الإفريقى – لهذه المظاهرة – صرح مرات بأن الإفريقيين « جاءوا ليتكلموا لا ليحاربوا » .

٦ – ولكن مع هذا كله قبض عليه رجال الشرطة وحاولوا جره إلى داخل المركز .

٧ – جاء فى شهادتين أنه فى هذه المرحلة قذف بعض الأطفال الإفريقيين رجال الشرطة بالحجارة وإن لم يثبت هذا فى بقية الشهادات الإفريقية .

٨ – وعندئذ اصطف رجال الشرطة وأطلقوا النار على الإفريقيين دون أى تحذير أو أمر بالانصراف .

٩ – صدر الإنذار الوحيد من جندى إفريقى صاح قائلا لمواطنيه « فروا . . إنهم سيطلقون النار » . . وما كاد الإفريقى ينتهى من تحذيره حتى انطلقت الرصاصات تحصد الإفريقيين .

وذكر دكتور ريفز أن الجرحى كانوا فى حالة صحية سيئة وأنهم كانوا موزعين على عنابر المستشفى مما صعب معه الحصول على شهادات وافية .

وسجل دكتور ريفز فى شهادة رسمية قدمها إلى المسئولين أن معظم الإصابات كانت فى ظهور المصابين مما يثبت بما لا يدع مجالا للشك أن إطلاق النار لم يكن للدفاع عن النفس وإنما كان إجراء إرهابياً وعقوبة يقصد المسئولون توقيعها على الإفريقيين

والذى يستوقف النظر فى هذه المأساة أن رجال الشرطة كانوا يدعون الأهالى إلى التجمع أمام مركز الشرطة وكان المفروض أن ينصحوهم بالتفرقة وليس هناك من تفسير لذلك إلا أن المأساة كانت مرسومة من أول الأمر، وأن يحدث التجمع ، وأن يساعد رجال الشرطة على حدوثه ، وأن يشاع فى الجو مجىء أحد المسئولين البيض من بريتوريا ليتحدث إلى الإفريقيين فى مشكلة التصاريح ، فإذا ما تجمع الإفريقيون بادرت قوات الشرطة ، بطلب نجدة — كأنها فى موقف دفاعى — وتأتى النجدة وتخترق صفوف الإفريقيين الأبرياء الذين لا يدرون ما يراد بهم من سوء ، فإذا ما تجمعت القوات بدأ تحرش الشرطة بالأهالى واستثارتهم بالقبض على زعمائهم —رغم أن هؤلاء الزعماء كانوا يدعون الإفريقيين إلى الهدوء والنظام — ثم يأتى بعد هذا إطلاق النار بدعوى حماية النفس . ويتنصل قادة قوات البوليس من التبعة بقولهم إنهم لم يطلقوا النيران وإنما سارعوا إلى إصدار أوامرهم بإيقافها .

وبهذا يستطيعون أن يلقنوا الإفريقيين درساً — لا فى شاربفيل وحدها — وإنما فى كل المدن فى اتحاد جنوب إفريقية .

فى لانجا :

والشىء نفسه — وإن كان بصورة مصغرة — حدث فى لانجا . ففى مساء ٢١ مارس ١٩٦٠ تجمع نحو ستة آلاف من الإفريقيين ليحتجوا على تصريحات المرور .. وفى لانجا بالقرب من كيب تون .. وليطالبوا برفع الأجور ، وأعطاهم رجال الشرطة مهلة ثلاث دقائق للانصراف لأن الاجتماع غير قانونى . وادعى رجال الشرطة هنا أيضاً أن الأهالى بدءوا بالعدوان وقذف الحجارة والزجاجات وأطلقوا عياراً نارياً من نافذة فأطلق رجال الشرطة النيران على الأهالى فقتلوا منهم ثلاثة .

واشتعل غضب الأهالى بعد هذا العدوان فقذفوا السيارات وعربات المطافىء بالحجارة وقلبوا بعض السيارات وأحرقوها وأحرقوا قاعة الاحتفالات فى المدينة وأتلفوا بعض المدارس والمبانى العامة . واستطاعوا محاصرة مركز البوليس أكثر من ساعتين حتى جاءت إليه نجدة استطاعت السيطرة على الموقف . وجرح من الإفريقيين نحو ثلاثين غير الشهداء الثلاثة ولم تحدث أى إصابات لرجال البوليس.

فى البرلمان :

ومن المؤلم أنه عند دراسة هذه

القضية أمام برلمان اتحاد جنوب إفريقية كان هناك اتفاق واضح بين الحكومة والمعارضة على اغتصاب حقوق الإفريقيين، ولم تتخذ المعارضة من مأساة شاربفيل ولانجا وسيلة للضغط السياسى العنيف على حكومة الحزب الوطنى التى يرأسها دكتور فرفورد. وطالب سير جراف — زعيم المعارضة بتكوين لجنة بعد أن يستتب الأمن لتحقيق هذه الأمور مع ملاحظته أن الزعماء الإفريقيين قد استطاعوا تحريك الجموع الإفريقية، وأنهم يجدون عوناً متزايداً. وأن لجنة التحقيق ينبغى أن تعنى بالتعرف على الأسباب التى استطاع بها هؤلاء الزعماء الإفريقيون أن يجدوا العون.

وهاجم بعض النواب مستر هارولد مكميلان رئيس الوزراء البريطانى وقالوا إنه فى رحلته إلى إفريقية وعد الإفريقيين بأمور كثيرة كانت من الأسباب التى شجعتهم على الثورة على حكومة اتحاد جنوب إفريقية. وهاجم نواب آخرون الصحفيين الأحرار الذين يطالبون بحقوق الإفريقيين.

وطالب نواب الحكومة بتشديد قبضتها على الموقف وسيادة «الأمن» «وأن أحزان الإفريقيين ينبغى ألا تشغلنا عن سيادة النظام وإلا سارت البلاد فى طريق لا يمكن ضبطها».

ويعقب دكتور فرفورد على هذا بقوله:

«إنه لا داعى لتكوين لجنة تحقيق لأن التحقيق يفتح الطريق أمام عناصر الإثارة. وأن الاضطرابات التى حدثت لا يمكن اعتبارها رد فعل لسياسة التفرقة العنصرية التى تتبعها الحكومة وإنما هى «ظاهرة دورية» ولا علاقة لها بالفقر ولا انخفاض الأجور!!.. وإذا نظرنا إليها فى ضوء ما يحدث فى الكونغو والكاميرون ونياسالاند فإنها تظهر ولا علاقة لها حتى بتصريحات المرور!!».

ويبدو أن دكتور فرفورد نسى وقتئذ أنه كان أستاذاً جامعياً وأنه متخصص فى علم النفس.. وأن وضعه السابق يفرض عليه الأمانة التى ينبغى أن تكون فى العالم، وفهم النفس الإنسانية التى ينبغى أن تتوافر فى المتخصص فيها.. يبدو أن فرفورد نسى هذا كله — أو تناساه — ووقف فى برلمان الاتحاد الذى لا يمثل إلا الأقلية الأوروبية الطاغية، وحاول أن يجعل من الاضطرابات ظاهرة دورية لا علاقة لها بأى سبب من أسبابها الحقيقية.. لا علاقة لها بالأجور المنخفضة.. ولا علاقة لها بالفقر الذى يصطلى بناره الإفريقيون.. ولا علاقة لها بتصريحات المرور التى تجعل الإفريقيين غرباء فى أرضهم يحرم عليهم الانتقال بين أجزائها إلا على هوى البيض ووفق مطامعهم الاقتصادية.

وأخذ فرفورد يذكر النواب بأن الحزب المتحد — حزب المعارضة — عندما كان فى الحكم حدث فى عامى ٤٦، ١٩٤٧ — ٤١ إضطراباً مات فيها ٥٢ وجرح ١٥٩٠. وأخذ يرد هجوم الإفريقيين على الحكومة إلى سبب غريب.. هو مهاجمة بعض الصحف السياسية التفرقة العنصرية التى تتبعها الحكومة وهذا

الهجوم أدى إلى قوة روح المقاومة عند الباتو .

وبهذا ناقض ڤرفورد نفسه فى خطابه .. فهؤلاء الكتاب الذين يهاجمون سياسة التفرقة العنصرية ، إنما هاجموها بحجج ، وبتوضيح المظالم الواقعة على الإفريقيين والملونين ، والآسيويين ، وبأن هذه السياسة ستقود البلاد إلى كارثة .. وليس من الغريب أن يستجيب الإفريقيون لهذا بل إنهم يحسون به دون أن يخبرهم به أحد أو يدعوهم إليه أحد .. إنهم يعيشون فى الفقر والحرمان والغربة فى الوطن .. وجحيم المعازل الإفريقية .. فإذا تحركت لهم بعض القلوب وداقعت عنهم بعض الأقلام اعتبر ڤرفورد هذا سبباً فى ثورة الإفريقيين عليه .. وكأن الجائع أو الظامئ عند ڤرفورد – لا يحس الحرمان – إلا إذا قال له أحد إنك جائع أو ظامئ ! !

هذا هو المنطق الذى انتهى إليه ڤرفورد والذى أخذ ينادى به فى برلمان اتحاد جنوب إفريقية .

ونادى ڤرفورد فقرر تكوين لجنتى تحقيق فى ٢٣ مارس سنة ١٩٦٠ فى حوادث شاربڤيل ولانجا ولجنة ثالثة تدرس أسباب المشكلات والاضطرابات .

ما بعد مأساة شاربڤيل ولانجا :

ولم يتقبل الإفريقيون هذه المآسى بالاستسلام والخضوع كما ظن الذين تزلوا كبرها وأراقوا الدماء الطاهرة . ولم يكتف الإفريقيون بالتجمع الصامت يعبرون به عن سخطهم على سياسة الحكومة ، وإنما ساروا فى المقاومة السلبية خطوة أخرى .

ففى كثير من المؤسسات فى الكيب وإقليم الراند – أى فى المنطقتين اللتين حدث فيهما العدوان زاد عدد الغائبين عن العمل عقب الحادث إلى ما يتراوح – بين ٤٥ ، ٩٩٪ من العمال الإفريقيين . وأطلق رجال الشرطة نيرانهم مرة أخرى على جموع الإفريقيين فى لانجا فى اليوم التالى للحادث . وأصر الإفريقيون على موقفهم من مشكلة تصريحات المرور فى ڤرينجنج وبأنهم لن يعودوا إلى أعمالهم حتى تلغى التصاريح وامتد الإضراب والغياب فى إقليمى الراند والكيب . وسارت المظاهرات إلى مراكز الشرطة ، وطالب المتظاهرون بإلغاء التصاريح وسلموا أنفسهم فى المراكز ورفض رجال الشرطة ذلك لعدم وجود أماكن فى السجون ، والمعتقلات .

واضطرت الحكومة إلى التراجع مؤقتاً فى موقفها وأعلن المسئولون فيها أن الإفريقيين لن يطالبوا مؤقتاً بحمل تصاريح المرور وأحرق الإفريقيون تصاريحهم باعتبارها « شارة العبودية »

ونظم الحزبان الإفريقيان « باك » و « آنك » فى ٢٨ مارس سنة ١٩٦٠ يوم حداد على الشهداء ، يبقى فيه الإفريقيون فى منازلهم . واستجاب الإفريقيون لهذا الإضراب . وأسهم فيه أيضاً آلاف من الملونين . وهاجم الإفريقيون بعض المؤسسات العامة فى « ميدولاندز » و « موركو » ، و « ديوب » وشمل الإضراب عدداً كبيراً من المدن وأغلق الهنود محلاتهم فى بريتوريا إسهاماً منهم فى إظهار شعورهم نحو الشهداء .

وفى الكيب استمر إضراب خمسين ألف عامل من الستين ألف عامل إفريقى فى ٢٩ مارس .

وسارعت الحكومة بإصدار قانون نحوها حق حل الأحزاب الإفريقية وكان المقصود حزبى « باك » و « آنك » وسمته قانون المنظمات غير المشروعة . ونص القانون على جواز حرمان أعضاء هذه المنظمات من الوظائف العامة وزادت من وطأة الأحكام على المخالفين فأصبحت العقوبة : السجن خمس سنوات وغرامة قدرها ٥٠٠ جنيه والجلد بعد أن كانت ستة شهور وخمسين جنيهاً . ومن الممكن الجمع بين هذه العقوبات الثلاث .

وأحس دكتور ريفز أسقف جوهانسبرج بالأنظار تتجه إليه ، وبيد الحكومة توشك أن تمتد إليه ، فخرج سراً فى ظلمة ليل ١ — ٢ أبريل وعبر الحدود إلى سوازى لاند . وصرح بعد هذا أن صديقاً أخبره فى المساء أن الحكومة قد تلقى القبض عليه ، وأنه هرب سراً بعد استشارة رؤسائه الدينيين ، ورفضت حكومة الاتحاد التصريح بما تنوى اتخاذه حيال دكتور ريفز ، من أجل هذا تابع ريفز رحلته عبر شرق إفريقية البرتغالية (موزمبيق) إلى سالسبرى (فى روديسيا الجنوبية) ومنها طار إلى لندن ووصل إليها فى ٢١ إبريل .

وهناك صرح ريفز بأن الحكومة ألقت القبض على كثيرين ممن زاروه فى داره فى جوهانسبرج . وأن الكثيرين هددوه وهددوا أسرته تليفونياً وأن منزله كان موضوعاً تحت الرقابة الدائمة

وسأله الصحفيون عن سبب فراره فقال : إنه تدارس هذا الأمر مع خلصائه فوجد أن خروجه من جنوب إفريقية لشرح ما حدث أولى من بقائه فى الاتحاد سجيناً .

أما فى جنوب إفريقية فقد تتابعت الاضطرابات وتوالى ضغط الحكومة واستمر هذا حتى الآن .

وفى اجتماع الكمنولث الأخير (مارس ١٩٦١) ، وبعد عام من مأساة شاربڤيل ولانجا لقى دكتور فرفورد هجوماً عنيفاً من زعماء ، الكمنولث الإفريقيين والآسيويين ، وسارت المظاهرات تهتف بسقوط سياسة التفرقة العنصرية ، ولم يجد فرفورد أمامه إلا الانسحاب من الكمنولث . . . وأخذت رءوس الأموال تنسحب من ميادين الاستثمار فى اتحاد جنوب إفريقية وتتعرض الحكومة الآن لضغوط سياسية واجتماعية واقتصادية خطيرة . . .

وعن قريب يستطيع الوعى الإفريقى الجديد أن يوقف الطغيان العنصرى فى القارة وأن يجعلها وطناً للأحرار يعيشون فيه إخوة تجمعهم الإنسانية ولا تفرق بينهم عصبية اللون أو مطامع الاقتصاد .

الأسباب الحقيقية للتفرقة العنصرية

الأستاذ محمد مراد البطاسى

إن نظرة علمية مدققة نتيجة نمو الدراسات المتعلقة بالجنس وتعمقها خلال قرن مضى توضح لنا أنه ليست هناك من فروق طبيعية تذكر بين الملونين وغيرهم ، بل قد تكون النتيجة فى بعض الأحيان فى صالح الملونين

فمثلا ، اليونان قد جلبوا عبيداً رحلا من المناطق المجاورة للاعتماد عليهم فى الأمور الاقتصادية . ولم يلاحظوا أن هناك فروقاً طبيعية بين السادة والعبيد ، والإمبراطورية الرومانية التى اتسعت أطرافها لم نجد بين الغزاة الفاتحين وسائر مواطنى الإمبراطورية اختلافات طبيعية اللهم إلا فى الملابس واللغة والعادات .

وفى القرون الوسطى حاول الصليبيون الأوروبيون أن يجعلوا من أنفسهم جنساً مستقلا له اعتبارات خاصة يتميز بها عن غيره . ولكنهم فشلوا فى ذلك ، وأصبح من العسير عليهم التمييز بين الصليبيين الآتين من جنوب أوروبا ، وبين غيرهم من أعدائهم .

وحينما اكتشف العالم الجديد . وعرف الأوروبيون الطرق المؤدية إلى آسيا ولمعت أمام أعينهم الكنوز الموجودة فى إفريقية بدأت تظهر للجنس أهميته الاجتماعية .

فمنذ القرن السادس عشر بدأ الأوروبيون يغزون الشعوب البدائية فى كل مكان وينصبون أنفسهم حكاماً عليهم ، ولقد رأى الرجل الأبيض نفسه فرداً فى الهيئة الحاكمة ، بينما الأسود قد دخل فى عداد الطبقة المحكومة . فظن كلاهما أن فى نوعه اختلافاً تاماً عن الآخر فى الفروق الجنسية ، وعزز هذه الفكرة رواج تجارة الرقيق فى إفريقية وتصدير العدد الكبير من السود إلى كل من أمريكا وأوروبا ، وسرعان ما وضع هؤلاء السود فى الدرجة الدنيا من سلم الحياة الاجتماعية .

ولقد ادعى الأوروبيون أن سيادتهم — اجتماعياً وسياسياً — على غيرهم من الشعوب التى أخضعوها لسلطانهم ، إنما هى أمر طبيعى لا يمكن تغييره ، وللمرة الأولى فى التاريخ أصبح الجنس معياراً صادقاً لتحديد المركز الاجتماعى

وقامت محاولات عديدة للإعلام بأن السيادة الأوروبية تستند إلى الدين المستمد من قدرة الله ، وذلك بإيهام السذج بأنه طالما أن الأوروبيين يدينون بالمسيحية ، التى لم تدن بها الشعوب

المستعمرة ، فإن الله لا بد وأن ينصر أتباعه ويعزهم ، ولقد اعتمد فى ذلك مدعوا السيادة على ما جاء فى « العهد القديم » من أن « أبناء حام قضى عليهم أن يكونوا حطابين وسقائين » ولكن هذه الفكرة سرعان ما فقدت قوتها ، واتجه البيض إلى التخفيف من تصوراتهم فى هذه الناحية لا سيما بعد أن انتشرت المسيحية بين الملونين ، فاتجهوا بتفكيرهم المتعصب إلى وجهة أخرى . وهى استغلال نظرية التطور وفكرة البقاء للأصلح . وساعد على انتشار هذه الوجهة تقبل الفكر الأوروبى لها . واحتياجه إلى الشعور بالسيادة على الملونين النازحين والمستعمرين ، وأن استعلاء البيض هو أمر نسبى يتوقف على الطريقة التى يمكن بوساطتها أن يفصح الأبيض عن نفسه . فإذا اعتبر الرجل الأبيض نفسه متفوقاً على غيره من الناحية الطبيعية ، ظاناً أنه أكثر صلابة وقوة ومقدرة على التكيف الطبيعى — كما يدعى — فهذا قول مردود عليه . . . بأن غرب إفريقية ما زال معروفاً بأنه مقبرة للجنس الأبيض تعمل فيه الحرارة ، والرطوبة ، والحمى عملها الفتاك وتفتك به فتكاً ، لم تصلح معه التحسينات التى أدخلت على طب المناطق الحارة . وأصبح الأبيض لا يأمن الإقامة فى هذه المناطق بينما الملون الذى يعيش فى ظروف أقل ملاءمة من ناحية المسكن ، والمأكل ، والمشرب ، نراه أكثر تحملا .

والأسود إذا ما نزح إلى أوروبا أو أمريكا فإنه يستطيع التكيف بالبيئة والمكث بها فترة طويلة وهذا دليل آخر على قوة احتماله وصلابته ، إن ارتقاء كل جنس بخصائصه المميزة متجاوباً مع الظروف والبيئة المحيطة به إنما هو نتيجة سيطرته على هذه البيئة التى كيف نفسه فيها ، وهذه حقيقة واقعة تؤيدها بعض الأدلة ، فكان غرب إفريقية بعد أن فنى منها مئات الألوف خلال أجيال طويلة قد اكتسبوا مناعة ضد الملاريا ، وأصبحت لهم مقدرة على العمل تحت ظروف قاسية من الحرارة والرطوبة الشديدتين وكل فرد من سكان هذا الإقليم يحمل فى دمه ميكروب الملاريا الذى قد يفتك بالرجل الأبيض فى مدى أسبوع وحتى لو مرض الإفريقى بهذا المرض فإن الأمر بالنسبة إليه عادى .

والصينى أيضاً قد تعرض — قبل ألفى عام — لظروف قاسية من الزحام وعدم الاهتمام الصحى وسوء التغذية وهذا التعرض ترك لديه القدرة العجيبة على الملاءمة لهذه الظروف والعمل فى جوها مهما اشتدت قسوتها .

والأبيض ليست لديه القدرة على العيش فى أى بيئة أكثر من أهلها ، ولكن الأماكن الوحيدة التى استطاع أن يقيم فيها كحاكم ، هى الأماكن التى لا تختلف كثيراً عن بيئته الأصلية ،

مع اتخاذ وسائل من شأنها أن تقرب هذه البيئة إلى معدل بيئته الأصلية . ولذلك فإن الرجل الأبيض لم يستطع أن يقيم أو يثبت أقدامه فى المناطق الاستوائيـــة أو بين الإفريقيين أو الآسيويين الذين كيفوا أنفسهم مع بيئتهم ، وهذا يعنى أنه لم يتمكن من استيطان هذه البيئات فقط ، بل كان مكثه بها لفترات الحكم والاستغلال . على صورة من التناوب والتغيير الفردى والزمانى والمكانى .

وعلينا أن نتساءل : هل الرجل الأبيض متفوق فطرياً فى ناحية القدرة على القتال عن الأسود ، ولما كانت هذه الصفة من أهم الصفات اللازمة للجماعة الحاكمة فإنه يقتضى الأمر الاهتمام بها .

الإجابة على ذلك طبعياً بالنفى . . لأن انتشار الجنس الأبيض ظاهرة تاريخية حديثة .

ففى خلال الفترة الطويلة التى سبقت القرن الخامس عشر كان سكان أوروبا فى حالة دفاعية عن أنفسهم ضد القبائل الآسيوية الذين اكتسحوا القارة الأوروبية من الشرق وقد امتدت غارات قبائل الهون حتى الأطلنطى وفى سنة ١٢٤٢ ق . م غزت قبائل المغول الرحل شرق أوروبا وفتكت بكل ما اعترض طريقهم من جيوش ، ولم ينسحبوا إلا بعد أن دعوا إلى ذلك عند وفاة « أوجاتاخا » وفى سنة ١٥٢٩ كان الأتراك ، وهم فى الأصل جماعات آسيوية يحاصرون أسوار فينا ، ولم يشر التاريخ إلى أن البيض كانوا محاربين متفوقين على غيرهم فى هذه الفترة .

والرومان وهم الأمة الوحيدة التى يشهد التاريخ بنظامها وتنظيمها فى أوروبا قد فشلت مجهوداتهم فى إقامة إمبراطورية راسخة ، وحتى فى نجاحهم الذى أحرزوه كانوا يقلدون النماذج الآسيوية وقد انهار النظام العسكرى فى أوروبا بسقوط روما وأصبحت الجيوش الأوروبية أقرب جماعات الغوغاء منها إلى جماعات المحاربين .

وحتى القرن السابع عشر لم تظهر فى أوروبا أمة تضارع الصين فى نظامها ولا جيش يفوق قوات المغول فى تدريبها .

ومن الطبيعى أن المميزات الفطرية للجماعات البشرية لا تتغير بسرعة — فخصائص سكان أوروبا الحاليين تكاد تكون هى بعينها خصائص أجدادهم من ٢٠٠٠ سنة وكل ما تغير بالفعل هو الثقافة الأوروبية .

بقيت أمامنا نقطة واحدة ؛ وهى مشكلة الذكاء بين الأجناس والعناصر المختلفة وهى النقطة الأساسية التى ترتكز عليها الاختلافات الجنسية والعنصرية ، وعليها تتوقف ما إذا كانت الأنواع البشرية المختلفة يمكنها أن تتغلب فى النهاية على الحضارة الحديثة التى يسندها العلم الحديث ، والاختراعات .

إنه من الصعب أن نربط بين الاختلافات الفسيولوجية والاختلافات السيكلوجية بين الأجناس ، والمنطق يؤيد القول بأن الذكاء لا يعتبر قياساً للجنس ، فأى نوع فى مجموعة جنسية قد

يفوق فى الذكاء أنواعاً فى مجموعات جنسية أخرى ، وقد تقل ذكاء عن أنواع فى مجموعة غيرها ، وإلا لكانت جميع المجموعات الجنسية فى مستوى واحد لسهولة انتقال الحضارة من جماعة إلى أخرى وبالاختصار إذا كانت الأنواع تختلف عن بعضها فى الذكاء فان الأجناس لا تختلف وإذا اختلفت فاختلافها ضئيل جداً .

وأن نمو الحضارة وانتشارها قد استمر برزانة وعدم مبالاة لأصول الأجناس . فكل الجماعات التى أتيحت لها فرصة اكتساب الحضارة لم تقتنع باكتسابها فحسب ، بل وأضافت عليها .

ويؤيد هذا القول أن جميع الحضارات التاريخية فى العالم القديم ذات أصل قديم مشترك ، وأن العناصر الأساسية لهذه الثقافة العالمية قد تحولت إلى جماعات جنسية مختلفة أدخلت كل جماعة منها متشعبة ملائمة لظروفها وبيئتها .

وأن الثقافة الأوروبية كما هى اليوم مزيج من عناصر مختلفة ومن مصادر متعددة ترجع إلى بعض الاختراعات منها اختراع الورق والطباعة ، الذى كان السبب فى انتشار التعليم ، وذيوع المعلومات التى قام عليها التقدم العلمى ، وهذه تنحدر فى الأصل إلى الصينيين أصحاب الفضل فى هذا الاختراع .

ويجب ألا يفوتنا عند التعرض للذكاء أن نذكر أن جميع الاختبارات والمقاييس التى وضعت للكشف عن مستويات الذكاء ، إنما هى من وضع الأوروبيين والأمريكان . وهؤلاء قد اختلطت بأذهانهم فكرة مبدأ التحيز للجنس ، لأن النماذج ، والعينات التى أجريت عليها التجارب أولا ، كانت أوروبية وقننت وفقاً للنتائج التى وصلوا إليها .

وأعتقد -ويوافقنى علماء الأنثروبولوجى- أن النماذج النفسية فى الجماعات غير الأوروبية تكاد تشبه تماماً تلك التى توجد فى الأوروبيين. والاختلافات فى المعايير النفسية إنما ترجع إلى الأساس الثقافى ، إذ أن كل مجتمع يعمل على تقبل نماذج نفسية خاصة ، ولا يتقبل نماذج أخرى يعمل أصحابها على الإبقاء عليها ومناهضة غيرها .

ولقد أوجدت الحضارة الآلية الحديثة بيئة جديدة . والأنواع التى لم تستطع التكيف معها - إما بسبب الذكاء أو الشخصية - نراها تمضى وتختفى كما هو الحال فى الماضى ، وأنواع الجماعات تذهب وتجىء ، أما الأجناس والفصائل البشرية فإنها تبقى . ولا يوجد احتمال فى أنها تختفى فى غضون القرون .

وما دامت الاختلافات فى النموذج الطبيعى قائمة على أسس من التميز الاجتماعى فإن احتمال المتاعب الحالية بين الأجناس سيظل قائماً .

والحل الوحيد لما نسميه مشكلات الجنس إنما يقوم على تغيير نظرة الأبيض لغيره من أفراد الجماعات الأخرى ، إذ أن احتقار الأبيض لغيره من الأجناس إنما يقوم على ضغينة فى نفسه أكثر من قيامه على منفعة شخصية اقتصادية قد لا تدوم طويلا .

وانتشار الحضارة الذى يتقدم الآن سيزول فى النهاية المنفعة الاقتصادية وإذا فشل البيض فى تحقيق المساواة بين الجماعات الجنسية الأخرى وبينهم فلا بد أن يقابلوا بصدمات شديدة ووعى كبير ويقظة قاسية من هؤلاء الآخرين ، والجيل الجديد فى العالم أجمع يشهد نهضة بعرض الجماعات الآسيوية والإفريقية ، وليس هناك أدنى شك فى

أنها ستتبع بغيرها .

إن حركة جنوب إفريقية ، ومن قبلها حركات الملونين بأمريكا وما اكتنفها من وحشية ، وإذلال ، وحرب إبادة للسود ، إنما تدل على همجية يلتصق عارها بجبين البيض المنحدرين من سلالات أوروبية وهم فى الوقت الحاضر وفى القرن العشرين بالذات إذ كانوا ينادون بحرية الشعوب وازدهار الحضارة وتقدم المدنية وهم أساتذتها ، فبئست هذه الحضارة وتلك الحرية التى تئد الحرية وتنشر العبودية وتخلق التفرقة العنصرية .

ولقد عقدت المؤتمرات تلو المؤتمرات فى كل من آسيا وإفريقية فى باندونج ، القاهرة ، غانة ، غينيا ، لبحث كثير من المشكلات التى تتعلق برواسب الاستعمار .

ومن بينها محاربة التفرقة العنصرية .

وحق الإنسان فى أن يحيا حياة حرة كريمة . . . وسيكون من نتيجة هذه الحركات التحررية الفردية والجماعية الجنسية والعنصرية . . . المطالبة بالمساواة بين الجميع شعوباً ودولا . بيضاً وملونين ، وسيجد الرجل الأبيض نفسه فى موقف لا يحسد عليه ، وسيكون من الحكمة أن يستسلم للأمر الواقع ويعرف تمام المعرفة أن ليس هناك مجال للتفرقة العنصرية بينه وبين الأسود ، تلك التفرقة التى وجدت نتيجة ، الاستعمار ، والتى اختلقها الأبيض بعقله ، وغذاها بتعصبه ، ولم يباركها إلا له جلت قدرته حينما خلق الناس جميعاً سواسية تجمع بينهم صفة الحمل والولادة والرضاعة والتكوين ، غير مفرق فى ذلك بين الأبيض والأسود .

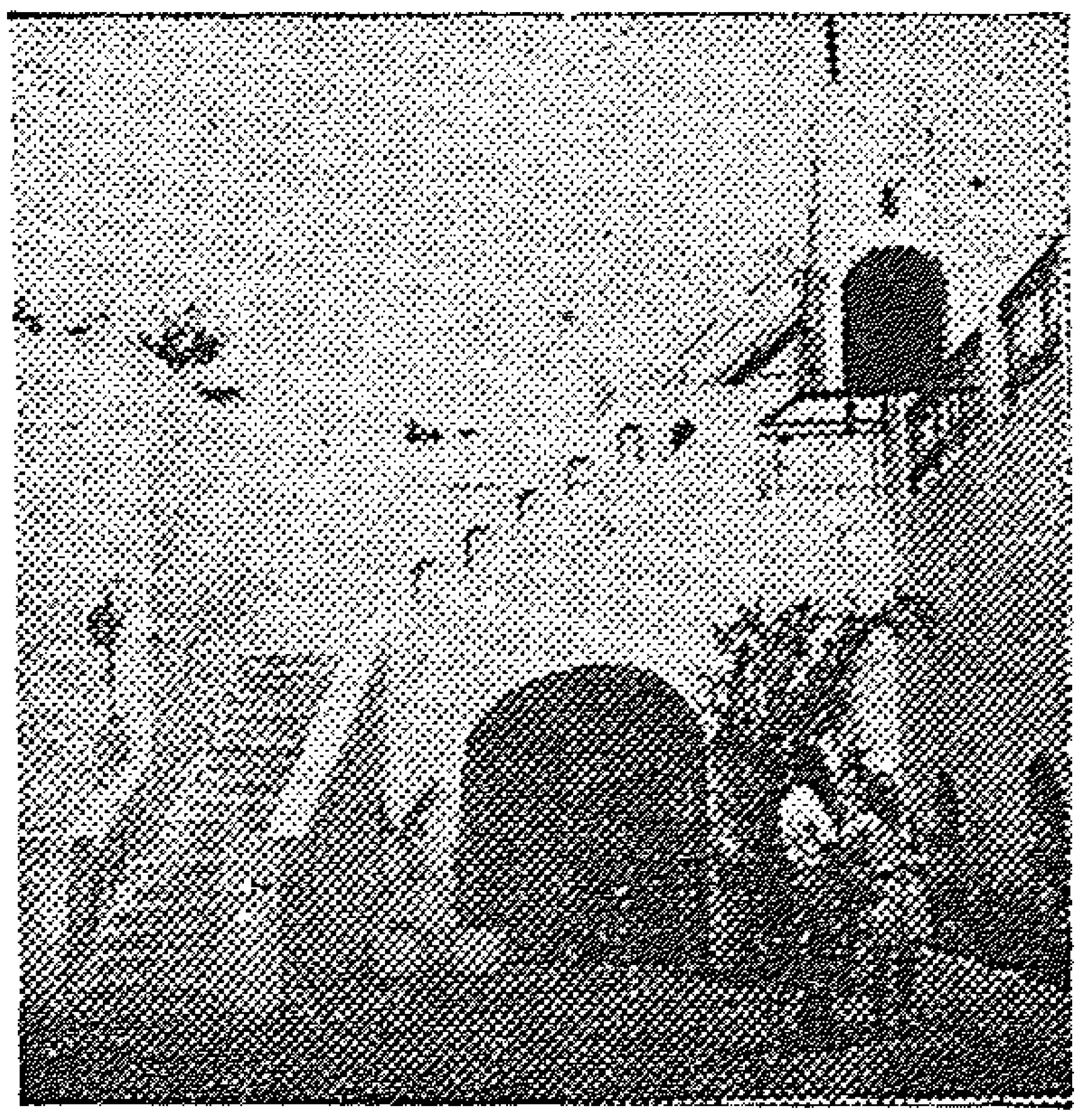

أسلحة في ميدان التفرقة العنصرية

اجتمع ليلة السادس والعشرين من شهر يونيو سنة ١٩٥٩ فى دربان أكثر من ثلاثين ألف شخص من الوطنيين الإفريقيين وفى حماسة بالغة وعزم أكيد وصوت مدو كالرعد القاصف هتفوا قائلين : « إفريقية ! إفريقية ! » معلنين بذلك بدء تنفيذ قرار المقاطعة الذى اتخذوه .

وفى يوم سابق لهذا الاجتماع التاريخى المشهود ، وفى لحظة تجلى فيها نكران الذات أدرك الإفريقيون ممثلين فى اتحادهم ما قد يحدثه تنفيذ قرار المقاطعة من أثر بالغ على اقتصاد جنوب إفريقية ، وبخاصة إذا تكتل الشعب وحجب قدرته الشرائية على نطاق واسع .

ولقد كسدت التجارة فعلا فى جوهانسبرج ودربان وبورت اليزابث وتوقفت حركة البيع والشراء تماماً وبخاصة فى المناطق التى استجاب فيها الإفريقيون إلى نداء المؤتمر الوطنى الإفريقى فابتعدوا عن المتاجر وامتنعوا عن دخول محال شرب البيرة وكفوا عن ارتياد دور الملاهى وستصبح الخطة من الآن فصاعداً مقاطعة إنتاج الشركات وبضائع المتاجر التى تعامل الوطنيين بغطرسة وكبر واستعلاء .

لا تردد !

لقد نظم المؤتمر الإفريقى الوطنى قرار المقاطعة تنظيماً أدق وأكمل من كل تنظيم للمقاطعة سبق له اتخاذه فى الماضى ، فقد حدد عدد البضائع التى تجب مقاطعتها ، وجعل عددها قليلا ، كما أعد العدة مقدماً لتهيئة الشعب لتنفيذ قرار المقاطعة وللاستغناء عن هذه البضائع لآجال طويلة .

لهذا لم يبد الوطنيون أى تردد فى تنفيذ قرار المقاطعة — كما حدث فى الماضى — كما لم يثنهم عن عزمهم الأكيد تهديد الحكومة لهم وقبضها على الكثيرين منهم واعتقالها لكل من وجدت منشورات المقاطعة فى حيازته .

كما سبق إعلان المقاطعة تمهيد أيقظ فى الشعب الوعى القومى وأعده وهيأه للتنفيذ وكان هذا التمهيد هو قرار مقاطعة شراء البطاطس الذى اتخذه المؤتمر فى الأسابيع القليلة السابقة احتجاجاً على تسخير العمال الوطنيين فى مزارع « بيثال » ولقد كان لتنفيذ

هذا القرار نتائج ملموسة محسوسة بعيدة الأثر .

فبالرغم من أن السمك والبطاطس هما الأكلة الشعبية المفضلة الرخيصة لدى ملايين الإفريقيين فى الأرياف ، إلا أن متاجر السمك والبطاطس لم تبع منها شيئاً لا فى « جوهانسبرج » ولا فى دربان ولا فى بورت النزابث لأن الإقبال على شرائها قد توقف تماماً كما عجزت محال بيع البطاطس عن الحصول على شىء منها .

حالة التوتر !

لقد أدرك الأوروبيون المستعمرون البيض خطورة المقاطعة هذه المرة ، وبدأوا يحسبون لها ألف حساب ، ومما زاد فى غضب الحزب الوطنى وكمده أن إحدى الشركات الكبرى التى وضع الوطنيون الإفريقيون اسمها فى القائمة السوداء فضلت الاتصال برجال المؤتمر الإفريقى الوطنى ومفاوضتهم ، والاتفاق معهم على زيادة أجور العمال الإفريقيين فيها وزيادة نسبة المستخدمين الإفريقيين بين عمالها ، وكان نتيجة ذلك استبعاد اسمها من القائمة السوداء وبدء حركة التعامل معها .

هذه الشركة هى شركة حفظ الطعام التعاونية التى يشتهر أعضاؤها ومديروها بأنهم من أنصار الحزب الوطنى ، وبأنهم من غلاة المستعمرين الذين يعاملون الإفريقيين بغطرسة ، واستكبار .

ولقد بدأ تنفيذ قرار المقاطعة فى جو ملىء بالتوتر الشديد مما أزعج المستعمرين البيض وأثار مخاوفهم ، وبخاصة أنه جاء عقب الاضطرابات الفجائيــة التى اجتاحت دربان فى الأسبوع الذى سبقه .

والجدير بالملاحظة أنه لأول مرة فى تاريخ جنوب إفريقية يفقــد الأوروبيون صوابهم ، ويتخبطون فى تصرفاتهم بينما يسود الإفريقيين الهدوء والتعقل ويبدون استعدادهم لمقابلة سياسة العنف بصبر وإذعان ، وهذا دليل جديد على ما ساد البيض من حيرة وارتباك .

وسرعان ما قبل اتحاد دربان مبدأ زيادة أجور العمال الإفريقيين ، كما تبعته غرفة ناتال الصناعية واتحاد ناتال التجارى فرفعوا أجور الموظفين الإفريقيين بهما من سبعة شلنات وستة بنسات شهرياً إلى ثلاثة عشر جنيهاً وسبعة عشر شلنا وثمانية بنسات .

مثل هذه الاستجابة والاستسلام من جانب الحكومة والشركات تجاه سخط الوطنيين ومطالبهم لم يكن يخطر على بال أحد فى الماضى ، وإذا كانت روح المستعمرين المعنوية قد هبطت إلى هذا الحد بالرغم من السيارات المدرعة التى أمد بها وزير العدل رجال البوليس حتى يتمكنوا من قمع كل

حركة للوطنيين ، فإن روح الإفريقيين المعنوية ، قد ارتفعت بشكل ملحوظ ملموس عنها فى السنين الماضية .

ولعل مرجع ذلك بصفة جزئية إلى فشل الحكومة المزرى المخجل فى إقامة الدعوى التى لفقتها على من قبضت عليهم من الوطنيين منذ سنتين وعجزها عن إثبات صحة التهم الملفقة التى وجهتها إلى غيرهم من الوطنيين الذين تجرى محاكمتهم الآن .

الجموع الثائرة !

إن الوطنيين الإفريقيين — وكلهم ثقة فى المستقبل—لينتظرون بفارغ الصبر أية فرصة سانحة ينتهزونها لإعلان غضبهم وعدم رضاهم باتخاذهم قرار المقاطعة كوسيلة إيجابية للتعبير عن سخطهم ، ولعل اجتماع شهر يونيو عام ١٩٥٩ مقدمة موفقة لضرب النفوذ الأوروبى .

لقد تجمعت هذه الآلاف المؤلفة لتستمع إلى رسالة وصلتهم ليوتيلى أرسلها إليهم رئيس المؤتمر الوطنى الإفريقى المنفى عن بلاده ، وكان فى إمكان هذه الجموع الحاشدة — لو أرادت — أن تجتاح المدينة ، وأن تسحق كل مقاومة قد تقف فى طريقها ! !

لكنها آثرت أن تنصرف وتتفرق فى سكينة ونظام وهدوء بالرغم من حالة التوتر الشديدة التى سادت دربان فلم تبدر من كل هذه الجموع الزاخرة الحاشدة أية بادرة تستدعى تدخل رجال البوليس المسلح ، الذى كان يقف بالقرب منها .

ومع أنه مضى على هذه «المقاطعة» كثير من الوقت ، وعرف الأوروبيون أن يهدئوا من هذه الثورة بزيادة طفيفة فى الأجور ، وعرف الإفريقيون فى «جنوب إفريقية» أن يسيطروا على غضبهم إلا أن النذر عادت تتجمع من جديد فى سماء هذه البلاد ! وبخاصة بعد المعركة الأخيرة التى دارت رحاها فى لندن فى اجتماع الكومنولث الأخير إذ أن المؤتمر ما كاد ينعقد هناك حتى أعلن أيوب خان «أن سياسة التفرقة ستقضى على البيض ، وصرح تنكو عبد الرحمن بأنه سيهاجم جنوب إفريقية بدون تحفظ ، وحين أعلن «هنريك فيرورد» رئيس وزراء جنوب إفريقية بأن ما يحدث فى بلاده إنما هو نوع من المحافظة على الجوار رفع نهرو صوته بأنه لا يريد أن يكون جاراً لهذا الرجل .

وهكذا توالت الضربات القاسية على تلك السياسة الهمجية من كوامى نكرومه ، وأبو بكر باليوا ، ومسز بندرانيك ، وغيرهم وكان أن خيروا «هنريك فيرورد» بين أن يخرج من الكومنولث أو يطرد ، وتنفس العالم أجمع حين اختار «الخروج» ،لأن قد ترتبت على هذا الخروج عدة نتائج أهمها :

١ – أن بريطانيا « الأم » لم تعد تحكم قبضتها على الدول الأخرى . ولم تعد تملى إرادتها لتنفيذ أغراضها الاستعمارية كذلك .

٢ – أصبحت الكلمة الأولى فى الكومنولث الآن للأمم الافرسيوية . وبهذا يمكن الاطمئنان إلى أن هذه الدول ستكون حارسة الحرية . وحارسة الاستقلال ، والمبادئ الإنسانية فى كثير من القطاعات العالمية .

٣ – إمكان مناقشة المسائل الداخلية لأية دولة مشتركة بعد أن كان هذا ممنوعاً على الأعضاء . ففى ضوء هذه الكلمة المطاطة كانت ترتكب الكثير من الحماقات .

٤ – وضع الحقائق أمام حكومة جنوب إفريقية . والضغط عليها لقبول الشروط التى وضعتها للتنفيذ فى لندن ، والتى لم يوافق عليها « هنريك فيرورد » وهذه الشروط هى :

(أ) تمثيل متكافئ لجميع الأجناس فى جنوب إفريقية .

(ب) لا تفرقة فى المعاملة بين البيض والسود والملونين والصفر فى الأماكن العامة .

(ج) لا جامعات خاصة للبيض وأخرى للسود .

(د) عدم تخصيص الدرجات الأولى للبيض ، وما دونها للملونين .

(هـ) كفالة حق الملكية فى مختلف أنحاء البلاد .

هذا من ناحية السياسة الخارجية أما من الداخل فيمكن القول بأن موقف « هنريك فيرورد » هذا سيجمع القوى الوطنية فى البلاد فى كتلة واحدة منظمة . وسيزيد الموقف حدة وتوتراً ، كما سيزيده عمقاً لأن القوى التحررية هناك أصبحت تدرك أنها ليست معزولة عن العالم الخارجى . وعن دعوات السلام ، والتسامح . والمساواة . وإنما هى مرتبطة كل الارتباط بالجهاز العالمى كله . وأن كلها صرخة بالحرية لن تضيع فى العالم فضلاً عن القارة . وأنه لم يعد ها – إزاء تصميم العالم الواعى بإزالة التفرقة العنصرية – إلا أن ترفع راية الحرية . وأن تنال كافة حقوقها كاملة . وأن تعيش فى بلادها عزيزة . ولن تضيع منها هذه الفرصة الذهبية التى حولت أنظار العالم إليها . وأصبح يساندها كذلك ، فى كل خطوة تخطوها على طريق الحرية الدامى من أجل كرامة الإنسان . .

النهاية :

وأخيراً فقد سمعنا كثيراً عن هذه المقدمات . فذكر أن الوطنيين قد أحرقوا « دمى » تمثل رئيس الوزراء الذى رفض التخلى عن سياسة التفرقة العنصرية ، وأضرموا النار فى مكاتب المجلس البلدى . ومدت أكثر من يد لتتقابل وتتحد ، وتقابل أكثر من عقل كذلك للتفكير فى موقف إيجابى يحد من سياط الذل التى يجلدون بها فى الصباح والمساء . وفيما بين الصباح والمساء .

لقد جرب الوطنيون هناك سلاح المقاطعة ، وسلاح المظاهرات ، والهجوم على المنشئات العامة ، وإحراق « التصاريح » الخاصة بهم وهم يباشرون حياتهم فى وطنهم ، ولكن بقى سلاح واحد قاطع هو تجمع القوى الوطنية وتدفقها فى مجرى واحد بعيد عن الحزبية والقبلية ، ومتى توافرت لها عملية التنظيم هذه أصبحنا ندرك أنه لا بد من حصول هذا الشعب على حقوقه الإنسانية التى لا قيمة للحياة بدونها .

لقد سلم الزعماء الذين اجتمعوا فى لندن وبخاصة الإفرسيون منهم أعلام الكرامة والحرية إلى الإفريقيين فى جنوب إفريقية ، والذى بقى الآن هو التنظيم الداخلى لنيل حقوقهم . . ومع أننا نعرف أنه ستكون هناك دماء ، وستكون هناك قتلى إلا أننا سنبارك هذه الدماء وهؤلاء القتلى فتمثال الحرية لن يقوم إلا على هذه الأشلاء ، ولن يضىء إلا بالدم الغالى المنزوف من النفوس التى أرقها حب الاستغلال ، وأسهرها حب الحرية !

أما الذى لن نوافق عليه فهو الانقسام الداخلى بين الجبهة الوطنية ، والانخداع بالمستوطنين البيض . ووضع الأيدى الملونة فى أيدى الذين أذلوا كل ذرة من تراب هذا الوطن العظيم ولكن الأمل كبير فى هذا الوطن الذى عانى من الاستعمار والاستغلال أكثر مما عاناه وطن إفريقى آخر . . فطريق الحرية الجاد أمامه وما يعز عليه هو السير فى قوة وعزم وتصميم .

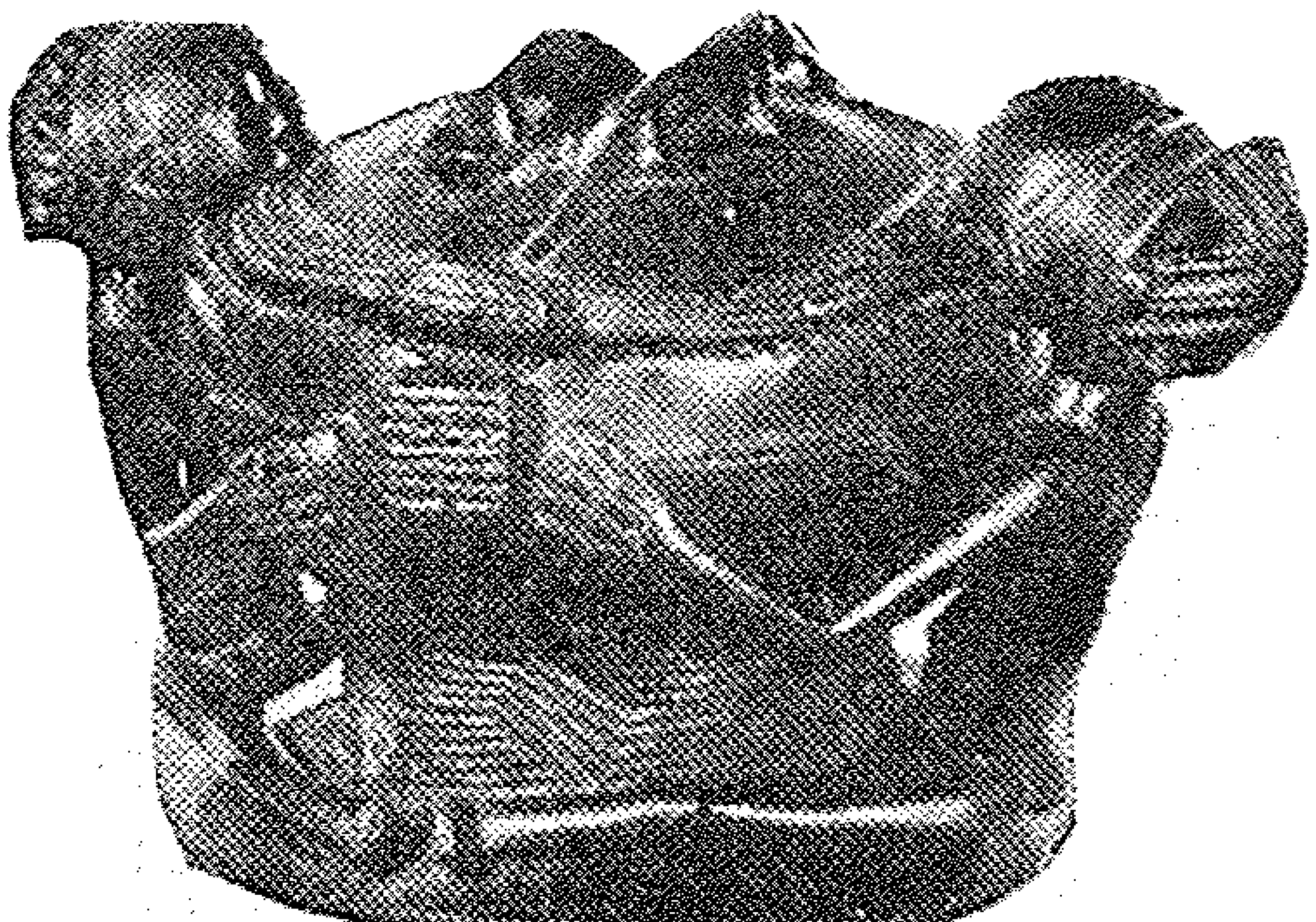

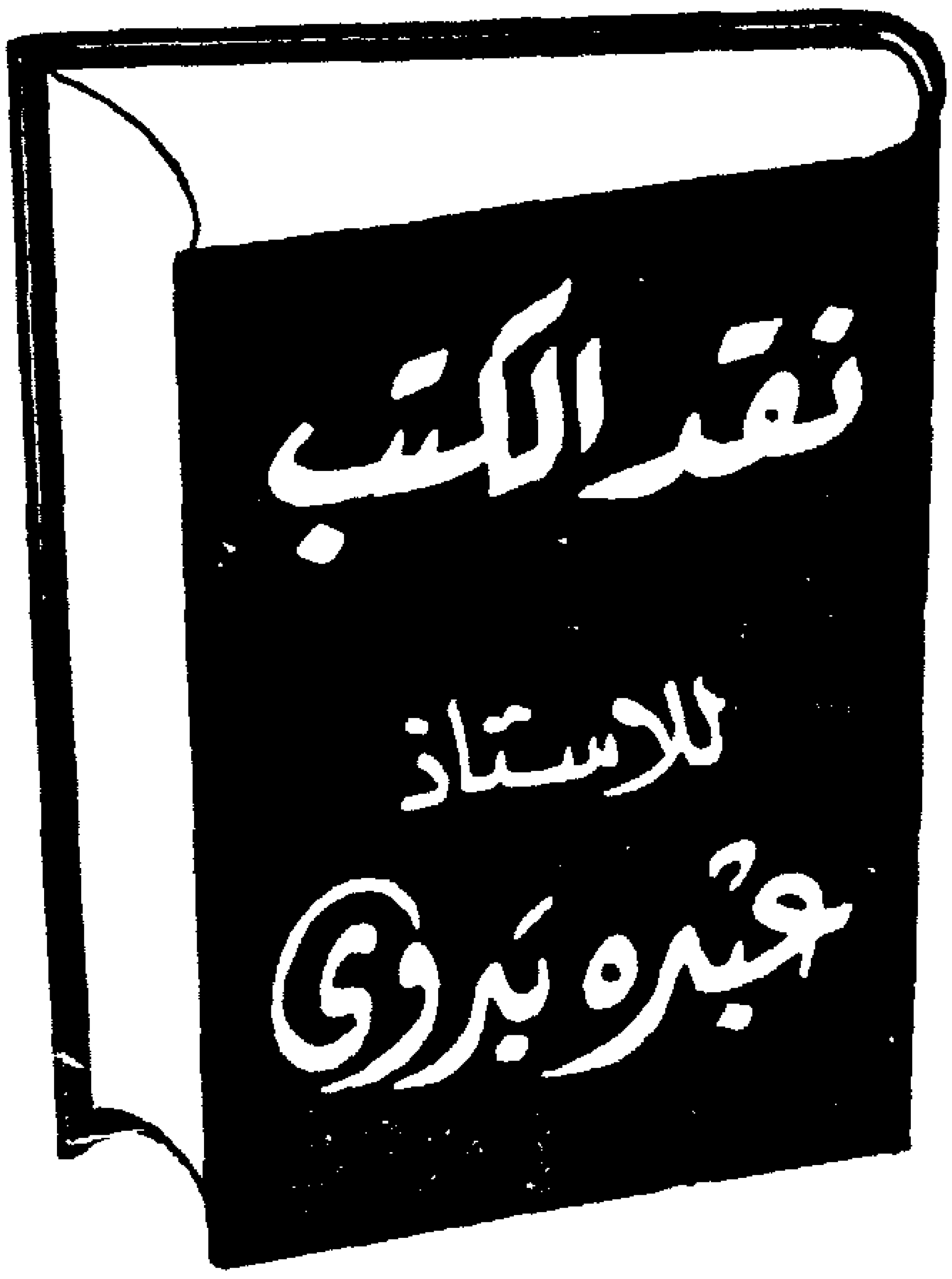

(بدأت قضية كينيا تدخل اهتمامات العالم ، وبخاصة بعد الانتخابات الأخيرة التى تمت هناك ، والإجماع على رفع الحصار عن جوموكنياتا ، والمطالبة بعودته إلى الحياة العامة ، فهو الذى يستطيع قيادة الشعب ، والسير ببلاده فى طريق النور ، والرخاء ، والحرية ، ومن الكتب القيمة التى تلقى ضوءاً باهراً على قضية هذه البلاد كتاب « قضية كينيا » الذى صدر عن المكتبة الثقافية التى تصدرها وزارة الثقافة والارشاد القومى للدكتور عبد العزيز كامل المدرس بمعهد الدراسات الإفريقية) .

* * *

وقد بدأ الكتاب برسم صورة للزعيم « جوموكنياتا » فذكر أنه فى ١٤ من أبريل عام ١٩٥٩ يكون قد مضى عليه فى السجن سبع سنوات ، ولكن لم يترك بينه وبين الشعب ، وإنما نرى القوى الأجنبية هناك تعمل على نفيه فى قرية « لدور » المنعزلة فى المديرية الشمالية حيث يقضى أياماً حزينة فى حجرتين صغيرتين بلا خادم ، أو شعب ، أو كتاب ، أما جهاز الراديو فلا يستقبل إذاعة القاهرة أو موسكو ، وأما من يرغب فى زيارته فيجب أن يحصل على إذن من السلطة المركزية فى « نيروبى » ، كما أن عليه أن يبقى فى معتقله من الغروب إلى الفجر ، وأن يتصل فى كل يوم بمفتش المركز وهكذا تهدر زعامته وإنسانيته فى وقت واحد ، رغم أنه القوى الحقيقية ، والشخصية الإفريقية ذات النفوذ والتأثير ، حتى لقد وصفه سير فيليب ميتشل الحاكم العام السابق لكينيا بقوله : « إن له نظرات هى أعمق وأشد النظرات التى رأيتها فى حياتى نفوذاً وسيطرة » .

وقد ارتبطت حياة هذا الزعيم بقضية بلاده كلها ، فهو واحد من أبناء قبيلة « الكيكويو » الذى يبلغ تعدادها نحو مليون نسمة ، وقد التحق بإرسالية الكنيسة الاسكتلندية فى بلدة كيكويو جنوب جبل كينيا ، وعمل فى التجارة لتعينه على أمر الحياة كما انضم فى عدة تشكيلات سياسية حتى استطاع الوقوف على قمة الأحداث الوطنية فى البلاد .

وإلى جانب هذا الاهتمام السياسى نرى جانبه الآخر العلمى فنراه يعى تقاليد قومه ، ويدرسها ، وفى إنجلترا نراه ينكب على « الأنثروبولوجيا » ، ويعد كتاباً اعتبر بحق إضافة مخلصة

« للاثنوجرافيا » الإفريقية ، وقد كتب عنه الباحث الإنجليزى دكتور ليكى بمجرد صدوره متعرضاً لهذا النفر المتحمس من الإفريقيين « إن هذا النفر من الشباب يعتبرون أنفسهم أصحاب رسالة . ونفوسهم تشتعل برغبة جارفة ليأخذوا بأيدى قومهم . ويصححوا الأخطاء التى تحيا فيها كينيا » . كما أنه زار روسيا ، وشمال غرب أوروبا .

وحين عاد نرى قومه يمنحونه مزرعة « إيشاويرى » ومنزلا فيها . ونراه يرفع عليه علم الاتحاد الإفريقى بألوانه الثلاثة الأسود رمز الشعب ، والأخضر رمز الأرض ، والأحمر رمز الدم المراق . ووسط العلم درع ورمح وسهم ذهبية اللون . وبمجرد عودته نراه يقود حركة التحرير ببلاده ونرى الكيكويو يقاطعون مدارس الإرساليات وينشئون مدارس خاصة بهم . كما نراهم ينشئون كلية للمعلمين ويرون انحراف البيض المسيحيين ، فيقيمون لأنفسهم كنائس منفصلة . وقد دفعت هذه الشحنة من اليقظة الشعب إلى أن يستيقظ . وأن يقاطع البيرة والقبعات الإنجليزية . وأن يطالب باستعادة الأرض المغتصبة منه ، كما دفعته إلى الثورة التى سمع بها العالم باسم « ماو ماو » . ولكن الإنجليز سرعان ما دمروا الحركة ، وعطلوا اتحاد كينيا الإفريقى ، وأعلنوا الطوارئ واعتقلوا كينياتا فى ٢١ من أكتوبر ١٩٥٢ ، ثم أقاموا له محاكمة صورية لإبعاده عن الشعب ، ولعل أروع ما فى هذه المحاكمة كلمات الدفاع التى ذكرها هذا الزعيم عن قضية الحرية فى بلاده ، فقد جاء فى دفاعه قوله مخاطباً القاضى ثكر

« . . نحن لسنا مذنبين ، ولا نشعر بأننا لقينا منك العدل ، أو سمعنا منك ما نحب أن نسمع ، نحن نشعر أن هذه القضية قد رتبت بطريقة ترمى إلى خنق اتحاد كينيا الإفريقى ، وهو المنظمة السياسية الإفريقية الوحيدة التى تحارب من أجل حقوق الإفريقيين ، إن الذى نعارضه وسنظل نعارضه هو مظاهر التمييز فى المعاملة التى تسير عليها الحكومة ، سوف لا نقبل هذا سواء كنا فى السجن أو خارجه ، إن هذه الدنيا قد خلقت ليعيش الناس فيها سعداء معاً .

أنت كأوروبى قد تحس أننا نحمل لكم شيئاً من الكره ، إن نشاطى كان ضد الظلم الذى حاق بالإفريقيين ، وإذا كنت تظن أننا حين نطلب العدل للإفريقيين قد انقلبنا إلى ما تسميه ماو ماو ، فإننا نأسف لأنك جانبت الصواب . إن الذى عملنا له وسنظل نعمل له هو المطالبة بحقوق الإفريقيين كبشر . وأن يتمتعوا بالطيبات التى يتمتع بها الآخرون . إننا نتطلع إلى اليوم الذى يحل فيه السلام بهذه الأرض ويظهر الحق وإننا — معشر الزعماء الإفريقيين — عملنا من أجل السلام ، نحن بشر ولنا أسر ، ولا يمكن لأحدنا أن يغفر هذه الأعمال التى تظنون أننا متهمون بها . باسم إخوانى لا أسأل أية رحمة ، وإنما نسأل أن يأخذ العدل مجراه ، وأن تصحح الأخطاء الموجودة »

ولكن القاضى أصدر حكمه المدبر من قبل ، وزاد الأمر توضيحاً أن « روشن مشاريا مبوجوا » الشاهد الأول ضد « جوموكيناتا » خرج على العالم فى ٢٢ نوفمبر ١٩٥٨ بأنه هو والشهود الذين شهدوا فى هذه القضية قد دفعوا إلى هذه الشهادة دفعاً . وأن الحكومة دفعت لهم أحد عشر ألفاً من الجنيهات فى مقابل هذه الشهادة الكاذبة .

ورغم أن هذه الشخصية لم تستكمل كل جزئياتها إلا أنها وضحت الملامح الرئيسية لهذا الزعيم . فقد تعرض المؤلف لكتاب « مواجهة جبل كينيا » ولم يتعرض لكتابه العظيم « كينيا أرض الصراع »
Kenya : The Land of Conflict
كما لم يتعرض لمذكراته التى بدأ يسجل فيها صراعه فى وطنه ابتداء من عام ١٩٣١ كما أنه قد اهتم بالفولكلور ورؤى هذا واضحاً فى تلقيه بعض الأغانى الإفريقية لبول روبنسون الذى رددها بدوره فى فيلم « مراكب النهر » ، وقد ذكر السيد المؤلف أن تاريخ ميلاده غير معروف بالدقة « ولعله يفوق الآن الستين » ، ولكن أكثر من مرجع قد ذكر أنه ولد فى عام ١٩٠٤ ، كما ذكر سيادته أنه قد اشتغل فى قسم التجارة الذى أنشأته الإرسالية ، كما ذكر أن كلمة كنياتا تدل فى لغة الكيكويو على الغرابة فى الملبس ، ولكن معناها فى الأصل هو « مضمد الجروح » ، ثم أطلقت على من يلبس نوعاً من الأحزمة المزركشة بالخرز .

ثم بدأ المؤلف قصة الاستيلاء على « كينيا » ، وأنها كانت حلقة من حلقات السيطرة على إفريقية ، فبعد أن كان شرق القارة يمارس حياته فى عمق ، وحب للحياة ، وتفاهم تام مع القوى العربية التى غطت مساحات كبيرة من الشرق بدأ الغربيون يدقون بعنف على قلب القارة ، حتى أن البرتغاليين حينما داروا حول « رأس الرجاء الصالح » أدهشهم أنها شاهدوا فى شرق إفريقية مدناً عامرة ذات حضارة ، وحكومات مستقرة ، وملاحين من العرب مزودين بالخرائط والأجهزة البحرية ، فهم الذين وجهوه إلى الهند .

ولكن الصراع كان لا بد من حدوثه بين الدول العربية الإسلامية فى شرق القارة ، والقوى الغازية الجديدة التى سرعان ما ضربت عهد النهضة الإسلامى هناك ضربة قاصمة ، ثم دخلت ، فى القرن السابع ، إمامة عمان الصراع مع البرتغاليين ، وصح عزمهم على طرد البرتغاليين ، وقد نجحوا فى صراعهم هذا ، وقد حاول البرتغاليون استعادة نفوذهم مرة ثانية فى أوائل القرن الثامن عشر ، ولكن إمام « عمان » سارع إلى إحباط المؤامرة وإلى طرد البرتغاليين تماماً من شرق إفريقية فى عام ١٧٣٠ .

وهكذا أظل شرق إفريقية عصر ذهبى إسلامى ، وبخاصة فى عهد الإمام سعيد (١٨٠٤ — ١٨٥٦) فقد أسس

مدينة زنجبار ، وحكم منها ولاياته الإفريقية ، وامتد نفوذه على الساحل على طول مساحة تقدر بـ ١٦٠٠ كيلو متر ، كما امتد نفوذه إلى الداخل حتى وصل إلى حدود الكونغو وأوغندة وروديسيا ، وكذلك علا صيته حول البحيرات العظمى ، وأصبحت القرى العربية تغمر كينيا . وتنجانيقا ، والأجزاء الجنوبية من الصومال ، وقد ظل الحكم فى أولاده حتى تمت عملية تقسيم شرق إفريقية ، وأصبحت « كينيا » من نصيب إنجلترا بعد أن مهدت لذلك « شركة شرق إفريقية » التى تولت السيطرة على القطاع الضخم الممتد من ممبسة على الساحل حتى بحيرة فكتوريا أى كينيا الحالية ، ثم قامت إنجلترا بتعديل، زيادة ونقصاناً، على حساب جيرانها ، بحيث تشكلت الآن من ٢١٩,٧٣٠ ميلاً مربعاً، تكون ثلاثة أرباعها الحدود الشمالية وتعتمد فى الأعم على الرعى ، أما الربع الباقى فهو الربع المنتج .. فهو المرتفعات التى تتوافر فيها ظروف الاستيطان وهو ما يسمى بالمرتفعات البيضاء ، وتعتبر نقطة ارتكاز الرجل الأبيض .. أما عدد السكان بعامة فيبلغ الآن نحو من ٦,٤ مليون نسمة .

ثم تحـدث المؤلف عن هـذه المرتفعات البيضاء فذكر أن هـذه المنطقة لم تكن خالية من سكانهـا الإفريقيين ، ولا أرضاً مباحة ، ولكن البيض قد رأوا فيها ، لارتفاع الأرض واعتدال الحرارة ، وتوافر المطر ما يمكن أن يكون مكانا صالحاً لاستيطانهم كما هو الحال فى شرق القارة ووسطها وجنوبها حيث يعتبرون هذه الأماكن الصالحة لسكناهم «محوراً أبيض ترتقى حوله القارة السوداء ! » ، ومؤكدين فى الوقت نفسه أن الإفريقيين لم يعرفوا نظام الملكية الخاصة فى الزراعة أو الرعى ، لأن الأرض كانت ملك القبيلة، وعلاقة الفرد بها علاقة انتفاع فقط ، كما ذكروا أن الإفريقيين — قبل مجيئهم — كانوا ضحايا المعارك الداخلية فالأوبئة والمجاعات مما كان سبباً فى نقص السكان حسب ما تقوله إحصائياتهم ، ولكن كثيرين لا يطمئنون لهذه الإحصائيات كالدكتور كوتشنسكى ، كما أن الزيادة كانت تحدث نتيجة لضم بعض المناطق كما حدث بعد ضم إقليم « تركانا » من أوغندة إلى كينيا ، أما القول بأن الأرض لم تكن ملكاً للإفريقى فقول يمكن الرد عليه بقول جزموكنياتا

« بأن الكيكويو — أكبر قبائل كينيا — يعتقدون أن الأرض أم القبيلة ، وإذا كانت الأم تحمل جنينها تسعة أشهر ثم ترضعه فترة أخرى فان الأرض تطعمه طول حياته ، وفى جوفها يرقد بعد مماته ، وهى التى ترعى أرواح الموتى إلى الأبد ، فللأرض القداسة الكبرى عند الذين يمشون فى مناكبها أو يرقدون فى جوفها ، والحلف بالأرض (كيورجو) أعظم ما يقسم به الفرد من الكيكويو » .

كما يعرض كنياتا أنواعاً متعددة

من أنواع حيازة الأرض ، ويذكر أنهم يطلقــون كلمة « يوروري واكيكويو » على أرضهم، ومعناها أن هذه الأرض تخصهم، ثم يختم قوله بقوله :

« وليس هناك شك فى أن الأوروبيين أساءوا فهم هذا الاصطلاح الأخير ، أى ملكية القبيلة لأرضها بعامة » .

وقد وضح حقيقة الاغتصاب هذه لورد هيلى فى قوله :

« إن الحكومات قد بسطت نفوذها على الأرض وامتلكتها بوسائل متعددة : ففى بعض الأحيان أخذتها بحق الفتح ، وفى بعض الأحيان تم هذا عن طريق معاهدات مع رؤساء القبائل ، اعتبرت كأنها تسليم الأرض للمستعمرين ، وأحياناً كان يتم الاستيلاء عن طريق تفسير النصوص من وجهة النظر الأوروبية بصرف النظر عن فهم الإفريقيين إياها عند توقيع الاتفاق وفى الواقع كان العامل الجوهرى الذى يقرر انتقال ملكية الأرض إلى المستعمرين هو مدى ملاءمتها للاستعمار ، لا الأسس والحجج القانونية، وهذه الملاءمة تفسرها ظروف المناخ والتربة ، وهى التى وجهت تيار الهجرة الاقتصادية إلى جنوب وشرق القارة أكثر من اتجاهه نحو الغرب » .

وهكذا توافد البيض على هذه البلاد ، وإن كان عام ١٩٠٣ يعتبر بدء الزحف المنظم لمرتفعات كينيا حتى وصل عددهم إلى ٦٤,٠٠٠ مستوطن . كما بلغ عدد المستوطنين الآوسيويين إلى ١٥٠,٠٠٠ ، وقد أرغم هذا الإفريقيين إلى الحياة القاسية فى المعازل ، أو العمل فى أرض البيض . ورغم أن بعض الصيحات قد نددت بهذا الوضع الذى امتهنت فيه كرامة الإفريقيين إلا أن الحكومة لم تأخذ بها ، ووقفت عاجزة دون تنفيذها .

ثم حدثنا المؤلف عن المنظمات السياسية إلى عام ١٩٥٢ فذكر أن الاستعمار فى أول أمره هدف إلى إقامة ثلاثة مستويات هى على التوالى مستوى البيض ، ثم الآسيويين ، ثم الإفريقيين ويعتبر عام ١٩٢١ البذرة الحقيقية للثورات التى طالبت بالحرية والحياة الكريمة ، ففيه تكونت « جمعية شرق إفريقية » على أيدى جماعة من الشباب منهم جوموكنياتا ، وهنرى ثوكو ، وقد طالبت هذه الجمعية بحقوق الأجراء وبالعمل بدون تصريح ، كما احتجت على إبعاد الإفريقيين من المرتفعات البيضاء . ولكن الحكومة سرعان ما صادرت هذا النشاط عام ١٩٢٢ ، واعتقلت « هنرى ثوكو » .

وفى عام ١٩٢٨ تكونت « جمعية الكيكويو المركزية » ، وانتخب كنياتا أميناً عاما لها ، وقد ذهب فى عام ١٩٢٩ إلى لندن لعرض قضية بلاده التى لخصها فى الآتى :

١ — أن تعود إلى قبيلتنا كل الأرض التابعة لها والتى استولى عليها المستوطنون .

٢ — أن تضاف إلى أرضنا الحالية مساحة مناسبة من الأرض الزراعية الخصبة وأرض المراعى نظراً لحاجتنا إليها ، ونظراً للزيادة المنتظرة فى أبناء القبيلة .

٣ — أن توضح حدود معازلنا الحالية والمضافة بحيث يعرفها الجيل الحاضر والأجيال المقبلة بالعين المجردة دون رجوع إلى وثائق وخرائط .

٤ — أن تبقى أرض المعازل لأبنائها وألا يقتطع منها أى جزء لغيرهم مهما كان الهدف .

٥ — المحافظة على نظام « الجيتاكا » داخل المعازل على توفير ملكيات خاصة للعشائر والأسر

ورعاية تعديل المساحة مع تغير عدد أفراد الأسرة .

٦ — أن يصرح لنا بشراء الأرض من الأوروبيين والهنود متى استطاع أفراد قبيلتنا ذلك

٧ — أن نتوافر لكل عشيرة مساحة كافية من الغابات تحصل منها على حاجاتها من الأخشاب والوقود كما تتوافر للماشية فرصة الوصول إلى الأماكن التي تحصل منها على الملح .

ومع أن الحكومة قد أصمت أذنيها عن هذه الدعوة إلا أنها نبهت الرأى العام الإفريقى ، ولكن الحكومة تحينت فرصة الحرب الثانية وكان أن حلت — بناء على نصيحة المباحث الجنائية — هذه الجمعية عام ١٩٤٠ . بدعوى النشاط الهدام والاتصال بالإيطاليين .

وفى عام ١٩٤٤ تكون الاتحاد من جديد ، وطالب بالحكم الذاتى ، وزيادة عدد ممثلى الإفريقيين فى المجلسين التشريعى والتنفيذى ، وإيقاف تملك الأرض . . الخ ، وقد التف المواطنون حول هذا الاتحاد ، حتى أن عام ١٩٥٠ ما كاد يهل على البلاد حتى كان قد كون شبكة منظمة من الأنصار فى كافة أنحاء البلاد ، كما أرسل وفدا إلى لندن لعرض قضية البلاد ، واستطاع أن يضع مقدرات البلاد فى يده ، وبخاصة بعد حملة التوقيعات التى كانت بمثابة تفويض له فى قيـــادة الدفع الثورى فى البلاد .

ولكن الإنجليز كانوا لهذه الحركة بالمرصاد حتى لقد ارتفع صوت مايكل بلندل — زعيم الأوروبيين فى المجلس التشريعى — بقوله إنه يجب القبض على زعماء هذا الاتحاد ، وتمزيقهم بالسلاح كما اتخذت فى الوقت نفسه إجراءات مشددة ضد القوى النامية ، وكان الاصطدام الذى أطلق عليه ثورة « ماو ماو » ، والقبض على كنياتا مع ٢٥ من أعضاء الاتحاد ، وضرب الإفريقيين بعضهم ببعض ، والاستعانة بالكهنة الإفريقيين لرفع رهبة « القسم » عن الذين قد اتخذوا من القسم شعاراً لتدمير القوى الدخيلة فى البلاد . وفى سبيل وصول إنجلترا إلى مآربها نراها تستعين بالكهنة والسحرة فى الوصول إلى أغراضها ، أما المسيحيون الإفريقيون فسرعان ما كلفت « أسقف كنتربرى » بإرسال مندوب ليحض على السكينة وإلقاء السلاح الذى رفع فى وجه المحتلين . كما نرى إنجلترا تعزز قواتها فى هذه البلاد وتضع على رأسها « أرسكين » الذى عرفه الإقليم المصرى ردحاً من الزمن . وبكل هذه القوى استطاعت أن تضرب الحركة التحررية وأن تعتقل كنياتا ، وتستأجر بعض المواطنين للشهادة ضده ، وأن تلفق ضده تهماً متعددة لعل أطرفها ترديد اسمه بدلا من المسيح فى الصلاة والأدعية . وفى غمرة هذه الهمجية الأوروبية يسقط ثلاثون ألف قتيل إفريقى ، فيخضبون الأرض هناك ، ويصرخون فى كل يوم بالثأر !

ثم يحدثنا المؤلف عن الفترة التى تلت الثورة ، وعن الفراغ الذى خلفه

حل اتحاد كينيا الإفريقى . وكيف أن هذا الفراغ قد امتلأ أخيراً « باتحاد عمال كينيا » الذى يقف على قمته التنظيمية الزعيم الشاب « توم مبويا » الذى نبت من أعماق الشعب وحمل عذابه واستطاع أن يعبر عنه بقوة فى المجلس التشريعى . وفى كافة المجالات التى تتاح له فى اتحادالعمال . وحين حقق هذا الاتحاد بعض الانتصارات نرى أحزاباً أخرى مناوئة تقوم للحد من الانتصارات الوطنية مثل :

١ – الحزب الكينى البريطانى الامبراطورى بزعامة « جروجان » زعيم المستوطنين الذى ينادى بحكم البلاد بالقوة . ويدعو إلى شنق الإفريقيين . وطردهم من مزارعهم .

٢ – حزب الاستقلال الفيدرالى بزعامة ميجور روبرتس الذى يرى تقسيم البلاد بين المستوطنين والمواطنين على أن يفوز المستوطنون بأجودها وأخصبها .

٣ – حزب القطر المتحد بزعامة « مايكل بلندل » الذى يدعو إلى إقامة مجتمع تكون السيادة فيه للأوروبيين ، وقد فض هذا الحزب ثم عاد تحت اسم جديد هو « حزب كينيا الجديدة » .

وإزاء هذه الموجات العدائية نرى « مبويا » يذهب إلى لندن ويطالب « بصوت لكل مواطن » ليضمن أغلبية للإفريقيين فى كافة المجالات السياسية ، ولكن حين لم يستجب أحد له نراه يقاطع المجلس . ولكن فى عام ١٩٦٠ نرى مؤتمر لندن يضع خطوطاً لسياسة جديدة تنص على الآتى :

١ – جدول انتخاب موحد مع التوسع فى الشروط الواجب توافرها فى الناخب ، وهذه الشروط هى :

(أ) القدرة على الكتابة والقراءة باللغة الدولية أو

(ب) أن تكون سنه فوق الأربعين أو

(ج) أن تكون له وظيفة أو دخل سنوى لا يقل عن ٧٥ جنيهاً فى السنة وبهذا يمكن أن يرتفع عدد الناخبين الإفريقيين إلى أكثر من مليون .

٢ – أن يتكون المجلس التشريعى من ٦٥ عضواً منهم ٣٧ إفريقيا وهى أغلبية واضحة .

٣ – أن يكون للإفريقيين عدة وزارات فى مجلس الوزراء الجديد .

٤ – أن تصدر وثيقة حقوق أوصى المؤتمر بإعدادها بحيث تكفل المساواة ، وحماية حقوق الملكية بنصوص قانونية ، مع إلغاء نظام حيازة الأرض القديم القائم على التمييز العنصرى .

وقد أثار هذا الوضع الأوروبيين . وجعلهم يصرخون بأن مؤتمر لندن هذا ضربة قاضية للمجتمع الأوروبى فى هذه البلاد . حتى أن أحد غلاة المستوطنين قد ألقى عند أقدام «بلندل» — وهو أحد الذين وقعوا على هذه القرارات — ثلاثين قطعةمن الفضة وهو يصيح « خذها يا يهوذا ! ! » مشبهاً له بيهوذا الاسخريوطى الذى خان المسيح فى مقابل ثلاثين قطعة من الفضة .

وبينما كان هذا هو شعور البيض نرى « مبويا » يقول « لقد استطعت تفجير أسطورة السيادة العنصرية إلى الأبد ! » ، وإن كان بعض الإفريقيين قد سخروا من هذه النتيجة وطالبوا بالمزيد من الحرية والديمقراطية .

وهكذا نرى أن فى كينيا اتجاهين أولاهما يرمى إلى الاعتراف بمبدأ «تعدد العناصر » كأساس لا بد منه فى تشكيل

الحكومة ، على أن تبقى هناك حقيقة دائمة وهى ألا يخلى بين الإفريقيين والسيطرة العامة على بلادهم .

أما الاتجاه الثانى فيرى أن تقوم الحياة هناك على أسس من الديمقراطية الصحيحة . بحيث تكون الحكومة تعبيراً صادقاً عن القاعدة الشعبية التى تتشكل من الكتل الإفريقية . ذلك لأن المستوطنين يكونون ١٪ فقط من مجموع السكان الذى يبلغ (٦٫٢ مليون) ثم يوضح المؤلف هذا بقوله « بهذا نستطيع أن ندرك الأساس الجغرافى لاتجاه المستوطنين فى كينيا : فهناك مجال للاستيطان الأوروبى ، ولكنه مجال محدود . والأوروبيون لا يستطيعون أن يتكاثروا فى المرتفعات إلى الدرجة التى تجعلهم — من الناحية العددية — قادرين على أن يتخذوا — باستمرار — موقفاً عنيفاً صارماً من الإفريقيين .

هم الآن جزيرة أوروبية فى محيط إفريقى ، ولن تستطيع هذه الجزيرة أن تبتلع المحيط .

وليست هذه الجزيرة معابر أرضية تربطها بمناطق الاستيطان الأوروبى الأخرى حولها . فأوغندة إفريقية الطابع وقد انصرفت عنها أنظار المستوطنين من بدء القرن العشرين عند ما انتشر فيها مرض النوم ، وتتطلع الآن أعينهم إليها بعد كشف ثرواتها المعدنية .

والمستوطنون فى تنجانيقا قلة أيضاً وهم معزولون عن وسط القارة وجنوبها ولو كانت منطقة الاستيطان فى كينيا على صلة برية بمناطق استيطان أخرى لطالب الأوروبيون بالانضمام إليها ، لتكوين وطن واحد كبير » .

وهكذا نرى الأوروبيين يضطرون تحت ضغط القوى التحررية إلى الاعتراف ببعض مطالب الأوروبيين وأن الوعى الإفريقى يشق طريقه بفهم . وتأثر باليقظة الافرسيوية بعامة . والإفريقية بخاصة ، إذا عرفنا هذا عرفنا أن كينيا لا بد أن تصبح للكينيين .

ومع أن الكتاب يقف بالقضية الكينية حتى عام ١٩٦٠ . — لتاريخ صدوره — إلا أنا نرى صدق هذه النظرية التى تحدث عنها المؤلف ، فقد أجريت الانتخابات فى فبراير ، وكان على رأس الفائزين حزب ، « مبويا » ، وأصبحت الأغلبية ، للإفريقيين . كما رأيناهم يجمعون على عودة الزعيم الإفريقى الكبير « جومو كنياتا » الذى قال عنه مبويا « إننى لا أعتبر نفسى بديلا لكنياتا ، إنه حين يعود فسوف نتقباه جميعاً زعيماً لنا »

وهكذا يعطينا المؤلف هذه القضية بشمول فى كتيبه الصغير الذى يعتبر واحداً من الكتب الصادقة التى تعتز بها المكتبة العربية .

الشعر الإفريقى فى اللغة البرتغالية

فى أنجولا . وموزمبيق . وجزر الرأس الأخضر . والبرازيل .

للناقد الأنجولى ماريو دى اندرادا

تقديم وترجمة : الأستاذ فوزى سليمان

« فى الوقت الذى أخذت فيه شعوب إفريقية تنحدر من الاستعمار لتأخذ طريقها إلى العيش الكريم ، وفى الوقت الذى يحاول فيه الاستعمار استرجاع نفوذه المنهار بمؤامراته الحقيرة فى الكونغو ، وغيرها من أراضى إفريقية . . وفى الوقت نفسه الذى فرضت فيه حوادث أنجولا نفسها على الرأى العام العالمى . . ليشهد استعماراً آخر كان يحاول أن يتخفى ويتنكر . . فكشفت حادثة ثورة السفينة سانتاماريا . . عن الإرهاب والدكتاتورية فى البرتغال ودورهما فى استعباد شعب إفريقى أبى هو شعب أنجولا . . الذى بدأ العالم يتلفت إلى الحركة الوطنية التى أخذت تؤكد مطالبها فى الحرية والاستقلال .

فى هذا الوقت انعقدت اللجنة التحضيرية لمؤتمر الكتاب الإفريقيين الآسيويين فى القاهرة . وكان فى اعتباره الأول دور الثقافة القيادى فى معارك السياسة والتحرر . . ولذلك وافقت اللجنة التحضيرية أن يبحث المؤتمر الكبير فى نوفمبر القادم موضوع : دور الكتاب فى الكفاح لتصفية الاستعمار ، والعمل من أجل السلام ، وموضوع تقوية الثقافات القومية ، والشخصية الإفريقية الآسيوية ، وتصحيح تاريخ الشعوب والتعريف بحضاراتها ، ودور الترجمة فى تنمية التضامن الإفريقى الآسيوى . . ونلتقى بين الجلسات بناقد شاب نشأ فى أنجولا ، وتعلم فى أوروبا ،

ويتخذ اليوم من كوناكرى مركزاً لنضاله . . وهو الناقد الأنجولى « ماريو دى اندرادا » . . صاحب هذه الرسالة القيمة التى كتبها بالفرنسية والتى وجدت أن أترجمها لتعرض أول وثيقة عن كفاح الثقافة والمثقفين فى أنجولا . . فى الوقت الذى تتقدم فيه ليبريا ، والجمهورية العربية المتحدة تطالبان بعرض قضية الاستعمار البرتغالى فيها على مجلس الأمن » .

لن يمضى وقت كبير حتى يجد كتاب إفريقية الزنوج ، وشعراؤها القوالب والأشكال الأدبية التى تمكنهم من التعبير الحر الكامل ، والتكامل عن الحياة الروحية لشعوب إفريقية ، السوداء ، والواقع أن العدد الموجود من الكتاب ، والشعراء يكافح بكل قواه للتغلب على المتناقضات التى يخلقها الاستعمار فى البلاد المستعمرة .

والإنتاج الأدبى الحالى ليس هو الإنتاج الذى سيكتب له الخلود ، والبقاء . . لسبب هام : هو أنه يكتب باللغات الأجنبية ، البرتغالية ، أو

الفرنسية ، أو الإنجليزية ، ولغة الكتابة القومية التي تتوافر لها كل مقومات التعبير هي في طريقها إلى التبلور ، ومن شأن الكتابة باللغات الأجنبية أن تحرم الكتل الجماهيرية من التفاعل مع هذا الإنتاج الأدبي الذي يبدو غريباً بالنسبة لها . . فإن عدم تفاعل هذه الكتل ، أو بعبارة أدق — عدم شعور الكاتب بأنه يكتب لهذه الجماهير يجعل تعبيره قاصراً ، ويحد من أعماقه ويضيق من أفاقه . ويقلل من قيمة التجربة الفنية . كما يقلل من فرصة تطور أعماله الأدبية . . أضف إلى ذلك وقوف المستعمر برقابته أو سلطاته . أو حرصه الشديد على إبقاء الشعوب المستعمرة في إطار من الجهل والسلبية ، غير ملاحقته للكتاب والفنانين ، والشعراء بخاصة . وفرضه الرقابة الشديدة على ما يكتبون . . وهذا كله يجعل الإنتاج الأدبي . المنشور . أو المسموح بنشره . إنتاجاً هزيلا .

ومع ذلك . فإن هذه المحاولات التي يرجع تاريخها إلى ما يقرب من قرن قد تطورت . ولسنا بحاجة إلى بذل جهد كبير لكي يتضح لنا أن بين هذه الأعمال الأدبية سمات مشتركة في الشكل والموضوع . وهي لا تكاد تخرج عن التعبير عن الكفاح . . كفاح الرجل الأسود . الغريب في أرضه ، الشريد في وطنه . . كفاحه في سبيل إنهاء ليل الاستعمار . وفي سبيل تحقيق الحرية ، والكرامة والاستقرار لنفسه ، ولبني البشر أجمعين . .

وبالطبع كانت هناك اختلافات في الشكل ، وفي الصياغة ، وفي تناول الموضوع . وذلك بسبب اختلاف الأوضاع الاستعمارية والظروف التي يعيش فيها كل شعب من شعوب المستعمرات الإفريقية .

ولعل هذا يثير في نفوسنا تساؤلا عن مدى نجاح السياسة الاستعمارية التي تهدف إلى فرض ثقافتها على المستعمرات وتوجيه العقلية الإفريقية توجهاً يتفق والسياسة الاستعمارية ، مما يؤدي إلى لون من ألوان الامتصاص الثقافي الذي ينتهي بخلق جيل من الإفريقيين يفكر ، وينفعل . ويكتب بلغة ، وثقافة المستعمر ! . . لو أن هذه السياسة الاستعمارية قد نجحت فعلا ، لما كانت هناك اختلافات في صورة ومضمون التعبير الأدبي في المستعمرات التابعة للبرتغال . ولكن الواقع هو عكس ذلك مما ينبيء بفشل سياسة الاستعمار الثقافي .

وإذا كان الاستعمار قد نجح في شيء ، فقد نجح في إبقاء البلادة الإفريقية المستعمرة في حالة فاضحة من الجهل والركود الثقافي . وحول النشاط الثقافي فيها إلى لغته ؛ فالتعليم يقتصر على اللغة البرتغالية . وترسل البعوث من القلة المختارة إلى البرتغال . . وبذلك لا يكتب المثقفون إلا باللغة

البرتغالية ، مما أدى إلى عدم وجود أدب زنجي متطور في شكله ومضمونه بحيث يقف على قدميه في المحالات الأدبية الدولية ، وأصبحت المؤتمرات والندوات الثقافية والأدبية العالميه لا تستشعر وجود إنتاج فكرى زنجي يعبر بحق ، عن العقلية الزنجية وينشر تراث هذه الملايين من الزنوج في إفريقية وغيرها ، بل وأصبحت المحافل الأدبية الدولية تؤمن بالأمر الواقع فأسقطت من حسابها الرجل الأسود ! !

والواقع أن النظام الاستعماري ، وبخاصة المتميز بالسيطرة والعنف ، لا يعطى أية فرصة لنمو الحركة الأدبية . والكبت هنا ليس كبتاً ناجماً عن سيطرة طبقة بعينها ، وإنما هو كبت ناجم عن سيطرة مجتمع بأكمله ، هو المجتمع الاستعماري على مجتمع آخر . ولسنا بحاجة إلى مزيد من الحديث عن الجهود التى يبذلها المستعمر لإبقاء البلد في حالة من الضعف والتأخر ، حتى ليكتفى بالاعتماد على ثقافة البلد الدخيل يستهلكها ويمتصها ويعيش عليها .

ولقد قامت السياسة البرتغالية الاستعمارية على أساس سيادة الثقافة الغربية ووضعها كمثل أعلى يجب على البلاد المستعمرة أن تسعى إليه ويتحدد نصيبها من الرقى بدرجة نكرانها لذاتها وتنكرها لأصلها وتجاهلها لإفريقيتها !

وعلى كل فقد لجأ الاستعمار البرتغالى إلى أقصر الطرق لتطويع المستعمرات وجعلها تابعة له ، حتى في المجالات الثقافية والأدبية ، ولم يكتف بعملية الامتصاص الثقافى التى قد تستلزم منه أجيالا حتى يوجد جيلا من أبناء المستعمرات يفكر بعقلية برتغالية ويعبر عن نفسه بأسلوب برتغالى ولغة برتغالية . . . وإنما لجأ الاستعمار البرتغالى إلى تحطيم المقومات الاجتماعية والثقافية للمجتمع الإفريقى والشخصية الإفريقية ليقيم على أنقاضها طبقة جديدة من حفنة من العملاء والتابعين ، الذين تربوا في أحضان الاستعمار ورضعوا لبانه ، كطليعة مثقفة تقود الحركة الفكرية والأدبية في المستعمرات . . ولم يمنعها هذا من أن تدعى أنها رسول للحرية والمدنية والثقافة جاء إلى إفريقية يحمل رسالة المسيح وحضارة الغرب لإخراج سكان إفريقية المتأخرين من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة والتقدم .

كل هذا — وغيره كثير — يشكل الصعوبات التى كان على المخلصين من المثقفين من أبناء المستعمرات أن يتغلبوا عليها . في سبيل الوصول إلى أدب إفريقى وثقافة إفريقية . ولمقاومة ضغط المستعمر ومحاولاته القضاء على الكيان الإفريقى ، ومحاولته صبغ العقلية الإفريقية بصبغة برتغالية في التفكير واللغة وأسلوب التعبير ، ولإشعار المحالات الأدبية

الدولية بوجود أدب إفريقى يعبر عن الروح الإفريقية الأصيلة ، ويرسم ملامح الشخصية الإفريقية الحديثة ويخرج تراث الإنسان الأسود إلى حيز الوجود العالمى ، ويعكس على مرآة الوجدان الإنسانى انفعالات وأحاسيس الرجل الأسود . . ولقد كان هذا هو الطريق الذى رسمته — لأنفسهم — طليعة الأدباء والشعراء من أبناء إفريقية الذين أخذوا يبحثون عن أنفسهم بين الكتل البشرية السوداء ، التى تعيش ، وتكدح ، وتئن وتشكو ، وتموت فى بطولة وتضحية . . . هناك فى قلب القارة العذراء . . بعيداً عن لغة المستعمر وثقافته . . ولذلك كان عليهم أن يخلعوا عن أنفسهم وعن بنى وطنهم الرداء الزائف ، وأن ينسجوا من أرواحهم أشعارهم التى تنير الطريق لبنى جلدتهم حتى يجدوا أنفسهم . . فتكون هذه لحظة الانطلاق .

شعراء الرأس الأخضر :

تميزت جزر الرأس الأخضر ، منذ القرن الخامس عشر ، بأنها كانت مكاناً لالتقاء كثير من الشعوب ، والأجناس : البرتغاليون ، والغانيون ، والمغاربة ، والأسبان ، والهولنديون والهنود ، ومن مختلف المواطنين الإفريقيين من البلاد الإفريقية المجاورة ، وقد نتج عن هذا الخليط البشرى لغة خاصة تطورت مع الزمن بحيث أصبحت لغة التعبير الأدبى كانت فى البداية فى صورة شفهية ، ثم غدت تحريرية ، وتضمنت هذه اللغة البواكير الأولى للشعر الإفريقى ، ومن هؤلاء الشعراء : اجيتو ترافيز من جزيرة وسيافا ، وبيدرو كاردوزو ، وقد أصدرا مجموعة من الأغانى والأناشيد الشعبية الساخرة الناقدة الثائرة التى تمتلىء بشحنة عاطفية خصبة . . وهى فى أغلبها أغانى تحكى قصص الظلم والعسف وأنواع الألام التى يتعرض لها ويعيش فيها الرجل الأسود .

وتطور عن هذا أشكال جديدة من الشعر الذى يتناول المشكلات بالدراسة والتحليل ويعرض للمبادئ والقيم . وظهر هذا النوع على يد جورج باربوزا ومانويل لوميز وازفالدوا ألكانتارا وبيدرو وى ازيفيديو ، وقد تجمعوا حوالى سنة ١٩٣٦ فى تحرير مجلة كاريداد ، ونتج عن هذا التجمع حركة فكرية قيمة يرجع إليها الفضل فى إيقاظ الوعى القومى وإظهار حياة المأساة التى يعيش فيها شعب المستعمرة وقد انطلقوا فى أشعارهم يصورون عظمة طبيعة بلادهم مثل المحيط الجبار ، والجبال الشم ، ويستمدون من هذه الطبيعة القوية الإرادة والعزم فى التعبير عن رغبتهم فى الخلاص من الأوضاع الظالمة التى تثقل عليهم .

ومن نماذج أشعار بربوزا العاطفية

التى تصور مأساة الحياة فى المستعمرات هذه المقطوعة :

لقد حل الجفاف
وخيم السكون
وصوح الزرع
وامحت الأشجار
ولم يبق فى السهل
سوى الحزن والتعاسة
وأحجار تومئ
إلى ذكريات بعيدة
وأكوام من القش
تذرفها الرياح
.. إنه الجفاف

ومن الذين تابعوا رسالة الكفاح الثقافى فى سبيل الكيان الإفريقى أرنالدو فرانكا ، جيروم وشنو ، نينو ميراندا ، وتوماس ماتينوس وقد اشتركوا فى تحرير مجلة « شرتيزا » وكان لهم الفضل فى الخروج بالأغنية الوطنية والشعبية من حدود جزر الرأس الأخضر ، وبدأوا يجابهون مسائل جديدة أهمها استخدام لهجات المواطنين الزنوج واعتبارهم من حيث مشكلاتهم ووجدانهم ، ومن حيث قضاياهم وقيمهم الموضوع الأول للأعمال الأدبية ، وأدت هذه الحركة إلى إنضاج عملية التعبير الأدبى .. وانضم إلى جماعة الكتاب بعض المستوطنين من أهالى البلاد الإفريقية الأخرى مثل غينيا .. وانطلقوا بأشعارهم يصفون ملامح الحياة فى مستعمرة غينيا ، ومن هؤلاء ترفشيو كزميرو ، وأنا سيلفا ، وقد كانت هذه الأشعار من أوائل الأعمال الأدبية التى تصور الحياة الغينية ، والواقع أن التعبير الأدبى الغينى نادر جداً حتى أيامنا هذه .

ولم تتح لجزر سادثومى والبرنس ظروف ثقافية مثل تلك التى أتيحت لجزر الرأس الأخضر ، ولذلك لم تتطور الحركة الأدبية فيها ، ولم تتعد الأشكال الأدبية التقليدية خاصة فى الشعر ، وكان أدباؤهم وشعراؤهم من المهاجرين . ولم يتعد إنتاجهم الشعبى الأغانى والأناشيد الساذجة وغير المكتوبة تتداول شفاهة بين الإفريقيين ، أضف إلى ذلك جماعة من الشعراء الذين تربوا وتثقفوا فى البرتغال نلمس عندهم عدم الاهتمام بالمشكلات القومية ، والأوضاع الاجتماعية ، فهم جماعة منعزلة عن المجتمع وعن أصلها الإفريقى ولونها الأسود ، ولذلك جاءت أشعارهم تافهة سطحية لاتتضمن سوى مغامراتهم الشخصية وهى فى الأغلب الأعم مغامرات عاطفية فجة وهكذا ابتعدوا تماماً ، عن المشكلات الجذرية لبلادهم وشعوبهم ، ومن هؤلاء كوستا الجيرا وأشعاره سهلة مليئة بالمغامرات الشخصية ولم يرتفع مستوى التعبير عنده إلى مستوى الوعى الاجتماعى لمشكلات الرجل الأسود .

أما الشاعر الذى تغنت بأشعاره جـزر سادثومى عام ١٩٤٢ فهو فرانشيسكو تيزيو ، الذى أصبحت أشعاره هى الأغانى الشعبية للزنوج حتى لقد اعتبر المتحدث الأدبى بلسانهم

فقد استطاع أن يعبر عن حياتهم ، ومشكلاتهم ومآسيهم وآمالهم ورغباتهم كما عبر عن ثورة الرجل الأسود التى تفور بين جوانحه . وهو — فى الواقع — يعتبر الشاعر الأول الذى عبر عن الروح الإفريقية بلغة برتغالية . ولكنه لم يستطع أن يتابع السير فى هذا التيار الوطنى لأن الاستعمار البرتغالى لاحقه بالترغيب والترهيب ، وباعد بينه وبين كتل الشعب الإفريقى بعد أن استشعر خطره على مصالحه . وما زال به حتى حوله إلى بوق من أبواق الاستعمار . . ولكن شاعرة ظهرت لتملأ الفراغ الذى تركه . وهى الشاعرة ألدا دى اسبيرو . كما يظهر الشاعر « توماس بيورو » الذى كانت له محاولة مشهورة فى تطعيم الأغانى الشعبية الوطنية بالألوان الموسيقية البرتغالية على أمل أن يصل إلى مركب يجمع بين خصائص كل من اللحنين .

وقد ظلت الحركة الأدبية عامة والشعرية خاصة فى جزر سادثومى محلية . . بمعنى أنها كانت تقصر اهتمامها على مشكلاتها وأحاسيس سكان هذه الجزر ولم تخرج إلى النطاق الإفريقى العام .

« فلنبدأ من أنجولا » :

ويتمثل الضغط الاستعمارى فى أعنف صوره فى مستعمرتى أنجولا وموزمبيق فقد اتجه الاستعمار إلى جعلهما قاعدتين لنشر ، وامتصاص الثقافة البرتغالية ، لذلك وجه همه إلى تحطيم الاتجاهات المستمدة من أصول إفريقية . . وهذه الاتجاهات على أى حال لم تكن تنمو فى سهولة ويسر لأن نموها يستلزم — كما قدمنا — أن تكتب بلغة الجماهير لتنفعل بها الجماهير ، ولغة الجماهير هنا هى لغة البانتو ، وهى لغة قاصرة لم تنضج بالدرجة التى تجعلها أداة طيعة وخصبة للتعبير فى أساليب فنية ملائمة عن الوجدان الإفريقى ، فلم تتضمن سوى أشكال من الأناشيد البسيطة ذات الطابع الفنى البدائى والسمات القبلية ، وكانت تتداول مشفاحة بين جماهير القبائل . . وكان على الطليعة الوطنية من الأدباء أن تقوم بعملية تمهيد اللغة وتطويعها للتعبير الفنى . وقد ظهرت هذه الطليعة فعلا ، وكان على رأسها « كوربيرو دى ماتا » الذى أصر على اتخاذ اللغة الوطنية أداة للتعبير الأدبى ، وتبعه زملاؤه فكتبوا أشعارهم بلغة البانتو وضمنوا هذه الأشعار تجاربهم من خلال وعيهم القومى والاجتماعى ، ثم قاموا بدراسات متعددة لتطوير هذه اللغة وتدعيم أركانها وقد قام دى ماتا نفسه بمحاولة إنشاء أول قاموس فى هذه اللغة ، كما قدم دراسات تاريخية وتحليلية للقصص الشعبى والشعر الوطنى ويعتبر أول من قام بدراسة علمية جادة للفولكلور فى أنجولا .

وفى الثلث الأول من هذا القرن نظم عدد من الأدباء والمثقفين فى أنجولا حملة صحفية ناجحة هاجموا فيها الاستعمار وانتقدوا سياسته التى تساعد على الجهل والظلم وتبقى البلاد فى حالة متأخرة ، ومع ذلك . فلم يكن هناك حتى عام ١٩٢٥ ما يمكن أن تعده أدباً أو شعراً أنجولياً بمعنى الكلمة . وكان لا بد من الانتظار فترة أخرى حتى تظهر نتائج هذا الكفاح فى أعمال الجيل التالى . . . وقد كان . . فقد بدأت ملامح الأدب الإفريقى فى أنجولا تتجسد فى أعمال الأدباء

الشبان عام ١٩٤٥ . وقد أفاد هذا الجيل من كفاح الأجيال التي سبقته ، كما تأثر بالظروف المحلية والدولية المحيطة بقضية الزنوج . وانعكست عليهم روح الحرية التي بدأت تنتشر في أرجاء عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية .. وقد شكل هؤلاء الأدباء الشبان حركة أدبية في لواندا اتخذت شعاراً لها « فلنبدأ من أنجولا » .

وقد اتجه فاربيانو دى كروزى إلى الاهتمام بحياة الجماهير والكتل السوداء . واتخذ من حياتها — أو بعبارة أصح من مأساة حياتها — مادة للتعبير الأدبي ورسالة وهدفاً . وقد كتب شعره كله باللغة الوطنية . ولم نجد في ذلك صعوبة لأنها كانت — نتيجة المحاولات الكثيرة الشاقة التي بذلت من قبل — قد أصبحت لغة طيعة خصبة . وجاءت أشعار دى كروزى طليعة للأدب الأنجولي الوطني المكتوب وتتابع الشعراء . فانبثقت الحركة الأدبية الحديثة في أنجولا . ومن آثار هذا الاتجاه إنشاء النادي الأدبي الذي ضم الأدباء الوطنيين تجمعهم رابطة البلد الواحد ، والأرض الواحدة والمصير الواحد . ولم يكونوا كلهم زنوجاً ، بل كان بينهم بعض البيض ممن ولدوا في أنجولا ولا يعرفون لهم وطناً سواها . وجمع بينهم وبين السود الأرض الواحدة والرزق الواحد . وقد أدى هذا إلى العمل الجاد على إثراء اللغة الوطنية . وإذابة اللهجات القبلية فيها . وإغنائها باحتكاكها باللغات الأجنبية وبخاصة البرتغالية لتصبح لغة التعامل . ولغة الأدب والعلم بدلا من اللغة البرتغالية التي فرضها الاستعمار لغة رسمية للبلاد . وقد ساعد على ذلك أن كثيرين من أعضاء هذا النادي ممن تلقوا علومهم وثقافتهم في البرتغال . استطاعوا أن يطعموا لغتهم الوطنية بما ينقصها وضمنوها أشعاراً وأناشيد تعبر فعلا . عن مشكلات واهتمامات مواطنيهم الزنوج .. ومن هؤلاء أوجستينو نيتو وماريو انطونيو وهنريك جوبيرا . وتعتبر أشعارهم مرحلة جديدة من مراحل تطور الشعر والأدب في أنجولا .

وفي موزمبيق ظهرت حركة أدبية وطنية مماثلة بدأت بمعركة من أجل حرية النشر وفرص التعبير . ومن شعراء موزمبيق البارزين ريو دى نورانا (١٩٠٩ — ١٩٤٣) وتدور أشعاره حول مأساة الرجل الأسود الذي يعيش غريباً في وطنه ، ولا يستطيع مغالبة القوى المعادية التي تحيط به من كل جانب . واتجه شاعر آخر هو جان جوزيف رابياتلو إلى تصوير حياة الرقيق وما يلاقيه الإنسان على يد « أخيه » الإنسان من امتهان لآدميته .

وبعد الحرب العالمية الثانية استطاع الشباب المثقف أن يمهد لحركة أدبية

قوية تقوم بطبع ونشر الشعر الوطني وأدى هذا إلى ظهور شاعرة موزمبيق الأولى تونما دى سوسا وزاملها ربو توجارو وكالينجاتو . وتدافعت الحركات الوطنية والأدبية ترفع من الوعي القومي وتحمل إلى الضمير الوطني والإنساني مأساة الرجل الأسود في ظل حضارة الرجل الأبيض .

أما كفاح الرجل الأسود في البرازيل فهو أمر نعرفه من تاريخ استغلال الأرض البكر في العالم الجديد فقد اختلط كل شبر من أرضها بعرقه وجهده ودمه . وعلى أكتافه نهضت الحياة فيها . . وما زال يدير عجلة الحياة هناك لينعم غيره بالثمر والخير . ويعاني الرجل الأسود في العالم الجديد من وضع فريد خلقته الديمقراطية المزيفة . . ديمقراطية الشكل لا الجوهر فهي ديمقراطية تقدم على المساواة النظرية والتفرقة العنصرية في الواقع ، وما يتبع ذلك من ذل وحرمان وظلم باسم المساواة والقانون والعدالة والحرية .

لذلك كان لا بد أن يتطلع الرجل الأسود في العالم الجديد إلى أخيه في العالم القديم ، ليدرك خلال الشقاء المشترك أن الأصل واحد . . والكفاح واحد . . وكان « كروز سوسا » أكبر شعراء البرازيل الغنائيين ، وأول من وضح في شعره الاتجاه نحو إفريقية الأم . . وكان لهذا الاتجاه عند الجماهير المضطهدة صداه العنيف مما شكل نزعة أدبية قومية تتضح في الأدب البرازيلي الحديث والشعراء في تغنيهم بالوطن الأم ، يعبرون — في الوقت نفسه — عن مأساة حياتهم في البرازيل ، ويصورون مرارتها ليعصروا هذه المرارة في أفواه الأجيال الصاعدة حتى تهب . وتكشف عن الرجل الأسود غمته . . وليتحرك الضمير العالمي إزاء وحشية الاضطهاد باسم العنصر واللون . . .

إن قضية الرجل الأسود في العالم كله اليوم ، قضية واحدة ، ووضعه الاجتماعي والدراما التي تحيط بحياته تكاد تكون واحدة ، وإذا كان الأدب تعبيراً عن أوضاع ، ورغبة في تطوير أوضاع ، فلا عجب أن يتسم الأدب الزنجي بسمات تكاد تكون واحدة .

ونستطيع أن نقول الآن . . وبعد كل هذا الكفاح الطويل في سبيل نشر آدابنا ، وفي سبيل التعبير بلغة وطنية عن مشكلاتنا القومية المنبثقة من صميم الواقع الإفريقي ، ومن كيان وتراث الرجل الأسود . . ومع انتشار نسائم الحرية في العالم عامة والمستعمرات بخاصة . . يمكننا أن نقول : إن نفوذ الاستعمار البرتغالي الأدبي وقدرته على توجيه النشاط الثقافي — قد أخذ في التقلص والانحسار منذ عام ١٩٤٠ .

واليوم وضح الطريق . . وأصبح كل إفريقي يدرك تمام الإدراك أن أي ضعف أو تفكك في الحركة الأدبية الإفريقية يرجع إلى عدم التمسك بالروح الإفريقية الأصلية والكيان الإفريقي . . وأن كل ازدهار وتقدم في الثقافة والأدب مرتبط كل الارتباط بمدى العثور على « الروح الإفريقية » والإخلاص للأصل الإفريقي ويقتضي هذا بالطبع التحرر من سيطرة التعاليم البرتغالية .

ولقد كنا نبحث عن لغة خاصة بنا تصلح للتعبير عن مشكلاتنا ، واهتماماتنا وقيمنا . . لغة تحمل تراثنا

ومشاعرنا وتنقل أحاسيسنا ووجداننا وتبلور وعينا القومى .. لقد عانينا كثيراً لتحقق هذه الغاية .. وكان علينا أولا ، أن نتخلص من آثار الاستعمار .. وهى ليست مجرد آثار .. وإنما سياسة مرسومة للتوجيه الفكرى والأدبى .. وكان علينا أن نجعل من هذه اللغة الوطنية البسيطة الساذجة أداة تعبير فنى وثقافى وقومى على مستوى راق وأن نضمنها كفاحنا .. وكان علينا أن نحطم الستار الذى فرضه علينا الاستعمار .. ستار الجهل والعزل عن المجالات الدولية والمستويات العالمية. وأن ننفذ بالأدب الزنجى والفن الزنجى — من هذا الستار — إلى الضمير العالمى . وكان علينا دائماً أن نقوى إحساسنا بافريقيتنا وزنجيتنا ، وأن ننمى هذا الإحساس ليستطيع أن يقف فى وجه تيار الإذابة والامتصاص الذى تسنده قوى الاستعمار .. وكان علينا أن نؤكد ذواتنا .. وكياننا بأن نعثر على أنفسنا داخل إفريقية .. وأن نعمل على تطوير مجتمعنا الأدبى والفنى . وننسجه بخيوط من تراثنا العريق .

وهكذا اندفعنا فى الطريق ، وتتابعت أغانى وأناشيد « الاخوة السود » وبدأت تتسلل إلى الضمير العالمى تحمل جميعها طابعاً واحداً وروحاً واحدة تنادى بالحياة الحرة الكريمة المستقرة للإنسان .. الإنسان فى كل مكان .. مهما كان لونه أو شكله .. فهو دائماً .. « الإنسان » !

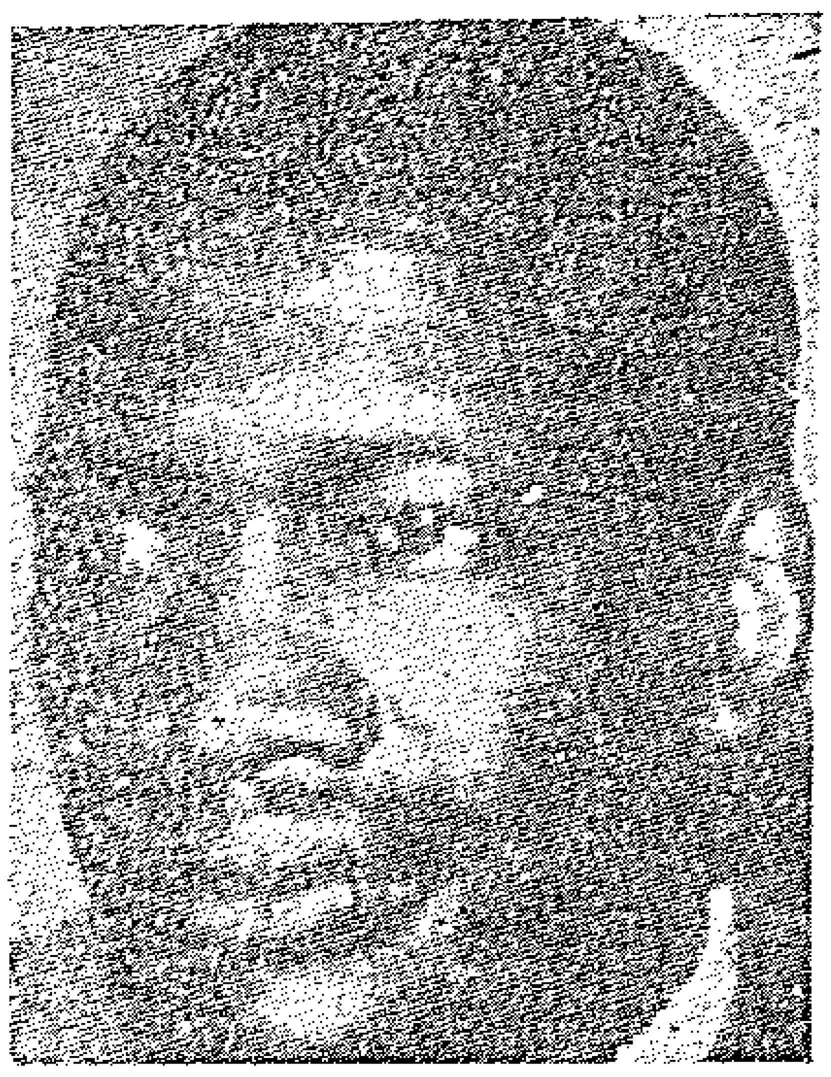

جولة مصورة حول

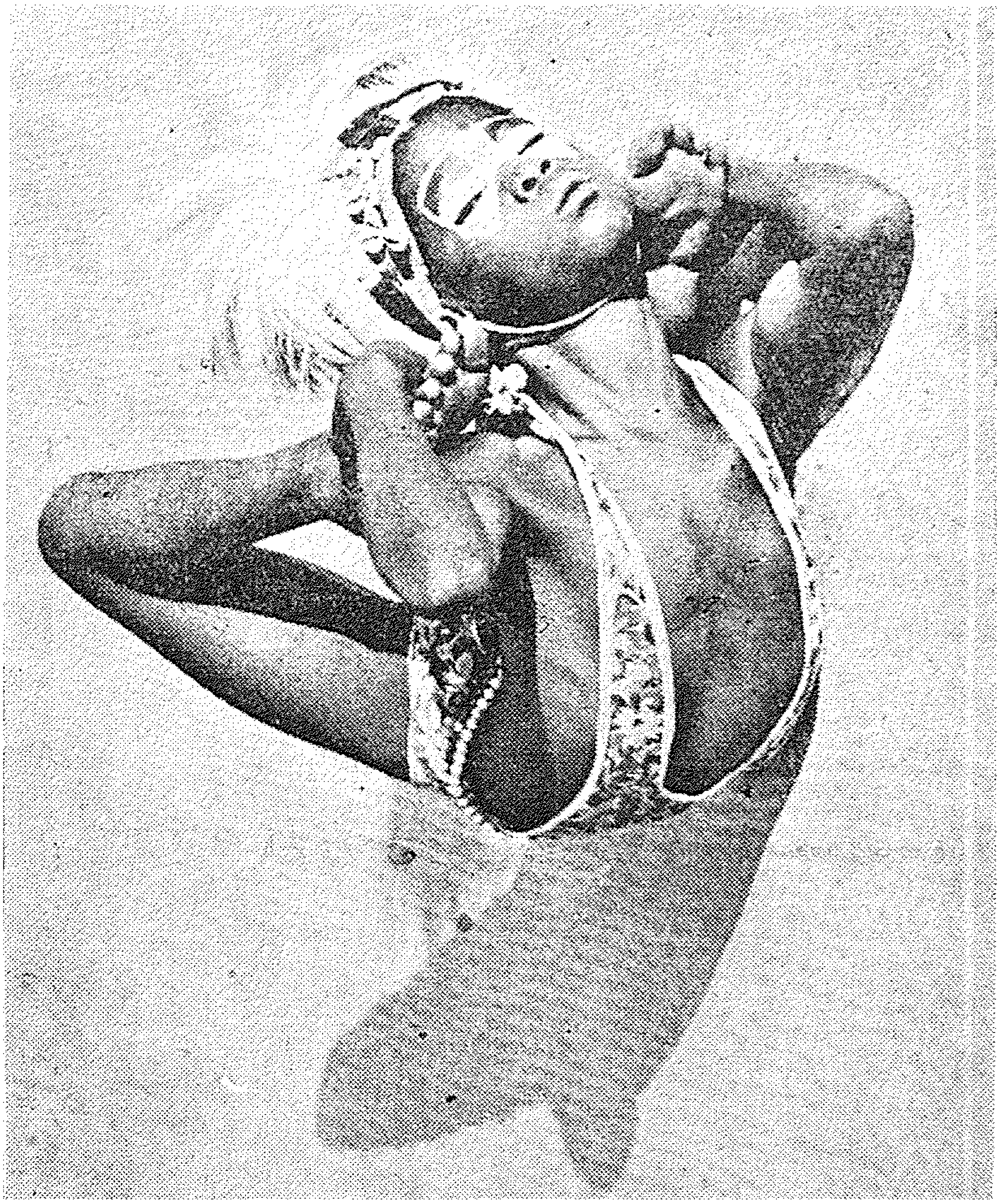

« رقصة باليه »

«طبول للثورة»

« المرح داخل القرية »

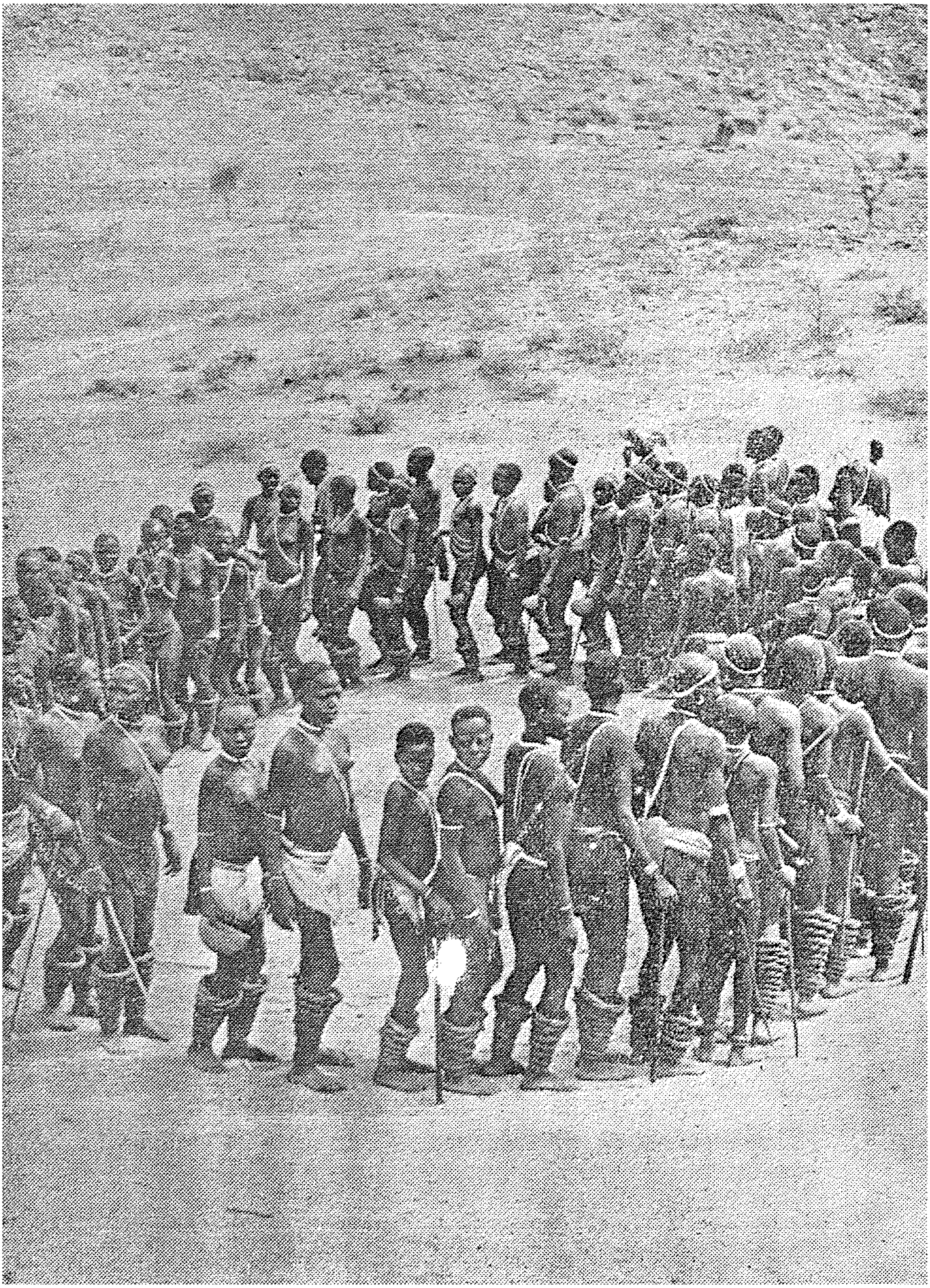

« رقصات جماعية »

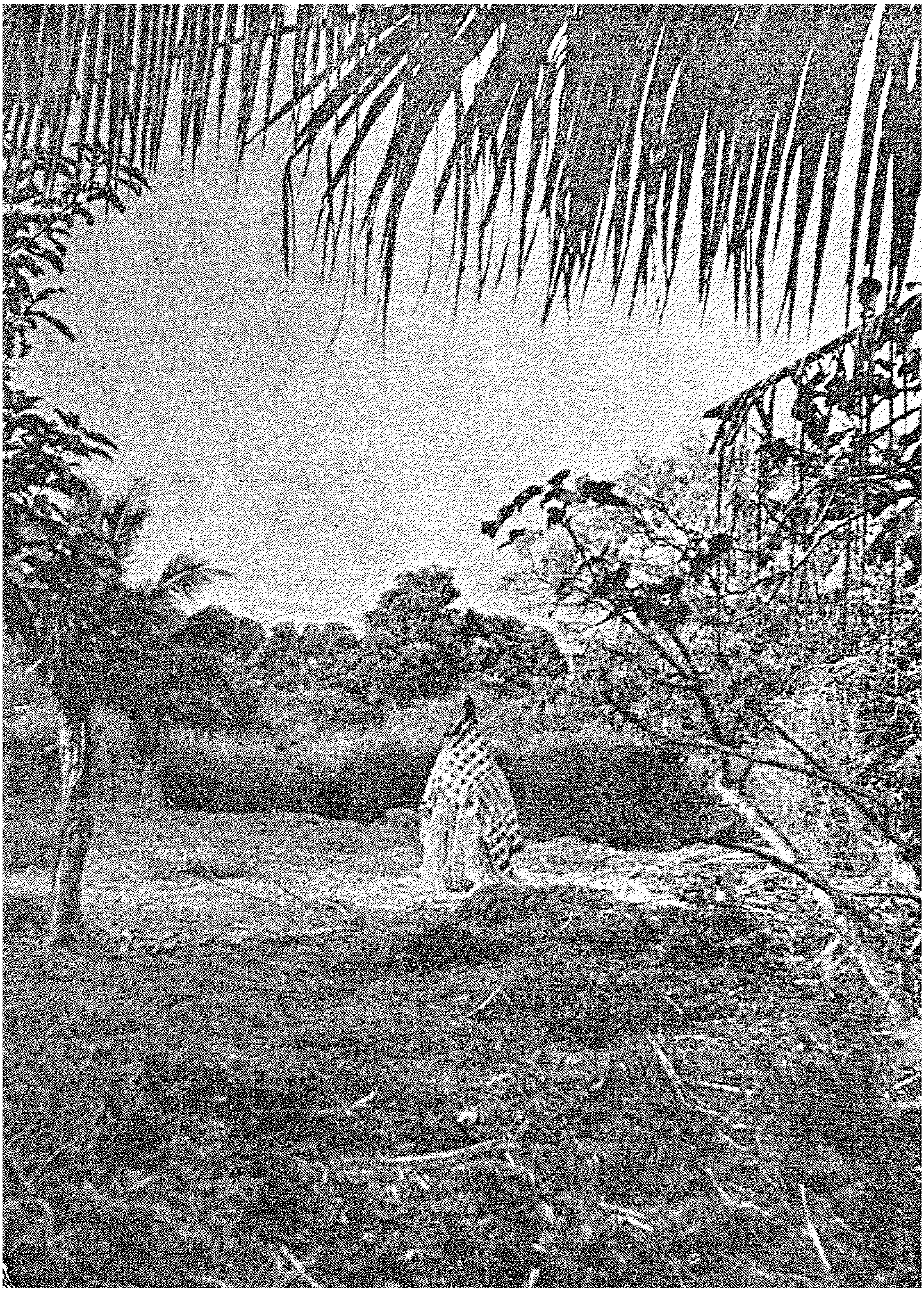

« تمثال فى داخل القرية »

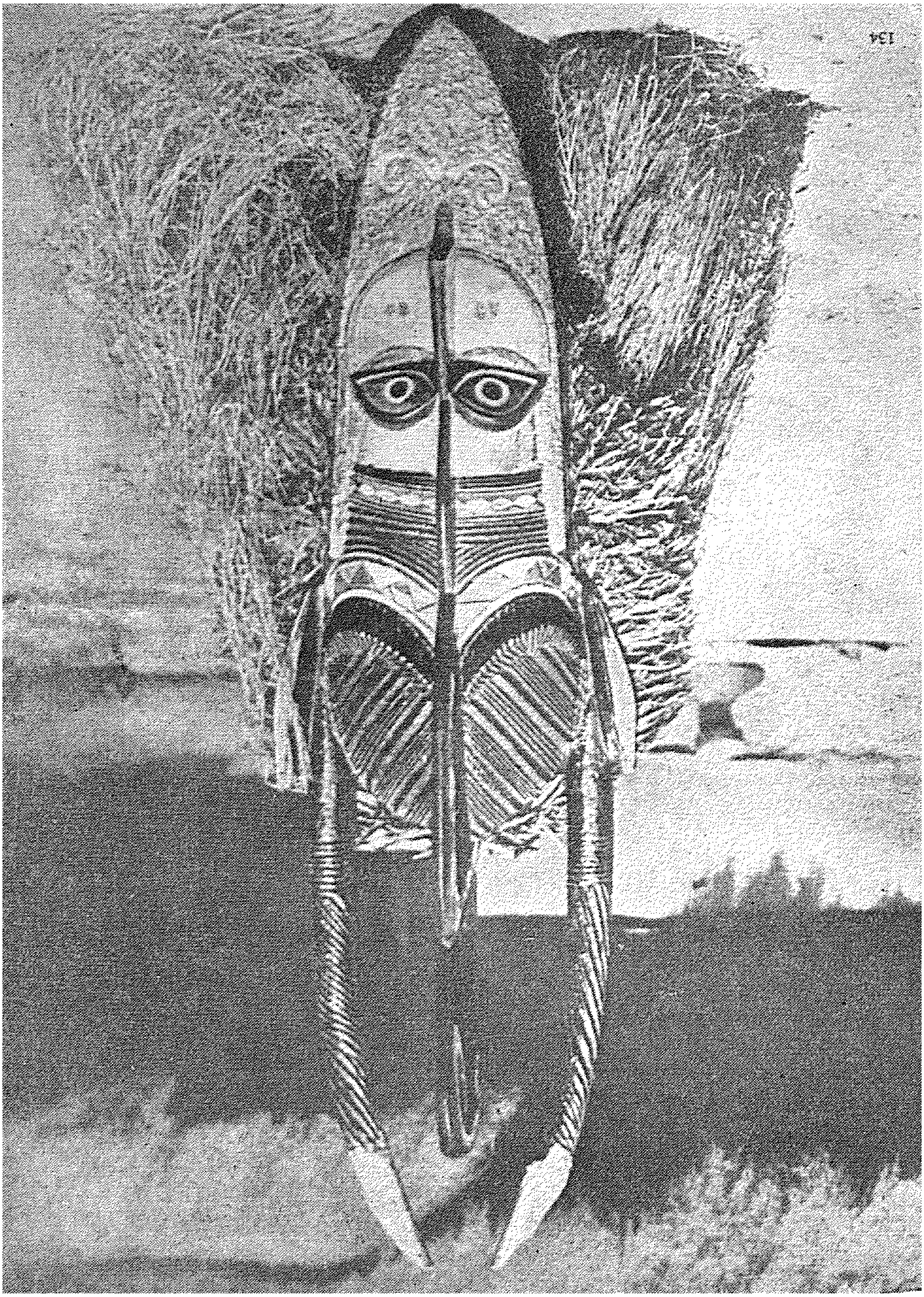

« قناع إفريقي »

« مواطنون من مالى »

فرنسا وحرب الجزائر

فى يوليو من سنة ١٨٣٠ ، ثارت باريس ، وثارت فرنسا ضد شارل العاشر آخر ملوك البوربون والذى انتهت عنده الملكية العائدة ، ونصبت الثورة « فيليب أورليان » ملكاً على فرنسا ، ذلك الملك الذى لقبه الثوار « فيليب الحرية » ، وليس من شك أن ثورة سنة ١٨٣٠ كانت دفعة قوية خلصت فرنسا من آخر قيود الإقطاع الذى كان يجب أن يتلاشى بانتهاء العصور الوسطى . وازدهار التجارة . ونمو الصناعة . والأعمال المالية . ولكن علينا أن نعرف جيداً ، ماذا كانت هذه الثورة تريد لفرنسا . وأى الفئات الاجتماعية هى التى قامت بهذه الثورة . أو التى استولت على ثمار الثورة وحولت ثورة فرنسا الديموقراطية إلى ثورة لا تهدف إلا إلى تعويض فرنسا عما فقدته فى السباق الاستعمارى مع إنجلترا .

لقد ضاق كبار رجال المال والصناعة والتجارة الفرنسيين بالقيود التى فرضتها عليهم إنجلترا فى مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ . وهى القيود التى رحب بها ملاك الأرض من النبلاء الفرنسيين الذين أعادوا ملكية البوربون الإقطاعية متساندين مع حراب الروس القياصرة وحراب إمبراطور النمسا وملك بروسيا ، تدفعهم جميعاً وتلعب بهم جميعاً ، إنجلترا التى استطاعت أن تحصل لنفسها على كل ثمار هذه الحروب التى استمرت ربع قرن كامل

لم يستطع رجال المال والصناعة فى فرنسا أن يتفاهموا مع نبلاء الأرض العائدين ، أو مع حكومتهم التى برأسها شارل البوربونى ، فما كان منهم إلا أن بحثوا عن أسرة إقطاعية فقيرة . هى أسرة أورليان ، كانت قد اتجهت إلى التجارة ، لكى يجدوا من أفرادها « ذوى الدم النبيل » ويصلح ليكون ملكاً . وما كان منهم إلا أن نظموا الثورة « ثورة يوليو سنة ١٨٣٠» ضد بقايا الإقطاع والملكية العائدة ليتمموا المهام التى قامت الثورة الكبرى سنة ١٧٨٩ من أجلها .

ونجحت ثورة يوليو ، واستولى كبار رجال المال والصناعة والتجارة على الحكم ولم يرفعوا من الشعارات ضد — البوربون العائدين — سوى شعارات الثورة الكبرى سنة ١٧٨٩ ، وكان

عليهم بعد أن نجحوا فى السيطرة على الدولة أن يدفعوا جيوشهم لتحقق لهم نصيباً من الغنائم الجاهزة ، بدلا من الخسائر التى طارت من أيديهم فى حروب البوربون المتوالية منذ عهد لويس الرابع عشر ، عند ما طارت كندا ولويزيانا ونيو فرانس والهند فى حروب الوراثة الإسبانية والنمساوية وقرب السنين السبع .

ولم يكن هناك أقرب لمخالبهم من الجزائر ، وهكذا ، فى العام نفسه الذى تدعى فرنسا فيه أنها ثارت من أجل الحرية ، أرسلت جيوشها لتحرم شعباً آخر من حريته . إن فرنسا لم تثر من أجل الحرية عام ١٨٣٠ ، وإنما ثارت لهذا الهدف .. ولهذا الهدف وحده ، وهو توصيل كبار رجال المال والصناعة والتجارة إلى الحكم ، ليتمكنوا من تعويض فرنسا عما خسرته فى السباق الاستعمارى مع إنجلترا منذ الربع الأخير من القرن الثامن عشر .

ومنذ أن ثارت فرنسا من أجل حريتها ، أو من أجل توصيل هؤلاء الرجال — إلى الحكم — حرمت شعوباً كثيرة من حريتها ، حرمت شعوب الهند الصينية كلها — فيتنام ، وفيتمنه ، ولاوس ، وكمبوديا ، ثم الجزائر ، وتونس ومراكش والسودان الفرنسى وحرمت أكثر من ثلث شعوب إفريقية من حريتها ، وتآمرت مع بقية الدول الاستعمارية — ألمانيا وإنجلترا وبلجيكا وإسبانيا — على حرمان عشرات الشعوب التى تقطن المنطقة الممتدة من ساحل الصين حتى ساحل الشيلى عبر آسيا وإفريقية وأمريكا اللاتينية جميعاً !

حرمتها من حريتها وتآمرت ضدها لتسلب حريتها ، لهذا علينا أن نفهم جيداً ، وبشكل أكثر واقعية بعيداً عن العاطفة ، ثورات الشعوب الأخرى التى قد نتوهم أنها ثورة من أجل تحرر الإنسانية ، وقد تكون هى فى الحقيقة ثورة من أجل تزويد الإنسانية بقيود جديدة أكثر قوة وأشد تعذيباً .

ولكن ، أليس من الممكن أن يثور شعب فرنسا من أجل حريته ، ومن أجل مساعدة الشعوب الأخرى لنيل حريتها . إن الشعب الفرنسى يرزح الآن تحت حكم « ديجول » الذى ما زال يحلم بعظمة فرنسا ، والذى لا ينال الشعب الفرنسى منه أقل مما تنال الشعوب الرازحة تحت نير الاستعمار الفرنسى نفسه .

بلى ، لقد بدأ الوعى التاريخى لواجب الكفاح الموحد ضد مستغلى الشعوب وتجار دماء البشرية يستيقظ لدى شعب فرنسا ، وبدأت حركة « الحرية للجزائر ، والسلام للجزائر » ، تشتد وتقوى بسواعد شباب فرنسا نفسه ، بعد أن اكتشفوا أن الشعب الفرنسى لا يفيد شيئاً من استعمار الجزائر ، وإنما يستفيد من هذا الاستعمار أصحاب مصانع الدبابات والطائرات والذخائر ، اللذين يموِّنون جيش فرنسا المقاتل فى الجزائر بالأسلحة ، ويموِّنون جيش إسرائيل بالنفاثات والدبابات أيضاً ! !

واستفاد بالفعل من استعمار الجزائر أصحاب بنك فرنسا ، وشركة قناة السويس

المنحلة واتحاد صناعات الصلب الفرنسى ، واتحاد مناجم الفحم الفرنسى الذى تتحول إليهم معظم ميزانيات الحرب فى الجزائر لأنهم يمونون الجيش المكون من نصف مليون مقاتل – فى حالة حرب – بما يحتاجه من العتاد والوقود والملابس والغذاء ، ولأنهم يقدمون لحكومة ديجول ما تريده من القروض ، بفوائد تصل إلى ١٠ ٪ سنوياً تدفعها الحكومة ثانية من الضرائب التى تجبيها من الشعب الفرنسى كله ، ومن أبناء السنغال ، ومدغشقر ، وموريتانيا إلى آخر الدول التى تسير فى فلك سيادتها .

واكتشف الشعب الفرنسى أنه لا يستفيد شيئاً من قتاله فى الجزائر ، بينما يستفيد من هذا الاستعمار – كبار رجال المال والصناعة والتعدين فى فرنسا – وهم نفس الرجال الذين جلبوا « ديجول » إلى مقعد الحكم ليوفر لهم بعض الاطمئنان وهم يمتصون دماء الشعب الفرنسى إلى جانب دماء الشعوب الأخرى التى تخضعها فرنسا لاستعمارها !

ولكن – قبل أن نعرض ماذا فعله الشعب الفرنسى – كبداية لكفاحه ضد الحرب فى الجزائر ، نود أن نعرف بشكل عام معنى هذه الحرب التحررية الكبرى لشعوب الوطن العربى ولشعوب إفريقية وآسيا والعالم كله .

ففى أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ بدأت حرب التحرر الكبرى من جانب الشعب الجزائرى العظيم ضد مستغليه . وبدأت الدوائر الاستعمارية الفرنسية حربها البشعة ضد هذا الشعب العربى المكافح ، ومنذ ذلك الحين أصبحت الحرب الجزائرية هى المحور الرئيسى الذى تدور عليه كل سياسات فرنسا الداخلية والخارجية .

والآن ، وقد بدأت مناقشة تصفية النظام الاستعمارى نهائياً على الصعيد الدولى ، كنهاية لأنظمة القهر والاستغلال فى العالم ، يتطلب ذلك منا أن نعطى مشكلة الحرب التحررية من جانب والحرب الاستعمارية من جانب آخر ، علينا أن نعطيها أهمية كبرى ، كصورة تمثل أحد الوسائل الحاسمة – الملائمة فى ظروف معينة – لتصفية أحد أجنحة النظام الاستعمارى فى العالم ، وعلينا أن نفهمها بشكل عميق يؤدى بنا إلى الوصول إلى الدلالة التاريخية التى تشير إلى مقدار تطور الوعى القومى التحررى فى الوطن العربى وفى إفريقية كلها ، كما يؤدى بنا إلى كشف أكثر العناصر الاجتماعية قدرة على الكفاح – العملى المثمر – إلى جانب مصالح الشعب العربى ، وإلى كشف أكثر العناصر تضليلا وخداعاً للشعب العربى وحقداً على ثورته التحررية الكبرى التى بلغت قممها فى الجزائر وعمان وفلسطين .

ولقد أصبح من الواضح للرأى العام العالمى ، أن نضال الشعب الجزائرى من أجل الحرية

لا يمكن أن يكون قابلا للانفصال عن حركة التحرر القومى فى إفريقية كلها ، أو فى الوطن العربى كله . وفى الوقت نفسه ما زال أراذل الاستعماريين فى فرنسا يهرولون حول فكرة أن الحرب الجزائرية مسألة « داخلية » تهم فرنسا وحدها »

وعلينا أن نلاحظ أن سياسة الحكومة الفرنسية قصيرة النظر ، التى

تعلق ، بالكلام فحسب ، عن رغبتها فى حل المسألة الجزائرية بالوسائل السلمية ، كما تمتنع عن ترك أى ضمان جدى للجزائريين يطمئنون إليه فى حماية حقهم فى حرية تقرير المصير إذا ما حاولت السلطات الفرنسية أن تسحب وعدها بإجراء استفتاء حر دون تدخل منها ، بعد أن يلقى الوطنيون الجزائريون السلاح ، واثقين — ومكتفين بالثقة — فى شرف فرنسا ! ! وفى الوقت نفسه تزداد عزلة حكومة فرنسا عن العالم . تلك العزلة التى أكدتها إدانة الرأى العام العالمى لسياسة فرنسا فى الجزائر . وسياستها الجارية على تجاهل مشاعر العالم ورأيه فى التجارب الذرية التى تجريها حكومة فرنسا فى قلب إفريقية وعلى مقربة من مناطق تعتبر من أشد مناطق العالم ازدحاماً بالسكان . كما أكدت هذه العزلة التى تقف فيها حكومة فرنسا ، إدانة الشعب الفرنسى نفسه لسياسة حكومته الحرقاء الشبيهة بالنعامة تدفن رأسها كيلا يراها أحد ما دامت هى لا ترى أحداً . وهى السياسة التى أوحت لحكومة دیجول بمقاطعة جلسات الجمعية العمومية فى هيئة الأمم أثناء مناقشتها للمشكلة الجزائرية قاطعت حكومة فرنسا هذه الجلسات ارتباكاً وخوفاً من مواجهة الرأى العام العالمى .

ولكن الشعب الفرنسى نفسه ، هو الذى يملك بمساعدة الشعب الجزائرى الفعالة ، أن ينهى بأسرع ما يمكن تلك المأساة التى تدور على الشاطئ المقابل للبحر الأبيض ، والتى يذبح فيها الشبان والرجال ، ويباد فيها شعب بأكمله ، ويخرب اقتصاد وطن عربى يسعى للحرية ، والتى يفقد فيها الشعب الفرنسى نفسه أبناء ورجاله .

ولا يخفى علينا أن استمرار هذه الحرب الاستعمارية من جانب الاستعمار الفرنسى . واستمرار مذابحها وتخريبها وإبادتها للشعب الجزائرى . إنما تعنى شيئاً واحداً . وهو فشل « ديجول » وجمهوريته فى أن يضع حداً لهذه الحرب . بل على العكس يؤدى ذلك إلى تأكيد ديجول إلى قهر الشعب الجزائرى وإرغامه على التخلى عن حق تقرير مصيره بنفسه . وقد بدأ الشعب الفرنسى بالفعل مقاومته الفعالة ضد الاستعماريين الفرنسيين البله . الذين يعاونهم ، ويعمل لحسابهم مجموعة من الفرنسيين الذين أعلنوا « أنهم سيخوضون حرباً حتى النصر » ضد شعب يسعى للحرية . إن الشعب الفرنسى متمثلا فى طبقاته الواعية ، قد بدأ مقاومته من أجل إنهاء هذه الحرب ، متضامناً فى ذلك مع شعب الجزائر ، والشعب العربى كله .

وفى غضون الأشهر القليلة الماضية بدأت المنظمات السياسية ، والشعبية ، والاجتماعية ، فى فرنسا فى تجميع القوى الشعبية لمناهضة الاستمرار فى الحرب .

فعند ما أعلنت الحكومة الفرنسية استدعاءها للشبان الفرنسيين من سن ١٨ سنة للخدمة العسكرية ، وذلك لسد النقص الموجود فى الجيش الفرنسى فى أوروبا نتيجة للحرب الجزائرية قامت — عدة هيئات — بتنظيم المظاهرات احتجاجاً على هذا القرار ووزعوا على الشباب نداء بالامتناع عن تلبية استدعاء الحكومة الاستعمارية .

وكان من نتيجة ذلك أن قامت الحكومة الفرنسية باتهام مجموعة من المثقفين الفرنسيين بتهمة تقديم العون إلى ثوار الجزائر .

ويشير البيان الشهير . الذى أصدرته جماعة من كبار المثقفين الفرنسيين . والذى ينادى «بحق الشباب فى العصيان إزاء حرب الجزائر» يشير هذا البيان إلى المدى الذى وصل اليه الفرنسيون الأحرار فى تحققهم من الأهداف البشعة التى يسعى إليهـا الاستعماريون الفرنسيون من خلال الحرب فى الجزائر . وإبادة الشعب الجزائرى .

وقد كان من بين الموقعين على هذا البيان الوطنى مجموعة من كبار الكتاب والرسامين والممثلين الفرنسيين وعلى رأسهم جان بول سارتر الفيلسوف الوجودى . وفرانسواز ساجان الكاتبة القصصية . وفيركور ممثل المسرح الكبير . وسيمون سيتوريه المخرج السينمائى العظيم ، وقد نادوا جميعاً فى بيانهم بأنه من حق كل إنسان أن يرفض حمل السلاح ضد الجزائريين ، ويؤيدون « أولئك الرجال الذين تحملوا مسؤوليتهم الإنسانية باسم شعب فرنسا لتقديم المعونة للجزائريين المضطهدين وحمايتهم » ويعلن البيان أن « قضية الشعب الجزائرى . التى تمثل مساهمة حاسمة جبارة فى تحطيم النظام الاستعمارى إنما هى قضية كل رجل حر فى هذا العالم » .

وقد اتخذت السلطات الفرنسية على الفور إجراءاتها ضد الموقعين على هذا البيان .

وقد هاجم البوليس مجلة «اسبريت» الكاثوليكية وفتشها . كما هاجم وفتش مجلة « العصور الحديثة » التى يحررها سارتر . وغـيرها من المؤسسات الصحفية وقد أصدر أندريه مالرو وزير الثقافة فى حكومة ديجول . أوامره بمنع ظهور صور الموقعين على البيان أو كتاباتهم فى الصحف أو الإذاعة أو التليفزيون كما أوقف عرض أعمالهم المسرحية على خشبات المسارح التى تتلقى إعانة من الحكومة الفرنسية ، وفى الوقت نفسه هددت الحكومة بإغلاق هذه المسارح إذا لم تتوقف عن عرض أعمال الفنانين الوطنيين .

وعلى الرغم من الجهود التى بذلتها سلطات فرنسا الاستعمارية لمنع نشر هذا البيان أو إذاعة أى أخبار عن موقعيه أو عن الإجراءات التى اتخذت ضدهم

إلا أن التعليقات على البيان ، وعلى الإجراءات الإرهابيــة التى اتخذتها الحكومة ضـــد أصحابه قد ملأت صفحات الجرائد الفرنسية والأجنبية . كما انهالت الانتقادات الموجهة ضد سياسة الحكومة والمطالب التى تنادى بإعادة حرية مناقشة مشكلة الجزائر ، ولم تأت هذه المطالب من جانب الاشتراكيين اليساريين وحدهم . وهم أعضاء الحزب الاشتراكى المتحد . وإنما جاءت أيضاً من جانب اللجنة التنفيذية لهذا الحزب . ومن جانب أعضاء اللجنة البرلمانية . وأعضاء مجلس الشيوخ من الحزب الاشتراكى وظهرت علائم السخط على أحزاب الوسط أيضاً . فقد أعلن ممثلوا حركة الكاثوليك الشعبية الجمهورية ... أعلنوا موافقتهم على ما سبق أن أعلنه أعضاء اللجنــة التنفيذيــة للحزب الاشتراكى فيما يتعلق بعجز حكومة دیجول الشائن عن حل مشكلة الجزائر . كما انتشرت الإشاعات عن عزم الحزب الكاثوليكى الشعبى الجمهورى على سحب تأييده للحكومة الكاثوليكية التى ألفها ديجول ، على الرغم من وجود وزراء للحزب فى هذه الوزارة

وفى بعض المناطق تم التوقيع على البيانات التى تطالب بإنهاء الحرب الجزائرية ووقع على هذه البيانات الاشتراكيون وأعضاء الأحزاب المستقلة ولقد قام بعض أعضاء البرلمان من الراديكاليين . والاشتراكيــين ، والاشتراكيين اليساريين بتأليف لجنة من أجل قضية الجزائر .

ولم تكن هذه هى كل الجهود التى بذلها ويبذلها الشعب الفرنسى المحب للسلام ، من أجل إسقاط حكومة ديجول وزمرته الاستعمارية . بل إن مجموعة كبيرة من أتباع ديجول ، الأكثر ميلاً إلى اليسار من « اتحاد العمل » قد أصدروا نداء لتأليف أغلبية برلمانية جديدة من أجل إسقاط حكومة ديبريه التى ألفها ديجول وتأليف حكومة جديدة تعمل بحزم وإجراء على تنفيذ سياسة حق تقرير المصير . وقد بدأت ظواهر السخط تنتشر بين أتباع ديجول الذين يكونون (اتحاد الجمهوريــة الجديدة « UNR ») كما بدأت ظواهر السخط تنتقل إلى صحافة ذلك الاتحاد أيضاً.

ولكن السلطات الفرنسية الاستعمارية — فى الجزائر — تحاول الآن أن تقيم حكومة صورية تابعة لها فى هذا الوطن العربى ، لتكون ألعوبة فى يدها على غرار نظام « باوديا » فى فيتنام الجنوبية .

وفى الاجتماع الأول الذى عقدته اللجنة التى أطلق عليها الاستعماريون اسم « لجنة ممثلى الجزائر » ، أعلن خمسة من الأعضاء المسلمين السبعة فى « اتحاد الجمهورية الجديدة » أنهم سينسحبون من اللجنة لأنه — كما يقولون — « لا يمكن لمثل هذه اللجنة أن تحل مشكلة مهما كانت ، وإن كان فى إمكانها أن تمنع السلام من أن ينتشر فى الجزائر .

وتتوالى الأحداث المخجلة التى تفضح الحكم الاستعمارى فى الجزائر ، ففى مدينة « آركاشون » عقد اجتماع لأعضاء « اتحاد الجمهورية الجديدة » ولممثليهم فى البرلمان ، وبدأوا فى مناقشة اقتراح بإصدار بيان يؤيد الإجراءات الإرهابية التى اتخذتها الحكومة ضد المتهمين فى قضية « جينسون » ولكن متحدثاً بلسان الأعضاء المسلمين أعلن أن هؤلاء الأعضاء يعارضون هذا الاقتراح – تفصيلياً – بالإجماع .

ولا تفتأ الصحافة الفرنسية تنشر الأخبار عن الجزائريين الذين يرفضون أن يشغلوا أى مركز أو وظيفة فى حكومة الجزائر الصورية التى تحاول دجول تكوينها . ولا يمكن أن يكون هناك مثال على ذلك أوضح مما كتبه « جان جاك شريبر » رئيس تحرير مجلة « الاكسبريس » الناطقة بلسان الجناح اليسارى من أحزاب الوسط . فقد كتب يقول :

« إنه من الواضح أنه ليست القاهرة وتونس وموسكو ونيويورك وحدهم هم الذين يؤمنون بأن السبعة ملايين مسلم فى الجزائر يسيرون خلف جبهة التحرير الوطنية ، وأنه لا توجد فرصة أخرى مهما تضاءلت لإيجاد قوة أخرى هنالك يمكن أن تتسلم الجزائر من فرنسا – على أساس التقسيم أو الاتحاد مع فرنسا أو أى حل وسط – وأن الاستقلال أصبح أمراً محتماً بالنسبة للجزائر بل إن أجنحة من الحكومة الفرنسية قد أصبحت مؤمنة بهذه الحقائق أيضاً » .

وليس من المستغرب أن نذكر بعد ذلك ، أن جاك شريبر قد قدمه إلى المحاكمة بتهمة « تهديد سلامة الدولة » عن طريق مقالاته التى وضحت الكثير من الحقائق لجماهير الفرنسيين ، وفى الوقت نفسه ألقت السلطات الفرنسية القبض على اثنين من رسامى الكاريكاتير فى مجلة « الآكسبريس » التى يرأس شريبر تحريرها ، وكانت هذه الإجراءات جزءاً من الحملة التى تشنها السلطات الفرنسية الفاشستية ضد « الفرنسيين المفكرين » الذين يتجرأون على نقد الحكومة وسياستها .

ولكن إمكانيات أولئك الذين يطالبون بحل مشكلة الجزائر سلمياً ، وعلى أساس الاعتراف بحق الجزائر فى الاستقلال وحق الجزائريين فى حرية تقرير المصير ، تتزايد إمكانيات هؤلاء باستمرار ، ولن يكون بإمكان الأجنحة الأخرى المتخلفة التى تعارض استقلال الجزائر أو إقرار السلام فيها .. لن يكون بإمكانها أن توقف نمو قوى التحرر وتسلم البلاد إلى أهلها .

وعلى حد قول الصحافة البناءة فى فرنسا ، التى أعلنت أنه على الرغم من أن الحكومة الفرنسية ما زالت تقدم المطالبين بحرية الجزائر وسلامها إلى المحاكمة وتلقيهم فى السجون وتطردهم من وطنهم ، إلا أن المحاكمة الحقيقية التى سيجريها الشعب الفرنسى نفسه لمجرمى الحرب فى الجزائر من الاستعماريين الفرنسيين ، سوف تبدأ قريباً ، وسيستعين الشعب الفرنسى ذكريات سنة ١٧٨٢ الهائلة حينما قطع رقاب ملك وملكة وعشرات من الذين أذلوا شعب فرنسا وامتصوا دماءه .

ضوء على كتاب

(من الكتب التى يمكن أن تلقى — الآن — ضوءاً باهراً على تلك الدول التى تئن تحت ضغط الاستعمار الفرنسى كتاب « مغرب الاستعمار الفرنسى » من سلسلة اخترنا لك . ولعل من المفيد الآن أن نقدم هذا الكتاب لنعرف حقيقة هذا الاستعمار . ودوره العاتى فى تحطيم الدول التى امتد إليها نفوذه . وبخاصة الجزائر التى تتوهج قضيتها — الآن — فى ضمير العالم . وأصبح كل العالم العربى يرقب الدعوة إلى المفاوضات بين الجانبين) .

* * *

أكد الكتاب فى مستهله أن فرنسا تعانى من عقدة قديمة ضد الإسلام . وبالتحديد من تلك الفترة التى كانت للمسلمين فيها دولة عظيمة فى الأندلس وثقل دولى يهدد أوروبا . ذلك لأن قوى المسلمين لم تقف عند حدود الأندلس ، وإنما تجاوزتها إلى احتلال جزء من فرنسا ، ومن هنا ظلت تكيد فرنسا للمسلمين . بل كان لهم دور كبير فى تسديد الضربة القاضية التى زلزلت القوى الإسلامية هناك ودمرتها . ثم أجبرتها على الانسحاب مطلقاً من هذه البلاد .

ومن هذا التاريخ المبكر وفرنسا لا تدع فرصة تتمكن فيها من الإساءة إلى المسلمين إلا وانتهزتها حتى يمكن القول بأن الاستعمار الفرنسى كان للانتقام من الإسلام أولا . ثم للاستنزاف . والتسلط ثانياً . وفى ضوء هذا يمكن تفسير تزعم فرنسا للحروب الصليبية والدعوة إليها . ووقوع ملكها « لويس التاسع » أسيراً ، ثم حبسه فى دار « ابن لقمان » بالمنصورة كما يمكن تفسير أكثرية الدول المسلمة التى وقعت تحت ضغط هذا الاستعمار ، والتشدد فى منحه حقوقه من دون الدول الأخرى التى لا تدين بهذا الدين .

ولقد كانت تضرب أول ما تضرب فى هذه البلاد — حينما تثبت أقدامها — اللغة والدين . وتشكيك الناس فى أصولهم العربية . والبحث عن أصول أخرى تناهض الأصول العربية . ثم أخيراً تعييرهم بهذا النسب الذى يمتد إلى الصحراء . وإلى حياتها الجافة الغليظة . فإذا ما امتنع عليهم شعب عملوا على تقويضه من الداخل فأثاروه باسم السنية . والشيعية . والمسيحية . واليهودية كما أثاروه باسم الدرزية والبربرية . فإذا ما اشتدت عملية

الامتناع هذه نراها تلوح بالجنسية الفرنسية لكل من يريد ، وتعمل على إدماج البلاد المحتلة تماماً بها ، وتدفع بطائفة من المواطنين للطواف بالبلاد كمشايخ للطرق — لأن تأثير مشايخ الطرق المسلمين عظيم على الأهالى ، يطوفون بالبلاد . ويذكرون فيما يذكرون اسم الله واسم فرنسا .

* * *

ثم تحدث الفصل الثانى عن تكوين الإمبراطورية الفرنسية ، وأنه يمكن القول بأن فرنسا كونت فى العصر الحديث إمبراطوريتين متواليتين : أما الأولى فهى التى قامت فى القرن السابع عشر ، والتى تناثرت أشلاء عقب الحروب النابليونية عام ١٩١٤ . أما الإمبراطوريـــة الثانيـــة فهى تلك الإمبراطورية التى بدأت بغزو الجزائر عام ١٨٣٠ . والتى تتساقط الآن وتذوب . وتنتهى إلى ما انتهت إليه الإمبراطورية الأولى ، وقد قامت هذه الإمبراطورية على ما يمكن تسميته « رد اعتبار » فرنسا عقب الهزائم التى كانت تنزل بها ، وبهذا يمكن القول بأن احتلال فرنسا للجزائر كان نتيجة لهزيمتها فى الحرب النابليونية ، وأن احتلال تونس عام ١٨٨١ كان نتيجة كذلك لتدمير قوة فرنسا فى حرب الوحدة الألمانية عام ١٨٧٠ وهكذا .

والفرنسيون أنفسهم يعتبرون احتلال الجزائر عام ١٨٣٠ الأساس الأول الذى قامت عليه إمبراطوريتهم الثانية المترامية الأطراف ، وقد سددت الضربة للجزائر فى هذا الوقت المبكر ، وقد شدد من وقع الضربة اعتبارهم هذا الفتح انتصاراً للمسيحية ، وإدخالهم الجانب الدينى إلى جوار الجانب السياسى ، حتى لقد كان أول عمل قام به الفرنسيون عقب عملية الفتح الغادر هذه هو تحويل المسجد الأكبر إلى كنيسة ، ثم تبع ذلك فتح باب الهجرة والاستيطان فى المناطق المحتلة كمقدمة لفرنسة الجزائر تماماً . ولكن هذه الحشود لم تحقق المقصود من مجيئها لأنها كانت تجهل طبيعة الجزائر . ولأنها — رغم احتلال مدينتى الجزائر ووهران وجدت استماتة فى الدفاع من العرب والبربر . وقد تجسدت عمليات المقاومة هذه فى الأمير « عبد القادر » الذى سرعان ما وضع يده على ثلثى إقليم الجزائر باستثناء جبال « جرجرة » التى يسكنها البربر . وقد رأت فرنسا إزاء هذه القوى المتصاعدة أن تعترف بما تحت يدها من أقاليم ، وأن تتبادل الوكلاء السياسيين ، ولكنها لم تطلع الشعب على هذه المعاهدة لأنها كانت عازمة على خرقها ، والتربص بها ، وقد ظل النزاع بين هاتين القوتين حتى تولى الجنرال سولت شئون حكومة فرنسا . وكانت سياسته تتجه إلى الاحتلال الكامل للجزائر ، ومن أجل هذا نراه يشن على الأمير عبد القادر

حرباً قد استمرت سبع سنوات ، ثم انتهت بالانتصار عليه .

على أنه يمكن القول بأن هذه الحرب كانت خالية من كل قوانين الحروب وشرفها . فقد كانوا يحرقون الحقول ، ويختطفون قطعان الغنم . ويحرقون القرى بأهلها أحياء . وما أشد ما كانوا يستمتعون والنار تنقل إليهم رائحة احتراق اللحم البشرى . وبقدر كثافة الرائحة كان يعلو السرور وجوههم ، وتراودهم الأحلام السعيدة

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد وإنما تجاوزه إلى اعتبار البلاد مستعمرة للاستيطان ، وهكذا سلمت البلاد للجنود من الغزاة ، وللمتعطلين فى فرنسا ، وإذا كان الجنرال «بيجو» صاحب الفكرة الأولى . فإن الاشتراكيين الفرنسيين كانوا أصحاب الفكرة الثانية ، ذلك لأن الحكومة حينما فشلت فى تصنيع البلاد . لم تجد أمامها إلا فكرة التخلص من العمال الذين يسببون لها المتاعب فى البلاد . ومن هنا أغروهم بالذهاب إلى الجزائر وأعطوا لهم التسهيلات حتى أصبحوا الصخرة الأولى التى يتحطم عليها دائماً وجود حل عادل للقضية الجزائرية . وبخاصة بعد أن بلغ عددهم ١٣٣ ألف أوروبى .

على أن الأمر لم يقف عند حد الجزائر ، وإنما نراها تتخذها قاعدة للوثوب منها على جارتيها تونس . والمغرب . فقد رأوا تونس تستدين منها . وتمنح الشركات الفرنسية امتيازات البرق والمياه . وبعض الشركات الأوروبية الأخرى ، كما رأوها تتكئ فى بعض الأحيان على السلطات التركية . وهنا أرادت أن تتقدم خطوة لالتهام الفريسة . فنراها تتفق مع إنجلترا على القيام بعملية احتلال تونس . ذلك لأن بريطانيا كانت تخشى من سيطرة إيطاليا على وسط البحر الأبيض المتوسط إذا ما تمكنت من تحقيق أغراضها فى تونس .

ومن هنا نراها لا تمانع فى ضم هذه البلاد إلى فرنسا ، حتى إذا ما تهيأ لها ذلك رأينا « جيل فرى » فى عام ١٨٨١ يعلن أمام البرلمان أن قبائل الكرومر التونسية تعتدى على أرض الجزائر ، وأنه يطلب اعتمادا لحملة تأديبية تضع يدها على تونس ، وقد تم لها ذلك .

أما فى المغرب فالأمر يختلف ، ذلك لأن هذه البلاد لم تكن واقعة تحت النفوذ التركي لذلك لزم الأمر بعض الوقت . فلما عقد مؤتمر دولى فى مدريد للنظر فى تشريع للأجانب فى هذه البلاد . ظفرت فرنسا من المؤتمر بحق رعاية شئون الأمن على الحدود ، وتتبع القبائل داخل الأراضى المغربية . ثم حصل الفرنسيون على كثير من الامتيازات هناك ووقع الحكام — كما هو الحال فى تونس — فى الاستدانة . وهنا تحركت السياسة الفرنسية تحركات

سريعة . فنراها تعقد اتفاقاً مع إيطاليا يدور حول أن تضع يدها على ليبيا . بينما تحتفظ هي بوضع يدها على المغرب . وكان هذا فى عام ١٩٠٢ . فلما كان عام ١٩٠٤ نرى إنجلترا وفرنسا بمقتضى اتفاق ودى آخر يتبادلان مصر ومراكش كما تتبادل السلع ! ! ثم تتخذ أساليب ملتوية للوصول إلى حكم البلاد . وقد تم لها ما أرادت بعد أن ساومت ألمانيا على قطعة صغيرة عند مدخل الكنغو الفرنسى . وكافأت إسبانيا التى أيدت كل حركاتها وتوسعها الاستعمارى بالسماح لها بإدارة الجزء الشمالى من مراكش .

. . .

هذه هى الخطوات التى دقت بها فرنسا على صدر الشمال العربى . ولكن أطماعها لم تكن لتقف عند هذه الدول الثلاث . ولذا نراها — من وقت بعيد كذلك — تقف وجهاً لوجه أمام التكوينات الإفريقية الخالصة فنراها تمد شراكها إلى إفريقية الغربيـــة والاستوائية والشرقية . وسرعان ما تسقط فى يدها إمبراطورية « الحاج عمر » فى السنغال والنيجر . بعد أن دخلت فى صراع مرير معه . ثم مع وليبه « أحمدو » . « سمورى » . وكان هذا فى عام ١٨٩٢ . ثم سرعان ما وضعت يدها على غينيا ، وساحل العاج . ومالى ، وداهومى . وتشاد . والكونغو الفرنسى . ومدغشقر . والصومال ، والتوجو ، والكاميرون ، وموريتانيا .

ثم تحدث الكتاب بعد ذلك عن طبيعة الاستعمار الفرنسى فذكر أن الحرب العالمية الأولى تعتبر نقطة تحول فى تاريخه . رغم أن المساحة المستعمرة قدرت بثلاثة عشر مليون كيلومتر مربع يعيش فوقها ١١٠ ملايين من السكان . فى الوقت الذى لا تزيد فيه مساحة فرنسا عن ٥٠٠ ألف كيلو متر . ولا يتجاوز سكانها ٤١ مليون نسمة ذلك لأن مستعمراتها لم تضم أغلبية للعنصر الأوروبى . ولأنها التقت بعد الحرب بأجناس قوية المراس كالعرب . وكالجنس الأصفر فى الهند الصينية .

ثم أخيراً لنمو الحركات الوطنية فى كافة مستعمراتها التى كانت تعيش فى ظلال نظام مركزى . واعتقادا بالتفوق العنصرى . رغم ما يشاع عن التساهل نوعاً ما فى نظرية التفوق العنصرى ، فإن الفرنسيين فى الجزائر لم يتساهلوا فى هذا الأمر أبداً . فقد طالبوا بألا يكون للجزائريين الذين أفلح المبشرون فى تحويلهم إلى الكاثوليكية ، أى نوع من المساواة بهم . وقد رفعوا مذكرة جاء فيها « بأن لا يعطى المسلمون الكاثوليك الحقوق نفسها التى يستمتع بهـــا الكاثوليك الفرنسيون » ، كما أنهم حين مثلوا مع التونسيين فى المجالس البلدية رفضوا الجلوس معهم فى قاعة واحدة ، وكان مما قالوه « إن القبعات لا تجلس

مع البرانس فى مكان واحد ! » .

ولكن المد التحررى بلغ أقصى مداه فأذلت الهند الصينية فرنسا . وتحررت الدول الإفريقية . وإن كان بعض هذا الاستقلال زائفاً — إلا أن الأمل كبير فى التخلص نهائياً من الضغوط الفرنسية . ومع كل هذا إلا أنا نراهم يضغطون على الجزائر . ويشددون يدهم عليها . ولكن الجزائريين ما لبثوا أن طالبوا بحقوقهم رغم تدمير اقتصادهم . وحصار الثقافة العربية . واستقدامهم كعمال إلى فرنسا وتعتبر أولى الخطوات فى ذلك تلك الدعوة التى قام بها من العمال الجزائريين فى فرنسا « مصالى الحاج » عام ١٩٢٤ وسميت باسم « نجمة شمال إفريقية » ، والذى جعل من أول مطالبه «الاستقلال التام دون أى ارتباط بفرنسا» . ثم كان أن حاربه الفرنسيون هناك . فنراه يلجأ إلى الجزائر ، ويؤسس « حزب الشعب الجزائرى » ولكن المطاف انتهى به إلى السجن فى عام ١٩٤٣ . ثم حددت إقامته فى فرنسا عام ١٩٥٢ بعد دعوته إلى الكفاح المسلح ، وظهرت فى البلاد دعوة إلى قبول فكرة الإدماج فى فرنسا من بعض المثقفين ، ولكن فريقاً من العلماء الذين كانوا على وعى تام بتاريخ العرب وثقافة الإسلام ، والذين تلقوا تعليمهم فى المشرق ، وتأثروا بالوهابية وتعاليم الشيخ محمد عبده استطاعوا أن يبعثوا القومية الجزائرية . وأن يحيوا فيها الشعور العربى والإسلامى . وقد ناضلت « جبهة العلماء » هذه فى ميدانين كان أولهما تطهير العقائد من شعوذة الطرق الصوفية وكان الثانى الدعوة إلى مبادئ القومية الجزائرية التى تتكىء على العروبة كعنصر أساسى ، والإسلام كعنصر تاريخى ودينى .

ثم نرى فرحات عباس يتلقى الراية . ويعترف بخطئه حين دعا فى أول الأمر إلى سياسة الإدماج ، ويطالب بإنشاء جمهورية جزائرية يمكن أن ترتبط مع الجمهورية الفرنسية بنوع من الاتجاه الفيدرالى . ثم نراه بعد ذلك يعدل عن هذه الفكرة ويطالب بأن يكون الاتحاد الفيدرالى مع شعوب شمال إفريقية . ثم نرى حزب الاتحاد الديمقراطى برئاسته ، وجماعة العلماء . وحزب الشعب تقف فى صف واحد لمعارضة فرنسا فى كل الحلول الشكلية ومن ورائها تأييد شامل لدول جامعة الدول العربية .

على أن الكفاح المسلح مالبث أن عم البلاد بعد عام ١٩٥٢ وبعد أن توجه القادة إلى القاهرة ، وبخاصة جماعة العلماء ، وأعضاء الحزب ، الديمقراطى ، ثم كان ميلاد جبهة التحرير التى تأخذ على عاتقها الآن استعادة الجزائر من أيدى الفرنسيين ومن خلال كل هذا تحدد أن الجزائر جزء من العالم العربى ، وأنه لم يعد

أمام الفرنسيين إلا تسليم البلاد لأهلها .

* * *

وفى الفصل الأخير من هذا الكتاب نرى تلخيصاً لفلسفة الاستعمار فيما يأتى :

١ – استدانة فرنسا من الدول حتى إذا ما قامت هذه الدول بالمطالبة بحقوقها كان « دفعها » الوحيد فى هذا هو مزيد من الجيوش والأساطيل لتأديب من يطالب فرنسا بحق ، واحتلال الجزائر شاهد بهذه الجريمة .

٢ – وضع يد فرنسا على كافة شئون الدولة ، وتعيين حاكم فرنسى لها ، وتناسى الشعب تناسياً كاملا ، وقد تتبجح فتدعى ملكية هذه البلاد ، كما حدث أن نصت فى القانون الفرنسى على إطلاق « فرنسا ما وراء البحار » على الجزائر ، وأخذت تدرس لأطفالها أن فرنسا تمتد عبر البحر الأبيض المتوسط حتى جبال أطلس ، وقد تتبجح أكثر فتقوم بعمليات إبادة جماعية للشعب حتى يتسنى لهم دفع مزيد من المستوطنين الأوروبيين إلى هذه البلاد . وقد حدث هذا فعلا فى الجزائر كذلك . وكانو يطلقون على هذه الحرب أنها نوع من الإبادة « للجنس العربى القذر ! » .

٣ – قيامها بتجويع الدولة المستعمرة ، والاستيلاء على كافة مقدراتها حتى يتسنى لها عدم ارتفاع صوت فيها بالحرية .

٤ – القضاء على الأديان ، وبخاصة الدين الإسلامى .

٥ – تدمير القومية والشخصية الوطنية ، والتركيز على أن فرنسا هى الأم الرءوم للدولة المحتلة .

ثم يختم الكتاب بهذه الكلمات الصادقة « إذا كان العرب قد قاسوا من الاستعمار الإنجليزى والاستعمار الفرنسى الشىء الكثير طوال القرنين الماضيين . وإذا كان اتفاق بريطانيا وفرنسا الودى عام ١٩٠٤ قد قضى على القومية العربية بمحاولة تقسيم البلاد العربية من الخليج الفارسى إلى المحيط الأطلسى دولا مستعمرة وتابعة لفرنسا وإنجلترا . فلقد شاء القدر أن تنطلق القومية العربية لتقضى على الحدود والقيود التى رسمها الاستعمار الفرنسى والبريطانى لتفرقة أبناء الوطن العربى . كما شاء القدر أيضاً . أن جعل هذا الاتفاق الودى الذى حدث بين فرنسا وإنجلترا يتكرر أيضاً بهجومها على مصر عام ١٩٥٦ فجعل أبناء الوطن العربى يتكاتفون ويناضلون بعد أن ذاقوا ألوان التعذيب والتشريد والتقتيل من بريطانيا وفرنسا . وقد شاء الله أن يكتب للعرب النصر . ويكتب للاستعمار الخزى والعار » .

.. وهكذا شاءت الشعوب أن يغرب الاستعمار الفرنسى ! !

من وحي أفريقية

نـــــــداء

للشاعرة نويما دى سوسا

ولدت الشاعرة الإفريقية نويما دى سوسا فى موزمبيق فى ٢٠ سبتمبر عام ١٩٢٧ ونشرت شعارها فى صحف ومجلات موزمبيق وأنجولاوالبرازيل .

لم نعد نسمع صوت أختى
ضاع فى ظلام الأحراش
سكت الصوت المكافح
ولم تعد تحضر كل صباح
يكسو وجهها التعب
من السير الطويل
فرسخاً بعد فرسخ
لا . . لم تعد تأتى إلينا
مبللة بالنـــدى
تحمــل أطفالها
واحداً على ظهرها . . . والآخر فى أحشائها
ووجهها تطل منه نظرة صارمة
تبعث الخوف فى نفسى
وفيها عــزم وتصميم
على كشف الغمة عن حياتنـــا

ونفسها الرقيقـــة
كانت تفيض بالخير والحب والحنان
هذا الغذاء الذى خلت منه الموائد
وأقفرت منه البيوت .
وخاف زبانيـــة الاستعمار
من الصوت البطـــل
فتعقبـــوها فى الأحـــراش
وتجردوا من إنسانيتهم
وضربـــوا . . . وضربوهـــا
ظلـــوا يضربونهـــا . .
حتى الموت

* * *

إن أشجار حديقـــتى مزدهرة . .
ولـــكن . . . بلا بهجـــة
وتفوح منها رائحـــة العطر القوية
ولكن . . . بلا نشوة
وكلما أقبـــل الصيف
انتظرت ابن أخـــتى
ليحضر وينـــام معنـــا . .
ولكن الانتظار طـــال
وكلما غرد طائر عـــلى غصنه
تذكرت ابن أخـــتى
الذى راح ضحية غـــدر المتوحشين
ذات صبـــاح معتم كئيب
لقد كنت أعرف هذا المصير

إذ رأيت فى عينيه
فى المرة الأخيرة قبل الرحيل
الحزن الدفين
وسمعت فى صوته
رنة اليأس والضياع

* * *

أيا إفريقيا . . .
بلادى و . . . وأمى . . .
قولى لى . . . خبرينى
ما الذى حل بأختى فى الأحراش
لماذا لم تعد إلى المدينة . .
مع أطفالها
واحد على كتفها . . والثانى فى أحشائها
أيا إفريقيا . .
بلادى وأمى
لا تنسى أختى البطلة ولا تخذليها
وليضمها ترابك فى حنان

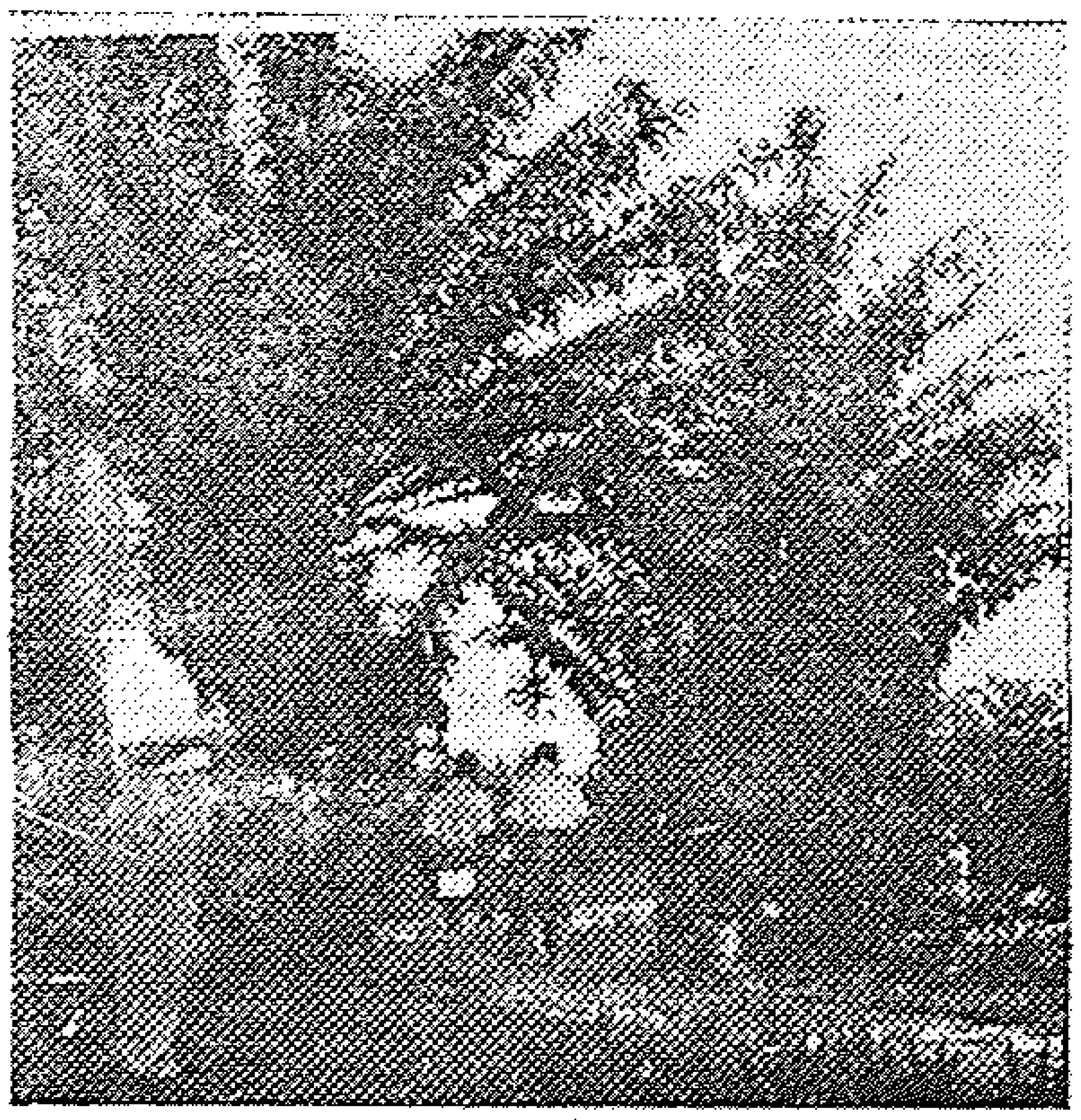

قرارات المؤتمر الثالث للشعوب الإفريقية

بالنسبة لجنوب غرب إفريقية :

– يصر المؤتمر على أن تغادر إدارة جنوب إفريقية أراضي جنوب غرب إفريقية .

– توقيع عقوبات اقتصادية ، ودبلوماسية وغيرها على اتحاد جنوب إفريقية .

– إدانة السياسة الإنجليزية فى الأمم المتحدة بشأن قضية جنوب غرب إفريقية .

بالنسبة لأنجولا :

– يوصى المؤتمر بتوجيه الجهود لإرغام البرتغال على تنفيذ قرارات لأمم المتحدة .

– توصية الدول الإفريقية المستقلة بإعادة النظر فى موقفها من البرتغال من حيث العلاقات الدبلوماسية والتجارية .

بالنسبة لموزمبيق :

– يعبِّر المؤتمر عن سخطه على ظروف معيشة شعب موزمبيق ويوصى باتخاذ إجراءات تعضد حركات التحرر التى يقودها الوطنيون ضد الاستعمار فى هذه البلاد .

بالنسبة لكينيا :

– يدين المؤتمر رفض الحكومة البريطانية الإفراج عن كينياتا الأمر الذى يزيد من حدة الأزمة والفوضى السياسية ويؤيد كفاح شعب كينيا من أجل الإفراج فوراً عن كينياتا .

بالنسبة لرواند أورندى :

– يطالب المؤتمر بجلاء القوات البلجيكية فوراً ، وتصفية قواعدها العسكرية ، والعفو العام غير المشروط عن المسجونين السياسيين وعودة اللاجئين .

– تنظيم انتخابات تشريعية فى رواندا أورندى تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة وتشكيل هيئات ديمقراطية

بالنسبة للكونغو :

– يعلن المؤتمر أن باتريس لومومبا

هو بطل إفريقية ويطالب بتوقيع العقوبة على المسئولين عن مقتله وهم كازافوبو وموبوتو وتشومبي وكالونجى

– يستنكر المؤتمر الحصار الاقتصادى الذى تقوم به عصابات موبوتو ويطلب اتخاذ إجراءات سريعة تسمح للأقاليم الواقعة تحت سيطرة الحكومة الشرعية من الحصول على المؤن اللازمة .

بالنسبة لوحدة إفريقية :

– يوصى المؤتمر بإنشاء مجلس استشارى إفريقى يتكون من ممثلى برلمانات الدول المستقلة تكون له سكرتيرية دائمة .

– إنشاء مجلس للدول الإفريقية يدرس توصيات المجلس الاستشارى وبخاصة مسائل السياسة الخارجية .

– إنشاء لجنة من الخبراء الإفريقيين لوضع أسس سياسة اقتصادية مشتركة تدعم الوحدة السياسية الإفريقية .

– إنشاء لجنة من القادة العسكريين الإفريقيين تدرس وتنظم دفاعاً إفريقياً مشتركاً لتحرير الدول الإفريقية المستعمرة .

– إنشاء لجنة ثقافية تضع سياسة إفريقية للتعليم .

– عقد مؤتمر لاتحادات نقابات العمال الإفريقيين بغية تكوين اتحاد عام يضم جميع الاتحادات العمالية الإفريقية .

– عقد مؤتمر للشباب الإفريقى وتنظيم مهرجان بقصد خلق حركة موحدة للشباب الإفريقى .

– عقد مؤتمر للجمعيات النسائية الإفريقية بغية تكوين منظمة نسائية إفريقية موحدة .

– عقد مؤتمر لجمعيات العمال الزراعيين الإفريقيين لخلق حركة موحدة لهؤلاء العمال .

بالنسبة لتصفية الاستعمار :

– يدعو المؤتمر الدول الإفريقية المستقلة إلى القيام بالقضاء على آثار الاستعمار .

– يدعو المؤتمر الأحزاب السياسية والاتحادات التجارية فى كل البلاد الإفريقية لتعبئة جهودها لإعادة تنظيم هذه الأجهزة .

بالنسبة للمجال الاقتصادى :

– يطالب المؤتمر بتعديل البنيان الاقتصادى فى البلاد الإفريقية لضمان مراقبة الإنتاج وتحسين مستوى معيشة الأفراد بصورة مطردة وذلك عن طريق الإصلاح الزراعى .

بالنسبة للمجال الاجتماعي :

— يطالب المؤتمر بإعادة تنظيم التعلم على أساس تنقية المناهج التعليمية من الأفكار التي ترمى إلى تربيتهم على أساس الشعور بالنقص وتنقية التاريخ من الشوائب .

— إنشاء معهد أبحاث إفريقى مشترك وأكاديمية كبرى يطلق عليها اسم أكاديمية التضامن الإفريقى .

عمال تنجانيقا :

لم يعد شيء يخفى الآن على إفريقية ففى الماضى كان يباشر الاستعمار نفوذه فى أمان وحرية ، ذلك لأنه كان يفرض على كل دولة ستاراً حديدياً لا ينفذ من خلاله شعاع واحد ، أو تتردد منه صيحة مظلوم يتهاوى ، أو آهة قتيل يسقط ، بل كان الوطن الواحد لا يعرف عن أجزائه الأخرى شيئاً حتى لقد أصبح الناس غرباء داخل الوطن الواحد ، وكان من أثر هذه السياسة ازدهار القبلية ، وإثارة الوقيعة بين أبناء الوطن الواحد ، وفى ظلال هذا التطاحن الداخلى الذى كان يباركه الاستعمار دائماً ، سرقت القارة ، ونهبت ، واستحالت إلى مقبرة موحشة تضم الشهداء ، والمناوئين للحكم الدخيل والذين رفعوا قامتهم ، واستعصوا على القيود .

كان هذا فى الماضى . . ولكن القارة الآن أصبحت « قارة مفتوحة » وامتداداً عضوياً يستحيل على أية قوة فى العالم أن تعيدها إلى ما كانت عليه فى الماضى ، ذلك لأن النور قد تدفق إلى أعماقها ، ومس حواشيها ، وأصبحت فى إشراقة هذا النور ،

— والحرية نور — تستطيع أن تتجمع فى أى مكان ما زال متورماً بالاستعمار ثم تعمل على تخليصه من الوبـــاء الدخيل .

ومع أنا رأينا هذا واضحاً فى كل القطاعات التى غمرتها أشواق الحرية ، إلا أنا رأينا هذا كذلك حتى فى القطاعات التى ما زالت خلف القضبان ولعل آخر آية فى هذا ما قام به عمال تنجانيقا — وهى الدولة التى ما زالت مسحوقة تحت قبضة إنجلترا ، من تطبيق قرار مقاطعة السفن التى تحمل الشحنات المرسلة إلى كاتنجا ، رغم أنف الاستعمار الجاثم على صدور هؤلاء التنجيقيين ، ذلك لأنهم أدركوا أنهم بعملهم هذا إنما يصادرون الموت نفسه من الوصول إلى إخوانهم ، الإفريقيين ، هذا الموت الذى أصبح يعبء الآن بحماس فى أمريكا وفرنسا وإنجلترا وبلجيكا والبرتغال ، ثم يشحن إلى أكثر من مكان فى إفريقية ، ولكن القوى النامية فى إفريقية الآن توقف عمليات الموت هذه ، وتصدرها ثانية إلى تلك الدول التى أرسلته لتموت به . . أما إفريقية فلن تغمرها إلا الحرية . . وإلا السلام !

ضوء على جامبيا :

تعتبر هذه البلاد واحدة من المستعمرات البريطانية الفقيرة ، والصغيرة فى الوقت نفسه فمساحتها لا تتعدى ٤١٠٠ ميل مربع يقيم عليها ٢٨٠,٠٠٠ من السكان الذين يشكل المسلمون غالبيتهم . وتعتبر من أقوى القبائل هناك وأكثرها قبيلة « ماندنجو » والتى كانت واحدة من نقاط الارتكاز للمد الإسلامى فى هذه المناطق قبل الغزو الأوروبى .

وقد سميت هذه البلاد بجامبيا لأنها تقع على نهر جامبيا ، وقد شبهوها بالدودة لأنها تأخذ شكلا مثنياً على طول نهر يمثل تثنى الدودة ، والسكان أنفسهم يدركون أن فقر بلادهم ، وانعزالها ، وضآلتها لا توفر لهم تكاملا اجتماعياً واقتصادياً ، إذ لا بد من اندماجها فى واحدة من دول غرب إفريقية ، حتى يتكون كيان إفريقى عام فى هذه المنطقة ، ولكن الإنجليز يقفون بالمرصاد لكل حركة « وحدة » — كعادتهم — فى هذه المنطقة ، ولكن الغد كفيل بتحقيق الوحدة الإفريقية الشاملة فالوحدة اليوم هى الدرع الذى يمكن أن تتكسر عليه كل قوى الاستعمار ، وإذا كان قد نجح اليوم فى تقسيم الكونغو وتفتيته فإن الغد قادم ، والنصر لرغبات الشعوب ، لا لرغبات هؤلاء الدخلاء الذين يفكرون من أجل مصالحهم ، ومن أجل أموالهم المستثمرة ومن أجل سرقات الكنوز ، واستنزاف الحقول . وتحويلها إلى أرصدة فى بنوكهم فيما وراء البحار ، ثم تحويلها بعد ذلك إلى رخاء عام يشمل كافة مظاهر حياتهم .

لمحة عن سيراليون :

تاريخ هذه البلاد يشبه إلى حد كبير تاريخ ليبريا ، فهى تتشكل فى غالبيتها من الإفريقيين الذين نزحوا من الولايات المتحدة ، ثم عادوا إلى قارتهم ، وإلى ذكرياتهم القديمة . وتاريخهم المستقر فى أعماقهم ، ولكنهم بدلا من أن يندغموا فى البلاد ، ويصلوا إلى أعماقها ، ويضعوا أيديهم فى أيدى السكان المحليين الذين ما زالوا على الفطرة ، والذين ما زالوا يعانون من التأخر والمرض ومستوى المعيشة المنخفض ، بدلا من عملية الاندغام هذه نراهم يتقوقعون حول أنفسهم ، ويكونون لهم مجتمعاً خاصاً يترفع على غيرهم من أهل البلاد .

ومهما يكن من شىء فمساحة هذه المستعمرة تبلغ ٢٧,٩٢٥ ميلا مربعاً ، وتشرف على المحيط . وتحيط بها فى الوقت نفسه من الجنوب ليبريا ، ومن الشمال غينيا .

ومن الغريب أن هذه الدولة قد قامت بمجهود بعض الشركات البريطانية التى استهدفت العودة بالرقيق إلى أرضه ، وفى هذه الأرض نراهم

يستقرون ويكونون — إلى حد ما — مع السكان الأصليين مجتمعاً جديداً ، وقد شاهدت هذه الدولة الثورة تحتدم فى كل مكان فى غرب القارة فقامت بها عـــدة ثورات ، ومطالبـــة بالإصلاحات الدستورية حتى تم الرأى على أن تستقل فى هذا الشهر .. شهر أبريل عام ١٩٦١ .

تلك هى قصة دولة جديدة ترفع علما جديداً فى السماء الإفريقية الكبيرة التى طال حنينها إلى تحرر كل شبر من أرض القارة ، فقد كفاها ما لاقته من هوان ، وآن لها أن تستعيد أمجادها ، وأن تخلق بها حضارة جديرة بها ، فالحضارات لا تنمو إلا فى ظلال الحرية ، وأحضان الاستقلال .

اعتقادات الدوجون :

جاء فى كتاب « الديانـــات فى إفريقية السوداء » لوبير ديشان أن الدجون يزعمون أن نشأة قبيلتهم ترجع إلى ثمانية أجداد أسسوها منذ النشأة الأولى للخليقة ، وأن هؤلاء الأجداد كانوا يسكنون السماء ، ويأكلون ثمانية أنواع فقط من الحبوب ، كما ينقسمون إلى ثمانية عشائر ، وحين نفدت تلك الحبوب اجترأ اثنان منهم على تناول حبوب « الفونيو » المحرمة ، ثم ماكان لهم بعد عملهم هذا إلا أن يهربوا من السماء ، وقد كان هذا الهروب فرصة للأب الأول نظم فيها الكون من جديد .

وهم يتصورون الكون على هيئة سلة من الطين مقلوبة ، فقعرها يمثل السماء ، كما يمثل القاع الشمس ، كما يتصورون أن للسماء جهات أربع ، يؤدى إلى كل منها سلم مكون من عشر درجات ، فالشمالى للإنسان والأسماك ، والجنوبى للحيوان المستأنس والشرقى للطيور ، والغربى للوحوش والنبات والهوام .

ثم إن الأب الأول استولى على النار وخلق منها كور الحداد ، ولكن ما كاد يقتله حتى غضب عليه الجن ، ورموه إلى الأرض فهشموا أعضاءه التى أصبحت بعد عملية التهشيم هذه ذات مفاصل ، وأنه ما كاد يستقر على الأرض حتى ابتدع الزراعة ، ثم توالى هبوط الأجداد من السماء ، ولكن الجد الثامن هبط قبل السابع ، وقد تغاضبنا لهذا السبب ، مما ترتب عليه أن تحول السابع إلى ثعبان والتهم الثامن ، ولكن الناس هموا به ، وقتلوه ، وقد استسلم هولهم ، وتحمل خطاياهم فداء للبشر ، وقذف قبل أن يموت تماماً الثامن من فمه على هيئة « حجر ! » ، ولكنه سرعان ما عاد إلى هيئته البشرية مرة ثانية ، ومن هنا لقب بالجد التاسع لأنه باشر وجوده مرتين !

« وسيلة نشر الثقافة العربية فى إفريقية » :

لقد استعصت القارة على الحضارة القديمة ، وحركات الغزو التى اندفعت فى الزمن القديم ، فخطوات الفرس قد توقفت عند مصر ، والرومان فى عهد الإمبراطورية الرومانية الكبرى ، ووريثها الإمبراطورية الرومانية الشرقية لم يتجاوزوا مصر والمغرب ، أما القوى التى تغلغلت فى القارة بحق فقد كانت القوى العربية ، فقد أجتاحت الشمال والشرق ، وكسرت الحاجز الصحراوى متخذة فى ذلك خمسة طرق أدت بها إلى أعماق القارة ، وإلى تعريب قسم كبير منها ، ويكفى لندلل على هذا أن نقول أنه قام فى غرب القارة فقط جنوب الصحراء الكبرى عشر دول إسلامية هى ممالك « غانة ، وصوصو ، ومالى ، وصنغاى ، واليوروبا ، وبرنو ، والحوصة ، وكانم ، وموسى ، وبمبارا » .

ولكن حين جاء الغزو الغربى ، جعل من أول مقاصده القضاء على قوى العروبة التى كانت تنتشر بالطرق السلمية فى القارة ، بوساطة التجار ، والمتصوفين .

وحين نصل إلى هذه الحقيقة تبرز أمامنا حقيقة كبيرة هى أن للعروبة تراثاً فى هذه القارة ، يمكن حين نفكر فى نشر الثقافة العربية الحديثة ، أن نحييه أولا ، ولعل مما يثير حقاً أن هذا التراث من الضخامة بحيث يصبح الإهمال فى إحيائه جريمة كبرى ، فلكى نعرف هذه القارة لا بد من قراءة ما ألفه ابن عبد الحكم ، بن بطوطه ، الاصطخرى ، محمد الأندلسى ، البكرى ، المسعودى ، ابن حدقد ، ابن سعيد ، ابن فاطمة ، المقدس المغرى ، العمرى ، ابن خلدون ، الحيمى ، جلال الدين السيوطى ، التونسى ، ابن خرداذب ، الشريف الإدريسى .

فإذا تم لنا نشر هذا التراث وتحقيقه أمكن لنا أن نجعل من هذا التراث ركيزة ، ونقطة انطلاق ، لأننا نريد أن نقول للناس هذا هو ماضى العرب المشرق فى القارة ، وإلى جوار هذه الحركة « السلفية » يمكن أن نقوم بحركة ثانية وهى التأليف عن القارة ، والعمل على نشره فى الجهات التى تتكلم بالعربية وبخاصة فى الشمال ، والشرق ، ثم ترجمة هذه المؤلفات فى الوقت نفسه إلى اللغتين السواحيلية والهوسة ، وعندنا الآن فى مصر بعض الإفريقيين الذين يمكن الاستعانة بهم .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن قطاعات كبيرة فى إفريقية تعرف العربية أمكننا أن نقدم ثقافتنا وبخاصة « الثقافة الدينية » إلى هذه البلاد لأنه توجد بالقارة قطاعات كبيرة تقرأ العربية .

المسلمون فى آسيا وإفريقية (١)

فى آسيا		فى إفريقية	
البلد	نسبة المسلمين	البلد	نسبة المسلمين
أفغانستان	٪ ٩٩	الجمهورية العربية المتحدة	٪ ٩٥
إيران	٪ ٩٨	ليبيا	٪١٠٠
باكستان	٪ ٩٨	موريتانيا	٪١٠٠
جزر مالديف	٪ ٩٥	السودان	٪ ٩٥
أندونيسيا	٪ ٩٠	تونس	٪ ٩٥
بورنيو الشمالية	٪ ٧٠	المغرب	٪ ٩٠
الملايو	٪ ٥١	اتحاد مالى	٪ ٨٠
سنغافوره	٪ ٤٥	غمبيا	٪ ٨٥
الهند البرتغالية	٪ ٣٠	غينيا	٪ ٧٠
كمبوديا	٪ ٢٠	الفولتا العليا	٪ ٧٥
تيمور البرتغالية	٪ ٢٠	النيجر	٪ ٩٠
تايلاند	٪ ١٥	الجزائر	٪ ٨٥
الهند	٪ ١١	تشاد	٪ ٨٥
بورما	٪ ١٠	سيراليون	٪ ٦٠
الفلبين	٪ ١٠	الحبشة وأريتريا	٪ ٧٥
سيلان	٪ ٧,٦	صوماليا	٪ ٩٩
الصين	٪ ٧	زنجبار	٪ ٩٩,٩
مجموع دول آسيا السوفيتية	٪ ٥٥	نيجيريا	٪ ٦٦
		الكاميرون	٪ ٥٠
منطقة غرب آسيا وتشمل البلاد العربية الآسيوية وتركيا	٪ ٩٦	تنجانيقا	٪ ٢٠
		مدغشقر	٪ ١٩
		أوغندة	٪ ٢٥
		ريودورو	٪ ٩٠
		ساحل العاج	٪ ٥٠
		كينيا	٪ ٣٥
		أوبنجشارى	٪ ١٠
		موزمبيق	٪ ١٠
		ليبريا	٪ ١٠
		غانة	٪ ١٠
		غانة البرتغالية	٪ ٦٠
		داهومى	٪ ١٥

١ — إحصائية عن إدارة الاتصال بالشعوب الإسلامية التابعة لوزارة الأوقاف بالإقليم الجنوبى من الجمهورية العربية المتحدة.

الشعر ولومومبا :

هز مقتل لومومبا الضمير الحى للعالم ، وقد كان هذا الأثر قوياً وموجعاً على نفوس الشعراء ، الذين وقفوا دائماً حول قضاياه ، والذى ما كاد يسقط حتى التفوا حول دمائه ورفعوه من جديد علماً ثورياً يرفرف على كل القارة ، وينادى بنفس المبادئ التى عاش من أجلها ، والتى مات من أجلها كذلك .

ومن النبضات الحية التى عبرت عن هذه المأساة ، تلك الأبيات التى ختم بها الشاعر « صالح جودت » قصيدة « أذان الحق » ، فقد جاء فيها عن لومومبا :

أيها الراثون « لومومبا » اخشعوا
إنما القاتل أولى بالرثاء
فهو فى سفر الدنايا قصة
تستعيذ الأرض منها والسماء
أنظروا القاتل ما من ملة
لم تردد أنها منه براء .
وانظروا المقتول يلقى الله فى
موكب المجد وعرش الشهداء
ذبحوه ؟ بل أراهم ذبحوا
شرف الغرب ، وعرض الحلفا
وأدالوا العالم الحر لفنى
وأحالوا مجلس الأمن هباء
أحرقوا جثته ؟ طوبى له
يا لمجد أحرقوه فأضاء
وغدا ناراً على أعدائه
وغدا نوراً لعشاق البقاء
فى غد تخطر أم حرة
فى يديها طفلها غض النماء
وتصلى ويصلى معها
لرماد ذى عبير وضياء
وتغنى : من هنا يا ولدى
من هنا يبدأ تاريخ الإباء
ها هنا يا ولدى قبر أب
مات بالمجد ، وإن المجد داء
وهنا يا ولدى يرقد من
قد بنى كعبة خط الاستواء !

ومن القصائد الجميلة المشحونة بالشجن ، والآملة فى الغد قصيدة الشاعر الإفريقى « محمد يوسف اسماعيل الهررى » فقد جاء فيها :

وسرت فى الناب حمى القهقهات
لسكارى ضيعوا العزة فى سوق الفتات
حارس الغابة صدناه . قتلناه
غمرناه حرابا
وصخورا وترابا
وأخذنا حظنا من دمه
ولمولانا سعوطا وخضابا !
حسبوا الطلقة قبره
حسبوا الحربة إذ تغتاله تغتال فكره
.. إنما كان شعاعاً عبقرياً
غمر الآفاق سحرا مرمريا
إنما كان دويا
أرعش الدنيا وصوتا نبوياً
ملأ الغابة أجراسا
نشيداً عبرياً !
أى لومومبا . أى لومومبا
يا رفيق الشمس ما زلت شعاعا
يملأ الوديان خصبا
يا شهيد الحق ما زلت سراجا
يمنح الأحرار إصرارا ودأبا

* * *

يا يهوذا غره الدولار فاغتال رفيقه
ألكى تخنق أحلام الصغار ؟
ولكى تجعل من طفلك عبدا
لهمرشولد ، وفانى البحار
جئت قبل الفجر بالجرم الرهيب
إن تكن تحسب أن الموت قد لف لواءه
فالتفت نحو الملايين التى تمشى وراءه
كلها تهتف نشوى يا لومومبا
لم تمت يا حارس الشمس الكبير
أنت ما زلت ربيعا
يملأ الآفاق خصبا
أنت ما زلت لومومبا !

من القصص السوداني

الثعبان الطروب

للأستاذ : عباس خضر

حمل « عبدون » مزماره الذى لا يملك غيره من حطام الدنيا ، وسار .. لا يعرف له طريقاً ، ولا يقصد وجهة معينة .. كان قد ترك زوجته وابنه للقدر يصنع بهما ما يشاء ، بعد أن يئس .. فقد طوف ما طوف طول النهار فى الأسواق والطرقات ، يعزف على مزماره ، ويعزف .. لم يعطه أحد شيئاً .. فكيف يعود إلى بيته ؟ وماذا يقول لزوجته وولده وهما ينتظران الدراهم المعدودات التى يجود بها من يجودون عليه ، أو من يطربهم عزفه كما يحب أن يتصور ..

وظل سائراً ، يصعد به الطريق فى بعض الأماكن ، ويهبط به فى أماكن أخرى ، حتى وصل فى صعوده إلى قمة جبل عال ، وكان قد تعب وأنهكه طول المسير ، فجلس يستريح ، وتناول المزمار .. مؤنسه الوحيد ومفرج كربه ، وراح يرسل أنغامه الحزينة فى شعاب الجبل ، واندمج فى عزفه وحزنه حتى غاب عن الوجود ، فلم يشعر بما حوله ، ولم ير الثعبان الكبير الذى أطربه العزف فزحف نحوه واستقر أمامه يهز رأسه فى طرب ونشوة ..

وظل « عبدون » يعزف ، والثعبان يسمع ويطرب .. حتى تعب فمه من النفخ فى المزمار فكف عن العزف ، ونظر أمامه فرأى الثعبان ، فلم يجزع منه ، بل على العكس شعر بالارتياح إلى منظره المسالم الطروب .. وقارن بينه وبين الناس الذين كانوا يضيقون به ويطردونه أحياناً بدعوى أنه يزعجهم بمزماره وهم فى الحقيقة يتهربون من منحه وإعطائه شيئاً يستعين به فى رزقه وحياته هو وأسرته ، وتذكر ولده وزوجته وما عسى أن يكونا عليه من الجوع والحزن لعدم عودته إليهما ، فبكى ..

ولم يشعر « عبدون » إلا والثعبان يرمى إليه بدينار .. دينار ذهبى .. ويزحف راجعاً حتى يختفى بين الصخور ..

أحس « عبدون » بمناظر الدنيا

تتغير أمامه ، والأشياء تبتسم له ، كما أحس بطريق العودة يدعوه إليه العودة إلى بيته وزوجته وولده .

وجعل « عبدون » يذهب كل يوم إلى الجبل ، ويعزف ، ويأتى بدينار . .

شعر بكيانه كفنان وكإنسان له كرامته ، ولم تعد تشغله مشاغل العيش ، تلك الدراهم المعدودات التى كان يلف ويجول ، ويتعرض لإذلال الناس له وامتهان فنه ، من أجلها . . تفرغ من هموم الحياة الدنيا . . هموم الطعام والشراب والملبس والمسكن وما إليها ، وصار عاكفاً على الفن ، يحذقه ويفتن فى أساليب العزف .

جعل الناس يقصدون إليه بعد أن كان يقصد إليهم ، ولكنه لم يضق بهم كما كانوا يضيقون به ، لأنه فنان يحب الناس ولا يتصور الحياة السعيدة إلا بالتعاطف معهم .

وجاء إليه كثيرون يطلبون منه أن يحيي لياليهم ويبهج أفراحهم بعزفه ، ويعرضون عليه لقاء ذلك الأموال الكثيرة ، ولكنه كان يرفض . . مكتفياً بالدينار الذى يناله كل يوم من الثعبان . .

وتوطدت العلاقة بينه وبين الثعبان علاقة صامتة تتخللها مشاعر متدفقة يعبر عنها « عبدون » بأنغامه وألحانه ، ويعبر عنها الثعبان بحسن إصغائه واهتزاز رأسه فى إيقاع منظم كان يعجب « عبدون » ويستثير غيه بواعث الإجادة والبراعة .

حتى مرض « عبدون » . . وألزمه المرض الفراش ، فدعا ابنه إليه وحكى له حكايته مع الثعبان ، وطلب منه أن يذهب إلى مكانه على قمة الجبل ويأخذ المزمار ويعزف له .

أخذ الولد المزمار وقصد إلى المكان الذى وصفه له أبوه وجعل يزمر ، فخرج إليه الثعبان ومكث غير بعيد منه يستمع إليه . لم يشعر الثعبان بالطرب ، ولكنه تظاهر بالتأثر من العزف ، ثم رمى بالدينار إلى الولد وانصرف .

وكذلك فعل الولد والثعبان فى اليوم الثانى ، فلما كان اليوم الثالث طرأت للولد فكرة خبيثة . . قال فى نفسه : إن هذا الثعبان لا بد وراءه كنز مملوء بالمال يحرسه ، ولا بد أن باب الكنز هو ذلك الشق الذى يخرج منه ويعود إليه الثعبان . فلماذا لا أقتله وأستولى على الكنز . . ؟

وضع المزمار جانباً ، وأحضر حجراً كبيراً وجعله فى متناول يده ، ثم أمسك بالمزمار وزمر . فخرج الثعبان وهو يتظاهر بالتأثر والطرب ، واستقر فى مكانه المعهود . . وفجأة قام الولد وأمسك بالحجر وقذف به إلى الثعبان مسدداً إلى رأسه حتى يقضى عليه ، ولكن الثعبان تنبه للحركة

الغادرة فقفز . . وأصاب الحجر ذنبه فقطعه . . فأسرع الثعبان إلى الولد والتف حوله ، فاستحال الولد جثة هامدة .

مضت أيام ولم يعد الولد إلى أبيه ، فخرج يبحث عنه ، وذهب إلى الجبل فوجد ابنه جثة ممزقة . . فبكى . . ثم أخرج مزماره وراح يبثه أحزانه ويوقع عليه أشجانه .

خرج إليه الثعبان وأمره آن يكف عن العزف ، وقال له :

– يا صديقى ، إن ابنك حاول قتلى ، وقد قطع ذنبى . إنه ولد غادر ، لم يقبس منك موهبة الفنان ، ولم يرث عنك إنسانية الإنسان . .

فقال « عبدون » وقد عرف حقيقه الأمر :

– لقد لقى جزاءه ، وإنى آسف أيها الصديق ، وأنا الآن حزين ، لا على فقده ، بل على ما أصابك جزاء نعمتك وفضلك !

– لا تحزن يا صديقى ، فما قدر الله وقع ، أنت فقدت ولدك وأنا فقدت ذنبى ، ولن تنسى ولدك ، ولن أنسى ذنبى .

ثم قال له :

تعال معى وخذ من هذا الكنز ما تريد ، واذهب لحالك ، ولتكن علاقتنا وصداقتنا فى عداد الذكريات .

وأبى « عبدون » أن يأخذ شيئاً من المال ، واكتفى بقوله للثعبان :

« وداعاً يا صديقى . . وداعاً إلى الأبد . . »

وعاد يرسل من مزماره الألحان الحزينة . .

كتاب الشهر

شرق إفريقية فى فجر التاريخ والمسطور

بقلم سونيا كول

عرض وتقديم عميد (ا . ح) **محمد عبد الفتاح ابراهيم**

كتاب اصطحبنا وكاتبته فى دراسة أخرى عن نفس المنطقة فى شرق إفريقية ، ولكن مع فاصل زمنى بين تاريخ الدراستين ، فالأولى فيما قبل التاريخ المسطور ، والثانية فى فجره ، وهو أمد يمتد لأكثر من عشرة قرون فى حساب الزمن العادى إلى غاية ما تقدم خاتمة تلك ومقدمة هذه . .

وفكرة « التاريخ المسطور » تحتاج لايضاح فليست مسألة مطلقة اطلاقاً عاماً ، وإنما تتحدد بالنسبة لكل منطقة تبعاً لظروفها الخاصة بها من ناحية تسجيل مجرى الحوادث فيها تسجيلا لا يتطرق إليه شك ولا يحتمل الزيف بصورة ما فالعصر التاريخى فى شمال وادى النيل يرجع إلى فجر عهد الأسرات وقد قدمت أوراق البردى وجدران المعابد السجل الصحيح الكامل لتاريخ الناس فى شمال وادى النيل ، وهكذا الحال بالنسبة لحضارة بابل ونينوى وأشور ، وحضارة طيبة وأثينا وحضارة روما ، ومن هنا نشأت فكرة لها خطرها هى فكرة الوقوف عند حد تسجيل زمنى معين على أساس أنه هو بدء التاريخ الموثوق به ، وقد حاول غلاة المستعمرين — بالنسبة لإفريقية خاصة — أن يربطوا بين العصر التاريخى لإفريقية فيما هو جنوب الصحراء بحر الرمال وبين وصول الأوروبيين ، ولكن صاحبتنا كول تحاول أن تثبت غير هذا وأن ترجع بالعصر التاريخى فى شرق إفريقية إلى ما قبل هذا بقرون وقرون .

* * *

بدء التاريخ :

فى دراسة لأحد رجال الحفريات الأعلام حاول الرجل أن يقدم تعريفاً للعصر التاريخى فقال :

العصر التاريخى . . . هو نفس العصر فيما قبل التاريخ فقط ، تزحم قصته السجلات والوثائق .

ولم يقل الرجل ماذا يعنى بالوثائق ولا ماذا يظن هذه السجلات المسطورة ، وعندى أن العصر التاريخى هو العصر الذى نستطيع أن نتعرف على أحوال الناس فيه من دلائل لها مادياتها سواء أكانت نقوشاً فى كهوف . . وحفراً على جدران معابد أوسطوراً مكتوبة على ورق ، والفكرة فى هذا أننا نستطيع

أن نرجع بالتاريخ المسطور إلى مدى فسيح .

على أن بعض الناس يتزمتون فلا يتقبلون — كعصر من عصور التاريخ المسطور — غير الأمد الزمنى الذى تتوافر فيه الوثائق المسطورة ، ومن أجل هذا فإن الكثيرين لا يرون بأن شرق إفريقية قد بدأ العصر التاريخى قبل وصول الأوروبيين ، أى أنهم لا يعتبرون أن شرق إفريقية قد دخلت من باب التاريخ قبل القرن التاسع عشر ، ولا تحاول « سونيا كول » فى كتابها أن تصطنع حدوداً صناعية فى تاريخ إفريقية المبكر ومن ثم فهى تنشىء معبراً جديداً يربط بين العصر الحجرى الحديث وبين القرن التاسع عشر الميلادى وتطلق عليه Proto-historic period أى عصر فجر التاريخ أو بدئه أو أول مراحله .

ولكن الكاتبة لا تطلق رأيها إطلاقاً غير محدود ، بل تذهب إلى أن الحبشة — برغم قلة ما هو معروف من تاريخها القديم — أول دولة فى شرق إفريقية لها تاريخ ينطبق على التعريف فى الطابع المقبول للكلمة ، وتقول فى إيضاح علة هذا الرأى أنها على الطريق من آسيا ، ومن البحر الأحمر وأنها أول بلد فى شرق إفريقية كانت على التحقيق مسرحاً لهجرات كثيرة ، ثم أول منطقة فى شرق القارة اتصلت بالمسيحية منذ ألف وخمسمائة سنة ثم أنها تتميز بأسطورة مملكة القديس چون الإمبراطور الذى هو أيضاً من نسل الملك سليمان والملكة بلقيس .

والواقع أنه لم تكن لإفريقية السوداء حضارة حقيقية حتى عصر حديث نسبياً وإن كانت الشعوب الحامية قد نقلت الكثير من تقاليد الممالك القديمة التى كانت فى الجنوب من مواطنها ، وقد بدأ التطور الثقافى فى أغلب مناطق إفريقية لجنوب الصحراء يأخذ طابعه بعد العصر الحجرى ، ولم تعرف هذه المناطق العصر البرونزى ، وكان تسرب العصر الحديدى للجنوب ولداخل القارة بطيئاً جداً ، وتدريجياً .

الحاميون والفنون الحضارية :

ويرجع البناء بالأحجار أساسياً إلى الحاميين الذين قد يكونون هم المسئولين عن التخطيط المبكر لهذه المنشآت فى « زمبابوى » من أعمال روديسيا الجنوبية ، ولكن شرق إفريقية لا يستطيع أن يفخر بمثال على مثال الحفار الأول فى غرب إفريقية والذى بدأ يمارس فن النحت من العصر النيوليثى الأسفل أو فجر العصر الحديدى والذى صنع هو وخلفاؤه التماثيل المعبرة التى وجدت فى نيجيريا وفى بينين أعمال .

وتتمثل كل الفنون الحضارية فى شرق إفريقية فى الملاجئ الصخرية الملونة ، وإن كانت هذه أيضاً تقل روعة عن التى وجدت فى روديسيا وفى جنوب إفريقية بل حتى فى قلب الصحراء .

وهنا لا نستطيع أن نغفل عن أننا فى الواقع لا نعرف إلا القليل عن أصول أغلب القبائل التى تعيش حالياً فى شرقى إفريقية ، من أين جاءت ؟ ! ومتى جاءت ؟ بل ولماذا لم تكن معنية بوسائل الراحة المادية ؟ لماذا لم تفكر فى الأدوات التى تقلل من عمل العامل وتعوض من نقصه ؟ لماذا لم تفكر فى الإنتاج الثقافى الفنى ؟

والواقع أننا نعتمد الاعتماد كله على تقاليد شفوية لتفسير ماضى هذه القبائل ، لقد جمع الكثير من تاريخ هذه القبائل ،ولكن من سوء الحظ أن الكثير منه قد ضاع أيضاً ، فلم يعنى بجمع معلومات هذا التاريخ فى زمن مبكر ، وعند ما وضع موضع التقدير محاولة هذا كان الوقت قد تأخر وكان الكثير قد ضاع ، والأساطير وصور الحياة التقليدية تنسى بسهولة تحت ضغط الاتصال الفجائى بالحضارة الغربية .

ولكن مع هذا فإن القليل الذى جمع من هنا ومن هناك قد عاون على حل غامض عصر امتد طوال الألفى سنة الماضية .

النفوذ المصرى :

ونستطيع من كتاب « سونيا كول » أن نخرج بما نجده فى كتاب سليجمان عن « مصر وإفريقية .الزنجية » فى تاريخين متباعدين فقط ، ويبدو أن النفوذ المصرى كان أكثر وضوحاً فى غربى القارة منذ أبعد العصور وحتى بعد التاريخ المسطور بقرون ، وبعد توافر الضغوط الخارجية التى تنقل حضارات من خارج القارة .

على أن الذى يعنينا هو ما تقوله «سونيا كول»من أن النفوذ المصرى حتى فى العصر الباليوليسى الأعلى لم يكن كبيراً ، وتنسب «سونيا كول»هذا إلى أن المصريين الأولين لم تتوافر لهم رغبة تبسيط حضارتهم بالقدر الذى يمكن نشره بين جيرانهم للجنوب الشرقى ، ثم إنهم لم يعنوا العناية المطلقة بأعمال الكشف فقد قصروا عنايتهم على أرض بونت على طول ساحل البحر الأحمر ، وعلى أجزاء من الحبشة ، ومع النفوذ المصرى قد سار مع النيل للجنوب إلا أنه لم يكن كبيراً جارفاً للجنوب من مكان الخرطوم الحالية عند ملتقى النهرين فى (مقرن البحرين) حيث كان هناك متسع للنشاط الثقافى فى الستة الآلاف سنة الأخيرة ، وعلة توقف اندفاع النفوذ المصرى للجنوب مع النهر وجود السدود والمستنقعات فى النيل الأعظم .

وقد يكون المانع الأقوى اليوم فى إفريقية هو الصحراء ، ولكنه لم يكن دائماً كذلك ، ونجد فى الصحراء الكثير من آثار العصر النيوليسى ، على أنه يبدو بأن جو الصحراء قد تغير تغيراً واسع المدى بعد العصر النيوليسى ، وفى كل

الأوقات التى وصلت فيها الحضارة المصرية القديمة إلى ذروتها كان الجزء الجنوبى من القارة منفصلا تماماً عن الشمال .

ومع أنه قد وجدت فى أم درمان وقور رجب (٢٠٠ ميل لشرق الخرطوم) قبور من قبل عهد الأسرات (٣٠٠ ق . م) إلا أن هذه المناطق لم يعرف عنها غير القليل فى التاريخ المسطور منذ بداية عهد الأسرات فى شمال وادى النيل برغم وجود بعد نماذج من النأس المصرية النحاسية ذات الحدين فى وادى هوار (٥٠٠ لغرب الخرطوم) كما وجد فى نفس الوادى وفى إجوردات بارتيرية فخار يرجع إلى المجموعة (ج) (٢٥٠٠ – ١٥٠٠) قبل ميلاد السيد المسيح كما ثبت أن هذا الفخار يشبه النماذج التى تصنع اليوم فى تلال النوبا بشرق كردفان .

الساحل :

وقد كان الساحل منذ أبعد العصور أكثر أمناً وأسرع ، كوسيلة للسفر والرحلة عن الطريق البرى ، ذلك لأن الأهوية والرياح تعاون المسافر على قطع طريقه ، على حين أن الصحارى والغابات والجبال تعطل من مسيره حتى بعد أن استطاع أن يسيطر على حيوان الحمل وأن يستأنسه ، ومع أننا نعرف شيئاً عن تاريخ ساحل شرقى إفريقية لألفين وخمسمائة سنة مضت فإن معرفتنا بالحوادث فى داخلية البلاد محدودة جداً .

وقد كتب بلينى [1] Pliny بعض الأساطير التى نقلت داخل عن القارة :

« يقال أنه فى بعض البلاد الداخلية من الساحل يوجد أناس ذوو وجوه مسطحة لا أنوف فيها وأن بعضهم لا شفاة عليا لهم وليس لغيرهم ألسنة ، ولقد سمعنا عن أناس لا فتحات فى وجوههم غير ثقب صغير يتنفسون منه ويأكلون الحبوب التى تنبت فى الأرض دون أن يزرعها زارع ، وتستخدم بعض الناس إيماءات للتعبير بدلا من الكلمات التى يحطها الناس للتفاهم ، وقبل عصر البطالمة فى مصر كان هؤلاء الناس لا يعرفون حتى الطريقة البدائية لاشعال النيران » .

على أننا نعرف أنه سنة ٧٠٠ قبل الميلاد كان تجار أسوان يتاجرون مع الساحل الشرقى لإفريقية ، وبعد ثمانمائة سنة كتب يونانى مجهول كتاباً عن البحر الأحمر ومنه نعرف أن سكان جنوب غرب بلاد العرب كانوا يسيطرون على الساحل الشرقى ، فى المنطقة حول Rhapta والتى هى آخر مدينة تجارية فى قارة آزانيا Azania أى البلاد الجافة على السهل الساحلى والتى كان اليونان يعرفون ما وراءها باسم بـــلاد البرابرة Barbaia ، وكانت هناك اتصالات مع هذه البلاد الداخلية عن طريق الموانى مثل Prasum فى المنطقة التى يصب فيها نهر Ruvuma البحر

---

(١) بلينى واسمه Gaius Plinius Secundus عاش من ٢٣ إلى ٧٩ بعد الميلاد وهو عالم من علماء الطبيعة وكاتب كانت له شهرة فى عصره .

وقد أوجد Sabaens من غرب بلاد العرب مملكة أكسوم فى شمال الحبشة فى القرن الأول للميلاد ، وقد اشتهرت حضارة اكسوم بإقامة المبانى من الأحجار،ولكن الذين نقلوا هذه الحضارة للجنوب كانوا من الحاميين ، وفى حكم دولة أكسوم كانت التجارة تنتقل من Adulis على البحر الأحمر إلى Cyenium على النيل الأزرق والتى قيل إنها على مسافة ثمانية أيام من الساحل .

الإسلام :-

وبدأ التاريخ الإسلامى بهجرة محمد عليه الصلاة والسلام سنة ٦٢٢ للميلاد، واجتاح العرب شمال إفريقية وقرنها محولين السكان المحليين إلى عقيدة الإسلام ، وأنشأ العرب إمبراطورية زيلع Zeida بين الأرض الحبشية العالية وبين البحر ، وقد بقى نفوذهم للجنوب من هذا فى كينيا وتنجانيقا قائماً على الساحل وقفاً على الأرض فى جوار الماء .

ويحتمل أن يكونوا قد جازفوا بالاتجاه للداخل ولكن ما يتوافر لنا من معلومات لا يدل على أنهم قد فعلوا شيئاً من هذا قبل القرن التاسع عشر ، وكان هذا بسبب الرغبة فى الحصول على العاج ، على أن العرب مثلهم مثل الأوروبيين كانوا موضع شك وكراهية السكان المحليين .

وفى سنة ١٩٤٧ تمت بعض الحفريات على ساحل إفريقية الشرقية والجزر المجاورة للساحل بين الصومال وبين شرق إفريقية البورتغالية ، وقد كشفت الحفريات هناك وبخاصة فى المدينة العربية القديمة Gedi قرب مالينديى[1] Malindi فى كينيا

وقد وجدت بعض المنشئات الإسلامية من بينها منازل مستطيلة من الحجارة تدور حول حصن ترتفع جدرانه لارتفاع ١٦ قدماً ، وقد وجدت فى جزيرة Sanjc ya Koto جنوب Kilwa ، وقد وجد على مسافة أربعة أميال من هذه المستوطنة العربية برج مغطى بقطع من الحجر الرملى وقد وجد فى المدن المهجورة فى شمال شرق الصومال ما يقرب من ثلاثماية منزل وهيكل قديم حول فى تاريخ حديث إلى مسجد ، وبالإضافة إلى أن هذه كلها قد بنيت من الأحجار فقد كانت فيها مصابيح فخارية تدل على صلة وارتباط بالمنشئات من عصر مملكة أكسيوم بين القرنين الثانى والخامس الميلاديين .

النفوذ الحامى فى شرق إفريقية :

ومن المحتمل أن يكون الناس الحاميو الأصل قد احتلوا مناطق فسيحة

(١) مالينديى على الساحل للشمال من ممباسا عند مصب نهر ساباكى .

من كينيا وتنجانيقا وأوغندة فى القرون عشرة الأولى بعد الميلاد ، وكانوا أكثر تحضراً من البانتو الذين سبقوهم والذى جاءوا مرة أخرى فى أعقابهم ، فقد كان الحاميون مهرة فى فن البناء بالأحجار وكان مهرة فى شق الطرق وتمهيدها وكانوا مهرة فى منشئات الرى والصرف ، ولم تكن هناك أى اتصالات تقليدية بين هذه القبائل الحامية وبين البانتو المحدثون الذين يشيرون إليهم عادة بكلمات « طوال القامة » « ذوى اللحى » « الاعداء » .

وقد شيد هؤلاء الناس الآثار الضخمة فى أجزاء كثيرة من قرن إفريقية ويشير هنتنجفورد Huntingford إلى «الثقافة الهيجيوليثية » Hagiolithic Culture لشرق إفريقية ، والكلمة نفسها تجىء فى تكوينها الحرفى من كلمتين يونانيتين hagios أى مقدس و Lithos أى حجر ومعناها ثقافة الأحجار المقدسة » ، وقد أمكن تعقب بقايا قائمة لهذه العقيدة بالنسبة للأحجار المقدسة وبالنسبة لأشياء مقدسة مصنوعة من الخشب فى منطقة مرتفعات هرر ، وفى منطقة البحيرات التى ربما ترجع إلى عصر دولة أكسيوم بما فيها مسلام أكسيوم نفسها وبما فيها التماثيل الفجة للصور البشرية فى « جوراج » بمنطقة البحيرات .

ويرتبط الكثير من هذه الأحجار بمطالب الأخصاب للأرض ، ويوجد فى السودان عدد من الأحجار المقدسة بما فيها حجر سوبا فى جبل جول Gule بدار الفونج ، وبالرغم من أن الحجر بقطر ١٨ بوصة يقال أنه كان عرش ملكة سوبا التى كانت تحكم سكان مروى القدامى ، كما يقال عن الملكة — لا عن الحجر — أشياء أخرى كثيرة متباينة .

ويقرر هتنجفورد أن العقيـــدة الهجيوليثية يمكن الرجوع بها إلى أبعد من إفريقية فى جنوب شرقى آسيا وربما إلى الخليج الأندونيسى ؛ بل وقد وجد تشابهاً بين الأحجار المقدسة فى الحبشة والأحجار المقدسة فى أسام ، ومدغشقر بلا شك قد احتلت بوساطة أقوام من أندونيسيا ، ولا بد أن يكون النفوذ الأندونيسى قد وصل إلى ساحل شرقى إفريقية وجنوب بلاد العرب فى عصور مبكرة معرقة فى القدم .

وقد بنيت فى شرقى إفريقية (Cairns) قبور هرمية الشكل وغيرها من أنواع القبور المشيدة من الأحجار ، بل لا زالت) الجالا (يقيمونها حتى اليوم ، وتوجد القبور الهرمية بأرض الناندى فى كينيا وفى أرض المازاى وبين المانديرا فى الولاية الشمالية ، وللجنوب من منديرا بميلين يوجد مقابر هرمية بقطر ٣٦ قدماً يقول الصوماليون أن الشياطين هى التى بنته ، وقد وجد به جثة تزينت بأساور من النحاس ودفنت داخل غرفة

خشبية ، وينسب إلى هذه الشياطين أيضاً إقامة الآبار فى واجير واواك ومرسابيت وغيرها من المديرية الشمالية ، ومن الطريف مشاهدة الأهلين وهم إلى ينزلون هذه الآبار ويرفعون آنية المياه كل يرفعها لآخر لرفعها بدوره إلى من يعاوه نحو فتحة البئر وهم ينشدون أغنية شعبية على حين تقف الماشية فى صبر تنتظر دورها لتروى ظمأها .

وكانت أماكن الإقامة ذات ، الجدران الدائرية معروفة فى غرب كينيا وفى تنجانيقا ، وقد دل إحصاء الأكواخ التى وجدت فى ناندى على أن السكان كانوا يوم ذاك أكثر من تعدادهم اليوم وذلك لأنه وجد أن عدد الأكواخ عشرة أضعاف أماكن الإقامة الحديثة المقامة حالياً فى المنطقة نفسها .

وعلى ارتفاع عشرة آلاف قدم فى جبل كينيا وجدت أحجار قائمة وآثار زراعة وبقايا فخارية ، وتقول الأساطير أنها بقايا أناس يقال لهم Agumba وهم شعب من صغار الأجسام كانوا يعيشون فى باطن الأرض فى شقوقها[1] ، وهذه الشقوق هى مساكن الإقامة فى أواخر أيام العصر الحجرى وفجر العصر الحديدى

والاجومبا هم بقايا صيادى عصر ما قبل الأسرات وقد كانوا فى هذه الأرض عند ما احتلها الكيكويو منذ سبعة أو ثمانية قرون ، وكان على هؤلاء الناس أن يعيشوا فى الغابات أو فى مرتفعات جبل كينيا بحكم الضغوط التى تعرضوا لها من الشعوب الأخرى ، ولكن من الصعب أن ندرك كيف أن جماعات من شعب متحضر كالحاميين عاشت على هذا الارتفاع الكبير .

وقد وجدت فى غربى كينيا وفى شمال وجنوب تنجانيقا — وجدت آثار زراعة وشبكة من الطرق وحفر للرى والصرف ، وقد وصلت سعة الطرق فى بعض المناطق إلى عشرة أو اثنى عشر قدماً ، ويدل وضع الأحجار التى على أجناب هذه الطرق أنها قطعت بآلات ومن الواضح أنه كانت هناك شبكة مواصلات جيدة من الشمال للجنوب على الجانب الشرقى للبحيرات الكبيرة لا على مقربة من الساحل .

وأحسن هذه البقايا حالا ، نجدها فى جوار بحيرة أياسى فى تنجانيقا الشمالية ومن ارينجا جنوباً إلى بحيرة تياسا ، وهذه البقايا عبارة عن شرفات على منحدرات التلال تستغل فى الزراعة ولا يزيد عرضها اليوم عن قدم واحد ولكنها كانت أكثر من هذا ولا شك يوم ذاك ، وبفصل بين كل صفين ثلاثة أقدام ، ويزرع الوابينا للجنوب من كالممنجارو الأرض على منحدرات التلال بهذه الطريقة : طريقة الشرفات ، ولكن هؤلاء يعتبرون شيئاً شاذاً ، إذ الواقع أن كل القبائل الحديثة فى المنطقة

---

(١) ك . س . ليكى — « الماو ماو والكيكويو ، طبع لندن ١٩٥٢ ص ١ ، ٢ .

لم تزرع منحدرات التلال بطريقة الشرفات إلا بإرشاد الأوروبيين .

ولكن القليل هو الذى نعرفه عن الغزاة الأولين من الحاميين فى شرق إفريقية بسبب أن تحركاتهم وثقافتهم قد ضاعت فى خضم الهجرات المتتابعة من البانتو .

وتدكتب رايت Wright (أوغندة جورنال المجلد ١٤ العدد ١ ص ١١١ – ١١٤) عن أوغندة موجهاً النظر إلى مشكلة الاتجاهات الثقافية التى جاء بها الحاميون إلى منطقة البحيرات من غرب الحبشة وإلى ماجاءبه ليو Luo من الغرب .

ويقول رايت أن ما تحتاجه اليوم هو تحليل اللغة والعادات والمعتقدات فى ضوء :

(أ) ما هو منشور من نتائج الحفريات الخاصة باللغة والعادات والتقاليد والمعتقدات فى نباتا ومروى .

(ب) ما هو منشور خاصاً بحضارة غرب الحبشة فى العصور الوسطى وفى عصر النهضة .

عصر الحديد :

وقد عرف أهل « مروى » صناعة الحديد ، وقد بقيت مملكة مروى من ٦٥٠ قبل الميلاد إلى ٣٥٠ من ميلاد السيد المسيح وقد امتدت حتى ، الروصيرص على النيل الأزرق ، ويبدو أن منطقة بحيرة تشاد كانت مركزاً ثانوياً لنشر المعلومات عن إذابة الحديد وطرقه ، على أن أساطير الباجندا تقول بأنهم لم يعرفوا الحديد قبل سنة ألف ميلادية ، ولكن الحديد وصل إلى « الزمبابوى » فى روديسيا الجنوبية قبل هذا ، وقد وصلتهم المعرفة من فرن إفريقية على طول ساحل كينيا وتنجانيقا .

على أنه لم يكتشف غير القليل الذى لا يمكننا من أن نحكم — على الوجه الصحيح — بالتاريخ الذى عرفت فيه شرق إفريقية استعمال الحديد وحفريات تل هيراكس قرب ناكورو Nakuru تدل على أن هذا قد تبع بدء التجارة الساحلية وأنه سبق وصول « المازاى » إلى البلاد ومن ثم فإن الأمد يغطى على الأقل ألف سنة .

وقد وجد فخار غير عادى يرجع للعصر الحجرى فى المنطقة حول نهر يالا فى كينيا الغربية والزخارف التى تعلوها مختلفة متعددة الصور ، بما فى هذا شقوق متوازية مستقيمة أو منحنية مستطيلة أو دائرية أو مثلثة ، وفتحاتها العلوية فسيحة أو ضيقة ولها طرف ملتوى .

وقد وجدت نماذج مماثلة فى أوغندة وفى دارفور وكردفان ولكن ما وجد منها وجد منعزلا عن غيره من بقايا الحضارة الأمر الذى يجعل للفخار الذى وجد فى حفريات كينيا طابعاً خاصاً مميزاً فريداً .

التحصينات الأرضية القديمة فى أوغندة :

ويمتد من غابة بوجوما Bugoma لشرق بحيرة البرت حتى الضفة الجنوبية لنهر كاتونجا[1] Katonga عدد من التحصينات الأرضية القديمة .

وقد وجدت ثلاث نماذج متباينة مختلفة :

١ – تنظيم دفاعى من خط واحد من الخنادق والحفر يمتد فى منطقة فسيحة جداً .

٢ – نطاق دائرى أو نطاقان دائريان متتابعان يلتفان حول تل أو حول موقع استراتيجى آخر .

٣ – نطاق دائرى واحد غير متصل – على ما يبدو – بأى موقع استراتيجى فى جواره .

ومن غير المعروف ، التاريخ الذى أقيمت فيه هذه التحصينات البرية ولكن من المظنون أنها ربما تكون قد بدأت فى تاريخ قديم ثم تركت وأهملت وبعد قرون كثيرة أعيد تطويرها واستخدامها من جديد ؛ وأكثر هذه النماذج طرافة ما وجد من النوع الأول فى بيجو Bigo على الساحل الجنوبى لنهر كاتونجا Katonga ، وقد قورنت أماكن الالتجاء فى هذه التحصينات بتلك التى وجدت فى زمبابوى والتى ربما يكون انشاؤها قد بدأ قرابة القرن الثامن الميلادى .

ويقول سكان أوغنده الحاليون أن التحصينات التى وجدت فى بيجو – وغيرها من المواقع – قد أنشأها « الباشونيرى » وهم على التحقيق قبيلة حامية جاءت من الشمال وأنشأت على ما يبدو إمبراطورية فى أوغندة ، ومن الواضح أنهم أنشأوا هذه التحصينات بوساطة سواعد الرقيق .

وتتكون التحصينات التى وجدت فى بيجو من نطاقين خارجى وداخلى ، ويمتد النطاق الخارجى إلى طول ثلاثة أميال ، ويتكون النطاق الداخلى الذى أقيم على مسافة فوق منحدر التل على دروة أمامية وحفرة طويلة ممتدة ، ومتوسط عمق الحفر ١٢ قدماً وتغطيها مزروعات مشتبكة ، وتصل سعة نهر كاتونجا فى تلك المنطقة إلى خمسمائة باردة وتغطى مياهه أوراق البردى ، ولا يمكن خوض النهر اليوم ولكن اكتشف س . لانبج مخاضة قديمة تربط بيجو بالضفة الشمالية لنهر كاتونجا ويظن بأن الهدف الأساسى لهذه الحفر والخنادق لم يكن الدفاع فحسب بل إنه كان لتحديد مكان حظيرة لماشية القبيلة .

ويدل هذا كله على آثار حضارة تطورت فى تلك المنطقة حتى ضاعت مع الأيام ، وعلى أية حال فانها لتدل دلالة قاطعة على أن أرض شرقى إفريقية قد دخلت من باب التاريخ قبل وصول الأوروبيين إلى البلاد بقرون وقرون .

---

(١) كاتونجا أحد أنهار بحيرة فيكتوريا ويجرى للغرب منها فى أوغندة ، يجرى فى موازاة خط الاستواء .

port, with no limitations and without reserve, for the triumph of the Algerian side in the talks, convinced that the outcome will be compatible with the noble sacrifices and magnificient deeds of the free people who pursued the armed struggle more than seven years not against France alone but against NATO as a whole which piled up its weapons to crush the Algerian people, but failed before their will. This free will was even able to defeat the Nato weapons and to compel that organisation to recognise the legitimacy of the Algerians people's demands for total freedom and absolute sovereignty over their land and destiny.

It is also hope-inspiring to see that the Afro-Asian countries, participating in the British Commonwealth Conference succeeded in compelling the South African Government to withdraw from the Commonwealth, a fact that helped greatly in directing the spotlight to the problem of racial segregation and was able to mobilise world opinion in a way that has had weight and bearing on the government of South Africa which is adopting an attitude incompatible with all principles which mankind cherished, defended and died for, from time immemorial.

It is also hope-inspiring that despite all imperialist attempts in the Congo in which the weapons of death and treason were used the elements of nationalist resistance are still hoisting their banners and continuing to face the conspiracy to the end, irrespective of sacrifices and obstacles. I do not doubt that you will all join me in paying tribute to the stalwart heroes defending the Congo's independence and integrity who are tenaciously trying to stop the imperialist tide and pass on to the initiative to restore the lost land and threatened hope.

Gentlemen and friends,

Before I leave this rostrum, I find I have to refer to a problem that emerged in the past few hours in the great Asian Continent. The problem is that of Laos. No matter what the nature may be of the solutions that could be proposed to settle this problem, peace should be restored to the Laotian people who must be saved the misery of falling between the jaws of the pincers and getting involved in a clash on their land that exceeds their capacity and carries with it all forms of torture and suffering.

Gentlemen and friends,

May you be successful in all causes of your continent and all causes of peace in your world, and may victory always be on the side of your rising peoples.

the strong world reaction to the crime of Patrice Lumumba's murder.

Moreover, I have to observe, in all fairness that a number of new African countries were busy with their newly acquired internal affairs and were not able to participate with their due share in the battle of African destiny, to which imperialism wished to deal a deadly blow in the Congo.

We do not doubt that time and facts will help those countries more and more to define the framework of the battle and consequently rouse their feelings to the definite role they have to play for victory.

If, by the evident unity of the imperialist countries, imperialism has shown its perfect consciousness of the fact that the outcome of the battle will decide their own destiny, the peoples aspiring for freedom will find that the fate of freedom is one and the same and that its defence in any place means its defence everywhere.

Gentlemen and friends, delegates of the friendly African peoples,

Here, I have to record before you, the fact that many steps have been taken on the right path and that these strides are an inspiration to our hopes and fill us with faith in the future struggle for African freedom and unity, for the consolidation of the Continent's independent personality and for the drive of the potentialities of its creative peoples.

The Casablanca conference where some of the independent African states convened, underlined those steps taken on the right path. The Conference was a symbol of the African Continent's faith in its natural unity, of the necessity of unifying its struggle accordingly, and of its conviction in the ultimate unity of destiny. This faith appeared at the African Conference.

One outstanding feature of that conference was the warning it gave regarding the destructive role played by imperialism in the African Continent, whether with its armies, with its apparent bases such as military bases, or with its hidden bases represented by Israeli infiltration which the Casablanca Conference branded as an example of the new imperialist style and a tool in hand.

It is hope-inspiring to look forward to the talks held between the Algerian Revolution and France.

This magnificient revolution represents one of the glories of African struggle and the fight for freedom.

At this hour we extend our entire material and moral sup-

the power to maintain domination for more exploitation.

We saw how imperialism proceeded with its dangerous game for constant domination, to the extent of revealing the atomic secrets to the bases of aggression established in other countries.

Thus, while the freedom-loving world strives for the realisation of its hope for disarmament and for the peaceful use of nuclear energy, France is not satisfied with holding atomic tests in the Algerian Sahara alone, but carries the possibilities of danger to the Holy Land, close to the cradle of Christ, the emissary of peace on earth and the preacher of love among people.

Imperialism has not surrendered and the fight against it has not ended; it has grown fiercer and deeper.

If some say that 1960 was the year of African drive, it is imperative that 1961 should be the year of African march, to consolidate that drive, strengthen its basis and expand its scope. Here lies the big responsibility placed on the African peoples you have the honour of representing.

Gentlemen and friends, delegates of the friendly African peoples,

The second error committed by the African struggle — following the belief that imperialism had surrended —was the fact that the battle was not waged as one front.

There were different opinions... the struggle sometimes deviated from its objectives according to the variety of views.

On the other hand, the imperialists were united by common interests and aims. The path was one and the same and they followed it persistently using all means and seizing every opportunity.

Here, in all fairness, I have to point out that part of the responsibility of conflicting views on the African struggle rests with imperialism.

If imperialism has found among the Africans weak characters — those who are ready to sell their peoples — let us always recall that this was an inevitable outcome of imperialist existence.

The presence of imperialism on African soil and the occupation of some African countries are the reason behind the dissension and conspiracy that affect the unity of those peoples.

It is a consolation however, to recall that if world imperialism in Africa has found a handfull of stooges, the African struggle has been able to shake the conscience of huge masses in the entire world that have supported it as can be seen from

in Palestine when British imperialism made the Balfour declaration did not exceed 6% of the population while the Arabs, the legitimate owners of the land formed 94% of the inhabitants.

Today, imperialism tries in the heart of Africa what it believes to have accomplished in its North East, wishing to usurp the land from its legitimate owners to offer it to immigrating adventurers giving them all rights and power and enabling them to spread terror It tries to repeat Israel's tragedy by committing new similar crimes that would enable imperialism to crush and dominate.

Thus, the struggle against imperialism is a struggle for the African land and for African mines; for, national wealth is the mast of the national flag. African independence does not mean that we carry the flag and leave the land and mines to the imperialists.

Has imperialism surrendered, while racial segregation is practised in the heart of Africa in an atrocious and shameful way? After all, is racial segregation in point of fact not an imperialist mask?

Is discrimination among men on the basis of colour, not a mere attempt at discrimination in the common participation in governing? Is it not an attempt to discriminate in services and wages?

To ensure the exploitation of nature, imperialism must exploit mankind.

Thus, the problem of racial segregation is not, in point of fact, far from the problem of African land or the problem of African mines.

The problem of the African individuals is that African wealth — both problems are at the service of exploitation which is the economic meaning of imperialism.

Has imperialism surrendered in Africa, while the explosion of France's third atomic test in our great Algerian Sahara is still fresh in our ears?

We all had our stands against atomic tests in general. What is more, we all showed our anger over the use of our continent for such experiments.

Our view on tests in general was that they threatened peace; while, our opinion on the holding of tests on our land was that they threatened our peoples in addition to their threat to peace.

Have the French imperialists authorities given any consideration to our anxiety over world peace and our concern for the safety of our peoples?

French imperialism, just as any other imperialism, is concerned only about consolidating its potenetialities of aggression and possessing the most destructive weapons. It believes that such weapons alone can provide

er and symbol of the free Congolese struggle. Lumumba was killed but his blood will drip from the U.N. flag until that flag proves its worth and safeguards the meanings it stands for.

The spark of freedom glittered and vanished. Imperialism pounced at the very moment of victory and robbed the nationalist forces of the fruits of their struggle.

The government of Independence Day, representing the will of the nationalist struggle, was exposed to a severe crisis. Congo unity disappeared and separatism tore the Congo apart. The brotherhood binding the one people vanished as they were systematically driven towards civil war.

While the Congo lived the tragedy imposed on it — the tragedy of concentration camps, of exile and of burial, the tragedy of separatism, of civil war and murder — returned to its main objective of looting the riches of the Congo and usurping the wealth of its people.

It is indeed heartbreaking that the ships should sail from the Congo every day loaded with the most precious metals, with diamonds and uranium, with no thought of carrying a few grains of wheat to the miserable people to stop us from hearing that thousands died and thousands are dying of starvation in the Congo.

Has imperialism surrendered in Africa, when we find that the land is being usurped from its rightful owners and offered to foreign adventures coming from distant countries with the object of exploitation and domination?

We are acquainted with this experience and know its outcome. Imperialism has usurped the most fertile land and richest mines in Africa and has offered them to adventurers coming from overseas. Imperialism then created a problem between the nationalists and what it calls « the settlers », with the aim of dividing up the country. Imperialism tears the land apart, and establishes a base.

The same happened in the Arab Motherland in Palestine. Imperialism came behind the veil of religion carrying the Talmud, later it left the Talmud and usurped the land. It divided the land following its usurpation. Imperialism then established a base for itself on the partition it imposed after having thrown out of blessed Palestine hundreds of thousnads of its people whose land it usurped rendering them homeless in defiance of all rights and laws and contrary to humanity itself.

The tragedy would appear in its proper perspective if we recalled that the Israeli settlers

safety of us all and the safeguard of freedom itself.

Brothers and friends, delegates of Friendly African peoples,

We would be fooling ourselves and fooling history to believe that imperialism in Africa surrendered or is on the point of surrender. It would even be more than just fooling and would exceed that to the point of conspiracy fomented to blind us to the devastating dangers coming from all directions and threatening the very basis of any independence, although the outer picture would be maintained to conceal the true menace and its destructive dangers.

Did imperialism surrender in the Congo for instance, on the day of independence ?

We saw how Independence Day in the Congo was merely a veil behind which imperialism tried to tighten its grip on the Congolese people and add to its ferocity in sucking their blood.

We even saw that imperialism did not give up to despair when the nationalist government in the Congo felt the dangers lurking behind the flimsy veil just because independence had been proclaimed, and hastened to ask for help from the U.N.

Imperialism faced the U.N. flag in the Congo just as it had faced the flag of independent Congo a few weeks earlier.

Imperialism wished the U.N. flag also to be a mere veil.

When the consciousness of the African struggle succeeded in removing the veil and revealing the true face of imperialism, when the consciousness of the African struggle was able to detect the imperialist infiltration behind the banner of independence, and when the consciousness of the African struggle was able to expose the imperialist infiltration behind the U.N. flag, what happened ?

Did imperialism retreat before African consciousness?

Did imperialism hesitate before the world moral force which African consciousness was able to alert during the fifteenth session of the U.N. General Assembly ?

Imperialism neither retreated nor hesitated. Rather, it grew fiercer and proceeded with overwhelming power, with iron shackles in the feet of the free and golden chain in the hands of the weak, acting openly on matters it tried to conceal behind the veils the day the flag of independence was hoisted in the Congo, and the day we hastened with the U.N. flag to consolidate the banner of independence.

In its barbarism, imperialism went as far as murder, assassinating Patrice Lumumba, lead-

and in that consciousness substantial support in the future stages of the fight that would make up for the sacrifices endured in the earlier stages of the battle.

With this conception in mind, I take the liberty of declaring that all the sacrifices made by the Congo, and all the efforts exerted by the independent African peoples and all free peoples in the world, to consolidate the cause of freedom in the Congo, form, as experience has shown, a substantial credit in the struggle potential for the recovery of the ground lost as a result of imperialist pouncing on the Congolese people, and for safeguarding the march of freedom to other parts of the African Continent.

Thus, it is imperative, for the sake of a more effective support to the nationalist forces still shouldering the responsability of resistance in the Congo, and in order to increase the possibilities of the triumph of freedom in the entire continent, to study the trial we experienced, and to face it justly and boldly so that we might build greater hopes out of the debris and ashes of the past battles and create a new life, stronger and more youthful, out of the tombs of martyrs and victims.

Gentlemen and friends,

If we were to review the experience of the past few months, with integrity and without prejudice, and if we were to put aside all the details which might drive us away from the truth and if we were to rid ourselves of all sentimental and similar reactions, would find two important factors behind the Congo experience. It was there that the errors in the African fight were committed. Those errors marked the turning point which the enemies of freedom exploited and were able to deny the Congolese people the fruit of their sacrifices up till now. In turn, they have denied the cause of African liberty victory in the Congo that could consolidate its position.

The first factor is that many thought imperialism in Africa had ended, had given up its aims and had started to remove its banners, ready to pull out.

The fact was however, that imperialism was determined to stay and resolved to keep in hand everything it had usurped and denied the legitimate owners.

The second factor is that the imperialist countries had unified their aims and adopted one common position, while in our case the right we support did not succeed in uniting us in one common stand we could all adopt. We all know that the safety of the front means the

SPEECH DELIVERED BY

H. E. GAMAL ABDEL NASSER

President of the United Arab Republic

AT THE 3rd ALL AFRICAN PEOPLES CONFERENCE

Gentlemen and friends, delegates of the friendly African people,

For the second time, following a battle of the great liberation war, I am afforded the opportunity to meet with you and the pleasure of welcoming you to this capital which believes in freedom.

Nothing is more touching or closer to the heart than a meeting of brothers in arms, partners in the same fight, soldiers of the one aim, at intervals to deepen the roots of their relations, exchange experiences and study their meaning and to review their common hopes for the ever-living objectives of their struggle.

On these days in 1957, I met here in Cairo with the African delegations that had come to participate in the Afro-Asian Solidarity Conference. That was immediately after the Suez War which has become the best known battle in the long distant war of liberation, and the most powerful consolidating force supporting the hope of victory for peoples resolved to free their will from the usurpers.

Here we are again, at the outset of 1961, meeting with delegates of the African peoples coming to Cairo following a bitter battle — the battle of the Congo. Here we have to admit, no matter how strongly this may affect us, that in spite of the sacrifices and victims, freedom has not been able to wrench victory. Our admission at this stage however, in no way shakes our faith in the ultimate triumph of freedom.

If up till now we have not succeeded in winning the Congo battle, we have to recall two facts :

The first is that the Congo battle is still raging. The second is that the Congo strife is only one of the many battles in the great liberation war for African Destiny, and for the free determination of all peoples.

I do not doubt that the living peoples could benefit from the crises they face and from the blows they suffer if they were to examine their trials and heed their true lessons. The people will find in those lessons

الرئيس « موديبو كيتا »

ourth Year

Issue No. 42 April 1961

Nahdatu Afriquiah

PRICE. P.T. 3.

96 pages

IN THIS ISSUE

- Cairo Seminar for African Peoples.
- Good Neighbourliness and Racial Discrimination.
- Real causes for Racial Discrimination.
- Book Analysis.
- Book of the Month.

السنة الرابعة

العدد ٤٣

مايو ١٩٦١

نهضة أفريقية

فى هذا العدد

- ما وراء الأحداث فى كوبا
- قصة سيراليون
- الاستعمار البرتغالى فى إفريقية
- غينيا البرتغالية
- نقد الكتب

٩٦ صفحة

الثمن ٣ قروش

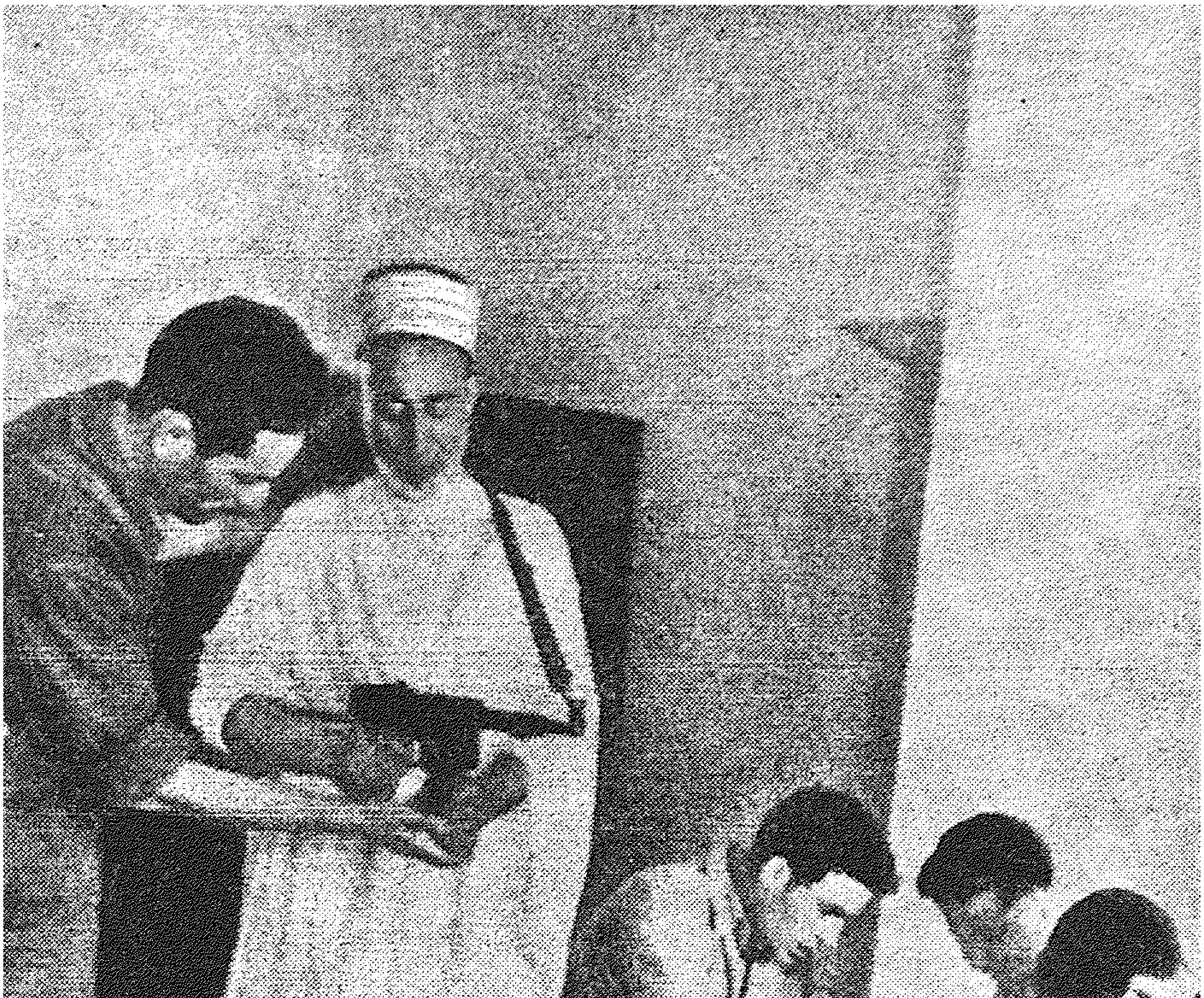

« الجميع يحملون السلاح فى الجزائر »

نهضة إفريقية

تهدف هذه المجلة إلى :

١ – تنمية الوعى القومى الافريقى .

٢ – التعارف بين الافريقيين فى مختلف بيئاتهم وحياتهم الاقليمية .

٣ – نشر البحوث الخاصة والعامة التى تهم كل إفريقى فى مجاله الحيوى .

وللمشتركين الحق فى :

١ – الحصول على المجلة بانتظام وكذلك المطبوعات التى تصدرها المجلة بين وقت وآخر بثمن مخفض .

٢ – الافادة من خدمة لجنة الاتصال بالمجلة بقدر الامكان .

● ترحب « مجلة نهضة افريقية » بالمقترحات ، والآراء ، والنقد ، وتعمل على تحقيقها .

● ليس من الضرورى أن تكون المقالات التى تنشر فى هذه المجلة معبرة عن رأيها .

ترسل المراسلات باسم :

السيد رئيس تحرير مجلة نهضة إفريقية

٥ شارع أحمد حشمت – الزمالك بالقاهرة

تليفون المجلة ٨٠٧٦٥٨

الاقليم المصرى

بالجمهورية العربية المتحدة

ترسل قيمة الاشتراك فى المجلة إلى :

دار أخبار اليوم للتوزيع

٧ شارع الصحافة بالقاهرة

الاشتراك سنوياً :

لمصر والسودان ٣٠ قرشاً

ثمن العدد ٣ قروش

مطابع كوستا تسوماس وشركاه

العدد ٤٣ مايو ١٩٦١

نهضة إفريقية
مجلة شهرية للثقافة الأفريقية

رئيس التحرير

محمد عبد العزيز إسحق

فكرة ..

إن الجمهورية العربيــة المتحدة ترحب بالرئيس سيكوتورى كواحد من طلائع المفكرين فى غرب القارة ، الذين يدعون دائماً إلى تمثل الثقافة الإفريقية ، والإصرار عليها ، بعد أن وضح فى مؤلفاته أن الحماس لا يدفعه إلى ما يدعو إليه ، وإنما حقيقة الحضارة التى عاشت فى إفريقية ، وحقيقة الثقافة التى يجب أن تكون نتاجاً طبيعياً عن الإفريقيين ، مثلما تكون الوردة نتاجاً طبيعياً عن شجرة الورد . !

ذلك لأن سيكوتورى لا يقف دوره فى بلاده عند حد القيادة السياسية الواعية فقط ، وإنما يتعداها إلى القيادة الفكرية التى ظهرت فى مقالاته ، وكتابه « الشخصية الإفريقية » ، وأخيراً حملة التوجيه الفكرى المنظم لحزب غينيا الديمقراطى ، الذى استطاع أن يضع عبء التقدم على كل الشعب هناك ابتداء من رئيس الجمهورية إلى المواطن الذى يعيش بين الأدغال . وهكذا أصبح الكل مسئولا عن الوطن وهو يكسر قيوده القديمة .. وهو ينهض .. وهو يتألق كمنارة ضخمة فى غرب القارة !

إنه الرجل الذى كان رده على تهديد فرنسا بأن الشعب يفضل الحرية مع الجوع على الرفاهية فى ظل العبودية ، وهو الرجل الذى أذهل «ديجول» عن نفسه ، وهو يحدثه عن حرية بلاده .

فجعله يغادر مكانه ممتقعاً بدون « قبعة » ، ولقد كانت هذه « القبعة » آخر شىء لفرنسا هناك .

ولقد حرص « سيكوتورى » على أن ينبهه إلى أن يأخذ قبعته وهو يهرول إلى فرنسا ، لأنه لا يرضى حتى عن وجود قبعة فرنسية بدون رأس ! !

« عبده بدوى »

فهرس العــدد

	صفحة
ما وراء الأحداث فى كوبا	٣
قصة سيراليون : للدكتور عبد العزيز كامل	٩
الاستعمار البرتغالى فى إفريقية : للدكتور عبد العزيز رفاعى	١٨
غينيا البرتغالية : للدكتور عبد الملك عودة	٢٤
نقد الكتب : للأستاذ عبده بدوى	٢٧
شخصية العدد	٣٥
الأسباب الظاهرية للاضطهاد العنصرى للأستاذ طلعت أحمد ابراهيم	٣٩
ضوء على نيجيريا : للأستاذ عبد العظيم ملوك	٤١
جولة مصورة حول إفريقية	٤٤
ماذا فى روديسيا ونياسالاند : للأستاذ لمعى المطيعى	٥٣
من القصص الإفريقى : للدكتور جمال الدين الرمادى	٦٤
حياتى كما عشتها : للأستاذ عبد الواحد الإمبابى	٦٨
من وحى إفريقية : للأستاذ حسن فتح الباب	٧٦
كلمات وصور	٧٨
جولة مع الزعماء الإفريقيين بقلم هدى هنرى	٨٧
كتاب الشهر للعميد ا . ح محمد عبد الفتاح ابرهيم	٨٩

ماوراء الأحداث فى كوبا

لم يكن الغزو الذى تعرضت له كوبا فى أواسط الشهر الماضى مجرد حركة مناهضة لثورة كاسترو . ولا مجرد مؤامرة دبرتها المخابرات الأمريكية ولا مجرد « استعراض للعضلات » قام به الرئيس الأمريكى الفتى « جون كنيدى » . وإنما كان . فى الواقع . مظهراً كاملا من مظاهر « الاستعمار الجديد » .

وقد عرف العالم حديثاً ، هذا النوع من الاستعمار الذى نددت به المؤتمرات الإفريقية . وحذر منه الزعماء الوطنيون . ولكنه لم يكن مقترناً فى الأذهان بالقنابل والمدافع والدبابات . بل كان المفهوم أن أدواته التسلل . والرشوة ، والمعونات الخداعة التى تستطيع بها شركات الاحتكار أن تتحكم فى مصادر الثروة وأن تجعل فى حراستها حكاماً من العملاء . . .

وقد جربت الولايات المتحدة هذا النوع من الاستعمار ومارسته ، فى أمريكا اللاتينية عامة ، وفى كوبا على وجه الخصوص . جربته ومارسته حينما تسللت بأموالها وجواسيسها إلى أقطار نصف الكرة الغربى وفرضت فى تلك الأقطار حكومات « ديموقراطية » ، تتلقى أوامرها من واشنجتون ، وتتلقى « مرتباتها » الإضافية من خزائن الشركات الاحتكارية .. شركات البترول ، والكهرباء ، والسكر ، والتبغ ، والبن ، والفواكه المحفوظة .

ومن قبل هذا التسلل يروى التاريخ حلقات متماسكة من الاعتداءات الأمريكية على هذه الجزيرة الوديعة المسالمة التى شاء لها حظها العاثر أن تقع على مقربة من شواطىء فلوريدا .

ففى أواسط القرن الماضى . (وعلى التحديد فى عام ١٨٤٨) . كانت كوبا تحت الاستعمار الأسبانى . وكانت أمريكا تضع عينها على المستعمرات الأسبانية فى نصف الكرة الغربى وتتلهف — كما تتلهف اليوم — على أن تحل محل المستعمر المتخاذل المهزوم . وهكذا تقدمت الحكومة الأمريكية إلى ملك أسبانيا تساومه على « شراء » كوبا . . . !

وعرضت الحكومة الأمريكية مائة مليون دولار ثمناً للجزيرة الخصبة . . !

ورفضت أسبانيا ، وثارت ثائرة الزعماء الأمريكيين ، وبخاصة زعماء الجنوب الذين كانوا يعتزمون « شراء كوبا » ليستوردوا منها المزيد ، من العبيد ، واجتمع عدد من القادة الجنوبيين وأصدروا حينئذ بياناً ، أو « مانفستو » . يذكرنا بالبيانات التى تصدرها الآن وزارة الخارجية الأمريكية والتى تصف ثورة كوبا بأنها « خطر على أمريكا » .

لقد جاء فى ذلك البيان المسمى « بيان أوسند » أن كوبا — من الناحية الجغرافية — ما هى إلا جزء من أرض الولايات المتحدة . وإذا كانت الولايات المتحدة لم تستطع شراءها فإن قوانين البشر والقوانين السماوية تبيح لنا أن تضمها بقوة السلاح ..

ومرت الأعوام . والاستعمار الأسبانى يقاوم الثورات الكوبية المتوالية بأقسى وسائل القمع والإرهاب . وفى خضم المعركة ، جاء رجال الأعمال الأمريكيون إلى كوبا مزودين . بالدولارات . وأخذوا فى شراء مزارع القصب الواسعة ومناجم الحديد والنيكل والمنجنيز . وبرزت على أرض الجزيرة المجاهدة مخالب الاحتكار متمثلة فى شركات « روكفلر » و « بيت لحم » .

وعند ما كان الاستعمار الأسبانى يترنح — فى أوائل هذا القرن — أمام الثوار الكوبيين . ظهر على شواطئ الجزيرة « البحارة الأمريكان » . وظن الثوار أن هؤلاء الجيران جاءوا ، لتخليصهم من الأسبان ، ولكن الجار العزيز ، كان قد جاء « ليفرض » على الثوار المنتصرين « اتفاقية » تحرمهم من ثمرات الانتصار . . .

لقد فرضت أمريكا على كوبا « قانوناً » يبيح لها أن تبعث « بالبحارة » إلى كوبا ، كلما « تهدد الأمن والنظام » ولم تكتف الجارة الكبيرة بهذا ، بل قررت أن « تستأجر » من كوبا قاعدة تجعلها مركزاً حربياً على الجزيرة ، هى قاعدة « جوانتانامو » ، فى مقابل ٢٠٠٠ من الدولارات سنوياً . . .

ولم تتورع أمريكا عن تطبيق « قانون التدخل » كلما « خطر » لها أن « الأمن » مهدد فى كوبا . فنزل جنودها وبحارتها لاحتلال كوبا فى أعوام ١٩٠٦ و ١٩١٢ و ١٩١٧ . وفى عام ١٩٢٠ وضعت أمريكا خطة محكمة للسيطرة على كوبا بوساطة الشركات الاحتكارية التى كان فى وسعها أن تقيم وتسقط الحكومات .

واتسعت مصالح وأملاك الشركات حتى رأينا إحداها تملك ١٠٪ من إنتاج السكر ، فى أوائل هذا القرن ، ثم يزداد نصيبها حتى يصل إلى ٦٦٪ فى عام ١٩٢٥ ثم يصل الأمر إلى درجة الاحتكار الكامل بعد ذلك بعشر سنوات .

وهكذا أصبحت كوبا تحت حكم شرذمة من السياسيين الذين يعيشون فى

هاڤانا ، ويتلقون تعليماتهم — بالتليفون من مكاتب مديرى الشركات الأمريكية فى « مانهاتان » .

وفى عام ١٩٣٣ قفز إلى منصة الحكم فى كوبا مغامر انتهازى اسمه « فلجنسيو باتيستا » وسرعان ما اعترفت به « شركات مانهاتان » ، ثم اعترفت به — أوتوماتيكياً — حكومة الولايات المتحدة الأمريكية . وظل الشعب الكوبى عشرة أعوام يحارب « فساد باتيستا » إلى أن استطاع إبعاده عن السلطة ، ولكن الانتهازى المستند إلى « شركات مانهاتان » ودولاراتها استطاع أن يعود إلى الحكم من جديد فى عام ١٩٥٢ وسط الترحيب والتهليل من حكومة الولايات المتحدة وصحافتها .

ولم تكتف الحكومة الأمريكية — هذه المرة — بتأييد باتيستا أدبياً وإنما أمدته بالسلاح والبعثات العسكرية وأخذ هو ينكل بأحرار كوبا ويقضى عليهم بالسلاح الأمريكى حتى بلغ عدد ضحاياه أكثر من ٢٠ ألفاً من هؤلاء الأحرار .

وكان كل من يقاوم طغيان باتيستا وفساد حكمه يوصم بأنه « شيوعى » .

وانطلق باتيستا يتعقب معارضيه وينزل بهم أبشع أنواع العذاب ، فكان القتل والتمثيل بالجثث ، من المناظر المألوفة فى هاڤانا ، وكان شرطة باتيستا يعتقلون زعماء المقاومة من الرجال ، فيحولوهم إلى « خصيان » ويغتصبون النساء أمام أعين أزواجهن . . !

وكانت الصحافة الأمريكية تصف هذه الأعمال البربرية بأنها « تدابير مضادة للشيوعية » . . .

وكان مديروا الشركات الأمريكية يصفون هذه الوحشية بأنها « خطوات ضرورية لحماية الدمقراطية » . .

وبينما هذه المحنة تدور رحاها فى كوبا وفى أقطار أخرى من أمريكا اللاتينية ، خرج الرئيس السابق « ايزنهاور » على تلك الأفكار بمشروعه المشهور « مشروع الدفاع عن نصف الكرة الغربى » .

وفى ظل هذا المشروع أخذت أمريكا تمد باتيستا وأمثاله من طغاة أمريكا اللاتينية بالطائرات الحربية والمزيد من الدبابات والأسلحة الفتاكة التى لم يستخدمها أحد من هؤلاء الطغاة فى الدفاع عن بلده ضد غزو خارجى وإنما استخدموها جميعاً فى الفتك بمعارضيهم من المواطنين الشرفاء الذين ثاروا لتخليص أوطانهم من شركات الاحتكار وسطوة الدولار . .

ولو أردنا سرد فصول من التأييد الأمريكى الفاجر للطاغية باتيستا لاتسع علينا مجال الكلام ولكننا نكتفى بمثال واحد ، ذلك عند ما اعتصبت مدينة « سينفوجس » الكوبية على باتيستا عام ١٩٥٧ ، فقد أمر الطاغية بضربها بالقنابل (الأمريكية) وهدمها على

رءوس سكانها . ولما انتهت المجزرة ، أقام السفير الأمريكى فى هافانا حفل تكريم للطيارين الذين قاموا بعملية القتل والتدمير . وعلق على صدورهم نياشين مهداة من الحكومة الأمريكية .

. . ولنقلب الصفحات سريعاً لنرى على مسرح الأحداث بطلا وصفته مجلة « لايف » الأمريكية يوماً ، بأنه «الجندى الحالم» واسمه «فيدل كاسترو»

لقد استطاع فيدل كاسترو ، ومعه حفنة من الرجال (كان عددهم أول ما بدأ اثنى عشر رجلا) استطاع أن يزعزع أركان حكومة باتيستا ومن ورائه ملايين الدولارات الأمريكية . وأن يدك حصون باتيستا بما فيها من أسلحة أمريكا ، وأن يزحف بشعب كوبا إلى الحكم فى يناير من عام ١٩٥٩ .

وكان « كاسترو » قد أعلن على العالم . من قبل أن ينتصر . أنه قائم بحركته لتحطيم الفساد ، والقضاء على الطغيان ، واسترداد حقوق الشعب من براثن شركات الاحتكار . .

وما كاد « كاسترو » يستقر فى الحكم ويبدأ « الإصلاح الزراعى » . ويؤمم « مصادر الثروة » حتى ارتفعت الصرخـــات فى الولايات المتحـــدة الأمريكية . .

ولم تكن تلك الصرخات صادرة عن « الشعب الأمريكى » وإنما كان مصدرها شركات : « ستاندارد أويل » و « بيت لحم » و « الفواكه المتحدة » .

وسرعان ما استجابت وزارة الخارجية الأمريكية لتلك الصرخات ، وأخذت تصدر التصريحات « العدائية » ضد حكومة تمثل دولة صديقة لم ترتكب إثماً فى حق جيرانها .

وكان من تلك التصريحات أن حكومة ترتكب « اعتداءات اقتصادية صارخـــة ضد الولايات المتحـــدة الأمريكية . . ! » .

وأن تلك الاعتداءات ترمى إلى « تدمير العلاقات التجارية التقليدية بين كوبا والعالم الحر . . » .

وكان العالم كله يعرف أن تلك « العلاقات التقليدية » معناها أن يشتغل العامل الكوبى الجائع ليسلم السكر والبترول والدخان والفاكهة للشركات الأمريكية .

وأن « العالم الحر » يعنى « شركات الاحتكار » .

وفى هذه الفترة جاءت الانتخابات الأمريكية لرئاسة الجمهورية ، وتطلع شعب كوبا . تراوده العدالة والإنصاف لدى المرشحين الكبيرين . . .

ولكن المرشحين العتيدين : كنيدى ونيكسون كانا يختلفان على كل شىء . ما عدا على عداء كوبا ومهاجمة « كاسترو » .

فقد كان « نيكسون » يبشر ، الناخبين بأنه سوف يجعل كوبا « تركع على ركبتيها » إذا نجح فى الانتخابات وكان « كنيدى » يعد ناخبيه بانتهاج

« سياسة الشدة » مع كوبا ويصفها بأنها أصبحت « تابعاً شيوعياً » .

ولم تضيع « إدارة أيزنهاور » وقتها فى انتظار نتيجة الانتخابات . ولم تشأ إتاحة فرصة « تقدير الموقف » من جديد للحكومة الجديدة وإنما أخذت تجمع فلول الهاربين من كوبا وتنظم صفوفهم وتغدق عليهم الأموال وتفتح لهم معسكرات التدريب وتزودهم بالملابس العسكرية ، والأسلحة . وتجبر دولة تابعة لها اسمها « جواتيمالا » على أن تكون مقراً لتدريب هؤلاء الخونة الآبقين من عدالة الثورة فى كوبا . .

وعند ما جاء كنيدى إلى الحكم لم تكن مسألة الاعتداء على كوبا محل بحث . وإنما كان البحث . هل تهجم أمريكا على كوبا مباشرة ، أم تهجم عليها بوساطة « المتمردين » المزودين بالأسلحة الأمريكية والعتاد الأمريكى .

واستعرض السيد كنيدى مزايا الموقفين ، وكان أن اقتنع بأن شعب كوبا سوف يؤيد الغزاة وينتفض على كاسترو (ويعيد طبعاً شركات الاحتكار . . !) ومن ثم فلا داعى لهجوم مباشر يقوم به الجنود والبحارة الأمريكيون ، كما كانوا يفعلون منذ أوائل هذا القرن ، ويكفى أن تمهد أمريكا للغزو ، بغارات جوية «غامضة» لتدمير مطارات كوبا قبل أن ينزل إليها المتمردون على كاسترو .. الراغبون فى إعادة « الديموقراطية » إلى الجزيرة السعيدة . . .

وبدأ الغزو الفاشل الذى أظهر للعالم — مرة أخرى — جهل « أصحاب الدولار » وغرورهم وسوء تقديرهم لفهم الشعوب وإدراك الرأى العام العالمى . .

ولما أن فشل الغزو ، ارتفعت الصيحات الأمريكية مرة أخرى تنذر بالخطر على « الديموقراطية فى كوبا » وعلى « سلامة الولايات المتحدة الأمريكية » وعلى « أمن أمريكا اللاتينية » .

ومن الغريب أنه لم يرد فى أى تصريح أمريكى رسمى أية إشارة لـ « سلامة شركة ستاندارد أويل » أو أمن « شركة الفواكه المتحدة » ! وغيرها من شركات الاحتكار التى تقف وراء ستار « الأمن » و«السلامة» وتظن أن العالم اليوم هو عالم القرن التاسع عشر ، أو عالم الاستعمار المتداعى أمام يقظة الشعوب .

ولئن كان ستار النفاق كثيفاً بدخانه « الصناعى » فإن هنالك من الحقائق ما لا يقوى على ستره الدخان .

هنالك من صفوف الأمريكيين أنفسهم من ينطق بكلمة الحق ولو ضد قومه ونفسه ، وأمامنا الآن صورة ترتبط بالموقف الحالى بين كوبا

والولايات المتحدة .. صورة رسمها أحد الضباط الأمريكيين الذين عملوا على إخضاع شعوب أمريكا اللاتينية . وغيرها من الشعوب التى كانت مستضعفة . لسطوة الدولار وشركات الاحتكار .

ذلك الضابط هو « الميجر جنرال سمدلى بتله » وقد ألف كتاباً عن مغامراته مع « رجال البحرية » الأمركية منذ أوائل هذا القرن إلى حوالى الثلث الأول منه (أى حوالى عام ١٩٣٣) . وقد جاء فى الكتاب :

لقد قضيت ثلاثة وثلاثين عاماً وأربعة شهور فى الخدمة العاملة . فى أنشط وحدات قواتنا المقاتلة وهى « قوة رجال البحرية » .

لقد عملت على « تأمين » المكسيك لصالح شركات الزيت الأمريكية فى عام ١٩١٤ . وساعدت على جعل « كوبا » و « هايتى » مكاناً « صالحاً » لنشاط الـ « ناشنال سيتى بانك » . وقمت « بتطهير » (نيكاراجوا) حتى تزدهر فيها أعمال بنك « أخوان براون » (من عام ١٩٠٩ — ١٩١٢) . وفتحت الطريق فى (جمهورية الدومينكان) لشركات السكر الأمريكية (عام ١٩١٦ ومهدت الجو فى «هندوراس» لشركات الفواكه الأمريكية (عام ١٩٠٣) وفى الصين أيضاً قمنا « بحماية » شركة « ستاندارد أويل » حتى تشق طريقها فى أمان (عام ١٩٥٧) .

ولقد كوفئت على أعمالى تلك بالنياشين والألقاب (والميداليات) . والرتب . ولكننى حينما أعود بذاكرتى إلى الوراء أشعر بأننى ما كنت إلا « زعيم عصابة » من شيكاغو .

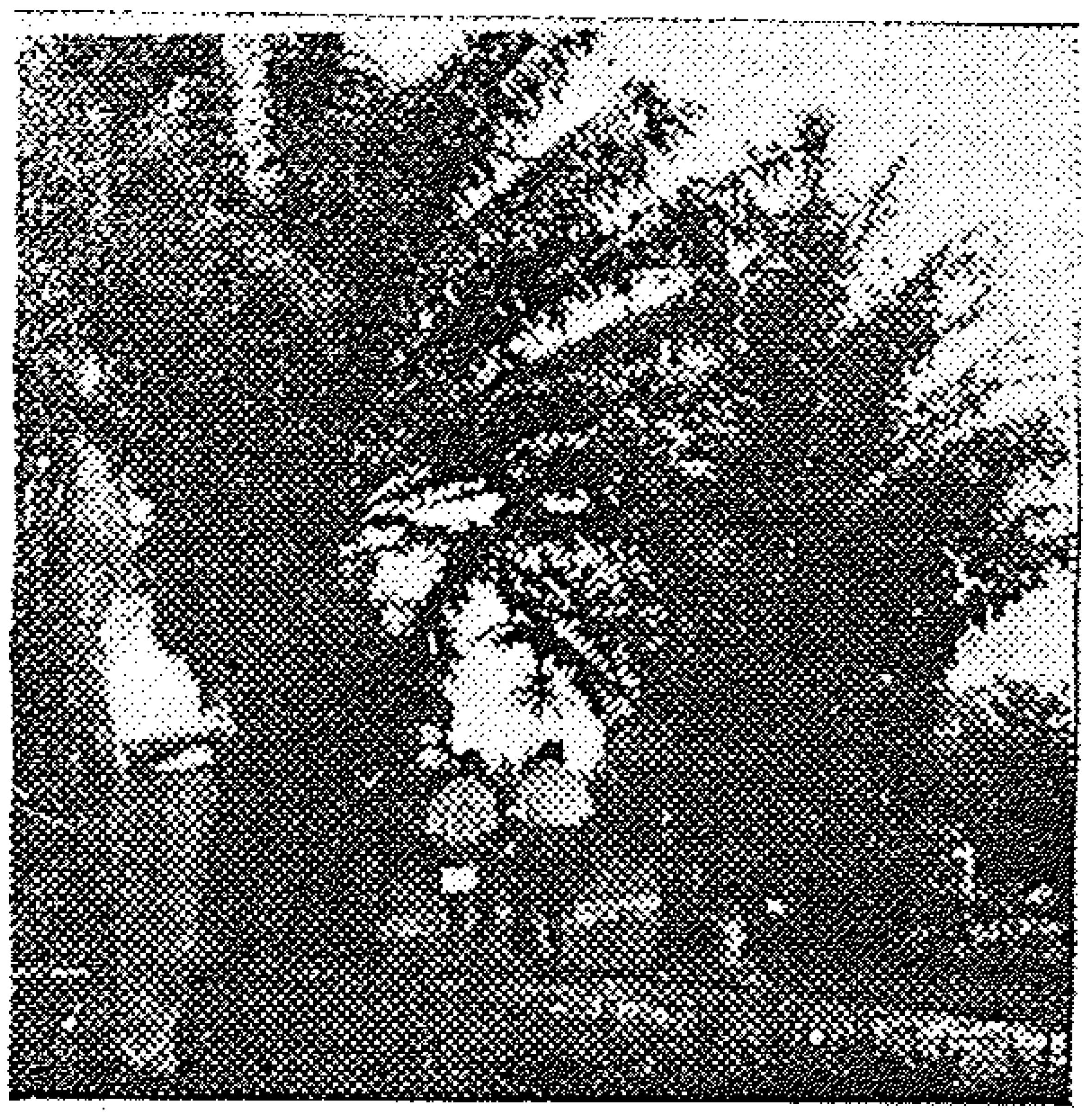

قصة سيراليون

للدكتور : عبد العزيز كامل

علم إفريقى جديد :

فى يوم ٢٧ من أبريل ١٩٦١ ، ارتفع للحرية علم جديد فى سيراليون فى أقصى غرب إفريقية . . فا قصة سيراليون ؟ وكيف تكونت هذه الدولة ؟ وكيف تطورت ؟ وما أهم المشكلات التى تقابلها فى مرحلة الاستقلال ؟

قضية سمرست :

ولنرجع إلى عام ١٧٧٢ لنرى أحداث قضية كان لها أثر عميق على تطور مشكلة الرق فى بريطانيا وظهور سيراليون :

كان «جيمس سمرست» رقيقاً زنجياً اشتراه شارلس ستيوارت أحد مزارعى جزر الهند الغربية . وأراد تصديره إلى جمايكا على السفينة «آن ومارى» وتدخل فى الأمر «جرانفيل شارب» أحد قادة حركة تحرير الرقيق فى بريطانيا وقتئذ . وأمكن إنقاذ سمرست وتهريبه قبل أن تبحر السفينة من لندن .

واستناداً إلى النصوص القانونية القديمة . رفع ستيوارت قضية مطالباً فيها بالقبض على سمرست تمهيداً لترحيله إلى جمايكا .

وبذل «جرانفيل شارب» فى هذا الأمر جهوداً انتهت بانتصاره على ستيوارت . وصدر الحكم فى القضية بأن «الرقيق ينال حريته عندما تطأ أقدامه أرض بريطانيا» .

ولم يؤثر هذا الحكم على سمرست وحده ، وإنما أثر على ١٤،٠٠٠ من الرقيق الذين كانوا يعيشون وقتئذ فى بريطانيا ، وردت إليهم حريتهم المسلوبة .

ولهذا التحرير تبعاته التى قابلت المحررين : كانوا — من قبل — يعيشون فى بيوت السادة غير مسئولين عن طعام أو شراب أو كساء . وإن كان المستوى غير كريم . وأصبحوا الآن مسئولين عن كل شىء من ذلك مسئولين عن الحصول أولا : على عمل يستطيعون من دخله توفير ما يحتاجون إليه . ولم تكن الأعمال عند أطراف أصابعهم . فاضطربت شئون الكثيرين منهم ، وأرهقتهم البطالة والجوع . والبرد . . فماذا تفعل بريطانيا بهذه الألوف من الرقيق المحررين ؟ ما موقف الدولة ؟ وما موقف دعاة التحرر وفى مقدمتهم «جرانفيل شارب» ؟

جماعة كلافام[1] :

فى ضاحية « كلافام » ـ بالقرب من لندن ـ كان يحيا عدد كبير من دعاة تحرير الرقيق ، ولهذا أطلق عليهم اسم هذه الضاحية . وكان أغلبهم أعضاء فى البرلمان البريطانى . وكان «جرانفيل شارب» العقل الكبير وراء حركة تحرير الرقيق ، وأحس بمسئوليته الأدبية ـ هو وزملاؤه ـ حيال الرقيق المحررين بعد قضية سمرست .

ولم يكن « الإحسان والتصدق » حلا كريماً دائماً لهذه القضية . وكان لا بد من إجراء سريع لمجابهة الموقف وإنقاذ « السود الفقراء » من الموت جوعاً وبرداً .

وجاء الحل بعد أربعة عشر عاماً من صدور الحكم فى قضية سمرست . على يد الدكتور سمثمان Smeethman وقد سبق له أن أمضى سنوات فى غرب إفريقية . فى دراسات تتعلق بالتاريخ الطبيعى . وأسهم فى نشاط جماعة كلافام بعد عودته إلى بريطانيا . واقترح الاستفادة من سيراليون فى أمرين :

الأول : أن تكون وطناً للرقيق المحررين .

الثانى : أن تكون قاعدة فى غرب إفريقية لمقاومة تجارة الرقيق . ونشر الثقافة الأوروبية والمسيحية فى هذا الجزء من القارة .

ويمكن إرجاع صلة الأوروبيين بهذا الجزء من إفريقية إلى القرن الخامس عشر عند ما كان البرتغاليون يتحسسون طريقهم على طول الشاطئ الغربى للقارة بغية الوصول إلى الهند . واستطاعوا الوصول إلى شبه الجزيرة التى تقع عليه فريتاون الحالية ـ عاصمة سيراليون ـ وكان هذا فى عام ١٤٦٢ ، فى ذلك المكان ترتفع صخور الشاطئ صلبة قاسية متجمعة كأنها عرين الأسود . . وتهب العواصف عنيفة مزمجرة فتدوى بين الجبال وفى الأودية كأنها الزئير . . ومن هنا جاءت التسمية سيراليون (جبال الأسود) . . ولا يمكن ـ على وجه التحقيق ـ ترجيح أى الرأيين ـ فى سبب التسمية : هدير العواصف ، أو شكل الجبال .

والذى يهمنا أن البرتغاليين أطلقوا على هذا المكان اسم سيراليون . وظل هذا الاسم مرتبطاً بالإقليم .

الأعوام الأولى فى سيراليون :

واستطاعت جماعة كلافام الحصول من الزعيم الإفريقى توم ـ من قبيلة التمنة ـ على قطعة أرض فى شبه جزيرة سيراليون . وأن تقنع الحكومة البريطانية بتوفير وسيلة المواصلات . والتموين اللازم للمجموعة الأولى من الرقيق المعادين إلى إفريقية .

وفى ٢٢ من فبراير ١٧٨٧ . أبحرت من بريطانيا المجموعة الأولى من الرقيق المحررين . وكان عددهم نحو أربعمائة . ووصلت السفينة سيراليون فى مايو . وفتكت أمراض المناطق الحارة بجانب

---

(١) The Clapham Set.

كبير منهم فهبط عددهم إلى نحو مائة وثلاثين .

وكانت هذه تجربة قاسية للمشروع الجديد . فبذل « شارب » جهوداً جديدة فى ترحيل مجموعات جديدة من المحررين إلى سيراليون ، وبدأ بناء المنازل والأخذ بأسباب الحياة المستقرة من تعليم مدنى ودينى . وحدثت حروب بين الأسطول البريطانى وبعض الزعماء الإفريقيين انتهت بتدمير المستعمرة ثم تجديدها .

وأعيد تنظيم الجهاز البريطانى الذى أشرف على إنشاء سيراليون وتكونت « شركة سيراليون » وصدر مرسوم ملكى فى عام ١٧٩٠ تجعل هدف الشركة الأول « نشر الحضارة فى إفريقية وإلغاء تجارة الرقيق » .

وأسهم الشعب البريطانى وقتئذ بنحو ربع مليون جنيه ليساعد الشركة على القيام بأعمالها ، وأنشئ ميناء فريتون بعد تدمير جرانفيل تون فى الحروب التى سبقت الإشارة إليها . وأصبحت عاصمة سيراليون . وقبل انتهاء القرن الثامن عشر — فى عام ١٨٩٢ تقريباً — كانت بريطانيا قد تمكنت من ترحيل جميع المحررين تقريباً إلى سيراليون . وانتهت بهذا قصة الرق فى داخل بريطانيا وإن ظلت فى المستعمرات تحت أسماء جديدة .

مستوطنون من نوفا سكوشيا :

واستمدت سيراليون بقية من سكانها من مصادر أخرى : فهناك نفر من الرقيق فر من قسوة المعاملة فى الولايات الجنوبية فى أمريكا . ووجدوا ملجأ فى ولايات الشمال وكندا . وانضم كثير من هؤلاء إلى صف بريطانيا فى حرب الاستقلال الأمريكية . ووعدتهم بريطانيا — بعد الحرب — بالحرية والوطن . ولكن السلطات البريطانية فى كندا أساءت معاملتهم ولم توفر لهم الأرض ، ولا المال . وأرهقهم الجو البارد . لهذا رأت بريطانيا أن توفر لهم سبل الهجرة إلى سيراليون .

واستطاع مندوب هؤلاء الزنوج الأمريكيين — توماس بيترز — أن ينظم هذا الأمر مع الحكومة البريطانية . وحملت ست عشرة سفينة بريطانية ١١٣١ من هؤلاء من «نوفا سكوشيا» — فى أمريكا الشمالية — إلى سيراليون . ووصلوا إليها فى مارس من عام ١٧٩٢ بعد أن مات بعضهم فى أثناء الرحلة .

وكانت هذه المجموعة الأمريكية منظمة إذا قارناها بالمجموعة الإنجليزية . وكانوا على مستوى من التعليم والخبرة فى بعض شئون الصناعة والتجارة . والحرف اليدوية . ولهذا سرعان ما ظهر تأثيرهم فى المستعمرة .

مستوطنون من جزر الهند الغربية :

وكان « المارون » الذين وفدوا من جزر الهند الغربية ، المجموعة الثالثة التى أسهمت فى تكوين سيراليون . وهم من الرقيق الذين ثاروا فى وجه مظالم البريطانيين والأسبان فى جمايكا وفروا من المزارع إلى الجبال . ومعظم هؤلاء

ينحدر من جماعات الرقيق الذين حملتهم السفن عبر المحيط الأطلسي من نيجيريا ، وساحل الذهب (جمهورية غانة الآن) . ورفض هؤلاء الاعتراف بسيادة البيض في جمايكا وظلوا نحو مائة وخمسين عاماً معتصمين بجبالهم يغيرون على المزارع البيضاء ، وكانوا وراء كل ثورة تحررية هناك . وبذلت السلطات البريطانية جهوداً كبيرة في التعرف على مخابئهم في الجبال واستعانت بالكلاب المدربة واشتد الصراع بين المارون والبريطانيين . وأخيراً عقدت معهم بريطانيا معاهدة تقضي بعدم الإغارة على مزارع السكر وأن يأمن المارون على قراهم وأنفسهم وألا يدفعوا أي ضريبة .

وعند إعلان هذه المعاهدة عمت الفرحة الإنجليز في جمايكا وأرسلوا في استدعاء زوجاتهم وأولادهم من بريطانيا . واستقرت الأوضاع في جمايكا سنوات. ثم عادت الاضطرابات بعد قيام الثورة في هايتي . واستطاع الإنجليز رد المارون إلى الجبال وقضوا على الاضطراب . وقبضت بريطانيا على عدد كبير من الثوار وأرسلتهم إلى «نوفا سكوشيا» ومن هناك أرسلتهم إلى سيراليون .

مجتمع الكريول :

وبعد أن أرسى دعاة تحرير الرقيق دعائم المجتمع الجديد في سيراليون أخذوا في توجيه عنايتهم نحو محاربة تجارته عبر المحيط الأطلسي . وبرز في هذه المرحلة اسم «ولبرفورس» . — وكان عضواً في البرلمان البريطاني عن هل ويوركشير — واستطاع إقناع وليم بت — رئيس الوزراء — بمحاربة تجارة الرقيق .

ولقيت هذه الجهود معارضة كبيرة من كبار الزراع في جزر الهند الغربية . وتجار لندن . وليفربول ، وبرستول ، وأخيراً استطاع والد فورس أن يستصدر قراراً من البرلمان البريطاني في ١٦ من مارس ١٨٠٧ باعتبار تجارة السفن البريطانية في الرقيق غير مشروعة . وتحولت فريتون في العام التالي إلى قاعدة للأسطول البريطاني لمراقبة تجارة الرقيق عبر الأطلسي والقضاء عليها ومصادرة ما تحمله السفن. ثم إعادته إلى موطنه إن أمكن . وإلا فيرسل إلى سيراليون ليسهم في تكوين المجتمع الجديد . وتعاونت بعض الدول الأوروبية في هذا الأمر .

وقدر عدد الرقيق الذين أمكن إنقاذهم من السفن عابرة المحيط ب ١٣,٢٨١ فيما بين عامي١٨١٩ و١٨٢٨ . بمعدل سنوي قدره ١٤٠٠ ، كما أمكن تحرير نحو خمسين ألفاً فيما بين ١٨٢٨ . ١٨٧٨ وإنزالهم في سيراليون .

وسكن هؤلاء «فريتون» وما حولها ولا تزال القرى الذين أقاموها تحمل أسماء من المواطن التي كانوا فيها أو الزعماء الذين عملوا من أجلهم : ولنجتون . واترلو . كنت . ولبرفورس .

وأطلق على هؤلاء المستوطنين جميعاً اسم «الكريول» وهم بهذا يتميزون عن سكان الداخل من القبائل الإفريقية .

وموقف هؤلاء المحررين دقيق . . فهم عائدون إلى وطن خرج منه آباؤهم وأجدادهم، أو خرجوا هم منه .

ومعظمهم لا يعرف على وجه التحديد وطنه الأول . فكل صلاتهم بإفريقية أنها أرض الآباء وأنها أرض المستقبل .

وكان الفارق كبيراً بين المحررين والقبائل الإفريقية المحلية ممن لم يفارقوا البلاد ولم يمروا بالتجربة ..

الإفريقيون المحليون — أو سكان الداخل كما يطلق عليهم أحياناً — لا زالوا يتكلمون لغاتهم الإفريقية . ولا زالت لهم عاداتهم وتقاليدهم . وعقائدهم الموروثة . واقتصادهم تقليدى ونظمهم فى حيازة الأرض والزراعة المتنقلة تكون فى مجموعها اقتصاداً جامدا يستهدف — أساساً — سد حاجة السكان إلى المواد الأولية اللازمة لحياتهم اليومية دون تفاعل كبير مع الوحدات السياسية المجاورة أو الخارجية .

أما العائدون — الكريول — فيمثلون عالماً جديداً وثقافة متميزة عن هذه الأوضاع التقليدية القديمة . . ولا تجمعهم مع سكان الداخل إلا وحدة اللون . أما اللغة والدين والنظرة إلى الحياة والموقف الاجتماعي والاقتصادى فيختلف اختلافاً جذرياً بين الساحل والداخل .

فكيف يمكن أن يلتقى الساحل والداخل ، وهل تستطيع القومية أن تذيب هذه الفروق فى بوتقة واحدة لتخرج منها سبيكة متجانسة متماسكة ؟

مشكلة الحدود السياسية :

ظلت مشكلة الحدود السياسية كامنة فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر . . فإلى الجنوب كونت الجهود الأمريكية « ليبيريا » للهدف نفسه الذى قامت من أجله «سيراليون» .. أن تكون موطناً للرقيق المحررين العائدين إلى إفريقية ليعيشوا فى مجتمع إفريقى يمارسون فيه حياتهم بعيداً عن ضغوط العنصرية البيضاء فى أمريكا .

تكونت ليبيريا فى عام ١٨٤٠ . ومنحتها الولايات المتحدة استقلالها فى عام ١٨٤٧ .

وكانت غينيا الفرنسية (جمهورية غينيا الآن) تجاورها من الشمال . أما الداخل — الشرق — فكان تحت سيطرة الزعماء الإفريقيين المحليين . ولم تكن الحدود السياسية فيها واضحة . ولم تحدد هذا الجزء إلا فى العقود الأخيرة من القرن الماضى .

ففى سنة ١٨٨٥ صدرت قرارات مؤتمر برلين ومن بينها موافقة الدول الأوروبية المجتمعة على تقسيم إفريقية فيما بينها ، وأن احتلال أية دولة منها لأية مساحة فى إفريقية لا يكون فعلياً إلا بعد إخطار الدول الموقعة على الاتفاقية ، وأن هذا الاحتلال ينبغى أن يكون حقيقياً ، وأن لكل من هذه الدول الحق فى احتكار التجارة مع السكان الأصليين ، ما دامت قد ارتبطت معهم بمعاهدة .

ويمثل مؤتمر برلين فاتحة عهد من التسابق المحموم للسيطرة على القارة

وشعوبها ومواردها ، وتحطيم زعاماتها المحلية ، وأرادت بريطانيا أن تتوسع فى الداخل وأن تحدد حدود سيراليون مع كل من غينيا وليبيريا . وسارعت بعقد (معاهدات) مع الزعماء الإفريقيين ، فى الجزء الشرقى .

وهذه المعاهدات أسلوب ماكر من الأساليب التى لجأ إليها الاستعمار فى إفريقية . وكثير من الزعماء وقعوا عليها دون أن يعرفوا مضمونها ، بل كانوا يعتبرونها أحياناً وثائق صداقة وتعاون بينهم وبين الدولة الأوروبية . بينما هى نصوص تضع جميع إمكانيات الأرض الإفريقية تحت تصرف الدولة الأوروبية أو الشركة التى تمثل مصالح هذه الدولة . ولا تعطى الزعيم الإفريقى إلا نصوصاً غامضة مائعة .

عقدت بريطانيا معاهدات مع زعماء القبائل بينما كانت فرنسا تمتد من غينيا واستطاعت حصر سيراليون من الشرق . وفرضت بريطانيا حمايتها على الجزء الذى وقع زعماؤه معها معاهدات وهو بهذا – سياسياً – يختلف عن الجزء الساحلى (المستعمرة) .

وأصبحت سيراليون تتكون من :

(أ) المستعمرة : وهى الجزء الساحلى الصغير أو شبه الجزيرة ومساحته الكلية ٢٥٦ ميلا مربعاً .

(ب) الحمية ومساحتها ٢٧,٩٢٥ ميلا مربعاً . وبهذا تكون المساحة الكلية ٢٨,١٨١ ميلا مربعاً .

ومجموع السكان فى الوقت الحاضر نحو ٢¾ من الملايين ولا يزيد عدد البيض هناك عن ألفين وهو قدر ضئيل لا يكاد يذكر ولا يكون مشكلة عنصرية بين البيض والسود ، وإنما المشكلة بين الكريول – سكان الساحل – وبين سكان الداخل ، وعدد الكريول نحو ثلاثين ألفاً ويكونون ارستقراطية سوداء فى مجتمع إفريقى ، ولهم – مع قلة عددهم – نفوذ كبير فى الشئون السياسية والاقتصادية والثقافية .

والحدود السياسية عند تحديدها ، لم تراع الأوضاع القبلية ولا اللغوية . ففى سيراليون – كما يذكر هاريسون تشرش (١٩٥٦) – نحو مائة وستين زعامة قبلية ، والحدود السياسية غير متفقة مع الحدود القبلية فكثير من القبائل التى تسكن قرب حدود ، سيراليون ، شطرتها الحدود شطرين أو أكثر وأصبح لكل قسم من القبيلة تبعية خاصة ومصير مختلف . ويمكن أن نذكر أمثلة لذلك من قبائل التمنة ، والسوسو ، والماندى ، والكونو ، والكورانكو ، والجالينا .

المشكلات الثقافية :

المشكلات كثيرة التواتر فى غرب إفريقية حيث الحدود السياسية لا تمثل – فى الغالب – إلا أمراً واحداً : هو مدى استطاعت القوات الاستعمارية مد نفوذها فى القارة .

والحد السياسى إذا رسم مرة على الخريطة ودخل فى حياة الناس أثر فيها تأثيراً عميقاً .

فالذين يعيشون فى غينيا (الفرنسية سابقاً) تأثروا بالثقافة الفرنسية، والذين يعيشون فى سيراليون تأثروا بالثقافة الإنجليزية ، والذين يعيشون فى ليبريا تأثروا بالثقافة الأمريكية . وقد نجد فردين من أسرة واحدة وبينهما فجوات ثقافية واسعة . وأثر هذا على الروابط بين الأفراد والقبائل .

وتمثل لغة الكريول مشكلة خاصة بسيراليون ينبغى على هذه الدولة الناشئة أن تقابلها .

فكثير من المحررين الذين عادوا إلى سيراليون كانوا يتكلمون الإنجليزية ولكن الهولنديين والبرتغال والفرنسيين والدانمارك . . . أسهموا أيضاً فى إرسال جماعات من المحررين إلى سيراليون . . وشيئاً فشيئاً بدأت تظهر لغة جديدة تستخدم فى التخاطب اليومى أصبحت تعرف باسم « الكريو » وانتشارها واسع فى المستعمرة — على السهل الساحلى — وهى ليست إنجليزية محرفة ولكنها خليط من كثير من القواعد اللغوية الإفريقية ، وكلمات من لغات قبائل متعددة . . من التمنة ، والايبو ، والأكو ، والماندنجو ، والفولو ، والسوسو . . هذا إلى موثرات عربية وإنجليزية جعلت بعض الكتاب يصفونها بأنها « خليط المخاليط » .

ويدافع عنها الكاتب الزنجى الكبير دكتور بلايدن فيقول « هناك أفكار وأحاسيس كثيرة يعبرون عنها بهذه اللغة . قد أصبحت لها قداسة ذاتية . إنها لغة لها تصوراتها الخاصة وأخيلتها التى تضيع روعتها إذا ما ترجمت إلى لغة أخرى . . إن قواعدها شرقية . . ولم يكن هناك من لغوى ليضع لها قواعدها . . إنها لغة الحياة اليومية . . لغة المحاملة ... والزواج والموت ، والفرح والحزن .

إن الناس هناك لا يرضون أن يتحدثوا فى شئونهم الخاصة وخلجات قلوبهم بلغة أجنبية تماماً . مثلما يرفضون التعبير عن دخائل نفوسهم أمام الغرباء ومن السهل على سكان الداخل أن يكتسبوا هذا اللسان ليصبح جسراً يستطيعون العبور عليه إلى تعلم اللغة الإنجليزية » .

هذا ما ذكره دكتور بلايدن فى كتابه « المسيحية والإسلام والجنس الزنجى » ونقله عنه جورج بادمور . . فهل تستطيع هذه اللغة أن تعمر طويلا ؟ إنها تذكرنا — مع شىء من الفارق — بموقف البوير فى اتحاد جنوب إفريقية عند ما اتخذوا لأنفسهم لغة خاصة (الأفريكانية) . لا يتكلم بها فى العالم كله إلا نحو مليونين يؤمنون بها ويدافعون عنها دفاعاً مستميتاً ، وإن كانت لغة الكريو لم تصل إلى مستوى الافريكانية فى اتحاد جنوب إفريقية .

فهنا — فى سيراليون — نجد أقلية إفريقية فى محيط إفريقى . وهذه الأقلية تحس نوعاً أو أنواعاً من التفوق : الثقافى والاقتصادى والاجتماعى والسياسى . ولا زالت المعابر بينها وبين سكان الداخل فى حاجة إلى تدعيم دائم مخلص يسير على تخطيط واضح المعالم واسع المدى .

الأمر فى سيراليون يحتاج إلى إيمان بالجامعة الإفريقية ، وبكرامة البشر لأنهم بشر وأن تبذل الجهود للأخذ بيد سكان الداخل ليستطيعوا

المساهمة فى تقدم قطرهم والتعاون مع الشعوب الصديقة . فن أين يأتى المال اللازم لهذا ؟

المشكلات الاقتصادية :

من العرض السابق يبدو قلة عدد السكان فى سيراليون ، والكريول عند ما جاءوا لم يجدوا الأرض الساحلية صالحة للإنتاج الزراعى فتحولوا إلى أعمال أخرى . وعند ما أنشئت كلية فورا باى فى فرينون سارع الكريول إلى إلحاق أبنائهم بها . ولهذه الكلية روابطها القوية بجامعة درهام . وظلت الزراعة قائمة فى الجزء الداخلى . ويقوم اقتصاد سيراليون أساساً على منتجات تمثل الزيت والحديد الخام والماس وتتوافر فى بعض المناطق هناك . ويقدر الإنتاج السنوى من زيت النخيل بنحو ٣٥,٠٠٠ طن . يستهلك معظمها محلياً . وهناك نحو ٧٠,٠٠٠ من بذور نخيل الزيت تصدر سنوياً .

وترجع زراعة الكاكاو فى سيراليون إلى عام ١٩٢٥ . وتتركز زراعته فى مناطق كينيما وكايلاهون وبوجهون . وفصل الجفاف الطويل ثم مجيء الفصل الرطب بسرعة ــ هما العاملان الرئيسيان اللذان يتحكمان فى مدى التوسع فى زراعة الكاكاو . والتصدير السنوى فى الوقت الحاضر نحو ٢٠٠٠ طن . . هذا إلى غلات أخرى مثل الكولا والزنجبيل والبن والموز والموالح .

ومجموع الصادر من هذه الغلات الزراعية لا يكاد يصل إلى ثلث قيمة مجموع الصادرات . فالمعادن لها النصيب الأكبر ، وتمثل وحدها الآن نحو ثلثى الصادر من حيث القيمة .

والمواصلات لا زالت دون الكفاية بكثير ، ولا بد من تنسيق شبكة الطرق البرية والخطوط الحديدية وتوسيعها .

ثم من ناحية أخرى من المنتظر أن تعيد سيراليون النظر فى أمر تخطيط اقتصادها وأبعاده وعلاقاتها الاقتصادية الخارجية . . وذلك بالتحول شيئاً فشيئاً إلى ميدان التصنيع ورفع مستوى الإنتاج الزراعى وتوسيع مجالات التسويق .

ويذكر جيمس كامرون (١٩٦١) عن الأوضاع السياسية وعلاقتها بالتنمية الاقتصادية فى سيراليون « إن استقلال سيراليون جاء هادئاً . فعند ما وصل وفد سيراليون إلى لندن لحضور المؤتمر الدستورى فى ربيع ١٩٦٠ . كان أول ما قاله وزير المستعمرات البريطانى للوفد ألا يضيع أى وقت فى إقناع الحكومة البريطانية بمنح سيراليون استقلالها الكامل ، فهذا أمر مقرر . فلندخل فى التفاصيل مباشرة » . . . ومع هذا كله كان فى سيراليون تسعة أحزاب . واتفقت هذه الأحزاب على تكوين جبهة واحدة . « ووافقت بريطانيا على أن تمنح سيراليون استقلالها مع منحة قدرها ٧½ ملايين من الجنيهات »

ويعقب كامرون على هذا بقوله « إن سيراليون لا زالت قليلة السكان وغير غنية » .

ومن هذه الزاوية يبدو جانب له أهمية فى حياة سراليون وهو مدى قدرتها على الاستقلال باقتصادها بحيث تستطيع الوقوف على أرض ثابتة وهو ما يرجوه لها كل إفريقى وكل محب للسلام .

خاتمة :

عند ما ارتفع علم جديد للحرية فى سراليون .. كان ارتفاعه مثيراً لذكريات كثيرة متعارضة متضاربة ..

ذكريات تجارة الرقيق بما تحمل من قسوة وبشاعة .. ومراكب الرقيق تخترق المحيط الأطلسى بعد أن تمتلىء بحمولتها البشرية فى تكديس ليس فيه أى مراعاة للقيم الإنسانية فإذا ألقت مراسيها على شواطىء العام الجديد .. أفرغت السفن حمولتها الحزينة فى حقول القطن والقصب وتحولت هذه القوى الإفريقية إلى تروس ضئيلة فى آلة الاستعمار الأوروبى الجديد .. وتعود السفن محملة من خيرات العاة الجديد .. من عصارة جهود الإفريقيين وإنتاجهم فى مزارع القطن والقصب .. إلى أوروبا ومنها تتابع رحلتها إلى شواطىء إفريقية الغربية ..

ثلاث رحلات : الأولى تحمل ثمن الرقيق ، والثانية تحمل الرقيق ، والثالثة إنتاج الرقيق ، ومن هذا المثلث الرهيب جمعت أوروبا ، وأمريكا الكثير من الثروات .

وفى إلغاء الرق دوافع إنسانية لا شك فيها .. وأسهم فيها أفراد لا يشك فى إخلاصهم .. ولكن الدول الاستعمارية وبخاصة بريطانيا ، استطاعت تحت ستار محاربة الرق أن تفعل الكثير .. فهى لم تتحمس له إلا بعد حرب الاستقلال الأمريكية وضياع كثير من نفوذها فى العالم الجديد .. فلماذا تمونه بالرقيق ؟ ولماذا تجد أمامها مسوح الرهبان ولا تستفيد منه ؟ وماذا عليها لو لبست هذا المسوح وتحولت إلى داعية يهتف بإلغاء الرق ومحاربته وبهذا تستطيع أن تحتفظ بالوقود البشرى فى إفريقية .. أن تحتفظ بالإفريقيين لتستغلهم فوق أرض قارتهم ... فى المناجم .. فى المصانع ... فى المزارع .

لهذا شاهد القرن التاسع عشر تكالباً ضخماً على تقسيم إفريقية ، واستغلالا بشعاً لقواها البشرية ، واستيلاء على الحقول والمناجم .. شاهد استرقاقاً من نوع جديد ، واستيلاء على خيرات القارة ..

وعلا الموج التحررى فاستطاع أن يصطدم بأسوار الاستعمار .. واشتد هدير الموج فاستطاع أن يحطم بعض هذه الأسوار وأن يجرف أحجارها إلى قاع المحيط وأن يطهر أرض إفريقية لأبنائها .

وأخذت الأعلام الإفريقية ترتفع علما بعد علم ، واضطر الاستعمار إلى إلقاء سلاحه فى بعض الجهات ، بينما اشتدت قبضته على بعض الجهات الأخرى . واتخذ من بعض الأقطار قواعد لضرب البعض الآخر ، ولكن هذا الموكب المتجمع من أعلام الحرية سيضيق النطاق على الاستعمار وسيتحقق الاستقلال الحقيقى لكل أجزاء القارة بعد أن ينسحب الاستعمار من كل أجزائها انسحاباً كاملا .. ليعم فوق القارة السلام ويتعاون أبناؤها جميعاً من أجل سلامهم وسلام العالم أجمع .

الاستعمار البرتغالى فى إفريقية

للدكتور : عبد العزيز رفاعى

بدأ الاستعمار البرتغالى فى القارة تجارياً إثر قيام البرتغال بالحركة الكشفية فى القرن الرابع عشر ، إذ ذاك أقام البرتغاليون علاقات تجارية مع مملكة Benin عند مصب نهر النيجر فابتاعوا منها الرقيق والعاج والبهار ، وأسسوا لأنفسهم على ساحل غانة بعض المراكز التجارية عند مصب نهر غمبيا والكونغو

ولقد تركز نشاط البرتغاليين فى إفريقية على السواحل ولم يستطيعوا مد نفوذهم وسيادتهم إلى الشئون الداخلية إلا فى القرن السابع عشر ، لذا لم يلبث نفوذهم أن تضاءل ، ومن ثم عادت البلاد الإفريقية إلى عزلتها حوالى عام ١٧٠٠ وظلت هكذا قرابة قرن ونصف قرن بعد ذلك تقريباً .

على أن هذه الفترة لم تكن خاواً من تجارة العبيد ، فقد حل محل البرتغاليين فى مزاولتها هؤلا البريطانيون الذين قدموا إلى إفريقية فاستخدمت ليفربول مثلا فى السنوات (١٧٨٣ ، ١٧٩٣) ما بلغ ٩٣١ سفينة لتقلهم من إفريقية ، وقد بلغ ثمن العبيد ١٥,١٨٦,٨٥٠ جنيهاً كما بلغ ربح المدينة منهم ١٢,٢٩٤,١١٦ جنيهاً تلك المدينة التى احتكرت من تجارة بريطانيا فى العبيد ما يساوى الخمس حتى ١٨٠٠ وما يساوى $\frac{3}{5}$ من التجارة العالمية كلها .

ولما تطورت الحضارة الأوروبية الحديثة وتقدمت اتجاهاتها الإنسانية منذ القرن الثامن عشر . أخذت هذه التجارة تتلاشى فى بريطانيا وغيرها ، بل أخذت بريطانيا تتزعم حركة القضاء على هذه التجارة البغيضة وتستخدم أساطيلها حول السواحل الإفريقية الغربية من أجل ذلك ، فارتد ذلك بالخسران على البرتغاليين فأصابت تجارتهم فى الصميم لاسيما مستعمرتى سان توما وأنجولا .

على أن ذلك . إن حال دون سريان هذا اللون البغيض من التجارة الأوروبية فلم يمنع اتجاه الغرب من استغلال غرب القارة وقلبها استغلالا اقتصادياً . وقد جاء هذه المرة على يد البرازيليين وبعض الماليين البريطانيين والأمريكان ، فدأب نشاطهم على الوصول إلى مناطق النحاس والذهب فى كاتنجا بالكنغو والاهتمام بتحويل المستعمرات البرتغالية إلى مزارع ، للكاكاو والبن فى سان توما وأنجولا .

تلك المستعمرة التى نجحت فى ذلك نجاحاً كبيراً ، ولم تمض مدة حتى عادت تجارة العبيد محصورة فى أعمال السخرة فى شرق أنجولا . على شكل عقود مؤقتة يعقدها التجار ويبيعونها للآخرين حتى أسيء استعمال السخرة . فأثارت انتباه الأوروبيين من دعاة بعث الرق من جديد .

ولم يكتف البرتغاليون بإنشاء المستعمرات غرب القارة . فبينما كانوا يجدون فى ذلك فى الغرب . كانوا ينشئون لهم فى الشرق . سيما بعد أن تم كشف طريق رأس الرجاء الصالح . الذى مكنهم من تجارة الهند . فمن أجل إيجاد محطات فى الطريق إلى الهند ، استولى البرتغاليون على جملة مراكز بعد دخولهم فى معارك طاحنة مع العرب . الذين كانوا مسيطرين إذ ذاك على هذه الأرجاء . ولم يأت عام ١٥٢٠ حتى كان البرتغاليون قد استولوا على كلوة وزنجبار وبمبا وممبسة ولامور ومالندى ومقدشيو وغيرها . واحتلوا جزيرة موزمبيق سنة ١٥٣٠ وأنشأوا ثم حصوناً حربية هناك ولم تلبث موزمبيق أن نمت وتطورت حتى أعطت اسمها المنطقة بأسرها .

ولما أسس البرتغاليون أول مركز لهم فى شرق القارة فى سنة ١٥٤٤ وسمعوا عن نهر سينا وإمارة سينا العربية على شاطئ هذا النهر (نهر زمبيزى) ومملكة موتوبوتابا وما بها من ذهب . سعوا للوصول إليها بحملة قادها الحاكم البرتغالى للمنطقة سنة ١٥٦٩ . ولكن ما كادت القافلة تتقدم نحو الداخل حتى قاومها الأهالى وأبادوا معظمها . ومن ثم عادت أدراجها تجر أذيال الخيبة .

ولقد حال دون اشتداد الصراع من البرتغاليين والعرب فى شرق القارة ازدياد التوسع التركى الذى توقف على أثره النشاط البرتغالى سيما بعد أن استولى الأتراك على مصر وجزيرة العرب ، ومحاولتهم فرض سيادتهم على المياه الهندية . ولم يستعد ذلك الصراع أهبته للعمل ، إلا بعد أن خمد هذا التوسع التركى فى نهاية القرن السادس عشر . إذ ذاك أخذ البرتغاليون يهتمون من جديد بأملاكهم فى شرق القارة فنشب الصراع قوياً بينهم وبين العرب فى كلوه وموزمبيق وغيرهما للإبقاء على مستعمراتهم ، والتوسع على حساب جيرانهم .

ولم يكد البرتغاليون يواجهون هذا العدو المنافس لهم فى المنطقة حتى ظهر لهم فى الأفق عدو أنكى ، وتمثل ذلك فى القرصان الهولنديين الذين كانوا قد بدأوا نشاطهم فى المياه الهندية منذ سنة ١٦٠٩ وهاجموا موزمبيق ، وقد كان هذا الهجوم دافعاً للبرتغاليين لأن يفصلوا أملاكهم الإفريقية عن إمبراطورية الهند ويعينوا لها حاكماً عاماً ، ثم أخذوا يبذلون الجهد من جديد للوصول

إلى مناجم الذهب جنوبى نهر الزمبيزى فاستخرجوا كميات لا بأس بها ، ثم اكتشفوا مصدراً آخر للثروة عند ما بدأ معين هذه الكميات ينضب . وذلك باهتمامهم من جديد بتجارة الرقيق ، كما كانوا يفعلون فى غرب القارة . فأخذت قوافلهم تنقل الرقيق منذ سنة ١٦٤٥ إلى البرازيل ، إذ كانت هولندا قد استولت على أنجولا فانقطع ما يرد منها إلى البرازيل من العبيد . ومن ثم حلت موزمبيق محل غرب القارة فى تجارة العبيد .

ولم يكد البرتغاليون يستقرون فى الساحل الشرقى لهذه القارة حتى أخذت البرتغال تواجه التنافس الاستعمارى بينها وبين البريطانيين الذين ظهروا فى المياه الهندية منذ سنة ١٦٤٩ ومن الهولنديين الذين أسسوا مستعمرتهم فى جنوب إفريقية . والفرنسيين الذين احتلوا مدغشقر . وقد أدى ذلك إلى هبوط شأن المستعمرات البرتغالية وهمود نشاطهم بالساحل الشرقى . سيما بعد إلغاء تجارة الرقيق . وزاد هذا النشاط جموداً استيلاء العرب على أملاك البرتغال فى مسقط . ومهاجمتهم لأملاكهم فى القارة واستيلائهم على على موزمبيق نفسها .

على أن ذلك كان مؤقتاً . فلم يلبث هذا النشاط أن يتجدد عند ما عاد البرتغاليون إلى الاهتمام بشرق القارة . فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر فعين للمنطقة حاكم عام سنة ١٧٥٢ ثم منح حق احتكار التجارة لشركات برتغالية فى موزمبيق وزمبيزى وجميع الساحل الشرقى لإفريقية من رأس ولجادو وخليج لورنز وماركيزو . وأخذت البرتغال ترسل أبناءها إلى هذه الجهات . ورغم ما مرت به هذه المنطقة من فترة مليئة بالمحن للوطنيين وسوء المعاملة ، ما لبث أن انتقلت إلى مرحلة تاريخية جديدة ، اعتراها ألوان من الكشوف الجغرافية لوسط جنوب القارة بفضل نشاط حاكمها الجديد . ولم نجد من هذا النشاط إلا محاولات الرحالة لفنجستون فى اكتشاف نهر زمبيزى . إذ ذاك أثارت اكتشافاته من سنة ١٨٥٠ ــ ١٨٥٩ انتباه الدول الاستعمارية لهذه المنطقة وأهميتها سيما البريطانيين . ومن ثم انتقل الاستعمار البرتغالى إلى مراحله الختامية التى جاهد فيها للإبقاء على كيانه فى صراعـــه ضـــد موجات الإمبريالية التى انبثقت ثمرة القوة الصناعية وغدت لوناً شديد المراس من الاستعمار الفرنسى .

كانت القدرة الصناعية قد نمت فى القرن التاسع عشر سيما فى النصف الثانى منه. وبدأت أوروبا تشعر بحاجتها إلى الحصول على المواد الخام وتصريف المنتجات الصناعية ، وقد أخذت البرجوازية فيها تثرى وترقى إلى قمة المجتمع الأوروبى . وتحتكر الإنتاج وتسيطر على السياحة . فلما نشطت حركة

الكشوف الجغرافية فى القارة . تطلعت إليها الأنظار واستثير من أجلها شره التسلط عليها سيما بعد أن قسم العالم إلى مناطق نفوذ غربية . حتى لم يعد غير إفريقية مجال تثرى على حسابه دول الغرب .

ولقد واجه الاستعمار البرتغالى منافساً أشد وأنكى مما واجهه فى تاريخه الطويل فى ظل التوسع الجديد . فاحتدم بين الطرفين الصراع الذى انتهى بتحديده نهائياً فى الوضع المعاصر الآن فى القارة .

ولكى تعمل البرتغال على تثبيت أقدامها فى مستعمراتها عملت على تأمين الاتفاقات التى عقدتها مع الدول متخذة بعض الامتيازات لشركات أجنبية . فقامت شركة موزمبيق سنة ١٨٩١ وشركة نياسا سنة ١٨٩٣ وغيرهما وقد تعهدت جميعها بالعمل على تقدم الإقليم . وكان للرأسمالية البريطانية النصيب الأكبر من الاستخدام ، كما نظمت البرتغال مسألة تقديم العمال المسخرين إلى شركات التعدين البريطانية فى الترنسفال إرضاء لبريطانيا .

ورغم هذا لم يقنع ذلك الدول الطامعة فى أملاك البرتغال من العمل على الانقضاض على أملاكها فى القارة وتقسيمها فى الوقت المناسب . وأخذت تتحين الفرص لذلك ، فلما ساءت أحوال البرتغال الاقتصادية ترقبت الدول إفلاس مستعمراتها ، إذ ذاك عقدت إنجلترا وألمانيا سنة ١٨٩٨ اتفاقاً سرياً قسمتا بمقتضاه مستعمرات البرتغال فى إفريقية إلى مناطق نفوذ إقتصادى فيما بينها . وقد قضى ذلك : بأن تتولى ألمانيا إفريقية الجنوبية الغربية والجزء الشمالى من موزمبيق الذى عرف فترة باسم إفريقية الشرقية الألمانية ، وتتولى بريطانيا الاستيلاء على الجزء الباقى . غير أن البرتغال ما لبثت أن نجحت فى إفساد هذه الخطة إذ عقدت مع بريطانيا سنة ١٨٩٩ معاهدة وندسور التى ضمنت بها حماية بريطانيا لها . وقد ارتد ذلك بالتالى بإفساد العلاقة بين بريطانيا وألمانيا . فكما شاءت كل من الدولتين التصالح فيما بينهما على وضع جديد بشأن مستعمرات البرتغال فى معاهدة سرية جديدة تمنحها حق التدخل ، والتصرف فيها بحجة سوء إدارتها مثلا . كانت الظروف فى صف البرتغال . إذ قامت الحرب العالمية الأولى وانتهت بهزيمة ألمانيا وتقسيم مستعمراتها ، واستيلاء إنجلترا على شرق القارة . إذ ذاك أخذت تلك تغمض عينها عما يجرى بين المستعمرات البرتغالية من سوء الإدارة . وسوء استخدام الطاقات البشرية من أجل أغراض البرتغال الاقتصادية ، وقد استقر وضع المستعمرات البرتغالية بعد الحرب على ما هو موجود اليوم فى القارة ودون مساس به ، فأصبح للبرتغال اليوم أنجولا وموزمبيق .

أما مستعمرة غينيا التى اكتشفها البرتغاليون فى القرن الخامس عشر ، فقد واجهت ألواناً من المحاولات البريطانية لاقتطاع أجزاء منها فى القرن ١٩ وقد انتهى التحكم الذى قام من الطرفين بوضع استرضى الطرفين حولها ، ومن ثم أخذت تستقر فى حوزة البرتغال منذ سنة ١٩٠٣ .

نظام الحكم فى المستعمرات البرتغالية

تتبع المستعمرات البرتغالية وزارة المستعمرات فى البرتغال رأساً فالبرتغال تدين بسياسة الحكم المباشر فى معاملة مستعمراتها فهى التى تعين الحاكم العام وتوجد بجانبه دائماً لجنة من القانونيين يعينها الوزير . تملك حق التشريع فى حدود ضيقة . أما مديروا الإدارات المحلية فلا يملكون هذا الحق وبجانب الحاكم العام للمستعمرة مجلس استشارى مكون من عشرة أعضاء : خمسة تعينهم إحدى الهيئات الاقتصادية المعترف بها وثلاثة من المواطنين بحكم وظائفهم ، ثم اثنان يختارهم الحاكم العام .

أما العلاقة بين المستعمرة ، والبرتغال فيحددها قانون أساسى ، يضع القوانين العامة للسياسة الوطنية كوجوب مراعاة مصالح الوطنيين فى كل التشريعات ومنع تسخيرهم فى الأعمال الخاطئة ، وتحديد سلطات الوزير والحكام المحليين فى التشريع وغير ذلك .

وبجانب الوزير يوجد ثمة مجلسان استشاريان : أحدهما المجلس الاستشارى الأعلى للمستعمرات والثانى هو المؤتمر العام لحكام المستعمرات .

ويقوم الوزير بتعيين أعضاء المجلس الأول وهو يتكون من حكام المستعمرات الحاليين الذين يتصادف وجودهم فى العاصمة بالإضافة إلى موظفى المستعمرات المحالين إلى المعاش .

أما المؤتمر العام لحكام المستعمرات فاستشارته واجبة فى جميع التشريعات تقريباً وهو يعقد كل ثلاث سنوات فى لشبونه وهناك بجانب ذلك مؤتمر اقتصادى يعقد كل خمس سنوات .

أما عن النظام فى كل مستعمرة . فثمة بجانب الحاكم العام المجلس الاستشارى السابق الذكر واستشارته واجبة فى جميع التشريعات . وفى كل مقاطعة من مقاطعات المستعمرات يوجد مجلس إقليمى مكون من حاكم المقاطعة وثلاثة موظفين معينين ، ثم اثنان آخران تختارهما الهيئات الاقتصادية .

بهذا النظام حكم البرتغاليون ، ولا يزالون يحكمون مستعمراتهم دون أن يسمحوا بأى لون من ألوان الحكم المحلى غير المباشر ، كما تفعل إنجلترا مثلا فى مستعمراتها . وقد شابهت سياستهم فى الحكم ما تتبعه فرنسا وبلجيكا فى حكم المستعمرات إلى حد كبير . ولكنها سياسة تقوم على القسوة والرجعية والاستغلال فى أبشع صوره ، هذا إلى استنزاف دماء سكان المستعمرات فى العمل أفواجاً فى السخرة . التى يعتمد عليها الاقتصاد البرتغالى اعتماداً يكاد

يكون كلياً . إلى حرمان الطبقات الكادحة من الأجور التى تتناسب ومجهـــوداتهم ، مع التركيز على الحيلولة دون نمو الطبقة المثقفة بالحد من التعليم إلا فى أدنى مراتبه .

ولقد عمد البرتغاليون إلى خلق فئة من أهل المستعمرات وثيقة الصلة بالبرتغال . وموالية لها تمكن للإفريقى بهذا أن يندمج فى المجتمع البرتغالى ويتمتع بمستوى البرتغاليين أنفسهم . إذا ما استوفى شروطاً معينة مثل الإلمام بالقراءة والكتابة باللغة البرتغالية . واعتناق الكاثوليكية والاستعداد لنبذ العادات السائدة كتعدد الزوجات .

وبمجرد أن يصبح مندمجاً . يتمتع بامتيازات المواطن الكاملة وواجباته ويصبح له الحق فى جواز سفر . والتصويت وتعليم أبنائه فى مدارس الدولة والإعفاء من ضريبة الكوخ . كما نخضع للخدمة العسكرية أسوة بسائر الأوروبيين .

والحق . أن هذه تعتبر محاولة إن حملت فى ظاهرها معنى الرغبة لإدخال الإفريقى المجتمع البرتغالى ، فهى فى حقيقتها تعنى من جهة أخرى عدم الرغبة فى عدم قبوله بصفته إفريقياً وهو اون من السياسة العنصرية ذات النفاق ،أو نهج قصد منه إيجاد الطبقة المثقفة ثم امتصاصها واستخدامها أداة تعرقل سير انبثاق الحركة القومية بين المستعمرات .

ورغم هذه المحاولات الاستعمارية كلها فلم تستطع الطبقة المثقفة نسيان أصل تكوينها . ولم تكن لينعدم شعورها بالنقص حتى بعد انضمامها للمجتمع البرتغالى مما جعلها متحفزة للقضاء على أصل الداء لتمحى من ذاتها هذا الشعور بالسعى للتحرر .

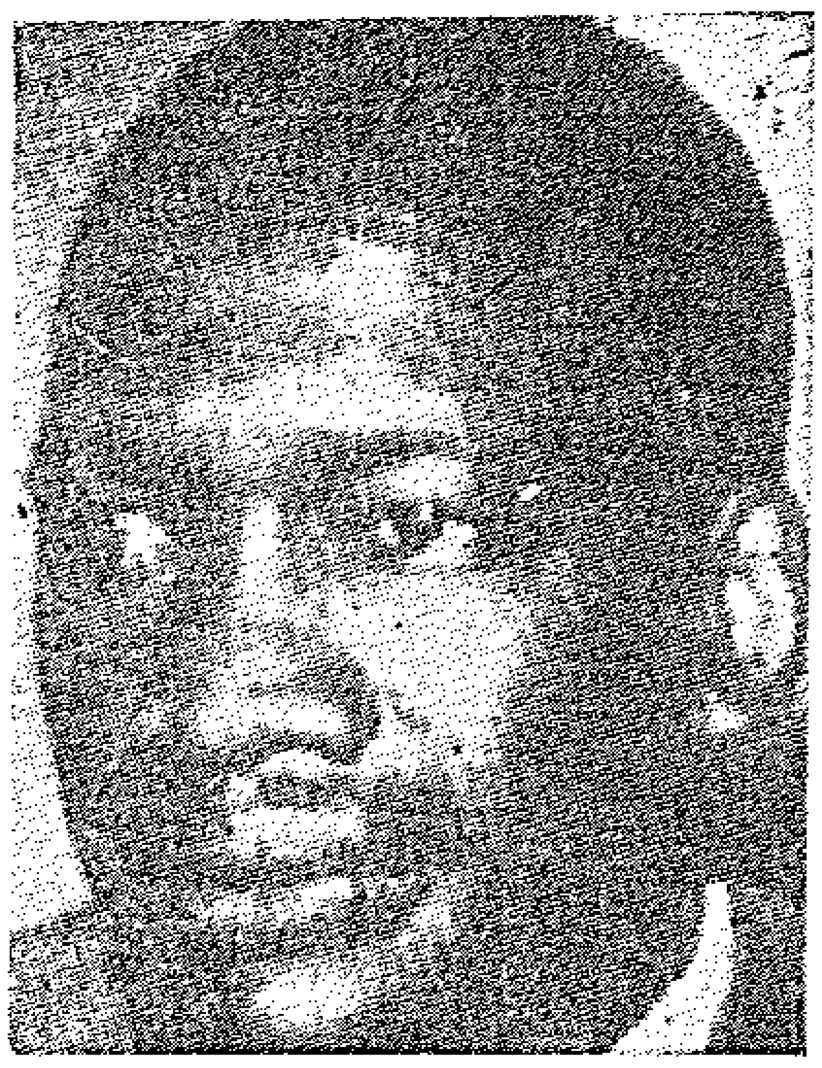

غينيا البرتغالية

الدكتور : عبد الملك عودة

في غرب إفريقية وعلى شاطىء المحيط الأطلسي تمتد أراضي غينيا البرتغالية وتحدها شمالا جمهورية السنغال وتمتد : شرقها وجنوبها أراضي جمهورية غينيا . وهي تشمل مساحة أرضية في القارة وبضع جزائر في المحيط وتبلغ مساحتها جميعاً ٣٦ ألف كيلو متر مربع . وليس هناك إحصاء مضبوط لعدد السكان . إنما يبلغون بالتقريب ٥٥٩ ألف نسمة وفق آخر تقديرات الإدارة البرتغالية . وهذا التقدير الرقمي يشمل الإفريقيين ، والخلاسيين ، والبرتغاليين . والعاصمة « بياسو » تقع على الشاطئ الأطلسي . وتقيم في داخل البلاد قبائل عديدة أشهرها الفولا ، والماندنج ، وبلانت .. الخ .

وتاريخ المنطقة الحديث يرجع إلى عام ١٤٤٦ حين زارها البحارة البرتغاليون في أوائل رحلاتهم الاستكشافية واستقر بعدها النفوذ البرتغالي وجاء من بعده المبشرون المسيحيون .

* * *

.. والمؤلفات الحديثة عن المنطقة قليلة . بل إذا شئنا الدقة فهي نادرة ويرجع هذا للأسباب الآتية :

١ – طبيعة نظام الحكم البرتغالي إذ أنه نظام ديكتاتوري منغلق على نفسه ، وهذا لا يتيح الفرصة للكتاب والدارسين لزيارة هذه البلاد ودراستها والكتابة عنها ، كما حدث بالنسبة للمناطق الإنجليزية والفرنسية في غرب إفريقية .

٢ – طبيعة اللغة البرتغالية إذ أنها ليست على مستوى اللغتين : الإنجليزية والفرنسية في الانتشار العالمي وهذا من ناحية أن المؤلفات الرسمية البرتغالية لا تقرأ في بلادنا ، ومن ناحية أخرى لا نستطيع قراءة مطبوعات وكتابات الإفريقيين في هذه المنطقة إذ أن لغتهم الرسمية هي البرتغالية . ونادراً ما يكتبون بغيرها .

٣ – طبيعة ثروات المنطقة : إذ هي فقيرة نسبياً ، إذا قيست بمناطق الذهب أو المطاط أو الكاكاو أو النحاس . ومعنى هذا أن رءوس الأموال العالمية والشركات الاحتكارية الكبرى لم تندفع

فى منافسة قاتلة للاستيلاء على ثروات هذه البلاد . وهذا لم يجعل أخبارها وحقائق الحياة فيها غير منشورة ، أو مدروسة ، أو متداولة فى القطاعات الفكرية الاقتصادية والسياسية .

ولهذا لا نعجب حين نجد مؤلفاً مثل بويل لا يعرض دراسة لهذه المنطقة فى كتابه الكبير :

The Native Problems in Africa

وأيضاً نجد أن مؤلفاً مثل جيمس دوفى لا يعرض لهذه المنطقة ، إنما يكتفى بدراسة لأنجولا وموزمبيق فى كتابه الحديث Portuguese Africa

تقتصر مراجعنا على بعض المؤلفات الخفيفة مثل كتب الرحلات الصحفية أو إشارات عابرة فى مقالات ببعض المجلات والصحف . وأهم هذه المؤلفات هو كتاب Michael Crowder واسمه Pagans and Politicians

وهو مجرد تسجيل لانطباعات رحالة إنجليزى جال فى منطقة غرب إفريقية وطبع فى لندن عام ١٩٥٩ . وتكلم فيه عن غينيا البرتغالية فى العشر صفحات الأولى إذ بدأ رحلته بالرسو فى ميناء بيسا ، وعاصمة غينيا البرتغالية ثم اخترق البلاد ليدخل السنغال وجاسبيا البريطانية ثم يتجه شرقاً فجنوباً عبر المنطقة كلها .

وتدور ملاحظات هذا الصحفى الرحالة حول الآتى :

١ ــ أن نظام الحكم البرتغالى هناك يقوم على مبدأ أساسى هو :

One state — One church

وهذا له معناه فى تركيز السلطة فى يد الإدارة الحكومية البرتغالية وتبعيتها المباشرة لحكومة لشبونة . ومثل هذا الوضع الإدارى يصيب الإدارة بالشلل البيروقراطى والجمود التنظيمى والكبت الإدارى لكل نواحى النشاط البشرى فى المنطقة ــ ومن ناحية أخرى تجعل مصير الموظفين رهن رضاء الحكام فى لشبونة .ولهذا فهم جامدون خائفون لا يعملون حتى تأتيهم الأوامر من هناك . ومن ناحية ثالثة نجد أن معظمهم من الطبقات الرديئة فى السلك الإدارى أو من الموظفين المغضوب عليهم أو من الموظفين الطامعين فى بناء ثروة شخصية عن طريق الرشوة والسرقة .

٢ ــ فى نظام الإدارة الحكومية هناك يظهر دور الخلاسيين الكاثوليك وأغلبهم من جزر المحيط الأطلسى أو من جوا الهندية . وهؤلاء هم الذين دخلوا فى نطاق المدنية البرتغالية طبقاً لنظام الاسيميلادو عند ما اعتنقوا الكاثوليكية وتكلموا البرتغالية وطبقوا القوانين البرتغالية فى شئون حياتهم الخاصة ، وهؤلاء يكونون طبقة تافهة هائمة على سطح المجتمع ويستمدون كيانهم من خدمة البرتغاليين وكبت ومطاردة الإفريقيين . وهؤلاء يمثلون صغار الفنيين والعمال المدربين والموظفين الصغار فى الإدارة الحكومية البرتغالية .

٣ — على الرغم من أن البرتغال لا تتخذ سياسة رسمية كالتى تتخذها حكومة جنوب إفريقية أو ما يؤمن به البيض فى وسط وشرق إفريقية . إلا أننا نجد التفرقة العنصرية والحاجز اللونى موجوداً بدون نص قانونى صريح : إن الإفريقيين هناك مواطنون «درجة ثانية» بينما يحتل الدرجة الأولى البرتغاليون ، والخلاسيون ، والخونة المتعاونون من الإفريقيين .

٤ — لا يمثل نظام عقود العمل العمل الإجبارى ركناً أساسياً فى التنظيم الحكومى كما يجرى فى أنجولا وباقى المستعمرات البرتغالية الإفريقية . وهذا ليس لتحول فى عواطف البرتغاليين وليس لعاطفة إنسانية أو نص قانونى ، إنما هو نتيجة مادية لوقائع الحياة الاقتصادية هناك فليس هناك نظم المزارع الاحتكارية ، والتى تحتاج إلى الأيدى العاملة الرخيصة أو نظام الرق المستتر . وعلى الرغم من ذلك تنتشر بعض المزارع الكبيرة التى يديرها إقطاعيون من البرتغال وبخاصة مزارع الموز ، ويمثل باقى البرتغاليين طبقة التجار الصغار ، ويشتغلون بالإدارة الحكومية .

* * *

٥ — بالنسبة للحركات الوطنية نجد أن آخر معلوماتنا هى حركات المقاومة القبلية التى قامت بها القبائل المسلمة وحاصرت «بياسو» عام ١٩١٤ واستعمل البرتغاليون فى تحطيمها أفظع الوسائل ، ومن يومها يحكمون البلاد حكماً إرهابياً عسكرياً ويطاردون أى تجمع وأى فكرة للنهوض بأحوال هذه القبائل .

وفى العدد السابق من مجلة نهضة إفريقية نجد دراسة للشاعر الإفريقى الأنجولى ماريو دى أندرادا عن الشعر الإفريقى فى اللغة البرتغالية ، ولعل هذا يعطينا فكرة عن المستوى الأدبى خاصة ، والفكرى بعامة فى المستعمرات البرتغالية .

* * *

وأخيراً : أبرز مؤلف الكتاب المشار إليه عدة صور عن حياة القبائل فى غينيا البرتغالية من أفظعها صورة زعيم لإحدى القبائل وقف عارياً كما ولدته أمه ووضع الغليون فى فمه وارتدى قبعة ، وكتب المؤلف يقول : إن الغليون والقبعة هما شعار الزعامة ودليل الرئاسة ، وإن الباقى دليل واضح على الحياة الإفريقية فى ظل المدنية البرتغالية . . ! !

« لقد ركز الاهتمام فى هذه الأيام على قضية الجزائر ، وأصبح كل إنسان يتعاطف مع هذا الشعب الذى يضحى بسخاء من أجل الحرية فى كل مكان . فهو لا يحارب السياسة الفرنسية فى بلاده فقط ، وإنما يحاربها فى كل مكان حتى فى فرنسا نفسها .

ولعلنا بكتاب « الجزائر الثائرة » لكوليت وفرانسيس جانسون . وترجمة الأساتذة محمد علوى الشريف ، محمد خليل فهمى ، هنرى يوسف سردار . . نستطيع أن نلقى ضوءاً باهراً على ظروف المقاومة العربية فى هذه البلاد ، التى تسير بخطى ثابتة على طريق النصر الدامى » .

* * *

وقد صدر الكتاب بمقدمة تحليلية للأستاذ فتحى رضوان جاء فيها «ولست أحب أن أطيل على القارئ بنقل فقرات متناثرة فى هذا الكتاب ، سيقرؤها ، وستجتمع بفضلها أمامه صورة ليس أقبح منها ولا أسوأ ، ولا أكثر صدقاً وانطباقاً على الواقع . . . وإنما أحب أن أنبه إلى أن هذه الإبادة الجماعية التى عمد إليها « الاستخراب » الفرنسى كانت أهون أثراً ، وأكثر رحمة من الإبادة البطيئة الطويلة التى اختارها فى ميدان الاقتصاد والاجتماع . فقد كانت الإبادة الأولى كالذبح بسكين حاد حام يجهز على الفريسة فى الحال ، أما الإبادة الأخرى فقد كانت بمثابة نزع الأعضاء من الجسد الحى . عضواً عضواً بلا تخدير ، فقد قرر الفرنسيون أن يجعلوا من الجزائر مستودعاً لحثالاتهم وأشرارهم وأفاقيهم وكل من لفظه المجتمع الفرنسى . وقد قال أحد الفرنسيين : إنه قد استجاب لدعوة الحكومة للذهاب إلى الجزائر : كل من تحدثه نفسه بأنه من غير المرغوب فيهم فى فرنسا . ومن نزلاء اللىمان ، ومن الشحاذين و ٩٠٠ ألف من اليتامى اللقطاء الضالين ، وقد أطلقت الإدارة الفرنسية فى الجزائر لهؤلاء الأفاقين والمجرمين والضائعين حرية الاستيلاء على الأرض والمضاربة عليها » .

. . فتاريخ الجزائر الذى يرتبط بالأوضاع المعاصرة يرجع إلى عام ١٥١٥ م حينما قام تشكيل مستقل باسم ولايتى « الجزائر » و « تونس » ، وكان هذا بعد أن تخلصت البلاد من السيطرة البيزنطية ، ومن قبلها سيطرة قرطاجنة ، ومهما يكن من شئ فنحن نراها تقع تحت السيطرة العثمانية عام ١٥٨٧ ، ثم نراها تنفصل عن هذه السيطرة ، وتصبح لها حدود ، وسيادة ،

وشخصية دولية معترف بها من بلاد كثيرة كإنجلترا ، وهولندة ، وأمريكا ، رغم ما يردده القادة الفرنسيون من أنه « ليست هناك دولة جزائرية » ، ولقد كان يقف على قمة التنظيم الحكومى هناك « الداى » يعاونه عدة وزراء ، ولعله ليس من الغريب أن نذكر أن جميع النقود الأجنبية كانت تلقى لها سوقاً رائجة فى الجزائر على أساس النقد الجزائرى ، وأن الجزائر فى عام ١٨٠٢ كانت تملك قوة ضخمة ضاربة فى البحر ، مكونة من ست وستين سفينة حربية ، كل واحدة منها مزودة بعدد من المدافع يتراوح بين ٢٥ ، ٨٠ مدفعاً ، وقد ظل هذا الأسطول حتى عام ١٨٢٧ يسيطر سيطرة تامة على البحر الأبيض المتوسط .

ثم كانت عملية التدخل المتعمدة من فرنسا ، بعد أن مدت يدها إلى الجزائر أكثر من مرة ، فقد منحت فرنسا كل التسهيلات لشراء كميات كبيرة من القمح ، كما أقرضت كذلك حكومة الديركتوار Directoire عام ١٧٩٦ ، مليونا من الفرنكات بدون فوائد لشراء ما يحتاجون من قمح البلاد ، وقد تم فعلا الحصول على كميات من القمح تزيد على المبلغ المخصص لهم فى القرض ، ولكن ميعاد التسليم قد مضى عليه العام بعد العام ، والحكومة الفرنسية تماطل ، وتطالب بخفض المبلغ المقرر من ١٨ مليوناً إلى ٧ ملايين فرنك ، ثم خصمت من هذا المبلغ المتبقى مبلغاً آخر ادعت أنه دين لبعض الفرنسيين على أهل البلاد ، وقد آلم هذا « الداى » واضطر إلى مواجهة القنصل الفرنسى ، وتذكيره بحقيقة بلاده ، وكان أن رد عليه « إن حكومتى لن تكتب لك ولا فائدة من ذلك » ، فما كان من « الداى » إلا أن وقف غاضباً ثم طلب منه مغادرة مجلسه ولما لم يستجب القنصل لهذا الأمر هوى عليه « الداى » بمنشته ، ومن هذا اليوم دخلت هذه « المنشة » التاريخ ، فقد كانت « القشرة السطحية » التى أظهرت من تحتها النوايا الفرنسية القديمة فى ضم هذه البلاد ، فمنذ عهد الإمبراطور نابليون وهناك خريطة لمدينة الجزائر وحصونها فى فرنسا ، وما أصدق قول « مترنيخ » حين عبر عن هذه المأساة بقوله « إنه لا يمكن أن يصرف المرء مائة مليون فرنك ، وأن يعرض حياة ٤٠,٠٠٠ رجل للخطر من أجل ضربة منشة » ، كما وضحت نيـــة الملك شارل العاشر حين أكد أن العمل فى الجزائر كان بقصد « إنشاء مستعمرة هامة فى شمالى إفريقية » .

كما جاء فى قول بعضهم « لقد صار من العسير على فرنسا أن تتراجع بعد أن فتحت الجزائر فتحاً باركته المسيحية جمعاء » ، وقولهم « إننا بغزونا الجزائر إنما نحرص على عدم وقوع تلك البلاد فى قبضة قوم آخرين ،

وإننا إذ نقدم كل هذه التضحيات إنما نفعل ذلك فى سبيل المحافظة على هذه البلاد فقط » وقولهم « إننا نخلق فى الجزائر أمة لن تعرف المدنية بدوننا . . أليس من واجبنا أن نحمل شعب الجزائر على تعرف العقائد الفرنسية حتى يلمس الجزائريون السعادة الروحية التى يهيئها المستقبل لشعب فرنسا » ، وهكذا كان أمر اغتيال حرية الجزائر مدبراً بدقة . وبتصميم . ومن وقت بعيد .

* * *

ولكن البلاد لم تستسلم طائعة . ولم تقبل الزوبان فى هذا المجتمع الغريب ، ومن هنا أخذت تدق فوق قلب الدولة الغازية بعنف وشدة – كأنها ساعة دقيقة – حتى أحست فرنسا أخيراً أنها تخسر ببقائها فى هذه البلاد ، رغم القوانين التى ارتجلتها ، والمحاولات المستمرة لتهدئة المواطنين بها ، حتى لم تجد أمامها إلا تسليم أمر هذه البلاد إلى العسكريين ، وأصبحوا يعتبرونها « جبهة » مفتوحة تستلزم الإمدادات المتوالية ، وفى هذه الجبهة استباح العسكريون لأنفسهم ما لا يباح فى حرب شريفة ، ذلك لأنهم وضعوا شرف فرنسا فى كفة ، واستقلال البلاد فى كفة أخرى ، ومن هنا قاموا بعمليات إبادة جماعية ، ويكفى للتدليل على هذا واحد من تقريراتهم الرسمية التى تقول بشأن إبادة قبيلة كاملة : « إنه بناء على تعليمات الجنرال «روفيجو» خرجت قوة من الجنود من مدينة الجزائر فى ليل ٦ من أبريل عام ١٨٣٢ ، وانقضت قبيل الفجر على أفراد القبيلة وهم نيام تحت خيامهم . فذبحتهم جميعاً دون أن يستطيع أحد منهم الدفاع عن نفسه . وقد لقى الجميع حتفهم بغير ما تمييز فى الأعمار والأجناس ، وعاد الفرسان الفرنسيون من هذه الحملة المشينة (طبق الأصل) وهم يحملون رءوس القتلى على أسنة رماحهم ! » .

وقد أصبحت عمليات القتل فى الجزائر مما يُتباهى به فقد كتبت إحدى الجرائد الفرنسية فى أكتوبر من عام ١٨٣٦ « أرسل إلى هنا عشرون رأساً ، وقد بلغ عدد الرءوس الآن ثمانية وستين رأساً وصلت كلها إلى المعسكر وهى معلقة على سناكى البنادق . إنها لصفقة عظيمة ، وبداية طيبة تفتح لنا الطريق »

وقد وصل بهم الغدر حداً جعل الجنرال شانجارنييه يقول : « إن رجالى قد وجدوا التسلية فى قطع رقاب الوطنيين من رجال القبائل الثائرة فى بلدتى الحراش وبورقيقة » ، كما جاء فى تقرير رسمى « إن كل الماشية قد بيعت إلى قنصل الدانمارك ، وعرض باقى الغنيمة فى سوق باب عزون حيث كان المشاهد يرى أساور النساء ما زالت تحيط بمعاصم مقطوعة ، وأقراطاً تتدلى من قطع لحم آدمى ! وقد بيعت هذه المصوغات ، ووزع ثمنها على حامليها ،

وفى ليل ذلك اليوم أصدر البوليس أوامره إلى أهل المدينة بإضاءة الأنوار فى حوانيتهم علامة على الابتهاج ! » واستمرت عمليات الإبادة فى وحشية ، ولكن الشعب لم يتململ ، ولم ييأس من أن له الغد ، وأن بلاده يجب أن تتمتع بالحرية كاملة . فلم تدمره هذه العمليات الوحشية ، ولم يأمل فى لجان التحقيق التى جاءت لتهدئ من ثائرته ، ولم يأبه لقرار الجنرال «دوويه ديرولون» الذى صرح فيه بإدخال المسلمين فى الجنسية الفرنسية ذلك لأن هذا الشعب كان يعرف أنه القوة الحقيقية فى البلاد ، وسرعان ما تجسدت هذه القوة فى شخصية زعيم شاب هو السلطان «عبد القادر» الذى عرف كيف يرد كرامة بلاده . وينتقم من هؤلاء الطغاة بفضل معرفته الواعية بطبيعة الوطن ، وبتجميعه العرب تحت شعاراته ، وأخيراً بإيمانه ببلاده ، وقد بدأ حياته المكافحة بضربات مذهلة إلى الجنرال « دميشيل » ، مما دعا هذا الأخير إلى أن يعقد معه معاهدة يعترف فيها له بالإمارة ، وبقدر من السيادة ، ولكن فرنسا لم تكن ترى هذا الرأى ، وكانت تطلب منه حمله أسيراً إليها ، وحين أدركت توقيع المعاهدة ، وأنها أمام خصم عنيد سلمت على أمل أن يصبح واحداً من صنائعها بما تغدقه عليه من مظاهر التكريم الكاذبة ، ولكن فرنسا لم تدرك من هذا شيئاً ، ولذا نراها تنزل إلى الميدان بحقد وغضب ، وعزم على تسلم البلاد ، وقد تم لها ما أرادت على الأشلاء الجزائرية ، وفى ضوء الحرائق التى كانت تشعلها فى كل مكان ، وأشجار البرتقال التى كانت تقلع ثم يلقى بها كقتلى كذلك .. وعلى أطراف البلاد كانت تدفع بالآلاف إلى جبال الأطلس حيث قضوا نحبهم فوق الثلوج ، وفوق الذكريات الحزينة التى كانت تغمر مآقيهم بالدموع !

* * *

وقد لاقت هذه الحملات الظالمة مؤيدين وأعواناً لها فى فرنسا ، فأصبح من الأمور العادية أن يتحدث الناس فى مجالسهم عن هذه الحرب . وعن عدالتها ما دامت باسم فرنسا ! ووجد من يقول باسم هؤلاء بأنه ليس من المهم فى شىء أن تخرج فرنسا أحياناً فى سياستها عن حدود الأخلاق ، وأن تلوك سيرتها السيئة الألسن ، لأن المهم أن تنشئ فرنسا مستعمرة يكتب لها البقاء ، وأن تحمل المناطق البربرية على اعتناق المدنية الأوروبية ، فإذا قدر لعمل من الأعمال أن يتم فى صالح الإنسانية فإن أفضل الطرق له هو أقصرها إليه ، ولقد كان أقصر الطرق فى نظرهم هو تدمير الشعب ، واستغلاله وتجويعه ، ونشر الخلافات الداخلية بين صفوفه.. بين الزعماء بعضهم بعضاً ، وبين العرب والقبائل فى البلاد ، وبين أهل التلال وسكان الصحارى .

وقد تم لهم هذا ، واستطاعوا أن يوجهوا للشعب ضربات مذهلة بعد أن سقطت الراية من يد « عبد القادر » ، وأن يحملوا سلطان مراكش على أن يتخلى عنه ، وحين لم يجد أمامه إلا التسليم ، والنفى ، ثم الموت فى دمشق ، كانت المقاومة العربية قد انهار جانب كبير منها . وبقى عليها أن تستعيد هذه القوة المنهارة لتفرض سلطانها على الوطن !

على أن الفرنسيين بعد أن استقر الحال بهم بدأوا يفكرون « ماذا يفعلون فى الجزائر ؟ » حتى لقد سموا الإحدى عشرة سنة الأولى بالاستعمار الحر لأنهم أطلقوا لكل فرد منهم الحرية فى عمل أى شىء بالجزائر ، وبخاصة التجار المرابين الذى جاءوا فى أعقاب الغزو والذين يمكن القول بأنهم دمروا اقتصاد البلاد ، فقد تعاقدوا على تسليم بضائع لا وجود لها ، وباعوا أرضاً لا يملكونها لأكثر من مشتر ، وحصدوا أشجار الفاكهة وباعوها كأخشاب للتدفئة ، وأوهموا الناس بإنشاء شركات ثم صفوها .

وقد أغرى هذا الكسب السريع الأوروبيين بعامة ، والفرنسيين بخاصة فنرى سيلا يفد على البلاد من غير المرغوب فيهم ، ومن المسجونين ، والشحاذين ، و ٩٠٠,٠٠٠ إنسان أصلهم من اليتامى واللقطاء ، وإلى جانب هذا نرى امتهاناً للإسلام فى هذه البلاد إذ أن القائد « روفيجو » سرعان ما أعلن أنه يريد تحويل أجمل مساجد الجزائر إلى كنائس . وحين أراد البدء بجامع « القشاوة » نرى الناس يعتصمون بهذا المسجد ، فيجتمع بداخله أربعة آلاف مسلم ليمنعوا تراث الإسلام من هذا العبث ، ولكن الفرنسيين سرعان ما أحاطوا بالمسجد ، ثم اقتحموه ، ثم ذبحوا الموجودين فيه .. الذين كانت تتناثر رءوسهم وهى تحمل اسم الله ،

وسرعان ما تحول هذا المسجد إلى « كاتدرائية الجزائر » ، ثم تحول من بعده كذلك مسجد«القصبة»الذى سرعان ما أقام فيه القساوسة صلاة لتمجيد « إله الجيوش » ، بل إن بعض القساوسة كسوشيه قاد الحملة ضد الإسلام ، وتغنى بتحويل المساجد إلى كنائس ، ودعا فى كتابه المسمى « رسائل مفيدة ومشوقة عن الجزائر » إلى المضاعفة من عدد الصلبان والكنائس فى الجزائر ، بل نراه يدعو الحاكم « بوجو » ليقول من على منبر إسلامى فى الكنيسة « إن آخر أيام الإسلام قد دنت وفى خلال العشرين عاماً لن يكون للجزائر إله غير المسيح ، ونحن إذا أمكننا أن نشك فى أن هذه الأرض تملكها فرنسا فلا يمكننا أن نشك على أى حال فى أنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد ، أما العرب فلن يكونوا ملكاً لفرنسا إلا إذا أصبحوا مسيحيين جميعاً » .

والحاكم «بوجو» هذا هو الذى تحول « الاستعمار الحر » على يديه إلى

« الاستعمار الرسمي الموجه من باريس » ثم ارتفعت الأصوات المنادية بإدماج الجزائر فى فرنسا ، وأصبح للجزائر نواب فى البرلمان الفرنسى ، وأصبحت الجزائر فى نظر الإمبراطور نابليون الثالث مملكة عربية . ومستعمرة أوروبية ومعسكراً فرنسياً . وأخيراً قنبلة عالقة برجل فرنسا ، ثم انتصرت الدعوة التى تقول بتغليب الحكم المدنى على الحكم الفرنسى فى الجزائر ، بعد التحقيق فى مجاعة ذهب ضحيتها ، ٥٠٠,٠٠٠ مسلم . وسميت هذه المرحلة « مرحلة التهدئة » .

* * *

وفى ظلال هذا العسف رأينا فى عام ١٩١٢ قيام « الحزب الجزائرى الفتى » الذى دعا إلى رفع المظالم عن البلاد . وقد كان على قمة هذا التنظيم أحد أحفاد السلطان عبد القادر ، ثم جماعة « علماء الجزائر » فى عام ١٩٣١ ، ثم حزب « الشعب الجزائرى » فى عام ١٩٣٧ ، ثم دعمت فكرة « الأمة الجزائرية » على يد « فرحات عباس » فى حزب الاتحاد الشعبى الجزائرى ، بمساعدة أصدقاء الدكتور بن جلول ، وحين انهزمت فرنسا فى الحرب العالمية الثانية رفع فرحات عباس « وثيقة مطالب الشعب الجزائرى » إلى الحاكم العام ، وبدأ الصراع على مستوى سياسى إلى جانب المستوى الكفاحى ، ثم انتهى فى عام ١٩٥١ إلى ما سمى بنظرية « المدرسة الاستعمارية الجديدة التى لخص خطوطها « جاك شيفالييه » فى قوله :

١ – إن الأمور فى الجزائر على غير ما يرام بعكس الذين يحاولون تغطية هذا على الرأى العام الفرنسى ، وهم فى الوقت نفسه يعدون زوارق الانقاذ للهرب بها من الجزائر .

٢ – إن أسباب الأزمة ذات طبيعة اقتصادية

٣ – إن النظام السياسى الذى يفرض على الجزائر ليس هو السبب فى دفع البلاد إلى المطالبة بحقها ، وكل ما يتطلبه هذا النظام هو تغذيته بدماء جديدة .

وقد دفع كل هذا إلى قيام الثورة الجزائرية المنظمة فى عام ١٩٥٤ . وإلى ظهور « جيش التحرير الوطنى الجزائرى كنقطة ثقل جديدة فى الميدان ، فهو يهاجم القوافل العسكرية ، ويوقع الدوريات فى كمائن ، ويضرم النار فى المخازن ، ويقضى على الخونة فى ظل ما يسمى « بشرف الثورة » فهو لا يعطى لنفسه الحق — كما يفعل الفرنسيون — فى قتل الأطفال والعجائز والمسالمين ، أو التعرض لأماكن العبادة لأن هدفه الحقيقى هو تدمير « الحكم العسكرى » الموجود فى البلاد ، هذا هو الهدف الأول الذى يؤدى إلى تخليص البلاد من بين معداتهم الحربية التى يلقون ظلها على كل شىء موجود هناك .

.. ورغم أن الفرنسيين هناك يحاربون بخسة ، ويعتقلون الزعماء عن طريق عمليات الغدر إلا أن الثورة تكسب فى كل يوم انتصارات جديدة ، وقد

ارتاح الشعب لما تقوم به « جبهة التحرير الوطنى » ، واعتبرها الأمل الوحيد الذى لن يتحقق استقلال البلاد إلا على يديه . بعد أن جربوا المهادنة ، وسياسة الإصلاحات السطحية . ورأوا أنه لا أمل للوصول إلى شاطئ الحرية إلا بعد أن يخوضوا بحر الدم بقوة وإصرار ، ذلك لأنهم وجدوا أنفسهم أمام عدة جبهات لا بد من اقتحامها : فهم يحاربون غرور فرنسا . ومركب النقص الذى يلح على عدم ترك مكان من إمبراطوريتها إلا على أطراف الرماح . وبخاصة فى الجزائريين الذين يحاربون المستوطنين ، والتجار . وأصحاب المصالح الذين يعيشون داخل أفكار خاطئة . ولا يؤمنون إلا بمصالحهم الخاصة . بصرف النظر عن مصالح وطن كبير يسمى « الجزائر » . ويحاربوا عمليات الانقسام بين عمليات الجبهات الوطنية . ثم — وهذا هو الأهم — يحاربوا من أجل الوطن الذى استبيحت كرامته ، وأنه يجب أن يعاد إليه مجده . ويبنى من جديد بأيد جزائرية ، وفكر جزائرى داخل الإطار العربى الكبير .

وقد عبر عن هذه الفلسفة الجديدة واحد من زعماء الثورة فى قوله : « إننا لا نحقد البتة ، على المستوطنين لكونهم فرنسيين ، بل إن نفراً منهم قدموا لنا خدمات جليلة لا ننساها ، وإنما نحقد على النظم القائمة حالياً فحسب . وبلادنا إذ هى فى حاجة إلى فنيين ومهندسين لن تتردد فى اللجوء إلى هؤلاء الأوروبيين بشرط أن يقبل هؤلاء المساواة والديمقراطية صادقين .

وقصارى القول أننا جزائريون ، ونريد أن يعترف الفرنسيون بشخصيتنا القومية ، ومن ثم لا يجوز التفكير فى أى حل أساسه الإدماج . والأمر فى نظرنا إنما هو مسألة عزة وكرامة » .

وهكذا تقوم أسس هذه المعركة على الشجاعة . والفهم ، وكرامة الإنسان . ومقاومة الفكرة التى تقول بأن على فرنسا « هضم الجزائر » بفكرة أخرى مؤداها أن الجزائر هى التى ستهضم الفرنسيين فى أرضها . ما داموا يصرون على الإقامة داخل « المعدة الجزائرية » . ذلك لأن عامل الزمن ليس فى صالح فرنسا ، ولأن الرأى العام العالمى قد أصبح يضغط على فرنسا ، ويندد بوحشيتها ، ويواجهها كل مكان بأن الجزائر لا بد أن تكون للجزائريين ، حتى الحلفاء لفرنسا بدأوا يتململون من هذه السياسة التى تختطها هناك ، ولأن إمدادات « حلف الأطلنطى » لم تعد تكفى فى قمع الثورة ؛ ولأن هناك تصدعاً فى الجبهة الفرنسية من الداخل ، فهناك ذوى الضمائر — وبخاصة رجال الفكر — يلحون بأنه لا جدوى من البقاء فى الجزائر . وأن على فرنسا أن تنسحب إلى داخل حدودها ، ثم أخيراً لأن جيش التحرير

قد أصبح صاحب الكلمة العليا فى البلاد ، ومن ورائه الشعب والزعماء .

على أن فرنسا تحارب الآن بسلاح كاذب هو سلاح محاولة تصديع القيادات فى البلاد ولعل ما يدلل على هذا قولهم « إننا فى حرب ، ونريد أن نتفق على وقف إطلاق النار ، فلنتباحث إذن فى هذا الأمر .. ولن نتجاهل تماماً بطبيعة الحال خصومنا ، وإنما سنخصص لهم مكاناً إلى جانب غيرهم من ذوى الأهلية فى تمثيل الشعب الجزائرى بمختلف اتجاهاته وميوله فليس لنا — نحن الفرنسيين الديمقراطيين المناهضين للاستعمار — أن نتدخل فى شئون الجزائريين ، ونفرض عليهم بطريقة تعسفية من ينطق باسمهم ، إذ ليس لفرنسا أن تصطفى جبهة التحرير لتنوب عنهم ، وما دامت هناك اتجاهات أخرى فعليها أن تشترك فى فى مباحثاتها » .

ففرنسا تقصد من وراء كل هذا — كما حدث أخيراً فى الدعوة إلى المفاوضات الأخيرة بجنيف — إلى خلق الفرقة . وزعزعة الإجماع ، والوحدة بالبلاد ، وإلى الاستعانة « بمصالى الحاج » زعيم حزب الشعب الجزائرى الذى قدم مصالحه الخاصة على مصالح الشعب ، وكأن هذا التنبؤ من المؤلفين قد صدق ، فمع أن الكتاب قد صدر من عدة سنوات إلا أنه وضع يدنا على ما حدث فعلا ، وإلى محاولة استعانة الفرنسيين الأخيرة بمصالى الحاج .

ويختم الكاتبان الفرنسيان الكتاب بقولهما « الواقع أنه يتعين علينا التسليم بدون إبطاء ، فنحن الذين أشعلنا نيران هذه الحرب ، وما كانت هذه الحرب لتقوم لو أننا لم نرض عن تولى حفنة من الرجال الأمر ، وقيام إدارة فاسدة عفنة بتصريف أمـــور هذا البلد ، وإيقاعها الظلم والضيم به ردحاً طويلا من الزمن ، وقد اتخذ هذا الظلم البشع وجوهاً متعددة . كان كل منها كفيلا بأن يثير أعمق اشمئزاز وأكبر استنكار .

أجل وجب علينا الرضوخ للعنف لأننا نضع بذلك حداً للعنف الذى اشتركنا جميعاً فى مسئولية قيامه . ولنخلص فرنسيي الجزائر من المصير المظلم الذى ينتظرهم . فقد ارتكبنا من الآثام مثلما اقترفوا لننقذ هؤلاء الإخوة بسرعة ، ولنلتفت بعد ذلك إلى تطهير فرنسا نفسها ونحررها من شرذمة الطغاة التى سيطرت على أمورها ، وتحكمت فى مصيرها .

.. هذا مجمل ما جاء فى هذا الكتاب القيم المخلص « لكوليت ، وفرانسيس جانسون » وهما — قبل كل شيء — فرنسيان . ولكنها الحقيقة !

شخصية العدد

«علي محسن»

يطلقون على بلاده أن الرياح هى التى كتبت تاريخها ، فمنذ القدم والرياح الموسمية الشرقية تدفع العرب إلى هذه البلاد ، حيث كانوا يقصدونها بالرماح والفئوس ، والخناجر ، والزجاج ، والقمح ، ثم ترجع مثقلة بالعاج ، وقرن الخرتيت ، وصدف السلاحف وزيت جوز الهند ، وما زال المتجول خلالها إلى اليوم يرى بعض هؤلاء البحارة الذين لوحتهم الشمس ، وزلزلتهم الأمواج ، وعذبتهم ذكرياتهم التى تركوها وشيكاً فى عمان ، وحضرموت ، فالعربى يحمل فى قلبه دائماً مكاناً أثيراً لنقطة التجمع الأولى ، ومهما يتجول ، ويتعمق ، ويبتعد يحمل فى وجدانه « جزيرة عربية ! » .

وإلى هؤلاء العرب الذين تخطوا المحيط الهندى ، وتجاوزوه إلى زنجبار يرجع النسب البعيد لهذا الزعيم الذى يؤكد دور الحرية فى زنجبار التى تقع على بعد خمسة وعشرين ميلا من الساحل الإفريقى الشرقى ، والدور العظيم لهذا الرجل أنه لم يقف كظاهرة ناتئة فى هذه البلاد التى تنادى باسم العرب فقط ، كما وقف الزعماء الآخرون هناك ينادون بأسماء قومياتهم ، وإنما كانت جهوده تتلاقى عند خلق الكيان الزنجبارى الموحد لهذه السلطنة التى تخضع للحماية البريطانية ، والتى قصت أطرافها حتى أصبحت — بعد امتدادها الكبير — تتكون من جزيرتى زنجبار ، وبمبا ، وبعض الجزر الصغيرة الأخرى وهذا ما دعا «السلطان» إلى قبول الحماية البريطانية عام ١٨٩٠ لبقاء عرشه ، والذى دعاه كذلك إلى تأجير شريط كبير يمتد على ساحل كينيا إلى الإدارة الكينية ، ولم يمنع الدموع من الانحدار ظهور علم « السلطان » الأحمر مرفوعاً على هذه المنطقة لأن كل من يعيش فى هذه البلاد يحس بأن هذا الكيان تنقصه أعضاء كثيرة بترت منه ، وأنه هو نفسه لا يحس « بالتكامل الوطنى » الذى يرى من حقه أن يعيش فى ضميره !

وسلسلة حياة هذا الزعيم — الذى ولد فى العاشر من يناير عام ١٩١٦ —

تعتبر امتداداً لهذا الشعور الذى لم يفارقه فى يوم من الأيام ، ولقد دافع هذا الشعور عن نفسه بإصراره الجاد على المعرفة حتى لنراه يكون مع زملائه — فى المدرسة الثانوية — جماعة تسمى « جماعة النمل » التى جعلت من أهدافها قراءة كل ما يصل إلى أيديها من ثقافة ، ثم نشر هذه الثقافة بين المواطنين . ولما كان نبع الثقافة هناك راكداً نراه يحدث والده — وكان معسراً فى هذه الفترة — على حياء بأنه يرغب فى التزود من المعرفة خارج بلاده . وتتلاقى رغبة كل منهما فى الذهاب إلى القاهرة حيث الجامع الأزهر . وإن كان ثمة اختلاف فى الهدف . فقد كان « على محسن » يسمع أن الأزهر يسهم فى الأحداث فى مصر ، وأن رجالاته يديرون دفة السياسة فى البلاد . ومن هنا كان سر إقباله على الأزهر . أما والده فقد كان يرى فيه النور الذى يجب على كل مسلم أن يسعى إليه ، وأن يغمس أهدابه فى إشراقه حتى يتطهر ، ويصبح شيئاً روحانياً !

ويبيت الابن على فرحة بلقاء مصر . أما الوالد فينام مجهداً يفكر فى توفير المال اللازم لسفر ابنه . ويصبحان وفى عين كل منهما نظرات الوداع ، ويخرج على يودع الحياة من حوله ، وبعيداً عن داره يجد الحقول التى لا تنتهى من القرنفل والتى كانت قد احمرت أغلفة براعمه . والتى أصبحت على أهبة الاستعداد ، لأن الحصاد يجب أن يتم هناك قبل أن تزهر البراعم .

وغير بعيد يرى أسرة سعيدة قد بكرت لهذا النوع من الحصاد ، فيبتسم فى نفسه للنساء والأطفال الذين كانوا يقتطفون البراعم القريبة الفروع ، وتكبر ابتسامته حينما يرى شاباً يصعد على السلم ، ورجلا يتسلق جذع شجرة ليصل إلى عناقيد براعم القرنفل بوساطة عصا تنتهى بخطاف ! وتشتد حرارة الشمس ، فيهم بالرجوع إلى بيته ، ولكنه يبطئ الخطو حين يسمع أغنية تتحدث عن « جوز الهند » الذى يعتبر المحصول الثانى للبلاد بعد القرنفل . ويصغى . وما أشد ما كان إصغائه لهذه الأغنية التى كانت تقول :

يا جوز الهند
يا مرتفعاً كالرجال الكبار
لست هنا فقط فى الحقول
ولكنك تحت أقدامنا الحصر . وفى يدنا السلال
وعلى سقفنا الغطاء ، وفى إينائنا العصير
وعلى مائدتنا الطعام ، وفى جرتنا الزيت
يا جوز الهند
يا مرتفعاً كالرجال الكبار
إنك فى الحبل الذى يلهو به الطفل
وفى الحبل الذى يثقل والده حين يعود
. . . حين يعود إليه مغطى بالعرق ، وبين ساعديه ثمرة كده
يا جوز الهند
يا مرتفعاً كالرجال الكبار ! »

وتنتهى الأغنية فى رفق ، وحنان ، ويحس أنه يعيش قبل سفره حيــاة

اعمق مما كان يعيش من قبل . فعن قريب سيفارق هذه الأزقة الضيقة ، والمنازل المتقاربة . والأبواب المزينة بالرسوم العربية . وباعة القهوة الذين يعلنون عنها بصاجات كبيرة فى أيديهم و « الكنزس »[1] والنساء المحجبات ، وبيت العجائب القريب من قصر السلطان . والقلعة العربية القديمة . والحدائق الاستوائيــة . والأرض المرجانية المحدبة كما يسمونها . ويرى « تشم تشم » و « بويربر » . وفى الطريق يرى على « مدرسته » فيقف عندها بحنان . ويراه الناظر الإنجليزى فيدعوه . ثم يسأله عن مشاريعه فى المستقبل . وحين يذكر له أنه سيكمل تعليمه فى الأزهر ، يطلب منه أن يذكر لوالده أنه سيزوره غداً ، وتتحقق الزيارة . ثم تنتهى بكلمة غريبة على سمعه ، وهو أنه سيتخصص فى التعليم الزراعى فى كلية « مكريرى » بأوغندة على نفقة الحكومة ، ويرفع الابن نظرة دامعة إلى والده . ولكنه يسمع صوته حزيناً مشفقاً ، ويدرك أن والده لم يوفق فى الحصول على المال اللازم لسفره إلى مصر فيطرق ، ثم يبتعد عن والده حتى لا يشعره هو الآخر بالألم مضاعفاً .

وتنتهى دراسة « على » فى أوغندة ، ويعود ليعمل فى بلاده مهندساً مدة خمس سنوات ، ثم يتفرغ للسياسة التى نراه يأخذ طريقه إليها عن طريق الصحافة . فنراه يعمل فى صحيفة « موزن جوزى[1] » التى تصدر ، بالسواحيلية . والإنجليزية . ثم يصل إلى منصب رئيس التحرير ، ثم يعين فى المجلس التشريعى عام ١٩٥١ ممثلا للعرب . .

ونراه فى عام ١٩٥٤ يتقــدم للحكومة بالمطالب الآتية :

١ — التقدم السياسى لزنجبار ، وتغيير الدستور .
٢ — حق الشعب فى انتخاب ممثليه
٣ — إلغاء الطائفية من المعركة .
٤ — تأليف حكومة دستورية ، تستمد دستورها من واقع الشعب .
٥ — الاستقلال الاقتصادى .
٦ — النظر فى عودة ساحل كينيا .

وحين لم تستجب الحكومة لهذه المبادئ ، نرى « الكتلة العربية » تقاطع كل التكتلات الحكومية ، وتأخذ فى إعلان رأيها عن طريق صحيفة جديدة تسمى « الفلق » ، ثم يسافر إلى إنجلترا لعرض قضايا بلاده على المسئولين هناك ، ثم يعود إلى بلاده حيث يتزعم « الحزب الوطنى » بعد أن أدمجت فيه الجمعية العربية ، ووضعت قوانين بحيث يمد ذراعيه لكل أبناء زنجبار ، وزيادة فى هذا التأكيد أختير « فواى كتويل » الإفريقى الأصل راعياً لهذا الحزب ،

---

(١) ملابس عربية فضفاضة .

(١) كلمة سواحيلية معناها « المرشد »

حتى يمكن ضرب الطائفية المنتشرة فى البلاد .

ولكن الإنجليز أدركوا خطورة هذا الحزب ، فدفعوا فى مواجهته حزباً آخر مؤيداً منهم هو حزب « اتحاد إفريقية الشيرازية » ، كما دفعوا كذلك بالهنود إلى المعركة ، وأخذوا يذيعون أن « الحزب الوطنى » يقوم على مساندة العرب وحدهم ، وأن العرب هم تجار الرقيق الذين يجب أن ينكرهم ، الإفريقيون . وأن مصر وراء هذا التكتل . وهكذا تعرضت هذه الدعوة الصادقـــة بوساطة إذاعـــة بريطانيا وجرائدها فى تنجانيقا — وكلاهما مسموع ومقروء فى زنجبار — للتشويه ، وفى الوقت نفسه حمت إنجلترا المعارضين لهذا الحزب . ووقفت من دونهم ، وجاءت فترة الانتخاب . وكان أن فاز اتحاد إفريقية الشرازى بـ ٣٧٪ من الأصوات . والمستقلون والهنود بـ ٣٢٪ والحزب الوطنى بـ ٣١٪ ، ولكن حين وضحت الحقيقة — بعد فوات الأوان — أصبح الزنجباريون يساندون هذا الحزب ويؤكدون أن مستقبل الآن مرهون بدستوره ، وأن السياسة التى يسير عليها من أنه يجب أن يكون الجميع ، « زنجباريين » ، هى السياسة التى يتوقف عليها تطور البلاد ، وأنها هى التى يجب أن ترفرف كالراية على جميع الرءوس !

وفى الوقت نفسه أحس المواطنون هناك أن عدوهم الحقيقى هو الاستعمار ، وأن مصر تقف إلى جوارهم ، وقد ظهر الحماس لمصر حين وقع الاعتداء الثلاثى ، فقد كان الشعب هناك يتجمع فى مظاهرات ، ثم يبتهل إلى الله ويرفع صوته بإخلاص من أجل مصر ، وكان من دعائهم « إن مصر هى الإسلام ، وإذا ذهبت مصر ذهب الإسلام ! ! »

والغد كفيل بانتصار هذا الشعب الذى تجمعت طوائفه حول « على محسن » ولن يطول الوقت الذى سنسمع فيه أن زنجبار للزنجباريين ، ونشهد فيه — فى الوقت نفسه — الأيدى السمراء تمتد من الشرق فى القارة لتعانق أخوات لها فى الجمهورية العربية المتحدة .. على حب . . وسلام .

الأسباب الظاهرية للاضطهاد العنصري

بقلم : طلعت أحمد ابراهيم

ازداد التعصب اللونى زيادة كبيرة منذ بداية استعمار إفريقية واكتشاف أمريكا . وبدأ المستعمرون الأوروبيون يروجون لفكرة « السادة » ، واستندوا فى ذلك للاختلافات فى الصفات البشرية — التى تيسر لكل جنس التلاؤم مع البيئة التى يعيش فيها — واعتبروا أنفسهم جنس الله المختار .

وقد فسر هؤلاء المستعمرون هذه الاختلافات الظاهرية بين الأجناس على أنها دلالة على اختلاف فى العقلية والمزاج ، ولكن العلم أثبت خطل هذا الادعاء ، الذى لا يستند إلا إلى أفكار الاستغلالية ، وسياسات اقتصادية واجتماعية تخدم المصالح الاستعمارية .
فقد اعتاد الرجل الأبيض أن يعيش فى مستوى معيشى مرتفع ، تكفله له أيد عاملة سوداء ، ومستعمرات غنية بثرواتها الطبيعية ، فرض على أهلها عزلة اجتماعية ، يمارسون فيها المهن الدنيا التى يتعالى الأوروبى على الاشتغال بها ، لتظل الفروق بينهما واضحة ، مما يكفل للرجل الأبيض حياة اقتصادية مرتفعة ، وهم فى ذلك يتخذون من المميزات البشرية والخوف من الاختلاط العنصرى ستارا يخفون وراءه السبب الحقيقى للمشكلة ، ويعمل الأوروبى للإبقاء على هذا الوضع بوسائل القمع والإرهاب كلها — وليست مذابح ٢١ مارس عام ١٩٦٠ فى اتحاد جنوب إفريقية ببعيدة عن الأذهان .

تمشياً مع هذه السياسة ، ادعى البعض أن درجة النمو العقلى والذكاء عند الملونين لا يظهر فيها اختلاف مع البيض فى السن المبكرة ، ولكن تفوق البيض يتضح فيما بعد ، بحكم أنه ينمو عقلياً لفترة أطول ، هذا بينما ينمو السود سريعاً ولكن فى سن مبكرة ، كما أنهم على درجة أقل من التكيف والتقدم .
فسر هؤلاء ذلك أنه أمر يتعلق بالاختلاف التشريحى والفسيولوجى يتكون فى جماجم الأجناس المختلفة ، بمعنى أن المخ لا يكون أمامه حيز لينمو به ونتيجة لذلك يكون النمو العقلى مستحيلاً . ولكن اختبارات الذكاء لفئات السن المختلفة ، قد أثبتت خطأ هذا الادعاء ، كما لم يثبت علمياً أن هناك صلة بين التكوين البيولوجى ومستوى ثقافة الشعوب ، ولكن يبدو أن الارتباط بين العوامل الجنسية

والعوامل العقلية يدل على أن البيئة الملائمة لها تأثير حسن على التطور الجسمى والعقلى للأطفال ، فإذا وضعت أى مجموعة من الزنوج أو من البيض فى بيئة ممتازة اقتصادياً وتربوياً – وهذا ما يحرمه البيض على السود – فإن نتائج الاختبارات العقلية تجنح للتحسن ، على حين أنه إذا عاشت أى من المجموعتين فى بيئة ذات مستوى منخفض فإن النتائج تبدو رديئة . ومما يدحض وجهة النظر القائلة بأن هناك جنساً يتفوق على آخر عقلياً أن اختبارات الذكاء أظهرت أن بعض غير الأوروبيين أكثر من بعض الأوروبيين ذكاء والعكس صحيح.

وعلى ذلك استبعد البيولوچيون والأنثروبولوچيون المميزات العقلية عند دراسة الأجناس ، التى تهتم بالمواصفات الطبيعية المعروفة مثل : طول القامة ، ولون البشرة والشعر ، والعيون ، وشكل الرأس ، والأنف ، والشفاة وقطاع الشعر وفصيلة الدم .

ولما كانت هذه الصفات جميعاً واضحة وظاهرة أمامنا ، ويمكن أن نميز جنساً عن آخر بوساطتها ، باستثناء فصيلة الدم ، نظراً لعدم وضوح هذا العامل وضوح المميزات البشرية الأخرى ، فقد ذهبوا فى تفسيره مذاهب خاطئة

ففى شهر فبراير من عام ١٩٥٨ وافق الكونجرس الأمريكى على المشروع الذى تقدم به السناتور « كيل سامون » والذى يقضى بوضع بطاقات على زجاجات حفظ الدم لتوضيح فصيلة وجنس الدم ، بحجة أن هذه وسيلة احتياطية للمحافظة على مقومات ومميزات كل جنس ، كما ادعى أن الدم الزنجى مصاب بجرثومة الانيميا التى لم يكتشف لها أى علاج بعد . ! !

ولكن يثبت العلم خطأ هذا الافتراء ، إذ ينقسم الناس – بغض النظر عن أجناسهم – إلى أربعة أنواع حسب المواد التى تحتويها خلاياهم الدموية الحمراء وهى : « ا » A ، « ب » B ، « ا ب » AB ، « و » O .

توصل العلماء إلى ذلك التقسيم عند ما اتضح أن نقل الدم يشكل خطراً على حياة الإنسان ، ما لم تكن الفصائل الدموية متوافقة

وقد تبين أنه لا يوجد جنس ينفرد بفصيلة دم خاصة ، مثال ذلك أن فصيلة الدم « و » التى ينتمى إليها نصف سكان إنجلترا ، نجدها بين ٩٠–١٠٠٪ من الهنود الأمريكيين ، بينما فصيلة الدم « ا ب » التى لا توجد بين الاستراليين الأصليين أو الهنود الأمريكيين وتندر فى بريطانيا ، نجدها بين أكثر من ١٠٪ من الأقزام الإفريقيين ، ونحو هذه النسبة من اليابانيين ، أما فصيلة الدم « ب » فتزداد كلما اتجهنا شرقاً عبر أوروبا . معنى ذلك أن الأوروبى قد يعطى دماء زنجية من فصيلة دمه نفسه ، ولكنه يتعرض للموت ، إذا نقلت إليه دماء أوروبية من فصيلة مختلفة .

نخلص من ذلك بأنه لا أساس للادعاءات الأوروبية القائلة بتفوق جنس على سائر الأجناس ، وتظهر حقيقة السياسة المناهضة للاختلاط العنصرى ، وتنمية الإحساس النفسى ، وشعور الكراهية والمقت الذى يتوارثه المستعمرون جيلاً بعد جيل ، حتى تظل لهم السيطرة والتفوق .

ضوء على نيجيريا

للأستاذ : عبد العظيم ملوك

كلمة نيجر كلمة لاتينية معناها الأسود ، وتطلق على النهر الذى ينبع من سفح إحدى جبال غينيا ، ويشق مجراه صاعداً إلى واحة الصحراء الكبرى وبلاد تمبكتو ، ثم ينحدر ليلتحق به نهر بنوى وتبلغ مسافته من منبعه إلى مصبه فى المحيط الأطلسى ألفين وخمسمائة ميل وهو ثانى الأنهار الأربعة المشهورة فى إفريقية التى هى النيل — النيجر — الكونغو — السنغال .

وكلمة نيجيريا معناها ما حول النيجر أو ما حول مصب النيجر وسكانها حوالى ٤٠ مليون نسمة فى رقعة مساحتها ٣٨٠ ميلا مربعاً .

وتنقسم نيجيريا إلى أربعة أقسام إدارية نظراً لاتساع رقعتها .

١ — الإقليم الشمالى الذى عاصمته كادونا
٢ — الإقليم الشرقى الذى عاصمته انياجون
٣ — الإقليم الغربى الذى عاصمته أبادن
٤ — منطقة لاجوس وعاصمتها لاجوس التى تعتبر عاصمة نيجيريا عامة .

ويربط العاصمة بالمدن الكبرى الداخلية خطوط مواصلات جوية ؛ كما تربطها خطوط عالمية بريطانية وفرنسية وهولندية وسويسرية وأمريكية .

وفى نيجيريا شبكة من الطرق المرصوفة يقدر طولها بنحو ٤٠ ألفاً من الأميال .

ولقد بدأ الاستعمار البريطانى ، لنيجيريا ، فى سنة ١٨٥٥ وذلك باعتراف دول أوروبا فى مؤتمر برلين فى ذلك العام بخضوعها للإنجليز . .

وقد بدأت نيجيريا كفاحها ضد المستعمر فى شكل أحزاب شعبية وحدت بين صفوفها تدعو إلى تحرير البلاد من أيد المستعمرين ، وكان أشهر هذه الأحزاب حزب مؤتمر شباب نيجيريا والكاميرون وحزب شباب شمال نيجيريا وحزب العمال . . . وبفضل اتحادها وتضامنها نالت نيجيريا استقلالها بعد جهاد طويل وكفاح مرير فى أكتوبر من سنة ١٩٦٠ .

ونظراً لوقوعها فى المنطقة الاستوائية فهى ذات فصلين متساويين فى الطول أولهما ممطر دائماً ، والثانى عاصف دائماً .

النهضة الاجتماعية :

ولنيجيريا تاريخ مجيد امتد إلى

أكثر من ألف عام، وحينما جاءها الإسلام عبر الصحراء من الشمال وعن طريق شرقي إفريقية من الشرق استوعب ملوكها الدين الجديد ومزجوا حضارتهم القومية بالإطار الإسلامي فازدهرت ونمت.

ومع الإسلام أقبلت إلى نيجيريا قبائل الهوسة والفولات، وما لبث أبناء هاتين القبيلتين أن احتلوا مراكز الصدارة في نيجيريا وقامت حركة إصلاح ديني على يدى «شيخو» وهو الشيخ عثمان دون فوديو سنة ١١٨٢ وبفضله انتشر الإسلام في نيجيريا..

وبرغم محاولات المستعمر تفتت وحدة نيجيريا وطمس معالمها وتغيير عاداتها إلا أنها ظلت متمسكة بهذه التقاليد، فنجد النظام الاجتماعي في نيجيريا يعتمد على النظام القبلي، وإن كانت الأمة الآن تنصهر في وحدة شاملة.

ويتكلم أبناء نيجيريا حوالى ٢٥٠ لغة منها الهوسة في الشمال ولغة اليوربا في الغرب ولغة الايبو في الإقليم الشرقي وتنتشر اللغة الإنجلزية هناك بين أبناء نيجيريا. أما اللغة العربية فهي تزحف بشدة على تلك اللغات. وذلك بفضل انتشار المدارس الإسلامية التي عني بإنشائها المسلمون لتعليم أبنائهم.

وتختلف عادات الزواج بالنسبة للأقاليم المختلفة:

ففي الإقليم الغربي والشرقي يحرم زواج الأقارب لأنه يؤدي إلى تخاصم القبائل المختلفة وقد ساد هذا الاعتقاد منذ العصور القديمة ويكتفى بالمهر الذي لا يقل عن عشرة جنيهات، وللمرأة الحرية الكافية لاختيار شريك حياتها، وسن الزواج بالنسبة للمرأة ١٨ سنة وبالنسبة للرجل ٢٠ عاماً.

أما في الإقليم الشمالي فتتزوج الفتاة في سن التاسعة ويتزوج الرجل متى بلغ الخامسة عشرة عاماً ومن العادات المتبعة هناك غالباً أن الزوجة لا ترى زوجها إلا يوم الزواج.

وهناك تقوم حركات تقدمية تدعو إلى تحرير المرأة وإعطائها حقها أكثر مما هو متاح لها حالياً...

والمرأة النيجيرية بوجه عام قطعت مرحلة واسعة في التعليم تبلغ نسبته المئوية ٤٥٪ فهناك المدارس الابتدائية والثانوية المنتشرة في المدن والقرى، كما أن هناك جامعتين الأولى في أبادن والأخرى كلية نيجيريا للفنون والعلوم والتكنولوجي وكلية التربية.

وقد بلغت المرأة النيجيرية الذروة في التعليم ولذا تتمتع بجميع حقوقها السياسية ومن أبرز الدلائل على ذلك أن هناك حزباً نسائياً يدعى «دانماك باتي» ترأسه السيدة أدوتي كما يوجد بالبرلمان ٣٥ عضوة.

وفي نيجيريا صحافة متقدمة، ويتداول المواطنون هناك حوالى ٣٠ جريدة ومجلة بين يومية وأسبوعية، كما

تصدر فى لاجوس جريدة إسلامية باللغة الإنجليزية تسمى The Truth وهى الجريدة الإسلامية الوحيدة فى غرب إفريقية كلها .

النهضة الاقتصادية :

تعتمد نيجيريا على الزراعة فحوالى ٨٠٪ من السكان يشتغلون بالزراعة والرعى واستخراج منتجات الغابات وصيد الأسماك . ومنتجات الزراعة والغابات تمثل ٨٥٪ من الصادرات الكلية . وأهم المنتجات النباتية الكاكاو وتصدر كميات كبيرة منه إلى أمريكا وإنجلترا . ثم الفول السودانى ، والمطاط بالإضافة إلى البن وزيت النخيل ، كما أنها تصدر مقادير كبيرة من الجلود نظراً لعنايتهم البالغة فى تربية الماشية كما تعتبر نيجيريا منجماً كبيراً للثروات المعدنية . . فهى غنية بالذهب والفحم والقصدير الخام وبذلك فهى خامس دولة فى العالم فى إنتاج القصدير

وتتعامل نيجيريا مع دول كثيرة أهمها الهند وباكستان والولايات المتحدة واليابان وإيطاليا وغيرها .

وتقوم بينها وبين دول الكومنولث معاهدات اقتصادية وتجارية على نطاق واسع حتى لقد بلغ قيمة ما صدر إلى المملكة المتحدة وحدها ١٠٠ مليون جنيه فى حين قدرت وارداتها بمبلغ ٥٠ مليون جنيه .

هذه هى نيجيريا التى تخطو الآن فوق طريق الحرية ، وتمد يدها من بعيد إلى الجمهورية العربية المتحدة . وتأخذ موقفاً واعيا من إسرائيل .

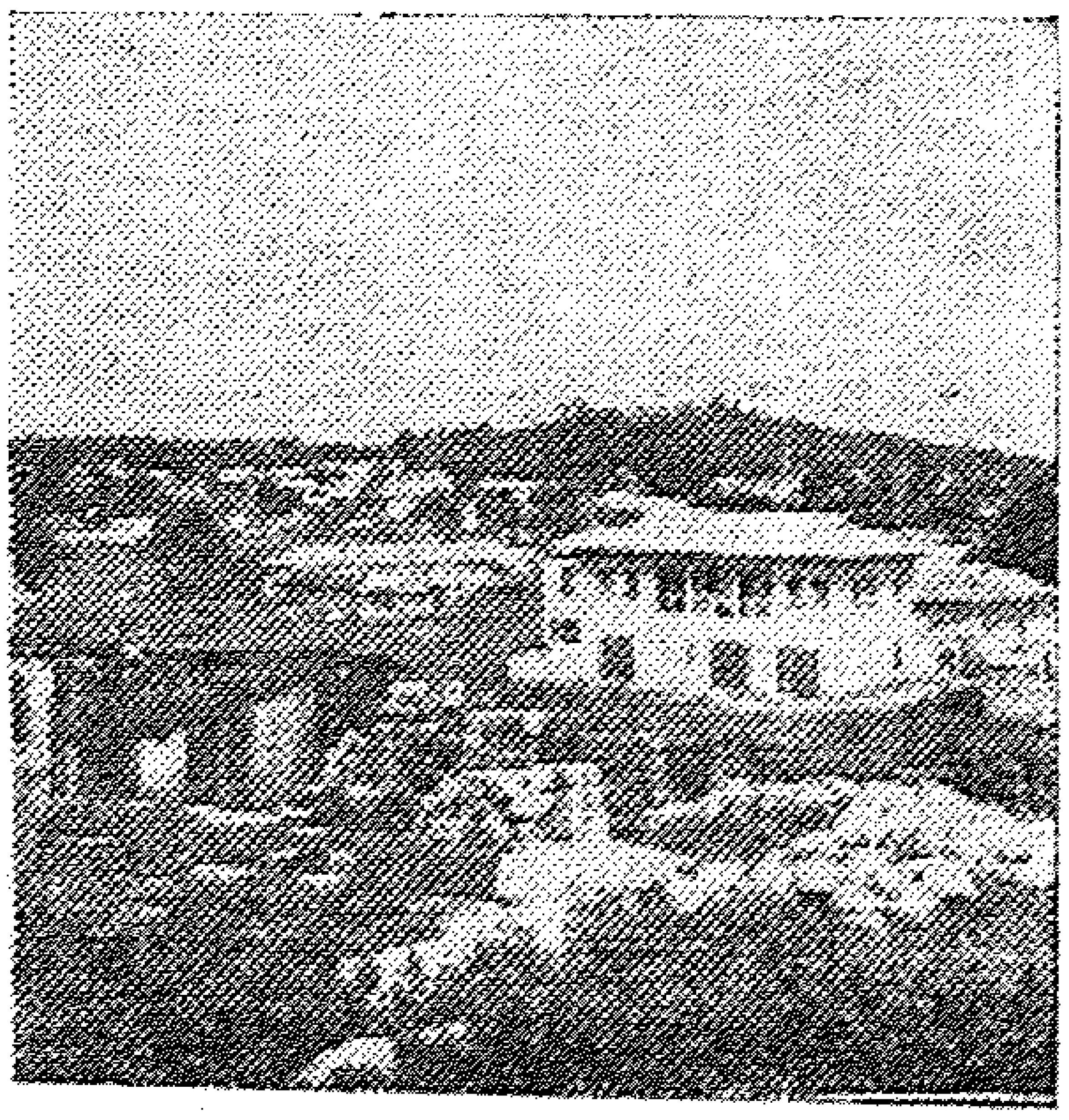

جولة مصورة حول

« قتيل من أنجولا »

« الاعتداء على الإفريقيين فى أوروبا »

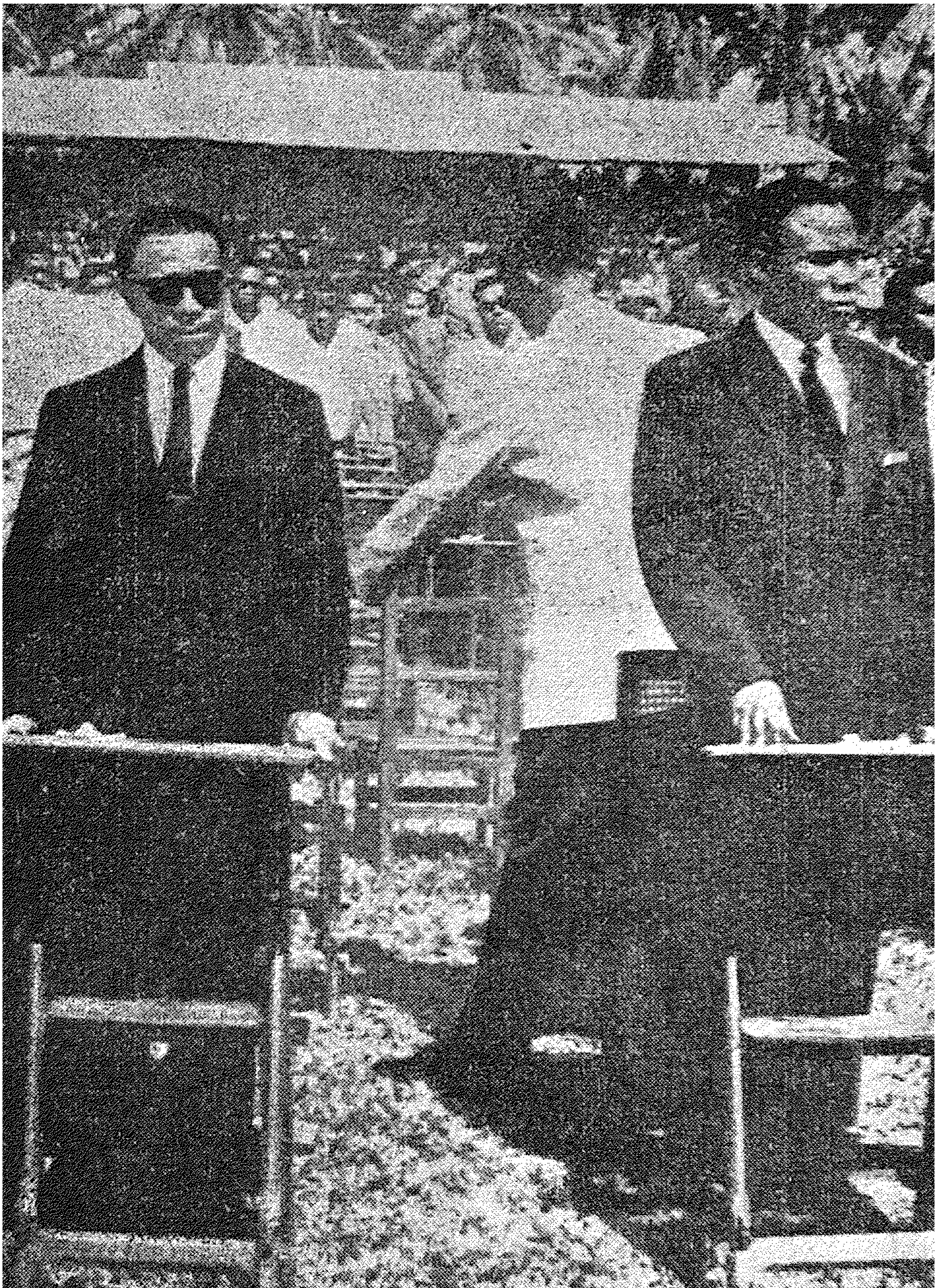

« الرئيس جيزنجا يخطب »

« الجنرال لاندولا »

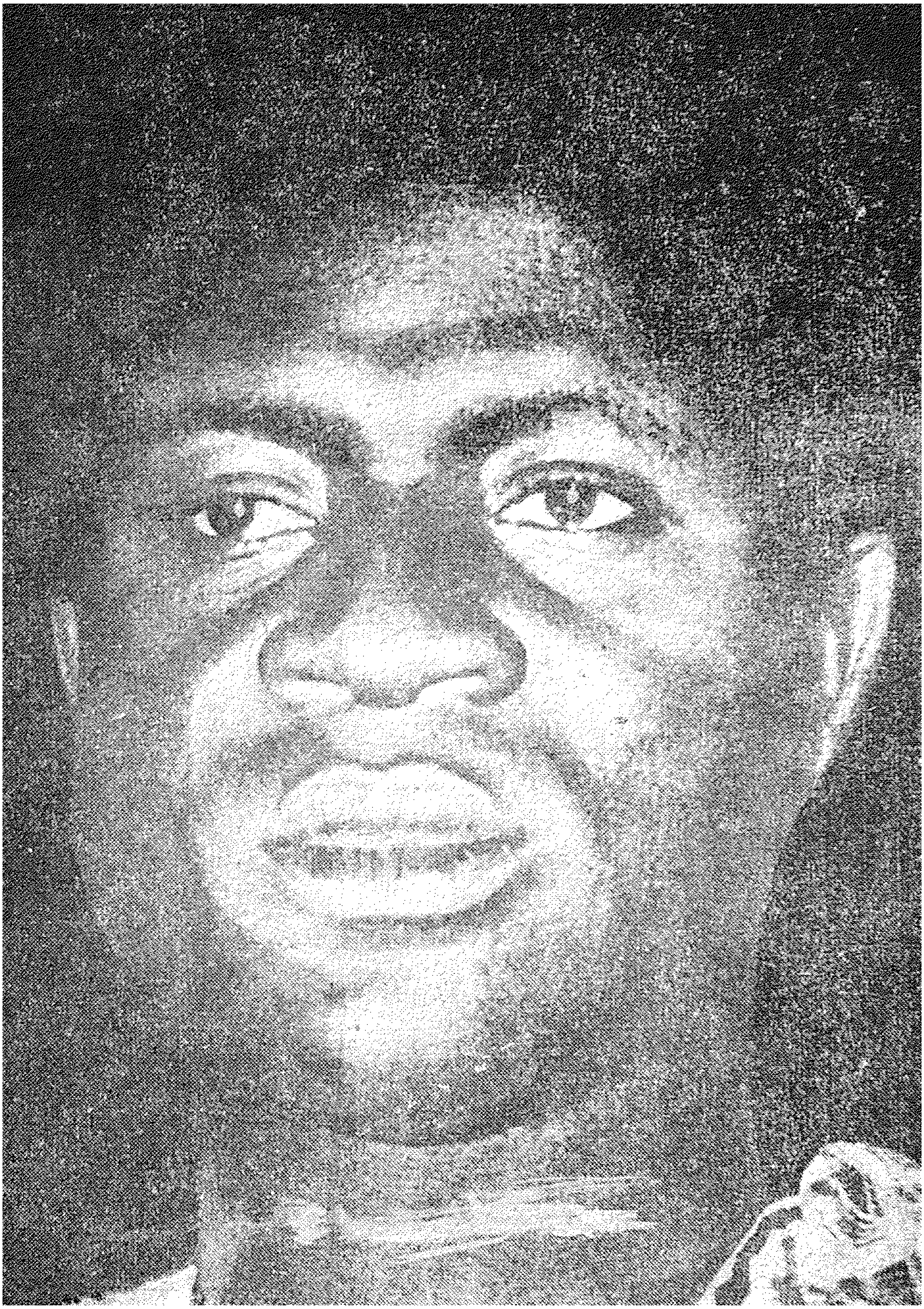

« عزم وإصرار »

« تطلع إلى مستقبل أفضل »

« قناع إفريقي »

«من جوانب المرح فى إفريقية»

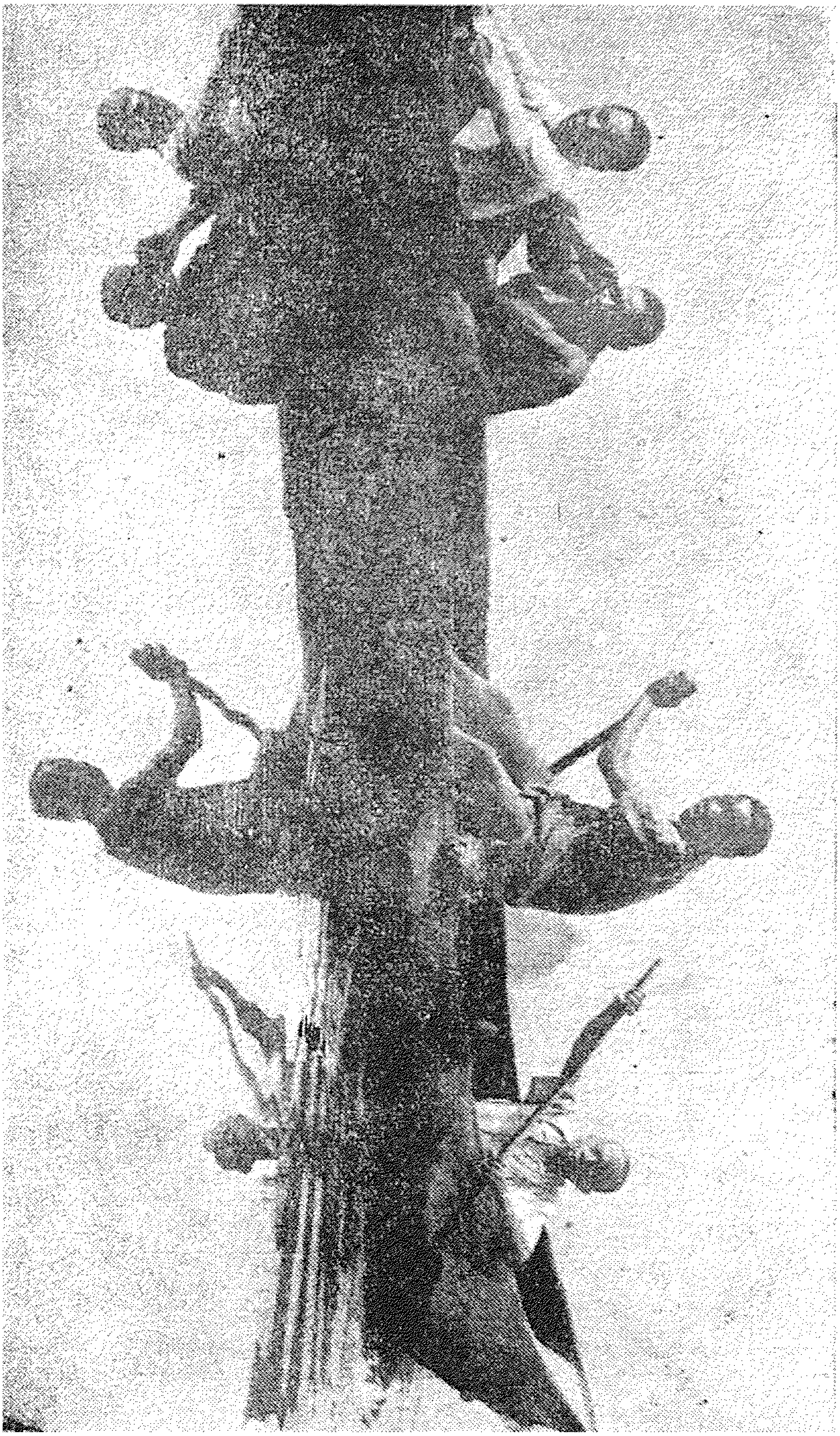

« على مياه النيجر »

ماذا فى روديسيا ونياسالاند؟

بقلم : لمعى المطيعى

فى أعقاب النكسة التى أصابت الحركة الوطنية فى الكونغو .. وفى الوقت الذى تجرى فيه أبشع حركة للتفرقة العنصرية فى جنوب إفريقية ، والموجة المسعورة التى يقوم بها المستوطنون الفرنسيون فى الجزائر لم تهدأ بعد .. تحمل إلينا وكالات الأنباء أن السير « روى ولنسكى » رئيس الاتحاد الفيدرالى بوسط إفريقية قد وزع الأسلحة على المستوطنين الأوروبيين ، وأن أجازات رجال البوليس قد ألغيت ، وأنه قد درب خمسة آلاف رجل . بدعوى مقاومة مشروع تعديل الدستور الذى يقضى بمنح بعض الامتيازات للوطنيين الإفريقيين وقد قرر برلمان اتحاد وسط إفريقية عدم التصريح بخروج « رأس المال الأجنبى » .. ويصرح السير « ايفلين هو » حاكم روديسيا الشمالية بأن الصراع مركز حول منح الإفريقيين مزيداً من السلطات .. ويأتى صوت « ايريك لو » وزير خارجية اتحاد جنوب إفريقية . مؤيداً اتحاد وسط إفريقية فى قراراته .. وبحقه فى الانفصال .. وتختلط الأنباء بين موقف الوطنيين الإفريقيين .. وموقف المستوطنين الأوروبيين ، وموقف المسئولين فى بريطانيا ذاتها .. فما هى حقيقة الموقف ؟

الاتحاد الفيدرالى :

لقد برزت أول فكرة عن الاتحاد الفيدرالى ، فى عام ١٩٣٦ ، عند ما نوقشت على أساس أن يتم نوع من هذا الاتحاد بين روديسيا الجنوبية وروديسيا الشمالية ، وتأجل البت فى هذه الفكرة حتى عام ١٩٣٨ ، عند ما ثارت فكرة إقامة اتحاد فيدرالى بين روديسيا الجنوبية وروديسيا الشمالية ونياسالاند .. وقامت لجنة « بليدز لوى » ببحث هذا المشروع وسجلت فى تقريرها أن ثمة عقبات تعترض المشروع الذى يقضى باتحاد روديسيا الجنوبية التى يستوطنها ٢١١٫٠٠٠ أوروبى من مجموع سكانها البالغ ٢٫٨٢٠٫٠٠٠ ؛ وروديسيا الشمالية التى يستوطنها ٧٢٫٠٠٠ من سكانها البالغ عددهم ٢٫٣٣٠٫٠٠٠ أى بنسبة ١ إلى ٣٠ مع نياسالاند التى تختلف من هذه الناحية لحد ما ؛ إذ لا يوجد بها سوى ٨٫٠٠٠ أوروبى من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٫٧٤٠٫٠٠٠ أى بنسبة ١ إلى ٣٠٠ .. يضاف إلى ذلك أن روديسيا الشمالية . ونياسالاند من نظام (المحميات) أما روديسيا الجنوبية فهى تتمتع بنوع من الاستقلال .

وجاءت الحرب العالمية الثانية ، وتأجلت مثل هذه المشروعات .. حتى عام ١٩٥٠ عادت بريطانيا إلى مشكلة الاتحاد الفيدرالى ، ولكن على أساس آخر عرف بأسلوب « المشاركة بين الأجناس » .. وفى مارس من عام

١٩٥١ عقد مؤتمر فى لندن وضع أمامه تقرير لجنة « بليدز لوى » المشهور وناقشوا العقبات السياسية وغيرها التى تعترض المشروع .. وما سجلته اللجنة السابقة من نفور الإفريقيين فى الأقاليم الثلاثة من مشروع الاتحاد الفيدرالى . وفى هذا المؤتمر دعا مستر « جوردون والكر » العضو الرئيسى فى هذا المؤتمر بعدم الالتفات إلى رغبات الإفريقيين . والمضى فى تنفيذ مشروع الاتحاد الفيدرالى ، وقد لقى فى رأيه هذا مساندة كبيرة من جانب الصحافة البريطانية فى ذلك .. وقد عارض المندوبون الإفريقيون الخمسة فى هذا المؤتمر مشروع الاتحاد الفيدرالى .. وهنا قرر « جودفرى » ضرورة الاتحاد حتى ولو اقتضى الأمر أن يتم دون دخول نياسالاند فيه . على أساس أن نياسالاند حتى ولو اختارت الانفصال فإنها مضطرة إلى أن تقيم نوع من الاتحاد مع تنجانيقا مثلا .

وقد نشر هذا المؤتمر تقريره فى ١٣ من يونيو من العام ذاته، وفى ٢١ نوفمبر من عام ١٩٥١ أعلن مستر « أوليفر ليتلتون » وزير المستعمرات تأييده للمشروع .

وفى أول يناير من عام ١٩٥٣ عقد مؤتمر فى لندن . لم يحضره أحد من الإفريقيين . تقرر فيه معرفة رأى المستوطنين الأوروبيين فى روديسيا الجنوبية حول مشروع الاتحاد الفيدرالى وقد أجرى الاستفتاء فعلا ، وحضر من الناخبين ٨٢٪ صوت منهم ٢٥,٥٧٠ إلى جانب الاتحاد الفيدرالى وعارضه ١٤,٧٢٩ .

وفى ١٠ أغسطس من عام ١٩٥٣ وقعت ملكة بريطانيا المشروع وبدأ تنفيذ نظام الاتحاد الفيدرالى فى ٢٠ سبتمبر من عام ١٩٥٣ أيضاً .

وإلى حين شرح موقف الإفريقيين بالتفصيل من هذا المشروع نسجل أن الزعماء الإفريقيين (الدكتور باندا . ونتيمبولا . وكاتلنجو) قد حملوا لواء معارضته ، كذلك سعى الأوروبيون إلى الضغط من أجل المزيد من سلطاتهم . والحد من الحقوق الواهية التى صاحبت المشروع للوطنيين الإفريقيين . والتى يقضى بها مشروع « المشاركة بين الأجناس » .

أسطورة المشاركة

إن هذا الأسلوب الذى لا يرضى عنه المستوطنون الأوروبيون . والذين يثيرون بسببه القلاقل ، لا يرضى عنه الإفريقيون كذلك . لأنه وهم لا حقيقة ففى مجال التعليم مثلا . والذى تشرف عليه الإرساليات إشرافاً تاماً كان مجموع ما صرف على التعليم بين الأوروبيين وعددهم لا يتجاوز ٢٩٠,٠٠٠ نسمة هو ٨,٥٨٢,٣٤٢ جنيهاً وكان ما صرف على تعليم الإفريقيين وعددهم يزيد على

٧,٥٠٠,٠٠٠ هو ٧,٥٦٠,٠٠٠ جنيه وهذه الميزانية لعام ١٩٥٨ أى بعد تطبيق أسلوب (المشاركة) بخمسة أعوام وعلى نطاق الاتحاد كله . . ولنأخذ الأوضاع الراهنة حيث لا يجرؤ إفريقى فى « لوزاكا » أن يدخل أحد حوانيت الأوروبيين . . وفى روديسيا الجنوبية غير مصرح للإفريقيين بالتجول ليلا إلا بتصريح مرور ليلى بموجب القرار الصادر فى أول مارس ١٩٥٨ . . ويقضى القانون الاتحادى أيضاً بأن يسجل كل إفريقى فى المنطقة التى يقيم بها ، وعليه ألا يغير محل إقامته إلا بعد استئذان السلطات والسماح له بذلك . . ولنأخذ ما حدث فى عام ١٩٥٦ عند ما أرسل أحد المبعوثين الباكستانيين ابنه إلى المدرسة وثارت عندئذ ثائرة صحافة المستوطنين الأوروبيين لأن « ملوناً » أرسل بابنه إلى مدارس البيض . . وفى عام ١٩٥٨ طرد أحد مديرى الفنادق الأوروبية ملوناً آخر . وكان دبلوماسياً هندياً ، واعتذرت الحكومة الفيدرالية لحكومة الهند . . وهذا يدل على أن التفرقة العنصرية زادت موجتها على الإفريقيين وتعدتهم إلى الملونين الآخرين من أبناء آسيا أيضاً . . وقد تحدى الصحفى الإفريقى « درم » من (جوهانسبرج) السير « روى ولنسكى » أن يسمح له بحجرة فيها تكييف الهواء بالسكك الحديدية . وذلك كى يكشف التفرقة الصارخة فى السكك الحديدية .

وبالفعل رفض « روى ولنسكى » ذلك وغير مسموح للإفريقيين فى روديسيا الجنوبية أن يكاتبوا الصحافة الأوروبية ولا يسمح لهم بشراء البضاعة الجيدة ، فهذه للأوروبيين والبضاعة الرديئة لهم . لأنه محرم عليهم دخول محال الأوروبيين أو مطاعمهم ، أو حتى المرور فى مناطقهم إلا بتصريح للمرور ، وممنوع على (البارات) أن تقدم البيرة الأوروبية للإفريقيين . . كذلك غير مسموح لهم بالملكية فى مناطق المستوطنين ، وإذا ما رغبوا فى حمل الرعاية البريطانية . فذلك لقاء رسوم كبيرة . . أكثر من هذا ما زال التفريق اللونى موجود فى كنائس روديسيا الجنوبية . . كل ذلك فى ظل (المشاركة) التى يتشدق بها دعاة الاتحاد الفيدرالى :

أين المشاركة فى الحقوق السياسية ؟

ويتزعم « وليم هاربر » زعيم حزب « الدومينيون » فى روديسيا الجنوبية حملة تأييد « روى ولنسكى » فى موقفه ضد ما يسمى بحقوق السود السياسية . . ولكن ما مقدار هذه الحقوق أصلا ؟ . من المفيد هنا أن نبدأ بروديسيا الشمالية التى هى مثار المشكلة حالياً . . لقد كان المجلس التشريعى فى روديسيا الشمالية محل تغييرات دائمة فيما بين أعوام ١٩٢٤ — ١٩٥٤ . . غير أن هذه التغيرات لم تكن تعرض أبداً للتوازن بين الأوروبيين والإفريقيين ، وإنما

كانت تعرض للتوازن بين موظفي الحكومة وغير الموظفين .. فمنذ عام ١٩٤٨ والمجلس التشريعي الأغلبية فيه للموظفين الرسميين .. ولم يكن به سوى (٢) إفريقيين فقط من مجموع المجلس وهو ٢٥ عضواً .. والمجلس التنفيذي أيضاً يتكون من ١١ .. منه سبعة موظفون رسميون وأربعة غير موظفين .. وجميعهم أوروبيون .. وكان قانون الانتخاب ينص على أن من له حق الانتخاب هو من بلغ من العمر ٢١ عاماً وله ممتلكات تقدر بـ (٢٥٠ جنيهاً) أوله دخل سنوي قدره ٢٠٠ جنيه . وفي عام ١٩٥٣ ثارت مناقشة وهي المناقشة نفسها التي تثور حالياً لأن كلمة « جمهور » في قانون الانتخاب لا تعني في حقيقة الأمر سوى الأوروبيين الذين يتمتعون بالرعوية البريطانية .

أما في نياسالاند فقد ثارت زوبعة مماثلة في فبراير ١٩٥٥ حول اقتراحات بتعديل الدستور فيما أسموه (زيادة حقوق الإفريقيين ! !) إذ أن المجلس التشريعي في نياسالاند — قبل النظام الفيدرالي — كان يتكون من ٢١ عضواً منهم عشرة موظفون رسميون يقسمون كالآتي (٦ أوربيون ٣ إفريقيون ١ آسيوي) والأحد عشر غير الرسميين نادراً ما ينتخب بينهم إفريقي .. وكان الاقتراح يرمي إلى زيادة عدد المجلس إلى ٢٣ عضواً .. والاقتراح لا يسمح الا بزيادة طفيفة في عدد الإفريقيين ..

وإزاء هذه الاقتراحات تقدم الدكتور « هاستنج باندا » باقتراح قيام مجلس تشريعي يتكون من ٤٠ عضواً منه ٣٢ إفريقياً و ٨ أوروبيين .. وأن يتكون مجلس تنفيذي من تسعة أعضاء، خمسة إفريقيون وأربعة أوروبيون غير أن اقتراحات الدكتور « باندا » لم تنفذ ونفذ التعديل المقترح في يونيو من عام ١٩٥٥ حتى أن « أندرو دويج » وهو العضو الأوروبي الذي كان معيناً لتمثيل مصالح الإفريقيين استقال احتجاجاً . ولعدم قدرته على تحمل مسئولية وضع كهذا ..

وبالنسبة للبرلمان الاتحادي ذاته .. كان يتكون من ٣٥ عضواً ، وفي عام ١٩٥٧ ثارت ضجة أيضاً لتعديل الدستور .. واقترح أن يتكون البرلمان الاتحادي من ٥٩ عضواً منهم ٢٩ عضواً من روديسيا الجنوبية و ٣٠ عضواً من روديسيا الشمالية ونياسالاند ويوزع العدد كالآتي : ٤٤ أوروبياً ينتخبهم الأوروبيون ، ٩ إفريقيون ينتخبهم الأوروبيون أيضاً ، ٤ إفريقيون ينتخبهم الإفريقيون و أوربيان تعينهم الحكومة .. أي أنه لا يوجد في هذا البرلمان الذي يتكون من ٥٩ سوى ١٣ إفريقياً يجيئون بموافقة الناخب الأوروبي .

وجدير بنا أن ننظر إلى قانون الانتخاب ذاته ، حتى يتضح مدى التعسف في موقف المستوطنين الأوروبيين

ونحن نذكر فقط الاقتراحات التي قدمت فى الفترات الأخيرة . ومنها يتضح مدى سوء الوضع فيما قبل . .

ففى مارس من عام ١٩٥٧ اقترح « ترو جولد » وزير العدل الاتحادى ومعه « جون ميررى » وزير العدل فى روديسيا الجنوبية و « تشارلس كينجز » وزير العدل الأسبق فى السودان . اقترحوا أن يقوم بالانتخاب فئتان ! ! الفئة الأولى تنتخب ٣/٤ البرلمان والفئة الثانية بالاشتراك مع الفئة الأولى تنتخب ١/٤ البرلمان . . ويشترط فى عضو الفئة الأولى أن يكون دخله السنوى ٧٢٠ جنيهاً ، أو يمتلك ثروة تقدر بـ ١٥٠٠ جنيه . أو أن يكون متعلماً لمدة أربع سنوات تعليماً عالياً ولديه ٣٠٠ جنيه دخلا سنوياً أو ثروة تقدر بـ ٥٠٠ جنيه ، أو أن يكون دخله الشهرى المنتظم ١٥ جنيهاً ويعرف اللغة الإنجليزية . . ومعنى هذه الاقتراحات — ببساطة — إبقاء الأغلبية الساحقة ، والدائمة فى أيدى الأوروبيين ، لأننا سنعرف عند عرض قانون الملكية وإحصائيات التعليم ومستوى المعيشة ، أن هذه الشروط لا يمكن أن تتوافر فى الإفريقيين .

ومع هذا يثور المستوطنون لأن هذه الامتيازات لا ترضيهم تماماً ، فيجىء المستر « لينوكس بويد » وزير المستعمرات . فى سبتمبر من عام ١٩٥٨ وينشر اقتراحات جديدة كلها امتيازات للمستوطنين الثائرين ! !

استغلال العمال الإفريقيين

وإزاء عدم السماح للعمال الإفريقيين بالانضمام لاتحادات العمال العامة ، قام العمال الإفريقيون بتكوين اتحادات لهم ، كان أولها فى (نكانا) عام ١٩٤٨ . .

وفى عام ١٩٤٩ تجمعت هذه الاتحادات فى اتحاد واحد . . هذا فى روديسيا الشمالية . . وفى روديسيا الجنوبية لم يكن من المسموح للعمال الإفريقيين أن يكونوا نقابات لهم حتى أبريل ١٩٥٤ . وهناك مجلس « للتوفيق » بين العمال وأصحاب الأعمال غير مسموح للإفريقيين بالتمثيل فيه .

ولعل مما يعبر عن التفرقة العنصرية بين العمال ، ذلك الرداء الذى يسمى (حافظة الساق) وهو جلد أسود يلبسه العمال الإفريقيون حول الساق ليميزهم عن العمال الأوروبيين ، وقد حدثت عدة إضرابات عنيفة ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ يونيو ١٩٥٦ ضد هذه العلامة المميزة ، كما كان لتفاوت الأجور بين الأوروبيين والإفريقيين أثر كبير فى نفوس الإفريقيين .

وقد اشترك العمال الإفريقيون بدور إيجابى فى الحركة الوطنية الإفريقية التى نبسطها فيما يلى بإيجاز .

لقد حددت الحركة الوطنية الإفريقية فى السنوات الأخيرة اتجاهها فى مقاومة الاتحاد الفيدرالى . وإعلان استقلال هذه الأقاليم الثلاثة ، وترك الحرية لها فى تقرير مصيرها ، والشكل الذى تختاره بعيداً عن سلطة بريطانيا وتعسف المستوطنين .

وقد أبدى الوطنيون الإفريقيون منذ عام ١٩٣٦ معارضتهم لمشروع الاتحاد الفيدرالى . وقد سجلت هذه المعارضة لجنة « بليدز لوى » عام ١٩٣٨ .. وأخذت هذه المعارضة شكلها الرسمى عام ١٩٥١ . عند ما عارض المندوبون الإفريقيون الخمسة الذين كانوا فى لندن فى زيارة غير رسمية إبان مباحثات الاتحاد الفيدرالى . وصرح الدكتور « هاستنج باندا » بأن الاتحاد الفيدرالى يعنى أن شعب نياسالاند سوف يحرم من حق الحكم الحكم الذاتى الذى يحرص عليه .. وفى روديسيا الشمالية أعلن « نيكمبولا » زعيم المؤتمر الوطنى و « كاتلنجو » زعيم « اتحاد المعدنين » معارضة الاتحاد الفيدرالى . وطالبوا بإرسال مندوبين إفريقيين للتباحث فى لندن مباشرة .

وأثناء زيارة مستر « جريفث » نياسالاند عام ١٩٥٢ . تصدى له القائد الوطنى « جومانى » ودعا الشعب إلى التمرد على القوانين ، فكان أن هبت القبائل ثائرة ضد « جريفث » ووقعت اصطدامات فى « نشو » حيث قطعت أسلاك التلغراف وأطلقت النيران على المتظاهرين وقتل ١١ إفريقياً ، حسب البيان الرسمى .

وما أن أعلن توقيع ملكة بريطانيا على مشروع الاتحاد الفيدرالى فى أغسطس من عام ١٩٥٣ حتى اجتاحت نياسالاند ، وروديسيا الشمالية ، والجنوبية المظاهرات والإضرابات والاعتصامات وقد سجلت جريدة « روديسيا هيرالد » مدى عنف هذه المظاهرات .. مما جعل الصحف البريطانية تعيد للأذهان تصريح بعض الزعماء الإفريقيين الذى نشروه فى يناير من عام ١٩٥٣ . فى الصحف البريطانية ، وحذروا فيه من مغبة فرض الاتحاد الفيدرالى .

وفى سبتمبر من عام ١٩٥٥ أصبح شعار الإفريقيين ، الصيحة التى أطلقها الزعيم الإفريقى « نتيمبولا » عند ما قال « هذه أرضنا وسوف نستردها » وذلك فى أعقاب قتل أحد الإفريقيين بسيارة أحد الأوروبيين فى « لزاكا » عاصمة روديسيا الشمالية ، والمظاهرات التى قام بها الإفريقيون احتجاجاً . وفى نياسالاند كانت حركة « كوينج » فى المجلس التشريعى ضد الاتحاد الفيدرالى .

وفى أبريل من عام ١٩٥٦ حدثت أكبر حركة مقاطعة بين الإفريقيين ، عند ما أضربوا عن العمل وأغلقوا محالهم تعبيراً عن احتجاجهم ، وبخاصة

فى « اندولا » التى عادت إلى هـــذه المقاطعة فى يونيو من العام نفسه . . وقد تم فى هذا الشهر ، وعلى وجه التحديد فى يوم ١١ يونيو من عام ١٩٥٦ التحالف بين الزعيمين نكمبولا . وكاتالونجى تلبية لمطالب الجماهير وحفظاً على الوحدة الوطنية فى روديسيا الشمالية

وفى يوليو من عام ١٩٥٦ وفى اجتماع المجلس التنفيذى بنياسالاند وقف العضو الإفريقى « تشيمبر » يعارض الاتحاد الفيدرالى ، ويطالب بأغلبية إفريقية فى المجلس التنفيذى ، إلا أن الحكومة سحبت اعترافها بالاتحاد الوطنى فى نياسالاند . . وعلى أثر هذا قام أبناء نياسالاند فى روديسيا بمظاهرات معربين عن تأييدهم للمؤتمر الوطنى .

وسارعت حكومة روديسيا الشمالية فى ١٢ سبتمبر من عام ١٩٥٦ بإعلان حالة الطوارئ واعتقال الزعيم النقابى « نكلوما » ومعه ٣٢ من القادة النقابيين وعاد بعدها « كاتلونجى » من لندن ودعا الشعب إلى العمل الحاسم .

وكانت فى ذلك الوقت المظاهرات تجتاح نياسالاند لأن عودة الدكتور باندا قد تأجلت ، وعند ما عاد عقد على الفور اجتماعاً عاماً فى ٢٦ من أكتوبر وألقى خطابه المشهور الذى انطلقت بعده الجماهير فى مظاهرات صاخبة تطالب باستقلال نياسالاند على الفور . . وأطلقت الصحف الأجنبية على الدكتور باندا لقب « المسيح الإفريقى » نظراً لحب الجماهير له .

وفى سبتمبر من عام ١٩٥٧ بدأت الحركة الوطنية الإفريقية تتبلور فى روديسيا الجنوبية فأعلن قيام المؤتمر الوطنى الإفريقى . . وفى أبريل من عام ١٩٥٨ حدثت اضطرابات « ندولا » المعروفة والتى ألقى القبض فى أثرها على ٥٠٠ إفريقى .

وبدأت حركة الغليان تشتد منذ يناير من عام ١٩٥٩ ، وألقى القبض فى « زومبا » على ٣٢ مناضلا إفريقياً ، وانتشرت المظاهرات فى « لمب » ، و « بلانتاير » . . وفى ٢٠ من فبراير كان موعد انعقاد الاجتماع المعتاد لحكام روديسيا الجنوبية والشمالية ونياسالاند ، وأحس الوطنيون أن ثمة أمورا تدبر فى الخفاء ، وبالفعل أعلنت حالة الطوارئ فى روديسيا الجنوبية فى ٢٦ من فبراير ، وفى مساء ٢ — ٣ مارس أعلن السير « روبرت ارمنتاج » حالة الطوارئ فى نياسالاند وألقى القبض على قادة المؤتمر الوطنى الإفريقى ، وأطلقت النيران فى « تكاتاباى » على الجماهير حيث جرح ٤٨ وقتل ٢٠ حسب البيان الرسمى أيضاً .

وأعلنت حالة الطوارئ فى روديسيا الشمالية فى ١١ من مارس . . وباشرت الحكومة الفيدرالية أبشع حملات ، الإرهاب والتنكيل ، فأرغمت الإفريقيين على إعادة إصلاح ما أتلف فى الاصطدامات ، وفرضت غرامات

وصلت فى مجموعها أكثر من ٣٠,٠٠٠ جنيه ، وحلت الأحزاب والهيئات الوطنية الإفريقية فى روديسيا الجنوبية وصدر قانون بمعاقبة كل من ينتمى إلى هذه الهيئات بغرامة تصل إلى ١٠٠٠ جنيه أو بالسجن حتى خمس سنوات أو بهما معاً .. وأعيدت القرارات الخاصة بالتفرقة العنصرية فى دستور ١٩٢٣ .

وأعادت هذه الأحداث إلى الأذهان ذكرى أحداث عام ١٨٩٦ عند ما واجهت قوات الاحتلال البريطانى قبائل « الميتابيل » و « الماشونا » . بالرصاص والتنكيل .

ومنذ ذلك التاريخ . دخلت الحركة الوطنية الإفريقية مرحلة حاسمة من تاريخها ، مما جعل المسئولين البريطانيين يحاولون تخفيف هذه القيود تفادياً للانفجار المؤكد .. غير أن المستوطنين يدفعون بالأحداث فى اتجاه هذا الانفجار .

المستوطنون .. والانفجار

لم يكن من الغريب أن يهب غلاة العنصريين فى اتحاد جنوب إفريقية يساندون الأوروبيين فى إتحاد وسط إفريقية .. أولئك الذين نصوا فى دستورهم عام ١٩١٠ على شرعية التفرقة العنصرية بين الأوروبيين والإفريقيين فى جنوب إفريقية .. وورثه عنهم الأوروبيون فى روديسيا الجنوبية حيث أعطوا للتفرقة العنصرية شرعية فى دستور عام ١٩٢٣ .. ومنذ ذلك التاريخ وليس لديهم سوى مكتب « لإدارة شئون الوطنيين » .

ويتزعم المستوطنين فى روديسيا الجنوبية « ادجار هوايتهد » و « وليم هاربر » وهما ينادیان بمزيد من السلطة للأوروبيين ، ويصرحان بأن أى زيادة فى حقوق الإفريقيين تعنى الاشتباك المسلح .. ويدعم هذا الاتجاه الأحزاب البيضاء الثلاثة فى روديسيا الجنوبية وهى « حزب الدومينيون » اليمينى المتطرف والذى يطالب بنظام الدومينيون . و « الحزب الفيدرالى المتحد » الذى يؤيد الاتحاد الفيدرالى بشرط إبقاء السلطة مع المستوطنين . و « الحزب المتحد » الذى يطالب بانفصال روديسيا الجنوبية والاتحاد مع جنوب إفريقية .

ويتزعم المستوطنين فى روديسيا الشمالية ، الصهيونى المذهب ، البولندى الأصل ، الإنجليزى الجنسية ، العنصرى النزعة « روى ولنسكى » الذى يمهد للتمرد على بريطانيا ، ووقوع مذبحة ضد الإفريقيين .. والوطنيون الإفريقيون يواصلون التحذير فى الفترة الأخيرة من هذه المذبحة .

ويدفع « فلينشر » أهالى نياسالاند فى الاتجاه ذاته .. وبشكل عام فان المستوطنين يخشون التنازل عن جزء من سلطاتهم ، ويطالبون بمزيد من قهر الإفريقيين ، وهم الآن يحشدون قواتهم ، ويخزنون السلاح ، تمهيداً للانفجار المروع الذى يريدون إحداثه فى وسط إفريقية .

الموقف فى بريطانيا

تحاول بريطانيا أن تتجنب الموقف الذى واجهته فرنسا فى الجزائر ، ولهذا نجد صيحات تتردد بأنه على بريطانيا أن تبادر وتمسك بزمام الموقف قبل أن يفلت من بين أيديها وتواجه أحداثاً لا قبل لها بتحمل نتائجها ، على أن تأخذ فى اعتبارها أن البلدان الإفريقية سائرة حتما نحو الاستقلال والتحرر ، وعلى بريطانيا أن تفيد من تجاربها فى غينيا ونيجيريا والصومال ..

وغيرها . . وتتردد صيحات مقابلة على أن القومية الإفريقية خطر على مصالح بريطانيا ، وأنها حركة يثيرها أفراد مشاغبون ولا بد من أخذهم بالشدة ، والحرص على العلاقة مع الأوروبيين المستوطنين لأنهم بطبيعتهم يعطفون على المصالح البريطانية . . ويبدو أن الاتجاه الغالب في الدوائر المسئولة هو الإبقاء على الاتحاد الفيدرالى باعتباره شكلا يضمن بقاء ارتباط هذه المناطق ببريطانيا . . مع محاولة إعطاء بعض الحقوق للإفريقيين تفادياً للاصطدام بالحركة الوطنية الإفريقية التى تتصاعد أكثر فأكثر .

وعلى هذا تتمثل الأزمة التى تواجهها بريطانيا . فى إصرار المستوطنين على الاحتفاظ بسلطاتهم وعدم قبولهم لمنح الإفريقيين أية حقوق . واستعدادهم للاشتباك المسلح إذا اقتضى الأمر . . وتدرك بريطانيا أيضاً . أن الحركة الوطنية لن تتراجع عن مطالبها الرئيسية وهى الاستقلال الكامل ورفض الاتحاد الفيدرالى . . والحركة الوطنية تساندها الحركات الوطنية الأخرى فى البلدان الإفريقية .

تحذير إلى الوطنيين الإفريقيين :

ولئن كانت بريطانيا تحاول إعطاء بعض الحقوق للإفريقيين تهدئة للموقف ويعارض المستوطنون الأوروبيون هذه المحاولة . . فإن بريطانيا والمستوطنين الأوروبيين يبذلون محاولات جبارة وماكرة بهدف خداع الحركة الوطنية فى وسط إفريقية . وتمييع اتجاهها الواضح المحدد ، بل بهدف إيجاد انقسام بين هذه القوى الوطنية . . ويجدر أن نذكر أحداثاً بذاتها .

فى عام ١٩٥٥ نشرت جماعة تسمى « كراتيكون أفريكا » برنامجها الذى يقضى بنشر المبادئ الدينية والفلسفية فى صفوف الأحزاب السياسية وفى شهر يوليو من العام نفسه قالت بأن على الأوروبيين أن يخففوا من غلوائهم . . ثم على الإفريقيين أن يتخلوا عن أحلام القومية ؛ السوداء (كذا) ! واقترحت أن تسلم السلطة إلى الآسيويين المقيمين هناك ، وألا تبقى فى أيدى البيض وألا تصل إلى أيدى السود . . وتضم هذه الجمعية حوالى ٤٠٠٠ عضو وللأسف قد انخدع فى مبادئها بعض الإفريقيين وانضموا إليها . . فى حين أنها لا تهدف إلا لمناورة ماكرة تحطم بها صفوف الإفريقيين وتشككهم فى قضيتهم .

وثمة مناورة أخرى يقوم بها « ترود جولد » صاحب مشروع الانتخاب عن طريق فئتين الذى أشرنا إليه ، ويقول فى مناورته الجديدة أن تتكون الأحزاب على أساس طبقى لا على أساس لونى . . أى أن تقوم أحزاب اشتراكية أو وطنية أو محافظة

تضم البيض والسود معاً . . وهــذه المحاولة ماكرة جداً ، لأنها تبدو سليمة فى مظهرها ، إلا أنه يخفى أن الوضع « اللونى » قد تحول بذاته إلى وضع طبقى ووطنى . . فالسود يمثلون أصحاب البلاد الحقيقيين ، ويعانون كافة ألوان القهر والاستغلال ، والبيض يمثلون الفئات الاستعمارية الاستغلالية . ومما يؤسف له أن بعض العناصر التى ترفع شعار « السياسة التقدمية » انساقت فى دعوى الاستعمارى المحنك «ترو جولد» ودفعت باتحاد العمال الإفريقيين إلى الاصطدام برابطة الموظفين الإفريقيين ورفعت شعار التضامن بين العمال الإفريقيين والأوروبيين ولكن الرد الحاسم الذى جاء من اتحادات العمال الأوروبية فى إضرابها ضد مطالب الإفريقيين أعاد الأمور إلى وضعها السليم بين صفوف العمال الإفريقيين وأدركوا أن الواجب هو الوقوف بحسم إلى جانب القوى الإفريقية كلها فى مرحلة التحرر الوطنى .

وهناك دعوى أشد مكراً أو خداعاً ، تلك التى يروج لها « مالفرن » والذى ينادى بإيجاد طبقة بورجوازية إفريقية تفهم سياسة الأوروبيين ، ويمكن الاعتماد عليها فى تنفيذ هذه السياسة ، ويقول فى تدعيم حجته التى يوحى بها لبريطانيا والمستوطنين على السواء ، إن هذه الطبقة المالكة تحس بالملكية وتحرص عليها ، ولا تندفع فى تيار القومية الإفريقية . . وبالفعل انخدع بهذه الدعوى – لحد ما – فى روديسيا الجنوبية الزعيمين الإفريقيين «ليوبولد تاكوبرا » و « ستيهول » مؤلف كتاب القومية الإفريقية المشهور ، وقاما بتأسيس الحزب الديموقراطى الجديد .

وشاعت لفترات محدودة نغمة حل النزاع بالطرق السلمية ، كما عبر عن ذلك الزعيم الإفريقى فى نياسالاند « تشيروا » وخطر هذه الدعوى ، ما توحى به من إدانة لمواقف الأجزاء الأخرى من الحركة الوطنية . . وقد بلغ الأمر بـ « ولنجتون تشيروا » وزميله « كوميكانو » أن رفضا توجيه المؤتمر الوطنى الإفريقى فى نياسالاند بالاستقالة من المجلس التشريعى احتجاجاً على موقف الحكومة فى الاتحاد الفيدرالى وخرجا بنظرية الكفاح ضد الاتحاد الفيدرالى من داخل الأشكال النيابية ؛ وقد رفض المؤتمر الإفريقى هذه النظرية لأنه ليست هنــاك حرية انتخابيــة للإفريقيين . وقرر طردهما من صفوف المؤتمر . . وبعدها صرح « ولنجتون تشيروا » بأن قيادة الدكتور باندا خطر على نياسالاند . . نقول هذا لأن « ولنجتون تشيروا » من المناضلــين الإفريقيين ، وكان مسجوناً مع الدكتور باندا وعقب الإفراج عنه فى أغسطس من عام ١٩٥٩ أسس حزباً جديداً وسلم قيادته للدكتور باندا عقب الإفراج عنه... تماماً كما فعل المناضل « شونا » فى

روديسيا الشمالية عند ما أسس حزباً سلم قيادته للزعيم « نكيمبولا » بعد الإفراج عنه .

القضية الرئيسية

لقد سجلنا الأمثلة السابقة ، إيماناً منا بأن القضية الرئيسية هى استقلال روديسيا الجنوبية . وروديسيا الشمالية ، ونياسالاند من الاستعمار البريطانى ، والتخلص من مخالب عنصرية الأوروبيين المستوطنين .. وهذا لن يتحقق إلا بالإصرار على هذه القضية الرئيسية ، وعدم إلقاء الثقل فى منازعات الحريات الجزئية .. ولن يتحقق هذا إلا بتكاتف القوى الوطنية الإفريقية حول مطالب المرحلة الحالية . وهى مرحلة التحرر الوطنى . ولو أدى ذلك إلى التضحية بمطالب مؤقتة .. ولن يتحقق أيضاً إلا باليقظة الكاملة إزاء محاولات الاستعمار والمستوطنين لجنح الحركة الوطنية وإحداث الثغرات بها ..

والمجد للشعب الإفريقى فى روديسيا ونياسالاند .

والخزى والعار للاستعمار البريطانى والمستوطنين العنصريين .

من القصص الأفريقي

على ضفاف الكونغو

الدكتور : جمال الدين الرمادى

منذ سنوات كان لمستر باترى مستعمرة كبيرة فى حوض الكونغو لاستخراج المطاط والمستك وكان يضيق بعمله فى بلاده فحضر إلى إفريقية يلتمس مزيداً من الرزق . وقد أجابه الله لرغبته فأصبح فى مدة وجيزة صاحب هذه المستعمرة الكبيرة التى يعمل فيها ما يقرب من خمسين عاملا من العمال الإفريقيين الذين يواصلون الليل بالنهار فى قطع الأشجار ، واستخراج المطاط والمستك من حوض الكونغو العظيم .

واستيقظ باترى ذات يوم مع الصباح وأخذ يتمدد على فراشه . ويبسط ذراعيه وفجأة رنت فى أذنه صرخة داوية شقت حجاب الغابة . فانتفض مذعوراً ونهض من مرقده والدهشة تعلو وجهه . وفتح الباب فى الحال فوجد رجلا من رجاله السود وقد أمسكت به قردة من نوع الشمبانزى حتى أوشكت أن تقتله . وحملق مذعوراً فوجد القردة أنشبت أظافرها فى وجهه وفقأت إحدى عينيه فشعر برعدة تنتابه ، وأسرع يحمل بندقيته وصوبها نحو القردة فخرت لتوها هامدة على الأرض . ولم يكد يقتل باترى هذه القردة حتى شعر بقردة أخرى تسقط من إحدى الأشجار وتقبض على البندقية التى يحملها فتسقط من يديه من فرط الدهشة ، وتطبق الشمبانزى عليه . ويهرع الرجال السود من كل جانب لإنقاذ باترى رب المستعمرة . ولكن جراح باترى كانت أقوى منهم جميعاً ففاضت روحه بين دموع رجاله السود المخلصين .

وهكذا مات باترى بعد أن أنقذ « بونى » الفتى الأسود الذى انقضت عليه الشمبانزى .

ولما سار الرجال خلف نعش باترى كان بونى يتقطع قلبه من الحزن وهو يرثى سيده بعبارات مختنقة .

ولم ينجب باترى من الأبناء والبنات سوى « لوسيت » الفتاة الصغيرة التى لا يتعدى عمرها ثلاث سنوات ، فأخذ

المسيو سورناس رئيس المستعمرة يتظاهر بالعناية بها ويحضر بعض الحلوى التى يزعم أنها وصلت لها خصيصاً بالطائرة . وكانت لوسيت تسأله بين الحين والحين عن موعد وصول الطائرة التى تقل لها الحلوى فيجيبها بأن الطائرة أسقطت الحلوى من السماء ! .

وكانت لوسيت محرومة من حنان الأمومة والأبوة . فأمها ماتت قبل أبيها بعامين ، ولذلك كانت تجد فى مداعبات موروناس سلوى لقلبها . ولم تكن الفتاة الصغيرة تعلم أن والديها لن تراهم أبداً لأن «موروناس» بث فى روعها أنهما فى رحلة صغيرة ولن يلبثا حتى يعودا ، وقد أبى أبوها إلا أن يذهب فى هذه الرحلة لإحضار أمها التى طال غيابها .

وكان موروناس يضرب الشمبانزى بعصا غليظة ، أمام الحاضرين من الرجال حتى يلقى فى روعهم أنه أسف لوفاة باترى ، وفى الواقع أن هذا العمل كان مجرد تظاهر فقط . غير أن الرجال السود — ومنهم بوبى — عرفوا أن الشمبانزى لم تفعل ذلك عن قصد ، وشعروا بالشفقة عليها من الضرب كل يوم ، فكانوا يأتون إليها بالطعام كل ليلة على غير علم موروناس ، وهكذا سار الحيوان يأنس بهم وينفر من موروناس .

وفكر موروناس فى حيلة للتخلص من الطفلة « لوسيت » التى تقف حجر عثرة فى سبيل إرثه المستعمرة الكبيرة ، فلما جن الليل ، حمل الطفلة لوسيت بين ذراعيه وهى نائمة حتى وصل إلى نهر الكونغو فوجد مياهه تزأر ، ووجد أمواجه تصطدم بالشاطئ فى عنف وقوة ، والرذاذ يتطاير على ضفة الكنغو رهيباً مخيفاً . وخطر له أن يغرق الطفلة « لوسيت » بين أعماق هذا النهر فأركبها معه فى زورق وأخذ يجدف وسط التيار المتدفق ، وقد كمم فمها بمنديل حتى يكتم أنفاسها ، ويمنع صراخها .

وحدث أن كان الفتى الأسود « بوبى » ذاهباً لإطعام الشمبانزى فى الليل بعيداً عن أنظار سيده فسمع صوتاً فى النهر ، وأحس بصوت المجاديف وهى تصد المياه فى عنف فأخذ يتأمل النهر ملياً ، فرأى «موروناس» وهو يوشك أن يغرق لوسيت فى النهر وكان ثوبها الأبيض يلمع فى الظلام ، ويتراءى تحت ضوء النجوم الباهتة

فتملكه العجب ، وصمم على إنقاذ « لوسيت » مهما كلفه ذلك من جهد ، فألقى بنفسه فى نهر الكونغو بعيداً عن الزورق دون أن يشعر موروناس ، ولم يكد موروناس يقذف بالفتاة فى اليم ويولى الأدبار حتى سبح الفتى الأسود « بوبى » وأنقذ « لوسيت » وحملها بين ذراعيه إلى الشاطئ .

ولم يشأ بوبى أن يحمل الطفلة مرة أخرى إلى صاحب المستعمرة الشرير إنما حملها عند شيخ أسود صالح يقطن بالقرب من المستعمرة . وقص عليه قصتها ، وكيف أنقذها من الموت المحقق ولم يشأ الشيخ « چوب » الصالح أن يبقى الطفلة بجوار موطن الخطر فحملها إلى قبيلة بعيدة من قبائل « الماتابالوس » وهناك أكرمها أهلها ، وأغدقوا عليها الخيرات ، وأخذوا يحتفون بالبنت البيضاء كأنها فتاة من بناتهم . وتعلق قلب الشيخ الصالح « چوب » بهذه الفتاة الصغيرة ، فهجر أهله وسكن مع هذه القبيلة ابتغاء العناية بها ، وكان يتركها فى بعض الأحيان ليذهب إلى أهله ، ويتتبع الأخبار عن موروناس الشرير ، ثم يحضر إلى « لوسيت » ليقص عليها أنباء رحلته وهى تصغى إليه فى شوق ولهفة ، وما زال « چوب » يرعى لوسيت حتى نضج عودها ، وشبت وترعرت ، وكبرت وصار عمرها سبعة عشر ربيعاً فغدت آية فى الجمال .

وذات يوم حضر إلى هذه المستعمرة رحالة أوروبى يسمى « چوهان » مع عدد من خدمه وتابعيه . والتمس من شيخ القبيلة المبيت عندهم لأن الليل قد جن عليه وعلى رجاله ، وكان هذا الشاب ابناً لأحد كبار تجار اللستك الموجودين فى هذه المنطقة من إفريقية ، فلما لمح الفتاة « لوسيت » فى القبيلة اعترته دهشة مفرطة . وحملق فيها وهو لا يصدق عينيه ، إذ كانت الفتاة بيضاء اللون متوردة الخدين ، ناهدة الصدر ، ملفوفة القوام ، غير أنها كانت ترتدى الملابس الوطنية وتتكلم بلغة أهل القبيلة ، دون تلعثم . وتملكه حب الاستطلاع فرغب فى معرفة سر هذه الفتاة واستدرج رجال « الماتابالوس » إلى إفشاء سرها فسردوا له كيف جاء بها شيخ عجوز يسمى « چوب » وكيف خلصها الفتى الأسود « بوبى » من براثن الموت حين حاول موروناس إغراقها . فاستشاط الشاب غضباً ، وأقسم أن ينتقم لها من هذا المعتدى الأثيم .

ولم يمض أسبوعان حتى أقبل الشاب « جوهان » فى صحبة والده إلى هذه المستعمرة ولما شاهد الأب جمال « لوسيت » تملكه العجب ، وشعر بميل نحوها ، وعطف عليها وصمم أن يرد لها حقوقها المغتصبة ، وإرثها المسلوب فطلب من لوسيت ومن الشيخ « جوب » أن يصحباه إلى مستعمرة باترى .

ووصل الركب إلى مكان قريب من المستعمرة ، فجلس الجميع ليستريحوا ، ثم نهضوا للدخول إلى المستعمرة ، والفتاة تتلفت يمنة ويسرة ، وهى تسترجع الذكريات الماضية وتحاول أن تذكر منها شيئاً ، فلا تتذكر سوى أطياف باهتة ، وتوجه الجميع صوب موروناس الذى غدا معدماً : وفجأة وقع نظر موروناس على الفتاة وهى قادمة مع السيد « مارينو » وابنه « جوهان » فأحس بصدره وقد انقبض . وصرخ مارينو فى وجه موروناس هذه هى الفتاة الصغيرة التى ألقيتها فى نهر الكونغو منذ سنوات بعيدة ها هى ذى أمامك واقفة وقد أصبحت غادة حسناء ! لقد ظننت أنك أغرقتها ولكن يد العناية الربانية أنقذتها من شرك ! وحملتها بعيداً عنك ، وها هى ذى تعود إليك » مرة ثانية لتسترحقوقها المغتصبة ، ونصيبها الشرعى من هذه المستعمرة .

وما كاد « مارينو » يتم كلامه حتى أخرج « موروناس » مسدسه وصوبه فى وجه مارينو ولكن الفتى الأسود « بوبى » انقض عليه وشد وثاقه ، وانتزع منه المسدس الذى كان يحمله وأوثقه فى جذع شجرة ، وأطلق عليه أحد رجال القبيلة الشمبازى الذى كان يضربه بالعصا الغليظة ، فهجم عليه هجمة قوية كادت تفتك به لولا أن بوبى أمر الشمبازى بالانسحاب ،

ثم احتفل الجميع بعودة لوسيت إلى مركز أبيها فى مستعمرة المطاط ، ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان ، إذ تقدم جوهان طالباً يدها فرحبت به عرفاناً منها بجميله ، وتزوجت منه ، وسافرت معه راجعة إلى بلده ، أما المستعمرة فإنها ردتها إلى أهلها الذين أنقذوا حياتها من الموت ، وعهدت برئاستها إلى بوبى الفتى الأسود الذى أنقذ حياتها من الموت ومن العدو . ورجعت الأرض إلى أهلها بفضل إخلاصهم .

حياتى كما عشتها

بقلم : اندايانجى سيتهول

ترجمة وتلخيص : عبد الواحد الإمبابى

عند ما بلغ والدى جيم سيتهول الثامنة عشرة من عمره غادر جازالاند – موطن رأسه – للبحث عن المغامرة والثروة فى « أومثالى » ، وهناك استقر أربعة أشهر ، قرر بعدها الهجرة إلى سالسبورى حيث اشتغل « مرمطوناً » فى مطبخ لمدة عامين ، وفى هذه المدينة استطاع أن يحصل على قدر قليل من اللغتين الإنجليزية والأفريكانية . ولكنه لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة بهما تماماً ، كما لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة بأية لهجة من اللهجات فى روديسيا الجنوبية ، ثم أغرته القصص التى يرويها له أبناء بلدته عن الثروة والرخاء فى « جوبلو » فترك سالسبورى ليشتغل عاملا فى أحد الفنادق الكبيرة بهذه المدينة ، ولما لم يجد الثروة والرخاء اتجه إلى « بولاوايو » للحصول على عمل مناسب هناك . وبينما كان سائراً فى طريقه لأداء مهمة كلفه بها سيده إذ يلتقى – فى صباح مشرق – بفتاة روديسية على جانب كبير من الفتنة والجمال فتوقف مشدوها ليستمتع – كما كان يقول هو نفسه دائماً – بهذا الجمال الفاتن الذى تمتاز به هذه الفتاة . ولكن المهمة التى كلفه بها سيده كانت تتطلب منه أن يمضى فى طريقه دون إبطاء . فتوقف حائراً بين أوامر سيده ورغبة قلبه ، إلا أنه سرعان ما نسى كل ما يتعلق بأوامر هذا السيد ، ومرت ساعة ونصف ساعة ، وهو فى صمت . ثم بدأ يتعرف على كل ما يتصل بهذه الفتاة . . عرف اسمها « سيابى تشوما » وعنوان منزلها فى « نياماندلوفو » وأحست الفتاة بالسعادة لأنها استطاعت أن تسيطر على مشاعر رجل جميل مثل والدى .

وكانت خمس زيارات متوالية قام بها أبى إلى منطقة « نياماندلوفو » كفيلة بأن تأتى بما يناسبها من جزاء . فلم تكد تمضى ستة أشهر بعد خطبته لسيابى تشوما حتى تم الزواج بينهما طبقاً للتقاليد الوطنية ، وفى الحادى والعشرين من شهر يوليو عام ١٩٢٠ ولد لهما طفل صغير لم يكن سوى اندايانجى الذى هو أنا ، لقد رأيت نور الحياة لأول مرة فى كوخ متواضع مصنوع من الطين وبعض القوائم الخشبية . وكانت أرضيته مليئة بالقاذورات . ونمت على حشية لم تكن سوى قطع من الجلود القديمة ، وكان مرقدى حصيراً من الغاب . وصنع لى من جلد الماعز غطاء أتدثر به خوفاً من البرد . أما الوسادة التى أضع عليها رأسى فكانت عبارة عن جلد أرنب ملفوف . وهكذا استقبلت الحياة فى هذا الكوخ البسيط ثم قامت أمى بإجراء طقوس التدخين – وهى عادة منتشرة فى بلادنا تحظى بتقديس الجميع واحترامهم لها – فأمسكت بقرن ماعز بعد أن أشعلت فيه النار وجعلتنى أستنشقه حتى لا يصيبنى شر – كما كانت تعتقد – واستمرت

هذه الطقوس لمده ثلاثة أسابيع حتى أصبحت محصناً ضد أى مكروه يأتينى من الجيران .

وعند ما بلغت السابعة من عمرى كنت ألعب مع أترابى لعبة « اختبئ وفتش » « الاستغماية » وأصنع تماثيل الثيران من طين الفخار ، حتى إذا ما جاء المساء كنا نتجمع حول جدتى الحيزبون لنستمع إليها فى «حواديتها» القديمة الشيقة التى كانت تقصها علينا كل ليلة . . لقد كانت هذه الجدة بحق راوية قصص مدهشة . ولم يك من السهولة أن ننسى واحدة منها . فقد كانت من النوع الذى يقف شعر رأسك وأنت تستمع إليه . ممتع لدرجة أنك لا تمل سماعه حتى ولو كررته عشرات المرات ، فكانت جدتى تقص حكاياتها بطريقة حية ديناميكية . وكان فى استطاعتها أن تروى لك قصة ثم تدخل عليها بعض الغناء وتستمر بعد ذلك فى مواصلة أحاديثها ، وكثيراً ما كانت ترقص فى القصة إذا كانت القصة تتضمن رقصاً وكنا نشترك معها فى الرقص والغناء ، وتصبح عبادتها لنا « إما أن تسلكوا سلوكاً طيباً أو لا تسمعوا قصة منى » تحذيراً حقيقياً لنا بأن نسلك طريقاً مهذباً .

وبعد السابعة من عمرى أخذت أقضى حياتى بين خوار البقر ومواء الخراف وثغاء الماعز والأغنام وسط الغابات والمراعى . وكان الرعى عملية استرقاق سخيفة . . كنت — كبقية الصبية الآخرين — أكرهها ولا أميل إليها ، وكم كنت أحسد الرجال لأنهم لا يشتغلون بالرعى ، وأتمنى أن أكبر بسرعة لأصبح واحداً منهم .

كنا نلاقى كثيراً من المتاعب التى تأتى عرضاً ونحن نقوم برعى القطعان ، وكان الجوع من غير شك إحدى هذه الصعوبات ، ذلك لأننا كنا نتناول طعام الإفطار فى حوالى الساعة العاشرة صباحاً ثم نقود الماشية إلى منطقة المراعى التى تبعد خمسة أميال — على الأقل — عن قريتنا ولم يكن لدينا ما نأكله حتى المساء سوى بعض ثمار الغابات عند ما يكون الوقت موسمها ، ولذلك فقد كنا دائماً نقوم بأداء بعض الصلوات فى صمت ، نرجو من الله أن يعجل بمغيب الشمس حتى نعود إلى منازلنا ونملأ أمعاءنا الخاوية .

وكان محرماً علينا أن نعود بقطعان الماشية قبل الغروب ، أما غير الجوع من المتاعب فقد كانت تأتينا من الصبية الذين هم أكبر منا سناً ، لقد كانوا ينصبون أنفسهم رؤساء علينا ، وكان من المحتم أن نقوم نحن الصغار بالجانب الشاق فى عملية الرعى ، والويل كل الويل لمن ينقل إلى الرجال فى القرية أخبار ما كان يفعله هؤلاء الصبية الكبار فى الغابة ، وأذكر فى أحد الأيام أن أصدر « زنزو » — الصبى الكبير الذى كان يفرض علينا سلطانه — تحذيرا

إلينا بألا نتحدث إلى أى مخلوق فى القرية عن سرقته بعض حبات الشمام من حديقة « منزولو » ووعدنا جميعاً بألا نفعل ، إلا أننا ونحن جلوس حول النيران نشارك كبار القرية متعة الدفء فى يوم زمهرير أشرت فى كبرياء إلى منزو قائلا : « لقد كنت تعتقد بأننا سنقول للرجال هنا إننا قد أخذنا حبات الشمام من حديقة السيد منزولو ، لا . . يجب أن تعرف أنني لم أفعل ذلك » ويا لسوء حظى بعد أن ذكرت ذلك فى القرية ، لقد تعلمت الدرس بطريقة قاسية . . ففى اليوم التالى ، كان كل صبى فى القرية يقابلنى يلهب ساقى بسوط لاسع وكانوا يقولون لى « لا يصح أن تقول مثل هذه الأشياء أمام الرجال فى القرية » ومن يومها لم أرتكب هذا الخطأ مرة ثانية . . وفى أحد الأيام وبينما كنا نسير وراء قطعاننا وهى تلتقط أعواد الحشائش من المراعى رأينا منظراً عجيباً للغاية . لقد ظنناه فى بادئ الأمر كوخاً ، إلا أنه كان يتحرك فى سرعة عجيبة فاندفعنا فى خوف ورعب داخل الغابة القريبة منا غير أن الفضول أو حب الاستطلاع قد كبح مخاوفنا بعض الشئ فتوقفنا عن السير ، وبقلوب وجلة مضطربة أخفينا أنفسنا وراء بعض أشجار الغابة . وأخذنا نسترق النظر من خلال الأغصان فوجدنا الكوخ المتحرك يمشى فوق المنحدر ، فصرخنا جميعاً فى صوت واحد يا للهول لقد رآنا هذا الشبح الجديد ، وبسرعة عجيبة أصبحنا داخل الغابة خوفاً على حياتنا ، وبعد أن وصلنا إلى القرية وقصصنا على الأهل أخبار ما صادفنا انفجر الذين كانوا قد رأوا السيارات من قبل فى « بولاواير » ضاحكين .

كان لدى — كما كان لكل طفل فى إقليمنا — مريلتان من الجلد، إحداهما أغطى بها ظهرى والأخرى أسدلها على صدرى ، وكنا نطلق عليهما اسم « أمابتشو » أما بقية جسدى فكان عارياً دائماً . وفى الأيام التى تشتد فيها البرد أو المطر كنت أستخدم غرارة قديمة لتؤدى وظيفة « البالطو » . وحول رقبتى كنت أضع الـ «أنتيبى » وهى تميمة يقال إنها تحمى الإنسان من الأرواح الشريرة التى كنا نعتقد أنها تعيش فى الغابات الكبيرة المظلمة فى نياماندلوفو ، كما كنت ألف حول خاصرتى تميمة أخرى يقال إنها تحفظنى من شرور جيرانى .

وفى صبيحة أحد الأيام رافقت خالى إلى حوض الغطس لأرى الرجل الأبيض الذى يقال إنه قد أتى إلى هذا المكان لكى يكوى الماشية ، ولم أكن قد رأيت وجهاً أبيض من قبل ، فدهشت حين رأيت أمامى هذا المخلوق العجيب ، وتعلقت بذراع خالى فى عنف ، فالرجل الأبيض كان طويلا مخيفاً ، تتحرك عيناه بسرعة واضطراب

كعيني هذا النمر الذى رأيته فى أحد الأيام ، لقد كان هذا الأبيض سيد هذه المنطقة ، فالجميع يبدون اهتماماً زائداً به ، ثم شاهدته يمسك بقطعة حديد محماة ويكوى بها عجز البقرة فتصرخ بأعلى صوتها ، وارتعدت فرائصى خوفاً من رؤية هذا المنظر البشع ، ومن هذا اليوم لا أستطيع أن أحب هذا الرجل الذى يحرق الأبقار الطيبة .

وفى أواخر عام ١٩٣٠ قرر أبى مغادرة « نياماندلوفو » إلى شابانى جرياً وراء لقمة العيش فسرنا على أقدامنا قرابة خمسين ميلا حتى وصلنا إلى محطة السكة الحديد فى بمبسى . وكان والدى يحمل أخى الصغير « ماجوازا » على ظهره ، بينما كانت أمى هى الأخرى تحمل على ظهرها أختى سيناى . أما أنا فتحملنى قدماى ، ولما كنت لم أر القطار من قبل وقفت أنتظر قدومه على أحر من الجمر .

واشترى أبى لنا لأول مرة فى حياتنا بعض الملابس الأوروبيـــة فألقيت بملابسى القديمة ، وجاهدت كثيراً حتى ارتديت البنطلون القصير الكاكى ، كذلك وجدت مشقة كبرى فى ارتداء القميص الكاكى ، وبعد أن اكتمل لى الملبس وقفت أبتسم فى خيلاء ولا أكاد أصدق أننى أنا ! ثم وضعت كلتا يدى داخل جيوب (بنطلونى) ، كما لو كنت شخصاً ذا أهمية واعتبار .

وفجأة وعلى مسافة غير بعيدة سمعت صوتاً غريباً يرن فى أذنى . . . بف . . بف . . بف . . فأحسست برعب قاتل يسرى فى كل أوصالى وتملكنى شعور بالارتياع إلا أننى كنت أتحسس فى أعماق شعوراً مبهماً بأن هذا القطار سينقلنى إلى عالم أفضل ، وكدت أنسى جدتى وما كانت تقصه علينا من حكايات ، وأخذت أستمع إلى الضوضاء المزعجة التى تصل إلينا من الجهة التى سيأتى منها القطار . وسرعان ما تحول الفضول إلى خوف وحرت فى أمر هذه الضوضاء غير أن الشبح الأسود الضخم قد بدأ يتراءى أمام ناظرى من بعد قريب ، وصرخت حين وجدت سحب الدخان التى تتصاعد من العربة الأمامية تجرى نحوى وكأنها موجهة إلى أنا دون غيرى . . يا إلهى أنقذنى من هذا الشبح . . . واندفعت أعدو فى الطريق لأصل إلى قرية جدتى حيث لا تعيش عندها مثل هذه الأشباح المزعجة ، واشتقت إلى السلام والطمأنينة اللذين كنت أنعم بهما فى كوخ جدتى المصنوع من الطين ، وكنت قد قطعت ما يقرب من ربع ميل قبل أن يلمحنى والدى ويحملنى بالقوة إلى المحطة ويركلنى بقدميه ، وكنت قد قررت أن أقفز من القطار إذا لم يمنعنى والدى من ذلك فقد جلست على أحد المقاعد وقلبى يضرب رعباً فأمسكت بذراع أمى فى قوة حتى أصبح منظرى موضع التفكه والسخرية

من جميع الركاب معنا .

وأخيراً وصلنا إلى شابانى حيث بهت لرؤية الأكواخ المنتظمة فى صفوف متراصة بشكل عجيب ، وأثارنى أكثر من هذا وجود هذه القبائل الكثيرة التى تتحدث عدة لغات مختلفة ، وطرائق الحياة التى لم أر لها مثيلا من قبل،وكانت الحياة فى هذه المدينة — على أى حال — أسهل نسبياً من غيرها ، لن أقوم بعمليات الرعى هنا ، كما كنت أفعل من قبل ، وهذا كسب كبير لى أنا شخصياً — على الأقل — ثم سارت حياتنا فى هذه المدينة رتيبة مريحة . كنا نقضى معظم أوقاتنا نلعب ونزور المخازن القريبة ونكتشف الحوانيت التى لا عهد لنا بها ، وفى أيام السبت والآحاد كنا نشتغل فى ملاعب الجولف الأوروبية كخدم نلتقط الكورة .

وفى شابانى كانت توجد مدرسة تديرها هيئة إرسالية بريطانية ، وقررت فى عام ١٩٣٢ أن ألتحق بهذه المدرسة حيث لم يكن لدى ما أعمله . ورأيت أنه شىء جميل أن أفعل مايفعله الأطفال فى هذه المنطقة ، فذهبت إلى هذه المدرسة وأخذت أدرس الإنجيل وبعض الأعمال اليدوية البسيطة ، وأذكر مدرسنا الحازم الذى لم يكن يبخل على أحد منا بلسعة حادة من سوطه الرهيب عندما نتأخر قليلا عن موعد الحضور أو نهمل فى أداء واجباتنا المدرسية ، وكان لهذا الكرباج سحر عجيب يساعد المدرس على تحقيق كل ما يريد أن يحققه .

لم يكن أبي موافقاً على أن أذهب إلى المدرسة بينما كانت أمنية أمى أن أصبح رجلا مثقفاً ، وعلى الرغم من ألم سوط مدرسنا الحازم كنا شغوفين بتلقى العلم ، ولما كان العلم والسوط فى المدرسة شيئين متلازمين لذلك رضينا بالاثنين معاً ... إلا أننى فى عام ١٩٣٢ اضطررت أن أترك المدرسة لإصرار والدى على ذلك ، والتحقت بالعمل فى منزل مستر « بل » خادم مطبخ « مرمطوناً » وكان على بجانب ذلك أن أرعى ولده الذى يبلغ من العمر خمس سنوات ، وعلمتنى مسز « بل » أن أغسل وجهى وأسنانى وأستحم بانتظام ، كما علمتنى كيف أقص أظافرى ، وكانت تستشيط غضباً عند ما تلمح أى أثر لقذارة على ملابسى ، ويومها كنت أتعجب : ما الذى يثير مسز « بل » هكذا ما دامت القذارة ستصيبنى أنا وحدى بالضرر ولن يصيبها منها شىء ! ! . . وفى عام ١٩٣٩ تلقيت خطاباً من ابن عمى الذى يصغرنى بخمس سنوات مكتوباً باللغة الإنجليزية ، وعلى الرغم من أننى كنت لا أزال أواصل دراستى فى إحدى المدارس الليلية فإننى لم أكن قد وصلت بعد إلى المستوى الذى يمكننى من قراءته ، فأحسست بكرامتى تنهار ، وكنت — كما يقول المثل فى بلادنا — أحترق من الداخل ، إذ كيف يصل ابن عمى الذى يصغرنى بخمس سنوات إلى مستوى لا أستطيع أن أصل إليه ، وبعد مناقشات طويلة بينى وبين مستر « بل » قررت ترك العمل والتفرغ للدراسة . كان مستر « بل » يرغب فى أن أبقى خادماً إلى الأبد أعمل فى منزله ، وكانت السيدة قرينته سيدتى مسز بل — كما كنت أناديها — شديدة الحرص على أن أظل حياتى كلها « مرمطوناً » فى مطبخها،وحين أفضيت إلى والدى بهذه الرغبة كان — كما كنت أتوقع — معارضاً عنيفاً ، فقد نهرنى فى غلظة وقال لى بصوته الجهورى : عد أيها الولد الكسول إلى عملك ، ولا تتحدث مرة أخرى عن المدرسة ، وكان على أن أتظاهر بالموافقة على ما يراه والدى فقلت له : نعم سأفعل ما تريد يا والدى .

وفى الصباح التالى جمعت كل ملابسى . وما كان عندى من أغطية . وهربت بالقطار خلسة إلى حيث إرسالية « دادايا » وهناك قابلت الرئيس الذى اعتذر لى بأنه لا يمكن قبولى الآن حيث أننا فى أغسطس والتقديم عادة يكون فى أوائل العام الدراسى . وهنا تملكتنى الحسرة وأحسست بالدموع تماوج فى عيناى . غير أن الإرسالية بعد ذلك فهمت موقفى ، فتقررت قبولى فى الفصول الأولية بعد أن دفعت جزءاً مما أدخرته وساعدتنى مسز جريس تود فى ذلك كثيراً وعندئذ فقط شعرت بأن جرحى قد بدأ يلتئم . وأخذت أنخرط فى هذه البيئــة المدرسية بكل مشاعــرى وأحاسيسى ، وأدركت أنى إذا تعلمت كيف أكتب بيدى اليمنى فسأكسب الحياة بيدى اليسرى ، كما أدركت كذلك أن المدارس تزودنا بأشياء لا يمكن أن نعرفها من خارج فصولها . وكنت مضطراً إلى أن أعمل فى أوقات الفراغ لكى أسدد مصاريف المدرسة . وفى الأجازة الصيفية التحقت للعمل بصيدلية الإرسالية ، وتعود الصيدلى أن يقول لى عبارته التقليدية — عند ما يرانى وقد أخذ منى التعب مأخذاً كبيراً — « إننا نخدم الناس من أجل المسيح » ولم أقتنع فى بادئ الأمر بما يقوله هذا الصيدلى ، إلا أنى أدركت فيما بعد ، حين كنت أرى السعادة تنتابنى لشفاء مريض أو إغاثة ملهوف ، أدركت أن الإحساس بالإنسانية والرحمة شىء يتكون فى أعماق النفوس . ولا يمكن أن يفرض علينا من خارجنا .

وفى عام ١٩٣٩ انتهيت من الدراسة فى إرسالية « دادايا » وكان ترتيبى متقدماً فاستحققت عن جدارة منحة مجانية للدراسة فى معهد « واديلوف » حيث قضيت عامين كاملين درست خلالهما بعض العلوم الفنية بجانب العلوم العامة المشتركة ، وأدركت أن القراءة لمجرد الامتحان فقط عادة سخيفة ، فالقراءة يجب أن تكون كذلك مصدراً من مصادر المتعة والسعادة الذهنية ، وإيماناً بهذه النظرية التهمت خلال عامين ما يزيد على خمسين كتاباً فى الأدب الكلاسيكى . كان من بينها « دافيد كوبرفيلد » و « اليفرتوست » و « أيام بمبيى الأخيرة » وغيرها .

وبعد إتمام دراستى فى معهــد واديلوف عينت مدرساً بإحدى المدارس الابتدائية ، ولكننى حرصت أثناء ذلك على متابعة الدرس وتحصيل العلم ، فأخذت أتابع الدراسة للحصول على مؤهل أعلى . وفى هذه المدرسة تعلمت أن الإنسان كثيراً ما تفقده بعض الأحداث قوته فى التحكم فى أعصابه . فقد كان فى المدرسة فتاة صغيرة تعودت أن تحضر كل يوم متأخرة عن بقية

زميلاتها . وكانت كثيرة الابتسام تضحك حين أطلب منها أن تكف عن ذلك ولم يكن من عادتي أن أضرب أحداً ، حتى ولو كان تلميذاً لى لا لأن مستر بلوكي — أستاذى السابق — لم يكن يضربنا وكان يدعونا ألا نضرب أحداً . بل إننى كنت أخشى رد فعل عملية مثل هذه مع فتاة يعرف الناس جميعاً أن أباها ساحر يستخدم التمائم والتعاويذ لأغراض شريرة . . ولكننى اضطررت تحت مواصلتها إثارتى بما كانت تأتيه من حركات إلى طردها من الفصل . وهنا صاح الأطفال فى صوت واحد : أستاذنا : إنك ستموت حتما . إنك ستموت فى أقرب فرصة لا تتوقعها . . . قلت لنفسى إن هؤلاء الأطفال هم جيل المستقبل ،وإذا كان إيمانهم بالسحر والشعوذة قد وصل بهم إلى هذا المدى فإن من الصعب أن نتلافى خطورة ذلك فى الغد . ولم يشرق صباح اليوم التالى حتى فوجئت بالفتاة وبرفقتها والدها الساحر . وبعد أن رمقنى بنظرة ساخرة تحمل كل معانى الازدراء لى كصبى صغير . سألنى لماذا ضربت ابنتى وطردتها من الفصل ؟ وحين حاولت أن أشرح له المسألة بطريقة مهذبة رفض أن يستمع إلى وهددنى قائلا : « يجب أن تعرف أنك لن ترى موسم الحصاد القادم . » وكان هذا يعنى أنه سيسلط على أرواحه الشريرة لتقتلع وجودى من على ظهر الأرض

وكنت قد سمعت الكثير من القصص التى تدور حول معجزات هذا الرجل وأساطيره ! وقلت له : إذا كنت تهددنى بأننى لن أرى موسم الحصاد القادم فإننى أنذرك بأنك لن ترى أسرتك الليلة . . . وإننى آسف جداً لأنك لم تودع أسرتك قبل أن تختفى فهم لن يروك مرة ثانية . فرد على فى ثورة غضب صارمة : ماذا . . هل تمكن لصبى صغير مثلك أن يعرف الأسرار العميقة للحياة ؟ فأجبت على الفور : إن ميدان التحدى هو الذى سيبين أينا على صواب . . ودهشت لأن الرجل قد انهار تماماً . ورجانى أن أن أعفو عنه وأخذ يبدى عجبه . وإعجابه بهذه القوة السحرية التى أتى إلى بها العلم فى المدرسة . وبذلك حطمت ادعاءاته بأنه ساحر وصاحب معجزات . . وفكرت بعد ذلك فى مواصلة دراستى الجامعية إلا أننى كنت أواجه بعض الصعوبات التى لم يك من السهل التغلب عليها . فقد أصبحت مسئولا عن ثلاث أخوات كن يتلقين علومهن فى المدرسة وكان على أن أرعاهن .

وفى عام ١٩٤٠ تزوجت . وحين رزقت بفتاتى الأولى أصرت أمى ، وشاركتها فى ذلك حماتى على أن تجرى لها شعيرة التدخين فرفضت ذلك قائلا لها : إن رجلا مثقفاً مثلى لا يصح له أن يفعل ما تأمرين به ، فهددونى بأننى

إذا لم أفعل ذلك فستتعرض ابنتى للموت وأخبرنى بأنها ستقوم بنفسها بإجراء هذا الطقس المقدس سواء وافقت أم رفضت، فالبنت ليست لى وحدى . بل هى ملك لآل سيتهول وقالت لى : لقد أجريت لك عملية التدخين . كما فعلت مع إخوتك الثمانية . ولو لم أفعل ذلك لما عشت أنت وإخوتك ووصلت إلى هذا السن .

وفى عام ١٩٥٨ اشتغلت واعظاً فى أحد السجون ودهشت حين رأيت المسجونين لن يفقدوا بعد طابع المرح بالرغم من الأسوار التى أقيمت بينهم وبين الناس وعزلتهم عن الحياة لقد كانوا يغنون ويرقصون فى أوقات فراغهم . وظللت أقوم بدورى فى المجتمع واعظاً أهدى الناس إلى طريق الحق والصواب . حتى أتيحت لى فرصة السفر إلى أمريكا لمواصلة الدراسة فى جامعاتها فحصلت على بكالوريوس فى الآداب وعدت إلى بلادى لأعمل فى مجال العلم والسياسة خدمة لأبناء وطنى .

والآن . وبعد أن أصبحت شيئاً فى بلدى أرجع بذاكرتى إلى البيئة التى نشأت فيها . والتى لم يكن فيها ما يشجع على العلم . فلا أستطيع أن أخفى شعوراً بأننى واحد من هؤلاء الذين اختارهم الله للقيام بعمل إيجابى فى مجتمعنا الإفريقى . ولا يسعنى إلا أن أرفع صوتى لأوجه إلى الرب الذى غمرنى بكل هذا الفضل هذه الكلمات :

من أعماق الرمال الدفينة رفعنى
وبيديه الرقيقتين الطيبتين انتشلنى
من ظلام الليل وعتمته إلى وضوح الضوء وبهجته .

أوه شكراً لاسمه لأنه هدانى .

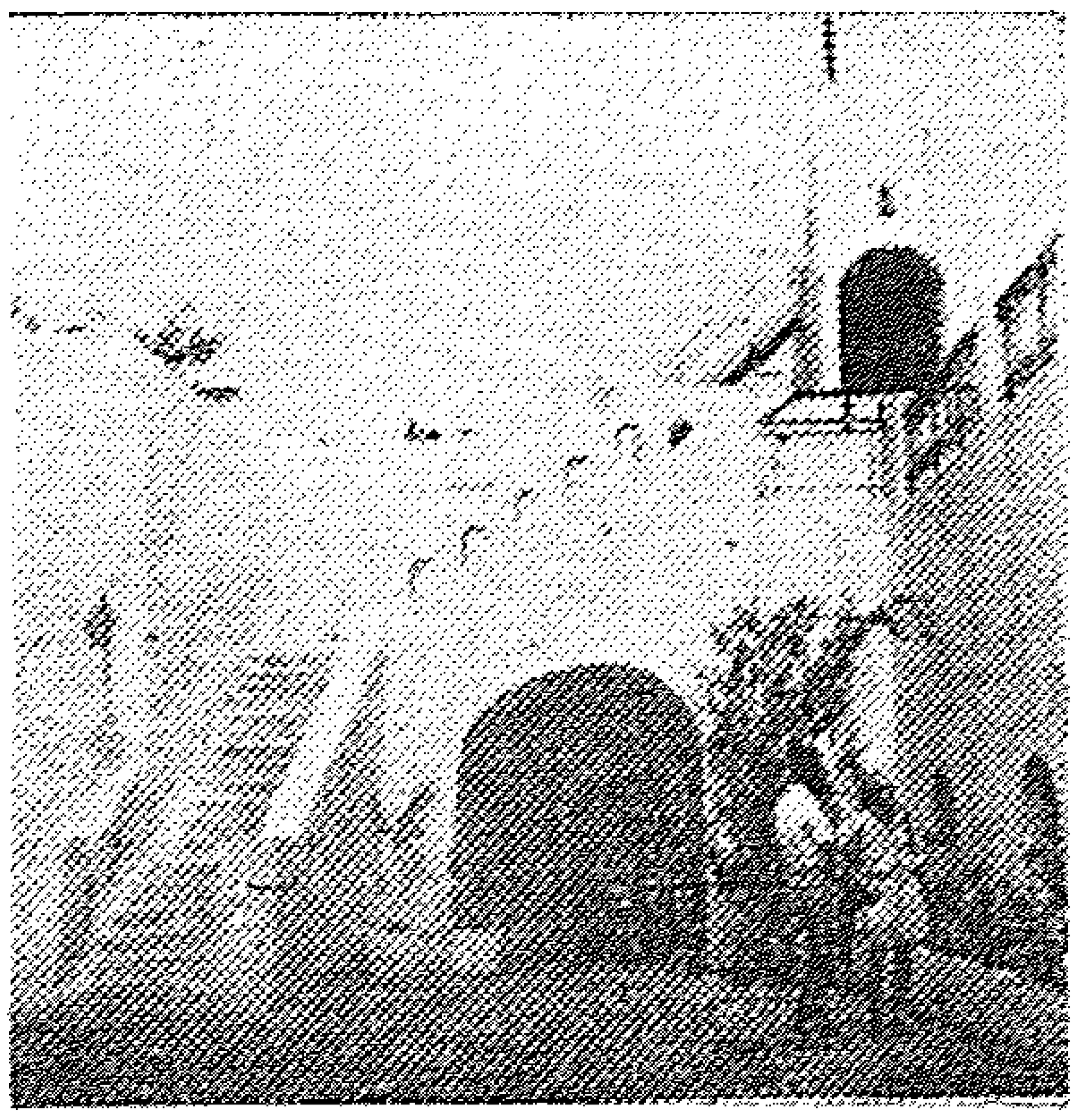

من وحي أفريقية

«مدينتي أعياد حب»

للأستاذ : حسن فتح الباب

مدينتي
تفتحت كل الزهور
وكل أم ودعت رفاق
ليلتقوا فى ظلك العملاق
وعانقت سماءك الأعلام
والأرض تحت وابل الأقدام
تصيح فى الأحرار لن تعود
أسطورة العبيد
واشتبكت سواعد الشعوب

* * *

مدينتي
يا ملتقى الحياة بالإنسان
رياح آسيا تحمل العبير والثمار
رياح آسيا فى الطريق
لن يرجع القرصان
أشلاؤه نهب النسور
فى الصين ، فى الفتنام ، فى كوريا
عظامه كفنها الجليد
تموت بلا وداع
بلا قرابين . . بلا زهور
وفى نوافذ الشروق
وجه غلام أسود صبوح
يدق باب الشرق للجموع
ويمسح الدموع
ودوت الغابات والأنهار والجبال
بلعنة الحياة للبغاة
وصيحة السجين بالجلاد
واحترقت مناجم من الغضب
والموت كالإعصار ، كاللهب
يذرو معاقل الطغاة
ويصهر الأغلال والحجب
ماد السفين فى الخضم
وانفجر البركان بالحمم
يهدر كالنذير :
إفريقيا تمردت
إفريقيا تثور
وخضب المياه طائر جريح
نمت على دمائه البذور
واساقط المطر
وانطلق الرعيان للسفوح
لا موت ، جفت الدموع

* * *

مدينتي
ما أروع اللقاء
وضجة السواعد السمراء فى الأفق

وفى المدى صدى هدير
مصانع تدور
ورقة النوار فى الحقول
تضوع بالعبير
ويرتمى عصفورها على الشفق
طفل نزق
مدينتى تهاجر الطيور
إلى شتائها الضحوك
أوراقها لا تعرف الخريف
مدينتى ربيع
الشمس فى المروج لا تغيب
تسبح فى ومض العيون السود
فى قطرة العرق
ويمسك الأطفال فى مياهها القمر
مدينتى تهوى القمر
تحيى أماسى السمر
تعب أنفاس السحر
مدينتى أعياد حب
مآزر هفهافة تطير
والزهر فى العقود كالنجوم
وموجة العيون تغمر الأفق
أى الوجوه أقبلت
أى الحياة لوحتها سمرة الجنوب
وصفرة الشعاع فى الغروب
أى الوجوه شفها برح الكلال ؟
جاءت تحيى عصرها الأبناء
وتحت أقواس انتصار العائدين

تدفق النهر العظيم بالوفود
من قمم الجبال ، من مشارف الوديان
من يانع الجزر
من وهدة الشعاب بين الغاب والنخيل
من مشرق الضياء فى مرافىء البحار
من ملتقى السحاب بالجباه فى التلال
من هزة الزلزال ، من تمرد البركان
من صرخة الجياع بين اللص والطوفان
من مطلع الثوار ، من مغارب الغزاة
مواكب ، مجامع ، حشود
تشيد فى مدينتى جسر انتصار
وتنثر الأنوار فى الأفق
مدت سواعد ، وأشرقت عيون
دوت أناشيد الجموع
رفت حمائم السلام للبشر
وأينعت حدائق الحياة
كل الرفاق يعملون
كل الصغار يحلمون
كل الضحايا يسألون
دماؤنا فى الأرض لم تجف
فلتضربوا على يد الجلاد
ولتشرق الحياة للأجيال :
لا موت بعد اليوم
لا طفل يحترق
لا نار ، لا غبار ، لا دمار
لتنطلق مواكب الشعوب فى شواطىء البحار
لتتحد منابع الأنهار
ويولد ابن الأرض من جديد

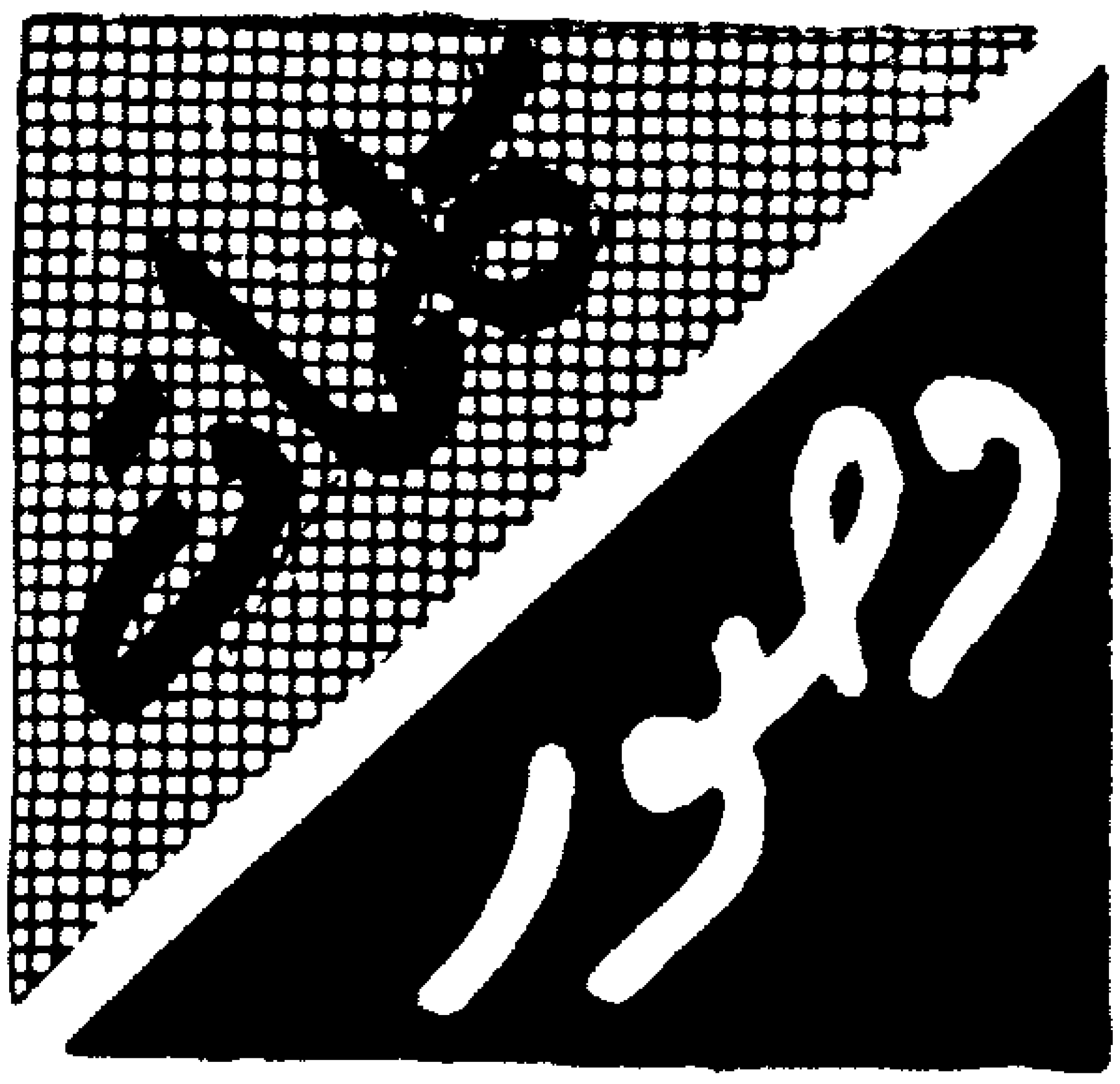

تهنئة :

أصبحنا نشارك الآن القارة فى جميع أفراحها وآلامها . ذلك لأنها جبهتنا الخلفية ، وكأنها تضعنا فى مكان أثير فى قلبها . ولأن حدودنا الثقافية المخلصة تتغلغل فى أعماقها ، ولأننا نقف موقفاً مشرفاً من قضاياها ليس فقط ، على طول الشريط المائى الذى يمدنا بالحياة ، ولكن فى كل مكان بها مهما كان هذا المكان مقيداً بالمستعمرين ، والمستغلين ، والمؤمنين بالتفرقة العنصرية . . ثم أخيراً لأن القسم الجنوبى من جمهوريتنا يقف كالرأس فى الشمال الإفريقى .

ولقد كان من المناسبات الطيبة التى عاشتها الجمهورية العربية هذه الأيام تلك المشاركة الطيبة بتهنئة الرئيس « سلفانوس أولمبيو » بمناسبة فوزه فى انتخابات رئاسة جمهورية توجولاند وها هو نص برقية الرئيس جمال عبد الناصر بالتهنئة « إن من دواعى عظيم اغتباطى أن أنتهز الفرصة السعيدة التى يتيحها لى فوزكم فى انتخابات رئاسة جمهورية توجولاند ، لأعرب لكم باسم الجمهورية العربية المتحدة ، وباسمى عن أخلص التهنئة القلبية راجياً لكم التوفيق والسداد فى مهمتكم ، ومتمنياً لبلادكم الصديقة أن تتبوأ مكانتها فى ركب الدول المتحررة ، وأن تعمل دائماً مع شقيقاتها الدول الإفريقية من أجل تأكيد حرية وسيادة القارة الإفريقية التى نتطلع جميعاً إلى ازدهارها ورفاهيتها وتحقيق استقلالها وتحريرها تحريراً كاملا .

وإنى لأبعث إليكم بأطيب تمنيات الصحة والسعادة راجياً لتوجولاند فى عهدها الجديد كل مجد وإسعاد » .

جوموكنياتا :

عقد الزعيم الكبير « جوموكنياتا » مؤتمراً صحفياً فى شهر أبريل . وقد حضر هذا المؤتمر ٦٠ من مراسلى الصحف ، والإذاعة ، والتليفزيون ، ويعتبر هذا المؤتمر أول مؤتمر له ، بعد عام ١٩٥٢ ففى هذه الفترة تنقل بين السجن ، والنفى ، وتحديد الإقامة ، ومما يجدر بالذكر — أنه وهو الشيخ العجوز — لم ينس أنه يعبر عن كل آمال شعبه ، وأن شعبه جزء كبير من الكيان الإفريقى الكبير الذى ستراه الأيام المقبلة متحداً ، فلم يساوم فى حديثه على مهادنة الاستعمار ، ولم يذكر أيامه فى كينيا بالخير ، وإنما نراه يؤكد

حق الشعب وحريته فى أن يعيش وناصية الأمور فى يده . وأن ترد إليه أرضه التى اغتصبت . ومرتفعاته التى استلبت . وأن يحطم الحاجز المفروض على الإفريقيين فى المعازل . حيث يحاصرونه فى عنف وقسوة . لأن الذين يجب أن يحاصروا هناك هم هؤلاء البيض الغرباء . ولقد كان رده على الذين يكررون دائماً فى الصباح والمساء . وما بين الصباح والمساء أن جوموكنياتا يتوعد الرجل الأبيض . وأن من سياسته قتل الرجل الأبيض فى كل مكان من كينيا . حتى لا يبقى هناك وجه أبيض . كان رده على هؤلاء أنه ليس عدواً للبيض . وليس عدواً للأوروبيين . وإنما عدوه الحقيقى هو هذا النظام الاستعمارى البغيض الذى يدق كالمطرقة الكبيرة فوق قلب كينيا فى رتابة . وقسوة . وبلا أمل فى الانقطاع .

ولم ينس « جوموكنياتا » أن يحارب التهم الملفقة التى سارت به إلى السجن . وأن الحقيقة قد وضحت أكثر من مرة فى أن المقصود باعتقاله كان ضرب الحركة الوطنية هناك . والتمهيد لفترة تسرق فيه البلاد وتنهب مرة ثانية . بفهم من يرى أن من واجبه إعادة سرقة صاحب البيت الذى سيتغيب لعدة سنين . ثم يعود .

وقد شكا هذا الزعيم من سوء معاملته مع زملائه فى السجن . وأنه ظل ثلاث سنوات — مع زملائه — ينام على الأرض العارية حتى أصيب بضغط الدم والأكزيما . وأن الطعام الذى كان يقدم إليهم لم يكن كافياً . ولا يعطى الطاقات الحرارية لطفل . وأنه وزملاءه كانوا يشربون من بئر راكدة مماوءة بالجراثيم .

ثم أطال الحديث عن تحرر بلاده وعن إيمانه العميق بتحرر كينيا من الاستعمار والرأسمالية . وأن الشعب لن يقبل حكومة مفروضة عليه . لأن الكلمة الآن للشعب . والشعب فهم . ووعى . وأحاسيس بالحرية والكرامة قبل أن يكون مجموعة من الملايين .

. . تلك قصة المؤتمر الأخير لهذا الزعيم . وقصة البطل الإنسان الذى سمعنا صوته مسجلا فى المؤتمر الإفريقى الثالث بالقاهرة . وقصة الرجل الذى تحمل العذاب عن وطنه . والذى يصنع لبلاده فى منفاه اليوم فجراً — رغم تقدم سنه — بحماس الشباب !

التفرقة العنصرية :

من أخبار التفرقة العنصرية الأخيرة أن الدكتور ويليام فتزجون القائم بأعمال سيراليون فى واشنطن . قد امتنع عن خدمته فى أحد المطاعم الأمريكيه الخدم هناك . وذكروه بسواد بشرته . وأنه ما كان ليصح له أن يقتحم هذا المطعم الذى لا يستقبل إلا البيض . وما كان ليصح له كذلك أن يطمع فى أن يقف

أمامه رجل أبيض يسمع منه ما يريد من طعام ثم يقوم على خدمته . وقد كان الدكتور « وليام فتزجون » متفائلا حين أخرج إليه بطاقته التي تصرح بأنه يمثل دولة — استقلت فى هذه الأيام — وأنه حين يهينه يهن وراءه دولة تتفتح تحت شمس الحرية . وقارة تشق الطريق الآن إلى غدها بجد . وأمانة . وإنسانية

كان القائم بأعمال سيراليون متفائلا لأن التعليق على كلامه هذا لم يكن إلا تجمعاً للخدم البيض . ثم سخريتهم بلونه وحديثه فى الوقت نفسه . ودعوتهم له بأن يغادر مطعمهم . وقد كان يمكن الصمت أمام هذا الحادث لو كان يمثل حادثاً فردياً بين عدة أفراد مختلفين فى اللون . ولكن حين يكون هذا الحادث ثمرة سيئة لعلاقة الأمريكيين جميعاً بالسود فإنه يكون أمراً سيئاً للغاية . لن نخفف من وقعه اعتذار الحكومة . والمكاتبات الرسمية التي تدور حول عمليات الاعتذار . لأنه يجب أن يتلقى هؤلاء الذين يصرون على التفرقة العنصرية ضربة جماعية مفاجئة تغير سلوكهم . وتصرخ فى وجوههم بأن من العار أن يسخر خادم أبيض فى مطعم من رجل يحمل كرامة وطنه فى قلبه . ويحمل فى الوقت نفسه أكبر لقب علمى فى الدولة .

وقريب من هذا الخطاب الذى وصل إلى مندوب غانة فى الأمم المتحدة من أحد المواطنين الأمريكيين فى هذه الأيام يعيره فيه — بل يعير كل السود — بلونهم . وأن بلاده لم تعد تتحملهم لأنهم من آكلى لحوم البشر ! وقد نسى هذا المواطن الأمريكى الأبيض أن البيض فى إفريقية هم الذين أكلوا لحم وكرامة البشر هناك . وأنهم أحاطوا بالقارة من كل مكان . ثم حولوها إلى قدر كبير أوقدوا تحته نيران الفتن . والمعاهدات . والاستثمارات . وحركات التبشير حتى تم لهم تماماً ، إنضاج البشر بها . ثم انهالوا على القارة استنزافاً . وسرقة . وتصديراً . كما انهالوا عليها كذلك قتلا . . وإذا كان بعض المؤرخين يذكرون أن « الأكل » متطور عن « القتل » لأن الإنسان فى أول أمره كان يقتل ليأكل . فإن هذه الحقيقة تنطبق على البيض الذين قتلوا . ثم أكلوا القارة الإفريقية . ورغم أنها استخلصت . وتستخلص الآن بقاياها من أفواههم . إلا أن الحقيقة تبقى دائماً . . حقيقة قتل إفريقية والتهامها !

الاستعمار الجديد :

الاستعمار الجديد مصطلح جديد فى ميدان السياسة الإفريقية . وقد وضّح هذا المصطلح الوزير الغينى « عبدالله ديالو » الذى كان سكرتيراً للمؤتمر الإفريقى الثالث . فقد قال :

إن الخطر الداهم الذى يهدد إفريقية الآن هو الاستعمار الجديد . إنه أقوى من الاستعمار القديم لأنه استعمار مقنع

بلا جنود وسلاح . إنهم يعلنون استقلال الدولة ، ويجلون عنها بسلاحهم وجنودهم . ولكنهم يسيطرون عليها تماماً ، باحتكار التجارة . واحتكار العلم والسيطرة على اقتصادياتها . وتقديم المعونات المشروطة التى تربط البلاد بالمستعمرين القدماء . ومن المؤكد أن هذه المعونات المشروطة تقود إلى هوة الاستعباد الدائم .

وليس هذا هو الاستقلال لأن الاستقلال ليس مجرد علم يرفع . ونشيد يعزف . وإنما الاستقلال الحقيقى هو أن يتحرر الشعب والدولة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً . وهذا ما يجب أن تسعى إليه شعوب إفريقية لتصون نفسها وحرياتها .

وأمامنا مثل واضح تحتذى به شعوب إفريقية هو مثال الجمهورية العربية المتحدة التى تنبع نظمها من داخلها . وتصون كرامتها . وتحترم نفسها أمام قوى الصراع بين المعسكرين الشرقى والغربى .

.. هذا هو « الاستعمار الجديد » **وتلك هى خطورته التى لمسها الواقع الإفريقى ، بل قد اكتوى بنارها لأنه رأى باسمه اتحادات تقام عنوة ما دامت هذه الاتحادات تحقق مصالح المستغلين ، ورأى باسمه اتحاد مالى يحل لأنه اعتبر نقطة وثوب للتحرر الشامل فى غرب القارة . كما رأينا باسمه دولا فى إفريقية مستقلة تسير فى** فلك السياسة الفرنسية ، حتى لقد صوتت هذه الدول الإفريقية فى الأمم المتحدة ضد دول إفريقية رغبة فى إرضاء فرنسا . وسيراً فى تيارها العام .

ولكن إفريقية تكشف فى كل يوم أعداءها ، وتضرب فى كل يوم كذلك تجمعاً من تجمعات الغدر والخيانة . وإذا كانت قد قضت على الاستعمار فى شكله المتحجر القديم ، فإن الغد يعدها بتحطيم هذا الاستعمار الهلامى « المتسرب » الذى ينفذ من مسام ضيقة داخل الحجم الإفريقى .. ثم يسحب الدم الذى يجرى فى هذه المسام . ويصدره إلى الخارج !

فالفرق بين الاستعمارين القديم والجديد أن الأول كان يجرى دماء القارة فى مجرى كبير واضح أمام كل الأعين . أما الثانى فيقوم بالمهمة نفسها ، ولكن من داخل خيوط رفيعة تتمثل فى الخونة ، والرجعيين . والشركات . وجمعيات التبشير . ذلك لأن من يقف أمام الشلال فى قوة وإصرار يستطيع أن يقف أمام خيوط الرزق والدم الضئيلة التى تنزف من الكيان الإفريقى

وشهد شاهد :

الضمير الإنسانى لا يمكن أبداً أن يموت إلى الأبد ، وكثيراً ما يتغلب الشر . وتصبح أمة مجموعة من الاعتداءات . وحزمة مجموعة من الشر بالنسبة إلى أمة أخرى ، ولكن

بين قوى الظلام هذه يسطع نجم صغير متضائل ، هو « نجم الضمير » . ومن هذه النجوم التى تظهر بين الحين والحين . وربما كانت تظهر فجأة ثم تنطفئ . أو تستحيل إلى قوى للشر مرة أخرى . ولكن المهم أنها لمعت فى فترة حالكة .

ومن هذا قول القائد الفرنسى الكونت « دى هيريسون » فى كتاب إفريقية الثائرة منددا بالظلم الواقع على الجزائر « فظائع لا مثيل لها : أوامر بالشنق تصدر من نفوس كالصخر يقوم بتنفيذها جلادون قلوبهم كالحجر بالرمى بالرصاص أحياناً . وباستعمال السيف أحياناً أخرى . فى أناس مساكين جل ذنبهم أنهم لا يستطيعون إرشادنا إلى ما نطلب إليهم أن يرشدونا إليه !

إنى فى الواقع لأشك فى شرعية احتلالنا لهذه البلاد . فإن للقبائل حق الأولية الذى لا مرية فيه فى المعيشة بين ديارهم كما هو حالهم منذ أجيال مضت ويبدو لى أن العرب لم يسيئوا التصرف فى معيشتهم هنا ما داموا يحكمون أنفسهم بقوانين ديمقراطية صالحة .

ونحن إنما نقسو عليهم لا لشىء إلا لأننا أقوى منهم » .

ولكن ضمير هذا القائد الفرنسى سرعان ما ينطفى . ويستحيل إلى رماد وينضم إلى قوى الغدر والظلام بعد ذلك حين نراه يقول « حيث آلت لنا السيادة على هذه الديار فقد وجب علينا تطبيق القوانين القاسية فى حربنا ضد الأوباش ووجب — للقضاء على هؤلاء الثوار — هدم أوكارهم . ولذلك يتحتم إشعال النيران فى البلدة من أقصاها إلى أقصاها » .

وهكذا يمكن للإنسان أن يكون خيراً بل أن يكون الخير نفسه ، وأن يكون شريراً بل أن يكون الشر نفسه ، وأن يتردد أحياناً بين الخير والشر . ثم يندمج تماماً فى قوى الشر . ومن هذا الصنف الأخير الإنسان — ولا داعى لكلمة الإنسان هذه — القائد الفرنسى دى هيريسون !

المعرض الزراعى :

لقد حفل المعرض الزراعى بالقاهرة بأكثر من لقطة جديرة بالاهتمام . فقد عرضت فيه بعض الدول الإفريقية بعض مظاهر الحياة الزراعية هناك . وعملية المشاركة هذه تعطينا صورة عن القارة المتحررة التى كانت لا تعرض مظاهر التقدم بها من قبل إلا فى معارض المستعمرات التى كانت تقام فى إنجلترا أو فرنسا ، أو البرتغال ، أو بلجيكا ، أو أسبانيا . أما الآن فهى تقدم نفسها بنفسها ، وتعرض مظهرا من مظاهر النمو والتطور فى البلاد ، ولقد كانت كانت ظاهرة طيبة أن نرى من ضمن الدول المشتركة فى المعرض المغرب . وغانة ، والسودان . بالإضافة إلى الجمهورية العربية المتحدة . ولن يؤلم

القارئ هذا العدد المحدود . ما دام في هذا العمل خطوة إلى الأمام . حتى ولو كانت خطوة مترددة ! فالمهم أن نسير . وأن نتحرك !

ولقد كان جميلا من جمعية الفنون الجميلة أن تقيم معرضاً فنياً لها بالمعرض كذلك . والجدير بالذكر أن هذا المعرض لم ينس الأحداث في القارة ولم ينفصل عن القوى التحررية النامية على امتداد النيل . وداخل القارة فقد رأينا لوحة بنت النيل للرسام جارونيان .

وعروس النيل لحسن الأعصر . وبنت البواب لشريفه فتحى . وغابة لفرانتى ماريو . ولوموميا والبشرية لمحمد حسين عيسوى . وابن إفريقية الشهيد لكامل جاويش . وحقاً إنها لمحة من الفن جديرة بالاهتمام والإشارة .

كمال الدين صلاح :

وافق شهر أبريل مقتل الشهيد كمال الدين صلاح الذى لاقى ربه فى الصومال ، ولعل خير ما نقدمه فى هذا المجال هو عملية استرجاع ذكرياته التى قام بها الدكتور يحى الخشاب الذى ذكر أنه عرف كمال الدين صلاح طالباً فى كلية الحقوق منذ عام ١٩٢٨

كأحسن ما يكون الطالب الذى يعنى أول ما يعنى بأداء واجبه الجامعى . وكيف أنه كان مبرزاً فى دراسته . مواظباً عليها ، مؤدياً لها حق الأداء . وكان فى الوقت نفسه معنياً بأمور لم تكن مألوفة فى ذلك الوقت ، مثل اهتمامه بفكرة الطلبة الشرقيين ، وأنه اشترك فى أعوام ١٩٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ فى أن يجمع هؤلاء الطلاب جميعاً فى مؤتمر عام . ليتحدث بعضهم إلى بعض . وليعرف بعضهم مشكلات البعض الآخر . فقد كان كمال الدين صلاح يعنى إذن بأفكار كبيرة . وكانت من غير شك سابقة لعصره .

وقد تخرج « كمال الدين صلاح » واشتغل بالحياة السياسية فى الخارج فلم ينقطع عن القراءة المثمرة الجادة ، فلما عهد إليه أن يكون عضواً فى مجلس الوصاية من قبل هيئة الأمم المتحدة فى الصومال كان يعرف كل شىء عن الصومال . كان يعرف أن هذه البلاد كانت مرتبطة ارتباطاً عاطفياً ووثيقاً بقدماء المصريين ، وأن نقوشاً فى الدير البحرى بمصر تذكر أن الملكة « حتشبسوت » كانت ترسل سفناً من مصر محملة بالبضائع إلى بلاد « بونت » وأن « رمسيس الثالث » كان يعنى أشد العناية ببلدين هما : الصومال ، وشبه جزيرة سينا .

وكان كمال الدين صلاح يعرف أن العرب كانت لهم معرفة بالصومال ، وأنهم كانوا أسياداً للبحر قبل الإسلام وبعد الإسلام ، وأن هذه السيادة لم تخرج من أيديهم إلا فى القرن الخامس عشر الميلادى . وأن بلاد الصومال بلاد عربية . وأن بلاد أكسوم كانت

كذلك عربية خالصة ، وأنه فى بعض الفترات كان ملك الصومال ملكاً عربياً خالص العروبة . وكذلك ملك أكسوم . ثم إنه كان يعرف أن صلة بلاده لم تنقطع صلاتها بالصومال . والبلاد الإفريقية الأخرى إلا فى القرن الخامس عشر . وبالتحديد عام ١٤٨٣ حين استطاع « فاسكو داجاما » أن يستغل مرشداً بحرياً هو شهاب الدين أحمد بن ماجد فى أن يعرفه الطريق . لأنه كان يعرف ما يسمى «بالروزنامة» أو بعبارة أخرى دليل البحر .

وبهذا الفهم الواعى لمدى ارتباط هذه البلاد بمصر بصفة عامة . والعروبة بصفة خاصة فكر « كمال الدين صلاح » وعزم على أن يقف بجوار هذه البلاد مهما كانت الظروف . ومهما كان الجـو معتماً بالسحب الإيطاليـة ، والأمريكية . والأثيوبية . والفرنسية . ومع أن نهاية هذه الوقفة كانت معروفة للناس من حوله ، وله نفسه ، إلا أنه آثر ألا يخون قضية الشعب الصومالى فى بلاده المحتلة والمستنزفة .

« وبكل أسف ظن الجهلاء أن مقتل كمال الدين صلاح سيوقف هذه القوة . وسيقضى على هذا التيار . ومن قبل قتل أبو لؤلؤة المجوسى عمر بن الخطاب فاتسعت الدولة الإسلامية بعد عمر ، وفتحت فارس كلها . ودخل الفرس كلهم فى الدين الإسلامى » .

وها هو الصومال الآن ، بل إفريقية كلها تدخل فى دين الحرية !

ندوات إفريقية :

تردد فى القاهرة كثير من الأصوات المخلصة التى تناصر القارة الإفريقية . وتلقى الضوء على قيمها . وحضارتها . وفى الوقت نفسه تكشف المؤامرات . وقطع السحاب التى تتجمع . ثم تتوارى . ثم تتجمع وهكذا فى السماء الإفريقية .

ومن هذه الأصوات التى ارتفعت تلك الأصوات التى احتفلت فى الرابطة الإفريقية فى ١٥ أبريل عام ١٩٦١ بيوم القارة . ولقد كانت هذه الأصوات مكونة من الأستاذ عبدالعزيز اسحق . والدكتور حسين خلاف . ومندوبى مالى . وغانة . وروديسيا . وجنوب إفريقية .

كما أقامت منطقة القاهرة الجنوبية بقاعة الجمعية الجغرافية المصرية ندوة بعنوان « الندوة الإفريقية » تكلم فيها مندوبون من غانة . وغينيا ، وكينيا . كما تحدث الأستاذ عبدالله التل . والدكتور عبد العزيز كامل ، والأستاذ عبده بدوى .

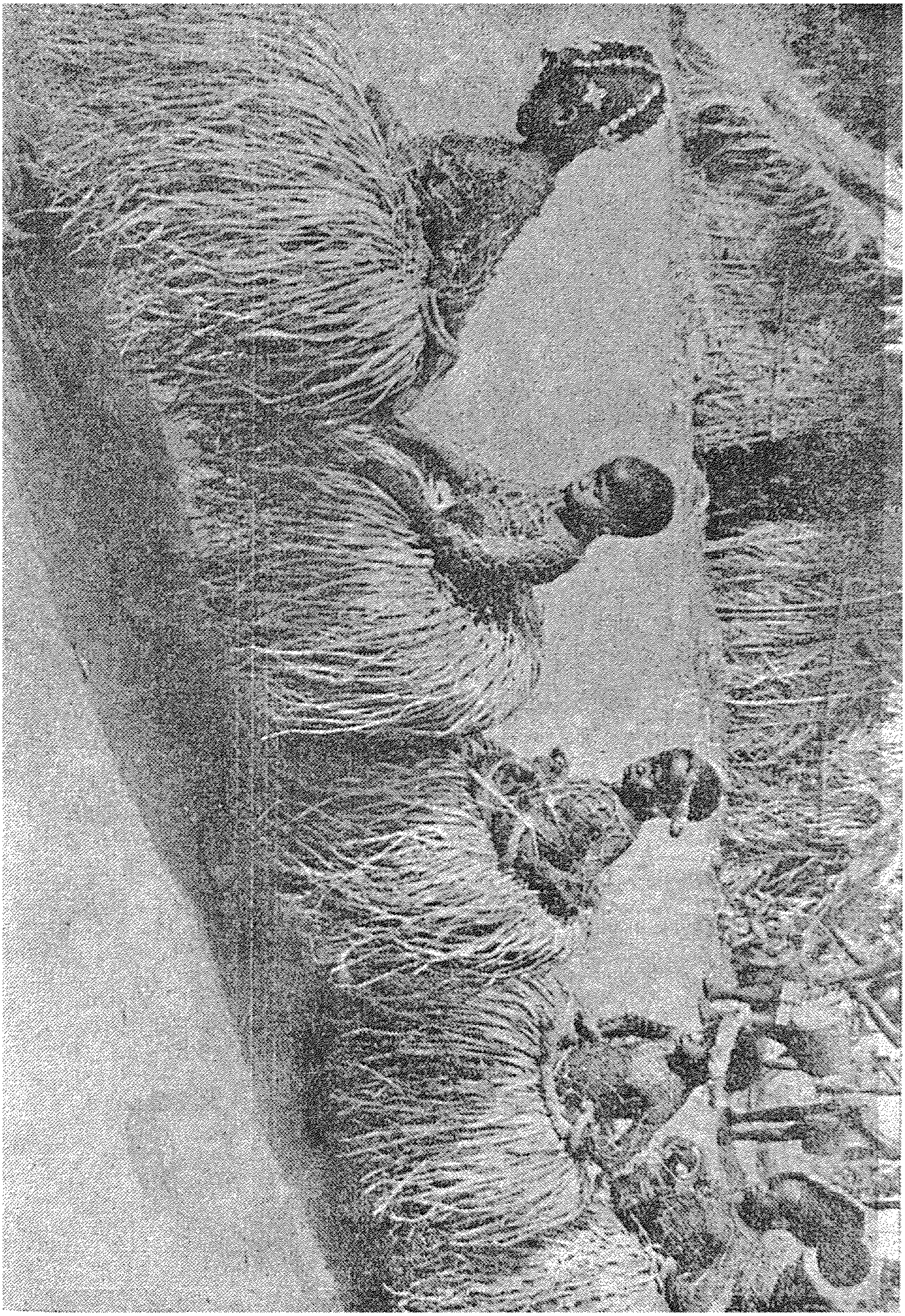

جولة مع الزعماء الافريقيين

بقلم : هدى هنرى

كان المؤتمر الإفريقي الثالث فرصة سعدت فيها القاهرة برؤية كثير من زعماء إفريقية . ودور هؤلاء الزعماء أنهم لم يعيشوا على هامش الحياة السياسية فى بلادهم . وإنما كافحوا ووقفوا فى وجه الطغيان ، وتعرضوا للسجن . والنفى . والتعذيب . فهم حين يقدمون إلى القاهرة يحملون معهم كفاحهم ، وذكرياتهم عن شعبهم ، وأملهم فى الغد المشرق لإفريقية .

وقد وجهت لعدد منهم بعض الأسئلة التى تشغل الأذهان فى الوقت الحاضر

وكان السؤال الأول لتوم مبويا :

س : ما مصير « الأرض العالية » والمستعمرات الصغيرة للبيض فى كينيابعد الاسقلال ؟

ج : إن من حق شعب كينيا أن يكون له حق الأولوية فى التمتع بأرض بلادهم ، ولكنا — فى الوقت نفسه — لا نريد أن نأخذها من الأوروبيين عنوة ، ومن هنا فسنتبع سياسة التعويض .

س : كيف تبعد خطر الحرب الباردة عن إفريقية ؟

ج : من صالح القارة ألا تكون مسرحاً للصراع بين الكتلتين المتنافستين فى السياسة العالمية ، وهذا يعنى أن نكون فى حذر فى علاقاتنا الاقتصادية ، وألا نتقبل المساعدات المشروطة . على أن الأمل الوحيد فى البعد بإفريقية عن هذا الصراع يمكن أن تقوم به الأمم المتحدة إذا أرادت مزيداً من السلام العالمى .

وسألت الشاعر « ماريو دى أندرادا » زعيم حركة التحرر بأنجولا

س : ما موقف أنجولا اليوم . من السياسة البرتغالية ؟

ج : إن البرتغال تعتبر من الدول الأولى التى اشتركت فى تدمير القارة نفسياً ، واقتصادياً . وعلى الرغم من أنها أحاطت أنجولا بستار حديدى إلا أن الشعب حطم هذا الستار فى الداخل واستطاع أن يقدم قضيته للضمير العالمى . ولم يعد هناك أمل لبقاء البرتغاليين ، فقد قامت الثورة ، وفهم الشعب نفسه ، ولن يرضى بالحرية بديلا .

س : ما دور المثقفين الإفريقيين فى عصر الانطلاقة الإفريقية .

ج : لقد كان المثقفون وراء كل حركات البعث فى كل القارة . ثم بمرور الوقت أخذوا دوراً قيادياً فى

توجيه السياسة التحررية ، وبقى عليهم وقد رفعوا أعلام الحرية فى كل مكان أن يرسوا الثقافة الإفريقية . وبجعلوا منها قوة دفع على طريق الحرية . فالثقافة هى خير حارس للحرية .

وسألت « كانياما تشيومى » سكرتير حزب « مالاوى » فى نياسالاند .

س : لماذا يعارضون فى الاتحاد القائم بينكم وبين الروديسيتين .

ج : إن الاتحاد شئ جميل بين الدول المستقلة التى تستطيع أن تنبع سياستها من ضميرها ، ولكنه بين الدول التى تتفاوت بينها السيطرة الاستعمارية يشكل خطراً على الاستقلال بين هذه الدول . فهو بالصورة التى تنفذ حالياً ضد الشعب ، وضد مستقبله

وسألت « نانا موهومى » من جنوب إفريقية

س : ما دور التفرقة العنصرية عندكم ؟

ج : لقد سرق البيض أرضنا . وحريتنا . ولكنا نحطم الآن القبضات التى تضغط على مستقبلنا ، وتقيد خطواتنا فى أرضنا . وتحدد إقامتنا فى بلادنا ، ومع هذا فنحن — مع العالم أجمع — نقف بصلابة ضد التفرقة العنصرية . ونحن نحيي الذين طردوا دكتور فيرفورد من الكومنولث .

وسألت « كاينو » الذى كان وزيراً للصناعة فى كينيا

س : لماذا قدمت استقالتك !

ج : لن أقبل الاشتراك فى حكومة لن يقف على قمة تنظيمها الزعيم « جوموكنياتا » فبه تسترد البلاد كرامتها وبدونه لن تحس البلاد بأنها تعيش ، لقد كان الحاكم يتصبب عرقا كلما وجه إلى تحية لأنه لم يكن يتصور وصول الوطنيين إلى مناصب الوزراء ، والآن يجب أن نتصبب عرقاً — كذلك — ما دام يوجد فى البلاد حاكم أجنبى .

وسألت « موسازى » رئيس حزب «المؤتمر الوطنى فى أوغندة »

س : لقد حدد عام ١٩٦٠ لاستقلال بلادكم فلماذا لم يعلن استقلالها ؟

ج : إن الحرية لا تمنح بالوعود . والكلمات الجوفاء . ولكنها تنتزع بالتضحيات والدماء .

وسألت « زيبرى مستميثو » رئيس حزب مؤتمر تنجانيقيا الوطنى الإفريقى .

س : ما أساليب الاستعمار الجديد !

ج : سنحصل على استقلالنا الداخلى فى مايو ١٩٦١ وسنصبح دولة مستقلة فى ديسمبر عام ١٩٦١ . وسنحاول أن نجنب بلادنا الوقوع تحت السيطرة الاقتصادية ، والدعوة إلى إدماج المستوطنين فى المواطنين كعلاج لمواجهة موجة القومية التنجانيقية ، والدخول فى حلف شرق إفريقية .

.. هذه بعض الخطوط التى تلقى ضوءاً باهراً على السياسة الإفريقية ، والأمل كبير فى السير بالقارة إلى التحرر الشامل ، والغد المزدهر .

كتاب الشهر

النيل الأبيض

بقلم ألان مورهيد

عرض وتقديم عميد (ا . ح) محمد عبدالفتاح ابراهيم

الكتاب والكاتب :

كتاب جديد برز ضمن مجموعة الكتب التى أصدرتها شركة هاربر الأمريكية لسنة ١٩٦٠ ، والكتاب لكاتب فحل ، كاتب تتوافر فيه ملكة القصاص الهادف ودراية المؤرخ الدرب ؛ والكتاب يعنى بإفريقية السوداء ، ولكن من ناحية خاصة لأنه يقدم قصة الرجال الذين ربما تكون قد خلصت نواياهم فأفنوا عمرهم فى البحث عن منابع النيل وكشفوا عن أجزاء كبيرة فى قلب القارة ، وقدم إلى جانب هذا قصص حياة المحاربين والسياسيين الذين جاءوا بالحضارة إلى قلب إفريقية إن كانوا قد صبغوا رمالها بالدمع والدم ، وسطروا صفحات من المآسى والآلام ، ولكنهم مع هذا قد فعلوا شيئاً يبقى مع الزمن ، مهما كانت نظرات الناس إلى النتائج والعقبات وإلى تطور الأحداث فى القرن الأخير .

والكاتب « ألان مورهيد » من القلائل من غير الأمريكيين الذين سجل تاريخ حياتهم فى قاموس الشخصيات Who Is Who إصدار (دار ألان نلسون ماركيز) للنشر بشيكاغو ضمن صفحات الطبعة الستين من القاموس لسنة ١٩٥٩

ولد « ألان مورهيد » فى ملبورن من أعمال استراليا يوم ٢٣ من يوليو سنة ١٩١٠ لريتشارد مورهيد ولويزا أودجرثون ، تعلم فى سكوتش كوليدج بملبورن ١٩١٥ — ١٩٢٦ ، وحصل على الماجستير من جامعة ملبورن سنة ١٩٣١ ، تزوج لوسى ميلز فى العشرين من أكتوبر سنة ١٩٣٩ ، عمل بلندن بين محررى الديلى اكسبريس ١٩٣٧ — ١٩٤٦ ، وأسهم فى تحرير عدة مجلات أمريكية كثيرة مثل نيويوركر ، ساتردى ايفننج — ايف — بوست ، ولايف . له عدة مؤلفات قيمة ، كما نال جائزة جريدة « صاندى تايمس » لأحسن المقالات الصحفية سنة ١٩٥٦ .

على أن الاسم الذى أطلق على الكتاب يتطلب إيضاحاً ، وتحديد « النيل الأبيض » جاء نتيجة أن الرجل قد عنى العناية كلها بهضبة البحيرات والأرض فى جوارها ، وأكبر ظاهرة جغرافية بها هى بحيرة فيكتوريا ، وروافدها التى تمد النيل بمياهه التى

تكفى للسير به فى قوة حتى منطقة البحرين ، وهى المنطقة التى يسير فيها النيل الأعظم حاملا اسم النيل الأبيض حتى ملتقاه بالنيل الأزرق القادم من الهضبة الحبشية فتصل إلى النهر الكبير المياه التى تمكنه من السير حتى مصبه فى البحر المتوسط . وهكذا خرج الرجل باسم كتابه محدداً بالاسم اتجاهات الدراسة ومنطقة البحث .

في التمهيد للبحث :

والواقع أنه فى منتصف القرن التاسع عشر كانت « منابع النيل » — على مايقول السير هارى جونستون — **هى** « أعظم سر بقى بعد كشف أمريكا » والوصول إلى العالم الجديد والاتجاه لاستثمار أرضه (العالم الجديد) ! ! ، ولكن لم يكن المحدثون أول من سار فى هذا الدرب واستهدف هذا الكشف ! !

كان الكثيرون من الرحالة قد ساروا مع مجرى النهر . وكان بتولمى Ptolemy الجغرافى قد رسم خريطة تصويرية للنيل ، ووضح منبعه من بحيرتين فى وسط القارة . وبقيت الشائعات لقرنين من الزمان تتحدث عن « ينابيع » وسط إفريقية ، وكان هدف رحلة « بورتون وسبيك » سنة ١٨٥٦ تحقيق التقارير التى تقدم أسطورة البحار الداخلية فى قلب القارة .

على أن الرحلة التى تقدمت للداخل مبتدئة من ساحل إفريقية الشرقى حققت نجاحاً ، وفى أغسطس سنة ١٨٥٨ (وهى سنة يجب أن نذكرها لأن رحالة آخر كان يجئ من الجنوب يتطلع إلى الهدف نفسه) . ففى أغسطس سنة ١٨٥٨ وقف چون هاننج سبيك على شاطىء بحيرة فسيحة فى قلب القارة ، وقد كتب عن هذا فيما بعد : « لم أعد أشك بعد ذلك فى أن هذه البحيرة التى أساحلها هى التى تغذى بالمياه ذلك النهر الكبير الأهمية » .

على أن الكشف الذى حققه سبيك لم يكذبه ويتحداه لإثباته زميله ريتشارد بورتون فحسب ، بل كذبه أيضاً نصف جغرافيى بريطانيا فى العصر الفيكتورى ، وقد بقى هذا التشكيك فى كشف سبيك قائماً حتى وصل هنرى ستانلى ، فى رحلة إلى أقاليم البحيرات سنة ١٨٧٥ - ١٨٧٦ وإذ ذاك انتهى ستانلى إلى قرار فى جانب سبيك .

ولكن ، ولو أن المسألة الجغرافية قد انتهت إلى حل إلا أن هذا الكشف تبعته حوادث خاصة بالسيادة على النيل اجتذبت انتباه الإنجليز لخمس وعشرين سنة أخرى . .

ويقدم « ألان مورهيد » فى كتابه اتصال (! ! !) الانجليز بالنيل الأعظم طوال النصف الفيكتورى من القرن التاسع عشر ، أى أثناء حكم الملكة ڤيكتوريا ذروة عصر الاستعمار البريطانى وقد جمع مورهيد كل مراحل التسرب البريطانى إلى وسط إفريقية وحوض

النيل . وقدم القصة التى تبدو فيها أسماء سبيك وبورثون وصمويل بيكر ودافيد ليفنجستون وستانلى وغوردون وكتشنر ولكنه يقدمها فى عرض أقرب إلى عرض سلسلة من المآسي والدراما أكثر مما يكون عرضاً للتاريخ .

كيف عالج الرجل موضوعه :

وقد قسم المؤلف كتابه إلى أربعة أقسام . وكان أهم ما فيها القسمان . . الأول والثانى عن « الكشف الجغرافى » وعن « استغلال هذا الكشف » .

قدم فى القسم الأول الفصول من ١ : ٧ متحدثاً عن سير الاستكشاف من زنجبار للغرب . وقدم فى القسم الثانى الفصول من ٨ : ١٠ فى الحديث عن استثمار نجاح عمليات الكشف الجغرافى ، وهو استثمار سياسى ، اقتصادى .

ثم عرض فى القسم الثالث لما أسماه ثورة المسلمين ، وهى الثورات ، الانتفاضية فى قلب القارة ، وهى برغم ما قد يكون لها من طوابع كانت ثورات نزاعة للتحرر أو الإصلاح . وشغل هذا القسم من الكتاب الفصول من ١١ إلى ١٧ ؛ ثم انتهى بالقسم الرابع الذى وسمه بعنوان « انتصار المسيحية » فى فصل واحد هو الفصل الثامن عشر بحملة كتشنر .

وقدم مع فصول الكتاب بعض رسوم تخطيطية معبرة ، كما قدم عدداً من المصورات والخرائط وخاصة للحملة على النيل ، وجاءت فى الكتاب بعض صور — لها أهميتها التسجيلى — لأنها تقدم بعض الناس ،الذين لم يكن الناس يعرفون قسمات وجوههم مثل السلطان سعيد برغش حاكم زنجبار ومثل الملك موتيسا ملك البوغندة ، كما قرر صور ليفنجستون وبيكر وستانلى والفريد رحمة واسماعيل وأمين ، ونفر من الناس الذين عاشوا فى ذلك العصر واتصلوا بالحوادث والأحداث التى عرض لها الكتاب .

وكان القسم الأول من الكتاب قد نشره فى سلسلة من المقالات بمجلة « النيويوركر » الأمريكية ، ثم جرى قلمه فى هذه المقالات بالتحوير ، والتعديل عند ما قدمها فى صدر كتابه ، وكان هذا القسم فى الواقع هو المادة الأصيلة للكتاب ، وكان الهدف الذى لأجله كان هذا الكتاب ،ما فى ذلك من شك .

« فلقد كان الأمر من البداية أكثر من مجرد البحث عن منابع نهر ، كانت الرحلة فى منتصف القرن التاسع عشر فى قلب إفريقية من الصعوبة بمكان إن لم تكن مستحيلة ، فالأرض والأحوال القاتلة المخيفة ، ثم المخاوف المثيرة ، لا من الحيوان فحسب ، بل من البشر الذين يعملون فى تجارة الرقيق ، كان هذا كله مجتمعاً يؤثر تأثيراً نفسياً كبيراً فى الرحالة المستكشفين ، على أن هذا من ناحية أخرى قد سبب إبراز أحسن وأسوأ ما فيهم ، ولهذا فقد حقق سبيك اكتشافه العظيم فى الوقت الذى كان فيه ريتشارد بورتون يقبع بعيداً فى المعسكر الذى اتخذ منه قاعدة لتحركاته » .

والواقع ، أننا لو نظرنا إلى الأمر من مختلف الزوايا لكان من الممكن اعتبار رحلة سبيك وبورثون رحلة ناجحة . فقد أمكن اكتشاف بحيرتين كبيرتين إحداهما ــ ولا شك ــ هي مورد مياه النيل الأبيض ، أو على الأقل المورد الرئيسي له ، ولكن كان هذا الكشف بالنسبة للرجلين فشلا شخصياً ، وما كان ممكن أن يكون نصراً مشتركاً ، انقلب إلى نزاع عنيف بين الرجلين المجهدين اللذين أوجدت تجاربهما في إفريقية الكثير من العقد النفسية فيهما . ولم تكن هذه العقد النفسية معروفة في ذلك الوقت وبهذا أخطأ الناس في الوصف الصحيح لها .

وفي زنجبار افترق الرجلان إلى الأبد . ووصل سبيك إلى لندن قبل بورثون باثني عشر يوماً ، وهو كإنسان بشرى يخضع للمؤثرات النفسية التي يخضع لها كل إنسان آخر قدم «العدالة» على « الكرم » . ومن ثم قدم تقريراً عن الكشف الذي حققه للجمعية الجغرافية . ولكن بورثون رفض نظريات سبيك وعارضها ، واعتبر بحيرة تنجانيقا هي المورد الذي يستقي النيل الأعظم مياهه منه .

وعلى حين ذهب بورثون إلى غرب إفريقية . عاد سبيك مع جيمس جرانت إلى وسط إفريقية سنة ١٨٦٠ لتحقيق ما انتهى إليه سبيك في رحلته السابقة عن منابع النيل . وسار الرجلان حتى الطرف البعيد للبحيرة ، وساحلها شمالا حتى وصلا إلى النقطة التي يخرج عندها النيل من بحيرة فيكتوريا ، ثم سارا شمالا مع النهر فعبرا السودان إلى القاهرة .

من سبيك إلى ليفنجستون :

كان من الممكن أن يتوقف المؤلف عند هذا الحد من الحديث ، ويعتبر الأمر قد انتهى واستقر فيما يمس وصول سبيك إلى بحيرة فيكتوريا وسيره مع جرانت شمالا على النيل ، مما أكد أن بحيرة فيكتوريا هي المورد لمياه النيل الأبيض . ولكن مورهيد يصحبنا معه في سير القصة لما جرى بين سبيك وبورثون ، ويصل بنا إلى سبتمبر سنة ١٨٦٤ عند ما جاءت « الجمعية البريطانية لتقدم العلوم » بالرجلين وجهاً لوجه ليتحاجا أمام الناس ، وسيستطيع الناس بعد أن يسمعوا وجهات النظر أن يحكموا لأيهما أو عليه .

على أن سبيك على ما يبدو كان يفكر في الأمر بعمق . وكان النقاش الذي سيقوم بينه وبين بورثون أمام جمع حافل من النظارة يشغله ، فهو أخبر بفصاحة بورثون ولباقته ، والمسألة في تقديره هو أكثر من لباقة وفصاحة ، ولكن لهذه الفصاحة أهميتها بالنسبة للجمع الحافل الذي سيشهد النقاش ، فالناس سينصتون في قلب لندن لنقاش يدور حول حقيقة مادياتها في قلب إفريقية على مسافة آلاف الأميال ،

فمن ذا الذى تتوافر له القدرة على الحكم الصحيح ، ومن يستطيع أن يحكم وأن يصدر قراراً عن أى البحيرتين ، الكبيرتين هى المورد الرئيسى لمياه النيل الأبيض ، بالطبع لا أحد . وشغله التفكير طويلا . وفر الرجل من قضاء الله إلى قضاء الله ، فقد جاءت النهاية تفوق كل ما كان متوقعاً ، ذلك لأن سبيك فقد حياته فى حادث أثناء نزهة للصيد ؛ وخلف موته خيبة أمل أكثر من أن تترك لوعة . وباتت القضية موضع تنازع فاستمر البحث من جديد

وكان سبيك وجرانت فى مسيرهما شمالا من بحيرة فيكتوريا قد قابلا صمويل بيكر وزوجته الحسناء عند غندوكرو فى فبراير سنة ١٨٦٣ . وكان الرحالة وزوجته يتبعان مسير النهر فى اتجاه مضاد من الشمال للجنوب واستمر الزوجان طوال السنتين التاليتين يتجولان فى المنطقة على فترات . وأطلق بيكر على المنطقة المجاورة لبحيرة البرت « حوض النيل العظيم » .

وقد سجل بيكر هذه الجولات التى لا هدف لها ولا قصد فى صفحات تعتبر طابعاً « فيكتورياً » أى من كتابات العصر الفيكتورى التى تقدم صورة جديدة «للجحيم » دانتى . فلقد قاسى الاثنان الأمرين من الملاريا . وأصيبت الزوجة اللدنة بضربة شمس أفقدتها الحس لمدة طويلة . وهاجمتها الوحوش الضارية . وبقيا لستة شهور أسيرين لدى زعيم إفريقى .

ولم يضف صمويل بيكر جديداً إلى المعرفة الجغرافية . ولكن حديثه عن هذه المخاطرات التى خاض غمارها هو وزوجته أثارت مشاعر القراء فى بريطانيا . ووجهت أنظار الناس إلى إفريقية بأكثر مما فعل سبيك. بل بأكثر مما فعل بورثون .

كانت الأنظار قد بدأت تتجه إلى قلب القارة وبدأ الناس يرون فى هذه المنطقة من إفريقية السوداء ما يعنيهم .. ما يعنيهم سياسياً وتجارياً وبشرياً ! !

وجاءت رحلات « دافيد ليفنجستون » و « هنرى ستانلى » بنهاية الفترة الهامة لتطور الكشف الجغرافى فى قلب إفريقية . وفى الوقت نفسه جاءت جولات ليفنجستون لسبع سنوات طوال بين سنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٧٣ خاتمة حياته ، فقد مات ليفنجستون قرب بحيرة (بانجويلو) فى روديسيا الشمالية أثناء تتبعه مجرى نهر (**اوالابا**) فى امتداد نهر الكونغو وهو يظن نفسه يتبع مجرى نهر النيل .

وقد يبدو ليفنجستون فذ الطابع فى سجل الرحالة الذين جابوا أرض إفريقية ، فقد كان الابن الثانى لرجل يتجر بالشاى . رجل مكدود ليس بمنجاة من الفاقة . وقد ترك ليفنجستون المدرسة صبياً فى العاشرة ليعمل فى مصنع للنسيج . واستطاع أن يدخر من أجره فى المصنع ما يكفيه ليتعلم

اللاتينية واليونانية ، ثم يدرس الطب فيما بعد ، وفى سنة ١٨٤٠ — وهو فى السابعة والعشرين من عمره — نال إجازة الطب وأتم دراسة الدين وقرر أن يعمل فى التبشير . ومن ثم أبحر فى العام نفسه إلى مدينة الرأس فى جنوب إفريقية ليعمل طبيباً مبشراً يعالج المرضى ويبشر بالمسيحية ، وبعد أربع سنوات عاد إلى لندن ليتزوج ابنة طبيب ورجع بها إلى إفريقية لتصحبه فى كل رحلاته حتى ماتت قبله وواراها التراب هناك .

وقطع ليفنجستون طريقه للشمال حتى وصل نهر الزمبيزى ، وهنا بدأت تداعبه الأحلام التى داعبت غيره . أحلام إيجاد طريق يربط شرق القارة بغربها ماراً بقلب القارة .

وسار ليفنجستون غرباً على نهر الزمبيزى إلى غاية ما استطاع . ثم اتجه للشمال بغرب حتى وصل (لاوندا) على الساحل الغربى للجنوب من مصب نهر الكونغو بأكثر من مائة ميل ، ثم عاد سيرته الأولى إلى نهر الزمبيزى واتجه شرقاً ، هذه المرة ، حتى وصل مصب نهر الزمبيزى على الساحل الشرقى للقارة ، ووضع بذلك تخطيط الطريق الذى اطمأن إلى إمكان استخدام للتجارة والتنقل عبر قلب القارة .

ولكنه كان تخطيطاً أولياً ففى مايو سنة ١٨٥٨ عاد من جديد إلى دلتا الزمبيزى فى حملة أصلح إعداداً ليستكمل التخطيط النهائى للطريق إلا أنه هذه المرة أدرك عدم إمكان الاطمئنان لنهر الزمبيزى . فليس من الممكن ضمان السيطرة على مياه النهر إذا ما ثار ، وغضب ، وفكر فى استخدام نهر شرى ، وفى رحلته هذه كشف بحيرة نياسا ، وكانت امرأته قد لحقت به إلا أنها لم تلبث أن مرضت بالحمى وماتت واندفع ليفنجستون فى غمرة هذه الصدمة القاتلة ليتمم رسالاته وليتناسى أحزانه ، ولكنه حتى سنة ١٨٦٦ لم يحقق شيئاً مما يستهدفه ، كان يعمل فى غموض المجهول . وحتى فى مسيره على نهر اوالا كان يظن نفسه يتبع مسار النيل كما قلت لك من قبل .

وكانت يوميات ليفنجستون فى السنوات الأخيرة من حياته سجلا مثيراً للعاطفة ، صفحات تصل إلى أعماق نفس كل من يطالعها ، رجل يسير فى وحدة قاسية بلا أمل ، بل بأمل أن تنتهى حياته فى إفريقية ، كانت القارة قد سحرته وكان الإفريقيون قد ملكوا عليه قلبه . ولهذا فإنه عند ما مات دفن الزميلان الإفريقيان اللذان عملا فى صحبته وسهرا على راحته ، واحتملا الكثير من العناء فى التجوال معه ، دفنا قلبه فى أرض القارة وحملا جثمانه لألف ميل حتى الساحل ليدفن مع أهله ، وفى بلده .

ستانلى وفتح الباب إلى قلب إفريقية :

وهنا يقدم مورهيد ، يقدم ستانلى على أنه أكثر هؤلاء الرحالة نجاحاً

وأكثرهم توفيقاً ذلك لأن رحلاته كلها نالت حظاً ونصيباً كبيراً من الدعاية والإعلان ، ففى رحلته الأولى إلى القارة سنة ١٨٧١ وجد الدكتور ليفنجستون الذى كان يبحث عنه چيمس جوردون بينيت أحد رجال جريدة النيويورك هيرالد ؛ وفى الرحلة الثانية التى استمرت لأكثر من ثلاث سنوات — بين ١٨٧٤ و ١٨٧٧ — قطع بحيرة فيكتوريا ، وأثبت بما لم يدع من سبيل إلى الشك أن سبيك كان محقاً ، وجال فى بحيرة تنجانيقا وأكد خطأ بورثون ، وسار مع مجرى نهر لوالابا حتى اتصل بنهر الكونغو ، ثم ساحل الأخير حتى وصل البحر الفسيح عند مصبه فى الاطلانطيق الجنوبى .

والواقع أن ستانلى لم يقاسى شيئاً من الآلام النفسية التى قاساها غيره ، ولم يواجه أى تدخل من جانب الأوروبيين ولا من جانب الإفريقيين فى تعقبه للدراسات الجغرافية التى قام بها ، بل تابع دراساته للمعرفة الجغرافية وكل الظروف المواتية فى جانبه ، ومن ثم كان ستانلى معبراً بين العصر الذهبى للاستكشاف فى إفريقية وبين عصر المتاعب الذى عرفه من جاءوا بعده من المستثمرين لنتائج رحلات الكشف الجغرافى .

ولم يقل مورهيد المستعمرين ، بل قال المستثمرين . . .

ولكن لماذا هذه المتاعب ؟

المتاعب وذيولها :

هنـــا يناقش « ألان مورهيد » المتاعب . فيقول بأنه مع فتح باب قلب إفريقية على مصراعيه . وبعد أن تم تخطيط مجرى نهر النيل من منابعه إلى أطراف مساره المعروف فى أرض السودان نشأت مشكلات جديدة . مشكلات إمبريالية . وتعقدات . سياسية .

وشغل الحديث عن هذا كل النصف الأخير من الكتاب ، فكأن الرجل — كما قلت — قد وقف النصف الأول من كتابه فى الحديث عن الكشف الجغرافى وقصته .

ولكن المؤلف يوجه اهتمامه كله إلى السودان وإلى الحوادث التى وقعت فيه وتأثير هذا فى منطقة هضبـــة البحيرات فى أحرج حقبتين من القرن التاسع عشر بين سنة ١٨٨٠ وسنة ١٩٠٠ .

ويعرض هنا كيف أن إتمام قناة السويس قد أوجد مصالح أوروبية جديدة . واهتماماً من جانب أوروبا بمصر وبالأرض التى للجنوب منها ، كما يعرض لقيام القومية الإسلامية نتيجة للغزو البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢ ، وما سببه هذا من تسطير قصة لا تنسى هى قصة فض الخرطوم على أهلها وذبح غوردون .

وإنى أذكر هنا أنى عند ما عرضت « للمهدية والمجتمع السودانى »

فى دراستى لإجازة الدكتوراه فى التاريخ الحديث . حاولت أن أربط بين فورة الإمام المهدى وحركة ، الإصلاح الدينى والاجتماعى فى السودان منذ قيامه حتى وفاته — رحمه الله — وبين سير مرحلة الاستعمار فى قلب إفريقية وهضبة البحيرات ، وكانت هذه المحاولة من جانبى ينقصها الوثائق فالكثير مما نشر عن سير حملة لوجارد وتطور الاستغلال الاقتصادى فى شرق القارة وقلبها إلى استعمار سياسى استغلالى هذا الكثير لم يخل من الغرض ولم يبرؤ من الاصطناع ، ولكن كتاب « ألان مورهيد » يقدم الاتجاه نفسه وإن كان هو لم يعن بتقديم الوثائق لأنه كتاب للمطالعة والبحث وليس دراسة لدرجة علمية تناقش فى محيط علمى خالصاً للعلم

على أن مورهيد فى حديثه عن السودان ومجريات الأمور فيه يسرف الإسراف كله فى قص مقاومة غوردون فى الخرطوم (١٨٨٤ — ١٨٨٥) ، ويناقش القصة على أنها دراسة للطابع الفيكتورى ، ولبطولة عصر الملكة فيكتوريا ، ويتابع بأسلوبه القصصى سرد المتاعب التى كانت تواجهها حملة النيل المتقدمة من الشمال لإنقاذ غوردون وشجاعة غوردون نفسه طوال الحصار ثم الحوادث الدامية التى صحبت دخول جيوش الإمام المهدى إلى الخرطوم ، وكيف وضعت رأس غوردون على فرع شجرة ذى طرفين ، وكيف ألقى بجثته فى فناء القصر .

ومع إعادة الاستيلاء على الخرطوم بعد خمس عشرة سنة بوساطة القوات التى كان يقودها الجنرال هنرى كتشنر الذى كان سلوكه، أو بمعنى أدق تصرفاته طوال الحملة مليئة بالقسوة وعدم الرحمة يختم مورهيد كتابه دون أن يحقق فى القسم الثانى منه ما حققه فى القسم الأول من توفيق ونجاح .

وينسب چيمس دوفى James Duffy المعلق الأمريكى عدم التوفيق هذا إلى المادة نفسها ولكن الواقع أن هذا إنما يرجع إلى أن استغلال الكشف الجغرافى يقف فى عزلة عن القصة الأصلية التى استهدفها المؤلف والتى كانت دعامة كتابه وهدف إخراجه ونشره ، كما يرجع هذا إلى أن الحوادث التى جرت فى السودان ، إنما كانت جزءاً من مشكلات سياسية أكثر تعقداً مما ظن المؤلف [illegible] ولم يكن من الممكن أن تنفصل عن غيرها [illegible] ولم يكن كذلك من سبب لأن يقتصر المؤلف حديثه على هذا الجزء من قلب القارة دون غيره [illegible]

لقد تنكب المؤلف — فى تقديرى — عند ما وقف بفصله الأخير ناظراً لهذه الخاتمة لحملة النيل على أنها انتصار للمسيحية . مع أن الأصل أنها انتصار للاستعمار وللسياسة الإمبريالية ، ولكن تنكبه هذا قد جعله يتنكب بالصورة التى قدمها بحثه أن الخليفة عبد الله التعايشى ملقى فى مكان المعركة حيث مات فقد خرج إلى وجهة اعتقد أن كتابه كان يكون أصلح وأجمل لو خلت منه .

« عبد القادر الجزايرى »

urth Year

Issue No. 43 May 1961

Nahdatu IFRIQUIAH

PRICE . P.T. 3.

96 pages

IN THIS ISSUE

- Background of the Events in Cuba.
- The Story of Sierra Leone.
- Portuguese Imperialism in Africa.
- Portuguese Guinea.
- Book Analysis.